الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



رياض الصلح

والنضال من أجل الاستقلال العربي

باتريك سيل

ولدَ **باتريك سيل** في إيرلنده الشمالية وتلقى علومه في كليتي باليول وسانت أنتوني، أكسفورد. عمل لوكالة رويترز للأنباء لمدة ست سنوات، ثم لاثنتي عشر سنة في طاقم الأوبزرفر كمراسل في الشرق الأوسط، وباريس وكمراسل متجول في أفريقيا وشبه الجزيرة الهندية. يكتب حالياً مقالات أسبوعية لعدة صحف كما يدير مكتباً استشارياً حول شؤون الشرق الأوسط.

تضم مؤلفاته: «النضال من أجل سورية» (1965، طبعة محدّثة، 1986، مع مقدمة من ألبرت حوراني)، «الثورة الفرنسية» 1968 (مع مورين ماكونشيل)، «فيلبي، الطريق الطويل إلى موسكو» (1973 مع مورين ماكونشيل)، «مهمّة هلتون» (1973، مع مورين ماكونشيل)، «الأسد، الصراع على الشرق الأوسط» (1988، 1989، 1990)، «أبو نضال، بندقية للإيجار» (1992، 1993)، كما ساعد في إعداد كتاب «مقاتل من الصحراء» 1995.

تصميم الغلاف: سامح خلف

«عبر التركيز على شخصية رياض الصلح المتميّزة وسيرته المؤثرة، يستحضر باتريك سيل العالَم المثير والمنسي للسياسة العربية في مطلع القرن العشرين.

لا شكّ أن كتابه هذا سيبقى لعقود قادمة بمثابة المرجع الأساسي لدارسي هذه الحقبة».

– إدوارد موتيمر

نائب رئيس حلقات سالزبرغ الدراسية العالمية

يدور موضوع هذا الكتاب حول نشوء الشرق الأوسط الحديث. وقد تكوّنت منطقة الشرق الأوسط، كما نعرفها اليوم، خلال سنوات العنف والاضطراب التي شهدها النصف الأول من القرن العشرين، عندما استولت بريطانيا وفرنسا على المناطق العربية وفصلتها عن الإمبراطورية العثمانية، إثر هزيمتها في الحرب العالمية الأولى، عندها أُنشأت دول بديلة: تركيا وسوريا ولبنان والأردن والعراق وإسرائيل - وقُضي على فلسطين العربية.

ويمكن تقصّي جذور الكثير من الصراعات والأزمات التي تعاني منها المنطقة اليوم، وردّها إلى تلك المرحلة من الحروب والتوترات وإعادة رسم الخرائط.

يقدّم باتريك سيل، المؤرخ البارز لهذه المنطقة من العالم، هذه القصة عبر سرد حياة رياض الصلح، السياسي اللبناني الذي تحوّل إلى رجل الدولة العربي المبرِّز في زمانه، واستمرّ حتى اغتياله في العام 1951، وكان في طليَعة الأحداث والكفاح الذي أسس للوضع الحالي في المنطقة، حيث انتزع استقلال لبنان من فرنسا وأصبح رئيس وزرائه الأول لمرحلة ما بعد الاستقلال، مع جميع تحديات ومآسي تلك المرحلة.

إنه كتاب مبهر يربط تاريخ الكفاح العربي من أجل الاستقلال ربطاً مباشراً بحياة الشخصيات المعنية، مستعيناً على ذلك بالسجلات العثمانية والبريطانية والفرنسية، وعلى مقابلات عدة. إنه مرجع قيّم للدارسين والباحثين، يحمل أهمية مؤثرة لكل من يحاول أن يتعرّف أكثر على منطقة ودول الشرق الأوسط.



ISBN 978-9953-87-774-7

9 789953 877747

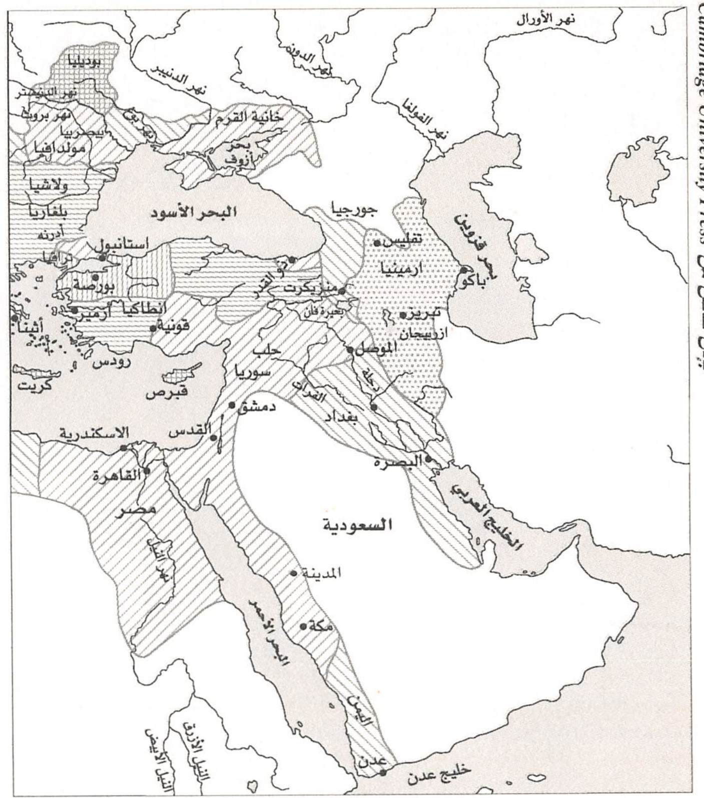

رياض الصلح
والنضال من أجل الاستقلال العربي

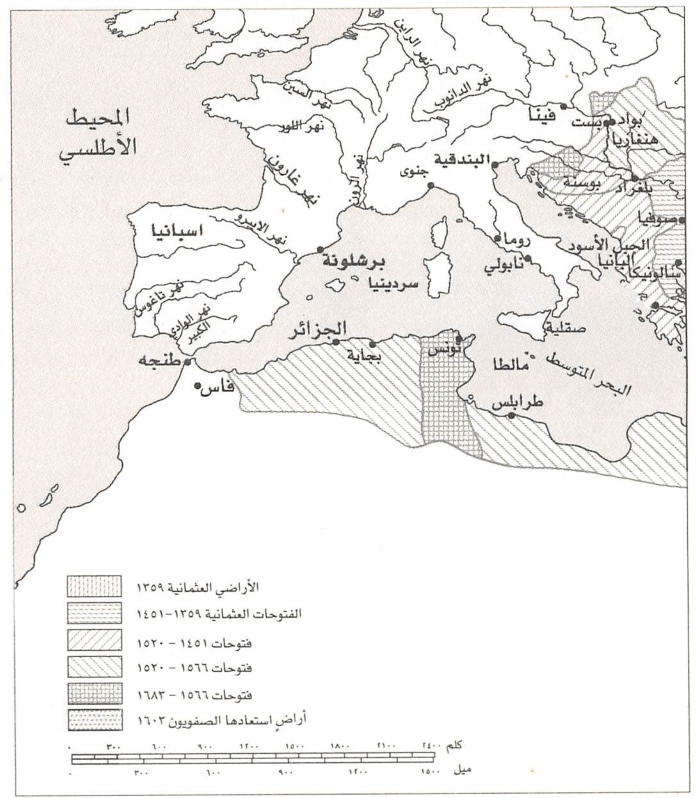


الخرائط تقدمة دار جامعة كامبردج

مع الشكر

بإذن خاص من *Cambridge University Press*





توسّع الإمبراطورية العثمانية

رياض الصلح
والنضال من أجل الاستقلال العربي

تأليف

باتريك سيل

نقله إلى العربية

عمر سعيد الأيوبي

التدقيق اللغوي

أحمد الرفاعي


الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
The Struggle for ARAB INDEPENDENCE: RIAD EL-SOLH
and the Makers of the Modern Middle East
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من المؤلف
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-9953-87-774-7



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

المحتويات

الخرائط

إلى ذكرى
علماء الصلح

مُقَــدِّمَــة

طالما فتنتي حياة رياض الصلح، رجل الدولة القومي العربــي البارز، وأول رئيس وزراء للبنان بعد نيله الاستقلال. لذا لم أتردّد في تأليف كتاب عنه عندما حثّتني علياء، كــبرى كريمات رياض الصلح الخمس، التي تربطني بها صداقة قديمة، منذ أن التقينا في جامعة أكسفورد في خمسينيات القرن الماضي. وقد أصبت بصدمة كبيرة عندما توفّيت علياء فجأة في 26 نيسان/أبريل 2007، قبل أن أتم كتابة هذا العمل. فهي الملهمة الأولى لهذا الكتاب الذي أقدمه لذكراها الطيّبة.

لم أتعامــل مع هذا العمل كمؤرخ أكاديمي رسمي بقدر ما تعاملت معه كرواية يــرويها شخص عاش نصف قرن في الشرق الأوسط، وأحبّه، وكتب عنه. أردت أن أُظهر كيف ناضل ذلك الجيل الأول من القوميين العرب من أجل الاستقلال العربــي في وجه الطموحات الغربية الشرسة - والآلام التي كابدوها، واليأس الذي اعتراهم في الغالــب، والــصعوبات الجمّــة التي واجهوها دائماً - ومع ذلك لم تفتر عزيمتهم أو تضعف شجاعتهم.

أرجــو أن يــساعد هذا الكتاب في الكشف عن جذور العديد من الصراعات والأزمات التي تعصف بالمنطقة اليوم. يمكن العودة بهذه الجذور إلى النصف الأول من القــرن العــشرين، وهــي الفترة التي شهدت العنف والحروب والمذابح وإعادة رسم الخــرائط بتعجــرف فــادح. في تلك الفترة، ظهرت الجمهورية التركية على أنقاض الإمــبراطورية العثمانــية المهــزومة والممزّقة؛ وفُرِض الانتداب الاستعماري البريطاني والفرنــسي على الولايات العربية للإمبراطورية؛ وولدت دول جديدة - الجمهوريتان اللبنانــية والــسورية ومملكتا العراق والأردن - ودمّر مجتمع عربــي قديم في فلسطين وهجّــر سكانه؛ وظهرت في قلب المنطقة الدولة اليهودية، التي منحتها شكلها الرعاية الــبريطانية الثابتة في فترة ما بين الحربين العالميتين، وألحقت هزيمة نكراء بجيرانها العرب الأضعف أو المنقادين سراً.

شارك رياض الصلح بنشاط في صناعة تاريخ هذه الحقبة، وهو تاريخ نسيه الرأي العام إلى حدٍّ كبير حتى في المنطقة نفسها. كانت حياته سلسلة من البذل والجهد السياسي المتواصل منذ سنّ مبكّرة. انغمس في الأحداث والنقاشات والنضالات التي أرست دعائم الشرق الأوسط الحديث. ولعل فهم ما حاول أن يفعله وما استطاع تحقيقه - وأين فشل أيضاً - يعني فهم التحديات العسيرة التي لا تزال تجابه المنطقة. فقد انتزع استقلال لبنان من الفرنسيين، ويمكن اعتباره من أبرز السياسيين في زمانه، لأسباب أشرحها في هذا الكتاب.

كان رياض الصلح صاحب رؤيا عن شرق أوسط مُتّحد وديمقراطي، وهي رؤية كرّس لها حياته بأكملها. ومن ثم يقدم نموذجاً ملهماً لجيل اليوم، الذي أصبحت الوحدة والديمقراطية والاستقلال الحقيقي بالنسبة إليه أهدافاً أبعد منالاً من ذي قبل.

استفدت كثيراً في وضع هذا الكتاب من نصح وصداقة وعلم أحمد بيضون، ووليد الخالدي، وجيرارد خوري، وهنري لورنس، ونادين معوشي، وروجر أوين، وإليزابيت بيكار، ونادين بيكادو، وآفي شلايم، ورغيد الصلح، وغسان تويني. كما أنني مدين بالشكر لوفيق سعيد الذي ما كان لهذا المشروع أن يبدأ لولا المساعي التي بذلها.

لاستقاء معلومات عن حياة رياض الصلح الباكرة وعائلته، اعتمدت على روايات من أفراد عائلة الصلح، بالإضافة إلى آخرين عرفوه جيداً وكانوا على قيد الحياة عندما أجريت أبحاثي. لم يكن من الممكن جمع القصة من السجلات العربية لأنها غير موجودة إلى حدّ كبير، أو لا تزال غير متاحة، أو أتلفت بصورة متعمّدة. لذا اضطررت إلى الاعتماد كثيراً على المصادر العثمانية، والمصادر الثانوية، والمقابلات، بالإضافة إلى الوثائق الدبلوماسية البريطانية والفرنسية التي ظهرت أهميتها الكبيرة في كشف ما كانت تعتزم القوى الغربية فعله في ذلك الوقت. ولم أكن لأستطيع إنجاز هذا الكتاب دون مساعدة ألن رَش، الذي قام بإخلاص وبمهارة بإيجاد مئات الوثائق الدبلوماسية التي كنت بحاجة إليها في الأرشيف البريطاني والفرنسي والسويسري. وساعدني مصطفى كولو في إيجاد مواد عن آل الصلح في الأرشيف العثماني، في حين بحث فادي شاكر في مجموعة الجرائد في الجامعة الأميركية عن كل المواد ذات الصلة. وأدين بالشكر في فرنسا إلى كونستانس أرمنجون، وإينِس-ليلى دخلي، وسومبول كايا،

وفائزة القاسم، وأوراس زيباوي، وفي جامعة أكسفورد، إلى ديبورا أشر التي تعمل في أرشـــيف مركز الشرق الأوسط في كلية سانت أنطوني. كما ساعدتني مهارات ديفيد جي التقنية في إنتاج النسخة الإلكترونية من المخطوطة.

وعملـــت رنـــا قباني على إعادة النظر في الكتاب مراراً بقلمها الرائع، وكانت ناقدتي البارعة إن لم أقل القاسية. ولقد حالفني الحظّ خلال السنوات الخمس والعشرين الماضية بأن أستمتع بصحبتها وبحديثها المشوّق وبمواهبها الكثيرة التي تذكّرني، بصورة يومية، بالعالم العثماني العظيم الذي يقدّم القسم الأول من هذا الكتاب وصفاً له، هذا العالم الذي تُشكّل فيه دون شك آخر "خانم" راقية.

الفصل الأول

كبير من كبراء الإمبراطورية

كان أحمد باشا أحد رجال الإمبراطورية العثمانية الكبار في القرن التاسع عشر، وهو مؤسس دعائم نجاحات آل الصلح السياسية؛ والجدّ الذي منحهم المكانة التاريخية التاريخية التي تبوّؤوها. ويبدو أن آل الصلح ربما حصلوا على هذا الاسم بسبب دورهم كصنّاع سلام في مجتمع يفتقر إلى المحاكم في الغالب ويقدّر دور المصلح بين الأطراف المتنازعة تقديراً عالياً. أما جد أحمد باشا، فهو خضر الصلح الذي كان قد سافر، وفقاً لما تنقله قصص العائلة التقليدية، إلى الهند في القرن الثامن عشر لدراسة السيمياء [الكيمياء القديمة]. وعلى الرغم من أن سعيه وراء حجر الفلاسفة (مادة تحوّل المعادن الخسيسة إلى ذهب) لم يكن ناجحاً، فإنه يقدّم دليلاً مبكراً على روح المغامرة لدى العائلة. من ناحية أخرى، لا يبدو أن والد أحمد باشا، محمود الصلح، قد غادر موطنه على الإطلاق، لكنه عاش حياة هادئة فيه كوجيه ومالك للأراضي إلى أن أودى به خلاف مع الحاكم المحلي العثماني إلى السجن. أرادت زوجة محمود الصلح تجنيب ابنها أحمد المصير الذي لقيه زوجها، فقررت إرساله إلى إستانبول[1]. هناك تعلم أحمد الصلح التركية وعُيّن، عند عودته إلى الوطن بعد سنوات عدة، مترجماً في الجيش العثماني. وهكذا بدأ صعوده المنتظم في الإدارة العسكرية والمدنية للإمبراطورية.

ولد أحمد عام 1810 في مدينة صيدا على ساحل البحر المتوسّط. وكانت في ذلك الوقت ميناء للأراضي الداخلية الجبلية، وتقع بين مناطق نفوذ أمراء جبل لبنان إلى الشمال، وتلك التي تتبع الولاة العثمانيين في عكا ودمشق إلى الجنوب والشرق، وأهملها الجانبان إلى حدّ كبير. كانت صيدا مجتمعاً ريفياً منغلقاً على ذاته تسيطر عليه عائلات ملاّك الأراضي الذين تقع قصورهم على قمم التلال وتشرف على الطرق

(1) مقابلة مع يسر الصلح، حفيدة أحمد باشا وآخر من بقي من أحفاده، لندن، 10 كانون الثاني/يناير 2004.

المـؤدية إلى القرى والأراضي التي يملكونها، وكذلك على طرق القوافل التي تمر بقربهم من الساحل إلى الداخل. وتعود أصول آل الصلح، مثلهم مثل العائلات الرئيسية الأخرى في جنوب لبنان - أو جبل عامل - إلى القبائل العربية اليمنية. ويعتقد أفراد العائلة أنه عندما طُرد أسلافهم من الأندلس في نهاية القرن الخامس عشر بعد أن استولى العاهلان الكاثوليكيان فرديناند (ملك أرغون) وإيزابيلا (ملكة قشتالة) شبه الجزيرة الأيبيرية، كانوا ينوون العودة إلى اليمن التي ينحدر منها أجدادهم. لكنهم استقرّوا بدلاً من ذلك في لبنان، على إحدى تلال صيدا التي تشرف على البحر المتوسط. لبث آل الصلح أجيالاً بعد ذلك، يبنون بيوتهم وتهدم ويعيدون بناءها على قطعة الأرض ذاتها. ويتم حالياً ترميم آخر هذه المنازل لتحويله إلى متحف إحياءً لذكرى رياض الصلح.

كبرت طموحات أحمد الصلح وتعاظمت، فانتقل إلى بيروت مع شقيقه الأصغر، عبد الرحيم. وقد التحق عبد الرحيم بهيئة البريد السلطانية العثمانية وعمل في دمشق، ونابلس، وبيروت، وعكا، وأضنة. وفي سنة 1900 عمل مديراً للبريد والتلغراف في كوسوفو[1]. أما أحمد فبدأ حياته العملية كجندي شارك في العديد من الحروب العثمانية، وبخاصة في البلقان، وارتقى السلّم العسكري حتى وصل إلى رتبة لواء. انتقل بعد ذلك إلى الإدارة المدنية العثمانية حيث أصبح متصرف عكا، ثم اللاذقية. وقد عُرف في فترة ثمانينيات القرن التاسع عشر باسم "أحمد أفندي".

كانت الإمبراطورية العثمانية، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مكوّنة من 29 ولاية على رأس كل منها والٍ يعيّنه الباب العالي في إستانبول. وكانت كل ولاية مؤلفة بدورها من عدد من السناجق يرأس كلاً منها متصرّف، وتتكوّن هذه السناجق بدورها من عدد من الأقضية التي يدير كلاً منها قائم مقام. بعد ذلك تأتي الناحية أو مجموعة من القرى والبلدات التي يشرف على إدارتها موظف برتبة مدير.

(1) للحصول على نبذة عن حياة عبد الرحيم الصلح كما تظهر في الأرشيف العثماني، انظر: BOA. SAID d 71/93; 168/49, and BOA. DH. EUM 4şb 20/35; 6/17; and BOA DH EUM SSM 23/22. تحتوي مديرية الأرشيف العثماني على سجلات وزارة الداخلية (BOA)، التي تقسم بدورها إلى سجل أول (SAID)، يقسم بدوره إلى ملفات أو دفاتر (d). للاطلاع على وصف لنظام السجل الأول (SAID) انظر Mehmet Ipşirli, 'The Sicill-I Ahvâl Commission and its Registers,' in *Die Biographie in der Osmanischen Geschichte Quellen-Probleme-Methoden*, October 1993.

كانت الإمبرطورية العثمانية، في زمانها، من أكثر الإمبراطوريات اتساعاً وتعددية. وعندما بلغت أوجها في القرنين السادس عشر والسابع عشر، امتدّ حكمها من الجزائر إلى شبه الجزيرة العربية، إلى المجر والقوقاز. لكن بحلول منتصف القرن التاسع عشر، بدأ التصدّع يظهر في هذا الصرح الذي دام خمسمئة سنة. ومن الخسائر المبكّرة خانية التتار في القرم التي ضمتها روسيا عام 1783. وفي السنوات الحاسمة الأربع بين الهزيمة العثمانية أمام روسيا في سنة 1878 والاحتلال البريطاني لمصر في سنة 1882، فقدت الإمبراطورية البلاد التالية: صربيا، والجبل الأسود، ورومانيا، والبوسنة والهرسك، وقبرص، وتونس، ومصر. وقد شجّعت الجاذبية الرومانسية للحركة القومية اليونانية ونجاحها الفعلي قوميات أخرى على التخطيط للانفصال عن الإمبراطورية. ورداً على هذه الخسائر المهمة اتخذت الإمبراطورية قراراً بإحكام قبضتها على آسيا الصغرى وما تبقّى من الولايات العربية.

في منتصف القرن المذكور، عزّز أحمد أفندي مكانته الاجتماعية عندما اقترن بكريمة مفتي دمشق، حسن تقي الدين الحصني[1]، في أواخر أربعينيات القرن التاسع عشر. كانت عائلة الحصني من الأشراف الحسينيين الذين ينتسبون إلى النبي محمد ﷺ من خلال حفيده الحسين. وقد أمّنت لهم صلة النسب هذه مكانة رفيعة في المجتمع الدمشقي. بالإضافة إلى ذلك، كان حسن تقي الدين الحصني نقيباً للأشراف، أي ممثلاً لسلالة النبي ﷺ في تعاملهم مع السلطات العثمانية.

أنجبت كريمة المفتي لأحمد ثلاثة ذكور: كامل ومنح اللذين ولدا في نهاية أربعينيات القرن التاسع عشر، ورضا الذي أبصر النور في سنة 1861 أو 1863 (السجل غير واضح)[2]. وكان أحمد، بين حين وآخر، يقطع الجبال من بيروت إلى دمشق لتفقّد عائلة زوجته والقيام بزيارة مجاملة للوالي ووجهاء آخرين يعملون في الإدارة العثمانية

---

(1) Linda Schatkowski-Schilcher, Families in Politics: Damascene Factions and Estates of the 18th and 19th Centuries, Stuttgart 1985, p.206.

تولى ابن أخت حسن تقي الدين الحصني، الشيخ محمد تاج الدين الحسيني، منصب رئاسة الوزراء عدة مرات في سوريا ومنصب رئيس الجمهورية خلال الانتداب الفرنسي في فترة ما بين الحربين.

(2) يحدد تاريخ ولادة رضا الصلح عادة بسنة 1262 هجرية (الموافقة لسنة 1860-61 ميلادية). لكن إشارة في ملفه في وزارة العدلية العثمانية تغير هذا التاريخ إلى 1863.

هــــناك. وتلــــك رحلة شاقة تستغرق أياماً عدة عبر طرق وعرة. وقد بدأ العمل بشقّ طـــريق للعـــربات بين المدينتين - بواسطة تبرعات من التجار وأصحاب الأملاك في دمشق وبيروت وحلب - في سنة 1859، ولكنها لم تُنجز حتى سنة 1863. بعد ذلك، أصبحت العربة التي تجرها الجياد تقطع الرحلة في 13 ساعة، بينما تستغرق الرحلة ذاتها أربعـــة أيام على ظهور البغال. وكانت ألف دابة تقريباً تُستخدم على هذا الطريق في الاتجـــاهين لنقل بضائع من كل الأنواع. (لم يكن ذلك غريباً في تلك الأيام، حتى في أوروبا الغربية. فكما أشار غراهام روب Graham Robb في كتابه "اكتشاف فرنسا" *The Discovery of France*, London 2007، كانـــت الـــبغال وقوافل البغال تستأثر بثلثـــي إجمـــالي حركة المرور على الطرق الفرنسية حتى منتصف القرن الثامن عشر.) كانت الحركة على طريق بيروت - دمشق كثيفة جداً بحيث دُرس إنشاء خط للسكة الحديدية. لكن لم يفتتح خط بيروت - دمشق، الذي بلغ طوله 147 كيلومتراً، إلا بعد ثـــلاث ســـنوات من العمل، في آب/أغسطس 1895، فانخفض وقت الرحلة إلى تسع ساعات.

صديق أحمد: الأمير عبد القادر الجزائري

لعـــل أحمـــد التقي، في إحدى هذه الزيارات المبكّرة إلى دمشق، بواحد من أبرز الشخصيات العربية في القرن التاسع عشر، الأمير عبد القادر الجزائري، وتوطّدت عرى الصداقة بينهما[1]. استقرّ هذا الأمير الجزائري والثوري الكبير في دمشق عام 1855 مع عائلته وعدد كبير من حاشيته بعد أن نفاه الفرنسيون. وسيكون له تأثير بارز في حياة أحمـــد. كـــان الأمير مقاتلاً وصوفياً في الوقت عينه. ولد قرب بلدة مسكرة في شمال غـــرب الجزائـــر عام 1808، وقد رباه والده، محي الدين، أمير مسكرة وشيخ الطريقة الصوفية القادرية، على التقى والورع. أظهر عبد القادر موهبة مبكّرة في تعلم الفلسفة وتفـــسير القـــرآن الكـــريم، ودرس مـــع العلمـــاء المحليين وحرص على جمع الكتب والمخطـــوطات. وعندما وطأت القوات الفرنسية أرض الجزائر في حزيران/يونيو 1830 عازمة على السيطرة على بلاده بأكملها بالقوة، كان أول من عبّأ السكان ضد الغزاة.

(1) Bruno Etienne, *Abdelkader*, Paris 1994.

نُــصّب عــبد القادر أميراً عند وفاة والده عام 1832، فأعلن الجهاد على الفرنسيين. وبحلــول منتــصف ثلاثينيات القرن التاسع عشر كان الأمير الشاب قد نجح في تنظيم جــيش مكوّن من 20 ألف جندي من المشاة و15 ألف حصان. بل إنه أنشأ أول دولة إسلامية دفاعية وأدارها، بتعبئة القبائل وجمع الضرائب وبناء الحصون والمسابك ومعامل الأســلحة ومطاحن الدقيق والمدارس. وقام الأمير مع مساعديه بشن حرب عصابات على الجيش الفرنسي، فنصبوا له الكمائن، وهاجموا قوافل تموينه الضخمة، ومنعوا عنه الأغذية والأعلاف. في سنوات الحرب الأولى، احترم الجانبان المجاملات الحربية. فلقي الأسرى معاملة حسنة وتمّ تبادلهم. ووُقّعت اتفاقيات هدنة، وحمل سعاة البريد الرسائل جيئة وذهاباً بين عبد القادر والجنرالات الفرنسيين الذين يجابهونه.

لكن فرنسا عقدت العزم في سنة 1841 على أن تضع حداً نهائياً للثورة الجزائرية. عــيّن الجنرال توماس بوجو Thomas Bugeaud حاكماً عاماً لمستعمرة الجزائر. قَسّم بوجــو جيــشه المؤلــف من 100 ألف جندي إلى فرق تدمير ومطاردة جابت البلاد واتــبعت سياسة الأرض المحروقة، فأضرمت النار في قرى وبلدات بأكملها، ودمّرت المحاصيل وقضت على قطعان الماشية، وحاصرت القبائل وجوّعتها حتى الموت، وعذّبت الأفــراد وقطّعت آذانهم. وأصدر الجنرال بوجو أوامره بقتل كل الأولاد الذكور فوق الخامــسة عــشرة. ونقــل آلاف النساء والأطفال المقيدين بالسلاسل بحراً إلى جزر الماركيز، وهي جزر بركانية مقفرة في جنوب المحيط الهادئ، حيث قضى معظمهم بسبب المــناخ القاسي والجوع. انتُقدت وحشية بوجو الفظيعة بشدّة حتى في فرنسا. وفي سنة 1847 استُدعي أخيراً وحلّ مكانه أحد أبناء الملك نفسه دوق دومال Duc d'Aumale.

لم يــشأ عبد القادر تعريض شعبه لمزيد من المعاناة. وبعدما حصل على وعد من الــدوق الفرنــسي المعــيّن حديــثاً بالسماح له بمغادرة الجزائر إلى الإسكندرية، قرّر الاستسلام في 23 كانون الأول/ديسمبر 1847. لكن سرعان ما تراجع الفرنسيون عن الــوعد الذي قطعوه له. فصودرت ممتلكات الأمير، بما فيها كتبه المفضّلة التي لا تقدر بــثمن ومكتــبة مخطوطاته الخاصة بأكملها، وبيعت بأبخس الأثمان. ونُقل بالقوة، مع عائلته ومئات من أفراد حاشيته الأوفياء إلى فرنسا. وهناك سجنوا في قلعة رطبة وكئيبة في طولــون، ثم في بــو Pau وأمبواز Amboise، والأخيرة قلعة كئيبة شديدة البرودة

يـوجد علـى جانبيها برجان قصيران واسعان، وقد بنيت على صخرة ناتئة فوق نهر اللـوار وسط فرنسا. كانت قلعة أمبواز تستخدم كسجن منذ أيام الملك هنري الرابع. سُـجِنَ عـبد القادر هناك منذ تشرين الثاني/نوفمبر 1848 حتى كانون الأول/ديسمبر 1852. مـات عشرات من عائلته وحاشيته في القلعة بسبب البرد، ودفنت جثثهم في أرضها، وبقيت حتى هذا اليوم في قبور بلا شواهد، ولا تزال الدولة الفرنسية التي تدير القلعـة حالياً تمعن في إهمالها. أصر الحزب الاستعماري الفرنسي على إبقاء عبد القادر مسجوناً خوفاً من أن يصبح أداة في يد الإنكليز إذا سُمح له بالذهاب إلى مصر، كما كان ابن الملك قد وعده.

انتُخب لويس-نابليون بونابرت، ابن أخ نابليون الأول، في كانون الأول/ديسمبر 1848 رئيـساً للجمهورية الفرنسية. وفي سنة 1852 اتخذ لقب نابليون الثالث مفتتحاً بـذلك عهـد الامبراطورية الفرنسية الثانية التي استمرت حتى سنة 1870، بعد أن قام بانقلاب في السنة السابقة وسحق المقاومة التي وقفت في وجهه. كان الإمبراطور يدرك أن الأمـير الجزائـري عومل معاملة ظالمة، وقد تأثر بالالتماسات المقدمة من كونت بـاريس وغـيره من الفرنسيين والبريطانيين ذوي الأصول الرفيعة، فقرر الإفراج عنه. أحـضر إلى بـاريس واستقبله الإمبراطور في مقصورته في الأوبرا خلال عرض أوبرا روسيني "موسى" Moïse. وفجأة، أصبح الأمير من المشاهير في المجتمع الفرنسي، فزاره العديد من العلماء، والأساقفة والأمراء والجنرالات، وحظي بالإعجاب لعلمه وكياسته وسلوكه النبيل، وأُغدقت عليه الأوسمة، ودعي ليشهد عرضاً عسكرياً كبيراً قدّمت له التحـية في حدائـق تويلري وهو يمتطي صهوة جواد أبيض رائع أهداه له الإمبراطور. وبهذه الخطوات تصوّر الفرنسيون أنهم بيّضوا صحيفتهم من الخيانة والظلم.

في 21 كانون الأول/ديسمبر 1853، بعد مرور خمس سنوات على قبوله التخلي عـن القتال في الجزائر، غادر عبد القادر ورفاقه أخيراً ميناء مرسيليا الواقع في جنوب فرنسا متجهين إلى الشرق. كانت محطّتهم الأولى عاصمة السلطنة العثمانية إستانبول. مـن هناك انتقلوا إلى مدينة بورصة. وفي تشرين الثاني/نوفمبر أبحروا إلى بيروت، ومنها انـتقلوا براً إلى دمشق. كانت الحكومتان الفرنسية والعثمانية قد اتفقتا على أن تكون تلك المدينة العريقة المنفى الأخير للأمير الجزائري. وصل عبد القادر ومرافقوه إلى هناك

وحظي باستقبال كبير في 6 كانون الأول/ديسمبر. لم يكن عدد سكان دمشق في ذلك الوقت يزيد على 100 ألف نسمة، تسيطر عليهم نخبة من الزعماء الدينيين (كثير منهم شيوخ طرق صوفية) وعائلات ملاّك الأراضي ورؤساء العشائر. وكان الأخيرون، في غياب الشرطة النظامية، يحافظون على النظام في مختلف أحياء المدينة، ويوفّرون الحماية من لصوص قوافل الحج المتجهة إلى مكة المكرمة.

أحدث وصول الأمير مع عائلته الكبيرة إلى دمشق ضجة واسعة. وكانت شهرته قد سبقته فلقي الترحيب على الفور من قبل نخبة المدينة. فهو في النهاية بطل النضال ضد الاستعمار الأوروبي، ويتحدّر من سلالة الرسول ﷺ، وشيخ الطريقة القادرية الصوفية. والآن أصبح غنياً أيضاً بفضل المعاش الذي يتقاضاه من الفرنسيين والبالغ 300 ألف فرنك سنوياً. وسرعان ما أمّن حرّاسُه الجزائريون الحماية لعائلته في مختلف بيوتها ومزارعها ومجمّعاتها. وبمرور السنين، أجرى ترتيباً مع السلطات العثمانية والفرنسية كي يجلب إلى سوريا عدة آلاف آخرين من الجزائريين الذين حاربوا معه في المعارك ضد الفرنسيين، بالإضافة إلى أولادهم. استقرّ هؤلاء في أراضي قرى بعيدة وصلت حتى صفد وشواطئ بحيرة طبريا جنوباً. وبحلول سبعينيات القرن التاسع عشر، شكّل الجزائريون نحو نصف سكان تلك المنطقة[1]. كانت السلطات الفرنسية في الجزائر راغبة في التخلص منهم، فوافقت على الخطة بسرور.

سمع أحمد الصلح بوصول عبد القادر، فأسرع من بيروت إلى دمشق للسلام عليه والاستماع إلى دروسه. كان الأمير يُحاضر في الفلسفة الإسلامية والفقه والتصوّف في "دار الحديث"، وهي مدرسة تقع في حارة العصرونية في دمشق. إلا أن ما وثّق العلاقة الحقيقية بين الأمير وأحمد الصلح اهتمامهما المشترك، بصفتهما مسلمَين خيّرين ويتمتّعان بمبادئ خلقية رفيعة، بإنقاذ أرواح المسيحيين خلال بعض الأشهر المأسوية في سنة 1860. ففي ربيع تلك السنة الرهيبة وقعت اشتباكات وأعمال قتل متبادلة بين المسيحيين والدروز في جبل لبنان وبلغت حدّ الحرب الأهلية الوحشية. وقعت أعمال نهب واغتصاب وتشويه؛ سقط بنتيجتها أعداد كبيرة من القتلى ولحق دمار واسع في

(1) Elias Sanbar, *Figures du Palestinien*, Paris 2004, p. 67.

الممتلكات[1]. كان اللوم يقع على الطرفين في اندلاع هذا العنف اللاعقلاني الذي يعود بجذوره إلى الصدامات الطائفية التي حصلت بين أتباع الديانتين قبل عقدين من الزمن. سرعان ما دانت الغلبة للدروز، الذين كانوا أكثر تنظيماً وتسليحاً من المسيحيين. فأحرقت البلدات ذات الأكثرية المسيحية مثل حاصبيّا وراشيّا وزحلة ونُهبت بعدما سقطت في أيدي الدروز. بدأ آلاف اللاجئين المعدمين والخائفين بالهرب للنجاة بحياتهم، ولجأ الكثير منهم إلى الأحياء المسيحية في دمشق.

على الرغم من أن الدروز والمسيحيين في جبل لبنان أنهوا حربهم بمعاهدة سلام في 6 تموز/يوليو، فإن أنباء الفظائع وتدفق أعداد كبيرة من اللاجئين زادت من حدّة التوتر في دمشق. فقد أخذ عداء المسلمين للأقلية المسيحية المحلية يتصاعد منذ عدة سنوات، حيث أذكى الاستياء السياسي والاقتصادي نوعاً بغيضاً من التعصب الديني. فانتشرت الشكوك في أن بعض المسيحيين أصبحوا فرقة استطلاع للقوى الأوروبية التي تخطط لغزو الإمبراطورية العثمانية والسيطرة عليها وتقسيمها. وكان المسلمون قد شعروا بالإهانة بعد هزيمة العثمانيين أمام روسيا في حرب القرم 1853-1856، لذا ليس من المستغرب أن تشكّل القنصلية الروسية في دمشق الهدف الأول الذي أُشعلت فيه النيران عندما تصاعدت الاضطرابات.

كما أن الاستياء من الازدهار المتزايد بسرعة للتجار المسيحيين المحليين، الذين حصلوا على حقوق الاتجار مع أوروبا بشروط مواتية جداً حرم منها ما تبقى من طبقة التجار، ربما لعب دوراً، وكذا الدعم المالي الكبير الذي قدّمه القناصل الأجانب إلى المدارس المسيحية، ما أدى إلى نشوء نخبة مسيحية أفضل تعليماً من نظرائهم المسلمين. ولعل المصدر الأهم لإحباط المسلمين هو وثيقة الإصلاحات السلطانية الجديدة المعروفة باسم "الخط الهمايوني" التي صدرت في 18 شباط/فبراير 1856، وأُعلنت المساواة التامة بين الرعايا العثمانيين بصرف النظر عن دينهم. وقد أصدر السلطان العثماني هذه الوثيقة تحت الضغط الأوروبي، فألغت مفهوم "أهل الذمة"، وهو المكانة الثانوية ولكن المصانة، التي طالما حصل عليها غير المسلمين تحت الحكم الإسلامي. وقد انتزع

(1) Leila Tarazi Fawaz, *An Occasion for War: Civil Conflict in Lebanon and Damascus in 1860*, London 1994.

هذا الإصلاح على الفور من الأغلبية المسلمة مكانتها التقليدية المميّزة وما صاحبها من شعور بالتفوّق السياسي والاجتماعي.

كان بعض القناصل الأجانب قد حذّروا من أن الحرب الأهلية في لبنان قد تنتقل بسهولة إلى دمشق. فتوجّس الأمير عبد القادر خيفةً، وأمّن أموالاً من فرنسا، وحصل على إذن من الوالي العثماني بتسليح ألف من الجزائريين. ولكن قبل أن يتم ذلك، وفيما كان في قرية تبعد عدة أميال عن دمشق، قام حشد من الغوغاء المتعصّبين الغاضبين بمهاجمة أحد الأحياء المسيحية في المدينة، في 9 تموز/يوليو، وارتكبوا أعمال قتل وحرق ونهب استمرت ثمانية أيام. عندما وصلت هذه الأنباء الفظيعة إلى الأمير، أسرع عائداً إلى دمشق ووصلها في الوقت المناسب لإنقاذ القنصلين الروسي واليوناني من القتل، إلى جانب نحو 11 ألف مسيحي احتشدوا في حالة يرثى لها في مجمّعاته. نُقل الآلاف منهم إلى بيروت بأمان بحماية رجال الأمير. ولكن آلافاً آخرين (تتراوح التقديرات بين خمسة وعشرة آلاف شخص) ذُبحوا. وآوت عائلات مسلمة عديدة بينها عائلات الحلبي، والحسيبي، والتيناوي، والنابلسي، والعمادي، والشربجي، والعطار المسيحيين في بيوتهم لإنقاذهم من الرعاع الهائجين. وقد أنقذ هؤلاء المسلمون حوالى 16 ألف مسيحي، واستمروا في توفير المأكل والمأوى للاجئين عدة أشهر بعد ذلك.

لقي تصرّف الأمير عبد القادر الجزائري الإنساني امتنان أوروبا واستحسانها. فقام موفد من قبل نابليون الثالث بزيارته لمنحه وسام "جوقة الشرف" الفرنسي.

في لبنان حظي أحمد الصلح، الذي ظل على اتصال مستمر بالأمير خلال الاضطرابات، بالاحترام والشهرة بسبب المساعدة التي قدّمها - بصفته الشخصية وكمتصرف عكا العثماني على السواء - إلى الموجات المتتابعة من اللاجئين الجائعين واليائسين الهاربين نحو الساحل. وقدّمت عائلات لبنانية جنوبية بارزة أخرى، مثل عائلتي عسيران والزين، الملجأ للمسيحيين الهاربين، مما أرسى القواعد لعلاقات طيبة على المدى البعيد مع الطوائف المسيحية. وقد اتفق الأمير عبد القادر وأحمد أفندي الصلح أيضاً على ضرورة تبييض صفحة دينهم من الجرائم الوضيعة التي ارتكبتها الدهماء. وأصبحت أعمال أحمد الإنسانية - أي حماية المسيحيين العزل في وقت الحرب - جزءاً من الإرث الأخلاقي لحفيده رياض الصلح. فشكّل تفهّم المخاوف

المسيحية والتسامح مع آمال المسيحيين عنصرين بارزين في مسيرة رياض السياسية[1].

أحدثت أزمة 1860 تأثيراً مزدوجاً، وإن كان متناقضاً. استطاعت السلطات العثمانية أن تستعيد سلطتها في دمشق والأراضي الداخلية السورية وتتجنب التدخل الأجنبي. وقد وصل فؤاد باشا، وزير الخارجية العثماني القدير (الذي سيشغل بعد الأزمة بقليل منصب الصدر الأعظم) إلى المنطقة حاملاً تفويضاً كاملاً بإعادة النظام. فأمر بإعدام والي دمشق، عزت باشا، لإهماله واجباته، بالإضافة إلى 56 مسؤولاً ومجرماً مدنياً آخر. وأعدم رمياً بالرصاص أكثر من مئة ضابط وجندي تركي ممن تبيّن أنهم شاركوا في ذبح المسيحيين.

أما في جبل لبنان، فقد نجحت القوى الأوروبية في فرض شروط قاسية عن طريق دبلوماسية البوارج الحربية. وطالب الرأي العام الفرنسي بحماية المسيحيين اللبنانيين، وبخاصة الموارنة، أصدقاء فرنسا التقليديين. وبناء على ذلك، نزلت القوات الفرنسية في بيروت في آب/أغسطس 1860. فاضطر الباب العالي إلى قبول تسوية تم التفاوض عليها لمدة عدة أشهر، أصبح بموجبها جبل لبنان منطقة تتمتع بالحكم الذاتي، أو متصرفية تحت حماية القوى الأوروبية ويحكمها مسيحي عثماني. عُيّن داود أفندي، وهو أرمني كاثوليكي من إستانبول، متصرفاً يعاونه مجلس إداري تُمثّل فيه كل الطوائف الدينية، ولكن يحظى فيه المسيحيون (موارنة وروم أرثوذكس وروم كاثوليك) بالأرجحية.

خلّفت أحداث 1860 لدى المسيحيين آثاراً عميقة ومديدة. فقد ساعدت في نشوء فكرة الخصوصية المارونية، التي انتشرت من جبل لبنان لتشمل السكان الموارنة الذين يعيشون خارج الجبل. وأصبح الاستقلال عن الإمبراطورية العثمانية - ولاحقاً إقامة الاستقلال اللبناني - من الأهداف السياسية المسيحية الأساسية.

تعزّزت مكانة أحمد أفندي الصلح في لبنان وخارجه بعد أزمة 1860 وتداعياتها. فقد رفع القناصل الأجانب تقارير بأنه منح المساعدة والحماية إلى المسيحيين المحتاجين. وفي الباب العالي، وبخاصة في مكتب الصدر الأعظم - المركز الحقيقي لسلطة الحكومة

---

(1) مقابلة مع علياء الصلح، مونت كارلو، 4-5 تشرين الأول/أكتوبر 2004.

العثمانية - كان هناك شعور بالامتنان للمسؤولين العثمانيين في الولايات العربية الذين وقفوا في وجه الدهماء ودعموا سمعة الإمبراطورية الطيّبة إلى حدّ ما. وبرز هذا التصرف الشجاع بجلاء مقابل موقف والي دمشق الذي سمح بحدوث المذبحة، بسبب إهماله الإجرامي، أو تواطئه مع مثيري الشغب.

فكرة نابوليون الثالث عن إنشاء مملكة عربية

أدى تقدير أحمد الصلح الكبير للأمير عبد القادر الجزائري وتعاونه معه خلال الأزمة، إلى إيقاعه في ورطة لاحقاً. فقد أحدث الأمير تأثيراً كبيراً في باريس، فتكوّنت جماعة ضغط - مكوّنة من ضباط فرنسيين خدموا في الجزائر، بالإضافة إلى عدد من المستثمرين ورجال الأعمال - كانت تعتقد أن قيام الأمير بأداء دور سياسي بارز في المشرق، ربما على رأس مملكة عربية، سيعود بالنفع على المصالح الاستراتيجية والتجارية الفرنسية. من البديهي القول بأنّ مثل هذه الأفكار أثارت في نفس السلطان أعظم الشكوك عندما وصلت إلى مسامعه، لأنها اعتُبرت مخططات أوروبية ترمي إلى إضعاف السلطنة في إستانبول.

في تلك الأثناء كانت فرنسا وبريطانيا منشغلتين بكيفية تعزيز طموحاتهما المتنافسة في الولايات العربية. أراد الفرنسيون بقاء جبل لبنان (معقل أصدقائهم الموارنة) منفصلاً عن سائر المناطق السورية قدر الإمكان. أمّا بريطانيا، التي طالما كانت مهتمة بأمن الطرق البحرية والبرية للهند، فرأت في أزمة 1860 فرصة لإعادة بناء الإدارة العثمانية في سوريا ووضعها تحت السيطرة المحكمة للوكلاء السياسيين الأوروبيين. كانت لدى نابوليون الثالث فكرته الخاصة: فقد أمل في تنصيب صديقه، الأمير عبد القادر، على عرش مملكة عربية تمتد من سوريا إلى بلاد ما بين النهرين فشبه الجزيرة العربية. وستكون هذه الدولة بمثابة فاصل بين مصر وإستانبول العثمانية. وستوفّر مثل هذه الدولة، تحت الرعاية الفرنسية، الحماية لمشروع قناة السويس من التدخل العثماني وتمنح فرنسا السيطرة التامة على تجارة الحرير[1]. فقد كانت صناعة

(1) Marcel Emerit, 'La Crise syrienne et l'expansion économique française en 1860', in *Revue historique*, 207 (janvier-mars 1952), pp. 211-32.

الأقمشة الفرنسية في ليون تعاني نقصاً في المواد الخام وتحتاج إلى الحرير الخام المستورد من سوريا. بقي هذا المشروع الجيوسياسي يخامر الإمبراطور حتّى سقوطه في أعقاب الحرب الفرنسية - البروسية عام 1870.

بقيت ذكرى مخطط الإمبراطور الفرنسي راسخة في الأذهان في المشرق. وفي ما بعد حمل المعجبون العرب بالأمير، وفي مقدّمتهم أحمد الصلح، لواء مشروع الدولة العربية برئاسة عبد القادر. وقد استمد أحمد الشجاعة من علاقته الشخصية بالأمير، وعلاقات عائلته المؤثرة في دمشق، وسمعته الشخصية الممتازة، فقاد حركة تحررية عربية مقرّها بيروت. يروي أحد أحفاده، عادل الصلح (ابن منح)، بأن أحمد كان يمضي، في أواخر سبعينيات القرن التاسع عشر، وقتاً طويلاً في اجتماعات سرية لكسب التأييد لمشروعه[1]. توجّه أحمد، برفقة بعض مساعديه الأوفياء، إلى مسقط رأسه في مدينة صيدا ليتشاور مع وجهاء العائلات الكبرى في جنوب لبنان. ثم انتقل مع مساعديه إلى دمشق لسبر آراء وجهاء المدينة ومفكريها قبل أن يتوجّهوا إلى دُمّر، كانت في ذلك الوقت قرية بعيدة معتدلة الطقس على ضفاف نهر بردى، حيث كان الأمير يمضي الصيف مع عائلته. لم يكشف أحمد ومساعدوه عن أفكارهم الحقيقية بل سعوا إلى الاستماع إلى آراء الأمير حول أوضاع الإمبراطورية. وعندما استبقاهم ثلاثة أيام في ضيافته، أحسّوا بالشجاعة الكافية المستمدة من حسن الضيافة ليعقدوا في ما بعد مؤتمراً سرياً في دمشق اتفقوا فيه على دعوة الأمير لتولي قيادة سوريا الكبرى المستقلة. وانتُدب أحمد للعودة إلى مقرّ الأمير الصيفي وتقديم العرض له.

لكنّ هؤلاء المتحمسين أخطؤوا قراءة ما يجول في فكر الأمير. فلم يعد ذلك الشاب الذي أنشأ بالدم والحديد دولة إسلامية في الجزائر، في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، لمحاربة الفرنسيين الشرسين. فهو الآن يفضّل الاستمتاع بمكانته كأحد الشخصيات العالمية، فيسافر إلى باريس لحضور المعرض العالمي لعام 1867، ومكة المكرمة لتأدية فريضة الحج، ثم إلى بور سعيد (التي كانت في ذلك الوقت قيد الإنشاء) لتفقّد العمل في القناة بدعوة من صديقه فرديناند دي ليسبس (Ferdinand De Lesseps).

---

(1) عادل الصلح، **سطور من الرسالة: تاريخ حركة استقلالية قامت في المشرق العربي سنة 1877**، بيروت 1966، ص 91-102.

جــاب دي ليــسبس العالم لحشد الدعم لمشروعه بإنشاء قناة مائية تربط البحر المتوســط بالبحــر الأحمــر. في سنة 1854 حصل على امتياز لبناء قناة السويس من الخديــوي المصري سعيد باشا، لكن السلطان العثماني تأخّر في التصديق على المشروع لأنه كان يخشى أن ترسّخ مثل تلك القناة المصالح الغربية في مصر وشبه الجزيرة العربية (كمـا حـدث من دون شك). كان دي ليسبس قد عمل لمدة سبع سنوات قنصلاً لفرنــسا في الإســكندرية في ثلاثينيات القرن التاسع عشر. وكان من أوائل الأصدقاء الفرنسيين للأمير عبد القادر، بل إنه زاره في سجنه في سنة 1848 في قلعة بو. وعندما قدم الأمير عبد القادر إلى دمشق ولقي استقبالاً رائعاً في سنة 1855، بمباركة نابوليون الــثالث، أوحى ذلك إلى دي ليسبس بأن الأمير قد يساعده في كسب الدعم الدولي لمشروعه الضخم، وذلك ما حصل فعلاً.

في سنة 1869 حضر عبد القادر الافتتاح الرسمي لقناة السويس إلى جانب الأمراء ورجــال الدولــة والأمــيرالات والسفراء الأوروبيين والإمبراطورة أوجيني Eugénie شخــصياً. فقد أرسل نابوليون الثالث فرقاطة فرنسية لتنقل الأمير وحاشيته من بيروت إلى بور سعيد إلى السويس ثم إلى بيروت.

كــان قــد مضى أكثر من خمس عشرة سنة على وجود عبد القادر في منفاه في ســوريا عــندما فاتحه أحمد الصلح بمشروعه في سبعينيات القرن التاسع عشر. وخلال هــذه الفتــرة اعــتاد عيشة الرفاهية في مزارعه الجميلة، وتعلّق بمن تبقّى من عائلته، وبــشهرته الــتي تجلب الزوار المميزين إلى داره، وبكمية الرسائل الكبيرة التي تصله، وبتكاثــر أعــداد مريديه وأصدقائه. وفوق كل ذلك، ازداد انغماس الأمير الشيخ في دراساته الدينية والصوفية. وكان يكتب التعليقات على الكتب الإسلامية ويُعلّم وينظم الأشــعار ويمارس التأمّل. وكما قال، في وقت سابق، لأحد المسؤولين الفرنسيين "لقد انتهت حياتي السياسية. لا أطلب المزيد من الناس أو من مجد هذا العالم، كل ما أريده الاستمتاع بالأوقات العذبة التي أمضيها مع عائلتي، والصلاة والعيش في سلام..."[1]. وعلــى أي حــال، كان حريصاً على المحافظة على الجسور التي تربطه بإستانبول بعدم توريط نفسه بأي شيء يمكن أن يزعج السلطان العثماني لأنه يعتبر نفسه ضيفاً عنده.

(1) Etienne, *Abdelkader*, p. 299.

سقوط أحمد الصلح وصعوده لاحقاً

في 1 أيلـــول/ســـبتمبر 1876، تولّـــى السلطان عبد الحميد الثاني العرش وأصبح الـــسلطان الرابع والثلاثين للسلطنة العثمانية[1]. لم يكن عند تبوّئه العرش في سن الثالثة والـــثلاثين معـــروفاً، ومن ثم لم يكن أحد يعرف هل سيكون ليبرالياً أم طاغية. لكن ســـرعان مـــا انكشف أمره. علّق عبد الحميد العمل بالدستور وحلّ البرلمان، وأحكم الـــسيطرة علـــى الجيش والقصر. وانتزع السلطة الفعلية من بيروقراطية الباب العالي، وفـــرض المركـــزية في الإمبراطورية التي أصبحت تستعصي على الحكم، كما صرف مـــدحت باشـــا، الصدر الأعظم الفعّال وصاحب الرؤية الإصلاحية، الذي كان يعتبر بطـــلاً في نظر الكثيرين، ونفاه بسبب اتجاهاته الليبرالية. وسعى عبد الحميد إلى احتواء الأزمـــة الـــناجمة عـــن خسارة الأراضي والنتائج الدبلوماسية السيّئة الناجمة عن هزيمة الجيوش العثمانية أمام روسيا في حرب 1877-1878.

أثارت الهزيمة الساحقة للجيوش العثمانية مشاعر قوية في العالم الإسلامي. وساد شـــعور بعـــدم الأمـــان في الولايات العربية. ماذا سيحلّ بهم إذا ما حدث ما يخشونه وانهـــارت الإمـــبراطورية العثمانـــية؟ بدت إستانبول نفسها على وشك السقوط أمام الجـــيوش الروســـية. ولم يكن الوضع في سوريا أقل سوءاً. قضى آلاف الرجال على الجـــبهة. وفرغت الخزينة العثمانية وأصبحت الإمبراطورية مفلسة. كان قسم كبير من إيرادات الدولة تحت سيطرة مدراء "الدَّين العام العثماني" الأجانب. واضطر الموظفون الحكومـــيون والمعلّمـــون والضباط إلى الانتظار شهوراً قبل أن تُدفع رواتبهم. وعندما تُدفـــع يتبـــيّن أنهـــا عديمـــة القيمة بسبب التضخم الجامح. تمرّدت القوات العسكرية احـــتجاجاً على عدم دفع رواتبها. ولم تلقَ التماسات المساعدة المالية التي تقدّمت بها عواصم الولايات الفقيرة، مثل دمشق، آذاناً صاغية في إستانبول التي تزايد عجزها.

شـــعر السلطان بالقلق من تصاعد الوعي القومي السوري نتيجة الأزمة السياسية والاقتـــصادية. وفي هذه الأوقات المريبة، وصلت أنباء إلى إستانبول عن محاولات أحمد الـــصلح السرية إنشاء مملكة عربية بقيادة الأمير عبد القادر الجزائري. وعندما تأكدت

(1) François Georgeon, *Abdulhamid II*, Paris, 2003.

السلطات العثمانية من أن الأمير رفض تلك الفكرة تماماً، انقضّت على أحمد وأصدقائه. أُرسل بعضهم إلى السجن، وبعضهم الآخر إلى المنفى. نُفي أحمد إلى جزيرة رودس، التي كانت خاضعة للسيطرة العثمانية في ذلك الوقت. وأمضى فيها عدة سنوات صعبة.

شهد الربع الأخير من القرن التاسع عشر توسّعاً استعمارياً عدوانياً للقوى الأوروبية المتنافسة والمتلهّفة لتقاسم غنائم الإمبراطورية العثمانية الضعيفة. وأجبرت خسارة الولايات العثمانية في أوروبا السلطان على إيلاء الولايات العربية المتململة مزيداً من الاهتمام. فعقد العزم على توثيق ارتباطها بإستانبول. ولهذه الغاية جنّد الشبان السوريين في حرس بلاطه، وعيّن أفراداً من العائلات السورية البارزة في مراكز إدارية مهمة في أنحاء الإمبراطورية. فقبلوا بدورهم بهذه المناصب لتعزيز مركزهم الاجتماعي ونفوذهم في الطبقة العليا.

قرّر السلطان بعد ذلك استدعاء الصدر الأعظم السابق، مدحت باشا، من منفاه الأوروبي، وأرسله إلى دمشق والياً على سوريا. كان مدحت باشا يحظى باحترام كبير كإداري متمرّس، شغل أعلى المراكز في إستانبول والولايات المختلفة. شرع مدحت باشا على الفور بتبديد الجوّ القاتم الذي يسيطر على سوريا، فأطلق برنامجاً ضخماً من الأعمال العامة الضرورية، بما في ذلك شقّ طريق يربط حمص بطرابلس. وفتح مدارس نموذجية، وحسّن شبكة التلغراف ووسّعها، وأعاد تنظيم مالية الولاية التي تعمّها الفوضى. كما رعى الفنون. وتحت رعايته المتنورة أنشأ المسرحي الموهوب أبو خليل القبّاني أوّل مسرح في العالم العربي. حضر مدحت باشا افتتاح المسرحيات التي أقامها أبو خليل وفرقته، وبذلك أعطى المسرح الغنائي مكانة واحتراماً في مدينة محافظة لا تنظر تقليدياً إلى الفنّانين بعين الرضا، أو ربما أسوأ من ذلك.

كان مدحت باشا بحاجة إلى إداريين أكفاء، فأقنع السلطان بالعفو عن أحمد الصلح وإعادته من المنفى في رودس. بل إنّ مدحت باشا لبّى دعوة أحمد الصلح إلى العشاء في منزله في بيروت، وهي الزيارة التي عزّزت صداقتهما والاحترام المتبادل بينهما. وكان من عادة السلطان توزيع الهدايا والألقاب والمراكز الإدارية على الموظّفين العامّين غير الموالين، لذلك عيّن أحمد الصلح مكتوبجي سنجق بيروت. وقد جعله ذلك

بمثابة اليد اليمنى للمتصرّف. فهناك مسؤولان كبيران يديران الأمور تحت سلطة الوالي الاسمية في كل ولاية: المكتوبجي، وهو المسؤول عن المراسلات الرسمية؛ والدفتردار، وهو المسؤول المالي الأول.

أراد مدحت باشا أن يمنحه السلطان الصلاحيات الواسعة نفسها الذي كان يتمتّع بها كحاكم للولايات العثمانية في أوروبا، بغية دفع إصلاحاته قدماً في سوريا، لكن السلطان عبد الحميد رفض ذلك. وثارت شكوكه عندما قام السفير البريطاني في إستانبول، السير هنري لايارد Henry Layard، بزيارة إلى دمشق في تشرين الثاني/نوفمبر 1879 وعقد عدة اجتماعات مع مدحت باشا. هل كان البريطانيون يتآمرون لإقامة دولة عربية برئاسة الباشا؟ ونظراً لأن السلطان يتوجّس خيفة دائماً من أي إشارة إلى استقلالية الولايات، فإنه حرص على قمع أي إيماءة إلى ظهور نزعة وطنية استقلالية في الولايات السورية.

ألصقت على الجدران في شوارع مدينة بيروت ملصقات تحريضية تدعو الناس إلى الثورة على الأتراك في ثلاث مناسبات منفصلة في أوائل صيف 1880. وفي التقرير الذي رفعه القنصل العام البريطاني، جون ديكسون John Dickson إلى لندن لإعلامها بالحدث غير المألوف، أفاد عن الاعتقاد السائد بأنّ مدحت باشا نفسه يقف وراء تلك الاحتجاجات. وأدرجت في رسالته الرسمية العاجلة مذكرة من ج. أبكاريوس J. Abcarius، ترجمان القنصل، يوحي فيها بأنّ دوافع مدحت باشا ربما تكون:

> "ترهيب الباب العالي والحصول على السلطات غير المحدودة التي يسعى إلى تأمينها... أو أن يُظهر للقوى الأوروبية، وخصوصاً لإنكلترا، أنّ روح الثورة قد ظهرت في سوريا، ما يزيد كثيراً من متاعب تركيا... ويحفزهم [الأوروبيين] على تأييد قضيّته وإعلاء شأنه، إمّا بفصل سوريا وتعيينه على رأسها، وإما بوضعه على رأس الوزارة في العاصمة، حيث يعتقد أنه يستطيع تنفيذ مخططاته الإصلاحية بشكل أفضل".

لم يكن ديكسون يشارك ترجمانه التقييم نفسه، لاعتقاده أن تلك "مكيدة أخطر من أن يفكّر بها مدحت باشا. لكنه أضاف: "لا شك في أنه خلال السنوات الخمس الماضية نشأت في سوريا جمعية سرّية... هدفها... الحصول على نوع من الاستقلالية

الإداريـــة للولاية مع الاعتراف بالسلطان كحاكم اسمي. وإذا تعذّر ذلك فيجب القيام بإضـــراب للمطالـــبة بالاستقلال الكلي. وقد تكون هذه الملصقات صادرة عن تلك الجمعية"[1].

أيا يكن الأمر، نَقَلَ السلطان في سنة 1880 مدحت باشا، ذا الشعبية الواسعة، إلى إزمير، وخلال سنة، أمر باعتقاله ومحاكمته وصدر عليه حكم بالإعدام، ثم النفي مدى الحـــياة. فقُيّد بالسلاسل ووُضِعَ على متن باخرة متجهة إلى شبه الجزيرة العربية، حيث نقل إلى قلعة الطائف الجبلية، وسُجِنِ في ظروف قاسية جداً أمل السلطان أن تؤدي إلى مـــوته. وعـــندما لم يحصل ذلك، قُتِل في سجنه في أيار/مايو 1884 تنفيذاً لأوامر شبه مؤكّدة من السلطان.

لوحـــق كل من أسهم مدحت باشا في تعزيز مساراتهم المهنية أو صقل مواهبهم. فهـــاجم الرّعاع مسرح أبـــي خليل القبّاني وأحرقوه. نجا القباني بأعجوبة، فترك كلّ شـــيء وراءه وهرب مع عائلته إلى مصر، وهو يعاني من الإحباط والإفلاس، لكنه لم يفقـــد شـــجاعته وإبداعـــه. وتمكّن في نهاية المطاف من بناء مسرح آخر في العاصمة المصرية حيث توجد دار الأوبرا حالياً.

قبل ذلك بسنة، توفي الأمير عبد القادر في دمشق. ودُفن وسط حزن شديد الذي فاضـــت به قلوب العديد من أفراد عائلته وأصدقائه ومريديه والمعجبين به. وبعد ثمانين عامـــاً، في سنة 1963، نُقل رفاته بمرافقة عبد العزيز بوتفليقة، وزير خارجية الجزائر في ذلك الوقت، ورئيسها في ما بعد، إلى بلده الأم، وأعيد دفنه في مدينة الجزائر؛ وليس في مـــسقط رأســـه مـــسكرة، ومما يبعث على الصدمة أن الزاوية القادرية هناك سويّت بـــالأرض فـــور استقلال الجزائر في سنة 1962. وفي سنة 2005، أطلق عمدة باريس برنارد ديلانو Bernard Delanoë اسم عبد القادر الجزائري على أحد شوارع العاصمة الفرنسية.

عـــانى أحمد الصلح من فقدان هذين الصديقين، لكنه عُمّر وأصبح رجلاً عجوزاً. ويُقال بأن حمدي باشا الذي شغل منصب الوالي العثماني في سوريا في ثمانينيات القرن التاســـع عشر، كان يزور أحمد الصلح وليس العكس، كما كان يقتضي البروتوكول،

(1) J. Dickson to Secretary of State, 3 July 1988, (PRO F) 195/1306 14475).

وذلـــك عندما يأتي إلى بيروت قادماً من دمشق. وفي سنة 1891 منح أحمد لقب باشا تقديراً لأهميته. وفي تلك السنة نُشرت مجموعة من 35 قصيدة في مديحه هو وعائلته في لبـــنان. جمـــع تلـــك القصائد المؤرّخ محمد جابر آل صفا – وهو من جنوب لبنان – وكـــتب عـــدداً منها شعراء شيعة من عائلات دينية في الجنوب. وتروي إحدى هذه القـــصائد الـــتي نظمها محمد حسن جابر[1]، كيف تجاهل أحمد باشا الرصاص المتطاير حـــوله، في إحـــدى المناســـبات، وتدخّل للفصل بين قريبين متخاصمين هما علي بك الأســـعد، سيّد قلعة تبنين، وتامر بك الحسين، سيّد قلعة هونين كانا يخوضان معركة قبَلِية. وقد نجح في ترتيب وقف لإطلاق النار وعقد مصالحة بينهما. لم يكن أحمد يتسم بالـــشجاعة فحسب، بل يهتم أيضاً بمصالح الناس الذين يتولّى مسؤوليتهم. وفي مقدمة مجمـــوعة القصائد تلك، روى محمد علي فرحات أن أحمد باشا عندما كان متصرّف اللاذقـــية، جمع خمسين طفلاً مميزاً من من الريف الفقير وأرسلهم إلى إستانبول لإكمال تعليمهم.

في ســـنة 1935، احـــتفل المؤرخ اللبناني الجنوبـــي نفسه، محمد جابر آل صفا، بذكـــرى أحمد باشا في مقالة في جريدة **العروبة** التي لم تعمّر طويلاً. فروى كيف كان من عادة أحمد باشا الانتقال من بيروت إلى الجنوب سنوياً لتفقّد ممتلكاته. وفي إحدى تلك الزيارات وجد أن محاصيل الحبوب والقطن ممتازة وأنّ المواشي وفيرة. وأقام أمين غـــبريس، أحد الوجهاء المحليين في النبطية مأدبة على شرفه. وعندما جلس أحمد باشا ليتناول الطعام، بسط مضيفه قطعة قماش بيضاء أمامه على الطاولة وأفرغ عليها كومة مـــن اللـــيرات الذهبية. اندهش الباشا من ذلك التصرّف الغريب، وسأل عما يعنيه. فأجاب المضيف بأنّ ذلك يشهد على الازدهار الذي تنعم به المنطقة تحت رعاية أحمد باشا السلمية!

شـــهد أحمد باشا في حياته تغييرات كبيرة، معظمها إلى الأفضل. في أوائل القرن التاســـع عشر، لم تكن بيروت أكثر من قرية صغيرة متقوقعة خلف أسوارها. وكانت تُغلـــق أبـــوابها كـــلّ ليلة لمنع اللصوص من الدخول. وخلال نصف قرن، طرأ تغيير

(1) محمـــد حـــسن جابـــر، "سلاف الأفكار في مديح حضرة المختار"، في محمد علي فرحات (محرر)، آل **الصلح**، بيروت، 1891.

كـــبير[1]. أصــــبحت بيروت مدينة منفتحة وجذّابة بعد أن كانت منغلقة على نفسها. أخذت السفن من جميع أنحاء العالم ترسو في مرفئها. في سنة 1830 كان المرفأ يستقبل 30 ألـــف طن من البضائع في السنة. وفي سنة 1860 ارتفع الرقم إلى 600 ألف طن. وازداد عـــدد السكان من 19 ألف نسمة في سنة 1846 إلى 115 ألفاً في سنة 1893. وبحلـــول 1859 رُبطت بيروت ببقية أنحاء العالم بواسطة التلغراف، ما ساعد في تطوّر تجارتهـــا الدولية. فشهدت أسواقها فيضاً من البضائع المحلية إلى جانب بضائع مستوردة من الأراضي الداخلية ومن أوروبا. قَدِمَ التجار الأجانب إلى بيروت للعيش فيها، ولحق بهـــم القناصل لحماية مصالحهم التجارية. فتكاثرت فيها المباني الجديدة – مستودعات، وفلـــل على الطراز الإيطالي، ومطاعم وفنادق. وفتح أول مصرف في العالم العربـــي أبـــوابه في بيروت، وصدرت أول صحيفة هناك في سنة 1858. وفي سنة 1862 أنعم الـــسلطان علـــى المدينة ببعض الآثار الشريفة المهمّة؛ ثلاث شعرات يقال إنها من لحية الرسول ﷺ.

أنـــشئت أولى مؤســـسات التعليم العالي في المنطقة في بيروت، وتحديداً "الكلية الإنجيلية السورية" في سنة 1866 (سمّيت لاحقاً الجامعة الأميركية في بيروت). وفي سنة 1875 افتتحت "الكلية اليسوعية"، (جامعة القديس يوسف لاحقاً). وقبل ذلك بثلاث سنوات، في 1872، أنشئ مجلس بلدي فشرع في مدّ المجاري، وشقّ الطرقات في وسط المديـــنة وتعبـــيدها (بواسطة مدْحلة بخارية تمّ شراؤها من الولايات المتحدة الأميركية بقـــيمة 3000 دولار). وعُهِدَ إلى شركة بريطانية بنقل المياه من نهر الكلب بالأنابيب، وفي سنة 1875 وصلت المياه إلى بعض المنازل والمباني العامة، على الرغم من أن معظم السكان اكتفوا بحنفيات الماء العامة. وبحلول سنة 1888، أضيئت شوارع بيروت بغاز البوتان، وأصبحت من المدن العثمانية القليلة التي تتمتع بتلك الميزة.

في 1887–1888، اعتـــرف الـــباب العالي بأهمية بيروت كمدينة ساحلية رئيسية وجعلـــها عاصمة لولاية جديدة اقتُطعت من سوريا الجغرافية، وضمّت خمسة سناجق:

(1) Nicolas Zaide, 'Beyrouth, des années soixante du XIXe siècle à 1908,' in Zahida Darwiche Jabbour (ed.), *Les Villes Cosmopolities Arabes 1870-1930, Beyrouth, Alexandria, Alep,* Beirut, 2004, pp. 13-44.

اللاذقية وطرابلس وعكّا ونابلس وبيروت نفسها. وافق السلطان على الفكرة لتمكين إستانبول من إحكام سيطرتها، والحدّ من النفوذ الأوروبي. وكان الفرنسيون، خصوصاً، قد تمكنوا من تعميق وجودهم في المشرق من خلال الرهبانيات والمدارس التي تُعلّم جيلاً بعد جيل من الطلاب المحليين وتؤثّر فيهم.

جاء إنشاء ولاية بيروت بعد عمليات اقتطاع سابقة جرت في سوريا. ففي سنة 1861، مُنح جبل لبنان، كما رأينا، وضعية خاصة كمتصرّفية مستقلة يحكمها متصرّف عثماني مسيحي. وبعد مرور عقد من الزمن، أي في سنة 1872، تمّ فصل القدس عن ولاية سوريا لتُشكل متصرّفية أخرى تعتمد بشكل مباشر على الباب العالي.

ربما كان مساء أحد أيام شهر تشرين الثاني/نوفمبر 1898 من المحطات الاجتماعية المهمة في حياة أحمد باشا عندما قدم القيصر فلهلم الثاني بصحبة زوجته لتناول طعام العشاء في ضيافته في صيدا. ووفقاً لما ترويه العائلة، تمّ على عجل شراء أدوات مائدة فضية فاخرة من أجل المناسبة. امتدت زيارة القيصر الألماني للإمبراطورية العثمانية شهراً، وجاءت بمثابة نصر دبلوماسي مميّز للسلطان عبد الحميد. وأظهرت هذه الزيارة للعالم أنه ما زال بوسعه الاعتماد على صداقة ألمانيا، حتى إذا كانت إنكلترا وفرنسا وروسيا تطمع في الاستيلاء على أراضيه. فخدم الضباط الألمان في الجيش العثماني وعملوا على تدريب تلامذة الضباط. وفكّر المصرفيّون الألمان في الاستثمار في شبكة سكة الحديد في الأناضول، بما فيها مشروع "بغدادبان" الذي كان سيربط إستانبول ببغداد.

بدأت الزيارة الإمبراطورية في إستانبول، حيث وصل القيصر وزوجته في 18 تشرين الأول/أكتوبر على متن اليخت هوهنزولرن Hohenzollern. فأُنزلا في جناح بُني خصيصاً لتلك الغاية في باحة قصر السلطان، أي قصر يلدز. وأُغدقت عليهما الهدايا وزارا المدينة وهما يمتطيان صهوة حصانين، وحضرا حفلة استقبال أقامها السلطان على شرفهما. وبعد أسبوع أبحرا إلى حيفا في طريقهما إلى القدس التي دخلها القيصر على صهوة حصان أبيض، يرافقه أصحاب المقام الرفيع من العثمانيين بالزيّ الرسمي. فزار قُبة الصخرة وكنيسة القيامة وحائط البُراق، واستقبل ممثلين عن مختلف الطوائف الدينية. وعند العودة عن طريق البر من فلسطين إلى سوريا، حلّ القيصر

وعقيلته ضيفين على العشاء إلى مائدة أحمد باشا قبل أن يتوجّها إلى دمشق، حيث زارا الجامع الأموي وضريح صلاح الدين الأيوبـــي.

كان أحمد باشا مسلماً سنياً متديّناً، ووجيهاً من وجهاء العرب، وأحد المسؤولين المخلـــصين للإمبراطورية العثمانية التي امتد عمرها 500 سنة، وكانت أكبر إمبراطورية إســـلامية مـــنذ أيام الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين. ولكن، خلال العقد الأخير من عمـــره، بدأت تسري أفكار رهيبة عن احتمال سقوط الإمبراطورية العثمانية، وتقاسم أراضـــيها بـــين القوى الأوروبية. كان الخوف من تمزيقها يجول في جميع الأذهان. من ســـيحكم الولايات العربية عندئذ؟ لذا شعر الوجهاء العرب من أمثال أحمد باشا بقلق عمـــيق. هل سيعانون من المصير نفسه الذي حلّ بمصر بعد أن احتلها البريطانيون، أو الذي حلّ بالولايات في شمال إفريقيا التي رزحت تحت الاستعمار الفرنسي؟ لقد ضعف مركز الإمبراطورية فأخذت الأطراف بالاهتزاز.

تـــوفي أحمـــد باشـــا في بيروت عام 1902، كان شيخاً جليلاً مكرّماً ذاع صيته واحتـــرامه لا في لبنان وإستانبول فحسب وإنّما في دمشق والقدس وفي أنحاء الولايات العـــربـــية أيـــضاً. وكان عند وفاته صاحب ثروة ونفوذ، يمتلك أربع قرى في جنوب لبـــنان: تول، وتمرة، والشرقية، وأرنون. كما حصل أحمد باشا على قطعة من ساحل بيروت، كانت تقع بعيداً عن المدينة في ذلك الوقت. ومع أن ملكيتها لا تعود اليوم إلى عائلـــة الـــصلح، فإنها توجد اليوم في منطقة من المدينة، وتمتد من فندق الكارلتون إلى المـــنارة. وتبرز عند الشاطئ في تلك المنطقة، صخرتان مميّزتان تسميّان الروشة (تعريب للكلمـــة الفرنـــسية rocher التي تعني صخرة)، وكانت تُعرف في ذلك الوقت باسم "صخرة الصلح".

شـــاركت حـــشود كبيرة في تشييع جثمان أحمد باشا إلى مثواه الأخير. وكانت تلـــك مـــن أكبر الجنازات التي شهدتها المدينة. تلقّت العائلة الكثير من رسائل التعزية، مـــنها واحدة من أشراف القدس الذين امتدحوا "أخلاقه ومزاياه الإسلامية الحميدة". وكان من المشيّعين حفيده رياض الذي بلغ الثامنة من عمره في ذلك الوقت.

الفصل الثاني

طفولة عثمانية

بــدا والدا رياض الصلح غير متوافقين بسبب الاختلاف الكبير بينهما في السن والطباع. فوالده رجل جدّي سريع الغضب، بينما والدته رومانسية حالمة. لذا لم يكن بيـنهما انـسجام كبير. وقلّما رافقت نظيرة زوجها رضا الصلح في مهامه المختلفة في الإمبراطورية العثمانية. ومع أنها أنجبت خمسة أولاد، لم يتمتع أي منهم بذلك النوع من العاطفة القوية التي كانت تكنّها لولدها البكر رياض. وغالباً ما كانت تصطحبه لمفرده لـزيارة مصر العليا أو الجزر اليونانية. وكانت تتوق إلى حيّز تختلي فيه بنفسها، لتقرأ وتـشغل نفـسها عـن زواج غير قائم على الحب. لكن بالرغم من هذه الغربة، ظلّ زوجها شغوفاً بها، بل يبدو أنها كانت نقطة ضعفه الوحيدة.

وُلـد رضـا الصلح في بيروت عام 1861، فيما المنطقة لا تزال ترزح تحت شبح الحرب الأهلية الدرزية – المسيحية التي هزت جبل لبنان. وهو أصغر أبناء أحمد باشا، وكـان مخـتلفاً عن كامل ومنح، أخويه اللذين يكبرانه سناً. كانا طويلين، جذابين، وسمحـين، في حـين كان رضا حازماً وأقل منهما وسامة وطولاً. أصبح كامل قاضياً عثمانـياً وخدم في ليبيا والبلقان. وترأس لاحقاً محكمة الاستئناف في دمشق. أما منح، الذي كان شاعراً ومحباً للموسيقى، فبقي في المنـزل لإدارة أملاك العائلة وتوفي شاباً.

اتـسم رضا بالوقار والهيبة، وكان متحذلقاً، شديد التمسّك بالنظام، وبيروقراطياً بالفطرة. دخل الخدمة العثمانية في عمر العشرين وتركها بعد ثمان وعشرين سنة. أقسم سكرتيره الذي بقي في خدمته مدة طويلة أنه طيلة السنوات التي عمل معه لم يره يبتسم سوى أربع مرات[1].

---

(1) مقابلة مع علياء الصلح، مونت كارلو 5–6 تشرين الأول/أكتوبر 2004. إنني مدين لها ولسلسلة من المقـالات التي كتبتها في الجريدة لو جور *Le jour* اللبنانية التي كانت تصدر في بيروت، بالكثير من التفاصيل عن طفولة رياض الصلح.

الحياة المهنية لرضا الصلح

حـــرص العثمانيون منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى سنة 1922 على تدوين كل التفاصيل المتعلقة بالحياة المهنية لكلّ موظفي الحكومة. وتوجد 92,137 سيرة ذاتية للمـــوظفين المدنـــيين في 201 ملف في أرشيف وزارة الداخلية التركية. لذا يمكن تتبّع الحياة المهنية لرضا الصلح بدقة معقولة. وتحت اسم حسن رضا صلح أفندي، تمّ تدوين كـــلّ مركز عمل فيه منذ عام 1880 إلى حين تقاعده سنة 1913[1]. هكذا نعلم بأنّه بعد إتمام دراسته في بيروت، حيث حصل على شهادة إنهاء الدراسة، شهادتنامة، توجّه في ســـن التاســـعة عشرة إلى مدينة اللاذقية، على الساحل السوري المتوسّطي الشمالي

(1) دُونـــت وظائـــف حسن رضا الصلح أفندي في الأرشيف العثماني DH. SAID 18/167، 18/168 و80/489 كالآتي:

13 أيار/مايو 1880 اللاذقية، "كاتباً أول" في تحريرات قلم.

16 أيار/مايو 1883 الشقيف (صيدا)، مدير ناحية الشقيف.

28 كانون الثاني/يناير 1885، اللاذقية (مرقب) قائم مقام قضاء مرقب.

14 أيلول/سبتمبر 1889، بيروت (مرجعيون) قائم مقام قضاء مرجعيون.

17 أيلول/سبتمبر 1888، بيروت (صافيتا)، قائم مقام قضاء صافيتا.

17 كانون الأول/ديسمبر 1890، بيروت (صافيتا)، قائم مقام قضاء صافيتا.

6 حزيران/يونيو 1892 بيروت (صور)، قائم مقام قضاء صور.

6 كانون الثاني/يناير 1896 أضنة (إصلاحية)، قائم مقام قضاء إصلاحية.

23 تموز/يوليو 1898 صيدا، قائم مقام قضاء صيدا.

9 تشرين الأول/أكتوبر 1900، بعلبك، قائم مقام قضاء بعلبك.

12 أيار/مايو 1902، نجد، متصرف في نجد.

16 تـــشرين الأول/أكتوبر 1902، جبل البركة، متصرف في سنجق جبل البركة، (وهو يعرف اليوم بالعثمانية ويقع جنوبـــي الأناضول).

21 تشرين الثاني/نوفمبر 1905، كربلاء، متصرف سنجق كربلاء.

31 كانون الثاني/يناير 1906، بولو، متصرف سنجق بولو.

11 نيسان/أبريل 1907، بريفيزا، متصرف سنجق بريفيزا.

في العاشـــر من تشرين الثاني/نوفمبر 1908، وبعد ثورة تركيا الفتاة التي أجبرت السلطان على إعادة العمـــل بالدستور. انتخب رضا الصلح مبعوثاً عن بيروت في البرلمان العثماني أو مجلس المبعوثان الذي أعـــيد انعقـــاده في إستانبول وخدم فيه إلى أن حل المجلس في 18 كانون الثاني/نوفمبر 1912. (انظر الفصل الثالث). وفي 14 شباط/فبراير 1913 تقاعد من خدمة الدولة بتعويض بلغ 1666 قرشاً، وفقاً لملاحظة دوّنت في وثائق مجلس المبعوثان.

لدراسة فن الخط والكتابة في "تحريرات قلم". كان الخط، مثل العمارة، فناً قدّره العثمانيون تقديراً كبيراً وبرعوا فيه. وكانت الرسائل الرسمية والتقارير، من الولايات البعيدة إلى الباب العالي، بمثابة الجهاز العصبي للإمبراطورية وتشكّل إنجازاً مهماً.

بعد أن أتمّ رضا تدريبه، عُيّنَ كاتباً أوّلاً في المركز الحكومي نفسه في اللاذقية في 13 أيار/مايو 1880. استقال من منصبه في 13 تشرين الأول/أكتوبر 1881 وعيّن في أيار/مايو 1883، وهو في الثانية والعشرين، مدير ناحية في منطقة صيدا. بلغ راتبه 450 قرشاً (يعادل كل 100 قرش ليرة عثمانية ذهبية واحدة. وكانت الليرة الذهبية العثمانية تعادل الجنيه الإنكليزي في ذلك الوقت). ومن إنجازات رضا كمدير، إنشاء مدرسة عثمانية رسمية في النبطية غير البعيدة عن صيدا، كجزء من محاولات الباب العالي لتحديث الإمبراطورية. وقد استُقدم المدرّسون من بيروت وطرابلس، وشكّل ذلك خطوة متقدمة عن المدارس التقليدية الدينية، أو "الكتّاب"، التي يقتصر فيها التعليم على القواعد والمنطق وتفسير القرآن الكريم[1].

ترقّى رضا الصلح بثبات، وإن لم يكن على نحو مبهر، في خدمة الإمبراطورية. كان إدارياً حازماً يتسم بالكفاءة والإخلاص، من النوع الذي يحظى بتقدير السلطان. وخلال الخمس عشرة سنة ما بين 1885 و1900 شغل رضا وظيفة قائم مقام في ثمانية مواقع: قضاء المرقب التابع لسنجق اللاذقية براتب بلغ 1250 قرشاً؛ وفي صافيتا، في الجبال جنوب حلب براتب 1750 قرشاً؛ وفي مرجعيون، في جنوب لبنان، بالراتب نفسه؛ وفي صافيتا ثانية بالراتب نفسه، وفي صور، على شاطئ لبنان الجنوبي، بالراتب نفسه؛ في إصلاحية في جنوب الأناضول براتب بلغ 2500 قرش. وقد خُفّض هذا الراتب المثير للإعجاب إلى 2250 قرشاً، عندما مرض وعاد إلى بيروت في 20 كانون الأول/ديسمبر 1897. وعندما تعافى عيّن ثانية قائم مقام في منطقة صيدا بموجب أمر خطي صادر عن السلطان بتاريخ 23 تموز/يوليو 1898. تبع ذلك تعيينه في بعلبك في وادي البقاع اللبناني في 9 تشرين الأول/أكتوبر 1900.

(1) Tamara Chalabi, *The Shi'is of Jabal Amil and the New Lebanon*, New York 2006, p. 30.

بعــد ذلــك رقي بأمر خطي صادر عن السلطان أيضاً، وشغل منصب متصرّف خمس مرات بين عامي 1902 و1907. كانت أولى وظائفه القيام بمهمة في نجد في شمال وســط شــبه الجزيــرة العــربية حــيث أمضى خمسة أشهر بين أيار/مايو وتشرين الأول/أكتوبــر 1902 بــراتب 6750 قرشــاً. وقد أُرسل إلى هناك لتقييم أهمية الأمير عــبد العزيــز ابن سعود. ففي وقت سابق من تلك السنة استعاد عبد العزيز الرياض، العاصــمة الــسعودية القبلــية القديمة، من أيدي خصومه القبليين، ليؤسس في ما بعد المملكة العربية السعودية(*).

شغل رضا بعد ذلك منصب متصرّف سنجق "سبيلي بركة"، العثمانية في جنوب الأناضول حالياً، براتب 5670 قرشاً؛ ثم متصرف كربلاء في العراق براتب 5400 قرش حــيث قدّمته معرفته للغة العربية على مرشح عثماني آخر. لكن عندما مرض واحتاج إلى عملــية جراحية، أرسل إلى دياره ليتماثل للشفاء براتب أقلّ وتمّ استبداله. وعندما تعافى عُيّن متصرف بولو Bolu في منطقة البحر الأسود الغربية في تركيا، وهي منطقة بحيرات وغابات صنوبر تقع في منتصف الطريق تقريباً بين إستانبول وأنقرة.

عائلة الصلح في سالونيك

لم يُذكــر في الأرشــيف العثماني أن رضا الصلح خدم في سالونيك، ومع ذلك يعتقد بأنه تبادل المراكز مع حاكم مقاطعة في سالونيك وعمل في المدينة. ووفقاً لأدلة شفوية نُقلت عن عائلته (وعن مربية تذكر أنهم أقاموا هناك)، يبدو أنه خدم متصرّفاً في سالونيك، على الأقل لمدة سنة في أوائل القرن العشرين.

كانــت ســالونيك في ذلك الوقت المدينة الثانية في الإمبراطورية، وتضمّ جالية يهــودية كبيرة ومزدهرة، كثير منها متحدّر من اليهود الإسبان الذي هربوا إلى البلقان في نهايــة القرن الخامس عشر عندما أصدر الملوك الكاثوليك مرسوماً يجبر كلّ اليهود علــى اعتــناق الكاثوليكــية أو التعرض إلى الطرد. بقي 50 ألفاً منهم، وتمّ تعميدهم بالقوة، وعرفوا بالمتحوّلين. وعانوا كثيراً بعد ذلك، وخصوصاً من محاكم التفتيش. إلا أن 250 ألفــاً آخرين اختاروا النفي. فرّ الكثير منهم إلى فرنسا وإنكلترا وهولندا، لكنّ

(*) على الرغم من أهمية هذه المهمة، فإنني لم أجد في الأرشيف العثماني أي إشارة أخرى إليها.

غاليـــتهم فـــضّلت مدن الإمبراطورية العثمانية الأكثر ترحاباً ودفئاً، حيث استقبلوا بحرارة وعوملـــوا معاملة حسنة بناء على أوامر من السلطان بايزيد الثاني. اختار نحو 20 ألفاً منهم مديـــنة ســـالونيك، وأحدثوا دفعاً كبيراً للتجارة والتعليم والثقافة. وسرعان ما لحق بهؤلاء الـــيهود الـــسفارديم موجات من اليهود المضطهدين الآخرين من صقلية والبرتغال، وجلبوا معهـــم مهارات وتقنيات جديدة، من بينها الحياكة. وبحلول سنة 1515، على سبيل المثال، كـــان صـــنّاع النسيج اليهود في سالونيك يزوّدون الجيش العثماني بمعظم الأقمشة اللازمة لـــصنع البـــزات العسكرية. وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر، ونتيجة تنامي العداء للساميّة في أوروبا، استمر وصول موجات جديدة من اللاجئين اليهود القادمين من فرنسا وبولندا والمجر. وسرعان ما فاق عدد اليهود أعداد السكان المسلمين والمسيحيين.

كـــان أفـــراد الطبقة العاملة من اليهود الأرثوذكس يعيشون في ظروف بائسة في سالونيك، لكنّ البورجوازيين اليهود الناجحين، من محامين وأطباء ومعلمين وتجار من جمـــيع الأنـــواع، كانوا من دعاة الاندماج في المجتمع الذين يميلون إلى الثقافة الفرنسية لأنهـــم نـــتاج التعليم في مدارس الأليانس الإسرائيلية العديدة. وقد عاش هؤلاء حياة رغـــيدة. وفي سنة 1854 أقامت عائلة اللاتيني اليهودية الإيطالية أوّل مؤسسة صناعية حديـــثة لطحن الدقيق. وفي سنة 1865 صدرت أول جريدة يمتلكها اليهود في المدينة وهـــي جريدة "اللونر" *El Lunar*. ولكنّ قضية دريفوس Dreyfus في فرنسا وجهت صـــفعة قـــوية إلى يهـــود سالونيك الليبراليين المعجبين بكل ما هو فرنسي. فبدأ تيار أيديولوجي جديد - الصهيونية - في اجتذاب المتطوعين بشكل شبه سري، وخصوصاً في صفوف الفقراء.

في ســـالونيك، اكتـــشف رضا الصلح أن اليهود يعتريهم الخوف الناتج عن عدم الـــيقين الـــذي يفاقمه انتشار الأفكار الثورية والصهيونية، على الرغم من أنهم الجالية الأكثـــر ازدهـــاراً[1]. وكان ذلك بداية احتكاكه بمصير اليهود وعرب فلسطين الذي سيصبح الشغل الشاغل له - ولولده رياض.

(1) Albertos Nar, "Social Organization and Activity of the Jewish Community in Thessaloniki", and Basil C. Gounaris, "Thessaloniki, 1830-1912: History, Economy and Society" in I. K. Hassiotis (ed.) *Thessaloniki: History and Culture*, Athens .1997

واجـــه المجـــتمع اليهودي في سالونيك أسوأ الأقدار في السنوات اللاحقة. فشب حريق مدمّر عام 1917، شرّد 54 ألف شخص ودمّر ثلاثين كنيساً، ومكاتب الحاخام الأكبر، وقضى على عدد من مدارس الأليانس والكثير غير ذلك. ووجه ضربة موجعة إلى الجالـــية لم يستفيقوا منها تماماً. لكنّ الأسوأ جاء لاحقاً. بعد أيام من دخول الألمان إلى ســـالونيك في 9 نيـــسان/أبـــريل 1941، صودر العديد من الممتلكات اليهودية أو سُـــلب. وفي سنة 1942 اقتيد كلّ الذكور اليهود ما بين 18 و45 سنة إلى معسكرات الأشـــغال الشاقّة النازية. وفي سنة 1943 جُمع من تبقّى من السكان اليهود في عربات نقل المواشي وأرسلوا إلى أوشفيتز وبيركنو Birkenau. وهناك قتل بالغاز نحو 45 ألفاً من يهود سالونيك، وهم من أكثر الجاليات تنوعاً، التي سيطرت على حياة المدينة نحو 400 سنة[1].

بعـــد هزيمة الإمبراطورية العثمانية في الحرب الروسية التركية في 1877-1878، ضمّت ولاياتها المقدونية الثلاث إلى بلغاريا بموجب اتفاقية سان ستيفانو في آذار/مارس 1878. إلا أن معاهـــدة برلين التي وقعت بعد ثلاثة شهور، أعادتها إلى الحكم العثماني. عـــاش في تلـــك الـــولايات الأتـــراكُ والألبان واليونان والصرب والبلغارن واليهود والـــرومانيون جنـــباً إلى جـــنب، لكن لم يكن الانسجام دائماً فيما بينهم. فقد كان الـــصرب والـــبلغار والـــيونان يتـــنازعون على هذه الأرض، فيما تراقبهم عن كثب الإمـــبراطورية النمـــساوية- المجرية وروسيا، وهما القوتان الخارجيتان الأكثر اهتماماً بـــشؤون الـــبلقان. في نهايـــة القرن التاسع عشر بدأت منظمات ثورية مختلفة بمهاجمة القطارات واختطاف الرهائن طلباً للفدية، وإحراق المساجد والكنائس ومهاجمة القرى وذبح أهلها.

في نيـــسان/أبريل 1903، فجّر المتمردون سفينة فرنسية في مرفأ سالونيك، فضلاً عن أنابيب الغاز، ومحطة السكة الحديدية والمركز الرئيسي للبنك العثماني. وبعد بضعة أشـــهر، في آب/أغـــسطس، أطلقت قوة ثورية مؤلفة من نحو 25 ألف شخص عصياناً شاملاً في كل أنحاء مقدونيا ما تسبّب بوقوع حمام دم. كان هدف المتمردين في الظاهر

(1) Mark Mazower, *Salonica, City of Ghosts: Christians, Muslims, and Jews*, London, 2004.

استفزاز العثمانيين للقيام بأعمال انتقامية، على أمل أن يؤدي ذلك إلى تدخل القوى الأوروبية. لكن لم يكن أحد في أوروبا يفكّر ذلك الوقت في طرد العثمانيين من مقدونيا لسوء حظ الضحايا وحسن حظ السلطان[1].

مع ذلك، تبيّن أن استعادة الأمن والنظام مكلفة جداً. فعانت الولايات الثلاث عجزاً كبيراً، ولم تعد قادرة حتى على دفع رواتب الجنود والموظفين. اقترحت الإمبراطوريتان النمساوية-المجرية والروسية أن يعهد بالإدارة المالية إلى البنك العثماني فيجبي الضرائب ويدفع رواتب الموظفين بإشراف لجنة مالية دولية. ولكنّ ذلك يعني الخضوع للوصاية الأجنبية، وهو المصير الذي طالما سعى السلطان عبد الحميد إلى تجنّبه. فحاول كسب الوقت، ولكن عندما احتشدت السفن الحربية التابعة لخمس دول على مقربة من ميناء بيرايوس (بيريه) Piraeus واستعدت للإبحار باتجاه المضيقين التركيين، أُجبر على الرضوخ، واحتلت المسألة المقدونية الصفحات الأولى للصحف في أوروبا وأميركا.

خلال الفترة التي أمضاها رضا الصلح متصرفاً في سالونيك وقع حادث هزّ حياته العائلية وكان له أثر كبير في حياة ابنه رياض. فقد انضمت زوجته، نظيرة مفتي زاده، برفقة أولادهما الخمسة إليه في مركزه في سالونيك لتمضية الإجازة الصيفية. فاجتمع هناك رياض، الابن البكر، مع شقيقتيه بلقيس وعلياء وشقيقيه أحمد ودرويش. وفي أحد الأيام، أخذ رياض وأحمد يلعبان على الشاطئ. وكان بعض الصبية اليونانيين يتسابقون جيئة وذهاباً ويقومون بجمع الخشب العائم على سطح الماء ليبنوا المتاريس ويلعبوا لعبة الحرب وهم يهتفون ويصيحون. كانوا يمثلون معركة ميسولونغي Missolonghi التي جرت عام 1823، في السنوات الأولى من حرب استقلال اليونان، حيث هزم البطل اليوناني بوتساريس Botsaris جيشاً عثمانياً مؤلّفاً من أربعة آلاف مسلم ألباني.

أراد رياض وأخوه الانضمام إليهم، لكن الصبية اليونانيين رفضوا ذلك. وصاحوا في وجهيهما، "لا يمكنكما ذلك. أنتما عربيان! والعرب عبيد للأتراك!" تألّم رياض من ذلك فحطّم المتاريس التي بناها الصبية وحمل الأخشاب إلى البحر لرميها في المياه

(1) Georgeon, *Abdülhamid II, pp.* 366-373.

العميقة. لحق به شقيقه أحمد، لكنه لم يكن يحسن السباحة، فحملته موجة إلى المياه العميقة وغرق. وعندما نُقلت جثته إلى البيت، واجه رياض والده قائلاً وهو يبكي: "أنت السبب! أنت تعمل لحساب الأتراك! لهذا مات أخي".

حزن رضا على ولده أحمد حزناً شديداً. وقيل إنّه لزم الفراش لمدة أسابيع متأثراً بمصابه. ولأن أحاسيسه جُرحت في الصميم باتّهام ابنه رياض له، فقد حاول لاحقاً إقناع ابنه بالحجة. فقال له: "حاول ألا تحكم على الناس بقسوة... لقد حاول أبي أن ينقلب على الأتراك، لكنهم نفوه إلى جزيرة رودس. وطالما حاولت أن أعمل في البلاد العربية لتحسين أوضاعها. يجب ألاّ نتمرد إلاّ عندما نكون مستعدين". دُفن أحمد في سالونيك. وفي وقت لاحق، زار رياض قبر أخيه، ووعد والدته بإعادة رفاته إلى بيروت لكنه لم يتمكّن من القيام بذلك.

بعد هذه الحادثة بوقت قليل طلب السلطان عبد الحميد مثول رضا الصلح أمامه. فقد أصبح السلطان، في السنوات اللاحقة من حكمه، يميل إلى تجاوز بيروقراطية الباب العالي والتواصل شخصياً مع ولاته. فشجعهم ذلك على رفع التقارير إليه شخصياً بواسطة شيفرة القصر. على أي حال، طلب السلطان من رضا الصلح أن يصطحب معه ولده البكر، ربما كبادرة تعزية بوفاة أحمد. ظل السلطان في جانب كبير من عهده حبيس قصر يلدز المطلّ على البوسفور. وكان القصر مجمّعاً كبيراً من الأبنية التي يضيف إليها المزيد من الأجنحة الجديدة بشكل مستمر، وسط حديقة كبيرة يُحيط بها سورٌ مرتفع.

عانى السلطان من كل أنواع المخاوف المرضية، مثل الخوف من التجمعات، والمؤامرات، والاغتيال. ولم يكن يثق بأحد. وكان أعضاء الحرس السلطاني يقيمون في ثكنات مجاورة؛ وهم خط الدفاع الأول عن سلامته ويتكوّنون من نحو 15 ألف جندي ألباني وبوسني وعربي. وبجوار القصر نشأت ضواحٍ عمرانية جديدة بنيت خصيصاً لإسكان الموظفين الرسميين والمساعدين وأفراد حاشية السلطان وجيش صغير من خدم القصر.

كان السلطان ورضا متشابهين من ناحية الشكل، مع أن رضا أصغر حجماً بقليل. وقد وصف الزوار الأجانب السلطان أنه قصير القامة، ونحيف، ومحدودب

قليلاً. بدا رأسه الكبير متوازناً على جسم يعاني من سوء التغذية. وكان ذا جبهة عريضة تعلو فوق حاجبين كثيفين مقوّسين، وعينين داكنتين غائرتين، وأنف كبير معقوف، ولحية مشذّبة ومصبوغة بالأسود. كان صوته خفيضاً مع زواره، ويتغيّر إلى حادّ ومتغطرس مع المرؤوسين. ويتمتع بذاكرة مذهلة، لاسيما للوجوه. وكان يفضّل أن يعيش حياة بسيطة في أجنحة قصره المريحة ولكن البعيدة عن الترف.

لا نعرف عن الحديث الذي دار بين السلطان ورضا، ولكن عندما فرغا من الحديث الجدي، دُعي الطفل رياض للانضمام إليهما. قرّبه السلطان إليه، وحاول أن يجلسه على حضنه، فيما يمد يده ليضع فنجان القهوة الذي يحمله جانباً. فقلب رياض بحركة مفاجئة فنجان القهوة التركية الصغير من يد السلطان على العباءة السلطانية وظهرت بقعة على مقبض سيفه. وعندما روى رياض الصلح الحادثة لأولاده لاحقاً - وما من شك في أنه بالغ في قصّته - أبدى اعتقاده أنّ تلك البقعة كانت إرهاصاً بتمردّه على العثمانيين في ما بعد.

بعد سالونيك، ومعاناة ثانية من المرض، عُيّن رضا الصلح في 11 نيسان/أبريل 1907 في بريفيزا Preveza، وهي منطقة ذات طقس معتدل على الشاطئ الأيوني. كانت بريفيزا في ذلك الوقت مرفأ ألبانياً صغيراً في القسم الأوروبي من الإمبراطورية، يقع عند لسان مائي في البحر الأيوني في ولاية يانيا. وعندما أصبح رضا متصرفاً فيها كان عدد سكانها 6500 نسمة، أربعة أخماسهم من المسيحيين الألبان واليونان وخمسهم من المسلمين. كانت المدينة محاطة بأشجار الزيتون وتباهي بينابيعها الساخنة المعروفة بفوائدها العلاجية. وكان مرفأها صغيراً لا يستقبل المراكب الكبيرة، إلا أن العديد من المراكب الصغيرة المحملة بمنتجات الألبان والجلود والصوف والزيتون وزيت الزيتون تتردّد عليه باستمرار. وبالرغم من المحيط الريفي ونسيم البحر وسحر العالم القديم، فإن متصرّف بريفيزا لم يكن منصباً من دون عمل لأن السنجق يغلي بالتوترات العنيفة. فمقدونيا تقع إلى شمال السنجق وشرقه مباشرة، حيث يوجد تمرّد قومي. كان ذلك المنصبَ الأخير الذي تولاه رضا كإداري في السلطنة. وبعد سنوات قليلة، في العام 1912، سقطت سالونيك وبريفيزا في أيدي اليونانيين.

الأم وابنها

لم تكـــن والـــدة رياض الصلح، نظيرة مفتي زاده، امرأة عربية. فقد ولدت لأب أوزبكي وأم شركسية، ولعلها واحدة من الشركس الكثيرين الذين استقرّوا في سوريا الجنوبـــية ابتداء من العقد الثامن من القرن التاسع عشر ولعبوا دوراً مهماً في الاقتصاد والتـــرتيبات الأمنية. كانت تُعتبر من الجميلات حيث ورثت بشرتنا الفاتحة، وشعرها الأشـــقر، وعينـــيها الـــزرقاوين عن والدتها، في حين أخذت شكل العينين اللوزيتين الواســعتين ووجهها المسطح عن والدها. كان هذا النوع من الخليط العرقي مألوفاً في السلطنة العثمانية. فمنذ نهاية القرن الثامن عشر، أُجبر التوسع الروسي في البحر الأسود والقـــوقاز وآسيا الوسطى السكان المسلمين على الهرب إلى السلطنة طلباً للأمان. قدم إلى الـــسلطنة في عهـــد الـــسلطان عبد الحميد الثاني (1876–1909) أكثر من مليوني مهاجر من البلقان وروسيا، أي نحو عشرة بالمئة من عدد سكان الإمبراطورية بأكملها. ولعـــل تحدّر والدة السلطان من أصول شركسية، وحبّه الشديد لها جعله حساساً جداً لمـــصير هؤلاء السكان النازحين. ففعل كلّ ما في وسعه لمساعدة المهاجرين، أنشأ قرى بأكملـــها، حـــتى سُميّ بعضها "الحميدية" باسمه. وبنى لهم المدارس والمساجد من ماله الخـــاص. وفي نهاية القرن التاسع عشر، قدّم أحد المسافرين الإنكليز، وهو السير وليم رامـــزي William Ramsay، وصفاً لأحد تلك الأماكن في شرقي الأناضول، حيث كان ينتمي سكانها إلى سبع ديانات مختلفة ويتكلمون ما لا يقلّ عن أربع عشرة لغة[1].

كانت والدة نظيرة تدعى فريدة، وهي ابنة الأمير حجي باسلان القائد الشركسي الذي حارب الروس وهُزم. وعندما هرب من القوقاز استقر أولاً في مصر. يُقال إنه لم يـــنجُ في تلـــك الرحلة الطويلة والخطرة سوى هو وابنتيه، فريدة وصفوت، وجاريتاه الشركـــسيتان، بوران وفريال. رحّب الخديوي إسماعيل بالأمير وأكرم وفادته، فأهداه الأمـــير فـــريال عرفاناً بالجميل. وفي الوقت المناسب، قدّمت هذه الجارية إلى ابن الخديوي، الأمير توفيق. فولدت فؤاد، الذي أصبح، في ما بعد، الملك فؤاد الأول.

(1) Sir William Mitchell Ramsay, "*The Intermixture of Races in Asia Minor, Some of its Causes and Effects*", Proceedings of the British Academy, vol. VII, London, H. Milford, 1917 quoted in Georgeon, *Abdülhamid II*, p. 320.

وقـــد أنجـــب الملـــك فـــاروق، ابن الملك فؤاد، بنتاً سُميّت فريال باسم جدّهما الشركسية.

بعدما لبث الأمير حجي باسلان بضعة أشهر في مصر، سافر إلى إستانبول، وعهد بابنتيه الاثنتين إلى السلطان نفسه قبل وفاته بقليل. تزوجت الفتاتان في نهاية المطاف من شـــقيقين أوزبكيين، شريف وأمين رحيم خان، اللذين كانا مثلهما من ضحايا التوسّع الروســـي الإمبريالي. كان أمين قائداً لجيش محمد رحيم كول، أحد آخر خانات خيفا Khiva، عاصمة خانية أوزبك في آسيا الوسطى قبل أن تجتاحها القوات الروسية. أجبر على التراجع بعدما هُزمت القوة الصغيرة التي يقودها. فشجّ محارب قوزاقي أعلى رأسه بالـــسيف، ولو لم يضمّد شقيقه الأكبر، شريف، الجرح بالعسل، الذي كان يستعمله المغـــول بمـــثابة بلسم، ويخِط الجرح بخيط مصنوع من جلد الماعز، ويربطه على ظهر جواده للقيام بالرحلة المضنية، لما نجا من موت محقّق. كان عليهما أن يقطعا الصحاري والسهوب والجبال والوديان ليصلا إلى الأناضول، حيث سبقهم لاجئون أوزبكيون.

وصـــل أمـــين إلى تركيا معافى جسدياً لكنّه تغيّر روحانياً. غيّرته رحلته الطويلة الـــشاقّة، فـــتحوّل المحارب الباسل إلى متصوّف. تعمق في العلوم الدينية وأصبح مفتياً لمديـــنة أزرينغان Azringan الصغيرة في الأناضول واكتسبت سلالته اسم "مفتي زادة" نـــسبة إلى لقـــبه. وعندما مات، ترك وراءه زوجته فريدة مع طفلين صغيرين، صبـــي وبنت. كان عمر الفتاة، نظيرة، سنتين في ذلك الوقت.

كـــان شريف، شقيق أمين، أكثر تعلّقاً بالدنيا ومتاعها. فتابع رحلته إلى إستانبول ودخل الخدمة في قصر السلطان، وارتقى في النهاية ليصبح دفتردار، أي مسؤولاً مالياً، يـــسافر إلى الـــولايات العربية في السلطنة في مهمات مختلفة. جاء بأرملة شقيقه فريدة وابنة شقيقه نظيرة وشقيقها ليعيشوا معه في إستانبول. وفي الوقت الملائم عيّن دفتردار ولايـــة بيروت، وكانت في ذلك الوقت مدينة أكثر انفتاحاً على العالم، وبالتالي مكاناً أفضل لجمع المعلومات لصالح السلطنة العثمانية من مدينة دمشق التي تقع في الداخل.

في بيروت، بنى شريف منـــزلاً كبيراً في حي ميناء الحصن البحري الراقي المواجه للبحـــر، مقابل موقع فندق السان جورج اليوم. في هذا البيت عاش مع عائلته وعائلة شـــقيقه المتوفى أمين. في غضون ذلك، كبرت نظيرة لتصبح شابة مثقّفة. بعدما ارتادت

مدرسة "الأخوات البروسيات" في بيروت، أنهت تعليمها في مؤسسة إسلامية، "جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية"[1]. فأتقنت العربية والألمانية إلى جانب اللغة التركية. وكانت مولعة بالموسيقى. علّمها موسيقي يهودي، اسمه مُراد، العزف على آلة القانون بينما علمتها ابنة شقيقة مراد، ليلى، الغناء والرقص. ولأن عمّها الطموح، شريف، أراد الظهور بمظهر متميّز في المجتمع اللبناني، فقد قرّر أن يزوّجها بأحد الوجهاء العرب. فوقع اختياره على رضا أفندي، الابن الأصغر لأحمد باشا الصلح. كانت نظيرة في السادسة عشرة، بينما يكبرها رضا بمثل سنّها. وكان يشغل آنذاك منصب قائم مقام قضاء صور في جنوب لبنان.

لم ترَ نظيرة زوجها قبل الزواج. وتروي العائلة أنها طلبت إعادتها إلى البيت عندما وقع نظرها عليه! ويبدو أنها كانت معجبة بضابط تركي شاب ووسيم في الحرس السلطاني يدعى صفوت بك، قدم زائراً إلى بيروت من إستانبول. ربما جذبها سلوكه المهذّب وكتفيّتاه المذهبتان وجزمته اللماعة، وأملت في الاقتران به. وقد تقدم لخطبتها بالفعل، لكن عمها رفض طلبه إذ كان يرغب في أن يختار لها زوجاً من العائلات الرفيعة المقام في بيروت.

بعد الزواج، انتقل رضا ونظيرة ليعيشا في بيت عمها في ميناء الحصن. وفي ذلك البيت ولد رياض الصلح في 17 آب/أغسطس 1894. ورياض لغة جمع روضة، أي الحديقة. وكان هذا الاسم مألوفاً بين الأقباط المصريين فقط في القرن التاسع عشر، وغير معروف في أي مكان آخر في العالم العربي. أراد أحمد باشا أن يُسمي حفيده علي وصفي، تيمناً بالإمام علي، ابن عم النبي ﷺ ورابع الخلفاء الراشدين، و"وصفي" باسم أحد أصدقائه. ولكنّ رضا الصلح كان يفضّل اسم "رياض". فكتب إلى والده ليبلغه أنه يوافق على اسم علي ورجاه أن يمنحه اسم رياض. لذا تمّ التوافق

(1) انظر مقابلة مع نظيرة مفتي زاده في مجلة أوراق لبنانية رئيس التحرير يوسف إبراهيم يزبك، الجزء الرابع، نيسان/أبريل 1955. تمّ إنشاء مدرستين للمقاصد للبنين واحدة في بيروت والأخرى في صيدا في تموز/يوليو 1875، تبعها إنشاء مدرستين للبنات بعد شهرين فقط. تبنت هذه المدارس المناهج والأساليب التعليمية نفسها التي اتّبعتها مدارس الإرساليات المسيحية. وفي 1882، أغلقت الحكومة العثمانية مدارس المقاصد وأدخلت مدارسها في النظام الرسمي، ولكن عندما تدنى المستوى بشكل فظيع، استعادت الجمعية نشاطها في 1908.

علـــى أن يُسمّى الصبـــي "علي رياض". لكن سرعان ما أسقط اسم علي وبقي اسم ريـــاض، وأصبح اسماً معروفاً في المنطقة. ويبدو أن كل من حملوا اسم رياض في لبنان، ولدوا بعد ولادة رياض الصلح.

نشأ رياض في منـــزل تغلب عليه النساء. فقد كان والده غائباً عن البيت في الغالب، فـــضلاً عن أنه متحفّظ ومرهوب الجانب. و لم يكن رياض ينسجم مع عالم الأساطير الذي مـــلأ حياة والدة رياض، نظيرة؛ وجدته فريدة، وعمته زهية التي تقيم معهم أيضاً؛ ومربيته الـــسوداء الأفـــريقية دادا تفاحة. كان لدى كل منهن قصص طويلة تخبرها، وكل منهن تضمر أحزاناً مريرة، وتتوق إلى الانتصاف ممن ظلمها. وهكذا كانت تدور حروب تحرير حماســـية على مائدة العشاء. وشكّلت الأحلام الأوزبكية والشركسية بالانتقام من الروس البغيـــضين جـــزءاً من حياتهم اليومية. كانت جدته فريدة تغني له أغاني شركسية، وتعلمه الـــرقص بالـــسيف، وتلبسه الملابس الشركسية مع أحزمة الخرطوش وتحثه على الذهاب لتحريـــر الجـــبال الشركسية. وعندما تغضب منه كانت تشتمه بأسوأ شتيمة في قاموسها فتنعـــته "بالمـــسكوفي البائس". وفي أوقات أخرى، كانت ترسل شعرها الذهبـــي، الذي يـــصل إلى كاحلـــيها، ويخالطـــه الـــشيب كلما تقدّم بها العمر، وتستعرض معه أرجاء المنـــــزل - تمـــثّل دور الملكة وهو الوصيف حاملاً شعرها المتدلّي كأنه ذيل ثوبها. كانت هـــذه الاستعراضـــات تقـــام دائماً تكريماً لشخص واحد - والدها المتوفى الأمير حجي باســـلان. وطالما أخبرت رياض أن قامة والدها كانت منتصبة ومستقيمة كالرمح. وأنه لم يخفـــض بـــصره قطّ، فلم يكن يعرف لون الأرض. وكانت عباءته تظهر في روايتها دائماً مزيّنة بالخيوط الذهبية فيما تمتلئ خيامه بالنساء المتعطّرات. وفي الولائم المسائية كان يُجلس فـــريدة على ركبته ويمسك بيديها الصغيرتين ويستمتع بمتابعة إيقاع الموسيقى. وفي إحدى اللـــيالي اجـــتاح فرســـان القيْصر مساكنهم وأشعلوا فيها النيران. هربت مجموعة من مئة شـــخص من جورجيا إلى مصر، لكن لم ينجُ سوى خمسة أشخاص فقط من هذه الرحلة الطـــويلة من جورجيا إلى مصر. وعلى الرغم من أن رياض الصلح لم يتعلّم أياً من اللغات الشركـــسية، فقد كان باستطاعته ترديد بعض العبارات التي تعلّمها من جدته على طريقة الـــببغاوات. وقـــد أخـــبر ابنته علياء في ما بعد أنه كلما هَتَفَت له الحشود أو حملتْهُ على أكتافها، كانت تلك العبارات الشركسية ترد إلى ذهنه ويردّدها في سره بصوت خفيض.

ولكـــي لا تـــتغلّب الـــوالدة علـــى ابنتها بأقاصيصها، كانت نظيرة، ابنة القائد الأوزبكـــي أمـــين رحيم خان، ترفع ثوبها أحياناً وتنـــزل جوربها وتضع رياض على فخـــذيها وتـــؤرجحه إلى أعلى وأسفل كأنه يمتطي حصاناً من دون سرج مثل فارس حقيقـــي من بلدها الأم. ثم تصيح، "عندما يعدو الحصان بأقصى سرعة! بوم! ويسقط روسي آخر صريعاً"! أخبرته أن جدّه أمين كان يصيد النمور، ويسمّى "نمر النمور" إذ قـــيل إنه يروّض النمور بنظراته الثاقبة. لم تكن تمل من إخبار ابنها أن "منطقة خيفا ما كانت لتسقط في أيدي الروس لو لم يصب والدي بجرح بليغ". أمّا عمة رياض، زهية، فكانت حازمة مثل شقيقها رضا، وعُرفت بشخصيتها القوية. وكانت قد تزوجت لمدة قـــصيرة مـــن شخص من آل شمبور من طرابلس - يقال إنه متحدّر من الكونت دي شامبور الصليبـــي. وعند وفاة زوجها خلّف لها كل أراضيه ما جعلها غنية ومستقلة. وكانـــت تمـــتلك مفتاحاً قديماً لبيت في قرطبة طُرد منه أسلافها العرب. وعند موتها، تـــركت لرياض جميع ممتلكاتها بما فيها ذلك المفتاح. وكانت دادا تفاحة، مربية رياض المحـــبوبة، تريد استرجاع موطن ضائع أيضاً. فقد اختطفها تجار العبيد في مكان ما في شرق إفريقية، وقُدّمت إلى سلطان زنجبار. وقدّمها بدوره إلى أحمد باشا، لكنها ظلّت تحـــنّ إلى جذورها سنوات بعد ذلك. إذاً هؤلاء هنّ النسوة الأربع اللواتي أشرفن على تربية رياض، وأسهمن بطريقة ما في تحديد طبيعة حياته السياسية المتنوعة والدراماتيكية.

لم يكن رياض الصلح حتى وقت متقدّم من سني مراهقته يعرف الكثير عن العالم الخارجـــي، سوى ما روته تلك النسوة عنه. وبما أنّه تعلّم في البيت معظم الوقت، فقد كـــان لهـــن تـــأثير كبير فيه. وما من شك في أنهن علّمنه الحماسة للتحرّر. وساعدت الأســـاطير التي ملأن مخيلته بها في إقناعه أن مهمته في الحياة أن يصبح محرّراً وأن يعتق المظلـــومين. لم يكـــن يهمه المال أو المكانة كثيراً، وبدا أنه لا يعرف الخوف. ولعله لم يُـــواجه الحـــياة الواقعـــية، وربما كان ذلك من الأسباب التي مكّنته من تحدّي الأتراك والفرنسيين في وقت لاحق بشجاعة فائقة.

من بين تلك النساء النساء الأربع، كان لوالدته نظيرة، بطبيعة الحال، أعظم الأثر فيه. فعلى الرغم من وفاة أربعة من أولادها الخمسة في أثناء حياتها، فإنها لم تسمح بأن تهـــزمها الحياة إذ إنها علّقت آمالها على رياض. كانت معلمته الأولى وزرعت فيه حب

القـــراءة والـــتاريخ والشعر وعلم النبات. في سنّ السادسة، تعلّم كيف يحلّل الأزهار ويـــصنّفها في فصائل. و لم يكد يهتم بجداول الضرب أو الجمع أو الطرح، لأن والدته كانـــت تعـــتقد أن الأرقام "تفسد الروح". وقد لازمه موطن ضعفه هذا طوال حياته، وربما شجّعه ذلك على أن يبدّد من دون حساب ثروة حرصت عائلته على جمعها عبر الأجيال.

لم يُرســـل رياض إلى المدرسة إلا في وقت متأخر من طفولته، وبصورة متقّطعة. عـــندما بلـــغ التاسعة، قرّر والده أن الوقت قد حان لإنهاء عطلته الطويلة وتعاقد مع معلمـــين اثـــنين لتعليمه في المنـــزل ومرافقة العائلة في أثناء أسفارها. أحدهما حسني الجـــندي، وهو سوري مسلم من دمشق علمه العربية والتاريخ والجغرافيا والرياضيات والعلـــوم. والآخر جوزيف خوري، وهو لبناني مسيحي علّمه اللغة الفرنسية بالإضافة إلى العناصـــر الأساسية للغات التركية والفارسية واللاتينية. لا شك في أن هذا المنهاج التعليمـــي كان طموحاً بالنسبة إلى ولد بدأ التعلّم في سنّ متأخرة. كان حسني الجندي شـــغوفاً بالـــبلاغة والخطابـــة. وكان يحب أن يوقف رياض أمام المرآة ويطرح عليه موضوعاً قائلاً، "تخيل أن حشداً غاضباً اقتحم قصر الحاكم. فماذا يفعل الحاكم"؟

فيجـــيب الـــصبـــي عاقـــداً حاجبيه: "يجب أن يُظهر غضبه ويتحدّى الجموع ليكسب احترامها".

فـــيقول المعلّـــم، "جيد! لكن هذا لا يكفي. بعد إظهار غضبه، يجب أن يهدّئ الحـــشود، ويغيّـــر الجوّ السائد ويبتسم. عليه أن يغدق عليهم الوعود بكلمات رنانة، وينهي كلامه بتعليق بارع أو بحادثة عاطفية، وعليه أن يتظاهر بأنه يرويها لأول مرة". بعـــد سنوات طويلة، عندما شاهدت علياء، ابنة رياض، والدها وهو يلقي خطاباً أمام الـــبرلمان اللبناني في سنة 1950، أدركت أنه يعيد أداء سيناريوهات تدرّب عليها جيداً مع معلّمه.

في ســـنة 1905، أدخل رضا الصلح ابنه رياض الكلية العثمانية الإسلامية. وهي مؤســـسة شهيرة أنشأها الشيخ أحمد عباس الأزهري في بيروت في سنة 1895. وكان الطـــلاب يفدون إليها من جميع أنحاء المنطقة لدراسة العلوم الدينية، والأدب العربـــي، وقـــواعد اللغـــة والـــبرهان والمـــنطق. أضيفت اللغة الفرنسية لاحقاً وكذلك بعض

الموضـــوعات الأخرى المأخوذة من المدارس الأجنبية. وقد تخرّج فيها كثير من أعضاء الجمعيات القومية العربية التي قامت في ما بعد. كتب رضا إلى زوجته، التي اصطحبت ولدها معها إلى أسوان في مصر العليا، ليُعلِمها بقراره إدخال رياض إلى تلك الكلية.

عزيزتي أم رياض،
أدركت أسباب حزنك، وأخّرت إرسال ولدك رياض إلى المدرسة، ولكنني أرى أن ذلك لا يمكن أن يستمر. سيلتحق ابننا الصغير بالكلية العثمانية. إنها مدرســة ممتازة، ويمكن الحكم على ذلك أن اليسوعيين يقبلون تلامذتها من دون امتحان خاص. مديرها هو الشيخ أحمد عبّاس، الذي كان أستاذي في المدرسة الوطنية. وسيكون بمثابة الأم والأب لولدك رياض.
لا تخـــافي بهـــذا الخصوص، وتذكرّي أنه كلما أردت رؤية ابنك فسيُرسل إليك مع مبعوث خاص يتركه عندك بضعة أيام قبل إرجاعه إلى المدرسة.
ســـيعدك الشيخ بأن لا يُسمح لأحد بزيارة رياض أو أخذه خارج المدرسة حتى بأوامر من جدته أو عمته.

الإمضاء
حسن رضا

أمـــضى ريـــاض بعد ذلك مدة قصيرة في مدرسة العازارية في عينطورة في جبل لبـــنان – وهي أول مؤسسة فرنسية للتعليم العالي في لبنان، وقد أنشئت في سنة 1734 – قـــبل أن يمضي بضع سنوات في الكلية اليسوعية في بيروت، حيث أتقن الفرنسية واكتسب المعرفة بالديانة المسيحية. يقال إنّ صورة العذراء الباكية سقطت ذات يوم في في قاعة الطعام في الكلية من كتاب الصلاة لطالب زميل، شارل قرم[1]، اتفق أنه كان يجلـــس بقربه. فالتقطها رياض وتأثّر بالصورة ورغب في معرفة المزيد، وتعلّم ما يكفي لـــربح الجائزة الأولى في الإجابة عن أسئلة ملخّص تعاليم الدين! ولكنه تمرّد أيضاً على التعالـــيم الدينـــية التقشّفية التي لا تلائم طبيعته. كان الآباء في المدرسة يلبسون أردية

(1) أصـــبح شارل قرم (1895–1963) المدافع الأول عن الهوية اللبنانية المسيحية. أسس "المجلة الفينيقية" *Revue Phénicienne* ونشر ثلاثة دواوين شعرية ممجداً مزايا جبل لبنان.

سوداء ويعلّمون الأولاد التواضع ونكران الذات والابتعاد عن كل المتع الحسيّة واللذات الدنيوية. بالمقابل، كان رياض يُقبل على الحياة فاتحاً ذراعية وينتظر بفارغ الصبر اليوم الذي يغادر فيه المدرسة.

كان منزل العائلة في ميناء الحصن يقع بالقرب من المتنزه البحري لمدينة بيروت، حيث تتنزّه النساء جيئة وذهاباً في عربات مكشوفة للمسيحيات وعربات مغطاة بالستائر للمسلمات. وفي أيام الآحاد، يخرج تلامذة اليسوعية في نزهات طويلة ويتوقّفون للراحة على صخور الشاطئ أسفل الطريق. وهناك كانت نظيرة الصلح تنظّم الألعاب وتقدّم الطعام إلى رياض ورفاقه. وذات مرة استطاعت أن تجمع خمس أو ستّ آلات أورغ برميلية لعزف الألحان الرائجة. وفي مناسبة أخرى جمعت ثمانية من "صناديق الفرجة" لتسلية الأولاد، بينما كان خدّامها يوزّعون الوجبات الخفيفة التي يسهل تناولها بمقدار ما تسهل تخبئتها. وكان رياض ينجح دائماً في مغافلة المراقبين بضع دقائق ليعانق والدته، ويطلب منها برنامج تسلية جديداً للأحد القادم.

بقي رياض قريباً جداً من والدته طوال حياته. وعندما أصبح رجلاً ناضجاً، ظلّ يقبّل يدها كل يوم وينتظر بركتها. وكان يستأذنها كلما أراد أن يخرج من البيت، بصرف النظر عن عدد مرات خروجه. وعندئذ كانت تضع يدها على كتفه وتسأله إذا كان سيخرج باتجاه اليمين أو اليسار. وعندما يعلمها بأي اتجاه سيسير، تقف خلف المشربية في الطابق الثاني من المنزل وتتلو آية الكرسي:

﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِه يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِه إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾.

ثَمّ تنفخ ببطء حتى يحمل نفَسها العناية الإلهية باتجاه ابنها لتحيطه بالحماية. كانت تكبره بسبع عشرة سنة فقط. وعندما توفيت في أوائل سنة 1951، لم يشعر رياض بفداحة الخسارة فحسب، بل كان مقتنعاً أن الحظ فارقَهُ. لا شك في أن شعوره كان في محله، فلم تمضِ على وفاتها ثلاثة أشهر حتى اغتيل.

كانت الوفاة المبكّرة أو الإعاقة التي أصابت أخويه وأختيه، تعني أن رياض الصلح نشأ كأنّه ولد وحيد. توفيت شقيقته بلقيس التي تزوجت من ابن عمها سامي الصلح في عمر الخامسة والعشرين. أما شقيقته علياء فقضت بداء السلّ في الثامنة عشرة تاركة وراءها مجموعة من القصائد غير المنشورة. وأصيب شقيقه درويش بالإعاقة بعد مرضه بالتهاب السحايا في طفولته. لذلك كانت كلّ آمال العائلة معقودة على رياض. ومن الواضح أن وجود والدته التي أغدقت عليه الاهتمام، وعزّزت ثقته بنفسه، ودعمته بحبّها كان ذا أهمية حاسمة في تطوّره. وكذا تحدّره من عائلة من الموظفين الحكوميين والسياسيين والكتّاب والشعراء. لم يكن في آل الصلح رجال أعمال أو أطباء أو مهندسون أو معماريون. لذا فإن نشأته في مثل هذه البيئة جعلت الخدمة العامة الخيار الواضح أمامه.

الفصل الثالث

التعلّم في ظلّ الثورة

وصل آل الصلح إلى إستانبول في نهاية صيف 1908، أي بعد عدة أسابيع من انتهاء ثورة 23 تموز/يوليو على حكم السلطان عبد الحميد. كان رياض في الرابعة عشرة من عمره. وشكّل السفر إلى عاصمة الإمبراطورية في أثناء تلك الفوضى الثورية مصدر قلق لوالديه، رضا الصلح، النائب المنتخب حديثاً عن بيروت، وزوجته نظيرة. ساد المدينة جوّ من الاضطراب والهياج، مع أنه لا يمكن أيضاً إنكار تراجع العنف وانعدام الأمن. بقي السلطان، الذي عَمِلَ رضا الصلح في خدمته طيلة حياته العملية، في قصر يلدز، لكن انتُزع كثير من صلاحياته من قبل الانقلابيين الأتراك الذين لا تعرف أصولهم على وجه اليقين ولديهم نيات دخيلة. فمن أهداف ثوّار تركيا الفتاة إحلال نظام دستوري برلماني على النموذج الغربي محل حكم السلطان المطلق[1]. بدا ذلك بالنسبة إلى الكثيرين كأنه قفزة في المجهول. فمثل هذا التغيير الجذري لا يمكن أن يحدث من دون آلام أو بين ليلة وضحاها. لذا كان لا بد من فترة انتقالية تسودها الفوضى حيث قاتل النظام الجديد لتثبيت أقدامه، فيما رفض النظام القديم الاعتراف بالهزيمة وتابع التآمر والتخطيط لإعادة نظام السلطنة.

كانت المدينة التي اكتشفها آل الصلح في أوائل القرن العشرين عاصمة مكتظّة بالسكان، تعدّ نحو 900,000 نسمة. وكان شارع بيرا الرئيسي فيها، يطلق عليه اليوم اسم جادة الاستقلال، مليئاً بالفنادق والمسارح والمتاجر العصرية واستديوهات التصوير والسفارات الأجنبية، وجميعها بنيت بأساليب معمارية مختلفة، تتراوح بين الكلاسيكية

(1) اعتمدت على تسلسل الأحداث في هذا الفصل على Aykut Kansu, *Politics in Post-Revolutionary Turkey, 1908-1913*, (Leiden 2000); Hasan Kayali, *Arabs and Young Turks: Ottomanism, Arabism and Islamism in the Ottoman Empire, 1908-1918*, Berkeley 1997; and on Feroz Ahmad, *The Young Turks*, Oxford, 1969.

الجديــدة والروكوكو والفن الحديث[1]. لكن ثمة إستانبول أخرى - مفرطة الازدحام، تفــوح منها الروائح الكريهة وتجتاحها الحرائق باستمرار. هناك، كان يمضي الفلاحون الــنازحون مــن الريف إلى المدينة حياتهم البائسة، ويعيشون على الصدقات أو الطعام الذي يقدّم في المساجد. وانضمّ إليهم اللاجئون المعدمون الآتون من البلقان وروسيا.

بما أن رضا الصلح نشأ في بيروت، الميناء التي تحوّلت إلى حاضرة عالمية تضجّ بالحــيوية في أواخــر القــرن التاسع عشر، فقد كان مطّلعاً على الأفكار الغربية، والمــدارس الإرســالية، والتجّار والقناصل الأجانب الذين ساهموا في نمو اقتصاد المديــنة. لذا فإنه كان مراقباً ناقداً للوضع العثماني. واستفاد من تجربته المباشرة في العديــد من الولايات فاطلع عن كثب على مقدار تدهور الحكم العثماني في عهد عــبد الحمــيد، والركود والتخلّف الذي أصاب الإمبراطورية مقارنة بالمجتمعات الأوروبــيّة. فاعــتقد في بادئ الأمر أن الثورة التركية تطوّر واعد؛ إلى أن دفعته الأحداث إلى تغيير رأيه لاحقاً.

تركيا الفتاة تقتحم مسرح الأحداث

لم يكن أعضاء تركيا الفتاة قوميين أتراكاً بالمعنى الحرفي؛ أو على الأقل لم يكونوا كــذلك بعــد. فالجمعــية السرية التي شكّلوها في سالونيك باسم "جمعية الاتحاد والترقــي" لم تكــن تقتــصر على الأتراك. فقد كتب المؤرخ البريطاني ر. و. سيتون واتسون R.W Seton-Watson في كتاب نشر عام 1917، أي بعد أقل من عشر سنوات علــى حــدوث الثورة، "منذ البداية، لم تكد تجد أحداً بين قادتها الحقيقيين من أصول تركية صافية"[2]. كان معظم المنتمين إلى تركيا الفتاة من المسلمين العثمانيين بمن فيهم الألــبان والــشركس، بالإضافة إلى اليهود والدونمة (اليهود الذين اعتنقوا الإسلام)، والبلغاريين المسيحيين والأرمن واليونانيين. وكان معظم قادتها من الماسونيين. وجاءت ثــورتهم تــتويجاً لــسنوات من التحريض شبه السري والتخطيط، لاسيما في باريس

(1) Georgeon, *Abdülhamid II*, p. 333.

(2) Robert Wilson Seton-Watson, *The Rise of Nationality in the Balkans*, London 1917, pp. 135-6, quoted in Zeine, *Arab-Turkish Relations and the Emergence of Arab Nationalism*, Beirut 1958, *p.* 77.

والقاهرة، بغية كبح الصلاحيات المطلقة للسلطان وتجنّب دمار الإمبراطورية الذي خشيت تركيا الفتاة حدوثه. وقد رفعوا شعاري "الحرية" و"الدستور"[1].

حدثت نقطة التحول الحاسمة عندما انضم إلى تركيا الفتاة عديل السلطان، داماد محمود جلال الدين باشا صاحب الثروة والجاه. وأصبح ابنه الأمير صباح الدين من المنظمين الرئيسيين لأول مؤتمر لتركيا الفتاة في سنة 1902 في باريس. كان يوجد في ذلك الوقت تياران أساسيان في الحركة. الأول بقيادة صباح الدين، وقد دعا إلى إجراء تغييرات جذرية في المجتمع العثماني، عن طريق اللامركزية والتجارة الحرّة. والثاني بقيادة أحمد رضا بك، وقد اجتذب إلى صفوفه ضباطاً عسكريين طموحين، وبدا بوضوح أنه قومي تركي لا يطيق العثمانية، شكّل القوة الرئيسية خلف المؤتمر الثاني لتركيا الفتاة في سنة 1907. كان الهدف الرئيسي لهذا المؤتمر توحيد المعارضة في مواجهة نظام السلطان[2]. دعا هؤلاء الراديكاليون إلى التمرّد المكشوف على السلطان لإنقاذ الإمبراطورية من الطغيان و"القوى الحاقدة الجشعة التي تقبض عليها"[3]. فقد أغضبتهم سيطرة القوى الأوروبية على اقتصاد الإمبراطورية واستغلاله، حيث تخضع سوق الأسهم في إستانبول للسيطرة الأجنبية، وكذلك خطوط الشحن الأساسية، وشركات التأمين ومنشآت الاستيراد والتصدير. وكانت إدارة الدَّين العام العثماني والبنك الإمبراطوري العثماني الجهتين الرئيسيتين المسؤولتين عن السيطرة المالية الأجنبية. كما أن الامتيازات الأجنبية الكريهة - التي تُذكّر باسمها ونطاقها بتلك التي فرضها الملوك الكاثوليك على مسلمي الأندلس المهزومين - قيّدت السيادة العثمانية وكبّلتها. ومنحت امتيازات واسعة للأوروبيين وربائبهم المحليين وللطوائف المسيحية التي يحميها القناصل الأجانب.

انتشرت الأفكار الثورية في ولايات الإمبراطورية النائية، عن طريق الضباط والمسؤولين والطلاب المعارضين الذين نفى عبد الحميد مجموعات كبيرة منهم إلى الحجاز واليمن وشرق الأناضول، بل حتى إلى صحراء فزّان في ليبيا التي كانت

---

(1) للاطلاع على تقييم علمي لتركيا الفتاة، انظر Erik J. Zurcher, *Turkey: A Modern History*, London 1993.

(2) Kayali, *Arabs and Young Turks*, p. 44.

(3) Zeine N. Zeine, *Arab-Turkish Relations* p. 63.

للسلطان بمثابة "سيبيريا صحراوية"[1]. وساد شعور بالتململ في أوساط القوات في كل أنحـاء الإمـبراطورية. فشهدت سنوات ما قبل الثورة مباشرة تمرّدات متكرّرة للجيش ناجمة في الغالب عن إرسالهم للقتال والموت من دون جدوى في مناطق موحشة، وفوق ذلك تحتجز رواتبهم. ففي سنة 1907 مثلاً، ثار أكثر من ألف جندي لدى عودتهم من الـيمن إلى بـيروت، فاحتجزوا الحاكم العثماني، وأمين الصندوق، والقائد العسكري المحلي ولم يوافقوا على إطلاق سراحهم إلاّ بعد تسلّم رواتبهم المتأخرة. كانت التقاليد العثمانـية تـدلّل الضباط، لكنها تعامل الجنود بقسوة. ففي تموز/يوليو 1908 كانت الإمبراطورية تضم 50,000 ضابط و250,000 عسكري، أي ضابط لكل خمسة جنود! وقـد مُنح كثير من الضباط في الجيش رتبهم بسبب حظوتهم لدى السلطان وقرابتهم إليه بغضّ النظر عن كفاءتهم أو حاجة المؤسسة العسكرية الفعلية إلى خدماتهم[2].

عـند اعـتلاء عبد الحميد العرش في سنة 1876 وهو في الثالثة والثلاثين، أقنعه الـصدر الأعظم مدحت باشا، باعتماد دستور للسلطنة ودعوة البرلمان إلى الاجتماع. ونصحه بمنح حكام الولايات قدراً أكبر من الاستقلال الذاتي، واستكمال الإصلاحات الجذرية التي أدخلها السلطان عبد المجيد الأول في سنة 1839، ثمّ وسعها في سنة 1865، واشـتهرت باسم "التنظيمات". سعت هذه الإصلاحات إلى إعادة تشكيل المؤسسات العثمانـية علـى النموذج الغربـي، لاسيما العلاقة بين السلطان وبيروقراطية الدولة، بالإضافة إلى المساواة بين جميع الرعايا العثمانيين من دون تمييز عرقي أو ديني.

قَـبِلَ عـبد الحمـيد نصيحة مدحت باشا إلى حدٍّ كبير لأنه يواجه خطر حرب وشيكة مع روسيا. وربما تصوّر أنه باعتماد دستور وتشكيل برلمان يكسب مكاناً بين ملـوك أوروبـا المتنوّرين، ويعزل القيصر ويتفادى نـزاعاً يلوح في الأفق. لذا عندما اجـتمع الـبرلمان العـثماني في 18 آذار/مارس 1877، بدا كأن عصراً جديداً قد بدأ، تُحكَـم فيه الإمبراطورية بواسطة ثلاث قوى متوازنة تقريباً، وهي السلطان والبرلمان وبيروقـراطية الباب العالي. لكن وقعت الحرب مع روسيا، وسرعان ما صدّت الهزيمة العثمانية المنكرة في 1877-1878 عبد الحميد عن أي توجه ديمقراطي. فاختار أن ينظر

(1) Georgeon, *Abdülhamid II*, p. 159.

(2) Muçafir, *Notes sur la Jeune Turquie*, Paris 1911, p. 26.

إلى الكارثة كدليل قاطع على فشل التنظيمات. وتخلّص من القيود المعتمدة حديثاً على صـــلاحياته المطلقة، وحل البرلمان في 14 شباط/فبراير 1878، أي بعد أقل من سنة من انعقـــاده، ونفـــى النواب الأكثر جرأة في التعبير عن آرائهم عن إستانبول. بعد سحق التجربة الديمقراطية الوجيزة، شرع السلطان في تعزيز حكمه الشخصي بمساعدة جيش مـــن الجواســـيس وحكم إداري يدين بالولاء له وحده. مع ذلك استمرّ مثال النظام الدستوري في عقول الرجال طوال ما تبقى من سنوات حكم عبد الحميد المطلق.

وفي 23 تمـــوز/يولـــيو 1908 ثـــار قادة تركيا الفتاة وحلفاؤهم العسكريون في موناســـتير Monastir باسم البرلمان والدستور. وسرعان ما هبّت المدن الأخرى دعماً لهـــم. أرسلت برقيات صارمة إلى السلطان (كان مكتب التلغراف في سالونيكا بإدارة طلعت بك، أحد الوجوه البارزة في تركيا الفتاة) تحذّره من أن الجيش الثالث سيجتاح العاصمة لم تتم إعادة العمل بدستور 1876. وحمل مزيد من البرقيات الأخبار إلى المدن في مختلف أنحاء الإمبراطورية. ولما كان عبد الحميد يخشى من الاغتيال، ولا يغيب عن بالـــه مصير السلطان عبد العزيز (سلفه قبل المباشر) الذي قُتل في انقلاب دبّره ضباط الجيش وبعض رجال القصر المدنيين المؤيّدين لإصلاحات التنظيمات، فقد وافق مكرهاً علـــى عـــودة رجال تركيا الفتاة إلى العاصمة. كما وافق على إعادة العمل بالدستور الذي علّقه قبل ثلاثين عاماً.

شـــرع رجـــال تركيا الفتاة بتنظيم انتخابات برلمانية فور إحكام سيطرتهم على إستانبول. وتعهّدوا بإحلال نظام برلماني دستوري محل حكم عبد الحميد الاستبدادي. وأعلنوا أن كل رعايا الإمبراطورية، أياً كانت عرقهم أو دينهم، "مواطنون من الدرجة الأولى" متـــساوون في الحقـــوق كمـــا في الواجبات، مثل دفع الضرائب، والخدمة في الجـــيش. لم تعـــد هناك امتيازات للأقليات أو الأجانب أو الأشخاص الآخرين الذين يتمـــتّعون بالحظـــوة. كان مثلهم الأعلى إنشاء دولة مركزية حديثة موحّدة ومتعددة الـــثقافات، قـــادرة على حماية الإمبراطورية من الانتهاكات الخطيرة للقوى الأوروبية. لقـــيت ثورة 1908 ترحيباً حماسياً واسعاً في جميع أنحاء الإمبراطورية، وفتحت الأبواب أمام تدفّق التعبير عن الاعتداد بالنفس. فاحتفل المسلمون والمسيحيون واليهود في جميع المـــدن الكـــبرى بـــنهاية الاستبداد العثماني. وظهرت التجمعات السياسية الإسلامية

واليونانـــية والأرمنية، وتشكّلت أولى الاتحادات العمّالية والجمعيات النسائية، وأُطلق سراح السجناء السياسيين ورُفعت الرقابة، ووجد جواسيس القصر ومخبروه أنفسهم مجبرين على الهرب والاختباء. وعاد العديد من المنفيين الذين أبعدهم السلطان إلى ديارهم.

كـــان الـــشعور الجديد بالحرية أكثر ما يميّز هذه الحالة الجديدة. فأضرب عمّال تحميل السفن وتفريغها وموظفو شركة الغاز في بيروت، كما توقّف عمّال سكة حديد دمـــشق – حماة، عن العمل مطالبين برفع أجورهم وتحسين ظروف العمل[1]. وعقدت اجتماعات سياسية لا عدّ لها، فيما جرت نقاشات لاذعة في أعمدة الصحف الصاخبة، وصـــدر في بـــضعة أشـــهر ما لا يقل عن 353 مجلة وصحيفة[2]، بالإضافة إلى خمس وثلاثـــين أخرى في سوريا كما نشر في بيروت نحو ضعف هذا العدد في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى[3].

نائب في مجلس المبعوثان العثماني

كـــان رضـــا الصلح في سنته الأولى في إستانبول لا يزال شاباً نسبياً في السابعة والأربعين من العمر[4]، على الرغم من اعتلال صحّته. وقد أحيل إلى التقاعد بعد ثمان وعـــشرين ســـنة في الخدمـــة العثمانية، بما في ذلك خمس سنوات تولّى فيها منصب متـــصرّف، وعاد إلى لبنان ليُنتخب عضواً في البرلمان العثماني – مجلس المبعوثان الذي عـــاود الاجـــتماع حديثاً، كأحد نائبين عن بيروت. كان النائب الآخر الوجيه كامل الأســـعد، رأس إحدى أبرز العائلات السياسية المالكة للأراضي في جنوب لبنان، وهي من قرية الطيبة ومعقلهم تبنين. كان آل الأسعد من الموالين للحكم العثماني، وقد شغل خلـــيل بك، والد كامل بك، منصب متصرف نابلس. عاش آل الصلح وآل الأسعد جنباً إلى جنب لأجيال، على وئام حيناً وتنافس وخصام أحياناً.

(1) Kayali, *Arabs and Young Turks*, p. 59.

(2) المصدر نفسه، ص 53.

(3) Rashid Khalidi, 'Abd al-Ghani al-Uraisi and Al-Mufid' in Marwan R. Buheiry (ed.) *Intellectual Life in the Arab East, 1890-1939*, Beirut 1981.

(4) أو 45، إذا كـــنا سنوافق على تصحيح تاريخ ميلاده كما ورد في الأرشيف العثماني. انظر الحاشية 4 في الفصل الأول.

أقام آل الصلح في الحي السكني الجديد شمال "ساحة تقسيم" كسائر النخبة في إستانبول، وكان يقطنه في ذلك الوقت الأوروبيون والأتراك الأغنياء والعرب المشرقيون والأرمن واليونان واليهود. في بداية القرن الماضي، كان هذا المجتمع العالمي، الذي يتحدّث الفرنسية بمعظمه، يضمّ الباشوات والبكوات والدبلوماسيين الأجانب والتجار الأغنياء وكبار المسؤولين والضباط الذين يجتمعون في النوادي ويشاهدون المسرحيات الفرنسية ويستمتعون بالسينما، الصرعة الجديدة في ذلك الوقت. لكن لم يعد أحد واثقاً مما يخبّئه المستقبل.

بجوار آل الصلح، سكن عزمي بك، أصبح في ما بعد الحاكم العثماني في بيروت خلال الحرب العالمية الأولى. ونشأت صداقة بين أولاد الأسرتين عبر حائط الحديقة حيث شكّلت أغصان شجرة ليمون موقعاً مرتفعاً مفيداً. وسرعان ما أغرم الشاب رياض بممدوحة، ابنة عزمي بك المراهقة، وأخذا يتبادلان الرسائل السرّية المكتوبة على ورق يلفّ حول ليمونة ويرمى من جانب الحديقة إلى الآخر. كان رياض يتسلّق الجدار بجرأة ليختبئ في بعض الأحيان مع حبيبته تحت درج بيتها. وفي أحد الأيام، تعرّض عزمي بك، الذي كان يعاني من الربو، لنوبة أشدّ من المعتاد. ولما كان رياض في المنزل في ذلك الوقت، فقد أسرع لاستدعاء الطبيب، وأنقذت حياة البك في الوقت المناسب. (سيكون لهذه الحادثة أهمية كبيرة في وقت لاحق)[1].

لم يُنتخب نواب مجلس المبعوثان الأول في 1877 عن طريق التصويت الشعبي، بل سمّتهم المجالس الإدارية في مختلف الولايات. لكن بموجب قانون الانتخابات لسنة 1908، انتُخب النواب بالاقتراع على مرحلتين. في الاقتراع الأول، انتخب المواطنون الذكور من دافعي الضرائب فوق سن الخامسة والعشرين الناخبين الثانويين، الذين انتخبوا بدورهم نواب البرلمان، بحسب العدد المحدد لكل سنجق. لم تكن هذه العملية الانتخابية أمراً مألوفاً بالنسبة إلى رضا الصلح، بل عالماً جديداً من الأحزاب السياسية والاجتماعات العامة والحملات الصحافية، بالإضافة إلى المناقشات البرلمانية العاصفة.

أجريت تغييرات كبيرة في المناصب الرفيعة للبيروقراطية العثمانية. فطُرد نحو 3000 مسؤول عثماني بحلول منتصف آب/أغسطس، واستُبدل جميع السفراء وحكّام

(1) مقابلة مع علياء الصلح، مونت كارلو، 6 تشرين الأول/أكتوبر 2004.

الـــولايات خلال عشرين شهراً. وصُرف الكثير من الأشخاص الذين عرفهم رضا أو تواصل معهم خلال سنين عمله الطويلة.

واجه عدد من العرب الذين شغلوا مراكز بارزة في قصر يلدز أو حوله الكثير من الصعوبات. قَبض الثوار على نجيب باشا ملحمة، وهو ماروني من لبنان، والرئيس غير الرسمـــي لشرطة السلطان السرّية والمسؤول عن أمن عبد الحميد الشخصي، وهو يحمل وثائـــق ســـرية وما لا يقل عن 63,000 ليرة عثمانية نقداً. وكان السوري عزّت باشا العابـــد، أمـــين السرّ الثاني للسلطان، والمستشار المقرّب منه، ورئيس كتّاب العربية في الـــباب العـــالي[1]. بعـــد أن تعلّم اللغتين العربية والفرنسية وأتقنهما في مدارس الآباء العـــازاريين، اســـتدعي للعمـــل في خدمة السلطان في سنة 1895. واكتسب على مرّ الـــسنين نفـــوذاً كبيراً، وترأس عدة لجان في القصر. كما كان الوسيط الرئيسي بين السلطان والشخصيات البارزة في الولايات العربية بمن فيهم عائلات دمشق البارزة التي ينتمـــي إلى إحـــداها. وقد حتّم ذلك تعامله طويلاً مع رضا الصلح. ولكنه هرب إلى خـــارج البلاد عندما استولت تركيا الفتاة على السلطة. لم يكن ذلك فألاً حسناً على النوّاب العرب مثل رضا، أو المسؤولين العرب الذين لا يزالون في مناصبهم، وسيستبعد كثير منهم عما قريب.

يُذكـــر عزت باشا اليوم للدور الرئيسي الذي لعبه في إنشاء سكة حديد الحجاز؛ وهـــي خط بطول 2000 كيلومتر أحدث ثورة في الرحلة بين دمشق والمدينة المنورة. فقـــد شكّلت الطريق عبر سوريا صلة الوصل المهمّة بين إستانبول والمدينتين المقدّستين في شبه الجزيرة العربية على مدى قرون عديدة. وكانت الطريق المفضّل لأعضاء أسرة الـــسلطان وكـــبار المـــسؤولين العثمانيين والتجّار، وللحجاج الذين يقصدون الديار المقدّسة للحج سنوياً. قبل بناء سكة الحديد، كان الحجاج يعانون من رحلة بريّة شاقة تستغرق 40 يوماً. وغالباً ما يتعرضون للكمائن والسرقة التي تقوم بها القبائل السلاّبة. لذا اضطر السلاطين العثمانيون إلى بذل جهود كبيرة في تنظيم قافلة الحج وحمايتها[2]. وكـــان عـــزت باشا قد شهد في شبابه في دمشق الصعوبات التي يكابدها الحجاج في

(1) Georgeon, *Abdülhamid II*, pp. 364-5, 387.

(2) Elizabeth Sirriyeh, *Sufi Visionary of Ottoman Damascus: 'Abd al-Ghani al-Nabulsi, 1641-1731*, London 2005, p. 39.

الذهاب إلى مكة، والمشكلات التي تواجهها السلطات العثمانية في نقل القوات والمؤن إلى الحجاز. وفي وقت لاحق درس الطريقة التي اتبعها الروس في بناء سكة الحديد عبر سيبيريا واستفاد من دروسها. وبناء على إلحاحه، أصدر السلطان أمراً ببناء السكة الحديدية في 2 أيار/مايو 1900.

اقترح عزت باشا فكرة تمويل المشروع من تبرعات المسلمين في كل أنحاء العالم. تعهّد السلطان بتقديم 45,000 جنيه إسترليني من ماله الخاص. ويحتوي أرشيف الصدر الأعظم في إستانبول اليوم على ستة مجلدات تضمّ أكثر من 20,000 اسم، ما يشهد على نجاح حملة التبرعات[1]. وبتوفير وسيلة أسرع وأكثر أمناً وأقل تكلفة للسفر إلى الحجاز، تمكّن السلطان عبد الحميد من إظهار تقاه واهتمامه بالأماكن المقدّسة. واكتسب مكانة سياسية بمجاراة الإنجازات الصناعية الأوروبية بمشروع كبير خاص به. في سنة 1908 وصلت سكة الحديد إلى المدينة المنوّرة حيث افتتحت المحطة في الأول من أيلول/سبتمبر[2]. غير أن تركيا الفتاة كانت قد استولت على السلطة في ذلك الوقت، فآثر عزت باشا المغادرة بسرعة.

كره الباشوات العثمانيون، مثل عزت باشا، ووجهاء النظام القديم الآخرين المشهد السياسي الجديد وغير المألوف. ولم يكن لديهم خبرة في الحياة السياسية سوى المناورة للحصول على السلطة والنفوذ داخل بيروقراطيات الباب العالي والقصر. فتعهّدوا منذ اليوم الأول تقريباً بإسقاط نظام تركيا الفتاة الاتحادي. ومع أن سيطرتهم استمرت على مجلس الشيوخ في البرلمان الجديد، فقد شغل المجلس الأدنى "رجال جدد" - ألبان وعرب وسلافيون وأرمن ويونانيون ويهود يتوقون إلى إسماع أصواتهم في مناخ الحرية الجديد، على الرغم من إعلانهم الولاء للسلطان والخلافة الإسلامية. على سبيل المثال، أراد اليونانيون والأرمن أن تصبح لغتاهم من لغات الدولة.

إلى جانب رضا الصلح، قدم إلى إستانبول لافتتاح *مجلس المبعوثان* في سنة 1908 نوّاب عرب من بينهم نافع باشا الجابري، نائب حلب وابن مفتي المدينة. وقد شغل

(1) James Nicholson, 'The Hejaz Railway', *Journal of the Society for Asian Affairs*, 37 (3), November 2006, p. 322.

(2) للاطلاع على رواية مفصّلة انظر W. Ochsenwald, *The Hijaz Railway*, Charlottesville, VA, 1980

عـــضوية البرلمان العثماني في سنة 1877 قبل ثلاثين عاماً، وهو لا يزال في العقد الثالث مـــن عمـــره، ليصرف إلى دياره عندما علق السلطان العمل بالدستور. وكان النائب الوحيد من برلمان 1877 الذي جلس في برلمان 1908، ما منحه وزناً ومكانة مميزين[1]. وقـــد بـــادر إلى تشكيل مجموعة برلمانية عربية ترمي إلى الحصول على تمثيل نسبـــي للعـــرب في البرلمان الجديد وبيروقراطية الدولة[2]. وبعد عدة سنوات من وفاة الجابري، تزوّج رياض الصلح من ابنته فائزة في سنة 1930.

ومن زملاء رضا الصلح العرب أيضاً عبد الحميد الزهراوي، وهو ابن عائلة دينية في حمص. رجع إلى دياره بعد سفره إلى القاهرة وإستانبول عند إعادة العمل بالدستور، حيث انتُخب نائباً عن حمص في البرلمان العثماني[3]. كما كان من بين زملائه الآخرين ثلاثـــة نـــوّاب من دمشق، جميعهم من عائلات معروفة: شفيق مؤيد العظم، ورشدي الشمعة، وعبد الرحمن اليوسف. لكن اشتُبه أن اليوسف، وهو تاجر غنم ومالك أراضٍ كـــردي ثري، موالٍ للفرنسيين ومعادٍ للعرب، وهو ما تبيّنت صحّته لاحقاً، فهُزِمَ في الانـــتخابات الفرعيةً في سنة 1911 في دمشق أمام شكري العسلي، الذي انتقل عندئذ إلى إستانبول وانضم إلى النوّاب العرب.

وجـــد رضـــا الصلح في إستانبول جالية عربية كبيرة، يبلغ تعدادها عدة آلاف، وتتكوّن من طلاب ومسؤولين ورجال أعمال وضباط. وفي أيلول/سبتمبر 1908، أنشأ العديـــد من هؤلاء العرب جمعية الإخاء العربـــي العثماني، فأقامت حفلاً كبيراً صاخباً ترحيباً بالنواب العرب[4].

لكـــن خلف واجهة الابتهاج الكبير، ساد كثير من القلق والترقّب لدى النواب العـــرب بـــشأن ما يمكن أن تعنيه نتائج ثورة تركيا الفتاة في الواقع. فتوخّوا الحذر في بـــادئ الأمر وفضّلوا مراقبة اتجاه الريح السياسية. ولكنهم شعروا منذ البداية بأنهم لم يعطَـــوا نسبة عادلة من التمثيل. فمن مجموع 288 نائباً في المجلس، حصل العرب على

(1) Kayali, *Arabs and Young Turks*, p. 27.

(2) المصدر نفسه، ص 70.

(3) Ahmad Tarabein, 'Abd al-Hamid al-Zahrawi: The Career and Thought of an Arab Nationalist', in Rashid Khalidi et. al. (eds.), *The Origins of Arab Nationalism*, New York, 1991.

(4) Kayali, *Arabs and Young Turks*, p. 67.

60 نائباً مقابل 147 نائباً تركياً. وعلى الرغم من أن العرب في الإمبراطورية أكثر عدداً من الأتراك، فقد بقي عددهم في المجلس ونفوذهم ضعيفاً جداً. وأصبح ذلك مصدر ألم دائـــم. ومن بين جميع المناصب الوزارية المتاحة، لم يُمنح العرب سوى وزارة الأوقاف ذات النفوذ السياسي الضئيل، إذا كان لها نفوذ أصلاً.

كانـــت مشكلة العرب الرئيسية في تلك الأوقات التي تكتنفها الريبة عدم وجود صـــوت مسموع لهم في إستانبول. وقد تغيّر ذلك الواقع تدريجياً مع مجيء نظام برلماني ملائـــم، حيث تمكّن العرب عندئذ من المشاركة في الحياة السياسية للعاصمة العثمانية لأول مـــرة. ومن المفارقة أن البرلمان العثماني منحهم فرصة كافية للتعبير عن شكاواهم كعـــرب، والنـــضال مـــن أجل قضاياهم الخاصة. ومن القضايا الرئيسية التي شغلتهم آنـــذاك: عدم إعطائهم الفرصة العادلة لتولّي مناصب مهمّة؛ وإحلال اللغة التركية محل اللغـــة العربية، التي حظيت تقليديّاً بتقدير العثمانيين إن لم يكن إجلالهم، باعتبارها لغة القـــرآن؛ وتساهل قيادة جمعية الاتحاد والترقي بشأن الاستيطان الصهيوني في فلسطين، بل بدا أنها تحبّذه سراً.

عُقـــدت أول جلـــسة للـــبرلمان في 17 كانون الأول/ديسمبر 1908[1]. ضجّت إســـتانبول بالحركة في ذلك الصباح. اصطفّ الجنود على الطرقات، وانتشر الفرسان وضـــباط الصف ببدلاتهم الزاهية عند تقاطع الطرقات. واندفعت الجماهير المبتهجة إلى المديـــنة عبر الجسور فوق القرن الذهبـــي. وانتظر حارس شرف أمام مبنى البرلمان في ظـــلّ مـــسجد آيا صوفيا. كان رياض ووالدته نظيرة هناك يرافقهما بعض الخدم. في صبيحة ذلك اليوم غمرت الفرحة آل الصلح، عندما أُقِلّ رضا إلى البرلمان، بعد ارتدائه لباسه الرسمي لهذه المناسبة.

قـــرر السلطان، بعد تردد كبير، حضور مراسم الافتتاح. فحيّته الجماهير الموالية بالغناء والهتاف عند وصوله في العربة الملكية في الساعة 12:30 يرافقه ابنه الأمير برهان الدين والصدر الأعظم. وحلّت الراية السلطانية محل العلم التركي فوق البرلمان. جلس السلطان، مرتدياً زياً عسكرياً بسيطاً، على منصة مواجهة لمئتي نائب يرتدون معاطف

(1) Kansu, *Politics in Post-Revolutionary Turkey*, pp. 24-28; Georgeon, *Abdülhamid II*, pp. 415-416; *The Times*, 18 December 1908, 'Opening of Parliament by the Sultan: Scenes in Stambul'.

سوداء ويعتمرون طرابيش حمراء - وهي مجموعة كئيبة قلّلت من رتابتها عمائم علماء الــدين البيضاء والخضراء والبدلات الزرقاء لنحو اثني عشر نائباً من العسكريين. وإلى أقــصى اليمين جلس أعضاء مجلس الشيوخ: المارشالات والجنرالات بلباسهم الرسمي الكامل، بالإضافة إلى الوزراء الذين ارتدوا السترات المطرزة بخيوط الذهب.

وقــف علي جاويد، أمين السر الأول للسلطان، لقراءة الخطاب السلطاني الذي أعلــن فــيه الــسلطان أن الدستور من عمله وأنه علّق العمل به سابقاً تبعاً لنصيحة المسؤولين الذين اعتبروا أن الشعب ليس لديه النضج لتقبّله. أما وقد انتشر التعليم الآن بفــضل المدارس التي أنشأها بنفسه، فمن الطبيعي أن يقرر إعادة دعوة مجلس المبعوثان للانعقاد! وقد علّق مؤرخ تركي أن ذلك كان "بالتأكيد أغرب تبرير يقدّمه مستبدّ عن أسباب قمع الحرية"[(1)]. وختم بالتأكيد على نيته "المطلقة وغير القابلة للتغيير" بالمحافظة علــى الحياة الدستورية، فصفّق النواب عندئذ وأقسموا يمين الولاء له وللدستور. تبع هــذا التصريح تحية من مئة طلقة نارية. وتعالت هتافات الجماهير حينما عَزَفَت الفرق المجــتمعة النشيد الدستوري. وصلت صوت مقاطع من النشيد إلى المجلس، واختلط مع الهــتافات الصاخبة، عندما شق السلطان يتبعه الوزراء والنواب والسفراء طريقهم إلى خارج المبنى.

دعا السلطان جميع النواب ورضا الصلح من بينهم بعد نحو أسبوعين إلى مأدبة في قــصر يلدز[(2)]. وقد تابع بنفسه كل تفاصيل هذه المناسبة، حيث اختار قائمة الطعام، وأمــر الموســيقيين بعزف ألحان وطنية خلال المأدبة، وأشرف على تنسيق الموائد على شــكل حدوة حصان ضخمة، واضعاً مقعده في الوسط تماماً. اختار السلطان الظهور بلباس رسميّ، وجلس إلى يمينه الصدر الأعظم وإلى يساره عدوّه السابق أحمد رضا بك، الذي كان يرأس إحدى فئات تركيا الفتاة قبل استيلائها على السلطة، وانتخب رئيساً للمجلــس بعد عودته من منفاه الطويل في باريس. تحدّث أحمد رضا بك مع السلطان بمــودّة، فأخبره أنه تعلّم الطهو في منفاه بفرنسا، لأنه يفضل الطعام التركي على المطبخ الفرنــسي. ألقى علي جاويد خطاب السلطان ثانية، وفيه كرّر الوعود التي أعلنها في

(1) Kansu, *Politics in Post-Revolutionary Turkey*, p. 26.

(2) Georgeon, *Abdülhamid II*, pp. 416-417.

المجلس. استُقبل الخطاب بتصفيق مطوّل وهتافات "عاش السلطان". حتى إن أحد النواب ولشدّة حماسته، وقف على كرسي وهتف "أهلاً أهلاً بالسلطان! أهلاً بدولتنا الجديدة!" وقف السلطان احتراماً لأحمد رضا بك عندما أجاب بخطاب بليغ أن شعوب الشرق لم تعرف حجم هذا الفرح منذ قدوم الإسلام قبل ثلاثة عشر قرناً! بعد انتهاء المأدبة، انتقل النواب إلى الصالون الكبير حيث قدّمهم أحمد رضا بك إلى السلطان. قبّل بعضهم يده، وحاول أحدهم تقبيل قدميه. تظاهر السلطان بالسرور بهذه المناسبة، على الرغم من الكراهية الشديدة التي يضمرها لهؤلاء الثوريين الحديثي النعمة. أما رجال تركيا الفتاة، فقد شعروا الآن أنهم كبحوا سلطة السلطان، ولم يعودوا يعتبرونه تهديداً ومن ثم يمكنهم أن يظهروا الفروسية.

الشكاوى العربية

عاش رياض الصلح الشاب مع والديه في إستانبول بين الرابعة عشرة والتاسعة عشرة (1908-1913) من عمره، وهي فترة تكوينية مهمة اكتسب فيها ثقافة سياسية جيّدة. فقرأ الانتقادات الغاضبة في الصحافة، وتابع المبارزات الخطابية في البرلمان، وأعمال التمّرد، والحروب، والمؤامرات، وجرائم القتل، والثورات والثورات المضادّة التي حصلت في تلك الفترة. باختصار، شهد احتضار إمبراطورية عظيمة. ولعلّ النقاشات على مائدة والده شكّلت مدرسة بحدّ ذاتها. انتُخب معظم النواب العرب، بمن فيهم رضا الصلح، تحت راية جمعية الاتحاد والترقي. ولكن خلال عام واحد، ابتعد كثير منهم عنها وأصبحوا أقرب إلى المعارضة الموالية للنظام القديم.

نجم التوتر بين النواب العرب وجمعية الاتحاد والترقي عن مجموعة من الشكوك والشكاوى غير المعلنة. ولم يكن النواب العرب يثقون تماماً بقيادة تركيا الفتاة، بسبب نشوئها في المحافل الماسونية في سالونيك التي اشتبهوا بخضوعها للنفوذ الصهيوني. وكان رضا الصلح خاصة قد لاحظ دينامية المجتمع اليهودي في سالونيك خلال عمله هناك قبل بضع سنوات، وشهد بصورة مباشرة انتشار الأفكار الصهيونية في صفوفه[25]. كما

(25)مقابلة مع علياء الصلح، مونت كارلو، 4-5 تشرين الأول/أكتوبر 2004.

تخــوّف العرب من أن تؤدي سياسات إضفاء المركزية والديمقراطية التي اتبعتها جمعية الاتحــاد والترقــي إلى تقــويض النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي السائد في الولايات العربية. فمعظم النواب العرب، مثل رضا الصلح نفسه، ينتمون إلى عائلات ملاّكــين أو عائلات دينية بارزة طالما أدّت دور الوسيط التقليدي بين السكان المحليين والسلطات العثمانية[1].

بعــد إصـــلاحات "التنظيمات" في القرن التاسع عشر، انضم هؤلاء الوجهاء إلى المجــالس الإدارية والمحاكم والهيئات البلدية الأخرى للاحتفاظ بقدر من النفوذ المحلي. ففي سوريا مثلاً، سعت عائلتا العظم ومردم بك، وسواهما، إلى الحصول على مناصب إداريــة عثمانــية للحفاظ على مكانتها الرفيعة، وحقّقت مرادها. لكن أفكار جمعية الاتحــاد والترقي بشأن المساواة الاجتماعية بين المواطنين، وسياستها المركزية التي تقوم علــى الحكــم المباشــر من إستانبول، كانت تهدد موقع هؤلاء الأشخاص المهمين في الــولايات ومكانــتهم. وخشي الملاّكون في دمشق وحماة وحلب وبيروت وجنوب لبــنان، ومنهم من يملك عدة قرى بأكملها، من فقدان سلطتهم على فلاحيهم. ورأى بطاركــة الطوائف المسيحية المتعددة، الذين اعتادوا السيطرة على رعيتهم، أن برنامج جمعــية الاتحاد والترقي يشكّل خطراً على امتيازاتهم. وخافوا من انهيار نظام الملة الذي طالمــا تمتعوا به، وكان هذا النظام قد منح الطوائف غير المسلمة في الإمبراطورية حقّ إدارة شــؤونها بنفــسها وجعل من البطاركة قادة سياسيين مهمّين لهم مصالحهم الثابتة[2].

كانت فكرة "القومية" في الإمبراطورية في القرن التاسع عشر، بالمعنى الأوروبــي الغربــي الرومانــسي، لا تزال نادرة. لذا فإن الهوية السياسية لرعايا السلطان غير المــسلمين هي الهوية العثمانية فقط، لكنهم يدينون بالولاء "القومي"، إذا صحَّ التعبير، للملّة الدينية التي ينتمون إليها.

(1) انظر 'Ottoman Reform and the Politics of Notables' in Albert Hourani, *The Emergence of the Modern Middle East*, London 1981.

(2) Kayali, *Arabs and Young Turks*, pp. 63, 82.

مسألة اللغة العربية

لعل الشكوى الرئيسية التي حملت أبعاداً كبيرة منذ سنة 1909 تزايد اقتناع العرب بأنهم أصبحوا ضحايا التمييز الثقافي واللغوي، وأن لغتهم تواجه خطر استبدال اللغة التركية بها في النظام التعليمي، والحكم الإداري، والمحاكم. وقد حاولت جمعية الاتحاد والترقي فرض استعمال اللغة التركية العثمانية في جميع مجالات الحياة العامة (وفشلت). ويبدو أن هذه القضية، أكثر من أي قضية أخرى، دفعت بعض العرب إلى التفكير في أن عليهم الآن التحريض للحصول على استقلال ذاتي داخل الإمبراطورية. وكان من المحتّم أن يشعر العرب بشيء من التفوق الثقافي على الأتراك الذين يسعون الآن إلى تهميشهم، وبخاصة أن الوحي نزل على النبي محمد ﷺ باللغة العربية. كما أن العرب هم الذين نشروا الدين الإسلامي في العالم وأقاموا في أثناء ذلك حضارة عالمية عظيمة. وقد شكّل الارتباط العضوي للغة العربية بالثقافة الإسلامية أساس الهوية العربية حتى عند المسيحيين العرب[1]. فالإسلام هو الذي حافظ على ترابط الإمبراطورية معاً طوال قرون عديدة، ووحدّ بين شعوب متباينة في أماكن واسعة الانتشار. ولا شك في أنه كان العامل الرئيسي في العلاقات العربية التركية على مدى أربعة قرون تقريباً، منذ أن هزم السلطان سليم الأول المماليك وفتح مصر وسوريا في 1516 – 1517. فجميع رعايا السلطان المسلمين "إخوة في الإسلام" – أي أنهم مسلمون قبل أن يكونوا عرباً أو أتراكاً[2]. لكن العرب تعرضوا لصدمة نفسية عظيمة، في أعقاب ثورة 1908، عندما أدركوا أن هذه المعطيات التاريخية المهمة لم تعد صالحة فحسب، بل أخذت تُعكس بسرعة أيضاً.

لم تبلغ هذه الشكاوى الكبيرة حدّ الدافع إلى الانفصال بعد. فقد بقي الرأي العربي في السنوات الأولى من البرلمان العثماني مندفعاً في اتجاه الوحدة داخل إطار الإمبراطورية. لذا لم يفكّر رجال من أمثال رضا الصلح وزملائه العرب في البرلمان العثماني في انفصال العرب عن الإمبراطورية. بل تابعوا تمسّكهم بالأيديولوجية العثمانية التقليدية لدولة متعددة الأعراق والأديان، ولم يتوصّلوا في ذلك الوقت إلى تصوّر "أمة عربية" قائمة على إقليم محدّد. كل ما أرادوه مزيداً من النفوذ والاعتراف داخل نظام خبروه وجرّبوه.

---

(1) المصدر نفسه، ص 38.

(2) Zeine, *Arab-Turkish Relations*, pp. 29, 36-37.

خلع السلطان

وقعت مشادّات لفظية حادة، منذ الأيام الأولى للبرلمان الجديد، بين النواب الموالين للسلطنة والاتحاديّين، ووجدت هذه الخلافات صدى خارج المجلس في إشاعات عن مؤامرات حاكتها المعارضة وأحبطتها الشرطة. وعندما بدأ الصدر الأعظم الضعيف كامل باشا يميل نحو معسكر المعارضة، طالب الاتحاديون بتصويت فوري على حجب الثقة عنه وإسقاطه. واستبدل به حسين حلمي باشا، وهو رجل يشاطرهم اهتماماتهم. قرر رضا الصلح وأغلبية النواب العرب دعم كامل باشا على الرغم من أنهم انتُخبوا تحت راية جمعية الاتحاد والترقي - وكان ذلك أول عمل مشترك يقوم به التكتل البرلماني العربي بقيادة نافع باشا الجابري.

تبيّن أن تلك الخطوة لم تكن حكيمة، إذ أُسقط كامل باشا بالتصويت على حجب الثقة في 13 شباط/فبراير 1909. كانت غلطته الإساءة إلى الجيش الذي يوالي جمعية الاتحاد والترقي إلى حدّ كبير. ففي وقت سابق من ذلك الشهر، طُرد وزير الحربية علي رضا باشا عقاباً له على رفض إخراج القوات الموالية لجمعية الاتحاد والترقي من إستانبول واستبدال قوات موالية للسلطان بها. وعيّن السلطان محله ناظم باشا، قائد الفيلق العسكري الثاني في أدرنة، وهو ضابط عربي معروف بعدائه لضباط الجمعية. لكن عندما عيّن حسين حلمي باشا - المرشّح الذي تفضّله جمعية الاتحاد والترقي - في منصب الصدر الأعظم، فإنه عمد على الفور إلى طرد ناظم باشا وإعادة تعيين علي رضا باشا وزيراً للحربية. أدّت التغييرات السريعة في الوزارة، بالإضافة إلى تحركات الفرق العسكرية واغتيال المحرّر الموالي للسلطان حسن فهمي أفندي في 6 نيسان/أبريل، إلى إحداث مناخ عاصف من النزاع المدني. فخرج عشرات الآلاف من المعارضين للجمعية لحضور جنازة المحرّر.

هيّأ المناخ لثورة مضادة موالية للسلطان ابتداءً من ليل 12-13 نيسان/أبريل 1909[1]، حين تمرّد الآلاف من عناصر الحرس السلطاني والوحدات الأخرى، واحتجزوا ضباطهم وتجمّعوا في الساحة الرئيسية أمام البرلمان. وبعد أن ألهب المحرّضون مشاعرهم،

(1) يشار إليها أحياناً في التقويم القديم بحادثة "31 آذار/مارس".

طالبوا بفرض الشريعة الإسلامية، لأنهم أبلغوا - كما زُعم لاحقاً - بأن جمعية الاتحاد والترقي تنوي إجبار جميع المسلمين على اعتناق المسيحية! استولوا على مبنى البرلمان ووزارة الحربية حيث أطلقوا النار على وزير الحربية علي رضا باشا وأصابوه. وقتلوا نائب اللاذقية الأمير محمد أرسلان بك خطأً، معتقدين أنه حسين جاهد، النائب الاتحادي البارز عن إستانبول (لجأ إلى السفارة الروسية). كما قتلوا وزير العدل ناظم باشا الذي ظنوا خطأً أنه رئيس المجلس أحمد رضا بك.

قبض طاقم مدمّرة على قائدهم وأعدموه من دون محاكمة شنقاً على شجرة في باحة القصر. وهكذا سقطت جميع مظاهر القانون والنظام. وقامت جماعات من المتمرّدين بقتل طلاب الكلية العسكرية أينما وجدوا في جميع أنحاء المدينة. واقتُحمت مكاتب جمعية الاتحاد والترقي وسُلبت. ودُمّرت مطابع الصحف الاتحادية، وبُعثرت الحروف الطباعية في الشوارع. سيطر خوف شديد على المجلس فلم يجتمع. قيل لاحقاً بأن القصر خطّط لهذا الانقلاب، وأنّ كل جندي حصل على 5 ليرات نظير أعماله. أما قادة جمعية الاتحاد والترقي فاختبؤوا خوفاً على حياتهم. استعاد السلطان صلاحياته، فأصدر عفواً عن المتمردين، وأضفى الشرعية على الانقلاب. وعيّن توفيق باشا في منصب الصدر الأعظم بعد استقالة حسين حلمي باشا. وبدا كأن نظام السلطان الاستبدادي قد استعيد ثانية. لكن ذلك لم يأخذ في الحسبان الفرق العسكرية في الولايات.

ما إن وصلت أخبار الانقلاب المضاد الذي نفذه الموالون للسلطان إلى سالونيك، حتى تطوّع عشرات الآلاف من المتظاهرين لمحاربة المتمردين. وهبّت جمعية الاتحاد والترقي وحلفاؤها العسكريون إلى العمل. واتخذ قائد الفيلق العسكري الثالث، محمود شوكت باشا، استعدادات فورية لسحق الانقلاب المضاد. وهو ضابط عثماني من عائلة بغدادية ذات جذور جورجية، كان والده قد عمل متصرفاً في الولايات. بل إنه ارتقى إلى الصدارة خلال خدمة الإمبراطورية.

في 16 نيسان/أبريل وصل قطاران عسكريان يحملان 15,000 جندي إلى شتلجة على بعد 70 كم من إستانبول، حيث انضمت إليهم فرق أخرى من أدرنة. وزحفت على إستانبول قوة مشتركة تضم سلاحي الفرسان والمدفعية. فجاء الآن دور الموالين

للسلطان في الاختباء. هرب عدة باشاوات مع عائلاتهم بحراً، بالإضافة إلى اليونانيين والأرمن الأغنياء، الذين رحبوا بعودة النظام السلطاني. وهرب الجنود المتمردون إلى الأراضي التركية الداخلية سيراً على الأقدام. وفي إستانبول، بدأ آلاف من الطلاب والعسكريون يعلنون تأييدهم لجمعية الاتحاد والترقي. وهرب القاطنون قرب قصر يلدز خوفاً من الهجوم عليه. أرسل محمود شوكت باشا إنذاراً إلى حكومة توفيق باشا يمنحها فيه أربعاً وعشرين ساعة لكي تستقيل. ذُعر السلطان، فأصدر الأوامر للسفن الحربية في البوسفور بإطلاق النار على السفارات الألمانية والروسية والنمساوية والفرنسية إذا دخلت قوات جمعية الاتحاد والترقي العاصمة. ربما ظن أن مثل هذه الخطوة اليائسة تطلق تدخّلاً أجنبياً فورياً لإنقاذه. لكن أوامره لم تُنفّذ.

اجتمع حوالى مئة نائب من جمعية الاتحاد والترقي بقيادة أحمد رضا بك في يسيلكوي Yesilköy حيث قرروا الدعوة إلى جلسة مشتركة لمجلسي الشيوخ والنواب - المجلس الملي - لمناقشة مسألة خلع السلطان. في 24 نيسان/أبريل دخلت فرق عسكرية من سالونيك إلى إستانبول وسيطرت على وزارة الحربية. جُرح أو قُتل عشرات العناصر من الجانبين في معركة للاستيلاء على مبانٍ حكومية أخرى للباب العالي. حاصرت القوات الاتحادية قصر يلدز حيث بقي حوالى 4000 من عناصر السلطان العسكرية صامدين. في هذا الوقت، هرب خَدَمُ السلطان وطباخوه وخصيان الحريم وحرّاسه وموظفو القصر تاركين قصر يلدز مهجوراً تقريباً. ولم يبقَ سوى النساء في جناح الحريم. بدا البوسفور في تلك الليلة داكناً من كثرة السفن المحمّلة بأنصار السلطان الفارين إلى الأمان النسبي في الساحل الآسيوي[1].

استسلم السلطان عصر يوم 25 نيسان/أبريل 1909 واضعاً نفسه بتصرف الجيش، بعد أن أمر الحرس السلطاني بإلقاء سلاحه. من العواقب المخيفة لمحاولة الانقلاب المضاد مجزرة الأرمن في أضنة، حيث ذبح حوالى 17,000 شخص بين 14 و16 نيسان/أبريل[2]. وقد زُعم لاحقاً أن السلطان أصدر الأوامر بقتل الأرمن وأعضاء جمعية الاتحاد والترقي المحلّيين. صدر بحقّ حاكم أضنة جواد باشا، الذي تغاضى عن أعمال

---

(1) Kansu, *Politics in Post-Revolutionary Turkey*, p. 114; Georgeon, *Abdülhamid II*, p. 423.

(2) Kansu, *Politics in Post-Revolutionary Turkey*, p. 122.

القتل، حكم بالإعدام بسبب إهماله الكبير في أداء واجباته. لم تكن هذه المجزرة، للأسف، أول أو آخر مجزرة للأرمن. فقبل عقد من الزمن، في أواسط تسعينيات القرن التاسع عشر، أدّت تحرّكات معادية للأرمن أثارها وجهاء بارزون وزعماء العشائر الكردية وعلماء سيّئو السمعة في شرق الأناضول، إلى مقتل نحو 37,000 أرمني وتشريد 300,000. وفي كلتا الحالتين ثار الرعاع خوفاً من استقلال الأرمن، ظناً أنّ ذلك سيعني نهاية الإسلام في شرق الأناضول. وكان مئات الآلاف من هؤلاء الأشخاص قد طردوا من أراضيهم بعد هزيمة 1877-1878 وبعد الخسارات الإقليمية في الأناضول والبلقان[1]. وقد يقدّم ذلك تفسيراً جزئياً للأجواء الحرجة التي تمّت فيها المجزرة المروّعة. وبالرغم من مأسوية هذه المجازر، فإنها بدت صغيرة قياساً على عمليات الترحيل والقتل الجماعي التي تعرّض لها الأرمن في سنة 1915.

أصبح محمود شوكت باشا، قائد الفيلق العسكري الثالث، الرجل القوي في نيسان/أبريل 1909، وأهم شخصية في العاصمة. عرض عليه السلطان منصب الصدر الأعظم، لكنه رَفَضَهُ مدركاً، بحق، أنّ قيادته للجيش تعطيه نفوذاً أكبر بكثير. وقد أعلن الأحكام العُرفية وعيّن نفسه مفتشاً عاماً للفيالق الثلاثة الأولى في الجيش، وأطلق حملة لملاحقة المعارضين المشبوهين، تلتها موجة كبيرة من الاعتقالات. احتُجز حوالى 5000 سجين في مخيّمات على طول القرن الذهبي. وألقي القبض على بعض موظفي السلطان الشخصيين، ونُفي المحظوظون منهم. اعتُقل الأمير صباح الدين في ضيعته، وهو من أوائل ملهمي حركة تركيا الفتاة ثم اختار لاحقاً موالاة السلطان، ولكن سُمِحَ له بمغادرة البلاد بعد تدخّل السفيرين البريطاني والفرنسي.

اجتمع مجلسا الشيوخ والنواب في جلسة مشتركة وصوّتا على خلع السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش واستبدال أخيه محمد رشاد به. بعد ذلك بفترة وجيزة، في ليلة 27 نيسان/أبريل، اقتيد عبد الحميد وعائلته إلى قطار خاص أقلّهم إلى سالونيك حيث احتجزوا في أحد أفخم بيوت المدينة، فيللا اللاتيني Alatini العائدة إلى عائلة يهودية ثرية تعمل في الصناعة. وهكذا تمكّن الاتحاديون، بدعمٍ من الفيلق العسكري الثالث، من إعادة النظام الدستوري بعد فترة انتقالية دموية استمرّت أسبوعين.

(1) Georgeon, *Abdülhamid II*, pp. 283-293.

قـدّم محمود شوكت باشا، بصفته الحاكم العسكري الرئيسي، إلى المحاكمة جميع المتورّطين في انقلاب 13 نيسان/أبريل، بمن فيهم الناطق الرسمي الأكثر صخباً باسمها درويش وحدتي. أدين ثلاثة عشر منهم وشُنقوا علناً في 3 أيار/مايو في إستانبول. تلت ذلك عمليات إعدام أخرى في 12 و17 و19 تموز/يوليو. ونُفي 64 من أنصار السلطان إلى جزيرة رودس. وحكم على العديد من الباشاوات والوزراء السابقين وأقطاب النظام القديم بالسجن، بمن فيهم شخصيات عربية مرموقة مثل عزت باشا العابد (غيابياً) والأخوين سليم ونجيب ملحمة. ونفي العديد من الباشاوات إلى جزر ليمنوس وبوضروم وميتيلين وخيوس على طول الساحل الإيجي.

استقال توفيق باشا في 3 أيار/مايو 1909. وتم تعيين حسين حلمي باشا مرة أخرى صدراً أعظم. انضم إلى هذه الوزارة اتحاديّان بارزان وهما جاويد بك، وزيراً للمالية وطلعت بك وزيراً للداخلية. شكّل ذلك نقطة تحوّل بالنسبة إلى جمعية الاتحاد والترقي، إذ إنها المرة الأولى منذ ثورة 1908 التي يتولّى فيها قادتها مناصب رئيسية في السلطة.

بعد هزيمة أنصار السلطان، تشكّل في تشرين الثاني/نوفمبر 1909 حزب آخر مناهض لجمعية الاتحاد والترقي باسم الليبراليين المعتدلين. كان أعضاؤه أشبه بشباب تركيا الفتاة الذين تجمّعوا في باريس قبل سنة 1908، ومن بينهم العديد من غير الأتراك. كان رئيس الحزب ألبانياً، لكن النواب العرب لعبوا دوراً بارزاً فيه. ومن بين مؤسسيه نافع باشا الجابري الذي عُيّن لاحقاً نائب رئيس الحزب، بالإضافة إلى شفيق مؤيد العظم ورشدي الشمعة. وكان الحزب من دعاة العثمانية المتحمّسين، وقد تلقّى دعماً خارجياً من الحزب الراديكالي العثماني الذي تأسس في أيلول/سبتمبر 1909 وموّله كل من الأمير صباح الدين وشريف باشا، الذي كان سفيراً للسلطان في ستوكهولم.

وفي الوقت نفسه تقريباً، عمل الدكتور رضا نور، وهو مناصر سابق للسلطان، على إقناع النواب العرب بالانضمام إلى مجموعته في البرلمان. في البداية أعلن عبد الحميد الزهراوي، وهو من قادة النواب العرب في البرلمان، أنهم يفضّلون في هذا المناخ المتقلّب من الانقلاب والانقلاب المضادّ البقاء كتلة عربية محايدة سياسياً؛ تعارض

الاتحـــاديين من حيث المبدأ لكنها غير راغبة في الانضمام إلى اليبراليين المعتدلين أو أي جهة. غير أن بعض النواب العرب انضمّوا في ما بعد إلى مجموعة رضا نور. ولا يظهر السجل موقف رضا الصلح في ذلك الوقت.

العرب يُسمعون صوتهم

بـــدءاً من سنة 1910، اعتمد النواب العرب في البرلمان العثماني، ومن بينهم رضا الـــصلح، مـــوقفاً أشدّ قوة في الدفاع عن القضايا العربية. فعندما ناقش المجلس ما سمّي "مسألة لينش" - وهي خطة لدمج شركة ملاحية تملكها الدولة وتعمل في نهر الفرات مـــع شـــركة لينش البريطانية، ما يمنح البريطانيين احتكاراً للملاحة النهرية - هاجم النواب العرب الخطة بشدّة، خوفاً من أن تؤدّي إلى توسيع النفوذ البريطاني في بلاد ما بين النهرين. وكان من بين أكثرهم جرأة شفيق مؤيد العظم، نائب دمشق، وانضم إليه محمـــد شوكت بن رفعت باشا، نائب الديوانية، ولطفي أفندي، نائب دير الزور. وقد اشتدّت حماوة النقاش في البرلمان، ما أدى إلى تأجيل الجلسة.

يـــبدو أن محمـــود شوكت باشا مال إليهم لأنه اختار دعم الألمان الذين فضّلوا تأجـــيل مـــسألة لينش إلى ما بعد نجاح مفاوضاتهم بشأن إنشاء سكة حديد تربط بين بغـــداد وإســـتانبول. لذا تقرّر تعليق المسألة بانتظار قرار يصدر عن الحكومة العثمانية لاحقاً.

في كانـــون الثاني/يناير 1910، برز النواب العرب ثانية عندما عبّروا عن رفضهم استبدال حقّي بك، السفير التركي في روما، بالصدر الأعظم حسين حلمي باشا لأنهم اعتبروه مقرّباً جداً من الاتحاديّين. عبّر نافع باشا وأعضاء آخرون من حزب الليبراليين المعتدلين عن تحفّظهم بوضوح وحماسة شديدة. مع ذلك تولّى حقي بك المنصب زمنح لقـــب باشا، وعيّن محمود شوكت باشا وزيراً للحربية (يبدو ذلك إلى حد كبير وسيلة للحـــدّ من نفوذه الهائل). واحتفظ القائدان الاتحاديان، طلعت وجاويد، بمنصبيهما في الداخلية والمالية.

دار نقاش حادّ آخر اهتمّ به النواب العرب كثيراً حول التقارير السرّيّة المرسلة إلى الـــسلطان من قبل جواسيسه ومُخبريه، وقد وجد عدد كبير منها في قصر يلدز عندما

احـــتلّه الجيش. افتتح النقاش في 9 أيّار/مايو 1910 شفيق مؤيّد العظم فعبّر عن غضبه لاتهامـــه من قبل الصحف الاتحادية أنه كان أحد جواسيس السلطان. وحثّ الحكومة على نشر التقارير لتبرئته وربما تجريم آخرين[1]. رفض جاويد بك، وزير المالية، اتهامات العظم، غير أن اعتراضه أثار عاصفة في صفوف النواب العرب، وطالب العظم بإجراء تحقـــيق رسمي. عندئذ دخلت إحدى الصحف الاتحادية المتهمة، "طنين"، المعركة مدعية أن لـــدى المحاكم دليلاً يدين العظم ونائباً عربـــياً آخر بالتجسس لمصلحة السلطان. وطالبت بإلغـــاء انتخابهما، واقترحت أن تُنشر التقارير السرية التي كتبها النواب العرب فقط. أثار اقتراحها العنصري غضباً عربياً عارماً ما اضطر رئيس المجلس إلى تعليق الجلسة. شعر رضا الصلح في ذلك الوقت بخوف شديد. ففي سنوات تولّيه منصب متصرّف في العديد من المواقع، أرسل العديد من التقارير الخاصة إلى السلطان مستعملاً شيفرة القصر، إذ كان عبد الحميد قد شجّع حكّامه على ذلك لتجاوز بيروقراطية الباب العالي.

بعـــد شـــهر تقريباً، في حزيران/يونيو 1910، استرعى رضا الصلح انتباه المجلس، وكانت المناسبة مقتل أحمد صميم بك، محرّر صحيفة "صدى الملة" المعارضة. وكان قد أسّس هذه الصحيفة قبل عدة أشهر بنتُليون كوزميدس Pantoleon Cosmidis، النائب اليوناني عن إستانبول المؤيّد للسلطنة، الذي اتّهم الاتحاديين بارتكاب الجريمة[2]. طالب رضـــا الصلح بإجراء تحقيق فوري بشأن مزاعم تورّط جمعية الاتحاد والترقي. ومما أثار قلقه رسالة كتبها أحمد صميم بك قبيل مقتله، يدّعي فيها أن الاتحاديين "حكموا عليه بالموت". وثمة شبه كبير بين هذه الحالة واغتيال صحفي آخر موالٍ للسلطنة قبل أربعة عشر شهراً، حسن فهمي أفندي، في 6 من نيسان/أبريل 1909.

حـــصلت نقاشـــات عنـــيفة في الـــبرلمان على خلفية الاضطرابات في إستانبول وولاياتها. ففي ربيع 1910، ثار الألبانيون ضد اقتراح إجراء إحصاء للسكان خوفاً من أن يكون ذلك مقدّمة لضرائب جديدة والتجنيد الإلزامي وفرض اللغة التركية عليهم. ولكـــن أخمـــدت ثـــورتهم بوحشية كبيرة. وأثار جَلْد القادة الألبان المذلّ والمؤلم أمام زوجاتهم، المرارة والغصّة.

(1) Kansu, *Politics in Post-Revolutionary Turkey*, pp. 190-191.

(2) المصدر نفسه، ص 192-3.

كان المناخ محموماً في أيلول/سبتمبر 1910، عندما التحق رياض الصلح، وهو في السادسة عشرة في ذلك الحين، بكلية الحقوق في إستانبول التي أسّسها السلطان في سنة 1878. كان تلميذاً جاداً ومجتهداً، لكنه لم يستطع منع نفسه من الانغماس في السياسة الطالبية. ومن بين أصدقائه المقرّبين سعد الله الجابري (الأخ الأصغر لنافع باشا)، وكان يدرس في إستانبول، وأصبح في ما بعد سياسياً وطنياً لامعاً في سوريا. في ذلك الوقت، اكتسب رياض شغفاً بالسياسة، وحرص على متابعة كل النقاشات التي دارت بين زملاء والده وفي الصحافة المحلية. وكانت المعركة بين الاتحاديين والمعارضة تثير اهتمامه الشديد، بالإضافة إلى دور الجيش بقيادة محمود شوكت باشا. وحصل رياض على روايات مفصّلة عن مداخلات والده في البرلمان، وكان يتمّ التدرّب عليها وتحليلها وتمحيصها في البيت.

أنهى البرلمان العثماني عطلته الصيفية في 14 تشرين الثاني/نوفمبر 1910، فقامت المعارضة فوراً بمهاجمة حكومة حقّي، حيث أدى شفيق مؤيّد العظم دور الناطق البارز باسم المعارضين. ومن خارج البلاد، شنّ شريف باشا هجوماً عنيفاً على قادة جمعية الاتحاد والترقي، داعياً الجيش إلى قلب "نظامهم الشرّير". ووجدت الشخصيات الاتحادية البارزة، مثل طلعت بك وجاويد بك، نفسها عرضة لهجوم عنيف. وعندما بدا أن جمعية الاتحاد والترقي أخذت تضعف يوماً بعد يوم، قرر النواب العرب التقرّب أكثر من المعارضة.

في بيروت ودمشق، التفّ الحلفاء السابقون لجمعية الاتحاد والترقي حول منبر عربي واحد، وعبّروا عن دعم المعارضة على صفحات صحيفتي **المفيد** في بيروت و**المُقتبس** في دمشق[1]. وفي بداية سنة 1911، كان عبد الحميد الزهراوي وشفيق مؤيد العظم ورضا الصلح من أبرز النواب العرب في المجلس وانضمّ إليهم شكري العسلي في شهر شباط/فبراير (بعد انتصاره على عبد الرحمن اليوسف). شكّل النواب الأربعة حزباً عربياً لم يُعمَّر طويلاً (الحزب العربي)، ولم يكن أكثر من تجمّع برلماني غير رسمي للنواب العرب. كانت مطالبهم مدروسة جيداً: تحقيق المساواة الكاملة للعرب، واعتماد العربية لغة للتعليم في المدارس، وتأمين الحماية لموظفي الحكومة العرب

(1) Kayali, *Arabs and Young Turks*, p. 119.

المــصروفين، والإصــرار علــى أن يتقن الموظفون الرسميون العثمانيون المرسلون إلى الولايات العربية اللغة العربية[1].

أثار شكري العسلي عاصفة في المجلس، في 5 نيسان/أبريل 1911، عندما أشار في كلمة صريحة إلى إقصاء العرب عن المناصب الرفيعة في الوزارات الأساسية. فدافع عنه رضـــا الصلح بحماسة في النقاش الحاد الذي تلا ذلك. ولقي خطاب العسلي في دمشق وبــيروت وفي أوساط الجالية السورية الكبيرة الوافدة في القاهرة، ترحيباً كبيراً كنقطة بـــارزة في إثــبات الذات العربية. أمّا في إستانبول، فاتهمت الصحافة التركيّة شكري العــسلي بالغدر، وأجبر على الرد بأنه لا يضمر عدم الولاء للسلطان أو الإمبراطورية. وأعلن أن الرباط الذي يصل بين الأتراك والعرب "رباط أبدي".

النقاش حول الصهيونية

ربمـــا تكـــون الصهيونية القضية الرئيسية التي حرّضت النوّاب العرب على جمعية الاتحـــاد والترقي في ربيع 1911[2]. فقد كان النواب العرب يتوجّسون ريبة من النفوذ الــصهيوني في جمعــية الاتحـــاد والترقي، ويشعرون أن الحزب لا يولي مشكلة توسّع الاســتيطان الصهيوني في فلسطين الاهتمام الذي تستحق. كما تسارعت وتيرة الهجرة مـــنذ أن أقام "أحباء صهيون" أوّل مستوطنة زراعية يهودية في فلسطين، سنة 1882. وبحلول سنة 1908، كان نحو ثمانين ألف يهودي من روسيا وأوروبا الشرقية والوسطى قـــد أنـــشؤوا حـــوالى خمسين مستوطنة صهيونية هناك. عارض السلطان هذا التدفق الصهيوني، خوفاً من أن يمنح هؤلاء الأوروبيون القوى الأوروبية ذريعة إضافية للتدخل في شؤون السلطنة، وهذا ما حصل.

حـــاول السلطان عبد الحميد وضع حدّ للهجرة اليهودية إلى فلسطين لكنه فشل. وحين حصلت ثورة تركيا الفتاة، كان العرب يدركون تماماً المخاطر التي يشكّلها هذا الوضـــع الجديـــد على منطقتهم. وعبّر السياسيون والصحافيون والمفكّرون في القاهرة

(1) Semir Seikaly, 'Shukri al-'Asali: A case Study of a Political Activist' in Rashid Khalidi et al (eds.), *The Origins of Arab Nationalism*, New York, 1991, pp. 85-86.

(2) Kayali, *Arabs and Young Turks*, pp. 102-5; Neville Mandel, *The Arabs and Zionism before World War I*, Berkeley 1976.

ودمـــشق وبيروت عن عدائهم الشديد لهؤلاء المهاجرين الأجانب، وما يقومون به من شراء مخطّط بعناية ومستمرّ للأرض العربية. كما أرسل الفلسطينيون العرب برقيّات إلى البرلمان العثماني تلتمس وقف هذه الهجرة. وكشفت تقارير مقلقة من بيروت والقدس بـــأنّ بعض ملاّك الأراضي الغائبين، ومن بينهم عبد الرحمن اليوسف، لا يتورّعون عن بـــيع ممتلكاتهم للصهاينة، الذين يدفعون أعلى من قيمتها للحصول على أكبر قدر من الأرض.

قبل أن يفوز شكري العسلي في الانتخاب الفرعي في دمشق في سنة 1911، عمل لمـــدة سنتين قائم مقام في الناصرة، ثم في ولاية بيروت. وقد شهد الاستعمار الصهيوني مباشرة، ووصل إلى إستانبول تسبقه سمعته بأنه الأكثر اطلاعاً على المشروع الصهيوني في فلـــسطين والأكثر إصراراً على مواجهته. وفي إحدى المناقشات في البرلمان العثماني، أفـــاد أن ثلاثة أرباع طبريا وربع حيفا أصبحت ملكاً لليهود الأوروبيين، واتهم جمعية الاتحـــاد والترقـــي بعـــدم الاكتراث لخسارة هذه المواقع الاستراتيجية. فردَّ عليه وزير الداخلـــية طلعـــت بـــك باقتضاب قائلاً إنّ لليهود الحقّ بشراء الأملاك في كل أنحاء الإمـــبراطورية مـــا عدا الحجاز، وعندئذ عبّر رضا الصلح عن استيائه من سياسة عدم الـــتدخّل القـــصيرة النظـــر. وعـــندما اتهم عُبيد الله، وهو نائب تركي عن أيدين في الأناضـــول، العـــرب بأن الكراهية هي دافعهم، وقف رضا الصلح مستنكراً – وأيّده عـــبد الحمـــيد الزهـــراوي، نائب حمص، وخالد البرازي، نائب حماة، وعبد المهدي الحـــافظ، نائب كربلاء – وهدّد بالمغادرة إذا لم يسحب عبيد الله كلامه. وقال رضا، "سنغادر المجلس حتى تتمكنوا من توجيه المزيد من الإهانات إلى لعرب"[1]!

في 16 أيلـــول/ســـبتمبر 1911، ألقـــى روحي الخالدي، نائب القدس الحسيب والمـــثقّف الواســـع الاطـــلاع، محاضرة طويلة عن الصهيونية. فتحدّث عن الفرق بين الـــصهيونية والساميّة والأصول المختلفة لليهود، وعن تأسيس أولى مستعمرات اليهود الـــروس في يافـــا، ونظريات هرتزل Herzel ومندلسون Mendelsohn، وعن قضايا أخرى كثيرة. وقرأ أيضاً برقيّات من قادة عثمانيين يهود شجبوا الصهيونية لأنها تشكّل تهديداً لوضعهم. وتكلّم من بعده سعيد الحسيني الذي حثّ الحكومة على اتخاذ تدابير

(1) Kansu, *Politics in Post-Revolutionary Turkey*, p. 104.

فعالـــة ضد التملّك اليهودي الواسع للأراضي في القدس. غير أن النائب الألباني جافز إبـــراهيم سخر من الاعتقاد بأن "المئة ألف يهودي الذين قدموا إلى القدس سيفتحون ســـوريا والعراق". ورأى أن اليهود يسيطرون على الاقتصاد وليس على الأرض، كما فعلـــوا في إنكلترا نفسها. كما أنهم يتحكمون بتجارة سالونيك بأكملها. فتدخّل رضا الصلح ليذكّره أن يهود سالونيك ليسوا أجانب خلافاً لليهود الأوروبيين المهاجرين إلى فلـــسطين. لكـــن جافز إبراهيم رفض هذا النوع من النقاش مشيراً إلى أن التجارة في بـــيروت، مديـــنة رضا، يتحكّم بها الأجانب أيضاً. وأعلن بتفضّل أن على العرب أن يحاولوا الارتقاء إلى مستوى الأجانب بدلاً من رفض تواجدهم.

في هذا الوقت تقريباً أثار هجوم مباشر شنه الشيخ رشيد رضا، المفكر الإسلامي المتنوّر البارز، على الاتحاديّين، الحماسة في أوساط المجتمع العربـــي في إستانبول. وكان رضا الصلح والنواب العرب آنذاك مطلعين جيداً على كتاباته وقد قابلوه خلال زياراته إلى إســـتانبول. في 4 تموز/يوليو 1911، نشرت إحدى الصحف مقالاً مطوّلاً ومترجماً إلى التـــركية لرشيد رضا، كان قد نُشر في القاهرة في مجلّته الشهرية المنار. شكّل هذا المقـــال هجوماً ساحقاً على جمعية الاتحاد والترقي، أظهر إلى العلن كثيراً من الشكوك العـــربية. اتّهم الشيخ رشيد أعضاء الجمعية البارزين بالانتماء إلى الماسونيّة التي تخضع محافلها للتأثير الصهيوني المباشر. واتهمهم بالعمل لمصلحة الصهيونية ومساعدة الرأسمال الـــيهودي في اســـتغلال سوريا وفلسطين. وأكّد رشيد رضا أن أهداف الماسونيّة هي التخلص تدريجياً من الشريعة الإسلامية، و"تتريك" الإمبراطورية، وإحلال اللغة التركية محـــلّ العربية في كل الولايات. شكّل هذا المقال والضجة التي نتجت عنه أول انقسام علني بين النواب العرب وجمعية الاتحاد والترقي.

في ليلة 10 تموز/يوليو، قُتل صحافي بارز آخر مناصر للمعارضة، زكي بك، على يـــد الاتحـــاديين علـــى ما زُعم. وكان قد نشر مقالات أخرى مترجمة من مجلة المنار تـــتحدث عـــن الأنـــشطة الخبيثة للمحافل الماسونية. أدّى مقتل هذا الصحافي الثالث المعـــارض خـــلال عامين إلى نشر الذعر في صفوف النخبة السياسية في العاصمة. في غـــضون ذلـــك، لم تعد العلاقات جيدة بين جمعية الاتحاد والترقي ومنتقدها العسكري محمود شوكت باشا، إذ ساورتها الشكوك أنه ينوي إقامة نظام ديكتاتوري عسكري.

فـدبّ بينهما نـزاعٌ غير معلن على السلطة. شعر العديد من الضبّاط الاتحاديين بالخوف على مناصبهم، فبدؤوا يميلون إلى جانب محمود شوكت. أُجبر طلعت بك على الاستقالة من وزارة الداخلية في شباط/فبراير 1911، تبعه بعد عدة أسابيع استبدال جاويد بك ووزير الثقافة إسماعيل حقي بك بابان زاده. وهكذا خسر أبرز أعضاء جمعية الاتحاد والترقي مناصبهم المهّمة في الحكومة، واحداً بعد الآخر.

في تلك الفترة جرت محاولة للقضاء على الاتحاديين. وكان من بين المحرّضين العقيد صادق بك، وهو من قيادات الاتحاد والترقي سابقاً ثم انقلب على زملائه معتقداً أنهم ذهبوا بعيداً في التطرّف. لذلك حاول حشد الضباط للقيام بانقلاب بذريعة أن العناصر الماسونية والمعادية للدين في جمعية الاتحاد والترقي تشكّل خطراً على الإسلام. كما نظمّ "الحزب الجديد" المعارض داخل جمعية الاتحاد والترقي الذي طالب باستقالة حقي باشا، وبإبعاد طلعت بك، واستقالة حسين جاهيد من البرلمان، وهو محرّر الجريدة الاتحاديّة "طنين". كانت تلك محاولة واضحة للقضاء على الجمعية من الداخل. وقد ثارت شكوك قوية أن البريطانيين يؤيّدون المؤامرة، لأن جيرالد هـ. فيتزموريس Gerald H. Fitzmaurice، الترجمان الأول في السفارة البريطانية، كان على اتصال مع النواب المعادين للاتحاديين[1].

تمكّنت الجمعية، بعد نقاشات حادة، من إقناع محمود شوكت باشا بالتوقيع على أمر إبعاد العقيد صادق بك إلى سالونيك، لكن استقبله هناك عدد من الضباط المناصرين "الذين رافقوه مظفّراً إلى مقرّ إقامته"[2]. وبعدما أجبر العقيد صادق على الاستقالة من الجيش في أيار/مايو 1911، ووُضع اسمه على لائحة المتقاعدين، عاد إلى إستانبول متحدياً حيث جدّد محاولاته تحريض الجيش على الحكومة. فأسس حزب الوحدة العثمانية، وقدّم طلباً للحصول على رخصة لإنشاء جريدة سياسية، وأمل باجتذاب حوالى خمسين نائباً اتحادياً إلى قضيته.

تعرّضت حكومة حقي باشا لهجوم من قبل العرب والألبان واليونانيين والبلغار والأرمن، إذ اعتُبِرَت مسؤولة عن الارتفاع الحاد للإيجارات وأسعار الأغذية والفحم.

(1) للاطلاع على رواية عن حياته، انظر: G.R. Berridge, *Gerald Fitzmaurice (1865-1930): Chief Dragoman of the British Embassy in Turkey,* Martinus Nijholt Publishers, Leiden & Boston 2007

(2) Kansu, *Politics in Post-Revolutionary Turkey*, p. 238.

وكانت قد شبّت الحرائق في المدينة، فدمّرت أحياء سكنية بأكملها، مخلّفة عشرات الآلاف من المشرّدين. فزاد ذلك من متاعب الحكومة واستياء الشعب منها. في هذه الأجواء التعيسة، انتظر الجميع نتائج مؤتمر جمعية الاتحاد والترقي الذي سيعقد في سالونيك في آخر يوم من شهر أيلول/سبتمبر 1911. لكن حدث عندئذ تطوّر فظيع أوقع الطبقة السياسية كلها في حالة من الفوضى الكاملة، وزجّ البلاد في حماقة الشجارات التافهة والاستغراق في الشؤون الذاتية.

الهجوم الإيطالي على ليبيا

في 28 أيلول/سبتمبر 1911، سلّم القائم بأعمال السفارة الإيطالية في إستانبول الحكومة التركية إنذاراً قاطعاً: نتيجة عدم قيام الحكومة التركية بتلبية مطالب الحكومة الإيطالية، فإن القوات الإيطالية ستستولي على طرابلس وبنغازي. مُنحت الحكومة العثمانية 24 ساعة لتبليغ الحاميات المعنية. اتضح على الفور أن الإذعان للهزيمة من دون قتال سيفتح الطريق أمام تفكّك أوصال الإمبراطورية. وفي عصر اليوم التالي، أعلنت إيطاليا الحرب على تركيا واستقالت حكومة حقي باشا. ولكن لم تؤدِّ حالة الطوارئ في شمال أفريقيا إلى وضع حد للتقاتل الداخلي في إستانبول.

في 4 تشرين الأول/أكتوبر 1911، تمكّن سعيد باشا، وكان في ذلك الوقت مسناً ومريضاً، من تشكيل حكومة جديدة، ولكن بصعوبة بالغة. وبقي محمود شوكت باشا وزيراً للحربية. رحّبت الصحافة الاتحادية بهذه الحكومة، بينما لم يُبدِ معارضو الاتحاديين أي ردّ فعل تجاهها. وواصل الفيلق العسكري الثالث في سالونيك ومناستير دعم جمعية الاتحاد والترقي، لكن انقسم ما تبقى من الجيش على نفسه. وعند افتتاح دورة المجلس الرابعة في 15 تشرين الأول/أكتوبر، نال الاتحاديون حوالى 130 صوتاً انتخابياً - من بينها 40 صوتاً للحزب الجديد المعارض. ونالت المعارضة مئة صوت. وضم النواب الباقون الخمسة والثلاثون عدداً من العرب الذين لم يحددوا ولاءهم، بالإضافة إلى سبعة أو ثمانية أعضاء من الحزب الثوري الأرمني.

عرض الاتحاديون منصب نائب رئيس مجلس النواب على عبد الحميد الزهراوي في محاولة لاجتذاب العرب. قَبِلَ الزهراوي بالمنصب وتمّ انتخابه، لكنه سرعان ما

استقال عندما رفضت المعارضة (وهي ائتلاف من الليبراليين المعتدلين والمستقلين واليونانيين وبعض الأرمن غير الاتحاديين وبعض النواب الألبان والصرب والبلغاريين) مركزاً مماثلاً لأحد أعضائها. وفي 20 تشرين الأول/أكتوبر، مُنح سعيد باشا الثقة، لكن موقفه بقي مهزوزاً.

كانت الحال كذلك عندما تشكّل في 21 تشرين الثاني/نوفمبر 1911 حزب معارض جديد كثر الحديث عنه باسم "حزب الحرية والائتلاف"، وهو حزب محافظ وملكي بطبيعته. ومن مؤسسيه داماد فريد باشا، وهو عضو عثماني معروف في مجلس الشيوخ، والعقيد السابق صادق بك، زعيم الحزب الجديد، وإسماعيل حقي باشا، زعيم الليبراليين المعتدلين، وعبد الحميد الزهراوي، النائب العربي عن حمص[1]. كان لكل من هؤلاء برنامج سياسي مختلف، لكن الأمر الوحيد الذي اجتمعوا عليه عداؤهم لجمعية الاتحاد والترقي. تسلّم شكري العسلي المجلس الإداري للحزب. كما انضم إليه الشيخ بشير الغزي نائب حلب، وكامل الأسعد، النائب الاتحادي عن ولاية بيروت. وهكذا تمكّن حزب الائتلاف والحرية من جمع نحو سبعين نائباً من الأتراك العثمانيين، والعرب من سوريا والعراق، والألبان، واليونانيين، والبلغار وبعض المحافظين من الحزب الأرمني الديمقراطي الاجتماعي. استاءت مثل هذه الأقليات الوطنية من سياسات جمعية الاتحاد والترقي التي سعت إلى "التتريك"، وأملت أن تتمكن من إسقاطها.

كان الفريق الاتحادي، في الجهة المقابلة، يضمّ الأتراك، واليهود، والصرب، والأرمن من المنظمة السياسية الأرمنية الثورية المعارضين لإخوانهم المحافظين، بالإضافة إلى بعض المنشقين العرب من العراق واليمن وطرابلس. دان الاتحاديون خصومهم واعتبروهم خطراً عاماً. وحصلت مناقشات عنيفة في البرلمان كاد أن يشتبك فيها الطرفان. وفي إحدى الجلسات العاصفة، غادر رئيس المجلس بسبب عدم قدرته على احتمال الضجيج. في 19 كانون الأول/ديسمبر، كتبت جريدة "طنين" بلهجة استفزازية أن المعارضة أشدّ ضرراً على النظام الدستوري من المتمردين في مقدونيا والإيطاليين الذين يوجد حرب بينهم وبين تركيا.

(1) المصدر نفسه، ص 287.

استقال سعيد باشا لعدم قدرته على احتمال المزيد من الفوضى، لكن السلطان أصرَّ على إعادة تكليفه بتشكيل حكومة جديدة. وفي 31 كانون الأول/ديسمبر 1911 ، ناشد كلّ من نافع باشا، نائب حلب، وشفيق مؤيد العظم، نائب دمشق، السلطان بأن يعيد النظر في قراره، ولكن تدخّلهم لم يجد نفعاً. استطاع سعيد باشا أن يشكل حكومة وصفت بحكومة تصريف أعمال محايدة. لكن الخلافات المستمرة بين الاتحاديين والمعارضة كانت حادة جداً بحيث بدا أن النظام البرلماني بأكمله معرّض للانهيار. فقد كانت المعارضة ترمي إلى القضاء على جمعية الاتحاد والترقي والنظام الليبرالي الديمقراطي معاً. في هذا الجو السياسي القاتم، الذي ازداد سوءاً نتيجة الحرب في شمال أفريقيا وموجة من الحوادث الإرهابية في مقدونيا، أبلغ السلطان مجلس الشيوخ في 15 كانون الثاني/يناير أنه قرّر حلّ البرلمان. وبدأت التحضيرات لانتخابات جديدة.

لم يشارك رضا الصلح في الانتخابات عام 1912. هل كان سبب ذلك عدم اليقين بشأن الاتجاه الذي سيسلكه؟ أم بسبب وضعه الصحي المتدهور؟ كانت جمعية الاتحاد والترقي آنذاك قوية، لكن لا تزال هناك فرصة لعودة المعارضة. ولم يشأ العديد من العرب، شأنهم في ذلك شأن معظم الأقليات، الاختيار بين أحد المعسكرين خوفاً من تحمّل عواقب سوء الاختيار. وربما ضاق رضا ذرعاً بالمعارك البرلمانية، والعنف داخل المجلس وخارجه، وأراد العودة إلى داره في بيروت. غير أن عائلة الصلح قرّرت البقاء فترة أطول في إستانبول، بسبب متابعة رياض دراسته في كلية الحقوق هناك.

حصل المستقلون في الانتخابات على مئة وخمسين مقعداً، وحصلت جمعية الاتحاد والترقي على مئة وسبعة مقاعد، وحزب الحرية والائتلاف على واحد وعشرين مقعداً والاتحاد الثوري الأرمني على ثلاثة مقاعد. اجتمع المجلس الجديد في إستانبول في 12 أيار/مايو 1912. وسرعان ما أدرك المعارضون أن النتيجة التي حققوها في الانتخابات لا تسمح لهم بالوصول إلى السلطة بالوسائل البرلمانية فقرروا محاولة القيام بانقلاب جديد. خططوا لزعزعة الحكومة بإشعال ثورة في ألبانيا متزامنة مع تمرّد عسكري في موناستير في أوائل أيار/مايو. أمل المتمردون بإخراج جمعية الاتحاد والترقي من ميدان السياسة ككل، ومحاكمة قادتها، لا بل إعدامهم. لم يستطع محمود شوكت باشا مواجهة هذه التهديدات العنيفة المتصاعدة، فاستقال من وزارة الحربية في 9 تموز/يوليو،

وتبعه الصدر الأعظم سعيد باشا في السابع عشر من الشهر عينه. تشكلت حكومة جديدة في 21 تموز/يوليو برئاسة الغازي أحمد مختار، لكنها لم تكن تتمتّع بغالبية برلمانية وبدت ضعيفة جداً. غير أنها نالت الثقة، وفي محاولة لكسب دعم المعارضة، رفعت حالة الطوارئ وعفت عن المتمردين. أصدر السلطان، تحت ضغط المعارضة، مرسوماً يقضي بحلّ البرلمان، وعندئذ أعادت الحكومة فرض حالة الطوارئ وحظرت جميع النشاطات السياسية. في 2 أيلول/سبتمبر، انعقد المؤتمر السنوي لجمعية الاتحاد والترقي في إستانبول، متحدياً الحظر المفروض، وانتخب الأمير سعيد حلمي باشا من مصر أميناً عاماً للحزب.

الضربة القاضية في حرب البلقان

بعد أقل من شهر، وفيما استمر الصراع بين الاتحاديّين والمعارضة، وصلت أخبار إلى إستانبول أن القوات المسلحة البلغارية والصربية وُضعت في حالة تأهب. سيطرت أجواء الحرب على العاصمة ثانية، وتظاهر الطلاب أمام الباب العالي مطلقين هتافات "لتسقط الحكومة" و"نريد الحرب". وفي 8 تشرين الأول/أكتوبر، أعلنت مونتينغرو الحرب على السلطنة العثمانية، وفي 13 تشرين الأول/أكتوبر، طالبت الحكومات البلغارية والصربية واليونانية في مذكّرة جماعية إستانبول بمنح الاستقلال الذاتي الكامل للولايات المقدونية بقيادة حكام بلجيكيين أو سويسريين - وإلا فإن عليها أن تتحمّل العواقب. ردّت إستانبول على هذا الإنذار في 15 تشرين الأول/أكتوبر، بقطع العلاقات الدبلوماسية مع البلدان الثلاثة، وبإعلان الحرب بعد يومين على بلغاريا وصربيا. وفي اليوم نفسه، أعلنت اليونان الحرب على الإمبراطورية. وهكذا بدأت حرب البلقان، وتبيّن أنها سدّدت ضربة قاضية للعثمانيين.

في 29 تشرين الأول/أكتوبر، حلّ كامل باشا صدراً أعظم محل الغازي أحمد مختار، الأمر الذي أرضى المعارضة. لكن لم تدم فرحة هؤلاء طويلاً. ففي اليوم التالي وصلت معلومات عن هزيمة الجيوش العثمانية في معركة لولبرغاز Lüleburgaz في تراقيا. أدى ذلك إلى انسحاب العثمانيين على كل الجبهات أمام تقدم القوات البلغارية والمونتينغرية والصربية واليونانية. ناشدت الحكومة القوى الكبرى التدخل لوضع حدٍّ

للنـــزاع بعـــدما لم يتبقّ سوى الجيش العثماني الشرقي الذي حاول تنظيم خطوط الـــدفاع في شتلجة على بعد سبعين كيلومتراً عن إستانبول. ردّت القوى الكبرى بأنها توافـــق علـــى الوساطة شرط أن تضع الحكومة العثمانية نفسها تحت تصرفها بشكل كامل. قبلت إستانبول العرض في 4 تشرين الثاني/نوفمبر - ما يعني عملياً الموافقة على الاستـــسلام غير المشروط. لكن الجيش وجمعية الاتحاد والترقي رفضا هذا الاستسلام المـــذلّ. وعـــندما عقـــد كامل باشا اجتماعاً للقادة العسكريين، عبّروا عن تأييدهم الاستمرار في المقاومة، ما أدى إلى استئناف القتال مجدداً.

استولى اليونانيون على سالونيك في 8 تشرين الثاني/نوفمبر، فوجّهوا ضربة قاسية للاتحـــاديين الـــذين يعتـــبرون المدينة قاعدتهم الأساسية. وقبيل سقوط سالونيك، نُقل الـــسلطان السابق عبد الحميد الثاني، الذي كان منفياً هناك، إلى إستانبول واحتجز في قصر بايلرباي على البوسفور، وبقي هناك حتى وفاته في 10 شباط/فبراير 1918.

في 12 تـــشرين الـــثاني/نوفمبر 1912، التمست حكومة كامل باشا السلام وبـــدأت المحادثـــات بـــين المتفاوضين. ولإسكات المنتقدين المحرّضين على القتال، عمـــدت الحكومة إلى إلقاء القبض على أعضاء جمعيّة الاتحاد والترقي بتهمة التآمر علـــيها. تمكّـــن طلعت وجاويد من الهرب، ولكن تم القبض على نحو ستين عضواً آخرين. تواصلت الاعتقالات والأحكام الصادرة عن المحكمة العسكرية حتى كانون الأول/ديسمبر. وفي الخامس من الشهر نفسه جرى التوقيع على الهدنة، وعقد مؤتمر ســـلام في لـــندن في 16 كانون الأول/ديسمبر. لكن استمرت النقاشات الحادّة في الـــسنة الجديـــدة بشأن مستقبل أدرنة - وهي ذات قيمة رمزية كبيرة للأتراك إذ كانت في السابق عاصمة للإمبراطورية - بالإضافة إلى مصير جزيرة كريت والجزر الإيجـــية وحدود ألبانيا. طلبت القوى العظمى من تركيا أن تترك لها مسألة الجزر الإيجية وتعطي أدرنة للبلغار.

دعـــا كامل باشا إلى عقد اجتماع للمجلس الكبير للإمبراطورية لمواجهة الأزمة. تألـــف المجلس من أعضاء مجلس الشيوخ وكبار العلماء ومجلس الدولة ووزارة العدل، ووزارة البحرية ووزارة الحرب. انعقد المجلس في 22 كانون الثاني/يناير 1913 في جلسة مغلقـــة وخلص إلى أن المقاومة لن تُجديَ نفعاً. فأصدر بياناً يعلن فيه عن ثقته "بعدالة

القوى العظمى". كان ذلك استسلاماً غير مشروط لمطالب دول البلقان المتمرّدة التي تدعمها القوى الغربية بطبيعة الحال.

جاء الرد المحلي سريعاً ودموياً على قرار المجلس. ففي 23 كانون الثاني/يناير 1913 ، توجّهت مجموعة صغيرة من الضباط الاتحاديين إلى الباب العالي. شكّل وصولهم إشارة لحملة منسّقة من قبل مجموعات مختلفة من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي التي كانت تنتظر في مكان قريب. دخل أنور بك وجمال بك مقرّ الباب العالي وطلبا مقابلة الصدر الأعظم، وتبعهما طلعت بك وزعماء اتحاديون آخرون. عندما خرج ناظم باشا، وزير الحربية، من قاعة المجلس، أطلق عليه أحد أعضاء المجموعة النار وأرداه قتيلاً. كما قتل مساعده، وكذا نظيف بك الضابط المساعد للصدر الأعظم، لكن بعد أن أطلق النار على قاتل ناظم باشا. دخل أنور بك بعد ذلك قاعة المجلس، وأبلغ كامل باشا بأن عليه أن يستقيل أو يقسم على متابعة الحرب. فاختار كامل باشا الاستقالة.

انتقل القادة الاتحاديون إلى القصر حيث حصلوا على موافقة السلطان على تعيين محمود شوكت باشا صدراً أعظم، وتشكلت الحكومة الجديدة في اليوم ذاته. لم تكن حكومة اتحاديّة تماماً، لكنها أشارت، نظرياً على الأقل، إلى إعادة العمل وفق النظام الدستوري بعد انتكاسة دامت ستة أشهر. غير أنها أبرزت في الواقع الظهور القوي لثلاثة سياسيين متمرّسين في القتال من جمعية الاتحاد والترقي وهم: أنور، وزير الحربية، منذ أوائل سنة 1914، وجمال، حاكم إستانبول العسكري الذي أصبح لاحقاً وزير البحرية، وطلعت، وزير الداخلية والصدر الأعظم منذ سنة 1917. شرع هؤلاء على الفور بتوقيف خصومهم، وأمسكوا بشؤون الدولة منذ ذلك الحين وحتى انهيار الإمبراطورية العثمانية في نهاية الحرب العالمية الأولى.

ثقافة رياض الصلح السياسية

تأثّر رياض الصلح كثيراً بسيل الأحداث العنيفة الدراماتيكية التي أحاطت بسني شبابه في إستانبول. ومنحته بالإجمال ثقافة مميّزة حول خطورة الحياة السياسية وقساوة الانتقام السياسي. في تلك الفترة تعلّم أن الأفكار النبيلة – مثل وقوف تركيا الفتاة في

البداية في وجه الاستبداد والتزامها الحكم الدستوري - تميل إلى الاختفاء عند الممارسة الفعلية للسلطة والصراع الدموي للمحافظة عليها.

في إستانبول أيضاً، شُغف رياض بالسياسة البرلمانية وإجراءاتها كما تبيّن لاحقاً عندما أصبح نائباً في البرلمان اللبناني. غالباً ما يفترض في الغرب بتكبّر أن السياسيين العرب في جيله اكتسبوا مهاراتهم البرلمانية من معلّميهم الأوروبيين في الانتدابات ما بين الحربين، أو من مراقبة السياسيين الفرنسيين في الجمهورية الثالثة في فترة العشرينيات والثلاثينيات. لكن البرلمان العثماني كان مدرستهم الفعلية في الواقع. وقد استفاد رياض من أخبار والده اليومية عمّا يدور داخل ذلك المجلس من مناقشات ومواقف حادّة.

كذلك تأثر رضا ورياض الصلح، مثلهما مثل كثير من العرب في ذلك الوقت، بأفكار محمد عبده الإصلاحية، وآرائه المتنوّرة عن الإسلام. كما جذبتهم الأفكار والنقاشات التي جرت في المنتدى الأدبي والسياسي الذي تأسس في إستانبول في سنة 1909. وقد لعب هذا المنتدى دوراً رائداً في إعادة إحياء الثقافة العربية والمساعدة في خلق معنى جديد للهوية العربية التاريخية.

بالإضافة إلى ذلك، اطلع رياض أيضاً في تلك السنوات في استانبول على الخطة الصهيونية لاستعمار فلسطين، والخطر الذي بدأت تشكّله لا على الفلسطينيين فحسب، بل على المنطقة العربية بأكملها. وقد تطوّرت المعلومات التأسيسية التي اكتسبها حول هذه القضية في شبابه في إستانبول إلى فهم أعمق للمشكلة مما كان لدى معظم معاصرية السياسيين. وقاده ذلك أيضاً إلى التزام دام العمر كله بالقضية الفلسطينية.

في سنة 1949، عندما أثار حسني الزعيم الرعب في دمشق بأول انقلاب عسكري سوري بعد فترة وجيزة من حرب فلسطين، عبّر رياض الصلح - وكان رئيساً لوزراء لبنان في ذلك الحين - عن استيائه الواضح من الاستيلاء العسكري الوحشي على السلطة. وربما يجب تتبّع جذور عدائه لتدخّل العسكريين في السياسة - وهو شعور يتقاسمه معظم العرب اليوم - إلى أنه شهد مبكّراً انقلابات محمود شوكت باشا المتكرّرة في تموز في تموز/يوليو 1908 وشباط/فبراير 1909، وإلى إجهاز جمعية الاتحاد

والترقـــي علـــى خصومها دون رحمة في كانون الثاني/يناير 1913. فقد ألقت حراب تركيا الفتاة ظلالها الطويلة على الحكم البرلماني منذ بداية ثورتها[1].

كمـــا أن الـــسنوات التي أمضاها رياض في إستانبول زودته بدروس في السياسة الدولـــية. فقـــد كشّرت إيطاليا أولاً، ثم دول البلقان عن أنيابها أمام الرجل المريض، وتجرأت على قضم أجزاء كبيرة من جسد الإمبراطورية. وبات من الواضح أنه لم يعد باستطاعة الدولة العثمانية الدفاع عن نفسها أمام القوى الأوروبية الكبرى أو حتى أمام الـــدول الأقـــل شـــأناً التي كانت تخضع لسيطرتها في السابق. وقد أزعجه أن يشهد احتضار هذه الإمبراطورية الإسلامية التي كانت عظيمة ذات يوم، وخدمها أبوه وجده طويلاً وبإخلاص - فيما القوى الغربية تتفرّج وتفرك أيديها وتتطلّع إلى فرصتها بجشع.

دفـــع تقلّص الإمبراطورية وتزايد القلق بشأن المخططات الأوروبية في الولايات العربية رياض الصلح وزملاءه العرب للاهتمام بالشكاوى والقضايا والتطلعات العربية. وأخذت تخامرهم فكرة الحكم الذاتي العربـــي الجديدة ضمن دولة تركية عربية - أي باختـــصار اعتناق "مفهوم العروبة" الحديث. كانت ولاءاتهم منقسمة وهم يتصارعون مـــع ما سمّي "بمشكلة الثنائية الثقافية بين الذات العربية والمحيط العثماني"[2]. لكن بعد عدة سنوات، حطّمت الحرب الكبرى عالمهم العثماني بصورة نهائية، ما دفعهم للانتقال من العروبة إلى القومية العربية.

---

(1) المصدر نفسه، ص 315.

(2) Muhammad Muslih, 'The Rise of Local Nationalism in the Arab East,' in Rashid Khalidi et al (eds.), *The Origins of Arab Nationalism*, New York, 1991, p. 177.

الفصل الرابع

في ظلال المشانق

عاد آل الصلح من إستانبول على عجل في وقتٍ ما من سنة 1913. ويرجّح أنهم غـادروا العاصمة العثمانية بعدما اغتيل محمود شوكت باشا، الصدر الأعظم والمناصر العسكري لجمعية الاتحاد والترقي، في 24 حزيران/يونيو. وقد أطلق اغتياله موجة من الإرهـاب ضـد الحزب العثماني الليبرالي والمعارضة. ومنذ تلك اللحظة، أصبح الجو السياسي في العاصمة عنيفاً وشديد الاضطراب، ولم يعد يشعر بالأمان كل من له علاقة بالمعارضة، وإن كانت غير مباشرة.

علـى الـرغم مـن أن محمـود شوكت باشا لم يكن متفقاً في الرأي مع قادة الاتحاديين، فإنهم استخدموا اغتياله (الذي اعتبره بعضهم من تدبيرهم) لسحق من تبقى مـن معارضـيهم. وبعدما أصبحت إستانبول تحت الحكم الصارم لجمال باشا، طورد الليـبراليون البارزون، وزجّوا في السجون، وحوكموا أمام محاكم عسكرية. أعدم 12 شخـصاً اتهمـوا بتدبير عملية الاغتيال، ونُفي 350 آخرون إلى منطقة البحر الأسود. قضت هذه الإعدامات وأحكام النفي على الحزب الليبرالي كمعارضة منظمة، وكانت بمثابة نذر للتدابير الإجرامية التي اتخذها جمال باشا نفسه في ما بعد ضد القوميين العرب عـندما أصـبح حاكمـاً علـى سوريا خلال الحرب العالمية الأولى، ما أكسبه لقب "السفاح".

يُظهـر الـسجل أن رضا الصلح تقاعد من الخدمة الحكومية في 14 شباط/فبراير 1914 بمعاش قدره 1666 قرشاً. وعلى غرار العديد من النواب والوجهاء العرب، كان يُعتبر مرتبطاً بالحزب الليبرالي المعارض. غير أن ذلك الحزب دُمّر وشُتّت واعتُبر خارجاً على القانون. ولم يعد من الممكن تصوّر قدرته على العودة إلى السلطة. وبدلاً من ذلك أحكمـت جمعية الاتحاد والترقي سيطرتها على الحكم بقيادة الثلاثي أنور وطلعت وجمال. وعـندما نظمـت الجمعية الانتخابات في كانون الثاني/يناير 1914 لإضفاء الشرعية على

حكمهـــا، لم يكن للمعارضة أي وجود على الإطلاق. فقد أصبحت إستانبول بالنسبة إلى رضا الصلح وأصدقائه، مكاناً غير ديمقراطي وعدائياً، بل محفوفاً بالمخاطر.

ربمـــا كان بعض العرب بطيئين في استيعاب التحوّل نحو القومية التركية الضيّقة الذي حدث داخل حركة تركيا الفتاة في السنتين الحاسمتين اللتين سبقتا الحرب العالمية الأولى. فقـــد استمر العرب، وبخاصة المنتمون إلى الجيل القديم، في تعليل النفس بالأمل الضعيف بعودة عقارب الساعة إلى الوراء، واستعادة شكلٍ من أشكال الشراكة العربية التـــركية. لم يكن ذلك غير منطقي تماماً، لأن تركيا الفتاة بذلت جهوداً مضنية للإيحاء بـــأن مـــثل هذه الفكرة تبدو معقولة. كانوا يخشون من أن يميل العرب إلى اتباع مثال الـــبلقان والانفـــصال عن الإمبراطورية، لذا شرعوا في كسب ودّهم، بل إنهم أخذوا يـــشدّدون علـــى أهمـــية الإســـلام كرابط بين العرب والأتراك. لقي ذلك الأسلوب استحـــساناً لدى رجال بارزين مثل الأمير شكيب أرسلان الذي بقي ملتزماً باستمرار بقـــاء الإمبراطورية الإسلامية، باعتباره أحد مريدي محمد عبده. على أي حال، أعيد شحذ الحساسيات الإسلامية بعد خسارة ليبيا أمام الإيطاليين وثورة دول البلقان بدعم من الغرب، والضربات التي وجّهتها أوروبا "المسيحية" إلى الإمبراطورية العثمانية.

شرعت جمعية الاتحاد والترقي بالتخفيف من تدابير "التتريك" السابقة التي حاولت جعل اللغة التركية اللغة المسيطرة في الإمبراطورية. على سبيل المثال، عندما نُقل كامل الـــصلح، شـــقيق رضـــا الأكبر الذي كان يعمل قاضياً عثمانياً منذ مدة طويلة، من موناســـتير إلى دمـــشق لـــيرأس محكمة الاستئناف في تلك المدينة، استُدعي أولاً إلى إستانبول، ليبلغه نجم الدين ملاّ بك، وزير العدل، أن لغة محكمته أصبحت التركية من الآن فصاعداً[1]. وصدرت الأوامر أيضاً بتغيير أسماء الشوارع في دمشق من العربية إلى التـــركية، فأثار هذان التدبيران استياء مدينة تفتخر بتراثها الأدبـــي العربـــي العظيم. وهكـــذا أصبحت معرفة التركية إلزامية فجأة لرفع دعوى أمام المحكمة[2]. وكان من الطبيعي أن تؤدي هذه التدابير الجديدة المكدّرة إلى إثارة سخط العرب. وعندما أدرك

---

(1) مذكـــرات الدكـــتور عـــبد الرحمن الشهبندر، *الثورة الوطنية*، دمشق، 1933، ص 2-3، نقلاً عن Zeine, *Arab-Turkish Relations*, pp. 84-85.

(2) Seikaly, "Shukri al-'Asali", p. 85.

الأتـــراك ذلـــك في سنة 1913، بدأوا بالتراجع عن سياستهم. وفي محاولة واضحة لإرضاء العـــرب، سُمح بإعادة استخدام العربية في الإدارة الحكومية والمحاكم وكلغة التعليم الأولى في مـــدارس الولايات العربية ما عدا مدارس النخبة المعروفة بالمدارس "السلطانية". إضافة إلى ذلـــك، أصبح على الموظفين الأتراك الذين يتولون مناصب في الولايات العربية أن يتقنوا اللغة العربية، ويخضعوا لامتحان في هذه اللغة قبل تسلمهم مناصبهم.

بـــدا الاتحاديـــون مستعدين للتراجع بشأن القضايا الخلافية مثل اللامركزية، وقدّموا وعـــوداً إصلاحية بعيدة الأثر على أمل استعادة ولاء العرب. وقد ساهم عاملان آخران في استرضـــاء العرب: أحدهما تعيين سعيد حلمي باشا في منصب الصدر الأعظم، وهو أحد أفـــراد العائلـــة الخديوية في مصر، وحفيد محمد علي باشا، وأحد المثقفين من ذوي الميول الإســـلامية التحديثية. وعلى الرغم من أنه شغل منصب وزير الخارجية في حكومة محمود شـــوكت باشـــا، فإن نشأته العثمانية التقليدية بدت كأنها تدلّ على ميل نحو العرب الذين خدمـــوا في الإدارة العثمانـــية وأصابهم الاضطراب بسبب الإجراءات القاسية الجديدة التي كان قد اتخذها الاتحاديون. والثاني أن كثيراً من العرب البارزين تجتذبهم الألقاب والمناصب المـــرموقة. وقد عيّن العديد منهم، حتى قبل انتخابات 1914، أعضاء في مجلس الشيوخ مثل يوسف سرسق ومحمد بَيهُم من بيروت، وأحمد الكيخيا من حلب، وعبد الحميد الزهراوي من حمص، وعبد الرحمن اليوسف من دمشق، ومحي الدين الكيلاني من بغداد. وعيّن اثنان مـــن الدعاة البارزين إلى الإصلاح وهما شكري العسلي وعبد الوهاب الإنكليزي مفتشين في ولايـــة ســـورية. وكـــان شكري العسلي قد رحّب في سنة 1908 بثورة تركيا الفتاة ووصـــفها بأنها فجر "دولة جديدة" تسود فيها الوحدة والمساواة. لكنه غيّر رأيه من دون شكّ بحلول سنة 1912. ومن الواضح أن تعيينه مفتشاً قُصد به إعادته إلى دائرة الولاء[1].

جاذبية الجمعيات السرية

فضّل العرب المتقدمون في السن، مثل رضا الصلح الذين أمضوا حياتهم في الخدمة العثمانية، الاطمئنان إلى هذه الإيماءات، لكن لا يمكن قول ذلك عن الشباب العربـــي الذين تزايدت شكوكهم في نوايا جمعية الاتحاد والترقّي. بدلاً من ذلك، تقاطر العرب

(1) المصدر نفسه، ص ص 76، 84.

المتعلمون في العشرينيات والثلاثينيات من العمر إلى العديد من الجمعيات والأحزاب السرية التي تشكّلت لحماية الحقوق العربية والدفاع عن القضايا العربية. ومن المفارقة أن هذا المخطّط وضعته جمعية الاتحاد والترقي نفسها، لأنها بدأت جمعية سرية ثم استولت على السلطة وفرضت حكمها على جميع أنحاء الإمبراطورية. بحلول نهاية سنة 1912، أصبحت الجمعيات السرية العربية شائعة ومتنوعة.

أهم تلك الجمعيات هي "العربية الفتاة" الفائقة السرية، وهي منظمة عربية إسلامية أسّسها خمسة طلاب عرب في باريس في 14 تشرين الثاني/نوفمبر 1909. وكان هدفها حصول العرب على الحكم الذاتي في إطار إمبراطورية ثنائية القومية – عربية وتركية – على غرار الإمبراطورية النمساوية المجرية. كما كانت تطمح إلى النهوض بالأمة العربية إلى مصافّ الغرب. بعد مرور عام أو نحو ذلك على تأسيسها، سمع رياض الصلح همسات عن وجودها، فكتب إلى جميل مردم في دمشق، وهو أحد مؤسسيها على ما يقال، طالباً دخولها. وظل عضواً في الجمعية حتى حُلّت بعد الحرب العالمية الأولى. بل إن رياض اتصل قبل ذلك بجمعية سرية أخرى هي "القحطانية"، التي تأسست في إستانبول بقيادة ضابط مصري من أصل شركسي، يدعى عزيز علي المصري.

طبقاً لسجلات عائلة الصلح، فإن رياض ذهب في بداية سنة 1913 لتأدية يمين الولاء للقحطانية، يرافقه رجل أكبر منه سناً هو نوري السعيد. وكان سعيد قد قدم من بغداد إلى العاصمة العثمانية بمنحة للدراسة في الكلية العسكرية. كانت مراسم الانتساب إلى الجمعية قصيرة. فبعد أن قرأ أحدهم ما وُصف بأنه "الملف الوطني" لرياض ونوري، أعلن أن الرفيقين "فوق الشبهات"، وأصبحا من فورهما عضوين في الجمعية. أعطيا شارة وكلمة سر، وأبلغا عن الوسائل السرية للتعرف إلى الأعضاء الآخرين. وبعد ذلك أنشدا معاً شعار الجمعية: "أيها العرب! يا أبناء قحطان...". وعلى غرار الجمعيات الأخرى في ذلك الوقت، لم يكن برنامج القحطانية ثورياً بحق. وإنما يرمي إلى السعي لتحقيق الحكم الذاتي العربي ضمن إمبراطورية عثمانية، يضع فيها السلطان تاجاً تركياً عربياً مزدوجاً.

لم يُعجب ذلك رياض الصلح، وسأل وهو يعيد شعار الجمعية على الفور، "كيف لنا أن نرفع رؤوسنا عالياً إذا كان يحكمنا تاج أجنبي؟" لذا لم تتجاوز عضويته في

القحطانية عشر دقائق. وقال لنوري السعيد: "الحرية ليست بطيخة تشترى حزوزاً. إما الكـــل وإما فلا!" فأجابه نوري: "ستوصلك مثل هذه الأفكار إلى المشنقة قبل أن تبلغ الثامنة عشرة". فرد رياض بسرعة: "أتساءل عن نوعية الموت الذي ستلقاه. هل أحلى الميتات في سن المئة؟"

روى نوري السعيد هذه القصة لعائلة الصلح عندما جاء ليقدّم واجب العزاء بعد اغتيال رياض في سنة 1951. في ذلك الوقت، كان نوري السعيد يهيمن على السياسة العراقية منذ أمد طويل. لكنه واجه ميتة رهيبة بعد ذلك بسبع سنوات. عندما اندلعت ثـــورة 1958، حـــاول الهرب من بغداد متخفياً بنقاب امرأة، لكن الغوغاء تعرّفوا إليه وقتلوه.

ظهـــرت جمعـــية "العهـــد"، وهـــي الـــصنو العسكري لجمعية الفتاة، من ثنايا "القحطانية". وقد أسسها عزيز علي المصري في تشرين الأول/أكتوبر 1913، واتخذت لها فروعاً في بغداد والموصل، وربما انخرط في صفوفها ما يقرب من 250 ضابطاً عربياً. ظـــل عزيـــز، الذي خدم بامتياز في الجيش العثماني، وبخاصة في ليبيا، موالياً للعثمانية. لكـــن بعـــد شـــجاره مع أنور باشا في ربيع 1914 (لأن الأخير عندما أصبح وزيراً للحربية، قام بتسريح أكثر من 300 ضابط)، غادر إستانبول وعاد إلى القاهرة. ويُقال إنـــه جسّ نبض المسؤولين البريطانيين هناك حول فكرة إقامة دولة عربية مستقلة تحت رعايـــتهم. مـــن الواضح أن عزيز، مثله مثل الكثيرين في تلك الفترة الانتقالية المحيّرة، كانت تتنازعه ولاءات متعارضة ومتنافرة[1].

كانت "العربية الفتاة" و"العهد" جمعيتين سريتين، في حين أن "حزب اللامركزية الإداريـــة العثماني"، الذي أُسس في القاهرة في نهاية سنة 1912 بعلم الحكومة التركية الـــتام، كان حزباً سياسياً مفتوحاً أمام كل المواطنين العثمانيين العرب وغير العرب ما دامـــوا يـــؤيدون أهدافه[2]. غير أن أعضاءه كانوا من المهاجرين السوريين واللبنانيين والفلسطينيين الذين توافدوا على مصر في ظل مناخ الاستقرار السياسي النسبـــي الذي ازدهر لفترة قصيرة بعد الاحتلال البريطاني في سنة 1882.

(1) Kayali, *Arabs and Young Turks*, pp. 177-178, 186.
(2) Zeine, *Arab-Turkish Relations*, pp. 2-3.

بروز الحركة الإصلاحية

شعر الباب العالي بالقلق من هذه النزعة لإثبات الذات - أو حتى من تمرّد وشيك - في الولايات العربية، فقرّر السماح للوجهاء العرب بتقديم اقتراحاتهم للإصلاح المحلي. كانت بيروت السبّاقة إلى ذلك، وتقدّمت حركة سرعان ما انتشرت في الأماكن الأخرى. في كانون الثاني/يناير 1913، أنشأ وجهاء مسلمون ومسيحيون "جمعية الإصلاح لولاية بيروت". ومن أعضائها المؤسسين البارزين، كامل الصلح، عم رياض الصلح الذي عمل قاضياً عثمانياً في دمشق. كانت بيروت مهيّئة جداً لمثل هذا التطور. فقد أنشأت تجارتها الخارجية الواسعة طبقة تجارية وسطى تتوق إلى التخلص من نير سيطرة إستانبول. وكانت الطبقة العمالية الناشئة أكثر قوة وتنظيماً في بيروت مما هي عليه في أي مدينة عربية أخرى. وفي وسع هذه المدينة أن تفاخر باحتضانها حياة ثقافية ناشطة بفضل انتشار المدارس - التابعة للدولة والخاصة منها والتبشيرية - ومؤسسات التعليم العالي الشهيرة. ولعبت مطابع الجامعات دوراً فعّالاً في تمكين بيروت من أن تصبح مركزاً لنشر الكتب العربية. ومن الأمثلة المهمة عما طُبع موسوعة المعارف التي صنّفها بطرس البستاني (1819-1883) وتابعتها عائلته بعد وفاته. وفوق ذلك كله، تدين المدينة بتفوّقها الثقافي إلى الانتشار الواسع للصحف والمجلات، بما في ذلك صحيفة **المفيد** الجريئة، لسان حال جمعية "العربية الفتاة" التي اشترك في تأسيسها وملكيتها مع فؤاد حنتس، شاب لامع في أوائل العشرينيات من عمره يدعى عبد الغني العريسي[1]. ومن الصحف البارزة الأخرى التي حملت لواء القضية العربية **المُقتبس** الدمشقية لصاحبها ومحررها محمد كرد علي.

ساهمت نهضة اللغة العربية في الكتب والمنشورات الحديثة في نهضة العرب القومية. ففي ظل الاضطراب الثقافي في ذلك الوقت، سادت أفكار الخوف من السيطرة الغربية، والعداء لاستيلاء الصهيونية الأوروبية على الأرض في فلسطين،

---

(1) Rashid Khalidi, "Ottomanism and Arabism", in Khalidi *et al.* (eds), *The Origins of Arab Nationalism*, p. 56؛ انظر أيضاً مقالته عن عبد الغني العريسي والمفيد. في ولاية بيروت التي شملت معظم الشاطئ المتوسطي من شمال يافا إلى شمال اللاذقية ارتفع عدد المدارس الحكومية من 153 عام 1886 إلى 359 عام 1914.

والارتباط العميق بالإسلام فضلاً عن الرغبة في الإصلاح الإسلامي، والاعتقاد المتزايد بضرورة استقلال العرب عن السيطرة التركية التي اشتدّت تعصّباً. اتحدت هذه الأفكار مع مفاهيم الوطنية، وحرية التعبير وحقوق الإنسان، التي تشكّل جزءاً من الإرث العالمي. وأيقظت تلك السنوات الأمل بالتغيير بين المفكرين في كل مكان في المنطقة، بما في ذلك في هذا المرفأ المتنامي في شرق المتوسط.

عقدت جمعية الإصلاح، التي تألفت من 86 عضواً من كل "مجالس الملل" التي تمثل جميع الطوائف في المدينة، اجتماعها الأول في 12 كانون الثاني/يناير 1913 برئاسة كل من محمد بَيهُم ويوسف سرسق. وفي محاولة للتوسّط بين الإصلاحيين النافدي الصبر والحكومة العثمانية المترددة، صاغت لائحة إصلاحية أملت أن ترضي الطرفين.

تم الإعلان عن هذه اللائحة الإصلاحية بعد مرور أيام قليلة فقط على انقلاب 23 كانون الثاني/يناير 1913 الذي أعاد "جمعية الاتحاد والترقي" إلى السلطة، وقد تمّ إقرارها في اجتماع الجمعية الثالث في 31 من الشهر عينه. تألّفت اللائحة من 15 مادة، نصت المادة الأولى منها على بقاء شؤون الولاية الخارجية، بالإضافة إلى كل ما يتعلق بالجيش، والرسوم الجمركية، والضرائب، والبريد والتلغراف، في يد حكومة إستانبول. أما شؤون الولاية الداخلية فيعهد بها إلى مجلس الولاية المنتخب محلياً. وإذا حصلت خلافات لا يمكن حلها بين المجلس والوالي العثماني، يكون لدى المجلس صلاحية عزل الوالي بأغلبية ثلثي الأعضاء. ونصت المادة 14 على الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية للولاية.

لم يكن من المفاجئ ألا ينظر حكام إستانبول الجدد بعين الرضى إلى مبادرة جمعية الإصلاح الجريئة، وأن يعتبروها تحدياً لسلطتهم التي انتزعوها بصعوبة. وكانوا يكرهون صحيفة المفيد والآراء القومية العربية لكتابها ومن بينهم رياض الصلح. وعلى الرغم من أن جمعية الاتحاد والترقي قدّمت بعض التنازلات في مجال اللغة المستخدمة – العربية أو التركية – فقد اعتُبر أي اقتراح يشير إلى الرغبة في الانفصال غير مقبول على الإطلاق.

بعد وقت قصير من استيلاء الاتحاديين على السلطة في كانون الثاني/يناير، عاد حازم باشا إلى منصبه والياً على بيروت وحلّ محل أدهم باشا الذي عيّنته في ذلك المنصب حكومة "الحرية والائتلاف" السابقة. كان حازم باشا مصمماً على القضاء

علـــى اللائحـــة الإصلاحية، فبدأ بإغلاق صحيفتين من صحف بيروت. وقد أفاد مراسل جريدة "الأزمنة" *Le Temps* الباريسية من بيروت في 12 آذار/مارس 1913 أنّ الوالي استدعى شكري العسلي، نائب دمشق السابق وأحد الإصلاحيين البارزين ليعـــرض عليه منصب متصرف اللاذقية. ويقال إن العسلي أجابه: "نحن العرب لا نفـــتش عـــن مناصب مربحة ولكن عن إصلاحات جدية تنفذها وتضمنها حكومة الـــسلطنة العثمانـــية"[1]. لكن حازم باشا لم يتراجع، بل حلّ "جمعية الإصلاح"، وألقـــى القبض على قادتها وأغلق أبواب ناديها - وكلها تدابير تعسفية أثارت رد فعل قوي جداً واحتجاجاً شديداً، ما اضطره إلى التراجع والإفراج عن المعتقلين من دون شـــروط. وفي الوقت ذاته، أغلقت السلطات التركية في دمشق الفرع المحلي لحزب اللامركزية الإدارية العثماني.

المؤتمر العربي في سنة 1913

عـــندما أُسكتت الحركة الإصلاحية في بيروت، علا صوتها في باريس. فقد دعا ثمانـــية شبان عرب - مسلمين ومسيحيين - وفوداً من كل الولايات العربية.إلى مؤتمر عربـــــي عامّ يعقد في العاصمة الفرنسية. وتولّى أمانة سرّ اللجنة التحضيرية عبد الغني العريـــسي رئـــيس تحرير صحيفة **المفيد**، الذي كان في ذلك الوقت في باريس يدرس الصحافة. عُقد المؤتمر في 18 حزيران/يونيو 1913. كانت تلك المرة الأولى منذ سقوط دول الخلافة العربية المبكرة التي يجتمع فيها مندوبون عن كل الولايات العربية بالإضافة إلى مهاجـــرين من أوروبا والأميركتين لمناقشة معضلة أمتهم والتخطيط لمستقبلها. جاء عـــدة مـــندوبين من بيروت من بينهم سليم علي سلام. وكان قد شغل رئاسة بلدية بـــيروت ومؤســـسة المقاصـــد التربوية المهمة[2] التي زوّدت مدارسها عدة أجيال من الطـــلاب بتعلـــيم ممـــتاز باللغة العربية. وجاء مندوبون آخرون من حزب اللامركزية الإداريـــة العثماني في القاهرة بالإضافة إلى ممثلين عن الجالية السورية في باريس. ترأس الجلـــسات عبد الحميد الزهراوي، ممثلاً حزب اللامركزية. وكان ذا مكانة مرموقة لا

(1) Zeine, *Arab-Turkish Relations*, note 54, p. 95.
(2) Ziadé, 'Beyrouth', p. 64.

لأنــه نائباً بارزاً في البرلمان العثماني فحسب، وإنما أيضاً لأنه أصدر في إستانبول جريدة **الحضارة** التي كانت واسعة الانتشار في كل الولايات العربية[1].

تمحورت وقائع الجلسات حول أفكار الحقوق العربية ضمن الإمبراطورية، والعداء للاحــتلال الأوروبـــي واللامركــزية الإداريــة. لم يأتِ أي ذكر للانفصال عن إستانبول[2]. بل شدد كل الخطباء - خلافاً لذلك - على الرغبة العامة في المحافظة على ســلامة الإمبراطورية، شرط أن يعترف الأتراك بالعرب شركاء لا تابعين. وقد تزامن اغتــيال محمود شوكت باشا في إستانبول، وهو عراقي المولد، مع يوم انتهاء جلسات المؤتمر العربــي في 24 حزيران/يونيو، وأثار ذلك المشاعر.

فــشلت جمعــية الاتحاد والترقي في منع انعقاد المؤتمر، فأرسلت وفداً إلى باريس للــتفاوض مــع أعضائه. وبعد مناقشات طويلة، جرى التوقيع على اتفاق يحقق عدة مطالــب عــربية بمــا في ذلك اللامركزية الإدارية، وتحديد حصة العرب من الولاة والمتــصرفين وأعضاء مجلس الشيوخ، واستخدام العربية في إدارة الولايات العربية وفي مدارسها على جميع المستويات، وأن تكون الخدمة العسكرية محلية، وما إلى ذلك. لكن ظهرت عقبة خطيرة بعد ذلك. فقد كشف جواسيس جمعية الاتحاد والترقي فجأة عن أن عــضوين مسيحيين في الوفد البيروتي - وهما الدكتور أيوب ثابت وخليل زينية - عقدا اجتماعات سرّية مع مسؤولين فرنسيين قبل المجيء إلى باريس.

تلقّفــت الحكــومة الاتحاديــة في إستانبول هذه المعلومات لتدمير صدقية حركة الإصــلاح في بيروت واتهامها أنها مؤامرة مسيحية[3]. وجد المندوبون المسلمون، الذين لم يكونــوا علــى علم بهذه الاجتماعات، أنفسهم محرجين ومعرّضين للشبهة، فقرروا تسوية مسائل الإصلاح من الآن فصاعداً مع الحكومة العثمانية مباشرة. ولهذا الغرض، توقف ثلاثة أعضاء من الوفد البيروتي، وهم سليم علي سلام وأحمد مختار بيهم وأحمد طبّارة، في إستانبول في طريق العودة وأقسموا يمين الولاء للخليفة والدولة العثمانية عند اجــتماعهم بالــسلطان محمد رشاد. وذهب عبد الحميد الزهراوي إلى إستانبول أيضاً

(1) Khalidi, "Ottomanism and Arabism", p. 60.

(2) Kayali, *Arabs and Young Turks*, pp 135-138, Tarabein, 'Abd al-Hamid al-Zahrawi', p. 104.

(3) Kayali, *Arabs and Young Turks*, p. 141.

للتفاوض مع جمعية الاتحاد والترقي على تنفيذ الإصلاحات المتفق عليها. وفي محاولة واضحة لكسب ولائه سمّي عضواً في مجلس الشيوخ، إلى جانب ستّ شخصيات عربية أخرى، بموجب مرسوم سلطاني. اختار الزهراوي أن يرى في تعيينه دليلاً على حسن نية الاتحاديين، لكن الشبان العرب الأصغر سناً رأوا في قبوله المنصب نوعاً من الخيانة لقضيّتهم. ومن سوء حظ الزهراوي أن الباب العالي لم يكن لديه ما يدعوه للتعجيل في تنفيذ الإصلاحات التي وعده بها. وقد شعر بالإحباط من تأجيل التنفيذ المتكرّر، فغادر إلى القاهرة حيث مكث عدة أشهر قبل العودة ثانية إلى إستانبول[1].

في أعقاب المؤتمر العربي غير الناجح، بدا أن حركة الإصلاح في سوريا قد تلاشت. بل إن بعض الوجهاء من أمثال الأمير شكيب أرسلان وعبد الرحمن اليوسف ومحمد فوزي باشا العظم، والشيخ أسعد الشقيري ذهبوا إلى حدّ إعلان معارضتهم للمؤتمر العربي، وأكّدوا أنه لا يمثل الرأي العام. وسادت حالة من الارتباك الحقيقي في ذلك الوقت. ظلت الغالبية الساحقة من الجيل القديم عثمانية الولاء، وفضّلت المحافظة على الروابط العربية مع الإمبراطورية. واعتقد آخرون أن الحل هو إقامة خلافة يتولاها خديوي مصر عباس حلمي أو أحد أعضاء العائلات العربية الحاكمة. شعر بعضهم أن الخطر الأعظم مصدره الشوفينية العرقية واللغوية للاتحاديين، بينما اعتقد آخرون أن المطامع الأوروبية الاستعمارية هي التي تمثل الخطر الأشدّ. وخاف بعضهم من حصول انهيار عثماني، وآخرون من انتصار عثماني. وأولى موارنة لبنان ثقتهم لفرنسا، بينما مال بعض الوجهاء المسلمين نحو بريطانيا. وشعر التجار بالقلق من احتمال أن يضع الباب العالي يده على الغذاء والوقود، ويرفع الضرائب، ويجمع القروض بالإكراه لسداد تكاليف حروب البلقان الكارثية. وظن كثيرون أن الحكم الذاتي العربي لا يمكن تحقيقه إلا بمساعدة أجنبية، مع أنه هدف يشترك فيه الجميع.

في خضم كل هذه الفوضى أخذت نواة متشددة من الشبان العرب المسيّسين ترى أن الهدف يجب ألا يكون الحكم الذاتي، بل الاستقلال التام. وفي نهاية سنة 1913، اتضح للعديد منهم أن جمعية الاتحاد والترقي لن تنفّذ أياً من الإصلاحات التي طالب العرب بها. لم تكن فكرة الاستقلال العربي الكامل لتخطر على بال هؤلاء الرجال

(1) Tarabein, ‘Abd al-Hamid al-Zahrawi’, p. 109.

لــو لم يــدفعها إلى ذلك الاتجاه سلوك الاتحاديين الوحشي الأحمق الذي يتسم بالغباء الــسياسي[1]. فقــد أدى القمع الذي مارسوه على جمعية الإصلاح في بيروت وفرع حزب اللامركزية في دمشق، إلى تحريض "العربية الفتاة" على توجيه طاقاتها الكبيرة نحو العمــل السري. أصبحت بيروت المركز الرئيسي لأنشطتها في نهاية سنة 1913 وافتتح فرع لها في دمشق أيضاً[2]. وصار أفرادها في ذلك الوقت يعرفون بعضهم بعضاً بصورة جــيدة، واكتــسبوا فهمــاً أعمق للمشاكل الخاصة بكل ولاية عربية. وبدؤوا العمل لتحقيق هدفهم في سرية عالية.

عائلة الصلح والحرب الكبرى

عــندما انــدلعت الحرب بين القوى الأوروبية في آب/أغسطس 1914، لم يكن ســوى قلة قليلة تتوقّع أن يمتد الصراع إلى الشرق الأوسط. لكن في 2 آب/أغسطس وقّــع العثمانيون معاهدة سرية مع ألمانيا ترمي إلى حدّ كبير إلى حماية إمبراطوريتهم من روســيا، عــدوّهم التقليدي. ثم دخلوا في مفاوضات مع بريطانيا وفرنسا لبحث سبل التوصّل إلى أساس يمكّنهم من الوقوف على الحياد في الحرب. كان شرطهم الأساسي إلغــاء الامتيازات الكريهة التي أبقت الإمبراطورية رهينة المصالح الأوروبية لعدة قرون. عندما رفضت قوى الوفاق الثلاث - بريطانيا العظمى وفرنسا وروسيا - تقديم تنازل في هــذه المسألة، قامت الحكومة العثمانية بإلغاء الامتيازات، من جانب واحد، ابتداء من أول تشرين الأول/أكتوبر. بعد أقل من شهر، في 29 تشرين الأول/أكتوبر، دخلت الإمــبراطورية الحــرب إلى جانب دول الحلف الثلاثي المكوّن من ألمانيا والإمبراطورية النمساوية المجرية وإيطاليا. فأسفر ذلك عن فتح جبهة جديدة في الشرق الأوسط.

ثمّــة أسباب مقنعة دفعت العثمانيين للوقوف إلى جانب الألمان ضد قوى الوفاق الثلاثــي المكوّن من روسيا وبريطانيا وفرنسا. ولعل أهم هذه الأسباب تعهّد ألمانيا، في حــال النصر، بإعادة العديد من الأراضي التي كانت الإمبراطورية العثمانية قد خسرتها في أوروبــا، بالإضــافة إلى قبرص ومصر اللتين احتلهما البريطانيون. وبما أن الضباط

(1) Khalidi, "Ottomanism and Arabism", p. 43.
(2) Muslih, "The Rise of Local Nationalism", p. 168.

الألمـــان يدرّبون الجيش العثماني منذ ثلاثة عقود، فإنه كان معتاداً على الطرق الألمانية ومقتنعاً بانتصار ألمانيا. كان محمود شوكت باشا، القائد العسكري القدير الذي قضى على الثورة المضادة في 13 نيسان/أبريل 1909، نتاج التدريب العسكري الألماني، كما أن أنور باشا، وزير الحربية، خدم كملحق عسكري عثماني في برلين.

كـــان الجيش العثماني في ذلك الوقت يتوق للثأر من هزيمته في حروب البلقان. وعـــندما استولت الحكومة البريطانية على سفينتين حربيتين تبنيان في أحواض السفن الـــبريطانية لحـــساب البحرية العثمانية، قدّمت ألمانيا للعثمانيين سفينتين بدلاً منهما، غـــوبان Goeben وبرســـلو Breslau. تمكنت هاتان السفينتان من مراوغة الأسطول الـــبريطاني ووصلتا إلى الدردنيل. وعلى الرغم من أنهما مزوّدتان بأطقم ألمانية ويقودهما ضـــباط ألمان، فقد أصبحتا رسمياً ملكاً لتركيا، وانضمتا في نهاية تشرين الأول/أكتوبر 1914 إلى بقـــية قطع الأسطول العثماني في قصف الموانئ الروسية على البحر الأسود. فأعلنت دول الوفاق الثلاثي الحرب على الإمبراطورية العثمانية.

بعد ذلك بأسبوع، احتشدت فرقة من الجيش البريطاني الهندي في البحرين استباقاً للأعمـــال العدائـــية، فاحتلت الفاو على مصب شط العرب، حيث يلتقي نهرا دجلة والفـــرات، وبدأت تقدمها البطيء والصعب شمالاً في مواجهة مقاومة تركية شديدة. وبعـــد ذلك أصيب البريطانيون بنكسة كبيرة في نيسان/أبريل 1916 عندما تم تطويق عـــشرة آلاف جـــندي من قوات الحملة الهندية وأُجبروا على الاستسلام للأتراك في كوت العمارة (في العراق). و لم يستطع البريطانيون أن يشنوا هجوماً مضاداً جديداً إلا في بداية سنة 1917، وقد أدى إلى احتلال بغداد في آذار/مارس من العام نفسه.

أرسلت حكومة الهند البريطانية قوة عسكرية إلى العراق بالنيابة عن لندن لحماية الخلـــيج العربـــي من تسلل العملاء الألمان إليه. فقد كان يُخشى من أن يهدد الألمان الكـــويت، ويحوّلـــوا إيران وحقولها النفطية الحيوية إلى الجانب الألماني، بالإضافة إلى مـــصفاة الـــنفط الجديـــدة التي بنتها شركة النفط البريطانية الإيرانية في عبادان. وإذا ســـقطت إيـــران في أيدي العدو، فإن أفغانستان والطريق إلى الهند ستصبحان عرضة لهجـــوم ألماني خطير. لذا نوقشت على عجل في لندن ودلهي مسألة ضمّ البصرة وربما بغداد إلى الإمبراطورية البريطانية.

أثـــارت الحـــرب لدى الوجهاء العرب مثل آل الصلح معضلة رهيبة: إلى أي طرف ينحازون؟ كان رضا الصلح قد خدم الإمبراطورية كحاكم ناحية وعضواً في البرلمان، وهو الآن يتقاضـــى معاشـــاً تقاعدياً من الدولة العثمانية. كما أنه عضو بارز في النخبة العثمانية الحاكمـــة، مـــثله مثل الأعيان العسكريين والمدنيين والدينيين. و لم يكن يشعر بتعارض بين هـــوياته العثمانية والإسلامية والعربية المتداخلة. مع ذلك فإن الإمبراطورية التي طالما خدمها بـــإخلاص شـــهدت تغيراً جذرياً. وقد رأى بأم العين كيف استولت مجموعة من الرجال القـــساة علـــى الـــسلطة في إســـتانبول، وسُـــحق الحزب الليبرالي - أي حزب الحرية والائـــتلاف - الذي انتمى إليه، ورُفضت اقتراحات العرب بشأن الإصلاح واللامركزية والحكـــم الـــذاتي بصلف، وكيف أخذ التفوّق التركي الضيّق، بل العرقي، يحل محل "الأمة الإســـلامية" العظيمة - التي طالما مثلتها الإمبراطورية المتعددة الأعراق. لقد تقلّصت مكانة العـــرب السياسية والاجتماعية وانحدرت بسرعة. كان رضا يدرك جيداً أن ولده رياض، مـــثله مـــثل الـــشبان الآخرين في عمره، يميلون إلى جانب الثوار العرب الذين انخرطوا في جمعـــيات ســـرية، ويحلمون بالاستقلال عن الأتراك تماماً. لكن هل يكفي ذلك للانقلاب على التزام دام طوال العمر؟ أولا تزال هذه الإمبراطورية الإسلامية التي كانت جبّارة ذات يـــوم تمـــثّل الدرع الفعّالة الوحيدة في وجه بريطانيا وفرنسا وروسيا وخطرها الداهم على العالم الإسلامي بأكمله؟ الإمبراطورية في حالة حرب الآن، أوليس من واجبه الإسراع إلى الـــدفاع عنها؟ إن جمعية الاتحاد والترقي، بالرغم من كل أخطائها، هي الحكومة السلطانية الآن. ومـــن المخيف تصوّر هزيمتها، لأن ذلك سيفتح الباب أمام الهيمنة الأوروبية المباشرة والخسارة المحتومة للأرض، وعنف وفوضى لا يمكن توقّع أشكالهما.

لـــذا لم يكـــن مفاجئاً أن يختار رضا الصلح وأصدقاؤه وزملاؤه الكثر في بيروت ودمشق وحلب والقدس ومدن عربية أخرى كبت شكوكهم وتعليق المطالبة بالإصلاح والإعـــلان عن تأييدهم للحكومة العثمانية التي أصبحت الآن صورية فحسب. كانت المفارقـــة المريرة، أنّ إستانبول لم تبالِ بهم كثيراً لأن اندلاع الحرب قلّص نفوذ العرب الـــسياسي كـــثيراً. ونظراً لأن جمعية الاتحاد والترقي كانت تستبعد دائماً ولاء العرب وتـــشكّك بـــوفائهم، فقد مال زعماؤها الثلاثة، طلعت وأنور وجمال، إلى مزيد من تكميم أفواه الناشطين - لاسيما الذين دعوا إلى الإصلاح في السابق.

لم يكن الموقف الاتحادي العدائي والقصير النظر من دون أساس البتة. فقد وصلت معلومات إلى إستانبول أن بعض المنفيين العرب في القاهرة، المرتبطين بحزب اللامركزية، اتصلوا بمسؤولين فرنسيين وبريطانيين. كما أنّ بعض الزعماء في بيروت أثاروا مع القنصل البريطاني إمكانية توسيع الحكم المصري (وهي عبارة ملطّفة تفيد الحكم البريطاني) إلى سوريا. لذلك جاء رد فعل إستانبول سريعاً وحازماً. ففي 11 تشرين الثاني/نوفمبر 1914، وفي محاولة لحشد المسلمين المترددين حول القضية العثمانية، أمر السلطان شيخ الإسلام في الإمبراطورية بإصدار فتوى تعلن الجهاد على الحلفاء، ما جعل نهوض المسلمين كافة للدفاع عن الأماكن المقدسة في الحجاز والقدس فريضة دينية.

في كانون الأول/ديسمبر، عُيّن جمال باشا حاكماً لدمشق على رأس 100 ألف جندي من الجيش الرابع، وهو وزير البحرية الذي أعدم العديد من أعضاء حزب "الحرية والائتلاف" المعارض بصفته حاكماً عسكرياً لإستانبول. وكانت مهمته القضاء تماماً على كل حركة انفصالية وفرض النظام بصرامة شديدة. وتقرّر أن يتصدّى لأي محاولة بريطانية للدخول إلى الولايات العربية ويدحرها. فبدأ مهمته بفرض اللغة التركية في كل المعاملات الرسمية. ونقل القوات العربية - التي اعتبرها غير جديرة بالثقة - إلى ميادين الحرب البعيدة والأشد خطورةً. وفي شباط/فبراير 1915، شن هجوماً بنحو 25 ألف جندي تركي على قناة السويس بغية استنقاذ مصر من البريطانيين، الذين كانوا قد عزلوا الخديوي عباس حلمي الثاني وأحكموا قبضتهم الحديدية على البلاد. وعلى الرغم من نجاح القوات البريطانية والهندية البريطانية في رد الهجوم، بمساعدة مدفعية السفن الحربية الفرنسية والبريطانية المتمركزة في قناة السويس (وهي القناة التي اعتقد السلطان عبد المجيد محقاً أنها ستُشكّل ثغرة في الدفاع العثماني)، فإن البريطانيين أدركوا الأهمية الاستراتيجية لفلسطين وقناة السويس في الدفاع عن مصر. وفي آب/أغسطس 1916، شن جمال باشا هجوماً ثانياً، غير أنه هُزِمَ مرة أخرى.

في محاولة لإظهار أن للحكومة العثمانية حلفاء أقوياء في الولايات، أمر جمال باشا بتعبئة القوى المحلية التي يمكن الاعتماد عليها لمساندة القوات التركية: قوة بدوية بقيادة الأمير علي بن الشريف حسين أمير مكة؛ ووحدة عسكرية درزية بقيادة الأمير شكيب

أرسلان؛ ووحدة كردية بقيادة عبد الرحمن اليوسف، وخليط من الوحدات الأخرى، يتكوّن كل منها من 300 مقاتل قدمها المسلمون البلغار والشركس[1]. ولكن لم تشارك سوى القليل من هذه الوحدات عملياً في القتال، فقد كان القصد من إنشائها الدعاية السياسية المحلية أكثر من أي شيء آخر.

حاول البريطانيون من جهتهم، إثارة القلاقل والثورات لشلّ حركة القوات العثمانية. فسعوا لإقناع عزيز علي المصري بدفع الضباط العرب المتذمرين في الجيش التركي في العراق للالتحاق بجيشهم. ولعل الأهم من ذلك بالنسبة إلى أحداث المستقبل الاتصالات التي أجراها الأمير عبد الله بن الشريف حسين، مع البريطانيين قبل نشوء الحرب. فقد كان يرغب في معرفة ما سيكون عليه موقف بريطانيا إذا ما قرّر الثورة على الأتراك.

تجددت هذه الاتصالات بوتيرة أسرع بُعيد ابتداء الحرب. رأى المخططون الاستراتيجيون البريطانيون أن الطريق الواضحة لتوجيه ضربة عسكرية إلى تركيا تمر بالأراضي العربية. لذا من الضروري استمالة العرب إلى جانب الحلفاء. وكان يُعتقد أن نسب الشريف حسين الذي يعود إلى النبي محمد ﷺ وسيطرته على الأماكن الإسلامية المقدسة، يعطيانه نفوذاً هائلاً بين العرب. بدا ذلك أمراً ملحّاً بعد كارثة عملية غاليبولي. ففي شباط/فبراير 1915، هاجمت السفن البريطانية والفرنسية الدردنيل لفتح الطريق أمام الهجوم على إستانبول، لكنها رُدت على أعقابها وأُجبرت على التراجع متكبدة خسائر كبيرة. ثم نزلت القوات في غاليبولي في نيسان/أبريل، إلا أنها انسحبت في نهاية السنة عندما جابهت مقاومة تركية عنيفة عزّزها وصول قوات جديدة من سوريا. وبحلول كانون الثاني/يناير 1916 تم التخلّي عن عملية غاليبولي. في ذلك الوقت، برزت في لندن وباريس الفكرة الشيطانية بأن دفع العرب للثورة على الأتراك في تلك اللحظة الحرجة بالذات، يمكن أن يلحق الهزيمة بالإمبراطورية العثمانية.

لعب الحسين شريف مكة أوراقه بحذر. فحرص على الاحتفاظ بعلاقاته مع إستانبول التي تعتمد عليه في تأييد القضية العثمانية بينما كان يتبادل الرسائل السرية مع البريطانيين. وفي حركة تمويهية خبيثة، أرسل راية الرسول ﷺ - التي احتفظت بها

(1) Kayali, *Arabs and Young Turks*, p. 189.

عائلـــته الهاشمـــية على مدى قرون - في جولة إلى الولايات العربية. وقد استقبلها يوم وصـــولها إلى دمـــشق في 1كانـــون الثاني/يناير 1915 أكبر حشد شهدته المدينة على الإطلاق.

بما أن الشاب رياض الصلح يتكلم التركية بطلاقة، فقد عهد إليه رفاقه في "العربية الفـــتاة" بمهمة التجسس على جمال باشا وأركان حربه. أفاد رياض أن الأتراك يعلّقون آمالاً كبيرة على وجود الراية لتعبئة الناس إلى جانبهم. وكان جمال باشا قد ركع أمام الـــراية وقـــبّلها قائلاً لمساعديه "لن يجرؤ أحد الآن على التخلّي عن معسكرنا أو حتى الوقوف على الحياد إلا إذا كان منافقاً وقحاً"[1].

في أيـــار/مايـــو 1915 أرسل الشريف حسين ابنه الثاني، الأمير فيصل، كان في الـــثلاثين من العمر، إلى سوريا من الحجاز ليجتمع بجمال باشا في مقره العامّ في دمشق ويطلب السلاح والمال. لم يكن الشريف حسين يتوقع أن تستجيب الحكومة العثمانية لطلبه. بل لقد وقعت بين يديه وثائق تظهر وجود خطط تركية لخلعه. لذا أمر ابنه أن يـــستغل فرصـــة زيارته إلى دمشق للاتصال بالقوميين العرب أعضاء "العربية الفتاة". والواقـــع أن الأمـــير فيصل أُرسل مرتين إلى دمشق لهذه الغاية. اعتذر فيصل عن قبول دعـــوة جمال باشا للإقامة في مقره، ونـــزل بدلاً من ذلك في منـــزل صديقيه نسيب وفوزي البكري، حيث ظنّ أنه سيكون بمنأى عن المراقبة التركية.

اجـــتمع أكثر من عشرة ثوار شبان في منـــزل البكري سراً لمقابلته. وبينما كانوا مجـــتمعين ذات لـــيلة في انتظار الأمير وهم يشوون الكستناء، قفزوا مذعورين عندما فرقعت حبة كستناء فاعتقدوا أنها طلقة رصاص! وكان الأخوان البكري يقيمان ولائم حاشدة كل مساء في الطابق السفلي من منـــزلهما بغية إخفاء المداولات السرية الجارية في الطابـــق العلـــوي. في البداية كان الشبان القوميون حذرين من فيصل معتقدين أن رصيد عائلته الديني سيجعلها تقف تلقائياً إلى جانب العثمانيين. لكن سرعان ما اطمأنوا.

أخـــبر رياض الصلح ابنته علياء، في ما بعد، أنه كُلّف بعد أحد هذه الاجتماعات الـــسرية بنقل رسالة من فيصل إلى وجهاء صيدا وصور والبلدات والقرى الأخرى في جنوب لبنان. وعندما غادر دمشق في طريقه إلى الجنوب، أوقفته دورية تركية. فاستل

(1) Alia el- Solh, *Le Jour* (Beirut), 29 August 1965.

خنجراً شركسياً صغيراً من جزمته - وهو هدية ثمينة من والدته - وأغمده في ذراع الشاويش التركي الذي حاول اعتقاله وفرّ هارباً. لكن سرعان ما قُبض عليه وتلقّى ضربة أفقدته الوعي وأسقطت طربوشه عن رأسه. كان ذلك من حسن التقادير، لأن رسالة الأمير فيصل إلى وجهاء جنوب لبنان مخيطة داخل بطانة الطربوش. عندما استعاد رياض وعيه، وجد نفسه مقيداً في خندق. تمكّن من تحرير إحدى يديه، وبذل جهداً كبيراً لانتزاع الرسالة السريّة التي تدينه من طربوشه. ثم وضعها في فمه ومضغها وابتلعها. بعد قليل، ظهرت عربة ألقاه بها سجّانوه وشتموه بأنه "كلب عربي"، وترافق ذلك مع الركل والضرب بأعقاب البنادق. وفي اليوم التالي وجد نفسه في زنزانة مظلمة داخل السجن الخاص الذي أنشأه جمال باشا في بلدة عاليه اللبنانية، وهو يعاني من الكدمات والرضوض. كان ذلك المكان الكئيب الذي يعتُقل فيه المعارضون العرب في انتظار المحاكمة أمام الديوان الحربي العرفي. أمضى رياض شهوراً طويلة في هذا السجن. وقد دُهش عندما علم من قريب له، تمكّن من إيصال بعض الملابس إليه خفية، أن والده العجوز رضا مسجون في زنزانة أخرى من السجن نفسه.

شهداء جمال باشا

بين عامي 1915 و1916 قرر جمال باشا سحق أي ثورة عربية في مهدها وبالقوة نفسها التي قضى بها على الليبراليين في إستانبول. لذلك اعتقل مئات من الشخصيات العربية البارزة - من الإداريين والنواب العثمانيين السابقين، وملاّك الأراضي، ومحرري الصحف، والوجهاء من جميع الأنواع - الذين ظن أنهم غير موالين لإستانبول بطريقة أو بأخرى. وكان مقتنعاً أنهم سيتحولون إلى طابور خامس خطير إذا ما نزل الحلفاء على شواطئ المتوسط.

بعض المعتقلين في عاليه احتُجزوا لأن أعداءهم الشخصيين أو السياسيين وشوا بهم. وآخرون أُخذت أسماؤهم من مستندات وجدت في القنصليتين الفرنسيتين في بيروت ودمشق اللتين دخلتهما السلطات العثمانية عنوة بعد إعلان الحرب. وعُثر على العديد من المستندات في القنصلية الفرنسية في بيروت في غرفة خلف باب خفي بعدما

أرشـــد أحد التراجمة الأتراك إليها. كانت الأسماء التي تظهرها المستندات لشخصيات لبنانـــية وسورية على اتصال بالفرنسيين. وبعضهم لم يفعل ما يدينه سوى التوقيع على عريضة في أثناء الدعوة إلى الإصلاح في فترة سابقة. لكن ذلك كان دليلاً كافياً لإقناع جمـــال باشـــا أن تركيا تواجه خطراً داهماً من انتفاضة قومية تدعمها القوى الأجنبية وتحرّض عليها.

قـــبل ذلك ببضع سنوات، بعدما عادت عائلة الصلح إلى بيروت من إستانبول، كان رضا، يرافقه عادة ابنه رياض، يمضي كثيراً من الوقت في جنوب لبنان للتشاور مع الوجهاء المحليين في صور وصيدا والنبطية ومرجعيون. كانوا يناقشون بقلق المسار الذي يـــتوجب علـــى العرب اتباعه في ضوء الاتجاه المتشدد للسياسة التركية. ومن الرجال الذين التقيا بهم في هذه الرحلات عبد الكريم الخليل، وهو مسلم شيعي شابّ ذو آراء قومـــية عـــربية راديكالـــية. وقد عرفاه في إستانبول، حيث ساهم في إنشاء "المنتدى الأدبـــــي" ذي النـــزعة القومية. تعلم عبد الكريم في بيروت في مدرسة الشيخ أحمد عباس الأزهري المشهورة (التي كان رياض قد التحق بها أيضاً)، ثم حصل على شهادة الحقوق في إستانبول. كما حضر المؤتمر العربـــي الأول في باريس في سنة 1913[1]. لم يمضِ وقت طويل حتى وصل خبر اجتماعه مع رضا ورياض الصلح في جبل عامل إلى السلطات التركية.

لعـــل كامـــل الأسعد، الوجيه البارز في جنوب لبنان والنائب السابق في البرلمان العثماني، هو الذي أبلغ السلطات التركية عنهم. فقد كتب إلى الشيخ أسعد الشقيري، مفتي الجيش التركي الرابع وأحد الموالين المشهورين للعثمانيين، مدّعياً أن رضا الصلح وعـــبد الكريم الخليل، يعملان على تنظيم حركة قومية تحريضية في صيدا ذات ارتباط بالحلفاء.

في ذلك الوقت، كان كامل الأسعد أقوى رجل في جنوب لبنان من دون شك. وكـــان قـــد التحق في إستانبول بحزب الحرية والائتلاف، مثله مثل رضا الصلح. لكنه عندما عاد إلى جبل عامل رأى أن الحكمة تقتضي الوقوف في صف السلطات العثمانية المحلـــية. وقد عركته المسؤوليات التي ينوء بها كزعيم لعائلة الأسعد الإقطاعية في جبل

(1) Chalabi, *The Shi'is of Jabal 'Amil*, pp. 37, 49, 50.

عامل، التي تسيطر على السكان الشيعة الذين يبلغ عددهم 140 ألف شخص في أقضية صيدا وصور ومرجعيون. وهذه المنطقة الواسعة يحدّها نهر الأوّلي شمالاً، ورأس الناقورة جنوباً، وجبل لبنان وبحيرة الحولة شرقاً والبحر الأبيض المتوسط غرباً[1]. كان الأسعد علـــى علاقة تنافسية مع آل الصلح دائماً لأسباب شخصية أو حتى طائفية، وربما اعتبر أن المثقفين والبيروقراطيين والوجهاء المدنيين والريفيين الذين يتشاور معهم الآن رياض الـــصلح وعبد الكريم الخليل في إقطاعيته، يشكّلون خطراً كبيراً على قاعدته السياسية التقليدية.

عـــندما وصلت الأنباء المزعومة عن التحريض على العصيان إلى جمال باشا، أمر حاكم صيدا بالتحقيق في الأمر على الفور[2]. فاعتُقل رضا الصلح، وعبد الكريم الخليل وعـــشرات آخـــرون ونقلوا إلى عاليه بانتظار المحاكمة[3]. تجاوزت شباك جمال باشا الدمـــوية جـــنوب لبنان كثيراً. فبدأ بإعدام قسيس ماروني، هو الأب يوسف الحايك، الذي اتهم بالتآمر مع فرنسا. وتلت هذه البداية البائسة سلسلة من المحاكمات وأحكام الإعـــدام الـــتي أصدرتها محكمة عاليه ترأسها جمال باشا بنفسه. كان المحكومون كلهم تقـــريباً من أصدقاء آل الصلح أو زملائهم. أعدم أحد عشر شخصاً من قادة بيروت، بينهم عشرة مسلمين، في 21 آب/أغسطس 1915 في الساحة الرئيسية للمدينة - سمّيت في مـــا بعـــد ســـاحة الـــشهداء. بعد ذلك أمر جمال باشا باعتقال شكري العسلي وعـــبد الوهاب الإنكليزي المفتشين العثمانيين المعيّنين حديثاً. وقد أتبع إعدامهما بجولة أخـــرى مـــن الإعدامات في 6 أيار/مايو 1916 ضمّت واحداً وعشرين عربياً - سبعة عـــشر مسلماً وأربعة مسيحيين - كلهم تقريباً من عائلات سورية ولبنانية وفلسطينية مـــرموقة. وكـــان من بينهم عبد الحميد الزهراوي الذي اعتقل في إستانبول ونقل إلى

---

(1) General Staff Intelligence, *General Report on Western Syria (occupied Enemy Territory West)* Chapter 18 on Sidon, Beirut, July 1919.

(2) هـــلال الـــصلح، رجل وقضية: **رياض الصلح 1894-1951**، ص 28. وفيه يذكر أن مصدر هذا الاتهـــام كتاب محمد جابر آل صفا، **تاريخ جبل عامل**، ص 210- 219. اعتُقل محمد جابر في عاليه في ذلـــك الـــوقت لكـــنه بُـــرِئ وأُفرج عنه. للحصول على رواية مفصلة عن مجريات محكمة عاليه العـــسكرية ووشـــاية كامل الأسعد برضا الصلح وعبد الكريم الخليل، انظر علي الزين، **من أوراقي**، بيروت د. ت، ص 11- 61.

(3) محمد جابر آل صفا، **تاريخ جبل عامل**، ص 210- 219.

سوريا للمحاكمة، وشفيق مؤيد العظم، ورشدي الشمعة، وحافظ السعيد، وعبد الغني العريسي محرر جريدة **المفيد** الوطنية الذي لم يكن قد تجاوز الخامسة والعشرين من عمره. نفّذت أحكام الإعدام في بيروت وفي ساحة المرجة في دمشق. وكان من بين الضحايا الذين حُكم عليهم بالإعدام وشُنقوا صديق رضا الصلح وصلة وصله في جنوب لبنان عبد الكريم الخليل، الذي وشى به كامل الأسعد كما وشى برضا الصلح.

تبع ذلك مزيد من الإعدامات في سوريا ولبنان. وحُكم على واحد وسبعين وجيهاً بالإعدام غيابياً. وأبعد عدد كبير من السوريين - 5000 شخص وفقاً لمصادر معاصرة - إلى مناطق نائية في الأناضول وصودرت أملاكهم، وأدى ذلك على الفور إلى إفقار العديد من العائلات الغنية والبارزة. كان الخوف التركي من اندلاع ثورة عربية وراء هذه الإجراءات الإجرامية. كما أن هذا الخوف التركي المماثل في الوقت نفسه، من اندلاع انتفاضة أرمنية بدعم من روسيا في نحو ذلك الوقت، دفع إلى ترحيل وقتل مئات الآلاف من الأرمن في سنة 1915. وقد نقل الناجون من تلك الإبادة الجماعية للأرمن الذين تمكّنوا من بلوغ بعض المدن السورية حكايات مرعبة عن الموت من الجوع والعطش، والاغتصاب والتعذيب، والمجازر. فبدأ السوريون يخشون من أن يكونوا التالين.

ترددت في كل الولايات العربية أصداء الصدمة الهائلة من التدابير الإجرامية التي اتخذها جمال باشا السفاح، وهزّت أركان المجتمع السوري. اتسمت المشاعر السائدة بالذعر والحيرة بشأن المستقبل، بالإضافة إلى تنامي الرغبة في الأخذ بالثأر. فبين ليلة وضحاها، تمّ القضاء على كل قيادة الحركة القومية العربية الناشئة. ومنذ تلك اللحظة، لم تعد فكرة الحكم الذاتي العربي في إطار إمبراطورية إصلاحية لامركزية أمراً وارداً. وأصبحت القطيعة مع الأتراك نهائية بالنسبة إلى كثير من العرب في بيروت ودمشق.

انتقلت الشعلة القومية الآن إلى الجيل الأصغر، لاسيما الضباط العرب الذين لا يزالون في القوات المسلحة العثمانية. فقد تمكّن جمال باشا ببطشه من أن ينفّر العالم العربي بأكمله. ولا شك أنه ألحق بمفرده أعظم الضرر بقضية الإمبراطورية العثمانية. فسحق حركة وطنية ناشئة لا يزال فيها الجيل الأكبر المعتدل يتودّد إلى الدولة العثمانية. وأدى انغماسه في القتل إلى توحيد الحركة حول أهداف عربية قومية، وإيقاظ روح

جديدة عازمة على الثورة. بعد المشانق أصبح الاستقلال السياسي العربي ضرورة لا بد منها - لمجرّد البقاء إذا لم يكن لأسباب أخرى[1].

كيف أفلت رضا الصلح وابنه رياض من الموت؟ ثمة رأي أن مكانة رضا وخدمته الطويلة في إدارة الدولة العثمانية أنقذهما من حبل المشنقة، لكن ذلك لا يفسّر لماذا واجه أشخاص آخرون لا يقلّون عنه مكانة وسنوات خدمة ميتة رهيبة على أعواد المشانق. وثمة رأي آخر أن كامل، شقيق رضا الأكبر، وكان قاضياً عثمانياً بارزاً، توسط لدى أنور باشا، وزير الحربية في ذلك الوقت، لإقناع جمال باشا بإنزال عقوبة النفي بشقيقه وابنه بدلاً من الإعدام[2]. في حين أن يُسر الصلح، آخر حفيدة على قيد الحياة لأحمد باشا، وكريمة كامل الصلح نفسه، أبلغت المؤلّف أن الوجيه الدرزي، ملحم بك حمادة، هو الذي تمكّن من إنقاذ رضا ورياض بوضع اسميهما في آخر قائمة المحكومين[3]. ويقول آخرون إن تهمة "خيانة الإمبراطورية" لم تثبت على رضا، وإن ذلك هو السبب وراء الحكم عليه بالنفي مع ولده رياض، بدلاً من الإعدام. ويُعتقد أن جمال باشا كان يرغب في نفي الوالد والولد إلى مكانين مختلفين، لكن سليم علي سلام تدخل بنجاح لترتيب نفيهما معاً[4].

قدّمت علياء، كريمة رياض الصلح، تفسيراً آخر لنجاتهما من الموت. فقد روت أنه عندما وصلت الأنباء إلى زوجة رضا، نظيرة، أن زوجها وابنها المحبوب، رياض، محبوسان في عاليه ويواجهان خطر الإعدام، أسرعت في عربتها إلى منزل والي بيروت، عزمي باشا، الذي كان جار العائلة في إستانبول قبل الحرب، لتُناشده الإبقاء على حياتهما. استقبلتها في قسم الحريم بمنزل عزمي باشا، كريمة الوالي، ممدوحة، وهي الفتاة نفسها التي كان رياض يتودّد إليها من خلف سور الحديقة قبل سنوات عديدة. ذكّرت ممدوحة والدها أن رياض الصلح هو الذي أنقذ حياته حين أسرع

(1) Zeine, *Arab-Turkish Relations*, p. 104.

(2) هلال الصلح، **رجل وقضية**، ص 29.

(3) مقابلة مع يسر الصلح، لندن، 10 كانون الثاني/يناير 2004.

(4) سليم علي سلام، **مذكرات، 1868- 1938**، بيروت 1982، ص 227؛ نقلاً عن، Ahmad Beydoun, 'Riad el-Solh et les élections législatives de 1943' in Gérard D. Khoury (ed.), *Sélim Takla, 1895-1945 Une contribution à l'indépendance du Liban*, Paris and Beirut 2004, p. 406.

لإحضار طبيب له عندما أصيب بأزمة ربو حادة. أثار ذلك في الوالي - الذي كان رجلاً شريفاً - الشعور الإسلامي التقليدي أنه مدين بحياته لرياض. فسافر ليلاً إلى دمشق حيث نجح في إقناع جمال باشا بنفي رضا الصلح وابنه بدلاً من إعدامهما. قُيِّدا بالسلاسل كالمساجين العاديين، وشرعا في النهاية بالسير مشياً على الأقدام إلى منفاهما في الأناضول. وتقول عائلة الصلح إن كاحلَي رياض ظلاّ يحملان علامات سلاسل الحديد الثقيلة هذه طوال ما تبقى من حياته[1].

عندما وصلت قافلتهما إلى حلب، أصر رضا الصلح على مقابلة حاكم المدينة. وتمكّن بطريقة ما من إقناع زميله السابق في الخدمة العثمانية بالسماح له بالذهاب إلى إزمير بدلاً من الأناضول البعيدة الموحشة[2]. وهكذا في إزمير، تلك المدينة المتوسطية الجميلة التي كان أغلب سكانها من اليونانيين، وكان مرفأها يضجّ بالحركة وتزدان أسواقها المزدحمة بالسجاجيد الجميلة، أمضى الأب والابن أعوام 1916-1918 تحت نظام الإقامة الجبرية المتهاون بين مغيب الشمس وبزوغ الفجر. وظلت نظيرة، في غضون ذلك، في بيروت في ظروف الحرب القاسية مع ابنتها علياء، الفتاة الحسّاسة التي تعاني من اعتلال صحتها، وابنها المتخلّف عقلياً، درويش.

جذور الثورة العربية

بعد فترة قليلة من النفي، سمع رضا ورياض الصلح بأخبار الثورة في الحجاز على الأتراك. فقد أعلن الشريف حسين وأبناؤه الحرب على تركيا في 5 حزيران/يونيو 1916، وهاجموا الحاميات التركية في جدة ومكة والطائف. جاءت الثورة تتويجاً لثمانية أشهر من المفاوضات السرية بين الشريف حسين والبريطانيين، اتفقا فيها على إقامة تحالف عسكري. ولعل قرار البريطانيين دعم الشريف يعود جزئياً إلى شعورهم بالحاجة إلى شخصية إسلامية تواجه نفوذ السلطان - الخليفة في إستانبول. ولا شك في أنهم أملوا أن يلتفّ المسلمون الهنود حوله. لكن لم تتضح ما هي الترتيبات السياسية والجغرافية التي ستلي انتصار الحلفاء. يستطيع المرء القول، عند النظر إلى الماضي بحكمة الحاضر، بأن الثورة ضد

(1) Alia el-Solh, *Le Jour* (Beirut) 5 September 1965.

(2) هلال الصلح، **رجل وقضية**، ص 29.

الأتـــراك ألحقـــت بالقـــضية العربية والإسلامية ضرراً أكبر مما تصوّره في ذلك الوقت أي مشارك أو مراقب محلي، ولعلها وضعت العرب على مسار التراجع السياسي الكارثي.

بين 14 تموز/يوليو 1915 و10 آذار/مارس 1916، تم تبادل عشر رسائل بين الشريف حـــسين والـــسير هنري مكماهون، المندوب السامي في القاهرة الذي كان يمثّل الحكومة الـــبريطانية. ولعل حكم الإرهاب الذي مارسه جمال باشا في بيروت ودمشق هو ما حفز الشريف حسين إلى التوصّل إلى اتفاق مع البريطانيين، لكن وضعه الاستراتيجي الذاتي دفعه لـــذلك أيـــضاً. فالحصار الذي ضربه البريطانيون والفرنسيون على جميع الحدود البحرية للإمـــبراطورية العثمانـــية – بغية إبعاد السكان عن العثمانيين واستمالتهم إليهم – أدى إلى وقوع معاناة شديدة. فقد كان الشريف تحت رحمة البحرية الملكية في البحر الأحمر، بل إن الحـــصار البريطاني لموانئه أحدث نقصاً خطيراً في الأغذية في الحجاز. وكان أعضاء العربية الفـــتاة وجمعية العهد الهاربون من الجيش العثماني قد ناشدوه قيادة الثورة العربية. ومما أقنع الأمير بالثورة المسلّحة طموحه بإقامة دولة عربية مستقلة تحت حكمه الهاشمي.

في 14 تمـــوز/يولـــيو 1915 أرسل إلى مكماهون رسالة يطلب فيها من بريطانيا العظمـــى "أن توافق على إعلان خليفة عربـــي على المسلمين" في منطقة واسعة "من مرســـين وأضـــنة... حتى الحدود الفارسية شمالاً، ومن بلاد فارس حتى خليج البصرة شـــرقاً، من المحيط الهندي للجزيرة جنوباً ويستثنى من ذلك عدن التي تبقى كما هي، ومن البحر الأحمر والبحر المتوسط حتى سيناء غرباً". ردّ السير هنري مكماهون في 24 تشرين الأول/أكتوبر 1915 بأن "بريطانيا العظمى مستعدة للاعتراف باستقلال العرب ودعمه في كل المناطق ضمن الحدود التي طلبها شريف مكة".

غـــير أن هـــذا التعهّد الواسع خضع لعدد من "التعديلات" التي أوضحها السير هنـــري مكماهون. أولاً، "إن ولايتي مرسين والإسكندرونة وأجزاء بلاد الشام الواقعة في الجهـــة الغـــربية لولايات دمشق وحمص وحماة وحلب لا يمكن أن يقال إنها عربية محض. وعليه يجب أن تستثنى من الحدود المطلوبة".

ثانياً، "أما من خصوص (كذا) ولايتي بغداد والبصرة، فإن العرب تعترف (كذا) أن مركـــز ومصالح بريطانيا العظمى الموطّدة هناك تسلتزم اتخاذ تدابير إدارية مخصوصة (كذا) لوقاية هذه الأقاليم من الاعتداء الأجنبـــي..."ثالثاً، اشترط مكماهون أن الوعد

بالاستقلال لا يمكن تقديمه إلا "بخصوص الأقاليم التي تضمها تلك الحدود حيث بريطانيا العظمى مطلقة التصرف بدون أن تمس مصالح حليفتها فرنسا"[1]. بعبارة أخرى - وبالرغم من تعمّد إبقاء ذلك غامضاً - استثني لبنان والعراق وجنوب شرق الأناضول من المنطقة التي وُعد بها الشريف حسين، وكذلك فلسطين، كما ادعت بريطانيا لاحقاً، مع أن فلسطين تقع إلى جنوب خط ولايات دمشق، حمص، حماة، حلب، الذي حُدِّد بوضوح.

بما أن الأتراك كانوا لا يزالون موجودين في المشرق، فقد اتّسم رد فعل السكان المحليين على ثورة الحجاز بالحذر والتناقض. لم يجرؤ سوى قليلين على تأييدها، حتى سراً. بل إن علماء دمشق البارزين أصدروا، بضغط من الأتراك، حكماً بالإعدام على الشريف حسين بتهمة الخيانة. كان على أفراد النخبة العربية التفكير مرتين قبل تبنّي القومية العربية - في العلن على الأقل. فقد كانت العقوبات قاسية جداً. وعندما أعلن الشريف نفسه "ملكاً على الحجاز" ثم "ملك العرب" في تشرين الثاني/نوفمبر، قامت محكمة عسكرية عثمانية في دمشق بمحاكمة العديد من السوريين غيابياً بتهمة التآمر معه، بمن فيهم فارس الخوري، نائب دمشق المسيحي، وتوفيق الحلبي، رئيس تحرير جريدة الرأي والأخوان البكري اللذان كانا يستضيفان الأمير فيصل في زياراته إلى دمشق، وقد آثر هؤلاء الحكمة، وغادروا دمشق عندما وصلتهم أنباء الثورة[2].

تابع رضا ورياض الصلح أخبار الحرب من منفاهما في إزمير. وهناك علما في نيسان/أبريل 1917 أن الولايات المتحدة دخلت الحرب ضد الإمبراطورية العثمانية. وفي إزمير أيضاً سمعا لأول مرة عن وعد بلفور - الذي تعهّدت فيه بريطانيا أن تبذل "غاية جهدها" لتسهيل "إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين" - وقد نُشرَت هذه الوثيقة في الصحافة البريطانية والمصرية في 9 تشرين الثاني/نوفمبر 1917. أدرك رضا الصلح على الفور، وهو الذي كان يتابع الاستعمار الصهيوني لفلسطين بقلق، وأثار هذه القضية في البرلمان العثماني، أن إعلان بلفور ضربة قاضية للحقوق العربية. فقد استطاع الصهاينة انتزاع تأييد بريطانيا العظمى، القوة الإمبريالية الأبرز في ذلك الوقت.

(1) J.C. Hurewitz, *Diplomacy in the Near and Middle East*. 2 vol, Princeton, 1956, II pp. 14-15.

(2) Kayali, *Arabs and Young Turks*, pp. 198-199.

أرسل المنفيون العرب في مصر، وهم بقية النخبة العربية السياسية الذين استطاعوا الهرب من مذبحة جمال باشا، رسائل غاضبة إلى السلطات البريطانية. بدا وضع العرب يائساً، إذ وقعوا بين الإمبراطورية العثمانية المحاصرة والقوى الأوروبية المعادية والطموحات الصهيونية.

حقّقت قوات الشريف حسين تقدماً ملموساً، لكن الأتراك حافظوا على سيطرتهم على المدينة المنورة، حيث تنتهي سكة حديد الحجاز. كانت المدينة جيدة التحصين وتدافع عنها حامية تركية قوامها نحو 25 ألف جندي. غير أن تزويد الحامية بالمؤن أصبح شديد الصعوبة لأن خط سكة الحديد يتعرض لهجمات كرّ وفرّ عديدة من قوات فيصل القَبَلية غير النظامية التي يقدّم إليها المشورة نفر من الضباط البريطانيين، بمن فيهم الكولونيل الإمبريالي المتحمّس ت. إ. لورنس T.E. Lawrence. وكان قد وصل إلى الحجاز في منتصف تشرين الأول/أكتوبر 1916 "مستشاراً" لفيصل وضابط ارتباط بينه وبين البريطانيين. وبدفع من البريطانيين، جرت معظم العمليات الحربية التي قام بها رجال الشريف حسين على طول محور سكة حديد الحجاز، وهو صلة وصل حيوية بين مدن المنطقة، ساهم المسلمون الأتقياء في كل أنحاء العالم في تمويله، وكان مصدر فخر للعثمانيين.

في تلك اللحظة كان البريطانيون يخشون من احتمال خروج الأتراك من المدينة المنورة وإعادة الاستيلاء على مكة المكرّمة، واستخدام سكة الحديد لنقل حاميتهم وتعزيز الجيش التركي الرئيسي في فلسطين وسوريا. وذلك قد يعني انهيار "الثورة العربية" التي يدعمها البريطانيون. لذا قامت الاستراتيجية البريطانية على التضييق على الأتراك في المدينة من دون الضغط عليهم بشدة، لجعل محاولة كسر الحصار والخروج سبيلهم الوحيد للبقاء. كتب لورنس بدهاء: "يجب ألاّ نحتلّ المدينة. التركي عديم الضرر هناك، أما في السجن في مصر فسيكلّفنا الغذاء والحراسة"[1]

(1) Hugh Leach, "Lawrence's Strategy and Tactics in the Arab Revolt" in *Journal of the Royal Society for Asian affairs*, 36 (3) (November 2006), pp. 337- 341.
للاطلاع على رأي عربي لاذع بشخصية لورنس الملتوية والإمبريالية انظر Rana Kabbani, *Imperial Fictions*, London 1986 (new edn., London 2008).

بحلول نهاية سنة 1916، كان البريطانيون قد اجتازوا شبه جزيرة سيناء وأعدّوا العدّة لمزيد من الاحتلالات. في 9 كانون الثاني/يناير 1917 سيطروا على رفح على الحدود الفلسطينية بعد معارك ضارية. ثمّ تطلّعوا إلى احتلال غزة، لكنهم فشلوا في ذلك على الرغم من شنّ هجومين، أحدهما في آذار/مارس والثاني في نيسان/أبريل، وخسروا 10,000 جندي بين قتيل وجريح وأسير. و لم يتمّ التغلّب على الأتراك ودفعهم للتراجع إلا بعد تعيين الجنرال السير إدموند أللنبي Edmond Allenby قائداً عاماً للقوات البريطانية في حزيران/يونيو. ظنّ الأتراك أن أللنبي سيحاول احتلال غزة ثانية، لكنه هاجم الداخل بدلاً من ذلك وسيطر على بئر السبع في 31 تشرين الأول/أكتوبر وبالتالي اخترق الجبهة الفلسطينية. في غضون ذلك، احتلت القوات العربية العقبة في تموز/يوليو 1917. وفي 9 كانون الأول/ديسمبر احتُلت القدس ودخلها أللنبي راجلاً بعد يومين، لإظهار احترامه للأماكن المقدّسة على ما يظنّ، وربما لعقد مقارنة مؤثّرة بالطريقة المتباهية التي دخل فيها الإمبراطور الألماني فلهلم الثاني راكباً فرساًقبل عقدين من الزمن.

بعد ذلك جاءت الضربة القوية الثانية. ففي أعقاب قيام الثورة الروسية وقرار البلاشفة الانسحاب من الحرب وتوقيع هدنة مع الأتراك في كانون الأول/ديسمبر 1917، وصلت أنباء إلى آل الصلح في إزمير عن معاهدة سايكس - بيكو السرية التي عقدتها بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية في أيار/مايو 1916. أكدت هذه المعاهدة، التي نشرها البلاشفة بعدما اكتشفوها في أرشيف القياصرة، أسوأ المخاوف العربية: كانت فرنسا وبريطانيا تخططان لتقسيم الولايات العربية في ما بينهما. ولإظهار غدر الحلفاء، أرسل الأتراك نص معاهدة سايكس - بيكو إلى الأمير فيصل، على أمل أن يدفعه ذلك للانفصال عن الحلفاء بعقد سلام منفصل. لكن الأوان قد فات وسبق السيف العذل، فقد كان غارقاً حتى أذنيه في المخطط البريطاني للمنطقة.

أرادت بريطانيا الحصول على ولايتي البصرة وبغداد، بينما أرادت فرنسا الشاطئ السوري وكليكيا وولاية الموصل. وفي مكان ما بين هاتين المنطقتين، في فكرة لاحقة إلى حدّ كبير، تنشأ دولة عربية أو "اتحاد" عربي غامض في الداخل السوري، يخضع بدوره لدائرتي النفوذ البريطاني الفرنسي. وتوضع فلسطين تحت الإدارة الدولية. لم يكن

هـذا التقسيم للمنطقة يحمل أي شبه قط بالمملكة العربية الكبيرة المستقلة التي وعد بها البريطانيون كذباً الشريف حسين، وحلم بإقامتها القوميون العرب، بعد التخلّص من حكم جمعية الاتحاد والترقي.

بـدأت المعارك الحاسمة التي قصمت ظهر الجيش العثماني للسيطرة على ما تبقى من فلسطين في أيلول/سبتمبر عام 1918. قبيل الهجوم البريطاني، قامت قوة عربية، يديرها لورنس وضباط بريطانيون آخرون ويموّلونها، برحلة في الصحراء امتدت ثلاثة أسابيع حول الجناح الأيسر للجيش التركي لمهاجمة التقاطع الرئيسي لسكة حديد الحجاز خلف الخطوط التركية. وقد اعتمد ألنبي على نحو ملائم ومتزايد على قوات الأمير فيصل غير النظامية لتأمين جناحه الشرقي. ولولاهم لاضطر إلى القتال في منطقة معادية له تماماً. وخلافاً لذلك، وجد الأتراك أنفسهم يحاربون في ظروف صعبة ومعاكسة. بعد ذلك ضربت القوات البريطانية - العربية في الشمال، ودحرت القوات العثمانية وأجبرتها على التراجع. سقطت حيفا في 23 أيلول/سبتمبر ودمشق في 1 تشرين الأول/أكتوبر وبيروت في 8 تشرين الأول/أكتوبر وحلب في 26 تشرين الأول/أكتوبر. وفي نهاية الشهر تم "تحرير" المنطقة بأكملها. لكن مشاكلها كانت في بدايتها، كما تبيّن لاحقاً!

استسلم الباب العالي للقوى الحليفة قبل أسبوعين تقريباً من استسلام ألمانيا. وبعد خروج روسيا من الحرب بقيت بريطانيا قوة الوفاق الوحيدة التي تمتلك قوات مقاتلة في الشرق الأوسط. لذا وضعت هي، باسم الحلفاء، شروط الهدنة مع العثمانيين التي تم توقيعها في 30 تشرين الأول/أكتوبر 1918، بعد أسبوع من المفاوضات على متن السفينة الحربية البريطانية، أغاممنون HMS Agamemnon في مرفأ مودروس Mudros في جزيرة لمنوس Lemnos شمال بحر إيجة. توقفت الأعمال العدائية بين الحلفاء وتركيا عند الظهر بالتوقيت المحلي في 31 تشرين الأول/أكتوبر 1918[1]. اتضح للجميع أن الحكم التركي للعرب قد زال. بل إن إستانبول نفسها احتلّتها القوات البريطانية والفرنسية والإيطالية. ولكن العرب سُلبوا إرثهم الذي توقعوا الحصول عليه مقابل وقوفهم إلى جانب البريطانيين. وبدلاً من ذلك قدّموا المساعدة بتهوّر في القضاء على آخر إمبراطورية إسلامية عظيمة.

(1) نص اتفاقية الهدنة في J.C. Hurewitz, *Diplomacy*, vol. II, pp. 36-37.

المجاعة في بيروت وجبل لبنان

مع اقتراب نهاية الحرب العالمية الأولى، أسرع رضا ورياض الصلح بالعودة إلى ديارهما حيث مشاهد البؤس الفظيع. سُمح لرضا بالعودة مباشرة إلى بيروت، لكن جمال باشا أصرّ على بقاء رياض في دمشق تحت مراقبة السلطات العسكرية التركية. وقد انضم إلى والده في بيروت بعد بضعة أشهر، عندما استُدعي جمال باشا إلى إستانبول عشية الهزيمة التركية[1]. لقد عانى المشرق من الخراب، لكن لم تسلم تركيا نفسها (مثلما يُفهم من وصف عرفان أورغا Irfan Orga المؤثر والمؤلم للعذابات التركية خلال الحرب العالمية الأولى، كما شوهدت عبر أعين إحدى العائلات التركية)[2].

وجد رضا ورياض لبنان في أسوأ الأحوال. فقد لحق الخراب بالجبال عندما أتت أسراب الجراد في سنة 1915 على كل ما هو أخضر. وبدأ لبنان الذي تحتلّه فرقة تركية يعاني من المجاعة في سنة 1916. عاش جميع الصبية فوق سن الخامسة عشرة بخوف مما كان يسمى سفر برلك، وهو التجنيد الطويل والقاسي في القوات التركية الذي اتبعت أساليب عنيفة في فرضه. وفي العامين التاليين عانت المنطقة بمجملها من المجاعة. أرسلت الحكومة التركية بعض الحبوب لإغاثة السكان، لكن المتصرّفين والقائم مقامين الفاسدين وسواهم استولوا عليها وتلاعبوا بها، وعمدوا في كثير من الحالات إلى بيعها بأسعار مرتفعة جداً. وبما أن المنطقة لا تنتج الحبوب، أو تنتج القليل منها، ولا يمكن استيرادها من الخارج، فقد كانت السنوات الأخيرة من الحرب مأسوية. وساهم في البؤس الفظيع الذي عاناه الشعب الحصار البحري الذي فرضته قوات الحلفاء على الشواطئ السورية، وتخزين الحبوب من قِبَل التجار والمسؤولين الذين لا يحفلون بالقيم، ومصادرة الجمال والبغال والأحصنة من قبل الجيش التركي، وغياب وسائل النقل لجلب المواد الغذائية من الداخل، وقطع الأشجار لتوفير الطاقة لتسيير القطارات، وتفشّي الكوليرا، مثلما ساهمت في ذلك الحرب بحد ذاتها. وهكذا قضى نحو نصف مليون شخص من المجاعة في تلك السنوات، بما في ذلك المئات في شوارع بيروت

(1) هلال الصلح، **رجل وقضية**، ص 31.

(2) Irfan Orga, *Portrait of a Turkish Family*, London 1950.

وبعـــض المدن الساحلية في الأسابيع الأخيرة من الحرب[1]. وقد أفاد مراقبون فرنسيون عن المشاهد المحزنة لأطفال ذوي بطون منتفخة يزحفون للحصول على قطعة من قشر الـــبرتقال، ونـــساء يشبهن الهياكل العظمية يمضغن كِسَراً من الخبز اليابس، وعربات البلدية التي تقوم بجولات ليلية لرفع جثث الموتى الذين قضوا من الجوع[2].

روّع رضـــا وابنه رياض (وكان قد بلغ الرابعة والعشرين من عمره) من هول ما رأياه وكانا يتوقان إلى النضال من أجل الاستقلال. فخلال العامين اللذين أمضياهما في المنفـــى، أصـــبحا قوميين عربيين متحمسين، على الرغم من وجود بعض الاختلاف بالـــضرورة بـــين الأب وابـــنه، الذي يعود من دون شك إلى العمر، والخبرة العملية، والطباع الشخصية.

(1) Consul R.A. Fontana to The Earl of Curzon, Beirut, 21 December 1920 (FO .372/6453).

(2) Gérard D. Khoury, *La France et L'Orient Arabe: Naissance du Liban moderne 1914-1920*, Paris 1993 (new edn 2009, with a preface by Henry Laurens), pp. 79-82

الفصل الخامس

فيصل والفجر الكاذب

تابع رضا ورياض الصلح، إلى جانب عشرات الآلاف من الأشخاص، تقدّم قوات الجنرال أللنبي وهي تدفع الجيوش العثمانية بلا هوادة إلى شمال غزة، في أيلول/سبتمبر - تشرين الأول/أكتوبر 1918. وكانت معظم الآمال العربية معلّقة على الأمير فيصل وقواته التي أصبح النصر الآن في متناولها. فبعد سنتين من القتال الصعب على الجناح الداخلي للقوات الحليفة، وبعد احتلال فلسطين، أصبحت دمشق هدفها. قبل أن يسارع جمال باشا إلى الخروج من المدينة، سلّم السلطة إلى الأميرين الجزائريين عبد القادر الثاني، وسعيد، حفيدي الأمير عبد القادر الجزائري. لكن سرعان ما أقصيا عندما دخلت القوات العربية وقوات الحلفاء دمشق في 1 تشرين الأول/أكتوبر. وبعد مرور شهر أصدر الأمير فيصل أمراً بإلقاء القبض عليهما عندما أشيع أنهما يسعيان إلى إقامة حزب معارض بمساعدة الفرنسيين. اعتُقل سعيد، وقَتلت قوات فيصل عبد القادر عندما حاول الهرب.

لكي يظنّ العرب بأن النصر نصرهم أيضاً، طلب لورنس، المستشار البريطاني للأمير فيصل، من الجنرال أللنبي أن يسمح للقوات العربية بدخول دمشق قبل القوة البريطانية الرئيسية. وقد فعلت القوات العربية ذلك على عجل عند نحو الساعة السادسة صباحاً، على الرغم من أن قوة من فرقة الخيّالة الأسترالية الخفيفة، كانت تطارد القوات التركية الهاربة باتجاه حمص، ربما تكون قد سبقتها إلى ذلك عبر الحارات الشمالية الغربية للمدينة قبل الفجر بقليل[1].

كان رضا ورياض في المدينة، عندما دخلها فيصل قادماً بالقطار من درعا في 3 تشرين الأول/أكتوبر، واستقبله سكّانها استقبالاً حاشداً. قاد الأمير موكباً من 1500 فارس، وهو يمتطي فرساً عربياً أصيلاً ويحيط به ضباط الثورة العربية

---

(1) Khoury, *La France et l'Orient arabe*, pp. 118-19.

العـــراقيون والـــسوريون والحجازيـــون، ويرافقه لورِنس، عبر الشوارع المكتظة بالجمـــاهير الفرحة، والحشود التي ترقص وتهتف. وكان الفرسان يطلقون النار في الهواء، والنساء يرششن عليهم ماء الزهر من نوافذ المنازل. بعد ذلك بقليل، دخل أللنبـــي المدينة بوقار في سيارة رولس رويس رمادية مكشوفة تتبعه هيئة أركانه. تُليت الصلوات في المسجد الأموي الكبير باسم الشريف حسين (الذي اعتمد لقب "ملك العرب"، متحدياً الفرنسيين والبريطانيين)، وباسم ابنه ونائبه في سوريا الأمير فيـــصل. كانت تلك لحظة مجيدة في كتب التاريخ. بدا أن حلم العرب بالاستقلال يوشك أن يتحقق. لكن الحشود المبتهجة لم تكن تعلم البتة بأن الغيوم المنذرة بالشرّ بدأت تتجمّع.

رضا الصلح ينضمّ إلى فريق فيصل

في 3 تـــشرين الأول/أكتوبر، أبلغ أللنبـــي الأمير فيصل بوضوح تام عن حدود ســـلطته العـــربية. باستطاعته أن "يحكم" سوريا الداخلية، لكن عليه أن يأخذ بمشورة فرنـــسا ودعمهـــا المالي، لأنها ستصبح "القوة الحامية" لسوريا. فيما ستكون فلسطين وجـــبل لبنان والساحل السوري مناطق خارج سلطته. شعر الأمير بالصدمة والغضب، واحتجّ بأنّ لورنس وعده بأن تخضع لحكمه سوريا بأكملها، باستثناء فلسطين. ورفض بـــشدة مساعدة المستشارين وضباط الارتباط الفرنسيين، لكنه أظهر استعداده لقبول المساعدة البريطانية عند الضرورة المطلقة[1].

في 4 تـــشرين الأول/أكتوبـــر، أعلـــنت جريدة **لسان العرب** الموالية لفيصل في دمشق، عن تشكيل حكومة دستورية لسوريا بأكملها. فاسرعت حشود من الفرسان عـــبر الجبال لمساعدة مؤيدي فيصل في بيروت، حيث رفع العلم الشريفي على المباني العامـــة. وكـــان ممتاز بك، آخر الولاة العثمانيين، قد سلّم المدينة إلى عمر الداعوق، رئـــيس الـــبلدية. ولكـــن عـــندما نـــزلت القوات الفرنسية في بيروت في 7 تشرين الأول/أكتوبـــر 1918، واتخـــذت مواقعها في جبل لبنان، لم يعد فرسان فيصل موضع ترحاب، وسرعان ما أجبروا على العودة إلى دمشق.

(1) Vincent Cloarec, *La France et la question de Syrie, 1914-18*, Paris 1988, pp. 209-210.

كـــان الجنـــرال أللنبــــــي يأمل، بعدما طرد الأتراك من المنطقة، في أن توضع التـــرتيبات الخاصــــة بهــــا دون تدخّله. لكن في ضوء نـــزول القوات الفرنسية على الساحل، وطموحاتهم العاجلة، قرّر تقسيم المشرق إلى ثلاث مناطق عسكرية: فلسطين بـــإدارة ضــــابط بريطاني؛ وجبل لبنان والساحل المتوسطي من عكا إلى الإسكندرونه بـــإدارة ضابط فرنسي؛ والمنطقة الداخلية السورية وشرق الأردن بإدارة الأمير فيصل، وبوجود قوات احتلال بريطانية. وقد شكّل يوم 15 تشرين الأول/أكتوبر نقطة مضيئة في الوفاق بين العرب والبريطانيين عندما زار أللنبــــي وضباط أركانه مقر الحكومة في دمشق، حيث رحب بهم علي رضا باشا الركابــــي، الضابط السابق في الجيش العثماني الـــذي كــــان قـــد عيّنه فيصل، بموافقة أللنبـــي، حاكماً عسكرياً للمنطقة الداخلية الـــسورية، والمسؤول الإداري الأول عنه. حضر الاحتفال كبار الضباط والمسؤولين، بالإضــــافة إلى علمــــاء الـــدين المسلمين ورجال دين من الطوائف المسيحية الرئيسية ووجهــــاء الدروز وحاخامات الطائفة اليهودية. لم يُدعَ ممثلون عن فرنسا، الأمر الذي لاءم العرب والبريطانيين على حد سواء.

كان أللنبـــي يريد توكيد سلطة بريطانيا المطلقة، في حين أصبح الشريفيون أكثر عــــداء للفرنـــسيين منذ وصولهم إلى دمشق. فاستنتج سكان المدينة المتحمسون على ســــذاجتهم أن بريطانيا تقدّم الدعم للعرب في لحظة تاريخية من يقظتهم القومية. رُفع علم جديد فوق بلدية دمشق، كانت ألوانه هي الأبيض والأسود والأخضر والأحمر[1].

وفي دمـــشق، أخذت الحركة القومية، التي ضعفت كثيراً بسبب إعدامات جمال باشــــا في عامي 1915-1916، تستعيد حيويتها وتكتسب مزيداً من الرجال. كما أن هزيمة الإمبراطورية العثمانية لم تحدث اضطراباً غير ملائم في ممارسة السلطة المحلية. فقد واصــــل الوجهاء في كل المدن الرئيسية ممارسة سلطاتهم كما كانوا يفعلون دائماً. وفي معظـــم الأحيان، ظل الرجال المهمون في الشؤون المحلية في ظل الحكم العثماني نافذين في ســــوريا ما بعد الفترة العثمانية، واحتفظوا هم أو أبناؤهم بنفوذ سياسي كبير. فقد ظلـــت القيادة الحضرية لبنة البناء الأساسية في السياسة في منطقة لا تزال فيها الجماهير

(1) كما استُلهم من بيت شعر لصفي الدين الحلي:
بيض صنائعنا سود وقائعنا خضر مرابعنا حمر مواضينا.

أمّـية إلى حد كبير[1]. اعتمد فيصل على مثل هؤلاء الوجهاء، لكن بدأت قوة جديدة بالـبروز إلى جانبهم على شكل جمعيتي "العربية الفتاة" و"العهد" السريتين اللتين نالتا التقدير الذي تستحقانه، فشغل أعضاؤهما المتمرّسون مناصب رئيسية في إدارة فيصل. وشكّل هؤلاء العصب السياسي لحكومة فيصل العربية. وقد تمتّعت هذه القوة الجديدة بنفوذ كبير في علاقاتها مع فيصل، بحيث كان من الصعب في بعض الأحيان معرفة أي منهما الحاكم.

كـان معظم هؤلاء الرجال قد ثاروا على الأتراك بغية هدف واحد فقط: تحقيق الاسـتقلال ووحـدة الولايات العربية. لكنهم شعروا بقلق شديد من النتائج المحتملة لاتفـاق سايكس - بيكو ووعد بلفور، وبثّ شبح الاحتلال الأوروبـي والاستعمار الصهيوني الرعب في قلوبهم. لكنهم واصلوا ثقتهم، في هذه المرحلة على الأقل، بالوعود الـتي قطعتها بريطانيا للشريف حسين في عامي 1915-1916. ففي ذلك الوقت، لم تكـن المساومات البريطانية الفرنسية السرية بشأن مغانم الإمبراطورية العثمانية معلومة لـديهم سوى على نحو جزئي، كما أنهم لم يكونوا يدركون المجال الفعلي للطموحات الصهيونية.

عندما دخل الأمير فيصل دمشق، بعث برسائل إلى كل المدن والبلديات في سوريا معلـناً انـتهاء الحكم العثماني، بالإضافة إلى اعتزامه تشكيل حكومة عربية في دمشق. وقـد شـرع في ذلك على الفور. كان كبير إدارييه علي رضا باشا الركابـي (50 سـنة)، قـد فـرّ من الجيش العثماني وانضمّ إلى الجانب البريطاني ثم التحق بالشريف حـسين. وكـان معادياً للفرنسيين، ومؤيداً قوياً للاستقلال التام، وعضواً في الفرع العراقـي من "جمعية العهد"، و"سيداً سابقاً في أساليب التآمر التركية "وفقاً لما جاء في قطعة ساخرة من تقرير استخباراتي بريطاني[2].

جمـع الركابـي حوله فريقاً سياسياً مثيراً للإعجاب. سمّي رضا الصلح وزيراً للداخلـية. ويقال إن الأمير فيصل استدعاه قائلاً: "لديك صفتان أحتاج إليهما. أنت

(1) Philip S. Khoury, 'Syrian Urban Politics in Transition', in Albert Hourani, Philip S. Khoury and Mary C. Wilson (eds), *in The Modern Middle East*, London 1993, p. 430.

(2) *Who's Who in Damascus*, July 1919. Compiled by General Staff Intelligence, Beirut؛ انظر أيضا PRO FO 371/6454 Consul Palmer to Earl Curzon.

رجـــل مـــستقيم، ولـــستَ دمشقياً"[1]. أصبح رضا أحد رجال الأمير الخلّص خلال الـــشهور الـــصعبة اللاحقة. لذا وجد رياض الصلح نفسه، من خلال منصب والده، وســـط مسرح الأحداث، وعلى علاقات ودية مع الرجالات المحيطة بالأمير، وبعضهم عـــرفه مـــنذ أن كان في إستانبول. يمكن اعتبار ذلك دخوله الأول في معترك السياسة الحقيقـــية. وكـــان رأيه في ذلك الوقت: "كل شيء يبدأ من اليوم. لقد أخذت دمشق تستيقظ بعد 800 سنة من النوم"[2]. كان رياض في سنّ متقدّمة بالقدر الكافي لتمنحه خـــبرة مباشرة عن العالم العثماني، ومع ذلك شاباً بالقدر الكافي لتسخير كل طاقاته في خدمة النضال الجديد في سبيل الاستقلال العربـــي. وأصبح الآن مستعداً للخروج من عباءة والده وبلوغ النضج كشخصية سياسية مستقلة.

شـــغل ياسين باشا الهاشمي (40 سنة) منصب رئيس أركان قوات فيصل العربية، وهو ضابط بغدادي ذو سمعة عسكرية ممتازة. وقد كان آمر الفرقة التركية العشرين في رومانيا، وبعد ذلك قوة المدفعية في الجيش الثامن، ثم الجيش الثامن بأكمله. وانحاز إلى جانب الشريف حسين عندما بدا الانهيار التركي محتوماً. وكان أيضاً عضواً في الفرع العراقـــي لجمعـــية العهد، ومؤمناً باستقلال العرب التام، ما جعل البريطانيين يعتبرونه مصدر خطر محتمل. ومن الضباط الآخرين من بغداد، الذين خدموا في الجيش التركي، نـــوري السعيد (35 سنة)، وقد تعرّف إليه رياض الصلح في إستانبول. واشتهر نوري الـــسعيد كـــواحد من أكثر الضباط كفاءة في الثورة العربية، وقاد القوات العربية إلى دمـــشق في 1 تـــشرين الأول/أكتوبر. وكانت المخابرات البريطانية تعتبره "أهلاً للثقة، ومولعاً بالطرق البريطانية" - بعبارة أخرى، مطواعاً لأهدافها.

كـــان هاشم الأتاسي (53 سنة) قومياً من الرعيل الأول، وهو يتحدّر من عائلة بـــارزة مالكـــة للأراضي في حمص. وقد شغل لاحقاً منصب رئيس الجمعية التأسيسية ورئـــيس الـــوزراء في عهد فيصل، وتولى لاحقاً منصب رئيس الجمهورية السورية في حـــياته السياسية الطويلة والمميزة[3]. ومن المقربين أيضاً إلى فيصل وزير المالية، المحامي

(1) مقابلة مع يسر الصلح، لندن، 10 كانون الثاني/يناير 2004.
(2) مقابلة مع علياء الصلح، مونت كارلو، 4-5 تشرين الأول/أكتوبر 2004.
(8) يوســـف الحكـــيم، **ســـورية والعهـــد الفيـــصلي**، ص 93، 144، 159. نقـــلاً عـــن Beydoun, 'Riad el-Solh et les élections législatives de 1943', p. 404, n. 4.

فـــارس الخوري (48 سنة)، وهو ابن عائلة أرثوذكسية من حاصبيا في لبنان. تعلّم في الكلية الإنجيلية السورية في بيروت واعتنق البروتستانتية بتأثير من المبشرين البريطانيين، وكـــان يجـــيد الإنكليزية، وعمل مترجماً لدى القنصلية البريطانية في دمشق بين سنتي 1899 و1909. واشـــتهر بأنه محامٍ بارع وخطيب مفوّه، وشغل لاحقاً منصب رئيس الوزراء في سوريا المستقلة، وهو المسيحي الوحيد الذي تقلّد هذا المنصب.

كـــان شـــكري القوتلي (31 سنة)، من عائلة دمشقية مرموقة، وخريج جامعة إســـتانبول، ووطنـــياً بحق. عمل أمين سرّ عند والي دمشق، علاء الدين الدروبـــي، وكلّـــف لاحقـــاً بإعادة تنظيم ولاية دمشق ثم رُقّي ليصبح رئيس قسم المخابرات في الحكـــومة العـــربية. وكـــان قد نجا من الموت بعد أن حكمت عليه محكمة عسكرية بالإعـــدام. فـــضّل قطع أوردة معصمه في السجن لكي يتجنّب الإفشاء بأسرار جمعية العهـــد الـــسرية التي ينتمي إليها تحت التعذيب. لكن أحد زملائه في السجن، الطبيب أحمـــد قدري، أنقذه قبل أن ينـــزف حتى الموت[1]. وحظي لاحقاً بمكانة مرموقة في الـــسياسة الـــسورية كقائـــد قومـــي ملتزم، وأول رئيس للجمهورية يُنتخب بطريقة ديمقراطية. ويعتبر أبا الاستقلال السوري.

تولّى ساطع الحصري (40 سنة)، منصب وزير التعليم في أثناء حكم فيصل، وهو مـــن أصـــول حلبية ومن خريجي جامعة إستانبول. تولى التدريس في هذه الجامعة بعد ذلك، ثم أُرسل إلى أوروبا لدراسة مناهج التعليم، قبل أن يُعيّن رئيساً لدار المعلمين في إســـتانبول في سنة 1916. بعد انتهاء الحرب عاد إلى سوريا، حيث تولى وزارة التربية والتعليم، وبزغ نجمه كمنظّر رائد للقومية العربية. عندما طرده الفرنسيون من سوريا، رافـــق ســـاطع الحصري الأمير فيصل إلى بغداد، حيث انهمك في إعادة تشكيل نظام التعلـــيم في العراق. وتولّى إحسان الجابري رئاسة ديوان الأمير فيصل في دمشق، وهو نائـــب حلب السابق في البرلمان العثماني، والضابط المعاون للسلطان عبد الحميد الثاني لمـــدة مـــن الوقت. كان إحسان شقيق سعد الله الجابري، صديقِ رياض، وأصبح بعد

---

(1) PRO FO 371/6454.
كان شكري القوتلي واحداً من أحد عشر عضواً من جمعية "العهد" وقعوا على عريضة مرسلة إلى وزارة الخارجية البريطانية في 12 أيار/مايو 1921 تطالب بريطانيا بمساعدة السوريين ضد "القمع الفرنسي".

ذلك من أقرب المقرّبين إلى رياض في فترة ما بين الحربين، حيث تعاونا معاً للتأثير على عصبة الأمم في جنيف لصالح القضية العربية. وتولّى نسيب البكري منصب أمين السر الأول للأمـــير فيـــصل، وهـــو قومي عربـــي متحمس، وكان مع أخيه الأكبر فوزي يستـــضيف الأمـــير في منـــزل العائلة في أثناء زياراته السابقة إلى دمشق تحت الحكم العـــثماني. وكـــان نسيب وفوزي ابني عطا بك البكري، كبير عائلة كريمة من مالكي الأراضي، تعود بنسبها إلى الخليفة أبـــي بكر الصديق.

تنافس الدكتور عبد الرحمن الشهبندر (39 سنة) مع نسيب البكري على الحظوة لـــدى الأمـــير فيـــصل، وهو طبيب حاد الذكاء وسياسي ناشط، لعب دوراً بارزاً في الدعوة لعقد المؤتمر العربـــي الأول في باريس في سنة 1913. تخرج في الكلية الإنجيلية السورية ودَرَّس فيها مدة قصيرة، ثم فتح عيادة في دمشق وتزوج ابنة عبد القادر مؤيد العظـــم، وهو مالك أراضٍ ثري أعدم الأتراك شقيقه شفيق مؤيد العظم في أثناء الحرب لأنـــه قومـــي عربـــي. وعلى الرغم من أن جمال باشا وضع الشهبندر تحت الرقابة المـــشددة، فإنه تمكّن من الهرب عبر الصحراء إلى العراق في سنة 1916 ومن هناك إلى القاهـــرة حـــيث عمـــل جرّاحاً في المستشفى العسكري، وحرر جريدة، وأنشأ حزباً سياســـياً ضم منفيين سوريين. اتصل بمسؤولين بريطانيين في أثناء وجوده في القاهرة، فـــاتُّهم لاحقـــاً، دون إثـــبات، بأنه على صلة بالمخابرات البريطانية. وعندما عاد إلى دمـــشق، مـــنعه نسيب البكري، الذي كان يشكّ في أمره، من دخول الدائرة المحيطة بالأمير فيصل ثانية. ظلّ الأمر كذلك حتى صيف 1920، عندما دخل فيصل في المنازلة الأخيرة مع الفرنسيين، حيث استطاع الشهبندر أن يقنع الأمير بتعيينه وزيراً لخارجيته.

ومـــن الموجـــودين في دمشق في ذلك الوقت أيضاً، صهر رياض الصلح، سامي الـــذي كان يبلغ من العمر 31 عاماً آنذاك. وهو ابن عبد الرحيم الصلح، شقيق أحمد باشـــا، وقد تزوج من بلقيس شقيقة رياض. بعد دراسة الحقوق في إستانبول وباريس، عـــاد ســـامي الصلح إلى سوريا في سنة 1913 وفتح مكتباً للمحاماة، وكُلفَ برعاية مـــصالح سكة حديد بغداد - خط سكة الحديد بين إستانبول وبغداد الذي فاز الألمان بامتـــيازه في سنة 1903. وعندما اندلعت الحرب في سنة 1914، عين مفتّشاً عسكرياً لسكك الحديد في جنوب الأناضول، لكنه استُدعي إلى إستانبول في سنة 1916 عندما

اشتُبه بأنه يضمر تعاطفاً مع الحلفاء. وبعدما رُدّ إليه اعتباره في السنة التالية، عُيّن مديراً لسكة حديد الحجاز في دمشق، وهو منصب استطاع أن يحافظ عليه خلال حكم الحلفاء أيضاً، الذين اعتبروا أنه خدم قضيتهم[1]. وقد ارتبطت مسيرته المهنية اللاحقة، بما في ذلك توليه منصب رئيس وزراء لبنان، ارتباطاً وثيقاً بمسيرة ابن عمه رياض.

كان هؤلاء، إذاً، بعض الأشخاص الذين تردّد عليهم رياض في دمشق في الفترة 1918-1920. لم يكونوا جميعاً مؤيدين متحمّسين لفيصل، لكنهم على العموم مجموعة مميزة من الرجال المتعلمين، والمثقّفين، والحازمين، وذوي النظرة العالمية، لكنهم شديدو التمسّك بعروبتهم. وقد شهدوا في سنوات تكوينهم انهيار العالم العثماني المتعدد الإثنيات والأديان، على وقع ضربات قوميات البلقان، وشوفينية تركيا الفتاة، والإمبريالية الأوروبية، والحرب العالمية الأولى. لم تكن قوميتهم العربية مجرد عاطفة عابرة، بل تكوّنت تحت الخطر في الجمعيات السرية، أو في محكمة عاليه العسكرية، أو في المنفى أو في ظلال المشانق، حيث قضى الكثير من أصدقائهم الأحباء. تكوّنت القومية لديهم أيضاً في الأندية الأدبية والجامعات، ومن قراءة الصحف، حيث جرى إعادة اكتشاف أمجاد اللغة العربية في مرحلة اختمار فكري. ولم يكن من قبيل المصادفة، أن يُفتتح في ظل حكم فيصل القصير في دمشق مكتبة عربية ومتحف للآثار العربية، بالإضافة إلى مجمع اللغة العربية في 8 حزيران/يونيو1919 برئاسة محمد كرد علي، رئيس تحرير جريدة **المقتبس** القومية.

لم يشعر الجميع بفرح غامر عند وصول الأمير فيصل إلى دمشق. فقد وجد بعض وجهاء المدينة ذوي الأصول الرفيعة أنه ورجاله البدو أجلاف متسلّطون. ونظراً لأنهم يعملون تقليدياً وسطاء بين السلطات العثمانية والسكان المحليين، فإنهم لم يجدوا سبباً للخضوع لحكم أمير آتٍ من أراضي الحجاز البعيدة أو لفريقه المتنافر، والدائم الشجار، من الضباط والمسؤولين والطفيليين من العراقيين والفلسطينيين والسوريين واللبنانيين. ومن بين الوجهاء المسلمين الدمشقيين، وربما الأكثر نفوذاً في ذلك الوقت، محمد فوزي باشا العظم (60 سنة) الذي وصفته الاستخبارات البريطانية بأنه "ثريّ،

(1) Archives du ministère des Affaires étrangères (MAE), Nantes, Fonds Beyrouth (Amb.), série B, carton 4 (dossier 55).

وطموح، وعديم المبادئ، وذو هوى تركي". لقد شعر رجال من أمثال العظم، الذي حكم أسلافه دمشق منذ القرن الثامن عشر، بالأسف لضياع النظام القديم. ومن الوجهاء البارزين الآخرين الذين لم يتقبّلوا نظام فيصل تماماً عطا بك الأيوبي (45 سنة)، الذي ربما تتحدّر عائلته من سلالة صلاح الدين الأيوبي. وقد عمل حاكم ولاية في عهد الأتراك. ومنهم أيضاً سامي باشا مردم بك (50 سنة) المثقف والدمث، الذي ورث ثروة من الأراضي في دمشق، وسمّاه جمال باشا عضواً في البرلمان العثماني عن دمشق.

وهناك أيضاً وجيه نافذ آخر هو عبد الرحمن باشا اليوسف (45 سنة) الذي كان يعتبر زعيماً للأكراد. أصبح من أغنى مالكي الأراضي في سوريا، واشترى عقارات واسعة أخرى في وادي البقاع وسواه. كان يفضّل حكم الأتراك أو الفرنسيين على إدارة فيصل العشوائية. وكان زميلاً لرضا الصلح في البرلمان العثماني. وباعتباره أمير الحج في معظم سنوات حياته بعد البلوغ، فقد قاد قافلة الحج إلى مكة سنيناً طويلة. وكان ذا طموح اجتماعي، أقام صلات مع بعض أعضاء الأسر المالكة الأوروبية مثل إمبراطور النمسا السابق وملك بلغاريا السابق. وقد أرسل أبناءه إلى بريطانيا للدراسة في كلية الزراعة في سايرِنْسِسْتر Cirencester، على أمل أن يعودوا لإدارة أراضيهم بطريقة حديثة منتجة.

تعيين رياض حاكماً على صيدا

عندما شكّل فيصل حكومته في دمشق، عُرّف رياض به، بواسطة والده رضا الصلح على الأرجح. ولا بد أن رياض أثار إعجاب الأمير، لأنه أرسل في أواخر عام 1918 لإدارة صيدا، البلدة التي تنحدر منها عائلته في جنوب لبنان، ولا يزال لديها فيها أملاك وأقرباء وأصدقاء. عند وصوله إليها، حُمل على الأكتاف إلى السراي التي بناها والده عندما كان قائم مقام هناك في سنة 1898. كانت الحرب قد خلّفت الدمار وضيق العيش والجمود التجاري في صيدا. فهل يمكن إعادة الحياة إلى سابق عهدها؟ وما هي السلطة التي تخضع إليها والحدود الوطنية التي تنتمي إليها؟ كان الغموض الشديد يكتنف تلك الأوقات، ويوجد خطر حقيقي من الوقوع في الفوضى. لذا كان أمام الحاكم الشاب عمل كثير يضطلع به.

كانـــت البلدة التي أُرسل رياض لإدارة شؤونها تضمّ 18 ألف نسمة، منهم 13 ألف مسلم سنّي و3500 روم كاثوليك وقليل من البروتستانت والموارنة واليهود. وكان يسكن في القـــرى المحيطة بها نحو 25 ألف فلاح مسلم شيعي يتزعمهم راشد عسيران، وهو كبير عائلـــة عسيران الشيعية المالكة للأراضي التي يرجع تاريخها في صيدا إلى نهاية القرن السادس عـــشر. وكـــان حكام إيران القاجار قد عينوا آل عسيران قناصل في صيدا[1]. وقد وقعت خـــصومة مريـــرة بـــين راشد عسيران وكامل الأسعد زعيم الشيعة في جبل عامل. قبل الحرب، كانت البلدة والقرى المجاورة لها تشكّل منطقة زراعية مزدهرة تنتج القمح والشعير والـــذرة والتـــبغ والتين وزيت الزيتون وشرانق الحرير وما لا يقل عن 80 مليون برتقالة. وكانـــت المعاملات المصرفية تتم عن طريق البنك العثماني وبنك خاص تديره أسرة عودة (لا يـــزال قائمـــاً حتى اليوم)، وتتكوّن بصورة رئيسية من مدفوعات ترسل إلى أصحاب الأراضي ثمناً لصادرات البرتقال وتحويلات نقدية يرسلها السوريون العاملون في الأميركتين إلى عائلاتهم، بالإضافة إلى المعاملات التجارية بين سوريا ومصر[2].

وقـــبل أن يـــتمكّن رياض من العمل على إعادة الازدهار إلى صيدا، وجد نفسه فجـــأة مـــن دون عمل. وقد رَوت ابنته علياء الصلح أنه حينما وصل الجنرال هنري غـــورو، وكان عملاقاً ملتحياً ذا ذراع واحدة (بترت الذراع الأخرى عندما أصابتها قذيفـــة في غاليـــبولي) إلى صـــيدا في سنة 1919 على رأس القوة الفرنسية، ذهب إليه الحاكم الشاب على فرس أبيض. تبادل الرجلان كلمات قليلة وهما يمتطيان جواديهما. رحـــب رياض بالجنرال قائلاً: "نرحب بكم زواراً عابرين لا غزاة!" ويقال إن الجنرال أجـــاب: "لقـــد وقفت فرنسا دائماً إلى جانب الإخاء والمساواة" فردَّ رياض: "الحرية خاصـــة أيهـــا الجنـــرال". أمـــضى الجنرال الذي تقلّد كثيراً من الأوسمة معظم حياته العـــسكرية في قمـــع رعايا الإمبراطورية الفرنسية في أفريقيا[3]. غير أنه كسب شهرته

(1) Chalabi, *The Shi'is of Jabal 'Amil*, p. 24.

(2) General Staff Intelligence, *General Report on Western Syria (Occupied Enemy Territory- West)*, Chapter 18 on Sidon, Beirut, July 1919.

(3) كتب الجنرال غورو تحت عنوان "مذكرات أفريقي" *Souvenirs d'un Africain,* سلسلة من الكتب عـــن مآثـــره العسكرية في غرب أفريقيا ووسطها وأفريقيا جنوب الصحراء. انظر على سبيل المثال *Mauritanie Adrar*, Paris 1945.

لاحقـــاً في سنة 1918، عندما هزم الألمان في ميادين المعارك في شامبانيا Champagne شـــرقي فرنـــسا. وقد علّق بعد مقابلته رياض أنه "فتى غير عادي! نادراً ما رأيت مثل نظراته الشجاعة. سُجن في العشرين، وأصبح حاكماً في الرابعة والعشرين! سيكون له شـــأن عظيم! إنه يذكرني بساموري توريه Samori Touré"[1]. كان غورو يشير إلى القائد العسكري الشهير لقبيلة ديولا Dioula الذي أقام دولة على الجانب الشرقي من نهـــر النيجـــر الأعلى، وقاتل الفرنسيين مدة تزيد على عشرين سنة إلى أن قبض عليه غورو بنفسه في غوليمو Guelemou في شاطئ العاج سنة 1898.

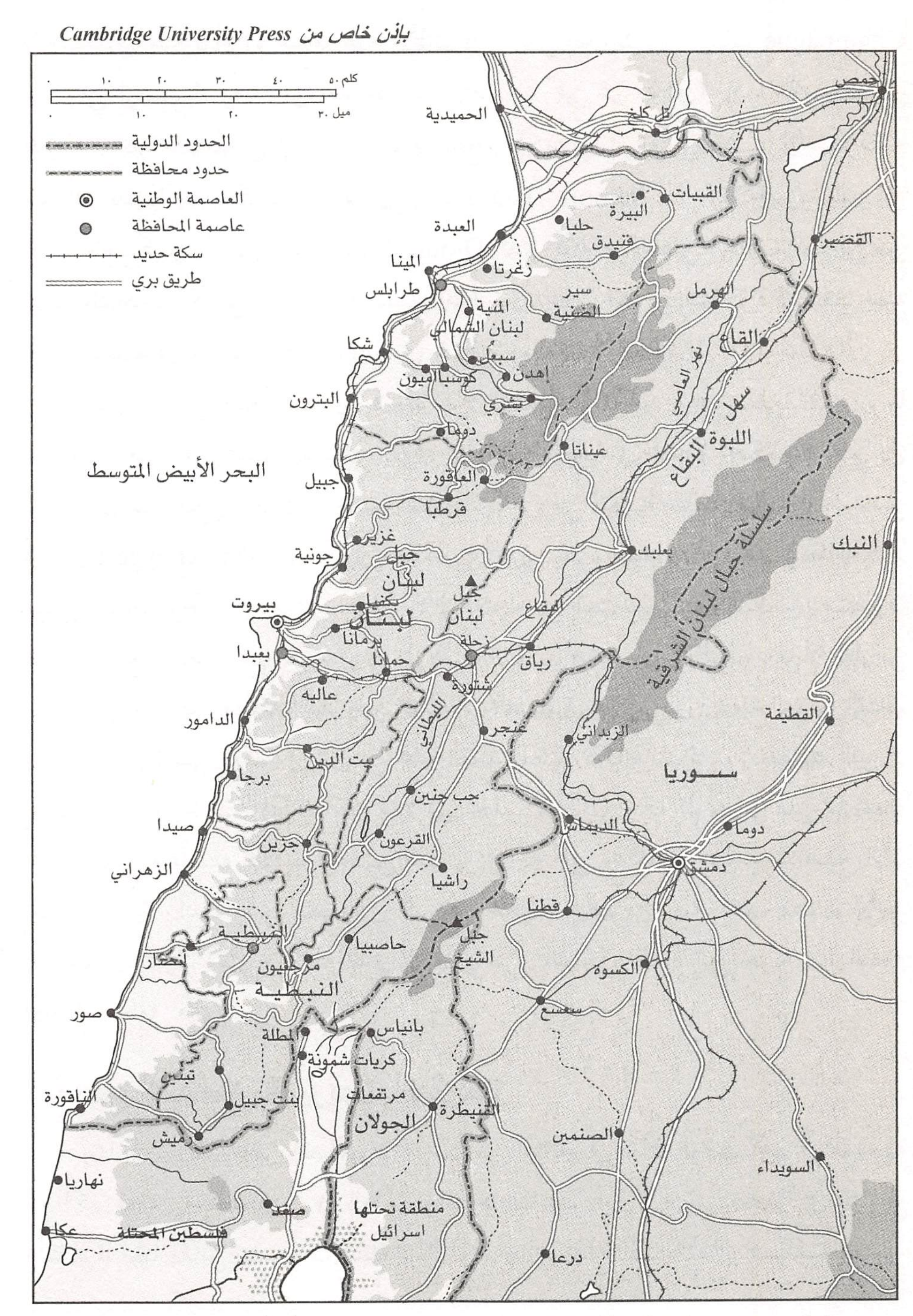
حُـــل مجلس صيدا البلدي بضغط من الفرنسيين، وأجبر رياض على التنحي، ما سبّب له خيبة أمل عميقة. ويمكن القول إن إرادته القوية في محاربة الحكم الفرنسي في المـــشرق تـــرجع إلى تلك اللحظة. استقال رياض من منصبه عندما استولى الكولونيل فيغيرل Feygerl، القائد العسكري الفرنسي المحلي، على صيدا وجوارها. وبعدما طُرد مـــن صيدا، توجّه إلى دمشق، حيث كان العديد من السياسيين العرب الكبار ينتظرون بقلـــق بالغ ما يخبئه لهم الفرنسيون. في ذلك الوقت أصبح رياض قومياً مقاتلاً يعارض الفرنسيين معارضة مطلقة. لقد خبر السجون العثمانية، وتمرّس في جمعية العربية الفتاة، ونـــضج في المنفى. وبدأ في تكوين هالة القائد بفضل ذكائه المتوقّد وشخصيته القوية. أمـــا والـــده رضـــا، فكان أكثر ميلاً إلى الحذر، بعد أن أنهكه المرض والقلق مما يحمله المـــستقبل، وعلـــته الكآبـــة مـــن التفكير في أنه أفنى حياته في خدمة ما أصبح الآن إمـــبراطورية زائلة. وهو كمسؤول كبير في حكومة فيصل العربية، كان ينصت الأمير إلـــيه، ويـــدرك أكثر من ابنه الذي لا يزال غراً المشاكل الحادة التي يجب على النظام الجديد التعامل معها.

المصالح الاستعمارية لبريطانيا وفرنسا

ربما لم يدرك رياض الصلح، وآخرون من أمثاله، في ذلك الوقت أنهم في مواجهة مع أكبر قوتين استعماريتين في العالم، وقد خاضتا للتوّ أول "حرب شاملة" في التاريخ وانتصرتا فيها مقابل تضحيات هائلة بالمال والرجال. لذا كانت الآمال السياسية العربية

(1) Alia el-Solh, *Le Jour* (Beirut), 3 October 1965.

بإذن خاص من Cambridge University Press



متصرفية جبل لبنان العثمانية سنة 1861 وتوسّعها إلى لبنان الكبير كما أنشأه الفرنسيون سنة 1920.

في أدنى لائحة أولوياتهما، هذا إذا ظهرت في تلك اللائحة أصلاً. لقد قُتل أكثر من 10 ملايـين أوروبـي - جيل كامل من الشباب تقريباً. وتحطّم نظام العلاقات الدولـية القـائم قـبل الحرب، كما حُطمت مجتمعات أوروبية بأكملها. وزالت الإمبراطوريات النمساوية المجرية والألمانية والعثمانية إلى غير رجعة، في حين سقطت إمـبراطورية القياصـرة الروس في أيدي البلاشفة. لحق الدمار بفرنسا على وجه الخصوص: خسرت ربع رجالها الذين تتراوح أعمارهم بين 18 و27 سنة، ودمّرت منطقتها الصناعية الشمالية بأكملها. ولأنها تخشى من نهوض ألمانيا ثانية طلباً للثأر، فقد سعت إلى تقييدها بتعويضات عقابية عن أضرار الحرب في مؤتمر السلام الذي عُقـد بعـد الحرب. وفي الإطار الجديد الناشئ للقوى في الشرق الأوسط والبحر المتوسـط، كان اهتمام بريطانيا وفرنسا، اللتين أنهكتهما الحرب وتواجهان القوة الصاعدة للولايات المتحدة، منصباً على حماية مصالحهما أكثر من أي شيء آخر. وعـندما تحدثـتا عـن "استقلال" العرب فإنما كانتا تعنيان "تحريرهم" من الهيمنة العثمانـية، لا حـريتهم في حكم أنفسهم بأنفسهم. وعلى الرغم من أن بريطانيا وفرنـسا حاولتا أن تقدما تأييداً لفظياً لمبادئ الرئيس وودرو ويلسون بشأن حق تقريـر المـصير، فإنهما كانتا تنويان في الواقع إعادة رسم خريطة الولايات العربية العثمانية بما يلائم مصالحهما.

كانـت المـصالح الفرنـسية في المناطق التي احتلها أللنبـي كبيرة وذات جذور طويلة. فقد انتزع ملك فرنسا من السلطان العثماني في القرن السادس عشر حق حماية كل الأوروبيين في الإمبراطورية. وبحلول القرن السابع عشر، استطاعت دول أوروبية أخـرى الحـصول على ترتيبات مماثلة عرفت بالامتيازات. وحيث إنه لم يكن للمقرّ الـبابوي علاقات دبلوماسية مع الباب العالي، فقد أخذت فرنسا على عاتقها مسؤولية حمايـة كـل رجال الدين اللاتين في الشرق، وهو "حق" وسّعته في القرن الثامن عشر لـتكون "حامـية الكاثوليك". وفي عهد الجمهورية الثالثة، طرأ مزيد من التوسّع على هذه الحماية لتشمل كل المسيحيين في الشرق، أياً تكن مذاهبهم. لم يكن هناك، بطبيعة الحـال، أي أسـاس قانوني لمثل هذه المحميات، لكن العثمانيين كانوا أضعف من أن يواجهوا فرنسا في ذلك الوقت.

فجـــأة، أعطى تدخل فرنسا العسكري في جبل لبنان بعد المذبحة التي تعرّض لها المسيحيون في سنة 1860 معنى لفكرة الحماية الفرنسية، وثبّت أن الموارنة أتباع فرنسا الرئيـــسيين. وكما ذكرنا سابقاً، فإن القوى الأوروبية استحصلت في سنة 1861 على وضع مميز لجبل لبنان كمتصرفية ذات حكم ذاتي على رأسها حاكم عثماني كاثوليكي غـــير لبـــناني. وكـــان يساعد هذا المتصرف مجلس إدارة مكوّن من 12 عضواً يمثلون الطوائـــف الرئيسية الست في الجبل. وهكذا أعطيت التعددية الطائفية اللبنانية شكلها المؤســـسي الأول واتخذت من عدة نواحٍ سمة مؤسسية منذ ذلك الوقت، استمرت من دون تغـــيير إلى حـــد ما، وربما خلقت بعض المشاكل المستعصية التي لا يزال يواجهها لبنان اليوم. أقام الممثّلون الفرنسيون علاقات وثيقة مع رجال الدين المسيحيين المحليين، وظهر البطريرك الماروني بمثابة الشخصية المركزية في شبكة أتباع فرنسا. وقد طرأ مزيد مـــن التوسّع على النفوذ الفرنسي في أواخر القرن التاسع عشر من خلال الاستثمارات الكبيرة في الطرق، وسكك الحديد، والمرافئ، وشركات النقل البحري؛ وفي شركات الخـــدمات العامـــة مثل الماء والغاز والكهرباء؛ وفي المصارف وغيرها من المؤسسات التجارية؛ وكذلك في الشبكة الواسعة من المدارس والمستشفيات ودور الأيتام التي تموّلها فرنسا، وتوجد في مدن الإمبراطورية الرئيسية مثل إستانبول وسالونيك وإزمير وبيروت والقـــدس. وعشية الحرب العالمية الأولى كان ما يقرب من 90 ألف تلميذ عثماني، من غير المسلمين أو من أبناء النخبة المسلمة - الولاة، والإداريين، والضباط، والوجهاء - يدرسون الفرنسية ويتشربون الأفكار الفرنسية في المدارس الفرنسية[1]. كما شاركت بريطانيا وفرنسا في إدارة الدَّين العثماني العام.

كانـــت الامتـــيازات في الأصل معاهدات تجارية تفضيلية وقّعها الباب العالي مع القـــوى الأوروبية، لكن جرى توسيع هذه الامتيازات، تحت حماية القناصل والسفراء الأجانب ورعايتهم، لتشمل بمرور الوقت العائلات المسيحية واليهودية المحلية. وهكذا تمكّنت جاليات غير مسلمة بأكملها من استخدام الامتيازات لتأمين الحصانة من العدالة العثمانـــية، وكـــذلك الإعفاء غير العادل من دفع الضرائب العثمانية التي كانت تثقل كاهـــل المواطنين المسلمين. وأصبحت الامتيازات بالنسبة إلى الحكومة العثمانية تعبيراً

(1) Cloarec, *La France*, pp. 12-44.

كـــريهاً عـــن السيطرة الغربية. وهكذا عندما اندلعت الحرب، أسرع الباب العالي إلى إلغـــاء الامتـــيازات علـــى الفور في 1 تشرين الأول/أكتوبر 1914، كما ألغى "المحمية الكاثوليكية" لفرنسا وأرسل قوات مسلحة لاحتلال جبل لبنان. لذا كان أحد أهداف فرنـــسا في الحرب استعادة الامتيازات والأفضليات والنفوذ التي كانت تتمتع بها سابقاً في الإمبراطورية العثمانية، وهو هدف شاركتها فيه بريطانيا. وكلما بدت الإمبراطورية مهـــددة بمزيد من التفكك، ازداد عزم القوى الأوروبية على التمسك بالامتيازات التي تمتّعت بها منذ زمن طويل.

شـــكّلت ســـوريا محور "السياسة الشرقية" لفرنسا. وكان التدخّل الفرنسي في المـــنطقة كـــبيراً جداً بحيث فكّرت السلطات الفرنسية خلال الحرب في تحويل سوريا بأكملـــها مـــن جـــبال طوروس في الشمال إلى حدود مصر في الجنوب إلى "فرنسا المـــشرقية". في 29 كانون الأول/ديسمبر 1918، قبيل بدء أعمال مؤتمر السلام، حدّد وزير الخارجية الفرنسي ستيفان بيشون Stéphane Pichon موقف فرنسا أمام الجمعية الوطنية في باريس كالتالي: "لدينا حقوق لا يمكن التصرّف فيها في إمبراطورية الأتراك. لديـــنا مـــثل هذه الحقوق في سوريا ولبنان وكيلكيا وفلسطين. وهي تقوم على أسس واتفاقـــيات تاريخية... وعلى تطلعات السكان الذين كانوا دوماً أتباعاً لنا ورغباتهم... إننا مصممون على جعل هذه الحقوق معترفاً بها"[1].

لـــذا مـــا إن علمـــت فرنـــسا بالعهود التي قطعتها بريطانيا للشريف حسين في مراســـلات الحـــسين - مكماهون، حتى تحركت لإضعاف أثر الثورة العربية وتأمين ســـيطرتها علـــى سوريا. لم يكن بوسع البريطانيين معارضة ذلك بصورة جدية. فهم يقرّون أن للفرنسيين مصلحة في سوريا منذ أيام لويس الرابع عشر - بل منذ الحروب الصليبية[2]. وعلى أي حال، كانت القوتان تريدان تقسيم المنطقة في ما بينهما.

كانت مصالح بريطانيا تختلف عن مصالح فرنسا من الناحية التقنية، ولكنها لا تقل عنها حجماً وعمقاً. ولم يكن هناك مصلحة من بينها أهم من السيطرة على المواصلات

---

(1) Mahafzah, 'La France et le mouvement nationaliste arabe de 1914 à 1950', in *Relations internationales*, no. 19 (autumn 1979), p. 300, quoting P. Huvelin, *Que vaut la Syrie*? Paris 1921, p. 4-6.

(2) Elizabeth Monroe, *Britain's Moment in the Middle East, 1914-71*, London 1981, p. 28.

الـــبرية والبحـــرية والجوية بين حوض المتوسط والمحيط الهندي[1]. فالهند البريطانية - تجارتها واحتياطيها الهائل من القوة العسكرية البشرية - تحتلّ مكانة رفيعة في التفكير الاستراتيجي البريطاني واستمرت كذلك خلال حربين عالميتين حتى حصول الهند على استقلالها في سنة 1947[2].

ثمـــة طريقان إلى الهند، بري وبحري، تجب السيطرة عليهما وحمايتهما: طريق قناة الـــسويس إلى البحـــر الأحمـــر وما ورائه، والطريق من البحر المتوسط عبر الصحراء الـــسورية الشمالية حتى الفرات والخليج العربـــي، حيث أحرزت بريطانيا مكانة مميّزة عن طريق المعاهدات المختلفة التي عقدتها مع الشيوخ المحليين. وهكذا كانت المنطقة من قناة السويس إلى الخليج العربـــي، كما تراها لندن، منطقة مركزية بريطانية حيوية.

ثمة مصلحة بريطانية مهمة أخرى، طالبت فرنسا بنصيب فيها أيضاً، هي السيطرة علـــى إنتاج النفط الإيراني والعراقي والتصرّف فيه، بالإضافة إلى حماية منشآت شركة النفط الإنكليزية الإيرانية في عبادان. وكانت بريطانيا قد أنـــزلت قوة عند مدخل شط العـــرب في الأيام الأولى من الحرب لمنع تغلغل العملاء الألمان شرقاً، وكذلك لأن 25 ألـــف طن من النفط شهرياً تصدّر من الحقول النفطية الجديدة في جنوب إيران لتزويد البحـــرية البريطانية بالوقود، بعد أن تحوّلت من الفحم الحجري إلى النفط سنة 1912. وقـــد تأكـــدت الأهمية الحاسمة للنفط في الحرب العالمية الأولى، حيث نُقلت في معركة فرنـــسا في ســـنة 1918 وحدات عسكرية كبيرة بالشاحنات من قطاع إلى آخر جيئة وذهاباً.

وثالـــث المصالح البريطانية السيطرة على فلسطين - كمنطقة فاصلة للدفاع عن قناة السويس ومصر، ولأن آرثر بلفور، وزير الخارجية البريطانية في ذلك الوقت، وعد بـــأن تقدّم بريطانيا الدعم من أجل "إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين". وكانـــت لـــندن تأمـــل في أن تؤدي إقامة فلسطين أنكلو يهودية إلى إضعاف الموقف الفرنـــسي على حدود مصر. وهناك عناصر أخرى أيضاً للمصلحة الذاتية، إذ كانت بـــريطانيا تأمـــل في أن يؤثـــر اليهود الأميركيون على موقف الولايات المتحدة لصالح

(1) PRO FO 371/27308 Report on the Relations of France and Great Britain with the Arab World and with Each other in the Eastern Mediterranean, 4 November 1940.

(2) Monroe, *Britain's Moment in the Middle East*, pp. 11-12.

المجهــود الحربــي للحلفاء، وأن يساعد اليهود الروس في أن تواصل حكومة ألكسندر كيرنــسكي Alexander Kerensky المؤقتة القتال على خط الجبهة مع ألمانيا. غير أن البلاشفة أزاحوا كيرنسكي عن السلطة بعد أربعة أشهر فقط.

يمكــن فهــم الوعود المتناقضة التي قطعتها بريطانيا للعرب والفرنسيين واليهود على الــتوالي في ســنوات 1915 و1916 و1917، بــرغبتها الجامحة في ربح الحرب ضد ألمانيا وحلفائهــا، دون أن يــشكّل ذلك تبريراً لها. ومن نافلة القول إنه لا عذر للوعود المتكررة الكاذبــة التي أعطيت للعرب في سنة 1918، بالاعتراف باستقلالهم وسيادتهم عندما يُهزم الأتــراك. فقد أصدر الحلفاء عدة بيانات منافقة لتسكين المخاوف العربية. ففي 4 كانون الثاني/يناير 1918، أمرت الحكومة البريطانية ديفيد جورج هوغارث D.G. Hogarth مدير المكــتب العربــي البريطاني في القاهرة بتسليم رسالة إلى الملك حسين في الحجاز تؤكد أن وعد بلفور لا يتناقض مع الوعود التي أعطيت للعرب من قبل. وقالت الرسالة "في ما يتعلق بفلسطين فإننا مصممون على ألاّ يخضع أي من الشعبين للآخر". وبعد ذلك بعدة شهور، في حزيــران/يونيو 1918 أعلن المندوب السامي البريطاني في مصر السير ريجينالد وينغيت Sir Reginald Wingate رداً علــى سؤال رسمي وجّهه سبعة منفيين عرب في القاهرة، أن الحكــومة الــبريطانية ترغب في أن يقوم حكم المناطق المحرّرة من الأتراك على أساس مبدأ مــوافقة المحكومين. وبعد ذلك في 7 تشرين الثاني/نوفمبر، أي قبل ثلاثة أيام من الهدنة التي وضــعت نهاية للحرب الكبرى، أعلنت الحكومتان البريطانية والفرنسية، في موقف وُصف بأنــه ذروة النفاق السياسي[1]، بأن هدفهما الوحيد من تقديم الدعم والمساعدة للعرب هو ضمان "انتظام عمل الحكومات والإدارات التي ينتخبها السكان أنفسهم"[2].

كانت صيغة هذه التوكيدات متأثرة بوضوح بالأفكار الجديدة التي ظهرت خلال الحــرب عن حق الشعوب في تقرير مصيرها. لكن لم تكن فرنسا وبريطانيا في الواقع تتــصوّران تــسليم مصالحهما الواسعة في المنطقة لأحد - وليس إلى الحكومات المحلية بالتأكــيد. وعندما اشتبه بعض العرب بأنهم خدعوا، شعروا بالندم للتسرّع في الثورة

(1) المصدر نفسه، ص 48.
(2) انظــر Hurewitz, *Diplomacy*, vol. II, pp. 29-30 for the Hogarth Message, January للاطــلاع علــى رســالة هــوغارث، كانون الثاني/يناير 1918؛ والإعلان الموجّه إلى السبعة، 16 حزيران/يونيو 1918؛ والإعلان الإنكليزي الفرنسي، 7 تشرين الثاني/نوفمبر 1918.

على العثمانيين، إذ إن البديل هو الخضوع للحكم الأوروبـــي والاستيطاني اليهودي. ولكـــن مرّ وقت طويل قبل أن يدرك العرب جسامة أوهامهم. واليوم أخذ قطاع كبير مـــن المفكّرين العرب، بمن فيهم الجيل الشاب من المسلمين في العالم أجمع، يتأمّلون في تلك الفترة بأنها كارثة، ويرون أن تفكّك الإمبراطورية العثمانية بداية المآسي السياسية للعرب، التي لا يبدو أنها ستنتهي قريباً.

دبلوماسية فيصل غير المجدية

حكـــم الأمير فيصل في دمشق مدة 22 شهراً فقط، من 3 تشرين الأول/أكتوبر 1918 حتى 25 تموز/يوليو 1920، وهو اليوم الذي سقطت فيه المدينة في أيدي القوات الفرنسية، بعد موقعة ميسلون التي ذُبح فيها المدافعون البواسل في القوات السورية غير المسلحة عملياً بقيادة وزير الدفاع البطل يوسف العظمة.

ربمـــا تكون كلمة "حكم" قوية جداً لوصف السلطة الضعيفة التي سُمح لفيصل بممارســـتها. على أي حال، أمضى الأمير فترتين طويلتين من الوقت في أوروبا، يحاول الـــدفاع عن القضية العربية، من كانون الأول/ديسمبر 1918 حتى نيسان/أبريل 1919 ومـــن أيلول/سبتمبر 1919 حتى كانون الثاني/يناير 1920. وقد بذل أخوه الصغير غير الـــشقيق الأمير زيد، وهو الابن الرابع للشريف حسين، وكان لا يزال في العقد الثالث مـــن عمـــره، ما بوسعه لإخفاء الإحباط المرير الذي شعر به السكان المحليون، بعدما بدأت الحقيقة تتكشّف تدريجياً بأنه لن يسمح للعرب بإدارة شؤونهم بأنفسهم.

كانـــت مـــشكلة فيـــصل الحقيقية وقوعه بين مطرقة الفرنسيين المصمّمين على الـــسيطرة على سوريا، وسندان حلفائه القوميين، لا سيما أعضاء جمعيتي الفتاة والعهد القدامـــى في إدارتـــه، المـــصمّمين على تأكيد الاستقلال العربـــي المطلق. و لم تسفر محاولات فيصل اليائسة لإيجاد تسوية بين هذين الموقفين عن إرضاء أي من الطرفين.

خـــاف فيـــصل من التقسيم المقترح "للدولة العربية الموحّدة" التي كان يعتقد أن والـــده وُعـــد بها، فذهب إلى لندن للمرة الأولى في 10 كانون الأول/ديسمبر 1918، سعياً وراء توضيح النّيات البريطانية. كان في ذلك الوقت في الثالثة والثلاثين من عمره تعوزه الخبرة ولا يحسن الإنكليزية. ونتيجة لذلك، وقع تحت رحمة الكولونيل لورنس،

الــذي صحبه كمترجم ومستشار. وقد تم ترتيب رحلته عن طريق لورنس والصهاينة مــن دون استشارة الفرنسيين، فغضب هؤلاء واستقبلوا فيصل ببرود عندما نــزل في مرسيليا مبحراً من بيروت في طريقه إلى إنكلترا.

عــندما وصــل فيــصل إلى لــندن، علم أن رئيس الوزراء الفرنسي المسنّ جورج كليمنصو George Clemenceau، "أبو النصر"، كان قد زار لندن قبل عشرة أيام، ولقي استقبالاً عسكرياً وشعبياً عظيماً في العاصمة البريطانية. وتلك أول زيارة إلى لندن يقوم بها زعــيم الحرب المحتفى به منذ الهدنة في 11 تشرين الثاني/نوفمبر، وكان في السابعة والسبعين في ذلــك الــوقت. وعلى الرغم من أن المدينة كانت لا تزال تضج بذلك الحدث، فإنه لم يكــن بوسع فيصل أن يعرف ما الذي دار بين كليمنصو ولويد جورج Lloyd George، رئيس الوزراء البريطاني، عندما اجتمعا معاً على انفراد في السفارة الفرنسية.

ليس هناك سجل رسمي مكتوب عن هذا الاجتماع الخطير، لكن موريس هانكي Maurice Hankey، سكرتير وزارة الحرب البريطانية، دوّن في مذكراته ما قاله له لويد جــورج بعــد فترة قصيرة من اللقاء. وهناك رواية أخرى، مطابقة تقريباً، وردت في مذكرة حول اتفاقية سايكس - بيكو كتبها اللورد بلفور بنفسه، وأعاد فيها بعد مرور ثمانــية أشهر على الحدث، سرد الحوار الذي دار في السفارة الفرنسية، وقد جاء على النحو التالي كما زعم:

كليمنصو: ما الذي سنبحثه؟

لويد جورج: بلاد ما بين النهرين وفلسطين.

كليمنصو: قل لي ما الذي تريده.

لويد جورج: أريد الموصل.

كليمنصو: ستكون لك. هل من شيء آخر؟

لويد جورج: نعم، أريد القدس.

كليمنــصو: ســتكون لك، لكن بيشون Pichon (وزير خارجية فرنسا) سيثير مشاكل بشأن الموصل[1].

---

(1) Stephen Roskill, *Hankey, Man of Secrets*, vol. II, pp. 28-29. للاطــلاع على إعلان بلفور انظر E. L. Woodward and Roham Butler (eds), *Documents on British Foreign Policy, 1919-39*, Series I, vol. IV, London 1952, document 242 of 11 August 1919, pp. 340-1.

على الرغم من أن الفرنسيين لم يشاركوا كثيراً في القتال في الشرق الأوسط، فقد أرادوا أن تطلــق يدهم في سوريا. غير أنهم يواجهون مشكلة خضوع سوريا الجغرافية بأكملــها، بمــا في ذلك لبنان وفلسطين، للاحتلال العسكري البريطاني. كان تفكير كليمنصو في ذلك اللقاء منصباً على ألمانيا، التي سيتقرّر مصيرها في مؤتمر الصلح. فقد شــكّلت ألمانــيا هاجساً له، إذ كادت أن تهزم بمفردها بريطانيا وروسيا وفرنسا معاً. فكــيف تضمن فرنسا ألا تتمكّن ألمانيا بعد نهوضها من أن تشنّ حرباً ثانية؟ فقد قاد كليمنــصو بلده منذ خريف 1917 في صراع الحياة أو الموت في الحرب الكبرى، لكنه شــهد أيضاً هزيمة فرنسا في الحرب الفرنسية البروسية في 1870-1871. لذا كان جل اهتمامه منصباً على ضمان أمن فرنسا أمام جارتها الأكثر قوة.

كــان يــدرك أن مسألة المشرق تفسد العلاقات الفرنسية البريطانية، ويتطلّع إلى اتفــاق مــع بــريطانيا العظمى لتعزيز موقفه بشأن مسألة ألمانيا قبل وصول الرئيس الأميركــي المثالي وودرو ويلسون Woodrow Wilson، الذي يعتقد بأن العناية الإلهية والتخطــيط السليم مكّنا الولايات المتحدة من تجنّب الفوضى القاتلة التي وقعت فيها أوروبا. لذا تخلّى كليمنصو عن الموصل وعن حصة فرنسا في منطقة دولية في فلسطين، لكنه أمّنَ في المقابل اعتراف لويد جورج بنفوذ فرنسا الحصري في سوريا، وهي منطقة تشمل لبنان وتمتد شمالاً حتى ولاية كيليكيا التركية. وحصل على حصة في نفط العراق وإيــران، وهو أمر لم يطرح في اتفاقية سايكس - بيكو. وبذلك وضع كليمنصو، في ســعيه لتحقيق استقلال فرنسا في مجال الطاقة، أساس الاستراتيجية الاقتصادية الكبرى للحكومات الفرنسية في مرحلة ما بعد الحرب[1]. وآلت الأمور في النهاية إلى حصوله هــو ولــويد جــورج على ما يريدان. ويستطيع المرء أن يجزم أنهما لم يشيرا البتة في مباحثاتهما إلى "الخيار الحرّ للشعوب المعنية".

وهكذا وصل فيصل إلى لندن بعد أن اتفقت بريطانيا وفرنسا على تقاسم المنطقة. وفي 11 كانــون الأول/ديــسمبر 1918، حاول اللورد بلفور، وزير الخارجية في ذلك الوقت، أن يطمئنه بشأن نيات فرنسا، لكن لورنس الذي رافق الأمير شرح له بصراحة أن الــبريطانيين لــن يــشنوا حرباً على فرنسا لمصلحته. وإذا ما أصرت فرنسا على

(1) Henry Laurens, *La Question de Palestine*, Tome I: 1799-1922, pp. 432-3.

مطالـــبها، فإن البريطانيين سيذعنون. وأشار لورنس على فيصل بأن يسعى للحصول علـــى الدعم الأميركي، ولتحقيق ذلك فإن عليه أن يكسب ودّ الصهاينة. ربما يكون لـــورنس في ذلك الوقت قد تأثّر بالحجج الصهيونية، كما تشير بعض الدراسات الحديثة. ولا شـــك في أن ذلك هو ما أقنع فيصل، في وقت لاحق من اليوم نفسه، بالاجتماع بالدكتور حاييم وايزمن Chaim Weizmann، الزعيم الصهيوني وعالم الكيمياء المقيم في مانشـــستر، وهـــو المهندس الأول لوعد بلفور. وقد وصفه المؤرخ الفرنسي هنري لوران Henry Laurens بأنه "أول اعتراف رسمي من قوة عظمى بوجود شعب يهودي وبداية المواجهة بين اليهود والعرب على ملكية فلسطين"[1].

كان فيصل قد عقد اجتماعاً سابقاً مع الزعيم الصهيوني في حزيران/يونيو 1918، عـــندما أشار وايزمن إلى أن فلسطين اليهودية تستطيع تقديم مساعدة ثمينة إلى المملكة العـــربية في ســـعيها للتوسّع شمالاً إلى سوريا. وكان مشهوراً عنه أنه يخبر محاوريه بما يـــريدون سماعـــه بالـــضبط. وقد مكّنته جهوده الدؤوبة من كسب تأييد العديد من الـــسياسيين الـــبريطانيين الـــبارزين للقضية الصهيونية، بمن فيهم اللورد بلفور المعادي للسامية، بالإضافة إلى العديد من الصحافيين النافذين، مثل ش. ب. سكوت C.P. Scott، رئيس تحرير صحيفة مانشستر غارديان Manchester Guardian المقرب من ديفيد لويد جورج.

حقّـــق وايـــزمن نجاحـــاً كبيراً في تسخير بريطانيا لدعم الطموحات الصهيونية. وبـــرزت عبقـــريته الـــسياسية في إقناع البريطانيين بأنه يمكن الاستفادة من الأهداف الـــصهيونية في فلسطين لخدمة مصالح بريطانيا في العالم[2]. لكن الحساب جاء لاحقاً بالنـــسبة إلى بـــريطانيا. فقد ترتّب على الوفاء بوعد بلفور تحميلها كثيراً من المشاكل المؤلمة التي تستعصي على الحل حتى يومنا هذا. ووفقاً لما قاله أحد المراقبين البريطانيين: "لقـــد كـــان أحـــد أعظم الأخطاء في تاريخنا الاستعماري، مقيساً بالمصالح البريطانية وحدها"[3].

(1) المصدر نفسه، ص 366.
(2) المصدر نفسه، ص 366.
(3) Monroe, *Britain's Moment in the Middle East*, p. 45.

في ذلك الاجتماع، طلب فيصل من وايزمن توضيح أهداف الصهيونية. فأخبره وايزمن وهو يفيض ثقة في النفس في تعامله مع الأمير الشاب، أن اليهود يريدون من فيصل ومؤتمر السلام الاعتراف بالحقوق القومية التاريخية لليهود في فلسطين. وقال إن بريطانيا ستكون القوة الراعية، وإن الإصلاح الزراعي سيأخذ الأرض من الأفندية. وسيسمح التطور الاقتصادي السريع باستيطان 4 – 5 ملايين يهودي. ويمكن بحث حدود فلسطين ومستقبل الأوقاف الدينية في وقت لاحق بعد التسوية السلمية. وتعهّد بأن يحترم اليهود الأماكن الإسلامية المقدسة. أقرّ فيصل بأن هناك متسعاً من الأرض في فلسطين للشعبين، ووافق على دعم المطالب اليهودية. لكنه آثر ألا يُعلِم والده أو أخاه زيد بهذه المحادثة.

بعد ذلك بأيام قليلة، في 21 كانون الأول/ديسمبر، أقام اللورد روتشيلد Lord Rothschild حفل عشاء على شرف الأمير. أعلن فيصل في خطاب ألقاه بعد العشاء أنه "سمع من أناس يعتبرون أنفسهم متحضرين أن اليهود يريدون تحويل مسجدنا في القدس إلى معبد، ويريدون طرد الفلاحين من فلسطين. أما أنا فأعرف أنه ما من يهودي حقيقي يمكن أن تكون لديه مثل هذه النيات... إن مُثُل الدكتور وايزمن العليا هي مثلنا". وعلى العرب واليهود التعاون لأن "روابط الدم تجمع بينهما"[1].

للاستفادة من الفرصة، عمد وايزمن بعد ذلك إلى ترتيب لقاء آخر مع الأمير في 3 كانون الثاني/يناير 1919. وطُلب منه عندئذ التوقيع على نص يحدد المبادئ التوجيهية للعلاقات بين الدولة العربية المستقبلية وفلسطين ذات الوضع غير المحدد – لكن الزعيم الصهيوني كان يتصوّرها يهودية بالفعل. ووفقاً للنص، فإن دستور فلسطين يقدّم أوسع الضمانات الممكنة لتنفيذ وعد بلفور. وبموجبه يتم تشجيع الهجرة اليهودية على نطاق واسع إلى فلسطين وتقدّم إليها المساعدة بكل الوسائل الممكنة. وقّع فيصل، غير أنه أضاف تحفظاً بخط يده باللغة العربية: إذا لم يحصل العرب على استقلالهم، فإن هذا الاتفاق يعتبر لاغياً. ولم يتضح ما إذا كان فيصل على علم بما يوقّع عليه، أم جرى التحايل عليه.

بعد انتقال الأمير فيصل إلى باريس، قدّم مذكرة إلى المجلس الأعلى للقوى المنتصرة في مؤتمر السلام في 6 كانون الثاني/يناير. أعلن في مذكرته أن "هدف

(1) Laurens, *La Question de Palestine*, vol. I, pp. 438-40.

الحـــركات القومية العربية هو توحيد العرب في النهاية في أمة واحدة... وأنهم يتوقعون مـــن القـــوى الكبرى أن تعتبرهـم شعباً واحداً متمسكاً بلغته وحريته، وألا تتخذ أي خطـــوة لا تـــتفق مـــع وحدة هذه المناطق في النهاية في دولة واحدة ذات سيادة... باختـــصار، إننا نطلب منكم ألا تفرضوا علينا حضارتكم كلها. ولكن أن تساعدونا علـــى أخـــذ ما ينفعنا من خبرتكم"[1]. وقدّمت المنظمة الصهيونية، بدورها، حجتها لإقامة فلسطين "يهودية" في مذكرة مفصّلة في 3 شباط/فبراير، بينما رتّب الفرنسيون، الـــراغبون في إضعاف التماس فيصل الحصول على الاستقلال، دعوة سوري مسيحي مـــوالٍ لفرنسا، اسمه شكري غانم، ليطلب أن تمنح فرنسا انتداباً على سوريا المتحدة. وقـــدّم داود عمون، رئيس مجلس إدارة جبل لبنان، الحجة لإقامة لبنان "لبناني" وطالب بإنشاء دولة لبنانية مستقلة ضمن "حدودها التاريخية والطبيعية".

فيما كانت كل هذه المشاريع المتزاحمة تتنافس لجذب اهتمام القوى الكبرى، أخذ فيـــصل يـــرى أن تفاؤله في غير محله. فستقسّم سوريا بين فرنسا وبريطانيا، من دون مـــوافقة أهلـــها. وفي محاولة يائسة لتجنّب حدوث ذلك، دعا فيصل إلى إرسال لجنة تحقـــيق دولية للنظر في رغبات السكان، وكانت النجاح الوحيد الذي حقّقه - على الرغم من أن ذلك انقلب ضدّه وجعل مهمته أكثر صعوبة بكثير.

لجنة كنغ - كرين

اقتـــرح الـــرئيس ويلـــسون في 20 آذار/مارس 1919 أن تزور لجنة مشتركة من الحلفـــاء ســـوريا "للاطلاع على الرأي العام والتعرف إلى الأرض التي ستحاول العمل عليهما أي قوة منتدبة" وترفع هذه اللجنة تقريراً عن نتائجها إلى مؤتمر السلام. ورأى الـــرئيس الأميركي أن مثل "هذه اللجنة المؤلفة من أعضاء ليس لهم صلة سابقة بسوريا ســـتقنع العالم بأن المؤتمر بذل ما بوسعه لإيجاد أفضل أساس علمي ممكن للوصول إلى تـــسوية". وافـــق المجلـــس الأعلى على اقتراحه في 25 آذار/مارس 1919. لكن فرنسا رفـــضت تعـــيين ممثلين لها في اللجنة، وانسحبت منها بريطانيا أيضاً رغبة في أن تؤمن

(1) يـــوجد نـــص مذكـــرة الأمـــير فيـــصل إلى المجلـــس الأعلـــى في 1 كانون الثاني/يناير 1920 في: Hurewitz, *Diplomacy*, vol. II, pp. 38-39.

لنفسها حرية الحركة في فلسطين. لذلك أعد الوفد الأميركي برئاسة الدكتور هنري كنغ King والسيد تشارلز كرين Crane العدّة للمغادرة بمفردهما.

في نهاية نيسان/أبريل 1919، عاد فيصل إلى الشرق الأدنى. كانت سلطته وصدقيته لا تزالان غير منقوصتين إلى حد ما رغم أن الرأي العام المحلي ازداد صلابة في غيابه بسبب الشائعات المستمرة عن الخطط الصهيونية تجاه فلسطين والاحتلال العسكري الفرنسي لسوريا في نهاية المطاف. بدأ بعض العرب يتأسفون علناً على رحيل النظام العثماني، واتهموا الأمير فيصل ببيع فلسطين لليهود من أجل حفنة من الذهب[1]. لكن عندما طلب فيصل في خطاب عند عودته، ثقة الأمة، وقف إلى جانبه العديد من الوجهاء. وتعهّد رضا الصلح بتأييده، بينما أعلن ابنه رياض أنه ينوي التطوع كجندي في جيش الأمير[2].

لذلك تلقّى العرب نبأ قرار مؤتمر السلام في باريس وضع الولايات العربية العثمانية السابقة تحت انتدابات أوروبية بغضب وخوف كبيرين. وفي 28 نيسان/أبريل وافق المؤتمر على ميثاق عصبة الأمم الذي تنصّ الفقرة الرابعة من المادة 22 الشهيرة منه على ما يلي:

> إن بعض الشعوب التي كانت في ما مضى تابعة للإمبراطورية العثمانية قد بلغت مرحلة من التقدم بحيث يمكن الاعتراف بها بلداناً مستقلة اعترافاً مؤقتاً على أن تتلقى العون والمشورة في المسائل الإدارية من قبل دول منتدبة إلى أن يحين الوقت الذي تستطيع فيه هذه الشعوب أن تستغني عن مثل هذا العون والمشورة ويجب أن تؤخذ رغائب هذه الشعوب بعين الاعتبار عند اختيار الدولة التي ستتولى الانتداب عليها[3].

وضعت نظم الانتداب كإجراء وسط بين الاستقلال القومي والاستعمار الأوروبي، واعتُبرت "تسوية" بين الآمال العربية والمصالح الإمبريالية للقوى الكبرى، على الرغم من أنه لم يكن هناك شيء من ذلك. فلم يكن التعبير اللفظي عن "رغبات"

---

(1) Laurens, *La Question de Palestine*, vol. I, p. 470.

(2) Eliezer Tauber, *The Formation of Modern Syria and Lebanon*, London 1995, p. 40.

(3) النص موجود في Hurewitz, *Diplomacy*, vol. II, pp. 61-2. انظر أيضا A.H. Hourani, *Syria and Lebanon*, Oxford 1945, chaps 9-13.

السكان المحليين أكثر من إشارة فارغة إلى أفكار الرئيس ويلسون عن حق تقرير المصير الذي أصبح المبدأ الجديد اللامع في العلاقات الدولية، وحظي بانتهاكه باحترام أكبر مما حظي به باحترامه.

وصلت لجنة كنغ - كرين إلى يافا في 10 حزيران/يونيو 1919، وأجرت في الشهرين التاليين استقصاءات واسعة في فلسطين وسوريا وزارت 36 بلدة، واجتمعت بممثلي 1500 قرية، وتلقت ما لا يقلّ عن 1863 عريضة[1]. وبعد عشرة أيام فقط من وصولها أرسلت مذكرة إلى الرئيس ويلسون تقول فيها إن فلسطين على وشك الانفجار، وإنه سيكون هناك حاجة إلى جيش قوامه 50 ألف جندي لفرض البرنامج الصهيوني بالقوة ضد إرادة السكان المحليين، بغضّ النظر عن الدولة التي ستصبح منتدبة عليها.

أدى وصول اللجنة والاهتمام الشديد الذي أثارته إلى جعل العرب يتصورون بسذاجة أن بوسعهم الاعتماد على الدعم الأميركي. ولكن في 29 حزيران/يونيو، أي بعد أربعة أيام فقط من وصول كنغ - كرين إلى دمشق، وبعد يوم واحد من توقيع معاهدة فرساي، أبحر الرئيس ويلسون عائداً إلى الولايات المتحدة. فقد رفض مجلس الشيوخ الأميركي معاهدة فرساي وانسحبت أميركا من مؤتمر السلام. وبعد مغادرة ويلسون، أصبح موقف الأمير فيصل شديد الضعف مع أنه ربما لم يدرك هذا الأمر في ذلك الوقت.

آل الصلح والمؤتمر السوري

أوجدت أنشطة لجنة كنغ - كرين موجة من التصلّب في الآراء في دمشق. وحرّضت ناشطي "الفتاة" و"العهد" على الدعوة إلى عَقد المؤتمر السوري العام في تموز/يوليو 1919، بغية صياغة مطالبهم وتقديمها إلى اللجنة. وسرعان ما انضم موفدون من لبنان وفلسطين إلى رفاقهم في سوريا. وممن شارك في الضغط لعقد المؤتمر أيضاً، حزب الاستقلال العربي الذي شكّلته جمعية الفتاة قبل أربعة أشهر في شباط/فبراير،

(1) انظر Khoury, *La France et l'Orient arabe*, p. 243، للاطلاع على تفاصيل عن عضوية اللجنة والأنشطة المحمومة خلال الأسابيع الستة التي أمضتها في المنطقة.

وانـــضم إليه رياض الصلح على الفور. ونظراً لأنه أدرك أهمية محاولة التأثير على لجنة كـــنغ - كرين، فقد بدأ بالكتابة في صحيفة **الإخاء**، للدعوة إلى تطبيق نقاط الرئيس ويلسون "الأربع عشرة" الشهيرة.

حـــضر ثلاثـــة أعـــضاء من عائلة الصلح المؤتمر السوري العام وكانوا نشطاء في أعمالـــه: مثّل رياض صيدا ومثّل والده رضا بيروت (مع جميل بيهم وسليم علي سلام والـــشيخ أحمد رضا وجورج حرفوش وفريد قصّاب)[1]، بينما مثل ابن عمه عفيف، صـــور[2]. اعتمد المؤتمر في جلسته الرسمية الأولى المنعقدة في 2 تموز/يوليو قراراً لا يدع مجالاً للشك في شعور أعضائه. فقد طالبوا "باستقلال سوريا السياسي التام"؛ ورفضوا الاعتـــراف "بـــأي حـــق تطالب به الحكومة الفرنسية بأي جزء من البلاد السورية"؛ ورفـــضوا قـــبول "مـــساعدة فرنسا تحت أي ظرف من الظروف، وفي أي مكان"؛ وعارضوا "مزاعم الصهيونيين في جعل فلسطين وطناً قومياً لليهود"[3].

كرّر الأمير فيصل القرار الذي اعتمده المؤتمر السوري، بعبارات أقل حدّة، عندما اســـتقبل اللجنة في اليوم التالي. وأوضح أن هناك وحدة طبيعية بين سوريا وفلسطين، وأن انفـــصالهما غير مقبول. وأضاف أنه كان مستعداً قبل أشهر لقبول برنامج محدود للهجـــرة اليهودية إلى فلسطين، لكن المطالب الصهيونية المبالغ بها أرعبت العرب الذين يرفـــضون الآن مثل هذا التدفق. أكدت النتائج التي توصلت إليها لجنة كنغ - كرين آراء المؤتمـــر الـــسوري العام وسرّعت اليقظة السياسية للمنطقة. كتبت اللجنة: "إننا نوصي بالإبقاء على وحدة سوريا بما يتفق مع العرائض النـــزيهة للأغلبية العظمى من سكان سوريا". وفي ما يتعلق بلبنان، "فإن مصلحته تتحقّق في أن يكون عضواً تأسيسياً

(1) انظر هلال الصلح، **رجل وقضية**، ص. 42.

(2) عفـــيف هـــو ابـــن كامل الصلح أحد أبناء أحمد باشا الثلاثة. وكان لكامل الصلح خمسة أولاد من زوجتين. أنجب ولدين (منيف ومنيفة) من زوجته الأولى من عائلة العطار. أما زوجته الثانية من عائلة المالكي، فأنجبت ثلاثة أولاد (عفيف وعفيفة ويسر). ولد عفيف في طرابلس، ليبيا، حيث كان والده يعمـــل قاضـــياً عثمانياً. درس في إستانبول وحصل على شهادة الدكتوراه هناك. كان رجلاً وسيماً معروفاً بأناقته. وضابطاً سابقاً في الجيش العثماني. أصبح في ما بعد أمين سر الكتلة الوطنية في دمشق ونائباً في البرلمان السوري.

(3) النص موجود في Hurewitz, *Diplomacy*, vol. II, pp. 62-63.

في الدولة (السورية) لا في استقلاله عنها". أما المطالبة الصهيونية بأرض فلسطين "بناء على احتلالها قبل ألفي سنة مضت فإنه لا يمكن أخذها بجدية". وأوصت اللجنة بأنه "لا يمكن الشروع سوى ببرنامج صهيوني محدود جداً... وبشكل تدريجي فحسب. وسيعني ذلك وجوب تحديد الهجرة اليهودية والعدول نهائياً عن الخطة التي ترمي إلى جعلها دولة يهودية". ورأت اللجنة بدقّة كبيرة أن تنفيذ الخطة الصهيونية المتطرّفة "سيزيد من حدة مشاعر العداء لليهود في فلسطين وفي كل أنحاء العالم التي تنظر إلى فلسطين "كأرض مقدسة". ولاحظت أن "مشاعر العرب في الشرق معادية جداً لفرنسا. وأن هناك سبباً كبيراً للاعتقاد أن محاولة فرض انتداب فرنسي بالقوة ستؤدي إلى قيام حرب بين العرب والفرنسيين"[1].

قدّمت اللجنة تقريرها إلى الوفد الأميركي في باريس في 28 آب/أغسطس، لكن مرّ شهر طويل آخر قبل أن يصل ذلك التقرير إلى البيت الأبيض في 27 أيلول/سبتمبر. بعد ذلك بخمسة أيام، أصيب الرئيس ويلسون بسكتة أصابته بالشلل، فوُضع التقرير على الرف. ولم تُعره الولايات المتحدة أو القوى الأوروبية أي اهتمام بعد ذلك. أصيب فيصل وآل الصلح، الذين كرّسوا أسابيع من الجهد للعمل مع اللجنة، بخيبة أمل مريرة. فقد كانوا يأملون بانتداب أميركي، أو بمساعدة أميركية على الأقل في صدّ الفرنسيين والصهاينة. وشعر أصدقاء العرب البريطانيون القليلون بخيبة أمل أيضاً، لأنهم كانوا يأملون في أن تتمكّن الولايات المتحدة من كبح الأطماع الفرنسية في سوريا بأكملها.

ثار الرأي العام في دمشق على الحلفاء، فقرر فيصل العودة إلى لندن في صيف سنة 1919 في محاولة أخيرة للتأثير على الوضع واستعادة سلطته التي انتابها ضعف خطير. وصل إلى لندن عن طريق مرسيليا في 18 أيلول/سبتمبر، وقابل في اليوم التالي رئيس الوزراء لويد جورج ومعه اللورد كيرزون Lord Curzon (الذي سيخلف اللورد بلفور وزيراً للخارجية عما قريب) والمارشال أللنبي في مقر رئيس الوزراء. لكن، على غرار ما حصل في شهر كانون الأول/ديسمبر السابق، قُوِّضت مهمة فيصل بسبب

(1) يوجد نص توصيات لجنة كنغ كرين المرفوعة في 28 آب/أغسطس 1991 في Hurewitz, *Diplomacy*, vol. II, pp. 66-74.

حدوث تطور سابق لم يكن يعرف عنه شيئاً. كانت بريطانيا قد اتخذت قراراً بسحب قــواتها من سوريا وكيليكيا ابتداءً من 1 تشرين الثاني/نوفمبر 1919، تحت ضغط تزايد الأعــباء في أيــرلندا والهــند ومصر، واضطرارها للتعامل مع أعمال التمرّد في الجيش وســواها مــن مشاكل تسريح القوات ما بعد الحرب. وكان من المنتظر أن تحل محلها القوات الفرنسية في المنطقة الغربية، والقوات العربية في المنطقة الداخلية السورية.

وصــل فيــصل إلى لندن يوم أُعلن عن الاتفاق الفرنسي البريطاني. فأطلعه لويد جورج على ما اتفق عليه مع الفرنسيين بشأن انسحاب القوات العسكرية. وذلك يعني أن بريطانيا تمنح فرنسا حرية الحركة التامة في سوريا وتتخلى بخفّة عن العرب ليواجهوا مــصيراً استعمارياً. كما أن نصف المعونة المالية التي كان يتلقاها الأمير من البريطانيين، ســيدفعها الفرنــسيون من الآن فصاعداً، وأن على الأمير طلب هذه المساعدة المالية مــنهم. لم يكن بوسع فيصل سوى الاحتجاج بأن هذا الترتيب مناقض لمبادئ عصبة الأمــم، لأنه يعني "العودة غير العادلة إلى سياسة الطموحات الاستعمارية". فهو يعرف تمــام المعرفة أن العديد من السياسيين والمسؤولين الفرنسيين يعتبرون إنشاء نظام قومي عربــــي في المنطقة الداخلية السورية خطراً على المصالح الفرنسية ويجب إيقافه بكل الوسائل. لذا أعلن، بتحدٍّ أنه لن يوافق البتة على مثل هذا التقسيم لسوريا.

عــندما وصــل الخبر إلى دمشق بأن القوات البريطانية توشك على الانسحاب، تــصاعد الــضغط الــشعبــي للتعبئة العامة لمحاربة الفرنسيين. وشكل الشيخ كامل القــصّاب والدكــتور عبد الرحمن الشهبندر لجنة للدفاع الوطني بغية تجنيد المتطوعين وجمــع الأغذية والمال والسلاح لعمليات المقاومة غير النظامية[1]. وحرّض ياسين باشا الهاشمي، رئيس الأركان، على تجنيد قوة من 12 ألف رجل. فطالب الفرنسيون باعتقاله علــى الفــور، مع أن البريطانيين تردّدوا في قبول ذلك في البداية. لكن عندما بدأت المجمــوعات المسلّحة التي أرسلتها جمعية الفتاة ولجنة الدفاع بشن هجمات "كرّ وفرّ" علــى القوات الفرنسية في أنحاء متفرقة من سوريا، أمر الجنرال أللنبــي باعتقال ياسين باشا في 22 تشرين الثاني/نوفمبر 1919. ولزيادة الطين بلّة، عُلّقت المعونات المالية التي

---

(1) للاطــلاع علــى رواية مفصلة عن لجنة الدفاع الوطني، Tauber, *The Formation of Modern Syria and Lebanon*, pp. 68-78.

تقدّمها بريطانيا إلى حكومة فيصل العربية أيضاً. فشكّل ذلك ضربة قوية لمكانة الأمير وسلطته.

في نفس الوقت، كان الرأي العام القومي العربي في سوريا يتابع باهتمام الثورة القومية التركية في الأناضول بقيادة مصطفى كمال، الذي قيل إنه جمع جيشاً هائلاً قوامه 200 ألف مقاتل. وبحلول منتصف صيف 1919، كان مصطفى كمال قد أنشأ هيئة قومية مهمتها حماية سيادة الأناضول وتراقيا الشرقية وسلامة أراضيها. وتعالت أصوات في سوريا للانضمام إلى الكماليين بدلاً من الخضوع للإملاءات الأوروبية. وسرت إشاعات بأن مصطفى كمال اتصل بحكومة دمشق، وبأن الأمير زيد أرسل له دعماً مالياً لمهاجمة الفرنسيين في كيليكيا. في ذلك الجو المتأزم، كان العديد من السوريين يفضّلون إقامة تحالف مع الأتراك بدلاً من القبول بما اعتبروه تسوية غير عادلة يفرضها عليهم المسيحيون الأجانب بوسائل مخادعة.

وجد الأمير فيصل نفسه مجرداً تماماً من الأصدقاء الأقوياء. فقد تخلّى عنه البريطانيون، وسحب الأميركيون مساعدتهم. ولم يعد أمامه من خيار سوى التوصل إلى تسوية مع الفرنسيين أو قيادة ثورة مسلّحة ضدّهم. لكن الخيار الأخير متهور طائش في ضوء فراغ خزينته وصغر حجم جيشه - 7000 رجل وبضعة آلاف من الجياد وعدة مئات من مركبات النقل موزعة بين دمشق وبعلبك ودرعا وحلب[1]. فأدرك أنه لا يستطيع تحمّل مخاطر صراع مسلّح مع فرنسا، وأنّ عليه التوصّل إلى اتفاق معها.

سقوط اتفاقية فيصل - كليمنصو

غادر فيصل لندن وهو يشعر بانزعاج شديد ووصل إلى باريس في 19 تشرين الأول/أكتوبر 1919 حيث اجتمع بالزعيم الفرنسي جورج كليمنصو بعد ذلك بيومين. تبادل الرجلان عبارات المجاملة. كان رئيس الوزراء الفرنسي يعارض شخصياً توسع الاستعمار الفرنسي في المشرق. ولم يكن يحب لعب سياسة الأقليات القائمة على استخدام العملاء الدينيين والإقليميين في الخارج، ولديه قناعة بأن على فرنسا أن

(1) Khoury, *La France et l'Orient arabe*, p. 282.

ترسم سياسة عربية قابلة للبقاء بدلاً من الاستراتيجية التي اتبعتها تجاه الإمبراطورية العثمانية البائدة. وكان يميل إلى التفكير بأن على فرنسا تأييد الحركة القومية العربية، بعد أن ساعدهم في التحرّر من العثمانيين. وقد أكّد المستشرق الفرنسي البارز لويس ماسينيون Louis Massignon له أن هذه هي الطريقة الفضلى لحماية المصالح الفرنسية في المشرق وشمال أفريقيا، وتطابق رأيه مع موقف كليمنصو[1].

كان على كليمنصو أن يخطو بحذر، لأن غالبيته البرلمانية تضمّ حزباً استعمارياً صغيراً لكن ذا صوت مرتفع[2]. ولإسكات مثل هؤلاء النقاد اليمينيين الصخّابين، قرر في 9 تشرين الأول/أكتوبر 1919 إرسال الجنرال غورو، البطل الفرنسي العسكري الاستعماري، للحلول محل فرنسوا جورج بيكو مفوضاً سامياً في بيروت. منح غورو لقبي القائد العام للجيش الفرنسي في الشرق والمندوب السامي في سوريا ولبنان وكيليكيا. وفي 21 تشرين الثاني/نوفمبر، وصل غورو إلى لبنان فلقي ترحيباً كبيراً من المسيحيين. وكانت الفرس التي امتطاها في موكب النصر في باريس بعد الحرب العالمية الأولى قد شحنت بحراً إلى لبنان خصيصاً لهذه المناسبة. فامتطاها وسط الجماهير المحتشدة إلى ساحة المدافع [ساحة البرج أو الشهداء لاحقاً]. غير أن الجو العام كان مختلفاً جداً في دمشق. فقد أطلقت أنباء وصوله مظاهرات عنيفة في الشوارع. وواجه الأمير زيد والضابط الشاب نوري السعيد صعوبة هائلة في الحفاظ على النظام في المدينة الغاضبة.

في غضون ذلك في باريس، انهمك فيصل بين منتصف تشرين الأول/أكتوبر ونهاية كانون الأول/ديسمبر بمفاوضات طويلة مع المسؤولين الفرنسيين، لا سيما فيليب بيرثلو Philippe Berthelot، مدير الشؤون السياسية والتجارية في وزارة الخارجية، الذي كان يقدّم له المشورة والمساعدة لويس ماسينيون أيضاً. انتهت هذه الاجتماعات بالتوصل في 6 كانون الثاني/يناير 1920 إلى اتفاقية مؤقتة، اتفق الجانبان على إبقائها طي

---

(1) للاطلاع على آراء ماسينيون بشأن القومية العربية وسياسات بريطانيا وفرنسا في الشرق الأوسط في 1917 - 40، انظر 'L'Arabie et le problème arabe', in Louis Massignon, *Ecrits Mémorables*, Paris 2009, vol. I, pp. 541-61.

(2) المصدر نفسه، ص 339 نقلاً عن A.M. Andrew and S. Kanya-Forstner, 'The French Colonial Party and French Colonial War Aims, 1914-1918', in *the Historical Journal*, XVII, I (1974), p. 106.

الكتمان، لمنح الأمير فيصل فرصة تسويقها في دمشق. وكان من المقرّر أن تستبدل بها في الوقت الملائم "اتفاقية نهائية ومفصلة" توضع عليها اللمسات الأخيرة وتوقّع عند عودة الأمير إلى باريس التي ينتظر حدوثها خلال أسابيع. وبموجب الاتفاقية المؤقتة[1]، فإن الحكومة الفرنسية "تؤكد اعترافها بحق الشعوب الناطقة بالعربية من كل الطوائف التي تعيش في الأراضي السورية بالاتحاد معاً لحكم أنفسها كأمة مستقلة". وألزم الأمير بدوره بالاعتراف بأن للسكان السوريين "مصلحة عظيمة" في طلب مساعدة المستشارين والمعلّمين والفنيين الفرنسيين "لتحقيق وحدهم وتنظيم أداء أمتهم". وسيشرف مستشار مالي فرنسي على إعداد الميزانية السورية ومستشار في الأشغال العامة على إدارة سكك الحديد. وسيكون للحكومة الفرنسية "الأولوية الكاملة" في اختيار الشركات العاملة في سوريا، وجمع "القروض" الضرورية لرفاه البلاد. وستقدّم المساعدة في تنظيم قوة الجندرمة والشرطة والجيش. وسيمثّل المسؤولون الدبلوماسيون والقناصل الفرنسيون سوريا في الخارج. وستكون اللغة العربية اللغة الرسمية، لكن اللغة الفرنسية ستدرّس بطريقة "إلزامية ومميزة". وألزم الأمير أيضاً بالاعتراف باستقلال لبنان وسلامة أراضيه تحت الانتداب الفرنسي. وهكذا قدّم فيصل تنازلات رئيسية للتوصل إلى الاتفاق الوحيد المتاح في الظروف المفروضة عليه.

عاد الأمير إلى دمشق في 16 كانون الثاني/يناير، فاتهمه القوميون بالخيانة حين عرفوا بشروط العرض. وأبدى الرأي العام عداء شديداً لأيّ تسوية مع فرنسا حتى إن فيصل لم يجرؤ على الاعتراف بأنه وقّع على اتفاقية مؤقتة مع كليمنصو. ولم تعد عودته إلى باريس مسألة واردة الآن. لم يكن هناك أي استعداد البتة في دمشق لقبول تقسيم سوريا، أو استقلال لبنان، أو "وطن قومي" لليهود في فلسطين أو فرض أي شكل من أشكال الرعاية الأجنبية. استخدم أعضاء "الفتاة" و"العهد" الذين يسيطرون على إدارة الأمير كل ما أوتوا من قوة لمنع مثل هذه النتيجة. وقد رأى الأمير أنهم مخطئون، لكن لم يكن لديه أي خيار سوى الانحناء أمام رغباتهم. وتلقّى فيصل ضربة أخرى في ذلك الوقت عندما علم أن كليمنصو الليّن العريكة سيتقاعد من العمل السياسي وسينسحب

(1) للاطلاع عن صورة طبق الأصل عن الاتفاق، انظر Khoury, *La France et l'Orient arabe*, pp. 312-318.

مـــن الحـــياة العامـــة للعيش في مقاطعته البعيدة قرب شاطئ البحر. كان هذا الزعيم الفرنـــسي القـــديم الـــذي اقترب من سن الثمانين قد رشّح نفسه لرئاسة الجمهورية الفرنسية، لكنه هزم أمام بول دوشانيل Paul Deschanel. فاستقال من منصبه كرئيس للوزراء وحّل محله ألكسندر ميلران Alexander Millerand، وهو سياسي قريب من الحزب الاستعماري والمتحدث باسمه الشديد النشاط، روبير دو كيه Robert de Caix، الـــذي كـــان يشغل في ذلك الوقت منصب الأمين العام للمفوضية الفرنسية العليا في بيروت[1].

كانـــت سياسات دو كيه الاستعمارية مناقضة تماماً لسياسات بيرثلو وماسينيون. وهـــي تقـــوم على إضعاف الحكومة الوطنية في دمشق، بدلاً من مساندها، عن طريق تقـــسيم سوريا إلى عدة مناطق تتمتع بالحكم الذاتي؛ على أن يعتمد نفوذ فرنسا على الأقلـــيات الـــتابعة - الموارنة في جبل لبنان، والعلويين والدروز. كما كانت شديدة العداء للأغلبية السنية ونخبتها التقليدية المحنّكة. ووضع دو كيه نظرية خيالية مفادها أن ســـوريا مثل نافذة ذات زجاج مُلوّن، تزوّدها فرنسا بالأطر المنحنية التي تجمع أجزاءها معـــاً. وفي شـــطحة أخـــرى من شطحات الاستعلاء المتفضّل، شبّه سوريا "بالعجينة الطرية" التي تشكّلها فرنسَا. ورأى أن فرنسا لن تنشئ أمة واحدة في سوريا بل مجموعة من الكانتونات التابعة التي لا يربط بينها سوى ممثل فرنسي. وفي الوقت نفسه، لإعطاء لبـــنان عمقاً أكبر وإضعاف التماسك الداخلي للدولة العربية في دمشق، لا بد من ضم وادي الـــبقاع إلى لبنان[2]. لقد كان روبير دو كيه عازماً على إفراغ اتفاق 6 كانون الـــثاني/يناير 1920 المؤقت الذي توصّل إليه فيصل مع كليمنصو من مضمونه. وهكذا أصبح فيصل معزولاً وضعيفاً في مواجهة التحدي الفرنسي في باريس وتحدي القوميين في الوطن.

---

(1) كان روبير دو كيه (1869-1970) داعية سيّئ السمعة و"خبيراً" في شؤون شمال أفريقيا، أصبح منذ 1910 ومـــا يليها القوة المحركة للحزب الاستعماري. للاطلاع على رواية مفصلة عن حياته ولائحة بأعماله السياسية انظر: Gérard D. Khoury, *Une Tutelle Coloniale: Le Mandate Français en Syrie et au Liban, écrits politiques de Robert de Caix*, Paris, 2006.

(2) Khoury, *La France et l'Orient Arabe*, pp. 301-302.

المؤتمر السوري العام ومؤتمر سان ريمو San Remo

في هــذه الظروف، وفي جوّ من التحدي والحماسة، عقد القوميون العرب المؤتمر العربـــي العام الثاني برئاسة هاشم الأتاسي، وقد حضره ثلاثة من آل الصلح: رضا وريــاض وعفيف. في الجلسة العامة في دمشق، اتخذ المؤتمر قراراً تاريخياً أذيع في اليوم التــالي، أي 8 آذار/مــارس 1920. وفيه أعلن استقلال سوريا "بحدودها الطبيعية" - تــشمل المنطقة الداخلية والساحلية وفلسطين والأراضي الواقعة شرقي الأردن ولبنان (على الرغم من السماح له لاحقاً بإدارة ذاتية ضمن حدود المتصرفية العثمانية).

ورفــض المؤتمر مشروع الوطن القومي لليهود في فلسطين ونادى بالأمير فيصل ملكــاً علــى ســوريا[1]. كان فيصل يعرف أن مثل هذا القرار سيدفع الفرنسيين إلى اســتخدام القوة ضده، فحاول جاهداً إقناع القوميين بعدم عقد المؤتمر أو الامتناع عن إعــلان الاســتقلال إذا مــا عقدوه. لكنه فشل في ثنيهم عن عزمهم، إذ أصبح التيار المعــادي لفرنــسا جارفاً. وهكذا أظهر اختيار فيصل ملكاً مقدار ضعفه بدلاً من أن يكــرّس ســلطته[2]. والأســوأ من ذلك، من وجهة نظر فيصل، أن المؤتمر قرّر إبقاء جلساته مفتوحة لفترة غير محددة وطلب أن يكون فيصل وحكومته مسؤولين أمامه عن أعمالها.

جــاء رد الفعل الفرنسي فورياً وقوياً. أُرسلت تعزيزات عسكرية فرنسية بسرعة إلى المــشرق. وأمــر رئيس الوزراء، ألكسندر ميلران، الجنرال غورو إبلاغ فيصل أن الحكــومة الفرنسية لن تعترف بحق المؤتمر السوري في دمشق في تقرير مصير الأراضي العــربية وأنه هو والحكومة البريطانية مضطران لإعلان قرارات المؤتمر "باطلة ولاغية". وبعــد ذلــك قــرر المجلــس الأعلــى للحلفاء - يتكوّن من لويد جورج وميلران وزملائهمــا - عقــد اجــتماعٍ في ســان ريمــو على الريفييرا الإيطالية في 24-25 نيــسان/أبريل 1920، ودعوا الأمير فيصل للمجيء إلى أوروبا للتباحث معهم. ولكن رَفْض المجلس قبول إعلان الاستقلال الصادر في 8 آذار/مارس، جعل من المستحيل على

(1) André Raymond, 'La Syrie du Royaume arabe à l'indépendance (1914-1946)', in André Raymond (ed.), *La Syrie d'aujourd'hui*, Paris 1980, p. 63.

(2) Tauber, *The Formation of Modern Syria and Lebanon*, p. 45.

فيصل الحصول على تفويض من المؤتمر السوري بالحضور. مع ذلك، كان لا يزال متمسّكاً ببصيص أمل بأن الاتفاقية المؤقتة التي توصل إليها مع كليمنصو ما زالت صالحة، فتوسّل إلى باريس إصدار إعلان يعترف باستقلال سوريا. لكن الحكومة الفرنسية الجديدة لم تكن في مزاج يسمح بالاستجابة له. لذا قرّر المجلس الأعلى للحلفاء في سان ريمو مصير الأراضي العربية، في غياب أي ممثل عربي. وفي تجاهل تام لرغائب السكان المحليين الواضحة، وضعت سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي وفلسطين والعراق تحت الانتداب البريطاني.

كان لهذه القرارات وقع النعيّ في دمشق. فهي تنتهك التعهدات التي قدّمها الحلفاء في سنة 1918 بالإضافة إلى وعود سابقة قُدِّمت للعرب، وأثارت مخاوف رهيبة من أن تواجه سوريا مصيراً شبيهاً بمصير المغرب وتونس. بل إن بعض القوميين المتهوّرين طالبوا الأمير فيصل بإعلان الحرب على فرنسا! وفي محاولة لتهدئة الرأي العام، قام فيصل باستبدال رئيس الوزراء علي رضا باشا الركابي، وعيّن محلّه هاشم الأتاسي الأكثر شعبية وميلاً إلى القتال. وأدخل خصوم فرنسا المتشدّدين إلى الحكومة، لا سيما يوسف العظمة الشجاع والوسيم وزيراً للحربية وعبد الرحمن الشهبندر وزيراً للخارجية. ومع ذلك اندلع تمرّد عفوي على الرغم من هذه الإجراءات. فهاجمت مجموعات غير نظامية القوات الفرنسية في شمال المنطقة الساحلية وأوقعوا في صفوفها بعض القتلى، بدعم من ضباط فيصل أنفسهم في بعض الأحيان. وهوجمَت القرى المسيحية التي تعتبر معاقل عسكرية فرنسية في جبل لبنان ونُهبت. وهدّد مقاتلون شيعة من جبل عامل المستعمرات اليهودية في الجليل. وكان التطور الأخطر على الإطلاق من وجهة نظر الجنرال غورو - وهو الأمر الذي لا يمكن أن يسمح به - أن الأمير فيصل (أو بالأحرى الوطنيين الملتزمين الذين لا يزالون يدعمونه) رفض اعتباراً من شباط/فبراير 1920 أن يسمح للفرنسيين باستخدام سكة حديد رياق - حلب. وذلك امر ضروري لإرسال التعزيزات والمؤن إلى القوات الفرنسية التي تحارب القوميين الأتراك بقيادة مصطفى كمال في كيليكيا، حيث حوصرت المعاقل الفرنسية وهُزمت. لذا اضطر غورو إلى إرسال المؤن والتعزيزات عن طريق البحر، وذلك مكلف وبطيء وصعب.

في هذا الوقت، حدث انقلاب حاسم للرأي العام السوري على فيصل، إذ اعتُبر على نطاق واسع أنه أضعف من أن يتصدّى للأزمة المتصاعدة مع فرنسا. وفي محاولة لحشد الرأي العام حول الأمير - الذي أصبح الآن ملكاً على سوريا بالاسم فحسب - اقترح رضا الصلح، وزير الداخلية، أن يذهب فيصل في جولة على المحافظات تبدأ في حلب. أُرسل رياض وصديقه سعد الله الجابري شمالاً ليطلبا من شقيق سعد الله الأكبر، نافع باشا الجابري، الوجيه الحلبي البارز والنائب السابق في البرلمان العثماني، استقبال فيصل في دارته في أثناء قيامه بزيارة عاصمة سوريا الثانية. لكن نافع باشا رفض ذلك رفضاً قاطعاً، متمرّداً على تقاليد الضيافة العربية. وتحوّل الأمر إلى خلاف سياسي كبير. فصاح بأن على "الملك" أن ينسى لقبه ويتصرف كقائد ثورة حقيقي - حتى يتأكد من حدود "مملكته" على الأقل. وأن هذا البدوي الذي كان صلباً في ما مضى تغيّر وليّنت رفاهية السلطة عريكته. وأضاف أن الملك والثوري لا يجتمعان مثلما يتعذّر أن يكون للفيل جناحان.

في أثناء هذه المناقشة الحامية غير المجدية، كانت فائزة، ابنة نافع باشا التي يبلغ عمرها ست سنوات، جالسة في حضن أبيها، فحاولت اجتذاب رياض لكي يلعب معها. لكنه شدّها من شعرها لمغايظتها، فخرجت من الغرفة باكية. كان ذلك اللقاء الأول والوحيد قبل أن تصبح عروسه بعد ذلك بنحو عشر سنوات.

حزن رضا الصلح لأن نافع باشا رفض بشدّة استقبال فيصل، لكن زيارة حلب ساعدت في تزايد حدة خيبة أمل ابنه رياض من الأمير. وفي 22 حزيران/يونيو 1920 التقت مجموعة من الثائرين الشبان، من بينهم رياض، في بيت البكري في دمشق القديمة، حيث كان يجري التخطيط في أوقات سابقة للانقلاب على الأتراك. وهناك، قرروا الاستعداد للقتال ضد الفرنسيين. وفي أعقاب الاجتماع، ذهب رياض لمقابلة والده في وزارة الداخلية.

قال الابن بإلحاح: عليك الاستقالة.

أجاب الوالد: وأتركه بمفرده؟

رد الابن: نعم، لقد تسرّعتم جداً في منحه العرش.

بعد مزيد من النقاش، أدرك رضا، في ضوء الخطط العنفية للثوار، بمن فيهم ابنه، أن موقفه كوزير للداخلية في حكومة فيصل أصبح ضعيفاً. نقل رياض إلى رئيس

الـــوزراء، المماثل له في العقلية، هاشم الأتاسي، رسالة استقالة والده فقبلها على الفور مـــن دون أن يهـــتم باستشارة فيصل[1]. فقد انتقلت السلطة في دمشق إلى القوميين الأكثر تشدداً، بسبب السياسة الخرقاء التي اتبعها الحلفاء في سان ريمو. واشتدّ تصلّب مـــزاج السلطات الفرنسية في باريس وبيروت، وأصبحت الآن عازمة على تحطيم نظام فيصل العربـــي بالقوة العسكرية، وهكذا أصبح الصدام لا مفرّ منه.

مبادرة رياض الصلح الجريئة

بالنـــسبة إلى قومـــيّ عربيّ مثل رياض، كان فصل لبنان عن سوريا، كما يعتزم الفرنـــسيون، ظلماً تاريخياً للمجتمعين اللذين طالما اعتقد أن كلاً منهما ينتمي للآخر. وقـــد اعتبر استعداد فيصل للاعتراف باستقلال لبنان - ولو تحت الضغط الفرنسي - محيّـــراً جـــداً وقصير النظر. فلبنان منفذ سوريا إلى البحر والعالم الأوسع، في حين أن سوريا بوابة لبنان إلى المناطق العربـــية الداخلية. وتشكّل السلاسل الجبلية التي تشرف علـــى ســـاحل المتوسط والمدن والسهول الزراعية والصحاري الداخلية منطقة واحدة يسكنها شعب واحد يتكلم لغة واحدة، وطالما اتجر بعضه مع بعض وتزاوج بعضه من بعـــض عبر القرون. كان رياض يدرك جيداً أنّ مسيحيي لبنان - وبخاصة الموارنة من بينهم - يتطلّعون إلى فرنسا لحمايتهم، بسبب ارتباطهم بأوروبا بعلاقة تمتد على مدى أجـــيال، وتشرّبهم الثقافة واللغة الفرنسية وخوفهم من محيطهم الإسلامي. كان ذلك واضـــحاً بالنسبة إلى كل من نشأ في بيروت بين أصدقاء مسيحيين، ودرس في مدارس تبشيرية فرنسية مثل رياض الصلح.

في 19 شباط/فبراير 1919، قدم أحد الأعضاء الموارنة في مجلس إدارة جبل لبنان، داود عمّون، التماساً إلى مؤتمر السلام في باريس يدعو فيه إلى استقلال لبنان وأن يحكم نفسه بنفسه تحت الحماية الفرنسية. لم يكن لبنان الذي طالب به يتكوّن من جبل لبنان التقليدي فحسب، وإنما بلداً موسعاً في "إطار حدوده التاريخية والجغرافية" يضمّ بيروت كعاصمة له وطرابلس والشمال وصيدا والجنوب ووادي البقاع في الشرق. كان عمّون واحـــداً مـــن كثير من مثل هؤلاء الملتمسين، وأكثرهم نفوذاً البطريرك الماروني إلياس

(1) Alia el-Solh, *Le Jour* (Beirut), 26 September 1965.

بطرس الحويّك. وهو موال متحمّس لفرنسا، دعا لأسباب تاريخية وسياسية ولغوية إلى "استقلال لبنان الكامل عن أي دولة عربية قد تقام في سوريا. ورأى في خطابه المتطاول أن لبنان هو المركز الرئيسي للتعليم والثقافة الغربية في المنطقة، وأنه مختلف كثيراً عن سوريا "التي يشكّل العنصر البدوي جزءاً مهماً من سكانها"[1]. وهو رأي تبسيطي أثار ضحك الدمشقيين والحلبيين المتحضّرين دون شك!

أثارت مثل هذه الآراء المتطرفة سؤالاً خطيراً: كيف يمكن إيجاد قاسم مشترك بين القوميين اللبنانيين المعادين للعرب، الذين طالما رأوا خلاصهم في ارتباطهم بفرنسا، والقوميين العرب في سوريا، بمن فيهم مسلمي لبنان الذين يتخذون موقفاً حازماً مناهضاً لفرنسا؟ كانت تلك أحجية شغلت جانباً كبيراً من حياة رياض الصلح السياسية، ونجح أكثر من أي سياسي آخر في جيله في إيجاد حل لها في نهاية المطاف. كان يُؤمن بوجوب احترام حساسيات اللبنانيين المسيحيين - لأنهم جزء من المشهد السياسي - لكنه كان يؤمن أيضاً بأنه من غير المسموح أن يستخدم الفرنسيون لبنان قاعدة تشكّل تهديداً استعمارياً دائماً لحكومة عربية في الداخل.

قام رياض بأول محاولة لحل هذه المشكلة المعقدة في أوائل تموز/يوليو 1920، أي قبل نحو شهر من عيد ميلاده السادس والعشرين. وفي دمشق، كان فيصل يتعرض لضغوط كبيرة من الفرنسيين والقوميين. فقد أخذ غورو يعزّز قواته لتمكينه من الإطاحة بحكومة فيصل. فثمة لواء سنغالي في الطريق إليه بعد أن سُحب من الراين، إلى جانب ثلاث كتائب سنغالية من تراقيا، وخمس سرايا من السباهية المغاربة من إستانبول، ووحدة مدفعية من مدغشقر. كانت أوامر غورو تقضي بالإعداد لعمليات عسكرية ضد دمشق، بسبب "الموقف الوقح والخطير الذي اتخذته حكومة فيصل الشريفية".

في ذلك الوقت توصّل رياض الصلح إلى خطة طموحة. إذا استطاع استمالة مجلس إدارة جبل لبنان إلى جانب فيصل، فسيُظهر ذلك أنّ أعضاءه، بمن فيهم الموارنة، يفضّلون الارتباط بسوريا على الانفصال تحت حكم الفرنسيين. وعندئذ يُتضح بأن دور فرنسا "كحامية" للمسيحيين، وهو العذر الذي تثيره دائماً لتبرير وجودها

(1) Khoury, *La France et l'Orient Arabe*, p. 267.

الاستعماري، غير ضروري البتة. كانت تلك أول مبادرة سياسية مهمة يطرحها رياض وتشكّل تحدياً مباشراً للقوة الفرنسية الحاكمة.

أجرى رياض أول اتصال سري بعدد من أعضاء مجلس الإدارة واستطاع، بمساعدة اثنين من أقرب أصدقائه – عارف النعماني، أحد أغنى وجهاء المسلمين السنة وأوسعهم اطلاعاً على الثقافة الفرنسية، والوجيه الدرزي الأمير أمين أرسلان (وكلاهما عضو في المؤتمر السوري العام) – إقناع سبعة منهم "بالانشقاق" عن الفرنسيين والانتقال إلى جانب فيصل، من دون إثارة انتباه الأعضاء المتشددين الموالين لفرنسا أمثال داود عمّون. لا شك أنه استطاع كسب تأييدهم بسبب خوفهم من نتائج السياسة الفرنسية على المدى الطويل، ولأنه والنعماني وأرسلان، محاورون دمثون وبارعون بالفرنسية والعربية. كان هؤلاء المسيحيون اللبنانيون مستعدين للانتقال إلى جانب فيصل ما دام الأمير مستعداً لمنح "لبنان الكبير" حكماً ذاتياً داخل مملكته العربية. وخلافاً لبعض زملائهم في مجلس الإدارة، فإنهم لا يحبّذون الانفصال التامّ عن سوريا. وهكذا صاغوا مشروع قرار يُجمل آراءهم التي تعادل الاستعداد للخروج من دائرة النفوذ الفرنسي لصالح إقامة علاقات أوثق مع سوريا[1].

كانت خطة رياض تقضي بذهاب الأعضاء السبعة المنشقّين – بمن فيهم نائب رئيس مجلس الإدارة، سعد الله الحويّك، شقيق البطريرك الماروني الشديد الولاء لفرنسا – إلى دمشق لمبايعة الملك فيصل. وبعد ذلك ينتقلون بحراً عبر حيفا إلى أوروبا (اعتقدوا أن الفرنسيين لن يسمحوا لهم بالإبحار من بيروت) لإعلان رفضهم الانتداب الفرنسي في مؤتمر السلام في باريس، والمطالبة باستقلال لبنان وتكامله الاقتصادي مع سوريا. بل إنهم كانوا مستعدين، إذا اقتضت الضرورة، لحمل قضيّتهم إلى الولايات المتحدة الأميركية. وأبدى عارف النعماني المعروف بوطنيته وسخائه العظيم، استعداده لتمويل تكاليف سفرهم بأكملها، وهو عرض استخدمه الفرنسيون ضده في محاكمته في ما بعد. ادّعى غورو باستهزاء في تقرير أرسله إلى باريس في 18 تشرين الأول/أكتوبر

(1) Tauber, *The Formation of Modern Syria and Lebanon*, pp. 60-63. كان الموقعون على القرار: سعد الله الحويك، وخليل عقّي، وسليمان كنعان، وإلياس شويري، ومحمود جنبلاط، وفؤاد عبد الملك، ومحمد محسن، انظر: Alia el-Solh, *Le Jour* (Beirut) 3 October 1965.

1921 أن أعـضاء مجلس الإدارة "اشتُروا" بدفعة أولى قدرها عشرة آلاف جنيه مصري تـوزع في ما بينهم، ووُعدوا بمبلغ ثلاثين ألف جنيه آخر عند حضورهم إلى دمشق. لكـن المـؤرخ زيـن زين أشار في ما بعد إلى أن الأمير عادل أرسلان، ابن عم أمين أرسـلان، نفى في مقابلة أجريت معه هذه الفرية الفرنسية نفياً قاطعاً[1]. تقدّم هذه الحادثة بأكملـها مـثالاً باكراً على جرأة رياض الصلح السياسية، وتُظهر الجهود التي بذلها طوال حياته لاسترضاء المسيحيّين اللبنانين المترددين وحشدهم لدعم القضية القومية العربية.

سـرعان مـا علم الفرنسيون بالأمر عن طريق أحد مخبريهم. وفي 10 تموز/يوليو أوقفت القوات السنغالية في قرية صوفر الجبلية القطار الذي كان يقلّ الوفد إلى دمشق. وكـان فيصل قد أرسل رئيس ديوانه، إحسان الجابري، لاستقبال الوفد ومرافقته إلى دمـشق. وقد وصل في الوقت الملائم لأخذ الوثائق التي تدينهم، بما في ذلك نسخ من القـرار الذي يطالب بالحكم الذاتي للبنان ضمن سوريا. اعتُقل أعضاء الوفد، واعترفوا تحـت الـتعذيب. كـان ريـاض برفقتهم في القطار، لكنه تمكّن من تجنّب الاعتقال بالاختـباء في عربة الدرجة الثالثة، حيث أصاب في توقّعه بأن الفرنسيين المتعجرفين لن يُفكّروا البتة في تفتيشها.

في 12 تمـوز/يولـيو، أصدر غورو القرار رقم 273 بحل مجلس الإدارة. وفي 19 تموز/يوليو، اقتيد أعضاء الوفد السبعة ومساعدوهم إلى محكمة عسكرية فرنسية، حيث اتُهمـوا بالتآمر على حكومة الاحتلال، وتلقّي الرشاوى، وخيانة لبنان. وحُكِمَ عليهم بالنفـي بين ست وعشر سنوات، ودفع غرامات مالية كبيرة، وتجريدهم من حقوقهم المدنية. ثم نقلوا إلى جزيرة أرواد على الساحل السوري، ومنها إلى جزيرة كورسيكا. لكن في أعقـاب ضغوط مارسها السياسيون والرأي العام الفرنسي، سمح لعدد منهم بالعودة إلى لبـنان إذا عبّـروا عن الندم على ما قاموا به. أما الذين رفضوا ذلك، مثل عارف النعماني، فظلوا في المنفى حتى نهاية سنة 1922[2]. كُشف دور رياض الصلح في هذه القضية في أثناء المحاكمـة[3]. لكـنه كان قد فرّ إلى دمشق، حيث تحتشد النخبة السياسية العربية. لكن سرعان ما كدّر الإنذار الذي وجّهه الفرنسيون إلى فيصل إقامته هناك.

(1) Khoury, *La France et l'Orient Arabe*, p. 375.

(2) Tauber, *The Formation of Modern Syria and Lebanon*, pp. 62-3.

(3) Centre des archives diplomatiques de Nantes (CADN), Fonds Beyrouth, carton 1583.

معركة فيصل الأخيرة

أرجـــأ الجنرال غورو التحرك ضد دمشق لأن جزءاً من قواته العسكرية مقيّد في كيليكـــيا، كما أنه لا يريد خوض حرب على جبهتين. لكن عندما تمكّن روبير دوكيه مـــن التوصـــل إلى هدنة مع مصطفى كمال، صار غورو العدواني متلهّفاً لفرض نظام الانـــتداب على سوريا بالقوة. في 9 تموز/يوليو، أعلن فيصل الذي استبدّ به اليأس أنه ينوي السفر ثانية إلى أوروبا لعرض قضيته أمام مؤتمر السلام. لكن عندما ذهب نوري الـــسعيد إلى بيروت للإعداد لرحلته، أخبره غورو بشروط الإنذار الذي أبلغ رسمياً إلى الحكـــومة السورية في 14 تموز/يوليو. تضمن الإنذار خمسة شروط تجب الموافقة عليها خلال أربعة أيام: الموافقة على الانتداب الفرنسي؛ وإلغاء التجنيد وخفض عديد الجيش السوري إلى المستوى الذي كان عليه في سنة 1919؛ وحق القوات العسكرية الفرنسية المطلـــق باســـتخدام سكة حديد رياق – حلب واحتلال مدينة حلب؛ وإدخال عملة "ورقـــية" سورية مرتبطة بالفرنك الفرنسي، يصدرها بنك سوريا ولبنان الذي يسيطر عليه الفرنسيون؛ ومعاقبة كل المذنبين بارتكاب أعمال عدائية ضد فرنسا.

عـــندما وصـــلت هذه الشروط إلى دمشق، قوبلت بغضب شعبـــي، وانطلقت المظاهرات في الشوارع. لكن ميزان القوى لم يكن لصالح سوريا. فقد نشر غورو 80 ألـــف جـــندي في سهل البقاع وحده، تدعمها الدبابات والمدفعية والطائرات. وبعد لحظـــات حرجة من الدراسة، نصح أعضاءُ الحكومة السورية الأمير فيصل بقبول إنذار غـــورو، باستثناء يوسف العظمة الشجاع، الذي واصل الدعوة إلى المقاومة المسلحة. وطلـــب فيـــصل مشورة اللورد أللنبـــي فنصحه بقبول الإنذار أيضاً. أجري مزيد من الاتصالات مع غورو، فوافق على تأجيل اتخاذ أي خطوة حتى 21 تموز/يوليو، لإفساح المجال أمام الحكومة العربية لنقل موافقتها الرسمية على الإنذار وبدء تنفيذ مطالبه.

في 20 تمـــوز/يوليو، قبل فيصل شروط غورو وشرع في تنفيذها. سرّحت بعض وحدات الجيش، وصُرف المؤتمر السوري العام. وعندما واجه كامل القصاب ومجموعة مـــن أعـــضاء لجنة الدفاع الوطني الأمير فيصل بغضب، أمر بحبسهم في سجن القلعة. فاندلـــع الشغب في دمشق، ودعت الجماهير الغاضبة إلى قتل الخائن فيصل. اقتحمت مجمـــوعة مـــن الغوغاء القلعة، ونهبت مخازن السلاح القديمة وأطلقت سراح القصّاب.

استطاع الأمير الشاب زيد، يعاونه ياسين الهاشمي وبعض القوات القليلة الموالية، إخماد التمرد، ولكن أعداد القتلى والجرحى بلغت المئات.

على الرغم من استسلام فيصل للمطالب الفرنسية، فإن برقية قبول الإنذار لم تصل إلى غورو في الوقت الملائم. وقد ادعى الفرنسيون أن التأخير نتج عن العقبات التي وضعها القوميون في دمشق، أو لأن الثوار قطعوا خطوط التلغراف بين دمشق والبقاع. على أي حال، استأنفت القوات الفرنسية تقدمها. وأجري مزيد من مفاوضات الدقائق الأخيرة بين ساطع الحصري والضباط الفرنسيين في بلدة عاليه اللبنانية، أسفرت عن إرجاء إضافي مقابل مطالب فرنسية جديدة، أهمها إقامة بعثة فرنسية في دمشق للإشراف على تنفيذ الإنذار وتمهيد الطريق لإقامة نظام الانتداب. عاد الحصري إلى دمشق مقتنعاً تماماً بأن الفرنسيين مصممون على احتلال البلاد بصرف النظر عما يقوله فيصل أو يفعله. وفي حين كان فيصل قد أبدى استعداده لتنفيذ الإنذار الأصلي، فإنه عرف أن تقديم أي تنازلات أخرى من جانبه سيؤدي إلى إثارة حرب أهلية وإزاحته فوراً عن السلطة. كان ذلك مضمون الرسالة التي بعث بها إلى غورو في 23 تموز/يوليو.

غير أن القوات الفرنسية كانت قد وصلت إلى ميسلون على بعد 30 كيلومتراً من دمشق، حيث يعسكر جيش سوري صغير قوامه 600 جندي نظامي و2400 متطوع. وقد أسرع هؤلاء الوطنيون إلى الجبهة من دمشق "مسلّحين بالبنادق القديمة والسيوف وحتى المقاليع"[1]. وقع الصدام الحاسم صبيحة 24 تموز/يوليو، وفي غضون بضع ساعات هُزمت القوات السورية متكبدة خسائر جسيمة في الأرواح. سقط يوسف العظمة، وزير الحربية المقدام، وهو يصارع المستحيل لوقف تقدّم الجيش الفرنسي. ولتجنّب استمرار المذبحة، أعلن فيصل دمشق مدينة مفتوحة، ما سمح للقوات الفرنسية بدخولها في 25 تموز/يوليو من دون مقاومة. وفي غضون بضعة أيام سقطت سوريا تحت الاحتلال العسكري الفرنسي.

انسحب فيصل إلى الكسوة على مشارف دمشق، حيث كان لا يزال يحدوه أمل بالتوصل إلى تفاهم مع الفرنسيين. وقبل أن يغادر دمشق، شكّل حكومة برئاسة علاء

(1) Tauber, *The Formation of Modern Syria and Lebanon*, p. 78.

الــدين الدروبــي، وهو شخص مسالم لا يحظى بتأييد شعبــي كبير، اعتقاداً منه أن الفرنــسيين قد يقبلون به. لكن في 27 تموز/يوليو، أُبلغ الأمير بوضوح بأن الفرنسيين يصرون على مغادرته الأراضي السورية في اليوم التالي. لم يكن لدى الأمير خيار سوى الامتــثال، فغادر المدينة وهو يشعر بالمرارة والخيبة، في قطار خاص مع أتباعه، ووصل إلى درعــا في 28 تمــوز/يوليو. في الشهر التالي انتقل إلى حيفا، ومن هناك إلى أوروبا. وكانت تلك النهاية الكارثية لمملكته العربية التي تفتقر إلى الدراسة وحسن الطالع.

خــصّص قطــار ثانٍ للقادة القوميين الذين لا يرغبون في البقاء في دمشق تحت الاحــتلال الفرنــسي. كان رياض الصلح على متن هذا القطار الثاني الذي توجّه إلى درعــا ثم إلى حيفا. وفي 9 آب/أغسطس 1920، أصدرت محكمة عسكرية فرنسية في دمشق حكماً عليه وعلى نحو عشرين آخرين بالإعدام غيابياً لدعمهم نظام فيصل. وفي 29 تــشرين الأول/أكتوبر، أصدرت محكمة عسكرية فرنسية أخرى في بيروت حكماً غيابــياً ثانــياً على رياض بالحبس لمدة خمس سنوات وتغريمه مبلغ 1,400,000 فرنك فرنــسي. كانــت "جريمته" هذه المرة محاولة تجنيد أعضاء مجلس إدارة جبل لبنان ضد الفرنــسيين. اتُهــم بالخيانة العظمى للتآمر على دولة لبنان الكبير. ووصفه غورو بأنه "مدبّــر المؤامرة"[1]. وهكذا بدأت المسيرة المشحونة للمحارب البارز بين أبناء جيله في سبيل الحرية.

---

(1) هلال الصلح، **رجل وقضية**، ص 43.

الفصل السادس

هارب من الفرنسيين

في صـــيف 1920 أصبح رياض الصلح مطلوباً للمحاكمة، وفاراً من "عدالة" الاحتلال الفرنـــسي للمـــرة الأولى في حياته، وإن لن تكون الأخيرة. فقد هزمت قوات الجنرال غورو الجـــيش السوري الصغير، ودخلت دمشق، وقضت على حكومتها، ونفت الأمير فيصل في 27 تمـــوز/يوليو. وفي اليوم نفسه غادر رياض ونحو سبعين آخرين من القوميين العرب المدينة بالقطـــار، قـــبل أن تتـــسنى للفرنسيين فرصة التعرّف إليهم واعتقالهم. انتقلوا من دمشق إلى درعا، يملؤهم الشعور بخيبة الأمل من فيصل والكراهية لمضطهديهم الفرنسيين. وهناك أمضوا أيامـــاً يتفكّرون بغضب في انهيار آمالهم بالوحدة العربية والاستقلال. ما الخطأ الذي حصل؟ وعلى من تقع اللائمة؟ وكيف يمكن رفع الظلم الذي فرضه الانتداب ما بعد الحرب؟

عـــندما تفـــرّق الجمع، ذهب بعضهم إلى القاهرة، وبعضهم إلى شرق الأردن، ورجع آخرون إلى بلادهم وتواروا عن الأنظار. كان ذلك بداية انقسام الحركة القومية إلى ثـــلاث شعب: ظلّ فريق منهم موالياً للهاشميين، وبخاصة بعدما أصبح فيصل ملكاً علـــى العـــراق، وشـــقيقه عبد الله أميراً على شرق الأردن. واجتمع نفر حول خصم الهاشمـــيين، عبد العزيز ابن سعود، سلطان نجد في شبة الجزيرة العربية. ولجأ فريق ثالث إلى مصر.

اتجـــه رياض شمالاً نحو بيروت. كان في السادسة والعشرين من عمره، عاطلاً عن العمـــل، وغـــير متزوّج، ومن دون آمال سوى ما يحدو المنفي الذي سيدخل معترك الـــسياسة، وليس لديه هدف سوى مواصلة القتال. ومن المدهش أن ثقته في نفسه لم تتأثّـــر علـــى الرغم من النكسات الكبيرة التي عاناها في دمشق. وقد سمحت له جرأته ودهاؤه السياسي بالبروز والتميز.

كانـــت والدته تمنّي النفس في أن يبقى معها في منـــزل العائلة في ميناء الحصن، لكنها تدرك مثله أن وجوده هناك سيلفت الأنظار على الفور دونما حاجة. لذلك تقرّر

أن يختبـــئ رياض في منـــزل شقيقته بلقيس وزوجها وابن عمه سامي الصلح، إلى أن تتـــضح نـــيّات المفوّضـــية الفرنسية العليا تجاهه. وكان سامي قد انسحب من معترك السياسة ليدخل القضاء. وفي سنة 1922 أصبح المدعي العام في محكمة لبنان الكبير[1].

لم يـــدم اختباء رياض في منـــزل صهره سوى أسبوع. فقد عاد سامي على عجل من قـــصر العدل ذات يوم، ونقل إلى رياض أخباراً مقلقة بأن محكمة عسكرية فرنسية في دمـــشق حكمت عليه بالإعدام بتهمة الخيانة العظمى في 9 آب/أغسطس. وأن مذكرة بالقبض عليه ستصدر قريباً، وإذا تم اعتقاله فسيعدم في اليوم نفسه رمياً بالرصاص.

فكّر رياض للوهلة الأولى بأن يستقلّ سيارة ويهرب إلى فلسطين، لأنها قريبة ولا تخضع للولاية القانونية الفرنسية. ويمكنه من حيفا الانتقال بإحدى السفن إلى بر الأمان في أوروبا. فقرّر أن يغادر على الفور. اتفق أن ابن مربية أولاد شقيقته بلقيس، ويدعى محمـــد خطّار، يمتلك شركة نقل صغيرة تسيّر سيارات أجرة بين لبنان وفلسطين مرتين يومياً. فاستُدعي الرجل واستؤجرت سيارة تكسي. وافق رياض، بعد تردّد كبير، على أن يلـــف نفسه بملاية، وهي غطاء شاشي أسود للوجه كانت ترتديه معظم النساء في ذلـــك الـــوقت. فلو ضُبط متنكّراً بهذا اللبس فسيتعرّض للمذلة والمهانة. لكن في أثناء مغـــادرة المدينة، مرت السيارة بجوار بيت صديقه خير الدين الأحدب، وكان مطلوباً أيضاً من الفرنسيين لتأييده حكومة فيصل في دمشق. فلاحظ رياض أن الشرطة تطوّق منـــزل الأحدب، وأدرك عندئذ الخطر الذي يحيط به، وخلص إلى أن الأوان قد فات لعبور الحدود بواسطة السيارة.

اقترحت أم محمد عندئذ أن تخبئه في بيتها رقم 11 (الآن رقم 72) في شارع عمر ابن الخطاب في رأس النبع. وهي منطقة مكتظة بالسكان يقطنها أبناء الطبقة العاملة في بـــيروت، وتـــتخلّلها أزقة ضيّقة يصعب على رجال الشرطة إيجاده فيها. لجأ إلى غرفة الغسيل الصغيرة في أسفل الحديقة. ووُضع سلم صغير على الجدار الخلفي للحديقة حتى يتمكّن من الهرب بسرعة إذا ما حضرت الشرطة إلى البيت من المدخل الأمامي. وكان

(1) ملاحظـــة في الأرشـــيف الفرنسي حول حياة سامي الصلح الوظيفية في MAE Fonds Beyrouth (amb); Série B, Carton 4 (dossier 55). French High Commissioner in Syria and Lebanon, February 1941, and Délégation de la France Combattante au Levant, Damas, 17 Août 1942.

على رياض، إذا أراد أن يقابل أم محمد، أن يتسلق أحد الجدران، ثم جداراً ثانياً، ويقفز إلى أرض خلاء إلى جانب الطريق العام. لكن أم محمد خشيت أن يُفتضح أمره بسبب ضحكته المجلجلة ومرحه الدائم، فاقترحت عليه الهرب عن طريق البحر.

سألها: ماذا عن رجال الشرطة في المرفأ؟

فأجابت مازحة: لن تسافر على متن "الخديوي إسماعيل"! وكانت تشير إلى الباخرة المصرية الفخمة في عشرينيات القرن العشرين.

أجرت أم محمد الترتيبات اللازمة كي يسافر إلى فلسطين بحراً في قارب صيد صغير سيغادر في الليلة التالية من مرفأ صيد صغير قرب مسجد عين المريسة على واجهة بيروت البحرية (رُدم في وقت لاحق لتوسيع الكورنيش البحري). اختبأ رياض في كوخ معتم ورطب يقطنه خادم المسجد. وعلم هناك أن خير الدين الأحدب وأمين أرسلان يعتزمان الهرب معه أيضاً. لكن بما أنهما مختبئان خارج بيروت، فقد وجدا مشقّة كبيرة في تفادي دوريات الشرطة الفرنسية على الطرقات المؤدية إلى المدينة. مع ذلك، أصبح رياض الآن ملزماً بانتظارهما.

اختبأ رياض بعيداً عن الأنظار، وارتدى سروال الصيادين الأسود وعمامة بدلاً من نقاب النساء. لكان المكان معتماً جداً لا يتيح له القراءة. وقد سدّت الشقوق في جدران الكوخ المهلهلة بألواح من الخشب والخرق، حتى لا يفضح أمره أي ضوء منبعث من الكوخ. كان يتنصت محاولاً سماع أي صوت قادم من خارج الكوخ، لكنه لا يسمع سوى صوت أمواج البحر، والمؤذن الذي يدعو الناس إلى الصلاة في المسجد المجاور. وكان منزله في ميناء الحصن على بعد خطوات فقط، حيث والدته وشقيقته هناك، وتشعران بالقلق عليه. اضطر للانتظار في ذلك الكوخ أسبوعاً عصيباً آخر، وفي النهاية أنقذه من تلك المحنة مجيء صياد يدعى عبد الله المغربي. اقترب منه الصيّاد من دون أن يقول أي كلمة، وربط خصره بحبل وشدّه جيداً، ثم دفعه نحو حافة حاجز البحر. فظهر في أسفله وميض البحر الخافت.

قال له: "تدلّ عن الحافة واترك لي الباقي". أنزل الصيّاد رياضاً على مهل إلى الشاطئ، وقال، "انتظرني خلف الصخرة. وإذا مرّت دورية انبطح في القارب. ستجد هناك بعض الأكياس لتغطي نفسك".

وصـــل صـــديقا رياض في النهاية، وانطلق الجميع. كان خير الدين الأحدب وأمين أرســـلان منهكين ومتوتّرين من جراء هذه الرحلة المخيفة، فناما في قاع القارب. وعندما انطلق ربان السفينة في محاذاة الشاطئ، لامس رياض المياه بيده لكي يبقى مستيقظاً[1].

هكذا بدأت حياة رياض في المنفى، واستمرت ثلاث سنوات ونصف. و لم يُسمح لـــه بالعودة إلى سوريا ولبنان إلا في كانون الثاني/يناير عام 1924. كانت تلك سنوات يـــأس وخمول تتخللها بعض الأوقات من العمل الجدي. من فلسطين توجّه إلى القاهرة الـــتي كانـــت آنـــذاك المركز الرئيسي للعرب الذين عقدوا العزم على محاربة الإنكليز والفرنـــسيين. وبعد بضعة أسابيع، سافر من القاهرة إلى روما للإقامة مع بعض أصدقاء الطفـــولة في فيا أبيا أنتيكا Via Appia Antica. وهناك تعّرف إلى الكونت غالتزو سيانو Galeazzo Ciano الذي كان في السابعة عشرة من عمره، وأصبح في ما بعد صهر بينيتو موسوليني ووزير خارجيته.

في أحد أيام تشرين الثاني/نوفمبر 1920 تسلّم رياض رسالة من والده مرفقة بورقة تحمـــل الـــرقم 395. كانت تلك نسخة عن الحكم الذي أصدرته بحقّه غيابياً محكمة عسكرية في 29 تشرين الأول/أكتوبر في بيروت، ويقضي بسجنه خمس سنوات وتغريمه 1,400,000 فـــرنك، وتجريده من حقوقه المدنية. فأصبح الآن هارباً من العدالة، هائماً على وجهه، وغير قادر على العودة إلى وطنه. غير أن رسائل أمّه كانت توفّر له بعض الـــراحة، مـــع ذلك لم تكن تخلو من الإزعاج عندما تصف له رحلاتها إلى منـــزلهم القديم في صيدا حيث تزهر أشجار الليمون. وفي إحدى الرسائل كتبت،

شـــقيقك صـــنع لنفسه رمحاً، وأخذ يصيح مثل محارب من الزولو، ويقفز حول خـــروف يُـــشوى على السيخ. ورقصت لنا شقيقتك علياء على رؤوس أصابعها كما تعلمت في المدرسة البروسية، ولكنها أصبحت تنشد الوحدة، ويبدو أنها تكتب الشعر. لكن أولاد عمك أبلغوا والدك بذلك للأسف – وأنت تعرف مقدار صرامته – فصادر كل كتاباتها. ولكن دعني أتابع أخبار رحلتنا إلى صيدا. كنا في غاية السعادة...

ولكن رياض الصلح لم يستطع متابعة القراءة. كان يفتقد إلى الوطن كثيراً ويتوق إلى دفـء العلاقـــات الإنسانية. فانغمس في دوّامة العلاقات الاجتماعية، وعندما شعر

(2) Alia el-Solh, *Le Jour* (Beirut) 7 November 1965، استناداً إلى ذكريات والدها.

بالملل في روما، توجّه إلى فيينا، ولندن، والقدس، والإسكندرية، والقاهرة. وفي القاهرة التقى بفتاة جذّابة، معروفة بجمالها وتحرّرها، وتُدعى قوت القلوب الدمرداشي. كانت ابنة الدمرداشي باشا، وهو سياسي بارز، وشيخ إحدى الطرق الصوفية. وخلافاً لمعظم نساء عصرها، كان يُسمح لها بحضور اجتماعات والدها السياسية، والظهور في العلن من دون حجاب. والأكثر جرأة من ذلك، أنها نشرت بعض القصص القصيرة اللاذعة في باريس. أعجب بها رياض كثيراً وقرّر الزواج منها. وأصرّ على قدوم عائلته إلى القاهرة على الفور لترتيب الأمر، من دون أن يفكر في الصعوبة التي قد يواجهها والده بالاتصال بابنه الخارج على القانون. وفي النهاية قدمت والدته نظيرة بمفردها، وأدركت فوراً أنها تواجه منافسةً هائلة. رأت أن هذه الفتاة الشابة ستجلب الشقاء إلى ولدها، فقررت أن تقوّض العلاقة بينهما. شعر رياض بالحيرة بين والدته التي يحبها كثيراً، ومحبوبته قوت القلوب فاعتراه بعض التردّد. أثار ذلك غضب الحسناء المصرية، ورفضت بعد ذلك حتى رؤيته. وفي وقت لاحق، نشرت قصة صغيرة بطلتها سيدة شريرة اسمها نظيرة، كي تنتقم من والدته.

واجه رياض، عندما انقطع الاتصال بينه وبين عائلته، نقصاً في الأموال. فباع مجوهراته الشخصية، أزرار قمصانه، وخواتمه وأزرار ياقات القمصان التي كان المتأنقون يضعونها في تلك الأيام. واستدان من أصحابه ووصل به الأمر إلى الاستدانة من المرابين. حاول والده، الذي فقد معاشه بزوال الإمبراطورية العثمانية، مساعدته بين الحين والآخر، كما يظهر مثلاً، من رسالة بتاريخ 6 تموز/يوليو 1923 من بنك التوفير في الإسكندرية يعلمه بحوالة قيمتها 40,000 قرش مصري. ولكن لم تكن مثل تلك المساعدة كافية لتسديد ديونه المتزايدة التي أصبحت نمطاً لحياته المالية. فعلى الرغم من أنه كان يفتقر إلى المال على الدوام، فإنه واصل الصرف بسخاء. وفي وقت لاحق، باع أراضيه، وأنفق ميراثه لتمويل حملاته السياسية، وقد أدّى موقفه غير المبالي بالمال إلى إثارة قلق عميق لدى عائلته.

بعدما نفدت الأموال التي كان ينفقها لإبراز شخصيته في المجتمع، بدأ يمضي مزيداً من الوقت في المطالعة، واقتنى مجموعة من الكتب التي استمرّت بالتزايد طوال عمره. واعتاد زيارة بائعي الكتب في الموسكي في القاهرة القديمة، حاملاً معه لوائح الكتب

والمخطوطات التي يرغب في شرائها، ويأمل أن تصل إلى السوق من المبيعات الخاصة. كان يقرأ كثيراً ويدوّن الملاحظات، بل إنه قرّر أن يكتب عن تاريخ العرب. ولتمويل شراء عدد أكبر من الكتب لتحقيق مشروعه، باع ساعته الذهبية. وسكن في حي قلعة محمد علي، بجوار دار الكتب الوطنية وجامع الأزهر، وانكب على العمل. لا يزال عدد كبير من دفاتره، مجموعة في غلاف من قماش مخملي ومليئة بكتاباته بخطه الجميل بقلم الرصـــاص، موجوداً بحوزة العائلة. لكن مشروعه لم يكتمل، كما أنه لم يكن مؤرخاً دقيقاً. كان يميل إلى تضخيم أمجاد الماضي للتعويض عن المذلة الحالية المؤلمة[1].

لم يـــبدّد رياض تلك الفترة من حياته سدى، وهو يقترب من الثلاثين من العمر. ففـــي صيف سنة 1921، حضر الاجتماع التأسيسي "للمؤتمر السوري - الفلسطيني" في جنـــيف، وهو هيئة ارتبط بها رياض ارتباطاً وثيقاً في الأعوام اللاحقة. وفي تشرين الثاني/نوفمبر، دفعته الرغبة في الوقوف على مدى الطموحات الصهيونية إلى السفر إلى لندن للاجتماع بالقائد الصهيوني الدكتور حاييم وايزمن. وأتبع ذلك بعد شهر بمقابلة السير هربرت صموئيل Sir Herbert Samuel، المندوب السامي البريطاني في فلسطين. واجتمع في عمّان بالأمير عبد الله، الابن الثالث للشريف حسين، بعيد قيام البريطانيين بإنشاء إمارة في شرق الأردن وتعيينه أميراً عليها.

في القاهرة، رافق الكتّاب والمحررين البارزين والناشطين السياسيين. وأقام في برلين وباريس صلات مهمة استثمرها في وقت لاحق لخدمة القضية العربية. واكتسب خبرة دولـــية بتـــنقّله الدائم ذهاباً وإياباً بين أوروبا والشرق الأوسط. وتعلّم تدريجياً كيف يصبح لاعباً فاعلاً في اللعبة الكبرى التي ستقرر بعد وقت قصير مصير المنطقة.

من المفارقات أنه كان في وسع رياض المشتاق إلى دياره العودة في وقت أبكر من الوقت الذي عاد فيه بالفعل. ففي 23 تشرين الثاني/نوفمبر 1921، وقّع الجنرال غورو أمـــراً عاماً يسمح لخمسة وعشرين شخصاً، حُكم عليهم بالإعدام غيابياً في آب/أغسطس 1920 وصـــودرت أراضـــيهم، بالعودة إلى سوريا. كان رياض واحداً منهم[2]. ألمح الجنرال غورو في خطاب ألقاه في دمشق في 20 حزيران/يونيو 1921 إلى اعتزامه العفو

(1) Alia el-Solh, *Le Jour* (Beirut) 10 October 1965.

(2) MAE Fonds Beyrouth, Mandat Syrie- Liban, Dossier 17/1579, Service des renseignements, Beyrouth 23 November 1921.

عـــنهم. ووجّهت إليهم الدعوة للمثول أمام السلطات المحلية التي طُلب منها التأكّد من هـــوياتهم وإعلامهم بالعفو عنهم. وبذلك تُلغى الأحكام الصادرة بحقّهم بشكل رسمي، ويستطيعون التنقّل بحرية في سوريا ولبنان[1].

ولكن، كما أبلغ الجنرال ويغان، المفوّض السامي الفرنسي في لبنان والقائد العام للقـــوات الفرنسية، وزارةَ الحربية الفرنسية في باريس في كانون الثاني/يناير 1924، لم يُـــذع الأمـــر العام الذي أصدره الجنرال غورو عن عمد، ولم يعلم بأمره الأشخاص المعنـــيون. سمـــع بعضهم عن العفو بطرق أخرى، ومن بينهم كامل الأسعد، منافس آل الصلح في جنوب لبنان الذي كان له عيون في المعسكر الفرنسي، فعادوا إلى سوريا واســـتعادوا أملاكهـــم الخاصة. ولكن معظم الآخرين، ومنهم رياض، لم يعلموا بتلك الـــتدابير الفرنسية ولبثوا في الخارج. وأخيراً طلب من العائلة والأصدقاء التدخل لدى الـــسلطات الفرنـــسية للعفو عنه. فكتب ابن عمه سامي الصلح إلى الجنرال ويغان في كانـــون الأول/ديسمبر 1923 طالباً العفو عن رياض، وتعهّد والده بأن يضمن سلوك ولده. فأرسل ويغان إلى وزير الحربية في باريس:

سمحـــت في هذه الظروف بعودة رياض الصلح إلى سوريا، بموجب الإشعار رقم 12.717/I بتاريخ 20 كانون الأول/ديسمبر 1923 وقرّرت تنفيذ التعليمات المتعلقة به في الأمر العام الذي صدر في 23 تشرين الثاني/نوفمبر عام 1921.

ويـــشرّفني أن ألفـــت انتباهكم إلى أنه على الرغم من أن رياض الصلح يستطيع الاســـتفادة من تعليق الجنرال غورو الحكم الصادر عليه في 20 آب/أغسطس 1920 في دمـــشق، فإنـــه يبقـــى خاضـــعاً للحكـــم بالسجن لمدة خمس سنوات، وتغريمه مبلغ 1,400,000 فرنك الذي صدر في تشرين الأول/أكتوبر 1920 في قضية مجلس الإدارة.

نتيجة لذلك، بالنظر إلى إذعان رياض الصلح، وإلى أن والده قدّم كل الضمانات الأخلاقـــية التي طلبتها منه؛ وبالنظر إلى أنه يستفيد من العفو من حكم الإعدام الذي صـــدر بحقـــه؛ وبما أن أحكام النفي والغرامة قد رُفعت عن جميع أعضاء مجلس الإدارة اللبنانيين (باستثناء سليمان بك كنعان، الذي يتطلب نشاطه السياسي بعده عن سوريا) بمـــوجب الفقـــرة الأخيرة من رسالتكم التي تحمل رقم 26634-2/10 بتاريخ 9 تشرين

(1) Consul-General Satow to Foreign Secretary, Beirut, 19 August 1921 (FO 371/6461).

الأول/أكتوبـــر 1923، فإنه يشرّفني أن أطلب منكم تعليق تنفيذ الإجراءات بحق رياض الـــصلح بخصوص الأدلّة التي ذكرت ضدّه في الحكم الذي أصدرته المحكمة العسكرية بحقّه غيابياً في 29 تشرين الأول/أكتوبر 1920 في بيروت.

وافـــق الوزير، وعاد رياض في أواخر سنة 1923 إلى حيفا، حيث حصل على العفو مـــن السلطات الفرنسية. وعاد إلى بيروت في أوائل العام 1924 بعد غياب ثلاث سنوات ونـــصف مـــزوّداً بـــشهادة حسن سلوك موقّعة من الجنرال ويغان شخصياً. وثمة صورة فوتوغـــرافية له في ذلك الوقت تظهر شاباً نحيلاً متوسط الطول، أنيق الملبس، يتطلّع بجرأة نحو العالم، ولكن بتعبير استفهامي لا يخلو من الدعابة، تبرزه عادته اعتمار الطربوش المائل.

وقعـــت كثير من الأحداث بينما كان رياض في الخارج. فقد طرأ تغيّر جذري على المشهد السياسي للمنطقة بأكملها. فرضت بريطانيا وفرنسا انتدابالهما بالقوة على الولايات العـــربية في الإمبراطورية العثمانية. وسارع الصهاينة إلى تنفيذ وعد بلفور، على الرغم من معاداة السكان العرب المحليين الذين يفوقون السكان اليهود الجدد عدداً بعشرة أضعاف.

في تموز/يوليو 1920، وهو الشهر نفسه الذي احتلت فيه الجيوش الفرنسية دمشق وقـــضت علـــى حكومة الأمير فيصل العربية، واجهت بريطانيا تمرداً عنيفاً في منطقة الفرات الأسفل في العراق. كان السنّة والشيعة العراقيون يريدون وضع حدّ للاحتلال الـــبريطاني مـــرة واحدة وإلى الأبد فأخذوا يقيمون الصلاة معاً في الأشهر التي سبقت الـــثورة. شـــكّلت تلك الانتفاضة حدثاً أساسياً في تشكيل الوطنية العراقية، وتحوّلاً في النـــضال مـــن أجـــل الاستقلال. انتشرت الانتفاضة شمالاً إلى المناطق المحيطة ببغداد، وعـــبّأت في ذروتهـــا أكثر من 100 ألف مقاتل، فواجهت بريطانيا أكبر تحدّ وأكثرها إراقـــة للـــدماء في العـــالم الإســـلامي. لم تـــستعد القوات البريطانية السيطرة إلا في شـــباط/فبراير 1921، بعد أن تكبّدت الكثير من الخسائر العسكرية وبتكلفة بلغت 40 مليون جنيه (وهو مبلغ ضخم جداً في ذلك الوقت). قُتل ما لا يقل عن 6000 عراقي، و500 بريطاني وهندي يخدمون في الجيش البريطاني الاستعماري[1].

(1) حـــول وجهة النظر العراقية من الصراع، انظر: Pierre- Jean Hizard, *La vie de l'Ayatollah Mahdi al Khalisi*, Paris 2005. وهـــذه ترجمة إلى الفرنسية لكتاب الشيخ محمد الخالصي، **بطل الإسلام**، عن حياه والده الذي كان مجتهداً ثورياً شيعياً في العراق في أيام ثورة 1920.

دفع سحق انتفاضة بهذا الحجم، فيما تواجه بريطانيا قيوداً مالية شديد في فترة ما بعد الحرب، وزير المستعمرات البريطاني المعيّن حديثاً، ونستون تشرشل، إلى الدعوة إلى مؤتمر لمدة أسبوع في آذار/مارس 1921 في القاهرة، بغية تحديد السياسة التي يجب اعتمادها في العالم العربي. كان يميل إلى إنشاء دول عربية تابعة، يديرها قادة محليون، وتشرف على أمنها جيوش محلية يمكن الاعتماد عليها لتأمين المصالح البريطانية، من دون الحاجة إلى تعريض القوات الاستعمارية للخطر، أو صرف مبالغ مالية طائلة.

بعدما طرد الفرنسيون الأمير فيصل من سوريا، حافظ الأمير على علاقة طيبة مع البريطانيين، ويرجع ذلك إلى حدّ كبير إلى "مشاركتهم" في ثورته العربية. كان يُعتقد أنه لا يزال منقاداً إلى "المشورة" البريطانية، وأن تقديم مساعدة مالية له أوفر بكثير من تحمل المسؤولية الكاملة في الدولة العراقية. لذلك، تقرّر تنصيبه ملكاً على العراق في حزيران/يونيو بدعم من اثنين من قدامى المحاربين معه في الثورة العربية. عُيّن جعفر العسكري وزيراً للدفاع، بينما عُيّن نوري السعيد - صهر العسكري - رئيساً لأركان الجيش العراقي الجديد، وظلّ شخصية أساسية في النظام الملكي في السنوات السبع وثلاثين التالية. تكوّن سلك الضباط من 600 من الضباط القدامى في الجيش العثماني من أصل عراقي، ومعظمهم من السنّة الذين لحقوا بفيصل إلى بغداد. وبما أن السلطة البريطانية بقيت راجحة في العراق، فقد أصبح فيصل "ملكاً على دولة لا سيادة لها"[(1)]. وأخيراً فُرض "النظام" وجُبيت ضرائب عقابية بعدما شنّ سلاح الجوّ الملكي البريطاني، الذي أنشئ حديثاً، غارات متعدّدة بالأسلحة الكيميائية على القبائل المتمردة، بناء على أوامر تشرشل.

بحلول عشرينيات القرن العشرين، لم يعد في وسع بريطانيا وفرنسا الانغماس في الإمبريالية التوسّعية الصريحة التي كانتا تتبعانها في القرن التاسع عشر، بعدما تعاظم رفضها في المناخ السائد في ذلك الوقت. لكن احتلالهما الأراضي العربية وإخضاعها كان مدفوعاً بتأمين مصالحهما الذاتية الإمبريالية، ويجب النظر إليه بمثابة امتداد لتقليد التغلغل السياسي والاقتصادي للإمبراطورية العثمانية منذ عدة قرون. بدأ ذلك أولاً تحت غطاء الامتيازات، ثم اكتسب عمراً جديداً في أعقاب إفلاس الإمبراطورية في سنة

(1) Charles Tripp, *A History of Iraq*, Cambridge 2000, p. 49.

1876، عندما تولّت أوروبا إدارة الدين العام للدولة العثمانية[1]. لقد شكّلت الانتدابات، للبريطانيين على الأقل، نموذجاً جديداً للعلاقات بين العالمين المتقدم والنامي، لكنه نموذج تشوبه بقوة المواقف الاستعمارية القديمة.

ربما تساعد الانتفاضة العارمة التي واجهتها بريطانيا في العراق في بداية انتدابها في تفسير سبب اختيارها اعتماد نظام الحكم غير المباشر في الظاهر. بالمقابل، قرّر الفرنسيون، في انتهاك واضح للمادة 22 من ميثاق عصبة الأمم، أن يفرضوا حكماً مباشراً أكثر صراحة على سوريا على غرار نموذج المحميتين اللتين أنشؤوهما في تونس في سنة 1881 وفي المغرب في سنة 1912. وتدعو المادة 22 القوى المنتدبة إلى تهيئة الشعوب التي عُهد بها إليها للاستقلال، بتقديم المشورة والمساعدة إليهم. غير أن الفرنسيين شرعوا بتنفيذ العكس تماماً.

إنشاء لبنان الكبير

وسط هلع السوريين، قام الجنرال غورو، بناء على نصيحة خبيثة من روبير دو كيه، الأمين العام للمفوضية الفرنسية العليا الواسع النفوذ، بتقسيم بلادهم تبعاً لخطوط إقليمية ومذهبية. وكان الرأي السائد في الدوائر الاستعمارية في باريس وجوب تحويل المشرق إلى فسيفساء من المذاهب والأقليات. فسياسة "فَرِّق تَسُد" هي الطريقة الأمثل لحماية المصالح الاستراتيجية الفرنسية هناك. فاستُبعدت تطلعات العرب إلى الاستقلال والوحدة وغيرها من المشاعر التي أثارها البريطانيون بغاية التخريب على الفرنسيين! وقد أظهر المسؤولون الفرنسيون المعيّنون في المشرق وقادتهم السياسيون في فرنسا خوفاً مستمراً من البريطانيين طوال فترة ما بين الحربين العالميتين. وفي مثال واحد من عدة أمثلة: في 30 كانون الأول/ديسمبر 1920، عندما كان مجلس الشيوخ الفرنسي يناقش موضوع الموازنة القروض المالية إلى سوريا، صرخ السناتور دومينيك ديلاهي Senator Dominique Delahaye (ربما خارج الموضوع): "لتحذر إنكلترا من إثارة الكراهية لفرنسا!... في القرن الماضي سيطرت بريطانيا على الأراضي المصرية.

(1) Jean-David Mizrahi, 'La France et sa politique de Mandat en Syrie et au Liban, 1920-1939', in Nadine Méouchy (ed.) France, Syrie et Liban, 1928-1946: *Les ambiguïtés et les dynamiques de la relation mandataire*, Damascus 2002, pp. 38-9.

واستولت الآن على أراضي النينويين والبابليين، وتركت لفرنسا نوعاً من البونديتشري علـــى المتوسط!" كان ذلك إشارة إلى الجيب الفرنسي الصغير في جنوب الهند، حيث أنـــشأت شـــركة الهند الشرقية الفرنسية مركزاً للتبادل التجاري في سنة 1673، وبقي خاضعاً للسيطرة الفرنسية حتى خمسينيات القرن العشرين[1].

لمـــواجهة الطموحات الكبيرة للقوميين العرب، وتأمين التفوق الفرنسي، قُسّمت المـــنطقة الخاضعة للسيطرة الفرنسية عمداً وبطريقة منظمة. وقد شكّل نجاحاً لسياسة روبـــير دو كيه التقسيمية الذي رأى أن "طبيعة" المجتمع السوري تتطلب تقسيمه إلى كانـــتونات تـــؤدي فـــيها فرنسا دور الحَكَم بين الكانتونات المختلفة، أو "الكيانات المترابطة"، وهو التعبير الألطف الذي كان دو كيه يفضل استخدامه.

كان لبنان واحداً من تلك "الكيانات المترابطة". وبقيت خلفية إنشاء لبنان الكبير موضـــوعاً مثيراً للخلاف في العقود التالية. فكما أسلفنا، أنشئت متصرّفية جبل لبنان العثمانية التي حظيت بحكم ذاتي، بعد تدخّل القوى الكبرى عقب المجازر التي تعرّض لها المـــسيحيون في ســـنة 1860. وصفت رقعة المتصرّفية دون إحكام في القانون العضوي الـــصادر في 6 أيلول/سبتمبر 1864. لكن ظلّت حدودها غير واضحة لأن المسح الذي أجري في سنة 1861 لم يعرّفها بطريقة صحيحة. وبما أن المتصرّفية كانت صغيرة جداً لا توفـــر سبل العيش لسكانها الذين يعمل معظمهم في الزراعة، فقد هاجر كثير منهم إلى الولايات المجاورة. وفي العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر استقر نحو 20,000 لبـــناني في تلـــك الـــولايات، لا سيما في أقضية بعلبك، وصور، وصيدا، وطرابلس، بالإضافة إلى مدينة بيروت، التي لم تكن جزءاً من المتصرفية التي تتمتع بالحكم الذاتي.

عـــندما عـــرض الأمـــير فيـــصل قضيته أمام اللجنة العليا في مؤتمر السلام في 6 شـــباط/فبرايـــر 1919، لم يـــشر إلى أي اقتراح بتوسيع الأراضي اللبنانية. بل أبدى استعداده لقبول استقلال لبنان، لكنه أضاف بأن وجود نوع من الوحدة الاقتصادية مع دولـــته العـــربية في الأراضـــي السورية الداخلية ضروري للمصلحة التنموية المتبادلة. وأعرب عن أمله بأن يقرر اللبنانيون من تلقاء أنفسهم الاتحاد الفيدرالي مع سوريا.

(1) Lord Hardinge (British ambassador in Paris) to the Foreign Secretary, Earl Curson, 1 January 1921 (FO 371/6453).

في الأسبوع التالي، في 15 شباط/فبراير، قدّم داود عمّون، رئيس مجلس إدارة جبل لبنان، مرافعة عن لبنان الموسّع – ضمن "حدوده الطبيعية والتاريخية" – أمام اللجنة العليا. وقال عمّون: "إن الأراضي المشار إليها ضمن الحدود المذكورة ضرورية لوجودنا".

فمن دونها لا تعود الزراعة والتجارة ممكنتين لنا، وسيضطر سكاننا إلى الهجرة. إن مجرد إقفال حدودنا بتدابير إدارية سيدفعنا إلى المجاعة الفعلية، كما حدث خلال هذه الحرب.

كما أن أغلبية سكان هذه الأراضي يطلبون الالتحاق بلبنان. وقد عُبر عن رغباتهم في عرائض موجهة إلى الحكومة الفرنسية. وبضمهم إلينا، يقيم المؤتمر العدل ويقدّم التعويض، فيما يُطبق حق تقرير المصير.

علينا أن نقول شيئاً عن علاقتنا بسوريا. إن المصالح بين البلدين مرتبطة ارتباطاً وثيقاً. فسوريا تحتاج إلى موانئنا وجبالنا، ونحن نحتاج إلى سهولها. الانفصال التامّ سيضرّ بمصلحة البلدين، مع ذلك يمكن أن يتحد لبنان مع سوريا مع الاحتفاظ بشخصيته المستقلة، شرط استفادة سوريا من التعاون الفرنسي نفسه.

بعبارة أخرى، قال عمّون إن على سوريا القبول بالوصاية الفرنسية إذا كانت ترغب في إقامة صلة وثيقة مع لبنان!

اعترف فيصل باستقلال لبنان تحت الانتداب الفرنسي في 6 كانون الثاني/يناير 1920 بموجب اتفاق سري مع الحكومة الفرنسية. وتُرك لمؤتمر السلام تسوية الحدود، على أن يؤخذ بالحسبان الحقوق التاريخية والمصالح الاقتصادية والرغبات الحرة للسكان.

في غضون ذلك، جدد مجلس إدارة جبل لبنان حملته الدعائية من أجل توسيع الأراضي. وعندما أعلن المؤتمر السوري في دمشق – الذي نادى بفيصل ملكاً على سوريا في آذار/مارس 1919 – أنه سيعترف بالحكم الذاتي للبنان ضمن حدوده السابقة، اعترض مجلس الإدارة لدى المفوّض السامي الفرنسي. وأصدر في ما بعد بياناً أعلن فيه أن المؤتمر السوري لا يملك صلاحية مناقشة الشؤون التي تتصل بلبنان المستقل، وأصرّ على الاستقلال المطلق للبلاد ضمن "حدودها الطبيعية والتاريخية".

عندما منح المجلس الأعلى في سان ريمو فرنسا الانتداب على سوريا ولبنان في نيسان/أبريل 1920 أرسل الوفد اللبناني إلى مؤتمر السلام مذكرة إلى القوى الكبرى

مطالــباً بــضمّ أقــضية بعلبك والبقاع وحاصبيا وراشيا الأربعة، على أساس الحدود التاريخــية والأغلبــية السكانية المسيحية، والضرورة الاقتصادية. هذه هي خلفية قرار الحكــومة الفرنــسية لمصلحة "الحدود الطبيعية" للبنان. في آب/أغسطس 1920 ألقى الجنــرال غــورو، المفوّض السامي الفرنسي في سوريا ولبنان، خطاباً أعلن فيه بلسان حكومته: إن أقضية بعلبك، والبقاع، وحاصبيا، وراشيا الأربعة تعتبر من الآن وصاعداً متحدة مع لبنان.

وعلــى هذا الأساس، أعلن في 1 أيلول/سبتمبر 1920 عن إنشاء جمهورية لبنانية منفــصلة ضــمن حــدود موسّعة أو "دولة لبنان الكبير". وقد شكّلت بإلحاق المدن والمــناطق المحيطة بالمتصرفية العثمانية التي تتمتع بالحكم الذاتي (أي "جبل لبنان" القديم لــسنة 1861)، وتحديداً صيدا في الجنوب وأراضيها الداخلية في جبل عامل، وطرابلس في الــشمال وأراضيها الداخلية في عكار، وسهل البقاع الغني في الشرق، وبيروت التي أصبحت الآن عاصمة الدولة الجديدة. وأُعلن أن الدولة الجديدة ستمتد من النهر الكبير إلى حدود فلسطين، ومن البحر حتى سلسلة جبال لبنان الشرقية. وأكّد ميلران، رئيس الــوزراء الفرنسي ووزير الخارجية، هذا القرار في رسالة منشورة وجهها إلى البطريرك الماروني.

وهكــذا تم تــأمين قدرة "لبنان الكبير" على البقاء من الناحية الاقتصادية بمنحه واجهــة على البحر المتوسط وسهلاً داخلياً يُزرع فيه القمح. وضُمن للموارنة، أتباع فرنــسا المحليين الرئيسيين، أرجحية سياسية فيه. وهكذا اعتُبرت الدولة الجديدة ملاذاً للمسيحيين، وربما الأهم من ذلك، لصانعيه الفرنسيين، قاعدة تستطيع فرنسا السيطرة مــنها علــى الأراضي السورية الداخلية، وتبسط قوتها في شرقي المتوسط. (في السنة نفسها، 1920، أنشأ السير بيرسي كوكس Sir Percy Cox، المفوّض السامي البريطاني في العــراق، دولة العراق الحديثة. ومثلما فضّلت فرنسا الموارنة في لبنان، فإن بريطانيا فضّلت الأقلية العربية السنّية في العراق. وأصبح هذان الترتيبان مصدراً لمشاكل لاحقة كثيرة).

ظلــت الأراضــي التي اقتطعها الجنرال غورو من سوريا وضمّها إلى جبل لبنان موضــع خلاف طويل. كان القوميون العرب المسلمون يرغبون في إعادتها إلى سوريا،

في حين كافح الانفصاليون المسيحيون اللبنانيون بقوة للاحتفاظ بها. كانت هذه المناطق تضم الكثير من المسلمين السنة والشيعة، الذين شكّلوا في ذلك الوقت نحو نصف عدد سكان الدولة الموسّعة الجديدة. ومع أن المسيحيين احتفظوا بالسيطرة، فقد تضاءلت أغلبيتهم[1]. وعندما شنّ المسيحيون حملة من أجل إقامة لبنان الكبير المستقل تحت الحماية الفرنسية، كان الخوف من تفوّق الغالبية المسلمة في سوريا الجغرافية شاغلهم الأول.

تابعت فرنسا، سياسة "فرّق تسد"، فأنشأت في ما بعد منطقة تتمتّع بحكم ذاتي للعلويين في شمال سوريا، بإدارة ضابط فرنسي. وفي سنة 1922، أصبحت هذه المنطقة "دولة" بإدارة حاكم فرنسي. وفي الجنوب أنشئت أيضاً "دولة" جبل الدروز في آذار/مارس 1921، بينما قسّمت الأراضي الداخلية السورية إلى "دولتيّ" دمشق وحلب المنفصلتين. وكانتا تخضعان اسمياً لإدارة حاكمين محليين. عيّن الفرنسيون حقّي بك العظم حاكماً على دمشق يساعده مديرون يختارون من العائلات السورية القليلة المستعدة للتعاون مع الفرنسيين.

أما في شمال غرب سوريا، فإن لواء الإسكندرونة الذي كان يسكنه خليط من السكان العرب والأتراك، فقد أعطي حكماً ذاتياً مع امتيازات خاصة للأتراك بعد الاتفاق الفرنسي - التركي في سنة 1921. وفي الوقت نفسه، أعادت فرنسا توطين عدد كبير من اللاجئين الأرمن الناجين من المجازر التركية عام 1915 في مدن سوريا ولبنان الرئيسية، بينما شُجع السكان غير العرب، أو غير المسلمين - الأشوريون، والكلدان، والأتراك والأكراد وسواهم - على الاستيطان في منطقة الجزيرة في شمال شرق سوريا.

أثارت هذه السياسة التقسيمية، وإعطاء الأفضلية للأقليات على حساب الأغلبية استياءً شديداً في أوساط القوميين العرب، فاضطرت فرنسا، في حزيران/يونيو 1922، في محاولة لإخفاء احتكارها للسلطة، إلى تجميع "حكومات" دمشق وحلب والعلويين

---

(1) كانت نتيجة إحصاء 1921 كالتالي: الموارنة: 199,181؛ السنّة: 124,786؛ الشيعة: 104,947؛ الروم الأرثوذكس: 81,409؛ الدروز: 43,632؛ الروم الكاثوليك: 42,462؛ البروتستانت: 4215؛ طوائف متفرقة: 8436.

في "فيدرالية الدول السورية". انسحب العلويون من هذا الفيدرالية في كانون الثاني/يناير 1924 وحُلت رسمياً في نهاية العام نفسه. واستعادت الدولة العلوية حكمها الذاتي بالكامل. ثم اتحدت حكومتا حلب ودمشق لتشكيل دولة سوريا[1]. لإيضاح اضطراب السكان المحليين والصداع الذي أحدثه ذلك في باريس، تجدر الإشارة إلى أنه جرى إعادة رسم خريطة سوريا في سنوات 1922-1925، و1925-1936، و1936-1939، و1939-1942 و1942[2].

ترأس المفوّض السامي الفرنسي هذا الصرح المتداعي من الدول والأراضي التي تتمتّع بحكم ذاتي والحكومات المحلية الضعيفة، متسلحاً بسلطة سياسية وتشريعية وعسكرية مطلقة. وكان مساعده الرئيسي الأمين العام للمفوّضية العليا (تجدر الإشارة إلى أن روبير دو كيه أول من تسلّم هذا المنصب) الذي عُهد إليه بتنسيق العمل ما بين المديريات المدنية العديدة التي تدير كل أوجه الحياة تحت الانتداب. ويأتي في صلب هذا النظام إدارة خدمات المعلومات، وهي مديرية للمخابرات تضم ضباطاً من الأجهزة الخاصة ينتشرون في كل أنحاء البلاد ويتصرّفون مثل صغار الطغاة، ويثيرون الكثير من العداء والكراهية.

كانت الخزينة الفرنسية تموّل ميزانية المفوّضية العليا وجيش الشرق، في حين تموّل ميزانيات الدول العديدة التي تعاني من عجز كبير ومن التضخّم المصطنع بفعل تكرّر البيروقراطيات، من عائدات الضرائب المفروضة على السكان المحليين، وبخاصة الضريبة الزراعية. أما عائدات الجمارك التي تشكل نحو 40 بالمئة من الموارد المحلية، فكانت تخضع لإدارة المفوضية العليا المباشرة باعتبارها "مصالح مشتركة"؛ وتشكل بنداً معقداً وغامضاً على نحو متعمّد، يقع بين ميزانيتي المفوّضية العليا والجيش من جهة، وميزانيات الدول المحلية من جهة أخرى[3].

أدى تقسيم سوريا إلى إضعاف الاقتصاد، وإلحاق الضرر بالتجارة والصناعة. وفقدت دمشق على وجه الخصوص الكثير من أهميتها المالية والتجارية. قبل الحرب،

(1) Consul Satow to Foreign Secretary, 13 March 1921. (FO 371/7846).

(2) للرجوع إلى قرارات المندوب السامي ذات الصلة، انظر A Mahafzah, “La France et le movement nationaliste arabe de 1914 à 1950”, pp. 301-302, n. 36.

(3) Mizrahi, ‘La France et sa politique de Mandat’, p. 44.

كانـــت مـــصر وفلـــسطين والحجـــاز وشرق الأردن وبلاد ما بين النهرين وكيليكيا والأناضـــول، تستورد ما قيمته 1.5 مليون ليرة تركية من القماش والحرير السوري في السنة، وهي منتجات مصانع البلاد القديمة والأساسية التي تستخدم أكثر من 30 ألف عامل. ولكن العوائق التي فرضتها بريطانيا وفرنسا في الأراضي التابعة لهما دمّرت تلك الـــتجارة. كمـــا انخفضت الصادرات السورية الزراعية من الحبوب والسمن والقطن والصوف ومربى المشمش والجوز. وبعد أن أصبحت التجارة محصورة بالسوق المحلية، كسد مخزون التجّار، وتوقفت المصانع عن العمل، وازدادت البطالة وعمّ الفقر.

كـــان المغتـــربون السوريون في أميركا يرسلون إلى عائلاتهم نحو 300 ألف ليرة تركية سنوياً، لكن أصبح الوضع في سوريا سيئاً جداً ما اضطر العديد من العائلات إلى السفر للانضمام إلى أقربائهم عبر الأطلسي، فحرم ذلك البلد من مصدر آخر للدخل. كانت دمشق نقطة بداية خط سكة حديد الحجاز الذي يربط العالم الإسلامي بالمدينة المـــنورة وبالتالي مكة، ويبالغ طوله ألفي كيلومتر. وكان آلاف الحجاج القادمين من الهـــند وإيران وتركيا وأفغانستان وما ورائها يجتمعون كل سنة في دمشق للانتقال إلى المدينـــتين المقدســـتين، فينفقون نحو 500 ألف ليرة تركية في أسواقها لتجهيز أنفسهم للحـــج. لكـــن بعـــد الانتدابين الفرنسي والبريطاني، لم يعد يمرّ في سوريا سوى 150 كيلومتـــراً فقـــط من خط سكة الحديد، وخضع ما تبقى من الخط للولايات القانونية المنفـــصلة لـــشرق الأردن وفلسطين والحجاز. دفعت هذه الحواجز الجمركية الجديدة وصـــعوبات المواصلات العديد من الحجاج إلى تغيير مسار رحلاتهم التقليدي، الذي كان المفضّل لعدة قرون، والسعي إلى بلوغ مكة عبر مرفأ جدة على البحر الأحمر بدلاً من ذلك[1].

شـــكّلت العملـــة الورقية التي أصدرها بنك سوريا ولبنان الفرنسي مصدراً آخر للـــشكوى السورية. فهي غير مدعومة بالذهب، كانت قيمتها تتقلّب بشدة مع تقلّب العملـــة الفرنسية التي ترتبط بها. فأصبحت الليرة التركية الذهبية تعتبر الأساس الثابت الوحـــيد للتبادل، بدلاً من القرش السوري الذي لا يعوّل عليه. في مثل هذه الظروف

(1) تقريـــر ســـري صـــادر عـــن فرع بنكو دي روما في دمشق إلى المركز الرئيسي في بيروت في 21 آذار/مارس 1922 يصف الوضع في سنة 1921 (FO 371/9053).

التي يكتنفها انعدام اليقين، لم يكن سوى القليل من رجال الأعمال مستعدين لإقراض المال، ما زاد من الشلل الذي تعانيه التجارة. ارتفعت قيمة الذهب عندما ثارت الشكوك على نطاق واسع - وهي صحيحة إلى حد بعيد - بأن الفرنسيين يشحنون كميات كبيرة منه إلى خارج البلاد لزيادة احتياطياتهم في فرنسا. بل إن القنصل بالمر Palmer كتب في تقرير إلى لندن: "يزعم أن العاملين في الإدارة الفرنسية يشترون الذهب سراً للمضاربة الخاصة"[1].

لم يكن الوضع في لبنان أفضل حالاً. فقد هاجر عدد كبير من اللبنانيين إلى أميركا قبل الحرب، ودفعت المجاعة التي تفشّت في أثناء الحرب المزيد منهم إلى السفر، ولم يبقَ في البلاد سوى ثلث السكان. وعندما تراجعت التجارة مع المناطق الداخلية إلى أدنى مستوى لها، أخذت المصارف في بيروت تتردّد في منح القروض. ووفقاً للقنصل البريطاني في بيروت، كانت مصلحة الجمارك التي يديرها الفرنسيون في بيروت فاسدة من أعلاها إلى أسفلها: اتهم الضباط والمسؤولون الفرنسيون بتلقّي الرشاوى مقابل الخدمات التي يقدمونها. واشتُهر أحد ضباط الجمارك الفرنسيين بأنه غادر حلب بعد أن زادت ثروته بمقدار 50 ألف فرنك بعد ثلاثة أشهر من إقامته فيها!

من الأسباب الرئيسية للشكوى تعيين مستشارين فرنسيين في كل أقسام الإدارة المحلية، وعدم القدرة على اتخاذ أي قرار من دون موافقتهم. كما أثار الغضب استخدام الفرنسيين الجنود السنغاليين وإعطاؤهم أوامر صارمة باتباع القسوة وخلع الأبواب واستباحة حرمة البيوت، وكذلك تعامل الفرنسيين باستعلاء وازدراؤهم السكان المحليين، بمن فيهم النخب. وكما ذكر القنصل البريطاني، "أصبح الضباط الفرنسيون مكروهين لدى سيدات المجتمع المحلي الرفيع في بيروت... واعتُبرت كلمات 'السوري القذر' أو 'السورية القذرة' التي كان يتفوه بها الفرنسيون إهانة وطنية"[2]. بل إن الوجهاء المدنيين القلائل الذين نجح الفرنسيون في استمالتهم، مثل آل العظم أو اليوسف، أدركوا بأنهم كانوا ينعمون بقدر أكبر من الحرية والاحترام في ظل الحكم العثماني.

(1) Consul Palmer to Foreign Secretary, Damascus, 3 May 1921 (FO 371/6454).

(2) Consul R.A. Fontana to the Foreign Secretary, Earl Curzon, 21 December 1920 (FO 372/6453).

مع ذلك، وعلى الرغم من تصرفات الفرنسيين المقيتة، فإنهم لم يواجهوا مصاعب كبيرة في سوريا ولبنان في أوائل عشرينيات القرن العشرين (في البداية على الأقل) كتلك التي واجهها البريطانيون في العراق. ويرجع ذلك دون ريب إلى طريقة تقسيم الأراضي السورية، وإلى مغادرة معظم القادة الوطنيين البلاد مع الأمير فيصل.

لكن التحدي الحقيقي لحكم الفرنسيين جاء لاحقاً، مع اندلاع الثورة السورية الكبرى في سنة 1925. وبقيت المقاومة متفرقة حتى ذلك الحين. كانت كتائب الهجانة - وهي قوات تركب الجمال- ترسل لإخضاع القبائل المتمرّدة دائماً في الصحراء الشرقية المحيطة بدير الزور. وفي بلاد العلويين، أخمدت انتفاضة وحيدة بقيادة الشيخ صالح العلي في تشرين الأول/أكتوبر 1921. وقد مال العلويون على العموم إلى قبول الإدارة العسكرية الفرنسية التي صمّمت لتشجيع الخصوصية العلوية المتميّزة عن ما تبقى من سوريا ذات الأغلبية السنية.

في ذلك الوقت نفسه تقريباً، أخمدت القوات الفرنسية انتفاضات في حوران، واحتلت جبل الدروز في جنوب البلاد. وفي آب/أغسطس 1920، اغتيل الوجيه الكردي، عبد الرحمن اليوسف، الذي أيّد الفرنسيين وانضم إلى الإدارة التابعة لهم في دمشق برئاسة علاء الدين الدروبي، بسبب ميوله الفرنسية المعادية للوطنية السورية. فقد هاجمت مجموعة مسلحة قادمة من حوران القطار الذي كان يستقلّه عند وصوله إلى محطة خربة الغزالة. وقُتل الدروبي وأحد ضباط الارتباط الفرنسيين في الوقت نفسه. فعمد الفرنسيون إلى تدمير القرية بأكملها انتقاماً لمقتلهم. وفي منطقة حلب، ثار الزعيم الوطني إبراهيم هنانو على الفرنسيين في الأشهر الأخيرة من سنة 1920 وبداية سنة 1921. وما لبث أن لجأ إلى شرق الأردن عندما طارده الفرنسيون، لكن البريطانيين سلّموه إلى الفرنسيين فحوكم وصدر حكم بحقه. وأفرج عنه في النهاية بسبب شعبيته الكبيرة.

عندما وُقّعت الهدنة الفرنسية - التركية في تشرين الأول/أكتوبر عام 1921، شطرت الحدود الجديدة ولاية حلب العثمانية السابقة إلى قسمين. ففصلت الحواجز الجمركية المدينة عن أراضيها الداخلية ومركز تجارتها التقليدية في جنوب ووسط الأناضول. ربما كان هنانو يفضل أن تنضم حلب إلى تركيا الناشئة حديثاً بقيادة

مصطفى كمال على أن تصبح جزءاً من محمية يديرها الفرنسيون. ولو مُنح أهالي حلب حرية الاختيار لفضّل بعضهم الارتباط بتركيا الكمالية، أو حتى الحصول على المواطنة في دولة تضم شمال سوريا والعراق، بدلاً من الخضوع المذلّ لانتداب استعماري مركزه دمشق. بل إن حلب وافقت على مضض في أواخر عشرينيات القرن العشرين على أن تكون المدينة الثانية في الجمهورية العربية السورية، بعد مدينة دمشق، منافستها التقليدية[1].

في 27 حزيران/يونيو 1921، نجا الجنرال غورو بصعوبة من محاولة لاغتياله. كان متجهاً إلى القنيطرة في مرتفعات الجولان في موكب مكوّن من 4 سيارات، عندما اقترب منه أربعة رجال يمتطون الجياد، ويرتدون لباس الجندرمة، وأطلقوا النار على سيارته من على مسافة قريبة. انحنى الجنرال بسرعة، لكن ثلاث رصاصات اخترقت ملابسه. وقُتل مترجمه الملازم برانيه Branet. من المؤكّد تقريباً أن المهاجمين كانوا دروزاً من إمارة شرق الأردن، الأمر الذي زاد من سوء العلاقات البريطانية - الفرنسية. وعندما قام القنصل البريطاني، بالمر، بزيارة غورو لتهنئته بالنجاة من محاولة الاغتيال، انتظر مدة نصف ساعة، ثمّ أبلغ أن الجنرال لا يستطيع رؤيته لكثرة انشغاله[2].

انتقم الفرنسيون من القرى التي اعتُقد أنها تؤوي الثوار انتقاماً وحشياً. ولاسترضاء الفرنسيين، كتب ونستون تشرشل، وزير المستعمرات البريطاني، إلى الجنرال غورو في 31 آذار/مارس سنة 1921:

> إنني شديد الاهتمام بأن أقدّم لك حماية فعّالة من الغارات وكل ما يثير الانزعاج. لقد أجريت ترتيباً مؤقّتاً وغير رسمي مع عبد الله [في شرق الأردن] يستخدم بموجبه كل ما لديه من نفوذ لمنع أي اضطراب في المنطقة الفرنسية... الصعوبة الرئيسية التي سيواجهها هي السوريون المنفيون الذين يجوبون شرق الأردن مشرّدين وجائعين.

(1) Peter Sluglett, "Will the Real Nationalists Stand up? The Political Activities of the Notables of Aleppo, 1918-1946," in Méouchy, *France, Syrie et Liban*,. pp. 282-4.

(2) Consul Palmer to Foreign Secretary, Damascus, 27 June 1921 (FO 371/6461) and 4 July 1921 (FO 371/6455).

لم يتسلّم تشرشل أيّ ردّ على فرط اهتمامه، ولا يخلو ذلك من مغزى.

لـــذا عندما قدّمت وزارة الخارجية الفرنسية، في مناسبة أخرى، شكوى إلى لندن بشأن غارة انطلقت من شرق الأردن على السويداء، عاصمة الدروز، طُلب من اللورد هاردنج Hardinge، السفير البريطاني في باريس، أن يرد باقتضاب:

تدرك الحكومة الفرنسية، أن حكومة صاحب الجلالة تشعر بأنها ملزمة بالبيانات الـــتي قُـــدّمت إلى ملـــك الحجـــاز دعماً للتطلّعات القومية العربية في أثناء الحرب، وبالإعلانـــات الـــسياسية مثل إعلان اللورد أللنبـــي في 9 تشرين الثاني/نوفمبر 1918 بـــبذل أقصى الجهود في بلاد ما بين النهرين والأراضي العربية شرق نهر الأردن، التي تقع ضمن منطقة انتدابه لإقامة شكل من أشكال الحكم الذي يقبل به الشعب. وبما أن حكـــومة جلالـــة الملـــك تعمّدت رعاية نموّ المشاعر القومية من خلال قناة الشريف (حسين) ضدّ الأتراك، فإنها لا تستطيع عدم الاهتمام بهذه المشاعر بعد نهاية الحرب.

إن الحكـــومة الفرنسية... اعتبرت نفسها، غير ملزمة بما قدّمته حكومة صاحب الجلالة من التزامات في علاقاتها مع القوميين العرب وقياداتهم الشريفية... وهذا التباعد في الرأي... والسياسة... هو السبب الذي يفسّر لماذا أصبحت منطقة شرق الأردن... ملجـــأ لعـــدد كبير من العرب المنفيين من سوريا... الذين يكنوّن مشاعر العداء المرير لفرنسا"[1].

لقـــد أشار هاردنج إلى أن فرنسا جلبت المتاعب لنفسها، بزعمه أن طريقة تعامل بـــريطانيا مع القومية العربية تختلف عن الطريقة التي اتبعها الفرنسيون. لكن البريطانيين كانـــوا يتباهون ببلاهتهم في هذا الموقف. فلا شك أنهم لم يكونوا في وضع أفضل من الفرنـــسيين مـــن حيث الشعبية. فقد خانت بريطانيا العرب بالتخلي عن الأمير فيصل ودعمت استيلاء الصهاينة على فلسطين.

سياسة المنفى في القاهرة

تلك هي الصورة القاتمة التي واجهها رياض الصلح ورفاقه العرب في المنفى عندما

(1) FO 371/6561.

تجمّعوا مكتئبين في أوائل عشرينيات القرن العشرين في القاهرة، بعدما تبخّرت كل آمالهم بتحقيق الاستقلال. لقد وثقوا بالضمانات التي قدّمها لهم البريطانيون، وانضموا إلى قوات الحلفاء ضدّ العثمانيين، معرّضين أنفسهم للخطر الشديد. فدفعوا ثمناً باهظاً مقابل تغيير ولائهم بحماقة وقصر نظر. عُذّب قادتهم بوحشية في سجن جمال باشا الرهيب في القلعة في دمشق، وفي سجن عاليه. ومات المئات شنقاً، أو عانوا من النفي والفقر. واتضح الآن أن تلك التضحيات القاسية ذهبت سدى. كوفئ العرب، الذين حاربوا إلى جانب البريطانيين في سيناء وفلسطين وسوريا، بتقسيم أراضيهم والقضاء على الحكومة العربية في دمشق، وفرض الحكم الاستعماري الفرنسي والبريطاني عليهم بالقوة، وتسليم فلسطين إلى الصهاينة. بل إن الفرنسيين اعتمدوا في سوريا ممارسات جمال باشا القاسية بقتل الوطنيين أو نفيهم. واعتُقل معظم أعضاء الحكومتين اللتين شكّلهما الأمير فيصل، في وقت من الأوقات، وقدّموا أمام المحاكم العسكرية، أو صدرت بحقّهم الأحكام غيابياً. دفع هذا القمع الذي مارسه الفرنسيون العديد من السوريين إلى الفرار إلى أوروبا، وأميركا، والقاهرة. بدا المناخ السياسي في القاهرة أقل قسوة مما هو عليه في العواصم العربية الأخرى. ولم يكن رياض الصلح الوحيد المحكوم عليه بالإعدام بين الوافدين الجدد إلى القاهرة.

وجد هؤلاء الرجال المجهَدون في القاهرة جالية سورية راسخة، لها مؤسساتها التجارية، وصحفها، وقد فتحت لهم بيوتها ونواديها. ولكن إذا استثنينا هذه الميزة الحسنة الصغيرة، فإن حلمهم العظيم بالحرية للعرب تحوّل إلى كابوس. كانت المناقشات التي تجري في صالونات القاهرة السياسية التي يتردد عليها رياض تتّسم بالمرارة. وقد وجد أنه الأصغر سناً في مجتمع من المنفيين السياسيين، حيث الشخصيات البارزة فيه تكبره بعشر وعشرين وأحياناً ثلاثين سنة. كان هؤلاء رجالاً أثرياء وموهوبين، اكتسبوا التقدير في المهامّ المختلفة التي مارسوها، لكن الحظ خذلهم. كان الوضع بائساً بالنسبة إلى هؤلاء الرجال الأكبر منه سناً – وكثير منهم، مثل والده، كانوا مسؤولين في الإمبراطورية العثمانية. فاضطروا إلى التأقلم مع انهيار الإمبراطورية التي كانت عظيمة ذات يوم، وتوقّف مساراتهم المهنية البارزة، وخسارة المعاشات الكبيرة التي كانوا يتقاضونها. وعليهم الآن التكيّف مع التقسيم المضرّ لبلادهم، فضلاً

عن إملاءات الأسياد الاستعماريين الجدد، بعدما أزيلت بالقوّة المؤسسات والرموز التي طالما عرّفوا بها عن أنفسهم[1].

وكما هو الحال دوماً في مثل هذه الأوضاع، لم يكن هذا المجتمع المهاجر جسماً واحداً، بل تمزّقه الطموحات والخلافات الإيديولوجية، والتحالفات المتنافسة، والعداوات الشخصية الحادة. ومن أبرز الصالونات المرموقة في القاهرة في ذلك الوقت صالون ميشال لطف الله، وهو من نجوم المجتمع السوري - اللبناني في مصر. كان ميشال وشقيقاه أبناء حبيب باشا، وهو تاجر أرثوذكسي كبير، ومراب، استثمر الكثير من المال في زراعة القطن في وادي النيل، وأصبح من أكبر مالكي الأراضي في مصر وأغناهم. وقد منحته الحكومة المصرية لقب "باشا"، بينما منحه الشريف حسين لقب "أمير" بعدما عمل مستشاراً ومصرفياً له في أعقاب ثورة تركيا الفتاة في سنة 1908.

ولد ميشال لطف الله في سنة 1880 وورث عن والده ثروة كبيرة استخدمها في تحقيق طموحاته السياسية الكبيرة. في سنة 1910، في الثلاثين من عمره، انتخب في أول مجلس تشريعي في مصر، ممثلاً عن الجالية السورية. كان ناشطاً في "حزب اللامركزية" إلى أن تم حلّه في الحرب العالمية الأولى. وفي كانون الثاني/يناير 1919، حشد أعضاء حزب اللامركزية القدامى في أوساط الجالية السورية لتأسيس "حزب الاتحاد السوري". أرسلت نسخة من النظام الأساسي للحزب ولائحة بالواحد والعشرين عضواً في لجنته المركزية إلى وزارة الخارجية الفرنسية في باريس. ويقال بأن الأمير لطف الله أمل سراً أن يعتبره الفرنسيون مرشحاً لعرش دمشق، أو جعله على رأس إمارة لبنانية على الأقل، إذا تعذّر ذلك.

أيد لطف الله أيضاً المعسكر الهاشمي، ودعم الشريف حسين، كما فعل والده من قبله. فقد أعلن الشريف نفسه "ملك العرب"، إلى جانب حكم مملكة الحجاز التي أنشأها عند الثورة العربية في سنة 1916. ومثّل شقيق ميشال لطف الله الأصغر، وهو حبيب الصغير، مملكة الحجاز في مؤتمر السلام، وأنشأ في سنة 1923 سفارة لها في روما - أوّل سفارة عربية تفتتح في أوروبا. لم تدم مملكة الشريف حسين إلا إلى

(1) William L. Cleveland, *Islam Against the West: Shakib Arslan and the Campaign for Islamic Nationalism*, London and Austin, TX 1985, p. 47.

كانون الأول/ديسمبر 1925 عندما سقطت في أيدي مقاتلي ابن سعود بعدما تخلى عنه البريطانيون. وقد نجحت خلال سنواتها التسع في كسب اعتراف دولي، وأصبحت حليفاً لقوى الوفاق، وأحد الأعضاء المؤسسين في عصبة الأمم. غير أن الشريف حسين لم يصدّق على معاهدة فرساي زاعماً بحق أن الحقوق العربية انتهكت في المادة 22 من ميثاق عصبة الأمم التي شرّعت الانتداب.

من حلفاء ميشال لطف الله الرئيسيين في القاهرة الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، وهو طبيب درس في الكلية الإنجيلية السورية في بيروت [الجامعة الأميركية لاحقاً]. أيّد الشهبندر "تركيا الفتاة" في البداية، لكنه استاء من سياسات "التتريك"، فانتقل إلى الدعوة إلى المساواة بين العرب والأتراك. وعندما شعر أنه معرّض لخطر الإعدام، هرب إلى القاهرة في سنة 1916. وهناك أقام صداقات مع العديد من ممثلي الهاشميين والمسؤولين البريطانيين في "المكتب العربي"، خلال الحرب، ما أثار الشكوك بأن البريطانيين جنّدوه جاسوساً لهم. وعندما "تحررت" سوريا من الأتراك، عاد الشهبندر إلى دمشق حيث عيّنه الأمير فيصل ضابط الاتصال الرئيسي مع قوات أللنبي. ثم عيّنه وزيراً للخارجية في الأسابيع الأخيرة من عمر المملكة العربية، لتهدئة القوميين المتشددين الذين يتوقون لمحاربة فرنسا، ولكن دون جدوى. في أعقاب معركة ميسلون، وقبيل أن يصدر الفرنسيون على الشهبندر حكماً بالإعدام، فرّ ثانية من دمشق إلى القاهرة، حيث انضم إلى لطف الله وآخرين في مناقشة ما يجب عليهم فعله لمتابعة النضال.

كان رياض الصلح دائم التردّد على قصر لطف الله، حيث تعرّف عن قرب إلى الأمير ميشال والدكتور الشهبندر. غير أنه كان أكثر ميلاً إلى المعسكر المنافس بقيادة السياسي الأرستقراطي الأمير شكيب أرسلان، الذي أثّر فيه كثيراً. وُلد أرسلان في سنة 1869، وهو من عائلة درزية مرموقة في لبنان، أقل ثراء من عائلة لطف الله ولكن أعرق منها نسباً وأكثر تميّزاً. وكان مفكراً محنكاً وناشطاً سياسياً، برزت مواهبه الفكرية وهو لا يزال تلميذاً - في مدرسة مارونية في بيروت أولاً، حيث تعلّم اللغتين الفرنسية والعربية؛ ثم في المدرسة "السلطانية" الرسمية، حيث تعلّم اللغة التركية. تأثّر بالشيخ البارز والمصلح الإسلامي المصري محمد عبده. كان ذلك خلال السنوات التي أمضاها عبده في المنفى في بيروت، بعد الاحتلال البريطاني لمصر في سنة 1882.

بين سنتي 1913 و1918، شغل الأمير شكيب أرسلان مقعداً في البرلمان العثماني نائباً عن جبل لبنان. وأصبح من مؤيّدي الوحدة العربية - التركية تحت راية الإسلام. ولأنه مقرّب أيضاً من "تركيا الفتاة"، فقد استحسن دخول تركيا الحرب إلى جانب الألمان وأمضى وقتاً كبيراً في برلين. بالمقابل، ساند ميشال لطف الله الشريف حسين وفضّل التودّد إلى بريطانيا وفرنسا.

اتخذ شكيب أرسلان طوال حياته موقفاً معادياً للإمبريالية البريطانية والفرنسية، وبالتالي للهاشميين، إذ اعتقد - مصيباً كما تبيّن لاحقاً - أن "الثورة العربية" التي أطلقها الشريف حسين ليست سوى خطأ غادر ومكلف. ورأى أنه لا يمكن التصدي للتهديدات الغربية للعرب إلا ببروز قوة إسلامية تقوم على تراث إسلامي قوي، وهي فكرة تلاقي صدى كبيراً في العالم الإسلامي اليوم. وأن الخلاص يكمن في إعادة إحياء العالم الإسلامي، وأن الرابطة الإسلامية التي توحّد العرب والأتراك هي الحاجز الفعّال الوحيد الذي يقف في وجه جشع القوى الأوروبية التي تآمرت لتفكيك الإمبراطورية العثمانية، وترغب الآن في تقاسم المغانم. وما الانتداب البغيض سوى برهان آخر على الغدر الأوروبي[1].

كان إحسان الجابري حليف شكيب أرسلان الرئيسي في القاهرة. وُلد في سنة 1882، وبعد حصوله على شهادة عالية في الحقوق من باريس، عمل موظفاً في الإدارة العثمانية وحقّق نجاحاً. وكان شقيقه الأكبر، نافع باشا، عضواً في البرلمانين العثمانيين الأول والثاني، في حين أصبح شقيقه الأصغر، سعد الله - رفيق رياض الصلح منذ كانا في إستانبول - سياسياً وطنياً بارزاً في سوريا، ورئيساً للوزراء لاحقاً. وكانت عائلة الجابري من أرقى عائلات حلب وأكثرها نفوذاً سياسياً في تلك الفترة[2]. ونظراً لدراية إحسان ومعرفته بأوروبا، عيّنه الأمير فيصل رئيساً لديوانه في سنة 1918. كما عُيّن محافظاً لمدينة حلب، ولكن عندما احتل الفرنسيون سوريا، غادر أيضاً إلى القاهرة وحُكِم عليه بالإعدام غيابياً. اشترك إحسان الجابري في الرأي مع شكيب أرسلان

---

(1) المصدر نفسه، ص 8 وما يلي.

(2) عن عائلة الجابري ومناخ حلب السياسي في ذلك الوقت، انظر Keith David Waterpaugh, *Being Modern in the Middle East: Revolution, Nationalism, Colonialism and the Arab Middle Class*, Princeton, 2006.

بوجوب التحالف مع الأتراك ضد الإمبريالية الغربية، لا سيما أن مصطفى كمال كان يحـــارب الفرنسيين في كيليكيا في 1920 - 1921، ودأب على تزويد الثوّار المناوئين للفرنسيين في شمال سوريا بالسلاح[1].

ومـــن الشخصيات السورية التي برزت في القاهرة في ذلك الوقت الشيخ رشيد رضـــا. وُلد في سنة 1865، وأصبح من تلامذة الشيخ محمد عبده، ومدافعاً مخلصاً عن أفكـــاره. في سنة 1897، غادر رشيد رضا سوريا إلى القاهرة، وفي السنة التالية أصدر العـــدد الأول من مجلته المنار التي واصل إصدارها بانتظام إلى حدّ ما حتى وفاته في سنة 1935. وأصـــبحت المـــنار الوســـيلة الرئيسية لنشر أفكار محمد عبده عن الإصلاح الإسلامي وتفسيرها.

لم يكـــن رشيد رضا عالم دين فحسب، بل ناشطاً سياسياً أيضاً. وقد أدّى دوراً كبيراً في النضال السياسي السوري منذ ثورة "تركيا الفتاة" وما تلاها. انضم إلى حزب اللامركزية قبل سنة 1914 وشارك في المفاوضات الصعبة مع البريطانيين إبان الحرب، وتـــرأس المؤتمـــر السوري العام الذي أعلن استقلال سوريا في دمشق في 8 آذار/مارس 1920، وهو المؤتمر الذي شارك فيه رياض الصلح ووالده وابن عمه عفيف[2].

لم يكـــن رشـــيد رضـــا في معـــسكر لطف الله والشهبندر، فهو لا يشاركهما تعاطفهما مع الهاشميين. لكنه لم يكن راضياً أيضاً عن تحالف أرسلان والجابري. بل إنه تخاصـــم مع شكيب أرسلان بشأن العلاقات العربية التركية. ففي حين واصل أرسلان الدعوة إلى الوحدة بين العرب والأتراك بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية، فإن رضا أصرّ على انفصالهما وحمّل العثمانيين مسؤولية تدهور العالم الإسلامي. لكنه كان من دعاة قوامة العرب في العالم الإسلامي الكبير.

شـــكّل أعـــضاء "حـــزب الاستقلال العربـــي" مجموعة أخرى من الناشطين في القاهـــرة في ذلـــك الـــوقت، وكان هذا الحزب قد أنشئ بمثابة جبهة سياسية لجمعية "العربية الفتاة" السرية. اتخذ أعضاء هذا الحزب مواقع مختلفة، تبعاً للسنّ، ما بين جيل

(1) Philip S Khoury, 'Factionalism among Syrian Nationalists During the French Mandate,' *International Journal of Middle Eastern Studies*, 13 (1981) pp. 441-469.

(2) انظر الفصل المتعلّق برياض الصلح في Albert Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age, 1798-1939*, Oxford 1962, pp. 222-44.

شكيب أرسلان وجيل رياض الصلح. وكان من أبرز الاستقلاليين في القاهرة، عادل أرسلان، وهو الشقيق الأصغر لشكيب أرسلان، والوجيه الدمشقي شكري القوّتلي. وُلد عادل في سنة 1882، وعمل لدى الدولة العثمانية قائم مقام لمنطقة الشوف في لبنان في 1915 - 1916، وعندما تولّى فيصل الحكم، رُقّي إلى متصرف جبل لبنان، وهو المنصب الذي شغله إلى أن طرده منه الفرنسيون. ووُلد شكري القوّتلي في سنة 1886، وصنع شهرته كواحد من أوائل القوميين الملتزمين وعضو في جمعية "العهد". انضم إلى إدارة فيصل، لكنه توجّه إلى القاهرة بعدما أقصي فيصل.

كان رياض أقرب إلى الاستقلاليين وسط كل هذه المجموعات المتنافسة في القاهرة. فهم مناوئون للبريطانيين، والفرنسيين، والهاشميين، ومن دعاة القومية العربية المفوّهين، ومؤيّدون مخلصون للقضيتين العربية القومية والفلسطينية[1]. تلك هي المشاعر التي تشاركها معهم، بل إنه كان قد انضم إلى حزب الاستقلال في دمشق. فسهّل له ذلك الاتصال بشكري القوّتلي وشكيب أرسلان الذي عمل معه عن قرب لاحقاً في جنيف.

المؤتمر السوري الفلسطيني في جنيف

كانت الدعوة إلى اجتماع عدد كبير من القوميين العرب في جنيف من بنات أفكار الأمير ميشال لطف الله. فقد بادر حزب الوحدة السورية - وهو الحزب الذي أسسه في سنة 1919 وترأسه - إلى دعوة كلّ المؤيّدين البارزين للاستقلال والوحدة السورية إلى الاجتماع. وقد تحمّل ميشال وشقيقه جورج، معظم الأعباء المالية الكبيرة. اختيرت جنيف مكاناً للاجتماع لأن الجمعية العمومية الثانية لعصبة الأمم، ستعقد اجتماعها هناك بين 5 أيلول/سبتمبر و5 تشرين الأول/أكتوبر، لمناقشة مسألة الانتدابات.

أصبحت جنيف بين الحربين منتدى السياسة الدولية دون منازع، حيث قصدها ممثّلون عن اثنتي عشرة قضية وطنية لعرض حالاتهم أمام عصبة الأمم، ولم يكن أحد منهم أكثر إصراراً ومواظبة من العرب، في عشرينيات القرن العشرين. رأى لطف الله

(1) Khoury, 'Factionalism', p. 449.

أن المؤتمـــر الذي دعا إليه سيوحد الحركة الوطنية السورية، ويخرج بموقف موحّد من الانتدابات، ويطلع عصبة الأمم على الظلم الكبير الذي لحق بالعرب. وظنّ أن من غير المعقول أن تبرّر عصبة الأمم الطريقة التي فُرضت بها الانتدابات.

افتُـــتح المؤتمـــر التأسيسي - عُرف في البدء باسم المؤتمر السوري لكن أشير إليه باسم المؤتمر السوري الفلسطيني - في 25 تموز/يوليو 1921، وحضره مندوبون من شتى أنحاء العالم. وقد شكّل أول تعبير منظم عن احتجاج العرب على الانتدابات[1]. جاءت مجمـــوعة كبيرة من الممثلين من القاهرة، منهم الأمير ميشال لطف الله نفسه، والشيخ رشـــيد رضا، وكان رياض الصلح أحد ممثلي حزب الاستقلال. وحضر الأمير شكيب أرســـلان وشكري القوتلي قادمين من برلين، حيث كانا في ذلك الوقت. وجاء عدد مـــن المـــندوبين مـــن بيروت، والأراضي الداخلية السورية، لكن أسماءهم بقيت طي الكتمان لحمايتهم من العقاب القاسي الذي هدّدت المفوضية الفرنسية العليا أن تنـــزله بكـــلّ من يحضر. مثّل أحد المندوبين أعضاء مجلس إدارة جبل لبنان السابق الذين نفوا إلى كورسيكا لأنهم وافقوا، بتشجيع من رياض الصلح، على الوقوف إلى جانب الأمير فيـــصل ضد فرنسا. وأرسل الفلسطينيون في القدس ومصر مندوبين عنهم، كما فعلت جمعيات السوريين في المنفى في نيويورك وبوسطن، وتشيلي، والأرجنتين.

كانـــت أولى مهام المندوبين انتخاب ثلاثة من بينهم لشغل المناصب الأساسية في اللجـــنة التنفـــيذية للمؤتمر. انتُخب الأمير ميشال لطف الله رئيساً، ورشيد رضا نائباً للرئيس، والأمير شكيب أرسلان أميناً عاماً. ومع قدوم العديد من الصحافيين الأجانب إلى جنـــيف لتغطـــية أعمـــال الجمعية العمومية لعصبة الأمم، اغتنم لطف الله الفرصة للدعـــوة إلى مؤتمـــر صـــحافي[2] يرمي إلى إطلاع عصبة الأمم والسويسريين والعالم علـــى "حقـــيقة المـــسألة السورية": أن الانتدابات تناقض مبادئ الحلفاء والعهود التي

---

(1) Philip S. Khoury, *Syria and the French Mandate: The Politics of Arab Nationalism, 1920-1945*, London and Princeton 1987, pp. 220-27; Marie-Renée Mouton, 'Le Congrès syro-palestinien de Genève (1921)', in *Relations Internationales*, no. 19, (autumn 1979), pp. 313-328; Antoine Fleury, 'Le movement national arabe à Genève durant l'entre-deux-guerres', in *Relations Internationales*, no. 19, (autumn 1979), pp. 329-354; W.L. Cleveland, *Islam Against the West*, *p.* 49.

(2) Mouton, 'Le Congrès syro-palestinien', p. 49.

قطعوها، وأن الشعب السوري يرفضها، ويطالب بحقه الطبيعي باستشارته بشأن مستقبله، ويريد استقلاله بضمانات دولية.

شجب عملاء الاستخبارات الفرنسية، في السفارة الفرنسية في بيرن، اجتماع جنيف ووصفوه بأنه "مكيدة إنكليزية - سورية ضد فرنسا"، لكن لطف الله استبعد هذه الاتهامات المغلوطة قائلاً: "إننا نريد الحفاظ على علاقاتنا التقليدية مع فرنسا. لكننا نرفض أي سيطرة أجنبية. لا نريد أن يكون الفرنسيون أسيادنا". ودعا لطف الله عدداً من الصحافيين إلى عشاء فاخر كرّر فيه الرسالة نفسها. وأنكر تماماً الإشاعات عن وجود يد بريطانية خفية وراء المؤتمر. وقال إن السوريين صدّقوا ذات يوم مهمة فرنسا التحريرية، لكنهم وجدوا أنفسهم خاضعين لنظام استعماري قمعي.

شجب أعضاء آخرون في المؤتمر القسوة العسكرية الفرنسية: القصف التمشيطي للقرى الثائرة، وأحكام الإعدام التي صدرت غيابياً، والأحكام العرفية التي يفرضها جيش احتلال يبلغ عدده 80,000 جندي؛ وكشفوا رداءة نوعية المسؤولين الفرنسيين الذين أُرسلوا لحكم سوريا، ومعظم السوريين أكثر تعلماً ورقياً منهم.

كان الشاغل الرئيسي لمندوبي القدس النضال ضدّ الصهيونية. وكانوا قد قدموا إلى جنيف من لندن، حيث حاولوا في محادثاتهم مع المسؤولين البريطانيين إلغاء وعد بلفور، الذي وصفه الكونت برنادوت بعبارة لا تُنسى، أنه وعد "تعهّدت فيه أمّة لأمّة أخرى بمنحها بلاد أمة ثالثة". كانوا يريدون الإلغاء الكلي لمبدأ إقامة "وطن قومي" لليهود على أرضهم. ونزولاً عند طلب الفلسطينيين، تمّ تغيير اسم المؤتمر إلى المؤتمر السوري - الفلسطيني، للدلالة على خطورة ما يحدث على الأرض. ولكن ذلك لم يحظَ بتأييد من الجميع، ما أنذر بالانقسام الذي وقع في سنة 1922، عندما انسحب المندوبون الفلسطينيون غاضبين من المؤتمر، احتجاجاً على عدم إيلائه الاهتمام الكافي بقضيتهم الملحّة.

على الرغم من الجهود الكثيفة التي بذلها المؤتمر، فإنه واجه خيبة أمل مريرة. فقد قرّر مجلس عصبة الأمم عدم البحث في مبدأ الانتداب أو في إلغاء أي من القرارات العليا المتخذة في سان ريمو. بل لم يُمنح المندوبون السوريون واللبنانيون والفلسطينيون

الفرصة لعرض قضيتهم على المجلس! بعد هذه النكسة، علّق المجلس اجتماعاته من 9 إلى 20 أيلول/سبتمبر، ثم عقد جلسة ختامية في 21 أيلول/سبتمبر صدر عنها خمسة قرارات بالإجماع وهي كما يلي:

1. الاعتراف باستقلال سوريا ولبنان وفلسطين وسيادتها.
2. حق هذه البلدان في الوحدة في ظلّ حكومة برلمانية مدنية، والاتحاد الفيدرالي مع الدول العربية الأخرى.
3. الإنهاء الفوري للانتداب.
4. جلاء القوات الإنكليزية - الفرنسية عن سوريا ولبنان وفلسطين.
5. إلغاء وعد بلفور.

قُدِّمت هذه القرارات بعد ذلك إلى عصبة الأمم مع تجديد الطلب بإجراء "تحقيق نزيه لكشف الأوضاع الحقيقية السائدة في البلاد، والتأكّد من أن هذه القرارات الختامية تعكس تطلّعات الشعب بحق". من الواضح أن هذه القرارات كانت عروبية في معناها، ما يشير إلى أن غالبية المندوبين في المؤتمر تجاوزوا تطلعات حزب الاتحاد السوري بزعامة لطف الله إلى إقامة "سوريا الكبرى"، باتجاه القومية العربية الشاملة للاستقلاليين وشكري القوتلي، التي أضاف إليها شكيب أرسلان نبرة إسلامية مثيرة. فقد حظي نجاح مصطفى كمال في ذلك الصيف في طرد اليونانيين من الأناضول، بإعجاب العرب، ما أحيا آمال أرسلان بالتحالف مع الكماليين، الذين لم يجرّبوا بعد، لطرد الفرنسيين من سوريا.

لم ينجح المؤتمر في وضع حدّ للخلافات العميقة بين أعضائه البارزين سوى على الورق. فلم يكن من السهل التوفيق بين ميشال لطف الله المسيحي المتعلّم في الغرب، أو عبد الرحمن الشهبندر الطبيب العلماني، وبين شكيب أرسلان ورشيد رضا، الإسلاميين ذَوَي الثقافة العثمانية.

كان الشريف حسين يتابع من مكة النقاشات بين المنفيين السوريين في القاهرة، ويعرف تماماً من منهم يمكنه الاعتماد عليهم كموالين له، ومن يعتبرهم أخصاماً له. وعندما قدم شقيق ميشال لطف الله، جورج، إلى جدة في 25 تشرين الثاني/نوفمبر 1921 لطلب المساعدة للمؤتمر، أقام حسين مأدبة على شرفه، ولكنه اعتذر عن عدم

المـــساعدة لأن اثـــنين من أعضاء المؤتمر، الشيخ رشيد رضا وشكيب أرسلان، يكنّان العداء له شخصياً وللحجاز[1].

فـــيما حـــاول الفلسطينيون والعراقيون واللبنانيون التأقلم مع القيود التي فرضتها علـــيهم الانتدابات في بلادهم، بدأت تظهر ولاءات وطنية مميّزة. لكن الخسائر توالت على السوريين. فقد أدى سلخ لبنان وفلسطين عن سوريا الجغرافية، بتآمر أوروبـــي، وتقـــسيم مـــا تبقّى منها إلى "دويلات" صغيرة، إلى جعل مشاعرهم الوطنية من دون هـــدف محدد. نتيجة لذلك، اتجهت القومية "السورية" إلى الخارج، وحلّت محلها قومية عـــربية أوسع. وسادت الفكرة المفرطة في التفاؤل بأن تحقيق الوحدة مع البلدان العربية الأخـــرى قد يكون أسهل من إعادة توحيد سوريا الجغرافية على الفور، وربما الخطوة الضرورية الأولى لتحقيق ذلك الهدف[2].

أنهـــى المؤتمر عمله بقرار إنشاء لجنة تنفيذية مقرّها القاهرة (لقي ترحيباً باعتباره خطـــوة علـــى الطـــريق لإحياء الآمال العربية) بالإضافة إلى مكتب تمثيلي في جنيف. وأصبح هذا المكتب يُعرف باسم البعثة الدائمة للمؤتمر السوري - الفلسطيني إلى عصبة الأمـــم، وكـــان يديره الأمير شكيب أرسلان وإحسان الجابري، وهما الرجلان اللذان أصبحا من أوثق زملاء رياض الصلح في السنوات التالية.

سُمح لصحافي واحد، سويسري من أصل مصري، يدعى علي الغاياتي، بمتابعة جلـــسات المؤتمر من داخل قاعة المؤتمرات. وكان قد أُجبر على الهرب من مصر في ســـنة 1910 بعدما نشر مجموعة من القصائد الوطنية التي لم يرضَ عنها البريطانيون ولا الخديـــوي. استقرّ الغاياتي في جنيف وتزوج من ابنة مدّعٍ عام سويسري، وقد ساعده ذلك في توطيد مكانته في المجتمع السويسري. فأصبح محرراً في صحيفة "لا تـــريبيون دي جنيف" *La Tribune de Geneve*، ومراسل "كورّسبوندنس دوريَنت" *Correspondence d'Orient* في جنيف، وهي مجلة تصدرها مرة، كل شهرين، اللجنة الـــسورية المركـــزية في باريس. وقد نشر في هاتين الصحيفتين، في السنوات اللاحقة، العديـــد من الرسائل والعرائض، والمذكرات والتلغرافات التي وجهتها اللجنة التنفيذية

(1) Jiddah report by Major W.E. Marshall, British Agent and Consul, October-November 1921 (FO 371/6255).

(2) Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age*, p. 317.

للمؤتمر السوري الفلسطيني إلى عصبة الأمم - وحمل العديد منها توقيع شكيب أرسلان، وإحسان الجابري ورياض الصلح - فضلاً عن تقارير لجنة الانتدابات، والخطابات التي ألقيت في الجمعية العمومية لعصبة الأمم.

لكن هذا السيل من الاعتراضات والعرائض لم يحقّق أي نتيجة. لم تكن فرنسا وبريطانيا مستعدّتين للتراجع. بل إن عصبة الأمم ذهبت إلى حدّ إقرار نصوص الانتدابات ذاتها في سنة 1922. وعلى الرغم من الجهود الهائلة التي بذلها المؤتمر، فإنه لم يجتذب إلا القليل من الاهتمام الدولي. بدت هذه الجهود على نحو متزايد أنها محاولة يائسة لتغيير نتيجة معركة خاسرة. ومع اقتراب نهاية المؤتمر، نشرت صحيفة "لو تن" *Le Temps* الفرنسية خبراً هامشياً قصيراً في 19 أيلول/سبتمبر تحت عنوان: "ما يسمى الوفد السوري". وفي الجمعية الوطنية الفرنسية، أعلن رئيس الوزراء، أريستيد بريان Aristide Briand، بصوت رنّان أن التعاطف مع فرنسا في ازدياد في سوريا، وأن فرنسا أمة كريمة ومتسامحة تحمل الإصلاحات إلى الشعوب الموالية. وسخر من المندوبين في جنيف ووصفهم بأنهم مجموعة من المحرّضين والمتآمرين الذين يفتقرون إلى الجذور، ويتلقّون المال من أعداء فرنسا.

عاد رياض الصلح إلى القاهرة بعد انتهاء المؤتمر. وقد تردّت أوضاعه المالية دون المستوى المنخفض المعتاد، واستبدّ به الحنين إلى الوطن. وعلى الرغم من أنه لم يبلغ الثلاثين من العمر بعد، فإنه ترك بصماته في جنيف، واستطاع أن يثير إعجاب رجال أكبر منه سناً وأكثر منه خبرة. لقد حان الوقت للعودة إلى الوطن والتفكير في الخطوة التالية.

في كانون الأول/ديسمبر 1923، استقبل أخبار إلغاء الحكمين الصادرين بحقّه بارتياح كبير. وبعد بضعة أسابيع، في أوائل سنة 1924، عاد إلى بيروت لأول مرة منذ أربع سنوات تقريباً، مزوّداً بشهادة حسن سلوك من المفوّض السامي الفرنسي، الجنرال ويغان. وعند وصوله، شعر بخيبة أمل عندما اكتشف أن والده أُجبر على تقديم ضمانات إلى السلطات الفرنسية بأن ولده سيبتعد عن السياسة. لكن ذلك القيد، بالنسبة إلى رجل مثل رياض الصلح، كان مستحيلاً تماماً فقرّر عدم الالتزام به أياً تكن النتائج.

مغامرة رياض الصحافية

طالمـا حلـم رياض بامتلاك صحيفة، إذ شعر أنها أداة ضرورية في الكفاح الذي انخـرط فيه. كان يحبّ أن يداعب ابنته الكبرى علياء قائلاً إن الصحافة تشبه "زوجة الحكومة"، فعليها يتوقّف السلام في المنـزل. عندما ترضى الزوجة يسود السلام، وإذا غـضبت تحوّلت الحياة إلى جحيم. وكان يقول إن "للصحافة ميزة تتفوق بها علينا نحن الـسياسيين. فـبإمكانها مخاطبة جمهور واسع بسرعة وانتظام. كما أن قراءة الصحف يومياً يمكن أن تؤثّر في عقلية المرء بطريقة لا يستطيع أن يحلم بها أي سياسي[1]!

بعد عودة رياض إلى لبنان في سنة 1924، سارع إلى إنشاء صحيفة تعبّر عن تطلّعات العـرب. وقـد شاركه في هذا المشروع خير الدين الأحدب، وهو من عائلة مسلمة سنية أصلها من مدينة طرابلس، إلا أنها استقرّت في بيروت. وكان جدّ الأحدب قاضياً عثمانياً. درس خير الدين الرياضيات في جامعة السوربون، وعند عودته إلى بيروت، وجد عملاً في المفوّضـية الفرنسية العليا. كما عمل مدّة من الزمن في أملاك عمه في وادي البقاع حيث تعـرّف إلى أولغا مسلّم وتزوجها، وهي فتاة مسيحية من عائلة بارزة في زحلة. كان شاباً يـتوق إلى الـنجاح الـسياسي والاجتماعي في هذه المدينة الكبيرة، وربما اعتقد أن تحرير جـريدة يـساعده في تحقـيق ذلك. وكان قومياً عربياً بكل معنى الكلمة، شديد الانتقاد للـسياسيين المـوارنة في جبل لبنان الذين تتباين نظرتهم الضيقة، وتحيزّهم ضد العرب، مع التعايش بين المسلمين والمسيحيين في بيروت والمدن السورية الساحلية الأخرى.

لإطلاق الصحيفة، باعت نظيرة، والدة رياض، عقاراً تمتلكه في بيروت، ما مكّن الـشابين مـن استئجار غرفتين في الطابق السفلي من بناية تقع خلف مدرسة الليسيه الفرنـسية القديمة على طريق الشام. اختارا لصحيفتهما اسم **العهد الجديد**، وهو يرمز إلى العهد الجديد من الحرية يتطلّعان إليها.

عُقد اتفاق بين الرجلين ينصّ على ما يلي:

> يُـصدر الفـريقان جـريدة سياسية من أربع صفحات، ثلاث منها باللغة العـربية، وواحـدة باللغة الفرنسية، باسم **العهد الجديد**. وتكون الملكية مشتركة بينهما، كما يتقاسمان النفقات والعائدات بالتساوي.

(1) Alia el-Solh, *Le Jour* (Beirut), 28 November 1965.

يُسمى خير الدين الأحدب مؤسس الصحيفة والمدير المسؤول عنها، لكن ذلك لا يعطيه أي ميزة على شريكه، رياض الصلح، الذي يمكنه، في أيّ لحظة، وضع اسمه أيضاً كمؤسس ومالك للصحيفة.

تتخذ كل القرارات المتعلقة بالصحيفة (إدارتها، ومحتواها، وطباعتها، وتوزيعها، وعقودها، والاتفاقات التي تعقدها من أي نوع مع الأطراف الثالثة) بالتوافق في ما بينهما.

يجب أن تُكشف كل النفقات والواردات إلى الفريق الآخر وأن يوافق عليها.

يحدّد الاتجاه السياسي للصحيفة في العدد الأول، ولا يحق لأي فريق تغييره أو تعديله من دون موافقة الفريق الآخر.

إذا أغلقت السلطات الصحيفة، أو علّقت صدورها، وإذا قرّر الفريقان إصدار صحيفة أخرى، أو الصحيفة نفسها باسم آخر، أو بشكل آخر، أو نقل مكاتبها من بيروت، فإن هذه الاتفاقية تطبّق على الصحيفة الجديدة، أينما صدرت وبأي اسم.

لا يحق لأي فريق أن ينفصل عن الآخر لتأسيس صحيفة أخرى، أو مشاركة مالك آخر، أو الاستفادة بأي طريقة من المشتركين في **العهد الجديد**، إلا بموافقة الفريق الآخر.

يسري هذا العقد لمدة سبع سنوات من تاريخ التوقيع. وعندما تنتهي مدته يحق للفريقين تجديده، أو تعديله، أو إلغاؤه.

إن بنود هذا العقد ملزمة للفريقين. وفي حال حدوث أي انتهاك لها، يدفع الفريق المخلّ غرامة قيمتها ألف ليرة ذهبية للتعويض على الفريق الآخر".

وكما أُشير، اتفق الطرفان على أن يظهر اسم خير الدين الأحدب وحده في رأس الصحيفة، وأن يوقّع بمفرده المقالات الافتتاحية. فإبراز اسم رياض لن يخدم مصالحهما في هذه المرحلة، لأن مكتب الصحافة في المفوّضية العليا لن يسمح بإصدارها. فقد اصطدم رياض كثيراً بالفرنسيين، وكانوا يمقتونه. وفي غضون ذلك، واصلت نظيرة تسديد الفواتير المتزايدة. تكوّن فريق العمل من خير الدين الأحدب، رئيس التحرير؛

وريـــاض الصلح، خبير الشؤون العربية (والمراسل في الخارج عندما يكون في المنفى أو يجـــبر على الفرار إلى الخارج)؛ وأحمد دمشقية، السكرتير ومنضّد الحروف؛ وأبو علي السردوك، البواب والحمّال. وكان السردوك يحمل الصفحات المنضّدة على ظهره كل ليلة إلى مطبعة "المعرض" التي يملكها ميشال زكّور، صديق رياض الذي كان يقدم لهما أسعاراً مخفّضة، بل يقوم بذلك أحياناً من دون أي مقابل.

لم يكـــن بالإمكان تجنّب انقطاع صدور الصحيفة أو تعليقه. كان التاجر الذي يـــزوّد الصحيفة بالورق يمتنع عن التسليم بسبب التأخر في الدفع، أو يُضرب أبو علي عن العمل بسبب أجره. وفي بعض الأحيان توقف المفوّضية العليا الصدور بضعة أيام، أو بضعة أسابيع. وفي إحدى المناسبات، قرّرت المفوّضية أن الصحيفة مفرطة في الثورية فأغلقـــتها كلـــياً، وختمت باب مكتبها بالشمع الأحمر. لكن الصحيفة كانت تعاود الـــصدور بطريقة أو بأخرى. على سبيل المثال صدر العدد 475 (الذي يملكه المؤلف) يوم الاثنين في 14 أيار/مايو 1928 في السنة الرابعة من نشرها.

كانت كلفة النسخة الواحدة من الصحيفة قرشاً سورياً واحداً، ويكلّف الاشتراك الـــسنوي في بيروت ليرة تركية ذهبية واحدة. أما الاشتراك في الخارج فيكلّف جنيهين إسترلينيين. لكن جمع الأموال من أجل الاستمرار في الصدور ظلّ مشكلة دائمة. وذكر الأمن العام الفرنسي في بيروت، في تقرير رفعه إلى باريس في 2 حزيران/يونيو 1927 أن رضـــا الصلح، والد رياض، وصل إلى بيروت، واتصل بعدد من أعضاء جمعية الشبان المـــسلمين، وتحديـــداً الإخوة جبر وعبد الرحمن ومحمد علي بيهم لزيادة الاشتراك في **العهد الجديد**.

كانـــت الـــصحيفة رائدة لصحف أخرى كرّست لقضية الاستقلال عن فرنسا. ومـــنها صحيفة **الشعب** التي أسست في سنة 1927 برعاية جميل مردم، وكانت تابعة للكـــتلة الوطنية السورية. وتأسّست صحيفة **القبس** الأكثر راديكالية بعد ذلك بسنة، وقد خلفت الجريدة الوطنية الشهيرة **المقتبس**، وكان يصدرها ويحررها عادل كرد علي ونجيب ومنير الريس.

سرعان ما أمدّت الثورة السورية الكبرى في 1925-1926 صحيفة **العهد الجديد** بموضـــوع رئيـــسي. فقـــد جاهرت بعدائها للفرنسيين، وزجّت بنفسها قلباً وقالباً في

النضال، ما أدى إلى إغلاقها مرات عديدة. ودفعت الثورة برياض الصلح إلى المسرح الدولي، إذ سرعان ما سافر إلى الخارج باذلاً أقصى ما يستطيع لتنبيه الرأي العام العالمي إلى ما يحدث في سوريا. فأطلقته الثورة مدافعاً عالمياً عن القضية العربية. وسرعان ما أدرك أن الهزيمة المأساوية التي لحقت بالوطنيين تتطلّب إدخال تغيير جذري في التكتيكات المتبعة. بدلاً من الدخول في معركة غير متكافئة مع الجيش الفرنسي في جبل الدروز وفي القرى المجاورة لدمشق - وتلك محاولة انتحارية كما تبيّن - فإن الحكمة تقتضي السعي إلى كسب قلوب الفرنسيين وعقولهم في العاصمة الفرنسية نفسها. فلن تتغيّر سياسة الحكومة الفرنسية في سوريا إلا بإقناع الرأي العام الفرنسي بأخطائها. وعلى الوطنيين خوض معركتهم في فرنسا بدلاً من خوضها في سوريا.

رأى رياض أن على الوطنيين السعي لوضع الحكومة الفرنسية في قفص الاتهام أمام الرأي العام العالمي. ويمكن القيام بذلك على أفضل وجه بممارسة الضغوط على عصبة الأمم التي أنشئت حديثاً في جنيف، لا سيما لجنتها الدائمة للانتدابات. وبناء على ذلك، وجّه رياض الصلح وزميلاه الأكبر منه سناً، الأمير شكيب أرسلان وإحسان الجابري، من مكتب أنشئ في جنيف في النصف الثاني من عشرينيات القرن العشرين، سيلاً من العرائض والرسائل والمذكّرات المتعلّقة بموضوع الاستقلال السوري. لم يكتسب رياض الصلح سمعته في حمل راية القومية العربية في دمشق وحلب وبيروت فحسب، وإنما أيضاً في قاعات الانتظار في الجمعية الوطنية الفرنسية، وفي مكاتب الأنباء في الصحف الفرنسية، وفوق ذلك كله، في مكتب جنيف الذي يمارس الضغوط على عصبة الأمم. فما من قومي عربي من أبناء جيله كان أكثر منه مثابرة في السعي للدفاع عن القضية العربية في أوروبا. وفي غضون ثلاث سنوات فقط، شهدت مكانة رياض الصلح وسمعته تغيّراً جذرياً. ففي سنة 1924 لم يكن اسمه معروفاً كثيراً خارج دوائر المنفيين العرب، لكنه أصبح شخصية شهيرة في العالم العربي بحلول سنة 1927. وهكذا لم يعد موضع اهتمام متزايد من السياسيين ووسائل الإعلام فحسب، وإنما من أجهزة الأمن في فرنسا والبلدان الأوروبية الأخرى أيضاً.

الفصل السابع

الثورة السورية الكبرى

بـــدأت ثـــورة 1925 - 1926 ضد الفرنسيين، التي يسميها السوريون "الثورة الكـــبرى"، في جـــبل الدروز في جنوب البلاد، وانتشرت في ما بعد إلى دمشق وحماة ومـــناطق أبعد في الشمال. وعلى الرغم من أن إخمادها أوقع خسائر كبيرة في الأرواح ودمـــاراً واســـعاً، فإنّهـــا أصبحت معلماً بارزاً في الكفاح السوري لنيل الاستقلال. وتحـــوّلت إلى ملحمة وطنية لا تقل أهمية عن انتفاضة 1920 - 1921 في العراق على الـــبريطانيين. وبوقـــوف هاتين الثورتين الشعبيتين في وجه المزاعم الإمبريالية الفرنسية والـــبريطانية، فإنهما أحدثتا تأثيراً كبيراً - لا يزال قائماً حتى اليوم - في الهوية الوطنية لكل من سوريا والعراق.

كـــان دروز سوريا، ولا يزالون، يشكلون مجتمعاً صغيراً ميّالاً إلى القتال، ينحدر إلى حدٍّ كبير من أصول عربية مع بعض العناصر الكردية والفارسية. وهم يعتنقون ديناً يفهمـــه الخاصّـــة من الناس يرتبط بشكل من أشكال التشيّع. وبالإضافة إلى الاعتقاد بالجـــبرية وتناســـخ الأرواح، فـــإن الدروز يعتبرون الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله التجسيد الإلهي الأخير في شكل بشري. أسس هذا المذهب الغامض قبل نحو ألف سنة رجـــل يدعـــى دَرَزَي، وهو من أصول تركية - فارسية. وتمتع أتباعه بنوع من العزلة والاستقلالية في جبال سوريا الجنوبية حتى الأزمنة الحديثة، وعاشوا في مجتمعات قروية صـــغيرة تحت سلطة "العقلاء" المحليين، حماة العقيدة، الذين يخضعون بدورهم لأمير أو أكثر[1]. وتوجد الطائفة الدرزية اليوم في سوريا ولبنان وفلسطين.

وصل النفوذ الدرزي إلى ذروته في أوائل القرن السابع عشر، في ظلّ الأمير فخر الـــدين الثاني، (1585-1635)، وهو شخصية ذات مكانة أسطورية، تمكّن من بسط

(1) انظـــر Philip K. Hitti, *The Origins of the Druze People and Religion, with extracts from their sacred writings*, New York, 1928.

نفوذه على معظم أنحاء سوريا. وعندما أرسل العثمانيون جيشاً لإخضاعه، هرب ولجأ إلى بـــلاط آل مديتشي في فلورنسا. وفي وقت لاحق، في أثناء الحرب الأهلية في سنة 1860 في جـــبل لبـــنان، قتل الدروز أكثر من عشرة آلاف مسيحي في زحلة، ودير القمـــر، وحاصبيا وغيرها من البلدات والقرى اللبنانية، ما أدى إلى تدخل أوروبـــي قوي.

عـــندما ســـيطر الفرنسيون على سوريا في سنة 1920، أصدروا ما أسمي "ميثاق اســـتقلال الدروز" وأقاموا دويلة درزية تخضع في الظاهر لسلطة حاكم درزي يعاونه مجلس منتخب. لكن عندما رابطت حامية فرنسية في السويداء، عاصمة الدروز، أصبح المجـــتمع الـــدرزي بأكملـــه خاضعاً للرقابة الفرنسية. عيّن الفرنسيون سليم الأطرش حاكمـــاً، وهو ينتمي إلى عشيرة ذات مكانة محلية بارزة. لكن عشيرة الأطرش لم تكن تجمـــع علـــى رأي واحد، بل توجد خلافات كبيرة في ما بينها. برزت هذه الخلافات علـــى وجـــه الخصوص بين سليم، الموالي للعثمانيين، وابن عمه الأكثر قوة وحضوراً ســـلطان. فـــبعدما شنق الأتراك والد سلطان، انضمّ إلى الثورة العربية وأصبح مؤيداً ملتزماً للهاشميين، ومؤمناً كما تبين لاحقاً بسذاجة بنوايا البريطانيين الشريفة.

نظّم سلطان الأطرش ثورة محلية على الأتراك، في حوران وجبل الدروز، بالتعاون مع نسيب البكري. لذا، عندما احتّل الفرنسيون سوريا لم يتعاون الأطرش معهم، ولم يـــبالِ "بميثاق استقلال الدروز" الزائف، الذي قدّم الكثير للفرنسيين أنفسهم. وعندما انـــدلعت الـــثورة السورية الكبرى في سنة 1925، أصبح شخصية رئيسية تحلّق حولها مختلف قادة الثورة[1].

كـــان معظم السوريين يعارضون الانتداب لأنه أسس لوجود فرنسي غير شرعي في بلادهم. وقوبل الحكم الفرنسي على الطريقة الاستعمارية بكراهية شديدة، وكذلك ســـلخ أجزاء كبيرة من الأراضي السورية وضمّها إلى جبل لبنان لإنشاء لبنان الكبير. كما أن فصل فلسطين عن سوريا، والدعم البريطاني السخي للمشروع الصهيوني، أثارا مـــزيداً مـــن الـــشكاوى السورية الرئيسية. لذا كان الهدف الأول للقوميين الوحدة

(1) Michael Provence, *The Great Syrian Revolt and the Rise of Arab Nationalism*, Austin, TX 2005, pp 12, 189.

السورية بمفهومها الواسع - بما في ذلك إلغاء الحدود المصطنعة التي رسمها البريطانيون والفرنسيون. وكانوا يريدون إخراج الفرنسيين من جميع أنحاء سوريا. وقد اعتنق تلك الآراء رجال ونساء في جميع فئات المجتمع السوري، لا سيما غالبية السكان السنّة.

عندما زار اللورد بلفور دمشق في 8 نيسان/أبريل 1925، على سبيل المثال، واجه عشرة آلاف متظاهر احتشدوا في الجامع الأموي وهم يهتفون بشعار "فليسقط وعد بلفور". وأصبح ذلك الشعار الهتاف الذي ردّده المتظاهرون منذ ذلك الحين. اضطر بلفور إلى الهرب، بمرافقة فرنسية، والتوجّه إلى بيروت. على الرغم من أن الفرنسيين كانوا مجبرين على حمايته، فقد سرّهم هذا العرض الغاضب للشعور المعادي للبريطانيين. لكن المشاعر تجاه فرنسا لم تكن أقل عدائية. ولم يشذّ عن العداء الجماعي الإقليمي لفرنسا سوى الطائفة المارونية في لبنان التي اختارت التطلّع نحو باريس من أجل الحماية الدينية والثقافية.

خلافاً لسوريا التي تزايد فيها الاضطراب تحت السيطرة الفرنسية، تمتع لبنان بقدر من الهدوء والازدهار في أوائل عشرينيات القرن العشرين. ففي صيف 1924، على سبيل المثال، قدم نحو خمسة عشر ألف زائر مصري وفلسطيني وعراقي إلى لبنان للتمتع بهواء جبال لبنان العليل. قَدِم العراقيون بأعداد لم يسبق لها مثيل بعد افتتاح الطريق الصحراوي الجديد. وأعيد بناء الأجزاء التي هدمها الوالي التركي عزمي بك في بيروت خلال الحرب، بتشجيع فرنسي - وباستخدام اليد العاملة الرخيصة التي وفّرها اللاجئون الأرمن البائسون[1].

لم يكن الموارنة الوحيدين المؤيدين للفرنسيين. فقد تمكّن المسؤولون الفرنسيون من كسب تأييد عدد صغير من الأشخاص في أنحاء متعدّدة من سوريا - ملاّك الأراضي، وشيوخ بعض العشائر ووجهاء من جميع الفئات - الذين اعتمدوا على نفوذ الانتداب لدعم نظام اجتماعي واقتصادي يواصل منحهم مكانة اجتماعية مرموقة ومداخيل مرتفعة. كانوا يخشون من تعرّض مركزهم الاجتماعي ومصالحهم المادية للخطر إذا انتصر القوميون "المتطرّفون". فوافق بعض الوجهاء في دمشق وحلب وبيروت، وفي الدويلات البعيدة التي أنشأها الفرنسيون، على تولي مناصب في الحكومات التابعة التي شُكلت تحت الوصاية الفرنسية. لذا فإن أي اقتراح بمواجهة

(1) British Consulate, Beirut, to Foreign Office, July 1924 (FO371/21914).

الفرنسيين كان يملأ هؤلاء المتعاونين رعباً، فكيف بالثورة المسلحة عليهم. وفضّل كثير من الدروز والعلويين والأقليات الأخرى التعاون مع الفرنسيين، بخلاف الأكثرية السنّية التي سادها في ذلك الوقت مزاج وطني شامل.

لــذا لم يكن من المتوقّع أن تندلع الثورة في جبل الدروز. وشكّل ذلك للفرنسيين صفعة لا تقلّ إيلاماً عن تلك التي عانوا منها، في الوقت نفسه تقريباً في المغرب، حيث أشــعل هناك شيخ قبيلة يدعى عبد الكريم ثورة في الريف في أواسط عشرينيات القرن العــشرين. وتمكّن من الصمود حتى أيار/مايو 1926 عندما أُجبر على الاستسلام بعدما حاصــره المارشـــال فيليب بيتان، على رأس جيش قوامه ربع مليون فرنسي وإسباني ومغربـــي. اقتيد مكبّلاً بالسلاسل إلى جزيرة "ريونيون" Réunion الفرنسية، حيث بقي هناك حتى فراره في سنة 1947.

شكّل الثّوار السوريون تحدّياً أكبر للفرنسيين. وكانت الشرارة التي أشعلت الثورة اعتقال أدهم خنجر في تموز/يوليو 1922، وهو شيعي لبناني، اتهمه الفرنسيون بالمشاركة في محاولـــة اغتيال الجنرال غورو قبل ذلك بعام. كان أدهم خنجر قد لجأ إلى منـــزل ســـلطان الأطـــرش، فاعـــتُقل هناك في غياب الأخير. عندما سمع سلطان الأطرش بما حدث، عاد على الفور واتجه إلى مقرّ القيادة العسكرية الفرنسية في السويداء، وطالب بتـــسلّم السجين كما تقتضي أصول الضيافة الدرزية. عندما رفض الفرنسيون، هاجم سلطان ورجاله القافلة التي ظنّوا أنها تنقل خنجر إلى دمشق. (تبيّن أنه نُقل بالطائرة إلى هـــناك). ردّ الفرنسيون بقصف منـــزل سلطان بالطائرات وإعدام خنجر على الفور. حـــاول سلطان عندئذ حثّ الدروز على الثورة ولكن دعوته لم تلقَ قبولاً واسعاً، ما دفعه للهرب عبر الحدود إلى شرق الأردن. ومن هناك، شنّ بين الحين والآخر غارات على الأراضي الخاضعة للسيطرة الفرنسية. فمارس الفرنسيون الضغط على البريطانيين لإبعـــاده. وعـــندما شعر بأنهم يوشكون القيام بذلك، رأى سلطان أن من الأفضل له تسليم نفسه. فصدر عفو عنه، وسُمح له بالعودة إلى دياره.

عـــندما توفي ابن عمه سليم الأطرش في أيلول/سبتمبر 1923، تجاهل الفرنسيون المطالـــب المحلية بانتخاب حاكم محلي خلفاً له، وعيّنوا ضابطاً فرنسياً، النقيب غابرييل كاربـــيله Gabriel Carbillet، مكانه بموافقة مجلس من المشايخ الدروز الثانويين. كان

كاربيله الذي خدم في المستعمرات الفرنسية في غرب أفريقيا، حاكماً مستبداً متعجرفاً، وتحديثـياً نافد الصبر، يرى أنه ممثل فرنسا الثورية. فلم يكتف بشقّ الطرقات وقنوات الريّ وبناء المدارس في جبال المنطقة الوعرة، وإنما عمد أيضاً إلى مهاجمة البنية الإقطاعية القديمـة للـدروز، مانحاً الفلاحين حق تملّك الأراضي التي تعتبر مشاعاً. فثارت ثائرة شيوخ عشيرة الأطرش.

لم تكن عشيرة الأطرش وحدها التي شعرت بالإساءة. فقد شعر الدروز بمجملهم بالغـضب من أساليب كاربيله - استخدام السخرة في الأشغال العامة، وطريقة تدخّل "المستـشارين" الفرنـسيين في جميع أوجه الحياة الدرزية، والوجود التخويفي للحامية الفرنـسية في السويداء. بل إن الأشخاص الذين يتسمون ببعد النظر والوعي السياسي منهم رفضوا إنشاء دويلة درزية مستقلة، فُصلت عمداً عن دمشق.

في ربـيع 1925، أرسـلت عشيرة الأطرش وفداً لمقابلة الجنرال موريس ساراي، المفـوّض السامي الفرنسي الجديد، للتقدّم بشكوى من سلوك النقيب كاربيله. طالب الـوفد بتعيين حاكم محلي، كما حدّدت المعاهدة التي أبرموها مع فرنسا. لكن ساراي رفض صرف كاربيله، واكتفى بمنحه إجازة مؤقتة. وفي 11 تموز/يوليو، توجّه ثلاثة زعماء مـن عشيرة الأطرش إلى دمشق بدعوة من ساراي لبحث شكاواهم. تبيّن أن تلك الدعوة لم تكـن سوى شَرَك بشع وغير شريف. فقد طلب ألقاء القبض عليهم على الفور ونقلهم إلى الـسجن الفرنـسي القاسـي في تدمر، حيث غالباً ما كان يصاب السجناء بأمراض خطـيرة أو حتى مميتة. علّق القنصل البريطاني في دمشق و.أ. سمارت على ذلك بجفاء قـائلاً، "غالباً ما كان الحكام الأتراك يمارسون مثل هذه الأساليب من الخداع بنجاح، لكنها لم ترتبط على العموم في عقل السكان المحليين بالحكام الأوروبيين"[1].

أشعلت هذه الحادثة الغادرة الغضب في جبل الدروز. وقد كانت النيران كامنة تحت الـرماد: الاسـتياء من الحدّ من تقويض السلطة الدرزية التقليدية، وطبيعة الحكم الفرنسي الخرقاء، واللجوء إلى السخرة، وانهيار العملة الورقية السورية التي رُبطت بالفرنك الفرنسي المتقلّب، والتضخم الجامح الذي أتى على مداخيل الناس. كما أن حدوث جفاف حادّ في تلك السنة دمّر المحاصيل في كل أنحاء جنوب سوريا. ففشلت المحاصيل تماماً في حوران، ما

(1) W.A. Smart, Damascus, to Foreign Office, 12 July 1925 (F0371/10850).

أدى إلى هجـــرة قرى بأكملها. وعانى سهل دمشق من نقص غير مسبوق في المياه. وأُجبر البدو الرحل العطشى على انتهاك حرمة الأراضي الزراعية في شرق دمشق، حيث التهمت قطعـــان الجمال والخراف العطشى والجائعة ما تبقى من المحاصيل القليلة. وفوق ذلك كله أحدث قدوم موجة حادّة متأخّرة من الصقيع مزيداً من الضرر، لا سيما بأشجار المشمش الـــتي طالمـــا وفرت صادرات قيّمة على شكل مشمش مجفف أو مربى المشمش. وأذكى اجتماع مصادر الاستياء والصعوبات نار الثورة.

يـــروي مايكل بروفنس Michael Provence، وهو مؤرّخ للثورة السورية الكبرى، أنّ المهاجرين من جبل الدروز استقرّوا في سهل حوران في القرن التاسع عشر، وتمكّنوا من تحـــويله إلى مخزن حبوب سوريا بتمويل من تجار دمشق. وأسهمت زراعة الحبوب وتمويلها وتـــصديرها في إقامة علاقات تجارة وصداقة بين المزارعين الدروز والتجار السنّة - وكان الأخـــيرون يقطنون أساساً في حي الميدان القديم في دمشق الواقع على الطريق المؤدية جنوباً إلى جـــبل الدروز. تركّز العمل الرئيسي لحي الميدان على توزيع الحبوب المنتجة في حوران وتـــصديرها. أفادت هذه العلاقات التجارية على سبيل المثال، عندما أمدّت منطقة حوران جـــيش الأمير فيصل العربـــي الذي يموّله البريطانيون بالخبز في الأشهر الأخيرة من الحرب العالمـــية الأولى. وفي سنة 1925، سلك التحريض المعادي للفرنسيين هذه القنوات نفسها. ووفقاً لقول بروفنس: "شكّلت تجارة الحبوب محور الثورة"[1].

في تموز/يوليو 1925، حاصر رجال العشائر الدروز بقيادة سلطان الأطرش الحامية العسكرية الفرنسية في السويداء. فحاول رتل فرنسي مكوّن من 3000 جندي، بقيادة الجنـــرال روجـــيه ميشو كسر الحصار، لكنّه وقع في كمين وألحقت به هزيمة منكرة وتكـــبّد خـــسائر كبيرة في الأرواح. استولى الدروز على 2000 بندقية، وكانت تلك ضربة موفّقة جعلت رجال العشائر يتقاطرون للقتال تحت راية سلطان. وسرعان ما نما جيـــشه ليـــصل إلى نحو عشرة آلاف رجل، يضايقون الفرنسيين ويغيرون عليهم أينما وجدوهم. وفي غضون بضعة أسابيع امتدّت الثورة إلى الغوطة، منطقة بساتين الأشجار المثمرة الكثيفة في واحة دمشق.

(1) Provence, *The Great Syrian Revolt*, p13. وانظر T. A. Spring Rice, Memorandum on the trouble in the Jabal Druze, 12 August 1925 (FO 371/10850).

غضب الفرنسيون من هذه المباغتة فبالغوا في ردّ الفعل كما هي عادتهم. أُحرقت القـــرى الـــتي اعتُقد أنها تؤوي الثوار، وفُرضت غرامات قاسية على سكانها، واقتيدوا للعمـــل بالـــسخرة، أو قتلوا رمياً بالرصاص. وفي أواخر آب/أغسطس 1925، انضم القومـــيون في دمـــشق إلى الثورة الدرزية، وتعهّدوا على نقلها إلى العاصمة. وفي 23 آب/أغـــسطس وزّعت المناشير التي تدعو إلى الثورة المسلحة ليلاً في جميع أنحاء المدينة، ما يشير إلى الاعتقاد الجريء بإمكانية هزيمة فرنسا وإخراجها من البلاد.

إلى السلاح! إلى السلاح يا أحفاد العرب الأمجاد... ولنطلب الموت توهب لنا الحياة...

أيهـــا العرب السوريون، تذكروا أجدادكم وتاريخكم وشهداءكم وشرفكم القومي. تذكروا أن يد الله مع الجماعة، وأن إرادة الشعب من إرادة الله...

لقد استللنا سيوفنا ولن نغمدها قبل تحقيق مطالبنا، ومطالبنا هي:

وحـــدة البلاد السورية، ساحلها وداخلها، والاعتراف بدولة سورية عربية واحدة مستقلة استقلالاً تاماً.

قـــيام حكومة شعبية تجمع المجلس التأسيسي لوضع قانون أساسي على مبدأ سيادة الأمة سيادة مطلقة.

سحب القوى المحتلة من البلاد السورية، وتأليف جيش وطني لصيانة الأمن.

تأييد مبدأ الثورة الفرنسية وحقوق الإنسان في الحرية والمساواة والإخاء.

إلى الـــسلاح، ولنكتب مطالبنا هذه بدمائنا الطاهرة كما كتبها أجدادنا من قبلنا.

إلى السلاح والله معنا.

ولتحيا سوريا العربية حرة مستقلة.

سلطان الأطرش

قائد عام جيوش الثورة الوطنية السورية[1].

كان ذلك التحدي الذي واجه المفوّض السامي الفرنسي الجنرال موريس ساراي.

---

(1) Provence, *The Great Syrian Revolt*, pp 81-83. The declaration was published in نشر الإعلان مترجماً في الجريدة الفرنسية الشيوعية "لومانيتيه" *L'Humanité*, في 9 أيلول/سبتمبر 1925.

محنة موريس ساراي

لفهـــم الأزمـــة التي تكشّفت، لا بدّ من التحدّث باختصار عن الجنرال ساراي. فهو محـــارب قـــديم ذو آراء متنوّرة وطباع حادة، لكنّه ميّز نفسه في الأشهر الأولى من الحرب العالمية الأولى عندما قاد الجيش الفرنسي الثالث في حرب المارن. لكن ذلك لم يشفع له من إعفائـــه مـــن قبل الجنرال جوفر Joffre في تموز/يوليو 1915 بسبب الخلاف العميق بينهما بشأن استراتيجية الحرب التي أحدثت انقساماً بين السياسيين الفرنسيين والقادة العسكريين في ذلك الوقت. كان دعاة "التركيز على الغرب" من أمثال جوفر – ومعظم هيئة الأركان الفرنـــسية – مقتنعين بأنه يمكن صدّ ألمانيا وهزيمتها بحرب استنـــزاف على الجبهة الغربية، وأنّ العمليات العسكرية في أمكنة أخرى مجرّد عرض جانبـــي لا جدوى منه.

بالمقابـــل، اعـــتقد "دعاة التركيز على الشرق"، وكان ساراي واحداً منهم، أنّ الحرب على الجبهة الغربية أصبحت بمثابة مأزق مكلف، وأنّه لا يمكن تحقيق اختراق إلا بشن عمليات عسكرية في أماكن أخرى. ورأى أن توجيه ضربة عسكرية إلى البلقان، أو إلى الـــولايات العـــربية ستُـــسقط حلفاء ألمانيا العثمانيين، وألمانيا نفسها في الوقت المناســـب. قضت خطة ساراي بإنـــزال حملة عسكرية في سالونيك على شاطئ البحر المتوســـط شمـــال شرقي اليونان. فذلك يساعد المجهود الحربـــي الصربـــي، ويشجع الـــيونان ورومانيا على الانضمام إلى الحلفاء، ويُلحق هزيمة عسكرية ببلغاريا العثمانية، ويقطع بالتالي قنوات الاتصال بين قوى المحور والإمبراطورية العثمانية.

بعـــد جـــدل كبير، اعتُمدت استراتيجية ساراي العسكرية على مضض، وعُيّن قائداً لقوة مشتركة فرنسية وبريطانية وصربية وإيطالية وروسية. ولكن نظراً لارتياب البريطانيين والإيطاليين من الطموحات الفرنسية، فقد بقي الدعم الذي قدّموه إلى الحملة فاتراً، ما دفع ســـاراي إلى الشكوى من قلة عدد القوات الموضوعة بتصرّفه وعدم كفاية المدفعية. وعندما فشل ساراي في تحقيق نصر حاسم على بلغاريا، أعفاه رئيس الوزراء جورج كليمنصو من القيادة في كانون الأول/ديسمبر 1917، لأنه كان من أنصار الخطة "الغربية"[1]. ومنذ ذلك الوقت أضمر ساراي نقمة حادة على الحكومة الفرنسية وقادتها العسكريين.

(1) William Fortescue, *The Third Republic in France, 1870- 1940*, London and New York 2000, pp 125-6; General M Sarrail, *Mon Commandement en Orient, 1916-.1918*, Paris 1920, pp 297-301

كـــان الجنـــرال ســـاراي ماسونياً وملحداً ويسارياً. ولهذه الأسباب قرّر رئيس الوزراء، إدوار هريو Edouard Herriot، وهو نفسه عضو في الحزب الراديكالي، إرساله إلى بـــيروت مفوّضاً سامياً في كانون الأول/ديسمبر 1924 للحلول محل الجنرال ويغان، الـــذي كـــان كاثوليكياً يمينياً مناصراً للملكية، ومؤمناً متعصباً بفكرة فرنسا المشرقية الـــصليبية[1]. اعتقد ويغان أن المسيحية "رسالة تمدينية"، وأن رعاية الموارنة تعود بالنفع على فرنسا[2]. انتشر "الجنود المسيحيون" من أمثال ويغان في جميع أنحاء الشرق الأدنى، في وحـــدات المشاة والفرسان، وفي أوساط القناصل، والملحقين والمترجمين الفرنسيين الـــذين خدمـــوا في المنطقة في ظلّ الحكم العثماني، وفي أوساط رجال الدين، ورجال الأعمال، بالإضافة إلى العائلات الفرنسية التي تعمل في التجارة ولديها جذور عميقة في المشرق تمتد عدة أجيال. غير أن الجنرال ساراي جاء من خلفية مختلفة تماماً. كان ثائراً على النظام الديني، يحتقر رجال الدين، ويعتبر المفوّضية العليا في بيروت والمجتمع المحلي الفرنسي رجعيين خاضعين لليسوعيين وربائبهم الموارنة.

مـــنحت الثورة السورية الكبرى في سنة 1925 فرصة للمواجهة الحادّة بين هذين المعسكرين الفرنسيين: الكهنوتي والمعادي للكهنوت. لكن لم تُحسم النتيجة محلياً، بل اعـــتمدت إلى حدّ كبير على التوجّهات السياسية للحكومات في باريس. وفي باريس كانت هناك أمور كثيرة غير الدين في الميزان. ففي أثناء الحرب العالمية الأولى وما تلاها مباشـــرة، انقسم السياسيون الفرنسيون وكبار مسؤوليهم بين من يريد اعتماد "سياسة عـــربية" - أي مـــن يسعون إلى مدّ اليد إلى العرب والمسلمين وتجاوز أتباع الفرنسيين التقلـــيديين المسيحيين - ومن يدعون إلى اعتماد سياسة مختلفة تماماً وضيقة الأفق تمنح الأفضلية للموارنة، بالإضافة إلى النشاطات الثقافية والدينية التي تمارسها شبكة المدارس والرهبانيات المسيحية الواسعة التابعة لفرنسا.

كان رئيس الوزراء جورج كليمنصو، وهو مناهض للكهنوت والاستعمار، يؤيّد بقـــوّة الرأي الذي ينادي بأن تعتمد فرنسا سياسة عربية واسعة. وفي مؤتمر السلام في بـــاريس كـــان أكثر اتصالاً بالأمير فيصل من اتصاله بممثلي الموارنة. ولكن عندما فاز

(1) Pierre Fournié, "Le Mandat à l'épreuve des passions françaises: l'affaire Sarrail (1925)" in Nadine Méouchy (ed), *France, Syrie et Liban, 1918-1946*, pp. 125-168.

(2) المصدر نفسه، ص 133-134.

اليمين بالانتخابات التشريعية في سنة 1919، آثر كليمنصو الابتعاد عن السياسة تماماً، فاستقر في بيته المتواضع (الذي يخلو من التمديدات الصحية) على شاطئ البحر، بعيداً عن باريس. وهكذا خلت الساحة للمناهضين للعرب، ما أدى إلى الإطاحة بالمملكة العربية بزعامة فيصل في تموز/يوليو 1920، وتقسيم سوريا إلى دويلات صغيرة بائسة، وإنشاء لبنان الكبير في 1 أيلول/سبتمبر 1920. سرّت الدوائر الكاثوليكية لأنّ هذه السياسة "اللبنانية" عوّضت إلى حدٍّ ما عن خسارة الأراضي المقدسة أمام البريطانيين، والتخلي الرسمي في سان ريمو عن "الحماية الدينية" الفرنسية لجميع المسيحيين في الشرق.

عندما انتصر التحالف اليساري في الانتخابات الفرنسية في أيار/مايو 1924، انتقل الاتجاه إلى المعسكر الآخر ثانية. فأصبحت السياسة الحكومية مناهضة الكهنوت. وعندئذ طلب رئيس الوزراء الجديد أدوار هريو، إعادة الجنرال ساراي إلى الخدمة - "الجنرال الجمهوري الوحيد"، كما كان يدعوه مؤيّدوه. عندما وصل ساراي إلى بيروت، في أوائل كانون الأول/ديسمبر 1925، استقبله القوميون العرب بحفاوة، متوقّعين منه منح الحريات السياسية وتعزيز وحدة سوريا. وأقام أعضاء المحافل الماسونية السورية قوس نصر تكريماً له، بينما أقام له المحفل الماسوني في بيروت حفل استقبال كبير.

في الوقت نفسه، تعرّض ساراي لهجوم حادّ في الصحافة اليمينية باعتباره ملحداً وماسونياً. وذهب المعسكر الكهنوتي إلى حدّ إعلان "حرب مقدسة" عليه. بل قيل إن المبشرين اليسوعيين طلبوا الوقوف دقيقة صمت في المدارس اللبنانية التابعة لهم احتجاجاً على تعيينه. أثار هذا الصدام بين الثقافتين السياسية والدينية سؤالاً جوهرياً عن فرنسا التي ستقود دول المشرق إلى الاستقلال. هل يُعهد بالانتداب إلى أبناء الصليبيين، أو أبناء الثورة الفرنسية؟[1]

شجعت التطورات السياسية في باريس ساراي على ممارسة قناعاته الليبرالية. وعلى الرغم من إسقاط رئيس الوزراء إدوار هريو، بعد أزمة مالية في نيسان/أبريل 1925، فقد خلفه بول باينلوف Paul Painlevé، أحد أشدّ الداعمين للجنرال ساراي.

---

(1) المصدر نفسه، ص 140.

تشجّع ساراي بمثل هذا الدعم فسارع إلى رفع حالة الطوارئ التي فُرضت على سوريا في سنة 1922، وعفا عن آخر المعتقلين السياسيين، ومنح الحرية للصحافة والجمعيات، كما أعطى السوريين الحق في تشكيل الأحزاب السياسية تحضيراً للانتخابات الوطنية. بل إنه شجعهم على إطلاق حركة سياسية شعبية تبرّر مطالبتهم بالوحدة السورية وتعبّر عنها.

في هذا المناخ الذي يتسم بمزيد من الليبرالية عن ذي قبل، وبعد أشهر من النشاط شبه السري، عقد حزب الشعب بقيادة الدكتور عبد الرحمن الشهبندر اجتماعاً تأسيسياً في 5 حزيران/يونيو 1925 حضره أكثر من خمسة آلاف شخص. وكان قد أُفرج عن الشهبندر نفسه حديثاً بعدما أمضى ثمانية عشر شهراً في السجن من حكم بالسجن لمدة 20 عاماً لمجرّد الجهر بمعارضة الانتداب. كان حزب الشعب، الذي موّله الأمير ميشال لطف الله، أول حزب وطني شرعي يتشكّل تحت الانتداب الفرنسي. فانضم إليه قادة وطنيون في دمشق، بالإضافة إلى مجموعة قوية من حلب، من بينهم شخصيات بارزة مثل إبراهيم هنانو وإحسان الجابري وعبد الرحمن الكيالي.

كانت أهداف الحزب المعلنة استقلال سوريا ووحدتها ضمن حدودها "الطبيعية" – ما يعني كل شرق الأردن، وفلسطين وسوريا، بالإضافة إلى الأراضي التي سُلخت عن سوريا وأُلحقت بجبل لبنان. وقد رفع القنصل البريطاني في دمشق تقريراً إلى لندن يفيد بأن "هذه الحركة باتجاه الوحدة، وأن تكون دمشق مركز سوريا الموحدة، باستثناء "لبنان الصغير"، قوية وحقيقية. وهي ترتكز إلى منطق اقتصادي وإداري. ويوجد خلفها تقليد جليل ذو جاذبية عاطفية للجماهير المسلمة"[1]. وأضاف أن الوطنيين يريدون من الفرنسيين الالتفات إلى "صرخة الأقضية والنواحي والقرى التي سُلخت رغماً عنها عن سوريا الأم"[2]. ولاحظ القنصل أن اسم الحزب الجديد هو الاسم نفسه الذي حمله حزب مصطفى كمال في تركيا[3].

(1) W.A. Smart, Damascus, to Foreign Office, 25 March 1925 (FO371/10850).

(2) W.A. Smart, Damascus, to Foreign Office, 9 April 1925 (F0371/10850).

(3) المصدر نفسه.

بعـــد النجاحات العسكرية التي حققها الثوار الدروز، وضعت جانباً كلّ الأفكار عـــن القيام بحملات للانتخابات السياسية والمستقبل السياسي السلمي. شعر الشهبندر بنشوة تلك الانتصارات، فعمد على الفور إلى تغيير استراتيجيته من التعبئة السياسية إلى الـــثورة المسلحة[1]. فما إن سمع بهزيمة قافلة الجنرال ميشو، حتى دخل في تحالف سرّي مـــع ســـلطان الأطـــرش، وأرسل نسيب البكري لتبادل حلف اليمين معه، والتعهّد بالانضمام إلى حمل الفرنسيين على الخروج من سوريا[2]. وكانت دعوة سلطان البليغة اللاحقة إلى حمل السلاح ثمرة واضحة لهذا التعاون.

عـــندما قـــدّم نـــسيب البكري تقريره عن اجتماعه مع سلطان الأطرش، أرسل الـــشهبندر رسالة إلى الدروز تدعوهم إلى الزحف على دمشق. فهاجمت قوة مشتركة مـــن جـــبل الدروز وحوران والعشائر البدوية، قوامها نحو ألف مسلّح، المدينة في 24 آب/أغـــسطس 1925. لكـــن طائـــرة فرنسية رصدهم فشنّت عليهم غارات جوية، وهاجمهم الفرسان المغاربة في القوة الاستعمارية الفرنسية وأجبروهم على الفرار. تعلّم الثوّار السوريون درساً أليماً أنه مهما بلغ تصميمهم وعزيمتهم فإنهم لا يستطيعون هزيمة الجـــيش الفرنـــسي في وَضَـــح الـــنهار وفي أرض مكشوفة. وكان لا بد من اعتماد استراتيجية الإغارات التي تُشنّ ليلاً.

الفرنسيون يردون الضربة

في ليلة 27 آب/أغسطس، أغارت الشرطة الفرنسية على منـــزل عثمان الشرباتي في دمـــشق، حـــيث كان يُعقد اجتماع سري لحزب الشعب. وكان بين من اعتُقلوا الشرباتي وفارس الخوري، ونـــزيه مؤيد العظم. واعتُقل وطنيون بارزون آخرون، بمن فـــيهم الصحافي نجيب الريس والمحامي الشابّ اللامع فوزي الغزّي، في منازلهم. وكان قـــد زُجّ بفخـــري البارودي في السجن قبل ذلك. واضطر جميل مردم إلى الفرار إلى حيفا، وشكري القوتلي إلى عمّان ثمّ إلى القاهرة. حُكم على بعض من اعتُقلوا بالسجن في قلعـــة أرواد الـــرطبة والفظـــيعة، وهي تقع في جزيرة نائية ومعزولة قبالة الشاطئ

(1) Khoury, "Factionalism", p 455.

(2) Philip S. Khoury, *Syria and the French Mandate*, p 163.

السوري. وتمكّن الدكتور الشهبندر والأخوان نسيب وفوزي البكري من الهرب إلى جبل الدروز، حيث أعلن الشهبندر في 9 أيلول/سبتمبر 1925 ثورة سورية عامة وتشكيل حكومة وطنية. وفي 18 تشرين الأول/أكتوبر، تسلّلت مجموعة من نحو ستين ثائراً بقيادة حسن الخرّاط إلى دمشق. ولحقت بها مجموعات أخرى، فاحتلت المدينة من دون مقاومة جدية. استولوا على مركز الشرطة في منطقة الشاغور، وأحرقوا جزءاً من قصر العظم. وعندما جاب هؤلاء الثوار الأشدّاء في أنحاء المدينة، تخلّى رجال الشرطة والدرك عن أسلحتهم وفروا من مراكزهم[1].

عند ذلك نفد صبر الجنرال ساراي. وشعر بالخيانة لا سيما من قبل الشهبندر وحزب الشعب الذي شجّع على قيامه. لقد ارتدّت عليه سياسته الليبرالية، فحطّمت آماله بالتوصّل إلى تسوية سياسية مع الوطنيين. وخلص بمرارة إلى أن القوة هي خياره الوحيد الآن.

وبدءاً من ليلة 18 تشرين الأول/أكتوبر، قصفت المدفعية الفرنسية دمشق وأمطرتها الطائرات الفرنسية بالقنابل طوال يومين كاملين، قبل التمكّن من إعلان هدنة ظهر العشرين من الشهر نفسه. في غضون ذلك، دُمرّت أحياء بأكملها وقُتل ما يقرب من 1500 شخص. وأفاد تقرير إخباري أعدّه المراسل الخاص لجريدة "التايمز" اللندنية أن

> "المنطقة الواقعة بين سوق الحميدية وشارع القادومية دُمّرت بأكملها... ونُسف السقف المضلّع لشارع القادومية على امتداد مئة ياردة... ودمّرت المحلات التجارية واحداً تلو الآخر بالمدافع الرشاشة للدبابات، أو بالقذائف أو الحرائق... وتعرّض سوق الحلوى، البازورية، لأضرار جسيمة، ولحق الدمار الكامل بدكّان دلال الشهير... وأصيب قصر العظم بخسائر لا تعوّض... إن الكلام يعجز عن الوصف المناسب للمشهد الماثل حالياً في تلك المدينة العريقة. تقدر مختلف المراجع الخسائر المادية بين مليون ومليوني ليرة تركية ذهبية... لن ينسى أحد ممن عاشوا تلك الأيام الفظيعة (18 - 20 تشرين الأول/أكتوبر) تلك التجربة، وبخاصة ليلتي القصف المتواصل اللتين تحوّلتا إلى رعب حقيقي، نتيجة الحرائق المروّعة التي اندلعت في كلّ الأنحاء".

---

(1) Provence, *The Great Syrian Revolt*, p 103.

ناشـد وفد من الوجهاء القيادة الفرنسية إنهاء الهجوم. قاد الوفد سعيد الجزائري، حفـيد الأمير عبد القادر، وضمّ أعضاء من عائلة العظم، بالإضافة إلى شخصية دينية بـارزة وهو الشيخ محمد تاج الدين الحصني، من أخوال والد رياض الصلح. لم تكن هـذه النخبة الدمشقية من الجيل القديم متحمّسة للسياسة الشعبية، أو الثورة المسلحة. ورجـا تجـار الحبوب، الذين تضرّروا كثيراً من الثورة، الثوّار مغادرة المدينة قبل أن يدمّـرها الفرنسيون بأكملها. فقد تعذّر على التجار استرجاع السُّلَف التي قدّموها إلى المزارعين في حوران وجبل الدروز، وتقدّر بنحو 300,000 ليرة ذهبية تركية. أدّى هذا القـصف الوحـشي لدمشق إلى وضع حدّ للمزيد من التعبئة على الثورة في دمشق، وأجبر الناشطون في حزب الشعب الذي يقوده الشهبندر على الفرار من المدينة.

أحدث هذا الهجوم صدمة في الخارج. وأدّى الاستهجان الدولي للسلوك الفرنسي إلى هـزّة سياسـية في باريس، حيث أصبح ساراي هدفاً لحملة صحفية شرسة. فذمّه اليـسار ووصفه أنه "طاغية مقيت" واتهمه "بتصفية سوريا". بالمقابل، توقّع اليمين أن تـؤدّي "سياسته الغادرة" إلى انتشار التمرّد إلى شمال أفريقيا. وكشفت إخفاقاته أمام الـرأي العام. وأزال سقوط حكومة باينلوف في 26 تشرين الأول/أكتوبر 1925 آخر عقـبة أمـام اسـتدعائه. كان ساراي يأمل، من وجهة نظره، بتنفيذ سياسة جورج كليمنـصو التي ترمي إلى عقد صفقة مشرّفة مع القوميين العرب. لكن الثورة الدرزية التي تعجّل حزب الشعب بقيادة الشهبندر في الانضمام إليها، سحبت البساط من تحت قدميه. هلّل خصومه الكهنوتيون في بيروت. بل إن بعض الإيحاءات تشير إلى أن بعض مسؤولي الاستخبارات في المفوضية العليا في بيروت تعمّدوا التخريب على ساراي[1].

تمكّن مراسل خاص لصحيفة "بتي باريسيان" Le Petit Parisien من إجراء مقابلة مـع سـاراي علـى متن سفينة "سفينكس" في ميناء الإسكندرية، فيما كان المفوّض الـسامي الذي لحقت به المهانة يستعد للإبحار إلى فرنسا. تساءل "ماذا كان في وسعي أن أفعـل؟ هـل أسلّم المدينة إلى قطّاع الطرق؟ أو أحاول محاربتهم في الشوارع؟ لـو فعلـت ذلـك لأريقت الدماء. هل كان عليّ أن أطل على الشرفة وأخاطب الحشود؟ أو هل كان عليّ ألا أفعل شيئاً وأسمح بذبح المسيحيين كما حدث في سنة

(1) Fournié, "Le Mandat", p 162.

1860؟"[1] وصـــل ســـاراي إلى بـــاريس ليواجه أزمة عويصة. فقد اعتاد المتظاهرون اليمينيون المرور أمام منـــزله وهم يهتفون، "قاتل! يجب سوقه إلى المقصلة!". توفي بعد ذلك بمدة قصيرة، في آذار/مارس عام 1928، ودفن من دون أن يبالي به أحد.

دخول رياض الصلح مسرح الأحداث

كان رياض الصلح في مصر عندما سمع بانتفاضة الدروز على الفرنسيين. فاستقلّ أول ســـفينة مـــتوجّهة إلى حيفا، وتمكّن من تفادي المراقبة الفرنسية ودخول الأراضي السورية والاتصال بقادة الثورة. لم يُعرف الكثير عن تحرّكاته بالضبط في ذلك الوقت العصيب، سوى أنّه انضمّ إلى صحفيّة فرنسية جريئة، كلارا كانديايي Clara Candiani، كان قد التقى بها في فرنسا، وجاءت لتغطية الثورة. دخل الاثنان معاً المناطق التي كان يـــسيطر عليها الثوار. وذات مرّة، أو هكذا تقول الرواية، اضطرا إلى المبيت في الخيمة نفسها في حوران، لا يفصل بينهما سوى مصحف وسيف.

أصبحت كلارا من زوّار الشرق الأوسط الدائمين. وبعد بضع سنوات، عندما لم تعـــد الثورة سوى ذكرى أليمة، وصفت في إحدى المقالات الصحفية كيف حضرت اجـــتماعاً للقـــادة الوطنيين في فندق قصر الشرق في دمشق. روى فخري البارودي نكـــات باللغة الفرنسية، بينما كان رياض الصلح يستمع بانسجام إلى الحديث الحيوي الدائـــر حوله، ويدخّن النرجيله بين الحين والآخر. وقد حضر الاجتماع الزعيم الكبير ســـعد الله الجابري، بالإضافة إلى جميل مردم، وفارس الخوري، والشاب الواسع المعرفة فـــوزي الغزي. هؤلاء هم النخبة المعادية للفرنسيين، وكانوا في ذلك الوقت "الوطنيين الخطرين" الذين سمعت عنهم الكثير[2].

عـــندما انـــدلعت الـــثورة السورية، ارتأى الداعمون المتحمسون لها في القاهرة ضرورة تعبئة الرأي العالمي من أجل الضغط على فرنسا، وإخطار عصبة الأمم بما يجري في ســـوريا. قـــرّر الشيخ رشيد رضا طلب المساعدة من الأمير شكيب أرسلان. بعد استـــسلام الإمـــبراطورية العثمانية أمام الحلفاء في تشرين الثاني/نوفمبر 1918، توجّه

(1) *Le Petit Parisien*, 10 November 1925.

(2) المعرض، بيروت.

أرسلان إلى المنفى، ولبث هناك 28 سنة. فقد شعر بأن جذوره اقتُلعت بعد هزيمة العثمانيين. فتنقّل بين أوروبا الغربية والشرقية - من لوزان إلى موسكو، ومن روما إلى استانبول - وثبت على موقفه الإسلامي المعادي للإمبريالية. لم يكن يشعر بالاستعداد للالتزام بحركة سياسية عربية صِرف. لكن رشيد رضا أقنعه على الأقل، بمغادرة مدينة مرسين في تركيا حيث استقرّ، والعودة بسرعة إلى سويسرا لإعادة تنشيط الوفد الدائم للمؤتمر السوري- الفلسطيني. وافق أرسلان، وفي غضون وقت قصير، عاد إلى العمل إلى جانب إحسان الجابري. استأجرا مكتباً لهذه الغاية في 21 غلاسي دو ريف 21Glacis de Rive في جنيف.

بعد ذلك كتب أرسلان إلى رياض الصلح، وأرسل إليه بعض الصور المزعجة التي تُظهر رجالاً ونساء يفرّون من قراهم التي التهمتها النيران، وأطفالاً يبكون على حطام منازلهم، وجثثاً متناثرة من دون أن تدفن. وقال أرسلان: "مكانك هنا في جنيف في عصبة الأمم لا في الجبل. هناك كثير من الرجال الذين يستطيعون حمل السلاح ولكن لا أحد غيرك يستطيع إفحام الفرنسيين بلغة بليغة ومقنعة". وأوضح أرسلان لصديقه الشاب أن وطنيته لا تحتاج إلى مزيد من الإثبات. فقد نُفي وسُجن واقترب من الموت على حبل المشنقة. وذلك يكفي من دون شك! وأضاف، بقليل من المُزاح، أن على رياض أن يتوخّى عدم إثارة غيرة صديقهما المشترك إحسان الجابري، الذي يتوق إلى إثبات جدارته بالطريقة نفسها.

هكذا بدأت مسيرة رياض في ممارسة الضغط السياسي. عمل في جنيف إلى جانب أرسلان والجابري، بشكل متقطّع، طوال معظم الأربع سنوات التالية. وانهمك في الكتابة، وإلقاء المحاضرات العامة، والقيام بالحملات السياسية، واكتساب سمعة عالمية، وإرسال المذكرات والعرائض الكثيرة إلى اللجنة الدائمة للانتدابات. لم يقتصر نشاطه على ذلك البتة. فقد شغلته الكتابة أيضاً، مغفل الاسم في الغالب، إلى جريدته في بيروت. وقام برحلات عديدة إلى فلسطين ومصر وفرنسا وبلجيكا، وسعى إلى لقاء البابا بيوس الحادي عشر ونجح في ذلك. وفي الفاتيكان نقل نداءً خاصاً من الثوار السوريين إلى البابا، فوعد بأن يستخدم نفوذه لدى الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية لمصلحة السلام[1].

---

(1) Alia el-Solh, *Le jour* 17 October 1965.

تتبعّت الاستخبارات الفرنسية كل خطوات رياض. وفي إحدى زياراته إلى بيروت، اعتقلته السلطات العسكرية الفرنسية ووجهت إليه تهمة التحريض على الثورة السورية. واحتُجز بموجب الأمر رقم 274 الصادر في 27 حزيران/يونيو 1926 في قلعة جزيرة أرواد على مقربة من الشاطئ السوري. لكنه تمكّن بعد وقت قصير من الفرار من الجزيرة، ربما برشوة أحد الحراس. وبعد ذلك انضمّ إلى الوفد في جنيف بالسفر عبر القدس والقاهرة، فدبّت الحماسة ثانية في رفيقيه بعد وصوله البطولي.

في تموز/يوليو، لبث في المكتب في جنيف بمفرده، بينما أمضى رفيقاه شكيب أرسلان وإحسان الجابري أربعين يوماً في باريس وهما يحاولان التأثير في السياسة الفرنسية تجاه سوريا، أو التخفيف من حدّتها على الأقل. لكنّ المسؤولين الفرنسيين لم يستجيبوا لهما البتة، حيث كان اليمين الفرنسي يتخذ موقفاً حاداً من الثوّار السوريين. كتب أرسلان والجابري، عند عودتهما إلى جنيف، تقريراً مطولاً إلى اللجنة الدائمة للانتدابات الدائمة التابعة لعصبة الأمم عدّدا فيه أسباب الثورة: الحكم الفرنسي المباشر، وتقسيم البلاد إلى دويلات صغيرة، وضم أجزاء من سوريا إلى لبنان ضد إرادة سكانها. ووصفا كيف قُتل 14,000 شخص في خمسة عشر شهراً من القتال فقط، إلى جانب عدد كبير من الإصابات في صفوف النساء والأطفال، وتدمير "مدن تاريخية وقرى مزدهرة". وناشدا عصبة الأمم التدخّل لإنقاذ سوريا من الدمار وطالبا بإرسال بعثة تحقيق إلى البلاد[1].

تمكّن شكيب أرسلان وإحسان الجابري ورياض الصلح كفريق عمل من وضع أنفسهم في صدارة الناشطين في سبيل القضية العربية وفي عقول القادة الأوروبيين ومواطنيهم العرب. ولم يؤتَ على ذكر أحد آخر من البلدان الواقعة تحت الانتداب الأوروبي أكثر من هؤلاء الثلاثة في محاضر اللجنة الدائمة للانتدابات في عشرينيات القرن العشرين. وتمكّنوا من كثرة العرائض التي قدموها، والمثابرة والإلحاح في طلب المواعيد مع المسؤولين، من إجبار اللجنة على إيلاء الاهتمام بوفد المؤتمر السوري

(1) Petition of 11 September 1926 to Permanent Mandates Commission. Archives SDN. Geneva, Commission permanente des Mandats, 444-499, tome M 1926, v. 423. انظر أيضا Petitions of 10 and 19 November 1926, Archives SDN. Geneva, C.P.M. 500-548, Tome 12, 1926-27, v.424.

الفلسطيني. وعلى الرغم من ذلك منحوا الأولوية لما يجري في سوريا فقط في أثناء سنوات الثورة الكبرى، فإنهم سرعان ما وسعوا دائرة اهتمامهم لتشمل "سوريا الجنوبية" - أي فلسطين. وأصبح أرسلان والجابري والصلح أول من عرض من العرب القضية الفلسطينية على العالم بأسره[1]. ولكن كل جهودهم الجريئة لم تؤثّر في السياسة الفرنسية.

انهيار الثورة

عيّن هنري دي جوفنيل Henry de Jouvenel مكان الجنرال ساراي مفوّضاً سامياً في بيروت، وهو سياسي وصحفي ذو آراء ليبرالية، عمل محرّراً في صحيفة "لوماتان" Le Matin، وتزوج من الكاتبة كوليت في سنة 1912. خلال الحرب العالمية الأولى، حوّلت كوليت منزل زوجها في سان مالو St. Malo إلى مستشفى لمعالجة جرحى الحرب. ولكن في عشرينيات القرن العشرين، تباعد الزوجان أحدهما عن الآخر. فازداد اهتمامها بعالم الكتابة والمسرح والرسم، وذاع صيتها من خلال الكتب التي نشرتها مثل "الشاردة" *La Vagabonde* و"أعشاب الكروم" *Le Blé en herbe*. وانتهى زواجهما في 1924 بعد أن أقامت علاقة مع ابنه.

كان هنري دي جوفنيل أول مدني يُعيّن مفوضاً سامياً في ظل الانتداب. وصل إلى بيروت في أوائل كانون الأول/ديسمبر 1925، ولكنّه بقي في منصبه ثمانية أشهر فقط. اتبع سياسة إخماد الثورة بالعفو عن الثوار العاديين، وإجراء مفاوضات مع الوطنيين "المعتدلين" الذين لم يشاركوا في أعمال العنف مباشرة. لكن كانت الهوّة واسعة جداً بين ما طالب به هؤلاء الوطنيون، وما كانت فرنسا مستعدة لتقديمه، فلم يحقق جوفنيل نجاحاً أكبر مما حققه أسلافه.

قبل أن يتسلّم جوفنيل مركزه الجديد، دعا الأمير شكيب أرسلان إلى باريس للتباحث معه. لبّى أرسلان الدعوة لكنه ارتكب خطئين فادحين: أولاً، افتراضه أنه مخوّل التفاوض نيابة عن المجتمع السوري- اللبناني بأكمله، فتجاوز بذلك الدكتور الشهبندر في جبل الدروز والأمير ميشال لطف الله في القاهرة. فاعتبر هذان

(1) Cleveland, *Islam against the West*, pp 52-54.

الرجلان الشديدا الارتياب أرسلان الآن عدوّاً يجب إسقاطه. ثانياً، تقديمه تنازلات لا يملك صلاحية تقديمها. فقد وافق، على سبيل المثال، على أنّ لفرنسا الحقّ في إنشاء لبنان الكبير بضم مناطق تتبع سوريا تقليدياً إلى جبل لبنان - وذلك ابتعاد خطير عن المبادئ الوطنية، ما وجّه إليه تهمة السعي لحماية قاعدة نفوذه في لبنان قبل كل شيء.

بل إن أرسلان ذهب إلى أبعد من ذلك. فقد وافق على مبدأ التحالف بين سوريا وفرنسا لمدة ثلاثين عاماً، وعلى حصر المستشارين العسكريين الأجانب بالفرنسيين دون سواهم، وعلى أن تكون الفرنسية اللغة الأجنبية التي تدرس في المدارس السورية. لقد كان يعتقد فعلاً أن تلك التنازلات ضرورية للحصول على استقلال سوريا ولبنان عن الفرنسيين الجشعين، وربما كان محقّاً. لذا أصيب بالدهشة والحرج عندما قطع جوفنيل المحادثات معه فجأة، دون عذر أو تفسير، بتأثير من منافسيه الوطنيين على الأرجح(1).

عندما وصل هنري دي جوفنيل إلى بيروت لاستلام منصبه، تعهّد بأن ينجوَ الثوّار الذين يستسلمون قبل 6 كانون الثاني/يناير 1926 من الإعدام، وإن ليس من السجن. ووسط مديح حظي به من الصحافة المسيحية، أعلن أنه سيحارب الذين يريدون الحرب، لكنه يمدّ يده للسلام لمن يريدون السلام. عند حضوره قدّاس الأحد - وهو أمر نادراً ما فعله سلفه ساراي، وإذا ما حصل ذلك فبامتعاض شديد - أبلغ عند درج المذبح بأن الرهبانيات المسيحية، والمؤسسات التعليمية الدينية تتطلع إلى فرنسا كحامية لها.

وجّه جوفنيل دعوة إلى من اعتقد أنهم معتدلون، من أمثال لطفي الحفار وفارس الخوري، لمناقشة بنود السلام. ولكنه سرعان ما اكتشف أن هؤلاء أيضاً يرفضون التسوية في البنود الأساسية في الأجندة الوطنية. فقد طالبوا بعفو عامّ عن الثوار، وتوحيد سوريا بما في ذلك المنطقة العلوية بالإضافة إلى الأراضي التي ضُمّت بصورة مصطنعة إلى لبنان، ومجلس تشريعي لصياغة دستور جديد، وسلطة حقيقية للحكومة الوطنية، وجدول مواعيد لإنهاء الانتداب الفرنسي، مثل الذي وضعه البريطانيون في

(1) المصدر نفسه، ص 54-58.

العـــراق. وذلـــك يعني عمليا المطالبة بخروج الفرنسيين وتفكيك لبنان الكبير. وتلك مطالب ترفضها الحكومة الفرنسية في باريس وقيادتها العليا رفضاً تامّاً بطبيعة الحال[1].

اســـتمر ضـــغط الثوار طوال شتاء سنة 1925 وامتدّ إلى ربيع السنة التالية. وتمكـــنّت مجموعات المقاتلين، التي قدّر الفرنسيون عددهم بنحو 5000 رجل، من السيطرة على قسم كبير من الغوطة وهي المنطقة الزراعية الخضراء المحيطة بدمشق. وامتّدت الانتفاضة إلى المناطق الدرزية من لبنان، حيث تمكّن الفرنسيون، بعد دفاع شـــرس عن راشيا، من منع الثوار من السيطرة على أجزاء كبيرة من الجنوب، بل حتى تهديد بيروت.

اضـــطر الفرنسيون إلى طلب تعزيزات، وشنّ هجوم مضادّ بغية سحق الانتفاضة باستخدام القوة المفرطة. فتعرّضت القرى التي سيطر عليها الثوّار لقصف وحشي يومي وبهـــذه الطريقة فقط استعاد الفرنسيون السيطرة عليها. قُتل القرويون الذكور ونُسفت مـــنازلهم. وأحـــرِقت القرى التي رفضت دفع الغرامات، أو لم تستطِع ذلك، ما دفع أهالـــيها المـــصدومين والمُعـــدمين إلى التدفّق على دمشق، فأثار ذلك غضب سكانها وقلقهـــم. وعمـــد الجنود الفرنسيون بوقاحة إلى بيع الغنائم التي نهبوها من البيوت في الأســـواق. وأعدم السجناء الذكور رمياً بالرصاص في ساحة المرجة علناً. وفي إحدى المـــرات، تُـــركت ســـت عشرة جثة معروضة طوال النهار، ما أحدث صدمة لدى الـــسكان، وشـــكّل انتهاكاً فاضحاً للعادات الإسلامية التي تقضي بالإسراع في دفن الموتى. وفي أيار/مايو 1926، قصف الفرنسيون دمشق للمرّة الثانية وذلك لتصفية الثوّار تماماً.

في منتصف أيلول/سبتمبر، وصل الجنرال موريس غاملان Maurice Gamelin على رأس مزيد من التعزيزات، بما في ذلك الفيلق الأجنبـــي الذي يتسم بالوحشية، فزحف على السويداء في 24 أيلول/سبتمبر، ورفع الحصار عن الحامية الفرنسية التي احتمت في القلعة. وبعد شهرين من القصف، عمد الفرنسيون بصورة منهجية إلى إحراق أي مبنى لا يـــزال قائماً. ونُشر عشرة آلاف جندي في مناطق الثوار بين جبل الدروز ودمشق، وعدد مماثل داخل المدن الرئيسية وحولها.

(1) Provence, *The Great Syrian Revolt*, pp 127-8.

احتاجت فرنسا إلى أكثر من سنة لاستعادة السيطرة التامّة على ريف دمشق. ولتحقيق ذلك، لجأت إلى العقاب الجماعي والإعدام بالجملة، ونسف المنازل، واستخدام الدبابات والمركبات المدرّعة في المناطق المبنية، ونقل السكان من منطقة إلى أخرى، والقصف المتواصل للأماكن السكنية. ووفقاً لتعبير مايكل بروفنس، "تعرّض السكان المدنيون لقصف جوّي يومي منظّم."[1] تلك كانت الوسائل المروّعة التي استخدمت "لإحلال السلام" في أرض عهدت عصبة الأمم برعايتها إلى فرنسا، بغية إعدادها للاستقلال الوطني".

في ذلك الوقت، انتقل الاهتمام إلى جبهة جديدة في حماة. فقد تمرّد فوزي القاوقجي، وهو نقيب في القوات المحلية التابعة لفرنسا، مع مجموعة الفرسان التي يقودها بأكملها. وبعد أن حشد قوة من المقاتلين البدو، احتلّ المدينة، وهاجم المباني الفرنسية فيها. كانت خطته الاستراتيجية ترمي إلى فصل القوات الفرنسية بعضها عن بعض وإنهاكها، لإجبار فرنسا على التخلي عن الانتداب. لكن الفرنسيين ردوا دون رحمة في حماة أيضاً. فقصفوا المنطقة التجارية القديمة فيها، وأمروا القوات السنغالية الاستعمارية بإضرام النيران في بيوت الناشطين الوطنيين المحليين، ما أحدث دماراً واسعاً، وخسائر كبيرة في الأرواح. وكما حصل في دمشق بالضبط، عقد بعض وجهاء حماة في ذلك الوقت اتفاقاً مع الفرنسيين وحصلوا على تعهّد بأن يتوقّف القصف الفرنسي للمدينة ما إن يغادرها القاوقجي وقوّاته البدوية.

بعد مدة من الوقت، تمكّن الفرنسيون من دفع المقاتلين الدروز إلى منطقة حوران، وبحلول سنة 1927 أجبروهم على عبور الحدود إلى شمال شرق الأردن. وهناك استقرّ العديد منهم، بمن فيهم سلطان الأطرش وعائلته، في مخيم بائس للاجئين في منطقة الأزرق. وكانت بعض العائلات قد انتقلت إلى هناك في أثناء القتال. لكن الدروز أجبروا على الانتقال ثانية. ففي صيف 1927، طردهم البريطانيون من الأزرق إلى وادي سرحان، وهو وادٍ قاحل ذو طقس غير معتدل يبعد نحو 150 كلم جنوب شرق عمان، ويخضع لسلطة عبد العزيز ابن سعود. ولم يسمح لهم بالدخول إلا بعد أن توسّط لهم أعضاء المؤتمر السوري الفلسطيني المنفيون. بقي هؤلاء الوطنيون الشجعان الأباة عقداً من الزمن، حتى

(1) المصدر نفسه، ص 26، 28.

عـــام 1937، يعيشون في خيم غير ملائمة ويعيشون على الهبات التي يجمعها لهم المؤتمر من المتعاطفين معهم في سوريا ولبنان، ومن المهاجرين العرب في أميركا.

صـــدر عفو عن سلطان الأطرش في نيسان/أبريل 1937. فعاد إلى سوريا وانضمّ إلى الكـــتلة الوطنـــية من دون حماسة، على أمل أن تنتعش حظوظه، مثلما حدث مع شـــريكه السابق الدكتور الشهبندر[1]. في غضون ذلك، في أثناء غيابه في المنفى، برز ابن عمه حسن الأطرش ليصبح زعيم جبل الدروز من دون منازع.

انشقاق الصف الوطني

أصـــدرت محكمـــة عسكرية فرنسية حكماً غيابياً بالإعدام على الأمير شكيب أرسلان نظير دوره في الثورة. وكان قد أصبح في المنفى في سويسرا معلّقاً مرجعياً على الـــشؤون العـــربية والإسلامية. وأصبح مكتب وفد المؤتمر السوري الفلسطيني الذي يديـــره، مـــع إحـــسان الجابري ورياض الصلح، محطّ آمال العرب في سنوات ما بين الحـــربين[2]. كان أرسلان طوال حياته من دعاة الوحدة الإسلامية. لكنه لم يستطِع أن يبني قاعدة سياسية بسبب عدم قدرته على العودة إلى لبنان أو سوريا حتى صدور عفو عـــنه في ســـنة 1937، لذا لم يُمنح أي دور سياسي. كما هُمّش الدكتور الشهبندر، رئـــيس حزب الشعب، عدّة سنوات. وعندما انتقل إلى القاهرة، تحالف مع فئة ميشال لطـــف الله داخـــل الـــلجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني، واتخذ موقفاً موالياً للهاشميين وداعياً إلى مبدأ القومية العلمانية.

لقـــي نسيب البكري، أوثق حلفاء سلطان الأطرش في دمشق إبّان الثورة، نصيباً أفـــضل. فقـــد كان مجلس الثوّار الذي أنشأه، من ضباط عثمانيين سابقين وأشخاص يعملـــون في تجـــارة الحبوب في حوران، من أكثر مراكز قيادة الثورة فعالية[3]. وعلى غـــرار كثير غيره، نُفي من البلاد، لكن بعد مرور أقلّ من عام، في آذار/مارس 1928

(1) المصدر نفسه.

(2) Cleveland, *Islam against the West*, p 60.

(3) Provence, *Islam against the West.*, p 145. إلى جانـــب نـــسيب البكري نفسه، كان المجلس يتكوّن من محمد عز الدين الحلبـــي، وعلي الأطرش، وزيد العمر(درزي من الجنوب)، ونـــزيه مؤيد العظـــم، وســـعيد العـــاص، وزكـــي الحلبـــي، وزكي الدروبـــي، وأمين سر المجلس فائق العسلي (معظمهم من دمشق وحماة) (المصدر نفسه، ص 133).

كـثير غيره، نُفي من البلاد، لكن بعد مرور أقلّ من عام، في آذار/مارس 1928 صدر عفـو عنه وأعيدت إليه أملاك عائلته. وكان الوحيد الذي سُمح له بالعودة إلى سوريا خـلال ذلـك العقد من بين قادة الثورة البارزين. و لم يتضح سبب ذلك. ربما اعتقد الفرنسيون، أنه ذو علاقات واسعة تمكّنهم من التعامل معه.

هـرب مئات من الثوار السابقين إلى حيفا ويافا والقدس والقاهرة. اختار فوزي القاوقجـي، الـذي أمضى عقداً من الزمن هارباً من حكم الإعدام، بغداد منفى له، حـيث ساعد في تدريب جيش الملك فيصل الناشئ. وكان الصحفيون من أكثر الثوّار نشاطاً، ومن أبرز هؤلاء نجيب الريّس. فقد قاتل في الثورة السورية حتى سنة 1927، ثم قاتـل في فلسطين في سنة 1936 وفي العراق عام 1941، وكان في كل مرة إلى جانب فـوزي القاوقجـي. وعاد معظم الجنود المشاة العاديين في صفوف الثورة إلى بلادهم ليحاولوا إعادة بناء مزارعهم وقراهم المدّمرة.

شـكّل سحق الثورة السورية الكبرى بشراسة، وسقوط عدد كبير من الإصابات في صفوف المدنيين والدمار الواسع الذي لحق بالممتلكات في دمشق وحماة وفي القرى البعيدة وفي جبل الدروز، صفعة كبرى لرياض الصلح، والمعسكر الوطني بأكمله. فقد انتهت الثورة المسلحة إلى فشل ذريع، وأضيفت كارثة أخرى إلى قائمة طويلةً. وشملت تلـك القائمـة قـيام جمال باشا بشنق قادة الحركة القومية العربية الأوائل، واتفاق سـايكس- بـيكو الـذي قـسّم الولايات العربية، ووعد بلفور الذي منح فلسطين للـصهاينة، وخـيانة الـبريطانيين للثورة العربية، وقضاء الفرنسيين على مملكة فيصل العربية، وفرض الانتدابين الفرنسي والبريطاني البغيضين.

الحقـيقة المرّة هي أنّ ذلك الجيل من القوميين العرب، الذي شبّ عن الطوق في الحـرب العالمـية الأولى مع انهيار الإمبراطورية العثمانية، لم يكن أفضل حالاً من جيل أسلافه. كتب فيليب خوري في تأريخه الانتداب الفرنسي في سوريا:

> شكّلت الثورة الكبرى (1925-1927) نقطة تحوّل كبرى في تاريخ سوريا الحـديث والنـضال الـوطني للاستقلال عن الفرنسيين. وكانت تشبه في أسلوبها وحدّتها ومدّتها ونطاقها والطرق التي استخدمتها، حركات المقاومة الأخرى التي بدأت تترك أثرها في بلاد المشرق العربـي بعد الحرب العالمية

الأولى، لا سيما ثورة 1919 المصرية، ولاحقاً الثورة في فلسطين في الفترة 1936 - 1939.

تمتعت الثورة الكبرى بالشعبية بقدر ما كان المشاركون الناشطون فيها من كلّ طبقات المجتمع في سوريا: من الريف والمدن، ومن المسلمين والمسيحيين، ومن الأغنياء والفقراء. وقد صاغت قيادتها ولجأت إلى الاصطلاحات الوطنية الجديدة في ذلك الوقت. وسمحت الثورة نفسها بانتشار هذه العاطفة الوطنية الجديدة بسرعة واتساع وعمق أكبر من ذي قبل، ما مكّنها من أن تصبح المبدأ الناظم المسيطر على الحياة السياسية في عهد الانتداب[1].

مع ذلك، وعلى الرغم من هذا التغيير الواسع في العاطفة السياسية والشعور الوطني، فقد تبيّن أن نتائج الثورة المباشرة كارثية. لقد أدت هزيمة الثورة أمام الفرنسيين إلى ظهور انقسامات عميقة في الصف الوطني، ولم يكن الشجار العلني بين الشهبندر وأرسلان سوى الأكثر إثارة فيها. كان الشهبندر يكره أرسلان - وهو شعور متبادل بينهما. فهو علماني حرّ الفكر، ورجل أفعال مندفع، قاد حزب الشعب إلى الانضمام إلى الثوار الدروز من دون تفكير ملي في العواقب السياسية لذلك. أما أرسلان، فكان مثقفاً حذراً وثائراً متردّداً، بعيداً عن اعتناق فكرة القومية العربية، ومدافعاً قبل الحرب وبعدها عن تحالف العرب مع العثمانيين، حتى لو كان ذلك باسم الوحدة الإسلامية فحسب. ذهب الشهبندر إلى حدّ اتهام أرسلان، والتشهير به بصورة جائرة، بأنّه نصح جمال باشا بإعدام القوميين العرب خلال الحرب، ووصفه بأنه خائن وعميل للأتراك. واتهم أرسلان بدوره الشهبندر، ظلماً، بأنّه عميل بريطاني خائن وداعية للهاشميين. واستمرّت الأمور على هذه الحال.

وُجّهت إلى الأمير ميشال لطف الله تهمة الاستعداد لاستغلال تضحيات الشهداء السوريين لغاياته الخاصة المخادعة. وأشيع أنه كان مستعداً للتعاون مع الفرنسيين لتحقيق طموحه الشخصي بإمارة في سوريا أو لبنان. كان متهوّراً إلى حدّ أنّه قال

(1) Khoury, *Syria and the French Mandate*, pp 166-7.

لمراسل صحيفة **المعرض** البيروتية أنّه مستعد لقبول حدود لبنان الكبير الموسّعة – وتلك خـيانة واضحة للمبادئ الوطنية في ذلك الوقت. ومن المفارقات، كما تبيّن في خريف 1927، أن لطف الله خطّط لطرد شكيب أرسلان من الوفد في جنيف، على أساس أنة تجاوز صلاحياته في المحادثات التي أجراها في باريس مع هنري دي جوفنيل، في تشرين الثاني/نوفمبر 1925.

لا شك في أنّ هناك سبباً أعمق وراء هذه الانقسامات. فقد أصبح بعض من حاربـوا في الثورة السورية الكبرى مستعدين الآن لإجراء تسوية مع فرنسا. ومن أبـرز هـؤلاء الأخوان نسيب وفوزي البكري. لقد أظهرا جدارتيهما في القتال بالمـشاركة في هجوم الثوار على دمشق في تشرين الأول/أكتوبر 1925. ولكنهما كانـا مـستعدين للوصـول إلى اتفاق مع فرنسا، رغم أنهما لم يبديا أي تعاطف معها.

بالمقابـل، لم يكن بعض المتشددين في القاهرة، مثل الشيخ رشيد رضا، صاحب ومحـرر مجلة **المنار**، مستعدين حتى للتفكير في مثل تلك التسوية. ويقال إنّ رشيد رضا انـزعج جداً من التقارير التي تحدّثت عن تقرّب ميشال لطف الله من فرنسا. يجب ألا يغـيب عـن الـبال أنّ هؤلاء كانوا ممن يسعون إلى تطبيق النظريات بعيداً عن خط المواجهة. كما أنهم لم يعانوا من أضرار الحرب الفعلية، أو مخاطرها أو أهوالها.

في 19 تـشرين الأول/أكتوبر 1927، صوّت رشيد رضا ورفاقه[1] على عزل لطـف الله مـن رئاسة اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني. فردّ لطف الله بالدعوة إلى اجتماع عاجل انتُخب فيه الدكتور الشهبندر عضواً في المؤتمر. وهكذا نـشأت فجـأة فئـتان متنافستان تدّعي كلّ منهما تمثيل اللجنة التنفيذية للمؤتمر الـسوري الفلـسطيني[2]. وأدى الخـلاف المرير والمدمّر بين الشخصيات الوطنية الرئيـسية، لطف الله، وأرسلان، ورشيد رضا والشهبندر، إلى انقسام السوريين في المنفى. كما أنه شلّ فعالية المؤتمر.

---

(1) أسعد داغر، وخير الدين الزركلي، وجمال الحسيني.

(2) Neville Henderson, Acting High Commissioner in Palestine, to Sir Austen Chamberlain, 29 Oct 1927 (FO 371/12304)

رياض يغتنم الفرصة

لم يكن رياض مستعداً للتعاون مع الفرنسيين، لكنّه لم يكن في نفس الوقت من الرافضين المتشدّدين. كان معارضاً تماماً للسياسة الفرنسية الخارجية في المشرق، وملتزماً بالعمل على تغييرها، لكن ليس في وسعه أن يناصب فرنسا نفسها العداء المطلق. فهو في النهاية مطلع على الثقافة الفرنسية، وعاش في فرنسا، ويتكلم الفرنسية بطلاقة ويكتبها بأسلوب مميّز. وهو على الصعيد الشخصي ليّن العريكة ومتساهل، وليس لديه كره للأجانب بالتأكيد. ولعل هذا الموقف جعل قضيته مقنعة لدى الفرنسيين، وساعد في منحه نوعاً من الحصانة السياسية. صحيح أن الفرنسيين منعوه من دخول لبنان بين حين وآخر، وسارعوا إلى اعتقاله في بعض المناسبات، لكن ذلك لم يمنعه من السفر إلى فرنسا كلما أطلِق سراحه. كان الفرنسيون بحاجة إلى قادة عرب يمكنهم التباحث معهم في مختلف المسائل، واضطروا في نهاية المطاف إلى اعتباره مقياساً للآراء الوطنية.

أصبح رياض خبيراً بشؤون السياسة الفرنسية، نتيجة زياراته المتعددة إلى باريس. وأدرك أهمية التأثير في عملية اتخاذ القرار السياسي في العواصم الأوروبية. ولعله الوحيد من بين السياسيين العرب من أبناء جيله الذي أقام صلات واسعة جداً مع السياسيين وكبار المسؤولين الفرنسيين، أو مع الصحفيين النافذين. شنّ رياض هجومه من داخل الإمبراطورية الفرنسية. كان يريد أن يكسب الحزب الراديكالي بالذات إلى جانبه – الحركة العلمانية المعادية للكهنوت التي شكّلت العمود الفقري للجمهورية الثالثة. أنشئ الحزب الراديكالي في 21 حزيران/يونيو 1901 باندماج بعض اللجان الانتخابية، وأجزاء من عصبة حقوق الإنسان، والمحافل الماسونية، ومجموعات أخرى، وسيطر على الحياة السياسية الفرنسية مدة نصف قرن تقريباً. ومع أن رياض الصلح أولى اهتمامه إلى الحزب الراديكالي، فإنه لم يهمل الحزبين الشيوعي والاشتراكي اللذين افترقا في سنة 1920 في مؤتمر تور.

في أواخر عشرينيات القرن العشرين، أوجد رياض الصلح لنفسه مكاناً فريداً في المعسكر الوطني. فقد قُتل العديد ممن شاركوا في الثورة السورية الكبرى في أثناء القتال، أو حُكم عليهم بالإعدام غيابياً، أو نُفوا عشر سنوات أو أكثر، ولم يتمكّنوا من العودة إلى سوريا إلا في أواخر الثلاثينيات. وأبعدهم سحق الثورة الكبرى بشراسة عن

المسرح السياسي المحلي. كما تعرّض القياديون الأكبر سناً، مثل الأمير شكيب أرسلان، والدكتور الشهبندر، لضربات خطيرة أثّرت في سمعتهم بسبب استمرار العداوة المضرّة المتبادلة بينهم. فلم يعد يُعتدّ بأرسلان في السياسة - وهو أكبر سناً من رياض بخمسة وعشرين عاماً، ومُنع من دخول سوريا ولبنان من سنة 1926 إلى سنة 1937. وتضرّر الشهبندر بدوره من الانتقادات التي وُجهت إليه بسبب الاستراتيجية المتهوّرة التي اتبعها في أثناء الثورة. فمعركة ميسلون في سنة 1920، على الرغم من إيلامها وإثارتها للعواطف وما اتسمت به من شجاعة على وجه الخصوص، أظهرت بوضوح عدم جدوى مواجهة جيش فرنسا القوي. ومع ذلك اتبعت استراتيجية المواجهة العسكرية نفسها في الثورة السورية الكبرى في سنتي 1925 و1926، ولكن على نطاق أوسع بكثير ومن دون أي تنظيم.

أتاح انحسار شهرة أرسلان والشهبندر فرصة انتهزها رياض الصلح الآن. فكثّف نشاطه على عدة جبهات - في باريس مع الصحفيين والسياسيين الفرنسيين، وفي جنيف مع أرسلان نفسه ومع إحسان الجابري، وفي بيروت مع خير الدين الأحدب وصحيفة **العهد الجديد** التي يصدرانها معاً، وفي المفاوضات المتقطعة مع الصهاينة، وفي سوريا ولبنان مع أصدقائه في الكتلة الوطنية الوليدة. بعد سحق الثورة، أصبح رياض رائداً لاستراتيجية وطنية جديدة أكثر براغماتية، تدعو إلى التحاور مع الفرنسيين بدلاً من محاربة الجيش الفرنسي في مواجهة عسكرية مفتوحة، يعرف أنها لن تكون متكافئة لأن العرب يفتقرون إلى السلاح والتدريب إلى حدٍّ كبير.

يقدّم الاقتباس التالي فكرة عن أنشطته في تلك الفترة. ففي 25 شباط/فبراير 1927 مثّل سوريا في مؤتمر لرابطة الشعوب المضطهدة في بروكسل. وكالمعتاد، ظلّت المخابرات الفرنسية يقظة في مراقبته. وفي أوائل آذار/مارس 1927، أورد أحد ضباطها في بيروت في تقرير رفعه إلى باريس ملاحظات السياسي اللبناني أحمد الداعوق:

> علينا الاعتراف بأن رياض الصلح يقدم خدمة جلّى. ففي الشهرين الماضيين، أرادوا [المؤتمر السوري الفلسطيني] استدعاءه إلى القاهرة. لكننا كتبنا إلى بعض الأصدقاء راجين منهم إبقاءه في باريس. إنه نشيط جداً بحيث نظّم بمفرده خدمة للمعلومات والصحافة. وهو يزوّد الصحف

السورية والفرنسية بالمعلومات. اقرؤوا المقالات المنشورة في صحيفة النهار! ستلاحظون أنّ هذه الصحيفة واسعة الاطلاع لأنّ رياض الصلح مصدر أخبارها[1].

بين آذار/مارس وآب/أغسطس 1927، أمضى رياض الصلح وإحسان الجابري ستة أشهر في باريس في محاولة للتأثير في السياسة الفرنسية تجاه سوريا. انتقدا التقرير بشأن سوريا الذي رفعته فرنسا في سنة 1926 إلى اللجنة الدائمة للانتدابات في عصبة الأمم، وكانا محقين في وصفه بأنه لا يمت بصلة إلى الوقائع الفظيعة على الأرض. وبذلا كثيراً من الوقت والجهد لعرض قضيتهما على كلّ من أبدى استعداداً للاستماع إليهما، وأرسلا، عند عودتهما إلى جنيف، تقريراً مفصلاً في 1 أيلول/سبتمبر 1927 إلى السيد فيلغاس Villegas، رئيس الجمعية العامة الثامنة لعصبة الأمم، بشأن العلاقات السورية- الفرنسية المزرية. تلى ذلك رسالة أخرى في 21 تشرين الأول/أكتوبر 1927، إلى السير إريك دروموند Sir Eric Drummond، الأمين العام للعصبة، وكثير من العرائض الأخرى بنفس الروحية أبرزها تلك التي قدمت في 8 آذار/مارس و8 حزيران/يونيو 1928[2].

في أيار/مايو 1927، بادر رياض إلى إنشاء رابطة في باريس للطلاب العرب من سوريا والعراق وفلسطين وتونس والجزائر والمغرب. وُضع النظام الأساسي للرابطة، وخُصّصت غرفة لها في فندق سوسيتيه سافنت Sociétés Savantes في الحيّ اللاتيني. وقبل ذلك ببضعة أشهر، في شباط/فبراير 1927، شارك في تشجيع الطلاب السوريين في جامعة جنيف على تأسيس الرابطة السورية العربية، وإرسال التماس إلى المفوّض السامي الفرنسي في بيروت، هنري بونسو Henri Ponsot. وقد ذكر تقرير للشرطة السويسرية أسماء الأعضاء الثلاثة للّجنة الرابطة: عدنان الأتاسي (المولود في سنة 1904) وناظم القدسي (المولود في سنة 1905) وممدوح الأميري (المولود في 1906). وقال تقرير الشرطة إنّ "هؤلاء الشبان اجتمعوا على انتهاج سياسة وطنية ترمي إلى إنشاء إمبراطورية عربية أو كونفيدرالية تتكوّن من الحجاز

(1) .MEA, Fonds Beyrouth, Série B, Carton 20.3 March 1927

(2) انظر Archives SDN, Geneva, CPM, 700-754. tome 16, 1928, v.428, and Archives .SDN, Geneva, CPM. 755 -814, tome 17, 1928,v.429

والعـــراق وســـوريا، متحررّة من كلّ انتداب أو حماية أوروبية... سنبقيهم تحت المراقبة"[1].

كانـــت أنـــشطة ريـــاض السياسية تكلّف أموالاً، وهو دائم الافتقار إليها. وقد لاحظت المخابرات الفرنسية في بيروت أنّ: "الشبان المسلمين أفادوا أنّ رياض الصلح أرسل إلى أهله وأصدقائه طلباً للمال. وبما أنّ والده لم يعد قادراً على إرسال المال إليه، فقـــد تـــدخّل لـــدى المفوضـــية العلـــيا سعياً للسماح بعودته إلى بيروت"[2]. وفي حزيران/يونيو تكرّرت القصة نفسها.

وفقـــاً لمصادر إسلامية، كتب رياض الصلح الموجود الآن في باريس ويعاني مـــن صعوبات مادية، إلى الأخوين جبر طالباً الحصول على قرض قيمته 40 جنيهاً مصرياً، وقد أرسل إليه في الظاهر. ويذكر أن رياض طلب قبل بضعة أشـــهر قرضاً بقيمة 30 جنيهاً مصرياً أرسله إليه كمال جبر، حينما كان في رحلة إلى فلسطين. وجدت الحوالة معه عند الناقورة[3].

في تـــشرين الثاني/نوفمبر، نقلت الاستخبارات الفرنسية أن رياض الصلح صرّح مؤخراً لجريدة عربية في باريس قائلاً:

طالما تمسّك الوفد بالرأي الوارد في المذكرة التي أرسلتها إلى عصبة الأمم في آذار/مارس عام 1927، وهو أنه مستعد لقبول أي حل متوافق مع المطالب الوطنـــية. لقـــد تمكّـــنا من منح القضية السورية هويتها الحقيقية ودحض الاتهامـــات الـــتي وجّهها إليها خصومها. كما تمكّنا من القضاء على بعض الطمـــوحات المـــضرّة بالقضية السورية. وسنتابع جهودنا مع الرأي العام الفرنـــسي لأنـــنا مقتنعون بأنّ الشعب الفرنسي ينظر إلى المسألة السورية بطريقة مختلفة عن نظرة حكومته، ويرغب في إقامة علاقات ودّية مع سوريا موحدّة ومستقلة[4].

---

(1) Federal Archives, Berne, E2001 (D), S A 138, 21 April 1927.

(2) MEA, Fonds Beyrouth, Série B, Carton 20, 10 February 1927.

(3) MEA, Fonds Beyrouth, Série B, Carton 20, 17 June 1927. Service des renseignements, Damas ville. Délégation française de l'État de Syrie, 14 November 1927.

(4) المصدر نفسه.

هنا إذاً توجد القضية التي كرس رياض لها نفسه الآن.

لاحظ رياض في رحلاته في فرنسا وسويسرا كيف كان الناس يعيشون حريتهم السياسية. وتعلم الكثير في سويسرا على وجه الخصوص وتأثّر فيها جداً. وأشار إلى أن فيها عدة مجموعات عرقية مختلفة، تتحدّث لغات مختلفة، وتعيش معاً بانسجام ظاهر. ويتكوّن لبنان أيضاً من مثل هذه الفسيفساء. أفلا يمكن تقليد النموذج السويسري هناك؟ لقد لفت أيضاً أن التمتّع في الحرية في سويسرا لا يقتصر على المجتمعات المختلفة وإنما ينعم به الأفراد أيضاً. لم تتح للعرب، الذين رزحوا قروناً تحت السيطرة الأجنبية، فرصة العيش بحرية، فكيف يعيشون أحراراً؟ هذا هو التحدّي الأخلاقي الكبير الذي كانوا يواجهونه. وفي حياته المهنية اللاحقة، استحوذت عليه فكرة أنّ العرب، عندما يتحرّرون من الحكم الأجنبي، يميلون من دون مبالاة في الغالب إلى تسليم حريتهم إلى محرّريهم الذين ينتهجون أساليب قمعية[1].

(1) مقابلة مع علياء الصلح، مونت كارلو، 4-5 تشرين الأول 2004.

الفصل الثامن

عودة البطل

في يوم دافئ في منتصف أيار/مايو 1928، أقام رضا الصلح مأدبة غداء في منزله في صيدا في جنوب لبنان. أعدّت طاولة طويلة تحت عريشة على الشرفة الواسعة. كان عدد الضيوف الذين يتوقّع حضورهم يزيد على اثني عشر شخصاً. فقد بلغ رضا أنّ السلطات الفرنسية توشك أن تسمح بعودة ابنه رياض إلى الديار بعد التشدّد في نفيه لمدة سنتين. لذا أقيم الغداء بغية التحضير للحملة السياسية التي يأمل رياض في إطلاقها عند عودته.

كان رضا الصلح في أواخر الستينيات من العمر في ذلك الوقت، ويعاني من اعتلال صحته. وبعد أن صُدم مرتين بانهيار الإمبراطورية العثمانية وفرض الانتدابين الفرنسي والبريطاني، شعر أن قدر العرب أن يتحملوا فترة طويلة ثانية من الخضوع السياسي. وبدا له الاستقلال حلماً بعيداً، بعدما وقعت سوريا ضحية الحدود المصطنعة التي شوّهت بها القوى الإمبريالية الخريطة العربية. فطالما كانت صيدا، دار أجداد آل الصلح، جزءاً من ولاية سوريا العثمانية السابقة. غير أن الفرنسيين رأوا أن من المناسب ضمها إلى جبل لبنان في سنة 1920 - إلى جانب طرابلس في الشمال، ووادي البقاع في الشرق - لإنشاء لبنان الكبير. وكان رضا، مثله مثل القوميين العرب الآخرين، يريد عودة تلك الأراضي إلى سوريا. تلك هي القضية الساخنة التي ستسيطر على السياسة اللبنانية في العقود العديدة التالية.

في ذلك اليوم، في أوائل الصيف، دعا رضا الصلح عدة سياسيين بارزين، مسلمين ومسيحيين، إلى مأدبة الغداء. وقد أطلعت الاستخبارات الفرنسية، اليقظة دائماً في ما يتعلّق بآل الصلح، باريس على من حضر والأمور التي بُحثت. وأفاد أحد عملائها أنّ من بين المدعوّين ثلاثة أعضاء في البرلمان؛ إميل ادّه، شغل لاحقاً منصب رئيس الجمهورية اللبنانية بين سنتي 1936 و1941، وصبحي حيدر من بعلبك، وإيلي

سكاف من زحلة؛ وعضوين سابقين في البرلمان، سليم علي سلام، وعبد الله بو خاطر؛ وجورج خوري، وهو محامٍ في بلدية بيروت؛ وشخصيات عديدة أخرى من بيروت وصيدا. رحّب رضا الصلح بضيوفه وناشدهم وأد خلافاتهم والعمل بجدّ في سبيل "الوحدة الوطنية".

ورأى أنّ الطائفية لم تجلب على لبنان سوى الضرر، وأن على أبناء الوطن الواحد، مسلمين ومسيحيين، السعي للعيش معاً في وئام وانسجام. ردّ سليم علي سلام، وهو شخصية سنية بارزة، وقومي عربي، كان قد مثّل بيروت في البرلمان العثماني، فشكر رضا الصلح على "كلامه الجميل" وأثنى كثيراً على ما يقدّمه ولده رياض من خدمة للقضية العربية. وقال سلام إن رياض الصلح أعطى الحركة الوطنية زخماً حقيقاً، وإن كل وطني ينتظر عودته بفارغ الصبر[1].

على الرغم من أن رضا الصلح دعا إلى إنهاء الخلافات الطائفية، فإنه كان يدرك جيداً أن لدى الضيوف المجتمعين حول مائدته آراء متناقضة إن لم تكن متنافرة تماماً. ففي حين أن المسلمين اللبنانيين يريدون التخلص من السيطرة الفرنسية، وإنهاء الانتداب، واستعادة "وحدة" سوريا، فإن المسيحيين اللبنانيين، الذين أصبحوا يشكلون الآن أكثرية طفيفة، يعتقدون أنهم بحاجة إلى الحماية الفرنسية من "المتعصبين" الدينيين في الأراضي الداخلية السورية[2]. وكان إميل إده، ضيف رضا الأبرز، يؤيّد تماماً لبنان الكبير، الذي أنشئ تحديداً لتأمين النفوذ الفرنسي والسيطرة المارونية. وقد أظهرت الثورة السورية الكبرى في فترة 1925 - 1926 لإميل إدّه والموارنة الآخرين، الأهمية الاستراتيجية الكبرى لسلسلة جبال لبنان الشرقية، كحاجز طبيعي يحول دون أي هجوم على جبل لبنان من الأراضي الداخلية السورية. فاعتقد هؤلاء أنّه لولا الحماية التي وفّرتها بلدات مثل الجديدة وحاصبيا وراشيا، لتمكّن الثوار الدروز من غزو جبل لبنان، وإحراق منطقة الشوف بأكملها. لذا لم يكن من المفاجئ البتة، بالنظر إلى هذا التفكير، أن يعتبر الموارنة، ورعاتهم الفرنسيون، رياض الصلح محرّضاً خطيراً. كما أنه

(1) MAE-Nantes, Fonds Beyrouth (Amb), Série 199A4, carton 20,Service des renseignments, Beyrouth, 14 Mai 1928.

(2) Acting Consul-General Norman Mayers to Austen Chamberlain, Beirut, 14 December 1925 (FO 871/10853).

أصبح أكثر خطورة، باعتباره مؤيّداً "للوحدة" السورية، بسبب العلاقات الرفيعة التي أقامها في باريس.

راقبت الاستخبارات الفرنسية باحتراس تحرّكات رياض في رحلة عودته إلى الوطن. وكان عملاؤها قد اعترضوا رسالة عنه بعث بها نبيه العظمه، وهو قومي عربي بارز مقيم في القاهرة، إلى نجيب الريس محرّر جريدة **القبس** الوطنية الجديدة في دمشق. وعلى غرار العديد من الوطنيين الآخرين، التحق نبيه العظمة بالمدرسة الحربية العثمانية في دمشق ومكتب الإعدادية العسكرية، ثم تابع دراسته في إستانبول. وكان قد انضمّ إلى الثورة العربية في سنة 1916 وعمل في إدارة فيصل. تنقل رسالته الإحساس بالقلق والاكتئاب في صفوف الوطنيين بعد سحق الثورة السورية الكبرى. وقد ورد في رسالته:

بعد بضعة أيام سيكون أخونا رياض الصلح معك وسينقل إليك كلّ الأخبار.لا تيأس... لديك داخل البلاد وخارجها إخوة وأخوات يشاركونك متاعبك. فهناك رجال مخلصون في أمتنا لا تستطيع أي قوة على الأرض أن تحرمهم من حقوقهم... اتحد مع إخوانك الوطنيين! ولن ينتصر الرجعيون والخائنون على الوطنيين المخلصين.

سيبلغك رياض بك بكل شيء. أطلب منك أن تتخذ كلّ التدابير اللازمة لتأمين نجاحه. اهتمّ به لحظة وصوله، وقدّم إليه كل ما تستطيع من مساعدة".

يكفي الأمة قوّة أن يكون في عدادها هذه المجموعة من الرجال الأفاضل من أمثال عفيف الصلح، ومصطفى النحاس، وسعد الله الجابري وإبراهيم هنانو، وهاشم الأتاسي، وفوزي الغزي، وفارس الخوري، وإحسان الشريف، وبهجت الشهابي والعديد غيرهم. هؤلاء هم دعامة فيلق الشباب من أمثالك.

حافظ على الاتصال بخير الدين الأحدب، صاحب صحيفة **العهد الجديد** في بيروت..."[1].

(1) MAE, Fonds Beyrouth, Série B, Carton 20, Service de renseignements, Damas Ville, 5 Avril 1928.

وصـــل رياض، واستُقبل بجفاوة بالغة يوم الأحد 20 أيار/مايو، بعد مرور أسبوع علـــى مأدبـــة الغداء التي أقامها والده. انتقل من فلسطين إلى صيدا عبر بوابّة الناقورة الحدوديـــة، لكـــن لم يـــستطع والداه إقناعه بالبقاء في المنـــزل مدة طويلة، ما خيّب آمالهمـــا. كان في الثالثة والثلاثين، يفيض حيوية ويتلهّف إلى مغادرة صيدا على الفور تقـــريباً إلى بيروت ودمشق للقاء حلفائه الوطنيين الآخرين. لم يكن من السهل إقناع الفرنـــسيين بالـــسماح له بالعودة إلى سوريا ولبنان. فقد رفع هنري بونسو، المفوّض الـــسامي الجديد، توصية إلى رؤسائه في باريس بإبقاء هذا المثير للشغب في الخارج. بل إنـــه أوعـــز إلى قناصل فرنسا في القدس وحيفا ويافا، في 3 نيسان/أبريل، "برفض منح ريـــاض الـــصلح تأشـــيرة دخول إلى الأراضي الخاضعة للانتداب حتى إشعار آخر". وأوضح غاضباً قراره في رسالة عاجلة إلى وزير الخارجية الفرنسي في باريس: كالتالي:

> لقـــد تكرّمتم بإبلاغي أنّ رياض الصلح تمكّن من تجديد جواز سفره، وأنه تعهـــد ألا يعود إلى سوريا، بل السفر إلى مصر فقط. غير أن رياض الصلح عـــبر مصر ووصل في 2 نيسان/أبريل إلى حيفا، المدينة الأقرب إلى أراضينا. وهـــو يعـــيش هناك منذ ذلك الوقت. وقد طلب مني أصدقاؤه مرات عدة السماح له بالعودة، لكنّه أبلغ جميع مؤيّديه المتطرّفين في دمشق بأنّه سيعود عما قريب، دون انتظار نتيجة وساطتهم.
>
> بـــناء على ذلك، أوعزت إلى قنصلنا برفض منحه تأشيرة دخول. ويجب أن توضـــح هـــذه الوقائـــع للوزارة مقدار الثقة بالتعهدات التي يقدّمها رياض الصلح وأمثاله[1].

اســـتطاع هنري بونسو إبقاء رياض في حيفا عدة أسابيع أخرى. وانتظر حتى 10 أيار/مايو كي يرسل برقية إلى القنصل الفرنسي في حيفا ليقول: "يمكنك إصدار تأشيرة إلى ريـــاض الـــصلح". وفي الـــيوم نفسه وقّع مرسوماً يحمل الرقم 1144 يلغي بموجبه المرسوم رقم 274 الصادر في 27 حزيران/يونيو 1926 بنفي رياض إلى جزيرة أرواد[2].

---

(1) Fonds Beyrouth (Amb), Série 199A4,carton 20, Haut-Commissair H. Ponsot à Ministre des Affaires Etrangères, Beyrouth, 13 Avril 1928.

(2) CADN, Fonds Beyrouth, carton 421, décision no 1144, Haut-Commissaire, Beyrouth, 10 Mai 1928.

وكـــان تعهّد رضا الصلح بأنّ ولده لن يعمل في السياسة بعد الآن، هو ما أقنع بونسو بتليين موقفه.

من نافلة القول إن رياض الصلح لم يكن يعتبر التعهّد الذي قطعه والده للفرنسيين ملـــزماً له. كان واثقاً من نفسه بعدما أقام علاقات على مستوى عالٍ في باريس. فقد نجح في التأثير في الحزب الراديكالي الاشتراكي بحيث أصدرت لجنته التنفيذية بياناً يعلن أنـــه "لا يمكن إيجاد حلّ للمسألة السورية إلا بالتفاهم التام مع الوطنيين السوريين... وتطالب اللجنة بتلبية مطالب الشعب السوري المشروعة بالوحدة والاستقلال". بعث مراسل صحيفة **الكشاف** السورية في باريس بهذا البيان المهم إلى جريدته وأعيد نشره في عـــدة صـــحف في بـــيروت[1]. وكان رياض يعلم أن المفوّض السامي الفرنسي لا يستطيع الابتعاد كثيراً عن المزاج السياسي في العاصمة الفرنسية. لذا كان مصمماً على الاستفادة من تلك الميزة بأقصى سرعة وبكل ما أوتي من قوة.

لكـــنه كـــان يفتقر إلى الأموال على عادته. فرحلاته المتعدّدة، وإقامته الطويلة في بـــاريس وجنيف والقاهرة، وحاجته إلى استضافة الصحافيين والسياسيين، وكرمه مع الطـــلاب العـــرب وأصدقائه المفلسين، تتطلّب تدفّقاً نقدياً منتظماً. وفي ذلك الوقت أصبح وفد المؤتمر السوري الفلسطيني نفسه يعاني من نقص التمويل، وحافظ على بقائه بفـــضل الهـــبات غير منتظمة من داعميه المتضائلين في القاهرة. فقد كان للانقسام في صـــفوفه (وبخاصة الجفاء بين الأمير شكيب أرسلان من جهة والأمير ميشال لطف الله والدكتور شهبندر من جهة أخرى) أثر كارثي على صورة المؤتمر وأوضاعه المالية.

لم يكـــن لدى رياض الصلح أي إيراد. فقد اعتمد في عيشه على الدين إلى حدٍّ كـــبير، وتراكمت عليه ديون كبيرة على مرّ السنين، لم يعد في وسع والده تسديدها. كان موقف رضا من ولده المميّز والمتألّق معقداً: كان فخوراً بشهرته، وقلقاً من عاداته الإنفاقية، وربما يشعر ببعض الاستياء الضمني من أن نهج رياض السياسي الأكثر جرأة وراديكالـــية أبعـــده عـــن الساحة السياسية. وفي غضون ذلك، واصلت العائلة بيع أراضيها، وهي أساس ثروتها المتضائلة. وروى أحد أصدقاء العائلة، يوسف يزبك، أنه

(1) MAE-Nantes, Fonds Beyrouth (Amb), Série 1994A, carton 20, revue de la presse, Beyrouth, 13 Mars 1928.

سافر في سنة 1928 إلى طرابلس مع رياض، حيث تدبّر بيع بستان برتقال مقابل 8000 ليرة ذهبية، بغية تسديد بعض الديون للمقرضين الذين يلاحقونه[1].

من هنري دو جوفنيل إلى هنري بونسو

عـــندما عـــاد رياض إلى المشرق في ربيع 1928، وجد أن فرنسا لا تزال تواجه العـــواقب المفجعة لسحق الثورة السورية الكبرى. كانت الكآبة تلفّ السكان، والمدن تفيض باللاجئين المعدمين، كما تعطلت حركة التجارة، ودمّرت الكثير من الممتلكات. كانت بيروت، وهي في ذلك الوقت الميناء الرئيسي للأراضي السورية الداخلية، مدينة تضمّ نحو 130,000 نسمة، 20,000 منهم من الناجين الأرمن من الإبادة الجماعية التي وقعت في سنة 1915، يسعون بشجاعة وجدّ إلى إعادة بناء حياتهم المحطمة. فيما كان يقطن نحو 300,000 نسمة في كل من دمشق وحلب.

على الجبهة السياسية، كانت فرنسا عالقة بين المطالب العنيدة للقوميين العرب الذين ينادون "بالوحدة السورية"، والوطنيين اللبنانيين الذين يصرّون على المحافظة على سلامة أراضي "لبنان الكبير" الذي أنشأه الفرنسيون. وفي تلك الظروف، تعذّر على المفوّض السامي، هنري دو جوفنيل، تشكيل أي حكومة يمكن أن ترضي كلا الطرفين.

في 26 نيـــسان/أبريل 1926، في انتظار الخيار الذي يتخذه البرلمان المنتخب، فكّر دو جوفنـــيل في تجنّب المخاطر بتعيّين عضو من الأرستقراطية العثمانية القديمة، الداماد أحمـــد نامـــي بك، على رأس الدولة السورية. وُلد أحمد نامي بك في بيروت في سنة 1878 مـــن أمّ شركسية وأب يدعى فخري بك، عمل مساعداً للخديوي إسماعيل في مـــصر. و"الداماد" مصطلح تركي يعني صهر السلطان. والواقع أنّه تزوج من إحدى بـــنات الـــسلطان عـــبد الحميد الذي منحه لقب "معالي" أيضاً. لاحظ القنصل العام الـــبريطاني في تقريـــره الـــذي رفعه إلى لندن بإيجابية أن الداماد "لم يكن من جمهور المتملقين الذين يسعون إلى منصب ما، والذين برزوا كثيراً منذ وصول الفرنسيين"[2].

---

(1) يوسف يزبك، **أوراق لبنانية**، 3 مجلدات، بيروت 1955، 1956، 1957، المجلد 3، ص 552.

(2) Consul-General Satow to Austin Chamberlain, Beirut, 28 April 1926. (FO 371/11516 File 113809).

ولكن السوريين لم يستقبلوه بحماسة، كما أنّ إصراره على إحاطة نفسه بقواعد التشريفات الملكية أثار سخرية الشعب الذي ازداد قسوة وصلابة.

عند تعيين الداماد، كانت الجيوش الفرنسية قد نجحت في استرجاع عاصمة الدروز، السويداء، من الثوار. ولعل النتيجة التي حاول هنري دو جوفنيل نقلها إلى الرأي العام المتشكّك إلى حدٍّ بعيد، أن النجاحات العسكرية الفرنسية يمكن قراءتها أيضاً بمثابة نقطة تحوّل سياسية وبداية عهد جديد. ولأنه كان يتوق إلى إنهاء الثورة وإعادة الحياة السياسية الطبيعية إلى البلاد، فقد سعى إلى العثور على وطنيين معتدلين يعتقد بأن فرنسا تستطيع التوصّل إلى نوع من التفاهم معهم. فشكّل حكومة سورية في 5 أيار/مايو 1926 تضم ثلاثة منهم – حسني البرازي، وهو مالك أراضٍ ثري من حمص، وشغل منصب وزير الداخلية، وأسندت إليه مهمة تنظيم الانتخابات المقبلة؛ والمحامي المسيحي فارس الخوري، وزيرا للتعليم؛ ولطفي الحفار، نائب رئيس غرفة التجارة في دمشق، وزيراً للأشغال العامة. كانت استراتيجية دو جوفنيل ترمي إلى تأمين انتخاب برلمان يصوغ دستورا، ويقبل بعقد معاهدة لمدة ثلاثين عاماً تحافظ على دور فرنسا المتفوّق في البلاد. ولإرضاء الوطنيين، ذهب إلى حدّ التلميح بأنه قد يكون مستعداً لتسوية مسألة "الوحدة السورية" الشائكة بإعادة بعض الأراضي التي فصلت عن سوريا عند إنشاء لبنان الكبير.

لكن هذه الأفكار اتّسمت بالكثير من الراديكالية بالنسبة إلى الجنرال غاملان، القائد الأعلى لجيش المشرق، ورئيس جهاز المخابرات العقيد كاترو، وكلاهما منشغلان "بتنظيف" القرى المحيطة دمشق، بكثير من الوحشية، من بقايا الثوار. وأصرّا على وجوب ذبح الثوار ومؤيديهم من الوطنيين، لا التفاوض معهم ومكافأتهم! فخلال خمس سنوات بين سنة 1920 وسنة 1925، فقد الجيش الفرنسي 6722 رجلاً في سوريا ما بين قتيل ومفقود. وبلغت نفقاته العسكرية 2500 مليون فرنك فرنسي، وهو مبلغ كبير جداً، ما يستبعد بالنسبة إلى عسكريين صريحين مثلهما أي احتمال لتسوية سياسية[1].

(1) The Marquess of Crewe (Eric Phipps) To Sir Austen Chamberlain, Paris 23 October and 7 November 1925, reporting on information given to the French Chamber of Deputies on 21 October and 5 November 1925. (FO 371/10871 File 114692)

ومثلما خرّب أعداء الجنرال ساراي، في الجناح اليميني الكاثوليكي المتطرّف، سياساته الليبرالية، فقد تعمّدت التقارير التي أرسلها قادة الجيش إلى باريس وحذّروا فيها من إعادة اندلاع الثورة إضعاف هنري دو جوفنيل. كما وقع أحمد نامي بك ضحية السياسات العسكرية الفرنسية. فعندما أجبر في حزيران/يونيو على إجراء تعديل في حكومته بسبب الخلافات بين الوطنيين والمعتدلين، اعتقلت قوات الأمن الفرنسية على الفور وزراءه الوطنيين الثلاثة، حسني البرازي وفارس الخوري ولطفي الحفار، لأنهم أرادوا إرسال مواد إغاثة لضحايا الثورة من المدنيين. وأرسلوا على عجل بمرافقة عسكرية إلى لبنان وسجنوا في قصر بيت الدين. أدّت هذه الخطوة الفرنسية إلى تعميق الاستياء من أحمد نامي بك. وعلى أي حال، لم ينسَ الوطنيون قط أنه وافق على تسلّم رئاسةً البلاد في أثناء ثورتهم الكبرى.

كان حكم هنري دو جوفنيل في سوريا فاشلاً بكل الأحوال. أما في لبنان فكان أكثر نجاحاً بقليل. فتحت إشرافه، اعتمد دستور جديد في 23 أيار/مايو 1926، ينص على انتخاب رئيس للجمهورية، ومجلس تمثيلي تكون الحكومة مسؤولة أمامه. وفي حزيران/يونيو، شُكلت حكومة برئاسة الماروني أوغست أديب باشا، بينما عيّن ماروني آخر، الشيخ بشارة الخوري، وزيراً للداخلية. وفي 1 أيلول/سبتمبر تمّ الإعلان عن الجمهورية اللبنانية بدلاً من دولة لبنان الكبير. وتحوّل المجلس التمثيلي عندئذ إلى مجلس للنواب، فقام بانتخاب السياسي الأرثوذكسي شارل دباس رئيساً للجمهورية، وبقي في منصبه حتى سنة 1932. وقد أمل الفرنسيون باختياره المحافظة على توازن معقول بين المعسكرين المسلم والماروني المتخاصمين.

كان دستور 1926 المستوحى من الفرنسيين بعيداً جداً عن تحقيق الاستقلال الحقيقي الذي كان يطالب به الوطنيون. فقد منحت المادة 90 المفوّض السامي الفرنسي السيطرة على السياستين الخارجية والدفاعية. وكان قادراً على إلغاء أي تشريع يُعتبر مناقضاً للانتداب، بل إن بإمكانه، إذا شاء، أن يعلّق الدستور بأكمله! ونصّت المادة 9 على ملء الحقائب الوزارية، ووظائف القطاع العام على أساس طائفي "منصف". وهذه المادة، بالتحديد، هي التي رسخت الطائفية في الحياة العامة في لبنان.

وقـــد رحّبت بها بعض الطوائف، لكن اللبنانيين دفعوا غالياً بسببها وما زالوا إلى يومنا هذا[1].

استقال هنري دو جوفنيل، بعد أن ثبطت عزيمته في صيف عام 1926 وحل محله في تشرين الأول/أكتوبر هنري بونسو الذي بذل جهداً كبيراً لاستعادة الحياة السياسية الطبيعـــية في سوريا. فأعلن عن عفو وسمح بحريات أكبر. ترك معالي الداماد أحمد نامي باشـــا منصبه غير مأسوف عليه في 9 شباط/فبراير 1928. بعد ذلك شكّل الشيخ تاج الـــدين الحسيني ما سماه القنصل البريطاني في دمشق "وزارة خاضعة تماماً"[2]. أجريت انـــتخابات الجمعـــية التأسيسية في نيسان/أبريل، ففاز الوطنيون في المدن والمعتدلون في الـــريف. وانـــتخب القائـــد الوطني الحمصي هاشم الأتاسي رئيساً للمجلس. ذلك باختـــصار الوضـــع السياسي الذي كان سائداً عند عودة رياض الصلح إلى الديار في أيار/مايو 1928.

رياض والجبهة الوطنية السورية

قـــبل ذلك بعام، في سنة 1927، بدأ وطنيون بارزون في دمشق وحلب وبيروت، ومـــدن أخـــرى في ســـوريا ولبنان الاتصال بعضهم ببعض لبحث إمكانية الحوار مع الفرنـــسيين. ففي أعقاب صدمة الثورة السورية الكبرى، أدركوا متأسّفين أن المواجهة العـــسكرية مـــع فرنسا لم تنجح في خدمة قضيتهم، بل إنها، على العكس من ذلك، ألحقت بها ضرراً مؤلماً. لقد حان الوقت للنظر في إيجاد طريق آخر يقودهم إلى الأمام. وعـــندما أشارت فرنسا إلى أنّها ترغب في تنظيم وجودها في سوريا عن طريق معاهدة ثنائية، بدأ بعض الوطنيين يفكرون في أن ذلك قد يكون في النهاية أحد طرق الوصول إلى هدف الاستقلال المنشود.

كـــان ريـــاض رائد استراتيجية السعي للتأثير على السياسيين الفرنسيين في بـــاريس، ومحاولـــة استمالة الرأي العام الفرنسي مباشرة. لقد أبدى الوطنيون من

(1) Mizrahi, "La France et sa Politique de Mandat p 47 ; George Corn, *Le Liban contemporain*, Paris 2005, pp. 91-92.

(2) Consul E. C. Hole to Sir Austen Chamberlain, Damascus, 23 February 1928. (FO 371/13074).

أمثاله تعاطفاً شديداً مع الثورة، وحيّوا شهداءها واعتبروهم أبطالهم، لكنهم لم يحملوا السلاح بأنفسهم. بل ربما ساورتهم الشكوك بشأن حكمة محاولة طرد الفرنسيين بالقوة، أو جدواها. وبذلك ظهر تباين صارخ بين موقفهم ومواقف رجال مثل سلطان الأطرش، والدكتور الشهبندر، ونسيب البكري حاملي لواء الثورة المسلحة. كما كانوا مختلفين تماماً عن العسكريين المحترفين مثل فوزي القاوقجي، أو عشائر جبل الدروز وحوران الذين لديهم استعداد تقليدي للقتال، أو تجار الميدان والشاغور وقرويي الغوطة الذين تحملوا عبء القتال وقدّموا الدعم اللوجستي إلى الثوّار، وبالتالي عانوا من الرد الانتقامي الفرنسي الوحشي عليهم وعلى بيوتهم وأرزاقهم.

لا يمكن الطعن بهؤلاء القادة الوطنيين الذين بدؤوا يبحثون عن طرق للتعامل مع الفرنسيين، واتهامهم بالتعاون معهم. فمعظمهم ينحدرون من عائلات ميسورة من مالكي الأراضي، وينتمون إلى النخبة التقليدية الحاكمة في سوريا، وأبناء المؤسسة العربية العثمانية. وأدى سحق الثورة ونفي قادتها إلى الدفع بهم إلى الواجهة كمحاورين محتملين مع الفرنسيين. وقد درس العديد منهم في "مكتب عنبر" وهي المدرسة الابتدائية المدنية الراقية التي كانت تشغل مبنى دمشقياً كبيراً يضمّ العديد من الباحات المزخرفة، وشكّلت مدرسة النخبة السورية في فترة ما بين الحربين[1]. لم يكن هؤلاء الرجال، الذين أكملوا دراستهم في استانبول أو باريس، مستعدين للخضوع لإملاءات الفرنسيين، ولكنهم على استعداد للتحدّث مع فرنسا. لكن يجب عدم الخلط على أي مستوى بينهم وبين حفنة من الوجهاء الذين مالوا بطريقة مدروسة منذ بداية الانتداب الفرنسي. وتضم هذه المجموعة عبد الرحمن اليوسف، وتاج الدين الحسيني، وصبحي بركات من دمشق، وعائلة المدرّس من حلب، وعائلة كنج من اللاذقية، وشارل دباس وإميل اده في لبنان.

بدأ هنري بونسو، المفوّض السامي الجديد، بإصدار مراسيم بإلغاء حالة الطوارئ، والعفو عن بعض الثوار السابقين. فرحّبت دمشق بعودة الأخوين بكري، فوزي ونجيب (خالي زوجة شكري القوّتلي لاحقاً)، وحملتهما الحشود على الأكتاف. كما سُمح

(1) Michael Provence, *The Great Syrian Revolt*, p. 39.

بالعـــودة لوطنـــيين بارزين آخرين، لم يحملوا السلاح و لم يشاركوا في الثورة، ومنهم فـــارس الخـــوري، وفوزي الغزّي، وسعد الله الجابري، وعارف النعماني. وهم أوثق أصـــدقاء رياض الصلح. وقد شكّلوا مجموعة صغيرة من السياسيين البارزين المتعلّمين والمـــتحدّرين مـــن أصول عريقة، الذين يتقاسمون الأفكار الوطنية نفسها وتجمع بينهم أواصر الألفة والمحبة. كان مثل هؤلاء الأشخاص الذين يتسمون بالعقلية نفسها يتنقلون كـــثيراً، في ذلك الوقت، بين سوريا ولبنان وفلسطين. كما كانوا يتواصلون كثيراً عن طريق الرسل، رغم تكرّر اعتراض رسائلهم من قبل الفرنسيين، والعواقب المؤسفة التي تعود على حامليها.

كـــان ريـــاض قـــد كتب رسالة من حيفا في سنة 1926 إلى الوجيه الطرابلسي عـــبد الحميد كرامي، ليهنّئه على دعم القضية الوطنية، ويطلب منه أيضاً إرسال بعض المـــال إلى الوفد في جنيف. وعلى الحدود اللبنانية فُتّش حامل الرسالة، كمال جبر – وهو من عائلة بيروتية ثرية متعاطفة جداً مع الوطنيين، كما أنه أرسل بشجاعة وسخاء المـــال عدة مرات إلى رياض عندما احتاج إليه – ووجدت رسالة رياض معه. فاعتقل علـــى الفـــور هو وشقيقه، بشير، ونُفيا إلى قدموس في الدويلة العلوية في شمال غرب ســـوريا. واعترض الفرنسيون رسالة أخرى في الوقت نفسه، أرسلها رياض إلى الشيخ تـــاج الدين الحسيني، وهو من عائلة جدة رياض لأبيه، وفيها يحتج غاضباً على تعاون الشيخ تاج الدين مع الفرنسيين[1].

تأثّـــر رياض، على غرار معظم أصدقائه وزملائه في دمشق وجنيف، تأثراً عميقاً بالـــثقافة الفرنسية، والقيم السياسية والأخلاقية لأوروبا الليبرالية. وكان يتوق إلى أن يطـــبّق الفرنـــسيون هـــذه المبادئ في المشرق. لكن بدلاً من ذلك، ذُمّ الرجال أمثاله، واعـــتقلوا وأودعـــوا السجون، وطردوا من بلادهم. فقد تشرّبت الحكومتان الفرنسية والـــبريطانية العقلية الاستعمارية والعنصرية التي سادت في أوروبا ما بين الحربين، و لم يكـــن في وسعهما أن تتصوّرا الديمقراطية إلا لمصلحتهما التي يفترض أن تأتي في المقام الأول[2].

(1) Consul-General H. E. Satow to Secretary of State, Beirut, 6 December 1926. (FO 732/22/3).

(2) Fleury, 'Le Mouvement national arabe', p. 354.

في 27 تشرين الأول/أكتوبر 1927، اجتمع الوطنيون من مختلف المدن السورية في بيروت، فشكّل اجتماعهم المؤتمر الأول للكتلة الوطنية السورية. ولم يكن الاجتماع ممكناً إلا بعد الاتفاق المسبق بين قيادات المدينتين المتنافستين حلب ودمشق، اللتين تطمح كل منهما إلى أن تصبح العاصمة السورية. كان الحلبي القوي، ابراهيم هنانو، قوة دافعة مبكّرة لتشكيل الكتلة، حيث وفّر التنظيم الواسع الذي قام به في الشمال مضمونها الأولي. لم يستطع رياض حضور المؤتمر، لأنّ الفرنسيين لم يسمحوا له في ذلك الوقت بالعودة إلى المشرق. انتُخب هاشم الأتاسي من حمص رئيساً "للكتلة". ومن بين الأعضاء البارزين الآخرين جميل مردم من دمشق، وسعد الله الجابري من حلب. وكان فارس الخوري، المحامي البروتستانتي من دمشق، عضواً مؤثراً. حظيت الكتلة بدعم من مجموعة الاستقلال بقيادة شكري القوّتلي، ومن العديد من التجار الوطنيين (مثل توفيق القباني الذي سجنه الفرنسيون عدة مرات) الذين دعوا إلى إضرابات عامة في السوق دعماً للوطنيين. وضمّت اللجنة التنفيذية للكتلة سبعة أعضاء من بينهم ابن عم رياض، عفيف الصلح.

على الرغم من أن الكتلة لم تكن حزباً سياسياً، بل تحالفاً غير ثابت بين أفراد بارزين، فإنها نجحت بحلول سنة 1928 في أن تصبح التشكيل السياسي الأبرز في سوريا. وقد عقد العديد من اجتماعاتها في حديقة منزل توفيق قباني الوارفة التي تفوح منها رائحة الياسمين، في حي الشاغور المناهض للاستعمار بحماسة. وتوفيق القباني من الوطنيين الدمشقيين الملتزمين، ووالد الشاعر نزار قباني (الذي يمكن رؤيته في الصور الفوتوغرافية كطفل جميل بين مجموعة السياسيين البارزين، الذين غالباً ما كان يخاطبهم فوزي الغزّي)[1]. كان مطلب الكتلة الأساسي إعادة المدن الساحلية والأقضية الأربعة التي سُلخت عن سوريا وضُمّت إلى لبنان الكبير. وقد أنشئت فروع للكتلة في هذه "المناطق المتنازع عليها".

ولكي تؤكّد الكتلة التزامها بقضية "الوحدة السورية"، فإنها أضافت في نهاية المطاف ثمانية من الوطنيين العرب اللبنانيين إلى أعضائها الذين بلغ عددهم ثمانية وثلاثين: رياض الصلح وعبد الرحمن بيهم من بيروت والأميرين أمين أرسلان وشكيب

(1) صور فوتوغرافية في حوزة المؤلف.

أرسلان من جبل لبنان، وسعيد حيدر من بعلبك، وعبد الحميد كرامي ومحمد عارف الحسن وعبد اللطيف البيسار من طرابلس[1]. اتفق أعضاء الكتلة الوطنية على التحدّث مـــع الفرنسيين على أمل "تحقيق طموحاتهم والاعتراف بسيادتهم الوطنية"[2]. وراقب الفرنـــسيون بدورهم هذه التطوّرات باهتمام شديد، لأنهم يدركون حاجتهم إلى نخبة يمكنهم التوصّل إلى تسوية معها.

انـــضمّ رياض إلى الكتلة الوطنية، لكنه ربما لم يكن جزءاً لا يتجزّأ منها. فهو من بيروت لذا نأى بنفسه عن الخصومات السياسية بين دمشق وحلب. وقد رأى نفـــسه صوتاً لسوريا في الخارج، ونصيراً لقضية الاستقلال العربـــي. فقدّم صياغة رائعة للأهداف الوطنية: إزالة الحكم الفرنسي، واستعادة وحدة سوريا، وانتمائها إلى الأســـرة العـــربية الكبرى. وأصبح شخصية معروفة عالمياً إلى حدٍّ ما. وعُلّقت آمـــال وطنية كبيرة على التأثير الذي يمكن أن يمارسه في باريس. ففي تلك الأيام، عـــندما كانـــت النخبة فقط تستطيع التعلّم في الغرب والسفر إليه، بدت العواصم الأوروبـــية مثل لندن وباريس، وهما مركزا القوة الإمبريالية في ذلك الوقت، بعيدة المنال. لذا فإن التصرّف فيها على السجيّة، كما كان حال رياض، يمنح المرء سلطة وشيئاً من البريق أيضاً.

بالإضـــافة إلى الكـــتلة الوطنية التي تتعامل مع القضايا السورية، أنشأ الوطنيون العرب اللبنانيون منتدى آخر في بيروت عُرف باسم مؤتمر الساحل، كان محور اهتمامه "الأراضي المتنازع عليها". دعا إلى هذا المنتدى سليم علي سلام، وعبد الحميد كرامي، وريـــاض الصلح واجتمع ثلاث مرات في سنة 1928 ومرتين في سنة 1933. وكانت شكواه الرئيسية توسيع الفرنسيين "لبنان الصغير" بصورة اعتباطية وتقسيم ما تبقى من مملكـــة فيصل العربية إلى دويلات صغيرة. لكن تلك المبادرة لقيت معارضة شديدة من الطائفـــة المارونـــية المـــسيطرة التي سعت بكل الطرق، حتى منتصف الثلاثينيات، إلى استبعاد الوطنيين اللبنانيين العرب من الحياة السياسية في البلاد[3].

---

(1) Raghid el-Solh, Lebanon and Arabism: National Identity and State Formation, London 2004, p. 53, n. 51.

(2) Mahafzah, 'La France et le mouvement nationaliste arabe de 1914 à 1950', p. 301.

(3) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, pp. 8-9.

رحلة رياض بك الناجحة

استُقبل رياض في صيدا استقبال الأبطال قبل أن يغادر للاجتماع بهؤلاء الوطنيين الـــذين ينتظرونه بشوق في سوريا. وتوّجت الاحتفالات التي أقيمت على شرفه بحفلة شـــاي أقامهـــا والـــده في الأسبوع الأخير من أيار/مايو 1928. ودُعي إليها الأعضاء الوطنـــيون المنتخـــبون حديثاً في البرلمان السوري الذين يمثلون دمشق وحلب وحمص وحماة، بالإضافة إلى عدد من الصحفيين البارزين. توخّى رياض قدراً معقولاً من الحذر في الـــبداية استرضاء لوالده، ولكي لا يستعدي المفوّضية الفرنسية العليا. لكنه في هذه المناســـبة السعيدة، اندفع وألقى خطاباً بليغاً رحّب فيه بانتصار الوطنيين في انتخابات نيـــسان/أبريل في سوريا. وصاح قائلاً، "لقد فزنا في المنافسة أخيراً، وعلينا الآن تعزيز مكاسبنا. علينا تأمين استقلال سوريا وسيادتها التامة! إنني لم أعد من المنفى لأتخلّى عن النضال من أجل تحقيق كلّ خططنا... ولدي أمل في أن تستجيب فرنسا ومن يمثلها في ســـوريا إلى مطالبنا". لاحظ الفرنسيون أنّ تلك الكلمات تركت أثراً كبيراً في الحاضرين. فأوردت المفوّضية العليا القلقة في تقرير رفعته إلى باريس أن حلم الوطنيين هو:

> تحريـــر كـــل الأراضي الواقعة تحت الانتداب، وتوحيدها معاً لتشكيل قوة مشرقية كبيرة... وهذا هو المبدأ الوحيد الذي يُلهم نشاط رياض الصلح في لبنان... يأمل الوطنيون أن يكون لبنان أول دولة تحت الانتداب تستقل عن فرنـــسا، وتطالـــب بالانـــضمام إلى سوريا، مع الاحتفاظ بقدر محدّد من الاســـتقلال الـــذاتي الإقليمي... ومن الصعب تهدئة نفاد صبر المسلمين في طرابلس وجنوب لبنان والبقاع. وقد عُقد اجتماع في بعلبك حضره رياض الـــصلح، وفوزي الغزّي وآخرون بدعوة من آل حيدر. وهتف المتظاهرون هناك مطالبين بالوحدة مع سوريا قبل أن تفرقهم الشرطة[1].

في أوائل حزيران/يونيو رفعت المفوّضية العليا تقريراً إلى باريس يفيد أن الحكومة اللبنانية يساورها القلق من أنشطة رياض الصلح منذ عودته، ومن المتظاهـــرين المؤيّدين له في صيدا وبعلبك وبيروت. وقد أحدثت لقاءاته مع

(1) MAE-Nantes, Fonds Beyrouth (Amb.), série 199 A4, carton 20,undated but probably end May 1928.

الوطنيين في دمشق وخطاباته الملهبة للمشاعر أثراً في العناصر المسلمة، وحتى المسيحية، التي تحبّذ الوحدة السورية لكنها تقبّلت النظام الحالي وأيّدت الجمهورية اللبنانية، حالياً على الأقل. المسلمون في بيروت وطرابلس مندهشون من الصراحة التي يعبّر فيها الشاب رياض عن نفسه. وقد شجعّهم حياد سلطات الانتداب تجاهه على المطالبة بالوحدة مع سوريا.

أضافت المفوّضية العليا الفرنسية أيضاً أنّ هذه التحرّكات الوطنية أثارت استياء كبيراً لدى العديد من الوزراء اللبنانيين الذين عقدوا اجتماعاً سرياً حضره النائب إميل إده.

بحثوا التدابير التي يجب اتخاذها للدفاع عن سلامة أراضي لبنان في وجه هذه المناورات التخريبية. وتقرّر الدعوة إلى جلسة استثنائية للمجلس، وتقديم مشروع قانون فوري يسمح باتخاذ إجراءات قانونية ضدّ أي شخص يعمل على الإطاحة بالنظام القائم وتقسيم الأراضي اللبنانية. سيحظر القانون أيضاً عقد أي اجتماع يعتقد أنه تخريبي. يتوقّع أن تكون المناقشات عاصفة، لكن الغالبية المحيطة بإدّه ستضمن نجاح الحكومة في وطنيين من أمثال عمر بيهم وأحمد الداعوق.

لقد أصبح موقف رياض الصلح مثيراً للاستفزاز. في الليلة الماضية، استمعت إليه مجموعة من الأشخاص في المطعم الفرنسي وهو يناقش نزع سلاح فرنسا ويصف مظهر الجيش الفرنسي بأنه غير منظّم مقارنة بالمظهر اللائق للجيش الإيطالي الذي يعطي الانطباع بالقوة والتفوّق. وهو يؤكّد في كل الأماكن العامة حريته في الانتقاد، ويزعم أن ما من أحد يمكنه ردعه لأن أصدقاءه النافذين في باريس وعصبة الأمم سيدافعون عنه[1].

ولكن لم يكن الأمر كذلك تماماً. أصبح رياض الآن مصدر خطر رئيسياً للحكومة الفرنسية في باريس، والحكومة المدعومة من الفرنسيين في بيروت. فقد أثار حماسة شعبية كبرى، ولم يعد من السهل كبحه. وبما أن السلطات الفرنسية المحلية لم

---

(1) MAE-Nantes, Fonds Beyrouth (Amb.), série 199A4, carton 20, renseignement d'une source sérieuse, 9 juin 1928.

تكـــن تعـــرف على وجه اليقين مقدار الدعم الذي يحظى به رياض بالفعل في الدوائر السياسية الفرنسية، فإنها قررّت أن تتعامل معه بحذر، واتبع المفوّض السامي الفرنسي، هنـــري بونـــسو، سياسة عدم التدخل، بل عدم الاكتراث. أثار ذلك حفيظة الضباط الفرنـــسيين الذين كانوا يتوقون لردّ أكثر قوة على "استفزازات" رياض. وأفاد القنصل البريطاني هول E.C Hole في تقرير رفعه إلى لندن أن المسؤولين الفرنسيين فسرّوا عدم اكتراث بونسو بأنه "عجز تام عن حسم قراره"[1]. من الواضح أنه لم يكن أحد يعرف ماذا يفعل مع رياض.

دخل رياض دمشق ظافراً في 20 حزيران/يونيو 1928 في موكب مكوّن من عدة مـــئات من السيارات ولقي ترحيباً من حشد كبير. وقد خرج عدد من أعضاء البرلمان السوري لملاقاته على طريق بيروت، إلى جانب وفود من الطلاب والوجهاء والتجار. لكن لم يكن الجميع سعداء بهذا المنظر. استاء الأخوان البكري، على سبيل المثال، من التـــرحيب الشعبـــي الذي حظي به. فقد حاربا في الثورة السورية الكبرى، وخاطرا بحياتيهما، ودُمّر منـــزلاهما وصودرت أراضيهما الخصبة، بينما حظي هو بالجائزة!

ومما ينذر بالشرّ، أن قنبلة صغيرة محلية الصنع سقطت عَرَضاً من شاب، يُشتبه في أنـــه يعمل لحساب الفرنسيين، قبيل وصول رياض إلى فندق قصر الشرق، فانفجرت ومزقت ثيابه، وألقي القبض عليه على الفور. وألقيت قنلبة أخرى، مصنوعة من مزيج مـــن الحـــصى الصغيرة والمتفجرات وملفوفة بقطعة قماش، على الوطني البارز فوزي الغزي، لكنها لم تصبه بأذى.

كـــان الوضع متوتّراً جداً في دمشق لأن الوطنيين قرّروا استعراض قوّتهم. فبعد مرور شهرين فقط على انتخابات نيسان/أبريل، كلّفت لجنة برلمانية سورية برئاسة إبراهيم هنانو بوضع دستور للبلاد. فصاغه فوزي الغزي. تعمّد النص عدم الإشارة البتة إلى الانتداب أو المصالح الفرنسية. وحدّدت المادة 2 منه، سوريا بأنها كيان "لا تنفصم عراه" يضم فلسطين وشـــرق الأردن ولبـــنان. ونصّ على رئيس مسلم للبلاد، ومجلس نواب منتخب لمدة أربع ســـنوات بالاقتـــراع العام، ومخوّل توقيع المعاهدات وتسمية الممثّلين في الخارج؛ وحكومة

---

(1) Consul E.C. Hole to Sir Austen Chamberlain, Damascus, 2 June 1928, (FO 371/13076).

مسؤولة أمام البرلمان؛ وضمان الحريات الدينية والمساواة بين جميع المواطنين أمام القانون، بغض النظر عن إثنيتهم. ومنحت النساء السوريات حقوقاً لا مثيل لها في أي دستور عربي آخر. ونصّ أيضاً على إنشاء جيش وطني. رفضت فرنسا تماماً كل ما جاء في هذا الدستور وسعت غاضبة إلى تخريبه. وكان فوزي الغزي، الكاتب المتنوّر لهذا النص الرائد، قد حظي باحترام كبير لتصديه بشجاعة للفرنسيين الذين عملوا كل ما في وسعهم للضغط عليه لإدخال تعديلات لمصلحتهم، لكنهم فشلوا في استمالته.

هكذا كان الجوّ السياسي المحتدم في سوريا في صيف 1928 عندما كرّم رياض بإقامة عدد من حفلات الاستقبال الضخمة التي أشادت بالجهود التي بذلها في أوروبا للتصدي للانتداب، وردّ عليها بخطابات حماسية - راقبها عن كثب عملاء الأمن العام الفرنسي. في 30 حزيران/يونيو، أقام له عبد الكريم العائدي حفل استقبال في دمشق، حضره 700 شخص، بمن فيهم جميع الأسماء البارزة في الحركة الوطنية. وفي 3 تموز/يوليو، حلّ ضيفاً على مأدبة أقامها محمد علي العابد. وفي 4 تموز/يوليو، قام بزيارة النائب لطفي الحفار في منزله في حي الشاغور في دمشق، الذي يفخر بصموده في وجه الفرنسيين. وهناك، اجتمع نحو 30 شخصاً للقائه. وبعد ذلك اصطحبه لطفي الحفار إلى منزل الشيخ سليم الطيبي المجاور - وهو وطني آخر وأحد أقرباء توفيق القباني - حيث كان في انتظاره 400 من الشخصيات البارزة والشبان، فاستُقبل على وقع التصفيق المتواصل وهتافات "عاش رياض الصلح". فردّ بامتداح شجاعة أهالي الشاغور وروح التضحية لديهم، وحيّا ذكرى حسن الخرّاط، الذي كان قائداً لمجموعة من المقاومين في الثورة السورية الكبرى. وفي 9 تموز/يوليو، حضر مأدبة في فندق فكتوريا أقامها ميخائيل إليان، وهو وطني مسيحي من حلب.

في 10 تموز/يوليو، أقام هاشم الحكيم مأدبة على شرفه في منزله في حيّ الميدان وحضرها 200 شخص. وقد اشتُهر سكان حي الميدان على الخصوص بكرمهم الشديد، وبراعة نسائهم في تحضير أشهى المأكولات. وكان رجاله أشدّاء يفعلون ما يحلو لهم. ويتندّر عليهم الساخرون السوريون بالقول "خذ منهم ولا تُعطهم، تزوج من بناتهم لكن لا تزوج بناتك لأبنائهم. على أي حال، دفع الحيّ غالياً في الأرواح والأرزاق خلال الثورة.

ألقى وحيد بن هاشم بك، كلمة ترحيبية قال فيها: "نحتفل الليلة بقدوم حامل راية الوطنية، وشعلة الحرية والاستقلال، رياض بك الصلح. إن هذا الرجل الذي اختار الإخلاص مبدأه والوطنية ديدنه يستحقّ أن يرحّب به هذا الجمع الكريم". وقارن وحيد في شطحة من شطحات المبالغة رياض بالقائد الألماني بسمارك، والزعيم الوطني المصري سعد زغلول باشا، والقائد التركي مصطفى كمال، ودعاه إلى حشد الوطنيين الذين غالباً ما يفرّق بينهم سوء التفاهم والصراعات الشخصية. وبهذه الطريقة يمكن أن يُسمع صوت سوريا في عصبة الأمم وتُعرف المآسي التي تعيشها في كل أنحاء العالم[1].

اعتلى رياض المنصة، وسط تصفيق حاد، وبدأ خطابه بالكلمات التالية:

"خلال التاريخ، تقفز الأمم فرحة عندما تقال بعض الكلمات. الإيطاليون على سبيل المثال لا يستطيعون أن يضبطوا شعورهم بالحماسة عندما تتحدث أمامهم عن روما، مدينتهم الخالدة. أما بالنسبة إليّ فإن مجرّد ذكر كلمة "الميدان" يثير لديّ عواطف لا يمكنني وصفها. فكل ما أقوله عن هذا الحي أو عن هذه المدينة ككل، التي لا يستطيع أحد أن يدخلها من دون الشعور بالتقدير للذكريات التي تثيرها - وكل ما أقوله عن الميدان لا يمكن أن ينصف نقاءه ونبله. لقد ذاع صيته وانتشر، حتى إنه وصل إلى فلسطين، التي تبقى سوريّة رغم كل شيء. وإخواننا هناك يستلهمون أعمال أهل الميدان البطولية. المجد لكم، يا أبناء الميدان الأعزاء!

إننا نمرّ في مرحلة حاسمة من نضالنا. وإنني أدعوكم أن تقفوا وقفة رجل واحد حول رايتنا - راية الكتلة الوطنية.

كان الشاغور، موطن العديد من سياسيي الكتلة الوطنية وناشطيها ومناصريهم من حزب الاستقلال، لاسيما شكري القوّتلي، وقد فعل ذلك بسخاء. وكان رياض يأمل من دون شك أن يدفع هذا الإطراء، حيّ الميدان الذي لا يزال متردداً على أن يحذو حذوه.

(1) MAE-Nantes, Fonds Beyrouth, série B, Carton 20, Service de renseignements, Damas Ville, 18 Juillet 1928.

أعلن رياض، من خلال مثل هذه الخطابات، مرّة تلو أخرى أن على الوطنيين كافة الاتحاد حول الكتلة الوطنية. فهذه هي الطريق للانتصار على المؤامرات التي يحوكها أعداؤهم. وغالباً ما كان يذكر الحزب الراديكالي الفرنسي، "الحزب الأغنى والأقوى في كل فرنسا"، الذي دعا إلى عقد اتفاق مع الوطنيين السوريين. وأشار إلى أنه سيعود قريباً إلى أوروبا لمتابعة النضال هناك.

بهذه اللقاءات الاجتماعية المتعدّدة والخطابات العامّة، بثّ رياض الروح في حركة المقاومة، التي لا تزال تحصي خسائرها وتضمّد جراحها في أعقاب هزيمة الثورة السورية الكبرى. وفي مثل هذه الاجتماعات، غالباً ما أجبر رجال أعزّاء كانوا موسرين ذات يوم، وهم يشعرون بالألم، على طلب المساعدة لإعادة بناء منازلهم التي دمرّت وأحرقت نتيجة الأعمال الانتقامية الفرنسية. لكن ظهرت في الجو أيضاً روح جديدة من التحدي. وعندما خرج الضيوف من منزل الحكيم وسط تصفيق سكان الحي، صاح فخري البارودي: "قبل مدة قصيرة لم نكن نستطيع النطق بكلمة 'وطن' من دون أن يشجب كلامنا أحد الجواسيس البائسين. اليوم لم نعد نخشى الجواسيس، أو المتزلفين للفرنسيين!

المال ومشكلات أخرى

شغلت ثلاث قضايا رياض خلال زيارته المظفّرة إلى سوريا في ربيع وصيف سنة 1928. الأولى هي الحاجة إلى جمع الأموال لتمويل حملته المستمرة في أوروبا. وتشير سجلات الشرطة الفرنسية بصورة متكرّرة إلى طلبه جمع التبرّعات لتمكينه من متابعة عمله في باريس وجنيف. وقيل إنه يسعى إلى جمع 3000 جنيه مصري. كان حتى الآن يموّل نفسه ذاتياً إلى حدٍّ كبير، لكن أموال العائلة وأمواله الشخصية بدأت بالنفاد. والثانية رغبته في أن يشرح للرأي العام السوري طبيعة عمله في الخارج، والثالثة مساهمته في النقاش بشأن كيفية حكم سوريا ومن يحكمها.

قبل عودته إلى أوروبا في شهر أيلول، أقام له أحمد الداعوق مأدبة وداعية في دارته في بيروت. اختار رياض هذه المناسبة لتقديم موجز عن الموارد للوفد السوري الفلسطيني في جنيف وقال، "إنني، مثل رفاقي في الوفد، أدرك أهمية المسائل الاقتصادية،

لكـــن علـــيّ أن أعترف أن الاقتصاد ليس موضوعي المفضّل". وأوضح أن الوفد أنفق خـــلال سنوات وجوده الثماني نحو 15,000 جنيه مصري، استُمدّت إلى حدّ كبير من المـــوارد الخاصـــة للأمير شكيب أرسلان وإحسان الجابري وموارده. ولا يشمل ذلك مـــصاريف الإقامة والسفر. وقال إن الوفد ليس لديه مصدر دخل منتظم، وإن إجمالي الهـــبات الـــتي تـــسلّمها بلغت 1687 جنيهاً مصرياً، من بينها 653 جنيهاً ساهم بها آل لطـــف الله. وتبرعت جمعية التجار السوريين في القاهرة بمبلغ 100 جنيه، وحزب الاستقلال السوري في الأرجنتين بمبلغ 100 جنيه، وشخص سوري مغفل الاسم بمبلغ 100 جنـــيه، وجمعت الرابطة العربية في أستراليا والمجموعة العربية في نيويورك معاً مبلغ 190 جنيهاً. كان المغزى الواضح لهذه الملاحظات الحاجة إلى توفير أموال جديدة على وجه السرعة من أجل استمرار عمله.

في مـــا يتعلّق بطبيعة العمل، حرص رياض على أن يوضح أنه ليس لديه صلاحية الـــتفاوض مع الحكومة الفرنسية نيابة عن سوريا. فذلك دور الكتلة الوطنية "التي كان موقفها الوطني مشرّفاً للبلاد". وإذا ما أرسلت الكتلة وفداً إلى فرنسا، فإنه سيبذل كل مـــا في وســـعه لمساعدته. وأعلن رياض أن "هناك إشاعات كثيرة عن طبيعة مهمتي في أوروبا. يقول بعضهم إنني ذاهب لأستطلع رأي وزارة الخارجية الفرنسية بشأن زيارة ســـيقوم بهـــا وفـــد من الجمعية التأسيسية في سوريا إلى باريس". لكنّه شدّد على أن الدبلوماســـية ليست دوره، وأن مهمته تقديم المعلومات السياسية. إنها تقوم على إقناع السياسيين الفرنسيين والرأي العام الفرنسي أن الانتداب ليس لمصلحة فرنسا على المدى البعيد، وأنه يجب التخلي عنه بأسرع وقت ممكن.

يوحي تأكيده على هذه النقطة أنه شعر بالألم من ملاحظات سعيد محاسن الذي اتهم رياض الصلح في إحدى المقالات بإجراء مفاوضات حول مستقبل بلاد "لا يمتلك فـــيها قطعـــة أرض واحـــدة". لم يكـــن هذا الاتهام غريباً بربطه الولاء الوطني بملكية الأراضـــي، بل غير دقيق أيضاً، لأن رياض من عائلة نصفها من سوريا، وكان في تلك المـــرحلة يعتبر نفسه سورياً من الناحية السياسية والاجتماعية. وأعلن رياض، "سأتابع المهمـــة التي بدأتها وتقتصر على العمل بلا كلل لتحقيق آمالنا الوطنية". لم يكن الرأي العام الفرنسي يعلم حقيقة الوضع بعد. وثمة عمل كبير لا بد من إنجازه. كان يريد أن

يطلب من الحزبين الاشتراكي والراديكالي في فرنسا تنفيذ وعودهما المتعلّقة باستقلال سوريا[1]. واتفق في 30 تشرين الثاني/نوفمبر أن عضواً من الحزب الاشتراكي في مجلس النواب الفرنسي اقترح التخلي عن الانتداب على سوريا. فأسكته رئيس الوزراء على الفور[2].

مع ذلك كان هناك شيء من الغموض الفرنسي بشأن مستقبل سوريا. كيف ستحكم؟ وكيف يحظى الانتداب بقبول شعب رافض له؟ ما هي التغييرات التي يجب إدخالها لتحقيق ذلك؟ ربما كان لدى المفوّض السامي هنري بونسو بعض الأفكار الإصلاحية، لكن الجهات الاستعمارية والعسكرية في باريس التي لا تزال تتشفّى بسحق الثورة السورية الكبرى كبحته وأضعفته، مثلما حدث مع أسلافه من قبل. في أعقاب أوامر صارمة من باريس، طلب بونسو إزالة البنود المسيئة من الدستور الذي وضعه فوزي الغزّي. لكن عندما لم يوافق فوزي الغزّي ولا البرلمان السوري على التراجع في هذه القضية، وهي قضية حيوية للكرامة الوطنية، ردّ بونسو بسرعة بإيقاف عمل البرلمان السوري بموجب مرسوم لمدة ثلاثة أشهر، ثمّ حلّه.

في تشرين الثاني/نوفمبر، أفاد القنصل هول في تقرير أرسله إلى لندن أن رفض الدستور

> خلق جواً من التوتّر مماثلاً لما ساد في فترة الثورة. القوات الفرنسية في حال استنفار للتحرّك على الفور... ويلازم سكان بعض القرى منازلهم خوفاً من إطلاق النار عليهم، ويتعذّر عليهم ريّ أراضيهم. وقد نقل العديد من القرويين الخائفين متاعهم إلى دمشق... والدروز في الجبل يعانون من الفقر الشديد...انتقلت أعداد كبيرة من الأشخاص إلى المدينة للعمل مياومين.

بعد عدة أشهر، توفي فوزي الغزي مسموماً ما أثار صدمة الرأي العام في المدينة. اتّهمت الأوساط الوطنية العملاء الفرنسيين بقتله. وتبيّن لاحقاً أن أحدهم عبث بالأدوية، التي كان يعدّها ابن عم له يعمل صيدلانياً، وهي في طريقها إلى منزله. صوّرت حادثة الاغتيال السياسي شبه المؤكّد لهذا الرجل الصامد أنها جريمة قتل

(1) MAE-Nantes, Fonds Beyrouth (Amb.), série 199A4, carton 20,12 Septembre 1928.
(2) Sir W Tyrrell to Sir Austin Chamberlain, Paris 3 December 1928 (FO 371/13074).

عاطفـــية، فاتهمت زوجة الغزيّ التي سيطر عليها التوتّر والحيرة، لطفيّة اليافي، بالجريمة وسُـــجنت سنوات في قلعة دمشق، بالرغم من أنّها ظلّت تُقسم أنها بريئة، بما في ذلك الـــيمين الـــذي أقسمته على القرآن أمام كل أفراد عائلتها وهي على فراش الموت بعد سنوات طويلة[1].

أثـــارت وفـــاة فوزي الغزّي الغامضة، عقب الإجراءات الاستعمارية الوحشية، شـــكوكاً كبيرة ولا تزال حتى اليوم. وقد حرم موته سوريا من قائد، حارب الانتداب الفرنـــسي، ووضع مسوّدة نظام ديمقراطي دستوري أمل أن يرى النور بعد الاستقلال على الفور – وهو أمل لم يتحقق حتى الآن.

في هذه الفترة البائسة والمشوّشة، أعلن عن كل أنواع الأفكار بشأن مستقبل حكـــم ســـوريا. هـــل ستكون جمهورية، أو ملكية؟ فضّل معظم الوطنيين النظام الجمهوري في ذلك الوقت. ويُقال بأنّ رياض سعى لانتخاب زميله وصديقه الأمير شـــكيب أرســـلان رئيساً للبلاد. غير أن تقارير أخرى أوحت أنه ربما كان يدعم ترشـــيح الأمير زيد، الأخ الأصغر للملك فيصل عاهل العراق، لاعتلاء العرش في ســـوريا، وأنه تسلم دفعة أولى تبلغ 3000 ليرة ذهبية لدعم قضية الهاشميين[2]. مع ذلك ذكرت إشاعة أخرى أن رياض الصلح يفضل أميراً سعودياً، الأمير فيصل، أحد أبـــناء عبد العزيز ابن سعود. وضمت لائحة المرشحين بعيدي الاحتمال أيضاً ابن باي تونس، أو أحد أعضاء العائلة الحسينية في المغرب.

سعى القناصل البريطانيون المحليون جاهدين لمتابعة هذه المكائد المعقّدة. وفي زيارة إلى دمشق في كانون الثاني/يناير 1929، أفاد مفتش في وزارة الخارجية الفرنسية يدعى الـــسيد هول هول Hall-Hall في تقرير أرسله إلى لندن أن القنصل إ. س. هول يعاني من فرط الإجهاد:

> لكن... غالباً ما يرى المرء المسؤولين... الفرنسيين في منـــزل هول. ربما يكون الـــرجال منجذبين إلى زوجة هول الفرنسية التي كانت تتمتع بالحيوية وحسن

---

(1) افتتاحـــية تحمّـــل مسؤولية وفاة فوزي الغزي إلى المفوّض السامي، هنري بونسو، في مجلة **الحديث**، حلب، 8 آب 1929؛ مقابلة مع حفيده الدكتور حسن الغزي، 27 تشرين الأول/أكتوبر 2007.

(2) MAE-Nantes (Amb.), série 199 A4, carton 20, Sûreté Générale, Damas, 4 juillet 1928.

الاســـتقبال، رغم أنها تفتقر إلى بعض الوقار المرغوب في زوجات القناصل... اللغـــات الـــتي يـــتحدث بها السيد هول (مرتّبة وفقاً لإجادتها) هي الفرنسية، واليونانـــية، والإيطالـــية، والألمانية، والتركية، والعربية، بالإضافة إلى قليل من الإسبانية، والفارسية، والروسية، والهولندية، والبرتغالية، والرومانية! السيد بار، نائب القنصل، يتلقّى حقنة بمادة الستريكنين كل ثلاثة أيام. ويبدو السيد بوت، الموظف قيد التجربة، شاباً ذكياً رغم أنه يعاني من نوع من المرض العصبـــي. فهو مصاب بالخجل الشديد ولذلك يتجنّب صحبة الآخرين[1].

زيارة رياض الناجحة إلى حلب

في ذلـــك الوقت، عاد رياض إلى باريس لمتابعة عمله في نشر المعلومات، وتشير رسائله إلى أنه حقق نجاحاً كبيراً لدى الحزبين الإشتراكي والراديكالي. في نيسان/أبريل 1929، أسرع بالعودة إلى لبنان بعد أن تسلّم برقية من والده مفادها "إن صحتي ليست علـــى ما يرام". وعند وصوله إلى بيروت، أراد أحد مراسلي جريدة **القبس** أن يعرف مـــنه كيف يُنظر إلى المسألة السورية في باريس. فأجاب رياض "لن يكون هناك حل مرضٍ ما لم يتم التسليم بمبدأ الاستقلال"[2]. لكنه كان متفائلاً ومقتنعاً بأنّ الرأي العام الفرنسي يقف إلى جانبه.

بعـــد ذلـــك انهمك رياض في نشاطاته المعتادة في إلقاء الخطب والصحافة، وكان يمضي وقتاً طويلاً في مكاتب جريدة **العهد الجديد**، حيث شنّ حملة صحفية على روبير دو كـــيه، أمين عام سابق للمفوّضية العليا في بيروت أدّت سياسته إلى التقسيم البغيض لـــسوريا، وعُـــيّن لاحقـــاً مـــندوباً لفرنسا في لجنة الانتدابات الدائمة. وعندما وقعت مـــواجهات عنيفة بين العرب واليهود الأوروبيين في فلسطين في سنة 1929، بادر رياض إلى تنظـــيم التظاهـــرات الداعمة لعرب فلسطين في بيروت. وقد وصفه تقرير للشرطة الفرنـــسية بأنه محرّض وطني عنيد. أعلن رياض في خطاب ألقاه في فندق جبيلي في قرية

(1) Report by Mr. Hall-Hall, a Foreign Office inspector, January 1928 (FO 369/ 2110,2111).

(2) MAE-Nantes, Beyrouth (Amb.), série 199 A4, carton 20, Service de presse du Haut-commissariat, 11 avril 1929.

عاليه الجبلية اللبنانية: "قامت المظاهرات رداً على الاضطهاد الذي يعاني منه عرب فلسطين. وقد منحتنا الفرصة لنظهر للفرنسيين والعالم أن اللبنانيين والسوريين ينتمون إلى الأسرة العربية نفسها، وأنهم يعرفون كيف يقفون صفاً واحداً في وجه أعدائهم"[1]. وقد وصف مراسل لجريدة **الأحرار** الوطنية رياض الصلح، بعدما أجرى مقابلة معه في منزله الكائن مقابل البحر في عين المريسة في بيروت، بأنّه "روح الحركة الوطنية"[2].

في تشرين الثاني/نوفمبر، شرع رياض في زيارة مظفّرة أخرى إلى سوريا، وهذه المرة إلى حلب، حيث رحّب به القادة الوطنيون - سعد الله الجابري، والدكتور عبد الرحمن الكيّالي، وإبراهيم هنانو، والدكتور ناظم القدسي - بالإضافة إلى الوجهاء المسيحيين، ميخائيل إليان، وإدمون حمصي، ونعيم انطاكي، وإدمون رباط. أفادت المخابرات الفرنسية أن زيارته ترمي إلى جمع التبرعات للوفد السوري في أوروبا ولصحيفته البيروتية، **العهد الجديد**. وكان يأمل أيضاً في رأب الصدع بين القادة الوطنيين الذين لم يكونوا دائماً على وئام. فقد كان مناصرو سعد الله الجابري على خلاف مع مناصري إبراهيم هنانو وعبد الرحمن الكيالي. فرأى رياض بأن عليه إصلاح ذات البين.

عُقد اجتماع في مقهى الإمبريال Café Imperial في 26 تشرين الثاني/نوفمبر تكريماً لرياض وكان مماثلاً لكثير من التجمّعات التي حضرها. افتُتح الاجتماع بكلمة ألقاها الدكتور عبد الرحمن الكيالي الذي أشاد بدور رياض الريادي في قضية استقلال سوريا، وعدّد التضحيات التي قدّمها لإيصال المطالب الوطنية إلى الدوائر الحاكمة في الغرب. تلا ذلك قصيدة حماسية ألقاها عمر زيني، ثم كلمة ألقاها ميخائيل إليان، ثم قصيدة أخرى ألقاها يوسف حصير ترثي الشهداء الذين سقطوا على يد الأتراك (أفادت المخابرات الفرنسية أنها "أثرت في الحضور كثيراً"). تبع ذلك خطاب طويل ألقاه الدكتور الكيالي عن عمل الوفد السوري في الخارج، وكيف عانى من الأكاذيب التي حاكها المتآمرون ضدّ مهمته. ثم ألقى عمر زيني قصيدة أخرى تدور حول الحرية، استمع إليها الحضور بحماسة كبيرة.

(1) MAE-Nantes, Fonds Beyrouth (Amb.), série 199 A4, carton 20, note de l'Inspecteur-Général des Polices, Beyrouth, 31 Août 1929.

(2) **الأحرار**، بيروت، 22 تشرين الأول 1929.

وقف رياض ليخبر الحضور أنه يحمل رسالة من الحزب الاشتراكي الفرنسي يقرّ فيها بأن سوريا أصبحت مهيأة للاستقلال وعضوية عصبة الأمم. وقال إن سوريا تريد استقلالاً على الطريقة الغربية، لا استقلالاً على الطريقة "الشرقية". وقارن السياسة الفرنسية في سوريا على نحو سلبي بالسياسة البريطانية في العراق، حيث يجري التخلي عن الانتداب. وهاجم روبير دو كيه. ودعا إلى الوحدة بين المسيحيين والمسلمين التي قال إنها ضرورية لإحباط المحاولات الغربية الرامية إلى تقسيمهم. وقد أحدث خطابه وقعاً في نفوس الحاضرين. وضع الأمن العام الفرنسي عشرة رجال شرطة احتياطيين في مركز قريب، لكن لم تدعُ الحاجة إليهم إذ لم يحدث إخلال بالأمن بعد الاجتماع[1].

في اليوم التالي، في 27 تشرين الثاني/نوفمبر، أقام القائد الوطني المخضرم إبراهيم هنانو حفلة شاي أعلن فيها رياض أن "الوفد السوري تعهّد ألا يتوقف عن المطالبة باستقلال سوريا، ما بقي أي من أعضائه على قيد الحياة". وتطرّق ثانية إلى الحاجة إلى التفاهم بين المسيحيين والمسلمين. ولاحظ أن التفاهم التام يسود الآن العلاقات بين المسيحيين والمسلمين في الساحل اللبناني. إنهم إخوة يجمع بينهم رابط مشترك ببلدهم. وأعلن أن "علينا أولاً إرضاء المسيحيين الذين يعيشون بيننا". الوحدة تتطلّب التضحيات وعلى المسلمين أن يكونوا سبّاقين في تقديمها. وقد شكّل هذا الموضوع أساس سياسته في لبنان من الآن فصاعداً.

وحيّا مدينة حلب قائلاً إنه لن ينسى أولئك الذين واسوه عند مروره في المدينة في طريقه إلى المنفى في سنة 1916. وفي الأسابيع التي أمضاها في حلب، تردد رياض على منزل آل الجابري، حيث أصبح بالفعل من أفراد العائلة. وقد أفادت المخابرات الفرنسية أنه خطب فائزة ابنة البرلماني العثماني الراحل نافع باشا الجابري، وهو شخصية سنية بارزة. وكانت إحدى وارثات ثروته الطائلة التي قدرت بنحو 200,000 ليرة ذهبية[2]. وتزوج رياض الصلح من فائزة الجابري بعد بضع سنوات.

(1) MAE-Nantes, Fonds Beyrouth, Série B, carton 20, Sûreté Général, Aleppo, 28 novembre 1929.

(2) MAE, Fonds Beyrouth, série B, carton 20, deuxième bureau, Beyrouth, 26 décembre 1929.

كانت الشقاقات في المعسكر العربي عديدة أيضاً. ففي لبنان، كان السياسيون الموارنة الموالون لفرنسا يخطّطون لإبعاد الوطنيين العروبيين عن السياسة كلياً. وفي سوريا، ساد انقسام عميق الحركة الوطنية: الأخوان البكري يهاجمان آل الصلح، والشهبندر يتآمر على شكيب أرسلان، والأمير ميشال لطف الله يشعر بالمرارة لتبخّر آماله بإقامة إمارة مشرقية، والجمهوريون يخشون من طموحات الهاشميين الملكية، وحلب تنافس دمشق. وخلّفت الثورة السورية الكبرى ندوباً عميقة. بل إن الفرنسيين أنفسهم لم يكونوا واثقين من الطريق الذي ينتهجونه. لقد سحقوا الثورة بوحشية، لكنهم فشلوا في إيجاد أي تسوية سياسية. وكان الجيش الفرنسي المتمركز في بيروت أو الحزب الاستعماري في باريس يُسقط كل مفوّض سامٍ يحاول إجراء مفاوضات سياسية خلاّقة.

مع ذلك، تابع رياض الصلح بطريقة ما التعبير عن حماسة الوطني الملتزم والأمل بأن تتحقّق الأهداف المرجوّة بالوحدة والاستقلال ذات يوم. وبحلول 1928-29، أصبح واحداً من أبرز الشخصيات السياسية المسلمة في لبنان وسوريا. وحظيت حملاته الجريئة بلا كلل في باريس وجنيف باهتمام أكبر مما حظي به أي من معاصريه. وقد تعهّد بمواصلة القتال في مرحلة اتسمت بالغموض واليأس الكبيرين، عندما بدأ بعضهم يشعر بأنه ربما ليس أمامهم خيار سوى الخضوع للحكم الفرنسي.

الفصل التاسع

رجل الشعب

كانت أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات من القرن العشرين أوقات صعبة على رياض الصلح والحركة القومية العربية التي كرّس حياته لها. فقد عانت سوريا ولبنان من بؤس شديد، وخلّف الركود العالمي أثراً كارثياً على مستويات المعيشة. وأدى الانكماش في لبنان بين سنتي 1929 و1930 إلى تراجع الأجور نحو 50 بالمئة. في سنة 1932، بلغ متوسّط أجر العامل غير الماهر 11 فرنكاً في يوم من 10 ساعات (6 فرنكات للنساء و3 للأطفال). وكانت قيمة العملة قد انخفضت في دول المشرق بنسبة 500 بالمئة منذ سنة 1914[1]. إذا وضعنا جانباً العسر الذي تعاني منه الطبقة العاملة، وهو ما كان رياض حساساً تجاهه، فقد أصاب الضعف القضايا التي يحارب من أجلها. وساد إحساس عام بالهزيمة والتشاؤم المعسكر الوطني. بدا الوجود الفرنسي في لبنان وسوريا راسخاً لا يتزحزح، فيما يقدّم البريطانيون المساعدة للصهاينة في إقامة "وطن قومي" لهم في فلسطين، وسط المعاناة الكبيرة للسكان العرب المحليين. راقب رياض الموقف بقلق، فيما صديقه، الحاج أمين الحسيني، مفتي فلسطين، يجاهد يائساً للتصدي للموجة المتعاظمة لهجرة اليهود الأوروبيين إلى فلسطين.

كان العزاء الوحيد الذي شعر به رياض في تلك الأيام الصعبة عزاء شخصياً، حيث تعاظمت سمعته كقائد بارز بين أبناء جيله. ففي سنة 1929، ففي الخامسة والثلاثين من العمر، اكتسب رياض سمعة عالمية كمناوئ للوجود الفرنسي والبريطاني في المشرق، ومدافع مفوّه عن تحرير العرب. وكان ديناميكياً، ذا حضور كاريزمي، وسريع البديهة، وفي ذروة حيوية الشاب، فلم تحتفِ به الدوائر الوطنية في سوريا ولبنان وفلسطين فحسب، وإنّما اشتُهر كناشط سياسي في باريس وجنيف أيضاً. أقام علاقات جيدة مع الصحفيين والبرلمانيين الفرنسيين، وكان بمثابة شوكة في خاصرة بعثة

(1) Jacques Couland, *Le Mouvement Syndical au Liban 1919-1946*, Paris 1970, p. 137.

اللجنة الدائمة للانتدابات في عصبة الأمم، التي ألفت سيل الرسائل والعرائض الحماسية التي يوجّهها إليها رياض الصلح وزميلاه النشيطان في الوفد السوري الفلسطيني، شكيب أرسلان وإحسان الجابري.

لكن لم يكن كل شيء على ما يرام وراء هذا المظهر الشجاع الذي طالما حرص رياض على الظهور به. فقد حاصرته فرنسا وحلفاؤها المحليون على هامش الحياة السياسية في مسقط رأسه في بيروت. ولأنه قائد سني ذو آراء قومية عربية قوية، استُبعد عمداً عن الحياة السياسية السائدة، التي اقتصرت على السياسيين المستعدّين للتعاون مع الفرنسيين. واعتبرته المفوّضية العليا الفرنسية القوية وأجهزة الاستخبارات الاستعمارية محرضاً خطيراً وأبقته تحت المراقبة الشديدة. اقتصر مؤيّدو رياض في ذلك الوقت على الشارع وفي الصحافة المعارضة ونقابات العمال الوليدة. ولم يكن لديه حتماً مؤيدون في البرلمان أو المؤسسات الأخرى التي تخدم الفرنسيين في لبنان الكبير، أو في السرايا، أي مقر الحكومة الذي تحوم حوله الشبهات.

في سوريا، بقي رياض، باعتباره لبنانياً، عضواً مشاركاً وليس عضواً كامل العضوية في الكتلة الوطنية على الرغم من علاقته الوثيقة بقادتها وتقديرهم له وتكريمه. وفي المؤتمر الذي عقد في حمص في سنة 1932، شكّلت الكتلة مكتباً يتكوّن من سبعة أعضاء منتخبين: هاشم الأتاسي، رئيساً؛ وإبراهيم هنانو، زعيماً؛ وسعد الله الجابري نائباً للرئيس؛ وفارس الخوري، عميداً؛ وجميل مردم وشكري القوتلي وعبد الرحمن الكيالي، أعضاءً. وسُمّي رياض وشخصيتان لبنانيتان بارزتان، عبد الرحمن بيهم وعبد الحميد كرامي، مشاركين.

وداعاً جنيف

بحلول سنة 1930، شعر رياض أن محاولته المستمرّة التأثير في عصبة الأمم في جنيف عمل مرهق وغير مجد في نهاية المطاف، لم يحقّق سوى القليل من الفائدة السياسية. تبيّن أن تقديم العرائض إلى اللجنة الدائمة للانتدابات في عصبة الأمم مضيعة مكلفة للوقت، إذ تمّ تجاهل كل المناشدات الموجهة إليها بفظاظة. وفي أوروبا، في فترة

ما بين الحربين، حيث كانت القوى الإمبريالية تتنافس في ما بينها على دوائر نفوذها، لم يكن هناك سوى قليل من التعاطف مع النضال العربي لطرد الحكم الاستعماري في المشرق وشمال أفريقيا.

لقد تأثر رياض كثيراً بعلاقته بالأمير شكيب أرسلان، وهو شاعر وأديب وثائر نبيل يكبره بنحو خمس وعشرين سنة، ويعامله كأخٍ أصغر أو ابنٍ. وكان الأمير يعلم أنّ رياض دائم الافتقار إلى المال وأنه يموّل نفسه ببيع أراضي العائلة وممتلكاتها. وفي إحدى رسائله، حثّ رياض راجياً إياه عدم تبديد كل ما يملك من دون أي تفكير في المستقبل:

> لا أريد أن تكون كلماتي الأبوية عبئاً عليك، لكنني أحثّك على ألا تبيع كل ما تبقى لك من أملاك وتحرم نفسك من كلّ ممتلكاتك، حتى إذا كانت القضية قضيتنا.
>
> إذا وجدت نفسك - لا قدّر الله - في حاجة ذات يوم، فلن يتذكر أحد الخدمات التي قدمتها للعرب أو المصاريف التي تكبدتها. حاول التمسك بما بقي لديك حتى تعيش حراً ومستقلاً عن الآخرين[1].

لم تسمح سجية رياض له بأن يأخذ بتلك النصيحة، فتراكمت عليه الديون بسرعة على نحو العادة. وحافظ على صلته وولائه لشكيب أرسلان وإحسان الجابري طوال حياتهما، لكن سنة 1930 كانت السنة الأخيرة التي يمضي فيها رياض وقتاً طويلاً معهما. وفي شهوره الأخيرة في جنيف، ساعد في تحرير مجلة "الأمة العربية" *La Nation Arabe* التي تصدر باللغة الفرنسية، وهي "مجلة شهرية تعنى بالشؤون السياسية، والأدبية، والاقتصادية والاجتماعية" توصف بأنها "أداة الوفد السوري الفلسطيني إلى عصبة الأمم التي تخدم مصالح البلدان العربية والمشرقية". نشرت هذه المجلة مذكرات عديدة بتوقيع أرسلان والجابري والصلح، موجّهة إلى عصبة الأمم وهيئات أخرى، تتحدث عن الأعمال الاستعمارية المسيئة للبريطانيين في فلسطين والفرنسيين في سوريا ولبنان. كانت المجلة تحرّر في مكاتب الوفد في 16 بولفار هلفتيك، جنيف، وهناك كان رياض يمضي الأيام الطويلة منكباً على العمل. صدر 38 عدداً من مجلة "الأمة العربية" ما بين

(1) Alia el-solh, *Le Jour*, 7 December 1965.

سنتي 1930 و1938[1]. وفي أيلول/سبتمبر 1931، تغيّر عنوانها وأزيلت الإشارة إلى الوفد، لكن في ذلك الوقت استرعت الأحداث الجارية على الأرض في سوريا ولبنان اهتمام رياض.

تابع شكيب أرسلان وإحسان الجابري العمل بمفردهما. وأشار تقرير للمخابرات السويسرية بتاريخ 1 تشرين الثاني/نوفمبر 1933 إلى أن "جميع اتجاهات الشؤون العربية تمرّ عبر جنيف بفضل شكيب أرسلان ورفيقه الحميم إحسان الجابري"[2]. لكن وزارة الخارجية البريطانية كان لها رأي أقل استبشاراً حيث وصفت المجلة بأنها "مثيرة للفتن وصبيانية"[3]. ومن الواضح أن وجود مجلة في جنيف تروّج لقضية الاستقلال العربي لم يكن موضع ترحاب من قبل قوة استعمارية مثل بريطانيا.

مع تقدّم ثلاثينيات القرن العشرين، تكرّر اتهام المجلة ومحرريها بالوقوف إلى جانب الفاشيين، مع أن نضالهما من أجل تحرّر العرب سبق بروز موسوليني وهتلر بوقت طويل. لا شك في أن بعض الوطنيين العرب لجؤوا إلى طلب المساعدة من إيطاليا أو ألمانيا على أمل أن تضع هاتان القوتان حدّاً للقمع الكبير الذي يفرضه عليهم البريطانيون والفرنسيون. لكنهم كانوا قلة. فقد وجد الوطنيون العرب الذين يناضلون من أجل الاستقلال - سواء أكانوا مصريين أم سوريين أم تونسيين أم جزائريين أم مغربيين - دعماً من اليسار يفوق كثيراً ما وجدوه لدى اليمين. ففي فترة ما بين الحربين، أصبحت منظمات الجبهة الشيوعية، مثل رابطة الشعوب المضطهدة، شديدة الارتباط بقضية التحرّر من الاستعمار، بحيث أدين الوطنيون العرب بانتظام بأنهم "محرضون شيوعيون".

من المستغرب جداً (وهو أمر شوهد بانتظام أيضاً في أوساط الشيوعيين الإيطاليين ذوي الخلفيات الأرستقراطية) أن يتطلّع المناضلون الوطنيون العرب المتحدّرون من عائلات وجيهة، مثل رياض الصلح وشكيب أرسلان وإحسان الجابري، إلى دعم

(1) Fleury, “Le Mouvement national arabe à Genève durant l’entre-deux-guerres”, pp. 329- 354. صدرت الأعداد الثمانية والثلاثين من مجلة *La Nation Arabe* في سنة 1988 في أربعة مجلدات طبق الأصل عن Archives Editions, Farnham Common, Bukinghamshire, UK.

(2) المصدر نفسه، ص 345.

(3) Foreign Office Records of Leading Personalities in Syria and Lebanon, 14 March 1938 (FO371/21914-115136).

الحـــركات الثورية التي كانت أهدافها تتعارض مع المصالح الفعلية لعائلاتهم. فقد سعى أرســـلان إلى الحصول على دعم لقضيته أنّى وجده، من اليسار واليمين. كان صديقاً شخـــصياً للإمبراطور الألماني السابق فلهلم الثاني. وحلّ ضيفاً على الحكومة السوفياتية في ســـنة 1927، فضلاً عن مختلف الولايات الأميركية. عقد اجتماعات مع موسوليني، لكنه دُعي لحضور المؤتمر الاشتراكي في بروكسل في سنة 1928 حيث شارك قبل عام، في اجتماع مناهض للإمبريالية. وكان على معرفة بالسناتور الفرنسي الشيوعي مارسيل كاشـــين ومحرّر صحيفة "لومانيتيه" غابرييل بيري. وقد نقل العديد من تلك العلاقات إلى رياض الذي كان معجباً كثيراً بتفانيه السياسي واستقامته الشخصية.

وكلمـــا اتُهـــم أرسلان أنه عميل للبلشفية أو الفاشية، ردّ قائلاً: "إننا نكره كل أشـــكال الديكـــتاتورية من دون استثناء سواءً أكانت فاشية أم كمالية أم بلشفية أم عـــسكرية فرنسية في سوريا وشمال أفريقيا، أو أي نظام من هذا النوع. وإننا نصنّفهم جمـــيعاً في الفئة نفسها ونناشد الضمير العالمي أن يحكم عليهم بما يستحقون."[1] كان ذلك موقف رياض الصلح إلى حدٍّ كبير أيضاً.

عرض عضلات لصالح رياض

وقعت حادثة غريبة في ذلك الوقت تقريباً، ورغم أنها لا تعدو أن تكون زوبعة في فـــنجان، فإنهـــا سلّطت الضوء على مجرى الحياة العامة في بيروت وشعبية رياض غير العاديـــة. يجـــب أن نذكّـــر أن ســـامي الـــصلح، الذي أصبح الآن قاضياً في محكمة الاســـتئناف، كـــان متزوجاً من شقيقة رياض، بلقيس. وهو ابن عبد الرحيم الصلح شـــقيق أحمـــد باشا وابن عم رياض وصهره أيضاً. كان سامي معروفاً بسرعة غضبه، وغالـــباً مـــا يُقحم نفسه في نـــزاعات مع المسؤولين الفرنسيين. في إحدى المناسبات حـــصل شـــجار عنيف بينه وبين ضابط فرنسي وجّه إليه إهانة، فصفعه سامي الصلح علـــى وجهـــه. كـــان الإقـــدام على مثل هذه الفعلة أمراً خطيراً جداً في ظل الحكم الفرنسي. فسارع إلى البيت وطلب من زوجته أن تحزم أغراضها على الفور، وصاح، "سنغادر هذا المكان، علينا الرحيل من هنا". لكن بلقيس كانت تعرف زوجة المفوّض

(1) *La Nation Arabe*, mars-avril, 1932.

السامي الفرنسي التي كانت قد التقتها في مناسبة اجتماعية في أحد صالونات بيروت. فقررت زيارة السيدة بونسو في الحال.

بادرت بسؤالها، "ماذا تفعلين إذا وجّه أحدهم أهانة إليك وإلى بلدك؟"

أجابتها السيدة بونسو الجريئة، "أصفعه على وجهه".

وهكذا سوّيت المسألة هناك.

وفي مناسبة أخرى، في كانون الأول/ديسمبر 1932، غضب سامي الصلح عندما علم أن ألفريد ثابت، وهو قاضٍ موالٍ لفرنسا في محكمة الجنايات، استجوب شقيقه الأصغر ممتاز بقسوة. وكان لذلك علاقة بفضيحة عقارية زُعم أن ممتازاً متورّط فيها. ذهب سامي الصلح لمقابلة ثابت في مكتبه وبعد مناقشة حادة بينهما، سارع إلى تقديم شكوى إلى الرئيس شارل دباس بشأن ما اعتبره إهانة متعمّدة لعائلة الصلح بأكملها. وحرصاً على تهدئة الأمور، استقبل دباس رياض الصلح في منزله بعد ظهر ذلك اليوم لسماع وجهة نظر آل الصلح، ثم استدعى ألفريد ثابت لسماع روايته للمسألة. وبعد ذلك أقنع ثابت بزيارة رياض لإبلاغه أنه لم يقصد إهانة ممتاز البتة. صدّق رياض كلامه وسوّيت المسألة في ما يتعلّق به.

لكن الأمر لم يكن كذلك لدى آخرين. ففي اليوم التالي، اتفق أن كان رياض في قصر العدل يتحدث إلى رفاقه ومجموعة من المحامين في انتظار انضمام سامي إليهم، اتجه نحوه شاب وصاح، "من منكم رياض الصلح؟ يبدو أنّ آل الصلح يريدون القتال! سنريهم! سنكّسر أكبر رأس فيهم". ردّ رياض بابتسامة على ذلك التصرف غير اللائق وسأل الشاب إذا كان "تكسير الرؤوس سيتم في قصر العدل". وبعد بعض الشجار، تم التغلّب على الشاب وطرده من قصر العدل، وتبيّن أنّه جورج، شقيق ألفرد ثابت الأصغر. وفي غضون ساعات انتشر خبر هذه الواقعة في جميع أنحاء بيروت.

بدأ حشد في التجمّع خارج مكتب رياض الصلح في شارع أللنبي في وسط بيروت. وقدم الأصدقاء والمعارف لتقديم الدعم وأسرع الصحافيون إلى مسرح الحدث. وعندما عاد رياض إلى منزله في ذلك المساء، علم بحدوث تطوّر مشؤوم آخر في تلك القضية. فقد تعرّض ألفريد ثابت للضرب في الشارع من قبل اثنين من

آل الصلح، حسيب وعماد الصلح، وقد بلغت بهما الجرأة إلى حدّ التوجّه إلى البيت لتناول الغداء قبل التفكير في تسليم نفسيهما إلى الشرطة.

استدعى قائد الشرطة، عز الدين العمري، رياض الصلح إلى مقر قيادة الشرطة. وعندما انتشر خبر وجود رياض في مركز الشرطة في ساحة الشهداء، بدأت أعداد كبيرة من مؤيّديه تتجمّع خارج المبنى. وكان في وسعهم، من الرصيف المقابل، مشاهدة رياض وهو يمشي جيئة وذهاباً في مكتب قائد الشرطة. وكان بين الحين والآخر يتجه إلى النافذة ويلوّح بيده وكأنه يطمئنهم إلى أن كلّ شيء على ما يرام.

لكن في غضون ذلك، انتشرت أخبار تلك الواقعة خارج بيروت إلى مدن وبلدات أخرى في لبنان وسوريا، حيث فُسّرت بأنها مواجهة بين الوطنيين والفرنسيين. بدأت وفود المؤيدين بالتدفق إلى بيروت قادمة من مناطق بعيدة في لبنان وسوريا مثل طرابلس ودمشق وحماة. وقاد الشيخ يوسف الخازن، وهو عميد عائلة مارونية مهمة، وفداً كبيراً من منطقة كسروان شمالي بيروت. أدى ذلك إلى زحمة سير خانقة، وغصّ منزل رياض الصلح بالحشود التي تريد الاطمئنان عليه. أوردت صحيفة **النداء القومي** – وهي صحيفة يملكها ويرأس تحريرها كاظم الصلح، أحد أولاد عم رياض – تغطية كاملة لهذه الأحداث من وجهة نظر تميل لصالح رياض، فأقدمت السلطات على إغلاقها[1]. استغلت الصحف الوطنية في دمشق هذه الفرصة لشنّ هجوم عنيف على سلطة الانتداب القمعية والدفاع عن رياض[2]. اتهم نجيب الريس، محرّر جريدة **القبس** السلطات "بمحاصرة" البطل القومي. كتب "أن من يريد كسر رأس رياض الصلح لم يولد بعد، لا في بيروت ولا في دمشق"[3].

نتجت عن هذه الحادثة ثلاث دعاوى قضائية على الأقل: دعوى رياض الصلح على ألفرد وجورج ثابت؛ ودعوى ألفريد ثابت على الشابين المعتدين عماد وحسيب الصلح؛ ودعوى الحكومة على صحيفة **النداء القومي** ومالكها كاظم الصلح. تطوّع أكثر من مئة محامٍ من لبنان وسوريا للدفاع عن آل الصلح. وحضر ضعف هذا العدد

(1) **النداء القومي**، 27 كانون الأول 1932.

(2) انظر **القبس والأيام** من 25 كانون الأول 1932 حتى نهاية كانون الثاني 1933.

(3) **القبس**، 26 كانون الأول 1932.

جلسة الاستماع لإظهار تضامنهم معهم في 27 كانون الثاني/يناير 1933. وقد حكمت المحكمة لصالح آل الصلح على الرغم من أنّ لجنة تأديبية وجّهت اللوم إلى سامي الصلح لأنــه أثــار المشكلة أصلاً. عُلّق إصدار **النداء القومي** حتى آذار/مارس. وأخلي سبيل عمــاد وحــسيب الــصلح بمــوجب غرامة أصرّ الناس على دفعها بدلاً منهما. وقد اســتقبلهما المــؤيّدون بالترحاب عند أبواب السجن، وحيوا رياض وسامي الصلح، وأنشدوا السلامين الوطنيين السوري واللبناني قبل أن يتفرّقوا.

رياض يفتح مكتباً للمحاماة

في أوائــل سنة 1933، قرّر رياض أن يكسب عيشه بنفسه. فقد كان يعاني من صعوبات مالية كالعادة، حيث رُهنت معظم ممتلكاته أو بيعت، وصُرفت الأموال على النــشاطات السياسية والمغامرات الصحفية. ولم يكن يردّ الملتمسين دون أن يقدّم لهم هدية. وقد أدّى سخاء رياض المفرط إلى إضعاف علاقته بوالده منذ بضع سنوات، ولم تعــد إلى سابق عهدها تماماً. انتقل رضا إلى العيش في بيروت في سنواته الأخيرة، لكن زوجته نظيرة كانت تتركه هناك في أغلب الأحيان وتقيم مع ابنها المحبوب.

شــعر رياض أنه بدّد ثروة العائلة، فرأى أن الوقت حان ليتحمل بعض المسؤولية المادية تجاه والديه وشقيقاته. ومن المرجّح أنّ صراعه القانوني مع آل ثابت جعله يفكّر أخيراً في بدء العمل في المحاماة. وكان قد حصل قبل عشرين عاماً على شهادة مرموقة في الحقــوق من استانبول، والتحق بنقابة المحامين عندما استقرّ في بيروت، وأبلغ رسمياً بحقــه في مزاولة المهنة. بيد أنه آثر عدم القيام بذلك حتى الآن. لكن بالنظر إلى نفوذه وفصاحته، واتساع دائرة أصدقائه ومؤيديه، فقد شعر أن في وسعه النجاح على الرغم مــن قِــدَم معلــوماته القانونية. سأله والده ذات يوم، "هل تحب مهنتك الجديدة"؟ فأجــاب، "لا أحبها، بل أستفيد منها! ليس لدي طموحات قانونية، لقد انتقلت إلى نقابة المحامين مثلما يهاجر أي شخص إلى أميركا؛ لجني المال".

بــدا أن إنشاء مكتب محاماة هو السبيل إلى ذلك. باعت والدته سواراً من الزمرد لــتأمين فــرش المكتب – ألواح من خشب الورد لكسوة الجدران وفرش من المخمل الأخــضر. ووضــعت على قاعدة في مكان بارز من الغرفة نسخة رخامية من "أسد

بلفـــورت"، قـــدّمها لـــه طلاب لبنانيون في باريس تقديراً لدفاعه كالأسد عن الوطن العربـــــي (الأسد الأصلي، وهو نصب حجري كبير، مقام في بلفورت شرقي فرنسا تخلـــيداً لذكـــرى المقاومة الباسلة للمدينة في أثناء الحصار البروسي في حرب 1870 – 1871). في البداية كان رياض شديد الحماسة. فوظف محاميين شابين ليساعداه وشرع بالعمـــل. لكنه ترك لهما إدارة المكتب بعد بضعة أشهر. ولم يبقَ ما يدل على وجوده هناك سوى اللوحة النحاسية اللامعة التي تحمل اسمه على الباب.

غـــير أن ثمة حادثة تشهد على مكانته الشعبية، إن لم يكن نجاحه كمحامٍ. عندما حـــاول المدعي العام الفرنسي إبعاد رياض عن نقابة المحامين، هدّدت النقابة بالإضراب على الفور. دُهش الفرنسيون من هذا الموقف التضامني، فقرروا التراجع بحكمة[1].

نصير العمال

مـــن الأسباب المهمة لشعبية رياض الكبيرة في أوساط الفقراء في لبنان دفاعه القوي عـــن حقوق الطبقة العمالية. ولعله أول من استوعب من السياسيين الوطنيين من أبناء جيله أن النضال من أجل حقوق العمال جزء حيوي من النضال من أجل الاستقلال. وربما تأثّر بمـــا عرفه عن نقابات العمال في أوروبا. على أي حال، لقد سبق معظم معاصريه في هذا الـــشأن، ولكنّه واجه تحدّيات صعبة هنا أيضاً. اعتبرت المفوّضية العليا الفرنسية أي محاولة يقـــوم بها العمال للانتظام دفاعاً عن حقوقهم بمثابة "تحريض وطني" أو "تخريب شيوعي". وكـــان قـــد صـــدر مرسوم في تشرين الثاني/نوفمبر 1930 يعاقب على "الدعاية الثورية" بالـــسجن خمـــس سنوات مع الأشغال الشاقة؛ كما صدر مرسوم آخر في حزيران/يونيو 1931 يحظـــر كلّ الاجتماعات العامة؛ وصدر مرسوم ثالث في أيلول/سبتمبر 1932 يُلزم بمقاضاة أي مالك يسمح بعقد "اجتماعات غير شرعية في منـــزله"[2].

لم تـــردع هذه التدابير القاسية 400 عامل من شركة بيروت للتراموي والإنارة، وهـــي شـــركة امتيازية فرنسية، من الإضراب بين 1 و17 تموز/يوليو للمطالبة بزيادة

(1) Alia el-Solh, *Le Jour*, 12 December 1965.

(2) إنني مدين لكولان Couland, *Le Mouvement syndical* بالمعلومات المذكورة عن الحركة العمالية في لبنان.

أجورهم وتحسين شروط العمل، ودعوة العمال الآخرين للانضمام إليهم. وشارك عمال الطباعة وصانعو الأحذية وعمال الخشب والتبغ في التوقّف عن العمل. ردّ الفرنسيون بإنزال العقوبات على الفور. فاعتقل اثنا عشر من "قادة الإضراب"، وأبعد ثلاثة أعضاء من "لجنة نقابات العمال" الحديثة التكوين إلى قلعة جزيرة أرواد، حيث كان رياض الصلح قد سجن ذات مرة. ولبثوا هناك مدة سنتين رهيبتين إلى أن أصدر المفوّض السامي هنري بونسو العفو عنهم في سنة 1928.

كانت شركات امتيازية فرنسية تدير المصالح العامة الرئيسية في بيروت، مثل مصالح المياه، والكهرباء، والنقل العام والبريد والبرق، وإدارة المرفأ، بإشراف المفوّضية الفرنسية العليا التي عيّنت نفسها وريثاً شرعياً للدولة العثمانية. وظلّت المفوّضية العليا الفرنسية مسؤولة عن المواطنين الأجانب وحماية مصالحهم التجارية والمالية حتى بعد إلغاء الامتيازات الأجنبية. وقد ألحق مكتب خاص باسم "إدارة خدمات الامتيازات والأشغال العامة" بالمفوّضية العليا الفرنسية وانضم في ما بعد إلى ما عرف باسم "إدارة الخدمات العامة"، وهي هيئة تدير المرافق العامة وغيرها من المصالح المشتركة بين لبنان وسوريا[1].

ربما كان لا مفر من أن تصبح الشركات الامتيازية الفرنسية أهدافاً رئيسية لحركة النقابات العمالية الوليدة. وفي تحدٍّ للقمع الفرنسي، أعيد إنشاء لجنة نقابات العمال سراً بمساعدة وتوجيه الحزب الشيوعي السوري، الذي كانت لجنته المركزية تتكوّن من فؤاد الشمالي وأرتين مدويان وهيكازون بويادجيان وفريد طعمه. ولا شكّ في أن الشمالي، الذي مثل الحزب الشيوعي السوري في المؤتمر الشيوعي الدولي الرابع الذي انعقد في موسكو في سنة 1928، كان العضو الأبرز في الحزب. في سنة 1929، نشر كتاباً مهماً باسم **نقابة العمال** وأسس جريدة **صوت العمال** التي صدر منها أربعة أعداد فقط قبل أن تغلقها السلطات.

في أواخر عشرينيات القرن العشرين، انتقل مركز ثقل حركة العمال العرب من حيفا إلى بيروت، وترسّخت جذوره في صناعة التبغ، حيث أدت مكننة تصنيع السجائر، في القطع واللف والتوضيب، إلى حرمان آلاف الرجال والنساء من مورد

(1) Carla Eddé, "La Mobilization 'populaire' à Beyrouth à l'époque du Mandat, le cas des boycotts des trams et de l'électricité", in Méouchy, *France, Syrie et Liban*, p. 350.

رزقهم، ما أجبرهم على الانتقال من قراهم الجبلية إلى البلدات الساحلية بحثاً عن عمل. في أيار/مايو 1930، تظاهر مئات من عمال التبغ أمام مقرّ الحكومة في بيروت، ما دفع السلطات إلى الرّد باعتقالات وأحكام سجن قاسية غير عادية.

وفي نيسان/أبريل 1931، أطلقت "لجنة شعبية" أخرى حملة مقاطعة أخرى، لشركة بيروت للتراموي والإنارة، بعد أن قالت بلدية بيروت إنها تجني أرباحاً مفرطة. فضجت المدينة كلها وتعالت الأصوات. قدّمت العديد من الشركات المحلية عروضاً بتزويد الكهرباء بأسعار أقل بكثير. وامتدت مقاطعة الكهرباء والتراموي إلى دمشق وحلب وحمص وحماه، مع أنها تلاشت قبل الحصول على تنازلات كبيرة من الشركة.

غير أن مثل هذه المقاطعة أشارت إلى بروز العمال الحضريين كقوة جديدة في السياسة العربية. كان ذلك مختلفاً جداً عن دفاع الوجهاء التقليديين الذين كانوا إبان العهد العثماني وما يليه الوسطاء الرئيسيين بين السلطات والشعب[1]. اتهمت السلطات الفرنسية رياض وكاظم وتقي الدين الصلح بأنهم المحرضون البارزون على المقاطعة، على الرغم من انتمائهم إلى إحدى العائلات التقليدية البارزة.

في غضون ذلك، امتدت تلك الحركة إلى عمال الطباعة الذين بدؤوا في سنة 1929 بإصدار مجلة شهرية تدعى **اليقظة**، وكانت ذات تطلعات عروبية واضحة. وصفت المجلة نفسها أنها "أداة العمال العرب في كل مكان"، لا سيما عمال الطباعة في سوريا ومصر والعراق وفلسطين. وفي لبنان شنت **اليقظة** حملة على تعليق صدور الصحف الوطنية بصورة متكرّرة من قبل المفوّضية العليا، حيث كان يدوم التعليق عدة أشهر في بعض الأحيان، ما يؤدي إلى الطرد التعسّفي لعمال الطباعة من دون تعويضات. في العدد الثالث من مجلة عمال الطباعة، انبرى رياض إلى الدفاع عنهم، معلناً أن نقابتهم تلعب دوراً أساسياً في النضال ضد الشركات الامتيازية التي يمتلكها الفرنسيون – وضد الانتداب الفرنسي نفسه.

كانت نقابة سائقي سيارات الأجرة، التي تشكلت في سنة 1929 وعُرفت باسم جمعية تعاضد السوّاقين، مركزاً مهماً آخر للنشاط النضالي. فقد انضم إليها مئات الأعضاء، والآلاف في نهاية المطاف، بمن فيهم السائقون المالكون للسيارات الخاصة،

---

(1) المصدر نفسه، ص 364.

والسائقون المأجورون، وميكانيكيو السيارات، بل حتى أصحاب ورش تصليح السيارات. أضرب أعضاء تلك الجمعية في أوائل سنة 1929، ثم في آب/أغسطس 1930 مطالبين بتعديل الضرائب المرتفعة والغرامات، وقوانين المرور التمييزية. وفي 28 كانون الثاني/يناير 1932، انتقل عدد كبير من سائقي سيارات الأجرة في موكب كبير إلى بكركي، مقرّ البطريرك الماروني، أنطون عريضة، على أمل الحصول على دعمه لهم، لكنهم فشلوا في ذلك.

تحوّلت جمعية تعاضد السوّاقين، بتشجيع من رياض الصلح إلى حدٍّ كبير، من مجرد هيئة مهنية صرف إلى منظمة تسعى لتحقيق أهداف اقتصادية وطنية. ومن علامات هذا التطوّر احتجاجها على منافسة سكّة الحديد التي يملكها الفرنسيون وشركة "لوتوروتييه" l'Autoroutiére، وهي شركة نقل يموّلها الفرنسيون. في 6 آذار/مارس 1933، دعت جمعية تعاضد السوّاقين إلى إضراب عام استجاب له 8000 سائق في لبنان وسوريا. وانضم إليهم أصحاب المحال التجارية في المدن الساحلية، ما أوقف الحركة في البلاد.

في 19 آذار/مارس، وافق المونسنيور أغناطيوس مبارك، رئيس أساقفة بيروت للموارنة، على الظهور علناً إلى جانب رياض الصلح في إيماءة تضامنية مع المضربين، فتعرّض لتوبيخ من البطريرك عريضة والرئيس دباس، وكلاهما متحالفان مع الفرنسيين. ألهم التحدي الذي أظهره سائقو سيارات الأجرة، عمال الطباعة للدعوة إلى إضراب بشأن شكواهم الرئيسية، أي إيقاف صدور الصحف بموجب مراسيم إدارية وما يترتّب على ذلك من عسر يلحق بعمال الطباعة. ففي 22 آذار/مارس توقف 400 عامل طباعة في بيروت عن العمل لمدة 24 ساعة، ما دفع الحكومة إلى دفع تعويض إلى الطابعين الذين فقدوا أعمالهم، بلغ مئة ليرة فقط في تلك الحالة. وفي آب/أغسطس، أضرب عمال الطباعة ثانية، وتقدّموا هذه المرة بمطالب أكثر طموحاً: زيادة الأجور بنسبة 50 بالمئة، وثماني ساعات عمل يومياً، وصندوق حكومي للبطالة، والتأمين ضد حوادث العمل، وتحسين الظروف الصحية، وحظر عمالة الأطفال.

انتشر النضال في أوساط الطبقات العمالية بأكملها. فبدأ الطهاة، والندلاء، وعمّال حياكة الحرير، وعمال الخشب، والصيادون، وموظفو المصارف، وعمال الأسمنت في شكا، والعمال الذين يبنون المطار في طرابلس، بل حتى المحامون والأطباء

والصيادلة، بتنظيم أنفسهم في أوائل ثلاثينيات القرن العشرين، وإن من دون أن يرجع كل منهم إلى الآخر.

كان رياض الصلح من القادة الوطنيين القلائل الذين دعموا تلك الحركة العمالية الواسعة. ولا شك في أنه رأى في الإضرابات، التي كانت تقع أحياناً في تنافس مع الشيوعيين وبالتنسيق معهم في أحيان أخرى، فرصة لكسب منبر شعبي يعبّر فيه عن آرائه. وكان من الطبيعي أن يتطلّع المضربون بدورهم إلى المساعدة من سياسي بارز مثله. كما أدرك، على سبيل المثال، أهمية محاولة اجتذاب البطريرك الماروني أنطوان عريضة الواسع النفوذ - وهو مناصر للوجود الفرنسي في لبنان وغير متعاطف مع الحركة العمالية - إلى هذا النضال، وإلى جانب العمال.

عندما وقع خلاف بين المفوّض السامي داميان دو مارتيل والبطريرك الماروني بشأن قرار الأول منح احتكار بيع التبغ في جبل لبنان إلى شركة فرنسية تدعى الشركة السورية-اللبنانية للتبغ، اغتنم رياض هذه الفرصة. فانطلق مسرعاً إلى دمشق وأقنع قادة الكتلة الوطنية الرئيسيين بزيارة البطريرك. وبناء على ذلك انتقلت مجموعة بارزة تضمّ شكري القوّتلي، وجميل مردم، وفخري البارودي، ولطفي الحفّار، ونسيب البكري، وقادة بارزون آخرون إلى لبنان، حيث انضم إليهم رياض الصلح واتجهوا إلى مقر البطريرك في بكركي. تحوّلت الزيارة إلى مهرجان وطني شجب فيه البطريرك الانتداب بشكل مفاجئ ودعا الفرنسيين إلى مغادرة البلاد. وكان لهذا التغيير الكبير وقع شديد على الرأي العام.

تمكّن رياض، عبر هذا الانقلاب الكبير، من استمالة قسم من الطبقين العليا المتوسطة - بمن فيهم الموارنة، حلفاء فرنسا التقليديون - إلى جانب العمال. وحوّل الحركة الاحتجاجية إلى حملة سياسية واسعة على سلطة الإنتداب. فقد أدرك كيف يمكن تحويل الإضرابات والمقاطعات، التي تجمع مختلف الطوائف اللبنانية معاً للمشاركة في معارضة احتكار المرافق العامة من قبل فرنسا، إلى معالم مهمة على طريق الاستقلال.

ثارت ثائرة المفوّضية العليا. وفي 15 نيسان/أبريل 1935، أمر داميان دو مارتيل بإغلاق مكتب نقابة السوّاقين وإبعاد رياض إلى القامشلي، وهي بلدة نائية في شمال شرقي سوريا حيث وُضع قيد الإقامة الجبرية. أثار ذلك موجة عارمة من الاحتجاجات. وتدفّق على المفوّضية العليا سيل من البرقيات من جميع أنحاء سوريا

ولبنان تحمل كل منها عشرات التواقيع. أشارت العديد من العرائض إلى أن إبعاد رياض يناقض قانون حقوق الإنسان وأن هذه الخطوة العنيفة ستؤدي إلى مزيد من العنف. وبعثت رابطة الطلاب العرب في تولوز، على سبيل المثال، رسالة شديدة اللهجة تقول فيها إن الشباب السوري سيواجه موقف فرنسا غير القانوني "بكل الوسائل القانونية وغير القانونية"[1]. بل إن وزارة الخارجية الفرنسية في باريس وعصبة الأمم في جنيف أجبرتا على أخذ العلم بتلك المسألة.

بعد شهرين، تراجع داميان دو مارتيل، وأمر بإعادة رياض إلى بيروت. وقد ذكر في تقرير أرسله إلى وزارة الخارجية في فرنسا:

> في رسالتي بتاريخ 21 حزيران/يونيو، رأيت أن الوقت ليس مناسباً لإعادة رياض الصلح من القامشلي بسبب الخطر الذي قد يحدثه وجوده فيما لم نكن نعرف على وجه اليقين إذا كانت المقاطعة [لشركة دمشق للتراموای والإنارة التي دامت ثلاثة أشهر] ستمتدّ إلى بيروت.
>
> بما أن ذلك لم يحدث، في الوقت الحاضر على الأقل، فقد أمرت بإعادة رياض الصلح إلى بيروت. بقي الأمر طيّ الكتمان وعاد إلى بيروت ليل الأحد في 30 حزيران/يونيو من دون أن يتمكّن المحرضون المحترفون من تنظيم استقبال حافل له.
>
> أقيمت احتفالات لمدة عدة أيام متتالية، في ذكرى المولد النبوي في عدة مساجد في البسطة (وهو حيّ مسلم في بيروت) احتفاء بعودته... وتمّ التعبير عن الفرح الغامر بإطلاق الألعاب النارية والمفرقعات..[2].

فشل فرنسا في البحث عن معاهدة

سيطرت مسألتان متناقضتان في الظاهر على النقاش السياسي الذي أعقب الثورة السورية الكبرى: ما المؤسسات التي تعدّ سوريا ولبنان على أفضل وجه للحكم الذاتي؛ وفي الوقت نفسه، كيف تستطيع فرنسا أن تؤمّن مصالحها في المنطقة على المدى

(1) MAE-Nantes, Fonds Beyrouth (Amb.), Série 199A4, carton 20, 17 Mai 1935.

(2) MAE-Nantes, Fonds Beyrouth (Amb.), Série 199A4, carton 20, Damien de Martel au Ministre des Affaires Etrangères, 5 juillet 1935.

الطـــويل. كـــان العديد من المسؤولين الفرنسيين مقتنعين بأنّ الطريقة الفضلى لإدامة السيطرة الفرنسية هي عقد معاهدتين ثنائيتين مع البلدين تربطهما بفرنسا وتعزّز شروط الانتداب والتزاماته. غير أن الوطنيين مثل رياض الصلح ورفاقه في الكتلة الوطنية طالبوا باســـتقلال "ســـوريا الكبرى" كخطوة أولى نحو وحدة عربية أكثر اتساعاً. وكان من الصعب ردم الهوة بين هذين الموقفين.

كان المفوّض السامي هنري دو جوفنيل أكثر ليبرالية، أو أكثر واقعية من رؤسائه في بـــاريس. ولا شك في أنه كان أكثر انفتاحاً من سلفيه العسكريين، الجنرال غورو والجنرال ساراي. أدرك عدم وجود أي فرصة لتأمين إذعان الوطنيين من دون معاهدة تـــتجاوز شـــروط الانتداب، بل تحل محلها جميعاً. لكنه لم يستطع إحراز أي تقدم في مـــواجهة مـــسؤولين أقوياء مثل روبير دو كيه، الذي احتفظ، باعتباره ممثل فرنسا في اللجـــنة الدائمـــة للانتدابات، بنفوذه في شؤون المشرق في وزارة الخارجية الفرنسية. وعـــندما فشل هنري دو جوفنيل في إقناع باريس بوجهة نظره، استقال في تموز/يوليو 1926 بعد ثمانية أشهر فقط من توليه منصبه.

اســـتُبدل به هنري بونسو الذي حلّ البرلمان السوري في شباط/فبراير 1929، بعد أن رفضت باريس الدستور الوطني الذي وضعه فوزي الغزي، وفيه رفض قاطع لتقسيم المـــنطقة بـــين الحلفـــاء. رأت فرنـــسا أن دستور الغزي الذي تعمّد إغفال أيّ ذكر للانتداب، يشكل تهديداً لا لسيطرتها على سوريا فحسب وإنما أيضاً لهيمنتها على لبنان الكـــبير المـــصطنع. كما يشكّل تهديداً لفصل فلسطين عن سوريا، وهو ما اتفق عليه الفرنسيون مع البريطانيين. ولعل فوزي الغزي وقّع على أمر إعدامه بكتابة تلك الوثيقة الشجاعة – الشنيعة جداً بنظر الفرنسيين.

في أعقـــاب ذلك بسنة تقريباً، في أيار/مايو 1930، بعد وفاة الغزي الغامضة التي أراحـــت الفرنـــسيين مـــن معارض رئيسي، أعلن هنري بونسو من جانب واحد عن تـــشريعين دستوريين للبلدين المشرقيين. وقد صاغ التشريع الخاص بسوريا على منوال دســـتور عـــام 1928، لكـــنه ألغى المادة الثانية التي تنص بوضوح على وحدة سوريا الكـــبرى. وأضاف المادة 116 التي أكّدت عدم جواز تعارض أي شيء في الدستور مع "الالتـــزامات" الـــتي اتفقت عليها فرنسا مع عصبة الأمم في ما يتعلق بسوريا. ضمنت

هـذه التورية الغربية للاحتلال استمرار موقع فرنسا كسلطة انتداب. وقد أفاد السيد ميد Meade، القنصل البريطاني بالوكالة في حلب، في تقرير رفعه إلى لندن أن الظرفاء المحليين سخروا من دستور بونسو بتسميته "إمساك"(*). وأضاف بأن المادة 116 اعتُبرت مناقضة تماماً لما تبقى من النص(1).

أعلن بونسو أيضاً عن تسويات دستورية للواء الإسكندرونة وأرض العلويين وجبل الدروز. وتصوّر عبثاً أن تلك التدابير توفّر أساساً للتفاوض على معاهدة، إن لم يكن مع الوطنيين "المتطرفين"، فمع "المعتدلين" منهم على الأقل. وقد عبر السفير البريطاني في باريس، لورد تايريل Tyrrell، في 23 أيار/مايو 1930 عن اعتقاده بأنّ فرنسا مهتمة أساساً بتجاوز الفحص الذي تجريه عصبة الأمم أكثر من اهتمامها بتحقيق أي تقدّم سياسي حقيقي(2).

في سنة 1931، أجرى بونسو محاولة أخرى لإقناع السوريين بقبول معاهدة تؤسّس لخضوعهم. فقد تركت المعاهدة الانكليزية- العراقية في حزيران/يونيو 1930، انطباعاً عظيماً لديه. فقد تمكّنت في النهاية من إقامة "تحالف وثيق" بين بريطانيا والعراق، ونصّت على إجراء "مشاورات كاملة وصريحة بشأن جميع قضايا السياسة الخارجية"، بالإضافة إلى "التعاون المتبادل" في حالة الحرب. ومنح العراق بريطانيا حق استخدام قواعد جوية قرب البصرة وفي الحبّانية، فضلاً عن حقّ تحريك قواتها بحرّية في البلاد. واتُّفق على أن هذه المعاهدة صالحة لمدة 25 سنة وتصبح نافذة عند قبول عضوية العراق في عصبة الأمم، وهو ما حصل في 3 تشرين الأول/أكتوبر 1932.

في زيارة قام بها هنري بونسو إلى بغداد في أواخر نيسان/أبريل 1931، أبلغ المفوّض السامي البريطاني، السير همفريز Humphreys، باعتقاده أنّ المعاهدة "مسعى

(*) تلاعب على الألفاظ بالإنجليزية أو الفرنسية حيث الدستور يعني constitution والإمساك يعني constipation.

(1) Acting Consul Meade to Foreign Secretary, Aleppo, 6 June 1930 (FO 371/14554).

17 FO 371/14553.

18 Sir F H Humphrys, High-Commissioner in Iraq, to Foreign Secretary. Baghdad, 1 May 1931 (FO 369-2111 371/15364).

19 Mizrahi, "La France et sa politique de Mandat", p. 52.

20 Alia el-Solh, *Le Jour*, 25 July 1965.

كـريم يتـسم بالحنكة السياسية لتلبية آمال العراقيين في الاستقلال". فسارع همفريز، الذي شعر بالإطراء والدهشة، إلى إرسال تقرير إلى لندن يقول فيه:

إن بونـسو كان مقتنعاً بأن السياسة البريطانية صحيحة ويجب اتباعها على العمـوم في سـوريا... لم يعد لديه أي شك في أن المحافظة على الانتداب بالقـوة العسكرية سياسة سلبية، لا يرجى منها أمل بتحقيق حلّ مرضٍ. ما الـبديل بالنـسبة إلى سوريا؟ استعمال القوة المفرطة لإخماد شعب غاضب مـستعد للثورة للمطالبة بحقوقه كلما سنحت الفرصة له لذلك؟ ورأى أن مـنح تلـك الحقـوق بـسلام ومن دون إثارة أي أحقاد - مثلما يفعل الـبريطانيون - أفـضل مـن السماح بانتزاعها في نهاية المطاف عن طريق التهديدات والقلاقل... غير أن من الصعب إقناع وزارة الخارجية الفرنسية بوي جهة النظر نفسها...

علـى الـرغم من معارضة باريس، قررّ هنري بونسو أن يحذو في أعماله حذو الـسياسة البريطانية في العراق. في 19 تشرين الثاني/نوفمبر1931، أقال رئيس الوزراء تـاج الـدين الحسيني من دون ضجّة، وأعلن عن إجراء انتخابات بين شهري كانون الأول/ديـسمبر وكانون الثاني/يناير 1931 و1932، وتولّى بنفسه مهام رئيس البلاد في المـرحلة الانتقالـية. في أعقاب الانتخابات، شُكلت حكومة موالية للفرنسيين وتمت "المـوافقة" على بنود مشروع المعاهدة. ثم عُرض مشروع المعاهدة على البرلمان لإقراره في 21 تشرين الثاني/نوفمبر 1933. نصت المعاهدة على تحالف لمدة خمس وعشرين سنة مـع فرنسا، وأن تصبح نافذة عندما تقبل عضوية سوريا في عصبة الأمم، ومنح فرنسا حـق التواجد العسكري في مواقع معينة - كما هو حال بريطانيا في العراق - وانتقال السلطة من الفرنسيين إلى السوريين بعد فترة انتقالية مدتها أربع سنوات. غير أن باريس أصـرّت بعـناد علـى بقاء الدولتين العلوية والدرزية كيانين مستقلين، حيث واصل حاكماهمـا الفرنـسيان تـشجيع المشاعر الانفصالية. لكن بما أن الوطنيين في دمشق يرفضون تقسيم سوريا، فقد بقيت المعاهدة حبراً على ورق.

لم يحقّق بونسو نجاحاً أكبر في لبنان. فالدستور الذي وضعه لم يكن سوى نسخة معدّلـة عـن دستور 1926 الذي قيّد السيادة اللبنانية لصالح سلطة الانتداب. رفض

الوطنيون اللبنانيون العرب من أمثال رياض الصلح هذا الدستور لأن فرنسا احتفظت بسيطرتها على السياسة الخارجية والدفاعية، في حين كرست المادة 95 مبدأ الطائفية في النظام السياسي في لبنان. ورغب العديد من اللبنانيين الذين يتحلون ببعد النظر في إنهاء النظام الطائفي، وكان رياض من بين هؤلاء. وقد عقد اجتماعات عديدة مع هنري بونسو بشأن ذلك الموضوع وشعر في بعض الأحيان أنه أحرز تقدماً. لكن تبيّن أن الاجتماعات مشوّشة على نحو مكدّر: كان بونسو يعطي الانطباع بأنه منفتح، لكنه يتكتّم عندما لا تمنحه التوجيهات الصارمة القادمة من باريس مجالاً كبيراً للمناورة.

بعد ذلك، عمدت الاستراتيجية الفرنسية إلى استخدام التعديلات الدستورية للحدّ من صلاحيات البرلمان والحكومة، وهما الهيئتان اللتان تواجه معارضة فيهما، وتعزيز صلاحيات الرئيس شارل دباس الذي كان من الأسهل السيطرة عليه. وهكذا في نيسان/أبريل 1929، مدّد بونسو ولاية الرئيس من ثلاث إلى ست سنوات وأعطاه حق اختيار الوزراء مستقلاً عن مجلس النواب، وحلّ مجلس النواب من دون موافقة الحكومة. وفي 9 أيار/مايو 1932، عُلّق العمل بالدستور وتركّزت كل السلطة الرسمية في يدي الرئيس (وهو وضع استمر حتى كانون الثاني/يناير 1934). غير أن جميع الصلاحيات الحقيقية بقيت مع بونسو نفسه. فأعلن عن اعتزامه إصلاح المؤسسات اللبنانية والتخلص من شبكات المحسوبية لإنهاء الفساد وتوزيع المغانم الذي طالما شجع عليها النظام الطائفي القائم. لكن كان من الواضح للعديد من اللبنانيين أن هدفه الحقيقي الحؤول دون أي تقدّم سياسي نحو تحقيق الحكم الذاتي، ناهيك عن الاستقلال. شعر رياض بخيبة أمل شديدة نتيجة محادثاته، إذ لم تسفر نوايا بونسو المفترض أن تكون متنوّرة سوى عن مزيد من الجمود السياسي.

غير أن بونسو قدّم إحصاء يظهر أنّ المسيحيين، بمن فيهم اللبنانيون في المهجر واللاجئون الأرمن الذين قدموا حديثاً إلى لبنان، يشكّلون غالبية طفيفة فقط تبلغ 52.5 بالمئة من إجمالي عدد السكان البالغ 861,000 نسمة. ونظراً لأن معدّل المواليد أكثر ارتفاعاً لدى المسلمين الذين تبلغ نسبتهم 46.2 بالمئة، فقد بدا مؤكّداً أن يتجاوز عددهم عدد المسيحيين في وقت قصير نسبياً. كان ذلك الإحصاء الأخير من نوعه

الــذي يجــرى في لبنان. بل أصبح تحديد الأعداد الدقيقة لمختلف الطوائف موضوعاً سياسياً ينطوي على مخاطر كبيرة بحيث لم يتم التفكير فيه ثانية.

من هنري بونسو إلى الكونت داميان دو مارتيل

ترك هنري بونسو منصبه في أواخر صيف 1933، بعدما عجز عن تحقيق تقدم سياســي في ســوريا أو لبــنان، ووقــع في شرك جوّ غاضب تتخلّله الإضرابات والمظاهــرات. أصبح المشرق مقبرة سياسية للمفوّضين السامين الفرنسيين. أوصى بونــسو خلفه، الكونت داميان دو مارتيل – بمرارة وتهوّر – أن يتجاوز الوطنيين تماماً. فشرع دو مارتيل عند وصوله في تشرين الأول/أكتوبر 1933، بالابتعاد عن سياســة ســلفه، كما نصحه بونسو نفسه! فأعلن عن دستورين لسوريا ولبنان. وحــاول إجــبار البرلمان السوري على الموافقة على معاهدة لم تكن سوى شكل جديــد من تشريع 1930. لكنه واجه غضباً شديداً في الشارع ومعارضة قوية في الــبرلمان فاضطر إلى وقف عمل البرلمان وسحب المشروع في كانون الأول/ديسمبر 1933. في 2 كانــون الأول/ديسمبر 1934، أصدر قراراً يعهد بموجبه بالسلطات التنفــيذية في سوريا إلى شخصية يعيّنها المفوّض السامي الفرنسي مباشرة ويكون مسؤولاً أمامه وحده.

نُظّمــت انــتخابات لمجلس نواب جديد قُلّص عدد أعضائه إلى 25 عضواً، منهم ســبعة معينين. فنجح المرشّحون الذين يحظون بتأييد المفوّض السامي. وفي آذار/مارس 1934، أعــاد داميان دو مارتيل تعيين الشيخ تاج الدين الحسيني السهل الانقياد على رأس حكــومة انتقالية، وفي تشرين الثاني/نوفمبر علّق عمل البرلمان إلى أجل غير محدّد. وفي لبــنان، عُــين حبيب باشا السعد، وهو ماروني متقدّم في السن، رئيساً بدلاً من شــارل دباس الذي تقاعد بعد سبع سنوات ونصف من ولايته. كان يعاون الرئيس، باعتباره المسؤول عن السلطة التنفيذية، حكومة برئاسة عبد الله بيهم في ذلك الوقت. لكــن الفرنــسيين، كما لاحظ المسؤولون في القنصلية البريطانية، كان لديهم ميل في ســوريا ولبــنان إلى تجــاوز الحكومات، حتى التابعة لهم، وممارسة مزيد من السيطرة المباشــرة. وبعد مرور 10 سنوات، لم يتحقّق أي تقدّم في بناء المؤسسات أو نحو إبرام

معاهدة. وارتدّ الوضع إلى ما كان عليه في سنة 1926، لكنه ازداد سوءاً بسبب الأزمة الاقتصادية المستفحلة والأحداث في فلسطين.

زواج رياض الصلح

تزوّج رياض قبل بضعة أشهر من قيام الفرنسيين بنفيه إلى القامشلي. وكان زواجاً استغرق إعداده مدة طويلة. فقبل سنوات عديدة، في سنة 1912، فيما كان آل الصلح يعيشون في استانبول، ذهب رياض في رحلة على متن قارب في البوسفور مع صديقيه، سعد الله الجابري ورغيد كيخيا. مرّت باخرة فأحدثت خضربة أدت إلى انقلاب القارب فجأة. لم يكن سعد الله يحسن السباحة، فأخذ يصرخ طلباً للنجدة. وعندما نجح رياض ورغيد أخيراً في انتشاله وإعادته إلى القارب مبلّلاً وذاهلاً، وعدهما شاكراً أن يزوّجهما لابنتي أخيه، أجمل فتاتين في حلب.

في سنة 1928، عندما بلغ رياض الرابعة والثلاثين، رأى والداه أن الوقت حان لزواجه. فاختارا له عروساً من عائلة العظم الثرية في دمشق، وهم معروفون بالتكبّر على المستوى الشخصي وعدم الحماسة للقضية الوطنية (باستثناء واحد أو اثنين بارزين). كان لرياض تحفّظات على ما ينطوي عليه هذا الزواج. في 8 تموز/يوليو 1928 كتب إلى والديه من باريس مبدياً قلقه وإن بدبلوماسية:

> قلت إنني لن أعصيكما في ما يتعلق بزواجي. وأنا مستعد للتخلّي عن العمل السياسي طوال مدة خطوبتي، بل لبعض الوقت بعد الزواج. أمّا بشأن المكان الذي أقيم فيه، فإنني أفضل بيروت، لأسباب لن أخفيها. لديّ اعتقاد راسخ بأن العيش في بيروت ضرورة مطلقة لي، وللبنانيين، لعدة سنوات قادمة.
>
> مع ذلك، إذا كنتما معجبين حقاً بالفتاة من آل العظم، وتعتقدان أنها تستحق التضحية، فسأوافق على الإقامة في دمشق مدة من الوقت، وأوكل أمر المستقبل إلى الله".

لم يتم ذلك الزواج البتة. فقد أصرّت الفتاة وعائلتها على أن يتخلّى رياض الصلح عن العمل السياسي لكي يعيش معها حياة رغدة في دمشق. لكنه كان شديد

الالتـــزام بالنـــضال للتحرر العربـــي فلم يستطع تصوّر هذا المصير، وبيروت قاعدته الأساســـية بصرف النظر عما قاله في رسالته المطيعة لوالديه. بعد هذه المحاولة الفاشلة الأولى لإيجاد عروس لرياض، رأى أن الحكمة تقضي أن يقدّم لوالديه توجيهات أوضح لأي بحث آخر. فكتب إليهما:

> بـــصرف النظر عمن تختاران، يجب أن تشرحا لعروس المستقبل بأن الحياة معي لن تكون رحلة ممتعة على متن سفينة، وإنما رحلة برية شاقة وطويلة. لا أســـتطيع أن أعدها بالمجوهرات أو الرحلات، وإنما بأنها ستفخر بـــي في يـــوم من الأيام. يجب أن تتحلّى بقدر كافٍ من الذكاء لتدرك ذلك، وقدر كـــافٍ مـــن الطموح لتنضمّ إلى النضال، وقدر كافٍ من المرح لتسليني. وفـــوق كل ذلك، يجب أن تكون يتيمة، لأنني لا أريدُ أن أواجه منافسين دائمين. الآباء هم همّي الحقيقي.

كانـــت فائزة الجابري، ابنة أخ سعد الله، مثل هذه اليتيمة، إذ إنها فقدت والدها وأمها أيضاً. توفّيت أمها وهي تلدها، ورحل والدها نافع باشا الجابري بعد ذلك ببضع سنوات. وربما يبرّر غياب والديها ميلها إلى الكآبة بعض الشيء. تولّى تربيتها أخ غير شـــقيق تزوج شقيقة والدتها. وكانت في الواقع واحدة من سبعة عشر أخاً وأختاً من زيجات والدها الثلاثة. أُرسلت وهي طفلة إلى مدرسة داخلية للراهبات الألمان في حلب حـــيث تعلمـــت الألمانـــية وعزف البيانو. وكانت فتاة مثقّفة تجيد الفرنسية والتركية والعربية.

رأت فائـــزة رياض الصلح مرتين فقط قبل زواجهما، الأولى عندما كانت طفلة صـــغيرة، والثانية وهي في سن المراهقة. في المناسبة الثانية، أقامت عائلتها حفلةً مكافأةً لهـــا على حفظ الجزء الأول من القرآن الكريم. وقُدّم لها حجاب حريري شفّاف جميل التطريـــز كـــي ترتديه يوم زفافها. لكن زيارة رياض المظفرة إلى حلب في سنة 1928 طغـــت علـــى احـــتفالاتها. أقيمت له الأقواس في الطريق تقديراً للسمعة الكبيرة التي اكتسبها كمدافع عن القضية العربية في أوروبا. وأقام له صديقه سعد الله، أصغر أشقاء آل الجابري وعمّ فائزة، حفلاً كبيراً في منـــزل والد فائزة الراحل، العميد السابق لعائلة الجابـــري. وقـــد حضر هذا الحفل أبرز القادة الوطنيين في المدينة. استقبل رياض عند

وصـــوله بالتصفيق وبالأحاديث الحيوية التي ملأت المكان بالضجيج. ونتيجة لكل هذا الهـــرج، نسي الجميع حفلة فائزة. وفي جناح النساء في الطابق الثاني، شعرت بغضب شـــديد حـــتى إنهـــا عندما لمحته في باحة المنـــزل في الأسفل، بصقت عليه من إحدى الـــشرفات. كانت في السابعة عشرة من عمرها عندما تزوجت رياض الصلح في سنة 1930، فيما يبلغ هو السابعة والثلاثين.

الفصل العاشر

رياض الصلح والصهيونية
والحاج أمين الحسيني

في سنة 1918، التقى رياض الصلح في دمشق بالحاج أمين الحسيني ونشأت صداقة بينهما. وهو شاب فلسطيني انضمّ إلى الأمير فيصل - على غرار الصلح - وسرعان ما لعب دوراً مركزياً في السياسة الفلسطينية. لا شك في أن كلاً منهما وجد في الآخر مزايا الهمّة والقيادة. وكلاهما ينحدران من عائلة مرموقة، ومتعلّمان وشديدا الاهتمام بالسياسة. وبعدما انتقلا من النزعة العثمانية إلى التوجّه القومي العربي، وجدا نفسيهما في مواجهة الواقع المرير للقوة الاستعمارية البريطانية والفرنسية والطموح الصهيوني. وُلد الحاج أمين نحو سنة 1897 وتلقى التعليم التقليدي الذي يتلقاه أي فلسطيني من عائلة مرموقة: الدراسات الإسلامية والعربية في مدرسة دينية مسلمة، واللغة التركية في مدرسة حكومية، والفرنسية في مدرسة يديرها مبشّرون كاثوليك؛ ثم أمضى فترة في القاهرة حيث التحق بالأزهر ودرس أيضاً على الشيخ رشيد رضا، أحد أبرز الإسلاميين المصلحين في عصره. وبعد ذلك حج إلى مكة ما أكسبه لقب "حاج" الذي اختار الاحتفاظ به منذ ذلك الحين.

كان الحاج أمين، بصفته الأخ غير الشقيق لمفتي القدس، أبرز عالم دين مسلم في المدينة. في سنة 1914، التحق بالجيش العثماني كضابط صغير، وخدم في سنوات الحرب الأولى في الأناضول، لكنه ترك الجيش في سنة 1917 حين كان في إجازة في القدس. تأثّر بالثورة العربية الكبرى، فجمع بعض المتطوّعين الفلسطينيين للانضمام إلى قوات الأمير فيصل وكان في دمشق عندما شكّل الأمير حكومته في سنة 1918. عاد لاحقاً إلى القدس حيث أنشأ الفرع المحلي للنادي العربي؛ وهو الواجهة

السياسية العلنية لجمعية الفتاة السرية[1].

في سنة 1921، بعدما وطّدت بريطانيا حكمها في فلسطين، عيّن المندوب السامي السير هربرت صاموئيل الحاج أمين في منصب المفتي الأكبر للقدس وهو لا يزال في الرابعة والعشرين من العمر. وفي السنة التالية، عيّن رئيساً للمجلس الإسلامي الأعلى الذي أنشئ حديثاً للإشراف على ممتلكات الوقف والمحاكم الشرعية الإسلامية. بالتالي أحرز موقعاً قيادياً في مركز الحياة الروحية والزمنية والسياسية للمجتمع الفلسطيني المسلم، ونهض بهذه المسؤولية. كان شغله الشاغل طوال حياته حماية الحرم القدسي الشريف من السقوط في أيدي الصهاينة.

يوجد داخل سور الحرم الشريف مسجدان عظيمان، المسجد الأقصى وقبة الصخرة، بالإضافة إلى العديد من القباب والمحاريب والمباني الأصغر حجماً. وهو أولى القبلتين وثالث الحرمين، بعد الحرم المكي والحرم المدني. وكان ثمة شكوك في أن المتعصّبين اليهود يخطّطون لتدمير المسجدين بغية بناء هيكل فوق الحرم. لمواجهة هذا التهديد، استخدم الحاج أمين مهندسين بريطانيين وأتراكاً بغية ترميم الموقع وشرع بجمع التبرعات من المسلمين في شتى أنحاء العالم، وبالتالي جعل نفسه الممثل الأبرز في فلسطين للأمتين العربية والإسلامية.

يوجد في قلب الحرم مسجد قبة الصخرة، أول مثال كبير على العمارة الإسلامية وأحد أكثر الأماكن قداسة عند المسلمين. وهو مبنى مثمّن يتميّز بتصميمه البيزنطي وزخرفته الإسلامية، بناه الحرفيون السوريون بين سنتي 685 و691 في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان. وغايته الأساسية حماية الصخرة التي عرج منها النبي ﷺ إلى السماء بعد أن أسري به من مكة، وهي كتلة صخرية مستطيلة يبلغ طولها 18 متراً وعرضها 14 متراً. وقد ذُكر أن الخليفة عبد الملك استخدم في زمانه اثنين وخمسين

(1) Laurens, *La Question de Palestine*, vol. I, pp. 425- 6. للاطلاع على سيرة الحاج أمين، انظر أيضا إبراهيم أبو شقرا، **الحاج أمين الحسيني منذ ولادته حتى ثورة 1936**؛ اللاذقية، 1998؛ J. C. Hurewitz, *The Struggle for Palestine*, New York 1950; Francis R. Nicosia, *The Third Reich and the Palestine Question*, Texas 1985; David Hirst, *The Gun and the Olive Branch: The Roots of Violence in the Middle East*, London 1977 (rev. expanded edn New York 2003); Maurice Pearlman, *Mufti of Jerusalem: The Story of Haj Amin al-Husseini*, London 1947; Joseph Schechtman, *The Mufti and the Führer: The Rise and Fall of Haj Amin al-Husseini*, New York 1965.

شخصاً لغسل الصخرة بماء الورد الممزوج بالزعفران والمسك والعنبر. وكانت خمسة آلاف مصباح تضاء بزيت الياسمين لتعطير المسجد. أصبح الشكل المثمّن لقبة الصخرة نموذجاً للمزارات المقببة وأضرحة الأولياء من المغرب إلى الصين، بل تأثّرت به هندسة أجران المعمودية التقليدية.

لعل التراث اللغوي والديني ونمط الحياة المشترك، بالإضافة إلى الأحداث السياسية المثيرة التي شهدها الحاج أمين ورياض الصلح وشاركا فيها، جعلتهما يتقاسمان في سن مبكّرة الإحساس أنهما قائدان محتملان للحركة القومية العربية الناشئة التي كانت تناضل في ذلك الوقت لصياغة أهدافها. إذا كان هناك اختلاف بينهما فهو أن الحاج أمين يميل إلى التوجّه الإسلامي، في حين أن رياض، الذي نشأ في لبنان حيث التأثير الغربي عميق الجذور، يميل إلى التوجّه العلماني.

أحسّ رياض والحاج أمين، مثل غيرهما من الوطنيين، بالظلم الشديد لأن مصير منطقتهما تقرّره بريطانيا وفرنسا في تجاهل تام لرغبات سكانها المحليين. فقد قُسّمت الولايات العربية السابقة في الإمبراطورية العثمانية بوحشية. وهكذا، فإن الحدود المصطنعة والاعتباطية للانتدابات قطّعت أوصال ما كان يشكّل كياناً جغرافياً واقتصادياً وثقافياً واحداً، يمتد من جبال طوروس شمالاً إلى شبه جزيرة سيناء في الجنوب، وتوجد دمشق في مركزه. وكان وعد بلفور قد تعهّد بتقديم الدعم البريطاني لإنشاء "وطن قومي يهودي" في فلسطين- أي في جنوب سوريا- في حين أن إنشاء لبنان الكبير سلخ عن سوريا قسماً كبيراً من ساحلها على البحر المتوسّط، بما في ذلك موانئ طرابلس وبيروت وصيدا المهمة. وقسّم ما تبقى إلى دويلات عمل الفرنسيون على تشجيع المشاعر الانفصالية فيها لدى الأقليات مثل الدروز والعلويين.

لذا لم يكن من المفاجئ أن يتحد رياض والحاج أمين معاً في مواجهة الانتدابين البريطاني والفرنسي، والتصدّي للتهديد المصاحب لوعد بلفور. فهما يعتبران فلسطين جزءاً لا يتجزأ من العالم العربي، ويحظى استقلالها بأهمية مركزية للآمال العربية مثل استقلال سوريا ولبنان. فإذا سقط هذا الجسر البري الحيوي بين جناحي العالم العربي في آسيا وأفريقيا في أيد أجنبية، فسيلحق ضرر لا يمكن إصلاحه بأمن الأمة العربية بأكملها. ولا تكون أي رواية عن حياة رياض الصلح منذ عشرينيات القرن

الماضـــي فصاعداً كاملة من دون الإشارة إلى مخاوفه من المشروع الصهيوني في فلسطين التي تنمّ عن بصيرة ثاقبة.

قـــدّم البريطانيون للصهاينة الحماية التي مكّنتهم من الاستيلاء على فلسطين شيئاً فـــشيئاً، مـــا ولّد إحساساً بالضيق والكرب لدى سكانها العرب. كان رياض يعرف، حـــتى في ذروة مواجهـــته مع الفرنسيين، أن سيطرتهم الاستعمارية على سوريا ولبنان مؤقـــتة بحكم طبيعتها؛ فليس هناك مستوطنون فرنسيون يشترون الأراضي في سوريا، ولا تـــشريد أو تدمير للفلاحين العرب، ولا مشروع استعماري طويل الأمد تخطط له فرنـــسا وتمـــوّله. فعلـــى الفرنسيين الرحيل عاجلاً أم آجلاً، وكان رياض عازمًا على تعجـــيل رحيلهم. لكن فلسطين قضية أكثر إلحاحاً وصعوبة بكثير. فطابعها العربـــي القـــديم يتعـــرّض للتدمير من أجل استيعاب مصطنع لسكان أوروبيين دخلاء. كما لم يكن أي تطوّر في أي مكان في المنطقة يثير قلقاً وجودياً لدى القوميين العرب بقدر ما يثيره ما يجري فلسطين، ويدفعهم إلى اتخاذ تدابير أكبر وأكثر استماتة.

عـــرف رياض اليهود في نشأته وتعلم الكثير عن الصهيونية. فعندما كان يافعاً في بدايـــة القـــرن العشرين، غالباً ما كانت أمه تصطحبه لتمضية الشتاء في مزرعة يملكها آل الحـــسيني في أريحـــا؛ وهم أصدقاء مقربون إلى والدته. وهناك التقى رياض بموسى شرتوك، الذي أصبح موشي شاريت لاحقاً، وتولّى منصب وزير خارجية إسرائيل من سنة 1948 إلى سنة 1956، ورئيس الوزراء من سنة 1954 إلى سنة 1955. هاجر والدا شـــرتوك إلى فلسطين قادمين من روسيا في سنة 1906؛ وعمل والده مزارعاً صغيراً في مـــزرعة عائلة الحسيني حيث أمضى موسى شرتوك طفولته، واختلط بالأولاد العرب وتعلـــم اللغة العربية. التقى رياض وموسى، وكلاهما من مواليد سنة 1894، في ذلك الـــوقت، والـــتحقا بكلية الحقوق عينها في جامعة استانبول في سنوات ما قبل الحرب العالمية الأولى.

مـــن الـــشبان اليهود الآخرين الذين درسوا الحقوق أيضاً والتقى بهم رياض في اســـتانبول، ديفيد بن غوريون الذي أصبح في ما بعد أول رئيس للوزراء في إسرائيل. لكـــن لم تنشأ بينهما سوى معرفة عابرة إذ كان رياض في السابعة عشرة من العمر في ذلـــك الـــوقت، فيما كان بن غوريون في العشرينيات وشديد الانغماس في السياسة

الصهيونية. وُلد بن غوريون في بولندا في سنة 1886 وقدم إلى فلسطين في سنة 1906، أي في السنة نفسها التي وصلت فيها عائلة شرتوك. أُرسل للدراسة في استانبول عقب ثورة تركيا الفتاة في سنة 1908. كان لديه طموح سياسي كبير ويأمل في أن يصبح عضواً في البرلمان العثماني، بل حتى وزيراً في الحكومة التركية، بغية تحقيق هدفه البعيد بأن يصبح مدافعاً عن الصهيونية في أوساط الحكام الأتراك الجدد المتعاطفين مع اليهود على العموم.

يتحدّث بن غوريون، في كتابه "محادثاتي مع القادة العرب" *My talks with Arab Leaders*، عن علاقاته مع الطلاب الأتراك والعرب خلال السنوات التي أمضاها في استانبول. في صيف 1914، عاد بن غوريون مع طالب حقوق آخر، إسحاق بن زفي Yitshak Ben-Zvi، إلى فلسطين لتمضية الإجازة الصيفية. لكنهما لم يتمكّنا من البقاء هناك فترة طويلة، إذ ما إن اندلعت الحرب في شهر آب/أغسطس، حتى اكتُشف اسماهما في لائحة بالموفدين إلى المؤتمر الصهيوني. استجوبتهما السلطات التركية وأبعدتهما عن الإمبراطورية العثمانية بموجب أوامر من جمال باشا، القائد العام الجديد للجيش والحاكم الشرس لولاية دمشق، الذي كان مصمّماً على إخماد أي تعبير عن قومية محلية، سواء أكانت يهودية أم عربية أم أرمنية[1].

أدرك رياض التهديد الصهيوني لفلسطين في سني مراهقته. ونبّه والده، رضا الصلح، أمام البرلمان العثماني إلى الخطر الذي يشكّله الاستيطان اليهودي المتسارع الذي يتميّز بحسن التمويل والتنظيم. لذا منذ أن أعلن عن النظام الجديد للانتدابات ما بعد الحرب، اهتمّ رياض بمعرفة ما يريد الصهاينة من فلسطين، وما مدى الدعم الذي تنوي بريطانيا تقديمه إليهم. هذه هي التساؤلات التي كانت تدور في خلد رياض عندما سافر، وهو في الثامنة والعشرين من العمر، إلى لندن في تشرين الثاني/نوفمبر 1921، لعرض خدماته ومعرفته بالشؤون الدولية على موسى كاظم الحسيني، رئيس بلدية القدس سابقاً، الذي كان يجري محادثات مع الزعيم الصهيوني الدكتور حاييم وايزمان تحت رعاية بريطانيا. عقدت المحادثات على خلفية توتّر شديد، إذ تكرّرت الاشتباكات بين العرب واليهود في القدس مع اقتراب ذكرى وعد بلفور في ذلك

(1) David Ben-Gurion, *My Talks with Arab Leaders*, Jerusalem 1972, p.4.

الشهر. لفت رياض الصلح انتباه وايزمان باعتباره ابن وزير الداخلية السابق في حكومة الملك فيصل، وسياسي صاعد. ومن الواضح أنه أثار اهتمامه بالقدر الكافي ليعقد معه محادثات خاصة[1].

عُقد اجتماع في 7 تشرين الثاني/نوفمبر، حضره من الجانب الصهيوني إلى جانب وايزمان، جيمس دو روتشيلد وإيتامار بن آفي Itamar Ben-Avi، محرر صحيفة "دوار هايوم" والناشط في أوساط المستوطنين اليهود في فلسطين (الياشوف). وقد أعدّ بن آفي وثيقة بعنوان "اتفاق مقترح بين العرب واليهود" كأساس للمباحثات، وهي تقوم على مقايضة مقترحة: يقدم الصهاينة للعرب "دعماً مادياً ومعنوياً" لتحقيق "طموحاتهم القومية المشروعة"، مقابل أن يقدّموا الدعم لليهود في إنشاء "وطن قومي" في فلسطين.

كان هدف رياض الرئيسي من قبول الاجتماع بوايزمان معرفة إمكانية تعبئة النفوذ السياسي للصهاينة للحؤول دون أن تقرّ عصبة الأمم الانتداب على سوريا ولبنان. فقد كان يريد، على غرار القوميين العرب الآخرين في تلك الفترة، إلغاء الانتدابات وإحلال دولة عربية اتحادية محلها. فإذا وافق الصهاينة على مساعدة العرب في تأمين هذا الهدف الحيوي، فإنه مستعد للموافقة على هجرة يهودية محدودة إلى فلسطين. لكن المحادثات باءت بالفشل. أصرّ رياض على أن تضم وثيقة بن آفي فقرة تستبعد إنشاء دولة يهودية في المستقبل. و لم يكن من المستغرب أن يصرّ وايزمان، الذي كرّس كل طاقاته السياسية لتحقيق تلك الغاية، على أن من الأفضل ترك الأمور وشأنها في هذه القضية بالتحديد. وقال مراوغاً إنه لا يستطيع تقديم التزام عن الأجيال القادمة للمهاجرين اليهود. فردّ رياض معبّراً عن اعتقاده في أن هدف وايزمان النهائي هو إقامة دولة يهودية[2].

لم يشعر رياض بالرهبة أمام القائد الصهيوني الذي يبدو أنه استمع إليه باحترام، على غير عادته بعض الشيء. فقد كان وايزمان يميل، في تعاملاته مع العرب، إلى التكبّر، بل الصلف، كما لو أنه يخاطب عدواً مهزوماً. ويبدو أن شعوره بالتفوّق ينبع من إنجازاته الشخصية، على الصعيدين العلمي والاجتماعي- وهي إنجازات كان

(1) Neil Caplan, *Futile Diplomacy*, Vol. I, London 1983, pp. 54ff.

(2) Laurens, *La Question de Palestine*, Vol. I, p. 592.

فخـــوراً بهـــا أشد الفخر- فضلاً عن نجاحه الملحوظ في كسب دعم القوة الإمبريالية العظمـــى في ذلـــك الوقت للطموحات الصهيونية. وكان ينتظر من بريطانيا أن تُجبر العـــرب على قبول البرنامج الصهيوني، سواء أأحبّوا ذلك أم كرهوه. مع ذلك، كان حريـــصاً دائمـــاً علـــى عـــدم إثارة عداء العرب، لذا نادراً ما كشف البعد الكامل لطمـــوحاته، وهي على حدّ قوله جعل فلسطين يهودية مثلما إنكلترا إنكليزية وأميركا أميركية.

اســـتؤنفت اتـــصالات رياض بالصهاينة في القاهرة في آذار/مارس 1922، ثم بعد ذلـــك بشهر، حين انضم إلى الشيخ رشيد رضا وكامل القصاب وإميل خوري، الذين وصـــفوا أنفسهم بأنهم اللجنة التنفيذية لحزب الاتحاد السوري، لعقد جولة أخرى من المحادثات[1]. لكن هذه المحادثات وصلت في حزيران/يونيو إلى طريق مسدود أيضاً، لأن الـــصهاينة خافـــوا مـــن تنفير رعاتهم البريطانيين الذين سعوا جاهدين للحصول على صـــداقتهم. ولم يكن لديهم أي نية لإلغاء انتدابات عصبة الأمم، كما طلب العرب، لأنهـــم بحاجة إلى حماية الانتداب في فلسطين لمصلحة مشروعهم الخاص. كما لم يكن باســـتطاعتهم، في تلـــك الظـــروف، إغضاب الفرنسيين بتحدي انتدابهم على سوريا ولبنان. بل إنهم رأوا أن مجرد الاتصال بالوطنيين العرب من أمثال رياض الصلح، يهدد بتصنيفهم في المعسكر المناهض لفرنسا، فتراجعوا.

في ذلك الوضع الغامض، حين كان يجري رسم خريطة الشرق الأوسط الجديدة، وقـــع جـــدال حاد بين الوطنيين من أمثال رياض الصلح والحاج أمين حول موضوع اعتماد موقف المعارضة التامة لسلطات الانتداب في دمشق وبيروت والقدس أو محاولة الـــتعاون معها لمصلحة العرب. لم يقدّم رياض طوال سنوات ما بين الحربين أي تنازل لمـــسايرة اللعـــبة السياسية الفرنسية في سوريا ولبنان. غير أنه كان مستعداً دائماً لعقد مباحـــثات مـــع المسؤولين والسياسيين الفرنسيين، وحريصاً على التأثير في الرأي العام الفرنسي بكل الوسائل الممكنة. لكن موقف الحاج أمين كان مختلفاً بعض الشيء. فقد عيّـــنه الـــبريطانيون في منـــصب المفـــتي الأكبر واشترطوا صراحة أن يستخدم نفوذه للمحافظـــة على النظام العام في القدس. ومع أنه عرّف نفسه كقومي عربـــي ووطني

(1) Caplan, *Futile Diplomacy*, p.55

فلسطيني، فقد وافق على الدخول في نوع من التعاون مع سلطة الانتداب. وبقي ملتزماً بالجزء المتعلّق به من الاتفاق، لكن الهجرة اليهودية الواسعة وشراء الأراضي جعلته في موقف لا يُطاق، فثار على البريطانيين.

محاولة احتواء الصهاينة

في أوائل العشرينيات، بدا كأن الأمير عبد الله، الابن الثالث للحسين ملك الحجاز، قدّم للفلسطينيين عكّازاً يتوكّؤون عليه. فقد قدم إلى شرق الأردن عبر سكة حديد الحجاز وأقام إدارة متواضعة في عمان. ومن هناك هدّد بالزحف على دمشق لاسترجاع عرش أخيه فيصل المفقود من الفرنسيين. ولإقناعه بالاستكانة، قدّم له البريطانيون إعانة مالية صغيرة، ولكن غير كافية لإبعاده عن الخطط الصهيونية. كان عبد الله يطمح إلى تسميته ملكاً على شرق الأردن وسوريا وفلسطين أيضاً، لمجاراة إنجاز فيصل الذي عيّنه البريطانيون على عرش العراق بعد أن أطاح به الفرنسيون في سوريا. وفي مقابل ذلك، أبدى استعداداً للموافقة على مشروع "الوطن القومي لليهود" في فلسطين - أو عدم معارضته على الأقل. وقد اشتُبه على نطاق واسع بأنه قبل أموالاً من الصهاينة، بعد أن عقد عدة لقاءات سرية مع وايزمان في لندن في تشرين الأول/أكتوبر 1922.

كان عبد الله مستعدًا لمنح الصهاينة حقوقاً واسعة، تصل إلى حدّ السماح لهم بشراء الأراضي في شرق الأردن، إذا ما اعترفوا بسلطته وقدموا له إعانات مالية. غير أن البريطانيين اعترضوا على مثل هذه الصفقات في نهاية المطاف[1]. وربما كان والده الملك حسين، عاهل الحجاز، يشاركه أفكاره لأنه حين زار عمان في 18 كانون الثاني/يناير 1924 وطلب منه السير هربرت صاموئيل استقبال وفد صهيوني، قلّد الحاخام الأكبر المرافق للوفد الوشاح الأكبر من رتبة الاستقلال العربي[2].

---

(1) انظر Mandel, *The Arabs and Zionism*; N. Weinstock, *Le Sionisme contre Israël*, Paris 1969; Avi Shlaim, *Collusion Across the Jordan: King Abdallah, the Zionist Movement, and the Partition of Palestine*, Oxford 1988; Henry Laurens, *La Question de Palestine*, vol. II, *1922-1947: Une mission sacrée de civilization*, pp. 289- 290.

(2) Laurens, *La Question de Palestine*, vol. II, p.52.

كان رياض على علم بهذه الاتصالات، وأراد أن يستطلع إذا كان عقد اتفاق بين الهاشميين والصهاينة يحمي مصالح العرب الأساسية، أو يضرّ بها. فسافر إلى عمان عدة مرات في أوائل العشرينيات محاولاً معرفة ما يمكن أن ينطوي عليه مثل هذا الاتفاق. وكان يميل إلى الاعتقاد بأنه ربما يوجد مجال لجيب يهودي يحظى باستقلال ذاتي إذا قدّم الصهاينة الدعم لإنشاء اتحاد عربي يضمّ سوريا وفلسطين وشرق الأردن. بل إنه وافق، بناء على ذلك، على العمل وسيطاً إذا اقتضى الأمر بين عبد الله والصهاينة[1]. وربما في تلك الفترة، اتصل به كالفارسكي Kalvarisky، رئيس الدائرة العربية في الوكالة اليهودية الذي عهدت إليه القيادة الصهيونية بمهمة إيجاد محاورين عرب مستعدين للتباحث معها. تعرّف رياض إلى كالفارسكي وعقدا عدة اجتماعات على مرّ السنين لم تسفر عن شيء يذكر، لأن موقفيهما السياسيين متباعدان تماماً.

كان حاييم وايزمان يميل إلى فكرة عقد اتفاق مع الهاشميين، لكن أراد بطبيعة الحال تضمينه طموحاته البعيدة جداً. فأوضح أنه مستعد لتقديم المساعدة الاقتصادية والسياسية إلى اتحاد عربي محتمل، إذا قدّم العرب في المقابل حيّزاً واسعاً لإقامة "وطن قومي لليهود". لكن هذه المقايضة المقترحة يشوبها عيب أساسي. فقد طُلب من العرب التخلّي عن مساحة واسعة من الأرض للصهاينة مقابل وعود وهمية بتقديم المساعدة إلى اتحاد عربي مفترض.

على أي حال، لقي الهاشميون انتكاسة مدمّرة بعد بضعة أشهر بتعرُّض الملك حسين لهزيمة نكراء. فعندما ألغى مصطفى كمال، رئيس الجمهورية التركية الجديدة، الخلافة العثمانية في 3 آذار/مارس 1924، وجد الحسين الفرصة سانحة ليعلن نفسه خليفة للمسلمين، وطلب من العالم الإسلامي ذكر اسمه في الدعاء في المساجد. لكن هذا الادعاء أغضب المسلمين في الهند، بالإضافة إلى الملك فؤاد عاهل مصر (ربما كانت لديه طموحاته الخاصة في هذا الاتجاه)، وكذلك ابن سعود، القائد الصاعد لشبه الجزيرة العربية. حثّ ابن سعود الحسين على نبذ الخلافة وأي محاولة لفرض هيمنته على العرب. وفي نهاية المطاف، أرسل قواته البدوية المقاتلة، "الإخوان"، لمهاجمة

(1) MAE, Nantes, Jerusalem, 101, Bulletin de Renseignement, no 54, 17 September 1923. نقلا عن Laurens, *La Question de Palestine*, vol. II, pp. 51-2

الحجـــاز. فألحقت به هزائم متتالية أسفرت عن بسط عبد العزيز حكمه على الحجاز بأكمله وطرد الحسين في نهاية العام التالي.

على الرغم من الضربة القاسية التي تلقتها العائلة، ظل الأمير عبد الله عدة سنوات يأمـــل في توحيد المشرق تحت عرشه، لكن مناهضة ابن سعود والمصريين والفرنسيين والـــسوريين الوطنـــيين، وبـــرود البريطانيين، بالإضافة إلى التقدم الكبير الذي أحرزه الصهاينة، أفرغت هذا الطموح من أي مصداقية حقيقية. كما أن العديد من القوميين العـــرب، ومـــن بينهم الحاج أمين، نأوا بأنفسهم في ذلك الوقت عن الهاشميين وعلقوا آمالهم على ابن سعود. ظل فيصل، ملك العراق، يحظى بقدر من الاحترام، لكن ذلك لم يعـــد ينطبق على أخيه عبد الله، أو والدهما الحسين، ربما بسبب استعدادهما للتقارب مـــع الـــصهاينة. تـــردّد ريـــاض الصلح في الانضمام إلى أي من معسكر الهاشميين أو الـــسعوديين، لكنه أدرك تماماً أن صراعهما المرير يضعف موقف العرب كثيراً ولا يفيد إلا القضية الصهيونية.

في أوائـــل سنة 1924، استأجر رياض غرفة في نـــزل عائلي في جبل الكرمل في حـــيفا، بانـــتظار صدور عفو فرنسي يتيح له العودة إلى سوريا ولبنان. فزاره موسى شرتوك، بعدما عرف بوجوده من خلال عائلة الحسيني، وأقنعه بمرافقته إلى القدس للقاء الدكـــتور وايـــزمان ثانـــية. وفي الطـــريق إلى هناك، لفت شرتوك انتباه رياض إلى المـــستوطنات الـــيهودية التي تنمو بسرعة، وتبنيها في السهول فرق ناشطة من الرجال والنساء والأطفال. أقنعت الرحلة إلى القدس، والاجتماع مع وايزمان، رياض بتصميم الـــيهود الأوروبيين الجامح على السيطرة على فلسطين العربية، وعجزِ العرب المأسوي عن التصدي لهذا التهديد[1]. وأدرك الآن أن الطموحات الصهيونية أكبر بكثير مما كان يتـــصوّر: إنهـــم يريدون فلسطين بأكملها، وضفتي نهر الأردن، أو قدر ما يستطيعون الاستيلاء عليه على الأقل. وفي 28 شباط/فبراير 1928، فصلت بريطانيا شرق الأردن عن فلسطين بموجب معاهدة تعترف بالأولى كدولة مستقلة في إطار الانتداب.

شـــهدت الفترة ما بين سنتي 1924 و1927 موجة الهجرة اليهودية الرابعة، حيث تدفّق آلاف اليهود المهاجرين من أوروبا وروسيا إلى فلسطين، بالإضافة إلى موارد مالية

(1) Alia el- Solh, *Le Jour* 14 November 1965.

ضخمة للمساعدة في توطينهم. في ذلك الوقت، لم يكن بالإمكان ردم الهوة التي تفصل بين العرب واليهود بسهولة. غادر هربرت صاموئيل فلسطين في 1 تموز/يوليو 1925، أي قبل بضعة أسابيع من اندلاع الثورة السورية الكبرى التي أطاحت بنظيره الفرنسي في دمشق، الجنرال ساراي. وكان على رياض، طوال تلك السنوات، أن يعيش في صراع بين إعلان معارضته التامة لفكرة إقامة "وطن قومي لليهود"، كما تملي عليه فطرته، أو اعتماد نهج أكثر حذراً وتعقلاً من الناحية السياسية، يقوم على حقائق القوة. كان لديه ما يكفي من البراغماتية ليدرك أن المشروع الصهيوني المدعوم من البريطانيين أصبح في أواسط العشرينيات عميق الجذور بحيث من الصعب على العرب، وهم على ما هم عليه من انقسام، إن لم يكن من المستحيل، اقتلاعه من جذوره. فبين نهاية الحرب العالمية الأولى وسنة 1925، تضاعف عدد اليهود في فلسطين ثلاث مرات من 55,000 نسمة إلى ما يفوق 150,000 نسمة. وأصبحوا يشكلون 16 بالمئة من السكان. وبما أنه لم يعد يمكن إلحاق الهزيمة بالصهاينة، فقد رأى رياض أن المهمة الملحّة هي محاولة احتوائهم. واتضح ذلك على نحو محزن حين أعادت بريطانيا تأكيد التزامها بوعد بلفور، عند التصديق على شرعة الانتداب على فلسطين في 22 تموز/يوليو 1922.

أصبحت استراتيجية رياض بعد ذلك محاولة حماية مصالح العرب الأساسية عن طريق تقييد طموحات الصهاينة في إطار عربي. وهكذا، فإن النضال ضد تنامي الوجود الصهيوني، بالإضافة إلى الأحداث المثيرة مثل الثورة السورية وثورة عبد الكريم في المغرب ضد فرنسا وإسبانيا، دفعته هو والحاج أمين للتظاهر ضد بريطانيا وفرنسا، والدعوة إلى المقاومة وتنظيم تحرّكات التضامن الدولي، ما أكسبهما شهرة كحاملين لراية القضية العربية. وكان حلمهما إقامة أمة عربية موحّدة قوية ولديها القوة الكافية للتصدي للقوى الغربية والصهاينة على الفور. وهذه الرؤية تتجاوز الحدود المصطنعة التي أنشأتها الانتدابات وتصل إلى العالم العربي بأكمله. لقد كان رياض الصلح شديد الإعجاب بالأمير شكيب أرسلان، رئيس المؤتمر السوري الفلسطيني، وعمل إلى جانبه عدة سنوات، لا بسبب وطنية أرسلان الثابتة والتزامه الشخصي فحسب، وإنما لأنه هو أيضاً يعتبر البلدان العربية، بل العالم الإسلامي، جسماً واحداً يواجه التهديد نفسه.

في العقــد التالي، كانت حجة رياض تقوم على أنه إذا تمكّن من إقناع الصهاينة بوضــع ثقلــهم الــسياسي والمالي خلف قضية استقلال عربــي يجمع سوريا ولبنان وفلــسطين وشرق الأردن، فإنه سيتمكّن من التوصّل إلى "وعد بلفور عربــي" يمنح بموجــبه اليهود "وطناً" داخل هذا الكيان العربــي الواسع والواثق. فعرض ذلك على ديفيد بن غوريون وموسى شرتوك في سنة 1934، وعلى حاييم وايزمان نفسه في سنة 1936، معــتقداً أن في وسعه إقناع عرب فلسطين بقبوله. لكن الصهاينة كانت لديهم أهــدافاً أبعــد من ذلك بكثير. كانوا يريدون فلسطين بأكملها، لا جيباً صغيراً داخل اتحاد عربــي، أو كياناً يعتمد بقاؤه على صداقة العرب[1].

ظل رياض مقتنعاً طوال العشرينيات والثلاثينيات بأن الحوار أفضل وسيلة للتوصل إلى معادلــة للــتعايش بين العرب والصهاينة. لكن سرعان ما اتضح له بجلاء أن ليس للصهاينة مصلحة في التوصل إلى تسوية مع العرب، على الرغم من خطابهم الذي يبدي استعداداً ظاهرياً لذلك. وعندما اندلعت الثورة الفلسطينية الكبرى في سنة 1936– وقد قمعها البريطانيون بوحشية بالغة – كان الوضع قد تدهور إلى حدٍّ يتعذّر إصلاحه. و لم تعد الطموحات الصهيونية الواسعة خافية على أحد. غير أن رياض الصلح أدرك آسفاً، عــن طريق هذه الاتصالات العقيمة، مقدار تمكّن الصهاينة من استقطاب الرأي العام الأوروبــي والأميركي لصالحهم، ومقدار ضعف العرب في إيصال قضيتهم إلى العالم. ومــع ذلــك، ظل يأمل بإمكانية إصلاح هذا الاختلال في التوازن. وتعلم الكثير عن ممارسة التأثير السياسي من مراقبة الأساليب الصهيونية. فقد حصل حاييم وايزمان على الدعم البريطاني، الذي تكلّل في وعد بلفور في سنة 1917، بتقديم حجّته في لندن لا في فلسطين، وعلى أعلى مستوى. و لم يغب هذا الدرس عن انتباه رياض البتة.

"فلسطين الكبرى" كما رآها وايزمان

من القضايا التي شغلت رياض الصلح على وجه الخصوص الطموح الصهيوني إلى إنشاء مستعمرات يهودية خارج حدود فلسطين في سوريا وجنوب لبنان. فطالما كان

(1) Laura Zitrain Eisenberg, My *Enemy's Enemy: Lebanon in the Early Zionist Imagination, 1900- 1948*, Detroit 1994, p. 66; Beydoun, 'Riad el- Solh et les .elections legislatives de 1943', p. 405, n 10

وايزمان يسعد بفكرة "فلسطين الكبرى"، وحاول مراراً إقناع الفرنسيين بالسماح بإنشاء مستوطنات يهودية في الجولان وحوران، بالإضافة إلى لبنان وصولاً إلى نهر الليطاني. وقد سعى بعض اليهود السوريين الأثرياء المنتمين إلى الصهيونية إلى شراء الأراضي في تلك المناطق، وطالبت الصحافة الصهيونية بضمّها.

في باريس، عرض وايزمان حجّته على هنري دو جوفنيل، المفوّض السامي الفرنسي في سوريا ولبنان، عندما اجتمع به في تشرين الثاني/نوفمبر 1925 في منزل القائد الاشتراكي الفرنسي، ليون بلوم Leon Blum، اليهودي المتعاطف مع الصهيونية. وفي نيسان/أبريل 1926، عقد وايزمان اجتماعاً آخر مع جوفنيل، في بيروت هذه المرة، في أعقاب زيارة رسمية قام بها المفوّض السامي الفرنسي إلى فلسطين قبل شهر. حاول وايزمان إقناع جوفنيل بالموافقة على الاستيطان اليهودي في الأراضي الواقعة تحت الانتداب الفرنسي. ولكن الفرنسيين الذين كانوا يجهدون لإخماد الثورة السورية الكبرى، ترددوا في تقديم تنازلات للصهاينة تثير مزيداً من الغضب لدى العرب. ترك جوفنيل منصبه في تشرين الأول/أكتوبر 1926، فأسقط خلفه تلك الفكرة. لكن وايزمان لم يكن مستعداً للتخلّي عنها.

انبثقت فكرة توسيع الاستيطان اليهودي عبر الحدود داخل سوريا ولبنان من قيام المؤسسات الصهيونية، مثل الصندوق القومي اليهودي وشركة تطوير أراضي فلسطين، بشراء أراضٍ واسعة في شمال فلسطين. وقد وجدت بائعين لأنها مستعدة لدفع أسعار أعلى من سعر السوق، والأهم من ذلك أن الحدود الاصطناعية التي أقامها الانتدابان البريطاني والفرنسي عزلت مالكي الأراضي السوريين واللبنانيين عن أراضيهم في فلسطين. بل إن غالبية مبيعات الأراضي في السنوات الرئيسية الأولى، 1920 - 1927، قام بها مالكون غائبون غير فلسطينيين. ومن الصفقات الكبيرة شراء الصهاينة نحو 240,000 دونم في المنطقة الممتدة بين حيفا ووادي الأردن[1]. وفي وقت لاحق، أي في ثلاثينيات القرن العشرين، أصبح البائعون من صغار الفلاحين الذين أرهقتهم الديون وأجبرتهم على البيع. وتسارعت وتيرة الشراء عندما هرب رأس المال اليهودي من ألمانيا إلى فلسطين، وهو ما سهّلته اتفاقية "هافارا" التي عقدت بين النازيين

(1) Laurens, *La Question de Palestine*, vol. II, pp 145- 147.

والـــصهاينة[1]. وقدّم المحسنون اليهود مثل عائلتي روتشيلد ومونتيفيوري، قسماً كبيراً من الأموال، بينما قدّمت بريطانيا الأمن المادي والغطاء السياسي. وهكذا أخذت فكرة "الوطن القومي اليهودي" تتحول بسرعة إلى واقعٍ ملموس.

شـــجّع الارتفاع الذي شهدته الهجرة اليهودية في الثلاثينيات وايزمان على إعادة إحياء فكرته بشأن "فلسطين الكبرى" التي تضمّ أجزاء من سوريا. فتوجّه إلى باريس في حزيــران/يونـــيو 1933 لإقـــناع الحكومة الفرنسية بتخفيف معاناة اليهود الأوروبيين بالـــسماح باســـتيطان اللاجئين اليهود في الجانب السوري من بحيرتي طبرية والحولة. وكبديل عن ذلك، اقترح تقديم "المساعدة" كي "تسفّر" فرنسا عرب فلسطين إلى هذه المناطق السورية، لإفساح مجال أوسع لليهود الأوروبيين في فلسطين! وبعد فترة قصيرة، عـــاد إلى باريس للحصول على دعم ليون بلوم لهذه الفكرة. فنصحه بلوم سراً بشراء أكـــبر قـــدر ممكن من الأراضي في سوريا ولبنان لفرض الواقع على الأرض[2]. لكن وزارة الخارجـــية الفرنـــسية ظلّـــت غير مقتنعة بذلك. وحين زار داميان دو مارتيل، المفوّض السامي في بيروت، فلسطين في كانون الثاني/يناير 1934، أبلغ نظيره البريطاني أن الفرنـــسيين لـــن يسمحوا لليهود الأوروبيين بالاستيطان في سوريا، لأن السكان المحلـــيين لـــن يتقـــبلوا ذلك البتة. أما بشأن تهجير الفلاحين الفلسطينيين الذين فقدوا أراضيهم إلى سوريا ولبنان، فإن ذلك سيؤدي إلى إثارة غضب العرب على نحو مبرّر. وفي 18 كانـــون الثاني/يناير 1934، أصدر داميان دو مارتيل مرسوماً بالرقابة الإدارية علـــى جمـــيع مبيعات الأراضي على الحدود السورية واللبنانية مع فلسطين، تجاوباً مع مخاوفه من مثل هذه المخططات، بالإضافة إلى مخاوف السكان المحليين.

غـــير أن وايزمان رفض أن يهزم بسهولة. وفي أوائل سنة 1934، انهمك في جمع الأمـــوال لـــشراء أرض ســـورية كبيرة قرب الحدود الفلسطينية، وأعلن أن السلطات الفرنسية وافقت على هذه الصفقة. وعندما شكّك المفوّض السامي الفرنسي في بيروت في آذار/مارس 1934 في ذلك، ادّعى وايزمان عدم النظر في هذه الصفقة. غير أنه أبلغ

(1) Edwin Black, *The Transfer Agreement: the Dramatic Story of the Pact between the Third Reich & Jewish Palestine*, Washington 1984 (new edn 1999); Nicosia, *The Third Reich and the Palestine Question*; N. Weinstock, *Le Sionisme contre Israël*.

(2) Laurens, *La Question de Palestine*, vol. II, p. 268.

القنصل الفرنسي في القدس في الشهر نفسه، أن المستعمرات اليهودية القوية في سوريا توفّر الأمن للهجرة اليهودية إلى شرق الأردن، حيث يستطيع اليهود أن يستوطنوا في مجموعات تضم 10,000 نسمة في كل مرة. أثار إصرار وايزمان على الترويج لخططه استياء وزارة الخارجية الفرنسية في باريس والمفوّض السامي الفرنسي في بيروت، فاعتُبر شخصاً غير مرغوب فيه.

فيما كان الصهاينة يوسّعون حيازاتهم في فلسطين باطراد، حاولوا إقناع القادة العرب بأن تموّل الوكالة اليهودية إعادة توطين المزارعين العرب الذين فقدوا أراضيهم وعائلاتهم، خارج فلسطين. وهكذا أثيرت فكرة "التهجير" للمرة الأولى، حيث رأى الصهاينة أن شرق الأردن والعراق يشكّلان احتياطياً يمكن استخدامه لإيواء الفلاحين الفلسطينيين الذين فقدوا ممتلكاتهم. بل إن كالفارسكي، الذي كانت مهمته سبر آراء العرب في مثل هذه القضايا، اتصل برياض الصلح وحاول إقناعه "بفوائد" مثل هذا التعاون بين العرب واليهود. لكن رياض الصلح اعترض بشدّة على هذه المقولة.

أدرك الحاج أمين أنه يخوض معركة خاسرة في فلسطين، فكتب إلى رياض في بيروت، يحثه على التدخّل لمنع التوسّع الصهيوني في سوريا ولبنان. وورد في إحدى هذه الرسائل التي تم حفظها حتى اليوم:

صاحب السعادة، الوطني العظيم والمحترم، رياض بك الصلح،

علمنا أن بعض الكفرة يعرضون بيع قطعة أرض واسعة عند المنارة وحُنين في منطقة الحولة، ناقلين حقوق الملكية من العرب إلى اليهود.

إذا حصلت هذه الصفقة - لا قدّر الله - فستعرّض المنطقة إلى خطر شديد جداً لأنها ستغيّر طابعها العربي وتعطيها مظهراً يهودياً، وستتسبّب في الوقت عينه بخروج مئات العائلات العربية التي تعيش هناك وتزرع الأرض.

لذا نرجو منكم أن تبذلوا قصارى جهدكم لإحباط هذه المحاولة التي يقوم بها اليهود وأعوانهم، والمحافظة على بقاء هذه الأراضي بأيدي العرب. ولدينا أمل كبير في أن تثمر جهودكم وتؤدي إلى حماية هذه الأرض.

رئيس المجلس الإسلامي الأعلى

محمد أمين الحسيني

أزمة حائط البراق

ثمة قضية ملتهبة أخرى جمعت بين الحاج أمين ورياض الصلح أيضاً، وهي الخلاف على وضع الحائط الغربي للحرم القدسي الشريف، أو البراق، آخر أثر للهيكل الثاني، على ما يزعم اليهود، حيث يتوافد اليهود للصلاة منذ أواخر العصور الوسطى. ويشكّل هذا الحائط للمسلمين جزءاً لا يتجزأ من حرم المسجد الأقصى، لأنه أنشئ في عهد صلاح الدين الأيوبي بمثابة وقف إسلامي لصالح الحجاج المغاربة. وقد اندلع العنف في تلك البقعة في سنة 1929 نتيجة تزايد غضب العرب وإحباطهم من الهجرة اليهودية الواسعة النطاق، وشراء الأراضي التي تحرم الفلسطينيين من ممتلكاتهم.

يمكن القول إن الأزمة بدأت في شهر آب/أغسطس السابق، حين نظّم الحاج أمين احتفالاً ضخماً بمناسبة اكتمال المرحلة الأولى من إعادة ترميم المسجدين في الحرم القدسي، حضره مسلمون بارزون من جميع أنحاء العالم. اعتبر الصهاينة ذلك الاحتفال مسيئاً واختاروا تلك اللحظة للمطالبة بالحائط. وكانت سلطات الوقف الإسلامي قد سمحت لليهود بالصلاة عند الحائط منذ قرون عدة، ولكنها لم تصرّح لهم بإحضار حواجز أو مقاعد أو أشياء أخرى يمكن أن ينظر إليها بمثابة إقامة كنيس، وبالتالي تمنحهم حقاً دائماً في الموقع.

في 23 أيلول/سبتمبر 1928، في عيد الغفران، وفي تحدٍّ متعمّد لهذا الترتيب القديم، وضع اليهود الأوروبيون حاجزاً عند الحائط لفصل النساء عن الرجال. أبلغ السكان العرب المحليون السلطات الدينية المسلمة على الفور بهذا الإجراء، فأمر الحاكم البريطاني الشرطة بإزالة الحاجز بالقوة. طالب الصهاينة سلطات الانتداب بأن تصادر حارة المغاربة المحيطة بالحائط (حاول إدموند دو روتشيلد شراءها بأكملها في 1918)، مدعين بأن إزالة الحاجز يهدد مشروع "الوطن القومي اليهودي" بأكمله.

رد الحاج أمين بعقد مؤتمر إسلامي في القدس في تشرين الثاني/نوفمبر، صدر عنه قرار يؤكّد أن الفلسطينيين حماة الأراضي المقدسة في القدس نيابة عن الأمة الإسلامية في جميع أنحاء العالم. وقد حضر المؤتمر العديد من الوطنيين السوريين، فيما قدم له رياض الصلح ورفيقاه في الوفد السوري الفلسطيني، الأمير شكيب أرسلان وإحسان الجابري، من مقرّهم في جنيف، دعماً قوياً. وأشاروا في رسالة أرسلوها في 7 تشرين

الثاني/نوفمبر إلى عصبة الأمم إلى القلق الشديد الذي عبّر عنه المؤتمر الإسلامي إزاء قانون أقرته الحكومة الفلسطينية في سنة 1924 يسمح بمصادرة الممتلكات للمصلحة العامة. فهل يسمح هذا القانون لليهود بتملّك الأماكن الإسلامية المقدسة؟ لذا طالب المسلمون بتعديل القانون وتعيين "مدّعٍ عام نـزيه يلتزم التمسّك بمبدأ الحياد الديني المطلق"(1).

حين وصل المندوب السامي البريطاني الجديد، السير جون تشانسلر John Chancellor، إلى القدس في كانون الأول/ديسمبر، انهالت عليه العرائض الصهيونية المطالبة بمصادرة الوقف بأكمله. فأصدر الخبراء القانونيون البريطانيون حكماً بأنه لا يمكن اعتبار الحائط "مكاناً مقدساً إسلامياً صرفاً" لأن لليهود الحق بالصلاة هناك. عندئذ عرض الحاج أمين قراراً عثمانياً صدر في سنة 1912، يمنع اليهود من إحضار أي شيءٍ معهم إلى الحائط. منذ البداية، اعتبر المسلمون أن محاولات اليهود توسيع حقوقهم عند الحائط خطوة أولية ترمي إلى الاستيلاء على الحرم القدسي، وهدم المسجدين وبناء هيكل يهودي في ذلك الموقع. وازداد تأجّج مشاعر العرب بالإعلان عن إنشاء الوكالة اليهودية في حزيران/يونيو 1929، كمؤسسة شبه حكومية لتعزيز قضية "الوطن القومي اليهودي" تحت الانتداب البريطاني؛ وقد صُدّق على القرار رسمياً بعد شهر واحد في المؤتمر الصهيوني السادس عشر في زيوريخ، الذي شكّل ذروة مسيرة حاييم وايزمان السياسية. والواقع أن وجود الوكالة اليهودية يرجع إلى سنة 1923 على ما يبدو، إذا لم يكن قبل ذلك، عندما تولّت مهمة تمثيل الجالية اليهودية المتنامية وإدارتها من المفوّضية الصهيونية.

على أي حال، أدّت المكاسب الصهيونية المستمرّة في السياسة وحيازة الأراضي، وما قابلها من خوف لدى العرب وفقدان ممتلكاتهم، إلى تدمير أي أمل في التعايش السلمي بينهم وبين اليهود إلى حدٍّ كبير. وهكذا تهيّأ المناخ المناسب لاندلاع الحريق. في أواسط آب/أغسطس، خرج شبان يهود ينتمون إلى حركة "بيطار" المتطرّفة في مظاهرة صهيونية عند الحائط، تلاها في اليوم التالي مظاهرة مضادة سار فيها نحو 2000 مسلم عند قبة الصخرة في الحرم القدسي. وانتشرت في الوقت نفسه تقريباً إشاعات

(1) المصدر نفسه، ص 153 - 54.

خبيـــثة عـــن مذبحة يوشك أن يرتكبها المسلمون بحق اليهود، وعن هجوم اليهود على الحـــرم. وفي أعقـــاب صلاة الجمعة في 23 آب/أغسطس، هاجم حشد غاضب حارة اليهود فقُتل بعض العابرين ودُمّرت العديد من الممتلكات. في الوقت نفسه، قتل شبان يهـــود بعض المواطنين العرب. وسرعان ما وجدت الشرطة نفسها عاجزة عندما امتد العـــنف إلى الخليل، حيث قُتل 67 يهودياً؛ ثم إلى صفد، حيث قُتل 20 يهودياً آخرين؛ ثم إلى حيفا. قال المسلمون إن الصهاينة افتعلوا المشاكل للحصول على ذريعة للاستيلاء علـــى الحرم. وقد شهد الأسبوع الواقع بين 23 و30 آب/أغسطس أعمال قتل مروّعة. وقـــد قُـــتل في الإجمال 135 يهوديًا و136 عربياً، علماً أن الشرطة البريطانية هي التي قتلت العدد الأكبر من العرب، فيما جُرح 340 يهودياً و240 عربياً آخرين[1].

ثـــارت المشاعر في كل أنحاء العالم العربـــي. فخرجت مظاهرة في دمشق في 26 آب/أغسطس تضامناً مع الفلسطينيين، ردّد المتظاهرون خلالها "فليسقط وعد بلفور"، وانـــتهت بـــصدامات مع الشرطة الفرنسية أسفرت عن سقوط بعض الضحايا. وفي القدس، خلص المندوب السامي، السير جون تشانسلر، إلى أن المصدر الرئيسي للتوتّر هـــو بيع الأراضي لليهود. فأراد أن يصدر قانوناً يحدّ من الشراء، لكنه واجه معارضة شرسة من نورمان بنتويش Norman Bentwich، النائب العام اليهودي المتعاطف جداً مـــع الـــصهاينة. وقد لجأ الفلاحون العرب، الذين أخرجوا من أراضيهم، إلى الأحياء الفقـــيرة في حـــيفا، حيث شنّ المناضلون من بينهم هجمات متفرقة على المستوطنات اليهودية الجديدة.

بـــدّدت أعمـــال القتل المتبادلة التي وقعت في سنة 1929 الأوهام بشأن التعايش الـــسلمي بـــين الـــيهود الأوروبيين والعرب في فلسطين. وبطبيعة الحال، بدأ اليهود الـــشرقيون في الدول العربية يواجهون بالشك والعداوة الصريحة. عندما دعا اليهود في فلسطين يهود العالم إلى الوقوف إلى جانبهم، قابل ذلك تأكيد على التضامن الإسلامي والهوية القومية العربية. وهكذا بدأت المواجهة بين العالم اليهودي والعالم الإسلامي التي لا تزال مستمرة بشراسة حتى اليوم.

(1) للاطلاع على تقرير معاصر عن العنف الذي اندلع في سنة 1929 كتبه المراسل الخارجي الأميركي المميّز جيمس فنسنت شيان، انظر James Vincent Sheean, *Personal History*, New York 1935.

أبلغ وايزمان - الذي يستطيع الوصول إلى رجال الدولة الغربيين أكثر مما يستطيع القادة العرب مجتمعين - البريطانيين أن حلّ هذه الأزمة يكمن في ترحيل عرب فلسطين إلى شرق الأردن. وفي اجتماع في لندن مع رئيس الوزراء البريطاني، رامزي مكدونالد، طالب وايزمان بتشكيل لجنة تحقيق مستقلّة لتحديد الجهة المسؤولة عن الاضطرابات ومعاقبة الفاعلين. بل طالب بوقاحة بمزيد من تأشيرات الهجرة، ودور أكبر لليهود في الإدارة الفلسطينية، وطرد جميع المسؤولين المعادين للصهيونية. فخضع البريطانيون لمطالبه. وفي 17 حزيران/يونيو 1930، أُعدم ثلاثة عرب لجرائم ارتُكبت في آب/أغسطس 1929، فيما مُنح عفو عن اليهودي الوحيد الذي حُكم عليه بالإعدام. فخرجت مظاهرات غاضبة تكريماً "لشهداء الإسلام".

استغل الحاج أمين، الذي كان على اتصال دائم مع رياض الصلح وغيره من القوميين العرب، هذه الأزمة لتعزيز موقعه في الساحة السياسية الفلسطينية والعربية. فاعتمد لغة معادية لبريطانيا، وأعلن أن الاستقلال لن يتحقق إلا باتحاد البلدان العربية، وتوقّع أن يتحقّق ذلك قريباً. فالاستقلال لا ينتزع سوى بالقوة. ومثلما حقّق رياض الصلح شهرة واسعة بفضل نضاله ضد الانتداب الفرنسي، ذاع صيت الحاج أمين خارج الحدود الفلسطينية بفضل دفاعه عن الحرم الشريف في القدس. ولمواجهة التهديد الصهيوني، دعا إلى دفن كبار الشخصيات الإسلامية في الحرم الشريف. ورأى أن جنازات هؤلاء تتيح فرصاً لمجيء القادة المسلمين إلى القدس للاجتماع وتبادل الآراء. وهكذا حضر عشرون ألف شخص في سنة 1931 جنازة الأمير محمد علي الهندي، وفي السنة نفسها دُفن في الحرم القدسي الشريف حسين، ملك الحجاز السابق.

المؤتمر الإسلامي العام وفشل انعقاد المؤتمر العربي

في ذلك العام أيضاً، فكّر الحاج أمين ورياض الصلح في عقد مؤتمر إسلامي كبير؛ لتركيز انتباه المسلمين على الوضع المتفجّر في فلسطين بسبب استمرار الهجرة اليهودية. ولتفادي إثارة عداء الهنود المسلمين، وافق الجنرال السير أرثر واكهوب Arthur Wauchope، المندوب السامي البريطاني الجديد الذي استلم منصبه في تشرين الثاني/نوفمبر 1931، على عقد هذا المؤتمر. توجّه رياض إلى القاهرة لبحث المشروع مع

أعضاء من اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني وغيرهم من الشخصيات البارزة، وإعداد جدول أعمال المؤتمر.

افتتح المؤتمر الإسلامي العام في القدس في 7 كانون الأول/ديسمبر 1931، في ذكرى الإسراء والمعراج، ودامت جلساته عشرة أيام. وقد حضره نحو 130 مندوباً من 22 بلداً، يجمع بينهم التضامن الإسلامي. قَدِم العديد منهم من فلسطين وسوريا، وجاء آخرون من العراق وإيران والهند. ووصف مؤرخ فلسطين الفرنسي، هنري لورنس، المؤتمر بأنه "لحظة حاسمة في تاريخ الإسلام في القرن العشرين"[1]. رأى المندوبون العرب في هذا المؤتمر فرصة للاحتفال بإنجازات القومية العربية – وقسم كبير منها ثمرة الحملات المستمرّة التي قام بها ثلاثي الوفد السوري الفلسطيني في جنيف. لكن لم يتمكّن زميلا رياض، شكيب أرسلان وإحسان الجابري، من السفر إلى القدس، ولكن رياض مثّلهما كما كتبا في ملاحظة ألحقت بقائمة المندوبين[2].

كانت الأهداف المعلنة للمؤتمر الدفاع عن الحائط الغربي وغيره من الأماكن الإسلامية المقدسة في القدس، وتأسيس شركة لحماية الأرض الفلسطينية، وإنشاء جامعة الأقصى الإسلامية (رداً على الجامعة العبرية التي افتتحت حديثاً في جبل المشارف)، وترميم سكة حديد الحجاز، ورفض سياسة بريطانيا المؤيّدة للصهيونية، واستمرار النضال ضد الهجرة والاستيطان اليهوديين. وقد لعب رياض دوراً مهماً في جلسات المؤتمر. وعُهد إليه بمهمة "الدعاية الخارجية"، أي التعريف بالمخاطر التي تواجهها فلسطين وسكانها العرب[3]. أما الحاج أمين، مفتي القدس

(1) Laurens, *La Question de Palestine*, vol. II, p. 227.

(2) في نهاية لائحة طويلة من المندوبين، توجد الملاحظة التالية باللغة الفرنسية:

Nous avons été invites, nous deux, members de la Délégation syro- palestinienne, à prendre part à ce congrès, mais pour certaines raisons et à notre grand regret, nous n'avons pas pu nous y render; et avons prié notre collegue Riad Bey Solh de représenter la delegation, ce qu'il a fait avec toute la dignité et la capacité qui ne lui ont jamais fait défaut.

(نحن [شكيب أرسلان وإحسان الجابري]، عضوا الوفد السوري الفلسطيني، دعينا للمشاركة في هذا المؤتمر، لكننا للأسف الشديد لم نتمكّن من الحضور لأسباب معينة. فطلبنا من رفيقنا رياض بك الصلح أن يمثّل الوفد، وقد فعل ذلك بشرف وكرامة على عادته).

(3) Alia el-Solh, *Le Jour*, 14 November 1965.

الأكبر، فقد لقي استحساناً شخصياً واكتسب هالة قومية إسلامية تتخطى الحدود الفلسطينية.

من القرارات التي اتُّخذت، قرار يدعو إلى عقد مؤتمر عربي، يرمي إلى التصدّي للسيطرة الصهيونية على فلسطين. لكن أين سيعقد هذا المؤتمر الثاني؟ لن تسمح بريطانيا وفرنسا بانعقاده في البلدان الخاضعة لسيطرتهما، مثل فلسطين نفسها وسوريا ولبنان. واستبعدت مصر لأنها لا تزال مترددة في السير على طريق العروبة، ولأن قيادتها عاجزة بسبب الصراع الدائر بين القصر وحزب الوفد الوطني. اعتُبر العراق مكاناً محتملاً لأنه يوشك أن يستقلّ عن بريطانيا، وكثير من الرجال المحيطين بالملك فيصل كانوا قوميين عرباً مناضلين. وفي أواسط سنة 1932، قدم سياسي عراقي بارز، وهو ياسين الهاشمي، إلى القدس حاملاً معه الخبر السار بأن العراق وافق على استضافة المؤتمر.

وعندما زار الملك فيصل أخاه عبد الله في تلك السنة، أسرع رياض إلى عمّان للقاء الملك والحصول على موافقته الشخصية. وتواصلت التحضيرات للمؤتمر في الثمانية عشر شهراً التالية. فأُرسل مبعوثون لطمأنة السعوديين بأن خصومهم الهاشميين لن يجنوا فائدة سياسية من المؤتمر، وفي أوائل شتاء سنة 1932-1933، أعطى ابن سعود موافقته على المؤتمر. فحُدد موعد المؤتمر في ربيع 1933. لكن عُرف عندئذ أن الملك فيصل يعتزم السفر إلى الخارج للمعالجة. فأرجئ المؤتمر، ثم صُرف النظر عنه تماماً عندما توفي فيصل في سويسرا في أيلول/سبتمبر 1933. على أي حال، كان البريطانيون قد أوضحوا في ذلك الوقت أنهم لن يسمحوا بانعقاد مثل هذا المؤتمر في بغداد.

شكّل موت فيصل، ثم إلغاء المؤتمر، إحدى الهزائم وخيبات الأمل الكثيرة التي عانى منها القوميون، مثل رياض الصلح، منذ الحرب العالمية الأولى. وعندما وصل جثمان فيصل إلى حيفا على متن باخرة لإكمال رحلة العودة براً إلى بغداد، حضرت أعداد غفيرة من الناس تكريماً لذكراه ومساهمته في القضية القومية.

العرب يعلّقون آمالهم على ألمانيا

رحّب العديد من العرب ببروز هتلر في كانون الثاني/يناير 1933، إذ بدا أنه يعد بإحداث تغيير في ميزان القوى الدولي[1] واعتُقد أن باستطاعة ألمانيا النازية أن تؤمّن ثقلاً موازناً لبريطانيا وفرنسا. بل إن بعضهم أمل أن تُضعف حرب جديدة في أوروبا القوى الإمبريالية، وتسمح للعرب بالحصول على استقلال حقيقي، وتجرّد الصهاينة من الحماية البريطانية، وبالتالي تضع حداً لفكرة "الوطن القومي لليهود". وأعرب الحاج أمين في عدة اجتماعات عقدها مع هنريش وولف Heinrich Wolff، القنصل العام الألماني في القدس، عن دعمه السياسات النازية، لا سيما المقاطعة المناهضة لليهود.

توجّه زميل رياض الصلح، الأمير شكيب أرسلان، إلى برلين في تشرين الثاني/نوفمبر 1934 في محاولة لكسب دعم ألمانيا للقضية العربية[2]. وطلب فوزي القاوقجي، الضابط العربي الذي قاد لاحقاً المتطوّعين العرب في فلسطين، من فريتز غروبا Fritz Grobba، السفير الألماني في بغداد، تقديم أسلحة ألمانية[3]. وسافر رياض نفسه إلى أنقرة في أواسط الثلاثينيات للاجتماع بالسفير الألماني، والاستعلام عن الدعم الذي يمكن أن ينتظره العرب من الألمان في كفاحهم لنيل الاستقلال[4].

كانت حجة العرب، في طلبهم مساعدة ألمانيا، أن الدولة العربية المستقلة في فلسطين ستكون حليفة لألمانيا، فيما الدولة اليهودية المستقلة ستكون عدواً لها. بيد أن العرب تفاجؤوا وخاب ظنّهم لأنهم لم يحرزوا أي تقدم يذكر مع الألمان. وأدركوا متأخّرين أن النازيين يتوخّون الحذر الشديد من فعل أي شيء يمكن أن يستعدي بريطانيا أو يضعف أمن الإمبراطورية البريطانية. بل إن مسايرة بريطانيا العظمى كانت حجر الزاوية في حسابات هتلر الاستراتيجية والإيديولوجية منذ بداية الحركة النازية، وبقيت كذلك حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية. وكان من أولى أولويات هتلر إخلاء

(1) Nicosia, *The Third Reich*, pp. 85 ff.
(2) المصدر نفسه، ص 88.
(3) المصدر نفسه، ص 101 - 102؛ انظر أيضاً خيرية قاسميّة (محرّرة) **فلسطين في مذكرات القاوقجي**، بيروت 1975.
(4) مقابلة مع علياء الصلح، مونتي كارلو، 5-6 تشرين الأول 2004.

ألمانيا من اليهود، لا معارضة السيطرة الفرنسية أو البريطانية على الأراضي العربية. لذا شُجّعت الهجرة اليهودية من ألمانيا إلى فلسطين بدلاً من وقفها[1].

لم يعــارض القــادة الصهاينة هذه الناحية من السياسة النازية لأنها تساعدهم في تعزيز الوجود اليهودي في فلسطين. بل إن اتفاقية هافارا بين الحكومة النازية والصهاينة أدت إلى تحــويل مــا يزيد عن 100 مليون مارك من الممتلكات اليهودية المجمدة إلى فلــسطين على شكل صادرات ألمانية مبيعة محلياً، والهجرة المقابلة لنحو 8000 يهودي ســنوياً بين سنتي 1933 و1939 (على الرغم من أن هذا الرقم انخفض إلى النصف في ســنتي 1937 و1938)[2]. وأدى صعود الرعب النازي إلى جعل فلسطين بالنسبة إلى الــيهود في أوروبا الشرقية - ولا سيما في بولندا - الملاذ الذي يتوقون إلى بلوغه أكثر مــن أي وقت مضى. وتمكّن نحو 30,000 يهودي من دخول فلسطين في سنة 1933 وحدها، سواء أكان ذلك بطريقة قانونية أم سرية.

شــعرت اللجنة التنفيذية العربية باليأس من تصاعد الهجرة اليهودية من أوروبا، فــنظمت المظاهــرات ودعت في 13 تشرين الأول/أكتوبر 1933، إلى إضراب عام مما أدى إلى وقــوع اشتباكات مع الشرطة. وتوجّه الغضب الفلسطيني إلى بريطانيا، القوة الاستعمارية العظمى التي شعروا أنها خانتهم تماماً. ولم يتم الاعتداء على أي يهودي في تلك المظاهرات. وأدّت مظاهرة أخرى في 27 تشرين الأول/أكتوبر إلى صدامات أكثر خطــورة، وإطلاق النار بكثافة على المتظاهرين العرب العُزّل. وقد سقط نحو 30 قتيلاً فلسطينياً وجُرح المئات في الفترة التي سبقت رفع الإضراب في 3 تشرين الثاني/نوفمبر. ووصــل الغضب إلى شرق الأردن وأدى إلى احتجاجات غاضبة في سوريا وغيرها من الدول العربية.

لم يكــن الحــاج أمين في فلسطين خلال تلك الأحداث، لكن حثّ السير أرثر واكهوب، عندما اجتمع به في 3 كانون الأول/ديسمبر، على إصدار أمر بوقف الهجرة الــيهودية وشــراء الأراضي. وأشار إلى أن إطلاق النار على المتظاهرين خطأ سياسي فــادح وجريمة، ونصحه بمنح تعويضات إلى عائلات الضحايا على الفور. ويجب أيضاً

(1) Nicosia, *The Third Reich*, p. 122; Laurens, *La Question de Palestine*, vol. II, pp. 259- 260.

(2) Nicosia, *The Third Reich*, app. 7 and 8.

منح المجلس الإسلامي الأعلى الموارد لإعادة إسكان الفلاحين الذين جُردوا من أرضهم. وأبلغ المندوب السامي البريطاني أن المشروع الصهيوني سيعتبر منجزاً عاجلاً أم آجلاً. وقدّم موسى العلمي، وهو قائد فلسطيني بارز آخر من عائلة مشهورة في القدس، نصيحة مماثلة إلى واكهوب[1]. وكان موسى العلمي من جيل الحاج أمين نفسه، وقد خدم في الجيش العثماني في الحرب العالمية الأولى، ثم درس في جامعة كامبردج قبل أن يعود إلى فلسطين في 1924، حيث عمل في الدائرة القانونية في الحكومة الفلسطينية. وفي سنة 1933، عيّنه المندوب السامي البريطاني مساعداً خاصاً مسؤولاً عن الشؤون العربية. وقد جمعت بين موسى العلمي ورياض صلة نسب، إذ تزوجا من فتاتين من عائلة الجابري الحلبية الميسورة. فقد تزوّج موسى من ابنة إحسان الجابري، صديق رياض الصلح ورفيقه في الوفد السوري الفلسطيني.

كثُر الحديث في ذلك الوقت عن تقسيم فلسطين إلى كانتونين عربي ويهودي. فقدّم موسى العلمي نصيحة براغماتية إلى واكهوب تقضي بأن يصبح جزء من الساحل الفلسطيني- حيث استوطنت أعداد كبيرة من اليهود - كانتوناً يهودياً يحظى باستقلال ذاتي، وتتم الهجرة إليه بحرية. وأن يوضع ما تبقى من فلسطين، تحت حكومة عربية، يحظى فيها اليهود بتمثيل نسبي. من نافلة القول إن الصهاينة عارضوا بشدّة أي اقتراح قد يحد من توسعهم. وكانت الفضيحة الحقيقية في تلك الفترة التواطؤ البريطاني مع المخططات الصهيونية. فاستُبعد المسؤولون البريطانيون الذين أرادوا اتخاذ موقف أكثر حيادية أو تم التخلّص منهم، وتُركت الساحة للذين لديهم ميول صهيونية. بل إن توماس إدوارد لورنس، الذي طالما اعتُبر إلى جانب العرب، وُصف مؤخّراً بأنه مال نحو الصهيونية[2]. فقد كان فاعلاً في إقناع الشريف حسين بالموافقة على مبدأ "الوطن القومي لليهود" في فلسطين في مقابل خدمات سياسية بريطانية (لم يتحقّق معظمها).

---

(1) Geoffrey Furlonge, *Palestine is my Country, the Story of Musa Alami*, London 1969; Laurens, *La Question de Palestine*, vol. II, pp. 266-7.

(2) مقابلة مع مارتن جيلبير Martin Gilbert بشأن كتابه *Churchill and the Jews*, New York 2007, *Jerusalem Post*, 23 February 2007.

السياسات الفلسطينية الحزبية

انهمك رياض الصلح كثيراً في أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات في تسوية النزاعات بين القادة الفلسطينيين المتخاصمين. ففي ذلك الوقت - كما هو الحال اليوم - أدت آفة الصراع الحزبي الداخلي إلى إضعاف الحركة الفلسطينية الوطنية. فقد ثارت منذ سنوات خصومة سياسية بين العائلتين الفلسطينيتين البارزتين، الحسيني والنشاشيبي، على وجه الخصوص. فعملت عائلة النشاشيبي ما في وسعها لمنع عقد المؤتمر الإسلامي في سنة 1931، لأنها تدرك جيداً أنه سيعطي خصمهما، الحاج أمين الحسيني، تأييداً كبيراً. بل إن مكانة المفتي المتصاعدة تحقّقت على حسابهم. وفي المجتمع الفلسطيني، استندت مكانة عائلة الحسيني إلى حدٍّ كبير إلى تحدّرها من سلالة النبي ﷺ، في حين أن عائلة النشاشيبي، ذات الأصل الأقل عراقة، أصبحت ثرية بفضل الالتزام الضريبي في أواخر الحكم العثماني. ومن الناحية السياسية، كانت عائلة النشاشيبي أكثر اعتدالاً من عائلة الحسيني، وتعاونت مع السلطات البريطانية كما أيّدت فكرة إنشاء مملكة هاشمية تدعمها بريطانيا على فلسطين وشرق الأردن. وشكّل ذلك برنامج حزبها السياسي، حزب الدفاع الوطني، الذي عارض المفتي بشدّة.

كان ثمة صراع آخر بين الحاج أمين ومجموعة من الناشطين الفلسطينيين بقيادة عوني عبد الهادي، أحد معاوني الأمير فيصل في دمشق، حيث التقى به رياض لأول مرة. استاء عبد الهادي من المنافسة الحادّة بين عائلتي الحسيني والنشاشيبي، فأسس حزباً سياسياً، أسماه حزب الاستقلال، وشنّ حملة فاعلة على هجرة اليهود واستيطانهم ودعا إلى عصيان مدني سلمي على طريقة غاندي. وأعلن أن فلسطين دولة عربية محورية وجزء لا يتجزأ من سوريا. رأى الفرنسيون المرتابون دائماً أن حزب الاستقلال صنيعة المخابرات البريطانية. ولإقصاء الحزب من الساحة السياسية الفلسطينية، شكل آل الحسيني الحزب العربي الفلسطيني في مؤتمر عقد في القدس في 26 و27 آذار/مارس 1935، وشكّلت مناهضة الصهيونية المبدأ الرئيسي في برنامجه السياسي. تلك بعض الأحزاب التي حاول رياض الصلح أن يجمع بينها. فزار فلسطين مرات عدة في أوائل الثلاثينيات في محاولة التوفيق بينها ولكن دون نجاح دائم.

في الـــوقت نفسه تقريباً، انهمك رياض في التوسط بين القادة الوطنيين السوريين المتـــنازعين أيـــضاً. فعـــندما عاد إلى بيروت في سنة 1935 بعد فترة الإقامة الجبرية في القامشلي، دُعي لتسوية خلاف في طرابلس بين مناصري عبد الحميد كرامي ومناصري الدكـــتور عبد اللطيف البيسار، أدى إلى حدوث اشتباكات بين الفئتين. فقد اعتدى أربعة رجال من آل البيسار بالضرب على عبد الحميد حين كان عائداً إلى منـــزله بعد اجـــتماعه بفخري البارودي الذي كان في زيارة لطرابلس في ذلك الوقت. قاد رياض وفـــداً للتوسّـــط بـــين العائلتين. وكما كتب إلى صديقيه نبيه وعادل العظمة في 27 تمـــوز/يوليو 1935، "عدت للتوّ من طرابلس حيث أمضيت ليلتين لم أذق فيهما طعم الـــنوم وأنـــا أحـــاول حـــل المصاعب الكبرى للمهمة. وبعد عودتي الآن، أعتقد أن باســـتطاعتي التوصـــل إلى حل خلال أسبوع"[1]. ولعل أقل ما يقال في هذه الخلافات المستمرّة في فلسطين وسوريا إنها لم تعد بأي فائدة على القضية العربية بأي شكل من الأشكال.

(1) خيريـــة قاسمية (محررة)، **الرعيل العربـــي الأول. حياة وأوراق نبيه وعادل العظمة**، لندن 1991، ص. 268.

الفصل الحادي عشر

بن غوريون والعرب

في أواسط الثلاثينيات، استُدرج رياض الصلح وعدد من أبرز الشخصيات الفلسطينية والعربية إلى مباحثات مع ديفيد بن غوريون، الذي انتخب حديثاً عضواً في "اللجنة التنفيذية الصهيونية"، وهي الهيئة الحاكمة للحركة الصهيونية. تولّى بن غوريون مع زميله موشيه شرتوك - عرفه رياض في صباه - المسؤولية عن الشؤون السياسية. ففي سنة 1934، حين ارتفع عدد اليهود في فلسطين إلى نحو 400,000 نسمة، قرّر بن غوريون أن الوقت قد حان لاستكشاف إمكانية عقد اتفاق مع العرب، بعدما رأى أنه يستطيع الآن مواجهتهم بالأمر الواقع. كما أن المندوب السامي البريطاني الجنرال أرثر واكهوب عقد النية، بناءً على نصيحة مستشاريه المتصلّين والمؤيدين للصهاينة، على اتخاذ إجراءات صارمة ضد المعارضة العربية، مثلما فعل الفرنسيون في سوريا. فظنّ بن غوريون أن العرب قد يكونون مستعدين لعقد اتفاق.

لكن مع من يتكلم؟ فليس هناك قائد واحد قوي قادر على تمثيل جميع العرب. كان الحاج أمين الشخصية الأكثر نفوذاً في أوساط الفلسطينيين، ولكن نظراً إلى اتساع الهوة التي تفصل بين العرب واليهود في فلسطين، رأى بن غوريون أن من الأفضل عدم مفاتحته بالأمر. وقرّر بدلاً من ذلك الاتصال بست شخصيات عربية بارزة ومؤثرة تمثّل الرأي الوطني المثقف وتنتمي إلى عائلات عريقة، متصوّراً أن باستطاعته استمالتها إلى طريقة تفكيره. هذه الشخصيات هي موسى العلمي، ورياض الصلح، وعوني عبد الهادي، والأمير شكيب أرسلان، وإحسان الجابري، وجورج أنطونيوس. واللافت أن اثنين منهم فقط، موسى العلمي وعوني عبد الهادي، فلسطينيان محليان. ففي تلك الفترة، لم يكن الشعور بالقطرية قد ظهر بعد، ومن الطبيعي أن يشعر القوميون العرب البارزون، على غرار رياض الصلح، وشكيب أرسلان وإحسان الجابري، بأنهم مخوّلون بحث مستقبل فلسطين، ومن الطبيعي أيضاً أن يحاول بن غوريون معرفة آرائهم.

وضع بن غوريون لكل واحد منهم، ولكن بصيغة مختلفة بعض الشيء، خطة من مرحلتين أمل أن تحظى بقبولهم، بل بدعمهم. المرحلة الأولى من هذه الخطة هي إنشاء دولة يهودية، ما إن يصبح اليهود أغلبية في فلسطين وشرق الأردن. وتوقّع في المرحلة الثانية إقامة صلة بين هذه الدولة اليهودية واتحاد سوري عراقي، بغية طمأنة عرب فلسطين، الذين سيكونون أقلية في الدولة اليهودية، أنهم لا يزالون جزءاً من الغالبية العربية في المنطقة.

في 20 آذار/مارس 1934، التقى بن غوريون بموسى العلمي في منزل موشيه شرتوك في القدس. وكتب بن غوريون لاحقاً[1]:

> طرحتُ عليه السؤال الحاسم، "هل هناك أي احتمال للتوصل إلى تفاهم بخصوص إنشاء دولة يهودية في فلسطين، بما في ذلك شرق الأردن؟" أجاب بسؤال: لِمَ يجب على العرب الموافقة؟ ربما يستطيع اليهود تحقيق ذلك حتى من دون قبول العرب، لكن لِمَ عليهم الموافقة على ذلك؟ أجبت أننا سنوافق بالمقابل على دعم إنشاء اتحاد عربي في البلدان المجاورة، وتحالف بين الدولة اليهودية والاتحاد، كي لا يصبح عرب فلسطين في موقف الأقلية، حتى إذا شكلوا أقلية في البلد، لأنهم سيرتبطون بملايين العرب في البلدان المجاورة.
>
> ثم سأله بن غوريون هل سيقبل العرب بالمساواة في المجلس التشريعي الفلسطيني الذي يفكّر البريطانيون في إنشائه؟ فرفض موسى العلمي الفكرة من أساسها وسأل، "لِمَ يقبلون بذلك؟ ألا يشكّل العرب أربعة أخماس سكان البلد؟ أليسوا السكان المحليين؟ لِمَ عليهم تقديم مثل هذا التنازل؟"

في 26 آذار/مارس، وبعد مرور أقل من أسبوع على هذا النقاش العقيم، توفي موسى كاظم الحسيني، رئيس اللجنة التنفيذية العربية – الذي حاول رياض مساعدته في مفاوضاته مع وايزمان في لندن في سنة 1921 – عن عمر يناهز 83 عاماً. فشكّلت جنازته في الحرم الشريف، الذي نجح الحاج أمين في جعله مكاناً لدفن كبار

(1) Ben-Gurion, *My talks with Arab Leaders*, pp. 16- 21.

الشخصيات المسلمة، مناسبة لمظاهرة شعبية ضخمة. لكن بالنظر إلى الخلاف بين آل الحسيني وآل النشاشيبي، والمزايدة القومية لحزب الاستقلال، فإنه لم يتمكّن أحد من الحلول مكانه على رأس اللجنة التنفيذية العربية. لكن الحقيقة هي أن العرب الذين أضعفتهم المشاحنات الداخلية كثيراً، ويواجهون تنامي القوة الصهيونية المنظمة جداً، أخذوا يخسرون النضال من أجل فلسطين.

كانت تلك خلفية لقاء بن غوريون مع رياض الصلح في 15 حزيران/يونيو، وهو اللقاء الذي مهّد له موشيه شرتوك بزيارة رياض في لبنان. وعلى الرغم من أن رياض، كان في ذلك الوقت شديد الارتياب من النيات الصهيونية، فإنه أظهر استعداداً لاستكشاف إذا كان يمكن حماية أي من مصالح العرب الأساسية عبر تفاهم اللحظة الأخيرة مع اليهود. أراد أن يعرف بالتفصيل ما نوع الاتفاق الذي كان يريده بن غوريون. وقد عرض عليه الزعيم الصهيوني خطة أكثر تفصيلاً من تلك التي عرضها على موسى العلمي، وأجملت هذه المرة في خمس مراحل متتالية:

- الحرية غير المحدودة لليهود بالهجرة إلى فلسطين وشرق الأردن.
- بقاء الفلسطينيين العرب في البلد، وتقديم المساعدة إليهم لتحسين وضعهم الاقتصادي والثقافي.
- مشاركة اليهود والفلسطينيين في الحكومة على أساس المساواة خلال فترة الانتداب.
- إنشاء دولة يهودية مستقلة في فلسطين.
- إقامة صلة بين هذه الدولة اليهودية واتحاد عربي مستقل للبلدان المجاورة.

أكدت نقاط بن غوريون الخمس ما كان يخشاه رياض الصلح: نيّة الصهاينة تحويل فلسطين بأكملها وشرق الأردن إلى دولتهم اليهودية المستقلة. لكن كيف يمكن إحباط هذا المشروع المدمّر للمصالح القومية العربية، أو صدّه على الأقل؟ فطلب رياض نسخة خطية من اقتراحات بن غوريون، وأخذ على عاتقه بحثها مع قادة عرب آخرين. وأبلغ الزعيم الصهيوني أن فرنسا، المعنية بسيطرتها على سوريا، ستعارض انضمام ذلك البلد الخاضع للانتداب إلى أي اتحاد عربي، لا سيما إذا كانت

ستسيطر عليه بريطانيا. وأشار بشيء من التبصّر إلى الحاجة إلى حرب عالمية لتغيير الوضع وإنهاء الانتدابات[1].

كان المحاور العربي التالي لبن غوريون رئيس حزب الاستقلال، عوني عبد الهادي، الذي اجتمع به في 18 تموز/يوليو، وعرض عليه مرة أخرى رؤيته لدولة يهودية واسعة على ضفتي الأردن، ذات صلة باتحاد عربي. بيد أن هذه الرؤية لم تلقَ إعجاب عبد الهادي. فقال لبن غوريون، "اليهود يشترون أفضل الأراضي ويجرّدون العرب من ممتلكاتهم. وطالما أعلن وايزمان وآخرون عن نيّتهم الحسنة تجاه العرب، لكن أين هي هذه النيّة الحسنة؟... أتعتقد أنكّم تستطيعون خداعنا بإعلاناتكم المعسولة...؟ الاستيطان اليهودي يقوّض وجود العرب ولا يفيدنا في شيء...". وسأل عبد الهادي بن غوريون إذا كان الصهاينة سيساعدون العرب في التخلّص من القوى الإمبريالية، فاعترف بن غوريون بصراحة أن التحرير السياسي للعرب سينتظر إلى وقت لاحق. فالصهاينة لن يقاتلوا البريطانيين المتعاونين جداً معهم نيابة عن العرب[2].

في اجتماع آخر مع موسى العلمي في 14 آب/أغسطس، أجمل بن غوريون ثانية خطته بشأن دولة يهودية مرتبطة باتحاد عربي يتم إنشاؤه في نهاية المطاف. فأجابه العلمي أن العرب لن يوافقوا على الهجرة اليهودية غير المحدودة، أو إنشاء دولة يهودية من دون ضمانة أكيدة بخصوص الاتحاد. لكنه رأى أن من الأفضل عرض مقترحات بن غوريون على المفتي الأكبر الحاج أمين. وفي لقاء آخر في 27 آب/أغسطس، طرح العلمي، بعدما تشاور مع المفتي، عدداً من الأسئلة. إذا أصبح اليهود الأوروبيون الأكثرية وأعلنت فلسطين دولة يهودية، من سيضمن أمن المسجد الأقصى وقبة الصخرة في الحرم الشريف، أقدس الأماكن الإسلامية خارج الحجاز؟ وأوضح أن هذه المسألة هي الشاغل الرئيسي للمفتي. سعى بن غوريون إلى طمأنته، وأبلغ العلمي أن اليهود المتشدّدين فقط يؤمنون بوجوب إعادة بناء الهيكل، ولكن بعد مجيء المسيح فحسب. ويمكن تقديم ضمان لأمن المكان، إذا طلب العرب ذلك.

(1) المصدر نفسه، ص 17 - 18.

(2) المصدر نفسه، ص 18 - 21.

سأل العلمي بعد ذلك إذا كان بن غوريون يوافق على أن تشكّل فلسطين وشرق الأردن والعـــراق دولة واحدة. فأجاب بن غوريون بالرفض القاطع. وأصرّ على أنه لا يمكن تصوّر استقلال الشعب اليهودي من دون دولة سياسية مستقلة خاصة به. يجب أن تكون فلسطين وشرق الأردن جزءاً من الدولة اليهودية، فيما يكون العراق الشريك الآخـــر في الاتحاد. فسأل العلمي إذا كان بن غوريون يوافق على تقييد هجرة اليهود مـــدة عقد من الزمن حتى لا يزيد عدد السكان اليهود في نهاية تلك الفترة على مليون نسمة. فرفض بن غوريون ثانية لأن الهجرة غير المحدودة هي الدعامة المركزية التي تقوم عليها سياسته[1].

بعـــد ذلـــك، تحادث بن غوريون مع الأمير شكيب أرسلان وإحسان الجابري، زميلَـــي ريـــاض في الـــوفد السوري الفلسطيني، اللذين التقى بهما في جنيف في 23 أيلـــول/سبتمبر. فكرر أمامهما أيضاً، في محادثات امتدّت حتى الفجر، إيمانه بضرورة - بـــل حتمـــية - إنـــشاء دولـــة يهودية في فلسطين وشرق الأردن. وادّعى أن اليهود سيـــصبحون الأغلبـــية في فلسطين عما قريب، وتلك حقيقة لا يمكن تجنّبها. لكن من الـــضروري التوصـــل إلى اتفاق مع العرب. فإذا كانت الدولة اليهودية جزءاً من اتحاد عربـــي أوسع، لن يشعر الفلسطينيون العرب بأنهم أقلية. فوجئ أرسلان بهذا الطموح السافر، إذ لم تكن مسألة الغالبية اليهودية أو الدولة اليهودية واردة في ذهنه. بل إنه لم يكـــن مستعداً حتى للنظر في عقد مباحثات جادّة مع الصهاينة، ما لم يضمنوا السماح بـــبقاء العرب أكثرية في فلسطين. وقال إن العرب لن يحتملوا البتة أن تتحول فلسطين إلى دولـــة يهودية، كما ليس لليهود أي حق في الاستيطان في شرق الأردن التي ليس لـــديهم أي ادعاءات محتملة فيها على الإطلاق. حاول إحسان الجابري أن يكون أقل تـــصلباً مـــن أرســـلان، لكـــنه لم يستطع كبح نفسه طويلاً أمام تباهي بن غوريون بالانتصار[2].

بعـــد مـــرور يـــومين على اللقاء، أعلن بن غوريون، الذي لا يعرف الكلل، في خطـــاب يتـــسم بالغرور ألقاه في وارسو أن ثمة اتفاقاً يوشك أن يعقد مع العرب على

(1) المصدر نفسه، ص 24 - 33.
(2) المصدر نفسه، ص 35 - 37.

أســـاس خطـــته. غضب أرسلان والجابري من تسريب هذه المعلومات المضلّلة. فبادرا على الفور، حرصاً على سمعتهما، إلى نشر روايتهما عن "تبادل وجهات النظر" مع الزعيم الصهيوني في مجلة "الأمة العربية" *La Nation Arabe*[1]. وكانا قد سألا بن غوريون عن عدد المهاجرين الذين ينوي الصهاينة جلبهم إلى فلسطين، وعن تقديره لقدرة البلاد القـــصوى على الاستيعاب. فأجاب بن غوريون أن فلسطين وشرق الأردن تستوعبان ســـتة إلى ثمانية ملايين يهودي. وسأل عن التعويض الذي يطلبه العرب للموافقة على إنـــشاء دولة يهودية في أراضيهم. وقال إن باستطاعة العرب الذين لا يريدون الهجرة البقاء، ولن تؤخذ أرضهم منهم.

لم يـــسعنا الامتـــناع عـــن الابتسام من هذه المبالغات الفاحشة... ومع ذلك سألنا بن غوريون عن التعويض الذي سيقدمه اليهود للعرب مقابل تضحياتهم. فأجاب: "سنقدم للعرب العون السياسي والاقتصادي. وسيشمل العون السياسي تعبئة القوة اليهودية لصالح العـــرب في ســـوريا؛ أما بالنسبة إلى العون الاقتصادي، فسيشتمل على استثمار رؤوس أموال في بلاد الرافدين والسعودية واليمن من أجل الإسهام في نموّها الاقتصادي".

أجبـــنا قائلين: "أنت تطلب باختصار إخلاء بلد... مقابل عرض تقديم مساعدة سياسية غير مؤكّدة، ومساهمة مالية ليس لأي بلد عربـــي حاجة ملحّة إليها".

ذكّـــر أرسلان والجابري بن غوريون أن فرنسا بدأت تعترف بقدرة سوريا على حكم نفسها بنفسها؛ وأن العراق استعاد استقلاله، وأنه يتوسّع اقتصادياً بفضل موارده النفطية؛ وأن ليس لدى الحجاز واليمن النيّة لقبول رأسمال أجنبـــي، لا سيما رأس المال الـــيهودي. وأبلغـــا بن غوريون أن عرضه لا يكفي البتة لإقناع مليون ونصف مليون عربـــي بالتخلّـــي عن أرضهم - أرض أجدادهم المقدسة - والهجرة إلى الصحراء؛ ودفع الأمة العربية التي تعدّ نحو عشرين مليون نسمة إلى قبول عار التصديق على إخلاء هذه الأرض المقدّسة التي تخضّب ترابها بدماء أجدادهم... وعلى بن غوريون ألا يفكّر في الـــسعي للحصول على موافقة خصومه حاملاً مثل هذه الأفكار الفاحشة والوقحة. ومن الأفضل أن يعتمد الصهاينة على حراب البريطانيين لإنشاء مملكتهم اليهودية بدلاً من السعي لعقد اتفاق مع العرب.

---

(1) *La Nation Arabe*, no 2, (December 1934), pp. 145- 6.

وخلص أرسلان والجابري في روايتهما عن تفاصيل اللقاء، إلى أن التشجيع البريطاني الناشط، بالإضافة إلى السبات العربي، منحا بن غوريون الجسارة على تقديم مثل هذه المقترحات "الصبيانية والخيالية". وقد كشف نهجه الهدف الصهيوني الفعلي، وهو تحقيق غالبية يهودية في فلسطين. وتوقّع أرسلان بدقّة ما سيحصل لاحقاً: "عندما يصبحون الأكثرية، سينتهي أمر العرب"[1].

في نيسان/أبريل 1936، بعدما انتعشت آمال بن غوريون بقدوم 65,000 يهودي في السنة الماضية، وذلك رقم قياسي في عدد اليهود المهاجرين إلى فلسطين، عقد ثلاث جلسات مطوّلة مع شخصية عربية بارزة أخرى. كان محاوره هذه المرة، جورج أنطونيوس، وهو مفكر أرثوذكسي لبناني مصري المولد، درس في جامعة كامبريدج. حصل على الجنسية الفلسطينية في سنة 1925 وعمل في حكومة الانتداب البريطاني، لكنه استقال في سنة 1930، احتجاجاً على التحيّز البريطاني الفاضح لمصلحة الصهاينة. وفي 1938، فيما كانت فلسطين تضيع من بين أيدي العرب، نشر كتاباً مهماً بعنوان **يقظة العرب** *The Arab Awakening*؛ فاعتبر على الفور بمثابة تاريخ للقومية العربية.

رأى بن غوريون في الحجة المركزية التي قدّمها إلى أنطونيوس أنه لا يوجد تناقض أساسي بين الطموحات القومية للعرب واليهود. فاليهود لا تعنيهم سوى "أرض إسرائيل" التي عرّفها بأنها "الأرض الواقعة بين البحر المتوسط في الغرب والصحراء في الشرق، وبين سيناء في الجنوب ومنبع نهر الأردن في الشمال"، وهي منطقة تضم شرق الأردن وأجزاء من سوريا ولبنان. وإذا وجد العرب أنفسهم أقلية في هذه المنطقة، فإنهم سيظلّون جزءاً من الأمة العربية الأوسع. وقال إنه لا يقبل الحدّ من الهجرة اليهودية، لكنه دعا بدلاً من ذلك إلى توقيع "اتفاق فاعل" بين العرب واليهود. وأعلن بتفضّل، "سنساعد الشعب العربي للوصول إلى إنتاجيته القصوى. سنقدم إليه العون المعنوي والسياسي والمالي والتنظيمي. وسيساعدنا العرب في تنمية أرض إسرائيل إلى أقصى حدّ، ليحظوا بحياة كريمة في هذا البلد، ونجلب أقصى عدد ممكن من اليهود"[2].

---

(1) Cleveland, *Islam Against the West*, p. 78.

(2) Ben-Gurion, *My talks with Arab Leaders*, pp. 42-4.

في السنة نفسها، أي سنة 1936، اجتمع رياض الصلح بمندوب صهيوني بارز آخر. هذه المرة، لم يكن محاوره ديفيد بن غوريون المشاكس، بل ناحوم غولدمان، الصهيوني الأكثر اعتدالاً الذي ساهم للتوّ في تأسيس المؤتمر اليهودي العالمي، وترأسه سنوات عديدة. جرى اللقاء في باريس، حيث كان رياض يقدم المشورة آنذاك إلى الوفد السوري في مفاوضاته مع حكومة الجبهة الشعبية برئاسة ليون بلوم. كان رياض في مزاج غاضب. فقد كرّس كل حياته لقضية الاستقلال العربي، ليعلم في آخر الأمر أن حاييم وايزمان حثّ بلوم سراً على عدم منح سوريا الاستقلال. فأبلغ غولدمان أن على اليهود إذا أرادوا التفاهم مع العرب، أن يعلنوا أولاً على الملأ دعمهم حركة التحرر العربية. وعندئذ فقط يمكن بحث أي شيء[1].

في باريس، لم يكن رياض يدرك أن وايزمان ضغط أيضاً على ليون بلوم لمقاومة أي محاولة يقوم بها السوريون لتغيير الحدود الموسّعة للبنان الكبير، كما رسمتها فرنسا سنة 1920. وكان وايزمان يأمل في أن يتمكن الصهاينة والموارنة من التعاون للوقوف في وجه "الحشود المسلمة المتعصبة" في الأراضي الداخلية[2]. كما أراد أن يسمح بلوم باستيطان آلاف اليهود بين الحدود الفلسطينية وبيروت. وبناء على طلبه، سافر محامٍ فرنسي يدعى كادمي - كوهين Cadmi-Cohen إلى بيروت ليعرض فكرة عقد "اتفاق شرف" بين اليهود واللبنانيين يقوم على السماح بالاستيطان اليهودي في جنوب لبنان. وسيعترف اليهود بالحدود الدولية الموسّعة للبنان، فيما يعترف لبنان بحق اليهود في شرق الأردن وشبه جزيرة سيناء. لم يتم التوصل إلى اتفاق، على الرغم من أن الفكرة حظيت بتعاطف مجموعة مارونية هامشية جذبتها فكرة إنشاء "وطن قومي مسيحي" في لبنان.

في ذلك الوقت، فقد رياض أي أمل في التوصل إلى تسوية مقبولة مع الصهاينة، لأن مطالبهم فظيعة لا تطاق. وكانوا يتمتعون بدعم بريطاني صلب، بينما ابتُلي العرب بالشجار والانقسام، واهتمّوا بإسكات بعضهم بعضاً أكثر من اهتمامهم بمحاربة الصهاينة. فما هي النصيحة التي قدّمها إلى أصدقائه الفلسطينيين؟ كان يدرك تماماً أن

---

(1) المصدر نفسه، ص 70.
(2) Laurens, *La Question de Palestine*, vol. II, p. 326.

الأحـــداث تدفع الحاج أمين باتجاه مزيد من التطرف. فهناك قوى في المعسكر الفلسطيني، بـــل في العـــالم العربـــــي علـــى العموم، تفضّل اللجوء إلى السلاح ضد البريطانيين والصهاينة في آن معاً. بل إن أنطونيوس نفسه أبلغ بن غوريون أن استمرار تدفق اليهود الأوروبـــيين على البلاد دون قيود، لا يترك للعرب أي خيار سوى القتال. فإذا كان الصهاينة يريدون "دولة يهودية مئة في المئة"، فلا مجال للتوصّل إلى أي تفاهم معهم[1].

شعر رياض بتشاؤم شديد. فقد رأى الطريقة الوحشية التي اتبعتها فرنسا للقضاء علـــى الـــسوريين في ميسلون في سنة 1920، ثم قمع الثورة السورية الكبرى في سنتي 1925 و1926. ولـــن تـــتوانى قوة استعمارية وحشية مثل بريطانيا عن استخدام القوة المفـــرطة ضـــد المواطنين المتمرّدين. ومن المرجح ألا يكون ردّها على أي اضطراب في فلسطين مختلفاً عن رد الفرنسيين في سوريا. بدلاً من المجازفة بحصول صدام مسلح آخر مع الفرنسيين، دعا رياض إلى إطلاق حملة دعاية وإقناع واستمالة الرأي العام الفرنسي من خلال اتصالاته بالسياسيين والصحافيين في باريس. وقد بدأت جهوده تؤتي ثمارها. فوافـــق الفرنـــسيون علـــى الدخـــول في مفاوضات مع دول المشرق على أمل إنهاء الانـــتدابات وتحقـــيق الاستقلال. لكن الوضع مختلف في فلسطين. فبينما كان العرب يتنازعون في ما بينهم، كان الصهاينة يسعون بإصرار وعزم شديدين للسيطرة على البلد بأكملـــه. وأصـــبحوا يعـــدّون نحو نصف مليون يهودي، أغلبهم من أصول أوروبية، ويـــتفوّقون علـــى العرب من الناحيتين التعليمية والاقتصادية، ويزدادون عدداً وثروة وتتسع الأراضي التي يتملّكونها يوماً بعد يوم. فما الذي يجب عمله؟

قدّم بن غوريون إلى محاوريه العرب العرض نفسه أساساً: أعطونا فلسطين وشرق الأردن لإقامة دولة يهودية، وسنساعدكم في وضع البلدان العربية الأخرى على طريق التنمية ونوع من الاتحاد. لكن رياض يدرك تماماً أن العرض السياسي الذي قدموه ليس ســـوى عرض أجوف، نظراً لاعتماد الصهاينة على بريطانيا، وخوفهم من إثارة استياء الفرنسيين. بل إنه مجرّد ذرّ للرماد في العيون. وكان بن غوريون، يدرك، من جهته، أن العـــرب لن يقبلوا البتة "بيع" فلسطين لليهود. وخلص الآن أنه لا يمكن الحصول على الدولة اليهودية إلا بعرض حاسم للقوة العسكرية.

(1) Ben-Gurion, *My talks with Arab Leaders*, p. 49.

الثورات الفلسطينية 1936 - 1939

في أوائـــل الثلاثينـــيات، قررت مجموعة من الشبان العرب تشكيل جمعية سرية باسم الجهاد المقدس بغية الإعداد لثورة مسلحة. فأُنشئت الخلايا بقيادة عبد القادر الحسيني، ابن موسى كاظم الحسيني، الرئيس السابق للّجنة التنفيذية العربية، وجمعت الأموال والتبرعات. أُبلغ المفتي فحثّهم على ألا يقدموا على أي عمل حتى يصبحوا مستعدين تماماً.

في الـــوقت نفسه تقريباً، أسس عز الدين القسّام منظمة مماثلة في شمال فلسطين. كـــان القسام شيخاً سورياً من منطقة اللاذقية، درس في الأزهر في القاهرة، وعلّم في مدرســـة دينية، وقاتل الفرنسيين وحُكم عليه بالإعدام غيابياً. فهرب إلى حيفا، حيث أسس مدرسة ليلية للأميين وبدأ بإلقاء الخطب والمواعظ، وكسب أتباعاً بين الفلاحين المـــشرّدين[1]. فنظمهم في شبكة من الخلايا السرية المسلّحة، وأعدّ لإعلان الجهاد على الصهاينة والبريطانيين والعرب المتعاونين معهم.

كـــان الشعور العميق بالوطنية والتضحية بالذات القوة الدافعة للرجال من أمثال القـــسّام. وكانـــوا يردّون أيضاً على الإشاعات المتواترة بأن الصهاينة يشكّلون قواهم الـــسرية الخاصـــة ويـــسلّحونها. ففي تشرين الأول/أكتوبر 1935، كشفت الشرطة البريطانية عن عملية تهريب كبيرة عبر ميناء حيفا لأسلحة ألمانية بيعت للصهاينة بموافقة الـــنازيين. فقـــرّر العرب مثل عز الدين القسام الحصول على الأسلحة واستخدامها. وانخـــرط مـــع أحـــد عشر من أتباعه في العمل السري وشنّ عمليات عسكرية. لكن ســـرعان ما حُدّد مكانهم وحوصروا. فقُتل القسام في معركة بالأسلحة مع الشرطة في 21 تـــشرين الثاني/نوفمبر 1935. وتحوّلت جنازته في حيفا إلى مناسبة لمظاهرة سياسية ضـــخمة تلـــيق بـــبطل وطني. وبعد أكثر من سبعين عاماً على وفاته، أُطلق اسمه على الـــصواريخ البدائية المحلية الصنع التي أطلقها الفلسطينيون اليائسون المحاصرون في غزة على إسرائيل، متحدّين الحصار وإن كانت غير فعّالة.

استمرت حركة القسام بعد موته. ففي 15 نيسان/أبريل 1936، أوقفت مجموعة مـــن الثوّار الفلسطينيين حافلة على الطريق بين نابلس ويافا وقتلت راكبين يهوديين.

---

(1) Hirst, *The Gun and the Olive Branch*, p. 199.

وسرعان ما انتقم اليهود لهذه الحادثة. فقُتل عربيان في بستان للموز، واصطدم ثلاثون ألف يهودي من تل أبيب مع الشرطة. شكّل الناشطون في نابلس لجنة وطنية لتنسيق المقاومة الفلسطينية المحلية، فحذت حذوها بلدات وقرى عربية أخرى. ولقيادة الحركة الناشئة بأكملها، شكّل الحاج أمين هيئة عربية عليا تمثّلت فيها الأحزاب السياسية الفلسطينية الرئيسية الخمسة برئاسته، وانضم إليها قادة حزب الاستقلال لاحقاً. دعت اللجنة إلى إضراب عام وأعلنت أنه لن يُرفع حتى تتوقّف الهجرة اليهودية وشراء الأراضي، وتحل حكومة وطنية محل الانتداب. من المفارقة أن الإضراب جاء لمصلحة الاقتصاد اليهودي بتمكينه من أن يصبح مكتفياً ذاتياً. فحل العمال اليهود محلّ العمال العرب في بساتين الحمضيات التي يملكها اليهود، وأُنشئت مرافق ميناء في مدينة تل أبيب اليهودية، ووُسّعت لتقليص الاعتماد على ميناء يافا العربي القديم.

عندما رفضت المندوبية السامية البريطانية الخضوع للمضربين، اندلعت أعمال عنف متفرّقة، وسرعان ما تصاعدت لتتحول إلى ثورة مفتوحة. فهاجم المسلحون المستعمرات اليهودية، ونصبوا كمائن للقوات البريطانية. وزُرعت الألغام في الطرقات، وأخرجت القطارات عن سككها، وقُطعت خطوط الهاتف وأُعيقت حركة المرور بين المدن برصاص القنّاصين. ولجمع الأموال والأسلحة للثوّار، شُكّلت "لجان الدفاع عن فلسطين" في جميع أنحاء العالم العربي - في سوريا والعراق ومصر وشرق الأردن والكويت ولبنان، وشارك فيها رياض الصلح بنشاط ملحوظ. وبدأ المتطوّعون العرب يتسلّلون إلى فلسطين، وينتظمون في وحدات شبه عسكرية بقيادة فوزي القاوقجي، الذي أصبح الآن من قادة الثورة الفلسطينية. ويشمل سجل القاوقجي المتنوّع محاربة الفرنسيين في سوريا، وتقديم المشورة إلى ابن سعود في الشؤون العسكرية، والتعليم في الأكاديمية العسكرية في بغداد. وقد انجرف الحاج أمين مع التيار فتحوّل دوره من شخصية تقليدية بارزة، يُلجأ إليها عادة للتهدئة والتوسط مع السلطات، إلى قائد عام لثورة مسلحة[1].

في 2 أيلول/سبتمبر، قررت الحكومة البريطانية قمع الثوّار بالقوة. فأُرسلت فرقة من القوات البريطانية إلى فلسطين. وسمح السير آرثر واكهوب، تحت إلحاح الصهاينة

(1) Hurewitz, *Diplomacy*, vol. II, p. 69; Laurens, *La Question de Palestine*, vol. II, p. 319.

ومستشاريه المؤيّدين لهم، بتوقيف المتمرّدين المشتبه فيهم من دون مذكّرات، واعتقال قادة الإضراب وترحيلهم، ومصادرة الأبنية والسيارات، وإنزال العقاب الجماعي بالقرى المعادية. وسُمح للمستوطنين الصهاينة بالتسلّح بصورة قانونية، فيما جُنّد 3000 شرطي يهودي إضافيين ودرّبوا. ولحماية المستوطنات اليهودية المتفرّقة، بدأ البريطانيون يتعاونون مع الجيش السرّي اليهودي، "الهاغاناه"، الذي أصبح بحلول صيف 1936 قوة عسكرية كبيرة. شعر الوزراء في حكومات الدول العربية المجاورة وغيرهم من الشخصيات القيادية بالقلق من هذه التطورات الخطيرة، فحاولوا إقناع الهيئة العربية العليا بإنهاء الإضراب، لكن الحاج أمين والمجاهدين أصروا على وجوب وقف الهجرة اليهودية أولاً. غير أن الصهاينة رفضوا ذلك تماماً. بل إن موشيه شرتوك أبلغ موسى العلمي أن الهجرة اليهودية مقدّسة لدى الصهاينة بقدر قداسة قبّة الصخرة لدى المسلمين.

كيف يمكن السيطرة على الوضع؟ هل يوجد دور لوسيط خارجي؟ كان رياض الصلح على اتصال مستمر مع الحاج أمين، واشتدّ قلقه من أن يؤدّي العنف إلى عكس النتائج المرجوّة، ففكّر في التدخل لدى المندوب السامي البريطاني. كما خشي من أن تزيد الثورة الفلسطينية من ارتماء البريطانيين في أحضان الصهاينة - وهو ما حصل بالفعل - وتدفعهم لقمع العرب بمزيد من الوحشية. وودّ لو أن الفلسطينيين يعتمدون تكتيكات الإقناع والحوار التي سعى إلى استخدمها مع الفرنسيين. فنصحهم بالعمل بقوّة على استمالة الرأي العام البريطاني، بدلاً من السماح للصهاينة باحتكار هذا المجال تماماً. لكن، في هذه الفترة الحاسمة، استُدعي رياض الصلح إلى باريس لتقديم المشورة إلى الوفد السوري في مفاوضاته مع الفرنسيين. فتم التوقيع على مشروع اتفاق بين الفرنسيين والسوريين في 9 أيلول/سبتمبر 1936. وقد اعتُبر ذلك انتصاراً عظيماً للكتلة الوطنية السورية، ولرياض الصلح نفسه.

كان رياض الصلح من العرب القلائل في تلك الفترة الذين أدركوا وجوب بذل جهود عظيمة للتأثير في الرأي العام الدولي واستمالته، إذا أراد العرب أن تلقى حجّتهم آذاناً صاغية. وكان زميله الأمير شكيب أرسلان، استثناءً نادراً آخر أيضاً. فقد دافع أرسلان دون كلل عن المصالح العربية والإسلامية طوال ثلاثينيات القرن الماضي، عن

طريق الدعوة الشخصية وعلى أعمدة مجلّته "الأمة العربية". لكن العمل كان شاقاً، إذ لم تكن قضية التحرّر العربي تحظى بشهرة في أوروبا. ولم يحاول عرب فلسطين التأثير في الرأي العام في أي بلد غير عربي. بل لم تكن أي دولة عربية ممثّلة في اللجنة الدائمة للانتدابات. فمعظم البلدان العربية كانت واقعة تحت سيطرة القوى الغربية، على الرغم من تحقيقها بعض التقدّم المتواضع نحو الاستقلال السياسي.

بالمقابل، كان للوكالة اليهودية مكاتب دائمة في لندن وجنيف منذ فترة طويلة، فنجحت في استقطاب جمع من الشخصيات النافذة. وكان القادة الصهاينة يجرون اجتماعات منتظمة مع رجال الدولة الأوروبيين. كما عبّأت الفروع الصهيونية في العديد من البلدان الرأي العام لمصلحة "الوطن القومي لليهود"، وجمعت مبالغ مالية ضخمة لتحقيق هذا الهدف بالتحديد. ولم يُفتتح مركز إعلامي فلسطيني في لندن إلا في سنة 1936، لكنه كان صغيراً وتأثيره محدوداً للغاية. فقد أصبح الصهاينة من الناحية السياسية والمالية أكثر نفوذاً بكثير مما يمكن أن يأمل العرب بالتوصل إليه ذات يوم[1].

كان يمكن أن يؤدّي القادة السياسيون المصريون دور الوسطاء المحتملين، لكن الحكومة الوفدية، على غرار الوفد السوري في باريس، لم يكن لديها وقت للاهتمام بفلسطين، إذ كانت مستغرقة في المرحلة الأخيرة من التفاوض على المعاهدة البريطانية المصرية في 26 آب/أغسطس 1936. في ذلك دخل مسرح الأحداث وزير خارجية العراق نوري السعيد، أحد ركائز السياسة البريطانية منذ الثورة العربية الكبرى. لا شك في أنه اعتقد أن بإمكانه وضع علاقته الطيبة مع بريطانيا في خدمة الفلسطينيين في تلك المرحلة الحرجة. فعرض نفسه كوسيط وقدم إلى القدس في شهر آب/أغسطس من ذلك العام لبحث إمكانية التوصّل إلى تسوية. وقبل الانتقال إلى فلسطين، تشاور مع رياض الصلح – صديقه منذ شبابهما في إستانبول – لأن الحل الذي يريد عرضه يقوم على الحل الذي دعا إليه رياض طوال عقد من الزمن، أي إنشاء اتحاد عربي كبير، يمكن إيجاد مكان فيه "لوطن قومي لليهود" على شكل كانتون في المناطق الساحلية الفلسطينية التي استوطن فيها معظم اليهود. توجّه نوري السعيد إلى القاهرة لطمأنة المصريين أن إنشاء مثل هذه الدولة العربية الكبيرة لن يهدد مكانة القاهرة في شرق المتوسط.

(1) Hurewitz, *Diplomacy*, vol. II, pp. 85 f.

وفي القــدس، التقى نوري السعيد عدة مرات مع السير آرثر واكهوب الذي بــدا كأنــه يــشجّع جهــوده، وكذلك مع موشيه شرتوك من اللجنة التنفيذية الــصهيونية. وأبلغ السعيد الأخير أن الإضراب سيُرفع إذا عُلقت الهجرة اليهودية للــسماح بإجراء محادثات بشأن جميع المسائل المثيرة للنــزاع. لكن شرتوك رفض ذلك البتة. وأجاب بحدّة أن الهجرة حق يهودي مطلق[1]. وعندما سمح البريطانيون لــنوري السعيد بلقاء قادة "حزب الاستقلال" في معسكر اعتقالهم، تسرّع بالإيحاء لهم أن بريطانيا مستعدة لتعليق الهجرة اليهودية، ومنح عفو عام عن الثوّار إذا أبدوا استعداداً لوضع حدّ لثورتهم.

تلقّى الصهاينة معلومات عن هذه المحادثات، فشعروا بقلق شديد دفعهم للتصرف بــسرعة لإبطــال مساعي نوري السعيد. ففي لندن، تمكّن وايزمان من إقناع ويليام أورمسبــي - غور William Ormsby-Gore، وزير المستعمرات البريطاني، بإصدار بــيان رسمي يوضح فيه أن المندوب السامي في فلسطين، والحكومة البريطانية لم يوافقا علــى تعليق الهجرة اليهودية، أو على وساطة عراقية دائمة في الشؤون الفلسطينية، ما وضــع نــوري الــسعيد في موقف حرج. فقد وجد فيه العرب مثالاً آخر على غدر البريطانيين وقدرة الصهاينة على التلاعب بهم. وعلى أي حال، وقع انقلاب عسكري في العراق في 29 تشرين الأول/أكتوبر 1936 بقيادة بكر صدقي، رئيس هيئة الأركان العامــة بالــوكالة، أطاح بحكومة ياسين الهاشمي القومية. فآثر نوري السعيد البقاء في المنفى، وبذلك انتهت وساطته البائسة.

في غضون ذلك، نجحت القوات البريطانية في فلسطين التي قارب عددها 20,000 جــندي، في كسر المقاومة العربية المنظّمة. ونــزولاً عند إلحاح القادة العرب المستمرّ، وافقــت الهيئة العربية العليا بقيادة المفتي على رفع الإضراب الذي دام 176 يوماً وأدى إلى مقــتل نحــو ألف عربــي و37 بريطانياً و69 يهودياً[2]. وسُمح لجميع متطوعي فوزي القاوقجي بمغادرة البلاد، فعبروا إلى شرق الأردن ومنه إلى العراق حيث تفرّقوا. بالمقابل، رفض اليهود التخلّي عن أسلحتهم.

---

(1) المصدر نفسه، ص 70.

(2) David Hirst, *The Gun and the Olive Branch*, p. 209.

لجنة بيل والمرحلة الثانية للثورة

مــع أن ريــاض الصلح لم يلعب دوراً بارزاً في الأحداث الفلسطينية، فإنه بقي خــلال تلــك الفترة على اتصال وثيق مع شخصياتها الرئيسية. فلم يكن مصير عرب فلــسطين، الــذين جرّدهم الصهاينة من أراضيهم، وقمعهم البريطانيون بقسوة، أمراً يستطيع تجاهله البتة. فقد أوقد إنشاء "وطن قومي يهودي" بالقوة، في بيئة عربية معادية لــه وضدّ رغبة السكان المحليين، نار القوميات المتضادّة المستعرة. وألقى بظلال داكنة علــى مــسيرة رياض الصلح بأكملها، وكذلك على مسارات كل زعيم عربــي منذ ذلك اليوم فصاعداً.

قرّرت الحكومة البريطانية تعيين لجنة ملكية "للتحقيق في أسباب الاضطرابات" في فلسطين. تكوّنت اللجنة من ستة أعضاء بارزين، برئاسة اللورد بيل، وهو وزير سابق في وزارة شــؤون الهند، وحفيد السير روبرت بيل Robert Peel، السياسي البريطاني الكــبير في النــصف الأول من القرن التاسع عشر ومؤسس حزب المحافظين. وصلت اللجنة إلى فلسطين في 11 تشرين الثاني/نوفمبر 1936. غضبت الهيئة العربية العليا بقيادة الحــاج أمــين لأن بريطانيا لم تعلّق إصدار تأشيرات الدخول لليهود الأوروبيين على الــرغم من وصول اللجنة، فقررت بحماقة أن تقاطعها، لكن ذلك جاء في غير مصلحة الفلــسطينيين إلى حــدٍّ كبير. ونــزولاً عند إلحاح القادة العرب، رُفعت المقاطعة في كانــون الثاني/يناير 1937، ولكن بعدما عقدت اللجنة خمساً وخمسين جلسة. وخلافاً للصمت العربــي، قدّم وايزمان عرضاً متقناً استغرق ثلاث ساعات، "صوّر فيه معاناة اليهود عبر التاريخ بحماسة ممثّل عظيم وثقته"[1]. وشنّ هجوماً لاذعاً على العرب قائلاً إن قوميــتهم اســتعارة فجّة من أوروبا، وتعبير عن القوة من دون مضمون روحي أو ثقافي، في حين أن المصالح الصهيونية تتطابق مع مصالح الإمبراطورية البريطانية.

بيــنما كانــت اللجنة مستمرة في تدارس تقريرها، توجّه الحاج أمين إلى المملكة العربية السعودية في شباط/فبراير 1937 للقاء ابن سعود وأداء فريضة الحج. وقد رافقه عــزة دروزة، وهو ناشط فلسطيني بارز من نابلس ومشارك في الحركة الوطنية العربية

(1) Christopher Sykes, *Crossroads to Israel*, London 1965, p. 197.

منذ الحرب العالمية الأولى[1]. توجّها بالطائرة إلى القاهرة، وقبل ركوب السفينة للانتقال من السويس إلى الحجاز، أجريا محادثات مطوّلة مع رياض الصلح ونوري السعيد (كان لا يزال في منفاه الاختياري)، بعد أن انتقل الأخيرين إلى السويس لهذه الغاية. كان الأربعة أصدقاء منذ أيام حكم فيصل في دمشق، قبل نحو عشرين عاماً. نصح رياض المفتي بأن يلجأ إلى الدبلوماسية بدلاً من الحرب. لكن الحاج أمين كان مقتنعاً أن العدالة لا ترجى من البريطانيين، وأن لا خيار أمام الفلسطينيين سوى اللجوء إلى السلاح[2]. وفي مكة، طلب من ابن سعود الأسلحة والأموال، فوافق الملك على تزويده بهما إذا استؤنف القتال، بشرط السرية التامة. وقد اندلعت أعمال العنف في شهر شباط/فبراير نفسه، بإلقاء القنابل، ووقوع الكثير من عمليات القتل المتبادلة.

نُشر تقرير لجنة بيل في 7 تموز/يوليو 1937. وقد توصّل إلى استنتاج متجهّم إنما واقعي، وهو أن استمرار العمل بالانتداب على فلسطين غير ممكن. وأن الصراع بين العرب واليهود غير قابل للتسوية، بل من المرجح أن يزداد سوءاً. فلن يقبل أي من الطرفين أن يصبح أقلية. العرب في فلسطين يريدون الاستقلال ويكرهون، فكرة "الوطن القومي لليهود" ويخشونها. كما أن التقدم نحو الاستقلال الذي تحرزه الدول العربية المجاورة يزيد من إحباطهم. أما اليهود، فإن تزايد وضعهم سوءاً في أوروبا سيؤدي إلى مزيد من الضغط حتماً على فلسطين. الأمل الوحيد لحل سلمي يكمن في التقسيم.

وبناء على ذلك، أوصت اللجنة أن تُقسّم فلسطين إلى ثلاثة أجزاء: دولة يهودية مستقلة تبلغ مساحتها نحو 5000 كلم مربع، وتضم الجليل ومرج ابن عامر وقسماً كبيراً من السهل الساحلي - ولكنها لا تضم الأحياء اليهودية في القدس حيث يعيش نحو 70,000 يهودي، من مجموع يقارب نصف مليون نسمة؛ ودولة عربية مستقلة تبلغ مساحتها 12,500 كلم مربع، منها 6000 كلم مربع تشكّل صحراء النقب، وتتحد مع شرق الأردن؛ وأخيراً، منطقة انتداب بريطاني - وهي في الحقيقة ممر على شكل إجاصة يمتد من القدس وبيت لحم وصولاً إلى نقطة على ساحل البحر المتوسط

(1) محمد عزة دروزة، مذكرات، المجلدان 1 و2، 1993.
(2) Laurens, *La Question de Palestine*, vol. II, pp. 338-9.

جـــنوب يافا مباشرة. وستحتفظ بريطانيا أيضاً بالمطارات الاستراتيجية ومينائي حيفا والعقبة، اللذين سيُسمح لكل من اليهود والعرب باستخدامهما.

لم يـــرضَ العرب ولا اليهود عن هذه المقترحات. تأكدت أسوأ مخاوف العرب. فالمـــنطقة الـــساحلية التي كانت محور التنمية العربية مدة قرن من الزمن، وهي القسم الجميل للغاية من فلسطين، ستُعطى لليهود، ولن يبقى في أيدي العرب سوى يافا وغزة فقط. وستوضع القدس في ممر خارج الدولة العربية المقبلة. وستُشتت الطبقة السياسية الفلـــسطينية، إذ ســـتنتقل القيادة إلى الأمير عبد الله وشرق الأردن المتخلّف. لقد كان عبد الله المستفيد الرئيسي من خطة بيل.

رفضت الهيئة العربية العليا بقيادة الحاج أمين خطة التقسيم، ودعت رؤساء الدول العـــربية إلى رفضها أيضاً. طالبت بدلاً من ذلك بالاستقلال الكامل لفلسطين، وإلغاء الانـــتداب، وإنهاء تجربة "الوطن القومي اليهودي". غير أن الفلسطينيين انقسموا في ما بيـــنهم، إذ مـــال منافـــسو الحاج أمين النشاشيبيون إلى قبول التقسيم، على أن تدمج فلـــسطين مع شرق الأردن تحت حكم عبد الله. تلك كانت طريقتهم الحمقاء لإلحاق الهزيمة بالمفتي.

في المعـــسكر الـــيهودي، أصـــر التـــصحيحيون بقـــيادة فلاديمير جابوتنسكي Vladimir Jabotinsky على "حق اليهود الثابت غير القابل للتصرّف" بكامل فلسطين، وشرق الأردن أيضاً. غير أن وايزمان وبن غوريون كانا أكثر براغماتية. فاختارا اعتبار الخطـــة فرصة أخرى تعرضها عليهما بريطانيا، فوافقا على مبدأ التقسيم على مضض، ولكن على أن توسّع الدولة اليهودية المقترحة كثيراً. طالبا بالساحل الفلسطيني بأكمله مـــن غزة إلى الحدود اللبنانية، الجليل والمنطقة الشمالية بأسرها، بالإضافة إلى جزء من الصحراء الجنوبية، أي نحو 10,500 كلم مربّع بالإجمال. وشكّل ذلك تراجعاً كبيراً عن مطلـــب الـــصهاينة في مؤتمـــر السلام في سنة 1919، بفلسطين التي تمتد شمالاً إلى نهر اللـــيطاني في لبـــنان، وتشمل الجولان وحوران في سوريا، والمنطقة الأكثر خصوبة في شـــرق الأردن، وجزءاً من سيناء، أي نحو 50,000 كلم مربع بالإجمال! وطالما سعى الـــصهاينة للحـــصول علـــى موطئ قدم في سوريا ولبنان، ولم يكبحهم سوى يقظة سلطات الانتداب الفرنسية التي اعتبرتهم امتداداً للمؤامرات البريطانية.

في أوائل صيف 1937، توجه الحاج أمين إلى سوريا لعقد مزيد من اللقاءات مع رياض الصلح والكتلة الوطنية الحاكمة في دمشق في ذلك الوقت. وفي غيابه، هاجمه موشيه شرتوك والأمير عبد الله، كل على حدة، لدى البريطانيين ووصفاه بأنه مثير خطير للمتاعب. بل إن وايزمان أرسل برقية إلى ليون بلوم يحذّره فيها من أن المفتي يخطط للقيام بثورة في فلسطين بمساعدة سورية[1]. وحثّ شرتوك بريطانيا على ترحيله. فقد اعتقد الصهاينة أن إبعاد الحاج أمين عن الساحة، سيتيح للأمير عبد الله وآل النشاشيبي قبول التقسيم، والموافقة على إعادة رسم خريطة فلسطين لمصلحة الصهاينة. وأصبحت وزارة المستعمرات البريطانية مقتنعة بدورها - تحت الضغط الصهيوني المتواصل - أن الحاج أمين هو العقبة الحقيقية أمام تنفيذ خطة بيل.

هروب الحاج أمين إلى لبنان

علم المفتي أن البريطانيين يوشكون على اعتقاله وترحيله، فانتقل مع عائلته إلى الحرم القدسي الشريف، حيث لا تستطيع القوات البريطانية الدخول. وواصل، من ذلك الملاذ، تنظيم الحملة ضد التقسيم. اندلعت أعمال العنف مجدداً في شهر آب/أغسطس، ووردت تقارير مستمرة عن تهريب السلاح وتشكيل عصابات مسلحة في الريف، لا سيما في شمال فلسطين، حيث لا يزال رجال القسّام المقاومون ناشطين. في المرحلة الأولى من الثورة، تمكّنت لجان الدفاع عن فلسطين في العراق وسوريا ولبنان ومصر من إرسال الأموال والمتطوّعين إلى فلسطين، لكن ما إن سحق الجيش البريطاني المقاومة العربية، حتى همدت هذه اللجان. وفي صيف 1937، دبّت فيها الحياة ثانية وتركّز نشاطها على مشروع تنظيم مؤتمر قومي عربي يؤمل أن يحشد الحكومات والرأي العام العربيين لمصلحة القضية الفلسطينية. كانت الخطة تقضي بأن يعقد المؤتمر في فلسطين نفسها، لكن السلطات البريطانية رفضت السماح بذلك. فاتحت لجنة دمشق الفرنسيين في الأمر فوافقوا على انعقاد اللقاء في سوريا، ولكن تحت شروط صارمة: عدم مشاركة الحكومة السورية، وعدم إثارة مسائل تتعلّق بالانتداب الفرنسي، أو وضع الإسكندرونه، أو الحدود الموسّعة للبنان الكبير.

(1) المصدر نفسه ص 346.

على الرغم من هذه الشروط التقييدية، فقد شكّل المؤتمر نقطة الذروة في الاهتمام القومي العربي بفلسطين. كان ثورة حقيقية على القوة الاستعمارية الكريهة التي احتلت مصر، وغدرت بالشريف حسين، وفتحت الطريق أمام الهجرة اليهودية. كما أنه استحوذ على خيال العرب. بالتالي، اجتمع نحو 400 مندوب، تحت مراقبة فرنسية مشدّدة، في حفل الافتتاح في 8 أيلول/سبتمبر 1937، في منتجع بلودان الجبلي، على مسافة ساعة بالسيارة من دمشق. ترأس الوفد الفلسطيني عزة دروزة، الناشط البارز من نابلس. وقاد رياض الصلح مجموعة كبيرة من السياسيين اللبنانيين السنّة. وتمثّل العراق بقوّة، بعدما عاد نوري السعيد والوطنيون العرب إلى السلطة. انتُخب رئيس الوزراء العراقي السابق توفيق السويدي رئيساً للمؤتمر، والوزير المصري السابق علّوبة باشا نائباً للرئيس. وكان المصريون أكثر حضوراً في بلودان مما كانوا عليه في المؤتمر الإسلامي العام في القدس في سنة 1931. وحضر مؤتمر بلودان أيضاً الأمير شكيب أرسلان. ففلسطين في فكره الملتزم هي البوتقة التي تُختبر فيها العزيمة العربية الإسلامية، وهي مقياس استعداد الأمة العربية للتحوّل عبر التضحية - كي تستعيد في المستقبل ما كانت عليه في الماضي[1].

في 10 أيلول/سبتمبر، صدرت القرارات بالإجماع معلنةً أن فلسطين جزء لا يتجزأ من الوطن العربي، لا يمكن التصرّف بأي قسم منها أو فصله. ورفض تقسيم فلسطين ومقاومة إنشاء دولة يهودية فيها. وتأييد طلب وقف الهجرة وبيع الأراضي، وإلغاء وعد بلفور، وإبطال الانتداب وإحلال معاهدة بريطانية - فلسطينية محله تضمن استقلال فلسطين العربية وسيادتها. غير أن الأقلية اليهودية ستحظى بالحقوق نفسها التي تتمتّع بها الأكثرية العربية. وأبلغت بريطانيا بأن عليها الاختيار بين العرب واليهود. فإذا لم تغيّر سياستها في فلسطين، سيكون العرب أحراراً في طلب المساعدة من قوى معادية لها. ففي ذلك الوقت، كانت ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية تسعيان لإضعاف نفوذ بريطانيا وفرنسا في منطقة البحر المتوسط.

على الرغم من شهرة رياض الصلح كشخصية قومية مقاتلة بارزة، فإنه سعى في بلودان إلى تقديم النصح بشأن فضائل الإقناع والدبلوماسية؛ لكنه كان يتجه عكس

(1) Cleveland, *Islam Against the West*, p. 81.

التيار و لم يكن باستطاعته الوقوف في وجه مدّ دعاة اللجوء إلى العنف. و لم يكد يمضي أسبوعان على تفرّق المندوبين حتى اغتال أربعة أعضاء من مجموعة القسّام لويس أندروز Lewis Andrews، حاكم لواء الجليل بالوكالة في 26 أيلول/سبتمبر. وكان أندروز شديد الارتباط بخطة لورد بيل للتقسيم. جاء ردّ الفعل البريطاني على الفور. اعتُبرت الهيئة العربية العليا التي يقودها الحاج أمين خارجة على القانون، واعتُقل العديد من أعضائها، ورُحّلوا مقيّدين بالسلاسل إلى جزر سيشيل. فشعر الصهاينة بالفرح. تمكّن المفتي المختبئ في الحرم من الهروب قبل اعتقاله، ولكنه جُرِّد من جميع مناصبه. ففي ليلة 13-14 تشرين الأول/أكتوبر، تنكّر بزي بدوي وتسلل عبر النطاق المحيط بالحرم، وهرب في مركب صيد إلى ساحل لبنان[1]. كان مسار رحلته عكس تلك التي قام بها رياض من لبنان إلى فلسطين في سنة 1920، حين حكم عليه الفرنسيون بالإعدام. ومن لبنان، حاول الحاج أمين عبور الجبال إلى سوريا، ولكن الشرطة الفرنسية اعترضته واستجوبه م. كولومباني M. Colombani، مدير الأمن العام النافذ، الذي وضعه تحت الإقامة الجبرية في قرية الزوق الساحلية، وهي منطقة مسيحية تقع شمال بيروت[2].

ومن هناك، سمح له الفرنسيون بمواصلة توجيه حركة المقاومة الفلسطينية، ما أثار انزعاج البريطانيين الشديد. لا شك في أن الفرنسيين سرّهم أن يردّوا بالمثل على البريطانيين بسبب موقفهم خلال الثورة السورية في سنتي 1925 و1926، عندما شنّ الثوّار السوريون غارات على المواقع الفرنسية من مركزهم الآمن في شرق الأردن الخاضع للاحتلال البريطاني. وعلى أي حال، فإن باريس استخفّت بخطة التقسيم التي أعدّتها لجنة بيل واعتبرتها مناورة بريطانية. ورأوا أن البريطانيين يسعون من خلال إثارة احتمال إنشاء اتحاد عربي إلى صرف انتباه العرب عن خسارتهم الفادحة في فلسطين. ولا شك في أن فكرة الاتحاد العربي أثارت غضب الفرنسيين، إذ اعتبروها مخططاً بريطانياً لإخراجهم من سوريا، وهو أمر صحيح إلى حدٍّ ما. وثمة اعتبار فرنسي آخر. فقد أصبح المفتي بطلاً مسلماً، ينظر إليه على نطاق واسع أنه ضحية المكيدة

(1) أمين الحسيني، **مُذكرات الحاج أمين الحسيني**، دمشق، 1999، ص 32.

(2) Laurens, *La Question de Palestine*, vol. II, p. 374; Hurewitz, *Diplomacy*, vol. II, p. 82.

الصهيونية والنفاق البريطاني. وكان يحظى بدعم القادة المسلمين مثل رياض الصلح في بيروت والكتلة الوطنية في دمشق، التي حرص الفرنسيون في ذلك الوقت على استرضائها. لذا لم يكن في مصلحة فرنسا أن تسعى إلى تقييده. غير أن إقامة المفتي في لبنان خلال أشهر الأزمة التي أدت إلى نشوب الحرب في أيلول/سبتمبر 1939، أصبحت مصدراً متزايداً للاحتكاك في العلاقات الفرنسية البريطانية.

المرحلة الثانية من الثورة

في فلسطين، تفجّر العنف بقوة أشدّ من ذي قبل في تشرين الأول/أكتوبر1937، حين شنت مجموعات مسلّحة هجمات على القوات البريطانية، والمستوطنات اليهودية، بالإضافة إلى العرب المتعاونين مع بريطانيا من بينهم آل النشاشيبي، وغيرهم من العرب المناهضين للحاج أمين. بالتالي، وهكذا كانت الثورة في جزء منها حرباً أهلية بين العرب، وهو ما يثير الصدمة. وتحوّلت في السنتين التاليتين إلى نزاع دموي فتّاك بين الفلسطينيين، شبيه بما وقع بين الفلسطينيين في السنوات 2007 - 2009. فقد سقط نحو ربع الفلسطينيين الذين قُتلوا في أواخر الثلاثينيات على يد أبناء جلدتهم[1]. في هذه المرة، رفض الحسينيون طلب مساعدة قائد المقاومة المخضرم فوزي القاوقجي، الذي اعتُبر في ذلك الوقت قريباً جداً من الأمير عبد الله وأعدائهم النشاشيبيين. وتعاون أتباع الحاج أمين، الذين يديرون عملياتهم في منطقة القدس بصورة رئيسية، مع مجموعات القسّام. وقد قام عزة دروزة - الذي عهد إليه الحاج أمين بقيادة العمليات العسكرية - بتقسيم فلسطين إلى مناطق عمليات مختلفة وحاول إقامة قيادة مركزية.

وجد الجيش البريطاني نفسه يواجه حرب عصابات مستمرة يشنّها نحو ثلاثة آلاف ثائر في الريف ونحو ألف في المدن. وكان هناك ستة آلاف ريفي مجاهد آخر قادرين ومستعدين للانضمام إليهم عند الاقتضاء[2]. ضاعفت لجان دعم فلسطين في دمشق والقاهرة وبغداد وغيرها من المدن جهودها لجمع التبرعات، وتهريب الأسلحة إلى داخل البلاد. وبحلول صيف 1938، تمكّن الثوّار من السيطرة إلى حدٍّ ما على

(1) Christopher Sykes, *Crossroads to Israel*, p. 218.

(2) Laurens, *La Question de Palestine*, vol. II, *p*. 388; Hirst, *The Gun and the Olive Branch*, *p*. 212 يعتبر أن عدد الثوار وصل إلى 15,000 رجل.

المـــنطقة الجبلية الوسطى من الجليل، وعلى مدن رئيسية، وإن على نحو غير متواصل، مثل الخليل ونابلس وبئر السبع ويافا وطبرية والقدس القديمة.

ردّت بـــريطانيا بحملة شرسة من الإرهاب المضادّ: الاعتقالات الجماعية من دون محاكمـــة، وهـــدم مـــنازل المشتبه فيهم، والضرب، والتنكيل، والعقوبات الجماعية. وأُنشئت المحاكم العسكرية، واقتيد المواطنون الأبرياء إلى معسكرات الاعتقال. وأصدر قانـــون يعاقب بالإعدام كل من يحمل قنبلة أو يطلق النار. وقد صُدم السكان العرب عـــندما حـــوكم وأُعـــدم أحـــد قادة مجموعة القسام، الشيخ المسنّ والمحبوب فرحان الـــسعدي، أحد 112 عربياً شنقهم البريطانيون قبل قمع الثورة في نهاية المطاف(1). في المقابـــل، شـــنق البريطانيون يهودياً واحداً بتهمة "الإرهاب"، ما أظهر بوضوح في أي جهة يقفون في لعبة المشانق الشنيعة. وتزايد القمع البريطاني مع تصاعد العنف، وأصبح الـــتعذيب منهجياً. وعمد البريطانيون إلى ممارسة مرعبة حيث كانوا يربطون الريفيين المذهولين في مقدّمة المركبات "كدروع بشرية" ضد الألغام والكمائن. وهكذا أخمدت القـــوة الاستعمارية الحاكمة ثورة الفلاحين العفوية بقسوة شديدة وسفك الدماء. لقد دُفع الفلسطينيون إلى اليأس بسبب الهجرة اليهودية غير المقيّدة وشراء الأراضي المستمر، بالإضـــافة إلى تحيّـــز بـــريطانيا الفاضح لمصلحة الصهاينة. لكن تبيّن أن تحدّي القوة العـــسكرية البريطانية خطأ استراتيجي، لا يقلّ فداحة عن الثورة السورية المسلحة على الجيش الفرنسي قبل نحو عقد من الزمن. وثبت أن رياض الصلح كان محقاً في تشاؤمه. لقد كانت الثورة الفلسطينية، كما عبّر عنها بأسى جون مارلو John Marlowe، "زقاقاً آخر من أزقة القومية العربية ذات النهاية المسدودة... والمحكوم عليها بالفشل"(2).

فيما كان العرب يتعرّضون للقمع بقسوة، تزايدت أعداد الشرطة الريفية اليهودية مـــن 3500 شرطي في 1936 إلى 5000 في سنة 1938. وجُنّد 1000 حارس متطوّع آخـــرين في القدس. وتكثّف التعاون البريطاني مع الهاغاناه، التي أصبحت الآن جيشاً سرياً ضخماً قوامه 15,000 رجل وامرأة. فأخذ البريطانيون يعتمدون على المستوطنين المسلّحين، وغضّوا الطرف عن عمليات "الدفاع الهجومي" التي تنفّذها الهاغاناه، وتقوم

(1) Hirst, *The Gun and the Olive Branch*, p. 216.

(2) John Marlowe, *The Seat of Pilate: An Account of the Palestine Mandate*, London 1959, pp. 137-8.

علـــى شـــن حـــرب استباقية على العرب بدلاً من الاكتفاء بالدفاع عن المستوطنات اليهودية - وهي سياسة دأبت إسرائيل على اعتمادها منذ ذلك الوقت. وقد توسّعت هذه الاستراتيجية الهجومية وازدادت قسوة بفضل النقيب أورد وينغيت Orde Wingate، عمـــيل الاســـتخبارات البريطاني الشاب المولع بالصهيونية، الذي درّب "الفرق الليلية الخاصـــة" للـــهاغاناه والقـــوات البريطانية وقادها. وقد تخصّصت هذه الفرق بنصب الكمـــائن للمقـــاتلين والقـــادة العـــرب وقـــتلهم. وكان موشيه دايان أحد الضباط الإسرائيليين العديدين الذين تعلموا، تحت قيادة وينغيت، الاستبسال، وسرعة الحركة، والاختراق العميق، وهي الخصائص التي شكّلت الاستراتيجية العسكرية الإسرائيلية في المستقبل[1].

أصبحت الهجمات المباغتة التي تنفّذها مجموعات الكوماندوس اليهودية، واغتيال القـــادة العـــرب، والمعاملـــة الوحـــشية للمواطنين العرب السمة المميّزة للممارسات الإسرائيلية منذ ذلك الوقت فصاعداً[2]. تصاعد العنف في أواسط صيف 1938، عندما بدأت منظمة الإرغون الإرهابية اليهودية، بشنّ هجمات انتقامية على المدنيين العرب، مـــثل الـــتفجيرات المتكـــررة في سوق الفاكهة في حيفا، التي قتلت مئات الأشخاص وشـــوّهتهم. ودمّرت الثورة والقمع الوحشي الذي واجهته الاقتصادَ الفلسطيني. وقد ســـقط أكثـــر من 5000 قتيل عربـــي وجرح 14,000 آخرين[3]. وهرب عدة مئات آخرون من البلاد، لا سيما المقتدرون مادياً. وقتل 101 بريطاني و463 يهودياً. في هذه الظـــروف الـــتي تسودها الفوضى والموت، أصبحت خطة بيل للتقسيم، ضحية بائسة أخرى من ضحايا فلسطين.

بريطانيا تغير مسارها

علت صرخات الغضب والاستهجان في جميع أنحاء العالم العربـــي احتجاجاً على القمع الوحشي في فلسطين. أصبح الرأي العام في بلدان مهمة مثل مصر والعراق شديد المعـــاداة لـــبريطانيا. وذكـــرت الهيئة العربية العليا في القدس إلى أن اختبار القوة أخذ

(1) Hirst, *The Gun and the Olive Branch*, p. 228.
(2) Laurens, *La Question de Palestine*, vol. II, p. 392.
(3) Walid Khalidi, *From Haven to Conquest*, Beirut 1971, pp. 846-9.

يتحوّل إلى أكبر ثورة على الاستعمار تواجهها بريطانيا منذ الحرب العالمية الأولى. في لندن، اشتدّ خوف وزارة الخارجية من تأثير ذلك على مركز بريطانيا في المنطقة. وأخيراً، حرصاً على المحافظة على بعض الصداقة مع العرب والمسلمين، تزايدت انتقادات وزير الخارجية أنتوني إيدن Anthony Eden لتحيّز وزير المستعمرات ويليام أورمسبي - غور لمصلحة الصهاينة. فقد أصبحت فلسطين منطقة ضعف شديد للبريطانيين ولم تعد تؤمّن الحماية لمصر - وهو السبب الرئيسي وراء احتلال فلسطين في الحرب العالمية الأولى. وأصبحت مصر مهدّدة بثورة عربية من الداخل وبالقوة الجوية والبحرية الإيطالية من الخارج. فقد بدأت إيطاليا الفاشية تشكّل تحدياً مزعجاً للهيمنة البريطانية - الفرنسية على البحر المتوسط. وكانت إذاعة باري Bari قد بدأت تبثّ الدعاية باللغة العربية منذ آذار/مارس 1934، في محاولة لاستمالة الرأي العام المسلم إلى جانب موسوليني[1]. استقبل موسوليني الأمير شكيب أرسلان، صديقَ رياض الصلح، في سنة 1934. وكان أرسلان واحداً من العديد من العرب الذين اعتبروا أن إيطاليا الفاشية أقل خطورة بكثير على مصالح العرب الأساسية من بريطانيا أو فرنسا.

في لندن، أصبحت الاعتبارات الجيوسياسية على رأس أولويات السياسيين، لا سيما الحاجة إلى تأمين موارد الشرق الأوسط النفطية، والقواعد العسكرية، وخطوط المواصلات مع الهند وما خلفها. فقد كان خط أنابيب شركة النفط العراقية ينقل النفط الضروري للإمبراطورية إلى حيفا على البحر المتوسط. وكان يُخشى أن تنهار القوة البريطانية في الشرق الأوسط بأكمله إذا سقطت فلسطين. ومن المخاوف الفورية أن الجيش البريطاني المرهق أخذ يجد صعوبة في تعزيز قواته في فلسطين. وبعد قيام ألمانيا بضمّ النمسا في آذار/مارس 1938، بلغ التهديد بوقوع حرب أوروبية حداً أجبر بريطانيا على البدء بإعادة قواتها إلى الوطن من فلسطين.

كانت تلك بعض العوامل التي سلبت أهمية خطة تقسيم فلسطين. كان إيدن يعارض التقسيم، لكن معارضة خطة بيل استمرت بالاتساع حتى عندما استقال إيدن

(1) Callum A. MacDonald, 'Radio Bari, Italian Wireless Propaganda in the Middle East and British Countermeasures 1934-38', in *Middle Eastern Studies*, 17, (1977).

في شـــباط/فبراير 1938، احتجاجاً على التسامح السياسي الانتهازي الذي أبداه نيفيل تشمبرلين Neville Chamberlain تجاه إيطاليا الفاشية، وتسارعت وتيرتها بعد التعديلات التي أجريت في المناصب العليا. ففي 1 آذار/مارس، تم استبدال السير أرثر واكهوب في القدس وحل محلّه هارولد مكمايكل Harold McMichael، وهو حاكم سابق لتنجانيقا؛ وفي لندن استقال أورمسبـــي - غور - المناصر الرئيسي للتقسيم - في أيار/مايو وحل محلّـــه في وزارة المستعمرات مالكولم مكدونالد Malcolm MacDonald، ابن رئيس الـــوزراء السابق. بالإضافة إلى ذلك، رفعت لجنة بريطانية أُرسلت إلى فلسطين لدراسة كيفـــية تطبـــيق التقسيم، تقريراً توصي فيه بنبذ الخطة. لذا قررت الحكومة البريطانية التخلّص منها على الفور، وبحلول صيف 1938 لفظت خطة التقسيم أنفساها الأخيرة. وأصبحت لبريطانيا الآن أولويات أخرى أكثر إلحاحاً.

للخروج من هذا المأزق - وبغية تقوية الدفاعات الاستعمارية في الشرق الأوسط دون الإعـــلان عن ذلك - دعت الحكومة البريطانية إلى عقد مؤتمر طاولة مستديرة في لندن افتتحه رئيس الوزراء نيفيل تشمبرلين في 7 شباط/فبراير1939. وقد حضره عرب فلـــسطين والـــوكالة اليهودية، بالإضافة إلى ممثلين عن مصر والعراق وسوريا وشرق الأردن واليمن. غير أن قصَر نظر بريطانيا حال دون حضور المفتي. وكانت العلاقات بـــين العرب واليهود قد أصبحت، في ذلك الوقت، سيئة إلى حدّ أنهم رفضوا الجلوس معاً في الغرفة نفسها. وأعلن البريطانيون أن ما مجموعه 75,000 يهودي فقط سيُسمح لهم بدخول فلسطين في خمس سنوات ابتداء من 1 نيسان/أبريل 1939. وستُتخذ تدابير لمـــنع الهجرة غير الشرعية، في حين ستُنظّم عمليات شراء الأراضي لليهود، بل ستُمنع تمامـــاً في بعـــض المناطق. لم يكن من الممكن في الواقع تنفيذ أي من هذه الاقتراحات بالنـــسبة إلى الـــصهاينة، وتم خـــرقها كلّها بشكل فاضح. وقد انتهى المؤتمر في 17 آذار/مارس دون التوصّل إلى أي اتفاق.

بعـــد مرور شهرين، في 17 أيار/مايو، نشرت الحكومة البريطانية الكتاب الأبيض الـــذي وجّه ضربة موجعة إلى الطموحات الصهيونية، على الرغم من أنه يدعو لحماية "الوطن القومي اليهودي" بالإعلان أنه "ليس من ضمن السياسة [البريطانية] أن تصبح فلـــسطين دولة يهودية". لقد كان هذا الإعلان المطلق باهراً في الغش والكذب، إذ إن

بـــريطانيا بذلت كل ما في وسعها لتمهيد الطريق أمام نشوء دولة يهودية بسرعة بعد الحـــرب العالمية الثانية من خلال القمع الوحشي للثورة العربية، وقتل مجاهديها ونفي أهم قادتها، وتشجيع الشقاقات في الصفوف الفلسطينية.

لم يكـــن لمقتـــرحات الكتاب الأبيض الصادر في سنة 1939 صلة كبيرة بالوقائع علـــى الأرض. فقـــد اقتـــرح إنشاء دولة فلسطينية بالتدريج، خلال عقد من الزمن، يحكمهـــا العرب واليهود معاً. وأكد أن الاستقلال التامّ يتوقّف على العلاقات الحسنة بـــين المجـــتمعين. لكـــن الوكالة اليهودية شجبت الكتاب الأبيض ووصمته بالخيانة، وتعهّـــدت بالتصدي له بحزم. وعمد الصهاينة الغاضبون من هذا الانقلاب في السياسة الـــبريطانية "لصالح" العرب، إلى زيادة سرعة البناء العسكري اليهودي، الذي استُخدم في نهايـــة الأمر ضد البريطانيين - الذين أسسوه وأمدّوه بالقوة في المقام الأول - بقدر ما استُخدم ضد العرب. وفي سنة 1939، أدركت بريطانيا فجأة أنها ستنشغل قريباً في القـــتال دفاعـــاً عـــن بقائها كأمة وإمبراطورية. لذا أصبح هدفها الأساسي في الشرق الأوســـط الـــشديد الأهمية، كبح الشعور المؤيّد للمحور وعكسه، والسعي في الوقت نفـــسه إلى تعبـــئة العرب لمساعدتها في مجهودها الحربـــي. فالانتصار في تلك الحرب يتفوّق على جميع الاعتبارات الأخرى.

رفـــضت الهيئة العربية العليا بقيادة الحاج أمين الكتاب الأبيض لأنه لم يستجب بـــشكلٍ كاف لمتطلبات العرب. وانتقل الحاج أمين في تشرين الأول/أكتوبر 1939 من لبنان إلى بغداد، حيث اكتسب نفوذاً واسعاً، وقاد النشاطات المؤيّدة للمحور، وحاول التحـــريض علـــى المزيد من التمرّد على البريطانيين في فلسطين. وكان يأمل بأن يحقّق الانتصار الألماني مكاسب ضخمة للفلسطينيين، بل ربما أن يضعه على رأس دولة عربية كبيرة. لكن عندما أخمدت حركة رشيد عالي الكيلاني في العراق في سنة 1941، اضطر المفـــتي إلى الفرار أولاً إلى إيران ثم إلى إيطاليا. في تشرين الثاني/نوفمبر، التقى بهتلر في برلين وانضم إلى مساعي المحور لنشر الدعاية السياسية كمدير لمكتب عربـــي خاص، يبث البرامج إلى العالم العربي[1].

(1) Hurewitz, *Diplomacy*, pp. 147 ff.

بقي الحاج أمين الحسيني ورياض الصلح بطلين قوميين عربيين، كل على طريقته، لكـــن أجبرهما الأحداث الضاغطة على تركيز نضالهما على نطاق أضيق بكثير، حيث ركّز الحاج أمين على فلسطين وانصبت جهود رياض الصلح على سوريا ولبنان. ظلاّ يعيـــشان قضية الاستقلال والوحدة العربية ويحلمان بهما، لكنهما افترقا سياسياً حين راهن الحاج أمين رهاناً تاماً على ألمانيا النازية، على أمل القضاء على المدّ الصهيوني في فلـــسطين. فيما اختار رياض التطلّع إلى بريطانيا للمساعدة في تحرير المشرق من قبضة فرنسا. وعلى الرغم من شجاعة الأول ووطنيته، فإنه أنهى حياته في المنفى وألصقت به أشـــنع الـــتهم بسبب تحالفه مع هتلر. بالمقابل، كُرّم الثاني باعتباره المهندس الرئيسي لاستقلال لبنان.

الفصل الثاني عشر

ولادة وطنيّ لبناني

في أواسط ثلاثينيات القرن الماضي، برز رياض الصلح قائداً فعلياً للطائفة السنية في لبنان دون منازع. ولم يكن من السهل البتة تبوّؤ مثل تلك المكانة. فأن تكون قومياً عربياً في لبنان الكبير في فترة ما بين الحربين يعني الشعور بالغربة في بلد يجد المرء صعوبة كبيرة في الاعتراف بحدوده، ولا يسعه سوى النفور من إيديولوجية دولته، وتعمُّد استبعاده من حياتها السياسية. لقد كانت دولة تهدّد هوية المرء بأكملها. لم يكن المسلمون السنّة يستسيغون اعتبار أنفسهم "لبنانيين"، لأن وطنهم الحقيقي هو العالم العربي الكبير. ولم يرتضوا أن يجدوا أنفسهم مواطنين - بل مواطنين من الدرجة الثانية - في دولة مسيحية تحت جناح فرنسا، اقتطعها الجنرال غورو في 31 آب/أغسطس 1920 من قلب سوريا "الجغرافية"، وأعلنها على الملأ حقيقة واقعة في اليوم التالي.

كان رياض ينتمي إلى عائلة من الوجهاء المالكين للأراضي، الذين عملوا أجيالاً عديدة في خدمة الحكم العثماني. وعلى الرغم من أن جذور العائلة تعود إلى صيدا، فإنهم كانوا يشعرون بالارتياح في المناطق السورية الداخلية، كما في الساحل. والواقع أن المسلمين السنّة في صيدا، على غرار أقرانهم في بيروت وطرابلس، اعتبروا أنفسهم جزءاً لا يتجزأ من الغالبية السنية في سوريا التي تربطهم بها علاقات عائلية وتجارية وسياسية وثيقة. على سبيل المثال، تزوج جدّ رياض، أحمد باشا، من ابنة مفتي دمشق؛ وخدم والده الإمبراطورية متصرّفاً، وعضواً في مجلس المبعوثان أو البرلمان العثماني، وعندما انهارت الإمبراطورية عيّن وزيراً للداخلية في حكومة الأمير فيصل في دمشق. بل إن رياض نفسه تزوّج من عائلة الجابري الحلبية البارزة. وكان في مشاعره ورؤيته وإحساسه الوطني، عربياً بقدر ما هو "لبناني"، بل ربما أكثر بكثير.

لكن الجنرال غورو أدخل بجرّة قلم - أي عند توقيع المرسوم رقم 318 الذي أنشأ لبنان الكبير - تغييراً على حياة رياض الصلح، من عضو في الغالبية السنّية المسيطرة في

العـــالم العربـــي إلى عضو في أقلية سنّية في دولة جديدة تسيطر عليها غالبية مارونية. وبالـــتالي، وهكـــذا بين عشيّة وضحاها تحوّل الحاكمون إلى محكومين. ووجد أعضاء النخبة السنّية الحضرية - وهم الوسطاء التقليديون بين الدولة والمجتمع - أنفسهم الآن أقلـــية تابعـــة. وأصبح عليهم الآن أن يتعلّموا العيش تحت حكم مسيحي، مثلما تعلّم المـــسيحيون أن يعيشوا تحت حكم إسلامي إلى أن قلب التدخّل الاستعماري الفرنسي الأمـــور[1]. لذا أقلّ ما يقال إن السنّة وجدوا هذا التغيير المفاجئ في مكانتهم التقليدية مزعجاً جداً وغير مرحّب به.

قضية "الأراضي المتنازع عليها"

جـــاء قرار إنشاء لبنان الكبير ضمن حدود موسّعة نتيجة مباشرة لانتصار الجنرال غورو على الأمير فيصل. كما أنه حمل بصمات روبير دو كيه، الأمين العام للمفوّضية الفرنـــسية العليا في بيروت، ونصير رسالة فرنسا الاستعمارية. كان دو كيه يحبّذ سياسة "فـــرّق تـــسُد" القائمـــة على استغلال الأقليات الإثنية والدينية. وجاء في مقدمة هذه الأقليات أتباع فرنسا الموارنة المخلصين في جبل لبنان، لكن لم يكن العلويون في شمال غـــرب ســـوريا، ودروز جنوب سوريا، وأكراد الجزيرة يقلّون عنهم أهمية بالنسبة إلى الاستراتيجية الفرنسية. وقد كره المسلمون السنّة في سوريا ولبنان الطريقة التي تعاملت فـــيها فرنـــسا مـــع هذه الأقليات ونفروا منها. ورأوا على وجه الخصوص أن مطالبة الموارنة بدولة مسيحية مستقلة موسّعة تحت الحماية الفرنسية طموح غير مشروع، بل مؤامـــرة فرنسية لرفض منح العرب استقلالهم الوطني[2]. وهكذا ألقى الصدع الناشئ بـــين القوميين العرب والقوميين اللبنانيين بظلاله على حياة رياض في جانب كبير من الفترة ما بين الحربين. وأصبح السعي لردم هذه الهوّة إحدى مساهماته الرئيسية في الحياة السياسية الحديثة في لبنان.

وتجـــدر الإشارة إلى أنه حين رسم غورو الحدود الموسّعة للبنان الكبير، رأى من المناسب أن يضمّ إلى جبل لبنان أجزاءً كبيرة من الأراضي السورية، بما فيها قسم كبير

(1) Hanna Ziadeh, *Sectarianism and Intercommunal Nation-Building in Lebanon*, London 2006, p. 108.

(2) Meir Zamir, *The Formation of Modern Lebanon*, New York, 1988, p. 59.

من ساحل البحر المتوسّط. وقد أدخل هذا الإجراء الأحادي تحوّلاً جذرياً على متصرفية جبل لبنان العثمانية في القرن التاسع عشر إلى لبنان الكبير. ففي تموز/يوليو 1920، لم تكن مساحة جبل لبنان تزيد على 4500 كلم مربع؛ وبعد شهر واحد فقط، أصبحت مساحة لبنان الكبير ضعف ذلك، أي 10452 كلم مربعاً. شملت الأراضي التي ضمّت سنجق بيروت في الوسط، وسنجق صيدا في الجنوب (فُصل عن منطقته الجنوبية التي ضُمت إلى فلسطين)، وسنجق طرابلس ومناطقه الداخلية في الشمال. كما فُصلت أقضية البقاع وبعلبك وحاصبيا وراشيا في شرق وجنوب شرق جبل لبنان عن ولاية دمشق وأُلحقت بالدولة الجديدة.

قبل الحرب العالمية الأولى، كان موارنة جبل لبنان أكثرية واضحة، يشكّلون 58 بالمئة من مجموع السكان، مقارنةً بنحو 12 بالمئة للأرثوذكس، و11 بالمئة للدروز، و8 بالمئة فقط للسنة والشيعة معاً. لكن طرأ على التركيبة الطائفية تغيّر كبير في سنة 1921. فبإضافة الأراضي الجديدة، أصبح الموارنة الذين يعدّون 176,000 نسمة يشكّلون 31.3 بالمئة من إجمالي السكان. وشكّلت الطوائف المسيحية مجتمعةً، التي بلغ عددها 300,000 نسمة، 53.4 بالمئة من إجمالي السكان، أي بزيادة قليلة على المسلمين (السنّة والشيعة والدروز) الذين بلغ عددهم 262,000 نسمة، ونسبتهم 46.6 بالمئة[1].

رفض غالبية المسلمين السنة والشيعة المقيمون في المدن الساحلية، والأقضية الأربعة الداخلية الانتداب الفرنسي، وتمرّدوا على دمجهم قسراً في لبنان الكبير، مطالبين بإعادة توحيدهم مع الوطن السوري. ومما يشير على موقفهم العدائي أنهم قاطعوا إلى حدٍّ كبير المشاورات التي أدت إلى وضع مسوّدة الدستور اللبناني في سنة 1926، واعتبروا أنه يقنّن انفصالهم عن سوريا. وفي 9 كانون الثاني/يناير 1926، أرسل مفتي بيروت السني، الشيخ مصطفى نجا، رسالة إلى موسى نمّور، رئيس اللجنة الدستورية، يبلغه فيها رسمياً أن المسلمين يرفضون أي صلة بالترتيبات المؤسساتية الجديدة[2].

(1) Jacques Seguin, *Le Liban Sud: Espace périphérique, espace convoité*, Paris 1989, pp. 42-44.

(2) Nadine Méouchy, "Le Pacte national 1943-1946: Les ambiguïtés d'un temps politique d'exception", in Khoury (ed.) *Sélim Takla*, p. 467.

سيطرت قضية "الأراضي المتنازع عليها" التي أُلحقت بجبل لبنان سنوات عدة على النقاش السياسي في المشرق. فهل ستُعاد إلى سوريا، كما طالب القوميون العرب، أم أنها أصبحت جزءاً غير قابل للتصرّف من الدولة الجديدة، كما أصرّ الموارنة، وأكّدت المادة الثانية من دستور 1926 التي تنصّ على أنه "لا يجوز التخلي عن أحد أقسام الأراضي اللبنانية أو التنازل عنه"؟

كانت معضلة رياض الصلح، بصفته زعيم الطائفة السنّية في لبنان في ثلاثينيات القرن العشرين، كيف يوفّق بين قوميته العربية - وهي أساس وجوده منذ سنواته الأولى - والشعور الجديد بالوطنية اللبنانية الذي نما بصورة حتمية وتجذّر داخل الحدود الجديدة. فانصبّت جهوده في العقد التالي على استقطاب التأييد لاقتراح عدم وجود تنافر أو تناقض بين الوطنية اللبنانية والقومية العربية؛ وأن الوفاء لدولة لبنان الكبير الجديدة يمكن أن يتوافق مع الإيمان باستقلال العرب ووحدتهم؛ وأن الاستقلال اللبناني خطوة ضرورية نحو الغاية العربية الكبرى. غير أن أقل ما يقال إن هذه الفكرة لم تلقَ قبولاً لدى المتشددين في الجانبين.

في تلك الفترة، كان انفصال لبنان عن سوريا خيالاً إلى حد كبير. فقد بقيت سياسة البلدين متشابكة، وارتبط اقتصادهما معاً باتحاد جمركي، وصلات تجارية ومالية وعائلية عديدة. وكانت المفوّضية العليا الفرنسية نفسها في بيروت تحكمهما معاً، والشركات الامتيازية الفرنسية نفسها تمدّهما بالكهرباء، وتدير الترامواي والسكك الحديدية فيهما. كما أصدر مصرف فرنسي واحد، بنك سوريا ولبنان، عملتهما الورقية الواحدة ذات السعر المتقلّب. وغالباً ما تبادل القوميون العرب اللبنانيون السوريون، الزيارات. وكان رياض يشعر بالراحة في دمشق وحلب بقدر راحته في بيروت. بالتالي، لقد كان البلدان أشبه بوعائين مستطرقين: ما يحدث في أحدهما يؤثّر في الآخر على الفور.

وفاة هنانو وإضراب الأربعين يوماً

سرعان ما ظهر هذا الارتباط من خلال حدث بالغ الأهمية في سوريا: وفاة إبراهيم هنانو، قائد الكتلة الوطنية من دون منازع في 21 تشرين الثاني/نوفمبر 1935،

وكـــان ريـــاض الصلح على علاقة وثيقة به منذ سنوات عدة. نشط هنانو من مقرّه كقائـــد بارز للثورة السورية الكبرى 1925 - 1926، لكن بعد القمع الوحشي لهذه الـــثورة، انـــتهج موقفاً أكثر اعتدالاً - على غرار رياض الصلح - وأكّد على ضرورة الحوار مع سلطة الانتداب بغية تحقيق الاستقلال المرجوّ.

حـــدّد ذلـــك الموقف نبرة الخطباء في جنازته، التي حضرتها وفود من جميع أنحاء ســـوريا، بمـــن فيهم وفد كبير من بيروت بقيادة رياض. وقد تميزت الجنازة باشتراك العلمـــاء المـــسلمين ورجال الدين المسيحيين، واستخدام رموز إسلامية ومسيحية في تـــصميم أكالـــيل الزهور التي حُملت في الموكب الحاشد الذي ضمّ 30,000 شخص، وامتدّ على طول كيلومترين تقريباً[1].

لم ينتهـــز المفوّض السامي المتسلّط، الكونت داميان دو مارتيل، فرصة وفاة هنانو للاتـــصال بالقوميين العرب. واختار بدلاً من ذلك اتخاذ تدابير قاسية لإخماد الاحتقان الـــذي ظهـــر آنذاك في جميع أنحاء البلاد. فتسلّح بالسلطات التشريعية الكبيرة، وهدّد بنفـــي كل من يتجرأ على أن يتحداه بقول أو عمل. غير أن حياته الخاصة المسترخية والغنـــية تفـــوّقت على سلطته الصارمة إلى حدٍّ ما. فغالباً ما كان يشاهد في حانات بـــيروت وملاهيها الليلية، كما كان معروفاً أنه يقيم علاقة عاطفية مع الزوجة الروسية لموظف قنصلي أجنبـــي. وبدت زوجته الكونتيسة دو مارتيل، التي وصلت إلى بيروت ذلـــك الشتاء، أكثر اهتماماً بالخيول من اهتمامها بغراميات زوجها، وأشبعت شغفها بحضور سباقات الخيل الأسبوعية المحمومة في بيروت.

في 10 كانـــون الـــثاني/يناير 1936، أي بعد مرور أربعين يوماً على وفاة هنانو، خـــرجت مظاهـــرات حاشدة في دمشق سرعان ما امتدت إلى جميع المدن السورية، وتـــبعها فـــوراً إضراب عام. كان ذلك التحرك يرمي إلى الضغط من أجل إقامة دولة ســـورية موحّدة، تُحكم من دمشق، وتضمّ الأقليات التي سعى الفرنسيون إلى التعامل معها بصورة منفصلة؛ الدروز والعلويون والأتراك (في سنجق الإسكندرونه)، والأكراد (في الجزيـــرة). فردّ المفوّض السامي بإرسال الشرطة للإغارة على مقرّ قيادة الوطنيين،

(1) Robert Parr, British Consul in Aleppo, to Sir Samuel Hoare, 29 November 1935 (FO 371/19022).

ونفي فخري البارودي، "منظّر" الكتلة الوطنية والمفكر القومي البارز، إلى القامشلي في شمال شرق سوريا. وقد تميّز البارودي الذي أفلت بصعوبة من عقوبة الإعدام خلال الثورة السورية الكبرى، بموهبة خطابية ملحوظة في إلهاب حماسة الجماهير، وهو ما وجده المفوّض السامي الفرنسي مثيراً للغضب.

قصد الكونت دو مارتيل دمشق لمعالجة الموقف. لكن اجتماعه مع وطنيين معتدلين انتهى بمشادة غاضبة. وقد وجّه تحذيراً متعجرفاً إلى فايز الخوري، نقيب المحامين في دمشق، وشقيق فارس الخوري، السياسي المخضرم في الكتلة الوطنية، أنه ما عليه سوى أن يأمر الحارس السنغالي الواقف عند الباب حتى يُرسل الخوري لينضمّ إلى البارودي في أقصى الشمال[1]. باءت كل محاولات المصالحة بالفشل. وأعلن التجار الوطنيون، واضعين مصالحهم الخاصة جانباً، عن إصرارهم على المضيّ في الإضراب حتى النهاية. وحذا الحرفيون وعمال المصانع حذوهم. فبدأت الأسعار بالارتفاع ما زاد من معاناة الفقراء. وسرعان ما أصبحت المظاهرات عنيفة. فقُتل العديد من المتظاهرين في اصطدامات مع الشرطة والجنود في دمشق. وفي حماة، هاجم حشد من الناس قوة من الفرسان الفرنسيين الذين ردّوا بالذخيرة الحية، فقتلوا سبعة من المهاجمين، وجرحوا العشرات غيرهم.

في 10 شباط/فبراير، عُهد بمهمة استرجاع النظام إلى الجنرال شارل هنتزيغر Charles Huntziger، قائد الجيش الفرنسي في المشرق، فأنشأ مقرّ قيادته في فندق قصر الشرق قرب سكة حديد الحجاز، أفضل فندق في دمشق في ذلك الوقت. وعمل حراس سنغاليون، مسلّحون بحراب طويلة معقوفة على إبعاد المشاة عن الرصيف أمام المبنى، فأثار ذلك الغضب في نفوس الدمشقيين الأباة. فرض هنتزيغر الأحكام العرفية على المدينة، وحذّر الشعب من أن جنوده متأهبون لرد الصاع صاعين. أُغلقت الصحف والمدارس وجامعة دمشق نفسها. وأُلقي القبض على وطنيين بارزين، بمن فيهم جميل مردم ونسيب البكري، وأرسلوا إلى المنفى.

لكن الفرنسيين هالهم امتداد التظاهرات إلى بيروت وصيدا وطرابلس، حيث أُغلقت الدكاكين، وأضرب الطلاب تضامناً مع إخوانهم السوريين. كما جمعت

(1) Consul Gilbert Mackereth to Anthony Eden, 21 January 1936 (FO 371/20065).

الأموال والمواد الغذائية وأرسلت من لبنان إلى سوريا. بالطبع، لم يعد من الممكن تجاهل هذا التطوّر، إذ إنها المرة الأولى التي يلجأ فيها المناهضون للوضع الراهن الذي فرضه الفرنسيون في لبنان إلى الشوارع للتظاهر ضد الانتداب الفرنسي[1].

في 19 شباط/فبراير، دعا المفوّض السامي الفرنسي رئيس غرفة التجارة في دمشق، عارف الحلبوني، للاجتماع به مع وفد من التجار، متوقعاً أن يطلبوا منه مساعدة الفرنسيين في قمع الوطنيين. وبدلاً من ذلك، اشترط التجار الغاضبون للعودة إلى مزاولة أعمالهم تنفيذ مطالب الوطنيين بأكملها: إطلاق سراح جميع السجناء الذين أُوقفوا في الاضطرابات على الفور؛ وإزاحة الشيخ تاج الدين الحسيني، رئيس الوزراء المتعاون الذي عيّنه الفرنسيون، عن منصبه في الحال (صُرف بعد أربعة أيام فسارع إلى الهرب إلى باريس)؛ وإعادة دستور فوزي الغزي؛ وإعادة فتح البرلمان السوري؛ والتفاوض على معاهدة على نسق المعاهدة البريطانية العراقية لسنة 1931. وبهذا الموقف القويّ المثير للإعجاب - والمفاجئ للفرنسيين - دخل الحلبوني تاريخ سوريا كبطل وطني.

في 28 شباط/فبراير، أي في اليوم الأربعين للإضراب العام، نظّم الوطنيون الملتزمون مظاهرة ضخمة أدت مرة أخرى إلى صدامات عنيفة مع الشرطة، فقُتل العديد من المتظاهرين برصاص الفرنسيين. أبلغ القنصل البريطاني لندن أن الفقراء كانوا على شفير المجاعة، لكنهم طوّروا ما وصفه بشكل غريب "درجة خطيرة من التقشّف المتطرف". وقد تبيّن أن تلك المظاهرة كانت نقطة التحوّل.

الفرنسيون يقرّرون التفاوض أخيراً

في باريس، تعرّضت الحكومة الفرنسية إلى ضغوط من المسؤولين الاستعماريين والضباط العسكريين الذين ظلّوا يحلمون بالإمبراطورية، ويخشون من خسارة مناصب مربحة من جهة، ومن جماعات الضغط اليسارية التوّاقة إلى إراحة دافعي الضرائب الفرنسيين من العبء غير المربح للاستمرار في حكم سوريا التي يتزايد تمرّدها. لذا قرّرت الخروج من الأزمة المتفاقمة عن طريق المحادثات، وأرسلت تعليمات بهذا المعنى

(1) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, pp. 21-22.

إلى المفوّض السامي. في 1 آذار/مارس 1936، أُجبر دو مارتيل على إصدار تعهد بإعادة الحياة الدستورية، ومنح الإذن أيضاً بسفر وفد إلى باريس للتفاوض على معاهدة معها.

لا شك في أن الفرنسيين عمدوا إلى تغيير مسارهم في سوريا بسبب تصاعد الأخطار في أوروبا، والتوسُّع الاستعماري لإيطاليا، وتوقيع المعاهدة البريطانية المصرية في تموز/يوليو 1936. في لقاء مع مجموعة من الوطنيين تضمّ هاشم الأتاسي (الذي حل محل إبراهيم هنانو رئيساً للكتلة الوطنية في كانون الثاني/يناير 1936) والدكتور عبد الرحمن الكيّالي، وفايز الخوري وعفيف الصلح، ابن عم رياض، وافق المفوّض السامي على إعلان عفو عن جميع الأشخاص الذين اعتُقلوا أو نُفوا لصلتهم بالاضطرابات، فيما وافق الوطنيون على رفع الإضراب.

اتفق حلول عيد الأضحى في اليوم التالي، 2 آذار/مارس، فشكّل ذلك مناسبة للاحتفال وتنظيم استعراضات متواصلة في دمشق لمدة أربعة أيام، فسارت مواكب تمثل كلّ نقابة وحيّ من أحياء المدينة. وقد قدّم القنصل البريطاني تقريراً عن مشاهد الابتهاج العارم. وجرى بطبيعة الحال تكريم القادة الوطنيين "الذين قادوا الأمة إلى الانتصار". ولاحظ القنصل، بإعجاب، قدرات الزعماء الوطنيين التنظيمية والقيادية في السيطرة على الحشود، في أوقات غضبها وفرحها على حدٌّ سواء.

اتُّفق على التفاوض الفوري في باريس على معاهدة لا تقل مواتاة لسوريا عن المعاهدة البريطانية العراقية بالنسبة إلى العراق. اختار الوطنيون هاشم الأتاسي وفارس الخوري وجميل مردم، وسعد الله الجابري ممثلين عنهم. وهؤلاء أصدقاء رياض المقرّبين، ورفاق النضال لتحقيق الاستقلال. ولتلطيف حماستهم الوطنية المتقدة، أصرّ المفوّض السامي الفرنسي على إضافة وزيرين "معتدلين" إلى الوفد: إدمون الحمصي، وهو مصرفي مسيحي من حلب درس في جامعة أكسفورد، والأمير مصطفى الشهابي، وهو عالم اقتصاد زراعي درس في فرنسا. وأُلحق بالوفد أيضاً أمينان للسر، إدمون رباط ونعيم أنطاكي، وهما محاميان تعلّما في أوروبا وينتميان إلى عائلتين مسيحيتين بارزتين في حلب[1].

(1) Khoury, *Syria and the French Mandate*, p. 464; Consul Gilbert Mackereth to Foreign Office, Damascus 17 March 1936 (FO 371/20065).

وُلد هاشم الأتاسي في سنة 1865 تقريباً في كنف عائلة مالكة للأراضي في حمص في وسط سوريا. وكان الأتاسي قومياً شجاعاً ونبيلاً، تسلّم منصب رئيس الوزراء وترأّس الجمعية التأسيسية في عهد الأمير فيصل، وكان أحد الوسطاء الثلاثة في الصراع بين الإمام يحيى في اليمن وابن سعود. وقد كان لأُصوله العريقة واعتداله تأثير إيجابي لصالح الوفد السوري في باريس.

طُلب من رياض الصلح الذهاب قبل الوفد السوري إلى باريس لتلمُّس المناخ السياسي هناك والإعداد لقدومه. وقد أدّى دور المستشار الرئيسي للوطنيين في مفاوضاتهم مع فرنسا. لكنه على طريقته الحيوية المعتادة، لم يبحر إلى فرنسا مباشرةً، بل توجّه إلى فلسطين أولاً، في واحدة من محاولاته المستمرة للتوسط بين الفئات الفلسطينية المتخاصمة. كان الوضع هناك على شفا الانفجار، حيث توشك ثورة 1936 على البريطانيين على الاندلاع. وبدلاً من أن تؤدي الثورة إلى تسوية الخلافات بين الفئات الفلسطينية، فإنها أجّجت التناحر بين الحسينيين المقاتلين والنشاشيبيين المتعاونين.

ومن فلسطين توجّه رياض إلى استانبول للوقوف على المخطّطات التركية بشأن الإسكندرونه، وهي منطقة تقع شمال غرب سوريا وتسعى حكومة أنقرة إلى ضمّها لأن الأتراك يشكّلون قسماً من سكّانها. فقد ساورت الشكوك رياض الصلح في أن تكون فرنسا مستعدة للتخلي عنها من دون استشارة السوريين. في استانبول، زار رياض المنتدى الأدبي، وهو من الأمكنة التي كان يُكثر التردّد عليها قديماً، كما أنه أسهم، في سنوات ما قبل الحرب العالمية الأولى، في اليقظة القومية للولايات العربية وإعادة إحياء اللغة العربية. فشعر بالإهانة حين اكتشف أن الأتراك الذين ازداد عداؤهم للعرب حوّلوا المنتدى إلى معهد لتعليم اللغة الأرديّة!

في الطريق إلى باريس أخيراً، توقّف القطار الذي يستقلّه مدة قصيرة في لوزان، حيث استطاع أن يمضي بضع دقائق مع زميليه السابقين في الوفد السوري الفلسطيني، الأمير شكيب أرسلان وإحسان الجابري. أخبرهما بما يحدث في فلسطين وسوريا. بعد هذه المحطّات المختلفة، أكمل رياض طريقه إلى العاصمة الفرنسية، فوصلها في 12 آذار/مارس 1936، أي قبل نحو 10 أيام من وصول الوفد السوري الذي انطلق من بيروت في 21 آذار/مارس، وسط حماسة شعبية عظيمة.

إميل إده مقابل بشارة الخوري

عـــندما شـــرع رياض في رحلاته، ترك خلفه ساحة سياسية لبنانية يسيطر عليها المـــوارنة ســـيطرةً كاملة. في 20 كانون الثاني/يناير 1936، أي في أوج الاضطرابات الوطنـــية في ســـوريا، انتُخب المحامي اللبناني البارز إميل إده رئيساً للبنان، متغلباً على منافسه الماروني بشارة الخوري.

كان إميل إده على علاقة ودية برياض الصلح وغيره من الشخصيات البارزة في المعسكر المسلم والقومي العربـــي، لكنه يمثّل كل ما يكرهونه في السياسة. فقد كـــان من المناصرين المخلصين للبنان كدولة مسيحية تحت حماية فرنسا؛ ومعارضاً شديداً للوحدة السورية والعربية، بل إنه كان يطمح إلى جعل الفرنسية لغة الدولة الـــرسمية، ويتلهّف لفصل لبنان عن الثقافة والرابطة السياسية العربية. ومنذ إنشاء الدولـــة في ســـنة 1920 حتى نهاية 1935، تمكّن إميل إده وأمثاله، بدعم قوي من الـــسلطات الفرنسية، من استبعاد القوميين العرب عن أي دور في الحياة السياسية اللبنانية. لم يُطبّق هذا الاستبعاد على رياض وحده، بل على غيره أيضاً من الوجهاء المسلمين السنّة البارزين ذوي القناعات القومية العربية، مثل عائلتي سلام في بيروت وكرامي في طرابلس.

غـــير أن امـــتداد الاضطرابات المناهضة لفرنسا من سوريا إلى لبنان بحلول سنة 1936، بالإضـــافة إلى الـــصلات الاجتماعـــية والروابط التجارية الحيوية المتزايدة بين الـــوجهاء مـــن جميع الطوائف، جعل الدفاع عن هذا التمييز أمراً صعباً نوعاً ما. وفي محاولـــة متأخـــرة لتوكـــيد الـــذات أمـــام المـــوارنة المسيطرين منذ مدة طويلة، بدأ المسلمون السنّة والشيعة على السواء يطالبون بأن يكون لهم صوت ومكان في الساحة السياسية اللبنانية.

كان المجتمع اللبناني في الثلاثينيات، ولا يزال حتى اليوم، يدور حول عشرين عائلة تقريباً، تقوم مكانة كل منها على شهرتها في طائفتها؛ أو ثروتها أو ملكية الأراضي؛ أو وظائفهـــا الدينية الموروثة؛ أو نشاطاتها في مجال الأعمال والتجارة والصيرفة والوساطة بـــين المورّدين الغربيين والأسواق العربية، كما هو حال النخب البرجوازية في الساحل اللبناني. وكانت أسماؤهم في تلك الفترة، كما اليوم، معروفة لدى الجميع.

كانت نخبة بيروت المسيحية والمسلمة، التي تدين بتميُّزها إلى الثروة والممتلكات العقارية والأنشطة التجارية، تضمّ عائلات سرسق، وفرعون، وبيّهم، والداعوق، والحص، وسلام، والنعماني وغندور. وثمة عائلات سنية تنبع مكانتها الاجتماعية من وظائفها الدينية التقليدية، ومنها طبارة، وفاخوري، ونجا، واليافي في بيروت، وكرامي، والجسر، والأحدب في طرابلس. على سبيل المثال، كان عبد الحميد كرامي مفتي طرابلس، وهو منصب شغله والده وجده من قبله. وفي الطائفة الشيعية برزت عائلة الأسعد في جبل عامل في جنوب لبنان، وشرف الدين في صور، وحمادة في البقاع الشمالي[1]. أما الطائفة الدرزية، فقد قادتها عائلتان متنافستان، جنبلاط وأرسلان.

منح النظام الطائفي أهمية لرؤساء العائلات الأكثر شهرة وبروزاً، فأصبحوا زعماء تدين لهم طوائفهم بالاعتراف. هؤلاء هم الشخصيات البارزة في المجتمع اللبناني الذين كان على عائلة الصلح أن تقيم علاقات معهم وتنافسهم. ومن المعروف أن آل الصلح من مالكي الأراضي في جنوب لبنان، انتقلوا إلى بيروت في أواخر القرن التاسع عشر، واكتسبوا الاحترام في خدمة الإمبراطورية العثمانية. واكتسب رياض الصلح شهرة كبيرة من خلال السمعة العالمية التي حقّقها في النضال لصالح القضية العربية في جنيف وباريس؛ ومناصرته الطبقة العاملة والحركة النقابية الناشئة في لبنان؛ ونشاطاته القومية العربية في سوريا وفلسطين، بل في شمال أفريقيا. فعندما حاول الجنرال فرانكو تعبئة المغاربة في محاولته الانقلاب على الحكومة الجمهورية الإسبانية، أصدر رياض نداء حماسياً شجب فيه الفاشية ودافع عن الجمهورية الإسبانية. وأعلن أن "العرب لم يكونوا يوماً مرتزقة. ولا يمكنهم المشاركة في ذبح شعب يكافح للدفاع عن حريته واستقلاله. ولا يمكنهم الدفاع عن فرانكو الفاشي الذي خان وطنه الأم وتآمر مع هتلر وموسوليني".

غير أن إنجازات رياض العالمية الكبيرة لم تكن كافية لخرق حصن التفوّق الماروني في بلده. ففي لبنان، صاغ دستور 1926، الذي أوحى به الفرنسيون، الإطارَ المؤسسي للحياة السياسية؛ ووضع رئيس الجمهورية الذي مُنح سلطات تنفيذية كاملة، في قلب النظام. وكان هذا الرئيس مارونياً دائماً، باستثناء أول شاغل للمنصب، شارل دباس (

(1) قاسمية (محررة)، **الرعيل العربي الأول**، ص 272.

1926 - 1932)، الذي كان ينتمي إلى طائفة الروم الأرثوذكس. فباستطاعة الرئيس أن يسمّي الوزراء ويقيلهم، وأن يحلّ البرلمان، وأن يحكم عن طريق المراسيم إذا شاء. كانت سلطته مطلقة على الورق، لكنّه يخضع لإرادة المفوّض السامي الفرنسي من الناحية العملية.

أعلن دستور 1926، الذي صيغ على نسق دستور الجمهورية الثالثة في فرنسا لسنة 1875، لبنان الكبير جمهورية مستقلة عاصمتها بيروت. وفي اعتراف بالطوائف والمجموعات المتنوعة في البلاد، أقرّت المادة 95 أنه "بصورة مؤقتة... تُمثل الطوائف بصورة عادلة في الوظائف العامة وفي تشكيل الحكومة". وقد أبقت هذه المادة على النظام الطائفي الموروث من المتصرفية العثمانية، لكنها لم تفعل الكثير للحدّ من الهيمنة المارونية التي تدعمها فرنسا. ولم يبدأ المسلمون بانتزاع قدر من السلطة التنفيذية من الموارنة إلا عندما عُيّن رئيس وزراء سني في 1937، على الرغم من أن رئيس الوزراء، على غرار جميع الوزراء الآخرين، معرّض دائماً لخطر الإقالة الاعتباطية من قبل رئيس الجمهورية[1].

نتيجة لهذه المعطيات، كانت السياسة اللبنانية تقوم على الصراع بين القادة الموارنة المتنافسين ومناصري كل منهم، وهي منافسة استبعدت الطوائف الأخرى إلى حدٍّ كبير. لم يكن هناك صراع أشدّ من ذلك الذي دار بين إميل إده وبشارة الخوري، إذ إن هذين المتنافسين على الرئاسة متشابهان جداً ومرتبطان ارتباطاً وثيقاً. فقد ولد إده في دمشق في سنة 1883، حيث كان والده يعمل مترجماً في القنصلية الفرنسية. أما الخوري فولد في قرية رشميا اللبنانية في سنة 1880. وكان والده، الشيخ خليل، رئيس السكرتاريا العربية الخاضعة للمتصرّف العثماني.

تلقى إده والخوري التعليم في مدرسة الآباء اليسوعيين في بيروت، ثم درسا الحقوق في فرنسا، حيث حصل إده على الدكتوراه من جامعة إكس أن بروفانس Aix-en-Provence، بينما حصل الخوري على شهادة من جامعة باريس. عندما عاد الخوري إلى لبنان، التحق متدرّجاً بمكتب إده للمحاماة، ولبث فيه حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى في سنة 1914. وعندما دخلت تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا، فرّ إده والخوري إلى مصر هرباً من القمع التركي. فمارسا المحاماة في القاهرة والإسكندرية،

(1) Méouchy, "Le Pacte national", p. 464, n. 8.

قبل العودة إلى لبنان في سنة 1919، حيث عيّن إده بشارة الخوري رئيساً لمكتب المحاماة الخاص به، وهو الأشهر في بيروت في ذلك الوقت.

دخل كل من الرجلين معترك السياسة، وصاهرا عائلتين مسيحيتين لبنانيتين مرموقتين، حشد أعضاء كل منهما، سواء أكانوا إخوة أو أقرباء أو شركاء، الدعم لهما وساعدوا في تمويل مسيرتهما السياسية. تزوج إده من لودي سرسق في سنة 1912، فيما تزوّج الخوري من لور شيحا في سنة 1922. ولور هي شقيقة ميشال شيحا الكاتب والشاعر والمنظّر الإيديولوجي للقومية اللبنانية، وصاحب جريدة، وشريك في بنك فرعون وشيحا، وهو من المصارف اللبنانية البارزة في عهد الانتداب والسنوات الأولى للاستقلال. كما كان شيحا أمين سر اللجنة التي وضعت مسودة دستور سنة 1926، واعتُبر أكثر الأعضاء نشاطاً فيها[1].

بينما كان إده يزاول مهنته في نقابة المحامين اللبنانيين في العشرينيات، "حيث أصبح مرتبطاً بالوجود الفرنسي الواسع في المنطقة"[2]، دخل بشارة الخوري السلك القضائي، ترقّى حتى أصبح رئيس محكمة الاستئناف، ومن ثم مدير إدارة العدل. وعندما اعتُمد دستور الجمهورية اللبنانية في سنة 1926، عُيّن الخوري وزيراً للداخلية في مجلس الوزراء الأول برئاسة أوغست باشا أديب. وما لبث أن دبّر إسقاط حكومة أديب باشا، فاستدعاه الرئيس دباس ليشكل الحكومة الثانية للجمهورية. ومن أول قراراته كرئيس للوزراء تعيين أخيه، سامي الخوري، مدير إدارة العدل. فشغل سامي ذلك المنصب منذ سنة 1926 حتى سنة 1939، وأتاح له ذلك مساعد بشارة في مشاريعه التجارية المختلفة، ومنها منح مجموعة شيحا - فرعون امتيازاً لمدة خمسين سنة في منطقة ساحة الشهداء، وهي الساحة الرئيسية في بيروت، كان تابعاً لشركة طريق الشام الفرنسية السابقة، وسرعان ما بنيت عليها عقارات مربحة[3].

(1) للاطلاع على تحليل مفصل لدستور 1926، انظر: Edmond Rabbath, *La Formation historique du Liban politique et constitutionnel*, new edn Beirut, 1986, pp. 379-400; Ziadeh, *Sectarianism and Intercommunal Nation-Building*, pp. 86-101.

(2) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, pp. 14 ff; Micheal Johnson, *Class and Client in Beirut: The Sunni Muslim Community and the Lebanese State, 1840-1985*, London 1986, p. 119.

(3) MAE-Nantes, Fonds Beyrouth (Amb.), série 199A4, carton 20, Note de Beyrouth, 25 Aout 1941.

إذا كان ثمة اختلاف بين إده والخوري، فهو التزام الأول التامّ بارتباط لبنان بفرنسا والثقافة الفرنسية بشكل عامّ، بينما كان الثاني أقل تعلقاً بكثير بفكرة التحالف الدائم مع فرنسا. ولأن بشارة الخوري اختار أن يتقن اللغة العربية، فقد كان لديه ميل إلى الثقافة العربية واحترام للإسلام. كما إنه أدرك الحاجة إلى التواصل مع المواطنين اللبنانيين خارج طائفته المارونية الضيقة. وعندما أصبح رئيساً للجمهورية عام 1943، اشترك مع رياض الصلح في النضال لتحقيق الاستقلال.

في صباح 20 كانون الثاني/يناير 1936، في جلسة استثنائية للبرلمان اللبناني، هزم إميل إده بشارة الخوري في السباق على رئاسة الجمهورية، على الرغم من الحملة الانتخابية القويّة التي أدارها الأخير وموّلها إلى حدٍّ كبير ابن عمة زوجته، هنري فرعون. منح الاقتراع الأول 14 صوتاً لإده و11 صوتاً لبشارة الخوري، ولكن بما أن إده لم يحصل على أكثرية الثلثين، أُجري اقتراع ثان نال فيه إده الأكثرية المطلقة بحصوله على 15 صوتاً مقابل 10 لخوري[1]. في هذه المنافسات، يستطيع كل زعيم الاتكال على مجموعة حرة من المؤيّدين البرلمانيين. عُرف أصدقاء إده باسم الكتلة الاتحادية أو كتلة إدّه، بينما شكّل أصدقاء خوري مجموعة باسم الكتلة الدستورية. وكان أعضاء المجموعتين من الموارنة إلى حدٍّ كبير ويتبعون النهج الكياني، أي أنهم كانوا ملتزمين بالكيان الجغرافي والسياسي للبنان الكبير.

من المستغرب أن إده فاز برئاسة الجمهورية بفضل الجهود الحثيثة لأحد المسلمين. كان ذلك خير الدين الأحدب الذي تمكّن، بعدما انتُخب نائباً في سنة 1934، من استقطاب العديد من النواب الحائرين إلى معسكر إده. وما إن أصبح إده رئيساً، حتى أخذ بدوره يمهّد الطريق كي يصبح خير الدين رئيساً للوزراء – وهو ما حدث بالفعل في كانون الثاني/يناير 1937، فأصبح أول مسلم يشغل ذلك المنصب. كان خير الدين الأحدب شريك رياض في مشروعه الصحافي – إطلاق صحيفة **العهد الجديد** وتحريرها في العشرينيات. في ذلك الوقت، كان خير الدين قومياً عربياً مخلصاً. لكن ما إن وضع نصب عينيه أن يصبح رئيساً للوزراء، حتى ابتعد عن رياض الصلح، وتخلى عن التزامه السابق بالعروبة والوحدة العربية. ولعل صلاحيات رئاسة الوزراء

---

(1) Consul-General Havard to Mr. Eden, Beirut, 23 January 1936 (FO 371/ 20065).

وامتيازاتها، وما انطوت عليه من تعاون وثيق مع الفرنسيين آنذاك، كانت شديدة الإغراء للأحدب. و لم يكن من المفاجئ أن يعتبر رياض ذلك خيانة شخصية وسياسية.

مؤتمر الساحل

في 10 آذار/مارس 1936، عقد مسلمون بارزون، من المدن الساحلية في لبنان، مؤتمراً في بيروت، باسم "مؤتمر الساحل"، للمطالبة بإعادة بيروت وطرابلس وصيدا، والأقضية الأربعة التي أُلحقت بلبنان في سنة 1920 إلى سوريا - أي ما يسمى "بالأراضي المتنازع عليها". باختصار، دعا المؤتمر إلى تفكيك لبنان الكبير الذي أنشأته فرنسا. وكان ذلك تكراراً لمؤتمرين سابقين عقدهما قادة الساحل في سنتي 1928 و 1933، مع الأهداف الاتحادية نفسها تقريباً[1]. لم يحضر رياض الصلح اجتماع سنة 1936، إذ كان في طريقه آنذاك إلى فرنسا، تشغله المفاوضات بشأن المعاهدة التي يوشك الوطنيون السوريون على إجرائها مع الفرنسيين.

بيد أن ثمة سبباً أكثر أهميةً دفعه إلى عدم حضور المؤتمر. فقد أخذ يتوصل تدريجياً إلى أن لبنان الكبير أصبح أمراً واقعاً بعد مرور خمسة عشر عاماً على إنشائه، و لم يعد بالإمكان الاعتراض على حدوده بشكل واقعي. كان رياض سياسياً براغماتياً، ذا إحساس حادّ بما يمكن تحقيقه وما لا يمكن. عندما أُنشئ لبنان الكبير في العشرينيات، عارضه رياض تماماً، مثل غيره من المسلمين. ولكن بعد عدة سنوات، بدأت آراؤه بالتغيّر. وفي سنة 1928، نُقل عنه أنه يفضّل "العيش في كوخ داخل وطن لبناني مستقل، على أن يعيش في إمبراطورية عربية تحت حكم استعماري"[2]. وتوحي مثل هذه الملاحظة أن أولوياته أخذت تتبدّل. لم يتخلَّ بأي شكل من الأشكال عن غاية عمره بتحقيق الاستقلال والوحدة العربية، لكن أصبح الاستقلال اللبناني أولى الأولويات في حياته السياسية.

روى مراقب قديم لمسيرة رياض السياسية، أنه حين عاد من القامشلي، حيث نفاه الفرنسيون في سنة 1935 بسبب دعمه الحركة النقابية المناضلة، بدا رجل دولة أكثر

(1) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, p. 22 ff; Johnson, *Class and Client*, p. 25; هلال الصلح، **تاريخ رجل وقضية**، ص 274.

(2) باسم الجسر، **ميثاق 1943، لماذا كان ولماذا سقط؟**، بيروت، الطبعة الثانية، 1997، ص 81.

من مثير للاضطرابات[1]. وبحلول أواسط الثلاثينيات، أدرك أن الوطنية اللبنانية قوة لا يستهان بها وينبغي التصالح معها بدلاً من مواجهتها، مهما احتقرها القوميون العرب وهزئوا منها باعتبارها من صنع الفرنسيين. وذلك ما دفعه للسعي إلى تقوية علاقاته مع قادة الطوائف الأخرى، لا سيما البطريرك أنطوان عريضة، الشخصية السياسية والروحية المركزية في المعسكر الماروني. وقد سبق رياض في ذلك، كما في كثير من الأمور الأخرى، الرأي العام المسلم في لبنان، ونظراءه في الطائفة السنية بأشواط. لذا كان عليه التقدّم بحذر.

كان سليم علي سلام، الذي انعقد مؤتمر الساحل في منزله وبرئاسته، أحد وجهاء السنّة وقومياً عربياً تقليدياً ذا سجلّ سياسي طويل جدير بالثناء. وقد حضر المؤتمر العربي الأول في باريس في سنة 1913 مندوباً عن لجنة بيروت للإصلاح، ومثّل ولاية بيروت في البرلمان العثماني في سنة 1914. وعند سقوط الإمبراطورية، شارك في المؤتمر السوري العام الذي عُقد في دمشق في سنة 1919، في أثناء حكم فيصل الوجيز (حضره أيضاً رياض ووالده رضا وابن عمه عفيف). ومن الوجهاء الذين شاركوا سلام عواطفه الوحدوية وحضروا مؤتمر الساحل عبد الحميد كرامي من طرابلس، وعادل عسيران من جنوب لبنان، وناجي الفاخوري وثلاثة أعضاء من عائلة بَيهُم البيروتية.

دعا سلام وزملاؤه القوميون العرب إلى عقد المؤتمر بسبب قلقهم من المفاوضات التي تعتزم سوريا ولبنان إجراءها مع فرنسا. كانوا يخشون من أن توقيع أي معاهدة والتصديق عليها، سيثبّت الحدود القائمة أصلاً، وبالتالي سيقضي على أي أمل بعودة الأراضي المتنازع عليها إلى سوريا. لكن هؤلاء الوجهاء والقوميين صُدموا حين ضرب أحد أعضاء المؤتمر، كاظم الصلح، على وتر نشاز، بل مخالف.

تمرّد كاظم الصلح

كاظم ابن عم رياض الصلح. وهو محامٍ ومفكّر ومالك صحيفة **النداء** اليومية، التي أطلقها في سنة 1931 مع ثلاثة من إخوته، عادل وتقي الدين وعماد. وبصفته ابن

(1) هلال الصلح، **تاريخ رجل وقضية**، ص 274.

مـــنح الصلح، وحفيد أحمد باشا، فقد حضر مؤتمر الساحل كممثل سنّي عن جنوب لبـــنان. وكـــان كـــاظم الـــصلح وأخوه تقي الدين قد شكّلا مع غيرهما من الشبّان المتـــشددين، مثل فريد زين الدين وشوقي الدندشي، الحزب القومي العربـــي في السنة السابقة، أي في سنة 1935.

بتحريض من رياض، بالإضافة إلى القناعة الشخصية، عبّر كاظم عن رأيه الجديد أن الدعـــوة لتفكيك لبنان الكبير قد تضرّ بقضية القومية العربية. فكلما أصرّ القوميون العرب على مطالبتهم بإعادة الأراضي المتنازع عليها إلى سوريا، ازداد لجوء المسيحيين إلى أحضان الفرنسيين، ما يلحق ضرراً شديداً باحتمال حصول أي وحدة في المستقبل بين لبنان وسائر العالم العربـــي. لذا تقتضي الحكمة السعي لإقناع الموارنة والمسيحيين الآخـــرين بالانـــضمام إلى أشقائهم المسلمين في النضال لتحقيق استقلال لبنان، وتلك مرحلة أولى ضرورية نحو وحدة الوطن العربـــي الأوسع واستقلاله.

بعـــبارة أخـــرى، رأى كاظم أنه ينبغي التوصّل إلى تسوية بين مسلمي الساحل مثلهم، من صيدا وطرابلس، الراغبين في الوحدة مع سوريا والمسيحيين اللبنانيين الذين يـــسعون للحصول على حماية فرنسا للدولة التي يسيطرون عليها. وحذّر أن مثل هذه الـــسياسة لـــن تكون بلا ثمن، بل تقتضي من المسلمين تقديم تنازلات كبيرة من دون شك. وأعلن أن الطريقة الوحيدة لاستمالة المسيحيين لصالح القضية العربية هي التخلّي عن المطالبة بعودة الأراضي المتنازع عليها إلى الوطن السوري الأم.

كانـــت وجهـــة نظر كاظم تتعارض تماماً مع رأي غالبية المسلمين، حيث أوضح أن مهمة المؤتمر هي تسريع تعاون لبنان مع العالم العربـــي، بدلاً من المخاطرة بتصلّب مواقف الجانـــبين عـــبر المطالبة بتفكيك لبنان الكبير[1]. تلك كانت الفرضية المذهلة التي أصبحت أســـاس نص كاظم الشهير، "بين الاتصال والانفصال في لبنان" الذي نُشر أولاً في صحيفة **النهار** البيروتية في آذار/مارس 1936، ثم صدر ككُتيّب في نيسان/أبريل 1937[2].

(1) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, p. 33.

(2) Ziadeh, *Sectarianism and Intercommunal Nation-Building*, p. 104, and p. 199, n. 65.
انظـــر أيـــضاً مقالة كاظم الصلح في عدد خاص من صحيفة **النهار** (بيروت)، كانون الثاني 1975، ص 67 وما يليها، "La Constitution, le pacte nationale, la formule libanaise".

رفض كاظم - انسجاماً مع معتقداته - التوقيع على الإعلان الختامي للمؤتمر الذي دعا، كما هو متوقع، إلى إعادة الأراضي المتنازع عليها إلى سوريا. ولم يغيّر، بالطبع، آراءه التي رفضتها الأوساط المسلمة في بيروت بغضب. ولكنه أطلق نزعة جديدة اكتسبت تدريجياً زخماً كبيراً، على الأقل بين النخبة المثقفة، قبل أن تنتشر بين الجمهور المسلم.

صفّق رياض له من بعيد بهدوء. فقد كان ابن عمه الشجاع حارسه المتقدّم، بل الستار الذي يختبئ خلفه. ومع اقتراب موعد إجراء مفاوضات المعاهدة السورية في باريس، أدرك رياض أن الوقت غير مناسب لإزعاج الفرنسيين باعتماد موقف عربي متشدّد. ورأى من الحكمة أن ينأى بنفسه - وبالوفد السوري أيضاً - عن الموقف العَقَدي الذي اتخذه مؤتمر الساحل.

بذل رياض الكثير من الوقت والجهد في التودّد إلى السياسيين الفرنسيين من الحزبين الاشتراكي والراديكالي. ولم يكن يريد أن يخسر حسن النية الفرنسية التي اكتسبها بالإعلان عن مطالب متطرّفة في تلك اللحظة الحساسة. والجدير بالذكر أن بعض الأعضاء البارزين في الكتلة الوطنية السورية شاركوه في هذا التحليل البراغماتي. ففي طريقهم إلى باريس لإجراء المفاوضات التي طالما سعوا إليها، أدركوا أن الوقت غير مناسب لاستفزاز الفرنسيين، أو البطريرك اللبناني الذي لديه نفوذ واسع في باريس[1].

في لبنان، أخذت تحدث بعض التغيّرات التي جعلت صيغة رياض الصلح أكثر قبولاً في نهاية المطاف. فقد بدأ الشبان في البرجوازية السنّية والمسيحية، يكتشفون أن القواسم المشتركة بينهم أكثر مما كانوا يعتقدون. فهم ينتمون إلى العالم نفسه من الناحية الاجتماعية، بل إن بعض الزيجات المختلطة تحدث بينهم؛ وهو أمر لم يكن يُسمع به قطّ من قبل. وبدأ رجال الأعمال المسيحيون يدركون حماقة السعي لفصل لبنان عن الأراضي الداخلية العربية، حيث لديهم مصالح تجارية ومالية مهمة. ولم يعودوا يقبلون دون جدال بعلاقة التبعية مع فرنسا التي حرّض عليها آباؤهم، لأنهم اكتشفوا أنها تقيّد علاقاتهم التجارية مع البلدان الغربية الأخرى. بل إنهم بدؤوا بالاستياء من ممارسات

(1) Raghid el-solh, *Lebanon and Arabism*, p. 36.

الانتداب الفرنسي، لا سيما الجشع المكشوف للشركات الامتيازية الفرنسية، التي تريد الحق الحصري في السيطرة على الأسواق السورية واللبنانية. وأدرك رجال الأعمال المسلمون، بدورهم، أن هناك إمكانية لاستغلال الصلات المتينة التي تربط اللبنانيين المسيحيين بأوروبا لمصلحتهم أيضاً. فبدؤوا ينظرون في التعاون مع المسيحيين في إطار "لبناني" لا سوري. وهكذا تطوّر في المعسكرين ميل إلى بناء الجسور فوق الانقسام الطائفي.

على سبيل المثال، كتب زعيم سنّي شاب يدعى صلاح بَيْهم، في تموز/يوليو 1936، بعد مرور أربعة أشهر فقط على عمله كأمين سر مؤتمر الساحل، رسالة لصحيفة لوريان *L'Orient* البيروتية الناطقة بالفرنسية يدعو فيها إلى إنشاء "اتحاد فعّال بين جميع الطوائف، ضروري لأمن وجودنا الوطني"[1]. كانت تلك فكرة جريئة آنذاك بالنسبة إلى معظم مسلمي الساحل، لا سيما في مناطق مثل صيدا وطرابلس، حيث كانت سوريا، لا لبنان، تعتبر الوطن الأم.

في باريس، مع الوفد السوري

افتُتحت المحادثات الفرنسية السورية رسمياً في باريس في 2 نيسان/أبريل 1936، لكنها أرجئت على الفور تقريباً بعد وصولها إلى طريق مسدود. فقد استحوذت الانتخابات الفرنسية العامة الوشيكة، التي أجريت على مرحلتين في 26 نيسان/أبريل و3 أيار/مايو، على اهتمام رئيس الوزراء ألبير سارو Albert Sarraut، بل الطبقة السياسية الفرنسية بأكملها. لذا لم يكن باستطاعة وزير الخارجية بيير - إتيان فلاندان Pierre-Etienne Flandin، الذي ترأس الفريق الفرنسي في المحادثات، القيام بأي شيء سوى التعبير عن موقف حازم ومتصلّب. فلم يكن في وسع الحكومة الفرنسية تصوّر أي تغيير جذري في السياسة المتّبعة في المشرق بسبب الغموض الشديد لنتيجة الانتخابات.

سرعان ما أدرك السوريون أن المفاوضات ستكون أصعب بكثير مما توقّعوا. فقلّلت هذه النكسة المبكرة من عزيمتهم. لم يكن لدى الوفد كثير من الأصدقاء النافذين في باريس، فاتكل على صلات رياض الصلح الواسعة، لا سيما مع اليسار.

(1) Johnson, *Class and Client*, p. 25.

فقد أدرك الصلح أنه ليس هناك أمل يرجى من الجناح اليميني الاستعماري والعسكري والكاثوليكـــي، فأقام علاقات مع الاشتراكيين والشيوعيين منذ وقت طويل. لذا عاد الآن إلى العمل ثانية على تعبئة الصحافة وتنظيم الاجتماعات مع سياسيين فرنسيين يساريين بـــارزين. وتمكّـــن من تأمين طاولة له في مكاتب صحيفة "لومانيتيه" اليومية الشيوعية وشرع في تزويد محرريها بسيل منتظم من النصائح والمعلومات عن القضية السورية.

في ذلـــك، في 7 نيـــسان/أبريل، أرسل رياض رسالة من باريس إلى نبيه وعادل العظمة، وهما اثنان من أصدقائه السوريين كانا في فلسطين آنذاك، يلخّص فيها الوضع المعقد حسبما رآه:

وصـــلت إلى باريس صباح يوم الاثنين، أي قبل ستة وعشرين يوماً، ومنذ وصـــولي وأنـــا أدرس المحادثـــات بين السوريين والفرنسيين وأبحث فيها وأتابعها.

لاحظـــت أن القضية السورية لم توضع جانباً على الرغم من انشغال الناس هنا بالمسائل السياسية الكبرى عشية الانتخابات البرلمانية. فهي تحظى ببعض الاهـــتمام، علـــى الرغم من أنني لاحظت أيضاً المكائد في وزارتي الخارجية والحربية، وفي أعماق دوائر الرأي الديني والمالي الخفية. ليس من المستغرب حدوث هذه المكائد وإنما بعدها عن الأنظار... فهذه المكائد تعمل بصورة مبهمة وسرّية. إنها دليل على ضعفهم، لكنها دليل أيضاً على أن معظم من يـــتعامل في الجانب الفرنسي مع هذه المسألة، إن لم يكن جميعهم، يريدون التوصل إلى حل.

هذا هو الجانب الظاهر من المسألة السورية. ويمكن من هذا الجانب استنتاج أمور أخرى، ربما أمور رسمية بطبيعتها، إنما مهمة. ربما يكمن الحل الحقيقي، أكثـــر ممـــا قد يعتقد المرء، في التفاصيل، أي في "شكل" المفاوضات. من ســـيفاوض عـــن الفرنسيين؟ هل تعلّق المحادثات [في باريس] وتستأنف في سوريا؟ هل على المرء انتظار نتائج الانتخابات البرلمانية؟

قـــبل وصـــول الوفد، خلصت إلى أن وزارة الخارجية، التي لا تزال أسيرة الأفكار والعادات القديمة، تميل إلى إبقاء المفاوضات داخل إطار بيروقراطي،

وتقييد عدد الأشخاص القليلين المعنيين - المفوّض السامي في سوريا وعدد قليل من زملائه أساساً. كما تريد التوصّل إلى نهاية سريعة.

رأى نــواب في الــبرلمان - لا ســيما رئيس لجنة الشؤون الخارجية - أن [المفوّض السامي] دو مارتيل ينبغي ألاّ يشارك في المحادثات، وأن تؤجّل على أي حال إلى ما بعد الانتخابات.

هذان هما الرأيان اللذان وجدتهما عند وصولي.

أشــعر أن الحــل الأفضل، إذا وافقت الوزارة على مطالبنا، إنهاء المحادثات بسرعة والعودة على الفور. في تلك الحالة، ستكون مشاركة دو مارتيل في المحادثات أمراً مقبولاً.

لكن إذا لم تكن الوزارة ولا دو مارتيل على استعداد لقبول مطالبنا، فعلينا انــتظار الــوقت المناسب، وإيجاد أفضل السبل للعمل، وسبر غور [الطرف الآخــر] من دون قطع الاتصال معه، وفرض أنفسنا من دون تسرّع. وقد بــدأت أميل نحو هذا الحلّ الأخير وأتصوّر أن الأحداث ستحسم الأمور. وهذا ما حصل بالفعل.

كان دو مارتيل والوزارة في حالة من الشلل في انتظار ذروة الانتخابات التي قــد تحــدث تغييراً في الأشخاص والأساليب. وربما يكونان ضحيتي هذا التغيير. ويبدو أن المباحثات [التي أجريتها] تسير في هذا الاتجاه...

أحمد الله أن أشقاءنا [في الوفد السوري] موحّدون ويتحلّون باليقظة والحكمة. إنــنا نجتمع بانتظام ويعبّر كل واحد عن رأيه. إنهم يتبعون المسار الصحيح فيما أعمــل علــى جمع المعلومات. وأعتقد أن عملي سيقل عمّا قريب. لديّ آمال عظــيمة بنتيجة الانتخابات، على الرغم من أن النقطة الأساسية بالنسبة إلينا، كمــا تعلمــان، هــو ما قلته قبل عشرين عاماً ويدور اليوم على شفاه جميع إخوانــنا: "من الأسهل على فرنسا أن تغادر البلاد (سوريا) من أن تحرمها من حريتها واستقلالها، وهو مسار سيجلب العار على ممثليها على الأرض".

إن وضع هؤلاء الممثلين، باختصار، هو نقطة الخلاف: إنهم يمارسون الضغط هــنا في هذا البلد، ويرسلون تقارير كاذبة، ويخدعون الناس. ولا أعتقد أن

المفاوضات القائمة على تقاريرهم ستوصلنا إلى أي نتائج. تقول الأحزاب اليسارية إنها ستغير هذه الطريقة في التصرف، لكن فرنسا ما زالت عالقة في أساليبها القديمة والبالية.

أرجو منكما عرض هذه الرسالة على سعادة الحاج أمين، لكن لا تعرضاها على الصحافة[1].

ليون بلوم والجبهة الشعبية

كان تقييم رياض الصلح للوضع في فرنسا دقيقاً وثاقباً، كما أظهرت الأحداث لاحقاً. فقد أوصلت الانتخابات العامة الجبهة الشعبية إلى السلطة، وهي ائتلاف يساري يضمّ الاشتراكيين الراديكاليين، والاشتراكيين والشيوعيين، برئاسة زعيم الحزب الاشتراكي، ليون بلوم، البالغ من العمر 64 عاماً في ذلك الوقت. ولأسباب دستورية، لم تتمكّن الحكومة الجديدة من تسلّم الحكم إلى أن استقالت حكومة سارو في 1 حزيران/يونيو. وكانت هذه الحكومة الجديدة أفضل من سابقتها بكثير، من وجهة النظر السورية. غير أن رياض لم يكن مطمئناً، لاعتقاده أن ما من سياسي فرنسي من التيار السائد يستطيع أن يتخلى بسهولة عن المصالح الفرنسية في المشرق. كان بلوم مهتماً في التحوّل الاجتماعي والاقتصادي الذي أمل في تحقيقه في فرنسا عبر مجموعة كبيرة من الإصلاحات الجذرية، ولا يكاد يولي المسائل الاستعمارية اهتمامه[2].

ولد ليون بلوم في الألزاس لعائلة من التجار اليهود. وكان يتعرّض لضغط مستمر من الزعيم الصهيوني حاييم وايزمان كي لا يمنح الاستقلال للوطنيين السوريين المناهضين للصهيونية، والتركيز بدلاً من ذلك على السماح باستيطان اليهود في الأراضي السورية واللبنانية المتاخمة لفلسطين[3]. وعلى نحو مماثل، خشي الوطنيون

(1) خيرية قاسمية (محررة)، **الرعيل العربي الأول**، ص 272.

(2) W.B. Cohen, 'The Colonial Policy of the Popular Front', in *French Historical Studies*, 7 (Spring 1972), pp. 369, 388, quoted in. Khoury, *Syria and the French Mandate*, note 2 to page 485.

(3) Laurens, *La Question de Palestine*, vol. II, pp. 326, 341.

اللبنانيون في بيروت من أن يقدّم بلوم تنازلات إلى سوريا على حساب لبنان. فسارع مطران بيروت الماروني، موسى مبارك، إلى باريس وطالب في اجتماع عقده مع بلوم في 27 أيار/مايو، بضمانات لحدود لبنان الموسّعة. وعلى الرغم من أنه لم يحصل على التعهّد الحازم الذي سعى إليه، فقد طمأنه بلوم أنه لن يقدّم أي التزام إلى السوريين، من دون أن يدرس المسألة اللبنانية بعناية أولاً. وقد عُلّقت المفاوضات مع السوريين طيلة شهر أيار/مايو، بانتظار تسلّم الحكومة الجديدة مهامّها.

انتهز الوفد السوري الفرصة فتوجّه إلى جنيف، يرافقه رياض الصلح، لبحث الوضع مع الحكيمين الوطنيين، الأمير شكيب أرسلان وإحسان الجابري. وعادوا إلى باريس في الوقت المناسب لاستئناف المحادثات ما إن شكّل بلوم حكومته في 4 حزيران/يونيو وحصل في اليوم التالي على الثقة في الجمعية الوطنية. كوفئت محاولات رياض الدؤوبة لكسب ودّ اليسار بتلقّيه دعوة لإلقاء كلمة أمام مؤتمر الحزب الاشتراكي المنعقد في باريس بين 30 أيار/مايو و1 حزيران/يونيو احتفالاً بانتصار الجبهة الشعبية. فدافع رياض الصلح بفصاحة عن قضية الاستقلال والوحدة السورية، ولقي استحساناً كبيراً ووعداً بتقديم الدعم، على الرغم من أن اهتمام فرنسا كان منصباً تماماً على مكان آخر.

انتصر ائتلاف بلوم اليساري خلال ذروة موجة آمال الطبقة العاملة الفرنسية، وفي إطار دولي يسوده التوتر الشديد. فقد وصل هتلر وحزبه النازي إلى السلطة في 30 كانون الثاني/يناير 1933، وفرض الحكم الفاشي في جميع أنحاء ألمانيا. وبعد عام واحد، في 6 شباط/فبراير 1934، زحف الفاشيون الفرنسيون على الجمعية الوطنية، على أمل تكرار التجربة الألمانية، فأخلّوا بالأمن، وأجبروا رئيس الوزراء، إدوار دلادييه Edouard Daladier على الاستقالة. رد اليسار بإضراب عام أغلق 12000 مصنع، احتل المُضربون 9000 منها. تلا ذلك مظاهرات ضخمة خرج فيها عشرات الآلاف إلى الشوارع يمثّلون جميع الأحزاب والفئات اليسارية. وقد شكّل هذا العرض الهائل للقوة الولادة الحقيقية للجبهة الشعبية، على المستوى الشعبي على الأقل، إن لم يكن في أوساط السياسيين.

في 27 تموز/يوليو 1935، أبرم الاشتراكيون والشيوعيون ميثاقاً مناهضاً للفاشية، تبعه في 14 تموز/يوليو تجمع شعبي ضخم، للاشتراكيين والشيوعيين والراديكاليين،

والحـــركتين النقابيتين الرئيسيتين: الاتحاد العام للعمل، والاتحاد العام الوحدوي للعمل. في 13 شـــباط/فبراير 1936، وقع اعتداء شخصي على ليون بلوم نجا منه بصعوبة، بعد أن كـــان أصلاً هدفاً لحملة معادية للسامية نظمتها الصحافة اليمينية بعناية. فقد أوقف حشد من مجرمي "حركة العمل الفرنسي" Action Française سيارته وحطّموها في جادة سان جرمان، في أثناء انتظارهم مرور موكب جنازة المؤرخ المؤيّد للملكية جاك بينفيل Jacques Bainville. فأخرج من سيارته، وضُرب وأُهين، لكن تمكّن بلوم من الاحـــتماء في مـــبنى قـــريب. وقد مكث في المستشفى عدة أسابيع بعد هذا الاعتداء البشع[1].

لكـــن في 7 و8 حزيران/يونيو، أي بعد بضعة أيام من تشكيل الحكومة، توصل بلوم إلى اتفاق تاريخي مع أصحاب العمل والنقابات العمالية بشأن سلسلة من التدابير الـــثورية - عُرف باسم اتفاقات ماتينيون Matignon. وقد أقرّت الجمعية الوطنية هذه الاتفاقات في قانون حظي بغالبية كبيرة. أحدثت تلك الاتفاقات تغييراً جذرياً في حياة الطـــبقات العاملة الفرنسية: أسبوع عمل من أربعين ساعة، وإجازات مدفوعة الأجر، وعقـــود عمـــل جماعية، وتأميم صناعات الأسلحة، وتمديد التعليم الإلزامي، وقانون للمـــصرف المركزي الفرنسي، وحلّ الروابط اليمينية، في 19 حزيران/يونيو، التي أدت مـــسيراتها إلى نـــشر الفوضـــى والاضطرابات في الطرقات، بل شكّلت تمديداً لبقاء الجمهورية نفسها.

بعد نحو شهر، في 17 و18 تموز/يوليو، أدى استيلاء الجنرال فرانكو على السلطة إلى إطـــلاق شرارة الحرب الأهلية الإسبانية، فانغمس اليسار الفرنسي في جدال مؤلم بـــشأن المسارعة إلى نجدة الجمهوريين الإسبان أم لا. لكن عندما قرّرت بريطانيا عدم الاكتـــراث - كمـــا فعـــل وزراء الاشتراكيين الراديكاليين في حكومة بلوم - اضطر الأخير، بأسف بالغ، إلى الموافقة على سياسة "عدم التدخل".

في تلـــك الأجواء المتوترة، حاول أعضاء الوفد السوري التفاوض على استقلال بلدهم عن فرنسا. وقد ابتهجوا عند تعيين إيفون دِلبوس Yvon Delbos وزيراً للخارجية الفرنسية وبيار فينو Pierre Viénot وكيلاً لوزارة الخارجية، لأنهما أكثر انفتاحاً على

(1) انظر Serge Berstein, *Léon Blum*, Paris 2006, pp. 426 ff.

الطمـــوحات السورية من سابقيهما. وقد عُهد إلى فينو بإجراء المحادثات. غير أن تلك التعيينات أثارت ثانية مخاوف الوطنيين اللبنانيين الذين ساورتهم الظنون أن حكومة بلوم قد تقتنع بإعادة "الأراضي المتنازع عليها" إلى سوريا. لكن السوريين آثروا عدم طرح موضـــوع الأراضي عندما استؤنفت المحادثات في حزيران/يونيو بعدما خفّضت الجولة الأولى معنوياتهم. مع ذلك، فإن حدوث المفاوضات في جوّ من الثقة المتبادلة، بالإضافة إلى التقارير التي نشرت عن خطاب رياض الصلح في مؤتمر الحزب الاشتراكي، حثّت الـــرئيس إميل إده على إرسال برقية احتجاج إلى الحكومة الفرنسية. فشعرت حكومة بلوم أن من الضروري استرضاؤه.

بـــناء على ذلك، أرسل فينو برقية إلى إده ذكّره فيها أن شرعة الانتداب منحت ســـوريا ولبـــنان "فرصـــة متماثلة للاستقلال"، مُعززة بضمانات دولية. وتشمل هذه الـــضمانات "النظام الأساسي للأراضي... التي تم تحديدها، في حالة لبنان، بتاريخ 31 آب/أغـــسطس 1920". واقترح فينو التفاوض على معاهدة مع لبنان تنصّ على ارتقائه إلى "المكانـــة الدولـــية لدولـــة مستقلة"[1]. عندئذٍ وجّه هاشم الأتاسي، رئيس الوفد الـــسوري، رســـالتين إلى الكونت دو مارتيل، احتفظ فيهما بحق إثارة قضية الأراضي المتنازع عليها في تاريخ لاحق. غير أنه حرص على تفادي طرح أي مطالب محددة[2]. فقـــد كان الوطنيون السوريون حريصين على استرجاع الأراضي، لكنهم لا يريدون المخاطرة بانهيار محادثاتهم مع فرنسا في هذه المرحلة. كما لا يريدون التقدّم بمطالب في لبـــنان، فـــيما لا يزالون يواجهون صعوبة جمة في إقناع الفرنسيين بالموافقة على بسط السلطة السورية على أراضي العلويين وجبل الدروز الخاضعَين للإدارة الفرنسية.

إذا كانـــت بـــرقية فينو إلى إده قد طمأنت الوطنيين اللبنانيين، فإنه لا يمكن قول الـــشيء نفـــسه عن القوميين العرب. فقد استشاطوا غضباً من تقارير تفيد أن الوفد اللبـــناني الـــذي يجري تشكيله للتفاوض على معاهدة مع فرنسا، يستبعد على ما يبدو دعـــاة الـــوحدة مـــع سوريا في لبنان. وفي إشارة إلى غضب المسلمين السنّة، سارت مظاهـــرة عنـــيفة في صيدا في 12 تموز/يوليو، وتمّ تفريقها بالذخيرة الحية. ثم دُعي إلى

---

(1) Mizrahi, 'La France et sa politique de mandat', p. 61.

(2) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism, p.* 43.

إضـــراب عـــام ســـرعان مـــا انتشر إلى مدن لبنانية أخرى. وفي بيروت، توجّه وفد للاحتجاج أمام المفوّض السامي الفرنسي على وحشية الدرك.

توقيع المعاهدة الفرنسية السورية

أخيراً، بعد أسابيع من المحادثات، وصياغة العديد من الرسائل التي أُلحقت بالوثيقة النهائية، وُقّعت في 9 أيلول/سبتمبر 1936 معاهدة "صداقة وتحالف" فرنسية سورية لمدة خمسة وعشرين عاماً في قاعة الساعة Salon de l'Horloge في مقر وزارة الخارجية الفرنـــسية في باريس[1]. وكان هدفها المعلن "تحديد العلاقات المستمرّة بين البلدين بعد انـــتهاء الانتداب، على أساس الحرية التامة والسيادة والاستقلال". وقد نصت على أن يتـــشاور الـــبلدان في كل مسائل السياسة الخارجية التي قد تمسّ بمصالحهما المشتركة. وتعهّـــد البلدان أن يساعد كل منهما الآخر في حال وقوع صراع مع بلد ثالث. وإذا أوشكت الحرب على الوقوع، فإن سوريا ستزوّد فرنسا بجميع التسهيلات الممكنة على أراضيها، بما في ذلك استخدام السكك الحديدية والأنهار، والمرافئ والمطارات، وغيرها من وسائل المواصلات.

اتفق على أن يلي تصديق البرلمانَين السوري والفرنسي على المعاهدة فترة تمهيدية تمـــتدّ ثـــلاث سنوات، تُنقل خلالها السلطات تدريجياً. وفي نهاية تلك الفترة، ستصبح المعاهـــدة نافـــذة في يـــوم قبول عضوية سوريا في عصبة الأمم. ألحق بالمعاهدة اتفاقية عسكرية، تقدّم فرنسا بموجبها بعثة عسكرية لتدريب الجيش والدرك والقوات البحرية والجوية السورية، إنما على حساب سوريا نفسها. تخضع القوات المحلية لسيطرة وزارة الـــدفاع الـــسورية، لكن يحصر المدربون والمعدّات بفرنسا فقط. ويُمنح لفرنسا الحق بالاحتفاظ بقاعدتين جويّتين في سوريا في موقعين يتفق عليهما، على أن تبعدا 40 كلم على الأقل عن المدن السورية الرئيسية الأربع.

اعتُـــرف بإلحاق جبل الدروز والعلويين بسوريا من حيث المبدأ فقط. فقد استمر تمـــتّع المنطقتين بدرجة من الاستقلالية على نسق سنجق الإسكندرونه، لكن عُهد إلى المفـــوّض الـــسامي الفرنسي بتحديد مداها بمرسوم يصدر عنه. في غضون ذلك، يتمّ

(1) للاطلاع على نص المعاهدة، انظر Hourani, *Syria and Lebanon*, pp. 313-333.

تقاســـم إدارة المنطقتين، في السنوات التمهيدية الثلاث، بين مندوب المفوّض السامي الفرنـــسي، ومتصرف تعيّنه دمشق. وستحتفظ فرنسا بقواها في جبل العلويين وجبل الدروز لمدة خمس سنوات، تبدأ من يوم نفاذ المعاهدة.

في رسالة عاجلة من دمشق إلى وزارة الخارجية في 27 تشرين الأول/أكتوبر، قال القنـــصل البريطاني ماكيريث Mackereth، "ما زال المسلمون مرتابين بشأن الاتفاقية العـــسكرية التي يعتبرها المسيحيون خيط أملهم الوحيد". فقد بدا أن المعاهدة تزيد من وثاقـــة ارتـــباطات سوريا بفرنسا، بدلاً من أن ترخيها. وقبل أن يكون هناك أي شبه بالاســـتقلال الحقيقـــي، ينبغي التخلص من عقبة التصديق على المعاهدة، وتخطي مدة الثلاث السنوات الاختبارية بنجاح.

مـــع ذلـــك، لقـــي الوفد السوري ترحيباً صاخباً عند عودته إلى دمشق في 29 أيلـــول/سبتمبر. فأقيمت أقواس النصر على الطريق الممتدة من محطة السكك الحديدية إلى السراي، حيث كان الكونت دو مارتيل بانتظاره. لكن حين وصل القطار، غمرت الحـــشود الجامحـــة والمتحمسة للغاية أعضاء الوفد ومن كانوا باستقبالهم على الرصيف وخارج المحطة. وتحوّل الموكب نحو السراي إلى حشد مائج من الغوغاء[1].

مع ذلك، كانت المعاهدة مفتوحة على العديد من التأويلات المختلفة، فلم تهدّئ كـــثيراً مـــن حدّة التوتّرات بين الطوائف. ولم يحصل القوميون العرب ولا الوطنيون اللبنانـــيون علـــى ما أرادوا في النهاية. فشل الأوّلون في تأمين إعادة الأراضي المتنازع علـــيها إلى سوريا - لم تأتِ المعاهدة على ذكرها البتة - فيما خشي الأخيرون من أن التنازلات الفرنسية التي قُدّمت إلى سوريا تعرّض ارتباط فرنسا التاريخي بلبنان للخطر. ومن المؤسف أن أعمال الشغب اندلعت بين المسلمين والمسيحيين في حلب، بعد بضعة أيام على عودة الوفد، مخلفةً ثمانية قتلى ونحو 150 جريحاً[2].

عـــاد رياض إلى بيروت عن طريق البحر، إذ لم يكن يحبّ ركوب الطائرة، فلقي استقبالاً حافلاً أيضاً، ونُثرت عليه الزهور في أثناء مغادرته المرفأ. نُشر نص المعاهدة في الـــصحافة اللبنانـــية، وسرت شائعات بأن محي الدين نصولي، مالك صحيفة **بيروت**،

(1) Acting Consul J.C. Ogden to Foreign Office, 3 October 1936. (FO 371/20066).

(2) Consul Robert Parr to Mr. Eden, Aleppo, 13 October 1936. (FO 371/20066).

اختلس الوثيقة من حقيبة رياض في أثناء الرحلة. سُرّ رياض من هذا التسريب، على الرغم من أنه أبدى خلاف ذلك. فقد كان يريد بالتأكيد أن تُعرف شروط المعاهدة على أوسع نطاق وبأسرع وقت ممكن.

رحب معظم السوريين بالمعاهدة واعتبروها إنجازاً عظيماً للكتلة الوطنية، التي فازت بأغلبية ساحقة في انتخابات تشرين الثاني/نوفمبر. فأصبح جميل مردم رئيساً للوزراء، وشكّل حكومة تتكوّن من سعد الله الجابري (وزيراً للشؤون الداخلية والخارجية) وشكري القوتلي (وزيراً للمالية وللدفاع) وعبد الرحمن الكيالي (وزيراً للعدل وللتعليم)، وأصبح فارس الخوري رئيساً للجمعية الوطنية. وكان جميع هؤلاء الرجال في أواسط الأربعينيات من عمرهم في ذلك الوقت، وقد تصدّروا الحركة الوطنية السورية منذ سنوات. وثابروا على غرار رياض الصلح، صديقهم الوثيق في لبنان، على مناوأة الانتداب وبذلوا قصارى جهدهم لإنهائه. بعد ذلك بشهر، في 21 كانون الأول/ديسمبر 1936، انتُخب زعيم الكتلة الوطنية، هاشم الأتاسي، رئيساً للجمهورية. وفي 27 كانون الأول/ديسمبر، أقرّت الحكومة الجديدة المعاهدة، وفي اليوم التالي صدّق عليها البرلمان السوري بالإجماع، في اجتماع طال انتظاره بعدما علّق الفرنسيون أعمال المجلس لمدة 25 شهراً.

تحضيراً لهذه الجلسة التاريخية في قاعة البرلمان، خُصّص مكان بارز لأعضاء السلك الدبلوماسي. لكن نُقل مكان الوفد الفرنسي من مقاعد الحكومة إلى مقصورة جانبية[1]. ربما كان انتصار القوميين جزئياً وغير واضح، لكنهم أصرّوا على الاحتفاء به قدر المستطاع. فقد دفع إنشاء حكومة الجبهة الشعبية في فرنسا، وتوقيع المعاهدتين البريطانية - المصرية والبريطانية - العراقية، العديد من الوطنيين السوريين للاعتقاد أن استقلالهم لن يتأخر كثيراً.

غير أن رياض الصلح عرف أن المعركة لم تُحسم بعد. وخاب أمل دعاة الوحدة مع سوريا في لبنان من المعاهدة، فيما اتهم القوميون العرب المتطرفون في سوريا - لا سيما مناصرو الدكتور عبد الرحمن الشهبندر المنفي - أعضاء الكتلة الوطنية بالخيانة واعتبروهم متعاونين مع فرنسا. دعا رياض، الباحث دائماً عن تسويات عملية، إلى

(1) Damascus Consulate to Foreign Office (FO 371/20848).

الـــبتّ في علاقات لبنان مع سوريا وفرنسا عن طريق الحوار لا الإكراه. وفي بحثه عن صيغة يمكن أن يوافق عليها الموارنة، توصّل إلى فكرة انضمام سوريا ولبنان معاً في اتحاد كـــونفدرالي. وكـــان يأمل في أن يلقى ذلك قبولاً أكثر لدى الموارنة والفرنسيين من الـــوحدة الـــصريحة مـــع سوريا. لكن بعض الوطنيين اللبنانيين نظروا إلى هذه الفكرة المتواضـــعة بريبة وحذر، فيما انقسم القوميون العرب بين دعاة الوحدة المتشدّدين في طـــرابلس (كرامـــي وعبد اللطيف البيسار وأصدقائهما) ودعاة الكونفدرالية الأكثر اعتدالاً في بيروت (آل الصلح وسلام وبَيهم).

للتـــرويج لفكـــرة الاتحاد الكونفدرالي، نظّمت المجموعة الأخيرة المؤتمر القومي الإســـلامي الذي انعقد لمدة أسبوع بين 23 و28 تشرين الثاني/نوفمبر في منـــزل عمر بَـــيهم، وبرئاســـة سليم علي سلام. أكدت المذكرة النهائية الصادرة عن المؤتمر رغبة المـــشاركين في انضمام سوريا ولبنان إلى "اتحاد بأوسع ما يمكن من أشكاله"، شرط أن تـــضمن المعاهـــدة الفرنـــسية اللبنانـــية اللامركزية الإدارية للقطرين، والمساواة بين المجـــتمعين[1]. وفي خطـــاب أمـــام المؤتمر، وجّه رياض الصلح ملاحظاته إلى الوطنيين اللبنانـــيين: "إننا لا نجبركم على الدخول في اتحاد، لكن على أي أساس تصرّون على وجـــوب أن يقبل الوحدويون بلبنان منفصل، بما أنهم لا يقلّون عدداً عنكم؟"[2]. وقاد ريـــاض وفـــداً اجتمع بالمفوّض السامي الفرنسي، لترويج فكرة الاتحاد الكونفدرالي، وطلب مشاركة قوميين عرب في المفاوضات الفرنسية اللبنانية. لكن مطالبه لم تلقَ آذاناً صاغية.

المعاهدة الفرنسية - اللبنانية ومعارضوها

تبيّن أن إبرام المعاهدة الفرنسية اللبنانية مسألة سهلة. فقد بدأ الكونت دو مارتيل ووفـــد لبناني برئاسة الرئيس إميل إده محادثات في بيروت في 20 تشرين الأول/أكتوبر 1936، مـــن دون مـــشاركة أي من الوطنيين العرب. بالتالي، تم التوقيع على المعاهدة بالأحـــرف الأولى في 13 تشرين الثاني/نوفمبر، وصدّق عليها البرلمان اللبناني في 17 من

(1) Méouchy "Le Pacte national", p. 468.

(2) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, p. 46.

الشهر نفسه. وخلافاً للمعاهدة مع سوريا، كانت المعاهدة اللبنانية قابلة للتجديد لمدة 25 سنة أخرى، ولم يحدّد وقت لبقاء القواعد الفرنسية في لبنان. عكست السرعة التي تمت فيها تسوية الأمور انسجام وجهات نظر الوطنيين اللبنانيين والغالبية في فرنسا التي رأت أن لبنان يجب أن يبقى مركزاً لنفوذ فرنسا، وقاعدة لقوات فرنسا المتوسطية في المستقبل المنظور. وكانت حكومة الجبهة الشعبية ومعارضوها اليمينيون مقتنعين جداً بذلك.

في زيارة إلى باريس بعد عدة شهور كضيف على الحكومة الفرنسية، أعلن إده عن رأيه قائلاً: "عرف اللبنانيون أن استقلالهم الوطني غير ممكن سوى في إطار التحالف مع فرنسا وضمانته" فلبنان هو البؤرة الرئيسية لإشعاع فرنسا في الشرق الأدنى وآسيا الوسطى. وقال إده لصحيفة "إكو دو باري" *Echo de Paris* إن "اللبنانيين يعتبرون اتفاقهم رابطاً تاريخياً جديداً بفرنسا. لقد أبرموا معاهدة نافذةً لمدة خمسة وعشرين عاماً، لكنهم يرغبون في معاهدة دائمة في الواقع". وعندما سُئل عما إذا كان يجد أي اعتراض على قاعدة بحرية فرنسية في المشرق، أجاب أنه يمكن اعتبار الساحل اللبناني بأكمله قاعدة بحرية فرنسية[1].

وهكذا سُرّ المسيحيون في لبنان بالمعاهدة، لكن المسلمين استقبلوها استقبالاً عاصفاً. فأغلقت طرابلس شهراً كاملاً احتجاجاً على إبقاء المدينة داخل لبنان، ورُفعت الأعلام السورية على جوامعها. قُتل ستة معارضين على الأقل وأصيب العديد غيرهم بجروح بليغة. وأُلقي القبض على الزعماء المسلمين الرئيسيين الثلاثة، بمن فيهم كرامي، وسجنوا في بيروت. لكن هناك أيضاً، اصطدم المسلمون الساخطون مع المسيحيين بصورة متكرّرة. فقد حمل المصلّون المسلمون السلاح، بعد خروجهم من مسجد البسطة، وزحفوا نحو وسط بيروت. وهناك فرقتهم القوات الفرنسية، لكن بعدما حطموا ميدان المدينة، ومزقوا العلم اللبناني، وهاجموا عدداً من العابرين المسيحيين. وقد خلّفت المعارك المتواصلة بين المتظاهرين والشرطة أربعة قتلى ومئات آخرين من الجرحى.

---

(1) Eric Phipps, British Ambassador in Paris, to Foreign Office, 5 July 1937 (FO 371/20848).

وانـــتقاماً من المسلمين، هاجم المسيحيون الأرمن الأحياء المحيطة بمنطقة البسطة، فدافـــع عنها سكانها بشراسة. ووقعت خارج بيروت عدة هجمات على أملاك تعود للمـــسيحيين(1). شـــعر الـــوجهاء من جميع الطوائف بالقلق من هذا العنف الطائفي، فحاولـــوا تهدئة المتهورين والتوسط في ما بينهم. ولعب رياض الصلح دوراً بارزاً، إلى جانب زملائه السنّة: سليم علي سلام وعمر بَيهم وعمر الداعوق. وانضم إليهم بشارة الخـــوري (مـــاروني)، وهنـــري فرعون (روم كاثوليك)، وحبيب طراد وجان تويني وحبيب أبـــي شهلا (روم أرثوذكس)(2).

اجتمع إبرام المعاهدتين، والاضطرابات الطائفية التي تلتهما، واقتراح تشكيل اتحاد كـــونفدرالي الـــذي دعا إليه رياض الصلح، وتضافرت معاً لإحداث بعض التطور في الرأي العام المسلم في لبنان. فقد ركّز القوميون العرب حتى نهاية عام 1936 على قضية الأراضـــي المتنازع عليها، لكن بعد إبرام المعاهدتين مع سوريا ولبنان، أدرك المسلمون أن هذه القضية لم تعد ذات أهمية ملحّة سواء في باريس أو في دمشق. بل إن اللبنانيين الـــسنّة اضـــطروا إلى الاعتراف بمرارة أنه لم يعد في وسعهم الاعتماد على "أشقائهم الـــسوريين، في هذه القضية على الأقل. فرغبة من الكتلة الوطنية في حماية معاهدتها مع فرنسا، أرسلت إلى طرابلس وفداً يتكوّن من جميل مردم، وسعد الله الجابري، وعفيف الـــصلح، لـــتهدئة الأوضاع وتعليق الإضراب. وكانت النتيجة أن اللبنانيين المسلمين تقـــبّلوا تدريجياً وجود لبنان كدولة عربية بين غيرها من الدول، وواصلوا الأمل في أن ينـــضم لبنان، عندما يحصل على استقلاله التام، إلى جيرانه في نوع من التفاهم القائم على المبادئ القومية العربية وغير الطائفية(3).

تدمير المعاهدة السورية

أعطـــت فترة السنوات التمهيدية الثلاث التي اتفق عليها المتفاوضون الفرنسيون والـــسوريون الحزب الاستعماري الوقت الكافي ليتحرك ضد المعاهدة. فأُطلقت حملة

(1) Acting Consul General G.W. Furlong to Mr. Eden, Beirut, 17 November 1936 (FO 371/20067); Consul General G.T. Havard to Mr. Eden, Beirut, 24 November 1936 (FO 371/20066). Pierre Rondot, *Les Institutions politiques du Liban*, Paris 1947, p. 15.

(2) Johnson, *Class and Client*, p. 19 and footnote p. 22.

(3) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, p. 50.

صحفية دعمتها نحو ستين شركة تجارية وصناعية فرنسية تعمل في سوريا ولبنان، منها "مصرف سوريا ولبنان" وشركات الامتيازات التي تدير سكك الحديد والترام، وتزوّد دمشق وبيروت وحلب بالكهرباء. فأعيد الآن صياغة كل المقولات البغيضة المعروفة منذ الحرب العالمية الأولى وأحييت من جديد. على فرنسا البقاء في سوريا للمحافظة على نفوذها في المنطقة؛ والبقاء قوة عظمى في العالم الإسلامي؛ ومنع انتشار القومية العربية إلى شمال أفريقيا؛ وحماية لبنان من سوريا، والأقليات الدينية من "استبداد" الأكثرية المسلمة؛ وحماية على المصالح الفرنسية من البريطانيين الغادرين[1].

ولزيادة الطين بلّة، سرعان ما وجدت حكومة بلوم نفسها في مأزق. كثيراً ما كان يُنعت بلوم نفسه بأنه خائن وشاذ جنسياً ويهودي بغية التشهير به. وممن استهدفتهم هذه الحملة أيضاً وزير الداخلية، والعمدة الاشتراكي لمدينة ليل Lille، روجيه سالينغرو Roger Salengro، الذي لم يسامحه اليمين المتطرف لأنه حلَّ المنظمات اليمينية. فشنّت عليه حملة شرسة اتهمته كذباً بالفرار من الجيش في الحرب العالمية الأولى، ما أحدث لديه اختلالاً، فأقدم على الانتحار بالغاز في شقته.

أجبر هروب رؤوس الأموال وتراجع الإنتاج الصناعي وتجدد الإضرابات، بلوم على أن يعلن في 13 شباط/فبراير وقف إصلاحاته مؤقتاً. وأصبح ائتلافه اليساري فريسةً للصراعات الداخلية ومعرّضاً لخطر السقوط. حاول بلوم في نيسان/أبريل التعامل مع سيل من الأخبار السيئة، فطلب من البرلمان منحه صلاحيات اقتصادية كاملة، لكن مجلس الشيوخ رفض طلبه- بعد أن خسر بلوم أغلبيته فيه. استقال بلوم في 21 حزيران/يونيو 1937، ثم عاد إلى السلطة بعد نحو ثمانية أشهر في 13 آذار/مارس 1938، ليستقيل نهائياً بعد أقل من شهر، في 8 نيسان/أبريل. فتخلى إدوارد دلادييه، وحزبه الراديكالي الذي صعد إلى السلطة على أنقاض الجبهة الشعبية، عن سياسات بلوم تدريجياً.

قضى انهيار الجبهة الشعبية الفرنسية على المعاهدة السورية وشجّع جميع الراغبين في استمرار الانتداب - الحزب الاستعماري، والإداريين الاستعماريين، وشركات الامتيازات، ورجال الدين - أي الطاقم المنوّع الذي زعم الاهتمام بسلامة الأقليات

(1) Khoury, *Syria and the French Mandate*, p. 486.

المشرقية. وانضمّ إليهم في هذا المفصل الاستراتيجي ضباط الجيش الذين تزايد قلقهم في ذلك الوقت من مواجهة إيطاليا التوسعية، بالإضافة إلى التهديد الوشيك بوقوع حرب أوروبية شاملة. فالمشرق في النهاية ميزة عسكرية رئيسية للفرنسيين لا يمكن التخلي عنه في مثل هذه الظروف الخطيرة.

توجّه جميل مردم إلى باريس مرتين في محاولة يائسة لإنقاذ المعاهدة؛ الأولى في تشرين الثاني/نوفمبر 1937، والثانية في آب/أغسطس 1938، حيث مكث هناك ثلاثة أشهر. وقد أجبر في كل مرة على تقديم مزيد من التنازلات والتعهّدات: حماية حقوق الأقليات، لا سيما حقوق المسيحيين؛ وتجديد الوضع المتميز لبنك سوريا ولبنان؛ وضمان تعليم الفرنسية في المدارس السورية؛ ومنح فرنسا رخصة للتنقيب عن النفط؛ وأمور عديدة أخرى[1]. في 1 أيلول/سبتمبر 1938، أبلغ الجنرال هنتزيغر، القائد العام السابق للجيش الفرنسي في المشرق، والعضو في المجلس الحربي الأعلى، جميل مردم، بحضور وزير الخارجية جورج بونيه Georges Bonnet، بوجوب إضافة فقرات جديدة إلى الاتفاق العسكري. وتنص هذه الفقرات على بقاء القوات الفرنسية في سوريا طيلة مدة المعاهدة؛ وبقاء ميزانية القوات المحلية وإدارتها في أيدي الفرنسيين؛ وتمركز عملاء فرنسيين في الجزيرة والأراضي الداخلية السورية. وأكّد بونيه على عدم وجود أي فرصة للتصديق على المعاهدة من دون مثل هذه التعديلات العسكرية الإضافية.

في 14 كانون الأول/ديسمبر، تحت ضغط العسكريين والجماعات اليمينية، أبلغ بونيه لجنة الشؤون الخارجية في الجمعية الوطنية أن الحكومة الفرنسية لم تعد تنوي أن تطلب من البرلمان التصديق على المعاهدتين. كان ذلك بمثابة ضربة قاضية للحكومة الوطنية في دمشق، التي استند برنامجها بأكمله إلى التوصل إلى اتفاق تأمل أن يضع سوريا على طريق الاستقلال. غير أن الفقرات العسكرية الجديدة سلبت المعاهدة في الواقع من مغزاها السياسي. وقد اتضح ذلك على الفور للسياسي الوطني شكري القوتلي الذي هاجم مبدأ المعاهدة نفسه، قائلاً إنه لم يعد بالإمكان اعتبارها خطوة نحو إنهاء الانتداب.

(1) المصدر نفسه، ص 489 وما يليها.

الصراع لإخضاع الانفصاليين

واجهت حكومة جميل مردم مشكلات داخلية خطيرة، بغض النظر عن فشلها المدمّر في حمل فرنسا على التصديق على المعاهدة. وأكثر هذه المشكلات إلحاحاً الحاجة إلى إخضاع الدروز والعلويين والأقليات الإثنية والدينية في منطقة الجزيرة إلى حكم دمشق. فقد بخست الحكومة كثيراً تقدير المشاعر الانفصالية التي شجعها ضباط المخابرات الفرنسية منذ وقت طويل في هذه المناطق. ففي سنة 1937، تمرّد الأكراد الريفيون والقبائل التركمانية في الجزيرة، مطالبين بالانفصال عن سوريا والاستقلال الذاتي تحت الانتداب الفرنسي. كانت هذه المنطقة قليلة السكان بسبب انعدام الأمن المزمن فيها، إلى أن جاء الفرنسيون "لتهدئتها". وشجّع الفرنسيون بعد ذلك ظهور تحالف كردي مسيحي، فاستقبلوا آلاف اللاجئين الأكراد من الأناضول، بالإضافة إلى السريان الكلدانيين، الذين هربوا من القمع في العراق في سنة 1933. ونتج عن ذلك، بحلول أواسط الثلاثينيات، انتقال نحو 150 ألف نسمة إلى منطقة الجزيرة من الأكراد، والشركس، والأرمن، والمسيحيين اليعاقبة والسريان، واليزيديين والتركمان. وقد اتحدّت هذه المجموعات المتباينة كافة على كراهية حكومة دمشق. بل إنما أرسلت التماسات إلى عصبة الأمم تطالب فيها بالحكم الذاتي المحلي!

بعد سنتين من التحريض المناهض للحكومة، طرد جبل الدروز المسؤولين السوريين الذين أرسلوا لحكم المنطقة. بل إنه أعلن في سنة 1939 استقلاله. في منطقة العلويين، حيث لم يتمكن الحكّام السوريون قط من بسط سلطتهم خارج المدن الساحلية، اندلعت ثورة انفصالية في أوائل سنة 1939. وفي أيار/مايو، أعاد المفوّض السامي الجديد، غابرييل بيو Gabriel Puaux، الذي حل محل داميان دو مارتيل في كانون الثاني/يناير 1939، نظام الحكم الذاتي الإقليمي للعلويين والدروز، وأعدّ العدّة لتوسيعه إلى الجزيرة التي وضعها تحت الحكم العسكري الفرنسي.

وكأنّ كل ذلك لم يكن كافياً، فاضطرت الحكومة الوطنية في ذلك الوقت إلى الدخول في صراع بشأن مسألة لواء الإسكندرونه في شمال غرب سوريا. فهذه المنطقة تضمّ أقلية تركية كبيرة، لذا منحت هذه وضعاً خاصاً - بموجب اتفاق دولي - كانت تركيا طرفاً فيه. وأشار إحصاء رسمي للسكان في سنة 1933 إلى وجود 89,500

عربـــي، و70,800 تركي، و25,000 أرمني وكردي وشركسي من إجمالي 185,300 نـــسمة. ولكـــن بعد إبرام المعاهدة الفرنسية السورية، بدأت تركيا الادعاء أن الأتراك أصـــبحوا يشكّلون الأكثرية، وطالبوا بمعاملة خاصة للواء. ولما كانت فرنسا تتوق إلى التوصـــل إلى اتفاق سياسي وعسكري مع أنقرة، فقد أعطت وزناً للادعاءات التركية الـــتي لا أســـاس لها وذات الدافع السياسي. وفي اتفاق مع عصبة الأمم، اقتُرح نظام أساســـي للـــواء في أيار/مايو 1937، يبقى بموجبه مرتبطاً بسوريا مع التمتع باستقلالية واســـعة. لكـــن الـــبرلمان السوري أحس بالخطر ورفض الاعتراف بهذا النظام الجديد المقترح.

في أثـــناء الاســـتعدادات للانتخابات التي ستُجرى في اللواء، بدأ الأتراك المحليون بإثـــارة الاضطرابات، فعمدت السلطات التركية إلى القيام بتحركات عسكرية تهديدية لمـــساندتهم. لكن على الرغم من هذا الضغط التركي الأخرق - وهو ما أبدت فرنسا وممثلوها المحليون سروراً في التسامح معه - فإن جداول الناخبين لم تشِر إلى أي أكثرية تـــركية. لذا عُلّق تسجيل الناخبين عمداً ودخلت القوات التركية اللواء بمباركة فرنسا في 5 تمـــوز/يوليو 1938. وعندئذ أظهرت الجداول فجأة أن الأتراك يشكلون 63 بالمئة من السكان!

ســـارعت فرنسا، بعدما تخلّت عن الأرض لصالح تركيا بطريقة غير قانونية، إلى توقـــيع معاهدة صداقة معها طالما سعت إليها في 4 تموز/يوليو 1938. وقد أدمج اللواء تدريجياً بتركيا، وأطلق عليه اسم محافظة هتاي Hatay التركية في حزيران/يونيو 1939. هـــرب نحـــو 20 ألـــف لاجـــئ عربـــي وأرمني ويوناني، إلى سوريا ولبنان، تاركين ممتلكاتهم وراءهم. وقد لاحظ المؤرخ الفرنسي أندريه ريموند André Raymond عند رواية هذه الأحداث أن إعطاء اللواء لتركيا "من الأعمال الفظيعة التي تنم على انعدام الأخـــلاق الـــسياسية" لـــدى فرنسا. و"هو يتناقض مع رغبات أكثرية الشعب ومع الالتزامات التي أخذتها فرنسا على عاتقها تجاه سوريا باعتبارها السلطة المنتدبة"[1].

كان لهذه الأحداث تأثير عميق على سوريا، حيث حُمّلت الحكومة بطبيعة الحال مـــسؤولية الانهيار السياسي والكارثة الإنسانية. فاتُهمت، ظلماً إلى حدٍّ ما، أنها فشلت

(1) Raymond, "La Syrie, du Royaume arabe à l'indépendence", p. 75.

في الـدفاع عن الحقوق السورية[1]. واتهم الدكتور الشهبندر، وهو من النقاد اللاذعين للحكومة الوطنية، جميل مردم بأنه سلّم الإسكندرونه إلى الأتراك، وقدم العديد من التنازلات إلى الفرنسيين. فهُزم جميل مردم أمام الرأي العام الساخط في سوريا والحكومة الفرنسية الغادرة في باريس، فاستقال في 18 شباط/فبراير 1939. وانسحب الرئيس هاشم الأتاسي بدوره من الحياة العامة في 7 تموز/يوليو، احتجاجاً على عودة نظام الانتداب الفرنسي غير المبرّرة.

استغلّ المفوّض السامي بيو ذريعة عدم وجود محاور سوري، فحلّ البرلمان، وعلّق العمل بالدستور، وعيّن مجلس من المديرين العامين للحكم عن طريق المراسيم[2]. وزعم أن ثمة "واجباً إمبريالياً" يحتم الآن الحفاظ على النظام العام والوجود الفرنسي. فجأة، وجد معظم القادة الوطنيين أنفسهم في السجن أو المنفى ثانية. وكان عليهم تجرّع مرارة فقدان الإسكندرونه، وتقطيع أوصال سوريا ثانية، وإلقاء المعاهدة، التي بذلوا جهداً كبيراً في التفاوض عليها، في مزبلة التاريخ. لقد أُعيدت عقارب الساعة إلى سنة 1920.

تبيّن أن كل الجهود الجبارة التي بذلها رياض الصلح وزملاؤه الوطنيون قد ذهبت أدراج الرياح، فسيطر عليهم الشعور بالفشل. ففي الثلاثينيات، لم يألُ رياض جهداً للتمهيد لتسوية مع فرنسا عن طريق المفاوضات تؤدي إلى استقلال سوريا. ورأى أن الحوار، لا النزاع المسلح، هو السياسة الوحيدة التي يمكن أن تفضي إلى نتائج. فسعى عبر الاتصالات المباشرة بالسياسيين والصحافة في فرنسا، إلى إقناع الرأي العام الفرنسي أن الانتداب - وطريقة تطبيقه الفجة - أضرّ بالمصالح الفرنسية في المنطقة بدلاً من أن يُعززها. وقد منحته زياراته المتكررة إلى باريس فهماً معمّقاً لعالم السياسة الفرنسية المضطرب، حيث يتجادل اليسار واليمين، والمفكّرون الأحرار ورجال الدين، والليبراليون والإمبرياليون، ويتصارعون بأساليب تذكّر بالبرلمان العثماني القديم الذي عرفه والده في شبابه.

في الوقت نفسه، كان رياض الصلح رائداً في مفهوم التفاهم الإسلامي المسيحي في لبنان بغية تعبئة المسيحيين لصالح قضية الاستقلال. لقد تعلّم في طفولته أن يفتخر

(1) Mizrahi, 'La France et sa politique de mandat', pp. 64 ff.
(2) Méchouy, "Le Pacte national", p. 469.

بجهود جده، أحمد باشا، في مساعدة اللاجئين المسيحيين اليائسين وأنقاذهم من مذابح 1860، حيث كان متصرف عكا في ذلك الوقت. وشكّلت تلك الأعمال جزءاً أساسياً من تراث عائلة الصلح. ونتيجة ارتياد مدرسة لليسوعيين وتمضية المراحل الأولى من الشباب في بيئة إستانبول العالمية، تعلّم رياض الأساليب الغربية وعرف شيئاً عن المعتقدات المسيحية، ومخاوف الأقلية المسيحية في الشرق العربي. وكان رياض علمانياً في تفكيره، ولم تكن هناك أي إشارة إلى تعصّب إسلامي في تركيبته الشخصية، أو تعصّب في القومية العربية التي دعا الآن مواطنيه المسيحيين إلى الانضمام إليها.

لقد حقّق رياض الصلح في هذه المرحلة المبكرة قدراً من التعاون الإسلامي المسيحي في إطار لبناني. وهو تعاون يقوده بشكل أساسي تفاهم بين وجهاء الطوائف المختلفة، ويدعمه مالياً التعاون في المجتمع التجاري في بيروت بين المسلمين والمسيحيين الذين تزايدت مصالحهم التجارية المشتركة. من ناحية أخرى، أخذ يتكوّن بين المفكرين رابط من نوع آخر، بغضّ النظر عن خلفيتهم الطائفية، يقوم على التقدير المشترك لإحياء اللغة العربية في الصحافة، والتعليم العالي، والأدب والنشر. وقد جعل ذلك بيروت من أكثر المدن إثارةً للاهتمام، والعاصمة الفكرية للعالم العربي من دون منافس لمدة طويلة.

بالنظر إلى هذه المواقف المتطوّرة - التي أسهم فيها رياض إسهاماً مهماً - لم يعد المسلمون يقدّمون أنفسهم كسكان المناطق الساحلية الذين يطالبون بالوحدة مع سوريا، بل أعضاء في الطائفة المسلمة في لبنان؛ وهي طائفة أخذت تطالب الآن بالحصول على الحقوق نفسها التي يتمتّع بها الموارنة، وبصوت مساوٍ في الشؤون العامة. وهكذا فإن رياض الصلح، كسياسي سني بارز، وقومي عربي ذي شهرة عالمية، ومسلم يدرك التركيبة العقلية للمسيحيين المحليين والعالم الغربي، كان في موقع جيّد للدعوة إلى التعايش المشترك بين التيارين القويين في حياة لبنان السياسية: القومية العربية والوطنية اللبنانية.

الفصل الثالث عشر

الهويات المتنافسة:
الصراع على عقول الناس

عندما ارتقى رياض الصلح إلى موقع قيادي في الساحتين، العربية واللبنانية في الثلاثينيات، كان سجلّه القومي الخالي من المثالب مصدراً مهمّاً من دون شك من مصادر قوته ومكانته اللتين اكتسبهما في نضاله ضدّ العثمانيين، ثم ضد الانتدابين الفرنسي والبريطاني. وقد جعله موقفه المناهض للاستعمار، في العشرينيات والثلاثينيات، ومشاركته في المؤتمرين الإسلامي والقومي العربي اللذين عقدهما الحاج أمين الحسيني في القدس في سنة 1931، على اتصال مع كبار الناشطين والمفكرين المناهضين للاستعمار في المشرق والمغرب، بالإضافة إلى الهند وجنوب القوقاز والأرخبيل الإندونيسي.

كان الصلح، في مشرق العالم العربي، عضواً في شبكة من الزعماء السياسيين الذين شغلوا مراكز السلطة في بيروت ودمشق والرياض وعمّان وبغداد والقاهرة، أو أصبحوا كذلك في السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية مباشرةً. وقد عرفهم كلهم شخصياً، وربطته علاقات سياسية مستمرة بمعظمهم منذ ما قبل الحرب العالمية الأولى. وكان أعضاء هذه الشبكة على العموم يتكلّمون اللغة السياسية عينها، وينظرون إلى الساحات الإقليمية والدولية عبر عدسات متشابهة. كما أن رياض ناسب عائلة الجابري الحلبية، ما أدخله شبكة العلاقات الموسّعة لهذه العائلة المتميّزة. وما من زعيم لبناني آخر تمتّع بهذا المزيج الفريد من المزايا.

من مصادر قوة رياض الأخرى تضامنه مع المحرومين في أسفل الهرم الاجتماعي في لبنان. وفي حين كان يشعر أنه في بيئته عندما يخاطب الملوك والرؤساء والباشوات، فإنه كان يشعر بالراحة والرضا أكثر عند الاجتماع مع العمال والتجار والمزارعين. وذلك مما يُحسب له، ويتناقض مع سلوك كثير من الوجهاء المتعجرفين في تلك الفترة.

كان رياض يحب زيارة ناخبيه من الطبقة العاملة في منازلهم، ويحضر أفراحهم وأتراحهم، ويستقبلهم بحفاوة في منزله، ويؤمّن وظائف لأولادهم، ويساعدهم في حل المشكلات الكثيرة التي يواجهونها، في بلد شديد التركيب الهرمي، من المحاكم إلى المدارس والمستشفيات والشرطة، بالإضافة إلى البيروقراطية الحكومية[1].

قرّبه ذلك من الحركة النقابية الناشئة، والحزب الشيوعي في سوريا ولبنان، الذي بدأ يكسب زخماً منذ سنة 1935 وما تلاها. أنشئ الحزب في بيروت في سنة 1930 وحقق بعض النجاح في تنظيم الإضرابات العمالية ودعم المظاهرات السياسية. ومع أن غالبية أعضائه المؤسسين كانوا من الأرمن، فقد حلّ محلهم، بعد بعض التوتر والعداء، - خالد بكداش، وهو كردي (متبجّح إلى حدٍّ ما) درس في الاتحاد السوفياتي، وعدد من العرب، لا سيما: فرج الله الحلو، ومصطفى العريس، وفؤاد قازان، ونقولا الشاوي، وأنطون ثابت. وقد ألهمت هذه المجموعة من الرجال المتفانين إنشاء الرابطة المناهضة للفاشية في سنة 1936، وأصدرت صحيفة **صوت الشعب** في سنة 1937 واستمرّ صدورها حتى اندلاع الحرب، بالإضافة إلى سيل من المنشورات والبيانات الرسمية، والترجمات للنصوص الماركسية. كما افتُتحت فروع للحزب في جميع المدن الرئيسية. ومع أن الرأي السائد في الحزب كان منقسماً في البداية بشأن التعاون مع القوميين العرب على غرار رياض الصلح، فقد اتخذ الحزب قراراً سياسياً واضحاً بدعمه في سنة 1936[2].

في تلك الفترة، كان رياض أحد الوجهاء القلائل في لبنان الذين أدركوا أن التأكيد على حقوق الطبقة العاملة - لا سيما الإضرابات ضد الشركات الفرنسية الامتيازية - جزء لا يتجزأ من الصراع ضد الاستعمار. ولا شكّ في أن علاقاته الوثيقة بالجبهة الشعبية في فرنسا، ومراقبته إصلاحات ليون بلوم لمصلحة الطبقة العاملة، ساعدتا في صياغة فهمه السياسي للمشكلات الاجتماعية وتعاطفه الطبيعي مع الفقراء.

---

(1) رسالة من الأستاذ وليد الخالدي، 3 شباط/فبراير 2007، وأنا أدين له بالفقرات الثلاث الأولى من هذا الفصل.

(2) Stephen Hemsley Longrigg, *Syria and Lebanon Under The French Mandate*, Oxford 1958, p. 227.

عانى لبنان في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الثانية مباشرةً اضطراباً اجتماعياً كبيراً ناتجاً عن تصاعد تكاليف المعيشة، وتراجع الوضع الاقتصادي. وغالباً ما أحدثت الإضرابات شللاً في البلد. وقد دفع موقف رياض الداعم لهذه الإضرابات الفرنسيين لنفيه إلى بلدة القامشلي في أقصى شمال شرق سوريا لبضعة شهور في سنة 1935. ومن المفارقة أن تلك البلدة كانت متعاطفة مع الشيوعية لأنها تأوي فلاحين منظمين بعض الشيء، بالإضافة إلى العديد من الأقليات العرقية والدينية المسيّسة. لكن بما أن هذه الأقليات ليست عربية، فإنها لم تُجذب إلى القومية العربية التي استقطبت العديد من السوريين في تلك الفترة.

فشل رياض في الوصول إلى البرلمان

ترشّح رياض للانتخابات النيابية عن بيروت، في لائحة مع قيادي سنّي آخر هو عمر بَيهم، في تشرين الأول/أكتوبر 1937، وحصل على دعم من الشيوعيين وسليم علي سلام والمجلس الإسلامي. وواجههما ائتلاف موالٍ لإده بقيادة عبد الله اليافي. أظهرت هاتان اللائحتان المتنافستان الانقسام السني في المناطق الساحلية اللبنانية. فهناك المناوئون المتشدّدون للانتداب، مثل عائلتي الصلح وسلام في بيروت، وكرامي في طرابلس من ناحية. ومن ناحية أخرى، فإن عدداً من الشخصيات السنية وقفت إلى جانب الرئيس إده المؤيّد لفرنسا، مثل عبد الله اليافي نفسه. ثم هناك محيي الدين النصولي، وهو من عائلة سنية معروفة في بيروت بدأ في أوائل سنة 1935 نشر صحيفة وطنية معتدلة باسم **بيروت**[1]؛ ورئيس الوزراء خير الدين الأحدب، صديق رياض السابق وزميله في الصحافة، الذي أصبح الآن على خلاف سياسي معه.

كانت فرنسا - والسلطات اللبنانية المرتبطة بها أشد الارتباط - عازمة على إسقاط لائحة الصلح - بيهم. ومع اتساع الفجوة بين الإدّيين والعروبيين، حاول الدستوريّون من أنصار بشارة الخوري سبر إمكانية التعاون الانتخابي مع العروبيين. بيد أن المفوض السامي الفرنسي دو مارتيل حذّر بشارة الخوري، بناء على تعليمات قادمة من باريس، ألا يتعاون معهم مهما كانت الظروف إذ لا بد من إبعاد العروبيين

(1) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, p. 76.

عن البرلمان. وبدلاً من ذلك، حثّ المفوّض السامي الإديين والدستوريين على الدخول في تحالف انتخابي ضد رياض الصلح. ولتحقيق هذا الهدف، أصدر دو مارتيل مرسوماً في 6 تشرين الأول/أكتوبر 1937، يمدّد فيه ولاية إده الرئاسية إلى ست سنوات، ويرفع عدد النواب إلى 63 نائباً - يُنتخب 42 منهم بالاقتراع المباشر، ويعيّن الرئيس، أو بالأحرى الفرنسيون أنفسهم، الباقين. وقد بلغت حملة السلطات على العروبيين ذروتها عندما عرض إده والأحدب التعاون على عائلتي سلام وبيهم مقابل إسقاط رياض الصلح من اللائحة لصالح مرشح سهل الانقياد. فرفضت العائلتان الوطنيتان بازدراء هذا العرض الذي أوحت به فرنسا.

للتأكّد بشكل قاطع من أن رياض لا يملك أي فرصة للفوز، لجأ الفرنسيون إلى التلاعب بالانتخابات. فقدّمت الوعود إلى الصحافيين البارزين بمنحهم مقاعد في البرلمان ومناصب إدارية مهمّة، إذا وافقوا على مهاجمة العروبيين في كتاباتهم. ونُسخت أوراق الاقتراع، وسُجن نحو 270 مندوباً انتخابياً للعروبيين، وضايقت الشرطة الآخرين - بل حتى عاملتهم بخشونة - عند أبواب مراكز الاقتراع. نتيجة لكل هذا الغش والخداع، أصبح من الواضح أن محاولة رياض - وكذلك الشيوعيين - ستبوء بالفشل. وهكذا وجد نفسه مجبراً على الانسحاب.

حصلت اللائحة الموالية لفرنسا في بيروت على 22,671 صوتاً، فيما نال العروبيون 1608 أصوات فقط. وقد رحّب الوطنيون اللبنانيون الضيّقو الأفق، والصحافة المؤيدة لفرنسا بالنتيجة باعتبارها هزيمة ساحقة للقومية العربية وانتصاراً للقضية اللبنانية. فتباهت صحيفة "لوريان" اليومية الناطقة باللغة الفرنسية التي يملكها جورج نقاش وغابرييل خباز، بأن رياض هُزم في عقر داره في بيروت. في المقابل، هاجمت جريدة **النهار** العربية البارزة - أسسها جبران التويني الأرثوذكسي الأكثر انفتاحاً بكثير - الرئيس إده ورئيس الوزراء الأحدب بسبب "نزعتهما الفينيقية". وذلك مصطلح ساخر اختزالي لوصف جميع من سعوا إلى إدارة ظهورهم للعالم العربي لاتباع جدول أعمال مذهبيّ ضيق، يقوم على اختلاق الروايات الخرافية عن فينيقيا والفينيقيين.

عُقدت الجلسة الأولى للبرلمان الجديد في 29 تشرين الأول/أكتوبر 1937، حيث انتُخب بيار طراد رئيساً لمجلس النواب. وفي اليوم التالي، قدّم رئيس الوزراء خير الدين

الأحدب استقالته إلى رئيس الجمهورية. لكن إده رفض قبولها، وطلب منه تشكيل حكومة أخرى، وهو ما قام به بالفعل، وحصل على أكثرية كبيرة في البرلمان[1].

واجه رياض العديد من الصعاب بسبب العداء الفرنسي الشديد وتركيبة سلطة إده والأحدب المدعومة من فرنسا. ففي السنوات القليلة التي سبقت الحرب العالمية الثانية، وقعت السياسة الفرنسية في قبضة ائتلاف محافظ للغاية من الضباط العسكريين، والإداريين الاستعماريين، ورجال الدين، وجميعهم يحبّذون استمرار الوجود الفرنسي في المشرق. وظلّوا يعتبرون لبنان الكبير جزيرة مسيحية مُوالية في بحر من المسلمين المعادين، وقاعدة للقوة الفرنسية في شرق المتوسط في مواجهة المنافسين الطموحين مثل إيطاليا.

لم تدرك السلطات الفرنسية في بيروت أن قسماً من المؤسسة السنّية في لبنان أصبح الآن جاهزاً لقبول حدود لبنان التي أقيمت في سنة 1920. وأن رجالاً مثل رياض الصلح ابتعدوا في الثلاثينيات عن الرفض التامّ لحدود لبنان الموسّعة إلى نوع من الرضوخ لها، بل حتى الاندماج في الدولة اللبنانية الجديدة. ففي النهاية، شرعت القيادات الوطنية السورية بالتفاوض على المعاهدة في باريس في سنة 1936 على أساس هذا الشعور السياسي المتطوّر، يحدوها أمل كبير في التمكّن من تحقيق تسوية مقبولة مع الفرنسيين[2].

غير أن الفرنسيين واصلوا ارتيابهم من حصول أي تغيير حقيقي في موقف العروبيين اللبنانيين. فقد شكّ المفوّض السامي داميان دو مارتيل في قبول رياض حدود لبنان الكبير واعتبره موقفاً انتهازياً وغير صادق، كما ألمح في تعليق مزهوّ بالانتصار بعد الانتخابات: "النتيجة الأبرز هي هزيمة كل نزعة إسلامية وحدوية، على الرغم من أن رياض الصلح حاول حشد الأصوات... بالادعاء أنه يناصر الدولة اللبنانية المشبعة بالروح العربية"[3]. فقد بقيت القومية العربية بالنسبة إلى الفرنسيين العدوّ الذي يجب التصدّي له، وهي نظرة شجّعهم عليها أتباعهم الموارنة المحليون. وقد أدى مثل هذا التعنّت إلى رصّ خطوط القتال بين العروبيين والوطنيين اللبنانيين، وبين المسلمين والمسيحيين على نحو ينذر بالسوء.

---

(1) المصدر نفسه، ص 79.

(2) Méouchy, 'Le Pacte national', p. 465.

(3) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, p. 80; Consul General Havard to Foreign Office, Beirut, 2 November 1937 (FO 371/20849).

كانت تلك مرحلة من شبه الفوضى السياسية في الشؤون اللبنانية. فعلى الرغم من أن الوطني اللبناني الماروني إميل إده انتُخب رئيساً للجمهورية في كانون الثاني/ديسمبر 1936، فإن نزاعه مع منافسه الماروني، بشارة الخوري الأكثر تسامحاً مع القومية العربية، تواصل من دون هوادة. أدى ذلك إلى انقسام الطبقة السياسية من أعلاها إلى أسفلها. وأصبحت المفاوضات التي أجرتها سوريا ولبنان للتوصّل إلى معاهدة مع فرنسا مصدراً للخلاف المرير. فقد خشي المسلمون اللبنانيون - لا سيما في مدن كطرابلس، حيث الشعور الديني السنيّ قوي جداً - من أن تُحبط آمالهم في الاتحاد مع سوريا إلى الأبد، ما دفعهم للنزول إلى الشارع في مظاهرات عنيفة.

في غضون ذلك، بعدما ماطلت فرنسا في التصديق على معاهدة 1936، أخذ الاستقلال الذي عملت الكتلة الوطنية في سوريا جاهدةً وذاقت الأمرّين لتحقيقه، يتحول بسرعة إلى سراب. فقد أعيد توكيد الاستعمار الفرنسي بوقاحة كما لو أنه لم يحدث شيء لتركيز عقول الفرنسيين خلال السبعة عشر عاماً التي مضت على الانتداب، ما جعل الوطنيين العرب يشعرون بالإحباط العميق والغضب البالغ.

في الوقت نفسه، كان الرأي العام في لبنان، وجميع أنحاء العالم العربي، غاضباً بسبب النضال غير المتكافئ الذي يخوضه الفلسطينيون ضد البريطانيين والصهاينة. وأصبح دعم الثورة الفلسطينية التي اندلعت في سنة 1936 واستمرت في نوبات متقطّعة حتى سنة 1939 - وأخمدتها القوات البريطانية بقسوة شديدة - من أهم السمات المميّزة للعروبة. في هذه الأجواء المشحونة بالغضب، اصطدم رئيس الوزراء الأحدب بالرأي العام القومي لأنه لم يُندّد بخطة بيل للتقسيم، ووافق على مشاركة لبنان في المعرض الصهيوني في سنة 1936 في تل أبيب، وهو المعرض الذي قاطعته كل الدول العربية الأخرى. واتُهم بأن لديه مصالح مالية مع بعض الشركات الصهيونية؛ وهو اتهام سعى لدحضه بطريقة خرقاء إلى حدٍّ ما، بتذكير منتقديه أنه منح ذات يوم مفتي القدس السابق، الحاج أمين الحسيني، ملاذاً في لبنان[1].

كان لهذه الصراعات والإحباطات المحلية تأثير مخلّ باستقرار المجتمع المشرقي. ولعل التأثير الأكثر إثارة لاضطراب الرأي العام المحلي هو ظهور الفاشية في أوروبا في

(1) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, p. 82.

نهايـــة الثلاثينـــيات. فنظـــراً إلى أن النــضال الطويل ضدّ الانتدابات لم يحقّق الكثير، والإحساس بخيانة بريطانيا وفرنسا وغدرهما، أخذ الوطنيون العرب يأملون في أن يؤدّي تنامي القوة الألمانية والإيطالية في النهاية إلى كسر شوكة بريطانيا وفرنسا في المشرق.

ســـرعان ما برزت حركات شبابية صاخبة، ومنظمات شبه عسكرية، وأحزاب أيديولوجـــية تحاكي مثيلاتها الأوروبية الفاشيّة، وذلك للتنفيس عن الإحباط من العجز الـــسياسي للقادة. و لم تعد السياسة في لبنان في أواخر الثلاثينيات حكراً على الوجهاء فقط، كما كانت عليه الحال منذ مدة طويلة. فظهر فاعلون جدد على الساحة، ما زاد مـــن حـــدّة الانقسام بين الهويات القومية المتنازعة، ونقل المنافسة المتزايدة المرارة إلى الشارع.

السجال حول هوية لبنان

لم يكـــن موضـــوع الانتخابات في سنة 1937 والقضايا الاقتصادية والاجتماعية في المقـــام الأول، بل قام على السجال بشأن هوية لبنان الوطنية. هل لبنان دولة عربية، وجزء لا يتجـــزأ من العالم العربـــي الأوسع؟ أم أنه ذو هوية منفصلة غير عربية، شكّلتها علاقاته المـــسيحية والغربية، وانفتاحه منذ وقت طويل على العالم المتوسطي، وتاريخه السياسي من الاســـتقلال الـــذاتي داخل الإمبراطورية العثمانية، بل حتى أصوله التاريخية القديمة؟ نشبت المعركة بين معسكرين متعارضين في الصحافة والشارع وصالونات النخبة. و لم يكن ذلك شأناً يخص النخبة من دون عواقب تذكر؛ بل قضية حياة أو موت، تؤثّر في جوهر وجوده الكثيرين، وتمهّد للحرب الأهلية التي احتدمت بمرارة بعد أربعين عاماً.

لا تـــزال قضية الهوية الوطنية، التي ابتُلي لبنان منذ إنشائه كدولة حديثة في سنة 1920، عالقـــة حـــتى اليوم إلى حدٍّ كبير. بل إنها تصبح في بعض الأحيان أكثر حدّة وإثـــارة للانقـــسام مـــن أي وقت مضى بسبب التدخّل السياسي والعسكري لقوى خارجـــية متخاصمة، تجنّد كل منها قوات محلية وكيلة. وغالباً ما تستغلّ الانقسامات التاريخية وترسّخ ثقافة العنف والقتل.

لاحـــظ ألبرت حوراني في إحدى مقالاته أن "كل الدول مصطنعة بالمعنى الحرفي، أي أنهـــا تشكلت عبر عمليات تاريخية محددة، وأفعال بشرية داخل بيئة جغرافية محددة

خلال فترة من الزمن"[1]. ليس هناك في الواقع شيء ثابت بشأن الهويات الوطنية. فالأمم ابتكارات تطورية معقدة، تنتج عن الاضطرابات الداخلية والتدخلات الخارجية، وعن الرسم العشوائي للحدود في الغالب، والحوادث التاريخية أو الجغرافية، والأساطير، والطريقة التي يفكر بها الناس ويشعرون نحو أنفسهم وتاريخهم، والعديد من العوامل الأخرى التي لا تقلّ الصيغ المجردة للمفكرين أهمية عنها. ففي لبنان، كما في غيره من البلدان، يتحمّل المنظّرون الإيديولوجيون الأشرار "للهوية الوطنية" جزءاً كبيراً من المسؤولية.

عانت القومية العربية التي نادى بها رياض الصلح مرارة الخيبة نتيجة عدة عقود من الهزائم الأليمة. فعلى الرغم من أن المسلمين السنّة مثله هم ورثة الأيوبيين والمماليك، وورثة 400 سنة من الحكم العثماني الذي امتدّ منذ سنة 1516، والثورة العربية الكبرى في سنة 1916، فقد استبعدهم الموارنة المدعومون من فرنسا عن الحياة السياسية اللبنانية في فترة ما بين الحربين العالميتين بأكملها. وبعد أن كانوا أكثرية، تقلّصوا إلى أقلية داخل لبنان الكبير الذي أوجده الفرنسيون. مع ذلك، على الرغم من هذه المحنة، ظلّت القومية العربية الإيديولوجية الوحيدة التي آمن بها رياض الصلح بحقّ. كانت إرثه الروحي والفكري. وتطلّع إلى تغيير مسار بلده، أي استمالة لبنان نحو قومية عربية لا طائفية، يعيش فيها المسيحيون والمسلمون في تآلف ووئام. وظلّ مقتنعاً طوال حياته أن على كل العرب، بمن فيهم اللبنانيون من جميع الطوائف، المشاركة في هدف تحرير العالم العربي. فهم جميعاً رفاق سلاح أياً تكن خلفياتهم، وعلى كل فرد أن يكون ملتزماً ومعنياً. فقد رأى رياض بأمّ عينيه ما حقّقه الصهاينة بفضل مثل هذا الالتزام والعمل الدؤوب.

لقد كان التمسّك بموقفه من دون محيد يتطلّب قدراً كبيراً من الثقة بالنفس والعزيمة، في ضوء الأحداث المحبطة التي شهدها. فقد سُجن مع أبيه في سجن عسكري تركي كئيب في عاليه، ونجوا من الإعدام بصعوبة. ولقي العديد من الوطنيين العرب الذين عرفاهم وأحباهم حتفهم بطريقة مروعة على أعواد المشانق في الساحات العامة

(1) Albert Hourani, *Political Society in Lebanon: a Historical Introduction*, Oxford 1986, p. 2.

في دمشق وبيروت في سنتي 1915 و1916. وشهد رياض صراع والده، والعديد من المسؤولين المخلصين الآخرين في الإمبراطورية، وهم في منتصف العمر مع المعضلات التي نتجت عن الانتقال المؤلم من النزعة العثمانية إلى العروبة، وانهيار ثرواتهم ومكاناتهم الرفيعة وامتيازاتهم بانهزام الإمبراطورية في الحرب العالمية الأولى. وعندما بدا أن الحلم بالاستقلال والوحدة العربية أصبح في متناول اليد، اقتسمت بريطانيا وفرنسا الولايات العربية بما يتناسب مع مصالحهما الاستعمارية، وتلا ذلك فرض الانتدابات الاستعمارية قسراً. وتتابعت الكوارث الأخرى كوابل لا ينقطع: قمع الثورة السورية الكبرى 1925 - 1926؛ والمدّ الاستيطاني اليهودي المدعوم من بريطانيا، وقمع الثورة الفلسطينية 1936 - 1939؛ ورفض فرنسا التصديق على معاهدتي 1936 وإعادة إحياء الانتداب البغيض.

لكن هذه الأحداث الكئيبة المتتالية أكّدت اعتقاد رياض الصلح المتفائل دائماً أن الاستقلال قدر الشعب العربي في نهاية المطاف، وأنه هو نفسه سيؤدي دوراً مهمّاً في تحقيقه.

الارتباط بجنوب لبنان

ثمة بعد آخر في قومية رياض الصلح. فعلى الرغم من أنه مسلم سنيّ، فإن جذوره تعود إلى جنوب لبنان، الذي كان ولا يزال منطقة مسلمة ذات غالبية شيعية. ولم تكن مصادفة أن جده، مالك الأراضي، أحمد باشا أصرّ، في بادرة نحو أصدقائه وأتباعه الشيعة، على أن يطلق على رياض اسم "علي" - تيمناً بعليّ بن أبي طالب (598 - 661)، ابن عم النبي محمد ﷺ وصهره، ورابع الخلفاء الراشدين. وغالباً ما وقّع رياض باسم رياض علي في شبابه، على الرغم من أنه أغفل الاسم الثاني عندما أصبح شخصية عامة.

جنوب لبنان منطقة من الجبال المنخفضة الشديدة الانحدار التي تفصل كلاً منها عن الآخر وديان وممرات ضيقة عميقة، وقد أمّنت هذه الأراضي الوعرة الحماية للأقليات الدينية، كالشيعة، طوال قرون. وبما أنهم تحدوا العقائد الأساسية للطائفة السنّية، فقد اعتبرتهم الأكثرية السنيّة تهديداً للنظام الديني والسياسي القائم في دمشق وبغداد. نتيجة لذلك، واجه الشيعة القمع والاضطهاد.

اتخذ الشيعة في لبنان موقفاً دفاعياً طوال تاريخهم، مع بعض الاستثناءات النادرة، حيث انعزلوا في ملجئهم الجبلي في "جبل عامل" في أقصى الجنوب، وقد أُطلق عليه هذا الاسم نسبة إلى بني عاملة، وهي قبيلة عربية ذات أصول يمانية[1]. لم يتعرّض الشيعة للاضطهاد على يد المماليك فقط - وهم العسكريون الأرقاء سابقاً الذين استولوا على السلطة في مصر وسوريا من منتصف القرن الثالث عشر إلى أوائل القرن السادس عشر - أو الباشاوات العثمانيين في القرن السادس عشر وما بعده، بل على يد الخصوم المحليين أيضاً على غرار الموارنة والدروز. فقد شنّت هاتان الأقليتان بعد استقرارهما في المنطقة الوسطى من جبل لبنان، غارات متكرّرة خارجه. وينتمي الموارنة إلى حركة مسيحية منشقّة، انتقلت منذ القرن السادس وما يليه إلى لبنان من أنطاكيا. وقد استفادوا، بعد عدة قرون، من موجات الاحتلال الأوروبي التي أتت على شكل حملات صليبية دامية. أما الدروز، فهم يتبعون مذهباً دينياً آخر، أسّسه في القاهرة أحد تابعي الخليفة الفاطمي السادس، الحاكم بأمر الله، وظهر على الساحة اللبنانية في القرن التاسع. وخلال القرون الأربعة للحكم العثماني، حققت هاتان الطائفتان المتنافستان، الموارنة والدروز، مركزاً مسيطراً على جبل لبنان، بل شكلاً من أشكال الحكم الذاتي في بعض الأحيان، ما جعل الشيعة في الجنوب يتراجعون إلى موقع هامشي يغلب عليه الفقر وانعدام الأمن. وهكذا أصبح الشيعة "مواطني لبنان المنسيين"[2].

غير أن الشيعة لم يُحرموا من الدعم الخارجي تماماً. فحين جعل الشاه إسماعيل التشيّع المذهب الرسمي لبلاد فارس في بداية القرن السادس عشر، استقدم علماء الشيعة من العراق والبحرين وجنوب لبنان. وهكذا نشأت روابط ازدادت وثاقة بمرور السنين، وأُعيد تنشيطها بقوة في الوقت الحاضر. على سبيل المثال، سُمّي مسجد ومدرسة الشيخ لطف الله العظيمان في أصفهان نسبة إلى مهاجر من قرية في جنوب لبنان. وبحسب تعبير ألبرت حوراني، "ساعدت الصلة بين الشيعة وإيران،

---

(1) Séguin, *Le Liban Sud: espace périphérique, espace convoité*, Paris, 1989, pp. 29-46؛ انظر أيضاً M. Jaber, *Pouvoir et société au Jabal Amel de 1749 à 1920 dans la conscience des chroniques chiites et dans un essai d'interprétation*, Paris, 1978; Chibli Mallat, *Shi'i Thought from the South of Lebanon*, Oxford, 1988.

(2) Tamara Chalabi, *The Shi'is of Jabal Amel*, p. 2.

علـى غرار الصلة بين الموارنة والبابوية، في تحديد الفضاء الذي يعيش ويتحرّك فيه لبنان"(1).

تـركت التغيرات الجيوسياسية التي طرأت على جنوب لبنان أثراً بالغاً في حظوظ عائلـة الـصلح. فقبل إنشاء طريق دمشق - بيروت في ستينيات القرن التاسع عشر، كانـت سلـسلتا جـبال لبنان الشرقية والغربية تشكّلان حاجزاً هائلاً بين الأراضي السورية الداخلية والبحر المتوسط. ولم يكن من السهل تسلّق القمم أو عبور الممرات الجبلـية. وبالـتالي، كانت التجارة بين دمشق والأراضي الداخلية السورية والساحل تلـتفّ حـول السلاسل الجبلية من الجنوب لبلوغ صيدا عبر جزّين أو النبطية. فنمت صـيدا، باعتبارها المحطة الطرفية الوحيدة للطريق "السهل" الوحيد بين دمشق والبحر المتوسط، لتصبح مركزاً تجارياً مزدهراً والمرفأ المتوسطي الأساسي لسوريا. وبلغت أوج نجاحهـا في العقود الأولى من القرن السابع عشر، في عهد الأمير فخر الدين الدُّرزي. فقـد جعـل مـن صيدا عاصمته السياسية والتجارية، ما فتح جبل لبنان على العالم المتوسطي الغربـي. لذا فإن الأهمية التجارية لصيدا نقلت، لبعض الوقت، مركز الثقل الجغرافي السياسي للمنطقة باتجاه الجنوب.

بـسط فخـر الدين، من إقطاعته في منطقة الشوف في جبل لبنان، نفوذه شرقاً باتجـاه دمشق وجنوباً باتجاه صفد في فلسطين. ولتأمين طريق دمشق - صيدا، أسكن عـائلات من الفلاحين الشيعة والموارنة من أقاصي جنوب جبل لبنان على طول هذا الطريق. ولا تزال قرى مسيحية كثيرة في المنطقة شاهدة حتى اليوم على هذا الاستقرار القديم. وقد ازدهرت صيدا كثيراً في عهده بحيث افتُتحت فيها قنصلية لفلورنسا في سنة 1630.

لكن امتداد نفوذه بدأ يُقلق الباب العالي. فوجد فخر الدين أن من الحكمة اللجوء مـدة من الوقت عند أصدقائه آل ميديتشي Medici في فلورنسا (وقد أعجب بالمباني والحدائـق التي شاهدها هناك فحاول أن ينسج على منوالها في وطنه عند عودته). غير أن الـسلطان العـثماني لم يتـركه وشأنه؛ إذ غضب من انتعاش ثروات الأمير، فأمر

(1) Hourani, *Political Society in Lebanon*, p. 6؛ انظر أيضاً Albert Hourani, "From Jabal 'Amil to Persia," in *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, University of London, 49, 1986.

باعتقاله في سنة 1635 وإحضاره إلى إستانبول حيث أُعدم شنقاً بعد سجنه لمدة طويلة. بعد عدة سنوات من وفاته، أنشأ الباب العالي ولاية عثمانية جديدة جاعلاً صيدا عاصمة لها، وضمت وسط لبنان وشمال فلسطين وجعل على رأسها ولاة سوريين تعيّنهم استانبول مباشرة. هكذا، ارتدّ جنوب لبنان تدريجياً إلى منطقة هامشية، تقع في منتصف الطريق بين مصر وتركيا، خاضعة دائماً لجبل لبنان في الشمال، أو الباشاوات العثمانيين في سوريا - فلسطين في الجنوب.

تلقى ازدهار صيدا الضربة القاضية عند شقّ طريق بيروت - دمشق، الذي سلب صيدا معظم الحركة التجارية بين الأراضي السورية الداخلية والساحل. وبات هذا التحول في نمط التجارة أكثر وضوحاً عند إنشاء سكة الحديد في سنة 1895، ما نقل مركز الثقل في لبنان على نحو حاسم نحو الشمال. وتركّز النشاط التجاري منذ ذلك الوقت في بيروت وجبل لبنان وطائفته المسيحية. حلّت بيروت محل صيدا كعاصمة تجارية لسوريا، وهو تفوّق تمكنت إلى حدٍّ كبير من الحفاظ عليه خلافاً للاحتمالات المذهلة. وتراجعت مكانة صيدا لتصبح "بلدة صغيرة"، بعدما خسرت الدور السياسي والاقتصادي الذي أدته حين كانت لا تزال المحطة الطرفية للطريق الطبيعي من الأراضي الداخلية إلى البحر المتوسط[1].

لا شك في أن هذه التطوّرات هي التي دفعت جدّ رياض، أحمد باشا، وعم والده عبد الرحيم إلى الانتقال من صيدا إلى بيروت في أواسط القرن التاسع عشر. غير أنهما لم يقطعا صلاتهما بالجنوب، الذي استمر في تأدية دور كبير في حياتهما. ففي النهاية، بقي بيتهما هناك، وممتلكاتهما وأصدقاؤهما وبقية أفراد عائلتهما.

عند عودة عائلة الصلح إلى لبنان من استانبول في سنة 1913، أمضى رضا ورياض الصلح وقتاً طويلاً في جنوب لبنان في إجراء مباحثات مع عبد الكريم الخليل والوجهاء المحليين الآخرين هناك. والخليل شاب قومي، يبدو أنه كان الملهم الرئيسي "لحركة ثورية عربية" غامضة في صيدا. وقد اعتقلت السلطات التركية هؤلاء القوميين وسجنتهم في عاليه. نجا رضا ورياض الصلح من الإعدام، بينما شُنق الخليل. وعندما هُزم الأتراك وأنشأ الأمير فيصل حكمه في دمشق، أصبح رضا الصلح وزيراً للداخلية،

(1) Séguin, *Le Liban Sud*, pp. 29-46.

بينما أُرسل رياض، الذي كان يبلغ من العمر في ذلك الوقت 24 عاماً، لإدارة صيدا بالنيابة عن الأمير فيصل.

استنكرت فرنسا الروابط بين سكان جنوب لبنان وحكومة دمشق، وبذلت ما في وسعها لقطعها. أغضب ذلك الشيعة فردّوا بعنف، إذ هاجمت عصابات مسلّحة القرى المسيحية، وناوشت القوات الفرنسية. أمدّ الفرنسيون بعد ذلك المسيحيين بالأسلحة، ما أدى إلى وقوع اشتباكات بين القرى الشيعية والمسيحية في أيار/مايو 1920. وفي النهاية فصل الفرنسيون بين المتحاربين وأرسلوا قوات لاحتلال قرى جنوب لبنان و'تهدئتها'.

على غرار السكان السنّة في طرابلس وغيرها من المدن الساحلية، عارض سكان الجنوب الشيعة بشدة الاندماج في "لبنان الكبير" الذي أنشأته فرنسا. فبعدما عانوا من سطوة الحكام العثمانيين السنّة، واستُثنوا من الازدهار الاقتصادي في بيروت، عارضوا إلحاقهم بجبل لبنان، مخافة أن يؤدي ذلك إلى خضوعهم لهيمنة الموارنة والدروز. فلجأ بعضهم إلى السلاح، لكن سرعان ما أخضعهم الفرنسيون. وأمِل كثير منهم أن تسمح لهم دولة قوية وكبيرة ذات نزعة قومية بالحفاظ على هويتهم الطائفية والتخلّص من الدونية السياسية والإهمال الاقتصادي اللذين عانوا منهما في الماضي. لكنّ ذلك لم يتحقّق. مع ذلك، انتُخب رياض الصلح في النهاية نائباً في البرلمان في سنة 1943 عن جنوب لبنان، وكانت تلك خطوته الأولى نحو رئاسة الحكومة والنضال لتحقيق استقلال لبنان.

صعود الوطنية اللبنانية

تُناقض الوطنية اللبنانية التي كان على رياض أن يقنع بها كل ما آمن به وناضل من أجله. فهي تتعارض تماماً مع الوحدة السورية والقومية العربية، وتخاف أن يبتلعها المسلمون، وتتعلّق أشد التعلّق بفرنسا واللغة الفرنسية، وتتطلّع إلى باريس لحمايتها من الأراضي الداخلية العربية. كانت تنادي بالدفاع عن الكيان اللبناني – أي "لبنان الكبير" بحدوده التي وسّعها الفرنسيون – وهو الكيان نفسه الذي يأمل الوطنيون العرب بتفكيكه. والأهم من ذلك أنها مسيحية أساساً، وتعتبر لبنان "وطناً قومياً" للمسيحيين اللبنانيين من جميع الطوائف، بقيادة الموارنة.

لعبت الكنيسة المارونية، على مدى عدة قرون، دوراً حاسماً في تشكيل هوية لبنان. فقد نشأت الروابط بينها وبين أوروبا المسيحية في زمن الحملات الصليبية، حين وجدت أقلية من مسيحيي سوريا من يشبهها في عدد من الجيوب الصليبية التي أُقيمت في أواخر القرن الحادي عشر، وأهمها مملكة القدس، ومقاطعة طرابلس. وفي بداية القرن الثاني عشر، اتصلت الكنيسة المارونية بالبابوية وقبلت المذهب الكاثوليكي. أما بالنسبة إلى الصلة مع فرنسا، فقد بدأت منذ سنة 1553، عندما منح العثمانيون باريس حق بسط الحماية الفرنسية لتشمل المسيحيين اللاتين والمؤسسات الكاثوليكية داخل الإمبراطورية، وتوسّع هذا الترتيب بعد ذلك بشكل غير رسمي ليشمل المسيحيين المحليين أيضاً. وأصبحت السياسة الفرنسية في المشرق تُعنى بحماية الكنيسة المارونية منذ عهد لويس الرابع عشر.

غير أن فكرة "لبنان الكبير" لم تظهر وتترسّخ إلا في بداية القرن العشرين. ففي سنة 1908، نشر م. جوبلان(*) M. Jouplain مجلداً كبيراً في باريس بعنوان *La question du Liban: étude d'histoire diplomatique et de droit international*، دعا فيه إلى إنشاء "لبنان الحقبة العظمى" الذي أطلق عليه تحديداً اسم "لبنان الكبير" داخل ما دعاه حدوده الطبيعية والتاريخية. وبعد أحد عشر عاماً، في آب/أغسطس 1919 تحديداً، نشرت "المجلة الفينيقية" *La Revue Phénicienne* في بيروت مقالة بعنوان "القضية اللبنانية" *La Question du Liban* التي اعترف فيها كاتبها بولس نجيم أنه هو من كتب الكتاب المذكور أعلاه. لكن ما هي تلك "الحدود الطبيعية والتاريخية" التي أشار إليها نجيم؟ وكيف قام بتحديدها؟

يُعتقد أن الإشارة هي لحدود الأراضي التي اقتطعها فخر الدين أولاً، ثم بشير الثاني، وأدخلت لاحقاً في خرائط الأركان العسكرية للقوة الفرنسية التي أُرسلت إلى سوريا في أعقاب مجازر 1860. وكما رأينا سابقاً، كان الأمير فخر الدين المعني الحاكم الدرزي للشوف، وتمكّن من بسط سلطته، في النصف الأول من القرن السابع عشر على قسم كبير مما أصبح لاحقاً لبنان وسوريا. أما بشير الثاني (1788-1840) فهو

(*) صدرت الترجمة العربية لهذا الكتاب عن الأهلية للنشر والتوزيع والطباعة في بيروت في سنة 1995 بعنوان القضية اللبنانية – المترجم.

الأمـــير الكـــبير في الأسرة الشهابية، وقد استطاع بدوره، بسط حكمه على كل جبل لبنان من الشمال حتى الجنوب في أوائل القرن التاسع عشر.

يعتـــبر الوطنـــيون اللبنانيون هذين الحاكمين مؤسسي الأُمة اللبنانية. وكان نجيم مفـــتوناً، بـــشكل خاص، بفخر الدين الذي، حسبما كتب، "صنع دولة قوية وجيدة التنظيم يوجد لبنان في مركزها... فلم تعد مقاطعة تركية، بل دولة لها حياة خاصة بها، تـــشبه البلدان المتحضرة في أوروبا الغربية أكثر مما تشبه ولاية تابعة للباب العالي. وقد شهدت بقيادة مستبد مستنير روعة النهضة الإيطالية".

ثمـــة كثير من التعلّل بالآمال في هذه الرواية. فمع أن فخر الدين أحرز من دون شـــك قـــدراً مـــن الاستقلالية عن استانبول لفترة محدودة، فإن من استعملوه لاحقاً لاختـــراع أسطورتهم التأسيسية بالغوا في سلطته. فقد كتب ألبرت حوراني عنه: "لقد أنـــشأ دولـــة خاصة لم تعبّر عن نفسها بالمؤسسات ولم تدم طويلاً"[1]. وعندما هُزم وتـــوفي، أعادت استانبول تأكيد سيطرتها المركزية، إنما بشكل أقوى من ذي قبل. وقد ضُـــخّم كذلك دور الأمراء الشهابيين كثيراً أيضاً. صحيح أنهم نجحوا في جمع الموارنة والـــدروز معـــاً تحت حكم واحد، لكن من المشكوك فيه أنهم تمكنوا من إنشاء كيان لبناني منفصل ومتميز عن باقي سوريا في القرن الثامن عشر.

مـــع انقضاء القرن، تحوّل جزء من الأسرة الشهابية، تدريجياً، من الإسلام السني إلى المسيحية المارونية، ونتيجة جزئية لذلك انتقلت الهيمنة من الدروز إلى الموارنة. وفي الوقت نفسه، عزّزت الكنيسة المارونية مركزها باتفاق رسمي مع البابا في سنة 1736. وقد بلغت هذه التطوّرات أوج ازدهارها في القرن التاسع عشر، خلال الحكم الطويل لبشير الثاني، الذي قوّى جيشه، وبسط سلطته وبنى قصر بيت الدين. لكن على غرار فخر الدين من قبله، لم تدم إنجازات بشير الثاني وأخفق كسلفه.

في سنة 1830، غزا إبراهيم باشا، ابن حاكم مصر محمد علي، سوريا واحتل الجـــبال اللبنانـــية. فارتكب بشير الثاني خطأً استراتيجياً بالوقوف إلى جانبه ضد العثمانـــيين. وقد حققا الانتصار بعض الوقت. لكن المصريين استخفوا بالتماسك الاجتماعي للطوائف المحلية. وعندما حاولوا فرض التجنيد الإلزامي، اندلعت ثورة.

(1) Hourani, *Political Society in Lebanon*, p. 7.

وعندما أعلن السلطان العثماني الحرب على محمد علي، أيدته القوى الأوروبية ما عدا فرنسا. وفي سنة 1840، أُجبر إبراهيم باشا على الانسحاب من سوريا، وهَزَم العثمانيون حليفه، بشير الثاني، في السنة التالية. فانهارت إمارته اللبنانية ومات في المنفى.

استعيد الحكم العثماني وأحلّ الباب العالي مكان النظام الشهابي غير الموالي نظاماً من كانتونين، أحدهما درزي، والآخر ماروني؛ وقد سمّي بنظام القائم مقاميتين لسنة 1842. لكن سرعان ما اندلعت الاضطرابات والمواجهات العنيفة بين الطائفتين على اقتسام السلطة، وبلغت ذروة همجيتها في الحروب الطائفية في سنة 1860، حين ذُبح المسيحيون في الجبال اللبنانية وامتدت أعمال القتل إلى دمشق، ما دفع فرنسا لإرسال قوّة عسكرية إلى المشرق بقيادة الجنرال بوفور دوتبول Beaufort d'Hautpoul.

عقد المسؤولون العثمانيون والممثلون الأوروبيون مؤتمراً في بيروت، وآخر في استانبول حيث اتُّفق، بموجب سلسلة من القوانين العضوية في سنتي 1861 و1864، على منح جبل لبنان وضعية خاصة كمتصرّفية تتمتّع باستقلال ذاتي داخل الإمبراطورية. وتخضع هذه المتصرّفية لحكم متصرّف مسيحي غير لبناني، تعيّنه الحكومة العثمانية بموافقة القوى الأوروبية. ويساعد المتصرّف مجلس إداري مكوّن من اثني عشر عضواً، يمثلون الطوائف الرئيسية الست في الجبل. وفي ظل وجود قوة شرطة ونظام قضائي خاص، نَعِم جبل لبنان المتمتّع بالاستقلال الذاتي، بخمسين سنة من السلام والازدهار حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى. وبلغ إنتاج الحرير الطبيعي الذي كان يصدر إلى سوق ليون مثلاً أوجه في ستينيات القرن التاسع عشر.

غير أن المتصرفية الجديدة كانت أصغر من أراضي الإمارتين المعنية والشهابية، حيث اقتطع سهل البقاع ووادي التيم، بالإضافة إلى قضاء صيدا ومدينة بيروت، وألحقت جميعها بالولايات العثمانية المجاورة. في وقت لاحق، شنّ دعاة لبنان الكبير حملة لاسترداد هذه الأراضي المهمة.

مع ذلك يرى المؤرخ اللبناني كمال الصليبي أن هوية لبنان منحت تعريفاً قانونياً للمرة الأولى بإنشاء "المتصرفية". فأن يكون المرء "لبنانياً" يعني أن يتمتع بالمواطنة

في مقاطعـــة مستقلة، وما يرافق ذلك من مزايا عديدة[1]. وقد تطور شعور بالهوية اللبنانية بـــين المـــوارنة بشكل خاص، حيث تمكنوا، خلال عقد من الزمن، 1850 -1860، من الهيمـــنة علـــى الجبل، ما دفع الدروز إلى تراجع غير قابل للانعكاس. وكان شيعة جنوب لبـــنان قـــد ســـاندوا الدروز، فشاركوهم الآن في الهزيمة والتراجع. وقد ترسّخت القوة المسيحية، إلى جانب الإحساس بالانفصالية القومية اللبنانية، مستلهمة جزئياً على الأقل بروز القومية الصربية، وغيرها من القوميات المسيحية المعادية للعثمانيين في البلقان.

لكـــن المؤرّخة الفرنسية للبنان، نادين بيكودو Nadine Picaudou، لديها وجهة نظـــر مختلفة بعض الشيء عن وجهة نظر كمال الصليبـــي. بدلاً من اعتبار المتصرفية لحظـــة حاسمـــة في صـــياغة هوية لبنان المتميّزة، رأت فيها أداة مؤسسية استخدمتها الإمـــبراطورية العثمانية لفرض سيطرتها من جديد في أعقاب مجازر 1860[2]. ولم يتم الترويج لأي مفهوم عن المواطنة اللبنانية يتجاوز المجتمعات الطائفية في عهد المتصرفية. بل على العكس من ذلك، أصبح الإرث الطائفي القديم أكثر رسوخاً من ذي قبل، غير أنه خضع الآن للقيادة المسيحية.

جاذبية النزعة الفينيقية

من المستغرب أن هذا الإرث من التعصّب المسيحي تعايش، في الأزمنة الحديثة، جنباً إلى جـــنب مع جرعة قوية من الوثنية على شكل ادعاء، قُدم لأول مرة في سنة 1919، أن لبنان لـــيس أقل من إعادة تجسيد لفينيقيا القديمة؛ وهي نظام حُكم كان قائماً قبل نحو خمسة آلاف عـــام على جزء من ساحل شرق البحر المتوسط، في المكان نفسه تقريباً حيث يمتد الساحل اللبـــناني اليوم. وقد مثّل هذا الادعاء بالتحدّر من الفينيقيين لبعض المسيحيين اللبنانيين انفتاحاً علـــى البحر والعالم التجاري. لكن الأهم في نظرهم أنه صلة بشيء غير عربـــي، بالمنتصرين المسيحيين في الحرب العالمية الأولى، و"الحداثة"، بل الحضارة الغربية نفسها[3].

(1) Kamal Salibi, "The Lebanese Identity", in *Journal of Contemporary History*, 1971, vol. 6 (1), p. 78.

(2) Nadine Picaudou, "La question libanaise ou les ambiguities fondamentales", in Khoury (ed.), *Sélim Takla*, p. 44.

(3) Asher Kaufman, *Reviving Phoenicia: The Search for Identity in Lebanon*, London 2004, pp. 87, 141-2.

يُعتقد أن الفينيقيين وصلوا إلى شرق البحر المتوسط نحو سنة 3000 قبل الميلاد. ولا يعرف على وجه التحديد من أين أتوا، على الرغم من أن بعض العلماء يعتقدون أنهم جاؤوا من الخليج العربي. وفي القرون اللاحقة، بسطوا سلطتهم من جبيل وبيروت جنوباً إلى عكا ويافا، وعبر البحر المتوسط إلى قرطاجة (أنشئت في نحو سنة 814 ق.م)، وقبرص وحتى إلى الأندلس. ومن الواضح أنهم كانوا شعباً مميّزاً. فقد طوّروا أبجدية؛ وكانوا ملاحين موهوبين، يبحرون مهتدين بالنجوم؛ وعلّموا الغرب المحاسبة ومسك الدفاتر اللذين تعلموهما من البابليين؛ كما كانوا تجاراً ومستعمرين، اشتُهروا بالمشغولات الذهبية والمعدنية، ونفخ الزجاج، الحفر على العاج والخشب، وأصبغتهم الرائعة وأقمشتهم الملونة. ولعبوا، بطريقة أو بأخرى، دوراً مهماً في تاريخ العالم القديم. وتسيّدوا البحر المتوسط لمدة أربعة قرون، وكانوا أمة تجارية لا نظير لها بين الشرق والغرب. غير أن الأشوريين أخضعوهم في القرن التاسع قبل الميلاد، والفُرس في القرن السادس قبل الميلاد، والإسكندر الكبير، قبل أن يُدمجوا أخيراً في مقاطعة سوريا الرومانية في سنة 64 ق.م[1].

تبنّى العديد من المسيحيين "النزعة الفينيقية" بمثابة هوية لبنانية خرافية، ويرجع ذلك إلى حدٍّ كبير إلى دعوة شارل قرم، وهو مفكّر لبناني روّج لهذه الفكرة بشغف في أربعة أعداد من "المجلة الفينيقية"، التي أصدرها في بيروت في سنة 1919. وظل يدعو للنزعة الفينيقية من دون كلل حتى وفاته في سنة 1963. وكان رياض الصلح قد عرف شارل قرم في المدرسة، حيث جلسا على المقعد نفسه في مدرسة العازرية في عينطورة في الجبال اللبنانية.

ولد قرم في بيروت في سنة 1894 - السنة نفسها التي ولد فيها رياض - وهو ابن رسام لبناني شهير. وقد جمع ثروة كبيرة كوكيل شركة فورد للسيارات في سوريا ولبنان، قبل أن يتقاعد ليصبح شاعراً، وكاتباً، ومفكّراً. في شباط/فبراير 1934، أطلق دار المجلة الفينيقية، وهي دار نشر أصبحت المصدر الرئيسي للأعمال ذات "النزعة الفينيقية" في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي. وكان قرم أيضاً مؤيداً ثابتاً للرئيس إميل إده، الذي شاركه توجّهه الثقافي والسياسي المناهض للعروبة. وعلى غرار إده،

(1) انظر Dimitri Baramki, ***Phoenicia and the Phoenicians***, Beirut, Lebanon, 1961.

كـــان قرم يرفض استخدام أي لغة غير الفرنسية في مراسلاته الخطية. (ومن المفارقات الكـــبيرة أن أحد أبنائه، ديفيد، تزوج حفيدة الزعيم الفلسطيني العربـــي المسلم الحاج أمين الحسيني).

أُعطـــيت للنـــزعة الفينيقية فرصة جديدة للعيش بنشر ثلاثة عشر عدداً من مجلة "فينيقـــيا" *Phénicia* في بـــيروت بـــين كانـــون الـــثاني/يناير 1938 وتموز/يوليو – آب/أغـــسطس 1939؛ وكـــان ميـــشال شيحا، شقيق زوجة بشارة الخوري، الخصم الماروني للرئيس إده، أحد أبرز المساهمين فيها. أمضى شيحا والخوري ثلاث سنوات في الإســـكندرية خـــلال الحرب العالمية الأولى، فتوطّدت عرى الصداقة بينهما. وأصبح شـــيحا لاحقـــاً نصير فكرة أن لبنان في جوهره دولة متوسطية ترتبط (حسب قوله) بالغـــرب اللاتـــيني، وبخاصة فرنسا، "بهوية الروح والفكر". وبصفته مسيحياً لبنانياً – وأمـــين سر اللجنة التي صاغت دستور 1926 – كان مسؤولاً بشكل كبير (وكارثي كمـــا تبيّن في ما بعد) عن طبيعة الترتيبات الدستورية في لبنان. وقد بنى شيحا سمعته، كأحـــد أهـــم المنظّـــرين الإيديولوجيين السياسيين في البلد، عبر افتتاحيات صحيفة "لو جور" *Le Jour* اليومية الناطقة بالفرنسية التي أسسها في آب/أغسطس 1934. وانضم إليه المصرفي هنري فرعون الذي شاركه فلسفته وذكاءه المالي، وأسسا معاً بنك فرعون وشيحا[1].

في أعقـــاب الحـــرب العالمية الثانية، واصلت الفكرة الفينيقية كأساس لهوية لبنان الوطنية اكتساب المتحمّسين، كما تبيّن من سلسلة من المحاضرات التي كانت تلقى بين الحـــين والآخر في بيروت من سنة 1946 حتى أواسط السبعينيات، والتي نُشرت لاحقاً في كتاب بعنوان "محاضرات الندوة" *Les Conférences du Cénacle*. وكان الموضوع الـــضمني للعديـــد من هذه المحاضرات، وجوب اعتبار لبنان الشريك الطبيعي والمتميّز للغـــرب، نظـــراً إلى تعدّد لغاته، وريادته الأعمال، وتوجهه نحو السوق، وموقعه على الساحل المتوسطي على غرار فينيقيا من قبله.

لكـــن صـــيغة النـــزعة الفينيقية تجاهلت عنصراً أساسياً آخر للهوية اللبنانية عبر ادعائهـــا أن لبـــنان صنيعة العالم المتوسطي، وهو هوية جبل لبنان كمعقل منغلق على

---

(1) Micheal Johnson, *Class & Client*, p. 120.

نفسه وملجأ للأقليات، حيث حافظ الموارنة والدروز على بقائهم قروناً من الزمن، وتعايشوا معاً وإن لم يكن في انسجام دائم.

استبعدت غالبية الناس، وخصوصاً المسلمون، النزعة الفينيقية باعتبارها هراء مثيراً للسخرية. وكما لاحظ المؤرخ كمال الصليبي، فإن السنّة أدانوا في وقت مبكّر النزعةَ الفينيقية واعتبروها مؤامرة استعمارية فرنسية على القومية العربية. وكانت الفكرة مشبوهة فكرياً على أي حال لأنها تتجاهل التراث العربي للبلاد. فقد كتب الصليبي: "لا يمكن أن تكون أيّ نظرية عن القومية اللبنانية صالحة ما لم تأخذ في الحسبان الارتباط التاريخي والثقافي الأساسي بين لبنان والعروبة"[(1)].

وقد أثار عالم الاجتماع اللبناني أحمد بيضون الفكرة نفسها في مقال نُشر في باريس في سنة 2000، وفيه حلّل تأثير الفكرة الفينيقية على العقول المسيحية اللبنانية، منذ سنة 1919 وحتى السبعينيات[(2)]. أوضح بيضون أن أولى أولويات شارل قرم في سنة 1919 كانت إبعاد سوريا عن الأمير فيصل وفلك الحجاز، الذي رأى أنه يشكّل تهديداً مميتاً للمجتمع المشرقي المتغرّب الشديد التعلّق باللسان الفرنسي. فقد تساءل قرم في إحدى مقالاته: "ما الذي يجمع بيننا وبين البدو؟ اللبنانيون والسوريون ليسوا عرباً"[(3)]. وفي مرحلة لاحقة، بلغ حدّ السعي إلى فصل لبنان عن أراضيه الداخلية السورية.

بيد أن النموذج الفينيقي، كما أشار بيضون، كان يعاني من عيبين: الجبل والإسلام. فقد رفض الجبل الاعتراف بالساحل كمركز هوية لبنان، بينما يصعب تجاهل ثلاثة عشر قرناً من الإسلام في البلاد باعتبارها مجرد مرحلة عابرة. وكان على من يعتبرون أنفسهم "متوسطيين" التصالح مع التأثيرات القومية العربية والسورية التي لا تتوافق البتة مع النزعة الفينيقية. فالبحث اللبناني عن أسلاف فينيقيين يفتقر إلى أي

(1) Kamal Salibi, "The Lebanese Identity", p. 84.

(2) Ahmad Beydoun, "Extrême Méditterranée: Le libanisme contemporain à l'épreuve de la mer", in Elias Khoury and Ahmad Bydoun, *La Mediterranée libanaise*, Paris 2000.

(3) Charles Corm, 'Méditations nationalistes', in *La Revue phénicienne*, no. 3 (September 1919), pp. 174, 175, 178, quoted in Beydoun 'Extrême méditerranée', p. 34.

أساس في الوقائع التاريخية أو الإقليمية. بعبارة أخرى، النـزعة الفينيقية أسطورة أغرت بعض الأشخاص، إنما تبقى أسطورة. ولا يزال بعض اللبنانيين المعاصرين يشعرون، مثل أجـدادهم الفينيقيين المزعومين، أنهم مدعوّون أيضاً إلى أداء دور الوسطاء الثقافيين بين الشرق والغرب. ولعل ذلك أبعد ما يمكن أن تنتهي إليه هذه المقارنة التاريخية.

كـان ريـاض الصلح يدرك تماماً أنه لا يستطيع أن يواجه بصورة مباشرة تيار القومـية اللبنانـية القوي بعناصره المختلفة - المارونية والفرنسية والكيانية والمتوسطية والفينيقـية، بالإضـافة إلى تبجيل فخر الدين وبشير الثاني، الأميرين المؤسِّسين للأمة اللبنانـية علـى مـا يُزعم. وبما أنه لا يمكن إلحاق الهزيمة بالقومية اللبنانية، فإنه يجب استمالتها واستيعابها بدلاً من ذلك. لذا فإن لبنان المستقل الذي تصوّره رياض، وتمكّن مـن تحقـيقه في نهايـة المطـاف رغم الصعاب الهائلة، لا بدّ أن يقوم على الشراكة المسيحية - الإسلامية بكل ما للكلمة من معنى.

الفصل الرابع عشر

سياسة الشارع

واجهت كل من القومية العربية ووطنية "لبنان الكبير"، وهما الإيديولوجيتان السياسيتان الرئيسيتان في ذلك الوقت، تحدياً على الساحة اللبنانية - السورية من حركة سياسية أخرى تعارضهما بشدة[1]. هذه الحركة هي الحزب القومي السوري بزعامة أنطون سعادة. لم يكن سعادة يعترف بوجود لبنان الكبير منفصلاً عن سوريا، ولا بالشخصية السورية العربية كجزء لا يتجزّأ من العالم العربي الأوسع. وتقوم عقيدته المركزية على أنّ "الأمة السورية" ليست عربية البتة، بل كياناً مستقلاً بذاته تأثّر عبر آلاف السنين بمحيطه الجغرافي الفريد. ورأى سعادة أن هناك "ارتباطاً عضوياً" بين الأمة السورية ومحيطها الطبيعي. واستبعدت هذه الآراء الجذرية أي مساومة أو تعاون مع الحركات والإيديولوجيات الأخرى.

التحدي الذي فرضته قومية أنطون سعادة السورية

كتب سعادة أن "الوحدة العضوية" للمجتمع السوري لا تقوم على العرق أو الدم، بل إنها نتيجة "تاريخ طويل لكل الأقوام الذين استقروا في هذه الأرض، وتفاعلوا حتى أصبحوا شعباً واحداً. بدأ الأمر مع شعوب الفترة النيوليتية... واستمرّ مع الأكاديين والكنعانيين، والأشوريين، والآراميين، والعموريين، والحثيين[2]. وقد حدّد البيئة الطبيعية للأمة السورية بأنها تمتد من جبال طوروس في الشمال الغربي وجبال البختياري في الشمال الشرقي إلى قناة السويس والبحر الأحمر في الجنوب شاملة شبه

---

(1) ترجم الفرنسيون كلمة "قومي" خطأً بلفظة populaire، أي شعبي، لذا عرف اسم الحزب بالفرنسية باسم Parti populaire syrien.

(2) أنطون سعادة، **مبادئ الحزب القومي الاجتماعي السوري** (من دون تاريخ)، ص 14. انظر Patrick Seale, *The Struggle for* Syria: A Study of Post-War Arab Politics, Oxford 1965 (new edn London and New York 1986), pp. 64-72.

جزيـــرة سيناء وخليج العقبة، ومن البحر السوري في الغرب شاملة جزيرة قبرص، إلى قوس الصحراء العربية وخليج العجم في الشرق. ويعبر عنها بلفظ عام: الهلال السوري الخصيب ونجمته جزيرة قبرص[1].

كان إيمان أنطون سعادة بالحتمية الجغرافية يتسم بنوع من الروحانية (أو الغموض كما يقول بعضهم). وفي مقابلة أجريت مع المؤلّف في أوائل الستينيات، اختصر ميشيل عفلـــق، مؤسس حزب البعث والخصم المرير للحزب القومي السوري، حزب سعادة كما يلي:

الحركة بمجملها مزيج غريب من الحداثة، والعلمنة، مع شيء قديم جداً بل أثري؛ وهـــي إحياء للماضي المحلي وأحقاد مضى عليها ألف سنة. ومن بين الحركات الكثيرة للانـــبعاث العربـــي، أجهضت هذه الحركة نفسها وتاهت في رومانسية سقيمة، ربما لأنّ تفكير سعادة كان موجّهاً نحو الماضي بشكل أساسي"[2].

لم يكـــن سعادة مجرّد منظر بعيد عن الممارسة العملية، بل بنى حركة سرية ذات تسلسل هرمي صارم، موحّدة حول تقديس الزعيم، ومجهّزة بذراع شبه عسكرية كان لهـــا تـــأثير مقلق في السياسة اللبنانية والسورية قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها. ولد أنطـــون سعادة في الأول من آذار/مارس 1904 في عائلة أرثوذكسية من ضهور الشوير في جبل لبنان. درس والده خليل سعادة الطب في الجامعة الأميركية في بيروت وهاجر إلى مـــصر أولاً، حيث اشتُهر كمؤلّف لقاموس إنكليزي - عربـــي يقع في مجلّدين. ثم انتقل إلى البرازيل تاركاً عائلته في لبنان. حمل معه إلى أميركا اللاتينية إيماناً قوياً بالقومية الـــسورية الـــتي كانت رائجة في الشرق الأدنى في نصف القرن السابق، منذ أن أعيد تسمية ولاية دمشق باسم ولاية سوريا في سنة 1864.

تأثـــر خليل سعادة، مثل كثيرين غيره في ذلك الوقت، بعالم الجغرافيا الفرنسي إليزيه ركلو Elisée Reclus كتب في مؤلّفه "جغرافية العالم الحديث" *Nouvelle Géographie*

(1) سعادة، **مبادئ**، ص 22. لم تذكر قبرص وأدرج نهر دجلة في تحديد الحدود الجغرافية للوطن السوري في ســـنة 1930 لكـــن ذلك تغير عام 1947 ليشمل قبرص والعراق. انظر سعادة، **التعاليم السورية القومية الاجتماعية**، الطبعة الرابعة (1947)، ص 18. انظر أيضاً سعادة، **نشوء الأمم**، الجزء 1،وهو كتاب بدأ كتابته في السجن ونشر في بيروت في سنة 1938.

(2) Patrick Seale, *The Struggle for* Syria, p. 68.

Universelle، المنـــشور في بـــاريس في ســـنة 1884، عن وجود عرق سوري داخل الحدود الجغرافية السورية وتميّزه تماماً عن العرق العربي[1]. وفي البرازيل أسس الدكتور سعادة مجلة عبّرت عن هذا النوع من الأفكار.

الـــتحق أنطون الشاب بوالده في ساو باولو في أوائل العشرينيات وعمل في مجلته مـــدة مـــن الزمن. لم يتمكن أنطون من إنهاء دراسته النظامية في لبنان لأسباب مادية. ولعله اختلف مع أبيه، لأنه غادر البرازيل بعد بضع سنوات وتوجه إلى أوروبا في نهاية ذلك العقد، حيث أمضى نحو سنة في ألمانيا. عاد أنطون إلى الشرق الأدنى في تموز/يوليو 1930 وهو في السادسة والعشرين من عمره، كان وضعه المادي متقلّباً. وجد عملاً في ســـوريا في صحيفة في دمشق تدعى **الأيام**. لكن سوريا تحت الحكم الفرنسي كانت تعاني من الكبت الفكري فضلاً عن الفقر، فغادر إلى بيروت حيث الجوّ أكثر ملاءمة. لم يكـــن يملـــك مـــالاً أو وظيفة، فأعال نفسه بإعطاء دروس خاصة في اللغة العربية والألمانية في عرزال (بيت مبني على الشجر) أقامه على أرض تملكها العائلة في ضهور الشوير.

كانـــت الجامعة الأميركية مركزاً ثقافياً في بيروت. وعلى الرغم من أن سعادة لم يلـــتحق رسمـــياً بها، فإنه غالباً ما كان يتوجّه إلى قاعة الأساتذة حيث يقدّم الشاي في الـــساعة الرابعة بعد الظهر. كان ذا لحية طويلة كالكاهن، وعاد عليه دفاعه عن آرائه بإصرار وعناد ببعض السخرية. ويبدو أن فكرة إنشاء منظمة سياسية سرية ترسّخت في ذهـــنه في ذلـــك الوقت، ما بين سنتي 1931 و1932. كان يتحدّث ساعات في قاعة الأســـاتذة، ويذهب للسباحة مع الطلاب، فتمكّن من أن يجمع حوله بعض المريدين. ولعلـــه تأثّر أيضاً بأفكار الكاهن اليسوعي هنري لامنس Henri Lammens، أستاذ في الدراســـات الـــشرقية في جامعة القديس يوسف في بيروت، الذي نشر في سنة 1921 عملاً في مجلدين بعنوان "سوريا: موجز تاريخي" *La Syrie: précis historiques* رأى فـــيه أن الـــسوريين كشعب موجودون قبل وقت طويل من مجيء العرب، وأن لديهم إمكانية التطوّر ليصبحوا أمة قائمة بذاتها[2].

---

(1) Kaufman, *Reviving Phoenicia*, p. 8.

(2) Kamal Salibi, *A House of Many Mansions: The History of Lebanon Reconsidered*, London 1988, p. 132.

بحسب وثائق الحزب الداخلية، تأسّس حزب أنطون سعادة رسمياً في 21 تشرين الثاني/نوفمبر 1934، لكن لم تلاحظه السلطات الفرنسية إلا بعد عام، في تشرين الثاني/نوفمبر 1935. ففي ذلك الوقت اكتشف الأمن العام الفرنسي أنّ ثمة شركة تجارية عادية، الجمعية السورية للتجارة، توجد مكاتبها في أحد شوارع بيروت الرئيسية هي في الواقع مقرّ حركة سياسية ثورية يبدو أنّها تعدّ للإطاحة بالحكومة. حاولت الحكومة أن تقمع الحزبَ بعد اكتشافه، فأُلقي القبض على سعادة في 5 تشرين الثاني/نوفمبر 1935 مع عشرة من رفاقه وحكم عليهم في أوائل كانون الثاني/يناير 1936 بالسجن ستة أشهر ودفع غرامة مقدارها 25 ليرة لبنانية. وصدر حكم بالسجن مدة قصيرة أيضاً بحق مساعده الرئيسي نعمة ثابت لانتهاكه النظام العام.

اجتذبت المحاكمة اهتماماً إعلامياً كبيراً بالحزب. لم يبد سعادة ندماً البتة في المحكمة: عندما نودي عليه باسم أنطوان سعادة لم يُجب إلاّ عندما استبدل الاسم السرياني أنطون بالاسم الفرنسي أنطوان. وعندما اتّهم بالتآمر على الدولة، ردّ سعادة على النائب العام قائلاً إنّ الفرنسيين هم المتآمرون الحقيقيون لأنّهم وقّعوا اتفاقية سايكس - بيكو مع بريطانيا. فُتّشت منازل أعضاء الحزب ووُجد فيها مستندات قيل إنّها تجرّم أصحابها، بما في ذلك خرائط للمطار العسكري في رياق ومواقع الثكنات والذخيرة في مناطق مختلفة من البلاد. كشفت المستندات أنّ أنطون سعادة هو القائد الأعلى، أو الرئيس، لحزب شبه سرّي يضم نحو خمسة أو ستة آلاف عضو في سوريا ولبنان موزعين على أقسام وأقسام ثانوية. ولم يكن سوى رؤساء الأقسام الثانوية على معرفة بهوية الأعضاء في القسم الأعلى منهم.

كانت تعاون سعادة لجنة مركزية مكوّنة من اثني عشر عميداً، يحملون ألقاباً مثل عميد الداخلية، والمالية، والدفاع... إلخ. وأقرّ عميد الدفاع خلال التحقيق بأنّ برنامج الحزب يدرك ضرورة إقامة ميليشيا قادرة على المحافظة على الأمن بعد انتهاء الانتداب[1]. كان أعضاء الحزب موجودين في مدن المشرق الكبرى - بيروت، وطرابلس، ودمشق، وحلب. لكنّهم تواجدوا بصورة رئيسية أيضاً في أوساط الأقليات

(1) Consul-General G.T. Havard to Foreign Office, Beirut 2 December 1935 (FO .371/19022)

في المـــناطق البعيدة - في مرجعيون والمتن، موطن عدد كبير من الأرثوذكس - وبين الدروز في الشوف، والعلويين على الساحل السوري في طرطوس وصافيتا؛ وفي منطقة الكورة، جنوب شرق طرابلس.

مكّن الانضباط الشديد، المبني على مثال الفاشية - بالقمصان الرصاصية والمبادئ الصارمة والولاء للزعيم - الحزب السوري القومي الاجتماعي من تنظيم مواكب مثيرة للإعجـــاب، وإبـــداء الـــرأي في مختلف المناسبات، لكن لحق به الضعف بسبب قمع الحكـــومة وانـــشقاق بعض أبرز أعضائه بين سنتي 1937 و1938، والسجن المتكرّر لزعيمه. لم تبدِ غالبية السكان اكتراثاً بعقائد سعادة الغامضة، لكن ربما أعجبت بتنظيم الحـــزب الـــذي تمكّن في أوقات الأزمات الاقتصادية من تأمين الخدمات العامة وعدد كـــبير مـــن الوظائف (مثلما فعل حزب الله في وقت لاحق). منذ البداية، منح سعادةً الأولوية لتأسيس منظمة شبه عسكرية، حيث وُجد خلال عمليات التفتيش مستندات بخط يده تعود إلى سنة 1935 وتحتوي على تفاصيل عن "الشؤون العسكرية".

اعـــتُقل سعادة مرة ثانية بعد الإفراج عنه بوقت قصير في سنة 1936، عندما قام أعـــضاء من حزبه بضرب صحافيين لبنانيين كتبا مقالات نقدية عن الحركة. مع ذلك صـــدر مرسوم حزب في 30 كانون الثاني/يناير 1936 سمى الرئيس قائداً عاماً لقوات الحـــزب، يساعده مجلس حربـــي. وبعد مرور سنة تقريباً، في 21 شباط/فبراير 1937، سار نحو أربعمئة عضو في الحزب في مسيرة لاستعراض القوة في بكفيّا في لبنان، ولكن الـــدرك فرّقهم بعد صدام قصير. وفي تشرين الثاني/نوفمبر من تلك السنة، قام سعادة بجـــولة دعائـــية في ســـوريا ولبنان لقيت ترحيباً كبيراً من أتباعه. ففي طرطوس على الـــساحل السوري، اصطفت وحدات تابعة لميليشياته على الطريق التي مرّ بها، بعضهم على الأقدام وبعضهم الآخر على الجياد.

اشـــتدّ ضغط الحكومة على الحزب عندما قدّم سعادة التماساً إلى المفوّض السامي الفرنسي في آذار/مارس 1936 يطالب فيه بالوحدة السورية اللبنانية. فسُجن مع بعض مساعديه بضعة أسابيع، وأدّى التحقيق الرسمي في نشاطات الحزب إلى تجدّد اضطهاده. ووجـــه ذلـــك بمعارضة عنيفة من أعضاء الحزب الذين تزايدت أعدادهم بسرعة، و لم يقتـــصروا علـــى اللبنانيين فقط. اعتُقل سعادة مرة ثالثة في 7 آذار/مارس 1937، لكن

أطلــق سراحه بعد شهرين عندما سعت حكومة خير الدين الأحدب إلى الحصول على دعم حزبه للائحة الحكومة في الانتخابات تلك السنة، ويبدو أنها نجحت في ذلك.

غــير أن سعادة رأى بعد التهديد باعتقاله في سنة 1938 أن من الأفضل أن يغادر الــبلاد بــسرعة، وقــد تمكّن من الحصول على تأشيرة إلى قبرص من القنصلية العامة الــبريطانية في فلسطين. أصدر الحزب بياناً بليغاً في 15 آب/أغسطس 1938 أوضح فيه أن زعيمه غادر على عجل لإطلاع الرأي العام الدولي على القضية السورية وتطوّراتها وتنظــيم المهجــر السوري ليكون على استعداد للعمل المتضامن مع النظام القومي في الــوطن. وانتهــى البيان بالكلمات التالية: "لنستعدّ لليوم الذي ينادينا فيه زعيمنا إلى ساحة الحرية والشرف. ولترافق قلوبنا البطل القومي في أسفاره، ونؤيده في كل لحظة بأفكارنــا ومشاعرنا". لكن بعد مغادرة سعادة دخل الحزب في مرحلة جمود نسبــي حيث احتُلت مكاتبه، واعتُقل قادته في خريف 1939 بتهمة الولاء للألمان.

توجّه سعادة من قبرص إلى برلين حيث اجتمع مع مجموعة حزبه في تلك المدينة، ويعــتقد أن النازيين استقبلوه بحرارة. ثم مرّ ببودابست وبيرن، وتحدّث إلى الإذاعة من كلتا المدينتين، قبل توجّهه إلى روما. وتوجّه بالسفينة من إيطاليا إلى أميركا اللاتينية في نهايــة ســنة 1938. في ســنة 1939، أصدر في البرازيل إعلاناً لا يقلّ عن الدعوة إلى الثورة، وقد اعتبره كذلك الفرنسيون والموالون للحزب في لبنان وسوريا. وجّه سعادة نــداءه إلى "ذوي الألبــسة الرصاصــية"، مشيراً إلى ميليشياته، وإلى "رجال الزوبعة الحمــراء" الذين يشكّلون نخبة رجاله. كتب سعادة: "تدرس الحكومة الفرنسية اليوم مــشروعاً جديداً يقتضي بتجزئة سورية تجزئة جديدة بحيث تقسّم الدولة الشامية إلى أربع مناطق يديرها مستشارون فرنسيون بواسطة "حكام" سوريين من المستعدين دائماً لبيع مصالح الشعب السوري". وأكّد على الحاجة إلى:

حمل الأمم والدول على الاعتراف بأمتنا ودولتنا، على الاعتراف بحقّنا في العيش ومركــزنا بين الأمم والدول... العالم يتجه بسرعة نحو موقف فاصل... وليتأهّب كل مــنكم تأهباً تاماً ليقوم بواجبه على أكمل وجه حينما تصدر الإشارة. وأنتم تفهمون جــيداً مــا أعني... إن الظروف المحيطة الآن بأمتكم هي ظروف فاصلة. إنها ظروف صراع بين الحياة والموت...

أيهـــا الـــسوريون القوميون، منذ الساعة يبتدئ عملكم العظيم. إن سياسة الصبر والاحتمال قد انتهت. فكونوا في أماكنكم مستعدّين[1].

كانـــت طـــباعة هذا النداء على شكل منشور إحدى التهم التي وجّهتها محكمة عـــسكرية فرنسية في 3 تشرين الأول/أكتوبر 1939 إلى اثنين وأربعين شخصاً (واحد وثلاثـــين لبنانـــياً وأحد عشر سورياً). وفي آب/أغسطس التالي صدرت أحكام على المـــتهمين تـــراوحت بين السجن لمدة عام وعشرين عاماً مع الأشغال الشاقة، وحظر الإقامة في البلاد الخاضعة للانتداب الفرنسي. وحُكم على أنطون سعادة غيابياً، وعلى مـــساعده نعمـــت ثابت بالسجن عشر سنوات. أصبح الحزب السوري القومي الآن خطـــراً حقيقياً على الدولة اللبنانية، لكنّ الأحكام لم تؤدِّ إلى انقطاع نشاطات الحزب تمامـــاً، فأصدر منشوراً متحدياً في 28 آب/أغسطس 1940 جاء فيه: "ظنّت السلطات أنّ اعـــتقال بعض قادة الحزب سيشلّ نشاطه ويُرهب أعضاءه، لكن الحزب ناشط في قلب الأمة... ستكمل اللجنة التنفيذية العليا المعينة حديثاً... النضال حتى تحقيق النصر النهائي".

بعـــد انـــدلاع الحـــرب، كـــتب ســـعادة مقالة مؤيّدة للنازيين في 11 تشرين الثاني/نوفمبر 1939 في صحيفة "سوريا" Diario Syrio في ساو باولو. وبعد بضعة أيام، 16 تـــشرين الـــثاني/نوفمبر، كرّست الصحيفة بأكملها للحزب، حيث ظهرت صورة ســـعادة في الصفحة الأولى تحت صورة نسر. عاد سعادة إلى الشرق الأدنى بعد الحرب العالمـــية الثانية، حيث كان لحركته تأثير مضرّ، ومدمّر في نهاية المطاف، في حياة رياض الصلح وعمله السياسي.

متحدّو سعادة: الكتائب والنجّادة

واجهـــت حركة سعادة في لبنان تحدياً كبيراً في سنتي 1936-1937 من قبل عدد من حركات النهضة الشبابية المنافسة، أهمّها الكتائب دعاة القومية اللبنانية، ونظراؤها المـــسلمون في الـــنجّادة. كان الكتائبيون بقيادة الشاب الماروني بيار الجميّل يعارضون القومية العربية والقادة السنّة كرياض الصلح، وزعيم القوميين السوريين أنطون سعادة،

(1) MAE Fond Beyrouth, série B, carton 5, dossier 61. 13 Septembre 1940.

وكـــل مـــا يهـــدد كيان لبنان الكبير الذي شكّله الفرنسيون في سنة 1920. اعتمد الكـــتائب شعار "الله، العائلة، والوطن" وأشار تنظيمه شبه العسكري أنّه أكثر من نادٍ رياضي كما كان يدعي[1].

كـــان حزب النجّادة، وهو في الأصل حركة كشفية إسلامية أسسها محي الدين النـــصولي، أقلّ فعالية بكثير وأقصر عمراً. وقد اتخذ من منطقة البسطة في قلب بيروت الإسلامية مقراً له، وأدى توجّهه القومي العربـــي إلى مناوشات متكررة مع الكتائب. وكـــان بيار الجميّل، مؤسّس الكتائب، وحسين سجعان زعيم النجادة في سنة 1939، قد حضرا الألعاب الأولمبية في برلين في سنة 1936، فتأثّرا كثيراً بتنظيم النازيين الألمان وانضباطهم وقوميتهم المفرطة[2].

شـــكّلت هذه الحركات اعتراضاً شبابياً على القادة المسنّين، لكنها تنافست في ما بينها، واتبعت نموذج الأنظمة الفاشية في إيطاليا وألمانيا بلباسها ومواكبها وتحية القائد وتقديـــسه[3]. ويوحـــي ظهورها في سوريا ولبنان بين سنتي 1934 و1937 أنّها تشبع حاجـــة نفـــسية معيّـــنة لدى العديد من الشبان في ذلك الوقت. توجّه حزبا الكتائب والـــنجادة، علـــى غرار الحزب السوري القومي، إلى شباب طبقات المجتمع الوسطى والفقـــيرة الـــذين كانـــوا في الغالب عاطلين عن العمل ومحبطين وتوّاقين إلى تحسين مكانـــتهم والحصول على أي نوع من العمل. فجذبتهم الفرق المنظمة لهذه الحركات شبه العسكرية.

غير أن بعض الأعضاء لم تجذبهم مواكب هذه الحركات وملابسها، وإنما أفكارها وبـــرامجها الـــسياسية، وذلك نتيجة انتشار التعليم العام بين الحربين العالميتين، ونشاط الصحافة الصاخبة. عكست هذه التشكيلات الحداثة السياسية الجديدة في الثلاثينيات، ومـــا يصاحبها من مخاوف بشأن مصير المنطقة العربية في عالم مهدد بالحرب[4]. وقد أشـــارت علـــى أي حال إلى دخول جيل جديد معترك الحياة السياسية مستعدّ لقطع

---

(1) S.H. Longrigg, *Syria and Lebanon*, p. 226.

(2) John p. Entelis, *Pluralism and Party Transformation in Lebanon - Al-Kata'ib 1936-1970*, Leiden 1974, p. 46.

(3) S.H. Longrigg, *Syria and Lebanon*, p. 225.

(4) Méouchy, 'Le Pacte national', pp. 470, 473.

العلاقة مع شبكات الأتباع التي رعاها الوجهاء الأكبر سناً للمحافظة على قاعدتهم السياسية. وسرعان ما أدرك هؤلاء الوجهاء أن الحركات الشبابية سيطرت على الشارع. لم يحدث انتقال واضح من شكل إلى آخر من أشكال التنظيم السياسي بطبيعة الحال. وعلى غرار الكتل البرلمانية التابعة لإميل إده وبشارة الخوري، استفادت هذه الحركات الجديدة من التحالفات وشبكات الأتباع في أحياء محددة من المدينة.

يمكن ملاحظة الظاهرة نفسها تقريباً في بلدان عربية أخرى. فتلك حقبة المتظاهرين المتعدّدي الألوان والاتجاهات: ذوي القمصان الخضراء والزرقاء في مصر (كانت القمصان الزرقاء على سبيل المثال فرقة شبان وطنيين نشطت في القاهرة على وجه الخصوص)؛ وذوي القمصان الرمادية والبيضاء في سوريا؛ وذوي القمصان الكاكية في العراق؛ وقمصان سعادة الرصاصية في لبنان. وكان الحزب الشيوعي على خصام مع كل هذه المنظمات الشبيهة بالفاشية وجميع المؤسسات الكاثوليكية.

شعر الرئيس إدّه بالخطر الذي تشكله هذه الحركات التي تكاثرت فجأة وعلى سلطة الدولة، فأصدر مرسوماً في 18 تشرين الثاني/نوفمبر 1937 حلّ فيه منظمات "القمصان الملوّنة" وأعلن عدم شرعية التشكيلات شبه العسكرية التي ظهرت في السنتين السابقتين. ولم يسمح بالاستمرار سوى للأندية الرياضية. أصدر بيار الجميّل اعتراضاً عنيفاً على الفور في صحافة بيروت، أنكر فيه بشدّة نية الكتائب أداء أي دور عسكري من أي نوع. وأعلن أن هدف حركته استئصال الفوضى من البلد، وأن أعضاءها هم "نخبة" الشباب اللبناني الذين تدفعهم الوطنية بأصدق معانيها. وإذا أرادت الحكومة أن تدمّر هذا المثال، فإن عليها أن تقمع ثمانية آلاف شابّ. وانتهى بيانه بعبارة "إلى الغد أيها الرفاق".

وفي اليوم التالي ظهر مئات من أعضاء حزب الكتائب فجأة في ساحة بيروت الرئيسية، كما أفاد القنصل العام البريطاني في تقريره إلى لندن، وقاوموا محاولات تفريقهم من قبل بعض رجال الشرطة. وسرعان ما وصلت تعزيزات من الشرطة والدرك، بالإضافة إلى عناصر تابعة لمجموعات أخرى من "القمصان الملوّنة" وكان بعضهم مسلّحاً. تبع ذلك رمي الحجارة بكثافة وإطلاق النار، وتحوّل الأمر إلى أعمال شغب لم تهدأ إلا بعد وصول وحدات من الجنود الفرنسيين المزوّدين بالأسلحة

الرشاشة. أخليت الساحة مع حلول منتصف النهار وجرت بعض الاعتقالات. وقع عدد كبير من الجرحى من الجانبين وقُتل جندي سنغالي تحت الإمرة الفرنسية بطلقة مرتدة. منعت الحكومة نشر أي معلومات عن أعمال العنف في صحف اليوم التالي. ومن نافلة القول إن الكتائبيين واصلوا الاجتماع سراً، وبقيت حركتهم سرية، على نحو الحركات الأخرى، حتى استقلال لبنان في سنة 1943[1].

"القمصان الحديدية" في سوريا

راقب زعماء الكتلة الوطنية في سوريا باهتمام قيام الحركات الشبابية في ألمانيا وإيطاليا، وكلتاهما عدوّ لفرنسا التي كانت تستعمرهم، وحاولوا نقل هذا النموذج من الانضباط إلى بلادهم. ظهرت "القمصان الحديدية" لأول مرة في دمشق في 8 آذار/مارس 1936، وهي مجموعة شبه عسكرية تابعة للكتلة الوطنية، عندما استعد الوطنيون للتفاوض على معاهدة مع فرنسا بعد رفع الإضراب العام. وسرعان ما انتشرت الفروع في كل أنحاء سوريا. وفي نيسان/أبريل، وضع برنامج القمصان الحديدية الذي يشدد على النضال من أجل الاستقلال، والاسترشاد بالتضحية والانضباط والولاء إلى الوطن. جذبت حركة القمصان الحديدية التي تدرب أعضاؤها على أيدي ضباط سابقين في الجيش التركي، الشباب السوري، مثلما اجتذبت الكتائب الشبان المسيحيين في لبنان. وأصبح لكل مدينة سورية فرق مدرّبة ومنظّمة تظهر في كل مناسبة عامة وتسيّر المواكب. لكنهم واجهوا مشاكل في الغالب مع الشرطة المحلية التي يسيطر عليها الفرنسيون، ومع الفرنسيين أنفسهم. تكوّنت ملابسهم من قمصان وسراويل رمادية (حديدية اللون) وحزام وربطة عنق سوداء وقبعة السدارة (الفيصلية) التي اعتمدها الجيش العراقي. وكان شعارهم يد تحمل مشعلاً وتحيّتهم رفع اليد على الطريقة الفاشية. وتحوّلت صيحة النازيين الثلاثية "هايل" إلى "جهاد" تردّد ثلاثاً. كان هدف "القمصان الحديدية" العمل كأداة للكتلة الوطنية في أوساط الشباب، وتعبئة المجنّدين من أجل جيش وطني محتمل.

---

(1) Consul General Havard to Foreign Office, Beirut 22 November 1937 .(FO 371/20849)

سيّرت القمصان الحديدية في 29 أيلول/سبتمبر 1936 موكب احتفال بالنصر حيّوا فيه الوفد السوري لدى عودته إلى دمشق بعد المفاوضات في باريس. لكنّهم فشلوا في السيطرة على الحشد الذي رافق الوفد إلى السراي. كان القنصل البريطاني حاضراً وذُهل عندما لاحظ أن بعض شبان القمصان الحديدية في الموكب يدخّنون السجائر[1]. ادّعت اللجنة التنفيذية للقمصان الحديدية في نهاية سنة 1936 أن لديها 15,000 مجنّد، منهم نحو 4000 في دمشق. وكان فخري البارودي رئيس فرع دمشق، حيث يتمتّع بنفوذ لا نظير له في أوساط الشبان المتعلّمين في المدينة، ويحلم بإنشاء جيش وطني، في حين تسلّم القيادة الفعلية الأمين العام منير العجلاني، أحد أنصار القومي الراديكالي د. عبد الرحمن الشهبندر وصهره (في ذلك الوقت). وكما هو الحال في لبنان، انجذب كثير من العاطلين عن العمل إلى القمصان الحديدية بغية الحصول على وظيفة أو على أمل الحصول على مركز في الدرك أو الشرطة أو أي وظيفة حكومية[2].

كتب المؤرخ السير لويس نامير Sir Lewis Namier عن فترة زمنية مختلفة، لكنّه استطاع التعبير عن الظروف التي تولّد الحركات المستبدة. فرأى أنها تنشأ "وسط بقايا تركيبة اجتماعية وسياسية موروثة، في وحشة الولاءات المبعثرة؛ إنها التحوّل اليائس للمجتمعات التي فقدت صوابها". وأعضاء هذه الحركات هم "الرجال الذين خابت آمالهم وتماوت أحلامهم، وفقدوا جذورهم وتوازنهم، تدفعهم مخاوف وعواطف شبه واعية، ويبحثون مسعورين عن ارتباطات وانتماءات جديدة. وتتمحور أحلامهم وأمنياتهم حول شخصية ما... هؤلاء الأتباع هم الذين يمنحونه الأهمية والسلطة"[3].

موقف رياض الصلح

كانت هذه بعض الأحزاب والحركات والقوات شبه العسكرية في لبنان وسوريا التي كان على سياسي بارز مثل رياض الصلح التعامل معها فيما يشقّ طريقه نحو

---

(1) Acting Consul J.C. Ogden to Foreign Office, Damascus, 3 October 1936 (FO .371/20066)

(2) Khoury, *Syria and the French Mandate*, p. 472 ff; S.H. Longrigg, *Syria and Lebanon*, pp. 226-230.

(3) Sir Lewis Namier, in an essay on Napoleon III, 'The First Mountebank Dictator', in *Vanished Supremacies*, London 1962, p. 73.

الصدارة. وفي السنوات التالية التي شهدت السياسة فيها مداً وجزراً، استفاد رياض من معظمهـــا في أوقات مختلفة، مع أنه ربما كان أقرب إلى النجّادة. لم يشكل رياض حزباً أو ميليـــشيا قطّ. ولعل تاريخه السياسي الذي يعود إلى زمن الحكم العثماني، والتزامه الـــدائم بقضية القومية العربية، وانتماءه إلى جيل عربـــي لم يعرف الأحزاب السياسية بمعـــناها الحديث هو السبب وراء ذلك. لم تكن الكتلة الوطنية السورية، التي ارتبط بها ارتـــباطاً وثيقاً، حزباً سياسياً، بل مجموعة من الشخصيات البارزة. وغالباً ما اختلفوا بعـــضهم مـــع بعض وطلبوا وساطة رياض. وفي لبنان، لم تكن كتلة بشارة الخوري الدستورية وكتلة إميل إدّه الاتحادية حزبين بالمعنى الحديث، ولكن مجرّد تجمّعين لرجال طمـــوحين حـــول زعـــيمين يأملون أن يحصلوا في نهاية المطاف على بعض المكاسب السياسية أو التجارية.

مـــع ذلـــك، نظر رياض في تشكيل تجمّع سياسي يساري بقيادته، متأثّراً بالجبهة الـــشعبية بقيادة ليون بلوم في باريس وعلاقاته في لبنان مع الحزب الشيوعي ونقابات العمـــال، لكنه لم يُقدم على ذلك. فقد كان محظوظاً بوجود ما شكّل بالفعل "حزبه" الشخـــصي أو مؤســـسته الاستشارية، المكوّنة بشكل رئيسي من أفراد عائلته الشبان الذين تمتّع العديد منهم بالذكاء والديناميكية والفطنة السياسية والموهبة التنظيمية. ومن مـــن بـــين هـــؤلاء تقي الدين الصلح، أصبح رئيساً للوزراء في وقت لاحق، وكاظم الصلح، أصبح سفيراً في العراق لاحقاً، بالإضافة إلى إخوانهم الأصغر سناً. شكّل هؤلاء مجمـــوعة مترابطة تتميّز بالوفاء المطلق. ومنحوه المعلومات وساعدوه في كتابة خطاباته الـــرسمية ونشر أفكاره وقدّموا إليه المشورة، وأشادوا به، أو ذمّوا منافسيه في الصحافة وفي دوائر معارفهم الواسعة(1).

عمل كاظم الصلح رئيساً لتحرير صحيفة **النداء القومي**، وأدار حزباً وليداً يحمل الاســـم نفسه. وكان قد شكّل مع تقيّ الدين ومفكرين آخرين مثل فريد زين الدين وشوقي دندشي في سنة 1935 "الحزب القومي العربـــي" الذي لم يكن سوى مجموعة نقـــاش. ولم يكن مختلفاً عن تجمّع قومي آخر في ذلك الوقت، "عصبة العمل القومي" الـــتي أســـسها في ســـنة 1933 طلاب وأساتذة في الجامعة الأميركية في بيروت، مثل

---

(1) رسالة إلى المؤلّف من الأستاذ الدكتور وليد الخالدي، شباط/فبراير 2007.

قسطنطين زريق وفؤاد مفرّج. وقد قدّم كل هؤلاء الرجال والمجموعات شبكة دعم قيّمة لرياض الصلح.

على الرغم من أن رياض لم يكن لديه حزب سياسي أو ميليشيا خاصة، فقد وفّر له "قبضايات" الأحياء مصدراً للقوة. وكان رياض يعرف من هم في كل حي من أحياء بيروت، وكذلك في صيدا. وقد حرص كثيراً على صداقتهم وإشباع غرورهم وتنمية ولائهم من خلال الخدمات المتبادلة، المادية والرمزية. واستعان بهؤلاء القبضايات في الانتخابات النيابية – وبخاصة انتخابات سنة 1943 الحاسمة – "كمفاتيح انتخابية" لحشد الأصوات. ولم يكن هؤلاء حلفاء مهمّين فحسب، وإنما ساهموا أيضاً في فرض سلطته السياسية عند الضرورة. لقد كانوا أصدقاءه الذين يمكن التعويل عليهم للجوء إلى القوة عند الحاجة[1]. وأظهرت دراسة أجرتها الشرطة اللبنانية في سنة 1943 وجود واحد وثمانين قبضاياً في بيروت: واحد وخمسين منهم مع رياض الصلح وتسعة مع عبد الله اليافي وسبعة فقط مع أيوب ثابت[2]. هكذا كانت البيئة السياسية لرياض الصلح عشية حرب عالمية أدخلت الشرق الأوسط في فوضى مريرة، ولكنّها فتحت أيضاً الطريق نحو تحقيق الاستقلال الذي طال انتظاره.

---

(1) المصدر نفسه.

(2) CADN, Inventaire 2, Sûreté Générale, carton 47, Information Beyrouth, 22 février 1943, quoted in Meouchy, 'Le Pacte national', p. 470, n. 23.

الفصل الخامس عشر

تغيّر رياح الحرب

تأثّرت حياة رياض الصلح السياسية تأثراً عميقاً بالصراع الجبّار بين الحلفاء وهتلر. فلم يكن في وسعه السعي إلى السلطة إلا بعدما طردت بريطانيا الألمان والإيطاليين من الشرق الأوسط، وهزِمت فرنسا الفيشية في المشرق العربي. عندما كانت قوى المحور تكتسح كلّ ما في طريقها، التحق الكثير من العرب بركب الألمان – مثل الحاج أمين الحسيني الذي شعر بالمرارة من الدعم البريطانيّ الثابت للصهاينة وراهن على نصر الألمان. أما رياض فكان يمتلك الحس السياسي السليم و لم يحذُ حذوهم معتقداً أن الحلفاء سينتصرون. لكن لا بد من أنه تساءل في بعض الأحيان عما إذا كان يمكن كسب أيَ شيء من القوى الغربية الاستعمارية العنيدة، التي تهتمّ بحماية مصالحها في الشرق الأوسط أكثر من اهتمامها بتحقيق آمال العرب في الاستقلال الوطنيّ.

على الرغم من أن رياض راهن على الحلفاء، فإن نفاد صبره على الفرنسيين لم يكن له حدود. فطالما رفضوا أن يتقبّلوا واقع قوميّة العرب، وتعمّدوا على مدى عدّة عقود إحباط الطموحات السياسية المشروعة لنخبة الأكثريّة السنيّة التي كان رياض من أبرز أعضائها. فقسّموا المشرق العربي إلى دويلات ومناطق تتمتّع بحكم ذاتيّ، واقتطعوا لبنان الكبير لصالح أتباعهم الموارنة. كان ذلك خطأ فرنسا الجسيم الكبير. فقد أثارت فرنسا عداء المسلمين السنّة المستحكم بإعطائها الموارنة موقعاً مسيطراً في منطقة ذات أهمية استراتيجيّة قد تشكّل قاعدة يمكن السيطرة منها على الأراضي السورية الداخلية، وأعاقت فرصة قيام أي تفاهمٍ ذي معنى بين المسلمين والموارنة.

سعت المدارس والكلّيات الفرنسية إلى أداء دور مهم في نهضة التعليم في سوريا ومصر منذ القرن التاسع عشر. لكن سرعان ما كسبت حركة بعث اللغة والثقافة العربية وإحيائهما الزخم، وبخاصة في سوريا، ما جعل الادّعاء الفرنسي بالسيطرة

الثقافية عبئاً ثقيلاً. فالعائلات المسلمة المحنّكة في بيروت ودمشق، وهي التي اعتادت السفر وتقلّدت المناصب الرفيعة في الإدارة العثمانية السابقة، شعرت بالإهانة لاضطرارها إلى التعاطي اليومي مع مسؤولين فرنسيين متوسّطي النوعية وفظّين ومرتشين في الغالب، ولديهم العنجهية لمعاملتهم باحتقار. كان رياض الصلح نفسه ميّالاً إلى فرنسا ويشعر بالارتياح كثيراً في باريس، ومع ذلك أصبحت علاقاته الشخصيّة والسياسية مع البيروقراطية المستبدّة في المفوّضية الفرنسية العليا سيّئة جدّاً.

عندما سحق الفرنسيون الثورة السورية الكبرى في سنتي 1925-1926، كان رياض الصلح من القوميّين الأوائل الذين رأوا أنّ الوقت قد حان لتغيير الاستراتيجية. ورأى أن الحكمة تقتضي السعي إلى إقناع الجمهور الفرنسي بأن سياسات حكومته الاستعماريّة مخطئة ومجحفة، بدلاً من اللجوء إلى السلاح - وهو مشروع غير مجد وانتحاري في مواجهة القوّة العسكرية المتفوّقة للإمبراطورية الفرنسية. فبذل جهوداً كبيرة في حملة إعلامية ودعائية لطرح قضيّة العرب أمام البرلمانيّين والصحافيّين الفرنسيين. وبدا أن جهوده أثمرت في سنة 1936 عندما وافقت حكومة الجبهة الشعبية رئاسة ليون بلوم على التفاوض مع سوريا ولبنان، ما أنعش الأمل بوضعهما على طريق الاستقلال. وكان رياض قد وضع معرفته الواسعة بالشؤون الفرنسية في خدمة الوفد السوري، وشارك في الفرحة الشعبية العارمة عندما تمّ التوصّل إلى اتفاق.

لكن عندما رفضت فرنسا التصديق على معاهدتي سنة 1936، تحوّل الأمل إلى مرارة ومزاج مضطرب. وفجأة فقد رياض ورفاقه في الكتلة الوطنية السورية صدقيتهم، وتعرّضوا لانتقاد عنيف من القوميّين المتطرّفين، وبخاصّة من الدكتور عبد الرحمن الشهبندر الذي لعب دوراً قيادياً في ثورة 1925. وازدادت حدّة الشعور بالفشل عندما تخلّت فرنسا بخبث عن لواء الإسكندرونه الواقع شمال غرب سوريا، للأتراك في سنة 1939، فبترت جزءاً مهماً من الأراضي السورية من دون أن تكلّف نفسها عناء التشاور مع السوريين أنفسهم. فتوصّل الكثير من الوطنيين، ومن بينهم رياض، إلى الخلاصة القاسية أن الحرب بين القوى الأوروبية قد تكون فرصتهم الوحيدة للتخلّص من الحكم الفرنسي الكريه.

السياسة الاستعمارية ببريطانيا وفرنسا

أدرك رياض الصلح أن بريطانيا وفرنسا جارتان قلقتان في الشرق الأوسط. لم يُخفِ الفرنسيون اقتناعهم أن البريطانيين يتآمرون لطردهم من سوريا وبناء إمبراطورية عربية خاضعة لسيطرتهم، بينما كان البريطانيّون مقتنعين بأن فرنسا يسرّها إثارة الاضطرابات المناهضة للبريطانيين. فالتنافس البريطاني الفرنسي إحدى حقائق الحياة كما يعرف كل سياسي عربي. لكن السؤال هو: كيف يمكن الاستفادة من هذا التنافس لمصلحة العرب؟

من أسباب الشكّ المتبادل بين بريطانيا وفرنسا تباين مفهوميهما للسياسة الإمبرياليّة، كما يوضحه اختلاف ردودهما الضغط الوطني. كانت الاستراتيجية البريطانية العامة تقوم على التظاهر بالإذعان للمطالب الوطنية، على أمل أن يسمح لها ذلك بالحفاظ على النظام بأقلّ قدر ممكن من القوّة في الأراضي التي تسيطر عليها. وكانت تحب إظهار أنها ترغب في التوفيق بين طموحات العرب واحتياجاتها الاستراتيجية، على الرغم من عدم إمكانية تحقيق ذلك بسلاسة بطبيعة الحال. فلا شك في أن السياسة البريطانية الاستعمارية المنحازة والكارثية في فلسطين هي التي مهّدت إلى سفك الدماء المستمرّ حتى يومنا هذا.

بالمقابل، أصرّ الفرنسيون على اعتبار القوميّة العربيّة عدوّاً يجب ضربه - بأكبر قدر ممكن من العنف. فاحتفظوا بحامية عسكرية كبيرة في سوريا خوفاً من أن يؤدي أيّ تنازل هناك إلى تشجيع الاضطراب في مستعمراتهم في شمال أفريقيا، حيث كانوا عازمين على سحق الحركات الوطنية الكبيرة كما فعلوا بوحشية في الجزائر. ووفقاً لما جاء في أحد التقارير البريطانيّة المعبّرة عن الرضى عن النفس (والمراوغة)، "حاول البريطانيّون تحويل انتداباتهم إلى تحالفات؛ فيما بدا أن الفرنسيين يحاولون على الأقلّ تحويلها إلى مستعمرات"[1].

حقّق موقف بريطانيا، الأكثر مرونة في الظاهر، بعض النجاحات، لإمبراطوريتها على الأقل. وأهم هذه النجاحات المعاهدتان مع العراق في 30 حزيران/يونيو 1930

(1) Report by F.R.P.S., 4 November 1940, FO 371/27308. انظر أيضاً A.B. Gaunson, *The Anglo-French Clash in Lebanon and Syria, 1940-45*, New York 1987, and Aviel Roshwald, *Estranged Bedfellows: Britain and France in the Middle-East during the Second World War*, Oxford 1990.

ومصر في 26 آب/أغسطس 1936. نصّت معاهدة العراق على إقامة تحالف لمدة خمس وعشرين سنة، وتخصيص قاعدتين جويتين لسلاح الجوّ الملكي - واحدة في الفرات الأوسط والأخرى في البصرة. وضمنت لبريطانيا تسهيلات عسكريّة وطرق المواصلات في زمن الحرب، وأكّدت على "الصيانة الدائمة لوسائل الاتصالات الأساسيّة لصاحب الجلالة وحمايتها". في المقابل، لم يُمنَح العراق السيادة الكاملة، بل بعض الحريّة الكبيرة في العمل السياسي والدبلوماسي، في الداخل والخارج. وعلى نحو مماثل، أقامت المعاهدة المصريّة تحالفاً دائماً مع بريطانيا العظمى ونصّت على التمركز المؤقّت للقوّات البحرية والبرية والجوية البريطانيّة في مصر للدفاع عن قناة السويس.

رأى الفرنسيون أن السياسة البريطانية التي تعزّز "الاستقلال" في العراق ومصر، تشكّل سابقة تزعزع استقرار الوجود الفرنسي في سوريا. وأبدوا امتعاضاً من علاقات بريطانيا الوثيقة مع الأمير عبد الله في شرق الأردن، وهو بلد يؤمّن في نظرهم قاعدة للعمليّات التخريبيّة ضدّ حكمهم في سوريا.

أدرك رياض الصلح تماماً تفوّق القوّة البريطانية السياسية والعسكرية والتجارية في المنطقة - من خلال سيطرتها على مصر، وفلسطين، وشرق الأردن، والعراق والخليج العربي - لكن كان عليه التعامل مع فرنسا في كلّ من لبنان وسوريا. لذا هاله أن تبدأ فرنسا بتشديد قبضتها على المشرق العربي بدلاً من إرخائها، عندما بدت الحرب وشيكة الوقوع في 1939، مسدّدة بذلك ضربة أُخرى لآمال سوريا بالاستقلال.

ويغان وجيش المشرق

في 25 آب/أغسطس 1939، استُدعي الجنرال المتقاعد مكسيم ويغان Maxim Weygand - الذي شغل منصب المفوّض السامي الفرنسي في بيروت في سنة 1924 - على وجه السرعة من مقاطعة بريتاني Brittany لتسلّم قيادة القوّات الفرنسية في شرق المتوسّط. ومُنح السلطة على المفوّض السامي غابريال بيو (كان سفيراً لفرنسا في فينّا في زمن ضم النمسا إلى ألمانيا)[1].

(1) انظر Maxime Weygand, *Mémoires*, Tom III, Rappelé au service, Paris 1950; Henry de Wailly, *Syrie 1941: La Guerre Occultée*, Paris 2006, pp. 19 ff.

كـــان ويغـــان صغير البنية رشيقاً ذا نظرة حادة، في الحادية والسبعين من عمره، ويتمـــتع بحيويّة عالية على الرغم من تقدّم سنّه. وصل إلى بيروت في 30 آب/أغسطس عـــبر مرســـيليا، وتونس، ومالطا والإسكندريّة، وانتقل جواً إلى القاهرة في اليوم التالي للاجتماع بالجنرال السير أرشيبالد ويفِل Sir Archibald Wavell، القائد الأعلى للقوّات المـــسلّحة البريطانيّة في الشرق الأوسط. وبعد يوم واحد فقط، في 1 أيلول/سبتمبر 1939، هاجم الألمان بولندا وأُعلِنت الحرب.

في هذا الجوّ المحموم كانت مهمّة ويغان العاجلة إعادة بناء جيش المشرق الذي يفتقـــر إلى اللـــياقة القتالية بسبب سوء التجهيز والترهّل وطول سنوات الانتشار الـــروتيني. وكان معظم ضبّاطه وضباط الصف- وهم ممن قاتلوا في الحرب العالميّة الأولى - متقدّمين في السن ولا يحتملون النشاطات البدنيّة المرهقة. وبعضهم أصبح شـــديد الـــسمنة بحيث لم يعد في وسعه ربط حزام الخدمة. لقد جاؤوا إلى المشرق لتفادي حياة الثكنات في فرنسا، و لم يشهدوا أيّ معارك عسكريّة منذ سحق الثورة الـــسورية الكـــبرى في سنة 1925. تحوّل العديد من عناصر القوات الفرنسية إلى طـــبّاخين وسائـــسي خيل وسائقين وأمناء سرّ وحرّاس، لا يصلحون إلا للتعامل بطـــريقة وقحة وعنصريّة مع السوريين. وكانت زوجاتهم عدائيات أيضاً. غير أن أعـــدادهم بدت كبيرة على الورق: 1686 ضابطاً، و40000 عسكري. وثمّة 300 ضـــابط آخر، 50 منهم فقط فرنسيون، يقودون وحدات مكوّنة من 15000 رَجل محلّي[1].

شـــكّل هـــذا الجـــيش مـــزيجاً غريباً متعدّد الأعراق والأديان من وحدات من مـــستعمرات شمـــال أفريقيا، والكتائب السنغاليّة، والقوّات العربية المحلية، التي سُمّيت "قـــوات المـــشرق الخاصّة". وتكوّنت هذه القوات من مجنّدين لبنانيين وسوريين، من الأقلـــيّات ذات الأصـــول الفلاحية. وضمّت علويّين من الجبال المشرفة على اللاذقيّة، ومـــسيحيّين من أصلٍ أشوري - كلداني من منطقة الفرات. وشكّل الفرنسيون أيضاً اثنتي عشرة سريّة خيّالة من الشركس والدروز والأكراد الذين يحصلون على أجر يومي

(1) Maurice Albord, *L'Armée Française et les états du Levant, 1936-1946*, Paris 2000, pp. 26-35.

وعـــلاوة للطعـــام، عندما يكونون في الميدان، لكنّهم مسؤولون عن البحث عن علف لمطاياهم بأنفسهم[1].

اســـتخفّ الفرنسيون الذين يقودون هذه القوى المتنافرة بواجباتهم، بعدما اعتادوا الكـــسل بـــسبب المناخ المعتدل والحياة السهلة. فكانوا يمضون معظم أوقاتهم في لعب الـــورق أو كـــرة المضرب أو في المقاهي، ويراهنون على سباقات الخيل أيّام الآحاد. وســـاهمت معدّاتهم العسكريّة القديمة والبالية في هذا الجوّ العام من الوهن. كان معظم الـــضبّاط والـــرقباء والعرفاء الفرنسيين متطوّعين اضطروا إلى الانتظار سنتين أو ثلاث ســـنوات أحياناً للحصول على هذه المناصب المريحة في المشرق، حيث يمنحون رواتب معفاة من الضريبة، ووجبات طعام مدعومة، ومساكن وعناية صحيّة مجانية، إضافة إلى العديد من المزايا والعلاوات. لذا وجد الفرنسي الذي يعيش في بيروت أو حلب أو دير الزور أنه أفضل حالاً بكثير مما لو أقام في حامية في فرنسا. تلك كانت إغراءات التعيين في المشرق بحيث أصبح هناك ميل إلى قضاء أطول فترة ممكنة في الخدمة. وأمضى بعض العـــسكريين مـــدّة خدمـــتهم العسكريّة بأكملها في سوريا ولبنان، متمسّكين بفكرة "الحكـــم المباشر" للسكان الأصليّين، إذ إنّ ذلك يخدم جيوبهم الخاصّة قبل كلّ شيء. غـــير أنـــه كـــان من النادر أن يهتم مثل هؤلاء الرجال بالتعرّف إلى أي عائلة عربيّة، ناهيك عن التفكير في تعلّم اللغة العربيّة في أثناء الخدمة.

كانـــت الفكـــرة الشائعة لدى جيش المشرق الفرنسي في ذلك الحين أن سوريا ولبنان جزء لا يتجزّأ من الإمبراطورية الفرنسية، ويجب الدفاع عنهما في مواجهة جميع الوافدين ومهما كان الثمن. وقد اعتبر العديد منهم أن المبدأ الذي يقوم عليه الانتداب، ورســـالته المعلنة عن "إعداد" السكان المحليين للاستقلال، خيانة للمصالح الخاصة التي زيّنت بتعبير "المهمّة التمدينية" لفرنسا. لقد كانت مرحلة ركود عميق بسبب الافتقار إلى الإرادة أو الخـــيال الـــسياسي في باريس، وانحطاط مستوى التمثيل الفرنسي على الأرض[2]. وعمـــل الفرنسيون في الواقع على إدارة نظام استعماري في سوريا ولبنان تدعمه القوّة العسكريّة.

---

(1) de Wailly, *Syrie 1941*, p. 25.

(2) Raymond, "La Syrie du Royaume Arabe à l'Indépendance", p. 71.

كانــت مهمّــة ويغان تقتضي تحويل هذه الوحدات المتباينة والعاجزة في جيش المــشرق إلى قــوّة قتالــيّة فعّالــة. وقد تمكّن من اجتراح الأعاجيب على الرغم من الــصعوبات والعقــبات. فجمع في غضون ستة أشهر قوّة من 50,000 رجل يتميّزون بحسن التنظيم والتجهيز والقيادة، بعد استقدام تعزيزات وعتاد من فرنسا، وأطلق عليها اسم مجموعة القوات المتحرّكة في المشرق.

جــاء كل ذلك بمثابة أنباء سيّئة جدّاً لرياض الصلح وزملائه الوطنيين. فأُجبروا علــى الابتعاد عن الأضواء. وعندما وقعت الحرب بين فرنسا وألمانيا، علّق الفرنسيون العمــل بالدستور في المشرق إلى أجل غير مسمّى، واتخذوا إجراءات صارمة ضدّ أي تلميح إلى التحريض السياسي. فوُضِعت الشرطة تحت إمرة الجيش الفرنسي، وخضعت الصحافة لرقابة مشدّدة وحُدِّدت بصفحة واحدة يومياً. وحظر الاستماع إلى الإذاعات الألمانــيّة والإيطالــية الــتي اعتاد عليها السكان المحلّيون تحدياً للفرنسيين، تحت طائلة الــسجن بــين ثلاثة أشهر وثلاث سنوات، وغرامات تتراوح بين عشرين ومئتي ليرة ســورية. وأطفــئت أنوار الشوارع بشكل شبه كامل، وسُمح للمركبات باستعمال أضــوائها الأماميّة فقط بشكل خافت[1]. وأنشئت محكمة عسكريّة لمحاكمة معارضي الحكم الفرنسي، وكان رياض من المشتبه فيهم الرئيسيين.

في 10 أيار/مايو 1940، شنّ هتلر هجومه الصاعق على بلجيكا وفرنسا، وخلال أيام كانــت فرنــسا قــد خــسرت الحرب. في 17 أيار/مايو، استدعى بول رينو Paul Reynaud، الــذي خلف إدوارد دلادييه في منصب رئيس الوزراء في آذار/مارس، الجنــرال ويغــان على عجل إلى باريس وبتسلّم بعد يومين المهمة المستحيلة لقيادة الوضع المنهار. سقطت دنكرك في 4 حزيران/يونيو وانهارت جبهة السوم بعد ذلك بأسبوع. وفي 14 حزيران/يونيو، سُلّمت باريس – التي أُنقذت من الدمار الوحشيّ بإعلانهــا مديــنة مفتوحة – إلى الألمان في طقوس كئيبة في فندق كريون في ساحة الكونكورد. وقد سقط، في أقلّ من شهر واحد، 70,000 جنديّ فرنسي في محاولة يائــسة لوقف الهجوم الألماني. في 22 حزيران/يونيو وقّعت فرنسا على اتفاق هدنة مع ألمانيا.

(1) Political report: Syria, Damascus, 28 May 1940 (FO 371/24591).

في سـنة 1939، ظلّت فرنسا وبريطانيا تحكمان أعظم إمبراطوريّتين في العالم. وبعد أشهر قليلة، هُزمت إحداهما تماماً، فيما بدا من المحتّم أن تلقى الأخرى المصير نفسه. أرهقت هذه الأحداث المتسارعة والدراميّة ولاء العرب المشكوك في أمره تجاه الفرنسيين. وقد ذُكر في ذلك الوقت أن السوريين عندما يريدون التعبير عن تأييد هتلر، وتجاوز الرقابة الفرنسية، كانوا يسمّونه "أبو رشيد"، وكان يُعرف في لبنان باسم "أبو سعيد".

وقع الهزيمة الفرنسية

سبّبت هزيمة الجيش الفرنسي – التي تبعها على الفور اتفاق الهدنة الذي عقده المارشال فيليب بيتان Philippe Pétain – الشك والخوف والحزن لدى المجتمع الفرنسي في المشرق. حلّ بيتان، وهو بطلٌ معمَّر من الحرب العالميّة الأولى، محلّ بول رينو في منصب رئيس الوزراء في 16 حزيران/يونيو. لم تكن بنود الهدنة التي تمكّن من تأمينها مُذلّة على النحو المتوقّع. فمع أن فرنسا استسلمت لألمانيا، فقد كان في وسعها الاحتفاظ بأسطولها وإمبراطوريّتها. وبالرغم من احتلال نصف أراضيها، كان بإمكانها الاحتفاظ بعَلمها وإدارتها واستقلاليّتها السياسية وممثّليها الدبلوماسيين وأسطولها التجاري. لا شك في أن بنود تلك الهدنة المتساهلة نسبياً، كانت تشير إلى أنّ ذلك تدبير مؤقت، في تفكير هتلر على الأقلّ، فقد كان يتوقّع أن تسقط بريطانيا في غضون أسابيع، وعندئذ يضع نظامه الأوروبي الجديد في مكانه.

في لبنان، صلّى الموارنة المضطربون لخلاص فرنسا في جو من الحزن العميق. بل إن النساء تخلين عن ارتداء مجوهراتهن. وتزاحم نحو 14,000 مصطاف من مصر والبلدان المجاورة على مغادرة المنتجعات في الجبال اللبنانية والعودة إلى أوطانهم. واضطرّ الكثير منهم إلى العودة برّاً عبر فلسطين، بسبب توقّف المواصلات البحرية بصورة مؤقّتة. وغادر ملك العراق، الذي لا يزال طفلاً، إلى بغداد في 8 أيلول/سبتمبر مصاباً بخيبة أمل لاضطراره إلى قطع إجازته[1]. وبدأت المواقف من فرنسا بالتغيّر، حتى في

(1) Consul General Havard to Foreign Office, Beirut, 13 September 1939 (FO 371/23277).

صفوف أتباعها وأشد مناصريها حماسة. فالتفت بعض الموارنة إلى الإيطاليين وبعضهم الآخـــر إلى الألمـــان بحثاً عن حامٍ جديد يضمن سلامة لبنان واستقلاله. بل إن بعضهم توجّه إلى أنقرة للاجتماع بالسفير الألماني النافذ فرانتز فون بابن Frantz Von Papen.

شجّع هذا التغيير الذي طرأ على المواقف الشعبية القوميين العرب فبدؤوا بتجديد نشاطاتهم، آملين في أن يكون التحرير في متناول اليد. ونظّم رياض الصلح اجتماعات سياســية لتعبــئة معارضة الفرنسيين الذين بدا وجودهم في المشرق بعد احتلال الألمان لوطـــنهم، غـــير ممكن. علّق المسلمون المحليّون آمالهم على الألمان، ومنهم رياض الذي أغـــراه الـــتطلّع في تلك الوجهة[1]. وتشجّعت الأنظمة العربيّة الواقعة تحت السيطرة الـــبريطانيّة، علـــى اعتبار انهيار فرنسا فرصةً ذهبية للقضاء على الانتدابات الفرنسية بـــصورة نهائية. فحثّ رئيس الوزراء العراقي نوري السعيد بريطانيا على إجبار فرنسا علـــى منح سوريا ولبنان استقلالهما على الفور، متأمّلاً من دون شك في جعل سوريا جـــزءاً من كونفيدرالية قومية عربـــية بقيادة بغداد. وعبّر السعوديّون عن خوفهم من أن تقتسم إيطاليا وتركيا سوريا فيما بينهما، في ما خشي خصمهم، الأمير عبد الله في شـــرق الأردن، مـــن انـــتهاز السعوديّين فراغ السلطة في سوريا وتعيين أمير سعوديّ هناك[2].

في فرنـــسا، سارعت حكومة بيتان الجديدة، في بوردو أولاً، ثم في فيشي، إلى تعزيـــز ســـلطتها على الإمبراطوريّة التي قُطع رأسها بانهيار الوطن الفرنسي. ووقع الحكّـــام الفرنسيون في الأماكن البعيدة كالهند الصينيّة والمغرب وغرب أفريقيا في معضلة الاختيار بين شرعيّة المارشال بيتان أو دعوة الجنرال شارل ديغول الجريء - الـــذي أُذيع عبر هيئة الإذاعة البريطانية في لندن في 18 حزيران/يونيو 1940 - إلى رفض الاعتراف بالهدنة الفرنسية الألمانيّة ومتابعة قتال ألمانيا النازيّة بقيادته. اختار

---

(1) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, p. 113 ff, p. 116; Raymond, "La Syrie du Royaume Arabe à l'Indépendance", p. 77.

(2) Roshwald, *Estranged Bedfellows*, p. 16. يقـــال إن مـــويدي ابن سعود الذين عملوا في هذا السبيل كانوا يضمون الشيخ يوسف ياسين في الحجاز، والدكتور مدحت شيخ الأرض (صهر جميل مـــردم) الذي أصبح طبيب ابن سعود النافذ الرأي في الحجاز، وخالد الحكيم وحسين العويني اللذين كانا يعملان في شركة بحصلي وعويني في بيروت.

معظـم الحكّـام والضباط الكبار أن يأخذوا جانب بيتان. وكان الجنرال جورج كاتـرو Catroux واحـداً من ثلاثة جنرالات فرنسيين فقط أيّدوا ديغول. كان كاترو، الحاكم العام للهند الصينيّة عند سقوط فرنسا. وقد خدم مرّتين في الشرق الأوسط قائداً للبعثة العسكريّة الفرنسية إلى الحجاز في سنة 1919-1920، ثم رئيساً للاستخبارات في سوريا ولبنان بين سنتي 1926 و1928. وسرعان ما عاد للظهور في المشرق[1].

في بيروت؛ شهدت الصفوف الفرنسية لحظة ارتباك كلّي. لم يكن حجم الجنرال ديغـول معروفاً، ولم يسمع بيانه الشهير سوى قلة من الفرنسيين في المشرق. وتأييده يعني المـراهنة على الحياة المهنيّة وتعريضها للخطر. تردّد القائد العام للقوّات الفرنسية الألزاسي الضخم القامة الجنرال يوجين ديزيريه ميتلهاوزر Eugène-Désiré Mittelhauser والمفوّض السامي غابريال بيو. وفي الحالتين اصطدمت غريزة القتال بالإحساس العميق بالطاعـة للقـادة السياسيين. وقد صدمتهما الهدنة، ففكّرا في رفضها في البداية، وهو موقف متمرّد شجّعه الضباط الصغار، ومن بينهم رئيس هيئة الأركان العقيد إدغار دي لارمينا Edgar de Larminat، الذي تآمر لتسليم جيش المشرق بأكمله إلى البريطانيين في فلسطين.

ثم أتت الأوامر من بوردو للصمود، فانصاع لها ميتلهاوزر. فأمر بتوقيف لارمينا وحكم عليه بالسجن مدّة ثلاثين يوماً في قلعة دمشق. لكن العقيد تمكّن من الهرب إلى فلسطين بمساعدة الضبّاط الصغار، مع عدد من الجمهوريين الإسبان ويهود من أوروبا الوسـطى وهـنغاريين وبرتغاليين وتشيكيين وآخرين في الفيلق الأجنبـي الفرنسي. وسُـمح للواء بولندي بقيادة الجنرال كوبانسكي Kopanski بعبور الحدود مع آليّاته وكامل أسلحته، بعد أن خشي من تسليمه إلى الألمان[2]. هكذا تمكّن ما مجموعه 900 رجـل، مـن بينهم بعض الضباط، من أصل 50,000 عسكري متمركزين في سوريا ولبـنان الخاضـعين لفرنسا، من التسلّل إلى فلسطين الخاضعة لبريطانيا. وظلّ الباقون

(1) أصـدرت حكومة فيشي عليه حكماً بالإعدام غيابياً في 10 نيسان/أبريل 1941. Gaunson, *The Anglo-French Clash*, p. 14; de Wailly, *Syrie 1941*, p. 469, n. 16, and p. 470, n. 24.

(2) de Wailly, *Syrie 1941*, pp. 33 ff and 47.

موالين لحكومة فيشي. وعلى أي حال، فإن حكومة فيشي قطعت علاقاتها مع بريطانيا بعدما هاجمت البحريّة الملكيّة الأسطول الفرنسي في المرسى الكبير [في الجزائر] في 3 تموز/يوليو 1940 - أي بعد أسبوع فقط من توقيع الهدنة - ما أسفر عن مقتل 1500 بحّار فرنسي، وغرق عدّة سفن فرنسية. وضع ذلك نهاية مفاجئة لمحاولة القوّات الفرنسية الهرب إلى فلسطين. وأعاد الكثيرون ممن أرادوا الانضمام إلى ديغول في إنكلترا التفكير في قرارهم.

ما إن خضع بيو وميتلهاوزر لأوامر بيتان، حتى وقعا تحت ضغط اقتصادي كبير، إذ بدأت بريطانيا حصاراً للأراضي الخاضعة للسيطرة الفرنسية برّاً وبحراً، ما أدى إلى عسر كبير في سوريا ولبنان. فشهدت أسعار الأدوية والفحم والحطب ارتفاعاً كبيراً، وأصبح من الصعب جداً الحصول على السلع الأساسيّة، مثل السكّر والأرزّ والبنزين والمازوت. وبدأ المنتجون السوريون يخزّنون الطحين، ما أجبر عدّة مخابز في بيروت على الإغلاق. لام الفرنسيون البريطانيّين علناً على مشكلات نقص المؤن[1]. غير أن الوطنيين رأوا في هذه المشكلات مصدراً للتشجيع والتحدّي، وشعر العديدون أن الوقت قد حان لاستغلال الارتباك الحاصل في صفوف جيش المشرق، وانقسامه بين المؤيّدين لبيتان والمؤيّدين لديغول، والتطلّع إلى بريطانيا للخلاص. لكن خاب أملهم.

لم يدرك رياض الصلح ورفاقه أن بريطانيا لم تكن راغبة في التدخّل في المشرق، على الأقل في ذلك الوقت. فقد كانت لندن شديدة الحذر: فهي بحاجة إلى الاستقرار في حين تركّز قواها في أماكن أخرى لمواجهة ألمانيا في صراع حياة أو موت. وهكذا فإنها كانت راغبة في تجنّب الصدام العسكري المباشر مع فيشي، بينما تساند حركة فرنسا الحرّة بقيادة ديغول، إذ لم يكن لديها قوّات كافية للقتال. وانصبّ اهتمام بريطانيا الرئيسي على ضمان ألا يمنح الفرنسيون في بيروت دول المحور موطئ قدم في الأراضي التي يسيطرون عليها. ولاسترضاء حكومة فيشي، قدّم البريطانيون ضمانات بأنهم لا يريدون إنشاً واحداً من الأراضي الفرنسية لأنفسهم، وبلغوا حدّ التعهّد *بإعادة* الإمبراطوريّة الفرنسية إلى سابق عهدها عندما يتحقق النصر. في المقابل،

(1) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, p. 114.

طُلب من حكومة فيشي إبقاء الألمان بعيدين عن القواعد الفرنسية في الخارج، وبخاصّة في المشرق[1].

تـــزايدت أهمـــية دول المشرق لدى لندن في أعقاب حزيران/يونيو 1940، عندما ساند موسوليني في وقت متأخّر هتلر، مهدّداً بذلك موقع بريطانيا في المتوسّط والشرق الأوســـط وشـــرق أفريقيا. كان لدى أرشيبالد ويفل، القائد العام البريطاني في الشرق الأوســـط، قوة قوامها 50,000 رجل متمركزة محلياً، بينما ناهز عدد القوّات الإيطالية في ليبيا وإريتريا وإثيوبيا نصف مليون جندي، مدعومة بقوة بحريّة وجويّة قوية. وشكّل وجـــود الإيطاليين في إريتريا على وجه الخصوص تهديداً للمواصلات البريطانية الحيوية عبر البحر الأحمر مع الهند وسنغافورة وأستراليا[2]. وكانت إيطاليا قد انتزعت ليبيا من الإمـــبراطوريّة العثمانيّة في سنة 1911 واستعمرتها بالقوّة. وبحلول سنة 1938، استقرّ 90,000 جـــندي إيطالي في ليبيا، وبخاصّة في طرابلس وبنغازي وسهل الجفارة. وغزا موســـوليني إثيوبـــيا أيـــضاً في سنة 1935 - 1936 بغية توحيدها مع إريتريا وأرض الصومال الإيطالية، والتبجّح بتأسيس إمبراطورية رومانية جديدة في شرق أفريقيا[3].

حـــذّرت وزارة الخارجية البريطانية حكومة الحرب من أن تمكّن قوّات العدوّ من تأمين تسهيلات في المشرق، سيؤدي إلى الالتفاف على البريطانيين وتعريض موقفهم في الشرق الأوسط ومصر وشبه الجزيرة العربية للخطر[4]. واتفق رؤساء الأركان مع هذا التقييم، فكتبوا في إحدى مذكراتهم:

> لا يمكن أن نسمح بحلول إدارة أو نفوذ ألماني أو إيطالي محل السلطة الفرنسية [في سوريا ولبنان].
>
> وتقتـــضي الضرورة القصوى بقاء سوريا ولبنان من الناحية العسكرية تحت إدارة تميل لصالحنا.

(1) Roshwald, *Estranged Bedfellows*, p. 19.

(2) Gaunson, *The Anglo-French Clash*, pp. 4, 11.

(3) William Roger Louis, "The Colonial Empires of the Late Nineteenth and Early Twentieth Centuries," in W.R. Louis, *Ends of British Imperialism: The Scramble for Empire, Suez and Decolonization. Collected Essays*, London 2006, pp. 39-40.

(4) Foreign Office to War Cabinet, 9 May 1940 (FO 371/24591); Foreign Office to War Cabinet, 1 July 1940 (FO 371/24592).

لذا يجب أن تتوجّه سياستنا نحو:

- دعم الفرنسيين من أجل المحافظة على بقاء إدارتهم
- تقديم مساعدة حيويّة إلى الفرنسيين في حال تداعت إدارتهم
- إحلال الإدارة البريطانيّة محل الإدارة الفرنسية في حال انهيارها

وأضافت المذكرة أن انقطاع خطوط المواصلات التي تمدّ الفرنسيين بالمؤن والمعدّات الحربيّة، وعدم امتلاكهم أي وسيلة لمغادرة سوريا، يدعونا إلى تشجيعهم على الاعتماد علينا[1].

صدم دخول إيطاليا الحرب السوريين واللبنانيين الذين استاؤوا، من دون استثناء تقريباً، من غزو الإيطاليين الوحشي لليبيا واستعمارها. وقد أخذت الحرب تطرق أبوابهم. وظهرت الحاجة إلى مزيد من الاحتياطات الوقائية من الهجمات الجويّة. فشُدِّدت القيود على الإضاءة وظهرت الخنادق في الحدائق العامّة وعلى أي أرض فارغة. وقد لاحظ مسؤول قنصليّ بريطانيّ في دمشق بشيء من السخرية أن "الوفد الفرنسي وطاقمه نزلوا إلى الخندق الذي كان قد حُفر لهم في قطعة أرضٍ مجاورة وأمضوا فيه نصف ساعة في الشمس الحارقة، تصحبهم الروائح الكَريهة التي لم تترك أي شك في غرض استعمال هذا الخندق في الليلة السابقة"[2].

وبما أن السياسة البريطانية تقوم على دعم النظام المحلّي لحكومة فيشي، فإن العلاقات بين البريطانيّين ونظرائهم الفرنسيين في المشرق بقيت جيدة نسبياً. أرسل القنصل البريطاني العام غودفري هافارد Godfrey Havard تقريراً إلى لندن في 14 تموز/يوليو 1940 يفيد فيه: "علاقتي بالسلطات لا تزال جيدّة، مع أن الفرنسيين يبدون العرقلة أحياناً ويشكّون دائماً في وجود مكيدة بريطانية في سوريا، فإنهم سيواصلون على الأرجح بذل ما في وسعهم للمحافظة على جوٍّ من التعاون ما دام لديهم أمل بالحصول على مساعدة اقتصادية من حكومة جلالة الملك". وبعد أسبوعين، وصف هافارد محادثاته الصريحة والودية مع المفوّض السامي بيو:

(1) Chiefs of Staff Committee to War Cabinet, 22 July 1940 (FO 371/24592).

(2) 21 June 1940 (FO 371/24591).

لم يتـــرك لي مجالاً للشك في مواقفه الصادقة التي عبّر عنها مؤكداً أن كل مواطن فرنـــسي حقيقـــيّ لا يسعه إلاّ أن يأمل بانتصار بريطانيا. كان أيضاً صريحاً بالقول إنّه سيخضع لكلّ الأوامر الصادرة عن حكومة فيشي. وفي الوقت نفسه أبلغني أنه سيسعى إلى التقلـــيل ما أمكن من التعليمات الصادرة عن حكومة فيشي على أمل تركه وشأنه في إدارة هذه الأراضي من دون تدخّل غير مستحب قدر الإمكان[1].

لم تجلب الحرب سوى القليل من التغييرات المباشرة، إلى جانب الحصار - الذي عمـــد البريطانيون إلى تخفيفه بين الحين والآخر. كانت القطارات المتّجهة من فلسطين إلى العراق تعبر الأراضي الخاضعة للانتداب الفرنسي، وبقيت القنصليّات البريطانيّة في دمـــشق وبـــيروت مفتوحة، وكذا القنصليّة الفرنسية في القدس. أثارت هذه السياسة الـــبريطانيّة غـــضب الجنرال ديغول الذي يتلهّف لطرد حكومة فيشي وتأسيس حركة فرنسا الحرّة في المشرق.

لم يـــستطع رياض الصلح والوطنيون أيضاً فهم ذلك وخابت آمالهم بشدّة. فقد رأوا أن حكـــومة فيشي تتعاون مع ألمانيا، وهي قوّة يحاربها البريطانيّون. مع ذلك، لم يكـــن هـــناك تفسير لاستمرار العلاقات الودية بين المسؤولين البريطانيين والفرنسيين الـــتابعين لحكـــومة فيشي في بيروت ودمشق. فشعر الوطنيون الذين أملوا بالتحرير، بالارتباك والإحباط بسبب استمرار التضامن بين هاتين القوتين الاستعماريتين.

حرب دول المحور الدعائية

حـــرص رياض الصلح على عدم الالتزام بقضية المحور، على الرغم من لقائه عدّة زوّارٍ ألمان بارزين إلى المشرق في أواخر الثلاثينيات وأوائل سنوات الحرب. فقد أمضى ســـنواته التكوينـــية في استانبول وجنيف، لذا كانت ميوله ديمقراطية وثقافته السياسية عثمانـــية وفرنـــسية في آن معاً. وجد معظم مظاهر نظام هتلر بغيضة للغاية: تقديس القائـــد، والعنـــصرية "الآريـــة"، والنـــزعة العسكريّة العدوانيّة، وسحق أي معارضة بوحـــشية. لكنه أدرك أن عليه أن يكون مستعداً للتعامل مع ألمانيا إذا ربحت الحرب.

(1) Consul General Godfrey Havard to Foreign Office and War Cabinet (FO 371/24593).

غير أنه لم يكن يتطلّع إلى ذلك الاحتمال. على أي حال، بدا له أن اهتمام ألمانيا بالعالم العربـــي فاتر. فقد كان اهتمام هتلر منصباً على أوروبا الوسطى والشرقية، ولم يشأ تحـــدي المـــصالح البريطانية الاستعمارية في العالم العربـــي ولا إثارة عداوة موسوليني وإزعـــاج طموحاته الكبيرة في المنطقة. غير أن البريطانيين الحريصين دائماً على حماية مـــصالحهم الحـــيويّة في الشرق الأوسط - النفط وقناة السويس وخطوط المواصلات الاستعمارية مع الهند والشرق الأقصى - أبقوا أعينهم مفتوحة على الأنشطة الألمانية في المنطقة.

تبعت زيارة البارون بالدور فون شيراش Baldur Von Schirach، أحد قادة منظمات الشبان النازية، إلى سوريا في كانون الأول/ديسمبر 1937، زيارات أخرى قام بها وكلاء الدعاية الألمانية. ففي حزيران/يونيو 1938، اختار والتر بيك Walter Beck، وهـــو مـــسؤول ألماني كبير، نحو 70 سورياً للدراسة في ألمانيا، على أن تدفع الحكومة الألمانـــية تكاليف الدراسة والإقامة بأكملها. وأفاد القنصل البريطاني غيلبرت ماكيريث Gilbert Mackereth في كانون الأول/ديسمبر 1938، أن البعثة الدبلوماسية الألمانيّة في بغـــداد أصبحت المركز الإداري للنشاط الألماني السياسي في سوريا ولبنان وفلسطين وشـــرق الأردن والعراق[1]. في دمشق، شكّل النادي العربـــي مركز الدعاية الألمانية، وكـــان يرأسه الدكتور محمد سعيد فتّاح الإمام، المعروف بميوله الألمانية واتصاله الدائم بالقنـــصل العام الألماني في بيروت. وقد بقي البريطانيون في حيرة من أمر مصدر تمويله الكـــبير. وعندما وصل البارون فون فلوغل Von Flugel، وهو ألماني مقيم في بيروت، إلى دمشق مع الأميرة هوهنلوهي Hohenlohe في 19 كانون الثاني/يناير 1939، تولّى الدكتور فتّاح الإمام دور مرشدهما السياحي.

بـــدأت مـــثل هذه المناورات الألمانيّة تقلق الفرنسيين الذين ساورهم الخوف من احـــتمال قـــيام هتلـــر بالتخطيط لإثارة الاضطراب في سوريا ولبنان. فأُغلق النادي العربـــي عند اندلاع الحرب، وفي 3 أيلول/سبتمبر 1939، اعتُقل بعض أعضاء الجالية الألمانـــية المحلية - رجال أعمال، وعلماء آثار بالإضافة إلى جواسيس معروفين. وطُرد

(1) Consul Gilbert Mackereth to Foreign Office, Damascus, 1 December 1938 (FO 371/21914).

عـــدد مـــن الألمان أيضاً، ولم تُجدّد إقامات آخرين[1]. لكن بعدما وقّع المارشال بيتان على الهدنة في حزيران/يونيو 1940، أُخلي سبيل الألمان وعاودوا نشاطاتهم على الفور.

وصلت إلى لبنان لجنة إيطالية لنـــزع السلاح بقيادة الجنرال جورجيس Giorgis في 28 آب/أغـــسطس لمـــراقبة تسريح القوّات الفرنسية، وإحصاء معدّاتهم وأسلحتهم وإلغـــاء مـــصادرة المـــتلكات الإيطالية والألمانيّة. وقد شاع أنه عندما وصل الجنرال الإيطـــالي إلى مطار رياق، مدّ يده للضابط الفرنسي فرفض مصافحته. فأصرّ الإيطالي قـــائلاً: "أنت غير لطيف مع المنتصِر عليك"، فأجاب الفرنسي عندئذ: "إنني آسف، لم أكـــن أعلم أنك ألماني"[2]. تخلّى الإيطاليون بعد فترة قصيرة عن أسلوب طرق الكعبين معـــاً وإلقاء التحية الفاشية، وبدلاتهم الأنيقة، بعدما تعامل معهم الفرنسيون والسكان المحلّـــيون بـــازدراء وعدائيّة، واختاروا بدلاً من ذلك ارتداء الملابس المدنية وعدم الظهور.

في شـــباط/فبراير 1941، استطاع ويفل إلحاق الهزيمة بالجيش الإيطالي وطرده من ليبـــيا. لكـــن الألمان سرعان ما قدّموا يد المساعدة إلى الإيطاليين بإرسال فرقة رومل الميكانيكـــية إلى ليبيا. وعندما أمرت لندن ويفل بوقف الهجوم البريطاني، وإرسال حملة عـــسكرية إلى الـــيونان بدلاً من ذلك، اغتنم رومل الفرصة. فحوّل عملية استطلاع مدرّعـــة إلى هجوم جريء، أسفر عن طرد البريطانيين من ليبيا. وبقيت طبرق وحدها صامدة بحلول منتصف نيسان/أبريل[3].

ســـرعان ما تجاوز النفوذ الألماني نفوذ الإيطاليين عندما أُلحقت بعثة اتصال ألمانية باللجنة الإيطالية في بيروت. وكان أوّل منظّميها رولاند أيلاندر Roland Eilander، وهـــو ألمـــاني معـــروف من مواليد بيروت وذو روابط مع عدد من العائلات اللبنانية الـــبارزة. وفي أيلول/سبتمبر 1940، وصل ضابط الاستخبارات الألمانيّة رودُلف روزر Rudolph Roser. وقـــد زعم الفرنسيون، على نحو غير محتمل، أنه كان يسيطر على شـــبكة مكوّنة من 1500 عميل من غرفته في فندق متروبول. بعد ذلك بقليل، انتقل الـــرائد فون برات Von Prat وثلاثة ضباط ألمان آخرين إلى أبو كمال، وهي بلدة في

(1) Political Report: Syria. Damascus, 28 January 1939 (FO 371/23276).
(2) Beirut Weekly Appreciation, 10 September 1940 (FO 371/24595).
(3) Gaunson, *The Anglo-French Clash*, p. 12.

سـوريا على الحدود مع العراق لدراسة الوضع على الحدود العراقية. فبدأ البريطانيون والفرنسيون يشكّون في أن قوى المحور تعدّ لفتح جبهة جديدة ضدّ الحلفاء.

تأكّـد هذا الشك عندما قام فيرنر أوتو فون هنتغ Werner Otto Von Hentig، رئـيس القسم السابع في وزارة الخارجية الألمانيّة، والمسؤول عن منطقة واسعة تمتدّ من تـركيا إلى الهـند، بزيارة إلى المشرق دامت شهراً[1]. وكان يعتبر أفضل خبير شؤون الـشرق في الاستخبارات الألمانيّة، إذ إنه خدم في بكين وطهران واستانبول. وكانت وزارة الخارجـية الألمانـيّة قد أرسلته في الحرب العالميّة الأولى لإثارة القبائل في آسيا الوسطى ضدّ البريطانيين.

وصـل فـون هنتغ إلى بيروت قادماً من تركيا في 15 كانون الثاني/يناير 1941، مزوّداً بتأشيرة من حكومة فيشي للقيام بمهمّة "سياسية وثقافية". كان البريطانيون على قناعة بأن أهدافه الحقيقية الاتصال بالوطنيين، والاطلاع على الوضع السياسي العام، بما في ذلـك العلاقـات الإنكليزية الفرنسية المحلية، وبدء حملة دعائية ضدّ البريطانيين. لا شـك في أن ذلك هو الدافع الذي جعل فون هنتغ يتصل برياض الصلح، ويعقد عدة جلـسات مباحـثة طـويلة معه. كما أنه اجتمع بعمر بَيهم وعمر الداعوق وعادل أرسلان. وبشّرهم جميعاً بقدوم العصر الألماني. ووعدهم بمنح الاستقلال لجميع البلدان العـربية إذا ربحت ألمانيا الحرب. لكن إذا ربحت بريطانيا الحرب، فإنها ستعطي سوريا الجنوبيّة للصهاينة، وسوريا الشماليّة للأتراك. وبهذه الرسالة، بدأ يعبّئ الرأي العامّ ضدّ بـريطانيا. وفي 25 كانـون الـثاني/يناير 1941، نظّم في فندق متروبول عرضاً لفيلم "الانتـصار في الغرب" *Sieg im Westen*، الذي يتناول بشكل تفصيلي هزيمة فرنسا، لحشد الرأي العام ضد فرنسا.

لا شـك في أن زيارتـه أثارت حماسة كبيرة وزادت التعاطف مع ألمانيا. وربما كانـت تلك ذروة التأثير الألماني في الوطنيين العرب. فقد أصبح فندق المتروبول، وفقاً لقـول القنـصل الـبريطاني التنبيهي، "مركزاً ألمانياً سيئ السمعة"، مثلما يعتبر فندق الـنورماندي مقرّ اللجنة الإيطالية. ووجد البريطانيّون أنفسهم مهمَّشين فجأة. فأمرت

---

(1) Werner Otto Von Hentig, *Mein Leben. Ein Dienstreise*, Göettingen, 1962; de Wailly, *Syrie 1941*, p. 469, n. 9.

حكومة فيشي القنصليّة العامّة البريطانية أن تغادر بيروت إلى بلدة عاليه الجبلية البعيدة، حيث وُضعت تحت رقابة مشدَّدة، وحُرمت من تسهيلات الحقيبة الدبلوماسية[1].

أمضى فون هنتِغ الفترة ما بين 26 و30 كانون الثاني/يناير في دمشق، حيث التقى شكري القوّتلي ونبيه العظمة وأديب خير وغيرهم من الوطنيّين. والتقى أيضاً عدداً من السوريين الموالين لألمانيا، من أبرزهم سعدي الكيلاني، وهو وجيه من أصل أفغاني متزوّج من امرأة ألمانية كان قد أُرسل، على غرار فون هنتِغ، في فترة بين الحربين، لإثارة الاضطراب في أوساط القبائل في وزيرستان في شمال غرب الهند، إلى أن رشاه البريطانيون ليترك المنطقة[2].

انطلق فون هنتِغ بعد ذلك، يرافقه رودُلف روزر، في عدد من الرحلات في أنحاء سوريا حيث تعمّد الاجتماع بشيوخ القبائل، ورجال الدين والوجهاء الآخرين. كان يذكر باستمرار خلال حديثه عن مستقبل سوريا، أن ألمانيا ستوحّد مختلف الدول العربية (باستثناء المملكة العربية السعودية) في كونفيدرالية تحت النفوذ الألماني. كما وعد بإعادة لواء الإسكندرونه إلى سوريا وطرد الصهاينة من فلسطين. ووصف نفسه في سجل فندق في تدمر بأنّه غوليتر (Gauleiter، لقب في الحزب النازي للقائد السياسي لمنطقة ما) الشرق الأدنى. وقد كُلّف خيّاط سوري بصنع عدد كبير من الأعلام النازيّة للاستعمال الوشيك[3].

على الرغم من المستقبل "الوردي" الذي رسمه فون هنتِغ للعرب، لا يوجد هناك أي دليل على خروج رياض الصلح أو شكري القوّتلي عن الحياد الحذر في محادثاتهما معه. وقد انزعج القوّتلي كثيراً من أن الألماني كان يرافقه سعدي الكيلاني دائماً، وهو الشخصية المتآمرة الذي فعل كلّ ما في وسعه لتشويه سمعة الكتلة الوطنيّة. وبتأثير من الكيلاني، نُقل عن فون هنتِغ قوله إن القائد العربي الوحيد الذي يثق به الألمان هو الحاج أمين الحسيني. وقد تودّد فون هنتِغ إلى رياض الصلح من دون أن يؤثّر فيه. بل إن رياض رأى في أثناء زيارة هنتِغ أن الحكمة تقتضي مفاتحة البريطانيّين الذين يشعرون الآن بالضغط الألماني.

(1) Consulate-General Aley, Beirut Appreciation 1-12 January 1941 (FO 371/27327).

(2) Roshwald, *Estranged Bedfellows*, p. 51.

(3) Consulate-General Aley, Beirut Appreciation 1-14 March 1941 (FO 371/27327).

أبلــغ القنــصل العــام البريطاني لندن في شباط/فبراير من تلك السنة، أن بعض الوطنيين العرب اللبنانيين البارزين، مثل رياض الصلح وعادل أرسلان، يظنّون أن على حكومة جلالة الملك أن تصدر تصريحاً في ما يتعلّق باستقلال بعض الدول العربية مثل ســوريا ولبــنان بعد الحرب. فالصمت الملاحَظ من قبل حكومة جلالة الملك في هذا الشأن يقودهم للاعتقاد أنها لا تكترث لطموحات العرب. وقد استنكر رياض الصلح اللامــبالاة التي تبديها حكومة جلالة الملك تجاه مستقبل العرب، لأنها فقط لجعل تملّق الألمان للعرب أكثر قبولاً[1].

غــادر فــون هنتغ إلى أنقرة في 13 شباط/فبراير؛ لإبلاغ السفير فون بابن بنتائج زيارته[2].

مؤامرات بيروت

فيما الألمان يديرون الأمور في المشرق، كان الجنرال شارل ديغول يفكر في كيفية انتزاع المبادرة في الأراضي الخاضعة للانتداب التي يريد أن يحتفظ بها لفرنسا بأيّ ثمن. ولأنــه يشكّ دائماً في النيات البريطانية، قرّر إرسال ممثّله في الشرق الأوسط، الجنرال جورج كاترو، بغية الدفاع عن مصالح فرنسا على الأرض. حطّ كاترو في القاهرة في 27 أيلول/سبتمبر 1940 متنكّراً بأنه السيّد شارتييه Mr. Chartier، رجل أعمال كندي يــتكلّم الفرنــسية، لتجنّب جذب انتباه ممثّل حكومة فيشي المُعتمَد في مصر. كانت خطّته الطموحة تنطوي على حشد تأييد جيش المشرق، وإسقاط إدارة حكومة فيشي في سوريا ولبنان، وإخضاع الأراضي المنتدَب عليها لديغول عن طريق انقلاب مسلّح. واعتقد أن في وسعه استمالة العرب بوعدهم بالاستقلال، لذا فإن كل ما يحتاج إليه هو قليل من الدعم البريطاني.

غــير أن السياسة البريطانيّة ظلّت تتسم بالتناقض. كانت لندن ترحّب بانقلاب تــنفّذه فرنسا الحرّة يُعيد القوّات الفرنسية إلى الحلفاء، لكنّها تخشى مع ذلك من انهيار الأمن الداخلي إذا أُضعفت حكومة فيشي في المشرق. فلا يوجد قوات بريطانية متاحة

(1) Consulate-General Aley, 14 February 1941 (FO 371/27327).

(2) Beirut Appreciation January 28-February 3 1941 (FO 371/27327).

للتعامل مع مثل هذه النتيجة. وكانت بريطانيا تدرك أيضاً وجوب تلبية طموحات العرب بالاستقلال، ولو اسمياً، إذا أرادت إبعادهم عن الألمان. وهكذا لم تُرضِ هذه الأهداف البريطانية المتضاربة أحداً. شعر الديغوليون بالغدر، وارتابت حكومة فيشي ورأت في رعاية بريطانيا الطموحات العربية مؤامرة لإخراج فرنسا من المشرق. وشعر رياض والوطنيون بدورهم بالجزع من تردّد بريطانيا في تحدّي الوضع الراهن.

غير أن تغيّر رياح الحرب أحدث بعد ذلك تحوُّلاً واسعاً في الرأي العام. فنجاح سلاح الجوّ الملكي في معركة بريطانيا، وتأجيل عملية أسد البحر (خطة غزو الجزر البريطانية بحراً وجواً التي كانت ألمانيا تعتزم تنفيذها)، والثورة على حكومة فيشي في بعض المستعمرات الفرنسية في وسط أفريقيا، بالإضافة إلى الرسائل العديدة الواردة من فرنسا التي تصف الوضع الشنيع تحت الاحتلال الألماني، كل ذلك أسهم في حدوث تغيير مدهش في مشاعر الضباط والمسؤولين الفرنسيين تجاه بريطانيا. وأثارت إرادة بريطانيا وقدرتها على المقاومة الإعجاب والاهتمام، وأدّت إلى ارتفاع تأييد ديغول. وانحازت الآراء عند اللبنانيين والسوريين أيضاً إلى جانب البريطانيين، باستثناء بعض الموارنة الذين مالوا باتّجاه الإيطاليين، وبعض المسلمين الذين علّقوا آمالاً كبيرة على ألمانيا بسبب غضبهم من الدعم البريطاني للصهاينة في فلسطين.

انتشرت الإشاعات في بيروت عن انقلاب وشيك. ولتحسين فرص هذا الانقلاب، سارع البريطانيون إلى إعادة أكبر عدد ممكن من جنود الاحتياط الفرنسيين إلى بلادهم[1]. خشيت حكومة فيشي من انتشار الانشقاق، فأرسلت العقيد بورجيه Bourget إلى المشرق، ومنحته الصلاحيّات الكاملة للقضاء على التأثيرات الديغوليّة في البلد. أثار بورجيه - وكان رئيس الأركان لدى الجنرال ويغان - بعيد وصوله الذعر على الفور في الجالية الفرنسية بعد إصدار قرار بإحالة جميع الضباط الفرنسيين المعروف بأن لديهم عشيقات إلى المحكمة التأديبيّة، سواء أكانوا متزوّجين أم غير متزوجين. وقعت السيّدة كوانتيه Cointet، زوجة مساعد مدير التعليم الفرنسي، ضحية استجواباته السياسية، وأُلقي بها في السجن مع البغايا والمجرمات العاديات، لأنه اشتبه

(1) Beirut Weekly Appreciation, Aley, 10 September 1940 (FO 371/24595); and Beirut Weekly Appreciation, Aley, 17 September 1940 (FO 371/24595).

في أنها ساعدت طيّاراً فرنسياً مسرَّحاً، النقيب بونافيه Bonafé، في الهرب عبر الحدود إلى فلسطين. ويُعتقد أنّها أخذت النقيب إلى الحدود بسيّارتها الخاصّة متظاهرة بأنها في رحلة صيد وهميّة. دفعت أساليب العقيد بورجيه التي تشبه أساليب المخابرات الألمانية، الغستابو، حركة فرنسا الحرّة إلى العمل السري. وفي محاولة لحماية المتعاطفين مع ديغول، حذّر البريطانيون المفوّضية العليا الفرنسية من عدم منح المرور الآمن لأي سفينة فرنسية إذا أرسل أي شخص غير الجنود المسرحين إلى فرنسا[1].

غير أن تغيّر رياح الحرب تدخّل ثانية. فقد أربك تقدّم الإيطاليين في الصحراء الغربيّة الجالية الفرنسية المحلّية، وأدّى إلى فقدان الثقة في بريطانيا، وارتفاع التعاطف مع حكومة فيشي. وبدأت صور المارشال بيتان تعاود الظهور في بيروت ودمشق في المكاتب ونوافذ الدكاكين. في ظلّ هذه الأوضاع الغامضة، عقد رياض الصلح اجتماعات مشحونة بالقلق مع مؤيّديه وقبضايات الأحياء لإطلاعهم على المستجدّات وإعطائهم التعليمات بشأن التوجّه السياسي الذي يجب اتّباعه.

ابتهج الديغوليون عندما فصلت حكومة فيشي رئيس الأمن العام في بيروت كولومباني Colombani، وهو مسؤول فرنسي كورسيكي غادر ومتوحّش. وابتهج رياض الصلح والوطنيون أيضاً، بسبب تشدّده في مضايقتهم. وكان مبعوث مفرط الحماسة في اللجنة الديغوليّة في القاهرة قد عرض على كولومباني رشوة بقيمة مليون فرنك مقابل غضّ الطرف عن إعدادات الجنرال كاترو للانقلاب. لكن كولومباني على عادته خان الحركة على أمل الحصول على مكافأة أكبر.

كانت خلفية كولومباني كريهة ومنفّرة. فقد تورّط في فضيحة ستافسكي Stavisky في سنة 1934، وهي قضية نصّاب معروف يدعى ألكسندر ستافسكي، وُجد ميتاً بعدما باع سندات باطلة بملايين الفرنكات. حامت الشكوك حول جان شياب Jean Chiappe، مدير الشرطة اليميني المتشدِّد في باريس الذي قيل إنه أمر بقتله لحماية أصدقائه المتنفّذين في ذلك الوقت. أدّت الفضيحة إلى سقوط الحكومة، وكان من أوائل الإجراءات التي اتخذها رئيس الوزراء الجديد إدوارد دلادييه التخلص من شياب. لكن مسيرة شياب المهنية أحييت عندما عيّنته حكومة فيشي مفوّضاً سامياً في

(1) Beirut Weekly Appreciation, Aley, 1 October 1940 (FO 371/24595).

بـــيروت بدلاً من غابريال بيو المتذبذب. غير أن كولومباني لم يكن متلهّفاً البتة للعمل مـــع شـــياب ثانية[1]، وأُنقذ من هذه المحنة عندما أسقطت إحدى المقاتلات البريطانية طائرة الأخير وهو في الطريق إلى الشرق الأوسط[2].

فقد كولومباني السيطرة على نفسه بعد طرده، وخلال ثلاثة أيام تعرّض للضرب مـــن قِبل مسؤولين فرنسيين كان قد سعى إلى محاكمتهم بتهمة الخيانة. واعتدى أحد الطـــابعين في المفوّضـــية العليا على زوجته، التي وُصفت في تقرير قنصليّ بريطانيّ بأنها "منتَج هائل لعالم الإجرام والرذائل في استانبول". كان من المفترض أن تعود العائلة إلى فرنـــسا بحـــراً، لكـــن كولومـــباني رفض الإبحار ما لم يحصل على ضمانة خطية من الـــبريطانيّين بعدم إلقاء القبض عليه في الطريق. وافقت لندن على أساس أن كولومباني في فرنـــسا ســـيكون أقلّ إزعاجاً من وجوده طليقاً في سوريا. وكان البريطانيون قد خلـــصوا إلى أنـــه عمـــيل إيطـــالي معتمد. فشعر رياض الصلح بارتياح كبير لرحيل كولومباني، إذ بلغه أن الكورسيكي يعتزم اعتقاله[3].

راقـــب الـــبريطانيّون تطـــوّر الوضع بعصبية كبيرة. فرأس السير جون شكْبرغ Sir John Shuckburgh لجنة وضعت في 18 تشرين الأول/أكتوبر 1940 عدداً من الخيارات أمام وزارة الحرب:

(أ) إذا نجح الجنرال كاترو في الانقلاب، فستصبح مسألة السياسة بسيطة جـــداً، وربمـــا لن نحتاج إلى الاهتمام سوى بموقف الإدارة الفرنسية الجديـــدة مـــن طموحات العرب في سوريا. وقد لُفت انتباه الجنرال ديغول إلى أهمية اعتماد موقف تصالحي تجاه تطلّعات الوطنيين العرب.

(ب) لكن إذا رأى الجنرال كاترو وجوب التخلّي عن أي محاولة للانقلاب، أو إرجائهـــا إلى أجـــل غـــير محدّد، أو إذا فشلت محاولة الانقلاب، فسيـــصبح مـــن الضروري إعادة النظر في موقفنا بأكمله من الإدارة الفرنـــسية في ســـوريا. وسيتعيّن علينا النظر في اعتماد سياسة عدائية

(1) Beirut Weekly Appreciation, Aley, 28 November 1940 (FO 371/27327).

(2) Beirut Appreciation for period 28 November-10 December 1940, Aley 11 December 1940 (FO 371/27327).

(3) مقابلة مع علياء الصلح، مونت كارلو، 4 تشرين الأول/أكتوبر 2004.

وربمـــا تنطوي على احتلال سوريا، بالتعاون مع الأتراك أو من دونه،
أو المحافظة على سياستنا الراهنة بتشديد الضغط الاقتصادي أو إرخائه.
وتنطوي المسألة بوضوح على اعتبارات عسكرية شديدة الأهمية[1].

قـــرّرت اللجنة أن من غير الحكمة إثارة سخط العرب على الفرنسيين، ما لم يكـــن مـــن الممكن دعم ذلك الإجراء بالقوّة العسكريّة. في غضون ذلك، يستمرّ الـــضغط الاقتـــصادي على سوريا، مع توخّي الحذر لعدم دفع السلطات الفرنسية إلى اتخـــاذ إجراءات عدائية. وتُقيَّد التجارة عبر الحدود الفلسطينيّة من دون منعها تماماً.

في كانون الأول/ديسمبر 1940، عيّن الجنرال هنري فرنان دنتز Henri-Fernand Dentz، القائـــد العامّ للقوات الفرنسية في المشرق، مفوّضاً سامياً أيضاً. وكان يشغل منـــصب رئـــيس الاستخبارات في سوريا ولبنان في سنة 1924، وأسهم سوء قراءته لمـــشاعر الـــدروز واتّـــباعه النصائح الرديئة للجنرال ساراي في تفجير الثورة السورية الكـــبرى 1925-1926. وفي ســـنة 1940، اختير دنتز لتسليم باريس للألمان في فندق كريون. حاول كاترو استمالته إلى جانب الحلفاء، لكن دنتز ثبت على ولائه لبيتان و لم يغيّـــر مـــوقفه. اعتبره البريطانيّون جنديّاً نـــزيهاً، وإن غُمّ عليه، يُطيع أوامر حكومة فيشي بشكلٍ أعمى. قال دنتز لضبّاطه عند وصوله إلى بيروت: "اعلموا أن ما تدافعون عنه هنا ليس سوريا، بل شمال أفريقيا". كان مقتنعاً أن فشل حكومة فيشي في الدفاع عن المشرق ضدّ البريطانيّين، سيدفع الألمان لغزو شمال إفريقيا الخاضع لفرنسا و"المنطقة الحُرّة" في فرنسا نفسها[2].

ثمّ حـــدث تحوّل آخر في الرأي العام المتقلّب نتيجة نجاحات الجيش البريطاني في مصر. فأبدت جميع طبقات الشعب في سوريا ولبنان تأييدها للحلفاء مرة أخرى. وفي بـــيروت، أضـــفى بائعـــو الجرائد الشباب في بيروت جواً من التسلية بنشر خبر أسر 20,000 جندي إيطالي بصيحاتهم: "انكسار المعكرونة"[3].

---

(1) Official Committee on Questions Concerning the Middle East, 18 October 1940 (FO 371/24594).

(2) de Wailly, *Syrie 1941*, p. 73.

(3) Beirut Appreciation, 11 December-20 December 1940 (FO 371/27327).

مقتل الدكتور الشهبندر

أُصيب رياض الصلح ورفاقه الوطنيون بارتباك شديد إثر جريمة سياسيّة في دمشق أعادت خلط الأوراق في المعسكر الوطني. فقد اغتيل الدكتور عبد الرحمن الشهبندر في 6 تموز/يوليو 1940 في ظروف غامضة. وهو من الشخصيات البارزة في الثورة السورية الكبرى في سنتي 1925-1926، إذ انضمّ حزب الشعب المؤسَّس حديثاً بقيادته إلى زعماء الدروز في ثورتهم على الفرنسيّين الذين لم يسامحوه أبداً.

كما أنه أثار أيضاً غضب جميل مردم، وسعد الله الجابري، والكتلة الوطنية ككل، بسبب حملاته المستمرّة على معاهدة 1936 التي تفاوضت الكتلة على بنودها مع فرنسا، وواصل شجبها بمرارة ونعتها أنها ناقصة، بل خائنة. وعندما عاد الدكتور لفترة وجيزة إلى سوريا في أيار/مايو - حزيران/يونيو 1937 بعدما أصدر الفرنسيّون عفواً عنه، حاول الوطنيون استمالته بعرض منصب رئاسة مجلس النواب عليه، ومنحه لقب "القائد الأوحد" في احتفال في بلدية دمشق. لكن كانت للشهبندر طموحات أوسع، إذ اعتقد أن في وسعه جمع سوريا بأكملها حوله. وعندما عاد إلى القاهرة، استأنف تهجّمه على الوطنيين. فردّوا عليه بالمثل، واتهموه بمحاولة سلبهم ثمار كفاحهم الطويل، للاستقلال عن الفرنسيّين.

كان الشهبندر طبيباً غير مؤمن، ذا تعليم غربي ومعتداً بنفسه وشخصية سياسية مفوَّهة، فوجد العديد من الأتباع المخلصين له. وُلد في دمشق في سنة 1879، وتخرّج طبيباً في الجامعة الأميركية في بيروت، وأمضى فترة الحرب العالميّة الأولى في مصر. وباعتباره عدواً متحمّساً للانتداب الفرنسي، أصدرت بحقّه المحاكم العسكريّة الفرنسيّة أحكاماً متكرّرة، بالإعدام أولاً، ثم بالأشغال الشاقّة. واحتُجز، مدّة من الزمن في قلعة جزيرة أرواد مقابل الشاطئ السوري، وأعفي عنه لاحقاً. فسمح له ذلك باستعادة نشاطاته السياسيّة. وعندما حكم عليه بالإعدام ثانية، فرّ إلى القاهرة، وأصبح عضواً في لجنة الأمير ميشال لطف الله السوريّة الفلسطينيّة هناك، وأدار بين سنتَي 1926 و1937 عيادة طبيّة ناجحة، حقّقت له ثروة كبيرة.

صفّى الدكتور الشهبندر أعماله في القاهرة في تموز/يوليو 1938، وعاد بصورة دائمة إلى سوريا. لكن القادة الوطنيين أعاقوه في بلدة بلودان الجبلية. ويبدو أن بعضهم

أنفــق مبالغ كبيرة لإقناع سكّان حارة الميدان بعدم الترحاب به في ديارهم. واحتُجز بعــض أنصاره وأُغلقت الصحف المؤيّدة له. فردّ من بلودان بهجوم عنيف على جميل مــردم، خصمه السياسي الرئيسي[1]. ولم يستطع الشهبندر التغلّب على العراقيل التي وضعتها الكتلة الوطنية في وجهه ودخول دمشق إلا في تشرين الأوّل/أكتوبر.

لكــن بعــيداً عــن الهجوم الذي واجهته الكتلة الوطنية من الشهبندر، تبيّن أنها أصــبحت ممزّقة بسبب النــزاعات الداخليّة. فقد واجه جميل مردم تحدياً من شكري القوّتلــي، الذي حاول حزب الاستقلال بقيادته إصلاح الكتلة من الداخل. وتوتّرت العلاقات بين الأعضاء في دمشق وحلب. فخسر العضوان البارزان في الكتلة في حلب، الدكــتور عبد الرحمن الكيّالي وسعد الله الجابري (صديق رياض وعمّ زوجته)، التقدير العام لأنّهما فشلا في منع فرنسا من التخلّي عن لواء الإسكندرونه لتركيا. فقد خشي الشعب من تخلّي فرنسا عن المزيد من الأراضي السورية، إذا مارست تركيا وضبّاطها الموالين للألمان مزيداً من الضغوط، وعدم تمكّن زعمائهم غير الفعالين من منع حدوث ذلك مرة أخرى.

ســقطت حكومة الكتلة في آذار/مارس 1939. واضعة بذلك نهاية للمعاهدات. فحلّ المفــوّض الــسامي بــيو البرلمان عندئذ، وضيّق الخناق على الوطنيين وعيّن مجلس مديرين برئاســة بهــيج الخطــيب، وهو مسؤول سوري من أصل لبناني ومعارض للكتلة. كان الفرنــسيّون يــشتبهون في أن للشهبندر روابط وثيقة مع البريطانيّين، لدرجة أنّهم اعتبروه رجــل بــريطانيا في سوريا. وكان صديقاً للهاشميّين أيضاً، وبذل ما في وسعه ليؤمّن دعماً بــريطانياً لإنــشاء كونفدرالية تضم سوريا ولبنان، وشرق الأردن، وفلسطين تحت حُكم الأمــير عبد الله. وفي حزيران/يونيو 1939، ترأس الدكتور الشهبندر وفداً كبيراً إلى عمّان، وأعلــن مــن جانب واحد أن "السوريين يبايعون الأمير مثلما بايعوا الملك حُسين ثمّ الملك فيصل من قبل"[2]، فتخطّى بذلك خطّاً أحمر بالنسبة إلى الفرنسيّين.

تجــاوز الدكــتور الشهبندر منافسيه الوطنيين عندما استسلمت فرنسا لألمانيا في حزيــران/يونــيو 1940 بــسبب تلك المناورات، وأصبح لدى البريطانيين الشخصيّة

(1) MAE, Fonds Mandat Liban/Syrie, Série Beyrouth, 3e version, no. 23/271. Service des renseignements, Bureau de Damas, 24 Nov. 1938.

(2) MAE, Fonds Mandat Liban/Syrie, Série Beyrouth, 3e version, no. 23/271.

الـــسياسيّة الأبرز في سوريا. لذا أثار اغتياله مشاعر حادّة وشكوكاً محمومة بشأن من يقف وراء ذلك العمل. اتّهم المناصرون للشهبندر في دمشق جميل مردم نفسه. واعتقد آخرون أن بعض الشخصيات العراقية، أو حتى الحاج أمين الحسيني، قد يكون متورّطاً في ذلـــك. وأفـــاد القائم بالأعمال البريطاني في عمّان في رسالة إلى وزارة الخارجيّة أن الحكـــومة العراقيّة قدّمت الأموال لتنفيذ عمليّة الاغتيال وأرسلتها إلى دمشق عبر عادل العظمـــة، رئيس لجنة الدفاع عن فلسطين في سوريا[1]. اتّهمت الشرطة السوريّة خمسة أشخاص في نهاية شهر تموز/يوليو، منهم عاصم النائلي، سكرتير جميل مردم. وعرضت عائلـــة الشهبندر في القاهرة مكافأة مقابل تقديم أي معلومات. وقاد المُحارب الدرزي المسنّ سلطان باشا الأطرش وفداً إلى دمشق تقديراً للشهبندر وتعبيراً عن الولاء للروابط التي نشأت بينهما إبان ثورة 1925.

وصلت أرملة الشهبندر أيضاً إلى دمشق من مصر للمشاركة في الحفل التأبيني في 17 آب/أغسطس. وعمد خالد العظم، وهو سياسيّ سوريّ ثري معارض للكتلة وذو طمـــوحات سياســـيّة، إلى نشر إشاعات بأنّ الوطنيّين قتلوا الشهبندر[2]. لكنّ عزّت قـــبلان، قريب الشهبندر ومساعده السابق، أخبر القنصل البريطاني في دمشق، في 17 تشرين الأول/أكتوبر، أنّ مؤامرة اغتيال الشهبندر تمّت في القنصليّة العراقيّة في دمشق، في أثناء زيارة رئيس الوزراء العراقي نوري السعيد[3].

مَـــن المسؤول عن مقتل الشهبندر؟ رأى فيليب خوري، المؤرِّخ البارز للانتداب الفرنسي، أن القتَلة ربما يكونون عملاء في المخابرات الفرنسية مؤيِّدين لحكومة فيشي أرادوا تـــصفية وطـــني متطرّف وعميل بريطاني مشبوه؛ أو عملاء إيطاليين للأسباب

(1) British Resident in Amman to Foreign Office, 17 August 1940 (FO 371/24594).

(2) خالـــد العظم، **مذكرات**، بيروت، 1973، الجزء الأول، ص 158. British Consul Gardner to Foreign Office, Damascus, 14 August 1940 (FO 371/24593).

(3) مـــن أبرز أعضاء حزب الشهبندر: نصوح بابيل، نائب الرئيس ورئيس تحرير جريدة **الأيام** ودرويش العجلاني (ثري دمشقي)، وفوزي ونسيب البكري (اللذين استقالا من الكتلة بعد اغتيال الشهبندر)، ومـــنير المحايري (ابن أخت الشهبندر)، عزت قبلان (مساعده السابق وقريبه)، والدكتور عبد القادر زهرة (طبيب دمشقي معروف)، ورشيد بقدونس، وشفيق دياب والعديد من أفراد عائلة الأطرش بمن فيهم سلطان وزيد وعبد الغفار.

Political Report, Syria, Damascus, 21 Oct. 1940 (FO 371/24591); (FO 371/24591, 1940).

نفسها؛ أو المفتي الذي أراد أن التصدّي لمسعى الأمير عبد الله للوصول إلى العرش السوري؛ أو عملاء عراقيّين أرادوا أيضاً إفشال عبد الله؛ أو قادة الكتلة المنهمكين في صراع على السلطة مع الشهبندر[1].

نشرت صحف دمشق في 17 تشرين الأول/أكتوبر 1940، لائحةً بأسماء المشتبه فيهم وشركائهم. وضمّت اللائحة أحمد عصاصة، الذي اتُّهم بالقتل عن سابق تصوّر وتصميم، والشيخ صالح معتوق وأحمد الطرابيشي وعزّت الشمّاع وعاصم النائلي وفوزي القبّاني - وقادة الكتلة الثلاثة أيضاً، جميل مردم ولطفي الحفّار وسعد الله الجابري! اضطر الثلاثة الأخيرون إلى الهرب إلى العراق في 18 تشرين الأول/أكتوبر، نتيجة لهذه الوصمة، ويبدو أنهم تلقّوا معلومات عن قرب توجيه الاتهام إليهم في المحاكم التي تسَيْطر عليها فرنسا.

كانت بغداد مركزاً للتحرّكات القومية العربية، لكنّها كانت ملجأً أيضاً للذين فقدوا الشعور بالأمان في سوريا ولبنان الخاضعين للاحتلال الفرنسي في سنوات 1939 و1940. فقد فرّ مفتي القدس فجأة من لبنان إلى العراق في تشرين الأول/أكتوبر 1939 عندما علم أن البريطانيّين يمارسون ضغطاً على الفرنسيّين لاعتقاله. وكان المقاتل المخضرم من أجل الحرية فوزي القاوقجي أيضاً في بغداد مع بعض الفلسطينيّين المقرّبين من المفتي. كما فرّ كاظم الصلح، ابن عم رياض، إلى بغداد من لبنان مثلما فعل فريد زين الدين من سوريا. وانضمّ إليهم قادة الكتلة الثلاثة[2]. كان مناصرو الشهبندر واثقين من أنّ المسؤولين الفرنسيّين متورّطون في عملية الاغتيال، لكنهم اعتقدوا أيضاً أنهم سمحوا لجميل مردم والآخرين بالفرار لأن التخلّص من القادة الوطنيين البارزين ملائم لهم.

على الرغم من أنّ الشهبندر اغتيل في تموز/يوليو 1940، فإن محاكمة المشتبَه بهم لم تبدأ إلا في 9 كانون الأول/ديسمبر. وانتهت في 7 كانون الثاني/يناير 1941، بعد إرجائها عدّة مرات (بغية التشاور مع سلطة الانتداب الفرنسيّ). جرت المحاكمة التي

(1) Khoury, *Syria and the French Mandate*, p. 588 ff. انظر Beirut Weekly Appreciation, Aley, 22 Oct. 1940 (FO 371/24595) and Beirut Weekly Appreciation for the period 28 November - 10 December 1940, Aley, 11 December 1940 (FO 371/27327)..

(2) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, p. 111.

ترأسها فرنسي في جوٍّ من التوتّر الشديد. ولم يُسمح بالاستئناف ضدّ حكمها. وأبدى المدّعي العامّ انحيازاً صريحاً لمصلحة عاصم النائلي، سكرتير جميل مردم، بالرغم من انتشار أخبار تفيد أنه الوسيط بين القادة الوطنيين والقتلة الفعليين. وفي اللحظة الأخيرة، أُسقطت التهم عن عاصم النائلي والقادة الوطنيين الثلاثة. وأفاد مسؤول قنصليّ بريطاني أنّ لائحة اتّهام المدعي العامّ، التي سحبت منها التّهم الموجّهة ضدّ الوطنيين، كانت قد أعدّت قبل الاستماع إلى التُّهم بالكامل.

رفضت المحكمة السماح بطرح أي سؤال يتعلّق بالأوجه السياسيّة والدينيّة للقضيّة، وبخاصة الادّعاء أن الشهبندر كان جاسوساً بريطانياً. وعندما حاول محامي الدّفاع أن يعلّل سبب مقتل الشهبندر بكونه "عدواً للإسلام"، أبرز مناصرو الشهبندر بياناً كتبه أبرز علماء دمشق يدحض هذه التهمة بشدّة. خلصت المحكمة إلى أن الدافع الوحيد المحتمل للجريمة هو "الحماسة الدينية الخاطئة"[1]. وصدر حكم بالإعدام على أحمد عصاصة وثلاثة آخرين ونفّذ الحكم في 4 شباط/فبراير. وعلّق العقيد غاردنر A.J. Gardiner، القنصل العامّ البريطاني، على ذلك: "أميل إلى الاتفاق مع وجهة نظر نزيه بك المؤيد، صهر الضحيّة، الذي يعتبر أن الجريمة خطّط لها الحاج أمين الحسيني وأتباعه في بغداد، وربما بموافقة إيطاليا. ولا شك في أن البلد الأخير أبدى اهتماماً كبيراً بالقضية"[2]. وقد اعتُقد على نطاق واسع أن إيطاليا هي التي أمّنت المال لدفع أتعاب محامي الدفاع.

لم يُكشف عن الجريمة بالكامل. وعلى أي حال، لم يرضَ مناصرو الشهبندر وعائلته البتة عن نتيجة المحاكمة. وعندما وضع شكري القوّتلي إكليلاً على قبر الشهبندر، كإيماءة عزاء ومصالحة، أمر ابن الشهبندر بإزالته على الفور، معلناً أن المحاكمة لم تكشف عن قتلة والده الحقيقيين.

ماذا كانت النتائج المحليّة لمقتل الشهبندر؟ انتهى الأمر بجميل مردم وزملائه في بغداد، بعيدين كلّ البعد عن المسرح السياسي السوري في دمشق. وهكذا تمكّن

---

(1) Note by Vice-Consul R A Beaumont, Damascus, 11 January 1941 (FO 371/27330).

(2) Consulate-General Aley: Beirut Weekly Appreciation January 1-12, 1941 (FO 371/27327).

شكري القوّتلي من تولّي قيادة حركة الاستقلال الوطنيّة[1]. فدعا إلى تشكيل حكومة وطنـيّة في بـيان رسمي أصدره في آذار/مارس 1941. وعلى غرار القوّتلي في دمشق، أصـبح ريـاض الصلح في بيروت أبرز قياديّ وطني يسعى الألمان للتودّد إليه، واضطرّ الفرنسيّون والبريطانيّون إلى التعامل معه في نهاية المطاف.

الوطنيون يقدّمون عرضَهم

اعتـبر ريـاض الـصلح، كمعظم زملائه في الحركة الوطنيّة، أنّ الفرنسيين انتهوا. وخطّـط لإجـبارهم على تقديم تنازلات بالتحريض على ثورة شعبيّة، معتقداً أن القوات الفرنسية الضعيفة لن تتمكّن من إخمادها. بدت الظروف مواتية، نظراً إلى تململ الشعب في سـوريا ولبنان من الأوضاع الاقتصاديّة والاجتماعيّة الكئيبة. فقد ارتفعت تكلفة المعيشة، وتزايد ثمن الخبز أربعة أضعاف. ولم يعد بالإمكان الحصول على السكّر والأرزّ والبارافين، وشحّ البنـزين كثيراً. وتوقّفت عجلة التجارة تماماً بسبب الحصار البريطاني، ولم يعد كثير مـن العمّال قادرين على إطعام عائلاتهم. وبلغ عدد العاطلين عن العمل في دمشق خمسين ألفـاً على ما زُعم. ولم يعد في وسع العمّال السوريين الوصول إلى فلسطين للعمل المؤقت مثلما اعتادوا أن يفعلوا عندما تتأزّم الأوضاع الاقتصادية. في 10 كانون الثاني/يناير 1941، أبلغ دنتز باريس: "عليّ أن أربح معركة الطحين، لكن الجميع يقفون ضدّي... الشعب... والتجّار... والبريطانيّون... والألمان بطبيعة الحال"[2].

غـير أن اهتمام دنتز الحقيقي تركّز على أمر آخر. فقد كان لديه شكوك عميقة في الـبريطانيّين، وعلـى قناعة أنهم يخطّطون لإخراج الفرنسيين من سوريا والاستيلاء علـيها. ولعله أضمر هذه الشكوك منذ كان مركزه في دمشق في أثناء ثورة 1925-1926. وأصـبح الآن يخشى أن يكون الاجتياح البريطاني وشيكاً. فشدّد الإجراءات بدلاً من تشكيل حكومة وطنيّة - كما حثّه بعض مستشاريه - ومنح سلطات واسعة للمكتب الثاني، أو شعبة الاستخبارات العسكرية الكريهة. وساد جوّ الغستابو[3].

(1) Khoury, *Syria and the French Mandate*, p. 590.

(2) de Wailly, *Syrie 1941*, p. 94.

(3) Beirut Appreciation for the period 28 November - 10 December 1940, Aley 11 December 1940 (FO 371/27327).

عـــندئذ قرّر رياض في بيروت وشركاؤه الوطنيون في دمشق الدعوة إلى إضراب عـــامّ في البلدين. كانت الاضطرابات السياسية قد تأجّجت بسبب الوضع الاقتصادي الــبائس. بدأت التظاهرات احتجاجاً على أزمة الغذاء في دمشق، وسرعان ما وصلت إلى حمـــص وحلب. وأُعلن الإضراب العام في سوريا في نهاية شهر شباط/فبراير وامتدّ إلى بيروت وطرابلس وصيدا في أوائل آذار/مارس. استدعى دنتز المركبات المدرّعة. قُتل عـــدّة متظاهرين في دمشق ومدن سورية أُخرى. وفي بيروت، تحولت مظاهرة للنساء والأطفـــال المـــسلمين الجـــياع في 1 نيسان/أبريل، إلى أعمال شغب. أطلقت الشرطة الفرنـــسية النار فقتلت شخصين وجرحت ستّة آخرين. فاحتجّ مجلس المديرين اللبناني الـــذي عيّنه الفرنسيون وقدّم استقالته. وسادت مخاوف من حدوث ثورة جديدة على غرار ثورة 1925. وعندما نُشرت القوات الاستعمارية السنغالية المخيفة في الشوارع، نـــدّد إمام المسجد الكبير في حلب بشدّة بالقمع الاستعماري الفرنسي. تبع ذلك مزيد من الصدامات أدّت إلى سقوط مزيد من القتلى في كلّ من حلب ودمشق.

فـــيما كان رياض الصلح يدير الاضطرابات في بيروت، برز شكري القوتلي كقائد للانتفاضـــة في دمـــشق. وأعلن أن الانتداب لم يعد شرعيّاً، ودعا إلى إعادة العمل بمعاهدة 1936[1]. وأبلـــغ القنصل العام الأميركي أن الوطنيين يعتزمون الضغط من أجل الاستقلال التام والفوري، بعدما فقدوا الثقة بأن الفرنسيين سيمنحونهم الاستقلال بعد الحرب.

في لـــندن، حفـــزت هـــذه الاضطرابات إعادة النظر في الحصار الاقتصادي المضروب على دول المشرق. وأوصى الجنرال أرشيبالد ويفل والسير مايلز لامبسُن Sir Miles Lampson، السفير البريطاني في القاهرة برفع الحصار وإحلال اتفاقات تخليص جمركي مع فلسطين ومصر محله. وافقت القنصلية العامة في بيروت على ذلك، مخافة أن يؤدّي استمرار الحصار إلى دفع الفرنسيين إلى أحضان الألمان، ومن ثم تحويل سوريا إلى قاعدة عسكريّة لقوى المحور[2].

في 25 آذار/مـــارس، أعلـــن الجنـــرال دولـــوم Delhomme، القائد العسكري الفرنـــسي، عـــن "حالة حصار": مُنعت الاجتماعات العامّة، وأُخضعت الاجتماعات

(1) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, pp. 117 ff.

(2) Beirut Appreciation, 15-21 March 1941 (FO 371/27327).

الخاصّة لموافقة عسكريّة مسبقة؛ ومُنع تجمّع أكثر من خمسة أشخاص في الشارع، وأُجبرت المقاهي على الإقفال عند الثامنة مساءً، وأوقفت البرقيات والاتصالات الخارجية بين المدن السورية، وسيطرت الشرطة على جميع مخارج دمشق ومداخلها. ومنع الجميع من السفر بالسيّارات من دون إذن. وفي ليلة 25 - 26 آذار/مارس، أُوقف نحو 80 وطنياً محرّضاً على الانتداب الفرنسي، معظمهم من رؤساء الأحياء، وهُدّدوا بالإبعاد من دون محاكمة. حاول سعد الله الجابري، الذي كان قد فرّ إلى العراق بعد مقتل الشهبندر، العودة إلى سوريا في 28 آذار/مارس، لكن السلطات الفرنسية أرجعته عند الحدود[1].

سعى دنتز المضطرب إلى التوصّل إلى اتفاق مع المضربين، لكنّه لم يجد أحداً على استعداد للتعاون معه. فأصدر بياناً قال فيه إن فرنسا تتعاطف مع التطلّعات السورية، وإنّها ستمنح الاستقلال "عندما يستقرّ الوضع الدولي". وأبدى استعداده إحلال حكومة محل مجلس المديرين، على أن يساعدها مجلس استشاري "مكوّن من الممثّلين الرئيسيين للحياة السياسية والاقتصاديّة والاجتماعيّة في البلاد، بالإضافة إلى الأجيال الأصغر سنّاً". ووعد بمنحها صلاحيات قانونية والإشراف على تأمين الإمدادات. كما أعلن عن برنامج اقتصادي وسياسي فوري للتخفيف من البطالة. وفي اليوم التالي، 2 نيسان/أبريل، عيّن خالد العظم، رئيس غرفة التجارة والصناعة في دمشق (وهو سياسي معارض للكتلة الوطنية وموالٍ للفرنسيين)، رئيساً للحكومة ووزيراً للداخلية.

هدّأت هذه الخطوة المشاعر في دمشق إلى حدٍّ ما، لكن أعمال الشغب اندلعت في أماكن أُخرى. ففي 18 نيسان/أبريل، قُتل ثلاثة متظاهرين وجُرح 85 في حماة، بينما لجأت الحشود التي أغضبها استمرار نقص الخبز في حلب، إلى النهب على نطاق واسع في 22 نيسان/أبريل. فقُتل مشاغبان وجُرح العديدون في أسوأ أعمال شغب تشهدها المدينة.

في غضون ذلك في لبنان، استقال إميل إدّه، وعُيّن مكانه القاضي الماروني ألفرد نقّاش رئيساً للدولة، مع أحمد الداعوق نائباً له[2]. وفي 18 نيسان/أبريل، انسحبت

(1) Beirut Appreciation, 22-31 March 1941 (FO 371/27327).

(2) Beirut Appreciation, 1-12 April 1941; Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, p. 119; Raymond, "La Syrie du Royaume Arabe à l'Indépendance", p. 77.

فرنسا من عصبة الأمم، الهيئة التي عهدت إليها بالانتداب في سنة 1919 - فأفقدت وجودها في المشرق من أي أساس قانوني.

اعتبر رياض الصلح وشكري القوّتلي هذه الإجراءات الفرنسية باعتبارها مجرّد تغييرات شكلية، ورفضا المشاركة في أيّ من الحكومتين الجديدتين. وأرسلا مذكّرة إلى المفوّض السامي يطالبان فيها بالعودة الفورية إلى الحياة الدستورية. لكنهما قرّرا أيضاً رفع الإضراب. وربما دفعهما لذلك عودة الشيخ تاج الدين الحسيني، رئيس الوزراء السابق المتعاون مع الفرنسيين، إلى سوريا من فرنسا الفيشيّة. هاجم الشيخ تاج الدين الوطنيين، فور وصوله، في اجتماع حضره 2000 شخص في حيّ الميدان، بتحريض فرنسي من دون شك. فخشي الوطنيون من أن يشكّل الفرنسيون حكومة برئاسة الشيخ تاج الدين - رجُلهم الذي يُعتمد عليه - أو الحكم مباشرة من خلال بهيج الخطيب، وهو مسؤول متعاون آخر. لذا فضّلوا دعم العظم، رغم خلافهم السياسي معه، و لم يفوّتوا فرصة إظهار أنهم هم الذين يمسكون بزمام الأمور السياسية[1].

تلك هي الحالة المضطربة التي سادت المشرق في أوائل نيسان/أبريل 1941. كان رياض الصلح والوطنيون الآخرون مشمئزّين من الفرنسيين، ويشعرون بخيبة الأمل في البريطانيين، لكنّهم تشجّعوا كثيراً بالأخبار الواردة من العراق عن حدوث انقلاب مناهض للبريطانيين في تحدٍّ طال انتظاره للقبضة الأنكلو - فرنسية على العالم العربي.

(1) Consulate-Generale, Aley: Beirut Appreciation, 13-24 April 1941 (FO 371/27327).

الفصل السادس عشر

رشيد عالي والحملة على سوريا ولبنان

في ربـــيع ســـنة 1941، توصّل رياض الصلح إلى قناعة أن فرنسا لن تتخلى عن ســـيطرتها على المشرق من دون قتال، وأن بريطانيا عازمة على دعم نظام فيشي بقيادة الجنـــرال هنـــري دنتـــز. فقد أدارت القوتان الإمبرياليتان ظهرهما للوطنيين و لم تعودا تفكّـــران الآن سوى بالقواعد العسكرية والحصول على النفط وتأمين المواصلات. و لم تكـــن في نظـــرهما تطلّعـــات السكان المحليّين نحو الاستقلال سوى أمر تافه في أفضل الأحـــوال، ووضـــعاً للعقدة في المنشار في تلك الأوقات العصيبة. ربما تكون بريطانيا وفرنـــسا خصمين استعماريين عادة، لكنّهما ترصّان صفوفهما في حالة الطوارئ. وقد عبّـــر أوليفر هارفي Oliver Harvey، وهو مسؤول كبير في وزارة الخارجية البريطانية، عـــن ذلـــك في مذكراته قائلاً، "إن مصالحنا تتماثل مع مصالح الفرنسيين على المدى الطـــويل"، وأضـــاف بعـــد ذلـــك، "إذا أضعفنا الفرنسيين في سوريا، فإننا نضعف موقعنا"[1].

لم يكـــن غريباً أن يتطلّع الكثير من العرب في تلك الظروف المخيّبة للآمال نحو ألمانـــيا للخـــلاص من المكائد البريطانية الفرنسية. وعندما استولى المارشال رومل على بـــنغازي في أوائل نيسان/أبريل، وأجبر قوات ويفل على التراجع إلى مصر، ومع تقدّم الجـــيوش الألمانية في يوغوسلافيا واليونان بدا النصر الألماني قريب المنال. في تلك الفترة بالذات، وقع انقلاب في بغداد بدا أنه أضعف السيطرة البريطانية على العراق. فالعراق في النهاية بلد عربـــي رئيسي ولاعب فاعل في الحركة القومية العربية. رأى الوطنيون في ســـوريا ولبنان هذا الانقلاب مقدمة لتحريرهم من فرنسا. وارتفع الأمل باحتمال

(1) *Oliver Harvey Diaries*, 4 December 1943. British Library Add. MSS 56400; *Oliver Harvey Diaries*, 29 October 1944. British Library Add. MSS 56400. Quoted by William Roger Louis, 'The British and the French Colonial Empire: Trusteeship and Self-Interest', in W. R. Louis, *Ends of British Imperialism*, London 2006, pp. 279 ff.

الإعلان عن اتحاد عراقي سوري عما قريب. فسرّت بذلك قلوب الوطنيين، وفي مقدمتهم رياض الصلح.

كان رشيد عالي الكيلاني، مدبّر انقلاب بغداد، وطنياً مخضرماً يقارب الخمسين من العمر في ذلك الوقت. ولم يوافق البتة على المعاهدة البريطانية العراقية التي وقّعتها حكومة نوري السعيد في سنة 1930. فقد رأى أنها تخضع العراق للسيطرة الاستعمارية البريطانية المباشرة تحت ستار في "تحالف" بين البلدين. كان نوري السعيد المساير يؤمن بالحكم الذاتي العراقي تحت مظلّة الحماية البريطانية، لكن رشيد عالي يريد الاستقلال التام المتحرّر من الوجود المذلّ للجيوش الأجنبية. ولد رشيد عالي في عائلة بارزة في بغداد سنة 1882، وهو أكبر من رياض باثني عشر عاماً، ودرس القانون مثله. تنتمي عائلته إلى الطريقة الصوفية الكيلانية التي تدير وقفاً كبيراً في بغداد. وكان جدّه نقيب الأشراف في القرن التاسع عشر، أي ممثل العائلات الدينية لدى السلطنة العثمانية – وهو منصب مماثل لذلك الذي شغلته عائلة الحصني (الحسيني) التي تزوّج منها جدّ رياض، أحمد باشا.

تخرّج رشيد عالي في كلية الحقوق في بغداد في سنة 1914، وانضمّ إلى البيروقراطية العثمانية في الموصل. عاد إلى بغداد بعد انهيار النظام العثماني حيث مارس القانون ودرّسه حتى عُيّن قاضياً في محكمة الاستئناف في سن السابعة والعشرين. بدأ حياته السياسية وزيراً للعدل في سنة 1924 في حكومة ياسين الهاشمي الأولى، وشكّلا معاً حزب الإخاء الوطني الذي سعى إلى تحقيق المطالب الوطنية والحدّ من التدخل الاستعماري البريطاني في سياسة العراق الداخلية.

تسلّم رشيد عالي رئاسة الوزراء للمرة الأولى في سنة 1933 عندما أُوكلت إليه مهمّة الإشراف على انتقال العرش إلى الملك غازي بعد الموت المفاجئ للملك فيصل. كان غازي طائشاً ومتهوّراً ومولعاً بالسيارات السريعة، خلافاً للملك فيصل الذي اتسم بالحكمة والتبصّر. وقد ساد عهده القصير الكثير من الاضطرابات. ففي 29 تشرين الأول/أكتوبر 1936 قاد الفريق بكر صدقي انقلاباً عسكرياً زعزع الحياة الدستورية في العراق. وكان هذا الانقلاب الأول في سلسلة من التدخّلات العسكرية في السياسة في العالم العربي التي أدت إلى نتائج كارثية في المنطقة منذ ذلك الوقت.

أطيح بحكومة ياسين الهاشمي وقُتل وزير الدفاع جعفر العسكري. تسرّع الملك غازي بالاعتراف بالانقلاب، لكن تجاوزات بكر صدقي نفّرت حتى مؤيّديه العسكريين، فقتلته مجموعة من الضباط في آب/أغسطس 1937.

في السنة التالية، حاول الملك غازي تحقيق طموحه بضمّ الكويت إلى العراق (وهو طموح سعى صدام حسين لتحقيقه أيضاً في وقت لاحق) قبل دمجهما في اتحاد الهلال الخصيب الذي يضم سوريا وفلسطين. ولكن فيما كانت القوات العراقية تحتشد على حدود الكويت في استعراض مخيف للقوة، توفي غازي فجأة في 3 نيسان/أبريل 1939 إثر اصطدام سيارته بعمود إنارة. فخلفه ابنه فيصل الثاني، وكان طفلاً في الرابعة من العمر فقط، وتولّى الوصاية على العرش خاله الأمير عبد الإله الذي أصبح الحاكم الفعلي للعراق.

كان عبد الإله يتقاسم مع نوري السعيد الاعتقاد بالحاجة إلى الحماية البريطانية. لذا فإنهما وجدا نفسيهما على خلاف مع الضباط الشبان في القوات المسلّحة المناهضين لبريطانيا، ومع الرأي العام العراقي على العموم الذي أثاره القمع الوحشي الذي تمارسه بريطانيا ضد الفلسطينيين. وقد ارتبط المزاج المتشدّد في بغداد بوجود مجموعة من المنفيّين العرب التي تعبّر عن آرائها بقوة بقيادة مفتي القدس السابق الحاج أمين الحسيني. وسرعان ما أطاحت موجة قوية من الاحتجاجات الوطنية بنوري السعيد وحملت رشيد عالي إلى رئاسة الوزراء في سنة 1940.

دعا رشيد عالي إلى إعادة النظر في المعاهدة البريطانية العراقية على أمل تحرير العراق من السيطرة البريطانية، وفَرَض قيوداً على تحرّكات القوات البريطانية ورفض قطع العلاقات مع إيطاليا، وأرسل وزير العدل ناجي شوكت لمقابلة السفير الألماني فرانز فون بابن Franz von Papen في أنقرة لمحاولة الحصول على الدعم الألماني. أثارت هذه السياسات مخاوف نوري السعيد وعبد الإله، فأجبرا، بدعم بريطاني، رشيد عالي على الاستقالة في 31 كانون الثاني/يناير 1941. فحلّ محله الفريق طه الهاشمي الذي استدعي وزير خارجيته، توفيق السويدي، إلى القاهرة في آذار/مارس 1941، حيث أبلغه نظيره البريطاني أنتوني إيدن بصرامة أن بريطانيا تنتظر تعاوناً أكبر من العراق بالإضافة إلى قطع العلاقات مع إيطاليا. عاد السويدي إلى العراق وأقنع طه

الهاشمي بأن من الأفضل قمع الضباط المتمرّدين، لكن هذه الخطوة أدت إلى نتائج عكسية مدهشة.

في 1 نيسان/أبريل 1941، حاصر الجيش القصر الملكي في بغداد، وكان عبد الإله قد هرب قبل ساعات إلى القاعدة البريطانية في الحبّانية ومنها إلى البصرة ثم إلى عمّان. استلم رشيد عالي السلطة ثانية في 3 نيسان/أبريل بدعم من أربعة ضبّاط عُرفوا باسم "المربع الذهبي"، وخلع الوصي على العرش الغائب. عمد رشيد عالي، في أولى خطواته، إلى استفزاز البريطانيين بإرسال وحدة من المدفعية العراقية لمواجهة قاعدة سلاح الجو الملكي في الحبّانية. وفي الأيام التالية، نُقلت قوات برية عراقية كبيرة إلى الهضبة المشرفة على القاعدة حيث تحتفظ بريطانيا بنحو 2200 جندي و12 مركبة مدرّعة و96 طائرة حربية قديمة بمعظمها وتستخدم أساساً للتدريب. وأمر رشيد عالي بعدم تحليق الطيران البريطاني ووقف تحرّكات القوات.

نتائج انقلاب رشيد عالي

استقبلت هذه الأحداث الدراماتيكية في العراق باهتمام كبير في سوريا ولبنان، حيث ترأس رياض الصلح عدّة اجتماعات حماسية تضامناً مع رشيد عالي. وتظاهر الطلاب في دمشق أمام القنصلية البريطانية وحطموا نوافذها. ومما أثار غضب البريطانيين جداً أن السلطات الفرنسية سمحت للصحف اللبنانية والسورية بنشر البيانات التعبوية لرشيد عالي، فيما وزّع "الحرس العربي" التابع للمفتي منشوراً يعلن أن على العرب بأكملهم الجهاد ضد البريطانيين[1]. أدرك المسؤولون البريطانيون المحلّيون في بيروت ودمشق أنّ الوضع في العراق يفتح نافذة واسعة لنشر الدعاية لدول المحور واستهجنوا غياب الجهود البريطانية المضادة. ورأى هؤلاء أن الوقت حان كي تصدر لندن إعلاناً يؤيّد استقلال سوريا. لكن بريطانيا كانت مقيّدة جداً بالسياسات المتناقضة التي تتّبعها. فهي لا ترغب في إثارة الشكوك الفرنسية الجاهزة بالمكائد البريطانية، لذا ساندت ديغول، وواصلت في الوقت نفسه دعم دنتز. كما أن الجنرال ويفل كان عازماً بدوره على المحافظة على الموارد

(1) Consulate-General Damascus, April 1941 (F0371/27327).

العسكرية المتاحة للدفاع عن مصر بدلاً من تشتيتها في أي تدخل في شرق العالم العربي.

في غضون ذلك، كانت القوات الألمانية تتقدّم على جميع الجبهات. واعتقد الملك فاروق أن انتصار ألمانيا أصبح وشيكاً فرفض إعلان الحرب على المحور. بدت خطوط الاتصالات البريطانية الحيوية مع مصر والخليج العربي والهند وماليزيا وأستراليا في خطر داهم. فإيطاليا تسيطر على سواحل وسط البحر المتوسط، وتهدّد السيطرة التاريخية للبحرية الملكية على هذه المنطقة. ولا يوجد لبريطانيا في وادي النيل سوى 55,000 جندي و200 طائرة قديمة فقط لمواجهة القوات الألمانية في ليبيا والإيطالية في إثيوبيا وإرتريا الأفضل تسليحاً والأكثر عدداً. وفي ظل التهديد المحدق باحتمال قيام المحور بحركة كمّاشة، اعتقد البريطانيون أن انقلاب رشيد عالي قد لا يكون أمراً عارضاً، بل دليلاً على خطة منسّقة لإطلاق انتفاضة عربية في المنطقة بأكملها. فقد كان العراق في ذلك الوقت، كما هو اليوم، يمتلك موارد حيوية يطمع بها الغرب. فهو مورّد كبير للنفط للقوات البريطانية، وجسر برّي رئيسي بين معقل البريطانيين في مصر والاحتياطي الاستعماري الذي لا يستغنى عنه للمقاتلين في الهند. فخشيت بريطانيا أن تؤدي الانتفاضة في العراق إلى انكماش محيطها الاستراتيجي بأكمله أمام عينيها[1].

في سنتي 1940-1941 المشحونتين بالأحداث، لم يكن انقلاب رشيد عالي سوى حدث صغير فحسب مقارنة بالأحداث الكبيرة التي أثّرت تأثيراً كبيراً في عالمنا. على سبيل المثال، أدّى قرار موسوليني دخول الحرب إلى جانب هتلر إلى تغيير مسار الصراع. ولا شك في أن قرار هتلر غير المدروس بغزو الاتحاد السوفياتي قبل إلحاق الهزيمة ببريطانيا أدى إلى خسارته الحرب. كما أن إصرار تشرشل العنيد على مواصلة القتال، حتى بعدما سيطر هتلر على نصف أوروبا القارية، أنقذ العالم من السيطرة النازية، وكان ذا صلة وثيقة بالرد القوي الذي انتهجه في العراق[2].

(1) Gaunson, *The Anglo-French Clash*, p. 12.

(2) انظر مراجعة بيتر كالفوكورسي في *The Financial Times*, 4-5 August 2007 لكتاب Ian Kershaw, *Fateful Choices: Ten Decisions that Changed the World, 1940-41*, London 2007.

فاجـأ انقلاب رشيد عالي الألمان والبريطانيين على حدٍّ سواء. لم يكن أي منهما على علم مسبق بالانقلاب، فسارعا إلى التفاعل معه - الألمان بتقديم الدعم العسكري والبريطانيون إلى إسقاطه. وبتقديم السلاح إلى رشيد عالي، أصبحت قوى المحور في جوار المشرق مباشرة. فرأى تشرشل أنه لا يستطيع احتمال التأخّر في الردّ على هذا التهديد، وقرر العمل بسرعة.

أبلغ السفير البريطاني في العراق، السير كِنَهَن كورنوالس Kinahan Cornwallis (وصل إلى بغداد يوم الانقلاب)، رشيد عالي أنّ بريطانيا بحاجة إلى إنزال قوات هندية في البصرة لتعزيز موقف ويفل في فلسطين. فإذا احترم الحقوق البريطانية بموجب المعاهدة، فإن بريطانيا ستعترف بحكومته. لكن إذا رفض، فسيكون ذلك خرقاً للمعاهدة يترتّب عليه ردّ عسكري حاد. وافقت الحكومة العراقية على التعاون مع الطلب البريطاني تحت هذا الضغط، وأُنزل لواء المشاة الهندي العشرين في البصرة في 19 نيسان/أبريل. لكن عندما طلب رشيد عالي الإسراع في نقل تلك القوات إلى خارج العراق، تجاهله البريطانيون. فردّ برفض السماح بإنزال قافلة ثانية من القوات في البصرة، وأصبحت المعاهدة لاغية وباطلة.

بناء على تعليمات من لندن، حذّر القنصل البريطاني العام في بيروت المفوّض السامي الفرنسي في 29 نيسان/أبريل من أن الألمان ربما يخططون لاحتلال القواعد الجويّة السورية بقوات محمولة جواً. وكانت المخابرات البريطانية قد أبلغت عن إمكانية تمركز 500 ناقلة جند قادرة على نقل 5000 جندي مع معداتهم في جزر دوديكان. فردّ الجنرال دنتز بأن أوامره تقضي بالدفاع عن الأراضي الخاضعة للانتداب في وجه أي اعتداء خارجي.

كان البريطانيون قلقين من أن يقنع الرايخ المارشال بيتان بعدم مقاومة الاحتلال الألماني لسوريا[1]. فقد علموا أن الألمان، المتلهّفين لمساعدة رشيد عالي، يفاوضون حكومة فيشي على استخدام مطارات المشرق، وأنهم طلبوا أن يُسمح لطائراتهم بالهبوط في سوريا والتزوّد بالوقود والإقلاع إلى العراق. في المقابل، طلبت حكومة فيشي أن تطلق ألمانيا سراح أسرى الحرب الفرنسيين. اعتبر البريطانيون هذه

(1) Beirut Appreciation, 25 April-8 May 1941 (F0371/2732).

المفاوضـــات تطــوّراً خطيراً جداً. فإذا حصل سلاح الجو الألماني على حرية استخدام المطارات السورية واللبنانية، فان الموقف البريطاني بأكمله في مصر قد يصبح ضعيفاً من الناحية العسكرية، وقد تخسر بريطانيا قناة السويس وكل البحر المتوسط. وساد التجهّم الأجـــواء في لندن بعد أن اجتاح الألمان اليونان في 30 نيسان/أبريل وأصبحت القوات البريطانية في البلقان في وضع مشابه لما حدث في دنكرك.

هكـــذا، بناء على أوامر عاجلة من تشرشل، وجّه البريطانيون إنذاراً لرشيد عالي يقـــضي بانـــسحاب العراقيين من المناطق المجاورة لقاعدة الحبّانية في ساعات الصباح الأولى مـــن يـــوم 2 أيار/مايو أو مواجهة العواقب. وعندما انتهت مدة الإنذار، بدأت الطائرات البريطانية بقصف القوات العراقية. وفي اليوم الثاني للقتال، وصلت مقاتلات قاذفة من طراز بلنهيم Blenheim إلى مسرح العمليات فدمّرت سلاح الجوي العراقي وقواعده الجوية. وتبع ذلك هجوم برّي أجبر العراقيين على التراجع إلى الفلّوجة، ورفع الحصار عن الحبّانية.

في 9 أيـــار/مايو حطّت طائرة ألمانية واحدة في مطار المزّة في دمشق وعلى متنها الـــرائد أكسل فون بلومبرغ Axel von Blomberg مع ستة ضباط ألمان. وبعد أن أمضوا ليلـــتهم في فـــندق أورينت بالاس، انتقلوا بالطائرة إلى العراق في اليوم التالي. وفي 10 أيـــار/مايو، حطّت ثلاث طائرات ألمانية أخرى في حلب، إحداها مطلية بالألوان الفرنسية دون إتقـــان، وكان على متنها ف. غروبا F. Grobba، السفير الألماني في بغداد الذي كـــان عائداً إلى مركز عمله، ورودلف ران Rudolf Rahn وهو دبلوماسي ألماني خدم مـــع السفير أبتز Abetz في باريس، وعدداً من حكومة مبعوثي فيشي[1]. طلب الألمان عـــند اجـــتماعهم في بـــيروت مع القائد الفرنسي، الجنرال دنتز، نقل مخزونات العتاد العسكري لجيش المشرق فوراً إلى مستودع سكة الحديد على الحدود التركية لنقله إلى العـــراق علـــى الفـــور. وخلال أيام، حمّل نحو 20,000 بندقية، و200 مدفع رشاش، بالإضـــافة إلى خمسة ملايين طلقة، وحمولة 56 شاحنة من وقود الطيران في القطارات المـــتجهة إلى العـــراق. أرســـل العراق إلى سوريا في المقابل كمّيات كبيرة من القمح

(1) انظر Rudolf Rahn's memoirs, *Rubeloses Leben* (An Agitated Life), Dusseldorf 1949, pp. 149 ff, quoted by de Wailly, *Syrie*, p. 474, n. 2.

والـــزيت والسمن والتمر والفاكهة والخضر، فأحدث ذلك انخفاضاً فورياً في الأسعار المحلـــية. وعندما دافع الجنرال دنتز عن نفسه، في أثناء محاكمته في فرنسا بعد الحرب، زعم أن معظم الأسلحة التي أرسلت إلى العراق كانت قديمة أو معيبة.

في الأسابيع التالية، انتقل المزيد من الطائرات الألمانية عبر مطارات دمشق وحلب ورياق وتدمر إلى ساحة المعركة في العراق. تعرّضت تلك المطارات لقصف متكرر من قـــبل سلاح الجو الملكي البريطاني ابتداءً من 14 أيار/مايو، لكن لم تضرب أي أهداف فرنسية. فقد حاول ويفل ودنتز على ما يبدو تجنّب وقوع صدام إنكليزي فرنسي. مع ذلـــك دار نقـــاش حاد في الكواليس. فقد أراد ديغول من البريطانيين مساعدة فرنسا الحـــرة في طـــرد حكومة فيشي من المشرق. ورأى أنه لا يمكن الاعتماد على دنتز في مواجهة حكومة فيشي أو الألمان - كما تبيّن بالفعل لاحقاً - وأن سيطرة فرنسا الحرة على المشرق هي وحدها الكفيلة بذلك. لكن ويفل الذي يريد وقف التقدّم الألماني نحو مـــصر بـــأي ثمـــن لم يكن مستعداً بعد لتوفير الرجال والعتاد من أجل السيطرة على ســـوريا. ورأى وجوب الاستمرار في دعم دنتز في وجه الألمان، لذا أبلغ ديغول أنه لا يمكن تصوّر القيام بأي عملية ضد حكومة فيشي في سوريا في الوقت الراهن[1].

بالإجمال، عبرت أجواء سوريا مئة طائرة ألمانية وعدد أقل من الطائرات الإيطالية في أيـــار/مايـــو وحزيران/يونيو، قدّم لها على الأرض نحو 200 ميكانيكي ألماني، على الـــرغم مـــن أن الحرارة والرحلة الطويلة إلى العراق أوقعت فيها العديد من الخسائر. وتمكّن المحور من شنّ عدد من الغارات على الحبّانية والتعزيزات البريطانية التي تسارع في عبور الصحراء إلى العراق، لكنها لم تكن ذات أهمية عسكرية. وقد رفع دنتز تقريراً إلى فيشي يفيد فيه أن الجهود الألمانية تبدو مرتجلة وليس لها تأثير فعلي على الوضع في العراق[2].

في غـــضون ذلـــك، انطلقت من فلسطين قوة بريطانية عربية جُمعت على عجل وأطلق عليها اسم قوة الحبّانية Habforce، عبرت 500 ميل في الصحراء، ووصلت إلى الحبّانـــية في 18 أيـــار/مايـــو. وانتقلت قوة أخرى، رتل الملك KingCol، من شرق

(1) Gaunson, *The Anglo-French Clash*, p. 30.

(2) Wailly, *Syrie*, pp. 148, 158؛ وانظـــر Air Vice-Marshal A.G. Dudgeon, *Hidden Victory: The Battle of Habbaniya*, London 1941.

الأردن. ووصلت قوات هندية إضافية إلى البصرة. أخرجت قوات رشيد عالي من الفلّوجة، ولوحقت إلى بغداد التي سقطت في 30 أيار/مايو. أفسح ذلك المجال لإعادة الوصي على العرش، الأمير عبد الإله، إلى الحكم، فعاد إلى العراق في 1 حزيران/يونيو وشكّل حكومة موالية لبريطانيا برئاسة نوري السعيد، وبقيت القوات البريطانية في أماكنها لدعمهما.

ألحق التحرك البريطاني السريع والضاري الهزيمة برشيد عالي، و لم تستطع قوات دول المحور أن تقدّم له سوى قدر محدود من المساعدة لانشغالها بالوضع في اليونان، وكريت، وليبيا. فاضطُر إلى الفرار إلى إيران في طريقه إلى ألمانيا حيث أمضى ما تبقى من سنوات الحرب في البثّ الإذاعي إلى العالم العربي. وبعد ذلك فرّ إلى المملكة العربية السعودية حيث مُنح اللجوء السياسي. وعندما أطيح بالحكم الملكي في سنة 1958، عاد رشيد عالي إلى العراق وحاول الاستيلاء على الحكم مجدّداً، لكنّه فشل وحُكم عليه بالإعدام. وفي وقت لاحق أعفي عنه، ونُفي إلى المملكة العربية السعودية حيث توفي في سنة 1965.

شكّل سقوط رشيد عالي ضربةً قوية لرياض الصلح والوطنيين العرب في المشرق. فقد كانوا يأملون أن يفتح الانتصار الوطني في العراق الطريق أمام تحقيق استقلالهم بعدما فشلوا في التحرّر من القبضة الفرنسية. بل إن بعض المتحمّسين انتقلوا إلى العراق للقتال إلى جانب رشيد عالي. عقدت اجتماعات تضامنية في منزل رياض، بما فيها اجتماع واسع جداً في 4 أيار/مايو 1941. وجُمعت التبرعات لصالح "ضحايا الاستعمار البريطاني من العرب"، كما جُمعت التبرّعات في المدن اللبنانية الكبرى. لكن خيبة الأمل في سقوط رشيد عالي كانت شديدة، وأعادت نكأ جراح الوطنيين الذين عانوا من الفشل أيضاً في نضالهم في فترة ما بين الحربين. فقارنوا تحطّم آمالهم في العراق بالكارثة التي حلّت بالجيل السابق، عندما قضى الفرنسيون على حكومة الملك فيصل في دمشق في سنة 1920[1].

أثار منظر الطائرات الألمانية التي تعمل من القواعد السورية الذعر في قلوب البريطانيين، إذ بدا أن الألمان اقتربوا من تثبيت نفوذهم في العراق وسوريا ولبنان. ولو

(1) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, p. 132.

نجحـــوا في ذلـــك، لتمكّنوا من هناك من شنّ هجمات على مصر والمواقع البريطانية الأخـــرى في الـــشرق الأوسط وما وراءه. أقنع هذا الاحتمال الخطير البريطانيين بأن وجـــود نظام فيشي في المشرق فيما يقاتلون الألمان في الصحراء الغربية المصرية، لم يعد أمـــراً محمـــولاً. فقد أصبح الوضعان متنافرين تماماً، بعدما سمح دنتز للطائرات الألمانية والإيطالـــية بالتـــزوّد بالوقـــود في سوريا تنفيذاً لأوامر فيشي. وكان قد سمح للألمان باستخدام السكك الحديدية السورية لإرسال الوقود والأسلحة إلى العراق[1]. تبيّن أنّ موقـــف حكومة فيشي الحيادي في الأراضي الخاضعة للانتداب ما هو إلا ادّعاء باطل، فسقطت سياسة ويفل الداعمة لدنتز وتم التخلّي عنها بسرعة. أصدرت لندن أمراً إلى ويفـــل بالرّد بقوة على التهديد الذي يشكّله تعاون حكومة فيشي مع المحور. وهكذا أصبح لا بد من طرد فيشي من المشرق[2].

استخلـــصت بريطانيا درساً آخر من الحالة الطارئة العراقية، إذ لم يعد من الممكن تجاهـــل الآمال السياسية العربية. ولا بد من التصالح مع الرأي العام العربـــي وكسبه، حتى لو أدى ذلك إلى توتّر العلاقات مع الفرنسيين. كما يجب أن تؤخذ القوة التعبوية للقومـــية العربية بالحسبان، بعدما أصبحت المشاعر الشعبية العربية المحلية فجأة مفتاحاً للأمن البريطاني.

هزيمة فيشي في المشرق

لم ينتظر تشرشل انتهاء القتال في العراق، بل أمر ويفل بالاستعداد لدخول سوريا ولبنان في أقرب فرصة وبأكبر قدر من القوة من دون المساس بأمن الصحراء الغربية[3]. وفي 27 أيار/مايو، قدّم ويفل إلى لندن خطة عمليّة المصدِّر Operation Exporter. وفي الـــيوم نفسه أوضح أنتوني إيدن لحكومة الحرب الحاجة الملحّة إلى كسب الرأي العام الـــوطني العربـــي لصالح الحلفاء. وأطلق هذا المسعى في خطاب ألقاه في المقرّ الرسمي لـــرئيس بلدية لندن في 29 أيار/مايو. أعلن إيدن: "يرغب كثير من المفكرين العرب في وحدة أكبر بين الشعوب العربية من تلك التي يتمتعون بها الآن... وقد قرّرت حكومة

(1) انظر Compton Mackenzie, *Eastern Epic*, London 1951, p. 107.

(2) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, pp. 139 ff.

(3) Gaunson, *The Anglo-French Clash*, pp. 31 ff.

صـــاحب الجلالة دعم أي مشروع يحصل على موافقتهم العامة". لا شك في أن إيدن أمل في أن تصالح هذه الكلمات الحذرة العرب من دون إثارة قلق الفرنسيين.

عـــبرت قوات الحلفاء الحدود إلى سوريا ولبنان فجر 8 حزيران/يونيو 1941 في هجـــوم رباعي الشعب، وجوبهت على الفور بمقاومة عنيفة. في اليوم الأول للحرب، أصـــدر الجنرال جورج كاترو إعلاناً أمل في أن يضمن حياد السكان المحليين. فأعلن: "جـــئت أضـــع حـــداً لـــنظام الانتداب، ولأعلمكم وأعلنكم أحراراً مستقلين... إن الاســـتقلال والسيادة سيكونان مضمونين بمعاهدة تحدّد فيها علاقاتنا المتبادلة..."[1]. رحّـــب تـــشرشل بإعلان كاترو، وأوصل ديغول ذلك الترحيب إلى الكتلة الوطنية في ســـوريا عبر جميل مردم قائلاً: "سيصدر الإعلان الذي وافقتُ على شروطه وروحيّته باسمي واسم فرنسا الحرة، أي باسم فرنسا".

اقتـــرحت بريطانيا أن تصدر ضماناً لتصريح كاترو، لكن ديغول رفض صراحة فكـــرة الإعلان المشترك، واعتبر الاقتراح البريطاني تدخلاً وقحاً في دائرة نفوذ فرنسا. ورأى أن "كلمـــة فرنـــسا لا تحتاج إلى ضمانة أجنبيّة". أجبر رفض ديغول البريطانيين علـــى إصـــدار بـــيان يؤيّد إعلان كاترو وينفي وجود أي مطامع أخرى لبريطانيا في المشرق[2]. وعشية الهجوم بعث تشرشل برسالة استرضائية إلى ديغول يعلن فيها:

> تعلـــم أنـــنا لا نسعى وراء أي مصلحة خاصة على حساب الإمبراطورية الفرنـــسية ولا ننوي استغلال موقف فرنسا المأسوي لتحقيق مكاسب لنا. لـــذا، أرحّـــب بقـــرارك التعهّد باستقلال سوريا ولبنان، وأعتقد أن من الضروري، كما تعلم، أن نضفي على هذا الوعد الثقل الكامل لضمانتنا.

غير أنه يمكن الحكم بصورة أفضل على نيّات تشرشل الحقيقية من رسالة بعث بها لوزير الدولة أوليفر ليتلتون Oliver Lyttleton، الذي وصل إلى القاهرة في 5 تموز/يوليو كممـــثّل لحكـــومة الحرب وللاهتمام بالعلاقات مع فرنسا الحرّة. أكّد له تشرشل أن الهـــدف الرئيسي كسب تأييد العالم العربـــي بتثبيت استقلال سوريا في أقرب وقت

(1) FO 371/27214/E2915; General Georges Catroux, *Dans la Bataille de la Mediterranee*, Paris 1949, p. 137 f.

(2) Gaunson, *The Anglo-French Clash*, pp. 41-42.

وبأي شكل مقبول والإعلان عنه... تقضي سياستنا بمنح الاستقلال للعرب السوريين... إن العرب يشغلون اهتمامنا أكثر مما يشغلون اهتمام فرنسا الحرّة بكثير، ولا يمكن المماطلة في التفاوض على المعاهدات التي ترضيهم وتقنعهم بأنهم لم يستبدلوا مجموعة من الفرنسيين بأخرى[1].

الحملة السورية

وضع الجنرال هنري "جمبو" ويلسون Henry 'Jumbo' Wilson، قائد عمليّة المصدِّر Operation Exporter الخطّة العسكرية لغزو سوريا ولبنان، وعرضها على الشكل التالي:

- عبور اللواء الهندي الخامس الحدود السورية من فلسطين وتوجُّهه إلى القنيطرة ودرعا، فاتحاً الطريق أمام عناصر الفرقة الفرنسية الأولى للتقدّم نحو دمشق.
- انطلاق الفرقة الأسترالية السابعة من حيفا وتوجّهها على طول الطريق الساحلية إلى بيروت لفتح الطريق أمام اللواء الأسترالي الحادي والعشرين للسيطرة على المدينة. ويقدّم الإسناد لهذه القوات البرّية بقصف من سفن البحريّة الملكيّة وسفن قوات البحرية الملكية الأسترالية. وفي الوقت نفسه، يهاجم اللواء الأسترالي الخامس والعشرون القاعدة الجويّة التابعة لفيشي في رياق.
- تتقدم فرقة المشاة الهندية العاشرة من العراق صعداً بمحاذاة الفرات متوجّهة نحو دير الزور والرقّة وحلب بغية قطع خطوط الإمداد والاتصالات التابعة لفيشي[2].
- بعد سحق الثورة العراقية، تجمّع لواء قوة الحبّانية قرب حدود العراق الغربيّة مع شرق الأردن وتقدّم نحو الشمال الغربي إلى سوريا للسيطرة على تدمر وحماية خط أنابيب النفط الممتدّة من الحديثة إلى طرابلس. في غضون ذلك، أغار مظليون بريطانيون من فرقة الكوماندو الحادية عشرة وعناصر من البالماخ، وهي وحدة مجنّدة من الصهاينة في فلسطين، على خطوط الاتصالات

(1) المصدر نفسه، ص 53-54.
(2) Andrew Mollo, *The Armed Forces of World War II*, London 1981; de Wailly, *Syrie*, p. 68.

الـــتابعة لفيـــشي. وقدّمت وحدة البالماخ أيضاً بعض المترجمين والأدلاّء الذين استخدمتهم وحدات الحلفاء. وفي أثناء ذلك، فقد موشيه دايان، الذي أصبح جنرالاً إسرائيلياً معروفاً، عينَه على يد أحد قنّاصة فيشي.

كان جيش المشرق الخاضع لإمرة حكومة فيشي يتكوّن من نحو 35,000 جندي نظامـــي. ويضمّ 4 كتائب من الفيلق الأجنبـــي - أفضل القوات المتاحة؛ و3 كتائب مـــن فـــوج المشاة الاستعماري الرابع والعشرين، الذي دُمج مع كتيبَتَيْن من القوات السنغالية الاستعمارية، بالإضافة إلى مفارز من خيالة شمال أفريقيا التي تسمّى السباهية، وتضمّ نحو 7000 عنصر. فقد كان الحصان لا يزال وسيلة مفيدة في الحرب في المناطق الجبلـــية. بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك بضع كتائب مشاة مجنّدة محلياً تعرف باسم القـــوات الخاصـــة، وتتكوّن من العلويين بصورة رئيسية، فضلاً عن بعض التركمان والـــدروز والأكـــراد. وضمّ جيش دنتز 14 بطارية مدفعيّة، و90 دبابة، و70 مركبة مدرّعة، وأكثر من 250 طائرة حربية دمّر معظمها على الأرض. وكان لديها ما يكفي من البنـــزين والذخيرة لمدة ستة أسابيع من القتال.

تبـــيّن أن حملة الأسابيع الخمسة أطول وأعنف ممّا توقّعه الحلفاء، وخاصة القتال المرير بين الموالين لديغول والموالين لبيتان. قاتلت قوات الجنرال دنتز بقوة، وقد برزت مـــن المواجهات الأقل ضراوة معركة نهر الليطاني (9 حزيران/يونيو)، ومعركة جزين (13 حزيـــران/يونـــيو)، ومعـــركة الكسوة (15 حزيران/يونيو)، ومعركة دمشق (18 حزيران/يونيو). تُوِّج سقوط المدينة بالدخول الاحتفالي للقائدَيْن الفرنسيين، الجنرال كاترو واللواء بول لويس لجنتليوم Paul Louis Legentlihomme برفقة الفرسان الشركس.

أبلـــغ القائد العام البريطاني وزارة الحرب أن فرقة فرنسا الحرّة قاتلت بشكل جـــيد، لكن "عامل القتال بين الإخوة كان له تأثيره على القوات المتعبة ما جعلها غـــير مؤهلة للمزيد من المعارك الضارية". وأضاف أن قوات فرنسا الحرّة لم تكن محـــبوبة في أوســـاط الجالـــية الفرنسية في سوريا. وواجه الضباط في جيش فيشي الفرنـــسيين الأحرار بعداء شديد إذ اعتبروهم خونة. أما الشعب السوري فرحّب بالـــبريطانيين كمحـــرِّرين، لكن هذا الموقف "يشهد تغيّراً كبيراً نتيجة ما اعتبروه اســـتبدال مجموعة من الفرنسيين بأخرى، بتغاضٍ بريطاني". وأضاف أن السوريين

"شعروا بخيبة أمل كبيرة بسبب عدم وجود أي إشارة إلى شروع الفرنسيين بتنفيذ الاستقلال الذي تعهّدوا به..."(1).

في أعقاب السيطرة على دمشق، وقعت اشتباكات رئيسية مثل معركة مرجعيون (19 حزيران/يونيو)، ومعركة تدمر (1 تموز/يوليو)، ومعركة دير الزور (3 تموز/يوليو)، ومعـــركة الدامور (5 تموز/يوليو)، ومعركة بيروت (12 تموز/يوليو). وعندما سقطت بيروت، كان دنتز قد فقد نحو 6000 جندي، بينهم 1000 قتيل تقريباً. ووقعت الغالبية العظمـــى مـــن قوات دنتز في الأسر. وفي 12 تموز/يوليو فاتح مبعوثوه البريطانيين بأمر الهدنة، وتم التوقيع عليها في عكا في 14 تموز/يوليو ما وضع نهاية لتلك الحرب.

ألحـــت بـــنود المعاهدة إلى أن الجنرال ويلسون كان ينفر من مساندة العسكريين الديغولـــيين المبتدئين ضد جيش فيشي المحترف. وقد تعامل ويلسون كجندي تقليدي بـــشهامة مفرطة مع جيش دنتز المهزوم. بل إن وثيقة الهدنة التي صاغها لم تذكر قوات فرنـــسا الحرة على الإطلاق. و لم يرد ذكر للانتداب الفرنسي في الوثيقة، ولا استقلال ســـوريا. لم يكتفِ ويفل بعدم السماح لكاترو بالتوقيع على الهدنة، بل منعه أيضاً، في بـــروتوكول سري، من تجنيد قوات فيشي في صفوف الديغوليين، وأصرّ على عودتهم إلى فرنـــسا. ومُنعت جميع الاتصالات الشخصية بين الديغوليين والبيتانيين. و لم يسمح لممثلي فرنسا الحرة سوى باستخدام المناشير ومكبّرات الصوت والأجهزة اللاّسلكية في محاولـــة لكـــسب الجنود وجذبهم نحو ديغول - وذلك ترتيب هزلي استبعد الخيارات الفردية الحقيقية. وهكذا وضع حدّ لتجنيد الفرنسيين الأحرار في المنطقة. وقد عادلت الهدنة نقل الانتداب على سوريا ولبنان من فرنسا إلى بريطانيا، وتبيّن أن كاترو لم يكن الشخص المناسب لتمثيل ديغول في عكا.

اتفاق ليتلتون - ديغول

اعتـــبر ديغول ما حدث بمثابة مؤامرة، وانتقل إلى القاهرة قادماً من برازافيل وهو في قمـــة الغضب، وباشر فور وصوله بتعديل اتفاق عكا، متغاضياً عن موافقة مندوبه

(1) Most secret cipher telegram from C. in C., Middle East, to The War Office. 27638, 16/7/41. St. Antony's College, Middle East Library. Private Papers.

المطلق الصلاحية عليها. أغضب سلوكه المتعالي البريطانيين جداً، حتى إنهم فكّروا جدياً في إبقائـــه خارج سوريا. واقتُرح منعه من استخدام اللاسلكي والتلغراف، وخلعه إذا اقتـــضى الأمر لمصلحة كاترو، وفي تلك الحالة حبسه في سجن بريطاني! لكن لم يكن هناك حاجة إلى تلك التدابير القوية، إذ سرعان ما تبيّن أن ديغول أكثر انقياداً إلى حدٍّ ما.

بعـــد ثلاثة أيام من المفاوضات المكثفة، توصّل ديغول إلى اتفاق مع وزير الدولة الـــبريطاني أوليفـــر ليتلـــتون في 25 تموز/يوليو يشكّل "تفسيراً لهدنة عكا"، فضلاً عن إضافة بندَيْن بشأن "التعاون بين البريطانيين وسلطات فرنسا الحرة في الشرق الأوسط". وقـــد نـــصّا على تقسيم مشوّش للسلطة، حيث يتولّى الفرنسيون السيطرة السياسية والإداريـــة علـــى أراضـــي المـــشرق، فيما تبقى السلطة الفعلية بيد البريطانيين الذين يـــسيطرون علـــى الوضع العسكري من مختلف الجوانب. لم تكن "السيادة المشتركة" مرضية البتة، بل أدّت إلى نـــزاعات عنيفة. فقد فسّر ديغول الاتفاق على أنه اعتراف بـــريطاني بالـــسيادة الفرنـــسية الكاملة على دولتي المشرق[1]. وتركّزت إحدى نقاط الاخـــتلاف الرئيـــسية على مقدار "الاستقلال" الذي يرى كل جانب وجوب منحه لهـــاتين الدولـــتين. هـــل يُتبع النموذج العراقي كما اقترح البريطانيون، أو هل يكون "الاستقلال" نسخة مقيّدة من معاهدتي 1936، كما طالب الفرنسيون؟ نتج عن تفاقم الجدال نـــزاع مستحكم طويل وشهير بين تشرشل وديغول.

أضـــعفت عملية الحلفاء في سوريا ولبنان موقف فرنسا في المشرق. وبدأ ديغول بالندم على التعهّد بالاستقلال الذي قطعه. كان منـــزعجاً من اضطراره إلى قتال رفاقه القدامـــى وتحمّـــل تهمة خيانة المصالح الفرنسية، ولم يرضَ عن إعادة جنود فيشي إلى فرنسا. فكتب إلى تشرشل: "لا يمكن القبول بذلك مهما كان الثمن". لكن ويفل أصرّ علـــى إعـــادة جـــيش المـــشرق إلى بلاده بأسرع ما يمكن، بسبب الحاجة إلى تثبيت الاســـتقرار في المشرق وخفض الطلب على موارده. كما كان هناك حاجة ماسّة إلى بعـــض قـــوات الحلفاء في سوريا للقتال في الصحراء الغربية حيث انتهى هجوم ويفل الأخير (عملية فأس المعركة Operation Battleaxe بين 15-17 تموز/يوليو) إلى انسحاب

(1) Gaunson, *The Anglo-French Clash*, pp. 60 ff.

سريع من ممرّ حلفايا[1]. لقد كانت بريطانيا تواجه المحور منفردة، فلم تجد الوقت مناسباً لدفع حكومة فيشي إلى مزيد من الارتماء في أحضان هتلر. لذا تقرّر إحسان معاملة جنود فيشي الأسرى. وعلى أي حال، اختار 5500 جندي فقط من أصل 35,000 جندي الانضمام إلى صفوف الفرنسيين الأحرار.

أراد ديغول تعيين كاترو مفوّضاً سامياً في المشرق، لكن تشرشل أقنعه بالعدول عن ذلك. فوجّه ديغول رسالة إلى كاترو يسمّيه فيها المندوب العام، ويأمره بالتفاوض على "معاهدتين تؤسّسان لاستقلال دولتي المشرق وسيادتهما وتضمنان تحالفهما مع فرنسا وتحميان حقوق فرنسا ومصالحها"، على أن تكون نقطة انطلاق المفاوضات معاهدة 1936. وعلى الرغم من اللقب، فسيتولّى كاترو "جميع صلاحيات" المفوّض السامي الفرنسي. وأشار ديغول إلى أن "الانتداب الذي عهدت عصبة الأمم إلى فرنسا... يجب أن يستكمل حتى النهاية".

سعى ديغول الآن إلى وضع حدود للاستقلال غير المشروط الذي تعهّد به كاترو. فعليه أن يأخذ في الحسبان تأثير الانسحاب السريع على الرأي العام الفرنسي. فليس في وسع فرنسا الحرة تقديم تنازلات متهوّرة أو التخلي عن الانتداب إلى أن تقرّر ذلك عصبة الأمم أو أي منظّمة تخلفها[2]. كان ديغول يتوق إلى الوصول إلى بيروت ودمشق لإصلاح صورة فرنسا وإعادة توكيد "مهمّتها التاريخية" في المشرق، وهي مهمّة يحلم أن تديرها فرنسا بمفردها، من دون تدخّل بريطانيا أو الولايات المتحدة أو أي هيئة دولية. فوحدة الإمبراطورية وفرنسا العالمية من العوامل الرئيسية لاسترجاع عظمة فرنسا بالنسبة إلى ديغول. وهي دليل ملموس على مرتبة فرنسا كقوة عالمية، لذا فإنه لن يتخلّى عنه البتة[3]. وقد استمرّت ميوله الاستعمارية سنوات عديدة بعد ذلك، إلى أن لطّخت أنهار الدماء الجزائرية ضميره.

اقتصر دور رياض الصلح والوطنيين على مراقبة الحرب من دون أن يكون لهم دور فاعل فيها، لكنهم لم يرتاحوا إلى نتائجها، وغلب عليهم التشاؤم من موقف

(1) المصدر نفسه، ص 47 وما يليها.
(2) Andre Raymond, 'La Syrie, du Royaume arabe à l'indépendance', pp. 77 ff.
(3) Gaunson, *The Anglo-French Clash*, p. 29; Louis, 'The British and the French Colonial Empire', p. 285.

ديغول. وسرعان ما أدركوا أنه لا يمكن الوثوق بإعلان كاترو عن "الاستقلال"، فيما يعارضـــه المـــسؤولون الفرنسيون كل يوم. كما أن المسؤولون الذين خدموا في إدارة فيشي عادوا إلى مراكزهم لخدمة فرنسا الحرة. واتضح للوطنيين بجلاء أن انتهاء المعركة بعيد. لكن من حسن حظهم أن كفّة فرنسا لم تعد راجحة في المشرق كما كانت قبل الحرب. ووجد رياض الصلح بصيصاً من الأمل في شخص الجنرال إدوارد لويس سبيرز Edward Louis Spears، مبعوث تشرشل الخاص إلى الفرنسيين الأحرار.

الفصل السابع عشر

رياض بك والجنرال سبيرز

لم يكن الجنرال إدوارد سبيرز يعلم شيئاً تقريباً عن أوضاع الشرق الأوسط عندما وصــل إلى القاهرة برفقة الجنرال ديغول في 1 نيسان/أبريل 1941، أي قبل يومين من انقــلاب رشيد عالي في بغداد. لكنه كان قوي الإرادة غير هيّاب، وسياسياً بارعاً ذا خـــبرة في الـــتعامل مع الشخصيات المهمّة. أحبّ سبيرز فرنسا، وأجاد اللغة الفرنسية وكـــرّس نفسه للتضامن الإنكلوفرنسي (كان عضواً في البرلمان عن حزب المحافظين في كارلايل، فأطلق عليه في وستمنستر لقب "ممثّل باريس" على سبيل المزاح). وقد ربطته صداقة وثيقة بونستون تشرشل، زعيم بريطانيا خلال الحرب. ويُقال إن سبيرز عرض في سنة 1922 التنحّي عن مقعده في البرلمان الجديد ليمنح تشرشل فرصة أسهل للنجاح في الانـــتخابات الفرعية. ومع أن تشرشل رفض العرض في ذلك الوقت، فإنه لم ينسَ التفاتته الشخصية والسياسية السخيّة.

عمل سبيرز خلال الحرب العالمية الأولى ضابط اتصال بين الاستخبارات الفرنسية والـــبريطانية، وبـــين القـــيادتين العسكريتين في وقت لاحق. لذا اختاره تشرشل في أيار/مايو 1940 مبعوثاً شخصياً إلى رئيس الوزراء الفرنسي المحاصَر بول رينو. وعندما انهـــارت فرنـــسا أمام الهجوم الألماني في حزيران/يونيو، تحمّل سبيرز مسؤولية الجنرال ديغـــول وهـــربّه من بوردو إلى إنكلترا أمام أعين حكومة بيتان الجديدة. عيّن تشرشل ســـبيرز رئيـــساً للبعثة البريطانية إلى الفرنسيين الأحرار[1]. وفي أثناء الخدمة في الشرق الأوسط بين سنتي 1941 و1944، تمتّع سبيرز بميزة رفع التقارير إلى تشرشل مباشرة من دون المـــرور بوزارة الخارجية وغيرها من وزارات الدولة. وعلى أي حال، كان سبيرز يـــزدري وزارة الخارجـــية الـــتي اعتبرها دائماً عنيدة وجبانة. وقد قدّم هذا الجندي الدبلوماســـي المتميّز مثالاً على التغيير الذي يمكن أن يُحْدثَه التدخل الجريء لشخص

(1) Roshwald, *Estranged Bedfellows*, p. 86.

واحــد في مــسار الأحداث. كما أدّى دوراً حاسماً في تحقيق استقلال لبنان وسوريا بالتعاون الوثيق مع رياض الصلح.

كانت زوجة سبيرز الأميركية، وهي ابنة ويليام بوردن من شيكاغو، تتمتّع بجرأة مماثلــة. تولّت إدارة مستشفى نقّال في الحرب العالمية الأولى، وتلك مأثرة تمكّنت من تكــرارها في الحــرب العالمــية الثانية، على الرغم من فقدانها جميع تجهيزاتها في أثناء الانــسحاب الفرنسي. جهّزت بعد ذلك وحدة طبّية بمساعدة أميركية، وسلّمتها إلى الجنرال ديغول، حيث رافقت الفرنسيين الأحرار إلى أفريقيا، وشاركت في الحملة على سوريا.

وصــل ســبيرز إلى القاهرة ديغولياً متحّمساً، فقد أعجب بموقف هذا الفرنسي المــتحدّي، وصــمّم على بذل ما في وسعه لمساعدته في إطلاق الفرنسيين الأحرار في طــريقهم إلى الانــبعاث الوطني. كان سبيرز واسع المعرفة في الجغرافيا السياسية، ومن أوائــل من حذّروا من الخطر الذي ستتعرّض له قناة السويس، والأسطول البريطاني في الإســكندرية، وقــبرص وأنابيب نفط العراق - والموقف البريطاني بأكمله في شرق المتوســط - إذا سُمح للطائرات الألمانية باستحدام المطارات اللبنانية والسورية التي لا تــبعد أكثــر من ساعة بالطائرة. وانضم سبيرز إلى ديغول في حثّ الجنرال أرشيبالد ويفل، القائد العام البريطاني، على طرد نظام فيشي داخل سوريا في أقرب فرصة ممكنة.

لكــن ســرعان مــا لاحظ سبيرز أن أولويات ديغول تختلف اختلافاً كبيراً عن أولوياته. فقد كان الشاغل الرئيسي لدى ديغول استرجاع السيطرة الفرنسية على دول المشرق، وشكّل ذلك أولى بوادر الخلاف بينهما.

وفي القاهرة، اكتشف سبيرز وديغول أن بريطانيا أقامت ما يعادل حكومة إقليمية محــورها أوليفر ليتلتون، الذي عيّن وزير الدولة البريطاني لشؤون الشرق الأوسط في حزيــران/يونيو 1941، بعد أن كان رئيس مجلس التجارة. شكّلت ثلاث هيئات مهمة إلى جانــب ليتلتون بغية توحيد القوى البريطانية العسكرية والمدنية المبعثرة في الشرق الأوسط وهي: مجلس الحرب في الشرق الأوسط، وهو السلطة السياسية العليا؛ ومجلس الدفاع في الشرق الأوسط، وهو لجنة متفرّعة عن مجلس الحرب؛ ومركز إمداد الشرق الأوســط، الــذي تطوّر إلى محور إقليمي حيوي. حدث انسجام بين سبيرز وليتلتون.

وكانــت "بعثة سبيرز" مصمّمة كصلة وصل بين هذه الإدارات الثلاث وديغول، بغية مــساعدة الفرنسيين الأحرار في تأمين احتياجاتهم العسكرية. وقد شكّلت البعثة فروعاً في مخــتلف المناطق التي تعمل فيها فرنسا الحرة[1]. وكانت تعدّ في ذروة نشاطها 131 عــضواً، بيــنهم 25 ضابطاً والباقين من رتب أخرى، و37 مدنياً. بعد احتلال سوريا ولبــنان، نقلــت بعثة سبيرز مقرّها الإقليمي من مصر إلى لبنان. ومع أنها اتخذت من بــيروت مركــزها، فقد كان لديها ممثّلون في طرابلس وزحلة وصيدا، بالإضافة إلى دمشق وحلب وحماة واللاذقية والسويداء ودير الزور والحسكة[2].

بعــد ثلاثة أيام على استسلام الجنرال دنتز في عكا، أجمل سبيرز، بأسلوبه المتين المعــتاد، مهمته في لبنان وسوريا: "إنني على اتفاق تام ومطلق مع وزير الدولة ليتلتون بشأن المواضيع كافّة. الجميع متفق على أن مهمّة البعثة السورية تواجه أكبر الصعوبات الــتي يمكن تخيلها. النجاح صعب المنال، ووقوع الكارثة محتمل. إذا جرى التدخّل في علاقتي مع وزير الدولة، فسأشعر أنني غير قادر على القيام بهذه المهمّة الصعبة". كانت تلك إشارة مبكّرة من سبيرز تستبق أي محاولة لتدخل المسؤولين في لندن.

تابع سبيرز قائلاً:

المشكلة هي:

منع اشتعال البلد.

المــساعدة في جعل سوريا كتلة صلبة تشكّل قاعدة آمنة تعمل منها قواتنا المسلّحة مهما كانت الظروف.

يجب أن يتحقق ذلك في بلد:

أ. غالباً ما تكون المصالح المحلية فيه متضاربة.

ب. سكانه مسلّحون إلى حد كبير.

ج. يكره الفرنسيين بكل فئاتهم.

د. يشعر فيه الفرنسيون الأحرار بغيرة شديدة من البريطانيين.

ه. غالباً ما تكون فيه سلطات الفرنسيين الأحرار متعارضة بعضها مع بعض.

(1) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, pp. 143 ff.

(2) Eyal Zisser, *Lebanon: The Challenge of Independence*, p. 251, no. 13.

و. تقل فيه أعداد المسؤولين الإداريين.

ز. ينتشر فيه عدد كبير من البريطانيين الذين لا يرتبط بعضهم ببعض ولا يثق بهم الفرنسيين ويسعى السكان المحليون إلى استغلالهم.

من هذه العوامل يجب ابتكار نظام يحافظ على طابع البلاد الفرنسي قدر الإمكان ويصون المصالح البريطانية الحيوية.

ومن الضروري قبل كل شيء تجنّب الاضطرابات المدنية التي من المرجّح أن تنتشر خارج سوريا وتورّطنا في استخدام القوة ضد العرب الذين نسعى إلى الحصول على ثقتهم.

هناك صعوبة أساسية إضافية هي ديغول نفسه. فسيعود إلى هنا يوم الجمعة وينوي الذهاب إلى سوريا... وقد يحاول التنكّر للهدنة إذا لم يرضَ عن شروط كسب القوات الفرنسية إلى جانبه.

يجب التعامل مع ديغول بحذر... قد تخرج البلاد عن السيطرة خلال أسبوعين إذا مُنح حرية التصرّف في سوريا وفق مزاجه الحالي[1].

مال سبيرز عند وصوله إلى المشرق إلى التشكيك بالوطنيين العرب الذين أبلغ أنهم أصدقاء المفتي الحاج أمين الحسيني، وأنهم دعموا رشيد عالي في تحدّي البريطانيين في العراق، وتودّدوا إلى ألمانيا وإيطاليا. وبما أن الأجهزة الأمنية البريطانية اعتبرت رياض الصلح وأصدقاءه رجالاً خطيرين، فقد قرّر سبيرز النأي بنفسه عنهم. وقاطعت بعثته الوطنين السوريين مدة سنة تقريباً. وعندما حاول سعد الله الجابري العودة إلى سوريا قادماً من العراق، رُدّ على أعقابه عند الحدود. وتجنّب رياض بدوره لفت الأنظار خوفاً من الاعتقال.

تأقلم سبيرز بسرعة مع السياسة المشرقية، واعتمد على قنصلَيْ بريطانيا في بيروت ودمشق، فيرلونج Furlonge وغاردنر، بغية إطلاعه على تعقيداتها، إذ كان لديهما خبرة واسعة في الشؤون المحلية ويعرفان الشخصيات المحلية. وفي غضون ذلك، كان عليه معرفة حجم كاترو وهل بإمكانه ترويض ديغول.

(1) General Spears to Foreign Office (via Cairo, 2252), 17 July 1941. St. Antony's College, Middle East Library, Private Papers. Spears Box 1, GB 165-0269.

الزعيم المنتظر

في سنة 1941، كان رياض بك معروفاً على نطاق واسع بأنه الزعيم المسلم الرئيسي بين أبناء جيله في لبنان، وشخصية قومية عربية من الدرجة الأولى - مثلما كان معروفاً عالمياً. اعتبره الفرنسيون، فيشيين كانوا أم ديغوليين، خصمهم الأول، في حين أقرّوا سراً بمزاياه، كما يظهر في تقرير بَعَثته السلطات الفرنسية في بيروت إلى باريس في أيلول/سبتمبر 1941:

> رياض الصلح سياسي يتمتع بنفوذ كبير في الأوساط العربية. عمل في سبيل الوحدة في السنوات العشرين الماضية. كان ثرياً جداً، لكنه أنفق ثروته على نشاطاته السياسية. لم يبدِ استعداداً قط للتعاون مع سلطات الانتداب... إنه مناور بارع وذو ازدواجية محيّرة، إذ لا يمكن تحديد هل هو كاره للأجانب أو موالياً للبريطانيين أو للألمان. لقد تمكّن من إظهار هذه المواقف الثلاثة في الوقت نفسه. وهو مقرّب جداً من الوطنيين السوريين والعراقيين والفلسطينيين... ويعمل للوحدة السورية نحو تحقيق الوحدة العربية[1].

كان رياض وزوجته فائزة مع بناتهما الخمس يعيشون في ذلك الوقت في شقة متواضعة فوق صف من الدكاكين في حيّ رأس النبع في بيروت، استأجروها من ملحم بك حمادة (هو جدّ السياسي الدرزي الحالي مروان حمادة). هناك، في شارع عمر بن الخطاب، كان يشعر رياض بارتياح، حيث يوفّر له "القبضايات" الحماية، ويستخدمهم في معاركه ضد الفرنسيين.

عندما تزوج رياض فائزة الجابري في سنة 1934، انتقل وزوجته للعيش مع والديه في المنزل الواقع في ميناء الحصن على واجهة بيروت البحرية، وهو المنزل الذي ورثته والدته وأمضى فيه معظم طفولته. بُني هذا البيت على طراز قصر إيطالي، واتسم بغرفه الواسعة وإطلالته الرائعة على البحر الذي يعلو وينحسر على الصخور في أسفله. أحب رياض هذا المنظر على نحو خاص. لكن عندما اتخذ الفرنسيون إجراءات

(1) MAE-Nantes, Fonds Beyrouth (Amb.), Serie 1994A, Carton 20, note sur Riad el-Solh, de la Delegation Générale de la France Combattante au Levant, 23 septembre 1941.

ضـــدّه في سنة 1935، فأبعدوه إلى القامشلي بسبب دوره في إضراب سائقي سيارات الأجـــرة، صـــادروا أملاكـــه التي لم تبع - الأرض في جنوب لبنان والبيت في ميناء الحصن - وعرضوها للبيع القسري. فبيع البيت في بيروت إلى عائلة جوستان اليهودية الإيطالـــية، فهدمـــته على الفور وشيّدت عمارة سكنية مكانه وافتتحت نادياً ليلياً في الطابق الأرضي يدعى دومينو.

لا شك في أن زوجته شعرت بالفخر حين لمع اسمه في سماء السياسة العربية. كان يتمـــتّع بالجاذبـــية والذكاء والقوة السياسية. لكنها ربما لم تعش حياتها الزوجية كما ترغب. فغالباً ما كان رياض غائباً أو منفيّاً. وفي فترة الانتداب، اعتبره الفرنسيون عدواً لهم، فقاست عائلته من جراء ذلك. كانت تمضي فترات طويلة من دون أن يجرؤ أحد علـــى زيـــارتهم. وعـــندما يعود إلى البيت، ينشغل عادة مع مناصريه وزعماء الأحياء الإســـلامية في بـــيروت في الطابق السفلي. كان كثير من الرجال الصاخبين والخشنين يأتـــون ويذهـــبون، بينما تعزف فائزة موسيقى شوبان في الطابق العلوي. ربّت بناتها بمفردها إلى حدٍّ ما، وكانت تحوك لهنّ الثياب أو تخيطها بسبب قلة المال. كانت امرأة شجاعة ومتحفّظة في إبداء مشاعرها حتى مع عائلتها[1].

> يذكر زهير عسيران، وهو صديق رياض الصلح وجاره، أنه كان في ذلك الوقت أنيقاً دائماً، ذا شارب صغير، يعتمر الطربوش (مائلاً دائماً). كان بيتنا قريباً مـــن بيته. وكانت المظاهرات تبدأ من بيته وتنتهي عنده. كان الزعيم الذي حارب الانتداب. لاحظتُ أنه يحبّ ركوب الخيل وقراءة التاريخ العربـــي. وكـــان يحـــب الشعر، وخاصة المتنبـــي وامرؤ القيس، ويتذوّق الموسيقى الكلاسيكية كثيراً[2].

لم يكـــن في وسع بعثة سبيرز الاستمرار في تجاهل رياض والوطنيين. وقد جرت محاولـــة أولى للتوسّـــط لصالحهم مع الحلفاء قام سياسيان عراقيان وصلا إلى السلطة بـــرعاية البريطانيين بعد إسقاط رشيد عالي، وهما رئيس الوزراء جميل المدفعي ووزير

(1) مقابلة مع علياء الصلح، 4 - 5 تشرين الأول/أكتوبر، مونت كارلو.

(2) مقالة عن رياض الصلح كتبتها هدى الحسيني، استناداً إلى ذكريات الصحافي الكبير زهير عسيران في مجلة الشراع اللبنانية، العدد 848 (7 أيلول/سبتمبر 1997).

الخارجية علي جودت الأيوبي[1]. كان هذان الرجلان عضوين في المنظمات القومية العربية قبل الحرب العالمية الأولى وضابطين في القوات الشريفية، وقد انضما في ذلك الوقت إلى حكومة الملك فيصل في دمشق. لذا كان لديهما اهتمام شديد بالسياسة العربية وشبكة إقليمية من المعارف والأصدقاء. في لبنان، كانا على اتصال برياض الصلح، ممثل التيار الأساسي للوطنيين العرب، بدلاً من منافسيه آل كرامي وحلفائه في بيروت من آل سلام وآل بيهم.

رحّب رياض الصلح في بيروت وشكري القوتلي في دمشق بهذا العرض للدفاع عنهما أمام بعثة سبيرز. وقد جرى التواصل مع جميل المدفعي وعلي جودت الأيوبي في بغداد عبر قنصلَي العراق في بيروت ودمشق، بالإضافة إلى كاظم الصلح، ابن عم رياض المقيم في بغداد في تلك الفترة. قدّم كاظم في 14 تموز/يوليو 1941 مذكّرة للمدفعي يبيّن فيها مطالب الوطنيين وطلب نقلها إلى البريطانيين. وهذه المطالب هي الاستقلال وإجراء انتخابات حرّة في سوريا ولبنان، وامتناع فرنسا عن دعم الحركات الانفصالية والطائفية، وموافقة بريطانيا وفرنسا على دخول لبنان وسوريا في تحالف أو اتحاد عربي.

كتب رياض في ذلك الحين رسالة لكاظم كرّر فيها أن أهداف الوطنيين هي تحقيق الاستقلال والوحدة. كما عبّر عن تقديره لخطاب أنتوني إيدن الذي ألقاه في مبنى بلدية لندن وإعلان جنرال كاترو في 8 حزيران/يونيو 1941 استقلال دول المشرق، فضلاً عن ارتياحه للبيان الذي أصدرته بريطانيا وأشركت فيه نفسها بالتعهّد الفرنسي. واقترح رياض إجراء استفتاء عامّ في لبنان حول الوحدة العربية برعاية دولية تضم العراق والمملكة العربية السعودية.

تبنّت الحكومة العراقية مذكّرة كاظم الصلح ونقلتها، مع بعض التعديلات، إلى السفير البريطاني في بغداد، السير كِنَهَن كورنواليس. وقُدّمت مذكرات مماثلة إلى ممثّل الرئيس روزفلت والجنرال كاترو. وعرض ابن سعود الوساطة مع البريطانيين نيابة عن رياض الصلح وشكري القوّتلي، لكن البريطانيين رفضوا عرضه. غير أن كل هذه النشاطات أطلعت بعثة سبيرز على آراء رياض ومواقفه.

(1) للاطلاع على القطعة التالية، انظر Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, pp. 147-151.

مـــن الوسطاء الذين سهّلوا على رياض الصلح اكتساب ثقة بعثة سبيرز الكابتن مـــارون عرب، وهو مسيحي أرثوذكسي ومراقب ذكي للمشهد السياسي في لبنان. كـــان صديقاً لرياض ويتحدّث معه باللغة التركية. عمل مارون في السفارة البريطانية قـــبل الحرب حيث عمل مستشاراً في الشؤون المحلية، وانضم إلى بعثة سبيرز كمساعد لفيرلونج بعدما سيطر الحلفاء على سوريا ولبنان. وفي وقت لاحق، روت كريمة رياض الـــصلح، علـــياء، طـــرفة للمؤلف: "يقول إنه كابتن، وما هو بعسكري؛ ويقول إنه مارون، وما هو بماروني؛ ويقول إن اسمه 'عرب'، وما هو بعربـــي"[1].

تم الاتـــصال المباشـــر بوساطة يوسف سالم، وهو مساعد آخر لفيرلونج وصديق أيـــضاً لرياض. عندما أبلغ فيرلونج سالم بقرار سجن رياض نتيجة تعاونه مع الألمان في العراق، سارع إلى تحذيره مما يبيّت له. ثم رتّب لقاء بين رياض وفيرلونج، كرّر خلاله القنصل اتّهام رياض وكتلته الوطنية في سوريا بالتعاون مع الألمان. ولكن رياض تمكّن بعـــد نقاش دام ثلاث ساعات من إقناع فيرلونج بأن التعاون مع الألمان لم يكن هدفه المسّ بالمصالح البريطانية، بل بغية تحرير سوريا من الفرنسيين فحسب.

قـــدّم ريـــاض عرضـــاً للقنصل قائلاً: "فلنتّفق على نسيان الماضي ونتحدّث عن المـــستقبل فقط. إذا ساعدتمونا في إنهاء الانتداب الفرنسي فسنقف إلى جانبكم". وفي الـــيوم التالي، طلب رياض من صديقه الصحافي حنّا غصن الذي كان يعمل في جريدة الديار أن يكتب افتتاحية بعنوان "لماذا نقف مع بريطانيا؟" يوضح فيها العلاقة الجديدة بين الوطنيين العرب والبريطانيين[2].

لم يكن رياض، مثله مثل الكثير من القوميين العرب، يثق ببريطانيا بعدما أعطت فلسطين للصهاينة وسوريا للفرنسيين، ناكثة الوعود التي قدمتها للعرب خلال الحرب. وازداد العداء الذي يكنّه لبريطانيا لأنها سحقت انتفاضة رشيد عالي في العراق، وإذلّت فـــاروق في مـــصر عندما حاصرت دباباتها قصر الملك وأجبرته على تعيين زعيم الوفد الـــنحّاس باشا رئيساً للوزراء. كما أن استمرار سيطرة بريطانيا السياسية والعسكرية

(1) مقابلة مع علياء الصلح، 4 - 5 تشرين الأول/أكتوبر، مونت كارلو.

(2) هـــلال الصلح، **تاريخ رجل وقضية: رياض الصلح 1894-1951**، ص 80. يوسف سالم، **خمسون سنة مع الناس**، بيروت 1975، ص 111-115.

علـى العـراق وشرق الأردن وفلسطين ومصر تحبط تطلعات العرب إلى الاستقلال والوحدة.

مـع ذلـك، كان رياض الصلح سياسياً براغماتياً. أدرك أن سياسة بريطانيا العـربية تظل أكثر تحرّراً من السياسة الفرنسية. كما أن علاقاته الشخصية الوثيقة مـع ابـن سعود في شبه الجزيرة العربية، والنحّاس باشا في مصر، والأمير عبد الله في شـرق الأردن والوصـي على العرش العراقي عبد الإله في المعسكر الهاشمي - وجمـيعهم تعاونـوا مـع بريطانيا خلال الحرب - ربما قلّلت من موقفه المعادي لبريطانيا[1].

تحوّل سبيرز من الديغولية إلى العروبة

كـان الجنرال سبيرز ذا عاطفة قوية، شديد الحماسة في المحبّة والكره. بعد أن كـان مخلـصاً لديغـول، تحوّل خلال أسابيع من وصوله إلى المشرق إلى أحد أشد خـصومه شراسـة، بل إنه ألمح للندن أن من الأفضل إبعاد هذا القائد الفرنسي عن المـنطقة. كان لهذا التغيّر المفاجئ والجذري في المشاعر أسباب عميقة ومتعددة. فقد غضب سبيرز من العداء الذي أبداه ديغول لبطله ونستون تشرشل، كما استاء جداً من فظاظته، فكتب عن "نوبات مزاج ديغول البشع"[2]. وشعر بالإهانة من الطريقة القاسية التي هاجم بها هذا الرجل الفرنسي هدنة تموز/يوليو 1941. كان سبيرز يحتقر أيـضاً الأسـاليب الفرنسية الاستعمارية التي بدت له أنها تمثّل القومية العمياء لحقبة ولّت، وتلك وجهة نظر جعلت تشرشل نفسه يوجّه إليه توبيخاً نادراً ويحذّره قائلاً: "علينـا النهي عن رمي الحجارة لأن بيوتنا من زجاج"[3]. ولعل ما لا يمكن احتماله لـوطني عنيد مثل سبيرز أن ديغول بدا أكثر اهتماماً بالمحافظة على سيطرة فرنسا في المـشرق أكثر من اهتمامه بكسب الحرب. وأظهر سبيرز صراحة شديدة في وصف

(1) Meir Zamir, 'An Intimate Alliance: The Joint Struggle of General Edward Spears and Riad al-Sulh to Oust France from Lebanon, 1942-1944' in *Middle Eastern Studies*, vol. 41 (6) (November 2005), pp. 811-832, p. 816.

(2) Major General Sir Edward Spears, *Fulfilment of a Mission*, London 1977, p. 142.

(3) نقلا عن Zamir, 'An Intimate Alliance', p. 812.

هـــذا التحوّل في مشاعره: "تهاوت أمامي مسيرة عمر مليئة بالمشاعر والتعاطف مع الفرنسيين. أما الآن فلا شيء يهمّ سوى إنكلترا "[1].

بحلـــول خريف 1941، تحرّر سبيرز من أوهامه تجاه قائد الفرنسيين الأحرار. وقد علّـــق الجنـــرال "جمـــبو" ويلسون، قائد عملية السيطرة على سوريا ولبنان بسخرية: "انقلـــب [سبيرز] فجأة إلى مناهض للفرنسيين خلال بضعة أسابيع من توقيع الهدنة في عكا. ولم يكن لديهم شيء أفضل حتى ذاك الوقت"[2]. وفي نهاية السنة، ظهر الجنرال سبيرز الجديد. أصبح الآن يميل نحو الوطنيين، إذ رأى أن بناء علاقات جيدة مع العرب في هـــذه المـــرحلة من الحرب أكثر أهمية من تحسين العلاقات مع فرنسا الحرة. واقتنع ســـبيرز بأن المصالح البريطانية تقتضي منه انتزاع استقلال دول المشرق من الفرنسيين المتردّدين، الذين واصلوا التأكيد على أن الانتداب لا يزال صالحاً.

غـــضب ســـبيرز مـــن أسلوب الفرنسيين الأحرار في إدارة الأمور. فقد أقاموا جمهوريـــتين على الورق في بيروت وسوريا، ولأنهم يفتقرون إلى القوة العاملة الإدارية، أبقـــوا علـــى معظم المسؤولين التابعين لفيشي في مناصبهم وأبعدوا حفنة من المجاهرين بـــتعاطفهم مع المحور. بل إن سبيرز لم يجد اختلافاً بين فرنسا الحرة وفيشي في المشرق. أمّـــا الفرنسيون فقد رأوا أن قيام سبيرز بتشجيع الوطنيين المحليين محاولة بريطانية خبيثة لإخضاع سوريا ولبنان لنفوذ بريطانيا. وهكذا أصبحت بعثة سبيرز مصدراً لاحتكاك كبير بين البريطانيين والفرنسيين بدلاً من أن تكون وسيلة للتعاون بينهما[3].

تُـــرِك لتشرشل أمر تسكين مخاوف الفرنسيين. ففي 9 أيلول/سبتمبر 1941، عمد رئـــيس الوزراء إلى تحديد موقف بريطانيا في مجلس العموم تجاه مسألة المشرق، حيث أعلن:

> لـــيس لدينا مطامع في سوريا ولا نسعى إلى الحلول محل فرنسا، أو استبدال المـــصالح الـــبريطانية بالمصالح الفرنسية في أي جزء من أجزاء سوريا. إننا موجـــودون في ســـوريا لنـــربح الحرب فحسب. لكن عليّ أن أوضح أن

(1) Major-General Sir Edward Spears, *Assignment to Catastrophe: The Fall of France, June 1940*, Melbourne 1954, p. 48.

(2) نقلا عن Gaunson, *The Anglo-French Clash*, p. 66.

(3) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, p. 143.

سياستنا، التي يشارك فيها حلفاؤنا الفرنسيون الأحرار، تقضي بإعادة تسليم سوريا للسوريين الذين سيستعيدون حقوقهم بالاستقلال والسيادة في أقرب وقت ممكن. نحن لا نقترح الانتظار حتى انتهاء الحرب لتشكيل حكومة أو حكومات سورية مستقلة، إذ يمكن قيام أكثر من حكومة واحدة. إننا ننظر دائماً في زيادة الحصة السورية في الإدارة. ولا شك في أن فرنسا ستحافظ على الموقف نفسه الذي اتخذته في سوريا قبل الحرب، لكن الحكومة الفرنسية أدركت وجوب انتهائه. وندرك، من جهة أخرى، أن فرنسا، بين جميع البلدان الأوروبية، تتمتّع بامتياز خاص في سوريا، وأن النفوذ الفرنسي سيكون الأبرز مقارنة بنفوذ أي بلد أوروبي آخر.

[أعضاء المجلس المحترمين: "لماذا؟]

لأن هذه هي السياسة التي قررنا اعتمادها. فنحن لم نذهب إلى هناك لحرمان فرنسا من دورها التاريخي في سوريا، إلا بقدر ما هو ضروري لتنفيذ التزاماتنا ووعودنا للشعب السوري. يجب ألاّ يثار أي سؤال، حتى في وقت الحرب، عن إحلال مصالح الفرنسيين الأحرار محل مصالح الفرنسيين الفيشيين. يجب أن تستقل الشعوب السورية. وذلك أمر معترف به تماماً في الوثائق المتبادلة بين وزير الدولة ليتلتون والفرنسيين الأحرار.

طُرح علي سؤال عن علاقاتنا مع العراق. إنها علاقات خاصة، مثل علاقاتنا مع مصر، وأعتقد أن فرنسا ستجري ترتيبات خاصة مع سوريا بالطريقة نفسها. إن استقلال سوريا هو خاصية أساسية من خصائص سياستنا[1].

درس الفرنسيون والوطنيون هذا البيان الغامض، ولم يُرضِ أياً منهما. وجده العرب مزدوج المعنى. فتشرشل في النهاية إمبريالي غير نادم يقوم مفهومه عن "استقلال" العرب على المعاهدات التقييدية التي وقّعها مع العراق ومصر في الثلاثينيات. فقد منحت هاتين المعاهدتين بريطانيا نفوذاً سيادياً في البلدين، بالإضافة إلى حق واضح في إقامة القواعد العسكرية. وفي الأربعينيات، لم يكن الوطنيون العرب في سوريا ولبنان مستعدّين لقبول الاستقلال الاسمي الذي منحته بريطانيا للعراق ومصر.

(1) Hansard, 9 September 1941. Prime Minister's Statement on British Policy in Syria.

كـان بـيان تشرشل متناقضاً جداً في الواقع. فهو يشير إلى حصول سوريا على الاستقلال، على أن يحتفظ الفرنسيون بموقعهم الخاص فيها. ومن شبه المستحيل دعم الآمال السورية والتمسّك بموقع فرنسا المميّز في آن معاً، لأن المطمح السوري الأساسي هو التخلص من الفرنسيين تماماً. ادّعت بريطانيا عدم وجود أهداف استعمارية لديها، لكـن سياسـتها في المشرق تقوم على إيجاد "زعماء" عرب متعاونين مع الإمبراطورية "الإسلامية" الخاضعة لسيطرتها[1].

لتـشجيع الفرنسيين على إعطاء بعض الأرض للوطنيين في المشرق - كما ظنت بريطانيا أنها فعلت في العراق ومصر - تراجعت وزارة الخارجية عن الوعود التي قدّمتها إلى الـسوريين واللبنانـيين. فأبلغـت الجنـرال ديغول سراً أنها تقرّ بحقه في ممارسة الـصلاحيات الـتي مُنحت إلى فرنسا بموجب الانتداب، ووافقت على إنهاء الانتداب شـريطة أن تحلّ محله بعد الحرب معاهدات تربط لبنان وسوريا بالجمهورية الفرنسية! ومـن الواضـح أن هـذا الموقف يتناقض تناقضاً صارخاً مع البيانين اللذين أصدرهما الفرنسيون الأحرار والبريطانيون في 8 حزيران/يونيو 1941[2].

شـجّع بيان تشرشل الغريب أمام مجلس العموم و"إيضاحات" وزارة الخارجية، الجنـرال كاتـرو على إصدار إعلان عن استقلال سوريا في 27 أيلول/سبتمبر 1941، لكنه استغل التناقضات التصالحية في الموقف البريطاني واستبعد ببرودة مسألة الاستقلال بأكملها. فلن يعاد العمل بالآليات الدستورية ولن يحدث انتقال ذو مغزى للحكم إلى السوريين. وسيبقي كاترو المفوّض السامي الفعلي، وإن لم يحصل على الاسم، ويحتفظ بسلطته على القوات الخاصة والأمن العام والمصالح المشتركة. وبمساعدة "المستشارين" في الـوزارات، سيمارس صلاحيات التي تجعل الاستقلال مجرّد ادّعاء. و لم يكن النظام الجديد الذي أقامه سوى عرض ماكر للدمى[3].

سمّـى كاتـرو الشيخ تاج الدين الحسيني رئيساً لسوريا، وهو معروف بخضوعه لفرنـسا، وحـسن الحكيم رئيساً للوزراء. وفي لبنان، منح ألفرد نقاش لقب الرئيس، وشُكّلت حكومة جديدة برئاسة أحمد الداعوق في 1 كانون الأول/ديسمبر 1941. بعد

(1) Gaunson, *The Anglo-French Clash*, p. 78.
(2) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, p. 154.
(3) Gaunson, *The Anglo-French Clash*, p. 80.

تعـــيين النقاش كتب سبيرز إلى ليتلتون غاضباً: "يشعر المرء كأننا نمسك بلبنان لتغتصبه فرنـــسا الحرة". ورأى سبيرز أن "تجسيد مثل هذه السياسة أمر كريه جداً"[1]. وعلى الـــرغم من أن البريطانيين اعتبروا أنه لم يجرِ التشاور معهم بالشكل المناسب بشأن هذه الترتيبات، فإنهم اعترفوا بهاتين الحكومتين، ومُنح ذلك شكلاً رسمياً برسالة تهنئة طُلب مـــن الملـــك جـــورج السادس توجيهها إلى رئيس الجمهورية السورية في 29 تشرين الأول/أكتوبر جاء فيها:

> الـــسيد الـــرئيس، تلقّيت بسرور كبير خبر إعلان استقلال سوريا في 27 أيلـــول/ســـبتمبر 1941 وتولّيك منصب رئيس الجمهورية السورية. وبهذه المناسبة الميمونة، أرسل إليك تهانيّ الحارة مع تمنياتي لك بالصحة والسعادة، والازدهار والرفاه لسوريا ومواطنيها.
>
> وأتمنّـــى مخلـــصاً أن تـــزداد علاقـــات الصداقة بين شعبَيْنا وثوقاً ودفئاً مـــن أجـــل المـــصالح المـــشتركة وتطوير المبادئ السامية المشتركة بينهما.
>
> جورج ر.إ.[2]
>
> وأرسلت إلى الرئيس اللبناني رسالة مماثلة.

انـــــزعج الفرنسيون من هذه المجاملات الدبلوماسية التي اعتبروها دليلاً إضافياً علـــى محاولة بريطانيا التدخّل في منطقة نفوذهم. أمّا الوطنيون فاعتبروا بيان كاترو وما تـــلاه من إجراءات غير مقبول البتة. وأرادوا أن تنفّذ فرنسا ما وعدت به على الفور، بدلاً من تأجيل القضايا الرئيسية وبحثها في مفاوضات غير معروفة النتائج بعد حرب لا يمكن توقّع ما ستؤول إليه.

مذكرة رياض في كانون الأول/ديسمبر 1941

في أوائل كانون الأول/ديسمبر، أُبلغ الفرنسيون أن رياض يعتزم الردّ على إعلان كاترو. وكما أفاد ممثّلهم في بيروت في تقرير رفعه إلى ديغول:

---

(1) المصدر نفسه، ص 82.

(2) Annex to an Aide-Memoire handed to General de Gaulle on 28th October 1941, by the Secretary of State for Foreign Affairs. Spears Papers, St Antony's College, Middle East Library, Spears Box 1, File 4, GB 165-0269.

يقـــوم القائد المسلم المتطرّف رياض الصلح بإعداد التماس إلى الحلفاء ينتقد فيه على ما يعتقد النظام الجديد للاستقلال اللبناني الذي يزعم أنه لا ينسجم مع البيانات والوعود التي قدّمتها بريطانيا العظمى إلى اللبنانيين والسوريين. ويقـــول رياض إنه استقلال منقوص إذ اختار كاترو الحكومة بدلاً من أن ينتخبها الشعب، وإن هذه الحكومة ليس لديها أي وثيقة رسمية تكرّس مبدأ الاســـتقلال، ســـوى إعلان الجنرال كاترو. ويطالب رياض الصلح أيضاً بتحقيق الوحدة السورية"[1].

فـــيما كان رياض منكبّاً على كتابة مذكرته، غادر الجنرال سبيرز بيروت في 11 كانون الأول/ديسمبر لعرض آرائه على المسؤولين البريطانيين بأسلوبه المباشر المعهود. أكمـــل ريـــاض مذكـــرته في أثناء غياب سبيرز، وأرسل نسخاً منها إلى المفوّضيات والبعـــثات الدبلوماســـية لبريطانيا والولايات المتحدة وتركيا والعراق والمملكة العربية الـــسعودية ومـــصر. أخـــذت بعثة سبيرز علماً بهذه المذكّرة، لأن إعلان كاترو عن اســـتقلال لبـــنان كان موضع خلاف مرير بين سبيرز وديغول[2]. استلم المذكّرة أحد مساعدي سبيرز، جون هاملتون John Hamilton، وأرسلها إلى وزير الدولة في القاهرة. وعلّق هاملتون عليها قائلاً: "إنها عريضة منطقية جداً وتستحق أن تحفظ في السجلات حتى يحين وقت اتخاذ مزيد من القرارات المتعلّقة بمستقبل البلد"[3].

وجّهت مذكرة رياض، المؤرخة في 20 كانون الأول/ديسمبر 1941، نقداً شاملاً لسياسات الجنرال كاترو، وعبّرت بوضوح عن موقف الوطنيين العرب. ورأى رياض أن إعـــلان كاتـــرو يتناقض مع التعهّد بالاستقلال الذي قدّمه بنفسه، وكرّره ديغول وتـــشرشل وإيـــدن، بالإضافة إلى إعلاني فرنسا وبريطانيا في 8 حزيران/يونيو 1941. ورفـــض ريـــاض تأكيد كاترو على "الحقوق التاريخية" لفرنسا في لبنان، واقتراحه أن

(1) MAE-Nantes, Fonds Beyrouth Ambassade, Carton 20, Serie 1994A, Delegation Generale de la France Combattante au Levant, 5 decembre 1941.

(2) Zamir, 'An Intimate Alliance', p. 816.

(3) Letter from Hamilton to Minister of State with Solh's petition attached (F0371/31469/592), نقـــلاً عن Zamir, 'An Intimate Alliance', p. 817. انظر أيضاً، علياء الصلح، **عندما دخلوا التاريخ**، بيروت 1959؛ وهلال الصلح، **تاريخ رجل وقضية**، ص 82-87.

تستبدل معاهدة قائمة على معاهدة 1936 اللبنانية الفرنسية بالانتداب بعد الحرب. ورأى أن أي معاهدة كهذه تسلب لبنان سيادته وتمنعه من المشاركة في تحقيق الوحدة العربية التي شجعتها الحكومة البريطانية. وبدلاً من إلغاء الطائفية والمساعدة في قيام لبنان كبلد عربي موحّد، فإن النظام الذي اقترحه الفرنسيون يرسّخ الانقسامات الطائفية الإقليمية. سخر رياض من "المشاورات" التي سبقت إعلان كاترو، وأبدى أسفه لأن السلطات الفرنسية لم تسمح بإجراء انتخابات حرّة. وقال رياض مخاطباً كاترو شخصياً: "لقد رفضتَ الاستماع لمن حاول لفت نظرك إلى الرغبات الفعلية للبلاد".

تعمّد رياض في مذكرته تجنّب أي إشارة إلى القضايا المثيرة للخلاف الداخلي مثل الوحدة السورية، ومشكلة الأراضي "المتنازع عليها"، أو أي مطالب ذات طابع إسلامي. وسعى بدلاً من ذلك إلى التعبير عن روح التسوية والمصالحة التي بدأت تترسّخ في أوساط الوطنيين العرب منذ منتصف الثلاثينيات ولا تزال تتعزّز مع تغيّر ظروف الحرب[1].

اهتمّ رياض، منذ كان يافعاً، بتهدئة مخاوف المسيحيين في لبنان من الغرق في العالم الإسلامي الواسع. وبدأ، بعد أخذ مخاوفهم في الحسبان، يوصي في اتباع نهج ديمقراطي تدريجي لتحقيق الوحدة العربية، بدلاً من أي شيء أكثر قسراً. بدت نتائج هذا النهج الدقيق واعدة، إذ أخذ بعض الموارنة يعيدون النظر في موقفهم العدائي من القومية العربية وقلّ خوفهم من إقامة علاقات أوثق مع الدول العربية المجاورة. وأصبحت محاولات الفرنسيين الأحرار إعادة إثارة مخاوف الموارنة واستبعاد الوطنيين العرب من العملية السياسية أقل فعالية مما كانت عليه في الماضي. بل إن البطريرك الماروني شجب مخططات كاترو في اجتماع عامّ في بكركي، ودعا إلى الاستقلال الحقيقي للبنان، فأصبح الوطنيون العرب في صلب النشاط السياسية، ولم يعودوا معزولين خارجه كما كان يتمّنى الفرنسيون[2].

(1) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, pp. 157-8; F0371/31469, Cairo to London, 13 January 1942, 41-57; Zamir, 'An Intimate Alliance', p. 816.

(2) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, p. 159.

حظيت مذكّرة رياض بنقاش كبير، لكنها لم تُنشر في صحافة بيروت. فقد قلّصت الرقابة في أثناء الحرب ونقص الورق حجم الصحف في بيروت إلى صفحة أو اثنتين، واقتصرت أخبارها على أنباء الحرب وتقارير توزيع الحصص الغذائية ومواضيع مماثلة تحظى بالاهتمام الشعبي[1]. كما أن الخوف من انتقام الفرنسيين منع المحررين المحليين من نشر آراء رياض. لذا اضطر رياض إلى اللجوء إلى وسائل أخرى للوصول إلى جمهور أكبر. وقد نقلت الصحافية اللبنانية هدى الحسيني، في مقالة نُشرت في مجلة **الشراع** في 7 أيلول/سبتمبر 1996، عن الصحافي المخضرم زهير عسيران قوله: "كان أول حدث سياسي يوطّد علاقتي مع رياض بك في سنة 1941، عندما نشر الجنرال كاترو إعلانه عن استقلال لبنان. رفض رياض الاعتراف بهذا الإعلان وصاغ ردّاً معادياً له، لكن الصحافة اللبنانية رفضت نشره. فطلب مني رياض بك الذهاب إلى فلسطين وإعطاءه لمراسل **الأهرام** هناك، ففعلت".

إدوارد سبيرز يعود إلى المشرق بلقب فارس

عاد سبيرز إلى بيروت في آذار/مارس 1942 حاملاً لقباً جديداً وصلاحيات أوسع، وتعززت مكانته باستمرار دعم تشرشل الشخصي له. فقد مُنح لقب فارس في لندن وأصبح يعرف باسم الجنرال السير إدوارد سبيرز. واحتفظ بمنصبه القديم كممثل بريطانيا الرئيسي لدى الفرنسيين الأحرار في المشرق، كما عُيّن مفوّضاً دبلوماسياً لبريطانيا لدى الجمهوريتين السورية واللبنانية. وفي غضون أيام بعد العودة، قدّم سبيرز نفسه رسمياً إلى رئيسَي البلدين، لكنه تعمّد تجاهل زيارة كاترو باعتباره ممثّلاً للانتداب الفرنسي. كانت الرسالة واضحة - لم يعد سبيرز يعترف بالانتداب. أصبحت استراتيجيته الآن تقوم على تحقيق "الاستقلال" الفعلي، بل إنه طلب من كاترو الامتناع عن توسّل الانتداب لأنه "خيال قانوني". وهكذا عقد سبيرز العزم على مضايقة الفرنسيين، وتشجيع السوريين واللبنانيين في سعيهم لتحقيق الاستقلال، وجعل

(1) لا يوجد ذكر لمذكرة رياض في أي من صحيفة **بيروت** التي يصدرها صديقه محي الدين النصولي أو **النهار** أو "لوريان لوجور" أو **النداء** (التي أغلقت بين سنتي 1937 و1949) أو **لسان الحال** (أغلقت بين 1931 و1960).

المشرق ميزة حربية للحلفاء. توصّل ديغول وكاترو إلى استنتاجات قاتمة من هذه التطورات، واشتكى كاترو إلى ليتلتون قائلاً: "تصرّف سبيرز... بطريقة فظّة وخطيرة"[1].

بدأت العلاقات بين رياض الصلح وسبيرز تزهر في صيف 1942. فبعد عقد مزيد من الاجتماعات مع فيرلونج، برزت لهجة جديدة في المراسلات البريطانية بشأنه. ففي مذكرة مرفوعة إلى سبيرز عن الوضع داخل المجتمع المسلم، كتب فيرلونج: "رياض بك... هو الشخص الوحيد البارز بينهم"[2]. وبعد بضعة أسابيع، أفاد تقرير آخر أن رياض أصبح مقتنعاً بانتصار قوات الحلفاء في الحرب وأنه مستعد للتعاون[3]. بدأ البريطانيون يستبعدون الاتهامات الفرنسية بأن رياض تعاون مع الألمان ومنحوا ثقلاً أكبر لمقولة رياض بأن المسلمين اتُّهموا ظلماً بالولاء للمحور، وأنهم مالوا إلى الألمان على أمل التخلّص من السيطرة الفرنسية. والتمس رياض الصلح الدعم البريطاني لمسلمي لبنان، لأن أهميتهم الاستراتيجية بالنسبة إلى بريطانيا تفوق أهمية عدد صغير من المسيحيين اللبنانيين الانفصاليين[4].

أصبح سبيرز الآن يشارك الوطنيين الرأي بأن الانتداب فقد أساسه القانوني منذ نيسان/أبريل 1941، وأنه انتهى فعلياً بانهزام فرنسا الفيشية، إذا لم يكن بإعلان الفرنسيين الأحرار استقلال سوريا ولبنان. كل ما بقي عمله هو نقل السلطات، لكن لا يمكن ربط ذلك بإبرام أي معاهدة، أو إخضاعه لها. فبعد العديد من التجارب المريرة، لم يعد السوريون مستعدّين، لعقد مزيد من المعاهدات مع فرنسا. بل إنهم يريدون تحرير أنفسهم تماماً من أي ضغط قد يمارس عليهم بعد الحرب. شكّلت هذه الأفكار أساس التفاهم بين رياض وسبيرز، وهكذا بدأت علاقة وثيقة بينهما دامت سنتين ونصف.

في غضون ذلك، غادر أوليفر ليتلتون القاهرة، وأصبح وزيراً للإنتاج في المملكة المتحدة. حلّ محله السير والتر مونكتن Sir Walter Monckton كوزير دولة لفترة

(1) Gaunson, *The Anglo-French Clash*, p. 81 ff.

(2) Furlonge to Spears, Beirut, 8 June 1942 (FO 226/233); Zamir, 'An Intimate Alliance', p. 817.

(3) Beirut Political Officer, 23 July 1942 (FO 226/306).

(4) Zamir, 'An Intimate Alliance', p. 817.

قصيرة، ثم ر. ج. كيسي R.G Casey، المفوّض الدبلوماسي السابق لأستراليا في واشنطن. وأصبح الرجل الجديد الذي يتعيّن على سبيرز إقناعه بوجهة نظره.

سامي الصلح في رئاسة الوزارة

عندما استقال أحمدَ الداعوق من رئاسة وزراء لبنان في تموز/يوليو 1942، أراد سبيرز أن يخلفه رياض الصلح في هذا المنصب. لكن الفرنسيين أصرّوا على منع ذلك. كان كاترو يفضّل عبد الله اليافي، وهو معروف بولائه للفرنسيين، وصهر عائلة العظم السورية الثرية. وكان اليافي قد ترأس حكومة متعاونة قبل الحرب. أرسل فيرلونج مذكّرة ثانية إلى سبيرز جاء فيها:

> هناك مسلم سنّي واحد لديه القدرة اللازمة وقوة الشخصية لقيادة حكومة تمنع الرئيس من انتهاك صلاحياتها. إنه رياض الصلح الذي يكرهه الفرنسيون وكانت تشتبه به بعض أجهزتنا الأمنية في وقت من الأوقات. تشير جميع التقارير الحديثة إلى اقتناعه بانتصار الحلفاء واستعداده للتعاون معنا بإخلاص. وقد زارني للتعبير عن هذه المشاعر عندما كانت الأنباء الحديثة الواردة من مصر سيّئة جداً. [كان رومل على بعد 60 ميلاً فقط عن الإسكندرية في أوائل تموز/يوليو 1942].
>
> إنه يتميّز في الوقت الحاضر بصلاته الوثيقة مع سوريا ونفوذ كبير فيها. وأعتقد أن الحكمة تقتضي منا محاولة إقناع الفرنسيين بقبوله على هذه الأسس. لكن إذا رفضوا ذلك، فإنهم لن يعترضوا البتة على تعيين ابن عمه سامي الصلح[1].

تم اختيار سامي الصلح الذي تخلّى عن رئاسة محكمة الجنايات لتولّي رئاسة الحكومة[2]. ووجّه ديغول انتقاداً قاسياً إلى سبيرز لتدخّله لمصلحة رياض وسامي الصلح، بل إن وزارة الخارجية البريطانية استنكرت ذلك. لم يمانع رياض تعيين ابن عمّه، بل إنه أبلغ الرئيس نقّاش، خلافاً لذلك، أنه وابن عمه واحد، ويكفي أن يكون

(1) Furlonge to Spears, Note for His Majesty's Minister, Beirut, 23 July 1942 (FO 2261233).

(2) سامي الصلح، **أحتكم إلى التاريخ**، بيروت 1970، ص 48.

أحـــدهما في الـــسلطة[1]. ولاحـــظ ساخراً أمام كاترو أنه سعيد لأن الفرنسيين قرروا أخيراً، بعد عشرين عاماً، إنهاء مقاطعة آل الصلح!

على أي حال، احتفظ رياض بنفوذه الكبير من وراء الكواليس. وبتأثير منه، ألحّ ســـامي على تنفيذ بعض المطالب العربية، مثل استخدام اللغة العربية بدلاً من الفرنسية في كتابة الوثائق الرسمية، وتعيين الوطنيين في المناصب القضائية والبلدية، وانتقال بعض المؤسسات الحكومية إلى السلطة اللبنانية. شهدت بيروت ارتفاعاً كبيراً في التعاطف مع الوطنـــيين العـــرب. وفي صيدا، احتفى آل الصلح وحلفاؤهم من آل عسيران بعروبة لبـــنان، بينما أعاد آل حَيْدر في البقاع إثارة الأفكار الوحدوية في أوساط سكان قضاء بعلـــبك[2]. وقـــد مهّدت حكومة سامي الصلح التي دامت ثمانية أشهر في سنة 1942 الطريق لترشيح رياض لتولّي المنصب في السنة التالية[3].

أزمة القمح

فيما كان السياسيون والقوى الأجنبية يتعاركون بشأن التعيينات الوزارية، تعرّض الشعب للجوع ووقع لبنان في أزمة قمح دامت مدة طويلة. فقد شحّت الغلال بسبب رداءة محـــصول شتاء 1941-1942، وقيام التجار الجشعين بتخزينها متوقعين ارتفاع الأسعار. لكن نقص الغذاء أمر خطير، ويهدّد بإحداث الفوضى فيما يواجه البريطانيون تهديـــداً وشـــيكاً من رومل في مصر. أدّى نجاح سبيرز في حلّ الأزمة إلى تعزيز سمعته وتقـــوية موقفه في خلافه مع ديغول ومنتقديه المشاكسين في لندن. كما وفّرت إطاراً مناسباً لبروز تحالفه مع رياض الصلح.

قـــام الحلّ الذي طرحه سبيرز على شراء القمح من المزارعين مباشرة مقابل الدفع إليهم نقداً. قدّرت الكمية الإجمالية التي توفرها كل منطقة، وحدّد سعرها الرسمي. وقد أدار مكـــتب القمـــح الذي أنشئ في أيار/مايو 1942 تنفيذ الخطة، وضمّ مجلس إدارته ممـــثلين عـــن بـــريطانيا وفرنسا الحرة وسوريا ولبنان، غير أن سبيرز وكاترو احتفظا

(1) هـــلال الصلح، **تاريخ رجل وقضية**، ص 82، مجلة **الحوادث** بيروت، العدد 1087، (9 أيلول/سبتمبر 1977).

(2) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, p. 166.

(3) Zamir, 'An Intimate Alliance', p. 818.

بالكلمة الفصل. كانت المشكلة الرئيسية تكمن في ضمان الوفاء بالأهداف المحدّدة للغلال، إذ لا يمكن وقف المبيعات في السوق السوداء والتهريب عبر الحدود التركية، فضلاً عن رشوة المسؤولين المحليين. اتبع سبيرز تكتيكاً مبتكراً، فأصدر قانوناً بنفي جميع المخالفين إلى جزيرة قَمَران القاسية في البحر الأحمر.

وقام سبيرز بزيارة رئيس الوزراء السوري حسني البرازي، وهو مالك أراضٍ ثري وقوي، وأبلغه ضاحكاً أنه سيكون أول من يرسل إلى قَمَران إذا لم يتمّ الوفاء بالحصص المخصصة لمنطقته! وأضاف أنه وكاترو سيرافقانه في اليوم التالي إلى منطقة زراعية للوقوف بنفسيهما على وضع إنتاج القمح هناك. أدى هذا القرار إلى نتائج مذهلة، حيث تدفّقت الغلال بمعدّل يفوق قدرة مكتب القمح على توضيبها[1]. لكن مشكلة تأمين إمدادات كافية من القمح ظلّت تشغل بال البريطانيين والفرنسيين والسلطات المحلية حتى نهاية الحرب[2].

زيارة ديغول المثيرة للجدل إلى لبنان

وصل ديغول إلى لبنان في 11 آب/أغسطس 1942، وصرّح أنه جاء "ليتولّى بنفسه شؤون القوات والحكم... وإظهار سيطرة فرنسا"[3]. وكرّر في عدد من الخطابات الرنّانة الإعلان عن نيّته الاحتفاظ بسيطرة فرنسا في المشرق، وتباين صارخ مع المزاج السائد، سعى إلى إضعاف استقلال سوريا ولبنان، وتقوية الانتداب، وتأجيل الانتخابات العامّة إلى أجلٍ غير محدد[4]. أثارت تصريحات ديغول نفور الوطنيين والرأي العام بطبيعة الحال. وأدّى تأكيده المتعجرف أن فرنسا ستستعيد موقعها القوي في المشرق، وإصراره على توقيع معاهدة، إلى إقناع بعض السياسيين المسيحيين، بمن فيهم الشيخ بشارة الخوري، بإعادة النظر في دعمهم لبريطانيا. بالمقابل، عمد سامي الصلح إلى التنسيق بشكل وثيق مع بعثة سبيرز طوال فترة زيارة ديغول التي دامت شهراً[5].

(1) Gaunson, *The Anglo-French Clash*, pp. 89-90.
(2) Raghid el-Solh, *op. cit.*, p. 164ff.
(3) Georges Catroux, *Dans La bataille de fa Mediterranee*, p. 272.
(4) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, p. 167.
(5) Zamir, 'An Intimate Alliance', p. 818.

في 12 آب/أغسطس 1942، شرع قائد الفرنسيين الأحرار في جولة ملكية عبر دول المشرق تعامل فيها مع الشخصيات المحلية بفخامة، بينما تجاهل بعض الموظفين البريطانيين وأهان بعضهم الآخر علناً. وانطوى خطابه الاستعماري على أن وقت الاستقلال في سوريا ولبنان "لم يحن بعد، وقد تمرّ سنوات كثيرة قبل أن يحين". وفي 14 آب/أغسطس، أرسل إلى تشرشل احتجاجاً رسمياً بشأن الأوضاع في المشرق، زاعماً أن الحكومة البريطانية أخلّت باتفاقاتها بتدخلها الدائم في الشؤون الداخلية للمنطقة. وردّ عليه تشرشل في 22 آب/أغسطس بأن الحكومة البريطانية ملتزمة أمام العالم العربي بضمان تنفيذ الإعلان الفرنسي للاستقلال.

في أيلول/سبتمبر، أصبح وجود ديغول في المشرق مشكلة بحدّ ذاته، ما هدّد علاقات الحلفاء مع العرب وجعل صبر تشرشل ينفد[1]. لذا لجأ رئيس الوزراء البريطاني إلى العقوبات المالية. كانت بريطانيا قد وافقت على دفع 300,000 جنيه للفرنسيين الأحرار في التاسع من كل شهر، و200,000- 300,000 جنيه أخرى في وقت لاحق من الشهر لتغطية نفقاتهم في المشرق. طلب إيدن من الخزينة، وفقاً لتعليمات تشرشل، عدم دفع المعونة الشهرية للفرنسيين الأحرار إلاّ بعد موافقة ديغول على العودة إلى لندن[2]. وتحت هذا الضغط، وافق ديغول أخيراً على العودة إلى بريطانيا في نهاية أيلول/سبتمبر 1942، حيث تبادل رسائل مريرة مع تشرشل بشأن سياسة سبيرز المعادية للفرنسيين. ولم يتحسّن مزاج تشرشل بعد مواجهة شخصية مع ديغول في 30 أيلول/سبتمبر، عندما خرج الزعيمان عن طوريهما وتبادلا الكلام القاسي.

أراد ديغول إبعاد سبيرز، عدوّه اللدود، عن المشرق، واعتقد أنه يوشك على تحقيق مبتغاه. واعتبر نشاطاته انتهاكاً فاضحاً للسيادة الفرنسية وسعياً منسّقاً لإضعاف موقف فرنسا. واشتكى كاترو بدوره إلى وزير الدولة الجديد معتبراً أن سبيرز "يتولّى الآن مهمة تدمير النفوذ الفرنسي في سوريا ولبنان". ونتيجة لذلك اعتقد كيسي أن سبيرز ربما تمادى كثيراً. أما المسؤولون الهيّابون في وزارة الخارجية، فكان يسرّهم التخلّص من سبيرز الذي اعتبروه ذا آراء مستقلة خطيرة.

(1) Gaunson, *The Anglo-French Clash*, pp. 95, 96, 97, 98, 100.

(2) المصدر نفسه، ص 207، رقم 48.

كـــان هـــناك اختلاف مهم في هذا الموضوع، يتجاوز الانـــزعاج من استقلالية ســـبيرز. فالعديد من المسؤولين الكبار في وزارة الخارجية لا يعتبرون أنفسهم في حرب مـــع الاســـتعمار الفرنـــسي، بـــل يتشاركون مع ديغول الإيمان بالمهمة الاستعمارية الأوروبية. لم يكن رجال من أمثال أوليفر هانكي Oliver Hankey يريدون طرد فرنسا من المشرق، لاعتقادهم أن البريطانيين قد يحتاجون قريباً إلى قواعد عسكرية في سوريا، وهو ما يستطيع الفرنسيون تأمينه[1]. لذا أيّدت وزارة الخارجية ديغول في إصراره على استمرار صلاحية الانتداب. بل إن بعض المسؤولين رأوا أن إعلان كاترو في تموز/يوليو 1941 يعني "البدء بمسار يؤدي إلى إنهاء الانتداب وليس إلى إنهائه على الفور". وهكذا حصل ديغول على بعض الدعم في وزارة الخارجية البريطانية لرأيه أن شرعية الانتداب لم تتأثر بإعلان كاترو في تموز/يوليو 1941.

لكن كيسي حذّر وزارة الخارجية قائلاً:

مـــن الـــضروري المحافظـــة على الثقة بأننا لن نسلّم سوريا ثانية للفرنسيين بعد الحرب. إذا اهتزّت هذه الثقة، فسيزول السبب الأخير لتعلّق السوريين بقضية الحلفاء. ولا يمكنـــنا عـــندئذ لومهم إذا راهنوا على ألمانيا. كما أن... الوفاء بالوعد الذي قدّم لسوريا خلال الحرب سيؤثّر مادياً على موقف العراق والدول العربية الأخرى.

بعـــبارة أخرى، رأى كيسي أنه لا يمكن التغاضي عن إعلان الاستقلال الذي أصدره كاتـــرو والضمانة البريطانية إلا بخيانة واضحة لا تقلّ أبعادها عما حدث في سنة 1919[2]. وهكـــذا نجا سبيرز من الإبعاد بعد أن أكّد تشرشل أن "سبيرز دافع عن الحقوق البريطانية في سوريا بعزيمة قوية واقتدار". فأنهى ذلك حملة 1942 الرامية إلى إزاحته.

كـــادت المحاولة أن تفلح، لكنها أتت بنتائج عكسية في نهاية الأمر. جُرح سبيرز مـــن مـــساعي ديغـــول لإبعاده، وشعر بألم أشدّ من انتقادات أنتوني إيدن وغيره من مـــسؤولي وزارة الخارجـــية، فأصبح أكثر تصميماً من ذي قبل على العمل مع رياض الصلح وإجبار الفرنسيين على الخروج نهائياً من سوريا ولبنان[3].

(1) Lewis, 'The British and the French Colonial Empire', pp. 284, 287.

(2) Gaunson, *The Anglo-French Clash*, p. 104.

(3) Zamir, 'An Intimate Alliance', p. 818.

الفصل الثامن عشر

التحدّي الانتخابي

شعر رياض الصلح في ربيع سنة 1943، قبل بضعة شهور من عيد ميلاده الخمسين، أن سنوات الجهد توشك أن تُثمر، وأن الوقت حان للسعي إلى السلطة عبر الانتخابات اللبنانية. كانت لحظة سعادة غامرة له، على الرغم من أنه لم يستطع تبديد شيء من القلق من أن تحطّم العراقيل الفرنسية طموحه. فهو لا يزال يذكر محاولته الأولى للوصول إلى البرلمان سنة في 1937، عندما اضطر إلى الانسحاب المذل من الانتخابات صبيحة يوم الانتخابات، عندما اتضح أن الفرنسيين سيتلاعبون بالأصوات لإسقاطه.

غير أن العديد من التطوّرات اجتمعت لصالحه هذه المرة، مثل سيطرة بريطانيا الكاملة في الشرق الأوسط، وتفوّقها العسكري المطلق بحيث اعتُرف بها كمحكّم أعلى، حتى من قبل الفرنسيين المتردّدين. وكان وزير الدولة البريطاني في القاهرة السلطة المطلقة في المنطقة. وقد شجّعت بريطانيا العديد من القوميين العرب، بمن فيهم رياض الصلح، على الاعتقاد أن نشوء وحدة عربية أو اتحاد فيدرالي عربي احتمال جدّي، بإسهامها في التكامل الإقليمي من خلال مركز تموين الشرق الأوسط في القاهرة.

بدا أن وزير الخارجية البريطاني أنتوني إيدن يفضّل شكلاً من أشكال الوحدة العربية. تجلّى ذلك من خلال بيانه الذي ألقاه في مجلس العموم في 24 شباط/فبراير 1943، وفسّر على نحو متفائل ما أطلق نشاطاً دبلوماسياً عربياً كبيراً، على الرغم من أنه جاء بصياغة أكثر حذراً من البيان الذي تلاه في مبنى البلدية في 29 أيار/مايو 1941. أعلن إيدن أن مبادرة الوحدة العربية يجب أن "تأتي من العرب أنفسهم". لكنه أضاف أنه "لم يتم التوصل بعد إلى خطة تنال الموافقة العربية العامة". مع ذلك فهم العرب من هذه الملاحظات غير الملزمة أن بريطانيا ترحّب بإقامة روابط أوثق بين

البلدان العربية، وتسعى إلى دعم تطلعات سوريا ولبنان نحو الاستقلال. غير أنهم لم يدركوا أن إيدن، وهو إمبريالي من الطراز القديم، لا يرغب في الإساءة إلى فرنسا - القوّة الأوروبية الإمبريالية الكبرى الأخرى - أو تعريض التعاون البريطاني مع الفرنسيين الأحرار في المناطق التي يحتلونها في المشرق إلى الخطر.

سبيرز والقومية العربية

كان لدى الوطنيين ميزة ثمينة قريبة من بلادهم ممثّلة بشخص الجنرال السير إدوارد سبيرز، الذي أصبح الآن المفوّض الدبلوماسي البريطاني في دول المشرق. فقد أصبح سبيرز متحمّساً للعرب ومناصراً لاستقلالهم. وبدا أن القومية العربية ملأت الفراغ الذي خلّفه ابتعاده عن مثُله السابقة المؤيّدة للفرنسيين. لم يستطع مقاومة طموحات السوريين واللبنانيين، الذين رأى فيهم الآن ضحايا القمع الفرنسي، وكان اقتناعه بذلك حقيقياً[1]. غير أن دوافعه كانت معقّدة، وبدا أنها تشمل ازدراء دناءة فرنسا الأخلاقية في الصراع مع المحور، والاشمئزاز من سياساتها الاستعمارية الوحشية (متناسياً، سجلّ بريطانيا الاستعماري البغيض المماثل)، والغضب من غطرسة الجنرال ديغول في تعاملاته مع بريطانيا التي تعتمد عليها حركة الفرنسيين الأحرار اعتماداً تاماً.

بدا أن سبيرز مستمتعاً بكل نواحي البيئة المشرقية التي وجد نفسه فيها، حيث عومل كأنه أمير. كان يصطاد طيور السُّمانى في أراضي الوجهاء العرب، ويُحتفى به في المجالس، وتبدي مضيفات المجتمع الإعجاب بكل كلمة يقولها بلغته الفرنسية الخالية من العيوب. واستحوذت عليه المكائد المعقّدة للسياسة المحلية، وتمتّع بالسلطات الكبيرة الموضوعة بتصرّفه. ولعل أكثر ما سرّ سبيرز تفوّقه بالحيلة على الجنرال الفرنسي جورج كاترو، وصدّ رؤسائه السياسيين في وزارة الخارجية في لندن الذين كان يحتقر حذرهم وجبنهم أيضاً.

اعتاد سبيرز في تعامله المزاجي مع وزارة الخارجية أن ينفّذ أوّلاً ويقدّم التبرير لاحقاً. غير أن الابتعاد المتكرّر عن الممارسة الدبلوماسية المتبعة تسبّب في غضب الحكومة. بل إن بعض المسؤولين ظنّوا أنه كان ينتقم من ديغول. ودعت المذكّرات الداخلية في وزارة الخارجية إلى كبح جماحه:

---

(1) Gaunson, *The Anglo-French Clash*, p. 70.

إذا أردنا إبقاء الجنرال سبيرز ممثّلاً لنا في بيروت، فلا بدّ من بذل جهد كبير جدًّا لتحريره من استحواذ الفرنسيين الأحرار على فكره. ثمة عضو في فريق موظفيه... قال إنه لم يفهم قط معنى أن تأكل الحيواناتُ صغارَها إلى أن رأى سير إدوارد سبيرز يلتهم حركة فرنسا الحرّة[1].

واشتكت مذكرة أخرى:

لا أعرف مثالاً يمكن القول إنه ساعد فيه [الفرنسيين الأحرار] إلا عندما يمكن استخدام هذه المساعدة لتعزيز موقعه، ويستند اهتمامه إلى الغرور الشخصي أو ميوله إلى بناء الإمبراطوريات التي بطلت منذ مئتي سنة،... وقد تلقّينا ملاحظة شيّقة من مصدر أميركي أن هدف السير إدوارد سبيرز الحقيقي من خلال بعثته المفرطة الضخامة، هو تكرار نظام الإدارة الفرنسي ودفع الفرنسيين إلى الخروج من المشرق كما أخرجهم كلايف Clive من الهند[2].

خلافاً لهذه التعابير المتفاخرة، تميّز سبيرز بلغته الصريحة والممتعة. على سبيل المثال، وصف الرئيس اللبناني ألفرد نقّاش في إحدى مراسلاته بأنه "يبدي شيئاً من الشجاعة الخطرة التي تظهرها الخراف المجنونة". لم يكن سبيرز دبلوماسياً بالتأكيد، بل سياسياً جريئاً وماهراً. استطاع البقاء في مركزه المعرّض للطعن بسبب اهتمام الحلفاء القوي في تحويل سوريا ولبنان إلى قاعدة حربية، أو لأنه، كما لم يسأم من تذكير لندن، ينفّذ المهمة التي تعهّدت بها بريطانيا في 8 حزيران/يونيو 1941، عندما قدّمت ضمانات لاستقلال دول المشرق. والأهم من ذلك كله بقاؤه لأنه كان يتمتّع بدعم تشرشل الشخصي. رأى سبيرز أن على بريطانيا تنفيذ وعودها، إذا أرادت أن يبقى الرأي العام المحلي إلى جانب الحلفاء. وبناء على ذلك، ضغط بشدّة على فرنسا وممثّليها المحليين لإجراء انتخابات حُرّة ونزيهة في سوريا ولبنان بأسرع ما يمكن، ما أثار ارتياح رياض الصلح والوطنيين. لقد وفّر التزام سبيرز بقضية العرب فرصة استغلّها رياض الصلح وشركاؤه لمصلحتهم. فلا تزال ذكرى الحرب العالمية الأولى ماثلة في أذهانهم،

(1) Internal Foreign Office document, 28 June 1942 (FO 371/31473).

(2) Internal Foreign Office Memorandum, 12 August 1942 (FO 371/31474).

عندما تركت بريطانيا المشرق تحت رحمة الفرنسيين، وهم يخشون أن يتلاشى اهتمام بريطانيا بعد الحرب هذه المرة أيضاً. بل إنهم أرادوا في الواقع أن تؤدي بريطانيا دوراً أنشط في شؤونهم مما كان سبيرز مستعداً للنظر فيه.

الردّ الفرنسي

كان الفرنسيون لا يزالون حاضرين بقوة في المشرق، وقد قاتلوا بشراسة لحماية مصالحهم الحيوية على الرغم من السيطرة العسكرية البريطانية. أدى اتفاق ليتلتون – ديغول في 25 تموز/يوليو 1941 إلى تقسيم للسلطة، ما منح الفرنسيين الدورِ الرئيسي في الإدارة المدنية في سوريا ولبنان. كان ديغول مصمّماً على المحافظة على السيطرة الفرنسية على هاتين الدولتين، فسعى إلى ربطهما بفرنسا بمعاهدة، كما أوضح في جولته الملكية في آب/أغسطس 1942. واستبعد أي تفكير في الانتخابات، واعتبرها سابقة لأوانها، إذ إنه خشي من أن تؤدي الانتخابات الحرة إلى انتقال السلطة إلى حكومة مناهضة للانتداب.

اتبع الجنرال كاترو السلوك المتعجرف نفسه، فأبلغ سبيرز أن ولايات المشرق "غير مهتمّة فعلاً بالحريّة". واستخفّ بالبطل الوطني السوري شكري القوتلي قائلاً إنه "خطيب وديماغوجي عاديّ"[1]. في ربيع 1943، كان كاترو لا يزال متردّداً في إعادة الحياة الدستورية في المشرق. فقد اعتبر أن تحديد موعد لإجراء الانتخابات قد يؤدّي إلى اضطرابات. وأبلغ سبيرز أن مثل هذه الانتخابات ليست ضرورية من وجهة نظر داخلية، وأن الضغط لإجرائها يرجع إلى التأثير الخارجي للعراق ومصر، اللذين يمكن تجاهلهما بأمان.

كان كاترو يميل إلى إعادة مجلس نواب 1937 الخَنوع اعتقاداً منه أنه يدرأ بذلك التدخّل البريطاني. وأمل أيضاً أن يوقف ما اعتبره الفرنسيون اتجاهاً مؤسفاً لدى بعض المسيحيين للتوصّل إلى تفاهم مع المسلمين على أساس قبولهم بلبنان الكبير[2]. اعترض الرئيس السوري الذي عيّنه الفرنسيون، الشيخ تاج الدين، والرئيس اللبناني المؤيّد

---

(1) Record of 7 March 1942 meeting with General Catroux about Shukri al-Quwatli (FO 371/31481).

(2) Beydoun, "Riad el-Solh et les elections legislatives de 1943", p. 409.

لفرنسا، ألفرد نقّاش، بشدّة على إجراء الانتخابات مكرّرين موقف كاترو. بل إن الأخير تجرّأ على إبلاغ سبيرز أن الانتخابات ستلهب المشاعر المحلية وليس لها أي غاية مفيدة البتة[1].

مع ذلك واجه الوطنيون العرب صراعاً مضنياً، على الرغم من دعم سبيرز لهم. ففي سنة 1943، عندما تبدّد التهديد الألماني للشرق الأوسط إلى حدٍّ كبير، لم يعد إيدن مهتمّاً باستمالة الرأي العام العربي كما كان عليه الحال في سنة 1941. وعندما انتقل القتال من الشرق الأوسط إلى أوروبا، بدأت لندن بمراجعة أولوياتها، وفجأة بدا العالم العربي أقلّ أهمية. أصبح على بريطانيا الآن التركيز على علاقاتها مع فرنسا بعد الحرب. وأخذ إيدن ووزارة الخارجية يميلان إلى أنه قد يكون من الأفضل الإبقاء على نظام الانتداب، وعدم إحداث اضطراب في الموقف الفرنسي في المشرق. ورأت لندن انه يجب أن تحتفظ فرنسا بامتيازاتها المحلية، وبخاصة في لبنان. وهذا الشعور اللامبالي يتعارض مع إيمان سبيرز الشديد باستقلال العرب، ما أدّى إلى التصادم المحتوم.

في غضون ذلك، أدرك رياض الصلح أن الفرنسيين لا يزال لديهم القوة الكافية لتضييق الخناق عليه. لم يكن باستطاعته الوصول إلى السلطة إلا عن طريق الفوز في الانتخابات، لكن سيطرة فرنسا على البيروقراطية والعملية الانتخابية بأكملها يمكن أن يحول دون نجاحه. لذا لم يستطع تحمّل تبعات مواجهة الفرنسيين بشكل مباشر. وكان يرغب من دون شك في الاستفادة من تعاطف سبيرز السياسي مع القضية الوطنية، لكن بطريقة لا تُغضب الفرنسيين، لأنهم سيبذلون ما بوسعهم عندئذ لإسقاطه. وهكذا كان على رياض التحرّك بمهارة بين سبيرز وكاترو. لكن قبل ذلك، عليه الدخول في إحدى اللوائح الانتخابية.

المشهد السياسي المحلي

ثمة عدد من العداوات السياسية المتبادلة التي عقّدت المشهد السياسي اللبناني. كان الرئيس نقّاش يعادي البطريرك الماروني القوي أنطوان عريضة، فضلاً عن الشيخ بشارة الخوري وكتلته الدستورية. وكان البطريرك عريضة بدوره يعادي الجنرال

(1) Spears to Foreign Office, 21 Feb. 1942 (FO 371/31471).

كاتـــرو، إلى حدٍّ دفعه إلى إلغاء قدّاس اثنين الفصح في نيسان/أبريل 1942 تجنّباً لحضور الممثّل الفرنسي العام[1]. فقد توتّرت العلاقات بين البطريرك والفرنسيين منذ أزمة التـــبغ في منتـــصف الثلاثينـــيات، عندما سعت فرنسا لفرض الإدارة الحصرية للتبغ (الريجي).

اشتدّت الأزمة سوءاً في السنوات التالية، ووصلت إلى أوجها حين حصل تقارب رائع - هندسه رياض الصلح - بين البطريرك والقادة المسلمين في لبنان وسوريا. وفي اجتماع في مقرّ البطريرك في بكركي يوم عيد الميلاد في سنة 1941، انضمّ عريضة إلى الوطنيين للمطالبة بإعادة العمل بالدستور و"الاستقلال الحقيقي" للبنان.

ضـــعف هذا التقارب بحلول سنة 1943، وساد الاستقطاب المذهبـــي ثانية. ولم يعد رياض يستطيع بعد ذلك الاعتماد على رجال الدين المسيحيين[2]. بل إن البطريرك أصـــبح يعـــارض الآن بشدّة سياسات رئيس الوزراء سامي الصلح الداعمة للمسلمين علـــى مـــا يُزعم. ومن المفارقة أن سامي الصلح تعرّض أيضاً لضغوط بعض المسلمين الـــذين رأوا أنـــه فـــشل في حماية مصالحهم. كما أخذ بعض القادة من المسلمين الطـــامحين يخطّطون للحلول محلّه. باختصار، شهدت القوة السياسية لسامي الصلح تدهـــوراً جـــدّياً، ولم تكن تلك أنباء سارّة لآل الصلح على العموم، ورياض على وجه الخصوص[3].

تفـــاقم الوضع العام سوءاً نتيجة مشاكل غير محلولة ذات طبيعة جوهرية. هل ما زال الانـــتداب يتمـــتّع بأي صلاحية شرعية أو فعلية؟ وهل كان على الوطنيين إلزام أنفـــسهم بالتفاوض على معاهدة جديدة مع فرنسا كشرط مسبق لإجراء الانتخابات كما طالب الفرنسيون؟ أجمع الوطنيون اللبنانيون والسوريون على رفض هذا المطلب، كمـــا أفـــاد المـــسؤول السياسي البريطاني في بيروت، المقدّم جيفري فيرلونج، وزارة الخارجية في 28 شباط/فبراير 1943.

زارني رياض بك الصلح البارحة عند عودته من دمشق... استطلع آراء الوطنيين السوريين بشأن عقد معاهدة مع الفرنسيين ووجد أنهم مجمعون على عدم إمكانية بحث

(1) Spears Mission weekly summary, Syria and Lebanon, 9 April 1942 (FO 371/3471).
(2) Ahmad Beydoun, "Riad el-Solh et les elections legislatives de 1943", p. 409.
(3) Spears Mission weekly political summary, 3 February 1943 (FO 371/35174).

هـــذه المسألة الآن... فأول ما يجب عمله برأيهم إعادة تشكيل الحكومة الدستورية في سوريا[1].

وافق سبيرز على هذا الموقف. وأبلغ لندن أن "الغالبية العظمى من السكان المحليين في كِـــلا الـــبلدين يعارضون بشدّة إبرام معاهدات من أي نوع مع الفرنسيين المقاتلين لأنهم... يأملون أن تجلب لهم نهاية الحرب التحرّر الكامل"[2].

كـــان هـــناك أيضاً مسائل أخرى مثيرة للخلاف. هل يجب إعادة مجلس النواب الـــسابق وتسمية مجلس شيوخ، أم يجب البدء من جديد بإجراء انتخابات جديدة؟ ألحّ ســـبيرز علـــى إجراء انتخابات جديدة، لكن كاترو تعمّد المماطلة. وهل يسمّى ثلث النواب أم يجب انتخاب النواب كافة؟ كان قانون الانتخابات اللبناني ينصّ دائماً على تسمية عدد من النواب. لقد أُدخل مبدأ تسمية ثلث نواب المجلس في سنة 1927، لكن تباين العدد الإجمالي للنواب: 46 نائباً في سنة 1927، و45 في سنة 1929، و25 في سنة 1934، ورُفع العدد إلى 63 في 1937، ثلثهم معيّن كالعادة. وكانت تسمية النواب أداة الفـــريق الحاكم لتعزيز موقعه. فإذا وجد نفسه أقلية في البرلمان، مثلاً، حَلّ المجلس وزاد عـــدد الـــنواب بصورة اعتباطية، وسمّى منهم ثلثاً يناسب أهدافه. ما الذي يجب عمله بشأن هذه الوصمة التي تلطّخ السجلّ البرلماني؟ أيّد الرئيس نقّاش هذه الممارَسة بطبيعة الحـــال حرصـــاً على تقوية موقعه، لكن الوطنيين ومعظم العناصر التقدمية في الدولة شعروا بعدم وجود مكان لمثل هذا النظام المثير للضحك.

تـــساءل رياض الصلح، بدوره، إذا كان يمكن إجراء انتخابات حُرّة حقاً، أم أن العـــادات الفرنـــسية القائمة على الرشوة والترهيب وتزوير الأصوات أصبحت عميقة الجـــذور بحـــيث تجعـــل أي تغـــيير حقيقي أمراً بعيد الاحتمال. في الفترة التي تسبق "الانـــتخابات" اللبنانية السابقة، كان من المعتاد إخضاع قطاع الخدمة المدنية بأكمله لإرهـــاب حقيقي. كان كل المسؤولين المشتبه بأنهم متعاطفون مع المعارضة، أو بفتور مـــشاعرهم تجـــاه الحكـــومة، يُصرفون بقسوة ويستبدل بهم عملاء انتخابيون للفريق الحـــاكم. ويقوم هؤلاء بعد ذلك بتوزيع المناصب على الفاسدين أو على نطاق شديد

(1) G.W. Furlong to Foreign Office, 28 February 1943 (FO 226/240).

(2) Spears to Foreign Office, 10 March 1942 (FO 371/35175).

الإفساد. ولم يكن الوزراء المرشّحون لإعادة الانتخاب يتورّعون عن أي شيء بغية إحباط خصومهم. وعندما تبدو الغالبية الحكومية هشّة على الرغم من هذه التدابير الصارخة، فإنها تعمد بصورة مكشوفة إلى التلاعب بأعداد أوراق الاقتراع[1].

على الرغم من حلول الفرنسيين المقاتلين، كما سمّى ديغول حركته، محلّ فيشي، فإن كل أنواع الإساءات بقيت منتشرة في الإدارة المحلية. كان الفساد الفرنسي، كما أفاد جيفري فيرلونج، متفشياً في حقول العدل وخدمات التموين والشركات الامتيازية وصناديق المصالح المشتركة والأخلاق المحلية. وقد عبّر عن ذلك ببلاغة:

> طالما كان الفساد الأخلاقي للسلطات الفرنسية مضرب مثل، والفرنسيون المقاتلون ليسوا أفضل من سابقيهم البتة. كما أن تأثير النساء على الترقيات والتعيينات والامتيازات واضح جدّاً وواسع الانتشار، بما لا يدع مجالاً للشك. في الماضي، ربما كان المثال الأكثر شهرة العلاقة بين الكونت دو مارتيل، المفوّض السامي الفرنسي، وزوجة القنصل العام البلجيكي في ذلك الوقت، التي أمّنت تعيين رئيس وزراء لبناني ومنح عقد كبير لشراء القمح لاثنين من أصدقائها مقابل مبالغ مالية كبيرة. ويبدو أن الإخلاص الزوجي في أوساط الفرنسيين المقاتلين هو الاستثناء بدلاً من القاعدة في بعض الفروع، وبخاصة القوات العسكرية للفرنسيين المقاتلين الذين تعتمد ترقية ضباطهم إلى حدٍّ كبير على استعداد زوجاتهم لإرضاء رؤسائهم[2].

ومن الأمثلة على ذلك في قمة الإدارة الفرنسية في سنة 1943، قيام جان هللو، الذي أصبح المندوب العام بعد كاترو، بتعيين عشيقته في مكتب في السراي بعد بضعة أسابيع على وصول زوجته[3].

ضاعفت الحالة الاقتصادية المتدهورة التوتّر العام والغموض الذي ساد لبنان في سنتي 1942 و1943، فألقى سبيرز محقاً اللوم في ذلك على "إدارة أتباع كاترو العديمة الكفاءة". ارتفعت تكلفة المعيشة، وخزّن التجار المواد الأساسية كالقمح للتلاعب بالأسعار. وفي صيف 1942، ارتفع سعر القمح في السوق السوداء إلى أربعة أضعاف

(1) G.W. Furlonge to Foreign Office, February 1943 (FO 226/240).

(2) G.W. Furlonge to Foreign Office, 4 Oct. 1942 (FO 371/31479).

(3) H.M. Chargé d'affaires, Beirut, to Foreign Office, 17 July 1943 (FO 226/240).

السعر المحدّد، ما أجبر سبيرز على اتخاذ إجراءات شديدة القسوة[1]. في كانون الثاني/يناير 1943، أبعد عدداً من المحتكرين، أبرزهم الشيخ محمد الفرَج، شيخ قبيلة الوُلدة في الجزيرة لأنه لم يسلّم الحصّة المفروضة على قراه من القمح. وأبلغ سبيرز لندن بأن "إجراءات مماثلة ستُتّخذ بحقّ وجهاء آخرين، إذا لم يلبّوا مطالب مكتب الحبوب خلال مدّة زمنية محدَّدة"[2].

أدّت هذه المشاكل والتوتّرات إلى خلافات في صفوف المعسكر الفرنسي الذي يعاني أصلاً من الصراع بين الديغوليين والبيتانيين. وحذّر السيد ليبيسييه Monsieur Lépissier، الأمين العام في المندوبية العامّة، سبيرز من أن ثمّة عناصر فيشيّة لا تزال ناشطة في دول المشرق، ما يشكّل خطراً على الحلفاء. وأشار بإصبع الاتّهام إلى بلانشيه Blanchet، رئيس الحكومة العسكرية؛ وبوغنيه Boegner، رئيس الحكومة السياسية؛ وغوتييه Gautier، رئيس الأمن العام؛ وبويس Buis المسؤول عن الأمن في دمشق، زاعماً أنهم لا يزالون على اتصال بحكومة فيشي. وأوضح أن كاترو

وفّر الدعم الكامل لهؤلاء الأشخاص، لأنهم يكيلون له المديح أولاً، وهو رجل مغرور جداً؛ وثانياً، لأنه يريد إبقاء الباب موارباً على فيشي، وذلك بفضل السيدة كاترو [غير المؤيّدة لديغول بالتأكيد]... لم تتوقّف السيدة كاترو عن التهجّم بشدّة على الجنرال ديغول أمام السيدة هللّو، التي كانت مُحرَجة جدّاً بطبيعة الحال[3].

سئم أنتوني إيدن شكاوى سبيرز المتكرّرة بشأن سوء تصرّف الفرنسيين، ووبّخه لأنه أوحى لأحد الممثّلين الفرنسيين أن اتفاق ليتلتون - ديغول لم يعد صالحاً. دحض سبيرز هذه التهمة بغضب مؤكّداً أن "التفسير الخاطئ والخبيث [لملاحظاته] صدر عن 'مافيا' داخل المندوبية". وأضاف أن المشكلة ناجمة عن أن "الممثّل الفرنسي الرئيسي هِللو عاجز أمام مساعديه ذوي النوايا السيّئة"[4]. لكن ذلك لم يُقنع منتقديه في لندن.

(1) Spears to Foreign Offic, 16 July 1942 (FO 371/31474).
(2) Spears to Foreign Office, 9 March 1943 (FO 371/35174).
(3) Spears to Foreign Office, 9 January 1943 (FO 371/325174).
(4) Spears to Anthony Eden, 8 Feb. 1943 (FO 371/35175).

رياض الصلح والجنرال كاترو

مـــع تطـــوّر الأوضاع، أصبح كثير من الأمور يتوقّف على تطوّر تفكير كاترو نفسه، بالإضافة إلى التعليمات التي يتلقّاها من اللجنة الوطنية الفرنسية في الجزائر، ومن ديغـــول نفـــسه. في كانون الأول/ديسمبر 1942، بدا كاترو ميّالاً إلى تقديم تنازلات للوطنـــيين. فقد أفاد سبيرز، على سبيل المثال، أن كاترو حرص على إظهار المودّة في اجـــتماع قـــصير مع رياض الصلح وبشارة الخوري. سألهما: "ماذا تريدان"؟ فأجاب رياض بابتسامة عريضة "كل شيء". ابتسم كاترو في المقابل وأشار بحركة من يده أنه لن تكون هناك صعوبة في ذلك. ولم يأتِ على ذكر مسألة المعاهدة"[1]. بدا أن الأمور تسير في الاتجاه الصحيح. ففي شباط/فبراير 1943، أبلغ سبيرز أن كاترو

فقـــد اهـــتمامه إلى حدٌّ كبير بشؤون هذه البلاد ويفكّر بشكل رئيسي في شمال أفريقيا ومخططاته هناك. على سبيل المثال، قال لي كاترو وهو يتحدّث عن الانتخابات إنـــه سئم من المسألة ككل ويريد التخلّص منها. ويفترض بذلك تسهيل الأمور كثيراً، وكل ما أتمنّاه ألاّ تتمكّن المافيا من إثارة شكوكه وهواجسه القديمة[2].

لكـــن رياض عاد خائب الأمل بعد مقابلة طويلة مع كاترو في أوائل آذار/مارس 1943، وهـــي المـــرّة الثانية التي يجري معه مباحثات حقيقية. أخبر فيرلونج أنه عرض آراءه أمـــام كاتـــرو بوضوح وقوّة، وأبلغه أنه وشركاءه يعارضون إعادة إحياء مجلس 1937. وأنهـــم يـــريدون ضمانات بدلاً من ذلك بأن تشكّل أي حكومة مسؤولة عن إجـــراء الانـــتخابات بمشاركة من جميع الفئات المهمّة في البلد، بما في ذلك المعارضة المـــسلمة. فللمعارضة المسلمة الحق في التمثّل في أي مجلس لاحق، وأصرّ على أن تمنح الفرصة للتعبير عن آرائها مثل أي مجموعة أخرى.

انـــتقل ريـــاض بعد ذلك إلى الهجوم، فأبلغ كاترو أن لديه إثباتاً على أن السيد برونو Pruneaud، المستشار الفرنسي في صيدا، صرّح علناً أنه يجب التصدّي لترشيح ريـــاض بكـــل الوسائل الممكنة، وأنه أعدّ لائحة مرشّحين يدعمها الفرنسيون. أحرج

---

(1) Spears to Foreign Office, reporting what Furlonge had told him, 17 December 1942 (FO 226/242).

(2) Spears to Foreign Office, 21 February 1943 (FO 371/35175).

كاتـــرو ووعـــده أن يحقّـــق في الأمر. كما أبلغ رياض كاترو أنه وشركاءه يريدون الاستقلال، ويعارضون أي "تقسيم" للبلد.

شـــكّل ذلك تحوّلاً واضحاً في موقف الوطنيين، بعد أن كانوا يريدون في الماضي إعـــادة "الأراضي المتنازع عليها" إلى سوريا. لقد دخلوا الآن معترك السياسة اللبنانية. وأصـــبحوا حريصين على سلامة لبنان الكبير. ويرجع ذلك إلى أنهم أدركوا أن المناطق الوحيد التي يمكن أن تنفصل هي المناطق ذات الغالبية المسلمة، وأي انفصال سيجعل ما تبقّى من المسلمين اللبنانيين في موقف دوني سياسي يائس أمام المسيحيين.

مـــازح رياض الآن كاترو قائلاً إنه سمع من دون شك من ينعته بأنه عدوّ خطير لفرنـــسا. صـــحيح أن لديـــه الكـــثير مما يلوم الفرنسيين عليه، لكنه يدرك أن اتفاق ليتلـــتون - ديغـــول منح فرنسا مكانة مميّزة في البلاد. وأبدى استعداده لمنحها مكان الصدارة الثقافية أو حتى الاقتصادية، شرط ألاّ ينتقص من استقلال لبنان وسيادته.

لكـــن رياض هاله ردّ كاترو على ملاحظاته. شعر أن "الجنرال كان يعدّ للعمل انطلاقاً من مواقف بعيدة جداً عما يمكن أن يوافق عليه الوطنيون، إذ لم يُبدِ أي إشارة إلى أي تعاطف حقيقي مع تطلّعات اللبنانيين نحو الاستقلال"[1]. غير أن كاترو سرعان ما قدّم للوطنيين مفاجأة سارّة، على الرغم من تشاؤم رياض.

انطلاق الحملة الانتخابية

في 24 كانون الثاني/يناير، منحت اللجنة الوطنية الفرنسية في الجزائر - بضغط من بـــريطانيا مـــن دون شك - كاترو الضوء الأخضر لإعادة الحياة الدستورية إلى دول المشرق[2]. وبناء على ذلك، أعلن كاترو، في بثّ إذاعي من بيروت في 18 آذار/مارس 1943، أنه أصدر ثلاثة مراسيم: الأول يقضي بإعادة العمل بالدستور، على أن يصبح نافـــذاً ابتداءً من اليوم الذي يَنتخب فيه مجلس النواب رئيساً للجمهورية. ينبثق المجلس نفـــسه عـــن انتخابات عامة تُجرى خلال ثلاثة أشهر. وقد عُدّل ذلك لاحقاً في 25

(1) G.W. Furlonge to Foreign Office, 4 March 1943 (FO 226/240).

(2) انظـــر Rabbath, *La Formation Historique du Liban Politique et Constitutionnel*, p. 474 للاطلاع على بيان اللجنة الوطنية. وكتاب ربّاط مصدر لا غنى عنه للاطلاع على تاريخ لبنان من العصور القديمة حتى الاستقلال.

آذار/مـــارس لإيضاح أن مهلة الثلاثة أشهر ليست لانتخاب البرلمان، بل لدعوة الهيئات الناخـــبة. لم يُحدَّد تاريخ للانتخابات، ما أثار الشكوك بأن الفرنسيين ربما يسعون إلى تأخيرها ثانية.

أنـــشأ مرســـوم كاتـــرو الثاني هيئة انتقالية غير سياسية لإجراء انتخابات عامة، "حـــصينة أمام التأثيرات الخارجية، وتُجرى في جو من الحرية وحسن النظام واحترام الرأي الآخر". وسمّى المرسوم الثالث الدكتور أيوب ثابت رئيساً للهيئة الانتقالية، ومُنح لقـــبا رئـــيس الدولـــة ورئيس الحكومة، على أن يعاونه وزيران، جواد بولس وخالد شهاب[1].

ادّعى سبيرز على الفور الفضل في هذا التغيّر الفرنسي التام. فأبلغ لندن أن إعلان كاتـــرو لا يـــضمّ فقط جميع النقاط التي أكّدت على أنها ضرورية أو مهمة كي يكون اســـتقلال لبـــنان حقيقياً، وإنما يعبّر أيضاً عن آراء ندعمها من دون تحفّظ في مناشدته الشعب وإشارته إلى الحريّة التي سيحصل عليها. لقد أبدى تجاوباً كبيراً مع اقتراحاتي، وهذه النتيجة تبرّر النضال الصعب والطويل الذي خُضته في الماضي"[2].

أثار توقّع العودة القريبة للحياة الدستورية حماسة شديدة في كل أنحاء لبنان، وارتفاعاً حاداً في النشاط السياسي. فبدأت الأحزاب السياسية تحشد قواها تحضيراً للتحدّيات القادمة والحصول على الدعم الفرنسي والبريطاني. وسرعان ما احتدمت الحملـــة الانتخابـــية في المحافظـــات الخمس، حيث تنافس المرشّحون للوصول إلى المناصب.

في غضون ذلك، عُيِّن جان هللو - الذي خدم في بيروت في الثلاثينيات في عهد المفوّض السامي بونسو - مندوباً عاماً ومبعوثاً كامل الصلاحية للفرنسيين المقاتلين في المشرق خلفاً لكاترو. ونُقل الأخير إلى الجزائر كمفوَّض للشؤون الإسلامية.

كـــان هللـــو شديد الارتياب بالبريطانيين، لذا شكّل تعيينه نكسةً للوطنين. ولا شـــكّ في أنه تأثّر بتقرير استلمه عن وقائع المجلس الحربـــي البريطاني للشرق الأوسط الذي توصل في اجتماعه في القاهرة في 10-13 أيار/مايو إلى أن استمرار وجود فرنسا

(1) Summary of declaration by General Catroux, 18 March 1943 (FO 371/35176).
(2) Spears to Foreign Office, 19 March 1943 (FO 371/35178).

في المـــشرق لا يـــتوافق مع مصالحنا السياسية والعسكرية في الشرق الأوسط، ولا مع الـــتطوّر السلمي للبلدان العربية ورخائها... ومن الصعب تحقيق أي شكل من أشكال الـــشراكة الـــسياسية بين الدول العربية، أو حتى بين دول سوريا الكبرى، وهو تطوّر أعلنت حكومة جلالة الملك عن تعاطفها معه، ما دام لفرنسا نفوذ سياسي أو عسكري مباشر في سوريا ولبنان[1].

لم يعكـــس هـــذا البيان المتصلّب آراء وزارة الخارجية التصالحية، بل عكس آراء سبيرز ووزير الدولة البريطاني الجديد للشرق الأوسط ريتشارد كيسي. غير أن هللو لم يكـــن على علم بذلك، لذا لم يكن من المفاجئ أن يشجّع رئيس الدولة المعيَّن حديثاً، الدكتور أيوب ثابت، على اتباع نهج أكثر تأييداً لفرنسا.

وُلـــد أيـــوب ثابت في بيروت في سنة 1870، وتخرّج في الكلية السورية الإنجيلية (الجامعـــة الأميركية في بيروت لاحقاً)، ودرس الطب في الولايات المتحدة، وعاد إلى بيروت قبل الحرب العالمية الأولى مباشرة. عُيّن أمين سرّ الجمعية الإصلاحية في بيروت، وحـــضَر المؤتمـــر العربـــي في باريس في سنة 1913، وشَغل عدّة مناصب وزارية بين الحـــربَيْن[2]. أبلغ سبيرز وزارة الخارجية أن ثابت بروتستانتي نـــزيه وذو فكر مستقلّ، لكـــنه أضـــاف بذكاء أنه سريع الغضب، وأظهر صعوبة في العمل معه في الماضي[3]. وســـرعان مـــا شـــاع في الأوســـاط السياسية اللبنانية أن الدكتور ثابت ذو طبيعة ديكتاتورية، وأنه شديد التوق إلى السلطة بحيث لن يألو جهداً لتأجيل الانتخابات كي يبقـــى في منصبه أطول مدّة ممكنة. كما أنه أثار غضب الوطنيين باتّهامه رياض الصلح وعـــبد الحمـــيد كرامـــي أنهما "مناهضان للبنان". وجد هذا الاتهام أذناً صاغية لدى البطريرك عريضة، الذي أصبح الآن شديد الارتياب بالسياسيين المسلمين بحيث طالب بأن يُقسم جميع المرشحين للانتخابات القادمة يمين الولاء "للكيان"، أي لبنان الكبير[4].

تـــبع ذلـــك ما هو أسوأ. ففي 17 حزيران/يونيو، أصدر ثابت مرسومين يحملان رقمـــي 49 و50. نصّ الأول على إدخال اللبنانيين المهاجرين الذين احتفظوا بجنسياتهم

(1) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, p. 174.

(2) المصدر نفسه، ص 169 وما يليها.

(3) Spears to Foreign Office, 10 March 1943 (FO 371/35175).

(4) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, p. 173.

اللبنانـية (معظمهـم مسيحيون) في أي إحصاء لسكان لبنان، وزاد بالتالي العنصر المسيحي في الناخبين. وغيّر الثاني التوزيع الطائفي في المحافظات الخمس لصالح المسيحيين. رُفع عدد النواب من 42 إلى 54 نائباً، (32 مسيحياً و22 مسلماً). وكان عشرة من النواب الاثني عشر الجُدد مسيحيين، واثنان فقط من المسلمين (سنّي وشيعي).

بدا واضحاً أن سلطة الانتداب الفرنسي وأتباعها المسيحيين المتشددين مصممون على ضمان أكثرية برلمانية تساند الوجود الفرنسي وتُديم الحماية الفرنسية للبنان الذي يسيطر عليه المسيحيون[1]. أعلن ثابت بعد ذلك تأجيل الانتخابات إلى شهر أيلول/سبتمبر، وقدّم حجة غير مقنعة أن الصيف أكثر أوقات السنة انشغالاً حيث يبلغ الموسم السياحي ذروته ويكون حصاد القمح وتربية دود القزّ في أوجهما. اعتبر سبيرز وفيرلونج على نحو دقيق أن الخطوات التي أقدم عليها ثابت أخطاء جسيمة في التقدير السياسي.

أغرقت مراسيم ثابت الاعتباطية البلاد في أزمة طائفية مريرة. اجتمع رياض والقادة المسلمون الآخرون في منزل المفتي في 19 حزيران/يونيو، وطالبوا الفرنسيين بإلغاء مراسيم ثابت. وإذا لم يستجب لمطلبهم، فسيصرّون على إجراء إحصاء جديد، وإلا فسيقاطعون الانتخابات. وأنشؤوا لجنة أرسلت احتجاجاً رسمياً إلى الممثّلين الفرنسيين والبريطانيين والأميركيين والمصريين والعراقيين في بيروت. أبلغ فيرلونج لندن أن رياض الصلح، وهو الشخصية الأقوى في اللجنة، أعلن في حديث له في 20 حزيران/يونيو، أنه يشعر، في ضوء الطريقة السافرة التي ناور فيها المسيحيون في مسألة تلك المراسيم، أن المسلمين في وسعهم المشاركة في الانتخابات بطريقة مفيدة، وأن عليهم العودة إلى موقفهم السابق غير المبالي وغير المتعاون مع لبنان، والإصرار على مطالبهم بإعادة الأقضية الأربعة التي ألحقت بلبنان بعد الحرب الأخيرة إلى سوريا[2].

في 29 حزيران/يونيو، قام رياض الصلح وعبد الحميد كرامي وصائب سلام بزيارة فيرلونج، وقد بدا عليهم الغضب والتجهّم، وأبلغوه أنهم خلصوا إلى أن المسلمين

(1) Beydoun, "Riad el-Solh et les elections legislatives de 1943", p. 410.

(2) G.W. Furlonge to Foreign Office, 21 June 1943 (FO 226/240).

لا يأملون باتفاق عادل في لبنان، لأن الفرنسيين مصرّون على دعم السيطرة المسيحية. ودعـــوا إلى تدخّل بريطاني متوسّلين مُثُل ميثاق الأطلسي. أشار فيرلونج إلى أن ميثاق الأطلسي "لا يُمكن تطبيقه في بلد تريد فئتا سكانه الرئيسيتان العيش بطريقتين مختلفتين تماماً"[1].

مـــنحت الأزمة اللبنانية حزب الوفد المصري، وزعيمه مصطفى النحّاس، فرصة لإبراز دور مصر المركزي في الشؤون العربية. عندما كان الألمان يهدّدون بغزو مصر، أجـــبر البريطانيون الملك فاروق تكليف النحّاس باشا تشكيل الحكومة، ففاز بأكثرية ســـاحقة في الانتخابات في آذار/مارس 1942. أبدى النحاس باشا رغبة الآن في تحسين صـــورة حزبه ومكانته كمدافع عن القضية الوطنية العربية. لذا سُرّ بالاستجابة لدعوة ريـــاض الصلح إلى المساعدة وتقديم خدماته كوسيط في الأزمة اللبنانية. وسارع سبيرز أيـــضاً إلى الـــتدخّل. فمارس أكبر قدر من الضغط على هللو لإبطال مراسيم ثابت، وحـــذّر مـــن أن الأزمة تشكّل خطراً على أمن البلاد، وبالتالي على المجهود الحربـــي البريطاني.

خـــشي كاترو من هذا التحوّل في مجريات الأحداث، فتدخّل أيضاً في النـــزاع. ولـــتهدئة مـــشاعر المسلمين الغاضبة، اقترح قبول الصيغة التي طرحها النحاس باشا، وتقـــوم على اعتماد نسبة أربعة إلى خمسة بين المسلمين والمسيحيين في المجلس، أي 29 مقعـــداً للمـــسيحيين و24 مقعـــداً للمـــسلمين. ووعد أيضاً بإجراء إحصاء عامّ بعد الانـــتخابات. وعـــندما لم يحـــظَ هذا الطرح بموافقة عامّة، تدخّل سبيرز للتحكيم في المسألة. فنجحت صيغته التي تقوم على نسبة خمسة إلى ستة بين المسيحيين والمسلمين، أي 30 مقعداً للمسحيين و25 مقعداً للمسلمين (السنّة والشيعة والدروز). وظلّت هذه الـــصيغة نافـــذة إلى أن عدّل الدستور اللبناني بعد اتفاق الطائف في سنة 1989. أقنع ســـبيرز أيـــضاً هلّلـــو بإلغاء مبدأ تسمية النواب، الذي كان يضمن حصول مؤيّدي الانـــتداب الفرنـــسي علـــى الأكثرية. وهكذا فُتح الباب على مصراعيه أمام منافسة انتخابـــية تؤدّي فيها بريطانيا الدور الرئيسي كمناصرة لانتخابات حرّة وعادلة في لبنان، على رغم سجلّها الملطّخ في أنحاء العالم الأخرى.

(1) G.W. Furlonge to Foreign Office, 29 June 1943 (FO 226/240).

حظـي رياض الصلح وشركاؤه بمزيد من التشجيع، بفوز الكتلة الوطنية في الانتخابات السورية في تموز/يوليو. فقد انتصر أصدقاؤه. انتُخب البطل الوطني شكري القوتلي رئيساً، فسمّى سعد الله الجابري رئيساً للوزراء. وأصبح جميل مردم وزيراً للخارجية ولطفي الحفّار وزيراً للداخلية وخالد العظم وزيراً للمالية والدكتور عبد الرحمن الكيالي وزيراً للعدل. أكد سبيرز لأنتوني إيدن أن الانتخابات كانت الأكثر نزاهة في تاريخ الانتخابات السورية، وأن الغالبية الساحقة من الناخبين السوريين أيّدت الكتلة الوطنية. بدا أن النتائج السورية تنبئ بنتيجة محاولة رياض الصلح الوصول إلى السلطة، وأن التحرير أصبح في متناول المشرق الذي طالت معاناته.

جاءت نقطة التحوّل في علاقات رياض مع الفرنسيين في 14 تموز/يوليو 1943، عندما طلب كاترو، خلال زيارة قصيرة إلى بيروت، من رياض أن يزوره. أجريا محادثات طويلة وودّية على غير العادة. ووفقاً لما رواه رياض لفيرلونج في اليوم التالي، انتقد كاترو الدكتور أيوب ثابت لأنه أصدر مراسيمه المثيرة للجدل، وأجّل الانتخابات. أثار رياض مع كاترو مسألةَ ترشّحه وعبد الحميد كرامي، القائد الوطني الطرابلسي. فقال إنهما يمثّلان جزءاً مهماً من الرأي العام اللبناني ولا يمكن استبعادهما لأيّ سبب قانوني. أعطى كاترو الانطباع لرياض بأنه متفق معه، بل ألمح إلى أن فرنسا ربما اتبعت سياسة خاطئة في لبنان، وتلك إشارة إلى حصر دعمها بالموارنة. علّق فيرلونج بسخرية: "أتت الأمور على ما يرام من منسّق الشؤون الإسلامية، وسرّ رياض بالتأكيد"[1]. والأهم من ذلك أن كاترو انتقد هللو صراحة لأنه أساء إدارة الوضع ووضَع الرأي العام المسلم أمام تحدٍّ لا مبرِّر له.

في 21 تموز/يوليو، أصدر جان هللو مرسوماً استبدل فيه الدكتور ثابت الذي فقد شعبيّته، وعيّن بطرس (بترو) طراد رئيساً للدولة، وعبد الله بَيهم أميناً لسرّ الدولة. انحدر طراد من عائلة أرثوذكسية بيروتية بارزة، وقد درس المحاماة في باريس وكان عضواً في البرلمان منذ سنة 1922. اتبع نهجاً رصيناً ومختلفاً جدّاً عن نهج ثابت، فساعد على الفور في تخفيف التوتّر الطائفي[2]. وأعلن بعد ذلك عن

(1) G.W. Furlonge to Foreign Office, 16 July 1943 (FO 226/240).

(2) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, p. 178.

إجراء الانتخابات النيابية في 29 آب/أغسطس و5 أيلول/سبتمبر، تليها الانتخابات الرئاسية في 19 أيلول/سبتمبر.

وجّه السياسيون اهتمامهم إلى تأليف اللوائح الانتخابية. لم يكن الأمر خالياً من العقبات بالنسبة إلى رياض الصلح. فقد أبلغت بعثة سبيرز لندن: "لا يزال لدينا سبب وجيه للتخوّف من التدخّل الفرنسي في الانتخابات القادمة. لا شك في أن المستشارين الفرنسيين ديمانتسيس Dementsys في شمال لبنان وبرونو Pruneaud في جنوب لبنان، ناشطان في التآمر والتهديد والرشوة. ولم تسفر وعود هللو بدعوتهما إلى الانضباط عن أي نتيجة حتى الآن"[1]. بيد أن جهود سبيرز المستمرّة لإرخاء قبضة فرنسا على الحياة السياسية في لبنان شجّعت رياض الصلح. لكن كان لا بد له من اتخاذ قرارات مهمّة فيما تقترب الانتخابات بسرعة.

خيار جنوب لبنان

صمّم رياض على دخول البرلمان، لكن أين يترشّح؟ هل يحاول الترشّح في بيروت، أم أن حظوظه قد تكون أفضل في جنوب لبنان؟ لم تبدُ فرصُه جيدة في بيروت، حيث المسيحيون في المدينة – وهم يشكّلون نصف أعداد الناخبين – يناصبونه العداء. فقد انتهى تفاهمه الذي دام ثمانية عشر شهراً مع البطريرك عريضة الذي ساند مراسيم ثابت بحماسة[2]. كما أن رياض لا يستطيع الاعتماد على دعمٍ صُلب من طائفته السنّية، لأن رجالاً من أمثال عبد الله اليافي وصائب سلام، وحتى ابن عمّه سامي الصلح، يطمحون إلى الوصول إلى رئاسة الوزراء، ولا ينتظر أن يفسح أي منهم المجال له[3]. وقد أدركوا، كما أدرك الجميع، أن رياض سيصبح زعيم العاصمة من دون منازع إذا فاز في الانتخابات في بيروت، بسبب شهرته العربية والدولية الكبيرة. ولن يكون أمام الجميع سوى الإذعان له.

كان على رياض أيضاً النظر في أن صورته تلطّخت إلى حدٍّ ما بسبب الاتهامات الجارحة، التي كالها له أعداؤه، زاعمين أنه استفاد من موقع سامي الصلح كرئيس

(1) D.W. Lascelles of the Spears Mission to Foreign Office, 9 August 1943 (FO 226/240).

(2) Beydoun, "Riad el-Solh et les elections legislatives de 1943", p. 417.

(3) المصدر نفسه، ص 419.

للوزراء. وأشاع الأمن العام الفرنسي أن بيته محاصَر دائماً من قبل العاطلين عن العمل أو مـــن لديهم دعوى أمام القضاء، الذين يأتون طلباً لتدخّله لصالحهم مع السلطات، ويبدون استعدادهم لدفع المال لقاء ذلك[1]. لهذه الأسباب، قرّر رياض أن يترك لسامي مَهَمّة تمثيل آل الصلح في بيروت. فشُكّلت لائحتان في العاصمة: الأولى برئاسة سامي الـــصلح، وتـــضمّ النقّاش كزعيم مسيحي اسمي؛ والثانية برئاسة عبد الله اليافي، يكون زعيمها الاسمي جورج ثابت.

وفي أوائل آب/أغسطس 1943، قرّر رياض الترشّح في جنوب لبنان. فقد راقب الحملة الانتخابية هناك عن قُرب عدة أسابيع، ولاحظ أنه لم يقرّر أي من الشخصيات السنّية ذات المكانة الوطنية الترشّح هناك. فجاء ذلك لصالحه. فللشيعة في الجنوب ستّة مقاعد تعكس وزنهم الديموغرافي، بينما يوجد مقعد واحد لكلّ من الروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك والموارنة والسنّة. وكان على رياض الفوز بذلك المقعد السني الذي شـــغله الأمـــير خالد شهاب، من حاصبيا، بعد انتخابات سنة 1937، وهو من أوثق الداعمين المسلمين لفرنسا في إنشاء لبنان الكبير[2].

استحوذت الشؤون العربية على اهتمام رياض طوال حياته السياسية. فلم ينغمس في تفاصـــيل الحـــياة في جـــنوب لبنان ولم يُقم علاقات وثيقة مع الوجهاء والعائلات المحلـــية - وذلـــك شـــرط أساسي للفوز. لم يكن واثقاً من تحقيق الفوز، لكن عائلته احتـــشدت حـــوله للمساعدة. بدأ ابن عمه كاظم الصلح بزيارة صيدا أسبوعياً لحشد الدعم له، وكان شقيق سامي الصلح، ممدوح، يتوقّف في المدينة للتحدّث مع السكان المحلـــيين في طـــريقه إلى ممتلكاته في أرنون، قرب النبطية. وركّز رياض جهوده على صـــيدا، حـــيث حـــصل على دعم أقربائه من آل الجوهري الأغنياء - مثّل يوسف الجوهـــري صيدا في مجلس مديري لبنان الكبير في سنة 1920 - ومالكي الأراضي من آل الـــزين وآل محجـــوب[3]. غير أنه بقي عليه بذل جهود مع الفرنسيين الذين كان مـــسؤولوهم المحليون مصرّين على إبعاد الوطنيين عن البرلمان والمحافظة على الانتداب

(1) CADN, Fonds Beyrouth, carton 21, Information, Sûreté Générale, Beyrouth 17/9/42.

(2) Beydoun, "Riad el-Solh et les elections legislatives de 1943", pp. 443-4.

(3) المصدر نفسه، ص 441.

باللجـــوء إلى الـــتهديدات والرشاوى. بل إن بعض المسؤولين تحدّث علناً عن "لائحة مرشـــحين فرنسية" تحضّرها لجنة مؤلّفة من السادة بايلن Baelen وبوغنير Boegner وروزيك Rozek، (جميعهم شخصيات رئيسية في المندوبية العامة).

خـــشي فيرلونج من أن يتكوّن لدى السكان المحليين انطباع بعدم حدوث تغيير، وأن يكـــون "الاستقلال" اللبناني مجرّد عباءة لاستمرار السيطرة الفرنسية. وقدّم تقريراً إلى لندن جاء فيه:

في جـــنوب لبـــنان، تجاوزت أنشطة المستشار الفرنسي السيد برونو كل الحدود المـــسموح بهـــا. وقد شكّل لائحته التي ضمّت بمعظمها متملّقين تافهين، وهو يتشاور باســـتمرار مع الوجهاء، ويستعمل كل الوسائل المتاحة له للتأثير في الناخبين وإلزامهم بانـــتخاب مرشّحيه، وأن المندوبية العامة، التي أعلن صراحة أنها "ستدير الانتخابات"، ستواجه كل من يترشّح ضدّهم. إن الصلاحيات التي يمكنه ممارستها من خلال الشرطة والأمـــن، إلخ، ومـــن خلال التقييد على السيارات والمؤن كبيرة جداً بحيث تمكّنه من ترهيب معظم الناخبين.

لاحـــظ فيرلونج أن نشاط برونو موجّه ضدّ رياض الصلح على وجه الخصوص، لأنـــه يعتبره قائداً وطنياً خطيراً، وضد عادل عسيران الذي يعتقد أنه مؤيد للبريطانيين. وكـــان بـــرونو حريـــصاً على ضمان عدم انضمام أحمد الأسعد، المرشّح القوي عن الجـــنوب والـــذي يخـــضع لـــنفوذه، إلى ريـــاض الصلح أو عادل عسيران في لائحة مشتركة[1]. وكان عادل عسيران وأحمد الأسعد القطبين اللذين على رياض الصلح أن يدير حملته حولهما واللذين يقرّران نتيجتها في نهاية المطاف.

نشوء لائحة موحّدة

ظهـــر عـــادل عسيران على ساحة جنوب لبنان خلال أزمة التبغ في الثلاثينيات. وهـــو ابـــن أخ نجيب عسيران، الوجيه والعضو السابق في مجالس لبنان النيابية في عهد الانـــتداب الفرنـــسي. ساند عادل اقتراح احتكار الريجي الذي سعى الفرنسيون إلى فرضـــه، وكـــان في ذلك الوقت تربطه علاقات وثيقة وودية بالمستشار الفرنسي

(1) G.W. Furlonge to Foreign Office, 10 February 1943 (FO 226/240).

زينوفي بيشكوف Zinovi Pechkhoff الذي حكم الجنوب كإقطاعية شخصية. أصبح بيشكوف، وهو ابن الكاتب الروسي مكسيم غوركي بالتبنّي، جنرالاً ديغولياً وسفيراً لفرنسا إلى اليابان بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة.

لكــن عادل عسيران بدّل موقفه عندما تفاقمت أزمة التبغ في سنة 1936، وأدّت إلى صــدامات مــسلّحة في بنت جبيل، وسقوط عدد من الإصابات وتوقيف بعض الأشخاص. فأصبح مدافعاً متحمّساً عن الوحدة السورية وتحالَف مع كاظم الصلح في حــزب النداء القومي. وكان متزوّجاً من فتاة جميلة ومثقّفة من عائلة الخليل من مدينة صور الساحلية، حلفاء رياض الصلح الأقوياء في تلك المدينة الساحلية.

ألقــى عــادل خطاباً عنيفاً ضدّ الريجي ومؤيّداً لمزارعي التبغ، فاعتقله الفرنسيون وأرسلوه إلى المحاكمة. وكانوا على قناعة أن رياض الصلح والوفد السوري، الذي كان يفــاوض في ذلك الوقت على المعاهدة المشؤومة في باريس، هما المحرّضان على حركة الاحــتجاج على التبغ[1]. وفي سنة 1943، أي بعد ثماني سنوات، كان الفرنسيون لا يزالون يعتبرون عادل عسيران عدوّاً لهم.

كانت قضية أحمد الأسعد مختلفة تماماً. فهو شخصية نافذة ووريث لإحدى أقوى العائلات التي تعاونت مع الأتراك ثم مع الفرنسيين في جبل عامل. وقد مثّل والد أحمد الأســعد، عبد اللطيف، العائلة في البرلمان في عهد الانتداب الفرنسي. وعند وفاته في سنة 1935، تولّى أحمد زعامة العائلة، دخل البرلمان في سنة 1937 وأصبح وزيراً لفترة قصيرة في حكومة أحمد الداعوق في سنتي 1941-1942.

كــان أحمد الأسعد، ابن أخ كامل الأسعد، منافس رضا الصلح في جنوب لبنان في أوائل سنوات الحرب العالمية الأولى. ومما يذكر أن كاملاً أبلغ الأتراك عن تحرّكات رضا الوطنية، ما أدى إلى محاكمة رضا وابنه رياض في عاليه.

ربمــا كــان المفترض، إزاء هذه الخلفية، أن ينأى رياض الصلح بنفسه عن أحمد الأســعد، المعــارض التقليدي لعائلته، ويتحالف مع عادل عسيران، رفيقه في مقاومة الانــتداب الآن. لكــن الأمــور لم تحدث على هذا النحو. فقد قرّر رياض، بدهائه

(1) Beydoun, "Riad el-Solh et les elections legislatives de 1943", p. 420-1; Chalabi, *Shi'is of Jabal 'Amil*, p. 137-8.

السياسي المتميز، أن مصلحته تقتضي عدم الانضمام إلى لائحة عسيران المعارِضة للفرنسيين في العلن. وحرصاً منه على طمأنة الفرنسيين، فضّل التحالف مع الوجيه الشيعي القوي أحمد الأسعد، الذي يثق به الفرنسيون. لكن كيف يمكن تحقيق هذا التحالف الذي يبدو خلافاً للطبيعة؟

كان يوسف سالم الوسيط الرئيسي بينهما، وهو برلماني قديم انتُخب للمرّة الأولى في سنة 1925، وخبير في بناء التحالفات الانتخابية. أقنع البريطانيين في سنة 1941 أن رياض الصلح والكتلة الوطنية في سوريا ليسوا أعداء ألدّاء للمصالح البريطانية. وحضّ فيرلونج على الاجتماع برياض واجتذابه إلى جانب الحلفاء، بدلاً من توقيفه كما (ذكر ذلك لاحقاً في كتابه **خمسون سنة مع الناس**). ونظّم يوسف سالم أيضاً لقاءات في منزله بين فيرلونج والقائدين الوطنيين السوريين، شكري القوتلي وسعد الله الجابري. كان تدبير التفاهم مع رياض الصلح سهلاً إلى حدٍّ ما مقارنةً بالآخرَيْن، لأن رياض، خلافاً لهما، لم يتوجّه إلى بغداد خلال انتفاضة رشيد عالي، مع أنه نظّم لقاءات لدعم الوطنيين العراقيين الشجعان.

حاول يوسف سالم جمع رياض الصلح وأحمد الأسعد معاً[1]. فاقترح البدء بحوار تمهيدي بغية التوصّل إلى اتفاق انتخابي. وهكذا كان. لا شكّ في أن تراجع نفوذ المندوبية العامة الفرنسية، وتنامي نفوذ بعثة سبيرز اقنع أحمد الأسعد بأن حظوظ فوز لائحة انتخابية تضمّ رياض أوفر من حظوظ لائحة موالية للفرنسيين بأكملها. غير أن بعض الناخبين الشيعة قاوموا فكرة الاتفاق مع رياض، مخافة أن يؤدي ذلك إلى سيطرة سنّية. كما أنهم لم يرحّبوا سابقاً باقتراح رياض دمج مؤسّسات الطائفتين السنّية والشيعية لتشكيل كتلة إسلامية قادرة على تحدّي الموارنة. بل إنهم ردّوا بتعزيز مؤسسات طائفتهم بإنشاء مجلس شيعي أعلى يرأسه أحمد الأسعد.

مع ذلك أعلن عن لائحة رياض الصلح وأحمد الأسعد في الأسبوع الأول من آب/أغسطس بعد كثير من المحادثات التمهيدية. ووسط دهشة عامة، انضمّ عادل عسيران نفسه إلى تلك اللائحة مع ثلاثة من مؤيّديه، كاظم الخليل ورشيد بيضون وعلي عبد الله، اقتناعاً منهم في الظاهر أن لا جدوى من محاربة تحالف أحمد الأسعد

(1) Beydoun, "Riad el-Solh et les elections legislatives de 1943", pp.425, 430.

ورياض الصلح القوي. كما فضّل أحمد الأسعد بدوره هذا الائتلاف على التحالف مع نجيب عسيران ويوسف الزين.

قلق المستشار الفرنسي برونو من هذا الاصطفاف غير المتوقّع، وحاول يائساً تشكيل لائحة مقابلة يرأسها يوسف الزين، لكنها أتت فاقدة المضمون والصدقية. وأثمرت أنشطة رياض الصلح السياسية عن إنشاء لائحة موحّدة، أُعلن عنها رسمياً في 17 آب/أغسطس في تجمّع ضخم في الطيبة، بلدة عائلة الأسعد. وكان لقرار أحمد الأسعد دعم هذه اللائحة بكل ثقله تأثير كبير على مستقبل مسيرة رياض الصلح السياسية في ما بعد.

رأى برونو الغاضب في تلك اللائحة الموحّدة انتكاسة خطيرة لفرنسا في جنوب لبنان[1]. وأدرك رياض الصلح أن برونو لا يزال خطيراً، ولا بدّ من إرضائه. فطلب المساعدة من إميل إدّه، أحد أخلص الموالين لفرنسا، الذي عمد إلى إقناع برونو والمندوبية العامّة أن من الأفضل لهم البقاء على الحياد في الانتخابات المقبلة. لم يكن تدخّل إدّه بدافع الإيثار فحسب. فهو يطمح منذ وقت طويل إلى إعادة انتخابه رئيساً للجمهورية مرّة ثانية، ويحتاج إلى وقوف شخصية سنّية بارزة، مثل رياض، إلى جانبه في المنافسة مع خصمه الأساسي الشيخ بشارة الخوري. وهكذا رتّب رياض على نفسه دَيناً سياسياً لإدّه، لا بدّ من إيفائه بعد بضعة أشهر.

مع اقتراب موعد الاقتراع، عمدت جميع الأطراف إلى المناورة من أجل النجاح. ولم يجرؤ الفرنسيون على معارضة رياض علناً مخافة دفعه إلى أحضان البريطانيين. ولاسترضاء الفرنسيين، تظاهر سبيرز الماكر بأنه لا يرغب في فوز رياض، وتظاهر رياض بدوره بالإعلان عن أنه سيحترم المصالح الفرنسية. فقبل أسبوع من الانتخابات، عقد أعضاء اللائحة الموحَّدة اجتماعاً في منزل كاظم الخليل للتباحث بشأن من سيدعمون لمنصب رئيس الجمهورية في حال الفوز. أعلن رياض الصلح بصوت عالٍ وابتسامة تنمّ عن دهاء أن عليهم التصويت لمرشّح ممثّل فرنسا! فنُقل ما قاله على الفور إلى المندوبِ العام الفرنسي، جان هِللو، وذلك مقصد رياض بطبيعة الحال[2].

(1) المصدر نفسه، ص 433-5.

(2) المصدر نفسه، ص 429.

التصويت الحاسم

سبقت الانتخابات فترةٌ من الحملات المكثّفة، عقدت خلالها اللائحة الموحّدة اجتماعات موسّعة في صيدا والخيام والطيّبة وجزّين. في الطيّبة - حيث غابت الأعلام الفرنسية - أعلن أحمد الأسعد أن لبنان "بلد عربي"، وهو إعلان أزعج الفرنسيين كثيراً. وبلغت حملة رياض الصلح ذروتها بخطاب ألقاه في بلدة جزّين المارونية، وكان بمثابة ردّ على البطريرك عريضة ومطارنته الذين أغضبهم تسامح المندوبية العامّة مع اللائحة الموحّدة. صرّح رياض في خطابه أنه كان في الماضي عدوّاً للانتداب الفرنسي، لكنه أصبح اليوم مناصراً لاستقلال لبنان وصديقاً للبلدان الديمقراطية في العالم. وعبّر عن أمل كبير بانتصار الحلفاء في الحرب، وبوحدة اللبنانيين في تعلّقهم بوطنهم. وكرّر قوله إنه يفضّل العيش في قرية مستقلّة على العيش في إمبراطورية خاضعة للسيطرة الأجنبية. ففُهم من هذه الملاحظة على نطاق واسع أنه يفضّل استقلال لبنان على الوحدة العربية. وكان يقصد أن يجد منتقدوه المسيحيون في هذه الكلمات إيماءة تطمين ومصالحة.

تمّ تقسيم الدوائر الانتخابية كما حصل في سنة 1937، فاعتُبرت محافظات لبنان الخمس، بيروت ولبنان الشمالي ولبنان الجنوبي والبقاع وجبل لبنان، دوائر انتخابية منفصلة. ويحتاج المرشّح للفوز إلى الحصول على أكثرية بسيطة في الدورة الأولى، في حين تأخذ الدورة الثانية الممتنعين عن التصويت في الحسبان والاتفاقات الانتخابية في اللحظة الأخيرة. وتجدر الإشارة إلى أن عدد سكان لبنان في ذلك الوقت بلغ 1,150,000 (وعدد سكان سوريا إلى 2,700,000)[1].

نشر رياض في صباح 29 آب/أغسطس، يوم الدورة الأولى للانتخابات، بياناً في جريدة **الديار**، وهي صحيفة يملكها ويحرّرها صديقه حنّا غصن، بدا كأنه برنامج حكومي. وأشارت نبرة رياض إلى أنه يتطلّع إلى رئاسة الحكومة

إننا ندخل عالَماً جديداً، يتمتّع فيه الكبير والصغير، القوي والضعيف، بمزايا الحرّية... إن سيادتنا الوطنية مبنيّة على ضمانات متينة... على ميثاق الأطلسي، هذه

(1) Gabriel Menassa, Memorandum dealing with the Lebanese electoral problems and the introduction of necessary reforms, Beirut, 16 January 1943 (FO 226/240).

العلامة البارزة في تاريخ الحضارات، وعلى ضمانات كثيرة أخرى قدّمت إلينا تحديداً من الجنرال ديغول، قائد الفرنسيين المقاتلين، وكذلك من رئيس الوزراء البريطاني ورئيس الولايات المتّحدة... برنامجي هو برنامج من يحبّ بلده ويعمل له بإخلاص وتفانٍ. ليس هذا المكان المناسب للخوض في التفاصيل. يكفي أن أقول إن برنامجي سيعمل على تعزيز استقلالنا وسيادتنا الوطنية. أمّا بالنسبة إلى سياستنا الخارجية، فإنها ترمي إلى إدخال لبنان في دائرة البلدان التي تعمل على بناء هذا العالم الجديد القائم على الحريّة والعدل والقانون والازدهار، عالَمٍ يتمتّع بالحريّات الأربع التي أعلنها الرئيس روزفلت[1].

فازت اللائحة الموحّدة بأكثر من ثلاثة أرباع الأصوات. شارك في الاقتراع 24,393 شخصاً من أصل 37,661 ناخباً مسجّلاً في لبنان الجنوبي، أي أن نسبة المشاركة بلغت 66 بالمئة. حلّ عادل عسيران أولاً في اللائحة وحصل على 20,011 صوتاً، تلاه رشيد بيضون وحصل على 19,483 صوتاً، وأحمد الأسعد وحصل على 19,424 - ما أثار غضب الأسعد لأنه حلّ ثالثاً في لائحة كان له الفضل الأكبر في تشكيلها! وفاز رياض الصلح بالمقعد السني حاصلاً على 19406 أصوات. وفشل الفرنسيون فشلاً ذريعاً في تأمين النصر لمؤيّدهم الأمير خالد شهاب.

أبلى القادة المسلمون بلاء حسناً في الأماكن الأخرى من البلاد. فانتُخب عبد الله اليافي وصائب سلام في بيروت، وعبد الحميد كرامي في الشمال. وانتُخب الوجيه الشيعي صبري حمادة في البقاع والزعيم الدرزي كمال جنبلاط في جبل لبنان. وانضمّ إليهم شخصيات بارزة من الطوائف الأخرى، مثل الكاثوليكي سليم تقلا، والموارنة الثلاثة البارزين بشارة الخوري وإميل إدّه وكميل شمعون في جبل لبنان؛ والمصرفي الكاثوليكي هنري فرعون في البقاع؛ والأرثوذكسي حبيب أبي شهلا، والماروني ألفرد نقاش والبروتستانتي أيوب ثابت في بيروت.

لكن هذا الدخول الظافر لرياض الصلح والمسلمين الآخرين إلى البرلمان للمرة الأولى غيّر ميزان القوى السياسي والطائفي في السياسة اللبنانية إلى الأبد.

(1) MAE-Nantes, Fonds Beyrouth Ambassade, série 1994A, carton 20, Statement by Riad el-Solh in *Al-Diyar*, 29 August 1943.

الفصل التاسع عشر

تسوية الميثاق الوطني

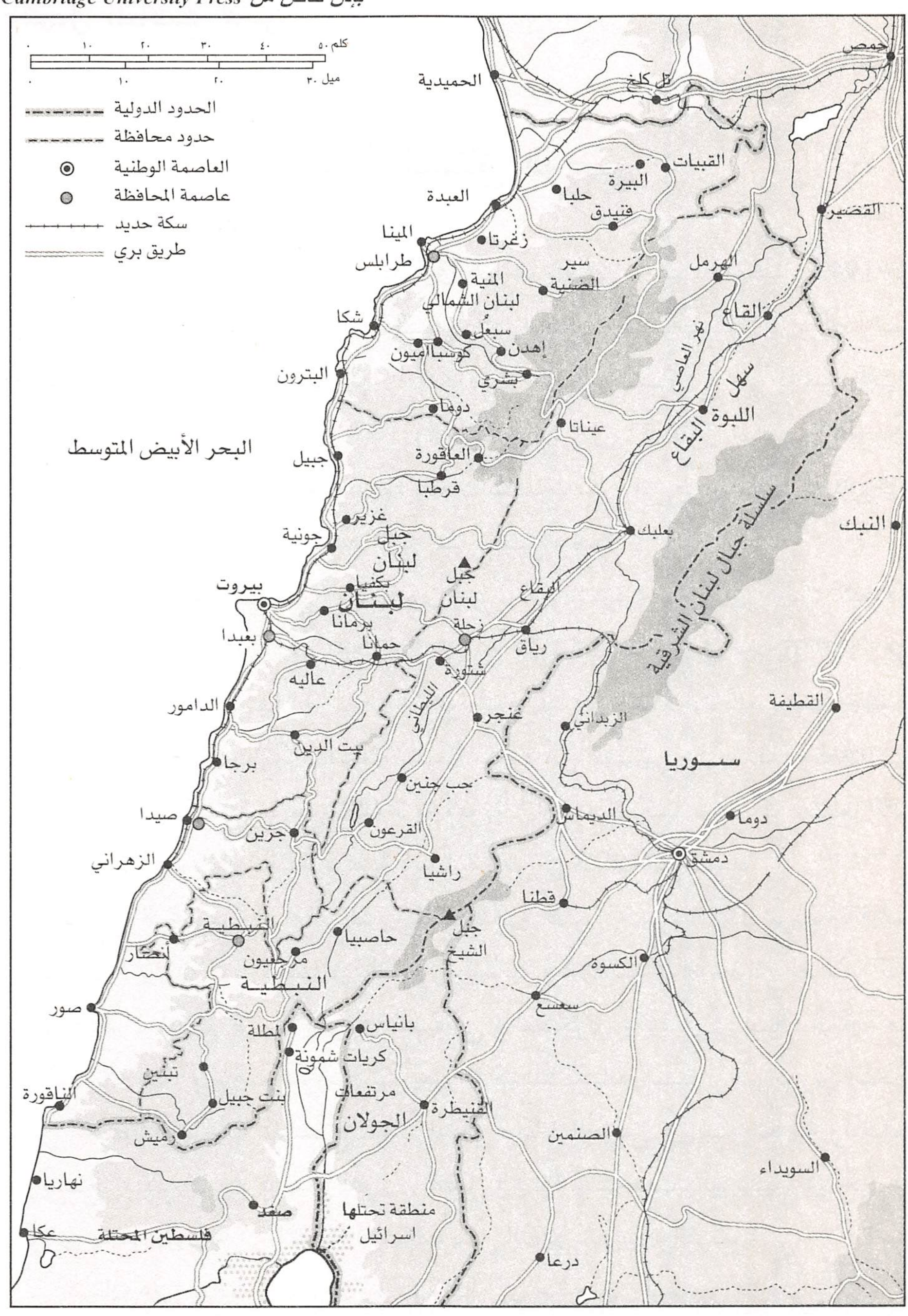
اقترب رياض الصلح بانتخابه نائباً في البرلمان اللبناني في آب/أغسطس 1943 من الوصول إلى رئاسة الوزراء. لكن ذلك المنصب بقي بعيد المنال، إذ إن رئيس الجمهورية هو الذي يعين رئيس الوزراء، بموجب الدستور اللبناني، وعلى المجلس اختيار الرئيس قبل ذلك. كان من المقرّر انتخاب الرئيس في 21 أيلول/سبتمبر، وقد رأى رياض أن كل شيء يتوقّف على نتيجة تلك المنافسة. لكن مَن مِن المتنافسين المارونيين على المنصب الأول في الدولة يخدم غايته على أفضل وجه؟

احتدمت المنافسة على الرئاسة بين إميل إدّه وبشارة الخوري في جانب كبير من الثلاثينيات. انتُخب إدّه رئيساً بدعم فرنسي وهزم بشارة الخوري في سنة 1936، وهي الرئاسة التي قطعتها الحرب، وها هو اليوم يأمل في إعادة انتخابه. بدت حظوظ الرجلين متساوية. فهما يتمتّعان بشبكة كبيرة من المؤيّدين والأصدقاء والعلاقات، وكل منهما متزوج من عائلة ثرية وقوية في بيروت. كما تزعّم كل منهما كتلة برلمانية: ترأس إميل إدّه الكتلة الوطنية وبشارة الخوري الكتلة الدستورية.

على الرغم من التزام الرجلين بلبنان الكبير ضمن حدود 1920 الموسّعة، فإنهما اختلفا كثيراً بشأن دور فرنسا في الشؤون اللبنانية وعلاقات لبنان بجيرانه العرب. كان إدّه يريد أن تحتفظ فرنسا بنفوذها السياسي والعسكري والثقافي في لبنان لحمايته من جيرانه العرب، وبخاصة سوريا، التي يعتبرها تهديداً لكيانه. بينما أراد الخوري التحرّر من السيطرة الفرنسية للسماح للبنان بشغل مكانه الطبيعي في بيئته العربية والمسلمة الأوسع. وكان إدّه فرنسي الهوى، يفضّل الكتابة والتحدّث بالفرنسية، في حين أن الخوري يشعر بالراحة إلى الثقافة العربية، ويتقن اللغتين العربية والفرنسية.

كان على رياض الصلح أن يحسم مسألة أي من هذين الزعيمين المارونيين يمكن أن يعيّنه رئيساً للوزراء، والأهم من ذلك أن يكون شريكاً ملتزماً في الكفاح لنيل الاستقلال

بإذن خاص من *Cambridge University Press*



الجمهورية اللبنانية

الـــذي لا بـــدّ أن ينطوي على مواجهة مؤلمة مع الفرنسيين. ربما كانت مشاعر بشارة الخـــوري المؤيّدة للعرب تجعله خيار رياض البدهي. لكن المفارقة أن رياض كان قريباً أكثر من إدّه على الصعيد الشخصي. وفي حين أن علاقاته مع الخوري اتّسمت بالمودة، فإنه وجد نفسه أكثر انسجاماً مع إده. كانت رفقة إدّه مؤنسة وممتعة، لتميّزه بالذكاء والحنكة والحسّ الفكاهي واضح على غرار رياض. كما أنه صريح ومباشر: لا يحاول المراوغة أو إخفاء تعلّقه بفرنسا، بل إن المرء يعرف تماماً أين يقف معه.

علـــى أي حال، لم يكن الأمر اختياراً بين أسود وأبيض، لأن إدّه أبدى إيماءات تـــصالحية مع المجتمع الإسلامي. بعد تولّيه رئاسة الجمهورية في سنة 1936، عيّن خير الـــدين الأحـــدب – شريك رياض السابق في مغامرتهما الصحافية المشتركة – رئيساً للوزراء. وتلك المرّة الأولى التي يتولّى فيها مسلم منصباً رفيعاً تحت الانتداب الفرنسي. لكـــن فوجـــئ رياض وشعر بخيبة الأمل لأن الأحدب لم يحقق أي رأسمال سياسي من منـــصبه، واخـــتار بدلاً من ذلك التخفيف من قناعاته القومية العربية. مع ذلك، جاء تعيـــينه بمـــثابة دخول رسمي للمسلمين إلى أعلى درجات الحياة السياسية اللبنانية التي استُبعدوا منها طويلاً.

قـــدّم إميل إدّه أيضاً خدمة قيِّمة لرياض الصلح في الفترة التي سبقت الانتخابات النيابـــية في آب/أغسطس 1943، عندما أقنع الفرنسيين بعدم شنّ حملات علنيّة ضدّه. كما طمأن الفرنسيين بأن رياض الصلح ليس رجلَ بريطانيا، ولعله فعل ذلك بحثٌ من رياض. وقد ساعد ذلك كثيراً في تبديد التحفّظات الفرنسية الكبيرة تجاهه.

في غضون ذلك، أبدى الفرنسيون – الذين طالبوا جميع السياسيين الموارنة بتقديم ولاء أعمى لهم – انقلابا تاماً على بشارة الخوري. اعتبروه انتهازياً باع نفسه، حسب تقديـــرهم، إلى الـــبريطانيين. كتب مسؤول فرنسي غاضب أن بشارة الخوري كان "فرنسياً عندما آمن بموقع فرنسا المسيطر في المشرق، وعربياً فور شعوره أن حكومات الجبهة الشعبية في فرنسا تفضّل الوطنيين، وأصبح إنكليزي الهوى عندما دخلت القوّات البريطانية لبنان"[1]. وبحلول سنة 1943، أصبح الفرنسيون منـــزعجين جداً منه. فأبلغ مسؤول فرنسي ساخط باريس:

---

(1) MAE-Nantes, Fonds Beyrouth (Amb.), série 1994A, carton 20, 25 août 1941.

رأى بشارة الخوري، منذ وصول قوّات الحلفاء، أن الوقت حان للسعي إلى السلطة. فانضمّ إلى أنسبائه آل فرعون - الذين أمّنوا عقوداً بريطانية ضخمة لبناء الطرقات ومدرّجات المطارات - وفتح منزله أمام الضباط البريطانيين، وأقام لهم حفلات استقبال مسرفة وأبدى اللطف مع بعثة سبيرز وأركان الجنرال ويلسن [قائد الجيش التاسع البريطاني]. إنه يتغنّى الآن بكل ما هو بريطاني ويسيء إلى سنوات الانتداب الفرنسي العشرين "المتردية". لكن عندما جال الجنرال في البلاد لتقصّي رغبات السكان في ما يتعلّق باختيار الرئيس، حرص بشارة الخوري على وجود من يهمس في أذن الجنرال أنه الشخص الأكثر شعبية وأهلية للفوز بذلك المنصب(1).

وإلى جانب الاستنكار الذي أبداه الفرنسيون من اتصالات الخوري بالبريطانيين، فقد استاؤوا أيضاً من العلاقات الوثيقة التي أقامها مع النحّاس باشا في مصر وأعضاء من الكتلة الوطنية في سوريا. فقادة هاتين الدولتين العربيتين هم الأكثر قدرة على التأثير في الشؤون اللبنانية. لذا لا غرو أن يلقي الفرنسيون بكل ثقلهم خلف إميل إدّه كمرشّح للرئاسة.

وجد رياض الصلح نفسه أمام معضلة حادّة. فهو يفضّل إدّه على الصعيد الشخصي، لكن لديه شكوكاً خطيرة فيه على الصعيد السياسي. رأى أن إدّه ربما يبعد مسافة ما عن فرنسا، لكن إلى أي مدى يمكن أن يذهب؟ هل سيكون مستعداً للضغط من أجل الانسحاب التامّ للقوات الفرنسية من لبنان، وهو شرط ضروري في نظر رياض، لتحقيق استقلال حقيقي؟ وهل يقبل بفكرة "الهوية العربية" للبنان، التي كان رياض الصلح مصمّماً على توكيدها(2)؟

استشار رياض صديقه القنصل العام العراقي تحسين قدري الذي عرفه شابّاً في استانبول وأصبح عميد السلك الدبلوماسي في بيروت. وقد لعب قدري دوراً مهمّاً في الشؤون اللبنانية بسبب علاقاته مع السياسيين البارزين، وبفضل المكانة التي يحظى بها العراق. تذكر عَلْياء، ابنة رياض، وكانت في العاشرة من عمرها تقريباً في ذلك الوقت،

(1) MAE-Nantes, Fonds Beyrouth (Amb.), série 1994A, carton 20, 20 février 1943.

(2) مقابلة مع علياء الصلح، مونت كارلو، 4-5 تشرين الأول/أكتوبر 2004.

أن تحسين قدري قدم إلى بيتهم في أحد الأيام حاملاً معه رسالة إلى رياض. أخرج علبة سجائر فارغة من جيبه وبسطها وكتب عليها: "الشاي عند قدري غداً في الساعة الخامسة"، وناولها لها لتعطيَها إلى والدها. عندما ذهب رياض إلى بيت القنصل في اليوم التالي، وجد بشارة الخوري هناك. فقد أعدّ قدري اللقاء خصيصاً لجمعهما معاً. علّقت عَلياء الصلح مبتسمة: "كانت هذه المرّة الأولى في تاريخ لبنان التي يختار فيها من سيصبح رئيساً للوزراء رئيسَ جمهورية، وليس العكس".

لقاء 19 أيلول/سبتمبر 1943

لم يكن تحسين قدري الوسيط الوحيد. في مقابلة مع نصري المعلوف قبل وفاته، وهو محامٍ ونائب سابق وصديق وثيق الصلة برياض الصلح، روى كيف تمّ التحالف بين رياض الصلح وبشارة الخوري[1]. كان المعلوف قد التقى رياض لأول مرة في دمشق في أوائل الثلاثينيات، عندما كان الأخير في إحدى زياراته لأصدقائه الوطنيين هناك. عرف المعلوف، المُتخرّج للتوّ في جامعة دمشق، رياض الصلح عن طريق أستاذه في القانون والسياسي البارز فارس الخوري، الذي أقنع رياض بتوظيف معلوف الشاب في مكتبه للمحاماة في بيروت. وتعرف المعلوف بهذه الطريقة على ابني عم رياض، كاظم وتقي الدين الصلح أيضاً، وانضمّ إلى دائرة رياض الداخلية من كتبة الخطابات والمؤيدين والمستشارين.

في أيام النشاط المحموم بين الدورة الثانية للانتخابات النيابية في 5 أيلول/سبتمبر والانتخابات الرئاسية في 21 أيلول/سبتمبر، تساءل هؤلاء الرجال: كيف يستطيع رياض أن يفكر في تأييد إميل إدّه، وهو الرجل الذي يريد استقلالاً محدوداً عن فرنسا، في حين أن بشارة الخوري ليس لديه شريك مسلم ذو وزن، على الرغم من أنه يدعو إلى الاستقلال التامّ؟ كان الأمير خالد شهاب، وهو من جنوب لبنان، المسلم الوحيد ذا الشأن في كتلة بشارة الخوري الدستورية. وقد اتسم بالنزاهة، لكن سمعته السياسية تلطّخت بتعاونه مع الفرنسيين.

---

(1) Nasri Maalouf, "Riad el-Solh doit être avec Béchara el-Khoury," in Khoury (ed.), *Sélim Takla, 1895-1945*, pp 510-516. وأجرى فارس ساسين المقابلة مع معلوف في 12 تموز/يوليو 2002.

ناشد المعلوف رفاقه خلال اجتماع في مكتب كاظم الصلح قائلاً: "امنحوني 24 ساعة فقط كي أجتمع بأصدقاء بشارة الخوري، لكن من دون إبلاغ رياض في الوقت الحالي أو طلَب أي شيء منه". عندما وافق الآخرون على هذه الخطوة، زار المعلوف سليم تقلا، أحد أقرب أصدقاء بشارة الخوري وأكثر مستشاريه احتراماً، وكان يُعرف أنه "العقل المفكّر للكتلة الدستورية".

قال له المعلوف: "يتفق اللبنانيون والبريطانيون في الرغبة في استقلال لبنان. إننا ندعم بشارة الخوري تماماً في مطالبته بالاستقلال التامّ. غير أن رياض يفضّل إميل إدّه. والمسلم الوحيد في الكتلة الدستورية، وهو الأمير خالد شهاب، يفتقر إلى الشعبية في بيروت".

سأله سليم تقلا: "ما الذي تريد أن تقوله"؟

أجاب نصري معلوف: "أقول إن رياض الصلح يجب أن يتحالف مع بشارة الخوري".

ردّ سليم تقلا بحماسة: "سيكون ذلك رائعاً! أنا موافق".

تابع نصري المعلوف: "جئت لأقول لك إن علينا العمل معاً لتحقيق ذلك".

سأل سليم تقلا، مُشيراً إلى رياض الصلح وأنصاره: "لكن ما الذي يطلبونه"؟

أجاب نصري المعلوف بثقة: "لا يعلم رياض شيئاً عن هذا الاقتراح حتى الآن. لكن إذا فتحتم من جانبكم الباب له، فأعتقد أن في وسعكم أن تجتذبوه إليكم. وبعد ذلك نبدأ العمل من جانبنا".

رحّب سليم تقلا بتلك الفكرة. لكن كيف يتمّ تنفيذ هذه الخطّة؟ اتفق المعلوف وتقلا على أن ينقل الأخير الاقتراح إلى بشارة الخوري، اعتقاداً منهما أنه سيرحّب باحتمال التحالف مع رياض. غير أن تقلا تردّد في القيام بهذه المهمّة بمفرده. وشعر بالحاجة إلى مساندة شخص ماروني بارز آخر مقرَّب من بشارة، مثل كميل شمعون. فرتّب تقلا عقد اجتماع بين المعلوف وشمعون لاستمزاج رأيه. فجاء جواب الأخير فورياً وحماسياً: "اذهب وتحدّث إلى رياض".

كان المعلوف محامياً يتسم بالحذر. شكّلت صداقة رياض لإميل إدّه وولاؤه له عائقاً أساسياً أمام تحالف رياض مع بشارة الخوري. لذا رأى المعلوف أنه لا يستطيع

أن يفاتح رياض الصلح بهذا الشأن قبل أن يقرّ معسكر بشارة الخوري فكرةَ التحالف بينهما بصورة رسمية. لكن شمعون قدّم في ذلك الوقت تأييده للمبادرة، وحثّ المعلوف على عدم إضاعة الوقت لأن الانتخابات الرئاسية تقترب بسرعة.

وهكـذا رتّـب المعلوف، في البداية، عقد لقاء بين رياض وسليم تقلا، وعندما جـاءت النتائج مبشرّة، عمد تقلا وشمعون بعد ذلك إلى تعزيز الروابط بين المعسكرَيْن السـياسيّين. وقـال المعلوف لاحقاً: "عندما أخبرنا رياض أننا باشرنا العمل من دون علمه، استمع بصمت، و لم يعلّق"[1].

مهدّت هذه اللقاءات الأولية المعقّدة الطريق للقاء ثنائي تاريخي بين رياض الصلح والـشيخ بشارة الخوري في 19 أيلول/سبتمبر في منـزل صديق مشترك في بلدة عاليه الجبلية الباردة، (حيث انتظر رضا ورياض الصلح في الماضي محاكمتهما على نشاطاتهما المناهضة لتركيا). لا يوجد أي سجل عن مضمون اللقاء. فلم يكتب رياض شيئاً عنه، وورد ذكره بإيجاز في مذكّرات بشارة الخوري. وتبيّن في ما بعد أنهما توصّلا إلى اتفاق غـير مكتوب يقضي أن يعيّن بشارة الخوري، إذا انتُخب رئيساً، رياض الصلح رئيساً للـوزراء. كمـا اتفقا على تقاسم السلطة بغية وضع برنامج سياسي متين يسعيان من خلاله إلى الاستقلال عن فرنسا.

كـتب بشارة الخوري في مذكّراته: "قرّرت أن أعهد بمنصب رئاسة الوزارة إلى رياض الصلح، وهو رجل حادّ الذكاء ذو شجاعة نادرة، ويحظى باحترام كبير في لبنان والـبلدان العـربية. اجتمعنا معاً قبل يومين من الانتخابات الرئاسية واتفقنا على هذه الـنقطة...". وأضـاف الخوري أن "الاجتماع بقي سرّياً و لم أبلغ أحداً، حتى أقرب الأشخاص إليّ، عما أعتزم القيام به".

وهكـذا وضـع المـبدأ العريض لاستقلال لبنان على قاعدة العيش المشترَك بين المسيحيين والمسلمين. وتجسّد التفاهم بين الرجلَيْن بعد بضعة أيام في أوّل بيان يدلي به رياض الصلح أمام البرلمان بعد تولّيه منصب رئيس الوزراء، وهو برنامج الحكومة الذي عُرف في ما بعد بالميثاق الوطني. غير أن الغموض يلفّ كيفية عقد الاتفاق بين بشارة ورياض، وما تبادلاه من أحاديث في اللقاء الحاسم.

(1) بشارة الخوري، **حقائق لبنانية**، الجزء 2، ص 17.

خلفية الميثاق وأهميته

لا شك في أن التسوية السياسية بين الموارنة والمسلمين السنّة، متجسّدة في الميثاق الوطني، هي من صنع هذين الرجلين. فقد تمكّن رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء معاً من تحقيق استقلال لبنان، ووضع حدٍّ لقمع النظام الاستعماري المستحكِم، بعد نضال مرير مع فرنسا. وقد تحقّقت شراكتهما معاً بفضل معطياتهما الاستثنائية. أدرك رياض هواجس المسيحيين وتعاطف شخصياً معهم منذ نعومة أظافره، بينما تمتّع بشارة الخوري باستقلال فكري ليدرك أنه بحاجة إلى البحث عن الدعم خارج مجتمعه الماروني الضيق. فسمح له ذلك بإدراك فائدة تحالفه مع رياض الصلح، الزعيم السنّي الذي اكتسب نفوذاً عظيماً لدى المسلمين في لبنان والبلدان العربية. شكّل الميثاق نمطاً جديداً للعيش المشترك، ارتقت فيه الزعامة الإسلامية السنّية المدينية إلى موقع المشاركة الكاملة في السلطة مع الموارنة، الذين سيطروا في السابق على الساحة السياسية. فأدخل ذلك تحوّلاً جذرياً على تركيبة السلطة التي وضعها الفرنسيون.

لم يتحالف رياض مع بشارة الخوري فحسب، بل مع الحزب الدستوري ومناصريه الأقوياء، مثل هنري فرعون وميشال شيحا، وهما دعامتا الحياة الاقتصادية والثقافية في لبنان. فقد أدرك هؤلاء الأثرياء، على مضض، أن الوقت قد حان للتوصّل إلى تسوية مع المسلمين في بلدهم، إذ لم يعد بإمكان الفرنسيين أن يضمنوا لهم موقع الصدارة المسيحية. وأصبحوا جاهزين الآن للابتعاد قليلاً عن الفرنسيين والاقتراب من العالم العربي. بيد أن بشارة الخوري وأصدقاءه كانوا يخشون من أن يصل منافسهم إميل إدّه إلى السلطة، وتتمتع حاشيته وحدها بالغنائم، إذا استعاد الفرنسيون سيطرتهم على لبنان.

ما كان التحالف بين رياض الصلح وبشارة الخوري يمكن أن يتمّ، ويعطي النتائج التي أعطاها لو لم يدعمه الجنرال سبيرز. فقد عقد هذا الوزير البريطاني القوي المفوّض في دول المشرق العزم على جعل فرنسا تفي بتعهدّها منح الاستقلال إلى سوريا ولبنان، وهو تعهّد ضمنته بريطانيا. وكان رياض الصلح والجنرال سبيرز قد توصّلا في السنة الماضية إلى تفاهم سياسي ودرجة من الاتفاق الاستراتيجي الذي وجدا أن من غير الحكمة الإفصاح عنه تماماً.

تجلّت حنكة رياض في انتهاز اللحظة المناسبة للسعي إلى الوصول إلى السلطة وتحدّي الفرنسيين. فقد مكّنته سنوات المنفى العديدة في سويسرا وفرنسا من إدراك السياسات الأوروبية أكثر من العديد من معاصريه اللبنانيين والسوريين. بل جعلته يستوعب كيف يمكن وضع ميزان القوى الدولي في خدمة لبنان. والأهم من ذلك أنها ساعدته في فهم كيفية التعامل مع الجنرال سبيرز ومستشاره الرئيسي جيفري فيرلونج الذي كان رياض يلتقيه يومياً تقريباً في ذلك الحين. كما أدرك رياض جيداً أن مناصرة سبيرز القوية وغير العادية لقضية استقلال لبنان وسوريا، واستعداده العنيد لمواجهة الجنرال ديغول ووزارة الخارجية البريطانية، ميزة مهمة يجب استغلالها إلى أقصى حدٍّ وبسرعة.

ثمة عناصر أخرى في المعادلة بطبيعة الحال. لقد تشجّع رياض بانتصار أصدقائه الوطنيين في سوريا في الانتخابات، وساعده ذلك في المقابل في تحقيق التقارب مع بشارة الخوري. فقد قدم وفد سوري برئاسة لطفي الحفّار إلى بيروت لإقناع وجهاء السنّة بدعم ترشّح بشارة الخوري، ووضْع حدّ لطموحات إميل إدّه. وأيّد النحاس باشا، رئيس وزراء مصر، انتخاب الخوري، وأعطى تعليماته للقنصل المصري في بيروت، أحمد رمزي، للتأثير في الرأي العام المُسلم لصالح الخوري. وكان هناك تصميم رياض على أن يلقي في المعركة بمكانته وشعبيته ومؤهّلاته القومية العربية التي راكمها بدأب على مرّ السنين.

كانت المسألة السياسية التي واجهها رياض الصلح وبشارة الخوري تتعلّق بمقدار التسوية التي يستطيع كل منهما الإقدام عليها لتشارك السلطة[1]. وقد استند تفاهمهما إلى قبول المسلمين بلبنان الكبير وحدود 1920 الموسّعة، وقبول المسيحيين بانتماء لبنان إلى الأسرة العربية. وبعد ذلك لم يعد المسلمون يقدّمون أنفسهم أنهم سكّان المناطق التي يطالبون بإعادة توحيدها مع سوريا، بل أعضاء في الطائفة الإسلامية اللبنانية، وهي طائفة تطالب الآن بحقوق متساوية، أو شبه متساوية، مع الموارنة[2]. ذلك هو الموضوع المركزي في الميثاق الوطني. لقد عبّر عن موافقة رياض الصلح على أن استقلال لبنان

(1) Zisser, *Lebanon*, p. 56.
(2) Méouchy, “Le Pacte national”, p. 468.

الكبير هو الهدف المباشر، وأنه حلّ محلّ فكرة الوحدة مع سوريا. وحيث إن الاستقلال عن فرنسا كان الهدف، فقد وافق بشارة الخوري بدوره على أن يتخلّى المسيحيون عن الحماية والامتيازات التي طالما منحتها لهم الرعاية الفرنسية.

قدّم الطرفان تنازلات كبرى. تخلّى السنّة عن فكرة تفكيك كيان لبنان الكبير، صنيعة فرنسا المناهض للعرب، واعترف المسيحيون أن لبنان في الأساس بلد عربي، أياً تكن ارتباطاتهم الثقافية والسياسية والتجارية مع الغرب. فهنا يكمن مستقبلهم. وهكذا قدمت الإجابة عن السؤال "الوجودي" الذي شغل لبنان الكبير منذ بداياته: هل الدولة الموسّعة ظاهرة مؤقتة، أم ستستمرّ في المستقبل المنظور ضمن هذه الحدود؟ وأصبح التزام المسلمين والمسيحيين الطوعي بلبنان الكبير، كما جسده الميثاق الوطني، ضمانة لتحوّله إلى دولة عصرية دائمة[1].

منح تأييد رياض الصلح هذا "الحلّ اللبناني" ثقلاً سياسياً للتعاون المتنامي بين التجّار والمموّلين والوسطاء السياسيين المسيحيين والمسلمين. ففي النهاية، لم ينبثق الميثاق الوطني من فراغ، ولم يكن مجرّد تسوية أعدَّها رجلان طموحان فحسب. بل مثّل التقارب التدريجي على مدى عدّة سنوات بين عدد من الاتجاهات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، محلياً وعالمياً، وأهمّها تنامي إدراك النخب المسلمة والمسيحية في لبنان أن القواسم المشتركة بينهم تفوق كثيراً ما كانوا يرغبون في افتراضه. فهم ينتمون إلى العالم نفسه، على الصعيد الاجتماعي على الأقل.

لقد بدؤوا يقتربون بعضهم من بعض منذ الثلاثينيات، عندما أدركوا تدريجياً عدم وجود تناقض حقيقي بين ارتباطات السنّة التجارية مع العالم العربي وارتباطات المسيحيين مع شركائهم الغربيين. بل يمكن جمع هاتين المجموعتين من العلاقات معاً لتحقيق المزيد من المنافع للطبقة الوسطى المشتركة. وسيتوقّف ازدهارها في المستقبل على نجاح تطوّر بيروت إلى مركز تجاري ومصرفيّ، في موقع استراتيجي بين الأسواق العربية والغربية. لقد عبّر الميثاق الوطني، إلى حدٍّ كبير، عن هذه المصالح المالية المشتركة المغرية[2].

(1) المصدر نفسه، ص 463.
(2) Johnson, *Class & Client*, pp. 26, 117-118.

ووفقـــاً لتعـــبير غـــسّان توَيني، رئيس تحرير جريدة **النهار** المخضرم والشخصية الـــسياسية البارزة على الساحة اللبنانية منذ أكثر من نصف قرن، فإن مشاركة النخب الـــسنّية في قـــيادة لبـــنان أدّت إلى تحوّل المصالح الاقتصادية للتحالف الحاكم الجديد، وأهدافه وتوقّعاته الاجتماعية، بل حتى سياساته الاقتصادية الداخلية والخارجية.

حـــصل تغيّر هائل، وإن كان بطيئاً في بعض الأحيان، نقل لبنان عام 1943 بعيداً عـــن الاقتصاد القائم حصرياً على السياحة والخدمات والتجارة والحِرف والزراعة التي شـــكّلت صورته المتواضعة في ظل الانتداب الفرنسي. فوُلدت طبقة وسطى جديدة، وسرعان ما أصبحت، إلى جانب طبقتي المهنيين والمثقّفين المتنامية، الأساس الاجتماعي الحقيقي للديمقراطية الجديدة[1].

اســـتمدّ الطرفان ضمانات أساسية من الترتيب الجديد. لم يعد المسيحيون بحاجة إلى ضـــمانات مـــن الفرنسيين لقيام دولتهم. وتجرّؤوا أخيراً على الخروج من قوقعتهم المذهبـــية الـــضيقة ومدّ يدهم إلى العالم العربـــي الواسع، بعد التخفيف من شعورهم بالاختلاف عن المسلمين. ولم يعد مسلمو لبنان، في المقابل، يشعرون أنهم أقلية دخيلة ومحتقَرة في دولة يسيطر عليها المسيحيون، بل حقّقوا أخيراً مكانة المواطنين الكاملين.

ضمن هذا الاتفاق بين النخب قوى ومجموعات ضغط على المستوى الشعبـــي، لا ســـيما الحركات شبه العسكرية التي ظهرت في المشرق في أواخر الثلاثينيات. وقد عبّـــرت هـــذه الحـــركات عن حاجات الجيل الصاعد الجديد وخيبات أمله. وعندما أصـــبحت المعـــركة مـــع فرنسا مشروعاً مشتركاً، أخرجت هذه الحركات الشبابية أعـــضاءها في مظاهـــرات جريئة ضدّ سلطة الانتداب. بل إنها انتزعت السيطرة على الـــشارع مـــن الـــسلطات الحاكمة. وأصبحت الكتائب اللبنانية بقيادة بيار الجميّل والـــنجّادة السنّية، منذ سنة 1943، وسيطين بين الشبان والوجهاء المتقدّمين في السن، المسيحيين والمسلمين، الذين سيطروا تقليدياً على الساحة السياسية من خلال شبكات الرعاية التي يديرونها.

مـــن المثير للدهشة أن هاتين الحركتين الشبابيتين المتنافستين بدأتا التعاون معاً في ســـنة 1941 لـــتقديم المؤن إلى السكان المعسرين. وبعد ذلك بدؤوا بإرسال وفود إلى

(1) Ghassan Tuéni, in *Beirut Review*, no. 6.

المظاهـــرات الـــتي تسيّرها كل منهما، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك في سنة 1943، من خـــلال العمل السياسي المشترك. فعرض جميل مكاوي من النجّادة، على بيار الجميّل الاشتراك معاً في مساندة بعض المرشَّحين لانتخابات آب/أغسطس النيابية، وهو تحالف أثمـــر عـــن نتائج إيجابية جداً. ولولا قوة هاتين الحركتين الشبابيتين المؤيّدتين للميثاق الـــوطني في الـــشارع، لما نجح اختبار القوة القادم مع الفرنسيين[1]. أمّن الميثاق الوطني الحجـــر الأســـاس لترشيح بشارة الخوري للرئاسة. وأسفرت المساومات الكثيفة بين النوّاب ورجال الدين والقادة السياسيين البارزين عن التغلّب بالمكر على الفرنسيين في نهايـــة المطاف. فقد استُدرج الفرنسيون إلى الاعتقاد أن البريطانيين يريدون أن ينتخب كمـــيل شمعون رئيساً، وهو معروف بتعاطفه القوي معهم. فدفعت هذه الإشاعات – التي لا أساس لها – الفرنسيين لتحويل تأييدهم عن إميل إدّه ومنحه إلى بشارة الخوري، الـــذي اعـــتقدوا أنـــه "مرشّح التسوية" الوحيد القادر على إبعاد شمعون عن الرئاسة. وهكذا انهزم إميل إدّه قبل إجراء الانتخابات، وساهمت في هذه الهزيمة سلطة الانتداب نفسها التي محضها ثقته الكاملة.

في 21 أيلـــول/سبتمبر، انتخب مجلس النواب اللبناني الشيخ بشارة الخوري رئيساً للجمهـــورية. وعـــند أداء القـــسَم، أشار بوضوح إلى السياسات التي يعتزم اتّباعها. وأعـــرب عـــن تقديره مبدأ التضامن العربـــي معلناً نيّته تدشين عهد جديد من الحرية والسيادة الوطنية. وفي اليوم التالي، عيّن رياض الصلح رئيساً للوزراء.

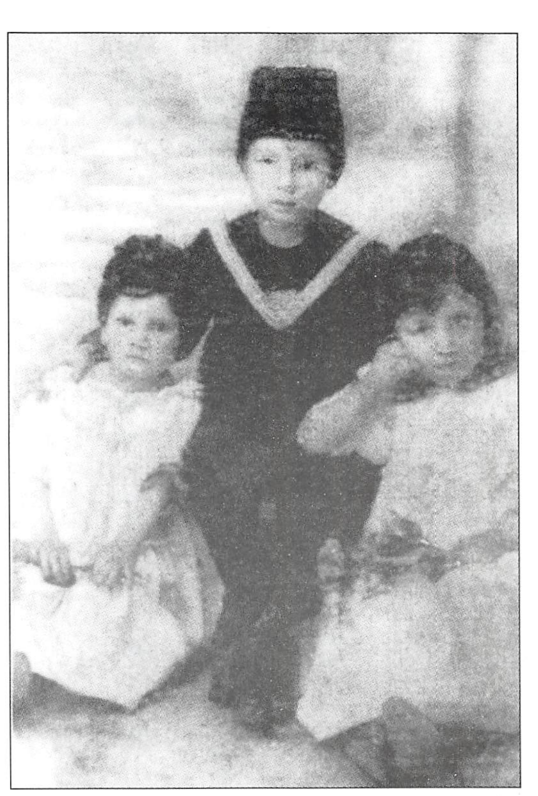
(1) Méouchy, "Le Pacte national", pp. 471-2, 480.



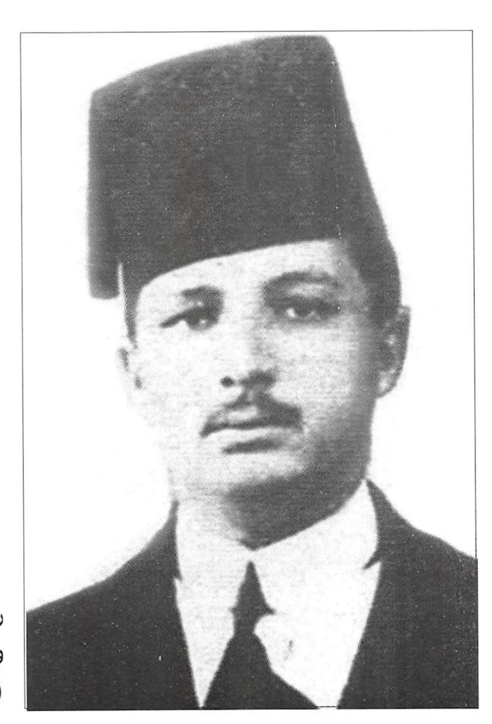
رياض الصلح في الثلاثين من العمر تقريباً، مع والده، رضا الصلح، في بيروت أو ربما في صيدا، نحو سنة **1924**.
(بإذن من معالي السيدة ليلى الصلح حمادة)



رياض الصلح في سنّ الرابعة،
في سنة 1898.
(بإذن من معالي السيدة ليلى الصلح حمادة)



رياض الصلح في سنّ الثامنة، في سنة 1902،
مع شقيقتيه بلقيس وعليا.
(بإذن من معالي السيدة ليلى الصلح حمادة)



رياض الصلح في سن الثامنة عشرة، في سنة 1912،
وكان في ذلك الوقت يدرس الحقوق في استانبول.
(بإذن من معالي السيدة ليلى الصلح حمادة)

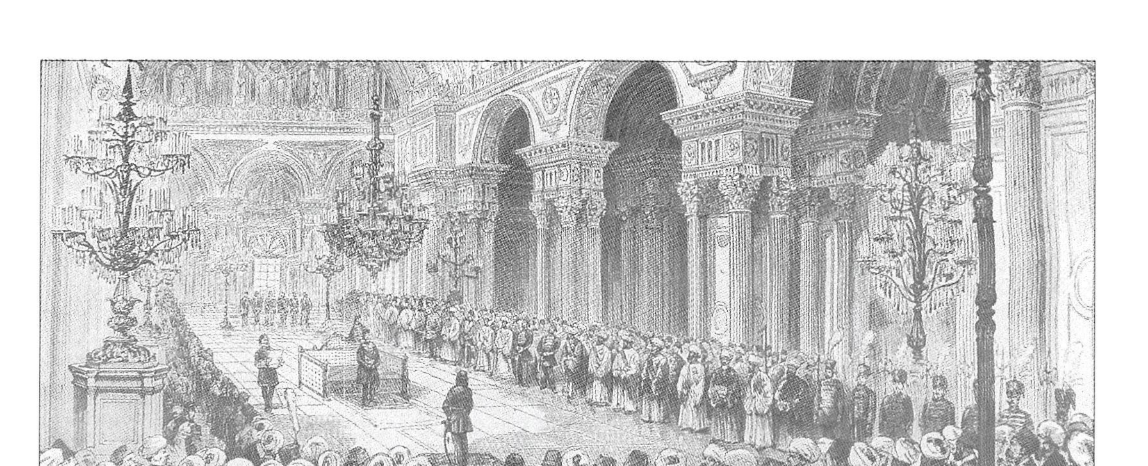


رياض الصلح في سن السادسة والعشرين، في سنة 1920، مع مجموعة من مؤيدي الأمير فيصل الشبان في دمشق. يظهر في الصف الخلفي، الثالث من اليسار (بإذن من معالي السيدة ليلى الصلح حمادة)

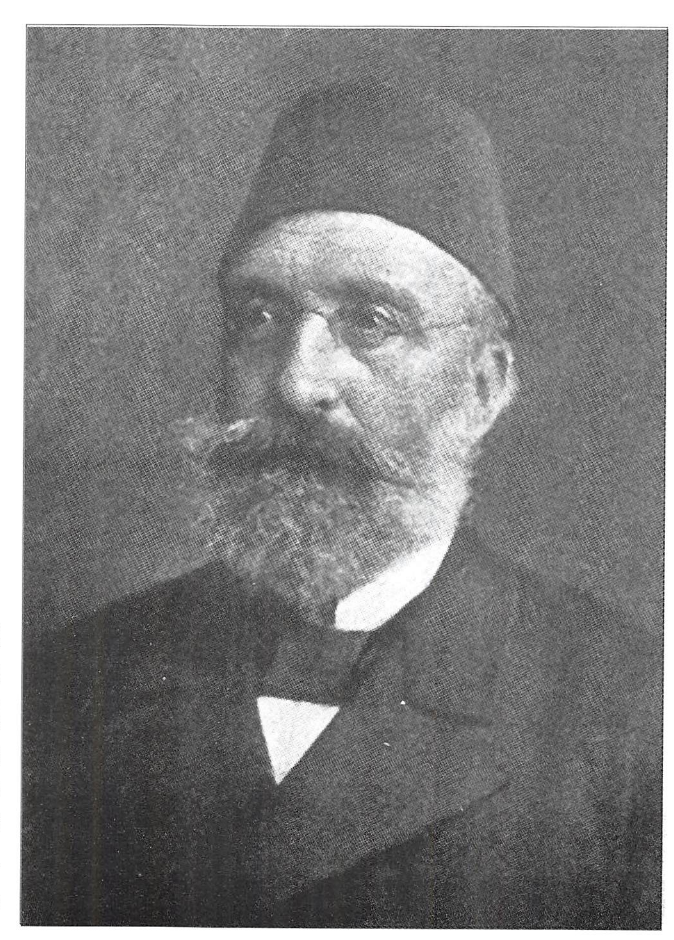
الأمير عبد القادر الجزائري، مرتدياً وسام جوقة الشرف الأكبر الذي منحه إياه نابليون الثالث لدوره في إنقاذ حياة المسيحيين خلال المجازر التي وقعت في سنة 1860 في دمشق.
وفي ذلك الوقت نشأت صداقة بينه وبين أحمد باشا، جدّ رياض الصلح.



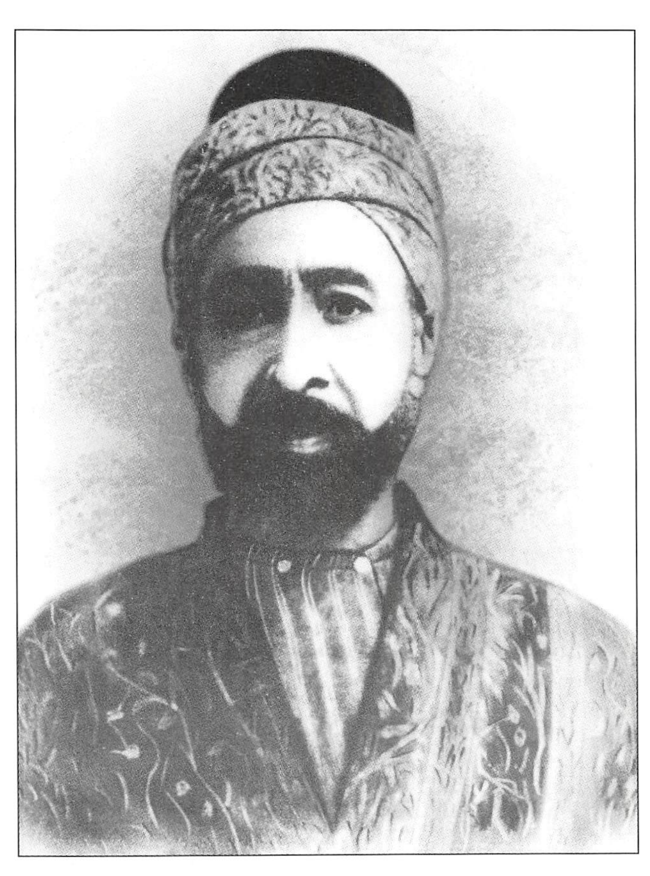
الأمير سعيد الجزائري في المنزل في دمشق في سنة 1935، تحت صورة لجده الأمير عبد القادر الجزائري.



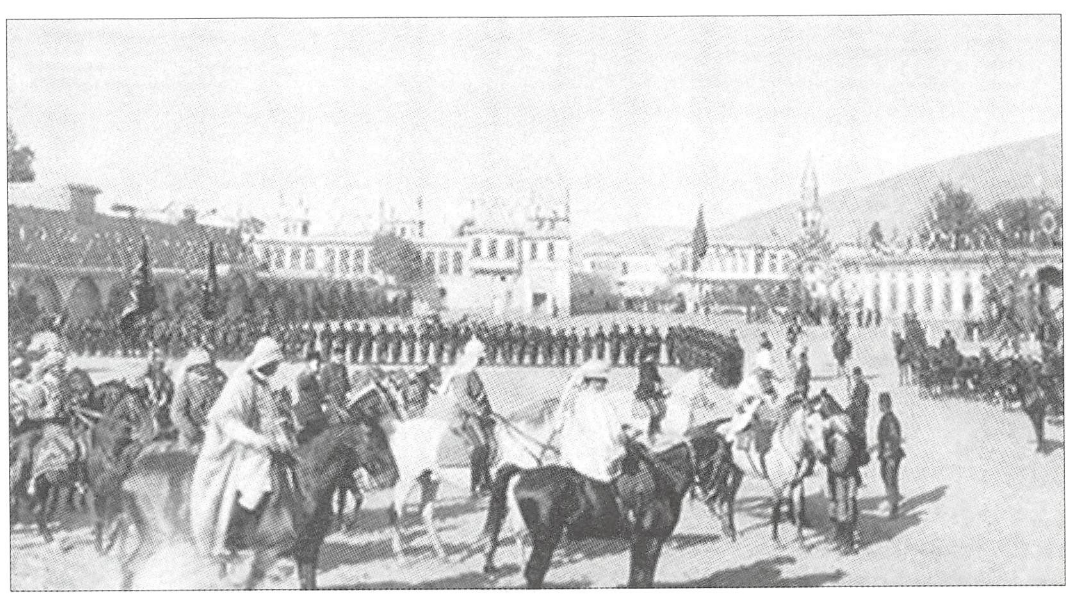
الاجتماع الأول للبرلمان العثماني في 18 آذار/مارس 1877. في أعقاب هزيمة العثمانيين أمام روسيا في سنة 1877–78، السلطان عبد الحميد يحل البرلمان ويعلّق العمل بالدستور، ويمارس حكماً أوتوقراطياً طوال ما تبقى من عهده.



أحمد مدحت باشا (1822–84)، الصدر الأعظم والمصلح العثماني الذي ساعد في إعادة الاعتبار لأحمد باشا، جدّ رياض الصلح، وإعادته إلى الخدمة الحكومية. أثارت شهرة مدحت باشا شكوك السلطان عبد الحميد، فنفاه إلى الطائف في شبه الجزيرة العربية، حيث قُتل في 8 أيار/مايو 1884، ربما بأوامر من السلطان.



أحمد أبو خليل القباني (1836 – 1903)، مؤسس المسرح الموسيقي العربي الحديث في سوريا ومصر. (بإذن من الدكتور صبح قباني. التقط الصورة جولز لبيند في بيروت نحو سنة 1880)



الإمبراطور الألماني فلهلم الثاني في دمشق في سنة 1898. في الطريق من القدس إلى دمشق، تناول الإمبراطور طعام العشاء في صيدا إلى مائدة أحمد باشا، جد رياض الصلح. لتعزيز التحالف مع الإمبراطورية العثمانية، أولت ألمانيا دعاية كبيرة لجولة الإمبراطور في الولايات العربية، وقد سجّلها المصوّر الفوتوغرافي الأرمني كربت كريكوريان (1847–1920).
(من مجموعة عائلة أوتراكجي على الموقع الإلكتروني www.creativesyria.com)

سالونيك في أوائل القرن العشرين، عندما أمضى رضا الصلح سنة متصرّفاً هناك، وحيث غرق ابنه أحمد.
في سنة 1908، كانت سالونيك القاعدة التي ثارت فيها تركيا الفتاة على السلطان عبد الحميد.
(بإذن من مكتبة الوثائق الدولية المعاصرة، باريس)

شاطئ سالونيك في سنة 1912، عندما سقطت البلدة بأيدي اليونانيين.
(بإذن من مكتبة الوثائق الدولية المعاصرة، باريس)



أحمد باشا عزت، سوري حظي بنفوذ في بلاط السلطان عبد الحميد، وصاحب فكرة سكة حديد الحجاز التي تربط دمشق بالمدينة. وقد صدر الأمر السلطاني ببناء سكة الحديد في 2 أيار/مايو 1900. (بإذن من الدكتور صباح قباني)



السلطان عبد الحميد في عربته، قبيل خلعه في سنة 1909.

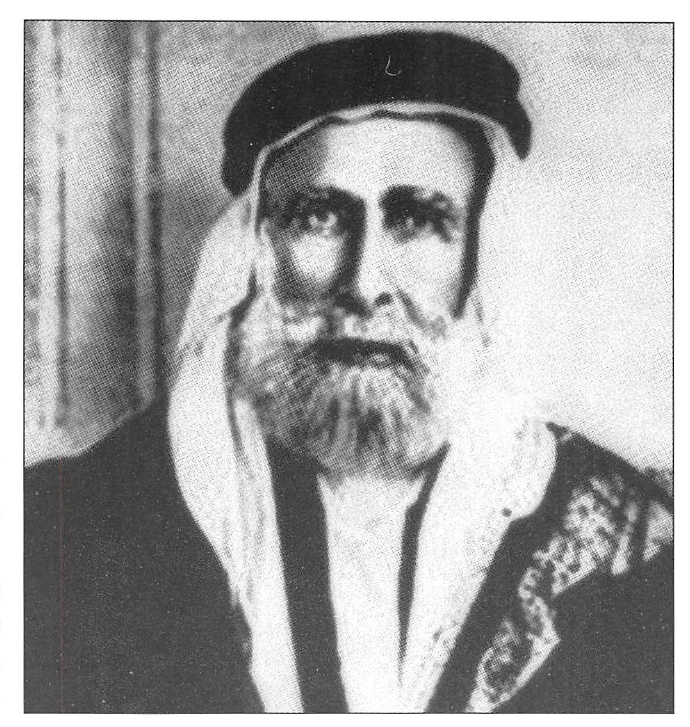
Villa Allatini — Lieu d'internement de l'ex-sultan

Souvenir de Salonique

فيلا اللاتيني في سالونيكا، حيث احتجزت تركيا الفتاة السلطان عبد الحميد المخلوع. أرسلت هذه البطاقة البريدية من سالونيكا إلى مدينة نيويورك في 22 حزيران/يونيو 1912، وتذكر البطاقة: "السلطان السابق يخضع لمراقبة شديدة هنا ولا يسمح باقتراب أحد إلى المنزل. يغيّر الحرس كل شهر لتجنّب الرشوة". توقيع مونتي.
(من مجموعة عائلة أوتراكجي على الموقع الإلكتروني www.creativesyria.com)



ضحايا المجاعة التي قتلت نصف مليون نسمة في لبنان في سنة 1915.
(بإذن من جوزيف ج. الشامي *The Book of Syria: Photos from Syrian Life, Damascus 2005*)

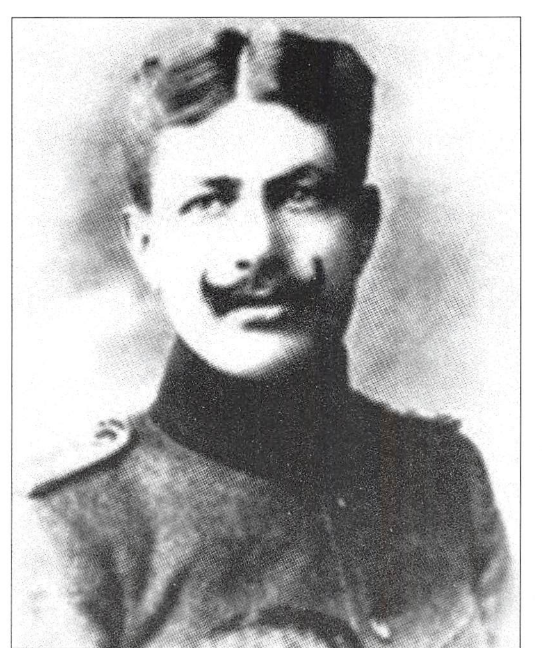


الشريف الحسين بن علي (1845–1931)، آخر الحكام الهاشميين للحجاز. بوصفه شريفاً وأميراً لمكة، 1908–17، دعا إلى الثورة على العثمانيين في سنة 1916، واتخذ لقب ملك الحجاز. طُرد من الحجاز في سنة 1925 في أعقاب هزيمته أمام عبد العزيز بن سعود، مؤسس المملكة العربية السعودية. توفي في عمّان ودفن في القدس.

قاد البطريرك الماروني إلياس الحويك وفداً من المطارنة في سنة 1919 إلى مؤتمر السلام في باريس، حيث دعا إلى توسيع جبل لبنان إلى حدود سنة 1861. (بإذن من غسان تويني وجريدة النهار)



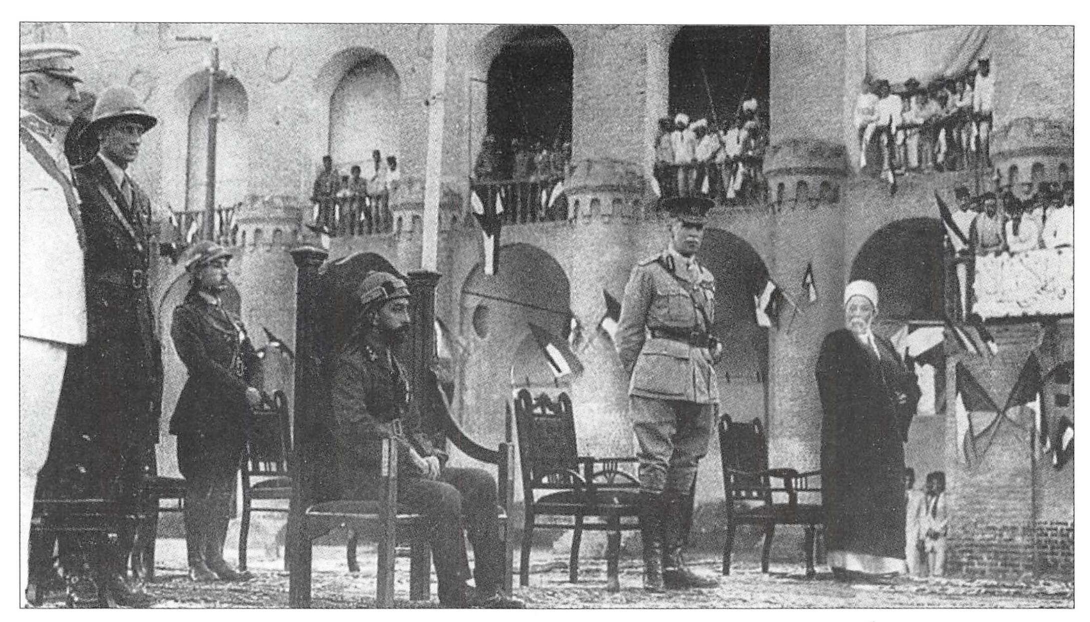
الأمير فيصل في سنة 1919 في مؤتمر السلام في باريس. يعتقد أن زوجة الرئيس الأميركي وودرو ويلسون التقطت هذه الصورة الفوتوغرافية. (بإذن من مجلس أمناء مركز أمناء ليدل هارت للأرشيف العسكري، كنغز كولدج، لندن)



بعد أن خدم ضابطاً في الجيش العثماني، التحق يوسف العظمة (1883–1920) بالثورة العربية وأصبح وزيراً للدفاع في حكومة الأمير فيصل. استشهد في معركة ميسلون، على بعد 18 كيلومتراً غرب دمشق، في 4 تموز/يوليو 1920، عندما هُزم جيشه الصغير من المتطوّعين أمام الجيش الفرنسي بقيادة الجنرال هنري غورو. (بإذن من سامي مبيّض على الموقع الإلكتروني www.syrianhistory,com)



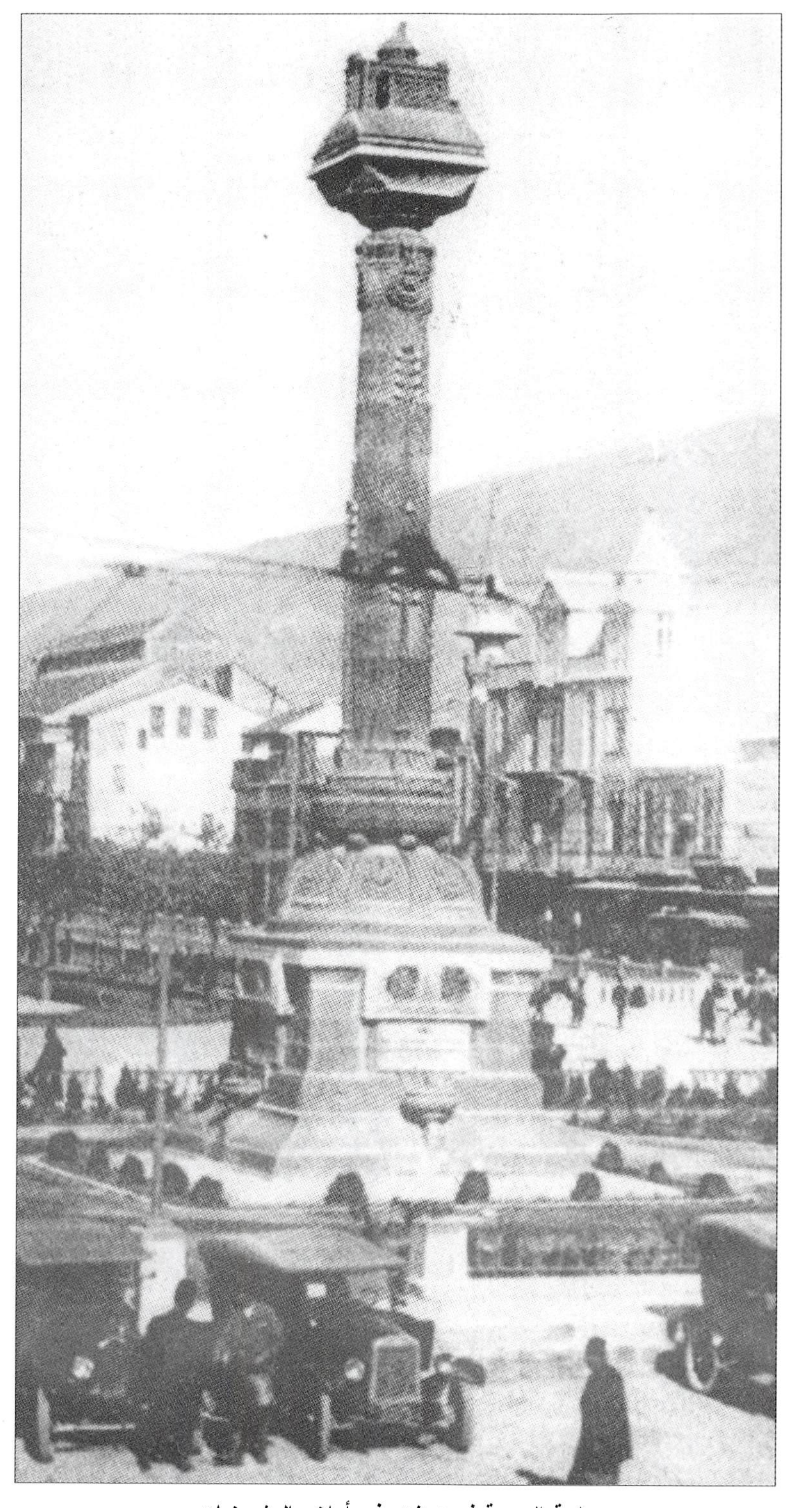
ونستون تشرشل، وزير المستعمرات في ذلك الوقت، وزوجته كليمنتين، في القدس في سنة 1921، مع الأمير الهاشمي عبد الله، حاكم شرق الأردن. (بإذن من متحف الحرب الإمبراطوري)



تتويج الأمير فيصل ملكاً على العراق في سنة 1921. من اليسار إلى اليمين، السير بيرسي كوكس، المندوب السامي البريطاني؛ تحسين قدري، مساعد الملك (صديق رياض الصلح منذ أيام استانبول، والسفير العراقي النافذ في بيروت في وقت لاحق)؛ والملك فيصل؛ والسير أيلمار هالدن، القائد العسكري البريطاني؛ وسيد حسين أفنان، الأمين العام لمجلس الوزراء.
(بإذن من أرشيف الشرق الأوسط في كلية سانت أنطوني، أكسفورد. المصور الفوتوغرافي: كريم)

33. Beyrouth — Place des Canons

من 1919 إلى 1931، كانت ساحة بيروت الرئيسية تسمى ساحة المدافع، إذ إن القوات الفرنسية التي أرسلت إلى لبنان في أعقاب مجازر سنة 1860 عسكرت هناك بمدافعها الثقيلة. ثم أطلق عليها اسم ساحة الشهداء تكريماً لذكرى الوطنيين الذين شنقهم جمال باشا هناك. دمّرت الساحة في سنوات 1975 – 1990. (بإذن من غسان تويني، ودار النهار، ناشرة كتابه "البرج").



ساحة المرجة في دمشق في أواخر العشرينيات.
أقيم العمود للاحتفاء بإنشاء الاتصالات التلغرافية بين سوريا والمدينة ومكة في الحجاز.
(بإذن من عامر بدر حسون وناشر كتابه *Book of Syria, Damascus 2005*)

CONGRES SYRIO-PALESTINIEN
25 Août - 21 Septembre 1921
GENÈVE

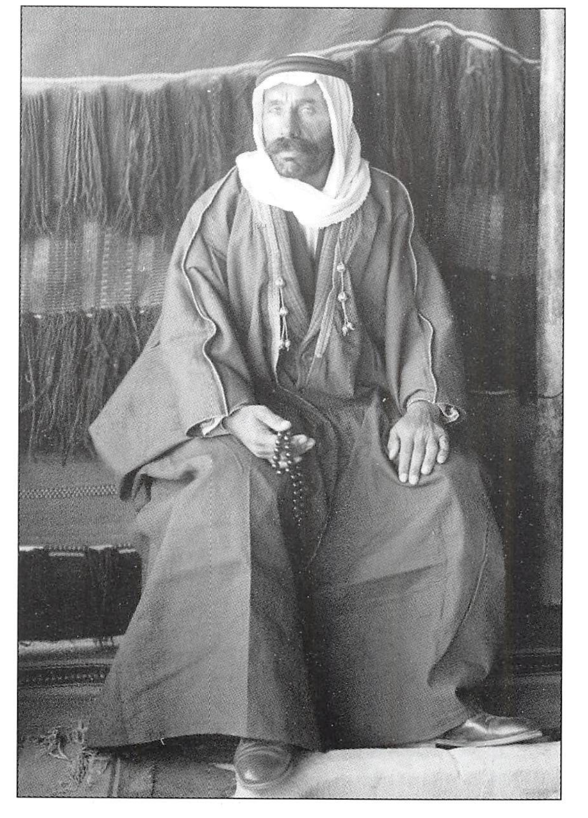
المؤتمر السوري الفلسطيني في أثناء انعقاده في جنيف سنة 1921. كان أول احتجاج عربي منظم على الانتدابات. في الطاولة المركزية العليا يجلس الأمير ميشال لطف الله، رئيس المؤتمر؛ وعن يمينه الشيخ رشيد رضا، نائب الرئيس. وفي الطرف البعيد للطاولة الجانبية إلى يمينهما، جلس الأمير شكيب أرسلان، الأمين العام للمؤتمر. يجلس رياض الصلح إلى الطاولة المقابلة، الثاني من اليمين عند الطرف القريب. وجلس إلى الطاولة الصغيرة في الوسط علي الغاياتي، الصحافي الوحيد الذي سمح له بمتابعة وقائع المؤتمر من داخل قاعة الاجتماع. (من مجموعة عائلة أوتراكجي على الموقع الإلكتروني www.creativesyria.com)



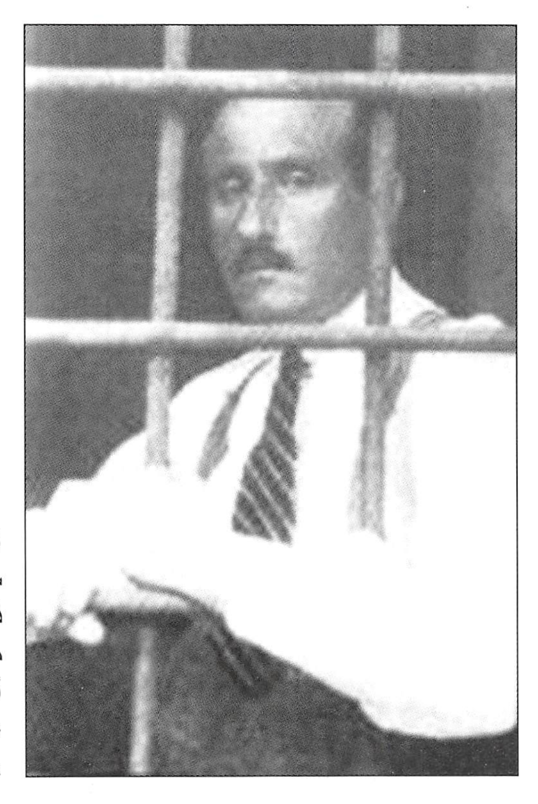
الأمير الدرزي شكيب أرسلان (1869–1946)، وهو ناشط سياسي إسلامي وأديب بارز. نفاه الفرنسيون من لبنان، وأمضى معظم سنوات ما بين الحربين في الضغط في عصبة الأمم في جنيف لصالح القضيتين الإسلامية والعربية. ومن زملائه المقرّبين إحسان الجابري، رئيس ديوان الأمير فيصل سابقاً، ورياض الصلح.



الجنرال موريس ويغان (1856–1929)، المفوّض السامي الفرنسي الذي حاول إدخال إصلاحات ليبرالية في سوريا، لكنه انتهى إلى إصدار الأوامر بقصف دمشق في سنة 1925. (بإذن من سامي المبيض على الموقع الإلكتروني www.syrianhistory.com)



الزعيم الدرزي سلطان باشا الأطرش (1891–1982)، في المنفى القاسي بعد أن أخمد الفرنسيون الثورة السورية الكبرى (1925–27)، التي ألهمها وقادها. (بإذن من دائرة التصوير الفوتوغرافي في المستعمرة الأميركية في القدس)



الدكتور عبد الرحمن الشهبندر (1880–1940)، طبيب ووطني سوري بارز ذو آراء متشدّدة، انضم إلى سلطان باشا الأطرش في الثورة السورية الكبرى في سنة 1925، وساعد في نشرها من جبل الدروز إلى بقية المناطق السورية. سجن في جزيرة أرواد على الساحل السوري. اغتيل في سنة 1940 في ظروف غامضة. (بإذن من سامي المبيض على الموقع الإلكتروني (www.syrianhistory.com

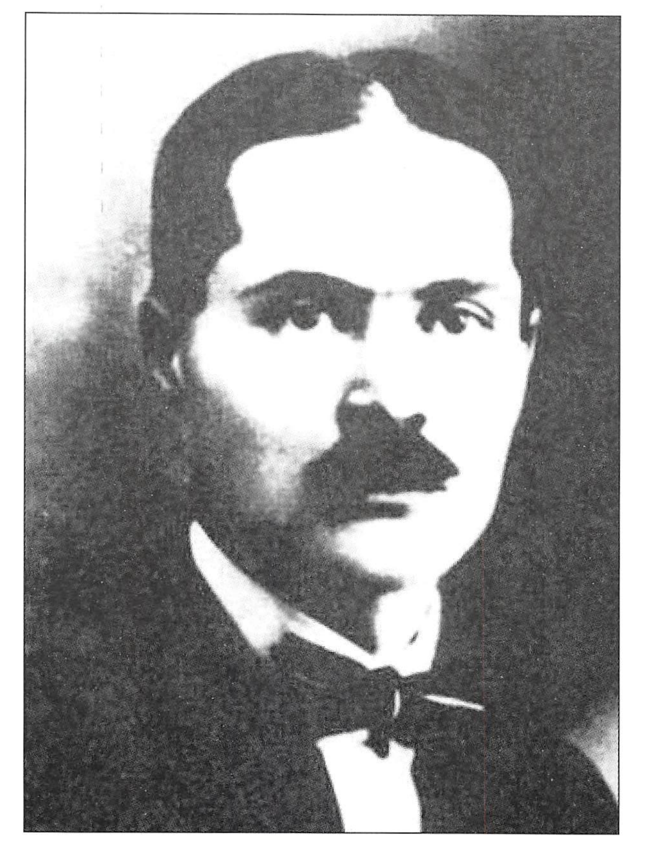
الفرنسيون يشنقون ثلاثة وطنيين في ساحة المرجة في دمشق خلال الثورة السورية الكبرى (1925–27). غالباً ما كانت الجثث تترك معلقة لترهيب السكان. (بإذن من سامي المبيض على الموقع الإلكتروني www.syrianhistory.com)



فوزي القاوقجي (1890–1977)، وطني عربي متحمّس، قاتل الفرنسيين في سوريا في سنوات 1925–27، والبريطانيين في فلسطين في سنوات 1936–39، والبريطانيين في العراق في أثناء انقلاب رشيد عالي الكيلاني في سنة 1940. في الحرب العربية الإسرائيلية في سنة 1948، قاد جيش الإنقاذ المكوّن من المتطوّعين العرب وشارك في هزيمة العرب. (بإذن من سامي المبيض على الموقع الإلكتروني www.syrianhistory.com)



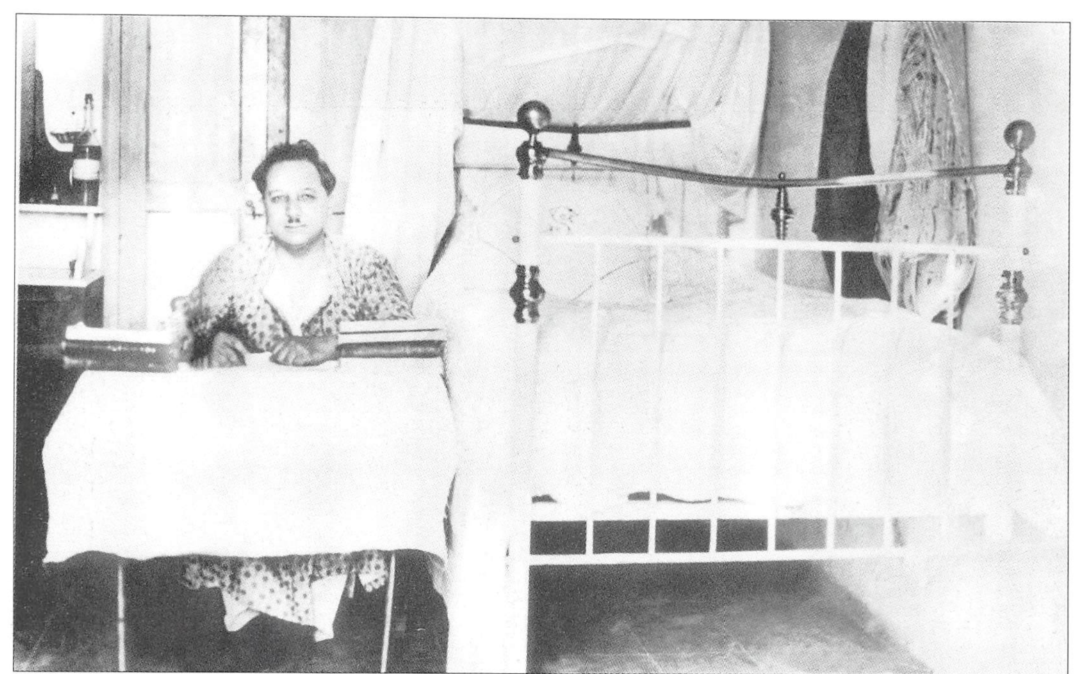
الشيخ تاج الدين الحسيني (1885–1943)، سياسي سوري مؤيد للفرنسيين، وقد خدمهم مراراً بصفته رئيساً للوزراء ورئيساً مؤقتاً للدولة في سنوات 1928–31، ورئيساً لسوريا في سنوات 1941–43. ندّد به الوطنيون، لا سيما رياض الصلح الذي تربطه به صلة قرابة بعيدة. (بإذن من سامي المبيض على الموقع الإلكتروني www.syrianhistory.com)



فوزي الغزي (1891–1929)، محامٍ وسياسي بارز مناهض للفرنسيين، كسب شهرة واسعة بصياغة دستور في أعقاب انتصار الوطنيين في انتخابات نيسان/أبريل 1928. وبما أن مشروع الدستور الذي صاغه لا يذكر الانتداب، فقد رفضه الفرنسيون غاضبين. وبعيد ذلك قُتل الغزي مسموماً. اتهمت زوجته بقتله وحكم عليها بالسجن مدة طويلة، لكن الجريمة نسبت إلى عملاء فرنسيين (بإذن من الدكتور صباح قباني)



رياض الصلح في دمشق نحو سنة 1932، مع حلفائه السياسيين المقرّبين من قادة الكتلة الوطنية السورية. الصف الأول من اليسار: سعد الله الجابري، فارس الخوري، إبراهيم هنانو، هاشم الأتاسي، رياض الصلح، شخصان غير معروفين، جميل مردم بك. الصف الثاني من اليسار: سعيد الغزي، عبد الرحمن الكيالي، شخص غير معروف. الصف الثالث من اليسار: شخص غير معروف، نجيب الريّس، فايز الخوري، شخص غير معروف، زكي الخطيب، توفيق الشيشكلي، نصوح بابيل، مظهر رسلان، نعيم أنطاكي، إحسان الشريف، شكري القوتلي. (بإذن من الدكتور صباح قباني)



رياض الصلح في الحبس المنزلي في سنة 1935 في القامشلي، وهي مدينة في شمال شرق سوريا نفاه إليها المفوّض السامي الفرنسي داميان دو مارتيل بسبب دعمه نقابات العمال الوليدة (بإذن من غسان تويني وجريدة النهار)

رياض الصلح (مرتدياً قبعة في أقصى اليسار)، مع الوفد السوري الذي قدم إلى باريس في سنة 1936 للتفاوض على إبرام معاهدة مع فرنسا. (من مجموعة عائلة أوتراكجي على الموقع www.creativesyria.com)



التوقيع على المعاهدة الفرنسية السورية المشؤومة في 9 أيلول/سبتمبر 1936 في قاعة الساعة في وزارة الخارجية الفرنسية. تكوّن الوفد السوري من أدمون حمصي ومصطفى القصري، بالإضافة إلى أربعة من القادة الوطنيين البارزين: سعد الله الجابري، وجميل مردم بيك، وفارس الخوري، وهاشم الأتاسي (وقع على الوثيقة). إلى جانبه بيار فيانو، وزير الدولة في وزارة الخارجية، الذي أجرى المفاوضات مع السوريين. وعن يسار فيانو، يجلس رئيس الوزراء الفرنسي ليوم بلوم، رئيس وزراء الفرنسي وزعيم الجبهة الشعبية الفرنسية. (بإذن من أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية)



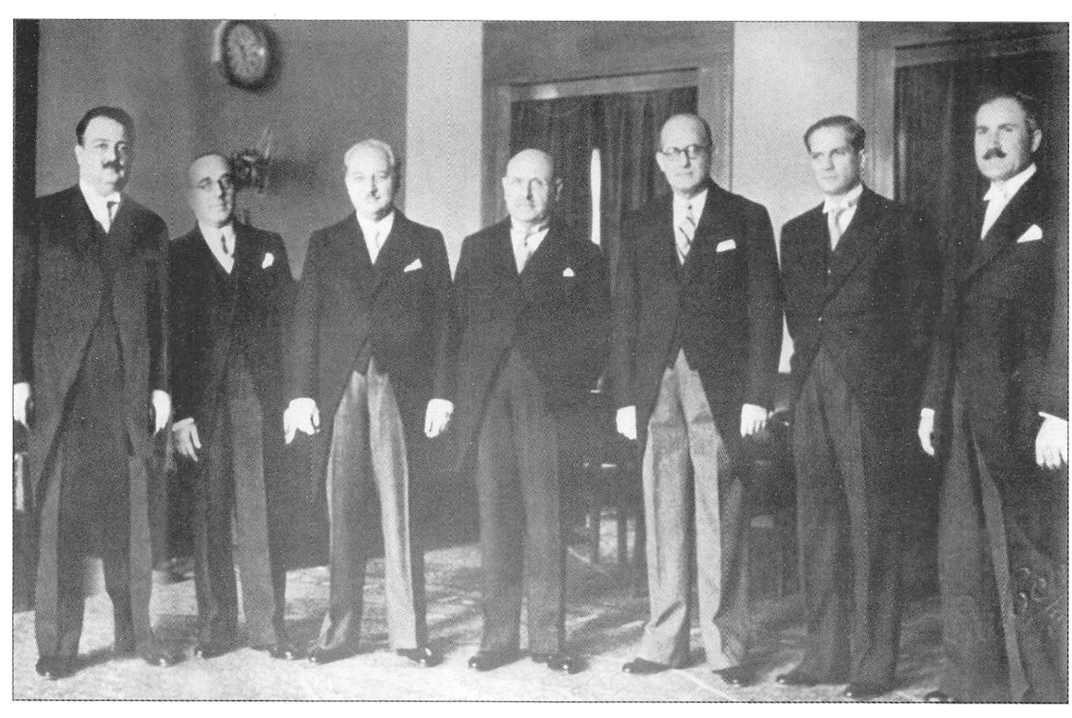
لعب الحاج أمين الحسيني (1895–1974)، مفتي القدس الأكبر بين سنتي 1921 و1948، دوراً بارزاً في مواجهة الصهيونية. وقف إلى جانب ألمانيا في الحرب العالمية الثانية اعتقاداً منه أن الانتصار الألماني سيوقف تدفّق الهجرة اليهودية إلى فلسطين.
(أعيد نشرها من الموقع الإلكتروني www.passia.org، بإذن من محمد أبو رميلة، مدير الموقع)

إميل إده (1884–1949)، محامٍ وسياسي ماروني مؤيّد للفرنسيين، شغل منصب رئيس لبنان بين سنتي 1936 و1941. انتخب منافسه اللدود بشارة الخوري رئيساً في سنة 1943، فعيّن رياض الصلح رئيساً للوزراء
(التقط الصورة جون فيلبس لمجلة "لايف"، بيروت، تشرين الثاني/نوفمبر 1943، حقوق النشر شركة تايم)



قاد الجنرال هنري فرناند دنتز، المفوّض السامي الفرنسي على سوريا لحكومة فيشي، القوات التي قاتلت البريطانيين والفرنسيين الأحرار في الحرب المريرة في سنة 1941. (بإذن من سامي المبيض على الموقع الإلكتروني www.syrianhistory.com)

الجنرال ديغول متفقّداً القوات القبَلية في أثناء جولته الملكية على سوريا في سنة 1942.
(بإذن من مكتبة الوثائق الدولية المعاصرة، باريس)

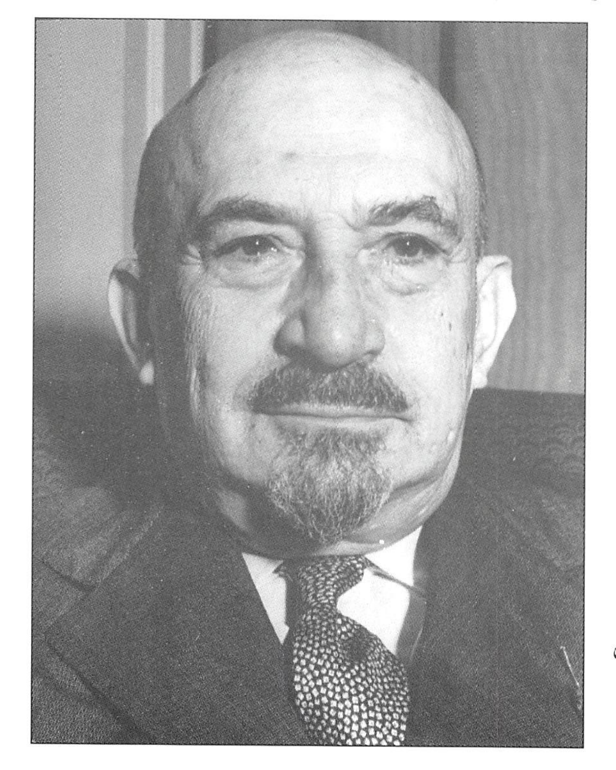


الرئيس اللبناني بشارة الخوري مع أعضاء حكومة رياض الصلح الأولى في سنة 1943. من اليمين إلى اليسار: عادل عسيران، كميل شمعون، حبيب أبي شهلا، الرئيس بشارة الخوري، رياض الصلح، سليم تقلا، الأمير مجيد أرسلان.
(بإذن من غسان تويني ودار النهار، ناشرة كتاب *Le Livre de l'indépendance*)



رياض الصلح يحيي الحشود من الشرفة عند عودته إلى بيروت في سنة 1943، بعد أن اعتقله الفرنسيون في قلعة راشيا.
(بإذن من معالي السيدة ليلى الصلح حمادة)

الجنرال السير إدوارد سبيرز والجنرال شارل كاترو في بيروت في سنة 1943. كان سبيرز من مؤيّدي ديغول المتحمّسين، ثم أصبح مؤيّداً متحمّساً للقضية الوطنية العربية، وقدّم لرياض الصلح دعماً كبيراً في نضاله من أجل استقلال لبنان.
(بإذن من سامي مبيّض على الموقع الإلكتروني www.syrianhistory,com)



حاييم وايزمان (1874–1952)، الزعيم الصهيوني وأول رئيس لدولة إسرائيل. (التقط الصورة برنارد هوفمان، 1943، لمجلة "لايف"، حقوق النشر شركة تايم)

ديفيد بن غوريون (1886–1973)، تحت صورة تيودور هرتزل (مؤسس الحركة الصهيونية)، يتلو بيان إعلان الاستقلال في 14 أيار/مايو، في متحف في تل أبيب. قاد بن غوريون إسرائيل إلى الانتصار في حرب 1948، وترأس الحكومة الإسرائيلية بين سنتي 1948 و1963، باستثناء سنتي 1954–1955. (المصوّر زُلتان كلوغر)



الرئيسان السوري واللبناني شكري القوتلي وبشارة الخوري، يحيط بهما رئيسا الوزراء جميل مردم ورياض الصلح، في اجتماع في كانون الثاني/يناير 1947 للاحتفال بجلاء القوات الفرنسية عن المشرق. وقد اختاروا موقعاً تاريخياً عند نهر الكلب، حيث كان الفاتحون يتركون آثارهم. (بإذن من غسان تويني ودار النهار، ناشرة كتاب *Le Livre de l'indépendance*)

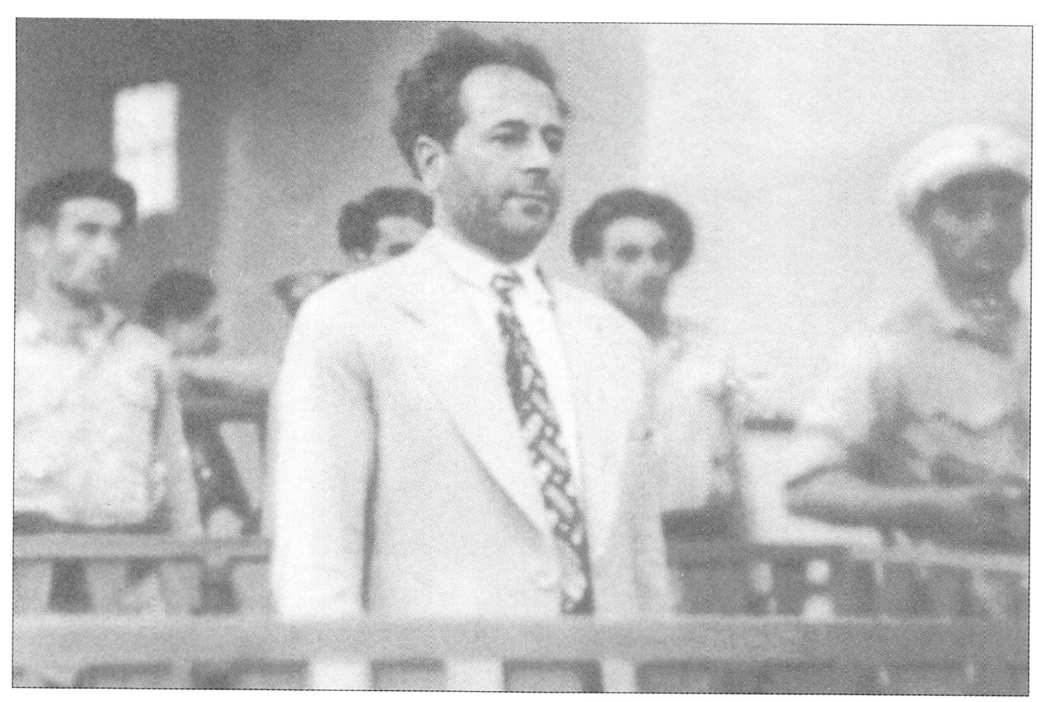
رياض الصلح مع ضباط لبنانيين في الأربعينيات (بإذن من معالي السيدة ليلى الصلح حمادة)

رياض الصلح مع سعد الله الجابري (1891– 1948)، صديق عمره وعم زوجته. شغل سعد الله الجابري منصب رئيس وزراء سوريا بين آب/أغسطس 1943 وتشرين الأول/أكتوبر 1944، وبين تشرين الأول/أكتوبر 1945 وكانون الأول/ديسمبر 1946. وقد فتحت وفاته المبكّرة في سنه السابعة والخمسين الطريق أمام شكري القوتلي لقيادة الوطنيين. (بإذن من معالي السيدة ليلى الصلح حمادة)

انتُخب شكري القوتلي (1891–1967) رئيساً لسوريا في سنة 1943، ثم أعيد انتخابه في سنة 1948. وقد أطاح به العقيد حسني الزعيم في انقلاب عسكري في آذار/مارس 1949. ويظهر في الصورة توفيق القباني، التاجر السوري الوطني من حي الشاغور، ووالد الشاعر نزار قباني (بإذن من الدكتور صباح قباني)



الرئيس بشارة الخوري ورياض الصلح مع العقيد حسني الزعيم، قائد أول انقلاب عسكري في سوريا في سنة 1949. وقد أطاح ضابط آخر بالزعيم نفسه وقتله بعد أربعة أشهر ونصف الشهر. (بإذن من معالي السيدة ليلى الصلح حمادة)



أنطون سعادة (1904–1949)، مؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي وقائده، في قاعة المحكمة في بيروت قبيل إصدار حكم الإعدام بحقّه بتهمة التمرّد في سنة 1949. وقد أعدم بعد ساعات قليلة رمياً بالرصاص. (بإذن من غسان تويني وجريدة النهار)

الرئيس بشارة الخوري ورئيس الوزراء رياض الصلح في بيروت في أواخر الأربعينيات.
(بإذن من معالي السيدة ليلى الصلح حمادة)



الملك عبد العزيز آل سعود ورياض الصلح، في أثناء زيارة قام بها الأخير إلى المملكة العربية السعودية في الأربعينيات. (بإذن من حفيدهما، صاحب السموّ الملكي الوليد بن طلال)



رياض الصلح في سن السادسة والخمسين، في سنة 1950، رئيساً لوزراء لبنان.



رياض الصلح في السابعة والخمسين من العمر، مع ثلاث من بناته الخمس
(من اليمين إلى اليسار، علياء ولمياء ومنى)، قبيل وفاته.

الفصل العشرون

المعركة الحاسمة

في 21 أيلــول/سبتمبر 1943، أي يوم انتخاب بشارة الخوري رئيساً للجمهورية اللبنانــية، توجّه رياض الصلح للاجتماع بجيفري فيرلونج، مستشار سبيرز السياسي. كــان يعلم مسبقاً أنه سيعيّن رئيساً للوزراء في اليوم التالي، وأراد إطلاع فيرلونج على رؤيــته للأوضاع، بالإضافة إلى السياسات التي ينوي اعتمادها. وليس هناك أفضل من هــذا المثال لإيضاح علاقات العمل التي أقامها رياض مع بعثة سبيرز الدبلوماسية. فقد اعتاد رؤية فيرلونج أو مساعده الكابتن مارون عرب كل يوم تقريباً، بالإضافة إلى عقــد اجتماعات منتظمة مع سبيرز. كما تحالف الرجلان معاً في الإعداد للمعركة الحاسمــة لكــسر قبــضة الفرنــسيين على المشرق، وتشاركا معلوماتهما ونسّقا استراتيجيتيهما.

أبلــغ ريــاض فيرلــونج أنه ينوي التحرك بسرعة للحصول على أكبر قدر من التــنازلات الفرنــسية في أقصر وقت ممكن. فالفرنسيون أضعف مما كانوا عليه في أي وقــت مضى، لكن لا يمكن توقّع استمرار المزاج القتالي لمجلس النوّاب اللبناني أكثر من بــضعة أشــهر. لم يكن يريد أن يملي عليه الفرنسيون أسماء الوزراء، لكنه يعتزم اتباع سياســة حازمــة منذ البداية وأن يشكّل حكومة تمتاز بأكبر قدر ممكن من استقلالية الــرأي[1]. سُرَّ سبيرز عندما تأكّد تعيين رياض، وكتب إلى هارولد ماكميلان، الممثل الــبريطاني في لجنة ديغول للتحرير الوطني في الجزائر: "لا شك في أنه الأفضل بين عدد محدود جداً من المسلمين السنة". كان سبيرز يدرك أن رياض الصلح أبغض شخص إلى نفــس ديغول، وأنه العدوّ الذي تجرّأ على تحدّي الوجود الفرنسي في المشرق. لذا أراد تزويد ماكميلان بالذخيرة المناسبة لمواجهة الاعتراضات الفرنسية على تعيين رياض[2].

---

(1) G.W. Furlonge to Spears, 21 September 1943 (FO 226/241).

(2) Spears to Resident Minister, Algiers, 24 September 1943 (FO 660/36).

في 25 أيلول/سبتمبر، شكّل رياض حكومته، وتكوّنت منه رئيساً لمجلس الوزراء ووزيـــراً للمالية، ومن حبيب أبـــي شهلا (روم أرثوذكس) نائباً لرئيس مجلس الوزراء ووزيراً للعدلية والتربية الوطنية. كان أبـــي شهلا عضواً في الكتلة الوطنية التي يتزعّمها إميل إده، ولكنه يحمل أفكاراً تقدمية أكثر مما يحمله إده بشأن موضوع الوحدة العربية المهـــم والمثير للجدل. أما الوزراء الأربعة الباقون فهم: سليم تقلا (كاثوليكي)، وزيراً للخارجية والأشغال العامة؛ وكميل شمعون (ماروني)، وزيراً للداخلية والبريد والبرق؛ والأمـــير مجـــيد أرســـلان (درزي)، وزيراً للدفاع والصحة والإسعاف العام؛ وعادل عسيران (شيعي)، وزيراً للإعاشة والتجارة والصناعة والاقتصاد الوطني. وهكذا تم تمثيل جمـــيع الطوائـــف الرئيـــسية. أبلغ سبيرز وزارة الخارجية أن الحكومة الجديدة "قوية ومتجانـــسة". وأضاف أن "تعيين شمعون وزيراً للداخلية خطوة ممتازة ومحسوبة جيداً، بالنظر إلى نـــزاهته الشديدة، للقضاء على نظام المحسوبية الإدارية الذي أدى إلى انعدام الكفـــاءة في الماضي". كان شمعون من السياسيين اللبنانيين المفضّلين لدى سبيرز. فهو وزوجته يبدوان بريطانيين جداً، كما كان سبيرز يحب القول مازحاً. ولكنه في الواقع كـــان يعـــتمد على شمعون "للقضاء على الشبكة السرية التي أوقع الفرنسيون البلد في أشراكها"[1].

لم يخـــفِ ســـبيرز ارتياحه لتشكيل حكومة رياض الصلح، ولا إحساسه أنها من إنجازاتـــه الشخـــصية. وهنّأ نفسه لأنها ثمرة جهده الشخصي إلى حدٍّ كبير. فكتب إلى ريتـــشارد كيـــسي، وزيـــر الدولة البريطاني في القاهرة (وحليفه ضد مؤيّدي فرنسا المتردّدين في وزارة الخارجية)، في 28 أيلول/سبتمبر:

> إن تعيين حكومة رياض الصلح يعني أن كل شيء انتهى إلى أفضل بكثير مما كنت أجرؤ على الأمل به. كنت أشعر طوال الوقت أنني أبني بيتاً من ورق اللعـــب، وأن إضافة ورقة أخرى يمكن أن تهدم البناء بأكمله، مع ذلك لا يتحقق شيء قبل وضع الطبقة الأخيرة في موضعها.
>
> مـــن المثير للاهتمام مراقبة حجم الإرباك الفرنسي التامّ في لبنان. لم ينفعهم المال الذي أنفقوه، والضغط الذي مارسوه، والغش العلني في الانتخابات...

(1) Spears to Foreign Office, 27 September 1943 (FO 226/241).

لديّ انطباع أن الفرنسيين يشعرون بهدوء شديد وأنهم يتبادلون التُّهم بشأن المناورات الخاطئة. أما نحن فنجلس مطمئنين في هذه الأثناء[1].

خطاب رياض التاريخي

حظي البيان الوزاري الذي ألقاه رياض الصلح في 7 تشرين الأول/أكتوبر بترحيب البرلمان والبلد بشكل عام، وكرّس سمعته أنه مهندس الاستقلال اللبناني. كان خطاباً طويلاً ومكتوباً بعناية، وأعطاه رياض نبرة جدّية بإعلانه منذ البداية بأن "العهد الذي دخله لبنان اليوم، عهد دقيق خطير، لم يستقبل مثله من قبل". فشكّل ذلك تنبيهاً إلى أن المعركة مع الفرنسيين توشك أن تبدأ. وقال إن الانتخابات جعلت الشعب اللبناني المصدر الحقيقي للسلطة لأول مرة منذ عشرين عاماً، وبالتالي مهّدت الطريق للاستقلال الحقيقي.

قال رياض، "إننا نريد هذا الاستقلال استقلالاً صحيحاً، ونريد سيادتنا الوطنية كاملة، نتصرف بمقدّراتنا كما نشاء وكما تقتضي مصلحتنا الوطنية دون سواها. هذا هو عنوان سياسة هذه الحكومة التي كان لي الشرف بتأليفها ورئاستها".

وتابع رياض الصلح ملخّصاً التغييرات الأساسية التي يعتزم القيام بها. ومنها إصلاح الدستور لإزالة البنود التي لا يتفق وجودها مع قيام الاستقلال، وفيها ما يجعل لغير الشعب اللبناني - أي الفرنسيين - سلطة في تسيير شؤونه. وأن تكون اللغة العربية هي اللغة الرسمية الوحيدة بدلاً من اللغتين الفرنسية والعربية. واقترحت حكومته، بالاتفاق مع سوريا، أن تتولى إدارة ما يعرف باسم المصالح المشتركة التي سعت فرنسا جاهدة للاحتفاظ بها؛ وهي مجموعة أنشطة منتجة للإيرادات وذات أهمية حيوية للبنان وسوريا - إدارة الجمارك، والسكك الحديدية، وإدارة حصر التبغ والتنباك، والموانئ، وشبكة الهاتف، ومصلحة الآثار.

كرّر رياض لفظة "الاستقلال" ثلاثين مرة تقريباً في خطابه. لم يطلب الاستقلال أو ينتظر موافقة فرنسا عليه، أو أن تمنحه القوى الكبرى، بل أجمل الخطوات المحددة لتحقيقه وهذا ما ميّز الخطاب[2].

---

(1) Spears to R.G. Casey, Minister of State, Cairo, 28 September 1943 (FO 226/241).

(2) Ghassan Tuéni, *Le Livre de l'Independence,* Beirut 2002, p 30.

كـــان مجلـــس النوّاب متلهّفاً لسماع ما سيقوله رياض بشأن علاقة لبنان بالعالم العربـــــي، لأنهـــا طالما كانت مصدراً رئيسياً للخلاف بين المسلمين والمسيحيين، ولم يخـــب ظـــنه. أعلن رياض أن موقع لبنان الجغرافي "ولغة قومه وثقافته وتاريخه وظروفه الاقتصادية تجعله يضع علاقاته بالدول العربية الشقيقة في طليعة اهتمامه". لكنه أضاف: "وســـتُقبل الحكـــومة على إقامة هذه العلاقات على أسس متينة تكفل احترام الدول العـــربية لاستقلال لبنان وسيادته التامة وسلامة حدوده الحاضرة، فلبنان وطن ذو وجه عربـــي يستسيغ الخير النافع من حضارة الغرب".

اســـتُقبلت العـــبارة الأخـــيرة بالكثير من الترحيب في المجلس لأنها تحمل التسوية التاريخية بين المسلمين والمسيحيين وتقع في صلب الميثاق الوطني. تابع رياض قائلاً:

إن إخواننا في الأقطار العربية لا يريدون للبنان إلا ما يريده أبناؤه الأباة الوطنيون، نحـــن لا نريده للاستعمار مُستقراً، وهم لا يريدونه للاستعمار إليهم ممرّاً، فنحن وهم إذن نريده وطناً عزيزاً مستقلاً سيداً حراً.

لقد كانت رسالة ذكية لطمأنة الطوائف اللبنانية المتعددة والبلدان العربية المجاورة على حدٍّ سواء.

يحدّث رياض عن كثير من الموضوعات الأخرى. وعد بإصلاح قانون الانتخاب وإجـــراء إحـــصاء عـــام للسكان (وهو موضوع متفجّر دائماً في لبنان، حيث تمسك المـــسيحيون بالمحافظة على أكثريتهم المتزايدة الهشاشة). ودعا إلى معالجة الطائفية التي تقـــيّد التقدّم الوطني وتشوّه سمعة لبنان، وتسمّم روح العلاقات بين الجماعات الروحية المـــتعدّدة الـــتي يتألّف منها الشعب اللبناني. وتحدّث عن الإصلاح الإداري وأكّد على اســـتقلال القـــضاء. وقال إنه سيسعى إلى تأمين المقادير اللازمة من الحبوب، ومعالجة تكلفة المعيشة، وتحسين المواصلات ودعم الزراعة. كما أمل بتأمين العدالة الاجتماعية، ودعـــم المرأة، وتحسين الصحافة والنظام التعليمي، بالإضافة إلى التواصل مع المغتربين اللبنانـــيين وتحريـــر جمـــيع المعـــتقلين السياسيين. وقال: "ومن أعرف مني بما يقاسيه المعـــتقلون، من بؤس وألم وما يكابدونه من عناء وسقم، وأنا الذي قضى من حياته في المعـــتقلات شطراً وفي المنافي شطراً... ونحن لن تغمض لنا عيون حتى يعود آخر معتقل إلى وطنه وأهله".

وأبدى رياض ارتياحه إلى اعتراف مصر بلبنان دولة مستقلة، وهو قرار ذو منفعة كبيرة للبنان، وعبّر عن شكره "للشقيقة مصر" حكومة وشعباً. أما مع فرنسا، "التي تربطنا وإياها روابط الصداقة" ومع الدول الحليفة مثل بريطانيا العظمى والولايات المتحدة، فإن حكومته ستتابع أحسن الصلات المبنية على الودّ والاحترام.

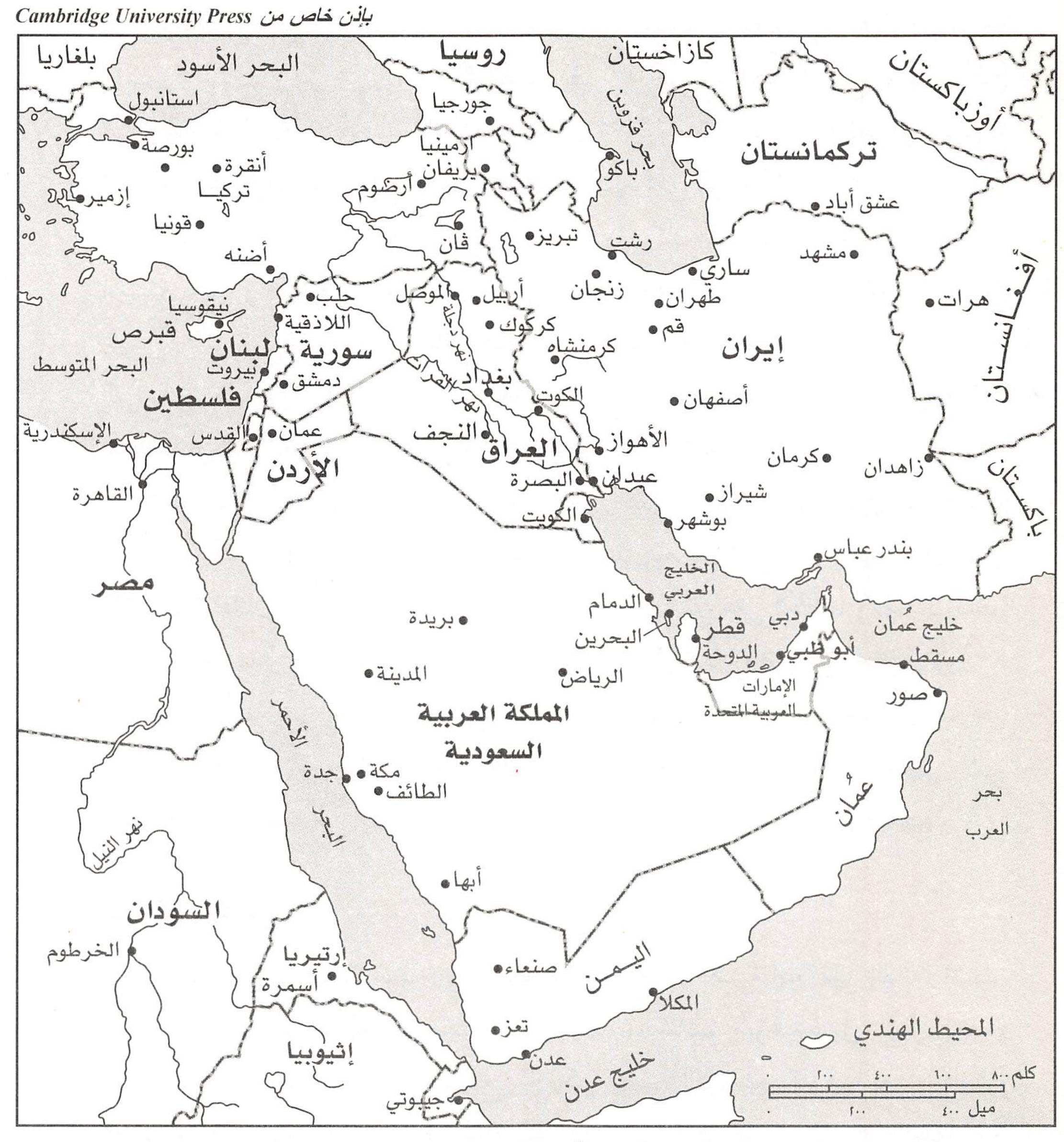
منح البرلمان الثقة لرياض الصلح بأغلبية كبيرة. كان ذلك انتصاراً شخصياً هائلاً له. امتنع نائب واحد، وهو ألفرد نقاش، عن التصويت، وحجب الدكتور أيوب ثابت الثقة عن الحكومة، وغادر قبل أن تطرح الثقة على المجلس. وقد حرص رياض على عدم إثارة الفرنسيين، فلم يذكر في خطابه الأمن العام أو ضباط القوات الخاصة المكروهين أو المحاكم المختلطة أو الشركات الامتيازية التي أراد مؤيّدوه الأكثر حماسة أن يهاجمها.

حاولت المعارضة إرجاء التصويت على الثقة في النقاش المطوّل الذي تبع خطاب رياض، لكن اقتراحها سقط وتم التصويت. علّق بلغريف، المسؤول السياسي البريطاني بالوكالة، قائلاً إن الجلسة التاريخية "أثبتت قُدرة البرلمان الفنيّ على الكلام، وعلينا أن ننتظر لنعرف مقدار قدرته على المشي"(1). سارع سبيرز إلى تهنئة رياض على خطابه الأول – وكان قد اطلع على موضوعاته الرئيسية من قبل – وتلقّى رداً فورياً من رياض عبّر فيه عن تقديره الكبير للمساعدة القيّمة التي قدّمها سبيرز، واعتماده على دعمه في المستقبل. "إنني أعتمد في تنفيذ المهمة التي اضطلعت بها على دعم جميع أصدقاء لبنان، وأنت في مقدمتهم".

الجولة الأولى

استشاط الفرنسيون غضباً من الخطاب. وبعد مرور خمسة أيام على إلقائه، اضطر جان هللو، المندوب العام، ومستشاراه الرئيسيان، شاتنيو وبوغنير، إلى تناول العشاء مع بشارة الخوري ورياض الصلح. لم يكن غضب الفرنسيين قد هدأ بعد ولم يكن العشاء ودياً. وعندما أثار بشارة مسألة التنازلات التي يتوقّع من الفرنسيين تقديمها بغية تحقيق الاستقلال، ردّ هللو – بناء على أوامر ديغول التي نقلها شاتنيو العائد حديثاً من الجزائر– أنه لا يمكن منح أي شيء إلى أن ينتهي الانتداب بتوقيع معاهدة.

(1) Squadron Leader R. Belgrave, Acting Political Officer, to Foreign Office, 8 October 1943 (FO 226/241).



الشرق الأوسط المعاصر.

احتجّ رياض على الفور بأن الفرنسيين أنفسهم أعلنوا استقلال لبنان سنة 1941، قبل ورود أي حديث عن معاهدة لإنهاء الانتداب. لم يستطع هللو إنكار الأمر، لكنه أصرّ على عدم انتقال السلطة خلال الحرب. فسأل رياض: "ما علاقة الحرب بذلك"؟ ففي النهاية، لن يؤثّر توقيع المعاهدة على موقف لبنان في ما يتعلّق بالحرب التي تدور رحاها. بدأت تظهر عندئذ علامات الانزعاج والإحراج على هللو، وكرّر أن الفرنسيين مستعدون لتوقيع معاهدة على الفور. لكن رياض أجاب بأن اللجنة الفرنسية في الجزائر لا تستطيع توقيع معاهدات باسم فرنسا، فاعترض هللو بأنه والجنرال ديغول يقسمان بشرفهما أن فرنسا ستصدّق لاحقاً على أي وثيقة توقّع الآن. سارع رياض إلى تذكيره أن البرلمان الفرنسي لم يعترف بمعاهدة 1936، على الرغم من توقيع الحكومة الفرنسية عليها، فكيف تستطيع اللجنة الفرنسية تقديم مثل هذه الضمانات؟ لم يتمكن هللو من الإجابة عن هذا السؤال الواضح.

أكّد بشارة ورياض الصلح لهللو أنهما وطنيان ملتزمان أمام شعبهما بتنفيذ برنامجهما الوطني. وسيصرّ البرلمان على الوفاء بالتزاماتهما أو الاستقالة، لذا فإن التنازلات الفرنسية ضرورية. لم يجد هللو ما يقوله سوى إن عليهما "اتباع الحكمة في الحكم". غضب بشارة ورياض من اعتزازه بعدم إبداء المرونة فأعلنا أنهما يفضّلان أن تقطع يمينهما على توقيع أي معاهدة مع الفرنسيين! وانتهى العشاء الصعب بهذا التحدي.

روى رياض على مسامع سبيرز المأزق الذي وصل إليه مع الفرنسيين، وهو في حالة قريبة من اليأس. وأبلغه أن الفرنسيين يتهمّون بريطانيا بأنها العقبة الحقيقية أمام استقلال لبنان. ففي أثناء نقاش رياض وبشارة مع هللو، انهمك بوغنير، الجالس في الجانب البعيد من مائدة العشاء، في إبلاغ وزير لبناني أن بريطانيا تسعى إلى تحقيق استقلال لبنان بغية السيطرة على المشرق لنفسها. وتوقّع إلغاء استقلال لبنان في ما بعد بالتأكيد[1]!

بدأ سبيرز يخشى من عدم قدرة رياض الصلح على البقاء في المواجهة المباشرة مع الفرنسيين. وأبدى بعض المسؤولين البريطانيين قلقهم لأن رياض يتحرّك بسرعة مفرطة. وخشي بلغريف، المسؤول السياسي الحذر، من احتمال أن تؤدّي سرعة رياض

(1) Spears to Foreign Office, 16 October 1943 (FO 226/241).

المفرطة إلى "سقوط السيارة اللبنانية الجديدة في الهاوية"(1). لكن رياض أصرّ بعناد على تعديل الدستور بسرعة. حذّر سبيرز، ذو البصيرة النافذة، لندن من أن الفرنسيين سيواجهون معارضة صلبة من الحكومتين اللبنانية والسورية إذا أصرّوا على "موقفهم المتصلّب غير المبرَّر البتة". فليس لدى الحكومتين أي استعداد للانخداع بعروض المعاهدة؛ كما أن الرأي العام اللبناني ثائر في هذا الشأن. حثّ سبيرز لندن على محاولة إقناع رينيه ماسيغلي Rene Massigli، مفوّض الشؤون الخارجية لدى ديغول، بأن الفرنسيين مُقدمون على "كارثة كبرى" في المشرق إذا واصلوا مسارهم الحالي.

أرسل د. و. لاسلس D.W. Lascelles، وهو أحد أعضاء بعثة سبيرز، تقريراً من دمشق بأن العشاء السوري الفرنسي لم تكن نتائجه أفضل من ذلك الذي عقد في بيروت. فقد أصرّ هِللو مع السوريين، كما فعل مع اللبنانيين، على عدم تقديم أي تنازلات فرنسية إلاّ بعد توقيع معاهدة(2).

الجولة الثانية

ازدادت العلاقات الفرنسية اللبنانية سوءاً عندما كتب هِللو، في 22 تشرين الأول/أكتوبر، رسالة إلى بشارة الخوري تنصّ صراحة على أن فرنسا لن توافق على التعديلات الدستورية التي سيجريها رياض الصلح، لأن "التعهّد الدولي" لا يمكن أن يُلغى بقرار من جانب واحد! وأكّد أن الانتداب لا يزال قائماً قانونياً لأن عصبة الأمم لم تُعفِ فرنسا منه. وهدّد بحدوث "عواقب وخيمة" إذا نفّذت التعديلات المقترحة. ردّ رياض على هذا التهديد غير اللائق بحزم بالطلب من إيف شاتنيو، نائب هِللو، الحصول على صلاحية من رؤسائه لسحب الرسالة. وفي الوقت نفسه سلّمه رسالة رسمية تحتوي على ثلاثة مطالب محددة:

1. تحويل المندوبية العامة إلى بعثة دبلوماسية "تتوافق مع استقلال لبنان".
2. إناطة ممارسة جميع مظاهر السيادة على الأراضي اللبنانية بالسلطات الدستورية اللبنانية فحسب.

(1) British Consulate General, Beirut, to Foreign Office, 1 October 1943 (FO 226/241).
(2) D.W. Lascelles to Spears 21 October 1943 (FO 226/241).

3. تولّـــي الحكـــومة اللبنانية إدارة جميع المصالح والهيئات التي تديرها المندوبية العامة حالياً باسم لبنان. واتفاق سوريا ولبنان على إدارة عائدات المصالح المشتركة في ما بينهما.

اتّـــسمت الرسالة بالحزم، لكنها صيغت بلغة لطيفة. وتماشياً مع الخطوة اللبنانية، أرســـلت الحكومة السورية رسالة مماثلة إلى هللو. اعترف شاتنيو بعدم معرفته بوجود رســـالة هللـــو التهديدية، وتعهّد بإثارة المسألة معه قبل مغادرته إلى الجزائر صباح 28 تشرين الأول/أكتوبر. وفي مساء 27 تشرين الأول/أكتوبر، أبلغ رياض أن رسالة هللو لـــن تُسحب. فردّ رياض بأنه سينشر الرسالة في هذه الحالة، بالإضافة إلى ردّ حكومته عليها.

توصّـــل رياض إلى قناعة بأن الفرنسيين يحاولون كسب الوقت على أمل وقوع حـــدث غـــير متوقّع، أو احتمال أن تؤدي نهاية الحرب إلى تقوية موقفهم. وأدرك أن المندوبـــية تبذل قصارى جهدها لتقويض سلطته بإثارة مخاوف المسيحيين التقليدية. مع ذلك، أخبر سبيرز أنه مصمّم على السير قدماً بالرغم من المكائد الفرنسية. حدّد رياض يـــوم الخميس 28 تشرين الأول/أكتوبر موعداً لمناقشة رسالة هللو وردّ حكومته عليها في مجلـــس النواب. عندئذ بعث شاتنيو برسالة عاجلة إلى رياض يطلب منه عدم عرض الرسالتين أمام البرلمان قبل عودة هللو من الجزائر[1].

عـــندما نُقلـــت رســـالة شاتنيو إلى رياض، ردّ مصحوباً بعرض للألعاب النارية الوطنية:

> إنـــي مـــصمّم على تنفيذ برنامجي حتى النهاية، بغض النظر عما يحدث، ولو بقيت بمفردي في الميدان. قلت بالأمس إنني كرّست دمي للاستقلال قبل سن البلوغ، وكاد دمي أن يسفك وأنا فتى [إشارة إلى محاكمته من قبل الأتراك]. لن أوفّر دمي الآن وقد أصبحت كهلاً...
>
> أنا لست مجرّد سياسي، بل أنا محارب! سأنفّذ برنامجي، وسأقرأ الرسالتين [في مجلس النواب] وسأفضح كل شيء، إذا ومتى وجدت ذلك ضرورياً...

(1) Spears to Foreign Office, 28 October 1943 (FO 371/35183); Belgrave to Spears 29 October 1943 (FO 226/241).

أنا فخور بأني أوقدت في قلوب اللبنانيين شعلة الاستقلال التي لن تخمد أبداً. وأنا فخور لأني جمعت المسلمين والمسيحيين تحت راية الاستقلال[1].

الجولة الثالثة

ظُهر يوم الجمعة في 5 تشرين الثاني/نوفمبر، دعي الصحافيون في بيروت إلى السفارة الفرنسية حيث سلّمهم م. غولمييه Goulmier، رئيس الدائرة الصحافية في المندوبية، بياناً شديد اللهجة صادراً عن اللجنة الفرنسية في الجزائر. وقد نصّ البيان على أنه لا يمكن إجراء تعديلات على الدستور من دون موافقة السلطات الفرنسية الصريحة ما دام الانتداب قائماً. وسلّم المسيو دافيد، من المندوبية في لبنان، الحكومة نسخة من البيان نفسه.

دعا رياض الوزراء إلى الاجتماع على الفور. فقرّروا أن إدخال تعديلات على الدستور يقع ضمن صلاحية الحكومة بموجب المادة 76 من الدستور نفسه. ثم وزّعت التعديلات المقترحة على النواب ظهر السبت في 6 تشرين الثاني/نوفمبر، وحدّد موعد جلسة مجلس النوّاب بعد ظهر الاثنين في 8 تشرين الثاني/نوفمبر. غير أن المسيو دافيد نقل صباح الاثنين رسالة شفهية إلى بشارة الخوري من هِللو في الجزائر يطلب منه بجدية تأجيل النظر في التعديلات حتى عودته إلى بيروت.

عند تسلّم الرسالة، وجه بشارة دعوة إلى رياض والوزراء للحضور إلى مكتبه. فقرّروا بالإجماع أن طلب هللو لا أساس له، وطلبوا من المسيو دافيد الحضور إلى مقر الرئاسة عند الساعة الثالثة من بعد الظهر لتلقّي الردّ. بعد قراءة بيانهم، عبّر دافيد عن مزيج من الألم والغضب. وقال إنه فشل في مهمته، وسيقدّم استقالته في اليوم التالي. (لكنه لم يفعل ذلك). وأعلن بحدّة أن التصويت في البرلمان لن يكون حراً، عندما يتعرّض النواب إلى الضغط الجماهيري. فاقترح رياض عليه بهدوء أن يقوم بجولة حول البرلمان للوقوف بنفسه على الهدوء التامّ في المدينة. بل يمكنه أيضاً حضور المناقشات للحكم على الجو الذي تجرى فيه.

---

(1) R. Belgrave to Spears, 30 October 1943 (FO 226/241).

اجتمع مجلس النواب اللبناني عند الثالثة والنصف بعد الظهر وأقرّ التعديلات الدستورية بإجماع ثمانية وأربعين نائباً (امتنع نائبان فقط عن التصويت وانسحب اثنان قبل إجراء التصويت). استُقبل رياض الصلح بحفاوة شديدة، وجرت الجلسة بانتظام تامّ. وأبقت الشرطة اللبنانية الحشود خارج البرلمان تحت السيطرة.

فرض الفرنسيون على الفور حظراً على ذكر المناقشات أو التصويت في الصحف المحلية، ومنعوا صدور أي برقية حول الموضوع[1]. شعر رياض بالحاجة إلى الدعم الخارجي في هذه اللحظة الحرجة، فلجأ إلى سبيرز على الفور. وسأل عما إذا كان يمكن طرح سؤال في مجلس العموم لاستصدار بيان من الحكومة البريطانية يدعم التعديلات الدستورية. وقال إن الفرنسيين يبلغون اللبنانيين باستمرار أن البريطانيين سيتخلّون عنهم، لذا فإن أي دليل على العكس سيلقى ترحيباً كبيراً[2].

الجولة الرابعة

أدى عناد الجنرال ديغول إلى وضع هللو في موقف صعب. فهو ضعيف الشخصية ومعتاد على شرب الكحول. ومن المعروف أنه ينسلّ، في لحظات التوتّر، لشرب كأس صغير من الويسكي. غير أن ديغول استثار شجاعته، فوصل إلى بيروت يوم الثلاثاء في 9 تشرين الثاني/نوفمبر مستعداً للقتال. كانت خطوته الأولى، وهي صغيرة بحدّ ذاتها، إلغاء الدعوات التي وجّهتها المندوبية إلى الوزراء والنواب اللبنانيين لحضور عرض يوم الهدنة، احتفالاً بذكرى انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الأولى في 11 تشرين الثاني/نوفمبر، بالإضافة إلى الحفل المقام في النادي الفرنسي مساء اليوم نفسه. عندما علم بشارة الخوري بهذا الإلغاء الخارج على الأعراف الدبلوماسية، أبلغ المندوبية أنه لن يحضر أيضاً.

دعا سبيرز إلى اجتماع للسلك الدبلوماسي في المفوضية البريطانية عملاً بنصيحة الوزير الأميركي المفوّض في بيروت، جورج وادسورث George Wadsworth، حيث

(1) Spears to Foreign Office, 9 November 1943 (FO 371/35183).

(2) R. Belgrave, Consulate General, Beirut, to D.W. Lascelles, British Le-gation, Beirut, 9 November 1943 (FO 226/241).

تقـــرّر عـــدم حـــضور الدبلوماسيين الأجانب الاحتفالات، واقتصار حضور العرض العـــسكري على الملحقين العسكريين لأنه احتفال بذكرى انتصار الحلفاء. وانتشرت شائعات في بيروت تفيد أن هللو يعدّ للقيام بانقلاب[1].

في صباح 10 تشرين الثاني/نوفمبر، وجد سبيرز نفسه مع هللو في أثناء انتظارهما معـــاً في مطـــار بـــيروت لاســـتقبال ملك يوغوسلافيا الذي يزور لبنان تلبية لدعوة الفرنسيين. تبادلا بضع كلمات، أبدى هللو الودّ و لم يشر إلى الأزمة. وكان من المنتظر أن يلتقـــيا ثانـــية ليلاً في حفل العشاء الذي أقامه سبيرز على شرف الملك، ودعي إليه وزير الخارجية اللبناني سليم تقلا. أجلس سبيرز الملك إلى يمينه وهللو إلى يساره. وتمّت مناقـــشة الـــشأن اللبناني. انتهز سبيرز الفرصة ليسأل هللو عن نياته في ظل الشائعات المقلقـــة المنتشرة في بيروت، واطمأن عندما تعهّد هللو بعدم اتخاذ أي تدابير عنيفة قد تخلّ بالنظام العام. وكرّر هللو تعهّده عدة مرات.

عـــندما غادر الضيوف الرئيسيون، نقل سبيرز ما قاله هللو إلى تقلا، فأبلغ تقلا بدوره بشارة الخوري بأمر الرسالة في الليلة نفسها. وقام الخوري بدوره بإبلاغ رياض الـــصلح. وهكذا توجّه الجميع إلى الفراش مطمئنّين[2]. أمضى زعيم المعارضة إميل إدّه ليلـــته بمشاهدة مسرحية فرنسية في قاعة الوست هول في الجامعة الأميركية في بيروت. بـــدا أنه غير مستمتع، وأشار أحد المراقبين إلى أنه كان شاحب اللون ومضطرباً، كما لو أنه يعاني من وعكة صحية[3].

الجولة الخامسة

قـــبل فجـــر الخميس 11 تشرين الثاني/نوفمبر، داهمت قوّة مشتركة من البحرية الفرنسية والقوات السنغالية الاستعمارية وعملاء من الأمن العام منازل كل من رئيس الجمهـــورية اللبنانية بشارة الخوري، ورئيس وزرائه رياض الصلح، ووزيري الداخلية كمـــيل شمعون والخارجية سليم تقلا واعتقلتهم. واعتُقل الوزير عادل عسيران في عاليه في وقت لاحق من ذلك اليوم.

(1) Spears to Foreign Office, 10 November 1943 (FO 371/35183).

(2) Spears to Foreign Office 11 November 1943 (FO 226/241).

(3) Tuéni, *Le Livre de l'Independence, p.* 36.

اعتُقل بشارة الخوري بوحشية كبيرة. تغلبت القوات الفرنسية على الحراس واقتحموا بيت الرئيس وأخذوا يفتّشون الغرف. سمع الرئيس وزوجته ركلات الجنود على الأبواب وضرباهم بأعقاب البنادق عليها، فحاولا التحصّن في الداخل بدفع سريرهما المعدني خلف الباب. لكنهما عندما سمعا صراخاً آتياً من غرفة ابنتهما البالغة اثني عشر ربيعاً، فأسرعت والدها إلى الحمّام المحاذي للغرفة لتجد جنديّين من البحرية الفرنسية، أحدهما يحمل مسدساً والآخر بندقية ثبّتت عليها حربة، يسألانها عن مكان والدها. أجابت هوغيت خوري (التي ستصبح رسامة مشهورة في ما بعد) أن والدها نائم في غرفته. صاح الجندي بفظاظة: "هذا ليس صحيحاً. إنه في الطابق العلوي". أجابته الفتاة أن الطابق العلوي ليس له.

في غضون ذلك، فُتح باب غرفة الرئيس بالقوة وامتلأت الغرفة بالجنود. وصفتهم زوجة الرئيس غاضبة أنهم جبناء ومتوحشون، وقالت إن الغستابو ليس بهذه الوحشية. أخرج الضابط المسؤول أمراً موقّعاً من جان هللو باعتقال الرئيس. لم يكن بشارة الخوري يحمل نظارته، فقرأت زوجته مذكرة التوقيف، ومُنح خمس دقائق ليجهّز نفسه تحت تهديد السلاح. ثم اقتيد بالقوة إلى سيارة متوقّفة في الخارج، وما لبثت أن ابتعدت تحت جنح الظلام.

طلب الجنود من زوجة الرئيس أن تفتح لهم الخزنة في غرفة النوم، وإلاّ فتحوها بالقوة. فاستولوا على بعض الأوراق، ثم قلبوا المنزل رأساً على عقب، وحطموا مقتنيات ثمينة، وخلعوا الأبواب، وقلبوا الأرائك. وعندما غادروا، جاء الخادم باكياً، وقال إنهم سرقوا مدّخراته وقدرها 1695 ليرة.

أُجبِر ابن الرئيس، خليل، على النزول إلى قبو مظلم، وضُرب بأعقاب البنادق وشُتم. أبقي هناك تحت الحراسة حتى الساعة الخامسة صباحاً. وعندما أطلق سراحه، توجه على الفور إلى الجنرال سبيرز لإيقاظه.

تكرر الأمر نفسه تقريباً في منزل رياض الصلح الذي اقتحمه ثلاثون جندياً، معظمهم سنغاليون. اعتقد رياض وزوجته أنهما سيُقتلان. أجبرت فائزة الصلح، وهي امرأة متديّنة لم تخرج يوماً من دون حجاب، على السير حافية في ثياب النوم. واقتيد رياض من فراشه ودُفع به في إحدى السيارات[1].

(1) Spears to Foreign Office, 14 November 1943 (FO 226/241).

في اليوم التالي، اقتحم الجنود الفرنسيون والسنغاليون منـــزل رياض الصلح ثانية، شـــاهرين أســـلحتهم على زوجته وبناته الخمس وفتّشوا المنـــزل. لم يتضح إذا كانوا يبحـــثون عـــن شيء محدّد أو يضايقون العائلة فقط. بعد هذه الحادثة، انتقلت السيدة فائزة وبناتها إلى مقرّ إقامة صديق العائلة، القنصل العراقي العام تحسين قدري[1].

فجـــر 11 تشرين الثاني/نوفمبر، اقتحمت القوات السنغالية بقيادة ضباط فرنسيين منـــزل عبد الحميد كرامي في طرابلس أيضاً، حيث يعيش مع أخيه وعائلتيهما. اقتحم الجـــنود غـــرف النوم، وأرهبوا النساء والأطفال بتوجيه أسلحتهم إليهم. جال جنود آخـــرون في أنحاء المنـــزل وسلبوا الشُّوَك والملاعق، وضربوا الخدم وسرقوا مدّخراتهم. وأمـــسكوا بعمـــر بـــن عـــبد الحميد الذي لا يزيد عمره على سبع سنوات، صوّبوا مسدساتهم على رأسه، وهدّدوا بقتله إذا لم يخبرهم عن مكان والده.

اتّفـــق أن عـــبد الحمـــيد كرامي كان قد ذهب في اليوم السابق ليتفقّد ممتلكاته الجبلـــية. وعندما عرف الجنود مكان وجوده، توجّهوا إلى القرية التي قصدها. خلعوا باب المنـــزل الذي ينام فيه، وأيقظوه برؤوس الحراب. عندما عرف أنه سيُعتَقل، انحنى لـــيأخذ طقم أسنانه فاصطدم بماسورة بندقية جندي سنغالي، وأصيب بجرح في رأسه. عاث الجنود فساداً في المنـــزل، وسرقوا كل ما له قيمة، بما في ذلك نظارة كرامي وما وجـــدوه من نقود. وسُلب مبلغ 28 جنيها استرلينياً من أحد خدمه، وهو ثروة صغيرة بالنسبة إليه. اقتيد كرامي، الزعيم والنائب الوطني البارز، بملابس النوم حاسر الرأس – وتلـــك إهانة لهذا المفتي السابق. وتُرك مقيّد اليدين حتى وصل إلى قلعة راشيا التي تبعد أكثر من 100 كيلومتر جنوب شرق بيروت[2].

حاول سبيرز الاتصال بجورج وادسُورث، بعدما أيقظه خليل بشارة الخوري بعيد الخامـــسة صباحاً، لكنه وجد خطه الهاتفي مقطوعاً. سارع إلى مكتبه وتمكّن من الاتصال بريتـــشارد كيسي، وزير الدولة في القاهرة، عند الساعة السابعة صباحاً وأخبره عما عرفه عـــن أحـــداث الليلة السابقة. كان سبيرز غاضباً من العنف الذي مارسه هللو، فطلب من كيـــسي مـــنحه صلاحية إعلان الأحكام العرفية، واقترح أن تستولي بريطانيا على الحكم.

(1) Spears to Foreign Office, 15 November 1943 (FO 226/241)

(2) Spears to Foreign Office 29 November 43 (FO 226/242).

غـــير أن كيسي الأكثر حذراً خشي من احتمال حدوث مواجهة بين الجنود البريطانيين والفرنسيين، فطلب من سبيرز تحذير هللو من احتمال فرض الأحكام العرفية، والتأكيد على أن اعتقال الرئيس ووزرائه يشكّل تهديداً للمصالح البريطانية الاستراتيجية[1].

في الساعة 8 صباحاً، بثّت إذاعة بيروت خطاباً لهللو أعلن فيه أن الوقت قد حان لوضع حدّ "لنظام رياض الصلح الديكتاتوري". وأن رياض الصلح صديق للألمان الذين امتدحوه باعتباره زعيماً كبيراً وصفّقوا للإجراءات التي اتخذها ضد الفرنسيين. وأشار هللـــو إلى أن الـــصلح أصبح زعيماً وطنياً لبنانياً منذ ستة أسابيع فقط، بعد أن أمضى العـــشرين عاماً الماضية في التآمر على لبنان. أما وقد أزيح عن الطريق، فإن المحادثات ستبدأ اعتباراً من هذا اليوم في "جو من الصداقة والتعاون" بشأن تنفيذ الوعد الفرنسي بمنح الاستقلال للبنان.

قام الفرنسيون ببث النشيد الوطني الفرنسي وبيانين رسميين عبر الإذاعة. أعلن في الأول أن التعديلات الدستورية التي أدخلت في 8 تشرين الثاني/نوفمبر تنتهك الدستور والاتفاقـــات الدولية ولن يُعترف بها، وتُعتبر لاغية من تلك اللحظة. وعلّق عمل مجلس الـــنواب ووُعـــد بإجراء انتخابات جديدة. كما وُضعت السلطة التنفيذية بيد رئيس الدولة ورئيس الحكومة الذي سيحكم بموجب مراسيم. وعهد البيان الثاني لإميل إده، الموالي للفرنسيين، باستلام المنصب المزدوج.

ســـرعان مـــا اتضح أن هذه التدابير اتُّخذت في 8 تشرين الثاني/نوفمبر لأن البيانَيْن اللذين أذيعا في الحادي عشر مؤرّخان في 10 تشرين الثاني/نوفمبر. وشوهد إميل إده، رجل فرنـــسا في لبنان، في 9 تشرين الثاني/نوفمبر وهو يدخل قصر الصنوبر (لا يزال حتى اليوم المقر الرسمي للسفير الفرنسي) و لم يعد إلى منـــزله إلا بعد منتصف الليل.

عبّر سبيرز عن اشمئزازه مما حصل، وأبلغ وزارة الخارجية أن الشعب بأكمله يعتبر إمـــيل إده خائناً، فطالما ائتمر بأمر فرنسا، وكان عندما تسلّم الرئاسة آخر مرة "فاسداً جـــداً ويشتبه بأنه يقوم بتهريب المخدرات، على الرغم من عدم ثبوت ذلك قطعاً. لذا لا يمكن الاعتراف به بأي حال من الأحوال"[2].

---

(1) Minister of State, Cairo, to Foreign Office, 11 November 1943 (FO 226/241).

(2) Spears to Foreign Office, 11 November 1943 (FO 226/241).

الجولة السادسة

في صباح 11 تشرين الثاني/نوفمبر، قبيل إذاعة بيان هِللو عند الثامنة صباحاً، اجتمع نفر من الرجال في منزل سبيرز. حضر كل من وادسورث وحبيب أبي شهلا، نائب رئيس الوزراء، والأمير مجيد أرسلان، وزير الدفاع، وتحسين قدري، القنصل العراقي العام، وكبار المسؤولين البريطانيين. أعلن أبي شهلا الذي نجا من الاعتقال في تلك الليلة، أنه مصمّم على متابعة القتال، وعبّر الأمير مجيد أرسلان – وهو يتميّز بشاربيه المفتولين إلى أعلى اللذين يسهمان في المظهر العسكري لهذا الزعيم الدرزي – عن الشعور نفسه قائلاً إن رجاله في الجبل مستعدّون للقتال.

في اليوم التالي، غادر أبي شهلا وأرسلان العاصمة بيروت وتوجّها إلى قرية بشامون الجبلية المجاورة، وقد اختيرت لموقعها الاستراتيجي القريب من العاصمة، واتصالها بالطرق المؤدية إلى الجنوب والشمال ووادي البقاع. وهو موقع جيد لمقاومة أي هجوم. وهناك شكلا حكومة مؤقتة، واتخذا من منزل حسين الحلبي، أحد أعيان المنطقة، مقراً لهما. سُمّيت غرفة صغيرة في أحد جناحي المنزل بالسراي، أي المقر الجديد للحكومة، وقام شابان بحراستها ومنع غير المصرّح لهم بدخولها. واستخدم جناح المنزل الآخر قاعة استقبال لسيل المؤيّدين في النهار، ومنامة للوزيرين في الليل. وكانا ينامان على فراش على الأرض. شُكّل "حرس وطني" بقيادة الصحافي السابق نعيم مغبغب، وتوافد المسلحون من كل أنحاء الجبل للالتحاق به.

في غضون ذلك، حاول صبري حمادة، رئيس مجلس النواب، عقد جلسة طارئة للمجلس في بيروت بحضور بضعة نواب تمكنوا من الوصول إلى البرلمان بعد خرق الحصار الذي ضربته القوات الفرنسية حوله. وتسلّق النائب سعدي المنلا الجدار الخارجي وتسلّل إلى المبنى من خلال نافذة خلفية[1]. أرسلت مذكرة احتجاج إلى القوى الحليفة رفعها رئيس المجلس وستة نواب: سعدي المنلا (شمال لبنان) وهنري فرعون (البقاع) وصائب سلام (بيروت) ومارون كنعان، ومحمد الفضل، ورشيد

---

(1) Tueni, *Le Livre de L'Independence, p.* 16. انظر أيضا جريدة **الديار** اللبنانية، 25 تشرين الثاني/نوفمبر 1943.

بيضون (جنوب لبنان). عبّرت المذكرة عن "الخوف والاشمئزاز" من "الإجراء الشائن" الذي أقدم عليه الفرنسيون بمنع النواب الشرعيين من دخول المجلس.

التفت النواب بعد ذلك إلى وضع علم جديد. كان العلم اللبناني القديم هو العلم الفرنسي نفسه المؤلف من ثلاثة ألوان مع وجود أرزة خضراء في الشريط الأبيض الأوسط. قرروا إبقاء الأرزة في الوسط الأبيض لكن أحاطوها بشريطين أحمرين (عندما علم سبيرز بالأمر لاحقاً، سارع بالإشارة إلى أهمية العلم كرمز للبنان الجديد الذي تحرر الآن رمزياً من عقود من الهيمنة الفرنسية).

دخل ضابط فرنسي وأمر النوّاب بمغادرة المجلس، فقرروا متابعة الجلسة في مكان آخر. فكّروا في البداية في التوجّه إلى منزل رئيس الجمهورية في محلّة القنطاري، لكن اكتشفوا أنه محاصر أيضاً. فتوجّهوا إلى منزل صائب سلام في المصَيْطبة (وهو المنزل نفسه الذي ترأس فيه سليم علي سلام، والد صائب، مؤتمر الساحل في سنة 1936). وفي اليوم التالي، في 12 تشرين الثاني/نوفمبر، تمكّن ما لا يقل عن 33 نائباً من الوصول إلى هناك ومنحوا الثقة للحكومة المؤقتة في بشامون.

كما قرّروا ما يلي: عدم دفع المال من الخزينة إلى حكومة إدّه، وامتناع بنك سوريا ولبنان عن الاعتراف بأي مستند يوقّعه إدّه، وإصدار أمر إلى جميع الموظفين بعدم التعاون معه. منعت هذه التدابير إدّه من تشكيل إدارة، بل إنه لم يجرؤ على الذهاب إلى مكتبه من دون مرافقة من عربات مصفحة!

شكّل نحو 400 شخصية بارزة من بيروت "مجلساً وطنياً" بقيادة ميشال فرعون ورئيس الوزراء السابق أحمد الداعوق لتنظيم حركة مقاومة سلبية. كما شُكّلت لجان فرعية لجمع المال لتعويض التجّار المتضررين من الإضراب، وتأمين الإسعافات الأولية للمصابين في المواجهات مع الفرنسيين، وجمع المعلومات السياسية، والاتصال بالدبلوماسيين الأجانب والحكومة المؤقتة في بشامون.

في غضون ذلك، عم الغضب كل أنحاء المدينة، فقُلبت عربات الترام وأضرمت فيها النيران، وخُرّبت المركبات الفرنسية. وأنزلت صورة كبيرة للجنرال ديغول عن سطح مبنى في شارع أللنبي، ومزّقت عند سقوطها وقطعت بعض الأسلاك، فتوقّف إرسال إذاعة بيروت مؤقتاً. ألقيت الحجارة على العساكر الفرنسيين، فردّوا بإطلاق

النـار وجرحوا عدداً من المتظاهرين وقتلوا اثنين منهم. واحتشد الدبلوماسيون ورجال الدين في منازل الرئيس والوزراء المعتقلين تعبيراً عن دعمهم لهم.

زارت السيدة سبيرز زوجة الرئيس بعد ظهر ذلك اليوم فوجدت السلالم الخارجية مُلطّخة بالدماء. فقد كانت القوات السنغالية تطلق النار من أسطح المنازل على نوافذ البيت، وأصابوا عدداً من الأشخاص. دعيت السيدة خوري للانتقال مع عائلتها إلى منزل سبيرز، لكنها قررت بشجاعة البقاء في منزلها[1].

الجولة السابعة

من الأوجه البارزة لهذه الأزمة التحالف المفاجئ بين الكتائب المسيحيين والنجّادة المسلمين، حيث أنزلا مناصريهما إلى الشارع تحدّياً للفرنسيين، وأعلنا الإضراب العامّ سيّرا مظاهرات مشتركة أمام البرلمان. شكّل زعيم الكتائب بيار الجميّل مع زعماء النجّادة، جميل مكاوي وأنيس الصغير وعدنان الحكيم، قيادة عليا برئاسة الجميّل، بل انخرط ثلاثمئة شاب مسلم تحت راية الكتائب[2]!

كانت هاتان الحركتان الشبابيتان تتمتّعان بقوة كامنة كبيرة. فقد قيل إن عدد الكتائبيين وصل إلى 35,000 عضو في بيروت والبقاع بشكل أساسي، ووصل عدد المنتسبين إلى النجّادة إلى 10,000 عضو[3]. وعكس تحالفهما الميثاق بين الرئيس المسيحي ورئيس الوزراء المسلم. أفادت الاستخبارات الفرنسية أن رياض الصلح قد أعطى الجميّل 50,000 ليرة لبنانية للقيام بالتزاماته الجديدة، ووعده بمليون ليرة أخرى عندما تتولّى حكومته إدارة المصالح المشتركة[4]. لكن ألقي القبض على بيار الجميّل بعد ظهر 23 تشرين الثاني/نوفمبر عند خروجه لمراقبة الدبابات والأسلحة الفرنسية في ساحة الشهداء، وتصوير القتلى والجرحى. تطلّب القبض على الجميّل الرياضي وتكبيله واحتجازه - على طريقة أفلام هوليود - 12 جندياً فرنسياً. وأوقف أيضاً إلياس ربابي، محرّر صحيفة **العمل** الكتائبية.

---

(1) Spears to Foreign Office, 11 November 1943 (FO 226/241).

(2) Méouchy, "Le Pacte National", p. 480.

(3) المصدر نفسه، ص 481.

(4) M 484. CADN, Inventaire 2, *Sûreté Générale*, Beyrouth, carton 81, Information du 14 novembre 1943.

الجولة الثامنة

عندما سمعت إحدى بنات عمّ رياض نبأ اعتقاله في صباح ذلك اليوم، سارعت إلى نقل الخبر إلى نجلاء صعب، رئيسة الاتحاد النسائي. بدأت نجلاء، على الرغم من أنها حامل في شهرها السابع، بحشد السيدات البارزات الأخريات من مختلف المجتمعات والطوائف. وفي صباح اليوم التالي، توجّه إلى المفوضية البريطانية 200 سيّدة من سيّدات بيروت البارزات، برفقة 300 شاب بالإضافة إلى عدد من القادة السياسيين ورجال الأعمال. ثمّ زار وفد من السيدات اللبنانيات الجنرال سبيرز[1]. شكّلت هذه الخطوة الجريئة خروجاً كبيراً عن التقاليد بالنسبة إلى سيدات المجتمع العربيات. وفي طريقهن إلى المفوضية البريطانية، تعرّضن إلى الإهانة من قبل القوات السنغالية الذين تلقوا أوامر بإطلاق أشنع النعوت عليهنّ. وقد أبلغن سبيرز أنهن يتطلّعن إلى البريطانيين لإيقاف قتل أبنائهن. فأجاب سبيرز أن البلد الذي يخرج مثل هؤلاء النساء المميزات يستحق الحرّية[2].

توجهت النساء مع مرافقيهن - نحو 500 شخص - بعد ذلك إلى المفوّضية الأميركية، حيث زار الوفد الصغير نفسه جورج وادسورث. وتجمّعت النساء الأخريات أمام المبنى على السلالم وفي حديقة المفوضية وفي الشارع، حيث كانت إحدى النساء تلقي كلمة بين الحين والآخر. قدّم وادسورث في وقت لاحق تقريراً إلى واشنطن:

> وصلت شاحنتان عسكريتان فرنسيتان تنقل كل منهما 16-20 جندياً من القوات السنغالية واثنين أو ثلاثة من ضبّاط الصفّ الفرنسيين. وكانوا جميعاً مزوّدين بالرشّاشات والبنادق ذات الحربات والمسدسات. فاحتشد النساء خلف حائط الحديقة ورحن يشتمن الجنود ويبصقن عليهم ويَصرُخن بأن السنغاليين سيطلقون النار، وأُخلي الشارع في نهاية المطاف.

---

(1) ضم الوفد السيدات: إفلين بسترس، ليندا سرسق، شفيقة دياب، آنا ثابت، جاكلين ثابت، أليس عشو (حماة سليم تقلا)، روز زكور، رينيه تقلا (زوجة سليم تقلا)، زلفا شمعون (زوجة كميل شمعون)، زوجة النائب وديع نعيم، ابتهاج قدورة، كلودا ثابت، زوجة النائب إميل لحود، زوجة جورج كفوري، وزير سابق في حكومة سامي الصلح.

(2) مقابلة مع يسر الصلح، لندن، كانون الثاني/يناير 2004.

تـــلا ذلك مزيد من الحوادث العنيفة. في 13 تشرين الثاني/نوفمبر، أطلقت مفرزة مـــن البحـــرية الفرنسية النار من مسافة قريبة على مجموعة من الطلاب، لا سيما من الجامعـــة الأميركية في بيروت، الذين تجمّعوا أمام المفوضية البريطانية. أبلغ سبيرز لندن أن "قـــسماً من الحشد لاذ بالفرار، فيما انبطح الآخرون على الأرض. أطلق ما لا يقل عـــن 40 طلقـــة، وأفرغ أحد جنود البحرية رصاص بندقيته من طراز هوشكيس على الحـــشد مباشـــرة. فنُقل المصابون إلى مستشفى الجامعة. وكان أحدهم مصاباً بجراح بليغة"[1].

في صـــيدا، أطلقت القوات الفرنسية النار على مجموعة من المتظاهرين من طلاب المـــدارس على العموم، فجرحوا نحو ستين منهم. وأفاد سبيرز أن "الحشد تجمّع حول بـــوّابات المستشفى البريطاني للاحتماء داخله. وعندما تقرّر السماح باستقبال المصابين فقط، لطّخ كثير من الأشخاص أنفسهم بالدماء كي يتمكّنوا من الدخول. سقط أربعة قتلى، أحدهم فتاة في السابعة من العمر. تطوّع الجنود البريطانيون للتبرّع بالدم فجمع نحـــو تسع عشرة وحدة أنقذت حياة سبعة من الطلاب المصابين، استناداً إلى الضابط الطبيب". كان سبيرز على يقين أن برونو، المستشار الفرنسي سيئ السمعة في جنوب لبـــنان، هو من أمر بتفرقة الحشد بهذه الطريقة الوحشية. في طرابلس، أطلق الفرنسيون الـــنار على حشد من مسافة قريبة فأصابوا أحد عشر شخصاً، من بينهم سبعة أطفال توفي ثلاثة منهم في طريقهم إلى المستشفى[2].

الجولة التاسعة

كانـــت سيارة الرئيس بشارة الخوري أولى السيارات الواصلة إلى قلعة راشيا في ساعات الصباح الباكر من 11 تشرين الثاني/نوفمبر. احتُجز في غرفة القائد العسكري للقلعـــة، الـــذي تنازل عنها مُظهراً ولاءه للرئيس. لم تكن الغرفة كبيرة جداً، لكنها تحتوي على سجادة على الأرض وأريكة وكرسي مواجه للسرير، فضلاً عن أنها جيّدة التدفـــئة. كان رياض الصلح أقلّ حظاً، إذ حصل على غرفة واسعة لكنها متسخة ولا

(1) Spears to Foreign Office, 13 November 1943 (FO 371/35185).

(2) Spears to Foreign Office, 13 November 1943 (FO 371/35185); Spears to Foreign Office, 3 December 1943 (FO 226/242).

تحتوي على أثاث من أي نوع. وحُشر الوزراء الثلاثة، أي شمعون وتقلا وعسيران، في زنـــزانة صـــغيرة تضمّ أربعة أسرّة لا يوجد فراغ بينها. تساءلوا عن هوية الشخص الـــرابع، لم يكـــن علـــيهم الانـــتظار طويلاً ليعرفوا من هو. فقد شاهدوا من نافذة زنـــزانتهم شخـــصاً نصف عارٍ وحافياً وملطخاً بالدماء، يتقدّم نحوهم متمايلاً فيما يدفعـــه الجنود السنغاليون وينخزونه بحراب بنادقهم. لم يعرف الوزراء أنه عبد الحميد كرامي، الزعيم الطرابلسي الكبير، إلا بعد دخوله الزنـــزانة.

اتفـــق أن رقيباً في غرفة الحراسة لمح الرئيس والوزراء عند وصولهم، فظنّ أنهم في زيـــارة رسمـــية، فسارع إلى الاتصال بقائد الدرك في راشيا الذي اتصل بدوره بالقائم مقـــام. وســـارع كلاهمـــا إلى القلعة للترحيب بالضيوف. لكنهما سرعان ما اكتشفا الخطأ. وعوقب الرقيب بالسجن ونُقل إلى بيروت.

لم يُسمح للرئيس ورئيس الوزراء بالتواصل معاً، ولكن رياض الصلح تمكّن خلال بـــضعة أيـــام من تشكيل شبكة من المُخبرين من بين حرّاس السجن. وعلم منهم عن الإضـــرابات وحكـــومة بـــشامون المؤقتة والمجلس الوطني وردود الأفعال الدولية على الأزمـــة. أمـــضى المحتجـــزون الأربعـــة الآخرون وقتهم بلعب النرد واحتساء القهوة والـــتدخين. وتدبّروا على نفقتهم إحضار طبّاخ من القرية لإعداد الطعام لهم، بإشراف كمـــيل شمعون الذي عيّن نفسه "طباخاً رئيسياً". وقد حظيت خدماته المطبخية بتقدير كبير. غير أن كرامي، الذي سرق الجنود أسنانه الاصطناعية، لم يكن قادراً على مضغ شيء. فاضطر إلى العيش على قليل من الشوربة والعصير طوال فترة اعتقاله.

لم يكـــن هؤلاء السجناء الوحيدين في راشيا. فقد شعر 35 سجيناً آخرين بفرح شـــديد عـــند مـــشاهدة الواصلين الجُدد، إذ إن ذلك كسر رتابة حياتهم في السجن. ومعظمهم موجود هناك بسبب إثارة المشاكل ضد الفرنسيين، ومن بين هؤلاء السجناء السياسيين الصحافي السوري نجيب الريّس صاحب جريدة **القبس** السورية، ذو التاريخ الطـــويل في مقاومـــة الانتدابين الفرنسي والبريطاني. وكان آخرون ينتمون إلى الحزب القومي السوري بزعامة أنطون سعادة، ومن بينهم نعمة ثابت وزكريا لبابيدي وأنيس الفاخوري[1].

(1) Tuéni, *Le Livre de L'Independence*, *p.* 80.

الجولة العاشرة

بعث سبيرز في اليوم التالي للاعتقالات، برسالة استنكار رسمية إلى جان هِللو، لم يُخفِ فيها غضبه من أعمال المندوب الفرنسي.

السيد جان هِللو، سفير فرنسا والمندوب العام،

12 تشرين الثاني/نوفمبر 1943.

سعادة السفير،

طلب مني وزير الدولة في القاهرة، الذي كنتُ على اتصال هاتفي به، إبلاغك أنه علم بقلق واشمئزاز بالغين بالتدابير التي اتخذتها السلطات الفرنسية فجر هذا اليوم، ومنها اعتقال رئيس الجمهورية المنتخب شرعياً وغالبية أعضاء الحكومة اللبنانية، وإغلاق الجنود الفرنسيين الأفارقة مجلس النواب بالقوة. وقد نفّذت بعض هذه الاعتقالات - خاصة اعتقال الرئيس - بطريقة تثير الرأي العام لا في تلك الدول فحسب بل في العالم المتحضّر بأسره.

وأود أن أذكّر سعادتكم بأنني أصررت أمامكم قبل منتصف الليلة الماضية على أهمية تجنّب القيام بأي شيء يخلّ بالاستقرار والسلام. وقد أعطيتني كلمة شرف، وكررت عدة مرات أنه لن تُتخذ أي تدابير تخلّ بالنظام العام أو تؤثّر على المجهود الحربي.

يُترك للآخرين الحكم على تفسير هذا التعهّد الذي قدّمته قبل بضع ساعات من خرقه. من الصعب تخيّل إجراءات يمكن أن تهدّد السلام وتؤثّر على المجهود الحربي في هذه البلدان وتعيقها أكثر من تلك التي اتخذتها. فوفقاً لما وردني من معلومات موثوقة، قتل حتى الآن ثلاثة أشخاص على الأقل، بينهم طفل، في المظاهرات التي حصلت خارج مبنى البرلمان. إن هذه الإجراءات التي اتخذها مرؤوسوك لم تثر أشدّ الغضب بين سكان هذه الدول فحسب، بل إنها ستثير فزع العالم العربي بأسره وغضبه. وقد عبّر رجال الدين المسيحيون والمسلمون لي ولزملائي الدبلوماسيين عن سخطهم بأشدّ العبارات.

أترك لك أن تتخيّل تأثير هذه الإجراءات الديكتاتورية غير المقبولة التي تُتخذ بحق شعب صغير أعزل، على الرأي العام المستنير في الديمقراطيات العظمى التي أعلنت محاربة هذا النوع من التدابير.

ردّ هِللو على هذه الرسالة مدافعاً بلغة إنكليزية ركيكة:

رسالتك اليوم صيغت بأسلوب غير مهذب، ويشرّفني إبلاغك أنني أعتبرها كأنها لم تصل.

لا أحتاج إلى مواعظ في ما يخص شرفي. كما أن كل ما تنسبه إليّ من أقوال وأفعال غير دقيق[1].

في الجزائر، زار روجر ماكينز Roger Makins، وهو عضو في مكتب الاتصال بالفرنسيين، الجنرال ديغول ورينيه ماسيغلي بناء على طلبهما مساء 12 تشرين الثاني/نوفمبر. وجدهما هادئين ولكن غير مستعدين لتقديم أي تنازلات. فاستنتج ماكينز أن هِللو يتصرف بناء على تعليمات ديغول نفسه.

قال ديغول إنه يدرك ضعف الموقف الفرنسي، إذ لا يمكنهم تحريك سفينة أو جندي من دون موافقة الحلفاء. لكنه أضاف مشاكساً، إذا فرضت بريطانيا حلاً للقضية، سيُصدر أوامر بسحب جميع القوات الفرنسية من المشرق ومراقبة الأحداث ونشر القضية الفرنسية في العالم. واحتفظ ديغول بانتقاداته القاسية لصديقه السابق، الجنرال السير إدوارد سبيرز، الذي أصبح الآن ألدّ أعدائه. رفض ديغول اعتبار سبيرز مساوياً لجان هللو، مندوب فرنسا العام المطلق الصلاحية في المشرق، ورأى أنه لا يحق له التدخل في الشؤون اللبنانية.

أصرّ ديغول بعناد على أن الموقف الفرنسي يستند إلى الانتداب الذي لا يمكن إلغاؤه قانونياً خلال الحرب. في سوريا، احتُرم التعهد، وفي لبنان أجريت الانتخابات. لكن الحكومة التي انبثقت عن الانتخابات استفزت الفرنسيين عندما قرروا التفاوض على أساس معاهدة 1936. إزاء هذه الاستفزازات، لم يجد الفرنسيون خياراً سوى ممارسة الصلاحيات التي منحها لهم الانتداب. وقرّر ديغول إرسال الجنرال كاترو إلى المشرق مع التعليمات المناسبة، لكنه لم يفصح عن تلك التعليمات[2].

(1) Spears to Foreign Office, 12 November 1943 (FO 371/35184).

(2) R. Makins, Algiers to Foreign Office, 12 November 1943 (FO 226/241).

عندما وصل كاترو إلى بيروت في 16 تشرين الثاني/نوفمبر، تبين أن تعليماته تقضي بدعم إميل إدّه ومواجهة رياض الصلح، وإزاحته من منصبه إذا أمكن ذلك.

الجولة الحادية عشرة

تمكّن صبري حمادة، رئيس مجلس النواب، من التسلّل من بيروت والانضمام إلى الحكومة المؤقتة في بشامون، حيث جمع الأمير مجيد أرسلان نحو مئتي مقاتل درزي مسلحين بالبنادق والقنابل اليدوية. وتوافد مزيد من المسلحين المسيحيين والدروز إلى القرى المجاورة كالشويفات وعين عنوب، بالإضافة إلى التلال المحيطة.

هاجمت قوّة فرنسية القرية في منتصف تشرين الثاني/نوفمبر، لكنها أُجبرت على التراجع تحت وابل من الرصاص. وعندما عاود الفرنسيون هجومهم بعد عدة أيام، قُتل أحد عناصر الحرس المحلي، سعيد فخر الدين، فيما كان يحاول رمي قنبلة على دبابة فرنسية. كان عضواً في الحزب القومي السوري. مُنحت عائلته مبلغ خمسة آلاف ليرة لبنانية. وتبرّعت زوجة الرئيس، لور الخوري بمبلغ خمسمئة ليرة لبنانية، لدى زيارتها الحكومة في بشامون. كذلك زارت زوجة رياض الصلح، ترافقها السيدة سبيرز، القرية دعماً للمقاتلين[1].

أرسل كاترو المسيو بارت Bart، المندوب الفرنسي الجديد في لبنان، بغية التفاوض مع أعضاء الحكومة المؤقتة. حاول أن يستخفّ بالأزمة وتساءل عن سبب رفضهما المجيء إلى بيروت، إذ ليس هناك من يريد اعتقالهما. أجابا أنهما يتعاملان بجدّية قصوى مع هذه الحادثة التي توّجت خمسة وعشرين عاماً من الحكم الفرنسي. وعندما سألهما عن شروطهما، أجابا أن لا مجال للتفاوض قبل إطلاق سراح جميع الوزراء وصرف جميع المسؤولين الفرنسيين الذين أراقوا دماء اللبنانيين. دعا بارت الحكومة المؤقتة إلى زيارة كاترو في بيروت. رُفضت دعوته بحجة عدم الثقة بسلوك الفرنسيين. وعندما اقترح بارت الاجتماع بكاترو في عاليه، أجيب بأن عليه القدوم إلى بشامون إذا كان لديه ما يقوله لهما[2].

---

(1) Tueni, *Le Livre de L'Independence*, p. 50.

(2) Spears to Foreign Office, 17 November 1943 (FO 371/35187).

أجـــرى ســـبيرز عندئذ محادثات مطوّلة مع كاترو وذكّره أن الحكومة البريطانية توقّعت إطلاق سراح الوزراء المسجونين قبل أربع وعشرين ساعة على الأقل. فأجاب كاتـــرو أنـــه يجهل وجود أي مهلة زمنية، وما كان ليأتي لو علم بوجود إنذار. أجابه سبيرز أن الفرصة لا تزال متاحة أمام الفرنسيين لاستعادة موقعهم، إذا أمر بالإفراج عن الحكومة على الفور وإعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل 11 تشرين الثاني/نوفمبر. وبخلاف ذلك، فإن فرنسا ستخسر موقعها، من وجهة نظره على الأقل[1]. أصرّ سبيرز على عدم تساهل الحكومة البريطانية في موضوع الإفراج الفوري عن الوزراء المعتقلين وإعـــادة النظام الدستوري: كلما طال التأخير، تعاظمت الضربة التي تتعرّض لها مكانة فرنسا. والطريقة الوحيدة المتاحة أمام كاترو للمحافظة على موقعه الشخصي، وموقع فرنـــسا، هـــي إلقـــاء اللوم على هِللو وإعادة الوضع إلى ما كان عليه قبل 11 تشرين الثاني/نوفمبر.

أثـــارت ملاحظات سبيرز الصريحة الذعر في بعض أقسام وزارة الخارجية. ووجّه إليه رئيس الدائرة الشرقية انتقاداً شديداً:

> يلاحـــظ كيف تجاوز ممثلنا المميّز تعليماته في كلّ منعطف في ما يفترض أن يكون حواراً مهماً.
>
> أعطـــي كاترو الانطباع أننا طلبنا منه العمل تحت إنذار مهلة زمنية محددة. المهلـــة الزمنية الوحيدة التي وضعناها عند بداية هذه المسألة قولنا إننا نتوقّع وصول كاترو إلى بيروت قبل يوم الاثنين فوصل يوم الثلاثاء.
>
> لقـــد حـــثّه ســـبيرز علـــى إعادة الوضع إلى ما كان عليه قبل 11 تشرين الـــثاني/نوفمبر. و لم يكن لديه إذن لتقديم مثل هذا الطلب. إعادة الوضع إلى مـــا كـــان عليه قبل 11 تشرين الثاني/نوفمبر تعني: (أ) إحياء مجلس النواب فـــوراً وهـــو أمـــر قلنا تحديداً إننا لا نطلبه و(ب) إعادة تثبيت الحكومة وصلاحياتها، وهو أمر اتفقنا على وجوب تأجيله قليلاً.
>
> قـــال ســـبيرز لكاتـــرو إن حكومة صاحب الجلالة لن تتساهل "في مسألة الإفـــراج الفـــوري عن الوزراء المعتقلين وإعادة النظام الدستوري". وتلك

(1) المصدر نفسه.

طـــريقة أخرى لقول الشيء نفسه وجعل كاترو يتخذ قراره دون أن يدرك تماماً ما المطلوب منه.

وجوهـــر الأمر، بالطبع، أن من غير العملي إعادة النظام الدستوري، أو توقّـــع أن يقـــوم الفرنسيون بإعادته، قبل إيجاد تسوية مؤقتة بين ذلك النظام والفرنسيين[1].

أظهرت هذه الآراء انحياز بعض المسؤولين في وزارة الخارجية البريطانية إلى جانب الفرنـــسيين وازدراءهم العرقي للطموحات اللبنانية. وبدا أنهم غير مستعدّين لإدراك أن ثمـــة اختـــباراً للقوة في لبنان وأن فرنسا هي الطرف الخاسر. كما بدا أنهم غير قادرين علـــى استيعاب أن سبيرز لن يسمح بأن يبطل بعض المسؤولين الجبناء في لندن الجهود الهائلة التي بذلها في السنتين الماضيتين.

حـــاول الجنـــرال كاترو بعد اجتماعه مع سبيرز، إجراء مفاوضات للخروج من المـــأزق بعقد اجتماعات سرّية منفصلة مع بشارة الخوري ورياض الصلح. اصطُحب الـــرئيس إلى بيروت للاجتماع بكاترو ليل الخميس في 18 تشرين الثاني/نوفمبر، وتلاه رئـــيس الحكومة رياض الصلح في اليوم التالي. لم يكن أي منهما يعلم شيئاً عن رحلة الآخـــر. مـــن الواضـــح أن كاترو كان يأمل بإحداث شرخٍ انسجاماً مع الصيغة التي وضـــعها ديغول. وهي تقضي بإعادة بشارة الخوري إلى القصر الجمهوري - فهو في النهاية رجل تعامل معه الفرنسيون في الماضي - وإبعاد رياض الصلح عن الحكم تماماً. كـــان ديغـــول يعوّل على أن يتغلّب مؤيّدو فرنسا في وزارة الخارجية على المسؤولين الـــراديكاليين مثل سبيرز وكيسي وغيرهما من المسؤولين الآخرين في الشرق الأوسط. لكن المخطط فشل عندما رفض بشارة الخوري بشهامة الانفصال عن رياض الصلح.

اقتـــنع كاتـــرو بعد اجتماعه معهما بعدم وجود حل للأزمة سوى بإعادة الثنائي بـــشارة وريـــاض إلى الـــسلطة[2]. فأمر بتحسين ظروف سجنهما في راشيا على أمل التخفـــيف مـــن اســـتيائهما من فرنسا. وسُمح للسجناء بالتحدّث بعضهم مع بعض والخروج من الزنـــزانات ساعة واحدة في الصباح وأخرى بعد الظهر.

(1) Maurice Peterson, 8 November 1943 (FO 371/35187).

(2) Tuéni, *Le Livre de l' Independence,* p. 118.

الجولة الثانية عشرة

سرعان ما واجه كاترو موقفاً أشدّ خطورة. فقد وصلت أخبار إلى لندن عن وجود خطة لنقل السجناء من راشيا إلى الجزائر. عندئذ أدرك الجميع، حتى الموالون لفرنسا في وزارة الخارجية، أن هذا الأمر يمكن أن يُشعل انفجاراً في الشرق الأوسط، ما يُجبر الجيوش البريطانية التي تمر بظروف صعبة على التدخّل لإعادة النظام. طلبت لندن من ريتشارد كيسي وضع القوات البريطانية في مصر في حالة تأهّب. ثم اتُّخذ قرار بإيصال الأمور إلى حدّ الأزمة عن طريق توجيه إنذار إلى كاترو.

بعد ظهر يوم 19 تشرين الثاني/نوفمبر، دُعي كاترو إلى منزل سبيرز حيث سلّمه كيسي مذكرة صارمة: إذا لم تتلقَّ الحكومة البريطانية قبل الساعة 10 من صباح 22 تشرين الثاني/نوفمبر رداً مواتياً على طلبها استبدال هللو وإطلاق سراح الرئيس والوزراء اللبنانيين، فإنها ستعلن الأحكام العرفية لضرورات عسكرية صارمة. وعندئذ ستقوم القوات البريطانية بتحرير السجناء ويسيطر قائد الجيش التاسع على البلاد[1].

وجد كاترو نفسه عالقاً بين سندان إنذار بريطانيا ومطرقة تعنُّت ديغول المتواصل، فتولّد لديه إحساس بالذل والعجز. وقال في ما بعد إن الكلمة التي خطرت بباله عندما أعطاه كاترو المذكّرة هي "فاشودا" (اسم قرية في أعالي النيل، حدثت فيها معركة إرادات بين القوات البريطانية والفرنسية في سنة 1898 في أثناء تزاحمهما على استعمار أفريقيا. وقد تغلّبت بريطانيا آنذاك، ما أغضب فرنسا). ذهب كاترو لمقابلة سبيرز مرة أخرى في 20 تشرين الثاني/نوفمبر على أمل التفاهم مع كيسي، لكن الأخير كان قد غادر إلى القاهرة. اعترف كاترو المُتعَب لسبيرز إنه كان من الأفضل توجيه الإنذار إلى ديغول بدلاً منه. فليس لديه صلاحية استلامه، ولا القدرة على اتخاذ قرار بشأنه. لقد خرجت الأزمة الآن عن نطاق سيطرته.

قام الفرنسيون بمحاولة أخيرة في 21 تشرين الثاني/نوفمبر عندما أرسل ماسيغلي بياناً رسمياً إلى ماكميلان لنقله إلى كيسي. وقد نصّ البيان على أن اللجنة الوطنية الفرنسية لا ترى أن من الصواب إعادة رياض الصلح وأعضاء حكومته إلى السلطة في

---

(1) المصدر نفسه، ص 611

الوقت الحالي. وإذا كانت ثمة حاجة إلى مؤتمر لتنظيم العلاقات بين فرنسا ولبنان، فإنه يجب أن يكون لبنانياً فرنسياً - أي من دون مشاركة بريطانيا. كما أن اتفاقات ليتلتون وديغول سنة 1941 لا تعطي القيادة البريطانية حقّ إعلان الأحكام العرفية. وإذا نفّذت الحكومة البريطانية تهديدها، فإن عليها أن تتحمّل المسؤولية كاملة عما قد ينجم عن ذلك، وتأثيره على مستقبل العلاقات الفرنسية البريطانية[1].

علم سبيرز بأمر البيان الرسمي الفرنسي، فخشي من احتمال تغيّر موقف الموالين لفرنسا في لندن. شعر للوهلة الأولى بخطر هذه الحيلة واحتمال ضياع جهوده سدى. وغضب من الخطوة الفرنسية، وأرسل كتاباً إلى وزارة الخارجية جاء فيه: "أترك لكم أن تتخيّلوا ماذا سيعتقد سائر العالم إذا تغاضينا عن هذه المهزلة الكئيبة التي يجلس فيها الحمل بمفرده مع الذئب على طاولة المفاوضات". ولزيادة الضغوط، أبلغ لندن أن آلاف اللبنانيين أخذوا يتحدّون الآن القرار الفرنسي الذي يمنع التجوّل. إن أصوات الحشود الضخمة في بيروت وصخبها يُسمع في كل أنحاء المدينة. لا بد أن يُذعن الفرنسيون وإلا قد يخرج الوضع عن السيطرة.

في تلك الليلة، جاء كاترو لمقابلة سبيرز وكان يعاني من عدم القدرة على اتخاذ قرار. لم يتلقَّ رداً من الجزائر على رسائله العاجلة، فهل يأخذ الأمور على عاتقه؟ كان يميل إلى إعادة الحكومة اللبنانية إلى السلطة ما لم يتلقَّ رفضاً مطلقاً من اللجنة الوطنية الفرنسية. ذكّره سبيرز أن ليس عليه، وفقاً لنصّ القانون، إعادة الحكومة اللبنانية إلى السلطة لأنها حلّت بصورة غير قانونية. وما لم تُلغَ مقررات هللو الصادرة في 11 تشرين الثاني/نوفمبر، فإن بريطانيا ستجبر على إعلان الأحكام العرفية في اليوم التالي. وحثّ كاترو على أن يحرّر السجناء، ويطلب من إميل إده الانسحاب، ويُبعد هللو عن المشرق. فأذعن كاترو المهزوم والمتعب لمقترحات سبيرز، إذ لم يكن لديه خيار آخر بالنظر إلى الصمت المطبق من الجزائر، وضغط سبيرز المستمر[2].

في غضون ذلك، واصل سبيرز زيادة الضغط على لندن لضمان عدم تراخي الموقف البريطاني. وأفاد عن أن وفداً كبيراً من النواب زار المفوّضية لإبلاغها "عدم

(1) British Legation, Beirut, to Foreign Office, 22 November 1943 (FO 226/242).
(2) Spears to Foreign Office, 21 November 1943 (FO 226/242).

إمكانية السيطرة على الحشود في الغد" إذا أصرّ الفرنسيون على أن يتفاوض كاترو على إعادة الحياة الدستورية مع بشارة الخوري بمفرده - أي استبعاد رياض الصلح. وحذّر من أن زعماء في البقاع الشمالي مستعدون "للقتال حتى الموت"، وأن عائلة واحدة فقط حشدت 400 رجل مسلّح. وفي البقاع الجنوبي، نظّم الدروز صفوفهم تحت قيادة زعمائهم، وهم على اتصال مع وزير الدفاع الأمير مجيد، ولديهم نحو 500 بندقية على الأقل، ومستعدّون للثورة عن آخرهم عندما تصدر الإشارة. وفي صيدا، يخطط الأعيان لتفجير ثكنات البحرية الفرنسية ومنزل المستشار الفرنسي. وثمة تخطيط لقيام انتفاضات منظمة في جميع أنحاء لبنان تستهدف في المقام الأول مستودعات الذخيرة والأسلحة الفرنسية. ويقوم زعماء المجتمعات الريفية بتنظيم قوائم للتحرّك باكراً إذا رفض الفرنسيون إعادة الوضع إلى ما كان عليه. وأضاف بدهاء أن الغاية من كل ذلك خلق وضع يجبر البريطانيين على فرض سيطرتهم العسكرية. وكان سبيرز يدرك جيداً أن المقولة الأخيرة ستدقّ نواقيس الخطر في لندن[1]. وفي تلك الليلة، سُمعت عدة انفجارات في بيروت، وكان منزل إميل إده أحد أهدافها، ففرّ في الساعات الأولى من 22 تشرين الثاني/نوفمبر في مركبة فرنسية صغيرة إلى مكان مجهول.

الجولة الثالثة عشرة

ليل يوم الأحد في 21 تشرين الثاني/نوفمبر، بثّت هيئة الإذاعة البريطانية خبر قرب الإفراج عن الوزراء المعتقلين، فعمّ الفرح كل أنحاء لبنان. وبدأت حشود ضخمة، تقدّر بعشرات الآلاف، تتحرّك في المدينة. وكان قسم كبير منهم مسلّحين. وتواصل إطلاق النار في الهواء بكثافة. واستمرت التظاهرات الواسعة حتى اليوم التالي. حملت الجماهير النواب على الأكتاف وتوجهت إلى البرلمان، فمُزّق العلم اللبناني القديم ورُفع العلم الجديد. وتكرر المشهد نفسه عند السراي وبلدية بيروت. لزم الجنود الفرنسيون والسنغاليون ثكناتهم، فلم تقع أي أحداث عنيفة. واقتصرت أعمال التحدّي على تمزيق الأعلام الفرنسية والدَوس عليها.

(1) Spears to Foreign Office, 22 November 1943 (FO 226/242).

صباح الاثنين 22 تشرين الثاني/نوفمبر، توافد الناس إلى منازل رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة والوزراء الآخرين المعتقلين في انتظار وصولهم من راشيا. أفرج عن السجناء نحو الساعة الحادية عشرة صباحاً، وتوجهوا إلى بيروت برفقة المندوب الفرنسي المسيو دافيد، وقائد الدرك اللبناني العقيد نوفل. وفي الثانية بعد الظهر، استقلّ بشارة الخوري ورياض الصلح، بطلا الاستقلال، السيارة جنباً إلى جنب وجالا في شوارع بيروت وسط الجماهير المبتهجة. أراد المسيو دافيد أن يجلس إلى جانب الرئيس في الرحلة من راشيا - على أمل استعادة بعض الاعتبار لمكانة فرنسا - لكن الرئيس حرص على صدّه، وأبلغه أن الغوغاء سيعدمونه بالتأكيد إذا شاهدوهما يدخلان بيروت معاً.

حملت الجماهير المبتهجة الرئيس على سلّم منزله في القنطاري. وأوصلت السيارة نفسها رياض الصلح إلى منزله في رأس النبع، حيث خاطب الجماهير المحتفلة من شرفة منزله. ثم شقّ طريقه عبر الحشود عائداً إلى منزل الرئيس.

وصل الجنرال كاترو إلى هناك بعد بضع دقائق. ولكن المنزل كان يغصّ بالمهنّئين بحيث لم تكن هناك غرفة فارغة. فأُخذ إلى غرفة نوم الرئيس حيث استُقبل "ببرودة"، ودامت المقابلة نحو ساعة. كان كاترو يأمل بإنقاذ شيء من حطام السياسة الفرنسية، لذا بدأ بالإصرار على أن يعدّ الرئيس لاستقالة حكومة رياض الصلح. فقد رأى أن الضرورة تقتضي أن يقدّم بشارة الخوري إيماءة مصالحة ويظهر تقديراً للمشاعر الفرنسية. رفض الرئيس ذلك رفضاً قاطعاً، وقال إن الرأي العام لن يقبل ذلك حتى لو كان على استعداد لتقديم هذه الإيماءة. وعلى أي حال، لا يمكن تقديم أي خطوة تصالحية إلى فرنسا في ذلك الوقت.

بدا كاترو قلقاً ومكتئباً، فطلب بعد ذلك انضمام رياض الصلح إلى النقاش. قال لهما: "بما أنكما ترفضان حلّ الحكومة، أرجو على الأقل أن تمنحاني الوقت لأرسل برقية إلى الجزائر لتلقّي تعليمات جديدة. وسأوصي بشدة أن يُسمح لك، يا رياض، بالبقاء في منصبك. وآمّل أن أتلقى الردّ غداً".

طلب كاترو أن ينزل الرئيس وحده إلى السراي غداً، وعدم تسليط الضوء على الحكومة "في الأيام القليلة التالية". أجاب بشارة الخوري أن ذلك مستحيل، وأنه كان

ينوي الذهاب إلى السراي مع جميع وزرائه، لكنهم متعبون. ولا يرجع ذلك إلى المعاملة السيّئة التي عانوها في راشيا، وإنما إلى فرحة الاستقبالات التي شهدوها في بيوتهم عند عودتهم. مع ذلك فإنه قرر أن يذهب وزيران فقط إلى السراي في اليوم التالي - كميل شمعون وسليم تقلا على الأرجح - على أن يتوجّه صباح الأربعاء بشكلٍ رسمي مع جميع الوزراء وأن يستعرض حرس الشرف. وأكّد أنه لن يغيّر خطته بغضّ النظر عن الرد الذي سيأتي من الجزائر، وبذلك فشلت مساعي اللحظة الأخيرة التي بذلها كاترو.

في هذه الأثناء، تضايق الوزراء المحرَّرون جداً من المؤيّدين بحيث اضطروا إلى اللجوء إلى منزل هنري فرعون للحصول على بعض الطعام والراحة اللذين يحتاجون إليهما[1]. عاد عبد الحميد كرامي إلى طرابلس حيث استقبلته حشود غفيرة أيضاً. وعاد حبيب أبي شهلا من بشامون إلى بيروت، لكن قرّر الأمير مجيد أرسلان البقاء هناك يوماً آخر كتدبير احترازي حتى يتأكد من انجلاء الأمور بالشكل المناسب. بعد ذلك توجّه أبي شهلا وسليم تقلا وعادل عسيران إلى بشامون لاصطحابه إلى بيروت. قدم أرسلان بصحبة عدد كبير من المسلحين المؤيدين مرتدياً لباس الميدان الدرزي التقليدي - كوفية، وبنطال أبيض واسع عند الفخذين، وحزمة عالية، ومسدس في حزامه، وحزام من الذخيرة على صدره - وشقّ طريقه إلى السراي[2].

في 24 تشرين الثاني/نوفمبر، قام كاترو بزيارة رسمية إلى السراي وسلّم الرئيس رسالة تؤكد أن اللجنة الوطنية في الجزائر ألغت قرارات هِللو. أخيراً تراجع ديغول، وعاد الوضع إلى ما كان عليه في 10 تشرين الثاني/نوفمبر.

تجدر الإشارة إلى حبكة ثانوية مشبوهة. فقد علم رياض الصلح، عشية يوم الإفراج عن المعتقلين، بوصول فرقة قناصة فرنسية بقيادة العقيد بواسّو Boisseau إلى راشيا، بغية اختطافهم وقتلهم بدلاً من السماح بإطلاق سراحهم. و لم يقتنع بمغادرة القلعة إلى بيروت إلا بعدما تأكد من صدور الأمر من الجنرال ديغول شخصياً. من ناحية أخرى، سمع بشارة الخوري عن مؤامرة يعدّ لها فرنسيون متطرفون لاختطاف كاترو من منزله في شرق بيروت، وذلك لمنعه من تحرير السجناء.

(1) المصدر نفسه.

(2) Spears Mission to H. M. Minister, 23 November 1943 (FO 226/242).

عُيّن إيف شاتنيو مندوباً عاماً بدلاً من هِللو. غير أن الصحف الخاضعة لفرنسا في الجزائـــر نشرت رسالة بعثها ديغول إلى هِللو، وجاء فيها: "سينقل إليك الجنرال كاترو قرار اللجنة إعادتك إلى الجزائر بغية التشاور. إنني مهتم شخصياً بسماع تقريرك، وإلى ذلك الحين لك مني خالص الودّ".

شـــعر ســـبيرز - اليد الخفية وراء هذه الأحداث المثيرة - بالارتياح لذهاب من يعتـــبرهم أعـــداءه في المندوبـــية إلى الجزائر، وخاصة بايلن وبُوِغنير، وكتب إلى لندن ممازحاً، "أنا الآن بأمان".

الجولة الأخيرة

لـــيل 22 تشرين الثاني/نوفمبر، ذهب رياض الصلح لزيارة حليفه الجنرال سبيرز علـــى الـــرغم من شعوره بالإرهاق، ودامت زيارته ساعة تقريباً. لا بد أنهما احتفلا بانتصارهما الكبير، مع أن سبيرز أحجم عن إفادة لندن بذلك. فقد اكتفى بالإشارة إلى أن ريـــاض الصلح كان هادئاً وقوياً. ووصف الطريقة السيئة التي عومل بها رياض في راشيا. كانت غرفته رطبة، وسريره متسخاً، و"الصرف الصحي" رديء لدرجة تفوق الوصـــف. وكـــان يحرســـه أشد الجنود خشونة. وعلى الرغم من التدابير الاحترازية الفرنـــسية، فإنه تمكّن من الاطلاع على ما يجري في الخارج. وكان منسجماً تماماً مع الـــرئيس الذي لا يسعه أن يفيه حقّه من الثناء على ثباته وإخلاصه. ولاحظ سبيرز أن الحكومة اللبنانية لن تقبل أي تدخل فرنسي في استقلالها التام[1].

في 23 تشرين الثاني/نوفمبر، قام سبيرز بزيارة الرئيس بشارة الخوري. كان البيت مكـــتظاً بالوفود من الوجهاء إلى ممثّلي أصحاب الدكاكين الصغيرة والعديد من الوفود النـــسائية. اســـتمع ســـبيرز إلى بعض خطاباتهم، ولاحظ أنها تطالب بالاستقلال التام والناجـــز. وسمـــع الكـــثير من الترحيب ببريطانيا العظمى، فشعر بأنه أُنصف وغمرته السعادة والرضا.

أجبر رياض الصلح والجنرال سبيرز فرنسا على الاعتراف باستقلال لبنان، وأظهرا جـــرأة ومهـــارة وعزيمة. شكّل ذلك بالنسبة إلى رياض تعويضاً مرضياً عن اللطمات

(1) Spears to Foreign Office, 23 November 1943 (FO 226/242).

والنكسات وخيبات الأمل العديدة التي عانى منها هو والوطنيون من أبناء جيله: الشهداء الأوائل الذين أعدمهم جمال باشا، وهزيمة جيش سوريا الناشئ أمام الفرنسيين في ميسلون، وتقسيم سوريا الكبرى، وسحق الثورة السورية الكبرى بوحشية، وتحطّم الآمال العربية عندما قضت بريطانيا على الثورات الفلسطينية في السنوات 1936-1939، وتخلّي فرنسا الإجرامي عن لواء الإسكندرونة للأتراك، ومحنة الانتداب الطويلة والمريرة، بالإضافة إلى الكثير من الأحداث الأخرى. وأمل رياض أن ينقلب مجرى الأحداث الآن. لقد رأى مهارة الصهاينة في الاستفادة من بريطانيا دعماً لقضيتهم، وتمكّن أيضاً من كسب دعم حاكم إداري بريطاني بارز لقضيته الوطنية.

كان لأحداث تشرين الثاني/نوفمبر 1943 المثيرة أهمية كبرى في مستقبل لبنان. فقد وضعته على طريق الاستقلال الحقيقي - أو على الأقل الاستقلال الذي يستطيع أن يتوقّع بلد صغير وضعيف الحصول عليه، بالنظر إلى موقعه الاستراتيجي ومواطن ضعفه الداخلية الكثيرة، وهي ما جعلت جيرانه والقوى الكبرى تعتبره ساحة تتقاتل فيها. يقول المؤرخ ألبرت حوراني إن أحداث تشرين الثاني/نوفمبر 1943 "تركت وراءها إحساساً هشاً بالوحدة والانتصار، استطاع لبنان المستقل وحكومته أن يستمدا منهما شيئاً من الشرعية الثورية التي هي أساس الدول القومية الحديثة"(1).

شعر سبيرز بحاجة إلى تقديم شرح مسهب لأسباب ما قام به - بل تبريرها - في رسالة وجّهها إلى وزارة الخارجية في 25 تشرين الثاني/نوفمبر. وقد جاء فيها أن المساهمة الفرنسية في حملة سنة 1941 كانت صغيرة جداً، وأن بريطانيا هي التي انتزعت المشرق من حكومة فيشي. أما ادعاء الفرنسيين الأحرار أنهم ورثوا موقع فرنسا الانتدابي السابق، فإنه مشكوك في شرعيته. على أي حال، لقد تعهّدوا علناً بإنهاء نظام الانتداب، وقدّمت بريطانيا ضمانة لهذا التعهد. لكن الفرنسيين الأحرار رفضوا بعناد احترام ما وعدوا به.

هنا، لم يستطع سبيرز أن يقاوم امتداح نفسه:

---

(1) A. Hourani, 'Lebanon: Development of a Political Society,' in Hourani, *The Emergence of the Modern Middle East*, p. 138.

بعـــد نحو سنتين من الضغوط الدبلوماسية، تمكنّا بصعوبة كبيرة من إقناعهم أخيراً باتخـــاذ الخطـــوة الأولى في ذلـــك الاتجاه والسماح بعودة الحياة الدستورية والبرلمانية. وكانـــت النتـــيجة انبثاق حكومة وبرلمان وطنيين لبنانيين، على الرغم من التدخلات والـــضغوط الفرنسية، فباشرا التأكيد على حقهما غير المشكوك فيه بتعديل الدستور. وقد أدت هذه الخطوة إلى حدوث أزمة 11 تشرين الثاني/نوفمبر.

وخلص إلى أن التدابير التي نفّذها الفرنسيون "غير مبرّرة وفقاً لأي أساس قانوني يمكن تصوّره، ولا تتوافق مع روح ميثاق الأطلسي... لقد عَرَّضت هذه التدابير المجهود الحربـــي للحلفاء للخطر في المشرق". ولو لم يجبر البريطانيون الفرنسيين على إبطالها، لوقعت ثورة شعبية، وتشوّشت خطوط مواصلات الحلفاء، وتعرّض الفرنسيون لمذبحة واسعة النطاق[1].

شكّلت هذه الرسالة تبريراً سياسياً قوياً لسياسة ذات دوافع شخصية نتجت عن عداء سبيرز المفاجئ للفرنسيين وتحوّله إلى مؤيّد متحمّس للقومية العربية.

غـــير أن سبيرز لم يستطع الإفلات من العقوبة. لم يكن أنتوني إيدن يريد إذلال الفرنـــسيين. فدعا إلى اجتماع لمراجعة الأوضاع في السفارة البريطانية في القاهرة في 7 كانـــون الأول/ديـــسمبر حـــضره ريتشارد كيسي، وزير الدولة البريطاني في الشرق الأوســـط؛ والجنـــرال السير إدوارد سبيرز، الوزير البريطاني المفوّض في دولتي المشرق؛ واللورد كيليرن Killearn (السير مايلز لامبسون سابقاً)، السفير البريطاني في القاهرة؛ وهارولـــد ماكمـــيلان، الممـــثل الـــبريطاني في لجـــنة التحرير الوطني بقيادة ديغول؛ وشخـــصيات بريطانية كبيرة أخرى، عسكرية ومدنية. ترأس إيدن الاجتماع، وأبدى اســـتياءه من نتائج الأزمة اللبنانية. قال بلهجة استعمارية متعالية إنه يجب عدم السماح للشعوب الخاضعة للانتداب بإنهاء التدابير الانتدابية من دون اتفاق مناسب مع السلطة المنتدبة. فذلك يشكّل سابقة قد تتكرّر في مكان آخر من الشرق الأوسط.

غـــير أن ما فعله سبيرز هو إنهاء الانتداب الفرنسي. كان يدرك أنه حقّق ما يريد على الرغم من معارضة الآخرين، لكنه حرص على ألا يتباهى بذلك. أصرّ إيدن على

(1) A Note of the Reasons for British Action in the Lebanese Crisis, British Legation, Beirut, 25 November 1943 (F0226/242).

وجوب عدم منح اللبنانيين الانطباع بأن بريطانيا تدعم كل خطوة يقومون بها، ولكن ذلك بالضبط هو الانطباع الذي أعطاه سبيرز على الدوام. لم يستطع سبيرز احتمال المزيد، فردّ دون تفكير أنه كان واثقاً من إصرار اللبنانيين على التخلّص من الفرنسيين في المشرق بعد انتهاء الحرب. لكن إيدن رفض ذلك، وقال إن تعليماته تقضي باستخدام النفوذ البريطاني لدى اللبنانيين بغية تحسين علاقتهم بفرنسا وإنقاذ ماء وجه الفرنسيين قدر الإمكان. لم يكن إيدن العنيد قادراً على فهم أن مثل هذه السياسة وطريقة التفكير قد تجاوزتهما الأحداث[1]. بل إن هذه المحدودية الفكرية أدّت لاحقاً إلى سقوطه في أزمة قناة السويس سنة 1956.

لم يكن الاجتماع مُرضياً البتة. فقد أغضب سبيرز عدداً كبيراً من النافذين في لندن، بمن فيهم أنتوني إيدن نفسه، وأجبر على دفع ثمن تجاوزاته. حتى إن صديقه القديم ونستون تشرشل لم يستطع إنقاذه الآن. مع ذلك، كانت مغامرة رائعة!

---

(1) Memorandum of Meeting held at British Embassy, Cairo, at 4.30 p.m. on 7 December 1943 to discuss the question of Syria and Lebanon (FO 226/242).

الفصل الحادي والعشرون

الصحوة المؤلمة

لم يكد بشارة الخوري ورياض الصلح يعودان من سجنهما في راشيا حتى بدأت الأحوال تسوء. فسرعان ما تبيّن أنّ الفرنسيين عازمون على الردّ، و لم يعد من الممكن الاعتماد على الدعم البريطاني للوطنيين. إضافة إلى ذلك، فإن نار الطائفية في لبنان لم تخمد، و لم تكن الوحدة العربية، أو حتى التضامن العربي - اللذان طالما نادى رياض بهما - سوى سراب. وكانت خطابات القادة العرب المثيرة مجرّد غطاء لخصوماتهم وكراهياتهم المتبادلة. لذا واجه رياض الصلح وحكومته صحوة مؤلمة.

في الجزائر، استشاط الجنرال ديغول غضباً لأنّ "استفزازات" رياض الصلح مرّت من دون عقاب. كيف يجرؤ هذا الوطني المسلم المتمرّد على إزالة أي ذكر للانتداب من الدستور اللبناني، ووضع حدٌّ للامتيازات التي تمتعت بها فرنسا قروناً طويلة في المشرق؟ ألقى ديغول اللوم على البريطانيين، وخاصةً صديقه المزيّف، السير إدوارد سبيرز، الذي لم يعد يكنّ له إلا العداوة اللدودة. وجّه ديغول تعليمات إلى الجنرال كاترو لإرغام اللبنانيين والسوريين على توقيع معاهدة مع الفرنسيين الأحرار، تعيد موقع فرنسا البارز في البلدين. وهو الموقع البارز الذي لم يكفّ ديغول عن تكرار الإشارة إلى أن البريطانيين أنفسهم أقرّوه في مراسلات ليتلتون - ديغول في سنة 1941.

عاد كاترو إلى بيروت في 16 كانون الأول/ديسمبر 1943 وبدأ التفاوض مع الحكومتين اللبنانية والسورية بمساعدة المندوب العام إيف شاتنيو، والمندوب الجديد في لبنان الكونت ستانيسلاس أُسترورورغ Stanislas Ostrorog الذي انشقّ مؤخراً عن فيشي. اتبع كاترو أسلوب تقديم بعض التنازلات، والسعي في الوقت نفسه إلى المحافظة على السيطرة على مقاليد السلطة الحقيقية، إذ لم يكن في وسعه اتباع طريق آخر بالنظر إلى الحماسة الوطنية في بيروت ودمشق. وهكذا، في 12 كانون الأول/ديسمبر، تم التوصل إلى اتفاقية في دمشق على نقل المصالح المشتركة، من حيث المبدأ، إلى

الحكومتين المحليتين على أن يتم التفاوض والاتفاق على كلّ منها على حدة. أعقب ذلك في 3 كانون الثاني/يناير، نقل إدارة الجمارك، وإدارة حصر التبغ والتنباك بنجاح، وهو إنجاز استُقبل بفرح عظيم محلياً. وقُدّم الشكر إلى رياض الصلح في البرلمان. لكن النقل لم يكن حقيقياً إلى حدّ كبير، لأن الاتفاق لن ينفذ إلا بعد سنتين، وسيبقى العديد من المسؤولين الفرنسيين في مراكزهم في مختلف الإدارات.

لم يتحقق أي تقدّم يذكر بشأن تسليم اللبنانيين والسوريين الأمن العام والحرس السيّار، والقوات الخاصة؛ وهي القوات التي جنّدها الفرنسيون من السكان المحليين، وشكّلت عصب القوة الفرنسية. وسرعان ما تبيّن أنّ القوات الخاصة هي الأداة التي يريد الفرنسيون استخدامها للضغط على الحكومتين المحليتين لتوقيع المعاهدتين اللتين يطالبان بهما. كان لدى الفرنسيين عدة أوراق يلعبونها. فهم يدركون أن العديد من اللبنانيين والسوريين في القوات الخاصة، وكثير منهم من الأقليات، يفضّلون البقاء تحت القيادة الفرنسية. كانوا يخشون من انخفاض رواتبهم وتدهور أوضاعهم إذا نقلوا إلى إمرة الحكومتين المحليتين. ففي تلك الحال ستقع الحكومتان تحت ضغط تأمين الأموال للقوات الخاصة، حتى لو وافق الفرنسيون على تسليمها. وفي حين طالب الشعبان بإنشاء "جيشين وطنيين"، كانت الحكومتان تدركان عجزها عن تلبية هذا المطلب. وعندما قدّمت حكومة رياض الصلح موازنتها الأولى إلى مجلس النواب في آذار/مارس 1944، حصل الدفاع الوطني على مبلغ 22,000 ليرة سورية (نحو 2000 جنيه إسترليني) من أصل أربعة وثلاثين مليون ليرة سورية، ما يعني عدم إمكانية تخصيص أموال للجيش الوطني تتجاوز راتب وزير الدفاع وموازنة صغيرة لمكتبه.

في 10 آذار/مارس، وصل الجنرال بول بينيه Paul Beynet لتولي المنصب بدلاً من شاتنيو الذي شارفت مدة خدمته على الانتهاء. أراد الفرنسيون تعيين بينيه في منصبي المندوب العام والقائد العام للقوات الفرنسية في المشرق. لكن الحكومة اللبنانية اعترضت على الفور: لم يعد هذان المنصبان منسجمين مع وضع لبنان كبلد مستقل. ورأت أن على الفرنسيين تعيين سفير، بالاتفاق معها، بحسب المعايير الدبلوماسية. فاضطر بينيه إلى القبول بلقب المندوب العام، وحاول أن يقدّم نفسه بطريقة مقبولة فيما تُحاك المؤامرات الفرنسية الشريرة في الخفاء.

كـــان سبيرز مقتنعاً أن الفرنسيين يخطّطون لانقلاب عسكري. وبدا ذلك مؤكّداً بوصـــول عـــدد من الضبّاط العسكريين الفرنسيين - الذين وصفهم بأنهم ذوو "ميول يمينية متطرّفة" - ومن تقارير تفيد بنقل أعداد كبيرة من القوات الاستعمارية السنغالية من شمال أفريقيا إلى المشرق[1]. بدا أن المخطّط يقضي بإحداث اضطرابات في الداخل لجعـــل الـــتدخل الفرنسي ضرورياً[2]. أفاد سبيرز أنه وفقاً لمصدر سرّيّ في المندوبية، سيكون المسؤول عن تنظيم الاضطرابات العقيد جوتو Jouteau، قائد المدرسة الحربية الفرنـــسية الـــتي أنـــشئت حديثاً؛ والجنرال مونتكلار Montclar، و"هو محارب سيئ السمعة"؛ والعقيد فرمولين Vermeulen، قائد القوات الخاصة؛ والعقيد أنجين Angen الذي "اتبع نهجاً متشدداً بعد أزمة تشرين الثاني/نوفمبر".

كان شاتنيو، الذي تناول سبيرز العشاء معه في 9 آذار/مارس، "على علم بوجود مخطـــط فرنسي قيد الإعداد". فأبلغ سبيرز أن "مجموعة من 147 ضابطاً فرنسياً ذوي ميول يسارية تشكّلت لمواجهة الزمرة العسكرية الفاشية النافذة". بدا شاتنيو متأكّداً من أن ديغـــول على علم بنشاطات المتطرّفين. لكن منتقدي سبيرز في وزارة الخارجية في لندن - بقيادة هانكي R.M.A. Hankey، رئيس الدائرة الشرقية - تهكموا على "زوبعة المخـــاوف" التي أثارها سبيرز بشأن تحركات القوات الفرنسية و لم يأخذوا مخاوفه على محمل الجد. وكتب هانكي في آذار/مارس ملاحظة ساخرة: "يتضح مجدداً عدم إمكانية الوثوق بسبيرز في ما يخص الفرنسيين"[3].

غير أن وقوع حادثة خطيرة في27 نيسان/أبريل برّر مخاوف سبيرز. في ذلك اليوم قـــدم يوسف كرم، النائب المنتخب حديثاً عن شمال لبنان، إلى بيروت لشغل مقعده في مجلس النواب. عُرف كرم بولائه للفرنسيين، لكنّه تخلى عن دعمهم عشية الانتخابات، تماشـــياً مـــع المـــناخ السائد. مع ذلك، انضمّ عدد كبير من عناصر المعارضة الموالين للفرنـــسيين إلى موكبه لدى وصوله إلى بيروت، وكان العديد منهم يحملون الأسلحة ويرفعون الأعلام الفرنسية على سياراتهم. عندما دخل كرم مبنى مجلس النواب، حاول قـــسم مـــن هـــذا الحشد الدخول معه عنوة. تسلّق عريف يرتدي زيّاً فرنسياً البوابة

(1) Spears to Foreign Office, 9 March 1944 (FO 371/40311).
(2) Commander-in-Chief Middle East to War Office, 14 March 1944 (FO 371/40311).
(3) Minute by R. M. A. Hankey, March 1944 (FO 371/40300.

الحديدية الرئيسية ورفع علماً فرنسياً عليها، فأطلق أحد المحتشدين عليه النار على الفور وأصابه. في وقت لاحق، أصدر الفرنسيون مذكرة توقيف بحق نعيم مغبغب، بناء على تهمة ملفقة بمحاولة القتل. وكان مغبغب قائد قوة صغيرة قامت بحماية الحكومة المؤقتة في بشامون في أثناء أزمة تشرين الثاني/نوفمبر، فاستحقّ كره الفرنسيين. كما وقعت مشاحنة أمام مبنى البرلمان وأُلقيت قنبلة يدوية أدت إلى جرح الرجل الثاني في قيادة الشرطة اللبنانية وعشرين آخرين ومقتل أربعة مدنيين ودركي. ذكر سبيرز أن "ثمة دليلاً كافياً يُثبت أن للأمن العامّ صلة بهذه المسألة". لكن لم يتضح إذا كانت تلك محاولة خرقاء للإطاحة بالحكومة أو مجرّد بالون اختبار.

شعر رياض الصلح بقلق شديد، وتعهّد باستخدام القوة لقمع المشاغبين. واستهجن علناً وجود "مجموعة من الخونة" المستعدين لانتهاك حرمة مجلس النواب وكل ما يمثّله. لكنه أضمر قلقه هو وزملاؤه من النيات الفرنسية. وخوفاً من الاعتقال - وربما تكرار أحداث تشرين الثاني/نوفمبر - أمضى الوزراء ليلة 4-5 أيار/مايو بعيداً عن منازلهم. وتعليقاً على هذه الأحداث، أرسل سبيرز تقريراً إلى لندن ذكر فيه:

إن الفرنسيين يتّبعون سياستين مختلفتين منذ تشرين الثاني/نوفمبر الفائت. السلطات العليا، أي كاترو وشاتنيو وبينيه، تنتهج سياسة نقل السلطة بشكل حقيقي. لكن عدداً من المسؤولين والضباط الفرنسيين وعناصر الأمن العام يعملون سراً خلاف ذلك بالضبط، وينفقون مبالغ طائلة لهذه الغاية، مركّزين على إثارة مخاوف المسيحيين.

واجهت السلطات السورية مشكلات مماثلة لتلك التي واجهها اللبنانيون. عندما طلبت 1000 بندقية لقوى الدرك غير المجهزة، عرض الفرنسيون بيعهم 400 بندقية مستعملة من طراز 1904 مقابل 400 ليرة سورية للبندقية الواحدة، أي ما يعادل خمسة أضعاف ونصف ثمن بندقية لي إنفيلد جديدة. وكانت الذخيرة التي عرضها الفرنسيون من صنع سنة 1884 بسعر 147 قرشاً (3 شلنات و4 بنسات) للطلقة. فقال سبيرز ثائراً: "من الواضح أنّ الفرنسيين لا يرغبون في أن تتولّى الحكومتان المحليتان المسؤولية عن حفظ الأمن الداخلي بكفاءة. ويبدو أنّ سياسة الجزائر تقضي بجعل هذا الأمر مستحيلاً"[1].

(1) Spears to Foreign Office, 24 June 1944 (FO 371/40312).

شكّل تحرير باريس من الألمان، وكانت هيئة الإذاعة البريطانية أول من أعلن عنه في 23 آب/أغسطس 1944، مناسبة احتفل بها الفرنسيون في المشرق، وأثارت قلق الحكومتين المحليتين. في بيروت، حضرت الجالية الفرنسية قدّاس شكر في كنيسة مار أنطونيوس، بينما ألقت طائرات فرنسية مظلات تتدلّى منها الأعلام الفرنسية. ووزعت أعلام فرنسية أخرى على المدنيين خلال الاحتفالات. وفي دمشق، أقيم حفل استقبال صاخب في نادي الضباط في دمشق وأضيء صليب اللورين Croix de Lorraine [رمز قوات الفرنسيين الأحرار] وسط شارة النصر (V) على جبل قاسيون الذي يطلّ على المدينة ذات الغالبية المسلمة. من نافلة القول إن الفرنسيين لم يبلغوا الحكومة السورية ولم يطلبوا موافقتها على ذلك. تصرّف الضباط الفرنسيون على طريقة: نحن الأسياد اليوم! استقلالكم غير قائم، وكل ما يفعله البريطانيون هو محاولة الحلول محلنا.

في 24 آب/أغسطس، بعد يوم واحد من تحرير فرنسا، أرسل مفوّض الشؤون الخارجية لدى ديغول، رينيه ماسيغلي، رسالة شديدة اللهجة إلى أنتوني إيدن يشتكي فيها من تعدّي البريطانيين على موقع فرنسا في المشرق[1]. وطالب بإصدار تعليمات إلى الممثلين البريطانيين بعدم التدخّل في الشؤون الداخلية لسوريا ولبنان. وقال إنّ بعض المسؤولين البريطانيين، قاصداً سبيرز بالطبع، يعتقدون أن سوريا ولبنان دولتان مستقلتان تماماً ولا يوجد سبب لإنهاء الانتداب بموجب معاهدة. وبعد أن عرض الشكوك الفرنسية المعتادة تجاه النيات البريطانية، زعم أن هذا الوضع يتيح لبريطانيا الاستفادة من الموقف الفرنسي "الدولي المؤقّت". وألح ماسيغلي على أن يعلن إيدن أن بريطانيا تدعم إبرام معاهدة بين فرنسا ودولتي المشرق.

رفض إيدن تهمة التعديات البريطانية. وكتب رداً عليه أن من الطبيعي، والمحتّم، أن يكون الممثلون البريطانيون على علاقة وطيدة مع الحكومتين المحليتين. ورفض بحزم "الإيحاء غير المبرّر" أن بريطانيا تسعى للحلول محلّ النفوذ الفرنسي في المشرق. لكنه ارتكب بعد ذلك خطأً كبيراً في التقدير. ففي تنصّل تام من كل سياسات سبيرز وتوصياته - التي أزعجته بقدر ما أزعجت الفرنسيين - أبلغ إيدن ماسيغلي أن الحكومة البريطانية "ترحّب بعقد اتفاق بين فرنسا ودولتي المشرق للتوصّل بحرية إلى

(1) Rene Massigli's note of 24 August 1944 and Anthony Eden's reply (FO 371/40302).

المعاهدتين اللتين أشار إليهما إعلانا الاستقلال، باعتبارهما الطريقة الملائمة لتحديد مستقبل العلاقة".

كان إيدن يقول الآن إن بريطانيا تدعم المطلب الفرنسي بتوقيع معاهدة، بينما نقل سبيرز إلى لندن مراراً وتكراراً أن الحكومتين اللبنانية والسورية لا تنويان توقيع معاهدة مع فرنسا أو إعطاءها امتيازات خاصة في بلديهما. أدت سياسة لندن المتناقضة، التي تقوم على دعم فرنسا فيما تظهر الاعتراف باستقلال دولتي المشرق، إلى إضعاف رياض الصلح والجنرال سبيرز، وسبّبت الكثير من المشكلات في وقت لاحق.

بناء على تعليمات مشدّدة من إيدن، كان على سبيرز (محاولاً إخفاء حرجه وغضبه الكبيرين) السفر إلى سوريا لإبلاغ الرئيس شكري القوتلي أن الوقت قد حان لعقد اتفاقية مع الفرنسيين. وقال إن سوريا ستحتاج إلى الدعم الاقتصادي والمادي ولن تحل بريطانيا مكان فرنسا في أي مجال. أثارت هذه المقولة المعاكسة لكل ما دعا إليه سبيرز في السابق، غضباً شديداً. أدان السوريون هذا الموقف باعتباره "خيانة تامة". وكانوا يدركون أن استقلالهم يعتمد على التوازن بين البريطانيين والفرنسيين: إذا سحب البريطانيون دعمهم فسيخسر السوريون. وجد القوتلي الغاضب نفسه مضطراً إلى كتابة رسائل إلى تشرشل وروزفلت وستالين يشجب فيها مراسلات إيدن - ماسيغلي، ويقارنها بالاتفاقات السرية التي حصلت في الحرب العالمية الأولى، وأدّت إلى الانتداب الكريه الذي فرض على سوريا. وأضاف القوتلي أن أي مفاوضات مع الفرنسيين ستكون غير مجدية، لأن سوريا "لا تريد منح فرنسا أي امتياز ثقافي، أو مادي، أو سياسي، أو عسكري". وأنها ترغب في التعامل مع جميع الدول، وبخاصة القوى العظمى، على أساس المساواة[1].

لا أوهام على الجبهة العربية

فيما كانت هذه المواجهات قائمة مع الفرنسيين، انشغل لبنان وسوريا أيضاً بالعلاقات بين العرب. كان رياض، باعتباره شخصية قومية عربية، على وفاق منذ عقود مع جميع الحكام العرب الرئيسيين. وأصبح واحداً منهم بصفته رئيس وزراء

(1) Spears to Foreign Office, 23 September 1944 (FO 371/40203).

لبـــنان، وسطع نجمه بانتصاره في مواجهة تشرين الثاني/نوفمبر مع الفرنسيين. فانهالت عليه الدعوات والتهاني من كل أنحاء المنطقة.

ســلّطت الأضــواء علــى لبــنان منذ انتخابات آب/أغسطس 1943، وشغل الصفحات الأولى للصحف العالمية خلال أزمة تشرين الثاني/نوفمبر. وأصبح لبنان، على صغر حجمه، حقل اختبار لسلسلة من الأفكار المثيرة. ضمت هذه الأفكار حق الدول الـصغيرة بالاســتقلال والديمقــراطية، وصــدق أهداف الحلفاء في الحرب، وميثاق الأطلسي - الإعلان الشهير لروزفلت وتشرشل في آب/أغسطس 1944 الذي أكّدا فيه "حق جميع الشعوب في اختيار شكل الحكومة التي تحكمهم". وقد حاول رياض الصلح مــراراً الإشــارة إلى ميثاق الأطلسي في خطاباته، لتبرير مطالبة لبنان بالاستقلال عن فرنسا.

قــام ريــاض بعــد استلامه رئاسة الحكومة، بعدة زيارات إلى البلدان المجاورة، وكانــت ترمز إلى الانبعاث العربــي. بدأ بزيارة القاهرة في كانون الثاني/يناير 1944، حــيث حــلّ ضيفاً على الملك فاروق، وأجرى محادثات مع رئيس الوزراء مصطفى النحاس باشا. تلت هذه الرحلة زيارتان إلى حيفا ودمشق، في نيسان/أبريل وأيار/مايو إلى بغــداد والــرياض أيضاً. استُقبل رياض الصلح والوفد المرافق بحفاوة كبيرة حيثما حــلّ، وضــمّ الوفد وزير الخارجية اللبناني سليم تقلا، وموسى مبارك، مدير مكتب الرئيس بشارة الخوري.

تمحــور الموضــوع الرئيسي للمباحثات في هذه الرحلات حول احتمال الوحدة العــربية. فقد برز هذا الموضوع إلى الواجهة مع النهاية الوشيكة للحرب. نظرياً، كان جمــيع الزعماء العرب يريدون الوحدة العربية، لكن الأمر مختلف من الناحية العملية. فكــل زعــيم يخــشى أن تحــدّ الوحدة من حريته في التصرّف، أو تضعه تحت رحمة خــصومه. وكان رياض الصلح يعرف كل الأسرار والخصومات والهواجس الجغرافية السياسية لمختلف زعماء العرب، نظراً إلى تمرّسه في السياسة العربية.

عرف رياض، على سبيل المثال، كما علم كل عربــي يُعنى بالسياسة، أن الملك السعودي عبد العزيز ابن سعود في خصومة مريرة مع الهاشميين. وهذا الصراع يعود إلى سنة 1925 عندما سيطرت قوات ابن سعود على مكّة، وأخرجت الشريف حسين من

الحجاز إلى المنفى في قبرص. فأخذ ابن سعود لقب ملك الحجاز وأضافه إلى لقبه أمير نجد. ثم حصل على اعتراف رسمي من بريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفياتي، بالإضافة إلى اعتراف المسلمين بدوره الجديد كحامي المدينتين الإسلاميتين المقدستين.

على الرغم من هذه النجاحات، واصل ابن سعود ارتيابه بالهاشميين، وبخاصة بعدما أصبح عبد الله، أحد أبناء الشريف، أميراً على شرق الأردن (وفي ما بعد ملكاً). وأصبح ابنه الآخر، فيصل، ملكاً على العراق. نتيجة لذلك، قرر ابن سعود النأي بنفسه عن كل مخططات الوحدة العربية، واعتبارها توسّعاً هاشمياً ليس إلا على حدود مملكته.

كان الجميع يعرف أن الأمير عبد الله يطمح إلى تولّي عرش سوريا، ثم دمج ذلك البلد مع شرق الأردن وفلسطين ولبنان في اتحاد سوري كبير. وقد عُني عبد الله بهذا المطمح منذ أن تسلّم شقيقه الأصغر، فيصل، عرش العراق، وهو البلد الذي خصه به المؤتمر السوري الأول المنعقد في دمشق في آذار/مارس 1920. ثابر عبد الله طوال عقود على التخطيط لاجتذاب سوريا إلى فلكه، لكن دون نجاح. وتجددت آماله بعد موت فيصل في سنة 1933، ما جعله رأس العائلة الهاشمية، وهو مركز أمل أن يعزّز فرصه في نيل عرش سوريا. في تموز/يوليو 1938، اقترح عبد الله على هارولد مكمايكل، المندوب السامي البريطاني في فلسطين وشرق الأردن، إمكانية حلّ المسألة الفلسطينية التي تزداد صعوبة بإقامة مملكة عربية تضم شرق الأردن وفلسطين. وفي صيف 1939، أطلق خطةً مماثلة واضعاً نصب عينه ضم سوريا ولبنان إلى مملكته المقترحة[1].

بيد أن اعتماد عبد الله مالياً على بريطانيا والاشتباه بتعامله مع الصهاينة، أضعفا حجّته كثيراً. فقد اعتُبر أنه يسعى لتحقيق طموحات عائلية أنانية، بدلاً من الأهداف القومية الكبرى. وقد عارضه الفرنسيون وابن سعود والوطنيون السوريون، بل إن بريطانيا، البلد الذي يرعاه ويسانده، لم تكن متحمسة لطموحاته. وحثّته على الاكتفاء بإقطاعته الصحراوية التي تخدم المصالح البريطانية، وتشكل قاعدة للجيش العربي الذي كان يقوده ضبّاط بريطانيون.

(1) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, pp. 103 ff.

واجـه عـبد الله منافـسة شرسة من بغداد أيضاً. فقد رأى الوصي على العرش عـبد الإلـه، ابن اخيه، ونوري السعيد، رجل الدولة العراقي البارز، أن العراق مؤهّل أكثـر من شرق الأردن لقيادة أي وحدة عربية مقترحة. ولدى العراق عائدات نفط متـزايدة، وجيش متوسّع، وعضوية في عصبة الأمم، وأيديولوجية قومية ذات جاذبية خـارج حدوده. غير أن هذين المخططين الهاشميين اصطدما بمعارضة قوية من الرياض وباريس ولندن، فضلاً عن القاهرة.

في العـشرينيات والثلاثينيات، لم تكن مصر مهتمة كثيراً بشؤون البلدان العربية الأخـرى. والاستثناء الوحيد لذلك هو السودان الذي طالما اعتبرته امتدادها الطبيعي، لأن أمـن نهر النيل من الأمور الأساسية التي تشغل اهتمام المصريين. لكن عندما تسلّم النحّاس باشا، زعيم الوفد، السلطة في سنة 1942، سعى إلى تعزيز موقع مصر الإقليمي ومركزه الشخصي بأداء دور رائد في النقاش المتنامي بشأن الوحدة العربية. فدعا وفوداً مـن البلدان العربية إلى القاهرة للتباحث، تحضيراً لمؤتمر أمل أن ينتج عنه إجماع بشأن الشكل الذي ستتخذه الوحدة العربية.

كـان الـنحّاس والملك فاروق يعرفان أن طموحات الهاشميين - سواء تلك التي يسعى إليها الأمير عبد الله أو عبد الإله ونوري السعيد لإنشاء سوريا الكبرى أو وحدة الهلال الخصيب - تتعارض مع مصالح مصر في دورها الطموح الجديد باعتبارها القوة العـربية الأبـرز. ونـشوء تكتّل كبير في البلدان العربية الآسيوية يشكّل تحدّياً للنفوذ المـصرية في شـرق المتوسط. وهكذا أصبح منع حدوث مثل هذا التطوّر من المبادئ الدائمة للسياسة الخارجية المصرية.

اتّـبعت مصر بعد ذلك سياسة معارضة أي شكل من أشكال الوحدة بين دولتين أو أكثر من الدول العربية. واقترحت بدلاً من ذلك شيئاً أكثر تواضعاً: عائلة ممتدة من الـدول العـربية المستقلة التي تتجمّع حول "الشقيقة الكبرى" مصر. ويمكن بعد ذلك تعبئة هذا التجمّع في الأوقات الملائمة دعماً للأهداف الوطنية المصرية. وقد بلغت هذه الـسياسة أوجها عندما دخل عبد الناصر في صراع مع القوى الغربية في الخمسينيات والستينيات. وكانت الوحدة التي أقامها عبد الناصر مع سوريا (1958-1961) ابتعاداً وجيزاً عن هذه السياسة، وانحرافاً ندم عليه لاحقاً. فقد فرضتها عليه القيادة العسكرية

السورية الحاكمة في ذلك الوقت، لأنها شعرت بحاجة إلى حماية عبد الناصر المحبوب جماهيرياً، بالإضافة إلى المنظّرين الإيديولوجيين لحزب البعث.

إلى جانب الاختلافات الاستراتيجية الواسعة بين الدول العربية الرئيسية، تدهورت العلاقات بين تلك الدول بسبب الكراهيات الشخصية، التي كان على رياض أن يأخذها في الحسبان في اتصالاته مع العرب. كان الملك فاروق يكره النحّاس باشا، الذي فرضه عليه البريطانيون عندما وصل رومل إلى حدود مصر. وعندما زار رياض والوفد اللبناني مصر، وصف أحد رجال حاشية الملك فاروق النحّاس باشا بأنه "إميل إده مصري" لأنّه استلم منصبه "بقوة مدافع الدبابات البريطانية".

من لحظات السرور النادرة التي شعر بها رياض في أثناء زيارته القاهرة سنة 1944 لقاؤه بصديقه مكرم عبيد ثانية. كان عبيد محامياً قديراً تخرج في أكسفورد وشخصية لامعة في الطائفة القبطية. وقد تفاوض على معاهدة 1936 البريطانية المصرية بوصفه الأمين العام لحزب الوفد. ولكنه انسحب من الوفد بعد خلافات مع بعض معاوني النحاس، وأنشأ "الكتلة الوفدية" قبل سنة من زيارة رياض. غير أنه ظل متمسكاً باعتقاده الذي جذب رياض الصلح، وهو أن المصريين عرب وأن الوحدة العربية والتضامن العربي هما الشرطان الأساسيان للنهضة العربية في العصر الحديث[1].

كانت هناك عداوات مماثلة في العراق، حيث عبد الإله ونوري السعيد يكره أحدهما الآخر. مع ذلك، فإن كلاً منهما بحاجة إلى الآخر لاستعادة السيطرة على العراق، بعد قضاء بريطانيا على ثورة رشيد عالي في سنة 1941. ولم تكن هناك مودّة بين نوري السعيد العراقي والنحّاس باشا المصري، فقد تنافس كل منهما على فرض رؤيته على العالم العربي بشأن الشكل الذي تتخذه الوحدة.

ظل ابن سعود، الشخصية القوية في شبه الجزيرة العربية، ينظر إلى خطط الوحدة بارتياب كبير. لم يكن متحمّساً للمؤتمر العربي الذي أراد النحاس باشا عقده. كان لديه بعض الشخصيات التي يفضّلها في العالم العربي. فقد أحب رياض الصلح

(1) أحمد غسان جودة، **المكرميات**، القاهرة، لا تاريخ، ص 147 - 150، نقلا عن Anouar Abd el-Malek, *Anthologie de la littérature arabe contemporaine*, 2 vols, Paris 1965, vol. II, pp. 126-7.

والرئيس السوري شكري القوّتلي وقدّر شجاعتهما ووطنيّتهما. لكنه لم يكن يثق بوزير الخارجية السوري جميل مردم، واعتقد أنّه متأثر بنوري السعيد.

كأن الخلافات البينية العربية لم تكن كافية، فواجه رياض وضعاً داخلياً لا يبعث على الرضى في المشرق. وشعر بالإحباط من انقسام أصدقائه السوريين - قادة الكتلة الوطنية الذين عمل معهم عن قرب طوال عقود - بسبب الصراعات الشخصية وتنافس المصالح بين مدينتي حلب ودمشق. وغالباً ما سعى للتوسّط في ما بينهم. كما كانت وساطته مطلوبة في فلسطين، حيث استمر الاقتتال بين الحسينيين والنشاشيبيين، وغالباً ما أوقع قتلى في صفوفهم. وقد أدى هذا الانقسام المفجع إلى جعل الفلسطينيين فريسة سهلة للصهاينة.

جدّد رياض معلوماته عن العديد من هذه العداوات والخصومات في الزيارات العربية التي قام بها في سنة 1944. في مصر، ذكّر بالتوتّر الشديد بين الملك فاروق والنحّاس باشا، على الرغم من أنهما بالغا في الترحيب به. كما أنه لاحظ أن المصريين لم يكونوا في ذلك الوقت مهتمين كثيراً بالمسألة الفلسطينية. فدافع رياض عن القضية الفلسطينية في اجتماعاته الرسمية مع النحّاس، ورأى أن على الدول العربية الاتصال بالزعماء الفلسطينيين، واعتماد الحلول التي يوصون بها، ومحاولة منع المزيد من الهجرة اليهودية وشراء الأراضي، والمساعدة في تشكيل حكومة وطنية فلسطينية. وأبلغ رياض السفير البريطاني، لورد كيليرن Lord Killearn، أن "المباحثات بشأن الوحدة العربية غير مجدية إذا لم يستطع الممثلون الفلسطينيون المشاركة فيها"(1). كما لاحظ رياض أن اهتمام مصر لم يكن يتركّز على فلسطين بالدرجة الأولى، بل على إحباط قيام أي ائتلاف عربي في القسم الآسيوي من العالم العربي، لأنها تخشى من وقوعه تحت سيطرة القيادة العراقية.

في طريق العودة من مصر، توقف الوفد اللبناني المكوّن من رياض الصلح وسليم تقلا وموسى مبارك في حيفا للاجتماع بالقادة الفلسطينيين. وقد فوجئوا عندما علموا بوجود نوري السعيد الذي كان يعالج في مستشفى هناك. فاغتنم الفرصة ليشرح لهم خطته بشأن وحدة "الهلال الخصيب" التي ستمتد من العراق إلى سوريا، ومن لبنان إلى

(1) Killearn to High Commissioner Palestine, 16 January 1944 (FO 371/39987).

فلسطين من دون عوائق حدودية. وقال إنّها ستكون وحدة تريد أن تؤدّي بغداد دوراً أساسياً فيها. فلم تلقَ هذه الأفكار ترحيباً من الوفد اللبناني، الذي كان حريصاً على المحافظة على الاستقلال الهشّ الذي جهدوا لتحقيقه.

لم تحقّق زيارات رياض إلى القاهرة وحيفا وبغداد والرياض أي نتائج ملموسة. وفي أثناء زيارة دمشق، تعهّد رياض لأصدقائه الوطنيين ألا يوقّع لبنان أي معاهدة مع فرنسا، أو يوافق على إقامة قاعدة عسكرية فرنسية في لبنان، قد تشكّل تهديداً لسوريا. ولعلّ ذلك هو ما عناه في بيانه الحكومي في العبارة التي طالما كرّرها، بأنّ لبنان لن يكون "ممراً للاستعمار" إلى البلدان العربية المجاورة.

في كل تلك العواصم العربية، ذُكّر رياض ثانية بالحدود التي لن يتجاوزها الزعماء العرب في ما يتعلّق بالوحدة العربية. لا شك في أنه شعر بخيبة الأمل بصفته قومياً عربياً قديماً، لكن ذلك ربما يلائم مصالح بلده بصفته رئيساً لوزراء لبنان. ولأنه يدرك خوف المسيحيين في لبنان من الغرق في المحيط الإسلامي، أشار بجفاء إلى أن الخطة المصرية المفرطة في التواضع لإنشاء اتحاد فضفاض بين الدول العربية هي ما يمكن إقناع المسيحيين في بلده بقبوله.

تطوّر موقف رياض بشكل ملحوظ منذ الثلاثينيات. ففي شبابه، كان يحلم بتحقيق الوحدة السورية كخطوة أولى نحو الوحدة العربية الأوسع. لكن عندما دخل المعترك السياسي في لبنان، ووضع الوصول إلى السلطة في بيروت نصب عينيه، اضطر إلى تعديل موقفه ليأخذ في الحسبان الرأي العام المحلي الذي يتضمّن الرأي المسيحي إلى حدٍّ كبير. ودُعي الآن إلى تحقيق الأهداف اللبنانية بدلاً من الأهداف القومية العربية. وما ظنّ أنه مجرّد محطّة على الطريق، بدأ يبدو كأنه وجهة نهائية. لذا فإنه دعا الآن إلى استقلال لبنان بحدوده الموسّعة في سنة 1920 بصفته وطنياً لبنانياً. وأصبح التحدّي الذي يواجهه اجتذاب مسلمي لبنان لدعم الدولة اللبنانية الجديدة.

لاحظ رياض باكراً أن السعي إلى تحقيق استقلال لبنان يجب أن يقوم على تقاسم السلطة بين المسلمين والمسيحيين[1]. وشكّل الميثاق الوطني الذي صاغه مع بشارة الخوري تعبيراً عن هذا التفاهم الذي بنى عليه برنامجه السياسي. وللمحافظة على تأييد

---

(1) انظر شهادة نصري المعلوف في Khoury (ed.), *Salim Takla*, pp. 510 ff.

المسيحيين، لم يكن لديه خيار سوى معارضة الخطط الساعية لتحقيق وحدة عربية إقليمية، والدفاع عن السيادة والاستقلال وسلامة أراضي دولة لبنان الكبير. وباستطاعة لبنان التعاون بحرية مع الدول العربية الأخرى ضمن هذه الحدود الصارمة، وكانت هذه الصيغة الحذرة الطريق الوحيد للإبقاء على الائتلاف الداخلي.

لم يقتنع بعض المسيحيين بصدق دفاع رياض الصلح عن لبنان. واستاء بعض المسلمين اللبنانيين والعديد من أصدقائه في الكتلة الوطنية السورية من موقفه الجديد. فاتهموه بالتخلي عن مُثُله القومية من أجل السلطة. ومع ذلك لم تكن أي دولة عربية مستعدّة للتخلّي عن سلطاتها السيادية من أجل وحدة عربية واسعة أو اتحاد فيدرالي. ولم يكن لبنان استثناء في رغبته في حماية استقلاله بالطريقة نفسها تقريباً. فقد استبعدت الشكوك المستوطنة التي يكنّها الزعماء العرب بعضهم لبعض أي احتمال لتحقيق الوحدة العربية.

بروتوكول الإسكندرية

في آب/أغسطس 1944، ألقى رياض الصلح خطاباً في مؤتمر المحامين العرب في دمشق عبّر فيه عن آرائه بقوة.

لبنان بلد عربي، كما أعلنت حكومته في بيانها الوزاري الذي أجمع عليه كل اللبنانيين وأصبح ميثاقه الوطني.

لن يكون لبنان إقطاعية للاستعمار، أو يكون ممراً لقوى الاستعمار إلى الدول العربية الأخرى - إلى بلدكم مثلاً!

سيذهب لبنان المستقل الذي اعترفتم باستقلاله إلى الحد الذي تذهبون إليه أنتم أنفسكم...

أقول إنّ على لبنان والعرب والشعوب الأخرى الاستماع إلى ما سأقول... من وجهة نظري، إن الوحدة العربية هي الضمانة لاستقلال كل بلد يعتنقها ضمن الحدود التي يضعها لنفسه. ينغمس بعض الناس في إعداد المؤامرات، ويقال إن سوريا والعراق اتفقا على ابتلاع لبنان. هذا كذب وافتراء. لا يحصل شيء من هذا النوع ولن يحصل...

خـــلال حملتي الانتخابية قلت لإخواني الذين يشاركونني الرأي: لبنان ليس على المسار الذي نرغبه. يتبع المسلمون والمسيحيون مسارات مختلفة، ومن واجبنا أن نوحد مسارهم تحت راية الاستقلال.

لقد قمت بحملتي على هذا الأساس، وقبلت برئاسة الحكومة، وعملت مع إخواني مـــن أجل استقلال لبنان. حققنا هدفنا ورفعنا العلم الوطني عالياً، ومنحنا المرتبة الأولى للغـــة العـــربية الـــتي أصبحت لغة البلاد الرسمية الوحيدة، وحررنا الدستور من جميع الشوائب...

دعوني أخاطب الشعب اللبناني... اعترف إخواني في الدول العربية باستقلالكم، شرط أن يتعاون لبنان مع الدول العربية – ضمن إطار استقلاله وحدوده وسيادته.

ســـأجد نفـــسي، من دون شك، في موقف صعب في الكفاح مع زملائي الذين يعتقدون أنني أصبحت "إقليمياً". لكن يجب أن أقول الحقيقة اليوم وهي أن جميع الدول العربية تفهم الوحدة كما يفهمها لبنان. هذه هي الحقيقة[1].

بـــين 25 أيلول/سبتمبر و7 تشرين الأول/أكتوبر 1944، اجتمعت الوفود العربية، بدعـــوة مـــن مصر، في الإسكندرية فيما عُرف باللجنة التحضيرية للمؤتمر التأسيسي لجامعـــة الـــدول العربية[2]. ترأس رياض الصلح الوفد اللبناني إلى مؤتمر الإسكندرية، وألقى سليم تقلا كلمة لبنان.

ناقـــشت الوفود ثلاثة أشكال مختلفة للتعاون: وحدة مركزية، ووحدة فيدرالية، ووحدة كونفيدرالية. رفض رياض الصلح أي نوع من الفيدرالية، لأنها ستقسم لبنان، فيما تضغط فرنسا لتوقيع معاهدة تضمن لها الامتيازات التي طالما تمّتعت بها. وقد تمكّن لبـــنان من مقاومة هذه الضغوط بفضل التحالف بين وطنيه العرب والكتلة الدستورية بقيادة بشارة الخوري. لكن إذا ضغط الوطنيون العرب على لبنان للقبول بحل فيدرالي، فستنـــسحب الكتلة الدستورية من هذا التحالف على الفور. وسيفتح ذلك الطريق إلى معاهدة مع باريس تعزّز النفوذ الفرنسي في المشرق، وتشكل خطراً كبيراً على سوريا.

(1) البشير (دمشق)، 17 آب/أغسطس 1944. تقرير عن خطاب رياض الصلح في مؤتمر المحامين العرب.

(2) Raghid el-Solh, 'Selim Takla et la Creation de la Ligue Arabe', in Khoury (ed.), *Salim Takla*, pp. 341-3.

سرعان ما اتضح أن اجتماع الإسكندرية سيحقق أهدافاً محدودة فقط. ولم يجمع هذا الاجتماع سوى على إنشاء رابطة للدول فضفاضة أكثر من اتحاد كونفدرالي. ذلك هو المعنى الحقيقي لبروتوكول الإسكندرية الذي وقّع في نهاية الاجتماع. وبعد إجراء مزيد من التعديلات، وتخفيف الأهداف الوحدوية، أسهم هذا البروتوكول في إنشاء جامعة الدول العربية في القاهرة في آذار/مارس 1945.

الفرنسيون يردّون

ردّ الفرنسيون، ومؤيدوهم المسيحيون المتشدّدون في لبنان، بعنف على نتائج مؤتمر الإسكندرية، على الرغم من تواضعها الشديد. تشجّع الجنرال بينيه، المندوب العام الفرنسي، بردّ إيدن على ماسيغلي، وهو الردّ الذي دعمت فيه بريطانيا الطلب الفرنسي بإبرام معاهدة، فافتعل أزمة مع الحكومة اللبنانية بإرسال ملاحظة متهوّرة وقطعية إلى الرئيس بشارة الخوري. ادعى أن بروتوكول الإسكندرية يقيّد لبنان، ويحول دون احتمال إبرام معاهدة مع فرنسا. ونتيجة لذلك، فإن الفرنسيين يعتبرون إعلان كاترو استقلال لبنان وسوريا في سنة 1941 لاغياً.

كان هذا الموقف مبالغاً فيه حتى للبريطانيين ذوي العقلية الاستعمارية. فسارعت وزارة الخارجية في لندن بإعطاء تعليمات لسفارتها في باريس لمناقشة الأمر مع وزير الخارجية الفرنسي الجديد جورج بيدو Georges Bidault[1]. كتب القائم بالأعمال البريطاني في فرنسا هولمان A. Holman إلى بيدو: "إن حكومة صاحب الجلالة، لا ترى في قرارات بروتوكول الإسكندرية ما يمكن اعتباره إضعافاً لاستقلال الدول المعنية. وإن حكومة صاحب الجلالة لا يمكنها في أي حال من الأحوال قبول الاقتراح الذي تنطوي عليه رسالة بينيه إلى الرئيس اللبناني والذي يقضي بإعادة النظر في استقلال دولتي المشرق"[2].

---

(1) Foreign Office to Paris, 20 October 1944 (FO 371/40112).

(2) A. Holman, British Chargé d'Affaires to M. Georges Bidault, Minister of Foreign Affairs, 24 October 1944 (FO 371/401123).

طالب اللبنانيون بسحب مذكرة بينيه على الفور، وأدلى رياض ببيان حماسي في مجلس النواب:

لقد أصبحنا مستقلين لأننا أردنا الاستقلال، ولأن الدول العربية وقوات الحلفاء قد اعترفت باستقلالنا. هذا واقع لا يقبل التحدي...

ستتمسّك باستقلالنا وندافع عنه مهما كان الثمن. تشرين الثاني/نوفمبر بالنسبة إلينا هو شهر حافل بالأحداث. لقد خرجنا من تشرين الثاني/نوفمبر الماضي سالمين غانمين، وسنتخطى تشرين الثاني/نوفمبر الحالي سالمين غانمين أيضاً.

أما بالنسبة إلى توقيع المعاهدة مع فرنسا، فقد قلت، وقالت الحكومة اللبنانية، إن لبنان لا ينوي توقيع أي معاهدة مع أي سلطة أو دولة. نحن عازمون على الذهاب إلى مؤتمر السلام متحررين من أي وعود أو معاهدات... لا يوجد سبب للخوف.

فصفّق النوّاب طويلاً لهذا البيان.

يتضح لأي مراقب شهد الحماسة الوطنية في دولتي المشرق، وتوق غالبية السكان العظمى للتخلص من الفرنسيين، أن أنتوني إيدن ارتكب خطأ فادحاً عندما شجع الفرنسيين على الضغط على دولتي المشرق لإبرام معاهدة. وكانت الحكمة تقتضي منه إبداء اهتمام بالتقارير التي يرسلها سبيرز أكثر من آراء المسؤولين المتحيّزين في لندن وغرائزهم المعادية للعرب. وكان سبيرز قد اقتبس عن رياض الصلح قوله إن الحكومة اللبنانية لم تعترف ولن تعترف به قط. كما اقتبس عن رئيس الوزراء السوري سعد الله الجابري قوله أمام البرلمان السوري، "لا للمعاهدة! لا للانتداب".

لكن أعداء سبيرز أخذوا يحشدون قواهم في لندن الآن. كما عمل على تقويض سياساته كبار المسؤولين في الدائرة الشرقية في وزارة الخارجية، وخاصة هانكي الذي كتب في كانون الأول/ديسمبر 1943 ما يلي:

تكمن المشكلة في إصرار السير إ. سبيرز على إخراج الفرنسيين بصورة تامة من المشرق، بغض النظر عن مفهومنا في لندن للمصالح البريطانية، أو تعليمات وزير الخارجية أو رئيس الوزراء. لقد أصبح من غير المجدي إرسال تعليمات إلى سبيرز، ولا

شك أنه سيحطّم مفاوضات الحلّ المؤقت [وتلك عبارة تلطيفية للإشارة إلى مفاوضات المعاهدة التي يريدها الفرنسيون] إلا إذا استدعيناه. هذه هي نصيحتي[1].

ومما يؤسف له أن أنتوني إيدن قرّر الأخذ بهذه النصيحة.

المشاكل التي واجهها رياض في رئاسة الوزراء

لم تكـــن مهمة رياض الصلح سهلة في رئاسة الحكومة. فإلى جانب الصراع الطـــويل مع الفرنسيين، حاول رياض إدارة بلد صغير ذي موارد محدودة، وطبقة سياســـية مشاكسة، وفساد كبير، وشكوك عميقة بين المسلمين والمسيحيين. وبعد بـــضعة أشـــهر من استلامه المنصب، واجهت حكومته احتجاجاً شاملاً على سوء الإدارة. تأخّر إقرار الميزانية وعدم النجاح في فرض ضرائب جديدة، وارتفاع تكلفة المعيـــشة والنفقات الحكومية، الحكومة، وتضخّم الوزارات بالتعيينات السياسية – كـــان الموظفون جهلة وقليلي الخبرة في أغلبيتهم، وانهماك الوزراء ومدراء الدوائر بما يُطلب منهم من خدمات. كان الوجهاء الصغار يشعرون أن من حقّهم دخول أي مكـــتب حكومـــي في أي وقت. وانتشر جوّ عام بأن الحكومة لا تنجز سوى القليل.

كانـــت بعـــض هذه المشاكل مستفحلة داخل النظام، حيث تمنح الوظائف على أســـاس الطائفـــة بدلاً من الكفاءة. ويرجع ذلك إلى الطائفية المترسّخة في البلد، وهي التقلـــيد الـــذي يقضي بأن تكون كل طائفة ممثّلة بحصّة وفقاً لعددها في كل الوظائف العامة. فلا تزال الصراعات الطائفية حديثة في الذاكرة للسماح للبناني العادي بالتخلّي عن حقوقه الطائفية لمصلحة حقوقه كمواطن لبناني.

يتحمّل رياض الصلح جزءاً من الملامة أيضاً. فقد كان الصوت البليغ الذي يدعو إلى التحـــرر، والمنظّـــر الاستراتيجي السياسي المميّز، لكن لم يكن لديه حس إداري. فحـــوّل جمـــيع الشكاوى الاقتصادية والمالية إلى عادل عسيران، وزير الإعاشة، الذي أصـــبح موضع النقد العام. وكان رياض يقول باستخفاف إنه لا يستطيع "القتال على جبهتين"، أي ضد الفرنسيين والمشكلات الداخلية.

---

(1) Minute by R.M.A. Hankey, 3 December 1943 (F0371/35194).

استقالت الحكومة في 1 تموز/يوليو 1944 لتخفيف الضغط الشعبي. فطلب الرئيس بشارة الخوري من رياض الصلح تشكيل حكومة جديدة، كما كان متوقّعاً. تولّى رياض حقيبتي الداخلية والتموين، وقدّم ضمانات أنه يعتزم إصلاح الإدارات، والاهتمام بالشؤون الداخلية بشكل صارم. وعيّن حميد فرنجية وزيراً للمالية، وهو زعيم ماروني بارز من زغرتا. وغادر كميل شمعون الحكومة ليستلم منصبه سفيراً للبنان في لندن، وحلّ محمد الفضل، وهو شخصية شيعية شابة غير معروفة من جنوب لبنان، محلّ عادل عسيران.

ربما تمكّن رياض من الاحتفاظ برئاسة الوزراء في ذلك الوقت بسبب صعوبة إيجاد شخصية سنية بديلة ملائمة. فمنافسه الرئيسي، زعيم طرابلس عبد الحميد كرامي، يعتبر قليل الخبرة والثقافة، ويفتقر إلى ثقة المسيحيين؛ ولم يكن عبد الله اليافي راغباً في المنصب، وأدرك سامي الصلح أن بريق ابن عمّه سيطغى عليه دائماً، وكان يُعتقد أن صائب سلام ليس جاهزاً تماماً لتولّي رئاسة الحكومة بسبب صغر سنّه، على الرغم من أنه مرشح ممتاز لحقيبة وزارية.

لكن الأمور لم تتقدّم بسلاسة. واجه رياض معارضة من داخل مجلس النواب وخارجه من ثلاث جهات: مجموعة نواب موالين لإميل إده بقيادة الدكتور أيوب ثابت وألفرد نقاش، وعدد من نواب جنوب لبنان بقيادة أحمد الأسعد، الذي أعاد إحياء المنافسة بين آل الصلح وآل الأسعد، وفئة معارضة صاخبة بقيادة توفيق عوّاد، الذي قيل إنه تلقّى مبلغاً من الفرنسيين لافتعال الفوضى.

يعتقد أن إميل إده عقد سلسلة اجتماعات مع "عملاء فرنسيين" لم تعرف أسماؤهم[1]. لا شكّ في أن كيفية التعامل مع إميل إده شكّلت صداعاً حقيقياً لرياض الصلح. أراد بعض النواب محاكمته بتهمة الخيانة العظمى بسبب تواطئه مع الفرنسيين في أحداث تشرين الثاني/نوفمبر. وأراد آخرون أن تصدر الحكومة قراراً بفصله من مجلس النواب. لكن رياض كان حريصاً على استرضاء مؤيدي إده بدلاً من إثارة غضبهم، كما كان مديناً لإده لأن الأخير أقنع الفرنسيين بعدم معارضته علناً في

(1) G. W. Furlonge, British Consulate-General, to British Legation, Beirut, 10 August 1944 (FO 226/252).

انتخابات آب/أغسطس 1943. سدّد رياض ذلك الدَّين بالمحاجّة بأن قضية إدّه تندرج تحت مادّة في قانون الانتخابات لسنة 1934 تنص على إقالة نائب، إذا وافق على تسلّم "منصب مدفوع الأجر" في الكنيسة أو الدولة. خسر إده منصبه لأنه وافق على استلام منصب من الفرنسيين في 11 تشرين الثاني/نوفمبر 1943، وحماه ذلك من تهمة الخيانة العظمى.

في الوقت نفسه، ضغط الفرنسيون، الراغبون في تأكيد سيطرتهم الثقافية، على الحكومة اللبنانية لتوقيع اتفاقية ثقافية، واعتماد المنهج الفرنسي في المدارس اللبنانية. وكانت فرنسا تحاول فرض شهادة البكالوريا وإقناع الحكومة اللبنانية بعدم الاعتراف بشهادات المدارس الأميركية أو البريطانية. وذلك يعني استبعاد كل من لم يحصلوا على مؤهّل تعليمي فرنسي من الوظائف العامة. ويشمل هؤلاء عشرات آلاف المسلمين اللبنانيين تعلّموا بالعربية أو الإنكليزية. وكان استبعاد هؤلاء السبب الحقيقي للخطوة الفرنسية من دون شك.

توتّر الوضع كثيراً حتى إن رياض الصلح بدأ يخشى على سلامته الشخصية. فارتفع عدد رجال الدرك الذين يحرسون مسكنه من أربعة إلى اثني عشر دركياً، كما وضع أربعة حرّاس مسلحين بالبنادق والرشاشات في أعلى أحد الأبنية المجاورة، وزوّدوا بتعليمات بمؤازرة رجال الدرك عند حدوث أي طارئ. وعند اقتراب نهاية السنة، زار ضابط في البحرية الفرنسية، الأميرال أوبوينو Auboyneau، رياض الصلح في مكتبه في السراي، ودعاه إلى حضور حفلة على متن سفينته إميل بيرتن Emile Bertin. فأجابه رياض ممازحاً: "أقبل الدعوة شرط أن نبقى على البرّ. في المرة السابقة نقلت إلى راشيا، هذه المرة قد يكون المكان أبعد بكثير".

سقوط إدوارد سبيرز

إذا وضعت مثل هذه المخاوف الشخصية جانباً، فإن مشكلة رياض السياسية الكبرى أن البريطانيين نأوا بأنفسهم عنه الآن، بعدما كانوا عوناً كبيراً له. ففي حين حاول الفرنسيون تحريض المسيحيين على المسلمين، ونشروا شائعات أن المسيحيين معرّضون لخطر الذوبان في تكتّل إسلامي بإيحاء من البريطانيين، وأن الفرنسيين

وحـــدهم يستطيعون إنقاذهم منه، فقد التزم البريطانيون صمتاً مريباً. توجّه سبيرز إلى لـــندن لإجراء محادثات صعبة في وزارة الخارجية. وفي غيابه، اتبع جيلبرت ماكيريث، القائم بأعمال المفوّضية البريطانية، نهجاً معادياً صراحة لسياسة سبيرز. وعندما اشتكى رياض الصلح لفيرلونج من أن الفرنسيين يشجّعون خصومه بالمال والسلاح والحملات الدعائـــية، نقـــل ماكيريث إلى هانكي أننا "نسمع عن هذه الأمور باستمرار - وهي سلسلة من الأخبار غير الواقعية وغير المدعّمة بما يثبتها عن أنشطة الفرنسيين"[1].

عند عودة سبيرز إلى بيروت في نهاية شهر آب/أغسطس 1944، قرر أنتوني إيدن أن يضع حداً نهائياً لعمله في المشرق. لم يكن سبيرز بالنسبة إلى إيدن وبعض المسؤولين في وزارة الخارجـــية مـــوفداً محباً للعرب لا يمكن إصلاحه فحسب، وإنما مبعوثاً شديد الاستقلالية أيضاً. كان يسعى إلى تحقيق أهداف سياسية شخصية، ويرفض اتباع النهج الـــسياسي الرسمي الذي احتقره لأنه خاطئ وجبان. وفي 1 أيلول/سبتمبر، بعث إيدن برسالة باردة ومزعجة إلى سبيرز، لا يمكن تفسيرها سوى أنها رسالة صرف من عمله.

> أمـــا وقـــد أوشكت الحرب على النهاية، من المهم جداً أن نبذل قصارى جهدنا لتمهيد الطريق للتوصل إلى اتفاق بين دولتي المشرق والفرنسيين، ما سيسمح لهم بإقامة العلاقات المستقبلية بينهم على أسس دبلوماسية عادية. لم أســـتطع إقناع نفسي بأن أي اتفاق رسمي أقل من معاهدة يمكن أن يحقّق هذا الهدف.
>
> لـــذا لن تهمل أي فرصة لإقناع الحكومتين المحليتين أننا لا ننظر إلى أن إبرام اتفـــاق مع الفرنسيين هو الطريقة الفضلى فحسب لتأمين استقلال تامّ غير متـــنازع فيه، بل ربما الطريقة الوحيدة. ويجب أن تبذل أيضاً ما في وسعك لتحقيق حل مؤقّت بين الدولتين والفرنسيين يمهد الطريق لتوقيع مثل هاتين المعاهدتين...
>
> سأتـــصل بـــك وبالوزيـــر المقيم في القاهرة، بعد فترة قصيرة، للتحقّق من تقلـــيص بعثة سبيرز إلى حد كبير، عن طريق استيعابها في المفوّضية، أو ضمّ ضـــبّاطها إلى القـــيادة العسكرية، أو إلغائها ببساطة، بحيث نصبح في نهاية

(1) G. Mackereth to R.M.A. Hankey, 5 September1944 (FO 3761/40112).

الحـــرب في وضع يمكّننا من إقامة علاقتنا مع دولتي المشرق على أساس لا تختلف عن العلاقات الدبلوماسية العادية[1].

انتظـــر ســـبيرز بضعة أسابيع قبل الردّ على هذا التنصّل الفاحش مما عمل جاهداً علـــى تحقيقه على مرّ السنين. فشعر أن من واجبه طمأنة أصدقائه، مثل رياض الصلح، إلى أن الأمور ليست سيئة كما تبدو عليه في الواقع، وتوديعهم، وتسوية أموره بعد أن أمـــضى أربـــع سنوات كاملة في بيروت. وفي 4 كانون الأول/ديسمبر، أعلنت وزارة الخارجـــية البريطانية أن سبيرز يريد استئناف واجباته كعضو في البرلمان البريطاني، لذا تقـــدّم بطلـــب الاستقالة من منصبه وزيراً مفوضاً لصاحب الجلالة في دولتي المشرق، وستصبح نافذة اعتباراً من 15 كانون الأول/ديسمبر.

في 8 كانون الأول/ديسمبر، بعث سبيرز برسالة أخيرة إلى أنتوني إيدن كرر فيها وجهة نظره بقوّة ودافع عن أعماله.

يطغـــى شعور واحد لدى كل الطبقات في البلدَيْن وهو كراهية الفرنسيين جملـــة وتفصيلاً. وهو ليس شاملاً، لأن فئات معيّنة من المسيحيين، لا سيما رجال الدين الموارنة في جبل لبنان وأتباعهم المقربين، بالإضافة إلى الأقليات في شمال وشرق سوريا، تشرّبوا الثقافة الفرنسية ولديهم خوف موروث لا يمكـــن الـــسيطرة علـــيه من سيطرة المسلمين، ما يدفعهم إلى الاعتقاد أن اســـتمرار السيطرة الفرنسية أفضل من الاستقلال... لكن المسلمين، الذين يـــشكلون 75 بالمـــئة مـــن السكان، وقسماً كبيراً من المسيحيين اللبنانيين مـــصممون، عاجلاً أم آجلاً، على التخلّص من الفرنسيين بأي طريقة. من الضروري التأكيد على هذه النقطة لأنّها جوهرية. ولا تستطيع أي حكومة منتخبة بحرّية في أي من الدولتين أن تقيم سياستها، في الحالة الحاضرة، على أساس مغاير لذلك.

... تدلّ جميع المؤشرات على أن الفرنسيين مصممون على استغلال النفوذ الـــذي ما زالوا يحتفظون به إلى أقصى حدّ، فضلاً عن فرض معاهدتين على الدولتين، بأي وسيلة متاحة، تضمنان سيطرة فرنسية فعلية تفوق تلك التي

---

(1) Eden to Spears, 1 September 1944 (FO 371/40347).

مُـــنحت لـــنا في العراق قبل اثنتي عشرة سنة... من الصعب إيجاد مسؤول فرنسي أو مواطن لديه أدنى تعاطف مع قيام الدولة السورية أو اللبنانية[1].

بعـــد ذلك، أوجز سبيرز شكاوى السكان العرب المحليين من البريطانيين: اســـتياؤهم مـــن التخلي عنهم أمام الفرنسيين في سنة 1920؛ وغضبهم من السياسة البريطانية المحابية للصهيونية في فلسطين؛ وصدمتهم في سنة 1941 مـــن فرض الفرنسيين الأحرار عليهم، وهم لا يختلفون في نظرهم عن نظام فيشي البغيض؛ وخيبة أملهم من عدم قيام البريطانيين بإجبار الفرنسيين على تنفـــيذ تعهّدهم بمنح الاستقلال بعد أن ضمنته بريطانيا. وأشار سبيرز أيضاً إلى وجود نقص شديد في القمح، وإلى ارتفاع أسعار السلع.

وتابـــع سبيرز: "بذلت وفريقي جهداً كبيراً لتحسين الوضع غير المواتي. في الـــبداية لم نتمكن من السيطرة على أخطاء نظام الفرنسيين الأحرار البديل والمرتجل وعجزه بسبب اتفاقات ليتلتون - ديغول". ثم وصف كيف تمكن مـــن تنظيم إمدادات القمح وتفادي حصول مجاعة. أما بالنسبة إلى الوضع الـــسياسي، فـــإن "ضغط حكومة صاحب الجلالة المتواصل على الفرنسيين الأحـــرار هـــو الـــذي أقنعهم بالموافقة على إعادة العمل بالدستور وإجراء الانـــتخابات". وعندما وقع الصدام بين اللبنانيين والفرنسيين نتيجة تصميم الحكـــومة اللبنانـــية الجديدة على إتمام استقلالها، فإن الإجراءات البريطانية وحدها، كما زعم، هي التي أنقذت لبنان من خسارة كل ما كسبه.

راجـــع سبيرز بعد ذلك المشكلات الكبيرة التي تواجه سوريا ولبنان قبل أن يختم قائلاً:

إنّ موقف الفرنسيين هو صلب المشكلة. لقد مضى الوقت الذي كان في وســـعهم الحـــصول فـــيه على معاهدتين تفضيليتين في سنة 1937، حين رفـــضوا إقـــرار معاهـــدتي 1936، وعـــندما سمحوا لتركيا بضمّ هاتاي [الإســـكندرونة سابقاً] أظهروا عجزهم عن تأمين الحماية للدولتين... إن اتجـــاه الـــسياسة الفرنسية بأكمله... يقود إلى نهاية محتملة واحدة. فقيام

(1) Spears to Eden, 8 December 1944 (FO 371/40307).

المندوبية العامة بتضخيم مطالب الأقلية المسيحية الخاضعة لنفوذها من خلال أبواقها الدعائية، سيطلق، عاجلاً أم آجلاً، الدعوة إلى "حماية المسيحيين في المشرق" كذريعة للمطالبة بتعزيز قواتهم العسكرية، وستطالبون بعد ذلك بمعاهدتين تقومان على شروط معاكسة للطموحات المشروعة للسوريين.

إذا تصرّفت فرنسا على هذا النحو، ووقفت بريطانيا جانباً، فستطلب سوريا المساعدة من الدول العربية والولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، وسيختفي النفوذ البريطاني بذلك إلى غير رجعة.

وختم سبيرز قائلاً:

من ناحية أخرى، إذا كنا على استعداد للاستمرار بدعم الدولتين المشرقيتين حتى تحقق أهدافهما، فإنني على يقين من أننا سنتمكّن من الاستفادة من حسن النية الذي حققناه لبناء موقع ثابت لنا يعزّز نفوذنا في الشرق الأوسط ككل.

لقد استرشدت طوال فترة عملي بهدفين رئيسيين، وعلى ممثلي صاحب الجلالة في الشرق الأوسط عدم إغفالهما: النجاح في متابعة الحرب، والمحافظة على موقعنا الاستراتيجي. سأترك للآخرين الحكم على مقدار نجاحي أو فشلي، لكن الأهداف لا يمكن التشكيك فيها، والسياسة التي أجملتها في الفقرات السابقة هي الأفضل لتحقيقها.

تجاهل إيدن رسالة سبيرز القائمة على المعرفة تجاهلاً تاماً. لقد أصدر حكمه أن سبيرز مثير للمشاكل. لذا أصدر تعليمات إلى ترانس شون Terence Shone، خليفة سبيرز في المشرق، بتسهيل إبرام "اتفاق رسمي بين دولتي المشرق وفرنسا... ولا أرى أن هناك حلاً أفضل للوضع الحالي". وأضاف إيدن كاشفاً عن دوافعه الداخلية، "أن المصالح الفرنسية والبريطانية في المشرق غير متعارضتين في الجوهر... لكن هناك تراثاً طويلاً من العلاقات السيّئة بين فرنسا وبريطانيا العظمى في المشرق. وإنني أتوق لإنهاء هذا الوضع"(1).

(1) Eden to Shone, 20 December 1944 (F O37 1/40347).

تلقى إيدن بعد فترة قصيرة ضربةً من اللورد كيلرن، السفير البريطاني في القاهرة، عندما بعث برسالة أكثر قساوة من رسالة سبيرز. حذّر كيلرن من السياسات التي يتبعها إيدن، فجاء ذلك بمثابة دعم لسبيرز:

> يبدو أننا نتبع سياستين متناقضتين في الوقت نفسه. نحن نشجّع الوحدة العربية من جهة، وندعم الحركة الصهيونية في فلسطين والهيمنة الفرنسية في سوريا من جهة أخرى. ويبدو من المؤكد أن سياساتنا المتصلة بسوريا وفلسطين والوحدة العربية ستتعارض معاً عما قريب.
>
> في ما يتعلق بسوريا ولبنان، أُدرك أن سياستنا هي الضغط على هاتين الدولتين لتوقيع معاهدة مع فرنسا تعطي الأخيرة موقعاً مميزاً وقواعد عسكرية. ولن تقبل سوريا ولبنان هذه السياسة إلا بالإكراه، بغض النظر عن الانقسامات الداخلية التي قد تتمكّن فرنسا من افتعالها.
>
> لقد وقّع اللبنانيون على بروتوكول يمنعهم من توقيع أي معاهدة مع فرنسا قد تجعل لبنان رأس جسر لفرنسا ضد سوريا، ولن يتجرؤوا على معاداة العالم الإسلامي بالإخلال بهذه الاتفاقية والوقوف إلى جانب فرنسا...
>
> إذا دعمنا فرنسا في مسألة المعاهدة، فسيباشر الفرنسيون تنفيذ ذلك بحماسة، وإذا واجهتها معارضة، فمن المرجّح أن يعمد ديغول، بما عرف عنه من ميل إلى الإجراءات العنيفة، إلى استخدام القوة ضدّ لبنان على الأقل، لفرض المعاهدة، ما لم نمنعه من القيام بذلك. لن تلزم قوة كبيرة في لبنان، يكفي القيام باستعراض للقوات البحرية...
>
> سنتورط في صراع مع تسعين بالمئة من العالم العربي، وسينتهي بنا الأمر إلى خسارة الشرق الأوسط، عاجلاً أو آجلاً...
>
> يوجد في الشرق الأوسط جميع أنواع المشكلات الوطنية. وسيتعين علينا أن نتعامل مع العديد من الصدامات المباشرة مع الوطنيين، حتى من دون وجود عبئي فرنسا والصهيونية الثقيلين...
>
> إنني أعتقد أن من المناسب إرسال هذه الملاحظة التحذيرية في ضوء مؤشرات على العدوانية الفرنسية... وقد تشكّل زيارة السفينة الفرنسية

إلى بـــيروت الخطـــوة الأولى لحملـــة فرنـــسية تهديديـــة قـــد تنتهي إلى العنف[1].

تجاهل إيدن هذه النصيحة الحكيمة أيضاً، مثلما تجاهل تحذيرات سبيرز. وكرّر في ردّه على كيليرن صيغته العنيدة والبالية: "ليس لدي في الوقت الحاضر بديل مرضٍ عن سياســـة تـــسهيل التوصّل إلى اتفاق بين الفرنسيين ودولتي المشرق، على الرغم من أن ترتيب ذلك صعب ويتطلّب وقتاً"[2].

كـــيف يمكن تفسير موقف إيدن؟ أظهرت أزمة السويس بوضوح بعد عقدٍ من الـــزمن، أن مـــوقفه نابع من كراهية العرب بالإضافة إلى شعور بالزمالة الإمبريالية مع فرنـــسا؛ وهـــي قـــوة مماثلة لبريطانيا، لكن تعاني مؤقّتاً من سوء الحظ. وكان التقدير الفطـــري الذي يكنّه إيدن لفرنسا أكبر بكثير من أي اهتمام أو تعاطف يشعر به تجاه اللبنانـــيين والسوريين الذين يتسمون بالبعد وإثارة الاضطرابات وعدم الأهمية النسبية. لقـــد تحرّرت باريس للتوّ وانتقل اهتمام لندن إلى أوروبا ما بعد الحرب، وتقلّص العالم العربـــي إلى استعراض ثانوي وتافه.

لم تستطع الحكومتان اللبنانية والسورية إخفاء حزنهما على رحيل سبيرز. فمنحتاه تكريماً لم يحظَ به أي أجنبـــي من قبل. أنعم عليه بلقب مواطن شرف في سوريا ولبنان على حدٍّ سواء. وقلّده الرئيس السوري شكري القوتلي وسام الأمويين، وقلّده الرئيس اللبـــناني بشارة الخوري وسام الأرز. وقد صرّح سبيرز، في عشاء وداعي أقامه رياض الـــصلح علـــى شرفه في فندق النورماندي، أنه ربما يكون فريداً في العالم لأنه مواطن شـــرف في دولـــتي المشرق. ورأى أن منح هذا التكريم لرجل واحد دليل عظيم على المـــشاعر الأخوية التي يكنّها لبنان وسوريا أحدهما للآخر، وذلك أكثر ما يبعث على سعادته.

تابـــع سبيرز بعد عودته إلى لندن الدفاع عن سوريا ولبنان في مجلس العموم ضد الفرنسيين. وصرّح في مقابلة مع صحيفة "صنداي إكسبرس" في 24 كانون الثاني/يناير 1945، أن ســـنوات الانتداب العشرين قد جعلت سوريا ولبنان مصممين على "عدم

(1) Cairo to Foreign Office, 25 December 1944 (F0371/114174).

(2) Foreign Office to Cairo, 5 January 1945 (FO 37 1/40307).

تعريض نفسيهما للخطر ثانية". لقد صمّما على عدم منح أي موقع مسيطر لأي قوة. وأضاف في انتقاد أخير لصديقه السابق الجنرال ديغول: "ما المبدأ الذي نقاتل من أجله ويخوّلنا فرض معاهدة عليهما"؟

أشارت مغادرة سبيرز المشرق إلى نهاية حقبة من الزمن. استقال رياض الصلح في 9 كانون الثاني/يناير 1945 بسبب اتساع الشكاوى من ارتفاع كلفة المعيشة، وعدم كفاءة الحكومة، وتخوّف المسيحيين من أن يضعهم بروتوكول الإسكندرية تحت سيطرة المسلمين، وهو البروتوكول الذي وقّعته سبع دول عربية في 7 تشرين الأول/أكتوبر 1944. كلّف الرئيس بشارة الخوري عندئذ عبد الحميد كرامي بتشكيل الحكومة، وهو المنافس السنّي الرئيسي لرياض وأحد الزعماء السياسيين الثلاثة الذين تولّوا رئاسة الحكومة قبل عودة رياض إلى السلطة في 14 كانون الأول/ديسمبر 1946.

ابتهج الفرنسيون برحيل السير إدوارد سبيرز ورياض الصلح. وأرسل الجنرال بينيه المغتبط تقريراً إلى جورج بيدو ذكر فيه أن "كراهية رياض الصلح المعلنة لفرنسا هي سبب سقوطه وخزيه... فقد منح الجنرال سبيرز هذا المسلم القومي سلطات كاملة لقيادة طابور خامس بغية إنهاء الموطن المسيحي الأخير في المشرق"[1].

قصف دمشق

تبيّن أن تحليل بينيه لم يكن أفضل من تحليل إيدن. وسرعان ما تصرف ديغول بطريقة وحشية كما توقع سبيرز وكيليرن. ففي أوائل كانون الثاني/يناير 1945، نُقلت الدبابات الفرنسية إلى دمشق، بينما وجّه المندوب الفرنسي العقيد أوليفا روجيه Oliva-Roget رسالة تهديدية إلى الحكومة السورية وقطع المفاوضات بشأن نقل القوات الخاصة. ردّت الحكومة معبّرة عن دهشتها تجاه اللهجة الفرنسية ومعددة الإجراءات العديدة التي اتخذها الفرنسيون ضد السوريين في الأشهر السابقة.

علم البريطانيون في نهاية شباط/فبراير أنّ الفرنسيين يخططون لنقل ثلاث كتائب من القوات الاستعمارية إلى المشرق على متن طرّادين "لإراحة القوات الفرنسية

(1) MAE, Nantes, Fonds Beyrouth (Amb.), série 199A4, carton 20, Général p. Beynet à M. Georges Bidault, 12 Janvier 1945.

وتعزيـــزها". وصل أحد الطرّادين إلى بيروت في 5 أيار/مايو، وعلى متنه 800 جندي ســنغالي. أقلقــت هــذه الخطوة القائد العام للقوات البريطانية فأبلغ القائد الفرنسي، الجنرال همبلو Humblot أنّه لن يأذن بدخول هذه التعزيزات "إلا إذا عُرض عليه تفسير لأسباب مجيئها"[1]. في 30 نيسان/أبريل، حذّر السفير البريطاني في باريس، داف كوبر Duff-Cooper، الجنــرال ديغول من المخاطر على الأمن العام إذا وصلت التعزيزات الفرنسية إلى بيروت، فيما المباحثات الفرنسية السورية توشك أن تستأنف. ردّ ديغول مشتكياً، وأبدى عدم استعداده لتقليص عدد الجنود الفرنسيين في المشرق بسبب وجود القــوات الــبريطانية هــناك. ثمّ كرّر اللازمة المعتادة أن السياسة البريطانية تسعى إلى إضعاف موقع فرنسا في سوريا بهدف الحلول محلّها هناك.

في 8 أيــار/مايو، كشف الجنرال بينيه الشروط الفرنسية للمعاهدة المقترحة: تبقى القوات الخاصة تحت الإمرة الفرنسية إلى أجل غير محدد، ولن يتم نقل قيادتها، وإجلاء القــوات الفرنــسية إلا بعــد أن تــبرم سوريا اتفاقيات ثقافية وعسكرية واقتصادية ودبلوماسية مع فرنسا. وبطبيعة الحال، رفضت الحكومتان اللبنانية والسورية التفاوض علــى هــذا الأســاس. في 14 أيار/مايو 1945، علمت الحكومة اللبنانية أن القوات الفرنسية أبحرت من تونس متوجهة إلى بيروت، حيث نــزلت بعد عدة أيام.

بعــد ذلــك بــوقت قصير، اجتمع الممثلون اللبنانيون والسوريون مع الموفدين الفرنــسيين في دمــشق وســط جــوٍّ من الإضرابات والاضطرابات في المدينة. كرّر الفرنــسيون مطالــبهم القاســية وغــير المنطقــية، فرفض لبنان وسوريا الدخول في مفاوضــات، وأدانــا نـــزول القوات الفرنسية. اندلعت مظاهرات عنيفة، ووقعت صدامات دامية بين المتظاهرين والقوات الفرنسية في كل من دمشق وبيروت. وعمّت الفوضـــى جميع الأراضي الخاضعة للانتداب. وخلال عشرة أيام، انهار القانون والنظام انهياراً تاماً.

في 27 أيار/مايو، أبلغت الحكومة السورية المسؤول السياسي البريطاني في دمشق، تريفور إيفانس Trevor Evans، أن الأوضاع أخذت تخرج عن السيطرة، وأن تشكيل

(1) Beirut to Foreign Office, Weekly Political Summary, 28 February 1945 (FO 371/45553).

حكـــومة ثورية تعلن الحرب على فرنسا قد أصبح احتمالاً حقيقياً. والحل الوحيد هو تـــسليم القوات الخاصة إلى السلطة السورية، وسحب القوات الفرنسية من المدن. في غضون ذلك، ترك عشرات السوريين القوات الخاصة، وانحازوا إلى جانب الحكومة.

انـــتاب التوتّر الشديد القيادة العسكرية الفرنسية في دمشق في ذلك الوقت. فقرر الفرنـــسيون اللجـــوء إلى القوة بناء على أوامر وجّهها ديغول إلى الجنرال بينيه. في 29 أيـــار/مايو، قامت وحدة مدفعية فرنسية متمركزة في المزة بقصف القلعة القديمة، وهي المركـــز الرئيـــسي للدرك، أي القوة الوحيدة الموضوعة في تصرّف الحكومة السورية. ســـقط عدد من القتلى والجرحى في صفوف نحو 150 دركياً متمركزين هناك، ولاذ الـــباقون بالفـــرار. وأصابت شظية قائدهم الأرمني، المقدّم هرانت. فقضى ذلك عملياً علـــى فعالـــية الـــدرك. بعد ذلك قصفت طائرة حربية فرنسية الموقع نفسه، فأصابت الـــسجن المدني الموجود في القلعة إصابة مباشرة، وقُتل اثنان وثلاثون سجيناً. فُتحت أبواب السجن وسُمح للسجناء الآخرين بالهرب. ويُعتقد أن الفرنسيين أرادوا التخلّص مـــن بعـــض السجناء المحتجزين هناك لقتلهم فوزي الغزي، بغية التغطية على تورطهم المحـــتمل في الجريمة قبل عدة سنوات. بعد إصابة المقدم هرانت، لم يبقَ في دمشق سوى الـــزعيم عبد الغني القضماني الذي يقود قوة من ستين عنصراً في السراي. وسرعان ما تعرّضوا للهجوم.

لم يعـــتقل الفرنسيون الرئيس السوري شكري القوّتلي أو أعضاء حكومته، ربما لأنّهم تعلموا من أزمة تشرين الثاني/نوفمبر 1943 في لبنان. ويبدو أنّ هدفهم الرئيسي كان ترويع المدينة وإرغام الحكومة على الاستقالة أو الهرب. وبعد ذلك يمكنهم تعيين حكومة تابعة. وهدد الفرنسيون بتدمير أي حي يثور عليهم من أحياء المدينة.

اســـتؤنف إطلاق النار الكثيف نحو منتصف الليل. وقصف الفرنسيون بعد مرور ســـاعة، أي نحـــو الأولى من صباح يوم 30 أيار/مايو، مبنى البرلمان السوري وسيطروا علـــيه. وقـــتلت حاميته التي يبلغ عددها 65 دركياً أو اعتقلوا، وتناثرت دماؤهم على الجـــدران في الـــداخل والخارج. وبعد ذلك قام الجنود الفرنسيون بنهب المبنى الأنيق. ووقع المزيد من القصف المدفعي في ذلك الصباح، وقصفت قلعة دمشق في وقت متأخّر من بعد الظهر.

وفي ليلة 30-31 أيار/مايو، قصفت قلعة دمشق مرة ثالثة، وكانت قذائف المدفعية تصفر فوق المدينة كل ثلاث أو أربع دقائق، وتتسبّب في اندلاع الحرائق. دمّرت قذيفة قطاراً للصليب الأحمر البريطاني في محطة سكة حديد الحجاز، وقُتل طبيب سوري يدعى الدكتور مسلم البارودي، عندما أطلق الفرنسيون النار على سيارته التي كانت تنقل المدنيين الجرحى إلى مستشفى فكتوريا التي كانت بإدارة إرسالية طبية بريطانية في القصّاع. وقد أرسل بعض المصابين بجروح خطيرة إلى المستشفى العسكري البريطاني خارج المدينة.

استمرّ تساقط قذائف المدفعية والهاون صباح 31 أيار/مايو، بينما جابت العربات المدرّعة الفرنسية الشوارع، وأخذت تطلق النار بصورة عشوائية. سيطر الفرنسيون بعد ذلك على المركز الرئيسي للشرطة في دمشق. أُخلي المدنيون البريطانيون والتابعون لدول الحلفاء من المدينة خلال هدنتين وجيزتين تم التفاوض عليهما في 30 أيار/مايو واليوم التالي، لكن الفرنسيين خرقوا الهدنتين. وقامت القوات الفرنسية بعمليات نهب واسعة، في حضور ضباطهم في الغالب.

في 31 أيار/مايو، أعلن أنتوني إيدن في مجلس العموم أن رئيس الوزراء ونستون تشرشل بعث في تلك الليلة بالرسالة التالية إلى الجنرال ديغول:

> في ضوء الحالة الخطيرة التي نشأت بين قواتك ودولتي المشرق، والقتال العنيف الذي اندلع، اضطررت بأسف شديد إلى إصدار أمر للقائد العامّ في الشرق الأوسط بالتدخّل لوضع حدّ لإراقة الدماء من أجل المصالح الأمنية للشرق الأوسط بأكمله، وهي تشمل الاتصالات الخاصة بالحرب ضدّ اليابان. ولتجنّب وقوع أي صدام بين القوات البريطانية والفرنسية، نطلب منك إصدار أمر فوري إلى القوات الفرنسية بوقف إطلاق النار والانسحاب إلى ثكناتها. وعندما يتوقّف القصف ويعود النظام، سنكون على استعداد لبدء محادثات ثلاثية في لندن.

عند الساعة الخامسة تقريباً من بعد ظهر 1 حزيران/يونيو، دخل رتل مدرّع بريطاني دمشق ففرح السكان المتعبون. أخلى الجنود الفرنسيون الشوارع، وتولّى البريطانيون الحكم العسكري بصورة مؤقّتة إلى أن تستطيع الحكومة السورية استئناف

القيام بمهامها الطبيعية. وفي مجلس العموم، سأل سبيرز، المستعد دائماً للدفاع عن دولتي المشرق وإحراج أنتوني إيدن، إذا كان في وسع الحكومة تقديم عدد الإصابات التي وقعت في صفوف العرب. فجاء الردّ الذي نقله رئيس الوزراء في 5 حزيران/يونيو كما يلي: قُتل 80 دركياً و400 مدني، وأصيب 500 بجروح بالغة، بالإضافة إلى 1000 جريح. وقدّر محافظ دمشق الخسائر المادية بنحو 25 مليون ليرة سورية. ومن المباني التي تضرّرت كثيراً البرلمان والقلعة والسراي وفندق أورينت بالاس ومسجد جنكيز، والمئات من المصانع الصغيرة والمؤسسات والمحالّ التجارية. كان بين المصابين عدد قليل من البريطانيين، بينهم الرائد سكوت - نيكلسون Scott-Nicholson الذي قتل برصاصة بندقية أمام فندق أورينت بالاس، والسيدة غراي، التي قتلت بسقوط شظية على سطح منزلها، وهي زوجة السيد غراي Grey، وكيل كنيسة الجيش الذي رفض بشجاعة أن يتم إجلاؤه.

في مؤتمر صحفي عقد في 2 حزيران/يونيو في باريس، لم يُبدِ الجنرال ديغول ندماً على ما حدث. وادعى أنّ المؤسسات العسكرية والمدنية الفرنسية تعرّضت للهجوم، فاضطرت القوات الفرنسية إلى الردّ لإعادة النظام. وألقى مسؤولية ما حصل على "الموقف الذي اتخذته الحكومة البريطانية على أعلى مستوى، أو اتخذه العملاء البريطانيون على مستوى منخفض". إن فرنسا ترغب في حماية مصالحها الثقافية والاقتصادية والعسكرية، لكنه قال بمرارة، "ثمة مصالح تتعارض مع مصالحنا بشكل لا يمكننا القبول به". أما بالنسبة إلى رسالة تشرشل التي فضّل عدم الردّ عليها، فإنها "لم تغيّر ولن تغيّر شيئاً" في الأوامر التي سيصدرها إلى القوات الفرنسية.

لم يخجل الجنرال بينيه من القصف الإجرامي للمناطق المدنية في دمشق. وأبلغ الموفد البريطاني أنه من الطبيعي إخضاع السكان المحليين ببعض العيارات النارية، إذا أثاروا المشاكل! من السخافة التكلم عن "الرأي العام السوري" لأنه غير موجود. لقد انتهت المسألة الآن، خرج الفرنسيون ودخل البريطانيون كما خططوا دائماً(1).

(1) Report by Mr. Donald Mallett, Regional Press Officer at His Majesty's Embassy in Paris, on his visit to Syria and the Lebanon, 7 July 1945 (FO 371/45576); General deGaulle's account of the Syrian crisis in his *Mémoires de guerre: Le salut, 1944-1946*, Paris 1959, pp. 186-96.

سبّب القصف الفرنسي لمدينة لا تستطيع الدفاع عن نفسها مرارة كبيرة في المشرق. وبلغت مشاعر الكراهية للفرنسيين حدودها القصوى. أبلغ الرئيس شكري القوّتلي، صاحب التاريخ الكبير الطويل والمشرّف في مقاتلة فرنسا، الوزير البريطاني ترانس شون عن تصميمه الذي لا يلين على التخلّص من النفوذ الفرنسي في بلاده إلى غير رجعة.

ما كانت الأمور لتأخذ هذا المنحى لو اتبع وزير الخارجية البريطانية أنتوني إيدن نصيحة الجنرال سبيرز، وقدّم دعماً ثابتاً لدولتي المشرق في استقلالهما الحديث العهد، بدلاً من تشجيع الفرنسيين على حماية "موقعهم المسيطر" بفرض معاهدة لا يمكن أن يقبلها أي سوري يحترم نفسه.

الفصل الثاني والعشرون

وداعاً للفرنسيين

شـــكّلت الانتدابات البريطانية والفرنسية، التي فُرضت على الولايات العربية في الإمـــبراطورية العثمانية عند تقسيمها بعد الحرب العالمية الأولى، كارثة مستمرّة. ففي فلـــسطين، نتج عن الانتداب البريطاني، إذا نظر إليه بعيون عربية، ظهور دولة إسرائيل في قلـــب المنطقة، وطردها معظم السكان العرب الفلسطينيين الأصليين بلا رحمة، ما أدى إلى عواقب رهيبة ومستمرّة على الاستقرار الإقليمي والسلام الدولي. وفي سوريا ولبنان، اعتُبر الانتداب الفرنسي كارثة سياسية وأخلاقية كبيرة. وعانى الشعب، طوال عـــشرين عامـــاً، من القمع الوحشي الذي توج بقصف مدينة دمشق القديمة في سنة 1945، وكان بمثابة العرض الأخير لإفلاس السياسة الاستعمارية الفرنسية.

شـــكّل قصف دمشق جريمة مروّعة، ونوبة عنصرية لسلطة استعمارية مهزومة. وقضى ذلك، إلى غير رجعة، على الطموح الفرنسي بالبقاء "قوة مسيطرة" في المشرق، والاحتفاظ بالامتيازات الثقافية والسياسية والاقتصادية والعسكرية بموجب معاهدة. لم يغـــادر الفرنسيون عن طيب خاطر بعد إخماد الحرائق الأخيرة، التي شرّدت العديد من العـــائلات، بمن فيها عائلات عريقة ومهمة، وأفقرتها. بل استغرق الأمر نحو سنتين أو أكثـــر من المفاوضات المريرة قبل مغادرة آخر جندي فرنسي جواً من بيروت، في 31 كانون الأول/ديسمبر 1946.

كـــان على اللبنانيين والسوريين الاعتماد على أنفسهم أخيراً، لكنهم لم يكونوا مستعدين تماماً لحكم أنفسهم وغير قادرين البتة على الدفاع عن أنفسهم. وعلى الرغم من الخطابات الحماسية التي يلقيها الزعماء، مثل رياض الصلح وشكري القوّتلي، فإن وضع بلديهما الفعلي كان مثيراً للشفقة. لقد أصرّ الفرنسيون على إدارة معظم نواحي الحكـــم بأنفـــسهم، لذا لم يُتح سوى لعدد قليل من الأفراد المحليين اكتساب أي خبرة إداريـــة ذات معـــنى. كـــان هناك نقص كبير في الرجال المدرّبين، وغياب تام للنساء

المـــدرّبات، مـــا حـــال دون سدّ الحاجة في الوظائف الرئيسية. وعشية الحرب العالمية الثانية، لم يكن هناك سوى 356 طالباً فقط في الدراسات العليا في سوريا[1].

باختصار، لم يترك الفرنسيون وراءهم إرثاً كبيراً يُحمدون عليه في سوريا ولبنان. ربمـــا وسّعت شبكة الطرقات بعض الشيء، وفُتحت أراضٍ واسعة للزراعة في منطقة الجزيـــرة السورية، وحدث تقدّم قليل في التعليم الابتدائي والخدمات الصحية. غير أن إحدى النقاط المضيئة هي إنشاء جامعة دمشق، أول مؤسسة للتعليم العالي في البلد، في العـــشرينيات، بمـــبادرة من الدكتور رضا سعيد ومجموعة من الأطباء والأكاديميين من ذوي العقليات المتماثلة. وقد أصبح الدكتور سعيد أول رئيس لها.

غـــير أن الإرث الفرنـــسي كان مفجعاً على العموم. اتسم بالتلاعب الفرنسي بالانتخابات، والفساد والرشوة، واللغط الدستوري والتغيير المستمرّ للحدود الإدارية، والـــنظام البرلماني الذي أفسده تعيين قسم من النواب والحلّ المتكرر للمجلس بأكمله كلما فشل الفرنسيون في تمرير مطالبهم. استعملت القوة للاحتفاظ بالبلدين وخاصة في سوريا في سنتي 1925 و1926، عندما سُحقت الثورة الكبرى بوحشية. وفي لبنان، جُرّ الرئيس المنتخب في تشرين الثاني/نوفمبر 1943 والعديد من أعضاء حكومته من أسرّتهم في منتـــصف الليـــل، ووُضعوا في السجن لتجرّئهم على تطهير الدستور من كلّ ما له علاقة بالانتداب المكروه (كما فعل فوزي الغزي في سوريا، ولعل من شبه المؤكّد أنه دفع حياته ثمناً لذلك).

بالإضـــافة إلى ثـــورات الغـــضب هذه، أثار ترهيب السكان المستمرّ باستخدام القوات الاستعمارية السنغالية استياء كبيراً، لا سيما أن أوامرها كانت تقضي بإرهاب الـــسكان، والتصرّف بأكبر قدر ممكن من الوحشية وانتهاك كل الحرمات الاجتماعية مـــثل دخول أجنحة النساء في المنازل، وترويع وإذلال النساء والأطفال. شكّلت هذه التـــصرفات مؤشراً بشعاً على فساد أساليب الإمبراطورية: استعمال شعب مستعمَر، (أفارقـــة مـــسلمين في هذه الحالة) لإخضاع وترهيب شعب آخر. لم تستطع النخب اللبنانـــية والسورية، وكثير منها على قدر عالٍ من العلم والرقيّ، تحمّل الإذلال اليومي للخضوع لحكم صغار الموظفين الفرنسيين الذين يتسمون بالجهل والغباء.

---

(1) Raymond, *La Syrie d'Aujourd'hui*, pp..82 ff.

عسكرياً، تُرك لبنان وسوريا من دون أي قوات مسلحة تذكر. كان جيشاهما ضعيفين من دون المعدات الفرنسية والضباط الفرنسيين، فواجها صعوبة في حفظ الأمن الداخلي، ناهيك عن خوض معركة بعد عامين مع الدولة اليهودية الجيدة التسليح والتدريب. كان الجيش اللبناني مكوّناً من 2000 عنصر فقط في سنتي 1945- 1946. وبدلاً من تعزيز الجيش السوري وتجهيزه وإعداده للحرب الوشيكة في فلسطين، فقد تقلّص عدده بين سنتي 1946 و1948 من 7000 إلى 2500 عنصر بسبب نقص الأموال[1]. ولعل السبب الآخر لتقليص قوة الجيش أن السياسيين السوريين الذين تسلّموا السلطة غداة الاستقلال - وجميعهم ينتمون إلى عائلات مرموقة من دمشق وحلب وحمص وحماة - شعروا محقّين بالارتياب من الولاءات السياسية والطبقية للعناصر التي خدمت تحت العلم الفرنسي، ومعظمهم شبان ريفيون ينتمون إلى الأقليات. فقد ملأ الفرنسيون القوات الخاصة بمثل هؤلاء الجنود، وبذلوا أقصى جهدهم لإبعادهم عن القومية العربية وتعزيز الروح الانفصالية لديهم بحيث لا يكون ما يجمعهم مع الإيديولوجية السائدة بين صفوف وجهاء المدن.

الأخطاء التي ارتكبها الفرنسيون

فشل الفرنسيون في سياساتهم بسبب ارتكابهم عدداً من الأخطاء الكبيرة. أولاً، لم تأخذ باريس التزاماتها بموجب الانتداب على محمل الجد. بنيت الانتدابات بعد الحرب العالمية الأولى على مبادئ ويلسون، وكان يفترض أن تقوم على أن تسترشد الولايات العثمانية السابقة بالمساعدة والنصح الذي تسديه لها البلدان الأكثر تقدماً. غير أن الفرنسيين استبدلوا السيطرة بالرعاية، وفرضوا أنظمة استعمارية مشابهة لتلك التي فرضوها بقسوة في شمال أفريقيا. وكان الفرنسيون، طوال سنوات الانتداب، متردّدين في تليين حكمهم المباشر في المشرق، مخافة أن يؤدي ذلك إلى تقويض قبضتهم الحديدية على مستعمراتهم في شمال أفريقيا.

في بيروت، أدار المفوّض السامي الفرنسي، يساعده أمين عام، ما كان في الواقع إدارة مؤهّلة. فتولّى مندوبو المفوّضية العليا الإدارات المحلية، ووضع "المستشارون"

(1) Khoury, *Syria and the French Mandate*, p. 629.

الفرنسيون في المكاتب الوزارية، بينما تولّى الضباط السياسيون "للشؤون المحلية" الحكم في المناطق النائية. وأحكم الجيش الفرنسي السيطرة على البلاد، تساعده القوات الخاصة المجنّدة من السكان المحليين ذات التوجّه الاستعماري. واحتفظ الفرنسيون طوال فترة الانتداب بالسيطرة التامة على الخدمات الاقتصادية المشتركة بين الدولتين - أي ما يسمى المصالح المشتركة، وخاصة إدارة الجمارك - على الرغم من أن المسؤولين الذين تولوا إدارتها كانوا في الغالب فاسدين أو غير أكفاء أو الاثنين معاً.

عمدت السياسة الفرنسية، منذ إعلان دولة لبنان الكبير، إلى دعم الأقليات ضدّ الأكثرية، بناء على افتراض أن الأقليات ستكون أكثر ولاء لفرنسا، وتوفّر الدعامة المحلية للحكم الفرنسي. وفي سوريا - بتأثير أشخاص مثل روبير دو كيه، الأمين العام في المفوضية العليا خلال سنوات الانتداب الأولى - مُنح الدروز في الجنوب والعلويون في الشمال الغربي، بالإضافة إلى مجموعة من الأقليات في محافظة الجزيرة في أقصى الشمال، أفضلية خاصة على الأكثرية السنية المسلمة. وشُجعوا على تطوير المشاعر الانفصالية الموجودة لديهم، وزُيّن لهم النظر إلى مسلمي دمشق والمدن الأخرى بمثابة أعداء لهم.

في لبنان، حابى الفرنسيون الموارنة، وأثاروا لهيب العداوة بين المسيحيين والمسلمين لإيجاد مبرّر لوجودهم. لم يخترع الفرنسيون التنوع العرقي والديني في هذين البلدين بطبيعة الحال، لكنّهم فاقموه واستغلوه لتحقيق أهدافهم. فأثاروا مخاوف المسيحيين اللبنانيين من أن تجتاحهم "جحافل المسلمين" الآتية من الأراضي الداخلية السورية، وهو مصير لا ينقذهم منه سوى الحماية الفرنسية. وغذّوا الرُّهاب المسيحي لقطع الطريق على التعاون الإسلامي المسيحي. وأصبحت الطائفية التي أنتجتها السياسة الفرنسية جزءاً لا يتجزأ من النظام السياسي اللبناني، والسوري أيضاً، ولو بدرجة أقل.

من نتائج هذه السياسات المؤسفة عدم تمكن لبنان وسوريا من تطوير هوية وطنية متماسكة يعتنقها جميع المواطنين طواعية. لقد كانت الدولة اللبنانية التي استلمها بشارة الخوري ورياض الصلح أبعد ما تكون عن مجتمع سياسي موحّد. لذا فإن التحدي الأكبر الذي واجهاه هو كيف يمكن دمج مختلف الطوائف في أمة واحدة، وكيف

يمكـــن ابـــتكار نظام يسمح للفئات السكانية الرئيسية بالعيش معاً، في ود إيجابـــي لا ســـلبـــي فحسب. وعد رياض الصلح بإنهاء النظام الطائفي الذي وصفه بالسمّ عندما تـــولى رئاسة الوزراء لأول مرة في سنة 1943. لكنه لم يستطع القيام بذلك، ربما لأن الطائفـــية أصـــبحت عميقة الجذور. ولا يزال لبنان يعاني حتى اليوم من التناقض بين المجتمع القائم على العصبيات القديمة والدولة الوطنية المبنية على هوية وطنية مشتركة.

لم تكـــن المـــشكلة تقتصر على العلاقات الإسلامية المسيحية في لبنان، بل شملت ســـوريا أيـــضاً. ويرجع ذلك إلى أن الفرنسيين اعتبروا لبنان، منذ البداية، رأس جسر عـــسكري يـــسيطرون من خلاله على الأراضي الداخلية السورية. لكن ذلك يطرح معـــضلة محيّـــرة: من الضروري عدم وجود أي قوة أجنبية في لبنان لكي تشعر سوريا بالاســـتقلال والأمـــن. غير أنه إذا لم يكن هناك قوة أجنبية في لبنان - أو لم تكن في وضـــعية تمكّنها من التدخّل على الأقل - فإن المسيحيين، أو الفئات الأخرى المناهضة لـــسوريا، سيشعرون بأنهم مهدّدون. لا تزال هذه الأحجية تضايق زعماء البلدين حتى اليوم.

كـــان الـــنهج الذي اتبعه الفرنسيون في فترة ما بين الحربين معيباً لأنهم رفضوا الإقرار - أو لم يدركوا - أن القومية العربية ليست مجرد اختراع للمفكرين الحضريين المـــتعلّمين في الغرب، وإنما انبثقت من الإيديولوجية الأوسع انتشاراً والأكثر تجذّراً في تلك الفترة. وهي ذات قدرة كبيرة على التعبئة، لا سيما في صفوف المسلمين، ولكن لم تقتصر عليهم بأي حال من الأحوال. اعتبر 75 بالمئة من سكان المشرق أن الانتداب غير شرعي، ورفضوا فكرة الانتداب على العموم، والانتداب الفرنسي على الخصوص. وكانت النتيجة حدوث جفاء تام بين الفرنسيين والوطنيين.

شكّل رُهاب الإنكليز المستمر لدى العديد من المسؤولين الفرنسيين عاملاً مساهماً أيضاً، لأنهم كانوا ينسبون الحماسة الوطنية إلى المكائد البريطانية. وقد ظلّ الفرنسيون حتى آخر أيام الانتداب يظنّون أن البريطانيين يسعون إلى الاستفادة من ضعفهم في فترة الحـــرب للحلول محلّهم، وبسط النفوذ البريطاني على الشرق الأوسط بأكمله. كانت تلـــك اللازمـــة الـــتي طالما كرّرها الجنرال ديغول. هذه القناعة الفرنسية الراسخة أن البريطانيين يستغلون القومية العربية، أدّت إلى تغافل الفرنسيين عن تطوّرات مهمة ربما

كانت لصالحهم. ومنها، على سبيل المثال، تطوّر تفكير عدد من الشخصيات الوطنية العربية البارزة، وفي مقدّمها رياض الصلح، وتحوّلها من الرفض التام لدولة لبنان الكبير ضمن الحدود التي وسّعها الفرنسيون، إلى قبول الاندماج بالدولة اللبنانية الجديدة[1].

كانت المشكلة تكمن في باريس بقدر ما تكمن في المشرق الخاضع للإدارة الفرنسية، وترجع إلى حدٍّ كبير إلى خطأ مجموعات الضغط الفرنسية الاستعمارية والعسكرية والدينية. فقد كان في وسع هؤلاء ممارسة نفوذ كبير لأن الحكومات الفرنسية في الجمهورية الثالثة افتقرت إلى سياسة استعمارية واضحة. ولم تكن تدرك ما هي المصالح الفرنسية التي يجب الحفاظ عليها وما هي التي يمكن التخلي عنها بأمان. لذا خسر الفرنسيون المشرق بأكمله، لأنهم سعوا إلى الاحتفاظ به بالقوة الغاشمة.

من أسطع الأمثلة على أخطاء السياسة الفاحشة عدم التصديق على معاهدة 1936 - حيث كان في وسع الفرنسيين تأمين امتيازات وافقت عليها الحكومتان الوطنيتان من دون مقابل - بالإضافة إلى تسليم لواء الإسكندرونة السوري للأتراك في سنة 1939 بصورة غير شرعية، ما يتناقض مع التزام فرنسا بموجب الانتداب بحماية سلامة الأراضي التي عهدت إليها. ومن الأخطاء الفاحشة الأخرى محاولة "حماية حقوق فرنسا ومصالحها بإرغام سوريا ولبنان على توقيع معاهدتين في خرق لتعهّدها غير المشروط بمنحهما الاستقلال الذي قدّمته لهما في سنة 1941. ولا شك في أن هزيمة فرنسا في سنة 1940، وما تلاه من نزاع بين مؤيدي ديغول ومؤيدي بيتان، أدى إلى تعقّد العلاقة بين فرنسا وسوريا ولبنان. فلم يكن في وسع ديغول، الحريص على كسب تأييد الرأي العام، احتمال اتّهامه بتصفية الإمبراطورية الفرنسية.

تكمن جذور العديد من هذه المشكلات في اقتسام سوريا الطبيعية أو الجغرافية بين فرنسا وبريطانيا في أعقاب الحرب العالمية الأولى. كانت سوريا تحت الحكم العثماني حيّزاً اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً واحداً يتنقّل فيه الناس وتُنقل البضائع بحرية، على الرغم من إدارتها كعدة ولايات منفصلة. في الفترة الأخيرة من الحكم العثماني،

(1) Meouchy, "Le Pacte national", p. 465.

قُسِّمت هذه الولايات السورية لأول مرة عندما منح جبل لبنان وضعية مستقلّة في سنة 1861، بضغط كبير من الدول الغربية، وأصبحت القدس أولاً وبيروت في ما بعد مركزين لولايتين مستقلتين في العقود اللاحقة. لكن ذلك لا يقارن بعمليات البتر التي أدّت بعد الحرب العالمية الأولى إلى أن تخسر سوريا الموصل لمصلحة العراق وكيليكيا لمصلحة تركيا. وفي وقت لاحق قسّم ما تبقّى من سوريا إلى وحدات سياسية متباينة أصبحت في ما بعد جمهوريتي سوريا ولبنان، ومملكة الأردن، ودولة إسرائيل - والأراضي الفلسطينية المحتلة التي لا تزال محتلة وتنزف حتى اليوم.

تشكّلت هذه الدول الأربع ذات السيادة - والخامسة لا تزال في طور التكوين - من النسيج نفسه. فقد كانت جميعها جزءاً من منطقة عرفها الجيل السابق باسم سوريا أو بلاد الشام. ولا تزال تقيم علاقة بعضها مع بعض، رغم أن كلاً منها طوّرت إيديولوجيات وهويات وطنية مميّزة. لكن ثمة شعور أنه ما من دولة منها تستطيع الهرب من البيئة المشتركة مهما تمنى هذا الطرف أو ذاك القيام بذلك.

لا يزال السوريون على وجه الخصوص يعانون من شعور بأن بلادهم صارت أصغر مساحة مما يجب أن تكون عليه. وأحدثت عمليات البتر المتكرّرة في القرن الماضي حنيناً للانضمام إلى وحدة أكبر. أدت الرغبة الملحّة بالهروب من الفضاء السوري المصطنع إلى نشوء مبدئين متنافسين في النصف الأول من القرن العشرين: مبدأ القومية السورية وفقاً لمفهوم أنطون سعادة، الذي سرعان ما كان له تأثير مدمّر على حياة رياض الصلح ومسيرته المهنية، ومبدأ القومية العربية لحزب البعث، الذي كان له تأثير عميق، غير حميد دائماً، على السياسة في سوريا والعراق.

لكن من بين جميع العلاقات المشرقية المعقدة، لا توجد علاقة أكثر حميمية وأكثر تنافراً من تلك التي بين سوريا ولبنان. فالبلدان يرتبطان ارتباطاً راسخاً من خلال التاريخ والصلات العائلية والتجارية، والبيئة الجغرافية المشتركة. مع ذلك طوّر البلدان تحت الانتداب هويتين ومصالح مستقلة نتيجة السياسة الفرنسية المثيرة للاضطرابات. ومن المشاكل الرئيسية التي ورثها رياض الصلح عن الفرنسيين العلاقة الشائكة مع سوريا - ولا تزال حتى اليوم مشكلة مركزية في السياسة اللبنانية.

بدايات الخلاف مع سوريا

عمـــل رياض، طوال حياته، على تحقيق الوحدة السورية كخطوة أولى لتحقيق الـــوحدة العـــربية. فسوريا الكبرى موطنه، وقد صاهر هو وجدّه أحمد باشا عائلتين ســـوريتين بارزتين. وكان زعماء الكتلة الوطنية السورية أصدقاءه السياسيين المقرّبين، ويـــشعر بالارتـــياح في دمشق وحلب، مثلما يشعر في بيروت وصيدا. لذا من المفارقة المريرة أن يجد نفسه في نهاية المطاف مضطراً للدفاع عن المصالح اللبنانية الضيّقة في وجه مصالح جيرانه السوريين. ولم يكن ذلك بالتأكيد مقصده عندما بدأ حياته السياسية.

وهكـــذا خلال أربع وعشرين ساعة من تشكيل حكومته الأولى في أيلول/سبتمبر سنة 1943، أسرع رياض إلى دمشق، وشكّل جبهة مشتركة ضدّ الفرنسيين مع صديقه القديم ورفيق السلاح الرئيس السوري شكري القوتلي، ومع رئيس الحكومة سعد الله الجابـــري، عـــمّ زوجـــته. وفي تشرين الأول/أكتوبر، قام بزيارات متكرّرة إلى سوريا لتنـــسيق استراتيجيتهما المشتركة. وفي 4 كانون الثاني/يناير 1944، وقّع رياض ووزير المالية السوري خالد العظم اتفاقاً مع الفرنسيين انتقلت بموجبه بعض المصالح المشتركة إلى حكومتـــيهما، لا سيما إدارة الجمارك وإدارة حصر التبغ والتنباك. وتقرّر أن يبدأ المجلـــس الأعلـــى للمـــصالح المشتركة، الذي شُكّل في وقت سابق، عمله في الشهر نفسه[1].

لكـــن رياض الصلح اصطدم على الفور بمعارضة شديدة من المسيحيين الوطنيين اللبنانـــيين – لا ســـيما من البطريرك الماروني أنطوان عريضة وألفرد نقاش وآخرين – الـــذين هاجمـــوا المجلـــس الأعلى باعتباره "حكومة داخل حكومة"، وزعموا أنه يمهد الطـــريق للوحدة مع سوريا، وهو ما كان المسيحيون الوطنيون اللبنانيون يتخوفون منه أكثر من أي شيء آخر.

اضـــطر رياض إلى القيام بزيارة طويلة للبطريرك، ليطمئنه إلى عدم وجود ما يتجاوز حـــدود الـــوطن بشأن المجلس الأعلى، وإلى أن السلطة التشريعية على الشؤون الاقتصادية ســـتبقى في أيـــدي الـــبرلمان اللبناني، وأنه لن يكون لأي مؤسسة سورية لبنانية مشتركة

(1) انظر Youssef Chaitani, *Post Colonial Syria and Lebanon*, London 2007 للاطلاع على دراسة مفصلة للعلاقات السورية اللبنانية بعد الحرب العالمية الثانية.

سلطات تنفيذية مستقلة. ولكن بقيت المشكلات الأساسية قائمة بسبب اختلاف طبيعة الدولتين، فيما تسعيان إلى التطوّر ضمن الحدود المصطنعة التي فرضها عليهما الفرنسيون.

كان تقسيم عائدات الجمارك المشكلة الأولى التي واجهها البلدان. تم التوصّل إلى اتفاق مؤقت قضى بحصول كل دولة على 40 بالمئة من العائدات، على أن تتوزع نسبة 20 المتبقية على أساس الاستهلاك الفعلي للواردات في كل دولة. لكن بما أن الخدمات الجمركية ومرافق التخزين السورية لم تكن على قدر جيد من التطوّر، فقد تحوّل قسم كبير من تجارة الدولتين إلى بيروت، حيث مرافق الميناء أفضل تنظيماً وتجهيزاً. وكان التجار اللبنانيون يسعون في الغالب إلى شراء رُخَص نظرائهم السوريين عند استنفاد رُخَص الاستيراد الخاصة بهم. وعندما تصل البضائع عبر الجمارك اللبنانية، تحتسب الضرائب الجمركية عليها لمصلحة الحساب السوري، لكنها تحوّل بعد ذلك إلى بيروت وتستهلك هناك. بدأ المسؤولون اللبنانيون يخشون من أن تؤدي إساءة استعمال رخَص الاستيراد إلى حصول سوريا على حصة الأسد من نسبة العشرين في المئة من العائدات التي يتم تقاسمها. وبناء على ذلك، عدّل توزيع العائدات في كانون الأول/ديسمبر 1945 بحيث يحصل لبنان على 44 بالمئة وسوريا على 56 بالمئة. ولكن ذلك لم يؤدِّ إلى حلِّ المشكلات المتنامية بين البلدين.

كان العامل الأساسي للنزاعات بين البلدين يكمن في الاختلاف العميق بين اقتصاديهما. كانت سوريا بلداً منتجاً للأغذية بالدرجة الأولى، وبلداً صناعياً ناشئاً على نطاق صغير. فشعرت بالحاجة إلى فرض الضرائب على الواردات وحصص الاستيراد لحماية إنتاجها الزراعي والصناعي، وبخاصة الحبوب والطحين والفواكه المعلّبة والمجففة والزيت النباتي والسمن والجوز والقطن وخيوط الغزل والمنسوجات. أما لبنان، فإن إنتاجه قليل، لذا فضّل اتباع سياسة حرية الاستيراد من أجل تأمين سلع زهيدة الثمن لسكانه الذين يعانون من ضائقة مالية. وهكذا أصبح تضارب المصالح محتوماً، لأن سياسة المبالغة في الحماية المفرطة التي اتبعتها سوريا أدت إلى ارتفاع الأسعار في لبنان، وخاصةً أسعار المواد الأساسية كالحبوب.

كان التباين في الأسعار صارخاً. ففي سنة 1945-1946، بلغ سعر كيلو الخبز 125 قرشاً في بيروت مقابل 80 قرشاً فقط في دمشق و50 قرشاً في فلسطين.

ولذلك اضطر العديد من الأسر اللبنانية من الطبقة العاملة إلى إنفاق أجرها اليومي بأكمله لشراء مقدار وجبة واحدة من الخبز. فطالب لبنان بحرية استيراد القمح من السوق الدولية، بينما أصرت سوريا على التزام لبنان بالاتفاقية التي تقضي باستيراد القمح من سوريا فقط، حتى وإن كانت الأسعار أعلى بكثير من الأسعار العالمية.

كان هناك العديد من النزاعات السياسية والاقتصادية الأخرى. فقد أصرّ لبنان على أن بيروت هي الميناء الطبيعي للبلدين، والتجار اللبنانيين هم المستوردون الطبيعيون. لكن تزايد الضغط في سوريا من أجل تطوير ميناء اللاذقية وتحرير التجار السوريين من الاعتماد المادي والاقتصادي على بيروت. وقال عارف اللحام، عضو غرفة التجارة السورية، باستياء: "تعيش سوريا في بيت ذي باب واحد مفتاحه في لبنان". وكان يكمن وراء هذه النزاعات التوتّر السياسي المعهود بين المسيحيين اللبنانيين الذين لا يثقون بسوريا، والسوريين الغاضبين من عداء المسيحيين اللبنانيين للقومية العربية. ومما يؤسف له أن هذا الخلاف استمرّ في السنوات العديدة التالية، ما أضرّ بعلاقات رياض الصلح التاريخية مع شركائه السياسيين التاريخيين في دمشق وحلب.

بشارة الخوري ورياض الصلح

منح النظام اللبناني الذي صاغه الفرنسيون صلاحيات لرئيس الجمهورية أكبر بكثير من صلاحيات رئيس الحكومة، وهي صلاحيات مشابهة لتلك التي يتمتع بها المفوّضون الفرنسي السامون تحت الانتداب. وبينما ينتخب رئيس الجمهورية لمدة ست سنوات - ما يمنح منصبه استقراراً كبيراً - فإن رئيس الوزراء يعيّن وفقاً لرغبة رئيس الجمهورية ويمكن إقالته في أي وقت. وكان على رؤساء الحكومة الضعفاء العيش في خوف دائم من أن يقالوا من مناصبهم.

وفي وسع رئيس الجمهورية حلّ المجلس النيابي، وتعيين كبار الموظفين الإداريين، ورفض التشريعات، أو الحكم عن طريق المراسيم. وكان للرئيس السلطة المطلقة أيضاً في توزيع رعاية الدولة الرسمية، وهو امتياز مهم جداً في بلد تعتمد فيه

الحـــركة الـــسياسية علـــى تبادل الخدمات[1]. غير أن قدرة الرئيس على ممارسة هذه الـــصلاحيات تعتمد على قوة شخصيته وعلى علاقته برئيس الوزراء. كان واضحاً أن شخصية رياض الصلح أقوى من شخصية بشارة الخوري. فقد منحته تجربته السياسية الطـــويلة ثقلاً سياسياً كبيراً. بالطبع، وما كان رياض ليتولّى رئاسة الحكومة في عهد بشارة الخوري إلا لأن الأخير لم يكن رئيساً مسيطراً.

غـــادر ريـــاض الـــصلح منصبه في 9 كانون الثاني/يناير 1945، بعد سنتين من الـــشراكة الوثـــيقة مـــع الـــرئيس بشارة الخوري. ولا شك في أنه شعر بالحاجة إلى الاســـتراحة بعـــد الصراع الطويل مع الفرنسيين. وفي السنتين التاليتين، شغل منصب رئـــيس الوزراء كل من عبد الحميد كرامي، وسامي الصلح، وسعدي المنلا - وكان عليهم تحمّل انتقادات رياض المتواصلة من موقعه في المعارضة. وغالباً ما اشتكى كرامي قائلاً: "لن يتركني صديقنا رياض الصلح بسلام ولو ليوم واحد".

مـــع أن ريـــاض كان خارج السلطة في سنتي 1945 و1946 - استعاد منصبه رئيساً للـــوزراء في 14 كانون الأول/ديسمبر 1946 - فإنه بقي إلى جانب بشارة الخوري طوال الـــوقت، يـــساعده في اختيار الوزراء، وتوزيع الحقائب الوزارية، وتقديم المشورة السياسية العامـــة. فقـــد خـــرج رياض الصلح من الأزمة مع فرنسا نشيطاً، في حين خرج بشارة الخوري منهكاً، ولم يكن في صحة جيدة. في منتصف كانون الأول/ديسمبر 1944، سقط الـــرئيس في الـــشارع وكُسرت يده. وفيما كان يكابد الأرق الناتج عن الألم، اضطرّ إلى تحمّـــل مـــزيد من الإجهاد بسبب استقالة رياض الصلح وتشكيل حكومة جديدة برئاسة عـــبد الحمـــيد كرامي. لازم الرئيس غرفته، بناء على أوامر الطبيب، غير قادر على متابعة الـــشؤون الحكومية أو استقبال وزرائه. ثم تلقّى صدمة نفسية قوية بالموت المفاجئ لصديق عمـــره ومعاونه الأقرب سليم تقلا في 11 كانون الثاني/يناير. وأشيع في بيروت أن الرئيس يعاني نوعاً حاداً من السوداوية التي تؤثر على تفكيره[2].

كـــان بـــشارة الخوري يعاني من انهيار عصبـــي. فإلى جانب الإجهاد السياسي الـــذي يتعـــرّض له، أصيب بضيق شديد عند انتحار ابنة أخت زوجته، ماجدة، التي

(1) Johnson, *Class & Client*, p. 120.
(2) Syria & Lebanon Weekly Political Summary, 31 January 1945 (FO 371/45553).

كانـــت بمثابة ابنة لهما. وهي ابنة ماري شيحا حدّاد، شقيقة لور شيحا زوجة بشارة، وميـــشال شيحا صديقه وسنده الوفي. كان ميشال شيحا مصرفياً ومفكّراً بارزاً وناشر الـــصحيفة اليومـــية الناطقة بالفرنسية "لوجور". وقد ساندت هذه الصحيفة بشارة في ارتقائه سلّم السلطة، خلافاً لصحيفة "لورينت" *L'Orient* التي يصدرها جورج نقاش، والتي دعمت إميل إده وسياسته الداعية إلى الارتباط الوثيق بفرنسا.

أصـــر ريـــاض علـــى زيارة الرئيس بشارة الخوري المريض على الرغم من عدم السماح لأحد برؤيته، خوفاً من إزعاجه. فقام بزيارة قصيرة له، روى في ما بعد ما دار بينهما: "حييته لكنه لم يُجب. سأله طبيبه (د. بعقليني): هل تعرّفت إليه؟ فحرّك رأسه، وقال: 'نعم، إنّه رياض الصلح'. لكن ما إن تفوه بهذه الكلمات حتى أجهش بالبكاء، فطلب مني طبيبه أن أنسحب".

تقـــرر أن يغادر بشارة الخوري بيروت إلى طبرية في فلسطين، على أمل أن تفيده ينابـــيعها الساخنة. عالجه في حيفا الدكتور هرمان زوندك Hermann Zondek، وهو طبـــيب نفـــساني يهـــودي ألماني(1). وقد زاره رئيس الحكومة عبد الحميد كرامي في شباط/فبراير، وقال إن حالته في تحسّن. بعد بضعة أسابيع، في آذار/مارس 1945، أصبح بـــشارة الخـــوري في وضع جيد يسمح له بالعودة إلى لبنان واستئناف مهامّه. فوقف ريـــاض إلى جانـــبه ثانية، وقدّم له الدعم. وفي 11 تشرين الثاني/نوفمبر، قام الرجلان بزيارة إلى قلعة راشيا، حيث سجنا معاً قبل عامين.

عـــانى بشارة الخوري من سوء تصرّفات أفراد عائلته إلى جانب معاناته الصحية. فقـــد أساء ابنه خليل الخوري إلى الرأي العام المحلي المحافظ بمرافقة راقصة ملهى سيئة الـــسمعة واصـــطحابها بصورة متكرّرة في المقعد الخلفي للسيارة الرئاسية – وهي من طراز لنكولن ذات غطاء قابل للطيّ. وأثار سليم الخوري، أحد أشقاء الرئيس، مشكلة أكـــبر باستغلاله منصب أخيه صراحة لتحقيق مكاسب سياسية ومالية. وكان صاحب نفوذ عظيم، وأطلق عليه لقب "السلطان سليم". ولم يكن سامي الخوري، وهو شقيق آخـــر لبشارة الخوري، عضواً تفخر به العائلة. في 5 تشرين الأول/أكتوبر 1945، عُيّن

(1) MAE-Nantes, Fonds Beyrouth (Amb.), série 199A4, carton 20, Sûreté aux Armées, Beyrouth, 30 Janvier 1945.

بمـوجب مرسـوم جمهوري سفيراً للبنان إلى البلاط المصري. وكان مديراً للعدلية بين سـنتي 1926 و1939، وتسلّم بعد ذلك رئاسة مجلس الدولة، ثم عيّن مديراً في وزارة الخارجـية. وفي كـل مرة حظي بمنصبه بفضل نفوذ أخيه لا مهاراته الشخصية. وقد وصـف تقرير فرنسي سامي الخوري بأنه "بليد التفكير ومنعزل، تنقصه روح المبادرة والـثقافة العامـة. لم يُظهر في وزارة الخارجية أي شغف بالعمل مفضلاً الجلوس إلى طاولـة القمـار حتى الفجر. ومن غير المرجّح أن يسعفه تكلّفه ورعونته وافتقاره إلى مهـارات التواصـل في الـبروز في الدوائـر الدبلوماسية، أو في الأوساط اللبنانية في مـصر"[1]. وعلى الرغم من هذه الأعباء والالتزامات المزعجة، استمر رياض الصلح في المـيل إلى بشارة الخوري. وسعى إلى دعمه في خطاباته، حيث كان يصفه دائماً بأنه "الزعيم الوطني" الذي قاد البلد إلى الاستقلال[2].

جلاء الفرنسيين

في أعقاب قصف دمشق في أيار/مايو 1945، عقدت الحكومتان السورية واللبنانية العزم على السيطرة على القوات الخاصة المثيرة للمشاكل، سواء أأحبّ الفرنسيون ذلك أم كـرهوه. وفي مواجهة هذا القرار الذي اتخذته الحكومتان، وتحت ضغط دولي كبير في أعقـاب الحماقة التي ارتكبها الفرنسيون، وافقت فرنسا أخيراً على نقل قيادة تلك القـوات، ونفّـذت ذلك في الأشهر التالية. غير أن تمويل القوات الخاصة أثار مشكلة للسوريين واللبنانيين. بل إن فرنسا حاولت، سعياً للانتقام منهما، إلى حملهما على دفع 50 ملـيون ليرة سورية أنفقت على حدّ زعمها على القوات الخاصة خلال السنوات الماضية لقمع السكان المحليين.

بـرزت مصاعب في نقل مصالح أخرى خاضعة للسيطرة الفرنسية، مثل مصلحة الهاتف، ومحطة الإذاعة المحلية، راديو أوريان، حيث طلب الفرنسيون من اللبنانيين مبالغ طائلـة مقابـل استلامها. كما أغضب الفرنسيون اللبنانيين بتأخّرهم في تسليم المباني

(1) MAE-Nantes, Fonds Beyrouth (Amb.), série 199A4, carton 20,Sous-Délégation du Liban Sud, Saida, 13 Juin 1946.

(2) MAE-Nantes, Fonds Beyrouth (Amb.), série 199A4, carton 20، ملاحظـة حول عائلة بشارة الخوري في أرشيف نانت الفرنسي.

الحكومية الأساسية كالسراي الكبير، الذي كانت الحكومة اللبنانية بحاجة إليه ليضمّ شتات إداراتها المبعثرة.

طغت على هذه النزاعات مشكلة إخراج الجنود الفرنسيين من المشرق، وهي ما اعتبرها اللبنانيون والسوريون شرطاً أساسياً لتحقيق الاستقلال الحقيقي. لكن فرنسا لم تكن تتعجّل الانسحاب، وبدت أنها تعزّز قواتها بدلاً من ذلك. اشتبهت الحكومة اللبنانية - والسلطات العسكرية البريطانية أيضاً - في أن الفرنسيين يريدون تعزيز قبضتهم على المطارين الرئيسيين في المشرق، مطار رياق في لبنان ومطار المزّة في سوريا، بجلب المزيد من القوات الجوية.

في غضون ذلك، واصلت السفن الفرنسية نقل المزيد من القوات الاستعمارية. ادّعى الفرنسيون أن ذلك تبديل روتيني للقوات الموجودة، لكن اللبنانيين استغربوا انهماك الفرنسيين في استئجار منازل جديدة لعائلات ضباطهم. وبدا كما لو أنهم لا ينوون الجلاء على الإطلاق. فقال الرئيس بشارة الخوري للسفير البريطاني في بيروت، ترانس شون، مازحاً: "إنهم يحبوننا كثيراً"[1].

تلك كانت خلفية قرار الحكومتين اللبنانية والسورية السعي للحصول على مساعدة منظمة الأمم المتحدة، التي أنشئت حديثاً، في تحقيق جلاء القوات الأجنبية عن بلديهما. كانت لندن مكان انعقاد اجتماع أول جمعية عامة للأمم المتحدة ومجلس الأمن في كانون الثاني/يناير 1946. لاستضافة هذا الاجتماع الدولي، منحت الكنيسة الميثودية الحكومة البريطانية حق استخدام قاعة اجتماعاتها الكبيرة، قاعة وستمنستر المركزية. تكوّن الوفد اللبناني الذي أُرسل إلى لندن من وزير الخارجية حميد فرنجية، يعاونه رياض الصلح ويوسف سالم (وهو سياسي كاثوليكي من صور ذو مشاعر وطنية عربية قوية، كان له دور مهم في التحالف بين رياض الصلح وبشارة الخوري في انتخابات 1943). كما حضر مع الوفد اللبناني كميل شمعون، السفير اللبناني في لندن. أُنزل الوفد في فندق مايفير، الذي كان دافئاً نسبياً على الرغم من التقنين الحاد في الوقود.

لم يعتد رياض الصلح كتابة يوميات منتظمة، لكنه دوّن في هذه المناسبة بعض الملاحظات، ربما لأهميتها، بدءاً من رحلته من بيروت إلى القاهرة، ثم من القاهرة إلى لندن.

(1) Beirut to Foreign Office, 13 February 1946 (FO 371/52479).

3 كانون الثاني/يناير 1946

وصـــلنا إلى القاهرة. كانت طائرتنا تحمل اسم بيت الدين. أشعر أن هذه الرحلة ستوصل النضال الذي خضته من أجل الاستقلال السياسي إلى منتهاه، الذي لن يتم إلا بالجلاء. لكن هل بلغنا حقاً نهاية النضال؟

5 كانون الثاني/يناير 1946

ســـافرت الـــيوم في الطائرة من القاهرة إلى لندن. إنها أول رحلاتي الطويلة جواً. عـــندما أقلعت الطائرة، ظننت أن قلبـــي سيتوقف عن الخفقان. لكن عندما ارتفعت الطائـــرة شـــعرت بـــثقة أكبر من بعض الآخرين. هكذا نحن: نخاف من الشيء قبل حدوثه. هل يخاف الإنسان الموت لأنه لم يختبره؟ ألن نتوقّف عن الخوف من الموت بعد أن نموت؟

9 كانون الثاني/يناير 1946

اجتمعـــنا، نحـــن مـــندوبـــو 51 دولـــة، عند الساعة 4 من بعد الظهر في قاعة وستمنستر المركزية الواسعة لافتتاح جلسة الجمعية العامة للأمم المتحدة.

شـــعرت أن لبنان يدخل لأول مرة مؤتمراً دولياً من الباب الرئيسي. في المؤتمرات الـــسابقة [العـــصبة الأمم]، كان على لبنان البقاء في الخارج. كنا نتوسّل إلى المندوبين الأجانـــب الـــتوقف لنشرح لهم قضيتنا، فيرفض معظمهم ذلك ويديروا لنا ظهورهم. وكان بعضهم يطلب منا المغادرة بتهذيب، ولا يتوقّف إلا القلة القليلة للاستماع إلى ما نقول.

هـــذه المرة، استوقفني أحد ممثلي الشعوب المضطهدة. توقّفت لسماع ما لديه إذ انتابني شعور أنني أستمع لنفسي. فقبل وقت قصير، كنا في الموقف المؤسف نفسه[1].

رحّب الملك جورج السادس بالوفود في خطاب مشجّع. فأعلن "مزهواً بالانتصار الـــتغلب علـــى أعظم الصراعات في جميع العصور وأشدّها خطورة. لقد هزم أعداؤنا لكـــن مسؤولية إعادة الإعمار تقع على المنتصرين، أي الأمم المتحدة. علينا نحن وضع الأســـس لعـــالم جديد يستحيل فيه وقوع مثل هذا الصراع". وأقام الملك في تلك

(1) مقـــتطفات من يوميات رياض الصلح نشرت في جريدة **أخبار اليوم** المصرية بتاريخ 30 آذار/مارس 1946.

الليلة مأدبة رسمية للوفود في قصر سانت جيمس. وقدّمت صحيفة "التايمز" الوصف التالي له:

جلس الملك بالزي الرسمي لقائد الأسطول إلى وسط طاولة مستطيلة، تتصل بها أربع طاولات أخرى على شكل حدوة حصان. أضيئت شموع طويلة مثبتة في شمعدانات من الذهب الخالص على كل طاولة، فألقت ضوءاً لطيفاً على الأغطية البيضاء، والتمعت المزهريات الذهبية الكبيرة المليئة بالأقحوان الزهري اللون والسحلبيات الزهرية والبيضاء[1].

دعي رياض الصلح إلى حفل العشاء، على الرغم من أن الدعوة مخصّصة لرؤساء الوفود من حيث المبدأ. فقد حظي رياض باهتمام خاص باعتباره من أبرز رجال الدولة في لبنان، وسرعان ما وجد أن العديد من الأشخاص يريدون الاجتماع به. وشارك بنشاط في الاتصالات التي جرت بين الوفود العربية والأميركية الشمالية والترتيب لتقديم الدعم المتبادل في ما بينها. وكان السير إدوارد سبيرز حاضراً للاهتمام برياض وإطلاعه على تعقيدات السياسة البريطانية. وكان رياض معتاداً في السابق على العالم الناطق باللغة الفرنسية في باريس وجنيف وبيروت. في لندن، تعجّب رياض من انضباط الشعب البريطاني الذي تقبّل التخفيض الذي أجري على الحصص الغذائية الضئيلة أصلاً. وأعجب بحسّهم السياسي في انتخابات تموز/يوليو 1945، حين أسقطوا في الاقتراع ونستون تشرشل، البطل الذي انتصر في الحرب ضد هتلر، وانتخبوا زعيم حزب العمال كليمنت أتلي. فقد رأى الناخبون أن أتلي أكثر ملاءمة لمهمة إعادة الإعمار بعد الحرب وتحسين الأوضاع المعيشية للطبقة العاملة، التي وصفت صراحة في تقرير بفردج Beveridge Report الشهير في سنة 1942.

المذاق الأول للحرب الباردة

تعزّز اهتمام رياض ببريطانيا الآن، بعد أن رعاه سبيرز في أثناء وجوده في بيروت[2]. فتعرّف وزملاؤه عن كثب على بريطانيا التي كانت تناضل للنهوض من

(1) *The Times*, 10 January 1946.

(2) Report by G.W. Furlonge, Beirut, 4 April 1946, on his conversations with Riad el-Solh and Yusuf Salem (FO 371/52480).

ركام الحرب، وعلى أجواء العلاقات الدولية المتوترة بعد الحرب. شكّل المشرق أحد الميادين الدبلوماسية الأولى للمنافسة بين الحلفاء السابقين، وهو ما أصبح يعرف في ما بعد بالحرب الباردة. وشاهد رياض المبارزات بين شخصيات دولية مثل الموفد السوفياتي أندريه فيشنسكي Andrei Vychinsky ووزير الخارجية البريطاني إيرنست بيفن Ernest Bevin.

بذلت وزارة الخارجية البريطانية جهداً كبيراً لمساعدة الوفدين اللبناني والسوري في صياغة الرسالة التي بعثا بها إلى الأمين العام للأمم المتحدة في 4 شباط/فبراير، واشتكوا فيها من أن وجود القوات الفرنسية والبريطانية على أراضيهما يعتبر انتهاكاً لسيادتهما الوطنية. وطالبا مجلس الأمن، بموجب المادة 34 من ميثاق الأمم المتحدة، بإلزام القوات الأجنبية بالانسحاب التام والمتزامن. غضب الفرنسيون، وعبّر وزير الخارجية جورج بيدو عن شعوره "بالأسى والدهشة" لأن لبنان اختار المشاركة في مذكرة الاحتجاج السورية.

وصل الأمين العام الجديد للمندوبية العامة الفرنسية في بيروت، الكونت ستانيسلاس أُستروروغ، إلى لندن في 1 شباط/فبراير، يحدوه الأمل ببدء التفاوض مع اللبنانيين قبل أن يستمع مجلس الأمن إلى مطالبهم. لكن حميد فرنجية رفض الدخول في مفاوضات مع أُستروروغ أو مع جورج بيدو نفسه، كما أخبر السير ألكسندر كادوغان، رئيس الوفد البريطاني، إلا إذا قدّم له الفرنسيون منذ البداية ضمانات بالانسحاب المبكر لجنودهم، بالإضافة إلى تاريخ محدّد لانتهاء هذا الانسحاب[1].

في 14 شباط/فبراير، درس مجلس الأمن الشكوى السورية اللبنانية. وفي اليوم التالي عرض رئيسا الوفدين قضيتيهما على المجلس، وامتدت المناقشات إلى 16 شباط/فبراير. قدّم عضو مجلس الشيوخ الأميركي، آرثر فاندنبرغ Arthur Vandenberg (جمهوري من ولاية ميشيغن)، الذي شهد ما حدث، تقريره إلى مجلس الشيوخ:

> التمست اثنتان من "أحدث البلدان وأصغرها الخلاص من اثنتين من القوى العظمى". فأعلن إيرنست بيفن أنه على استعداد لسحب القوات البريطانية على الفور، بحيث اضطر وزير الخارجية الفرنسية جورج إلى أن يحذو

(1) Memorandum by Sir Alexander Cadogan, 1 February 1946 (FO 371/52479).

حذوه. اقترح الموفد الأميركي إدوارد ستيتنيوس Edward Stettinius بعد ذلك إصدار قرار يلحظ هذه التعهّدات البريطانية والفرنسية، وعبّر عن ثقته بانسحاب الجيوش الأجنبية من سوريا ولبنان "بأسرع ما يمكن عملياً". وقرّر الأطراف بدء المفاوضات من دون تأخير[1].

بدا أن المسألة قد حلت على الفور وبصورة ملائمة. وقال فاندنبرغ إن "حمامة السلام حطّت على النافذة، لكنها سرعان ما طارت ثانية"، لأنّ المفوض السوفياتي، السيد فيشينسكي، لم يكن راغباً في تحقيق السلام بسهولة. فأصرّ على تعديل الاقتراح الأميركي - وهو ما رأى معظم أعضاء المجلس أنه غير مبرّر - وأسفر ذلك عن يومين إضافيين من "المناقشات العقيمة" قبل إجراء التصويت. طالب فيشينسكي بأن تمتنع بريطانيا وفرنسا عن التصويت لأنهما طرفان في النزاع. قبلت الدولتان الامتناع عن التصويت، وأسقط التعديل السوفياتي بالتصويت، حيث لم يؤيّده سوى واضعه. حظي القرار الأميركي بموافقة الأصوات السبعة المطلوبة بموجب الميثاق. لكن فيشينسكي أصر على عدم الإذعان واستعمل حق النقض لرفض الاقتراح بأكمله. ومن الواضح أنه لم يكن مهتماً بمساعدة سوريا ولبنان بقدر اهتمامه بمضايقة فرنسا وبريطانيا.

أضاف فاندنبرغ: "أعاد ذلك لبنان وسوريا الصغيرين إلى نقطة البداية. لكن بلغت الأمور ذروة مثيرة للاهتمام في ما بعد. فقد أكّد ممثلا بريطانيا فرنسا، بيفن وبيدو، أنهما يوافقان طواعية على شروط الحلّ. وشعرت بالفخر بالديمقراطية الغربية في تلك الليلة". ثم تساءل ببعض الأسى: "ما الذي ترمي إليه روسيا"؟ وظل هذا السؤال الأميركي يتكرّر بغضب وإصرار طوال العقود الخمسة التالية.

اقترح الفرنسيون إجراء المفاوضات بين الأطراف في باريس. فجاء هذا الاقتراح بمثابة صدمة للوفدين السوري واللبناني. كان السوريون، على وجه الخصوص، متردّدين في الذهاب إلى عاصمة الدولة التي قصفت عاصمتهم منذ عهد قريب. نصحهم إيرنست بيفن بشدة بالذهاب، لكن سبيرز - المعادي جداً للفرنسيين والذي لا يزال يشعر بالألم من معاملة وزارة الخارجية البريطانية له - حثّهم على عدم القيام بذلك. وبتأثير من سبيرز، أرسل كميل شمعون برقية إلى الحكومة اللبنانية ينصح فيها

---

(1) Report of Senator Vandenberg's speech in *The Daily Telegraph*, 28 February 1946.

بعدم الذهاب إلى باريس، إذ لا يمكن الوثوق في أن الفرنسيين سيتصرّفون بنية حسنة على أرضهم. وقال إن من الأفضل التفاوض معهم في بيروت أو في لندن.

نشأ بعد ذلك وضع محرج. تردّد رياض الصلح نحو أسبوع، رغبة منه في عدم الإساءة إلى صديقه سبيرز. لكنه قرر أخيراً أن من الأفضل اتباع نصيحة الحكومة البريطانية بالذهاب إلى باريس. فذلك سيوفر الوقت، ويسمح للسوريين واللبنانيين بالاتفاق مباشرة مع رئيس الوزراء ووزير الخارجية الفرنسيَّيْن، بدلاً من مرؤوسيهما في لندن أو بيروت. شعر سبيرز بالانزعاج، وبعث على الفور برسالة شكوى إلى الرئيس بشارة الخوري، لكنها زادت الأمور سوءاً لأنّها أثارت استياء الموفدين.

في 28 شباط/فبراير 1946، توجّه الوفد اللبناني إلى باريس، حيث بدأ رياض الصلح العمل فوراً على إعادة تنشيط علاقاته السياسية والصحافية. فتواصل مع أعضاء الحزب الشيوعي الفرنسي من خلال الزعيم الشيوعي اللبناني نقولا الشاوي. فطمأنه الحزب إلى أن سياسته تقضي بمنع استخدام القوات الفرنسية في مغامرات استعمارية.

وعندما بدأ الخبراء العسكريون البريطانيون والفرنسيون، في 1 آذار/مارس، المحادثات بشأن إجلاء جنودهم، تبيّن أن البريطانيين مستعدون لسحب قواتهم خلال بضعة أشهر، بينما طالب الفرنسيون بأكثر من سنة، أي حتى نيسان/أبريل 1947. رأى الفرنسيون إن في وسع القوات البريطانية التوجه جنوباً إلى فلسطين، لكن الجنود الفرنسيين سينقلون بحراً. لذا فإن ثمة حاجة إلى السفن وهي نادرة جداً في ذلك الوقت. افترض العديد من اللبنانيين أن الفرنسيين يسعون لكسب الوقت من أجل تأمين ضمانات لتحقيق "الموقع المميز" الذين سعوا إليه منذ فترة طويلة. خشيت الحكومتان اللبنانية والسورية من أن تواجها الفرنسيين بمفردهما، إذا انسحبت القوات البريطانية أولاً، كما حدث في سنة 1920 - وأن تتعرّضا للخطر ثانية. لذا طالبتا بالجلاء المتزامن للفرنسيين وللبريطانيين.

خلافاً للوضع في لندن، حيث قامت الحكومة البريطانية بدفع نفقات وفدي المشرق، لقي اللبنانيون في باريس قليلاً من الاهتمام ولم يكونوا ضيوف الحكومة الفرنسية (على الرغم من وضع سيارة واحدة تحت تصرفهم). خلافاً للانضباط الوطني الذي أعجب به الوفدان في لندن، فإنهما وجدا الروح المعنوية منخفضة في باريس في

أعقـــاب صـــعوبات الاحتلال الألماني وإهاناته، وتجارة السوق السوداء منتشرة في كل مكان.

لم تكن الاتصالات الأولية التي أجراها الوفد في وزارة الخارجية الفرنسية مرضية، إذ كـــرّر جـــورج بيدو أن السلطات الفرنسية "قررت" عدم إتمام الانسحاب، قبل 1 نيـــسان/أبريل 1947. فرد اللبنانيون أنّهم أتوا لمناقشة الوضع السياسي الذي لا يحتمل مـــثل هـــذا التأجيل، أياً يكن الوضع العسكري. واشتدّت مخاوفهم عندما علموا أن المندوبـــية العامة في بيروت أرسلت، طوال فترة المحادثات، سيلاً من البرقيات التي تثير فـــيها ذرائع جديدة للتأجيل. تبيّن بعد عدد من الاجتماعات أن جورج بيدو مستعد لإبـــداء مـــرونة بشأن تاريخ رحيل القوات الفرنسية، في حين أن الكونت أُستروروغ ومستشاريه - لا سيما الجنرال بينيه، الذين سارعوا من بيروت إلى باريس - يعارضون بشدة أي "انسحاب مستعجل".

عندما لم يتحقق أي تقدم، اجتمع الرئيسان اللبناني والسوري في 10 آذار/مارس 1946، وقـــررا إصدار تعليمات إلى الوفد اللبناني في باريس، بالتوجّه إلى نيويورك على الفـــور، إذا رفض الفرنسيون الانسحاب، وعرض القضية على مجلس الأمن في جلسته التالية في 21 آذار/مارس.

لكـــسر الجمـــود، وضع رياض الصلح خطة - كوميديا سياسية في قسم منها، ومـــناورة قاســـية في القسم الآخر - لإحراج أُستروروغ المتشدّد الذي أصبح تصلّبه العائـــق الرئيـــسي الـــذي يحول دون التوصل إلى اتفاق. جرى التمرّن على الخطة مع الأعـــضاء الآخرين في الوفد اللبناني، قبل تنفيذها خلال عشاء يقيمه جورج بيدو لهم. عندما أنهى الضيوف عشاءهم، اقترب وزير الخارجية اللبناني المسيحي حميد فرنجية من الكـــونت أُستروروغ مبتسماً وقال: "أتمنى يا سيدي الكونت ألا تنسى فرنسا دورها التقلـــيدي في بلدي، على الرغم من خلافاتنا، لا سيما مهمتها التاريخية والثقافية تجاه مسيحيّـــي لبنان".

صاح الكونت مبتهجاً: "يا لها من فرحة! هذا ما كنت أنتظر سماعه. كن مطمئناً يـــا صـــاحب المعالي، ستفعل فرنسا كل ما في وسعها للدفاع عن مسيحيي لبنان. لا يوجد أي شك في ذلك".

كـــان ريـــاض يقف خلف أُستروروغ من دون أن يراه. فردّ بغضب عند سماعه هذه الكلمات، "ماذا سمعتك تقول يا سيدي الكونت؟ ستدافع فرنسا عن مسيحيّـــي لبنان؟ إذاً ما الذي أفعله أنا في هذا المكان"؟

فوجـــئ أُســـتروروغ، وحاول تقديم الأعذار، لكن رياض الصلح أدار له ظهره قائلاً: "هذا أمر لا يحتمل! سأغادر على الفور، وأعود إلى بيروت غداً". وغادر رياض القاعة في حركة مسرحية تاركاً وراءه القلق والارتباك.

أراد بـــيدو معـــرفة مـــا حصل، وعندما أخبره فرنجية عن ما حدث، أبدى بيدو اســـتغرابه قـــائلاً: "أنا رئيس الوفد الفرنسي وليس أُستروروغ. أنا فقط أتحدّث باسم فرنـــسا. أرجـــو أن تخبر السيد الصلح أنني أريد زيارته في الفندق غداً صباحاً لتقديم اعـــتذاري". وفي الـــيوم التالي، زار بيدو رياض الصلح لإبلاغه أن أُستروروغ لم يعد عـــضواً في الـــوفد الفرنـــسي، وأنـــه أعيد إلى بيروت. ورجا الوفد اللبناني استئناف المفاوضات في جوّ من الصداقة والثقة المتبادلة[1].

اســـتؤنفت المفاوضات في 17 آذار/مارس، واختتمت في 23 منه بتبادل الرسائل بـــين جورج بيدو وحميد فرنجية. وافق الفرنسيون على سحب قواتهم من لبنان قبل 31 آب/أغـــسطس، باستثناء ثلاثين ضابطاً و300 فني يشرفون على نقل الذخيرة والمعدات الأخرى، على أن يغادروا قبل 31 كانون الأول/ديسمبر 1946.

عاد رياض الصلح ويوسف سالم إلى لبنان، عبر مصر، في 30 آذار/مارس، حيث استُقبلوا استقبالاً كبيراً هناك. ثم سلكا الطريق البري، واستقبلوا بالاحتفالات في صور وصيدا، وفي أحياء بيروت الإسلامية. أما حميد فرنجية فكان في روما وتبعهم بعد بضعة أيام.

بـــدأ رياض الصلح التخطيط لتسلّم السلطة ثانية فور عودته. فأعرب عن اعتقاده أن لبـــنان لم يعد يحتمل أن يرأس حكومته ابن عمه سامي الصلح، الذي اعتبره سريع التقلّب، أو إلى أي رئيس وزراء غيره. كان خصمه الرئيسي هنري فرعون الذي يحظى بتأيـــيد كـــبير في المجلس النيابـــي. كما كان لديه ارتباطات سياسية وعائلية ببشارة

(1) يوسف سالم، **خمسون سنة مع الناس**، بيروت، 1975، نقلاً عن هلال الصلح، **رياض الصلح: تاريخ رجل وقضية**، القسم 3، الفصل 2.

الخـــوري، لكنه، خلافاً له، يعارض تماماً ما اعتبره سياسات رياض المؤيدة للمسلمين وجامعة الدول العربية.

خـــشي ريـــاض الـــصلح ويوسف سالم من أن يؤدي موقف فرعون إلى إحياء الطائفـــية المقيتة. فأبديا الاعتقاد أن من الضروري التخلص من النظام الطائفي بصورة نهائـــية، وبناء دولة مستقرّة بعدما أصبح لبنان مستقلاً. غير أن الرئيس بشارة الخوري حرص على إبقاء سامي الصلح في منصبه مدة أطول قليلاً. كان يرغب أن يقوم رياض بإجراء انتخابات 1947، ويخشى ألا يتمكن من البقاء في السلطة حتى ذلك الوقت إذا تسلّم المنصب على الفور.

أعلن سامي الصلح أنّه سيطلب ثقة المجلس في 18 أيار/مايو. ولكن عندما استقال اثـــنان من وزرائه، أحمد الأسعد، وسعدي المنلا، سقطت حكومته. طلب الرئيس من ســـعدي المـــنلا تشكيل حكومة عندما اتضح أن معارضة هنري فرعون ستجعل من الـــصعب على رياض الصلح الحصول على الأكثرية المطلوبة. استمر رياض في عدائه المستحكم لفرعون، وحاول إضعافه بحث الرئيس على حلّ الكتائب شبه العسكرية الـــتي يتـــزعمها بيار الجميّل، وتقدّم لهنري فرعون الدعم المادي، إن لم يكن شبه العسكري.

لبث الأمر كذلك حتى 14 كانون الأول/ديسمبر، عندما حصل تقارب تكتيكي، إن لم يكـــن حـــذراً، بين رياض الصلح وهنري فرعون وعبد الحميد كرامي، فتمكن بـــشارة الخوري من تكليف رياض الصلح بتشكيل حكومة جديدة. وقد فعل ذلك في الـــيوم نفـــسه. وبعـــد أسبوعين، أي في 31 كانون الأول/ديسمبر، غادر آخر جندي فرنسي الأراضي اللبنانية. سجّل رياض هذه الحادثة في يومياته:

31 كانون الأول/ديسمبر 1946،

أقلعت اليوم طائرة عسكرية فرنسية عند الساعة 3 بعد الظهر حاملةً آخر جندي أجنبـــــي مـــن بلادنا. بعد نصف ساعة نقلتُ الخبر إلى مجلس النواب. كانت لحظة مهمّة، وشعرت بالفخر والتأثّر عندما أعلنت: "لقد تم الجلاء".

ارتجفـــت يداي عندما حملت نصّ خطابـــي، وارتجف صوتي. وتمكّنت بصعوبة من لفظ الكلمات التي تدربت عليها طوال حياتي.

"الجـــلاء!" هـــذه الكلمة الجميلة التي ردّدناها في مظاهراتنا، ونادى بها شهداؤنا عندما سقطوا برصاص المحتل...

في تلك اللحظة، استعدت في ذهني الملحمة بأكملها من البداية إلى النهاية. كانت تـــاريخ ربع قرن من الاحتلال، أو بالأحرى قروناً طويلة من الكفاح ضد الاستعمار. لقد بكينا من أجل الحرية، لكننا لم نستحقّها إلا بعدما بذلنا الدماء من أجلها.

تذكـــرتُ يوم عدّلنا الدستور لإلغاء المواد التي تقيّد استقلالنا. فكّرت في راشيا، حـــيث تمكّن الفرنسيون باحتجازنا من إسكات أصواتنا الضعيفة، لكنهم سمعوا صوت الـــبلاد الأكثر قوة. تذكرت يوم ذهبنا إلى مجلس الأمن وكيف سيطرنا على أعصابنا للذهاب إلى باريس.

وددت لـــو كان رفاقنا الشهداء معنا اليوم. رأيت روح والدي سعيداً ومبتسماً. فملأني الفرح لأنني لا أزال حياً لأشهد هذا اليوم[1].

لكي تترفّع الحكومة اللبنانية عن الصغائر، فقد قدّمت وسام الأرز من رتبة ضابط كـــبير للكونت أُستروروغ. وغادر الكونت بيروت بعد ذلك بفترة قصيرة لكي يعمل سفيراً لفرنسا في دبلن، حيث يعتقد أنّه لا يستطيع إيذاء أحد.

---

(1) مقـــتطفات مـــن يومـــيات رياض الصلح نشرت في جريدة أخبار اليوم المصرية بتاريخ 11 كانون الثاني/يناير 1947.

الفصل الثالث والعشرون

سيد الساحة المحلية

في 14 كانــون الأول/ديسمبر 1946، تولّى رياض الصلح رئاسة الوزراء ثانية في لبنان، وهو منصب احتفظ به لمدة أربع سنوات وشهرين اثنين من دون انقطاع. وظلّ الشخصية المسيطرة على الساحة السياسية اللبنانية طوال تلك المدة، بعد أن أتقن اللعبة السياسية المحلية. وبقي، حتى استقالته في 14 شباط/فبراير 1951، بعيداً عن سهام النقد، وأظهــر مهارة كبيرة في التفوّق على خصومه والحرص على تحالفه مع الرئيس بشارة الخوري، وهو الشرط الضروري لبقائه في السلطة.

كــان بــروز رياض الصلح في أوساط السياسيين المسلمين، وبشارة الخوري في أوســاط السياسيين المسيحيين - واستمرار شراكتهما المتينة - من أهم معالم السياسة اللبنانية في سنتي 1947 و1948. وشكّل رياض الصلح، بالنسبة إلى المراقبين الأجانب، أقــرب من أنتجه لبنان إلى رجل الدولة ذي المكانة الدولية. فقد كان - ولا يزال حتى الــيوم - بطــل الاســتقلال، والــزعيم الذي خلّص بلاده من الاحتلال العسكري الأجنبــــي، وحقّق ذلك قبل دول عربية كبرى مثل مصر والعراق، ناهيك عن بلاد أخرى مثل الأردن، ومشيخات الخليج، وعدن وجنوب الجزيرة العربية، وليبيا، وشمال أفريقيا الفرنسية. وهي بلدان تحرّرت في وقت لاحق.

كــان الأستاذ وليد الخالدي، المؤرخ الفلسطيني البارز - الذي صاهر والده عائلة ســلام السياسية البيروتية البارزة - في موقع يُمكّنه من مراقبة رياض الصلح في ذلك الوقت، فكتب:

> شهدت سنتا 1947 و1948 ذروة سلطة رياض بك وعنفوان شخصيته المتألّقة. سيطر هو وبشارة الخوري على الساحة السياسية اللبنانية، وكان الركيزة الثانية للبـــناء اللبناني. وقد استمدّ الميثاق الوطني شرعيته في نظر المسلمين من موافقته الشخصية عليه. وبناء على ذلك، نظر إليه الموارنة بشيء من الخشية.

كـــنت معجـــباً به وأنا شاب: مظهره، ولغة جسده، وأسلوبه المميّز. كان متوسّـــط الطول، قويّ البنية، جليل المظهر، وممتلئ الجسم من دون بدانة. كـــان ذا بـــشرة بيضاء، وعينين واسعتين، وخدين ممتلئين، وشعر مائل إلى البياض، وابتسامة تنمّ عن دهاء، وطربوش حاضر دائماً بزاوية مائلة وشرّابة متدلية، وصوت جهوري وآمر، أجشّ من دون خشونة.

كـــان خطيباً مفوّهاً، يتقن العربية وإن لم يكن من دون عيوب. كان أقرب إلى الديماغوجـــية منه إلى شيشيرون، حادّ الذهن وحاضر البديهة، وسريع الخطـــى. كان يفيض صحة وطاقة وثقة بالنفس. استطاع بسحره وجاذبيته وشخـــصيته الجذابـــة أن يـــتفوّق على نظرائه السنّة الآخرين بسهولة - عـــبد الحمـــيد كرامي، وسامي الصلح، وعبد الله اليافي، وصائب سلام، وسعدي المنلا، وحسين العويني. فقد قامت مكانته وسمعته بقوة على أساس مقاومة الفرنسيين طوال عقدي العشرينيات والثلاثينيات[1].

كانـــت أولى أولـــويات رياض عند عودته إلى السلطة وضع الأساس القوي للدولة اللبنانـــية الناشئة التي نالت حريتها منذ عهد قريب. عندما تولّى رئاسة الوزراء للمرة الأولى في ســـنة 1943، كان شاغله الشاغل انتزاع الاستقلال من فرنسا، لكن بناء الدولة أصبح همّه الرئيسي في سنة 1947. وعقد العزم على "بناء الوطن"، كما جاء في بيانه الوزاري.

لم يكن ذلك مهمة سهلة لأنه اصطدم بالنظام الطائفي اللبناني كالعادة. فقد أدّت السياسات الفرنسية التقسيمية إلى نشوء مجموعة من الهويات المتضاربة. وفي حين كان رياض يتمتع بتأييد كبير في أوساط المسلمين، فإن كثيراً من المتشددين المسيحيين نظروا إليه بتحفظ، واعتبروا انتماءه إلى لبنان تصنّعاً وأنه يضمر طموحاً لدمج البلاد في كيان عربـــي واسع، يغرقون فيه وسط غالبية مسلمة. لتهدئة هذه المخاوف، بذل رياض الصلح جهوداً كبيرة لإبراز شخصيته اللبنانية، وإظهار نفسه بأنه من أشدّ المدافعين عن حـــدود لبنان الجديدة حماسة. لقد شعر أن عليه الذهاب بعيداً في هذا الاتجاه، ما جعل العديـــد مـــن أصدقائه والمعجبين به في المنطقة يأسفون على ما ظنّوه تراجعاً في التزامه بأهداف القومية العربية.

---

(1) رسالة إلى المؤلف من الأستاذ وليد الخالدي.

مطامح بشارة الخوري

مـــا مـــن شك في أن الرئيس بشارة الخوري كان يشترك مع رياض الصلح في الـــسعي إلى بناء دولة قوية ومستقرة في لبنان، وإيجاد الشعور المشترك بالمواطنة بعدما أنكـــرته الـــسياسات الفرنـــسية. لكن أولويات الرئيس الفورية لم تكن متطابقة مع أولـــويات ريـــاض الـــصلح. فقد عمد الرئيس إلى إعادة رياض الصلح إلى السلطة في كانون الأول/ديسمبر 1946 من أجل هدف أساسي واحد: إجراء الانتخابات في ربيع 1947 - وهـــي انـــتخابات تكتسب أهمية شخصية بالنسبة إلى بشارة الخوري. فعلى الـــرغم من أن مدة رئاسته البالغة ست سنوات تنتهي في سنة 1949، فإنه كان عازماً على الفوز بولاية ثانية. ويحلم بالاستمرار في السلطة وإخراج منافسه القديم، إميل إده، من الساحة السياسية تماماً. ولكن الدستور لا يسمح لرئيس الجمهورية بولاية ثانية. لذا كان بشارة الخوري بحاجة إلى مجلس نواب مطيع يوافق على تعديل الدستور قبل نهاية مـــدة رئاسته، ويعرف أن رياض الصلح هو رئيس الوزراء المسلم الوحيد القادر على تأمين انتخاب مثل هذا النوع من المجلس.

وهكـــذا وجـــد رياض الصلح نفسه عند اختيار زملائه في الحكومة مرغماً على الاهـــتمام بـــرغبة بشارة الخوري في الفوز في الانتخابات القادمة، أكثر من الاهتمام بـــشروطه الخاصـــة لاختيار رجال ذوي كفاءة وقادرين على المساعدة في بناء الدولة. لكـــن كـــان علـــيه أن يحرص أيضاً على عدم تمكّن الشخصيات التي يستبعدها عن الحكـــومة مـــن تشكيل تكتّل قوي يمكن أن يؤثّر على نتائج الانتخابات. وهكذا فإن الحكـــومة الـــتي شـــكّلها في كانـــون الأول/ديسمبر 1946 كانت ائتلافاً يجمع بين شخصيات رئيسية من جميع الطوائف - الأصدقاء بالإضافة إلى الأعداء. ولم يكن من المفارقة أن توصفت تلك الحكومة أنها "حكومة الكبار".

عـــند تشكيل هذا الائتلاف، كان على رياض الصلح أن يرضي غرور العديدين وطمـــوحاتهم الفـــردية، ويحيّد الخصومات المستمرة بين الأحزاب والمذاهب والمناطق، والتوفيق بين التيارات المختلفة في مجلس النواب، والتعامل مع تدخّلات القوى الخارجية الحقيقية أو المفترضة. وعلى الرغم من المكانة الشخصية التي يتمتّع بها رياض ومهاراته السياسية الأكيدة، فإنه أُجبر على تقديم تنازلات كبيرة إلى خصومه والنأي بنفسه عن

أكثـــر مؤيديه ولاء. اضطر إلى ممارسة اللعبة بما يتوافق مع النظام السياسي الذي يعاني مـــن عـــيوب عميقة يمقتها بشدّة. في ذلك الوقت، كانت الطائفية متفشية وغير قابلة للإصـــلاح، وزعمـــاء العائلات وكبار رجالات البلد ووجهاء المدن يتصارعون على السلطة - ومغانمها - غافلين عن العاصفة التي تحتشد في المنطقة حولهم.

لم يـــستطع ريـــاض الصلح، على سبيل المثال، أن يستبعد من حكومته خصمه الرئيسي، القطب الكاثوليكي هنري فرعون، فأعطاه وزارة الخارجية. وكان فرعون قد شـــغل منصب وزير الخارجية من قبل في سنة 1945، ونجح عند إنشاء جامعة الدول العـــربية في التخفيف من مضمون مقترحات بروتوكول الإسكندرية المتواضعة أصلاً، لمـــنع أي إشـــارة إلى طغـــيان القومية العربية على استقلال لبنان. كما كان فرعون شخصية بارزة على الصعيد الاجتماعي ومن أكبر مالكي ميدان سباق الخيل، بالإضافة إلى تمتّعه بثقل انتخابـــي كبير. وقد قامت قوته على ثروته الكبيرة وشخصيته المنفتحة وعلاقاتـــه الواسعة من جهة، وعلى دعم الزعيم الدرزي كمال جنبلاط في جبل لبنان، والكـــتائب اللبنانـــية بـــزعامة بيار الجميل في بيروت من جهة أخرى. وكانت هاتان الفئتان تناصبان حكومة رياض الصلح السابقة العداء، مثلها مثل هنري فرعون.

باختـــصار، ســـيطرت شخصيتان قويتان على الحكومة الجديدة: رياض الصلح وهنري فرعون. وعلى الرغم من عدم ثقة أحدهما بالآخر، فقد قررا أن يحسّنا علاقتهما في سبيل الفوز في الانتخابات. رحّب الفرنسيون بتعيين فرعون. فهم لم ينسوا الاهتمام الذي أبداه نحو مصالحهم في الفترة الحرجة بين أيار/مايو وحزيران/يونيو 1945، عندما أثار قصفهم مدينة دمشق مشاعر معادية لفرنسا في لبنان.

ولـــتوفير مزيد من الارتياح إلى الرأي العام المسيحي، أنشأ رياض حقيبة جديدة للاهتمام بالمغتربين اللبنانيين وعهد بها إلى فرعون أيضاً. لم يكن الشتات اللبناني الواسع في أميركـــا الـــشمالية والجنوبية، والجالية اللبنانية في غرب أفريقيا، راضين عن فكرة دخول لبنان فلك السياسة العربية، بل يريدانه منفتحاً على العالم. ويمتلك هذا الشتات مقدّرات مالية كبيرة يمكن أن تكون مؤثّرة خلال الانتخابات.

في تـــنازل آخر، عيّن رياض الصلح ثلاثة من حلفاء فرعون في مناصب وزارية: الزعيم الدرزي كمال جنبلاط وزيراً للاقتصاد الوطني والزراعة، وأعطي كذلك وزارة

الشؤون الاجتماعية التي أنشئت حديثاً لمحاربة الفقر وتخفيض البطالة؛ وعبد الله اليافي المحامي السنّي المؤيّد لفرنسا، والذي لم يكن محبوباً بين المسلمين، وزيراً للعدل؛ وعيّن الزعيم الشيعي صبري حمادة في منصب وزير الداخلية الحساس.

كان صبري حمادة زعيم إحدى أبرز العائلات الشيعية في البقاع، ويُقال إنها تستحوذ على تأييد 60 ألفاً من المناصرين. وقد شغل منصب رئيس مجلس النواب في سنتي 1943 و1944 وكان الفرنسيون، والسلطات اللبنانية في ما بعد، حريصين على إرضائه بسبب قدرته على إثارة المشكلات في منطقة البقاع الشمالي البعيدة. وقد أدّى تعيينه وزيراً للداخلية إلى جعله نائباً لرئيس الوزراء من الناحية العملية. وهكذا كسر رياض التقليد بجعل مسلمين على رأس الحكومة - هو وصبري حمادة، أحدهما سني والآخر شيعي.

كان الرئيس بشارة الخوري راغباً في أن يملأ رياض الحكومة بأعضاء من الحزب الدستوري، لكن رياض لم يوافق على ذلك. فقد تراجع حزب الرئيس، الحزب الدستوري، في جبل لبنان بعد تولّي السلطة، وتلطخت سمعته بسبب سوء تصرفاته الكثيرة. كما أن كثيراً من الأشخاص الواردة أسماؤهم في لائحة الشيخ بشارة قد فقدوا صدقيتهم. ولو دخلوا الحكومة لأثاروا معارضة كبيرة في الانتخابات، ولأتى ذلك بعكس النتيجة المرجوّة. لذا اقتصر رياض على ثلاثة أسماء من الحزب الدستوري: الماروني كميل شمعون وزيراً للمالية، والأمير الدرزي مجيد أرسلان وزيراً للدفاع والصحة، والماروني الدكتور الياس خوري وزيراً للتربية. كان الدكتور خوري صهر الدكتور بعقليني، طبيب رئيس الجمهورية الخاص. ويمكن الاعتماد عليه لإبقاء بشارة على علم بكل حركة يقوم بها رياض.

لم يكن كميل شمعون، وهو محامٍ قدير وطموح من بلدة دير القمر المارونية، ينتمي إلى الحزب الدستوري إلا بالاسم فقط، إذ إن ذلك سيساعده في تحقيق طموحه بالحلول يوماً ما محل بشارة الخوري في رئاسة الجمهورية. وقد تعزّزت مكانته بعد أن أنهى مهمته سفيراً للبنان في لندن. وربما جاء تعيينه وزيراً في الحكومة بمثابة إيماءة صداقة نحو بريطانيا، لأن الفرنسيين اعتبروه جاسوس بريطانيا في الحكومة. كان بشارة الخوري يدرك أن شمعون وفرعون خصمان محتملان له في الرئاسة في المعسكر المسيحي، لذا عقد العزم على إضعافهما إذا أمكنه ذلك.

استطاع رياض أن يحقق إنجازاً كبيراً بإدخاله الزعيمين الدرزيين المتنافسين، كمال جنبلاط والأمير مجيد أرسلان في الحكومة نفسها. على الرغم من أن جنبلاط، الذي كان في التاسعة والعشرين من العمر فقط، أظهر ذكاء وطموحاً، فإنه آثر العزلة واتسم بالخجل إلى حدٍّ ما. كان لا يزال خاضعاً لسيطرة والدته، الست نظيرة جنبلاط، ذات الشخصية القوية. أما الأمير مجيد أرسلان، فهو بطل بشامون، ولا يمكن تجاهله.

كان كل هؤلاء الرجال يناورون لتعزيز مكانتهم. انضم كميل شمعون على الفور إلى كمال جنبلاط في الهجوم على الإدارة التي اتهمها بالفساد، وبالتالي هاجم رئيس الجمهورية نفسه بطريقة غير مباشرة. غير أنه في سعيه لتحسين حظوظه السياسية، ارتكب خطأ إهمال الحصول على الدعم الإسلامي المناسب. تجنّب هنري فرعون هذا الشَّرَك بتحالفه الوثيق مع رئيس الوزراء السابق عبد الحميد كرامي، لكنهما ارتكبا معاً خطأً تكتيكياً كبيراً. ففي سعيهما لتخويف خصوم كرامي في طرابلس - عائلة المقدّم - أبرزا مكانة المحارب الوطني فوزي القاوقجي الذي وصل إلى طرابلس في 5 آذار/مارس 1947، وحظي باستقبال الأبطال.

كان القاوقجي يتمتع بشعبية كبيرة كمحارب جسور ضد الاستعمار. فقد شارك في الثورة على الفرنسيين في سوريا في سنة 1925، وفي الثورة العربية في فلسطين في سنة 1936، وثورة رشيد عالي الكيلاني على البريطانيين في العراق في سنة 1941 (وأصيب في وجهه خلال غارة جوية بريطانية). بعد ذلك هرب إلى ألمانيا حيث أمضى الفترة الأخيرة من الحرب هناك وتزوج بسيدة ألمانية. وفي أعقاب الحرب، حقّق مأثرة كبيرة أخرى بتمكّنه من الهرب من ألمانيا الشرقية، التي احتلّتها روسيا، إلى باريس ثم إلى لبنان (عبر أحد المطارات في فلسطين حيث كاد البريطانيون أن يقبضوا عليه). غير أن الاحتفالات الصاخبة المرحبة بعودته إلى طرابلس سرعان ما تحوّلت إلى معركة بالأسلحة النارية بين مناصري آل كرامي ومناصري آل المقدم. لقي أربعة عشر شخصاً مصرعهم وجرح الكثيرون غيرهم. فوجّه هذا الحادث البشع ضربة كبيرة إلى مستقبل عبد الحميد كرامي السياسي.

اختير خمسة وزراء في الحكومة، المكوّنة من تسعة وزراء، من جبل لبنان، في حين لم يتم اختيار أي وزير من شمال لبنان. بدا من المؤكد أن يمثّل حميد فرنجية، صديق

رياض القدم، شمال لبنان في الحكومة، لكنه أضرّ بحظوظه عندما ابتعد عن عبد الحميد كرامي (الذي كان عضواً معه في لائحة انتخابية مشتركة في سنة 1943) واقترب من عائلة المقدم. كما أبدى هنري فرعون، حليف كرامي، معارضة شديدة لتعيين فرنجية في الحكومة. لذا فضّل عدم تعيين أحد من شمال لبنان على أن يختار واحداً من اللائحتين المتنافسين في تلك المنطقة. وكانت مكانته الشخصية تتيح له اتخاذ مثل هذا القرار المثير للخلاف من دون التعرّض لعواقب وخيمة.

لم يكن تماسك حكومة رياض قائماً على أي مبادئ أو أهداف مشتركة، وإنما على الرابطة القوية بين المصالح الشخصية الانتخابية لأعضائها. وقد أدرك رياض ذلك، لذا استمع بازدراء إلى الانتقادات التي وجّهت إلى بيانه الوزاري في مجلس النواب في 21 كانون الأول/ديسمبر 1946. مع ذلك، كان على يقين من حصوله على تأييد جماعي، لأنه سيجري انتخابات يتوقّف عليها كثير من المسارات المهنية السياسية والمالية.

انتخابات 1947 المعيبة

سيطرت الانتخابات على المشهد السياسي اللبناني الداخلي في قسم كبير من سنة 1947، وطغت على تطوّرات إقليمية حاسمة مثل قرار بريطانيا إحالة مشكلة فلسطين إلى الأمم المتحدة، بعد فشل مؤتمر لندن بشأن فلسطين. انهمك رياض تماماً في الانتخابات التي وصفها بأنها "استفتاء على النظام". جرت الانتخابات على مرحلتين في 25 أيار/مايو و1 حزيران/يونيو. انتخب 17 نائباً عن جبل لبنان من إجمالي 55 نائباً. لم يكن جميع هؤلاء من الصف الأول، لكن رياض بذل جهداً لإرضاء جميع الأطراف هناك تكريماً لمنطقة الجبل التي يعتبرها المسيحيون معقل الاستقلال اللبناني.

جاءت تركيبة حكومة رياض الصلح بمثابة ضربة موجعة إلى إميل إده. اتّضح أن بشارة الخوري تجاوزه في السباق السياسي بتحالفه مع رياض الصلح. بذل إده أقصى ما لديه للردّ، لكن من دون جدوى. وعندما أبدى المونسنيور أغناطيوس مبارك، وهو مطران بيروت الماروني ووطني لبناني متحمس، دعمه لإده، استخدم بشارة الخوري كل الوسائل القانونية وغير القانونية لإسكات منافسه. أرسل أعداداً كبيرة من الدرك

إلى جبل لبنان للتغلّب على مناصري إده. وعندما جاءت الانتخابات الفعلية في ربيع 1947، لم يتردد في التلاعب بها في مراكز التصويت[1].

فاز 47 مرشحاً من الأحزاب المؤيدة للحكومة من بين ما مجموعه 55 مقعداً. هُزم إميل إده وكتلته. واحتفظ فرعون وشمعون بمقعديهما، لكنهما عادا إلى المجلس مجرّدين من العديد من مؤيّديهما. وفي طرابلس، رفض عبد الحميد كرامي الترشّح للانتخابات من الأساس بعدما جرى التغلّب عليه بالحيلة والمكر. نجح شمعون في استبعاد "السلطان" سليم الخوري المثير للخلاف من لائحة الدستوريين الرسمية في جبل لبنان، لكنه لم يستطع منعه من تأليف لائحة ثانية والفوز بمقعد في المجلس. وكان هذا التفرّق في صفوف الدستوريين مسؤولاً إلى حدٍّ كبير عن المخالفات التي شابت الانتخابات في جبل لبنان وأدّت إلى استقالة كمال جنبلاط، وإصرار شمعون على إنشاء لجنة تحقيق.

أقصيت المعارضة إلى حدٍّ كبير من مجلس النواب، فاتهمت الحكومة بإصدار لوائح مقترعين مزوّرة ووضع رجالها في مراكز الاقتراع وتزوير النتائج. كانت الضغوط الحكومية منتشرة بالفعل، بالإضافة إلى حرية استخدام النقود من قبل المرشحين المحتملين لشراء معارضيهم. حاول المرشحون الخاسرون إجبار الحكومة على إلغاء نتائج الانتخابات وإجراء انتخابات جديدة، لكن بشارة الخوري ورياض الصلح رفضا ذلك بشدة.

عندما أصبح رياض الصلح رئيساً للوزراء في تشرين الأول/أكتوبر 1943، وعد بإصلاح قانون الانتخابات المعقّد، الذي يقوم على نظام اللوائح. لكنه لم يستطع القيام بذلك ربما لأن النضال ضد الفرنسيين لم يترك له ما يكفي من الوقت والطاقة للقيام بأي شيء آخر. لكنه في سنة 1947، بدلاً من الإقدام على إصلاح قانون الانتخابات الذي تأخر مدة طويلة، استغلّ وحكومته هذا القانون للمجيء بمجلس النواب المطيع الذي يريده الرئيس بشارة الخوري - إلى حدّ تقرير من سيكون أعضاؤه قبل إجراء الانتخابات! شعر رياض بالألم من اتهامه بتزوير الانتخابات، فاستقال بعد الانتخابات على الفور، غير أن الرئيس كلّفه بتشكيل حكومة جديدة على الفور. اعترف الرئيس

---

(1) MAE-Nantes Beyrouth (Amb.), série 199A4, carton 20, Armand de Chayla, Ministre de France, à Georges Bidault, Ministre des Affaires Etrangères, 21 mai 1947.

لاحقاً في مذكراته بحدوث مخالفات، حيث أزال بعض المسؤولين أسماء الناخبين المتغيّبين من لوائح الشطب، وحشوا صناديق الاقتراع بأصوات يزيد عددها على أعداد الناخبين. وقد اعترف آسفاً عند استذكار تلك الأحداث أن ذلك لم يكن قانونياً وألحق به الضرر، وأنه كان في وسعه الفوز من دونه[1].

على أي حال، حقّقت الانتخابات المعيبة النتائج التي أرادها الرئيس. في 9 نيسان/أبريل 1948، وقّع 46 نائباً عريضة لتعديل الدستور وتمكين بشارة الخوري من الترشح لولاية ثانية. وفي 21 نيسان/أبريل أقرّ مجلس النواب التعديل الدستوري. وفي 27 أيار/مايو، في جلسة خاصة لمجلس النواب، وافق الأعضاء آل 46 الحاضرون على إعادة انتخاب الرئيس بالإجماع. لم يشارك في الجلسة تسعة نواب، بينهم شمعون وفرعون وجنبلاط. كان الدور الذي لعبه رياض الصلح في هذه الوقائع شديد الأهمية. كان يدرك أنه يرتكب خطأ سياسياً فادحاً، لكنه اعتاد على العمل مع بشارة الخوري، ولم يكن راغباً في تعكير علاقتهما الطويلة الأمد. حاول ميشال شيحا جاهداً إقناع بشارة الخوري، صهره، بعدم الإقدام على محاولة التجديد لأن الرأي العام سيعارض ذلك بطبيعة الحال. لكن الرئيس لم يقتنع بالعدول عن ذلك.

وهكذا حصل بشارة الخوري على ما أراد من انتخابات 1947، وتوطّدت مكانة رياض الصلح. فتمكّن من ترؤّس أربع حكومات متتالية خلال السنوات الأربع التالية، وكانت حكومات "الرجل الواحد" بفضل تفوّقه الشخصي.

الخلاف بشأن مصبّ التابلاين

انشغل رياض الصلح طوال سنة 1947 بنزاع طويل ومرير مع سوريا بشأن موقع مكان مصبّ خط لأنابيب النفط[2]. ففي نهاية سنة 1946، بدأت شركة أرامكو الأميركية التشاور مع بعض الحكومات العربية بشأن خطة التابلاين (شركة خط

(1) بشارة الخوري، **حقائق لبنانية**، الجزء 3، ص 30.

(2) هذه الرواية عن النزاع السوري اللبناني بشأن مشروع التابلاين والاتفاق النقدي مع فرنسا مستقاة إلى حدٍّ كبير من Youssef Chaitani, *Post-Colonial Syria and Lebanon*, London 2007, Chapters 3 and 4.

أنابيب الزيت الخام عبر البلاد العربية) لبناء خط بطول 1000 ميل يمتدّ من الخليج العربي إلى البحر المتوسط.

لم يوافق السوريون على مرور هذا الخط عبر أراضيهم إلا إذا بني المصب على الساحل السوري في اللاذقية. غضب اللبنانيون لأنهم خافوا من أن يدفع العناد السوري أرامكو إلى البحث عن مكان آخر، ومدّ الخط عبر الأردن وفلسطين بدلاً من ذلك. ليّن السوريون موقفهم بعد ذلك، واقترحوا مصباً على الحدود السورية - اللبنانية قرب طرابلس، لكن المهندسين الأميركيين رفضوا الاقتراح. وعندما أشارت بيروت إلى أن من غير المنطقي بناء مرفأ جديد، إذ إن هناك عدة مرافئ مجهّزة في لبنان، وافق السوريون على أن يكون المصب في لبنان.

أثار السوريون بعد ذلك مسألة رسوم الترانزيت التي أصروا على تقاضيها ذهباً. كما أرادوا أن تزوّدهم شركة أرامكو بـ 400000 طن من النفط بأسعار تفضيلية - الميزة نفسها التي أعطتها شركة أرامكو للملك عبد العزيز ابن سعود عندما منحها امتيازاً في المملكة. أشارت أرامكو إلى أن هنالك فرقاً كبيراً بين امتياز التنقيب واتفاقية الترانزيت لكنها مستعدة لتلبية بعض المطالب السورية، وضغطت في الوقت نفسه على الحكومة السورية للموافقة على الاتفاقية حتى يمكن العمل بأقصى سرعة ممكنة. وفي لبنان، خشيت الدوائر السياسية والاقتصادية من أن تؤدي التأخيرات السورية إلى انهيار مشروع التابلاين بأكمله. بل إن ابن سعود عبّر عن انزعاجه من التأخير السوري أمام صديقه الرئيس شكري القوتلي.

عندما هدّد الأميركيون بالتخلي عن المشروع، قام رياض الصلح برحلات مكوكية بين مختلف الأطراف المختلفة خلال شهري تموز/يوليو وآب/أغسطس، في محاولة للتوفيق بين المطالب السورية ومصالح شركة أرامكو. وقد أثمرت جهوده في آخر الأمر. ففي نهاية آب/أغسطس وقّعت سوريا وأرامكو اتفاقية تبعتها اتفاقية معدّلة بين لبنان وأرامكو في أيلول/سبتمبر، تأخذ في الحسبان الامتيازات التي حصلت عليها سوريا من الشركة. وبحلول كانون الأول/ديسمبر 1947، كانت العقبة الوحيدة المتبقّية تصديق سوريا على الاتفاقية. غير أن ذلك واجه مشكلة جدية. فقد أثار الدعم الأميركي لتقسيم فلسطين عاصفة من المشاعر المعادية للولايات المتحدة، فتعذّر على الحكومة السورية المضي قُدُماً في المشروع.

لم يكن ذلك النزاع الوحيد الذي أفسد العلاقات بين بيروت ودمشق. فثمة مسألة أساسية أخرى أكثر أهمية هي علاقتهما مع فرنسا. عندما نال لبنان استقلاله، ووجّه رياض الصلح اهتمامه على بناء الدولة، قرّر إصلاح العلاقة مع الدولة المنتدبة السابقة. فبعدما تغلب على الفرنسيين في تشرين الثاني/نوفمبر 1943، وأقصى أصدقاءهم المحليين مثل إميل إده، وأجبر قواتهم على الجلاء عن البلاد، وجد أنه لا حاجة إلى إثارة مزيد من العداوة معهم. بل خلافاً لذلك، شعر أن لبنان بحاجة إلى حلفاء غربيين، وأن فرنسا يمكن أن تكون من بينهم. فقد خرجت فرنسا ضعيفة من الحرب العالمية الثانية، لذا تراجعت قدرتها على فرض إرادتها على العرب، وهذا ما جعلها أكثر جاذبية في نظر رياض. وخلافاً للسوريين – الذين ما زالوا غاضبين من الوحشية الفرنسية – قدّم رياض إيماءات ودّية نحو باريس. وسرعان ما ظهر ميله إلى فرنسا على السطح، وقرّر حلّ كل المشاكل العالقة مع الفرنسيين بروح تصالحية. ففي النهاية، العلاقات الحسنة مع فرنسا شرط مسبق للسلم الداخلي في لبنان، لا سيما أن العديد من اللبنانيين ظلّوا مؤيّدين لفرنسا. غير أن السوريين لم يشاركوه في هذا الموقف. فبقيت علاقاتهم مع باريس مشوبة بالعداء والشك العميق بسبب ما تعرّضوا له على يد الفرنسيين – لا سيما قصف دمشق وإحراقها، وسقوط خسائر كبيرة في الأرواح والممتلكات.

حظي نهج الصداقة الذي اتبعه رياض بتقدير كبير من سفير فرنسا الجديد في بيروت، أرماند دو شيلا Armand de Chayla، الدبلوماسي المحترف الذي أرسل إلى بيروت عندما اعترفت فرنسا رسمياً باستقلال لبنان وسيادته في 8 تموز/يوليو 1946. فعمد على الفور إلى التحدّث بلهجة مختلفة جداً عن اللهجة التسلّطية التي استخدمها المفوّضون السامون والمندوبون العامّون الفرنسيون في الماضي. وفي تقرير أرسله إلى باريس عن حكومة رياض الصلح الجديدة كتب دو شيلا:

لا حاجة بي إلى وصف نائب جنوب لبنان ذي الشخصية القوية المعروفة في باريس بقدر ما هي معروفة هنا. لقد ظلّ داعية للقومية العربية طوال أكثر من خمسة وعشرين عاماً. إنه محرّض للجماهير متميّز وشجاع... لكنه لا يضمر ذلك الحقد الشخصي الذي يمكن أن يجعل منه عدواً صغيراً. وغالباً ما يستعيد مناوشاته القديمة مع

الأمـــن العام الفرنسي، لإثارة الضحك. وعند ذكر مثل هذه الحوادث، فإنه يعمد عادة إلى إقحـــام كلمة عن الصداقة مع فرنسا اليوم، وهو ما يثير الدهشة - وينمّ عن صدق واضح - لأن ذلك كان يلي عادة الإشارة إلى أنه كان عدواً صلباً للانتداب. إنه يجب الإشارة إلى صداقته مع رجال اليسار، واحتفاظه بذكريات قوية عن اتصالاته مع قادة الحـــزبين الاشتراكي والشيوعي الفرنسيين قبل الحرب، ويعلن أنه لا يزال يعتمد عليهم لتقديم الدعم.

مـــا الأهـــداف الـــتي يسعى إليها رياض الصلح على المدى الطويل، خلف هذه الواجهة المُرضية؟ إن هذا الزعيم السنيّ لا يتسم بكره الأجانب أو التطرّف. لكنه أخذ من دينه وعرقه صفتيّ إخفاء المشاعر والصبر الرائعتين... وبغض النظر عما يقوله، فإن حلمه لا يمكن أن يظل محصوراً ضمن حدود لبنان. فسياسته التي تشدّد على استقلال لبـــنان مـــا هـــي إلا ما يعتبره ضرورياً في هذه المرحلة. إن قامته كبيرة جداً كي يمتدّ طموحه، بطريقة أو بأخرى، إلى مشروع الوحدة العربية الكبيرة[1].

علـــى الرغم من علاقات رياض الجديدة الودية مع فرنسا، فقد بقيت بعض مجالات التوتّر التي يتصل معظمها بمسائل غير محسومة تتعلق بفترة الانتداب. ومن أهم هذه الأمور مـــسألة الضمانات الفرنسية بعدم خفض قيمة الفرنك الذي يشكّل غطاء العملتين السورية واللبنانية. رأى الفرنسيون أن التزاماتهم بموجب الاتفاق المالي لسنة 1944 قد جرى تنفيذها بدفع مبلغ من المال، قبل مدة من الوقت، ذي صلة بالتخفيض السابق لقيمة الفرنك. لكن الحكومـــتين السورية واللبنانية رفضتا هذه المقولة. ورأتا أن ذلك يعني انسحاب فرنسا من جانـــب واحد من الاتفاقية، تاركة عملتيهما واقتصاديهما عرضة للتقلبات المضرّة، كما كان الأمر في السابق. لإعادة فتح المفاوضات، زار وزير الخارجية اللبناني الجديد حميد فرنجية - الذي حلّ محل هنري فرعون في تعديل وزاري أجري في حزيران/يونيو 1947 - باريس في أيلول/سبتمبر من ذلك العام.

علـــى الرغم من عدم التوصّل إلى اتفاق نهائي، فإن الفرنسيين أبدوا استعدادهم لضمان جزء كبير من غطاء العملة، وجعل الرصيد متوفراً على شكل صادرات فرنسية

---

(1) MAE-Nantes Beyrouth (Amb.), série 199A4, carton 20, Armand de Chayla, Ministre de France, à Léon Blum, Premier Ministre et Ministre des Affaires Etrangères, 26 Décembre 1946.

أو بعمــلات أجنبــية، ما عدا الدولار. رأى اللبنانيون أن هذا العرض معقول، لكن السوريين، الذين لا يزالون مرتابين بفرنسا، لم يميلوا إلى القبول به. أدى هذا الاختلاف في الــرأي إلى إذكاء التوتّر ثانية بين بيروت ودمشق وفاقم النــزاعات القائمة بشأن الرسوم الجمركية والتعرفات، والسياسة الاقتصادية بصورة عامة. فقد واصلت سوريا تفــضيل سياسة حماية زراعتها وصناعتها، بينما فضّل لبنان التجارة الحرة، معتقداً أن تلــك هــي الوسيلة الفضلى للجم الأسعار في بلد يعاني بشدّة من التضخّم الجامح في مــرحلة ما بعد الحرب. كان الشغل الشاغل للحكومتين محاربة ارتفاع تكلفة المعيشة، الذي لام كل منهما الآخر بشأنه.

في لبــنان، كان الشعب يطالب بخفض سعر الخبز، ويحثّ السياسيين على تعديل اتفــاق الحبوب السوري اللبناني. واعتبر الوطنيون اللبنانيون أن الوحدة الاقتصادية مع ســوريا غير طبيعية ومصطنعة، وأن الفرنسيين أقاموها لخدمة مصالحهم الذاتية ومصالح سوريا. غير أن السوريين شعروا أن بلادهم كلها، بما في ذلك دمشق، تقلّصت لتصبح مجــرد مــنطقة مقاصّــة جمركية خاضعة لبيروت. وطالب التجار السوريون النافذون زعماءهم بالتشدد مع لبنان وتسريع تطوير مرفأ سوري في اللاذقية.

شــكّلت بيروت مصدر بعض الحسد للسوريين الذين كانت البنية التحتية لديهم من مرافئ وفنادق ومطارات وسكك حديدية لا تزال ضعيفة. كان المسافرون يسرّون بــأن يــبدؤوا رحلــتهم من أوروبا إلى العراق وإيران والهند في بيروت، حيث يلقون اســتقبالاً جيداً ويشعرون بالراحة. لكن لم يكن هناك ما يربط بيروت بدمشق سوى طريق رديء الصيانة أنشئ في ستينيات القرن التاسع عشر وخط سكة حديدية يصلح لــنقل الفحــم والأحجار أكثر مما يصلح لنقل المسافرين. في محاولة لحل الخلافات مع ســوريا، بــذل رياض الصلح كثيراً من الوقت والجهد متنقلاً بين اجتماعات وزارية مكوكية في دمشق وبيروت، بالإضافة إلى شتورة، في سهل البقاع عند منتصف الطريق بــين الــبلدين. لكن الخلافات استمرت، وكذلك المشاعر العدائية لدى الجانبين التي تؤججها الصحافة في البلدين.

كانت المفاوضات مع الفرنسيين مستمرّة منذ تشرين الأول/أكتوبر 1947، لكنها تأزّمــت بإجــراء تخفــيض جديــد لقيمة الفرنك، وقيام باريس بتحديد 31 كانون

الثاني/يناير 1948 آخر موعد لتلقّي ردي حكومتي لبنان وسوريا على اقتراحاتها. طلب رياض نصيحة كبار رجال الأعمال والمصرفيين. أجمع رأي هؤلاء على أن فصل العملتين - الليرة السورية عن الليرة اللبنانية - لن يكون قاتلاً ولن يؤدي بالضرورة إلى تدمير الوحدة الجمركية السورية اللبنانية. لذا أعلن رياض الصلح قبول الاقتراحات الفرنسية، بينما رفضتها سوريا. رحّب المسيحيون بقراره، وكان يمكن أن يرفضه المسلمون لولا دفاعه المقنع عنه[1]. كان رياض مقتنعاً أن قراره صائب، بينما عبّر خالد العظم، وزير المالية السوري، عن قناعته أن رياض ارتكب غلطة اقتصادية وسياسية فادحة.

في 6 شباط/فبراير 1948، وقّع حميد فرنجية، وزير الخارجية اللبناني، اتفاقاً مالياً في باريس مع وزير الخارجية الفرنسي، جورج بيدو. استشاط السوريون غضباً، واعتبروا الاتفاق خيانة للقضية الوطنية العربية. اتُّهم رياض أنه تخلّى عن تعهّده الشهير ألا يكون لبنان للاستعمار مقراً ولا ممراً إلى سوريا. كتبت جريدة **القبس** اليومية التي كان يرأس تحريرها نجيب الريس، أحد رفاق رياض في النضال القومي العربي غاضبة: "كنا نتوقّع أن تفعل فرنسا كل ما في وسعها ضد بلادنا، لكننا فوجئنا جداً أن تشارك في لبنان حكومة برئاسة رجل مثل رياض الصلح في هذه المؤامرة"[2].

آلمت مثل هذه الانتقادات رياض الصلح كثيراً، وهو الذي كرّس جلّ حياته في سبيل القضية الوطنية العربية والوفاق السوري اللبناني على وجه الخصوص. وكان الحكام الوطنيون في دمشق أقرب حلفائه السياسيين طوال عقود. فغضب مما اعتبره محاولة غير عادلة لخلط الوطنية بالاقتصاد. دعا السوريون لبنان إلى التخلّي عن الاتفاق مع فرنسا أو المخاطرة بالانفصال عن سوريا. ردّ رياض الصلح على الاتهامات السورية المؤلمة بعبارات عربية مفرطة التضخيم: "ليقطع لساني إذا قلت شيئاً لا يعبّر عن الصداقة مع السوريين، ولتقطع يدي إذا وقّعت أي اتفاق يتعدّى على سيادة لبنان أو سوريا"[3].

---

(1) Beirut Political Summary, January 1948 (FO 371/68489).

(2) **القبس**، دمشق، 4 شباط/فبراير 1948.

(3) **النهار**، بيروت، 6 شباط/فبراير 1948.

بيد أن الخلاف تجاوز، في هذا الوقت، الأمور الاقتصادية كثيراً وأثر في كل ناحية من نواحي العلاقة بين لبنان وسوريا. رحّبت الصحف الموالية لفرنسا في بيروت بقرار سوريا الخروج من منطقة الفرنك لأنه كما يعتقدون يعني أن لبنان قد انفصل عن سوريا أخيراً، وهذا ما كانوا يرغبون فيه دائماً. لذا تُركت العملة السورية، التي كانت حتى ذلك الوقت مدعومة بالفرنك الفرنسي، من دون دعم.

أعلن السوريون في شباط/فبراير أنهم ينوون إصدار عملة جديدة ومستقلة. ونتيجة لذلك، توقفت كل الأنشطة التجارية في لبنان حيث حاصر اللبنانيون المصارف وهم يحاولون، من دون جدوى، استبدال عملتهم السورية. أغلقت الحدود أكثر من أسبوعين، من 2 إلى 19 شباط/فبراير، أمام مرور البضائع والعملات. فأحدث ذلك نقصاً فورياً في المواد الغذائية في لبنان - وخاصة الخضراوات التي تأتي تقليدياً من سوريا - وارتفعت الأسعار نحو 50 بالمئة في بضعة أيام.

لاح خطر قطع العلاقات بين البلدين الشقيقين. أرسل ابن سعود رسالتين عاجلتين إلى رئيسي جمهوريتي البلدين حثّهما فيهما على تجنّب مثل هذا الاحتمال. ودعا رياض الصلح إلى تحكيم تجريه جامعة الدول العربية. وقال إنه سيقبل حكمها، أياً يكن هذا الحكم، وسيستقيل إذا كان لغير صالحه. عقدت مفاوضات رأسها عزام باشا، الأمين العام لجامعة الدول العربية، في القاهرة وبيروت، وبعد كثير من الحدّة والمرارة، تمّ التوصل إلى اتفاقات قصيرة الأجل في شباط/فبراير وآذار/مارس 1948، إلى أن طغت نكبة فلسطين على هذا النزاع التعيس.

علاقات رياض الصلح ببريطانيا

كان رياض الصلح معجباً ببريطانيا، مثله مثل كثير من العرب من أبناء جيله، ويميل إلى المبالغة في تقدير قوتها وذكائها. وذلك ليس أمراً مفاجئاً، إذ إن بريطانيا بسطت سيطرتها على الشرق الأوسط منذ عقود عديدة، وأثبتت حضورها الفاعل في جميع أنحاء المنطقة. كان البريطانيون يمتلكون قواعد عسكرية في العراق، ومصر وفلسطين، وعدن، وجنوب شبه الجزيرة العربية، والخليج العربي، وقبرص، والعديد من الأماكن الأخرى، ويمارسون هيمنة عليها. وثمة طرفة عربية أن الزوج إذا تشاجر

مــع زوجــته فإن البريطانيين سيعلمون بذلك. على الرغم من أن قليلاً من الوطنيين العرب تحوّلوا نحو ألمانيا في الحرب العالمية الثانية بسبب نفورهم من السياسة البريطانية في فلسطين العربية، فإنه لم يكن من المفاجئ جداً لمعظم العرب أن تتمكّن بريطانيا من الانتــصار علــى هتلر في النهاية. ولا شك في أن معظم السوريين كانوا يفضلون أن يعيــشوا تحت الانتداب البريطاني بدلاً من الانتداب الفرنسي في فترة ما بين الحربين. ويرجع ذلك إلى أن بريطانيا، خلافاً لفرنسا، تميل إلى منح العرب بعض الحرية في إدارة شــؤونهم المحلية - شرط انقيادهم لها في الشؤون الاستراتيجية والخارجية. على سبيل المــثال، تمتع نوري السعيد، رجل بريطانيا في العراق، باستقلالية واحترام كبيرين تحت المظلة البريطانية الواقية.

لكــن فلــسطين كانــت الاستثناء الصارخ. كانت المنطقة التي رأى العرب أن بــريطانيا خانتهم فيها تماماً. لم يستطع رياض الصلح مثلاً أن يفهم البتة كيف وقّعت بــريطانيا على وعد بلفور، منبع كل العلل من وجهة نظره[1]. مع ذلك - إذا وضعنا أحداث فلسطين جانباً - فإن رياض الصلح أصبح عند نهاية الحرب العالمية الثانية مؤيداً لبريطانيا. ويعود ذلك إلى حدٍّ كبير إلى صداقته مع الجنرال السير إدوارد سبيرز وامتنانه للــدعم غير العادي الذي قدّمه إليه هذا البريطاني الغريب الأطوار والقوي الشكيمة في النــضال للاســتقلال عــن الفرنــسيين. كان رياض يدرك أنه لولا وجود سبيرز في بيروت - ولولا شجاعته الكبيرة ومهاراته السياسية - لكان تحقيق استقلال لبنان أكثر صعوبة بكثير، هذا إذا تحقّق. لكن ما لم يدركه رياض تماماً أن سبيرز هو الاستثناء، لا القاعدة، بين المسؤولين البريطانيين، وأن المسؤولين الأقوياء في بريطانيا اعتبروه ذا ميول مستقلّة خطيرة، وظلوا يطالبون برأسه إلى أن حقّقوا مرادهم في نهاية الأمر.

أحدثت زيارة لندن، المثقلة بجراح الحرب وذات الروح المعنوية العالية، فور نهاية الحــرب، أثــراً عميقاً في نفس رياض، عندما حضر الاجتماع الأول للجمعية العامة للأمــم المتحدة. وسحره الاستقبال اللطيف الذي لقيه من السير ألكسندر كادوغان، المندوب البريطاني في الأمم المتحدة، بالإضافة إلى اهتمام سبيرز الذي جال به في مجلس العموم ودعاه إلى العشاء في نادي المجلس.

(1) مقابلة مع علياء الصلح، باريس، شباط/فبراير 2006.

في سنة 1947، كان رياض الصلح على دراية تامّة باحتمال استيلاء الشيوعيين على الحكم في اليونان وتركيا، واندفاع الاتحاد السوفياتي عبر إيران والعراق باتجاه البحر المتوسط - لا شك في أنه اطلع على ذلك من السفراء والمبعوثين الآخرين البريطانيين الذين التقى بهم. كان قريباً جداً من الحزب الشيوعي اللبناني في الثلاثينيات، عندما أصبح صديقاً لقادته، مثل نقولا الشاوي، وحاول استمالتهم إلى قضيته الوطنية. كان من أوائل السياسيين العرب الذين استوعبوا أن نضال العمّال من أجل تحسين أجورهم وظروف عملهم مع الشركات الامتيازية الفرنسية جزء لا يتجزأ من النضال السياسي في سبيل الاستقلال. وفي سنة 1945 - عندما كان في باريس يتفاوض على جلاء القوات الفرنسية - عرّفه الشاوي على قادة الحزب الشيوعي الفرنسي في محاولة للحصول على دعمه في إحداث تحوّل في الرأي العام الفرنسي.

غير أن تعاطف رياض الصلح مع الشيوعيين لم يتجاوز تلك الفترة. فعندما أصبح رئيساً للوزراء، أخذ ينظر إلى الحزب كقوة مثيرة للفوضى. في 18 تشرين الثاني/نوفمبر 1947، على سبيل المثال، عندما هاجم متظاهرون في زحلة، وهي مدينة في سهل البقاع، مخزناً للقمح احتجاجاً على نقص الطحين، استدعى رياض الجيش. أطلق الجنود النار على الحشود، فقُتل ثلاثة أشخاص وجرح العديد غيرهم. دافع رياض عن نفسه في مجلس النواب، وأدان الشيوعيين لأنهم حرّضوا على الاضطرابات، وأرسل الأمير فريد شهاب - وهو ضابط شرطة ذو تدريب فرنسي أمضى بعض الوقت في لندن لدراسة أساليب الشرطة البريطانية - لتقديم تقرير عن نشاطات الشيوعيين في منطقة البقاع. من الواضح أن ما علمه رياض لم يكن مطمئناً، لأنه قرّر اتخاذ تدابير قاسية ضد الحزب، كما أبلغ السفير البريطاني في بيروت، وليم هوستن - بوزوال William Houstoun-Boswall. في أوائل سنة 1948، أُقفل المقر الرئيسي للحزب الشيوعي، وجمعية الصداقة اللبنانية السوفياتية، ونقابات العمال التي يقودها الشيوعيون برئاسة مصطفى العريس - الذي كان يعتبر محرّضاً على الإضرابات المتكرّرة[1]. من الواضح أن قيام رياض الصلح باتخاذ مثل هذه التدابير القمعية غير المعهودة، يظهر تأثّره بمناخ الحرب الباردة في ذلك الوقت.

(1) Beirut Political Summary, March 1948 (FO 371/68489).

غير أن الأزمة المتفاقمة بسرعة في فلسطين طغت على اهتماماته العديدة الأخرى، ومنها جمود مشروع التابلاين، والنزاع مع سوريا بشأن الاتفاق المالي مع فرنسا، وتنامي العداء بين المسلمين والمسيحيين في لبنان. ففي نهاية سنة 1947، أيّدت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي تقسيم فلسطين بين العرب واليهود الأوروبيين. ومن المفارقة أن بريطانيا بدت الآن الصديق الوحيد بين الدول الكبرى الذي يستطيع العرب اللجوء إليه في ذلك الوقت العصيب. ويرجع ذلك إلى أن الضعف البريطاني الفعلي لم يكن ظاهراً في العالم العربي بسبب استمرار تواجدها في المنطقة، والزيارات المتكرّرة التي تقوم بها سفنها الحربية المثيرة للإعجاب، مثل زيارة حاملة الطائرات أوشن Ocean إلى بيروت وغيرها من موانئ البحر المتوسط. كما جذب زواج الأميرة إليزابيث في سنة 1947 اهتمام العالم، وعزّز من مكانة بريطانيا. وقادت مظاهر الأبّهة والمراسم الاحتفالية البريطانية العرب إلى الاعتقاد أن بريطانيا لا تزال في موقف يمكّنها من فرض "التسوية العادلة" التي يتوقون إليها في فلسطين.

الفصل الرابع والعشرون

الحرب غير المرغوبة

من سوء حظ رياض الصلح أن سنة 1947، السنة الأولى لتوليه رئاسة الوزراء في لبنان، هي السنة التي استيقظ فيها العرب على الحقيقة القاسية للقوة الصهيونية في فلسطين. لم يكد لبنان وسوريا يتخلّصان من الحكم الفرنسي، حتى واجها قيام دولة يهودية، بدأ العمل على إنشائها بنشاط ومنهجية منذ عقود - إن لم يكن منذ سنة 1897، حين عقد تيودور هرتزل المؤتمر اليهودي العالمي في بازل، سويسرا، بغية إنشاء وطن لليهود، على الرغم من أن مكانه لم يكن قد تقرّر في ذلك الوقت.

كان هناك تباين كبير بين نجاحات رياض السياسية في وطنه، وعجزه في الساحة الفلسطينية. وقد أدرك بنفسه هذا التباين. ونظراً إلى أنه انهمك في الشؤون الفلسطينية منذ أوائل العشرينيات، فقد شارك الفلسطينيين همومهم وآلامهم. كان الفلسطينيون يفقدون بلادهم شيئاً فشيئاً بسبب انقسامهم، والصراعات الداخلية في ما بينهم، ومواجهتهم القوة الفائقة المشتركة البريطانية والصهيونية. ولم يكن في وسع الزعماء العرب، مثل رياض الصلح، فعل الكثير حيال ذلك.

أدرك رياض بحلول سنة 1947 - ربما أكثر من معظم العرب - وجود مجتمع أوروبي يهودي منظّم في فلسطين يضم ما يزيد على 600,000 نسمة، له مؤسساته وقواته المسلحة الخاصة، وربما يتعيّن إيجاد مكان له، بطريقة أو بأخرى، ضمن حدود فلسطين التاريخية. لكن الرأي العام العربي كان يعارض بشدة الوافدين اليهود الجدد - ولا يعرف شيئاً عما استطاعوا تحقيقه بالفعل - بحيث يرفض رفضاً قاطعاً أي فكرة تدعو إلى منحهم كياناً سياسياً خاصاً بهم. وأصرّ العرب على بقاء فلسطين دولة عربية.

حاول رياض منذ العشرينيات استكشاف إمكانية عقد نوع من اتفاق سياسي براغماتي مع الصهاينة. لكنه أدرك في منتصف الثلاثينيات، أن الطموحات الصهيونية أكبر بكثير مما يمكن توفيقه مع ما قد يكون العرب على استعداد للتخلّي عنه. وفي

الأربعينيات، انغمس رياض كثيراً في النضال الذي خاضه وطنه للاستقلال عن الفرنسيين، فلم يستطع تكريس كثير من الوقت للمأساة التي بدأت تظهر فصولها في فلسطين المجاورة. وعلى أي حال، كان يدرك بأسى أن موارد لبنان قليلة جداً بحيث لا يستطيع التأثير في مجريات الأمور.

في سنة 1945، عندما توجّه رياض إلى باريس للتفاوض على الاتفاق النهائي لجلاء الجيوش الفرنسية، علم أن المفتي السابق للقدس، الحاج أمين الحسيني، يعيش في مكان قريب من العاصمة الفرنسية. فقد تدبّر المفتي بطريقة ما الوصول إلى فرنسا، بعدما أمضى قسماً كبيراً من فترة الحرب في ألمانيا - ولحقه عار التحالف مع هتلر. احتجزه الفرنسيون، مع أربعة من أفراد عائلته، في قصر ريفي خارج باريس، في ما يشبه الإقامة الجبرية. وهناك اجتمع به رياض الصلح. كان الرجلان قد افترقا سياسياً عندما راهن المفتي على النازيين، لكن رياض احتفظ ببعض التعاطف الشخصي مع المفتي نظراً إلى الصداقة القديمة التي جمعت بينهما - ونضالهما، كل على طريقته، من أجل قضية التحرّر العربي. لاحظ رياض في يوميّاته أن المفتي لا يزال شجاعاً ووطنياً كما كان دائماً. وتحدّث بلهجة مؤثّرة عن الاحترام الذي أظهره له لبنان في ما مضى. غير أن القصر المنيف الذي ينزل فيه "ليس سوى قفص، لأن المفتي مسجون فيه"[1]. لم يكن في وسع رياض مساعدته، فلديه ما يكفيه من المشاكل مع الفرنسيين.

بدا في ذلك الوقت أن العرب كافّة يحاربون القيود والمظالم التي فرضتها عليهم القوى الأجنبية. كان لبنان في سنة 1947 كياناً هشاً مثلما هو حال سوريا. فكلاهما يعانيان من مشاكل الأمن الداخلي، وساد العلاقات بينهما توتّر شديد ناجم عن العديد من النزاعات السياسية والاقتصادية. ولم يكن لدى البلدين قوات مسلّحة تذكر، باستثناء بعض الدرك وبقايا القوات الخاصة التي يبلغ عددها نحو 2000 عنصر في كل بلد، مسلّحين بما خلّفه الفرنسيون وراءهم من عتاد عديم الجدوى. لم يكن لديهما الأموال لإعادة تجهيز ترسانتيهما. لم يكن الجيش اللبناني يمتلك سوى أسلحة خفيفة متفرّقة، ولا يزال يعتمد في مواصلاته على الجياد!

---

(1) مقتطفات من مذكرات رياض الصلح التي نشرت في صحيفة **أخبار اليوم** المصرية، في 30 آذار/مارس 1946.

كـــان انعدام الأمن في الريف متفشياً نتيجة انتشار الأسلحة الشخصية، وقوة الزعماء المحلـــيين، وانتـــشار قطّاع الطرق الذين سنّوا قانوناً خاصاً بهم. وغالباً ما كان الطريق بين بـــيروت ودمـــشق غـــير آمن في الليل. وكان الحشيش يزرع على نطاق واسع في سهل البقاع، ما شكّل فضيحة مكشوفة، إذ في وسع المسافرين إلى دمشق رؤية حقول الحشيش وهم على الطريق. لم يكن باستطاعة الدرك فعل الكثير بهذا الشأن بسبب انتشار الفساد في صفوفهم، والنفوذ السياسي الكبير الذي يتمتّع به كبار ملاّك الأراضي. عيّن رياض الصلح الأمـــير فـــريد شهاب رئيساً للأمن العام مكان إدوار أبو جودة، الذي اعتُبر عديم الكفاءة وغير مستقيم. لكن مهمة استعادة القانون والنظام كانت صعبة للغاية.

كـــان الوضع في سوريا أكثر سوءاً. فلم يكن على الحكومة التعامل مع مشاكل الطـــرقات غير الآمنة، وقطاع الطرق، والصراعات بين العائلات في الأراضي الداخلية القَبَلية فحسب، وإنما أيضاً إخضاع مناطق البلاد التي تعمّد الفرنسيون أن يغرسوا فيها بـــذور النـــزعة الانفصالية. ففي جبال العلويين، على سبيل المثال، شجّع الفرنسيون الـــزعيم المحلي سليمان المرشد على التمرّد على الكتلة الوطنية في دمشق. كان سليمان مـــشعوذاً وأميّاً ادعى القداسة، فأنشأ فرقة دينية سياسية جذبت عشرات الآلاف من الأتـــباع غـــير المتعلمين في القرى العَلوية. أُرسلت القوات الحكومية لجلبه، و لم يُقبض علـــيه إلا بعـــد اشتباك مسلّح، وأعدم في وسط مدينة دمشق في تشرين الثاني/نوفمبر 1946. بعـــد ذلك بعام، أُجبرت الحكومة على إرسال القوات مرة أخرى لوضع حدٍّ للتمـــرّد في جـــبل الـــدروز، حـــيث كانت عشيرة الأطرش النافذة تهدّد بالانفصال والانضمام إلى الأردن.

ورث الوطنـــيون في كـــل من سوريا ولبنان، عن الفرنسيين، بلدين ضعيفين غير مستقرين وفقيرين، يسودهما الانقسام وفقاً للاتجاهات الطائفية والمناطقية، ويفتقران إلى المؤسسات الفعّالة. لم يكونوا مستعدين للقيام بأعباء هذه المهمة الشاقّة، بعد صراعهم الطويل مع الانتداب. لذا لم يكن من المفاجئ عدم تمكّن أي من البلدين من فعل الكثير عند اندلاع الحرب في فلسطين.

وكانـــت مـــصر، البلد العربـــي الأهم، منشغلة في النضال لتحرير نفسها من بقايا الحكـــم الـــبريطاني، لا ســـيما الحامية البريطانية الكبيرة المنتشرة على طول قناة السويس.

طالبت مصر بالسيادة على السودان، وانسحاب القوات البريطانية من القناة، لكن بريطانيا رفضت تلبية أي من المطلبين. وخضع العراق لقيود مشابهة، حيث احتفظ البريطانيون بقواعد جوية هناك، وأداروا سياسته الخارجية. وعندما حاول رشيد عالي التحرّر في سنة 1941، سحقت بريطانيا حركته، ومنحت السلطة الصورية لولي العهد عبد الإله ونوري السعيد اللذين رضيا بعد ذلك بالحكم في ظل الحماية البريطانية، والاسترشاد ببريطانيا في مسائل السياسة الخارجية. في المملكة العربية السعودية، لم يعانِ ابن سعود من الاحتلال العسكري البريطاني، لكنه كان يدرك المصالح البريطانية ومواطن القوة البريطانية حول مملكته الصحراوية، فحرص على عدم تحدّيها. وفي شرق الأردن، كان الأمير عبد الله الحاكم الاسمي، لكن السلطة الفعلية في يد السير ألك كركبرايد Sir Alec Kirkbride، السفير البريطاني الذي عمل فترة طويلة في عمّان، والسير جون غلوب Sir John Glubb، (أو غلوب باشا كما كان يحب أن يدعى)، قائد الفيلق العربي الخاضع لإمرة ضباط بريطانيين. على أي حال، كان عبد الله على اتصال مع الصهاينة منذ سنة 1921.

عانى العرب الفلسطينيون من ظروف أسوأ من تلك التي يعانيها إخوانهم، إذ لم يعبّر البريطانيون، ولو على سبيل الادّعاء، عن الرغبة في مساعدتهم في تحقيق الاستقلال. وكان الصهاينة، لا العرب، هم الذين وُعدوا بالحصول على وطن بدعم بريطاني. وعندما ثار العرب بين سنتي 1936 و1939 على تدفّق المهاجرين اليهود، سحق الجيش البريطاني ثورتهم، وتعرّض زعماؤهم السياسيون والعسكريون للقتل أو النفي. و لم يتعافوا قطّ بعد تلك الهزيمة أمام القوة الاستعمارية الكبرى.

باختصار، هناك اختلاف جوهري بين التجربة الانتدابية للصهاينة في فلسطين والعرب في دولتي المشرق. التزمت بريطانيا بتعهّدها في إعلان بلفور، ودعمت المشروع القومي الصهيوني طوال ربع قرن، وهيّأت الظروف المناسبة للهجرة اليهودية على نطاق واسع وبناء الدولة الفعلية. بالمقابل، بذلت فرنسا ما في وسعها لخنق الحركة الوطنية العربية منذ سيطرتها على سوريا ولبنان. فخرج اليهود منتصرين من تجربة الانتداب، فيما خرج العرب خاسرين.

في نهاية الحرب العالمية الثانية، اقترب اليهود الأوروبيون في فلسطين من إنجاز العناصر الرئيسية للدولة. كان الهستدروت، الذي أنشئ في سنة 1920، أكثر من مجرد

اتحـــاد عام لنقابات الطبقة العاملة اليهودية، إذ شارك في العديد من أنشطة بناء الدولة، كإنـــشاء مـــصرف وشركات أشغال عامة، وتوزيع المنتجات الزراعية للمستوطنات الـــزراعية (الكيبوتـــز)، والـــتأمين الصحي للمهاجرين، والإسكان، والتعليم، والثقافة والـــصحف، والعديـــد مـــن الأمـــور الأخـــرى. وكان ديفيد بن غوريون، رئيس الهـــستدروت، قـــد تولّى في سنة 1935 أعلى منصب في الوكالة اليهودية، وهي بمثابة حكـــومة في كل شيء عدا الاسم، حيث ضمّت دوائر متعددة مسؤولة عن الشؤون السياسية والمالية والهجرة والاستيطان والأمن وسواها. كان بن غوريون القائد الأعلى، يساعده العديد من القادة ذوي القدرات المميزة، مثل موشي شرتوك (شاريت لاحقاً)، وغولدا مايرسون (مائير لاحقاً).

وكان في وسع المجتمع اليهودي التباهي بمجموعة من الأحزاب السياسية المنخرطة في نقاشات حادة؛ وبالصندوق الوطني اليهودي، الذي تأسس عام 1901 لتمويل شراء الأراضـــي الفلـــسطينية وتـــوطين المهاجرين اليهود؛ وأجهزة دبلوماسية واستخباراتية متـــنوّعة، حـــصلت علـــى معلومات مفصّلة عن البلدان العربية المجاورة، نتيجة عمل السكان اليهود المحليين الأوفياء والمخبرين العرب المأجورين. وكان يتمتع أيضاً بقاعدة علمـــية وصـــناعية واسعة وعدد من مراكز التعليم المميّزة، مثل معهد وايزمان للعلوم، والجامعـــة العبرية على جبل المشارف. والأهم من كل ذلك، كان لديه جيش سرّي، الهاغانـــاه، أنشئ منذ العشرينيات بمساعدة بريطانيا، واستفاد بعد الحرب العالمية الثانية من تدفق المقاتلين اليهود المتمرّسين بعد أن خدموا في جيوش الحلفاء. كما تمتّع المجتمع الـــيهودي في فلـــسطين بميـــزة مهمة جداً، وهي الدعم السياسي والمالي الذي يقدّمه عـــشرات الآلاف مـــن الأصدقاء الأثرياء الملتزمين والنافذين في الخارج، لا سيما في الولايات المتحدة.

بالإضـــافة إلى كل تقدّم، كان هناك دافع واحد طاغٍ يحرّك الصهاينة. فقد ولّدت الإبادة الجماعية التي ارتكبها هتلر ضدّ ملايين اليهود الأوروبيين لدى من نجوا عزيمة لا تلين للحؤول دون تعرّض الشعب اليهودي لمثل هذا المصير ثانية. وأصبح من المعتقدات الرئيسية لديهم أن الدولة اليهودية هي وحدها التي يمكن أن تؤمّن لهم الحماية المطلوبة. وقـــد توصّل بن غوريون إلى قناعة أن استخدام القوة مع العرب أمر ضروري لإنشاء

مثل هذه الدولة على أكبر مساحة من فلسطين التاريخية يمكن إخلاؤها من المواطنين العرب. فانكبّ على إعداد العدّة لمثل هذا العمل العسكري منذ منتصف الثلاثينيات. وفي اجتماع شهير عُقد في فندق بلتمور في نيويورك في سنة 1942، طالب بدولة يهودية على جميع الأراضي الفلسطينية الخاضعة للانتداب. واضطر في النهاية إلى القبول بأقل من ذلك.

وهكذا تميّز الصهاينة بقيادة ذات عقلية واحدة وقادرة، وبالتنظيم، والموارد، والقوة البشرية المدرّبة، والدافع القوي. ولم يكن لدى العرب سوى قليل من هذه المزايا. استاء الرأي العام العربي مما يجري في فلسطين، لكنه كان يفتقر إلى الوسائل والتنظيم للقيام بشيء حياله. وكانت المنافسة بين العرب والصهاينة غير متوازنة، كما وثّقها العديد من المؤرخين البارزين في السنوات القليلة الماضية. ومن أبرزهم العالمان الفلسطينيان وليد الخالدي ونور مصالحة، والعلماء الإسرائيليون سيمحا فلابان Simha Flapan، وبيني مورس Benny Morris وآفي شلايم Avi Shlaim وإيلان بابيه Ilan Pappé. أحدثت الأبحاث المهمة لهؤلاء ثورة في التفكير في السياسات الصهيونية قبل حرب 1948 وخلالها وبعدها، وبدّدوا الخرافة الصهيونية الرومانسية الكاذبة بأن "داود" الإسرائيلي حارب وانتصر بأعجوبة على "جالوت" العربي المتمثّل في خمسة جيوش عربية.

بالإضافة إلى المعوّقات السياسية والاقتصادية واللوجستية العديدة، عانى العرب أيضاً من آفة الفئوية القاتلة التي لم يشفوا منها حتى اليوم. انشغل العرب بمحاربة بعضهم بعضاً بقدر اهتمامهم بمحاربة الصهاينة، نتيجة انقساماتهم المريرة التي تذكيها الصراعات والعداوات والطموحات المتعارضة. وعندما واجهوا خطراً يتهدّدهم جميعاً، وجدوا أنفسهم عاجزين عن العمل معاً. وهكذا لم يتمكنوا من حماية فلسطين العربية من الهجوم الصهيوني الكاسح. وفي أعقاب الهزيمة العربية وقيام دولة إسرائيل، دخل العرب فترة طويلة من الاضطراب الذي سقط رياض الصلح ضحية له في النهاية.

طموحات الملك عبد الله السورية

كانت أشدّ الخصومات العربية الداخلية خطورة تلك التي نشأت بين الهاشميين وأعدائهم. يعود هذا الصراع المرير إلى العشرينيات، لكنه اكتسب أهمية كبيرة في

أواخـــر الأربعينيات، عندما واجه العرب اتخاذ قرار بشأن فلسطين. بعدما أفاق العرب مـــن ســـباقم مذعورين في أواخر سنة 1947 أمام ضخامة التهديد الصهيوني، تبيّن أن إرادقـــم في القتال المشترك قد ضعفت نتيجة الشكوك المتبادلة في ما بينهم. ولعل ذلك الـــسبب الأهـــم لعدم تمكّنهم من إنقاذ فلسطين العربية. يقال (بلا مبالغة) إن حرب 1948 كانـــت بالدرجـــة الأولى صراعاً داخلياً بين العرب - بل حرباً أهلية عربية - وحرباً ضد اليهود الأوروبيين الذين يستولون على فلسطين في الدرجة الثانية[1].

يمكـــن إرجـــاع أصـــل الخلاف العربـــي الداخلي إلى خيبة الأمل التي مني بها الشريف حسين في مكة بعد الحرب العالمية الأولى على يد البريطانيين. فقد أمل في أن تؤدي ثورته على الأتراك العثمانيين، التي شجّعها البريطانيون وموّلوها من أجل إسقاط الإمـــبراطورية العثمانـــية، إلى إقامـــة مملكـــة عربية مستقلة برئاسته. وكان مقتنعاً أن الـــبريطانيين وعـــدوه بذلك وتراجعوا عن التزامهم - ولعلهم فعلوا ذلك. لكن عندما تبـــيّن بعـــد الحرب العالمية الأولى أن الفرنسيين والبريطانيين لا ينوون مغادرة المنطقة، حـــيث لـــديهم مصالح اقتصادية واستراتيجية كبيرة، سعى الشريف وأبناؤه عندئذ إلى عقد اتفاق لإنقاذ ما يستطيعون من المخططات الاستعمارية للقوى الكبرى.

أملـــوا أن يخلـــف علي، ابن الشريف البكر، والده ملكاً على الحجاز وأن يصبح عـــبد الله، ابنه الثاني، ملكاً على العراق، وفيصل، ابنه الثالث، ملكاً على سوريا. لكن هـــذا المخطـــط العائلي انهار عندما أخرج الفرنسيون الأمير فيصل من سوريا في سنة 1920، وبعدما أخرج عبد العزيز آل سعود الشريف حسين وابنه علي من الحجاز بعد ذلك ببضع سنوات[2]. بيد أن البريطانيين منحوا الأمير فيصل فرصة ثانية باختياره، في مؤتمر السلام في باريس، مرشّحاً لهم لعرش العراق. فتوّج فيصل ملكاً في بغداد في سنة 1921.

---

(1) أطلـــق هنري لورنس، المؤرّخ الفرنسي الكبير لفلسطين، على الفصل الذي يتحدّث عن الفترة المؤدية إلى حـــرب 1948 "الحرب الأهلية الفلسطينية"؛ Henry Laurens, *La Question de Palestine*, vol. III, *1947-1967, L'Accomplissement des prophéties*, Paris 2007. انظر أيضا Joshua Landis, 'Syria in the 1948 Palestine War: Fighting King Abdallah's Greater Syria Plan,' in Eugene Rogan and Avi Shlaim (eds.) *The War for Palestine: Rewriting the History of 1948*, Cambridge 2001, pp. 178-205.

(2) انظر Sir Alec Kirkbride, *A Crackle of Thorns*, London 1956; Seale, *The Struggle for Syria*, chapter 1.

لم يسامح عبد الله أخاه الأصغر على قبوله عرش العراق، وهو العرش الذي يُفترض أن يكون من نصيبه. فمنح البريطانيون عبد الله جائزة ترضية بتعيينه أميراً على شرق الأردن في عمّان، لكن هذه المنطقة الفقيرة الراكدة لم تُرض رغباته. فأضمر في نفسه قناعة وسواسية أن مملكة فيصل المفقودة يجب أن تعود إليه. ذلك هو الأصل الذي تستند إليه حملته الطويلة والمستمرة لإقامة "سوريا الكبرى" - أو لتوحيد سوريا، ولبنان، وشرق الأردن وفلسطين تحت عرشه.

لم يستطع فيصل، بدوره، أن ينسى أنه كان ملكاً على دمشق، العاصمة العربية العريقة والعظيمة، التي طرده منها الفرنسيون بشكل غير لائق. وشكّلت فترة حكمه هناك، التي دامت عشرين شهراً، مبرّراً لمخطّط وحدة الهلال الخصيب، وهو المخطّط الذي تبناه لاحقاً رجل الدولة العراقي الموالي للبريطانيين، نوري السعيد. وهكذا كان يوجد في المنطقة تياران متنافسان للطموح الهاشمي المحبط، أحدهما يتدفّق من عمّان والآخر من بغداد.

أعلن بصورة رسمية عن مخطّطي الهلال الخصيب لنوري السعيد، وسوريا الكبرى للأمير عبد الله، لأول مرة خلال الحرب العالمية الثانية. كان مخطّط نوري السعيد أكثر طموحاً، وقد حقّق إنجازاً مهماً بتمكّنه من إعطاء مضمون - على شكل وثيقة رسمية - للتطلّعات العربية الغامضة، المتداولة منذ عدة سنوات، إلى وحدة الدول العربية في الهلال الخصيب. وقد شجعه سقوط فرنسا المبكر في الحرب على الاعتقاد أن البريطانيين سيدعمون العرب في تحقيق أهدافهم القومية، فعرض هذه الفكرة على ريتشارد كيسي، وزير الدولة البريطاني لشؤون الشرق الأوسط، عندما التقى به في القاهرة في أوائل سنة 1942. طلب كيسي من نوري تقديم اقتراحه خطياً، فكانت النتيجة "مذكرة عن القضية العربية مع إشارة خاصة إلى فلسطين واقتراحات لتسوية دائمة". قُدمت هذه المذكرة إلى كيسي، ووُزعت سراً على الدوائر الأخرى المهتمة[1].

اقترح نوري خطة من مرحلتين: أولاً، توحيد سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن في دولة واحدة، مع شبه استقلال ذاتي للأقلية اليهودية في فلسطين بموجب ضمانات دولية، بالإضافة إلى توفير الحماية للمسيحيين في لبنان. ثانياً، بعد إنشاء

(1) نوري السعيد، **استقلال العرب ووحدتهم**، بغداد، 1943.

"سوريا الكبرى"، تتحد هذه الدولة مع العراق في إطار اتحاد الهلال الخصيب، وتستطيع الدول العربية الأخرى الانضمام إليه إذا شاءت. كانت خطة عبد الله محدودة أكثر، وتقتصر على توحيد الأقطار الأربعة التي تشكل "سوريا الكبرى" تحت قيادته. ورأى أن مشكلة اليهود في فلسطين يمكن حلّها بمنحهم استقلالاً ذاتياً إدارياً. وإذا تعذّر توحيد الأقطار الأربعة على الفور، يمكن البدء بتوحيد سوريا وشرق الأردن، والنص على ضم لبنان وفلسطين إليها لاحقاً لتشكيل اتحاد على نمط الولايات المتحدة الأميركية أو الاتحاد السويسري. وهكذا فإن الدمج الفوري لسوريا وشرق الأردن يشكّل لب مقترحات عبد الله، ومحتواها العملي الوحيد. هذه هي الخطة التي تحمّس لها عبد الله وقدّمها، مع بعض التغييرات الطفيفة، في الخطابات والمذكرات الرسمية والاتصالات الشخصية مع السياسيين السوريين، وفي التعليمات المرسلة إلى ممثّليه في مشاورات الوحدة العربية التي دعا رئيس الوزراء المصري، النحاس باشا، الدول العربية إليها في سنة 1944، ونتج عنها ميثاق جامعة الدول العربية في سنة 1945[1].

بعد تأمين الاستقلال الاسمي - إن لم يكن الحرية الحقيقية - عن بريطانيا في 28 آذار/مارس 1946، أعلن الأمير عبد الله نفسه ملكاً على مملكة شرق الأردن الهاشمية (المملكة الأردنية في ما بعد). وبدأ العمل بعد ذلك على ترويج طموحاته التوسّعية بنشاط. أعلن عن فكرة "سوريا الكبرى" بمثابة مبدأ أساسي في سياسته الخارجية. ولم يدع أي مناسبة تمر من دون التأكيد على هذه القضية. صرّح لجريدة **الأهرام** المصرية[2]: "لا يوجد سوريا كبرى أو صغرى. هناك بلد واحد فقط هو سوريا، يحده البحر من الغرب وتركيا من الشمال والعراق من الشرق والحجاز من الجنوب". ومن نافلة القول إن هذه التصريحات والتحرّكات الأحادية الجانب جوبهت برفض تام من القاهرة وبيروت ودمشق والرياض. في زيارة إلى دمشق في كانون الأول/ديسمبر 1946، أبلغ مستشار ابن سعود، الشيخ يوسف ياسين، القائم بالأعمال البريطاني أنه "إذا أصرّ الملك عبد الله على خطته لإقامة سوريا الكبرى، فقد تضطرّ الجامعة العربية إلى طرد الأردن منها"[3].

(1) انظر، **الكتاب الأردني الأبيض: الوثائق القومية في الوحدة السورية الطبيعية**، عمّان 1947.

(2) **الأهرام**، القاهرة، 31 آب/أغسطس 1946.

(3) Syria and Lebanon Weekly Political Summary, for the week ending 17 December 1946 (FO 371/62119).

لم يحقّــق عبد الله نجاحاً أكبر مع دولة العراق الهاشمية المجاورة. ففي سنتي 1945 و1946، بحـث مطوّلاً مع ابن أخيه الوصي على العرش، عبد الإله، فوائد الوحدة بين العـراق وشرق الأردن. قضى اقتراح عبد الله أن يتولى عبد الله عرش البلدين الموحد مـدى الحياة، وأن يؤول العرش بعد مماته إلى الملك فيصل الصغير، وليس ورثته. وقُدّم اقتـراح آخر يقضي بأن يصبح عبد الإله ملكاً على شرق الأردن وفلسطين، وعبد الله ملكـاً علـى العراق مدى الحياة، ويرث الملك فيصل العرش عند مماته. لكن الخطتين ولدتا ميتتين، فقد استقبلتا باحتجاج شديد من سوريا التي اتبعت النظام الجمهوري - بالإضافة إلى مسيحيي لبنان الذين رأوا فيهما خطوة أولى نحو مشروع سوريا الكبرى، الـذي طالما أثار غضبهم وقلقهم. وعارضت المملكة العربية السعودية بشدّة أي توسّع للـسلطة الهاشمـية، كما عارضته مصر على نحو أقلّ. أما القوميون العرب في الأقطار الأخـرى، فقـد كانـت لديهم شكوك عميقة تجاه علاقة عبد الله القوية ببريطانيا، والشائعات بشأن تعامله مع الصهاينة.

في 4 آب/أغسطس 1947، سعى عبد الله لحسم الأمور بالدعوة إلى مؤتمر سوري عام في عمان لمناقشة خططه الوحدوية، على غرار المؤتمر السوري العام في سنة 1920، الذي انتخب أخاه فيصل ملكاً على سوريا الكبرى قبل أكثر من عقدين. عبّر الزعماء العـرب عـن دهشتهم واستيائهم من إصرار عبد الله غير اللائق. لم تلقَ قضيته الدعم الـلازم بـسبب الاعتقاد العام أنه لا يسعى وراء عرش سوريا لأهداف وطنية، وإنما لتحقـيق طمـوحات وسواسية شخصية فحسب. للقضاء على مشروعه، قررت كل عاصمة عربية معنية إعادة توكيد تمسّكها بميثاق جامعة الدول العربية، مع ما يُقدمه من ضمانة لاستقلال كل دولة من الدول الأعضاء.

كـان الرئيس السوري شكري القوتلي أشدّ الزعماء العرب صلابة في معارضة عبد الله. فقد أنفق، على غرار رياض الصلح في لبنان، ميراثه بأكمله، وعانى من النفي والـسجن، وكـرّس حـياته لتحقيق استقلال سوريا عن تركيا أولاً، ثم عن فرنسا. وكانت معركة صعبة بلغت أوجَها بقصف الفرنسيين مدينة دمشق في سنة 1945. و لم يكـن مستعداً لتعريض استقلال بلده للخطر نتيجة طموحات عبد الله التوسعية، التي رأى فـيها الـسيد الاستعمارية البريطانية والمباركة الصهيونية. فسعى إلى القضاء على

النفوذ الهاشمي في سوريا بإغلاق القنصلية الأردنية في دمشق، ومراقبة الحدود، وإلقاء القبض على الداعين البارزين إلى إقامة سوريا الكبرى.

هكذا أُجبرت مُثُل الوحدة العربية، في لبنان وسوريا، على التراجع أمام المشاعر الخصوصية البراغماتية. ومثلما أجبر انقسام الشعب اللبناني - لا سيما خوف المسيحيين من طغيان المسلمين عليهم - رياض الصلح على التركيز على الأهداف اللبنانية الضيّقة، وتأجيل طموحاته القومية العربية إلى وقت لاحق، وجد شكري القوتلي نفسه، وهو أيضاً من الذين ناضلوا طوال حياتهم في سبيل القومية العربية، في موقف غير مريح يضطرّه إلى الدفاع عن المصالح السورية الصرف في وجه تهديدات عبد الله المشكوك في أهدافها.

فيما اتجهت الدول العربية نحو الحرب مع الصهاينة - وهي حرب لم تكن لديهم الوسائل اللازمة لخوضها - خشي القوتلي من احتمال توجّه عبد الله شمالاً نحو دمشق لتحقيق حلمه بإنشاء سوريا الكبرى، إذا تمكن من السيطرة على أجزاء من فلسطين. رأى العديد من الزعماء العرب أن عبد الله يشكّل خطراً داهماً على سلامة أراضي سوريا واستقلالها. ولعل الخوف من احتمال استيلاء عبد الله على نصف فلسطين العربي، واستخدامه نقطة انطلاق لفتوحاته الإضافية، شكّل سبباً آخر للمعارضة الشديدة لفكرة تقسيم فلسطين.

هذا هو الخطر الذي دفع القوتلي إلى محاولة إبرام حلف دفاعي مع مصر والمملكة العربية السعودية. فقد أقلقته المعاهدة التي وقّعها عبد الله مع تركيا في سنة 1947، وأبدى فيها استعداده للتخلي عن المطالبة العربية بلواء الإسكندرون، إذا دعمت تركيا خطته لإقامة سوريا الكبرى. وفي تلك السنة أيضاً، وقّع عبد الله معاهدة "أخوّة وتحالف" مع العراق الخاضع للسيطرة البريطانية، فرأى فيها القوتلي أيضاً خطراً على موقف سوريا الاستراتيجي.

تحدي التقسيم

على الرغم من انشغال القادة العرب بمشاكلهم الداخلية الملحّة - وهي كثيرة - فإنهم واجهوا في سنة 1947 موقفاً لا يمكنهم تجاهله في فلسطين. ففي شباط/فبراير،

قـــرّرت بـــريطانيا إحالة المشكلة إلى الأمم المتحدة، فشكّلت الأمم المتحدة لجنة (لجنة الأمـــم المتحدة الخاصة بفلسطين) للتحقّق من الأوضاع على الأرض. على الرغم من موقف العرب المعادي لتلك اللجنة، فقد رتّب رياض الصلح أن تقوم اللجنة بزيارة إلى لبنان في تموز/يوليو وتجتمع بممثلين عن الدول العربية هناك. وفي 8 أيلول/سبتمبر، تلقى العرب صدمة سياسية كبيرة عندما أصدرت اللجنة تقريراً يوصي بتقسيم فلسطين إلى دولـــتين، عـــربية ويهـــودية، ولكن بشروط مواتية أكثر للمصالح الصهيونية من تلك الصادرة في سنة 1937.

اجـــتمعت اللجـــنة السياسية لجامعة الدول العربية في بيروت في وقت لاحق من ذلـــك الشهر، ونظرت في توقيع عقوبات اقتصادية على بريطانيا والولايات المتحدة. ولكـــن ريـــاض الصلح، الذي ترأس الاجتماع، تمكّن من إقناع اللجنة الغاضبة بعدم متابعتها. فقد كان مقتنعاً أن ليس في وسع العرب فعل الكثير لصدّ المدّ الصهيوني، لذا فإن رهانهم الأفضل يكمن في محاولة استمالة بريطانيا إلى جانبهم. افترض رياض، مثله مـــثل كـــثير غـــيره في ذلك الوقت، أنه إذا حدث مزيد من التدهور في الأوضاع في فلـــسطين، فـــإن بريطانيا ستضطرّ إلى التدخّل وفرض تسوية. ألم يعِد الكتاب الأبيض الـــذي قدمته بريطانيا في سنة 1939 بدولة فلسطينية واحدة؟ ألم يقترح تقييد الهجرة اليهودية وشراء الأراضي، ونصّ على إنشاء حكومة ذات أكثرية عربية؟

بالـــرجوع إلى الـــوراء، مـــن السهل معرفة لماذا ارتكب العرب خطأً هائلاً في حـــساباتهم. لم يكن لدى العرب أي وسيلة ليعلموا أن فلسطين فقدت معظم أهميتها الاســـتراتيجية في التخطيط الاستراتيجي البريطاني، بعد انسحاب بريطانيا من الهند في ســـنة 1947، وما تلا تقسيم ذلك البلد من فوضى وأعمال قتل طائفية رهيبة. لم تعد حمايـــة الطريق البحري إلى الهند شغل بريطانيا الشاغل كما كان لمدة قرنين من الزمن تقريباً. كما أن الهجمات الإرهابية التي شنها اليهود على البريطانيين في فلسطين، بغية إخافـــتهم وإخراجهم منها لترك الساحة مفتوحة أمام الصهاينة، أدّت إلى نفور الرأي العـــام البريطاني من الانتداب في فلسطين. ففي الفترة الواقعة بين آب/أغسطس 1945 وأيلـــول/ســـبتمبر 1947، قـــتل الإرهابـــيون اليهود 388 مسؤولاً بريطانياً، مدنيين وعسكريين، داخل فلسطين وخارجها. بينما بلغ عدد اليهود الذين قتلهم البريطانيون

في تلــك الفتــرة نحو 44 - وهي "نسبة إصابات بين المتمرّدين وسلطة استعمارية... فــريدة مــن نوعها في حوليّات التمرّد" بحسب المؤرخ الفلسطيني وليد الخالدي الذي أشار إلى تساهل بريطانيا مع المجرمين الصهاينة المذنبين[1].

فشل العرب في إدراك سلوك بريطانيا، في ذلك الوقت، كما اليوم. فقد تخيّلوا أن هــذه القــوة الاســتعمارية الجــبّارة ستقمع الصهاينة الجاحدين الذين يقتلون قوّاتها ومــسؤوليها، مــثلما قمعــت بوحشية العديد من الثورات العربية. لم يدركوا مقدار الــضعف الذي لحق ببريطانيا بسبب الحرب، ومقدار اعتمادها على الولايات المتحدة. علــى أي حــال، قــام المرشح الرئاسي الأميركي، هاري ترومان باختطاف السياسة البريطانية في فلسطين. وفي محاولة لاجتذاب الأصوات اليهودية الأميركية المؤثّرة، وعد بإرســال 100,000 يهودي أوروبــي مشرد إلى فلسطين، إذا انتُخب رئيساً، وبالتالي عكس السياسة البريطانية التي قيّدت الهجرة اليهودية بنحو 15,000 مهاجر سنوياً. في أثــناء الانــتداب، وبخاصــة في سنواته الأخيرة ما بعد الحرب، عجزت بريطانيا عن الــسيطرة على تدفق المهاجرين غير الشرعيين إلى فلسطين، وقد قُدّر مجموعهم بنحو 120,000 مهاجر[2].

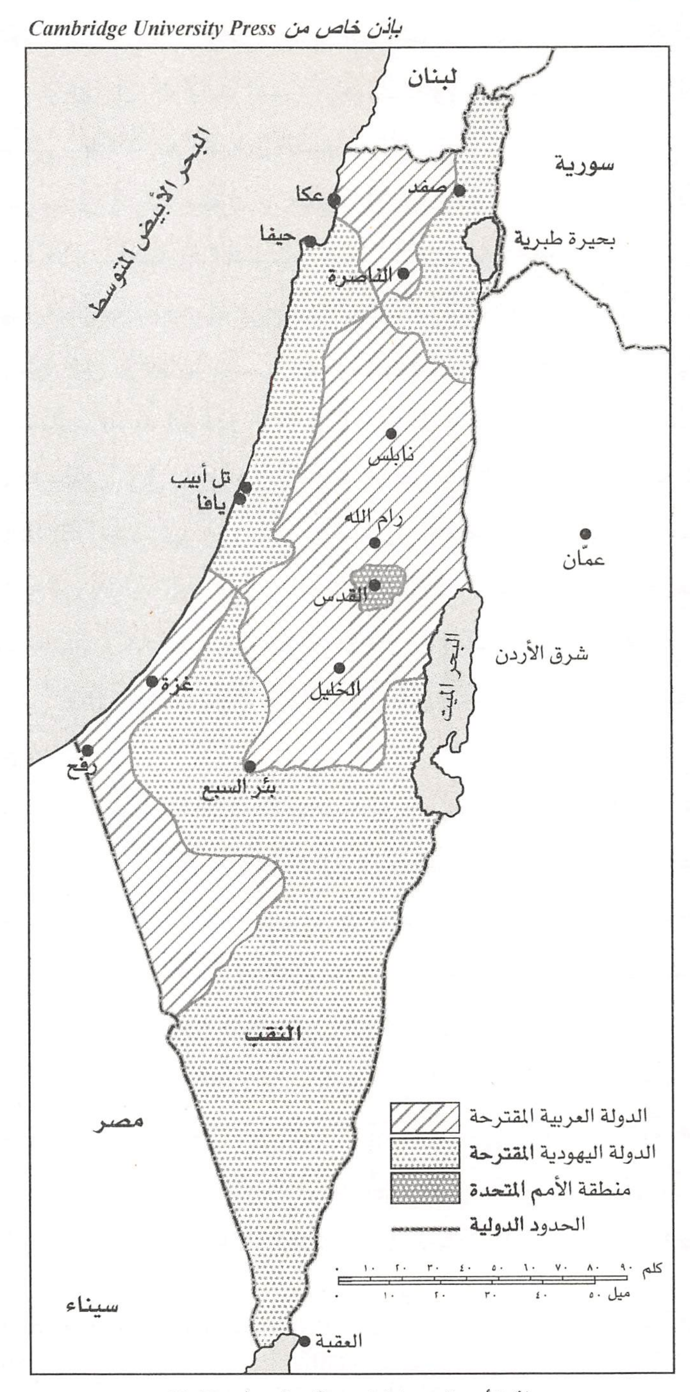
في أيلــول/ســبتمبر 1947، لم يــستطع العرب تصديق ما سمعوه عندما أعلنت بــريطانيا عــن عــزمها إنهاء الانتداب والانسحاب من فلسطين في منتصف ليل 14 أيــار/مايــو 1948. ظــنّ العرب أن بريطانيا لا تزال قوية بوجود قواعدها العسكرية ونفــوذها السياسي في المنطقة، وواصلوا الاعتماد عليها للتوصّل إلى "تسوية عادلة" - وهــو الــوهم الذي حافظوا عليه حتى النهاية. وفي وقت لاحق، نقلوا آمالهم اليائسة نفسها إلى الولايات المتحدة، ليعانوا من خيبة أمل أقسى في يومنا الحاضر.

جــاء نــداء الاستيقاظ المرتفع في 27 تشرين الثاني/نوفمبر 1947، عندما صوّتت الجمعية العامة للأمم المتحدة، المجتمعة في باريس، على تقسيم فلسطين بأكثرية الثلثين. منحت هذه الخطة، التي دعمتها الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، الصهاينة أكثر

(1) Walid Khalidi, 'Illegal Jewish Immigration to Palestine under the British Mandate', in *Journal of Palestine Studies*, 35(4) (Summer 2006), p. 66, quoting Nicholas Bethell, *The Palestine Triangle*, London 1979, p. 397.

(2) Walid Khalidi, 'Illegal Jewish Immigration', p. 64.

Cambridge University Press بإذن خاص من



خطة الأمم المتحدة لتقسيم فلسطين في 1947.

Cambridge University Press بإذن خاص من

لبنان
سورية
مرتفعات
الجولان
صفد
عكا
حيفا
طبريا
بحيرة طبرية
الناصرة
البحر الأبيض المتوسط
نهر الأردن
نابلس
الضفة الغربية
تل أبيب
يافا
الرملة
رام الله
عمّان
القدس
قطاع
غزة
غزة
الخليل
البحر الميت
الأردن
رفح
بئر السبع
العوجة
النقب
مصر
سيناء
العقبة

طرق رئيسية
منطقة تحت الإدارة المصرية
منطقة تحت الإدارة الأردنية
منطقة منزوعة السلاح
حدود دولية

كلم ٩٠ ٨٠ ٧٠ ٦٠ ٥٠ ٤٠ ٣٠ ٢٠ ١٠ ٠
ميل ٥٠ ٤٠ ٣٠ ٢٠ ١٠ ٠

دولة إسرائيل بعد اتفاقات الهدنة عام 1949.

مـــن 50 بالمئة من فلسطين على الرغم من أنهم كانوا يشكّلون ثلث السكان فقط في ذلـــك الـــوقت، ولا يمتلكون قانونياً سوى 7 بالمئة من الأرض. ابتهج اليهود وغضب العـــرب بشدة. أقفلت بيروت، ونـــزل الطلاب إلى الشوارع في احتجاجات غاضبة. وانفجـــرت قـــنابل في الحـــي اليهودي، قرب المفوضية الأميركية، وفي المقر الرئيسي للحزب الشيوعي، إذ اعتبر الاتحاد السوفياتي مسؤولاً إلى حدٍّ كبير عما جرى. وألحق رماة الحجارة أضراراً في مكاتب شركة التابلاين في بيروت ودمشق. وخرّبت المدارس الـــبريطانية والأميركية في العراق. وفي فلسطين، دعت الهيئة العربية العليا إلى إضراب عام لمدة ثلاثة أيام.

وقعـــت مناوشات بين اليهود والعرب في القدس، بينما هاجم إرهابيون يهود من عـــصابتي شتيرن والإرغون الأحياء العربية في كانون الأول/ديسمبر، ففجروا سيارات وشاحنات ملغومة وأطلقوا بذلك دوامة من العنف المتبادل. وفي كانون الأول/ديسمبر 1947 فقط، قُتل 208 من العرب، و204 من اليهود، و17 بريطانياً[1].

أثـــارت خطـــة الأمم المتحدة الانقسامات بين الهاشميين وخصومهم العرب، أي مصر والمملكة العربية السعودية وسوريا. وفي لبنان، حاول رياض الصلح الحفاظ على علاقـــات جـــيدة مع الطرفين على الرغم من ميله إلى أصدقائه عاهلي مصر والمملكة العـــربية الـــسعودية والـــرئيس السوري. كان يشكّ في وجود اتصالات بين عبد الله والـــصهاينة مـــنذ ســـنوات، لكنه لم يكن لديه سبيل إلى معرفة أن عبد الله توصّل في تـــشرين الـــثاني/نوفمبر 1947، بعد أكثر من عشرين عاماً من الاتصالات السرية، إلى اتفـــاق واضح وصريح مع الصهاينة لتقسيم فلسطين بينهما. فقد زارت غولدا مايرسن (مـــائير في ما بعد)، رئيسة الدائرة السياسية للوكالة اليهودية في ذلك الوقت - دائرة الدبلوماسية والجاسوسية - عبد الله سراً "وعادت بما يعادل اتفاق عدم اعتداء"[2].

كانـــت بريطانيا، التي تراقب عن كثب اتفاقات عبد الله الخارجية، على اطلاع جـــيّد على ما يجري. ومع أن تقسيم فلسطين المقترح يقوّض سياسات كتابها الأبيض

(1) Henry Laurens, *La Question de Palestine*, p. 47.

(2) Avi Shlaim, *The Politics of Partition: King Abdallah, The Zionists and Palestine, 1921-1951*, Oxford 1990, pp. 99-100. هـــذه نـــسخة مختصرة عن عمل شلايم *Collusion Across the Jordan*.

الصادر في سنة 1939، فإنها لم تبدِ انزعاجها منه. ربما تصوّرت وزارة الخارجية البريطانية أن مساعدة الأردن في الحصول على الجزء المخصّص للعرب من فلسطين، سيقيّد الحدود المقترحة للدولة اليهودية نوعاً ما، ويحافظ على موقع بريطانيا في المنطقة. وقد رأى بعض المسؤولين في لندن، بالإضافة إلى غلوب باشا، القائد البريطاني للفيلق العربي في الأردن، مشروع سوريا الكبرى الذي ينادي به عبد الله حصناً محتملاً يوفّر الحماية للمصالح البريطانية الاستراتيجية في الشرق الأوسط. وكما أوضح غلوب للحكومة البريطانية: "لن نكون واهمين إذا تصوّرنا الفيلق العربي بمثابة نواة لجيش سوريا الكبرى في المستقبل"[1]. بل إن بعض المسؤولين اعتقدوا أن من مصلحة بريطانيا إقامة اتصال برّي بين شرق الأردن وغزة، وبالتالي قطع الطريق على أي دولة يهودية في المستقبل إلى البحر الأحمر. على أي حال، لم يكن سوى قلة يتوقّعون أن تتعرّض الخطة الملائمة لتقسيم فلسطين "سلماً" بين الأردن والصهاينة للخطر بسبب التحريض العسكري (غير الفعال) من قبل جامعة الدول العربية.

في لبنان، استجاب مجلس النواب اللبناني للأزمة في 5 كانون الأول/ديسمبر باتخاذ قرار بفرض ضريبة على السلع الكمالية. فقد كان هناك شعور بأن المال أكثر أهمية من الرجال في الدفاع عن فلسطين. ووافق الوزراء والنواب على المساهمة براتب شهر لصندوق فلسطين. وفي نهاية كانون الأول/ديسمبر، جمع الصندوق مبلغاً كبيراً بلغ 120,000 ليرة لبنانية (15,000 جنيه إسترليني) في بيروت، و29,000 ليرة لبنانية (نحو 2000 جنيه إسترليني) في طرابلس. تقرر أيضاً حظر المزيد من المظاهرات والإضرابات. وطُلب من 19 طالباً يهودياً فلسطينياً كانوا يدرسون في الجامعة الأميركية في بيروت مغادرة البلد من أجل سلامتهم.

بعد أسبوع من تصويت الأمم المتحدة على تقسيم فلسطين، توجّه رياض الصلح - يرافقه الحاج أمين الحسيني، الذي وصل فجأة إلى بيروت في تشرين الأول/أكتوبر - إلى القاهرة للمشاركة في اجتماع رؤساء الوزراء العرب. أدان الاجتماع خطة الأمم المتحدة للتقسيم، وتعهّد بالمحافظة على وحدة فلسطين وعروبتها. لكن ذلك كان مجرد

(1) General G. B. Glubb, 'A note on the Future of the Arab Legion', quoted in Maan Abu Nawar, *The Struggle for Independence, 1939-1947: A History of the Hashemite Kingdom of Jordan*, 2001, p. 305.

خطاب فارغ للاستهلاك المحلي. لم يكن أي زعيم عربي يمتلك الوسائل للدفاع عن الفلسطينيين العرب. ولم يكن هناك أي خطة عربية لمحاربة اليهود، لكن ليس من الممكن الاعتراف بذلك لأن الشعب العربي، خلافاً لزعمائه، أعمته حمى الحرب.

قام العميد جيلبرت كلايتن Gilbert Clayton، مدير الاستخبارات العسكرية البريطانية في مصر (الذي عمل ككبير مستشاري أللنبي السياسيين ويعرف العالم العربي جيداً)، بزيارة رياض الصلح في القاهرة في 11 كانون الأول/ديسمبر، فوجده "محبطاً جداً من الوضع القائم". أبلغه رياض أن القتال في فلسطين أمر محتم، لأنّ العرب لن يقبلوا بالتقسيم. فالرأي العام العربي ملتهب جداً، ومن المستحيل منع المتطوعين من المسارعة إلى مساعدة العرب الفلسطينيين. وستسقط على الفور أي حكومة تحاول منعهم. أرسل كلايتن تقريراً إلى لندن جاء فيه: "لدي انطباع أنه يريد وسيلة لتفادي مخاطر الوضع، لكنه يشعر أن المسألة خرجت عن سيطرته". وأضاف أن رياض الصلح لم يذكر شيئاً عن المخططات العربية بعد انتهاء الانتداب - ولم يكن هناك ما يقوله بالطبع[1].

قرّر الزعماء العرب لإرضاء الرأي العام - وتبرئة أنفسهم من مهمة عسكرية مستحيلة - تشجيع المتطوّعين العرب على دخول فلسطين ومحاربة الصهاينة. ففتح مركز للمتطوّعين في بيروت، على سبيل المثال، ولم يكن لبنان الاستثناء في هذا المجال. فقد فضّل كل الزعماء العرب في ذلك الوقت ترك القتال للمتطوعين الشجعان - وللفلسطينيين أنفسهم - بدلاً من إلزام جيوشهم الضعيفة في المعركة. كانت الفكرة ترمي إلى إنهاك القوات اليهودية بالعمليات الفدائية. أدرك شكري القوتلي، مثل رياض الصلح في لبنان، أنّ الجيش السوري غير فعال كقوة قتالية. فجيشه المكوّن من ألفي جندي سيّئ التدريب ويفتقر إلى الذخيرة والدروع والمؤن. بل إن البلد كان مفلساً فعلياً بعد جلاء الفرنسيين، ولا يستطيع احتمال شراء الأسلحة الباهظة الثمن من الخارج. على أي حال، لم يكن هناك أحد في سوريا في ذلك الوقت يعرف كيف يحصل على هذه الأشياء، إذ لم يظهر "تجار السلاح" إلا مع الانقلابات العسكرية اللاحقة. كان قلق القوتلي المعقول منصبّاً على حماية ما يسمّى خطأً "جيشاً" من هزيمة

(1) Cairo to Foreign Office, 11 December 1947 (FO 371/61580).

تامّة في فلسطين، ويخشى أن يترك ذلك بلده عرضة للهجوم. وخشيت حكومات عربية أخرى من الهزيمة العسكرية أيضاً، لأن ذلك سيدينهم في أعين رعاياهم ويعرّضهم لخطر السقوط.

المتطوّعون العرب

تشكلت قوّتان من المتطوعين العرب في أواخر سنة 1947 وأوائل سنة 1948، وهما "جيش الإنقاذ" و"جيش الجهاد المقدس". القوة الأولى أنشأتها جامعة الدول العربية، وقادها في الميدان المحارب الفدائي المخضرم فوزي القاوقجي. وتشكّلت القوة الثانية بمبادرة خاصة من الحاج أمين الحسيني، الذي رفض تسليم قيادة مؤيديه إلى القاوقجي. وأصرّ على أن فلسطين ليست بحاجة إلى جيش من المتطوّعين وعلى وجوب إرسال الأموال المجموعة من أجلها - عن طريق جامعة الدول العربية والتبرعات الخاصة - إليه مباشرة. تسلّم عبد القادر الحسيني، ابن عم الحاج الحسيني، قيادة جيش الجهاد المقدس في وسط فلسطين، بينما تسلّم حسن سلامة قيادة القوات غير النظامية في المنطقة الساحلية من فلسطين. لذا شاب العلاقات بين جيش الإنقاذ وقوات المفتي شيء من العداء.

تشكّل جيش الإنقاذ بتوصية من اللواء إسماعيل صفوت، وهو رئيس أركان عراقي سابق عيّنته جامعة الدول العربية في القاهرة على رأس لجنة تقنية لتقويم الوضع في فلسطين. وقد تغيّر اسم هذه اللجنة التقنية ليصبح اللجنة العسكرية ونقلت إلى دمشق. وأوكلت إلى لجنة فلسطين، برئاسة رئيس الوزراء السوري جميل مردم، إدارة الوضع العام. بعد ذلك عيّن جميل مردم العميد طه الهاشمي، وهو رئيس وزراء سابق للعراق اختار سوريا منفى له بعد إسقاط رشيد عالي، قائداً أو مفتشاً عاماً لجيش التحرير العربي.

تدفّق المتطوعون الشجعان من سوريا والعراق والأردن ومصر. وكانوا مسلمين ومسيحيين، عرباً وأكراداً وشركساً وأشوريين - بلغ مجموعهم نحو 3500 رجل شجاع. قُدّم لكل منهم بندقية، وبضع مئات من الطلقات، وثلاثة أيام من التدريب الأولي في معسكر الجيش السوري في قطنة، قرب دمشق، قبل إرسالهم إلى فلسطين من

دون أي تجهيزات إضافية أو مؤن كافية. ربما كان جميل مردم ولجنته العسكرية يأملون أن يتمكن هؤلاء من وأد طموحات عبد الله التوسعية في مهدها، إلى جانب محاربة الصهاينة. لذلك أُرسل العديد من هؤلاء المتطوّعين إلى المناطق التي ينوي عبد الله ضمّها إلى الأردن.

عارض عبد الله هذه القوى غير النظامية بطبيعة الحال. وأصرّ على وجوب وضع أي قوة عربية تحت قيادته. كان يدرك تماماً أن الدعم السوري لجيش الإنقاذ يهدف أيضاً إلى القضاء على آماله بضم القسم العربي من فلسطين إلى مملكته. لذا بدأ بتسليح مؤيديه هناك. في 5 آذار/مارس، دعي القاوقجي إلى عمّان حيث اتفق مع الملك عبد الله على معارضتهما المشتركة للمفتي وأتباعه. في غضون ذلك، انتشرت "الميليشيات" الفلسطينية المحلية المكوّنة من المزارعين الخائفين والضعيفي التسليح في مختلف القرى من دون تنسيق فيما بينها، لمواجهة القيادة الصهيونية المركزية. وسرعان ما تعرضوا لهزيمة مأسوية.

رياض الصلح يطلب المساعدة من بريطانيا

كان رياض الصلح يدرك جيداً الوضع الكارثي الذي وجد العرب أنفسهم فيه. لم تكن الحكومات العربية تمتلك أي خيار عسكري معقول: كانت جيوشها النظامية ضعيفة جداً لا تقوى على الذهاب إلى فلسطين لمحاربة اليهود. وعلى أي حال، لم يكن في وسعها القيام بذلك من الناحية التقنية قبل أن تنسحب بريطانيا في 14 أيار/مايو، لتجنّب مخاطر الاشتباك مع القوات البريطانية. لكن تواصل تسلّل مجموعات صغيرة من المتطوّعين عبر الحدود. ربما ساهم المتطوّعون في تنفيس الغضب الشعبي قليلاً، لكن لم يكن في وسعهم مواجهة الصهاينة الأفضل تسليحاً وتدريباً. بل ربما شكّلوا خطراً أكبر على الوضع العربي، بإعطاء اليهود ذريعة ممتازة للهجوم.

فكّر رياض في هذه النتائج الكئيبة، وبحث بقلق متزايد عن مخرج من هذا الطريق المسدود. كان القرار الذي اتخذه جريئاً. وبالنظر إلى علاقاته الودية مع البريطانيين في ذلك الوقت - ولأنه يحب الاعتقاد أنه يعرف كيف يفكرون - قرّر القيام بمحاولة أخيرة لدفع بريطانيا إلى وقف انزلاق فلسطين إلى الهاوية. كانت الخطة التي وضعها

تقضي بعرض صفقة شاملة على بريطانيا - "تسوية شاملة" كما أسماها - تعزّز النفوذ البريطاني في المنطقة من خلال عقد حلف دفاعي بين بريطانيا والدول العربية. وتشمل أيضاً التزاماً عربياً بمحاربة الشيوعية - كان رياض يعلم في ذلك الوقت أن ذلك أصبح من الأمور الرئيسية التي تشغل الغرب. ويتعيّن على بريطانيا، في المقابل، حلّ مشكلتي فلسطين ومصر بما يرضي العرب. في فلسطين، ثمة حاجة إلى تسوية عادلة تحتوي الصهاينة وتحمي الحقوق العربية، بينما يتعين على بريطانيا في مصر الموافقة طوعاً على الانسحاب من قناة السويس، لتفتح الطريق أمام حقبة جديدة من التعاون والصداقة.

استغل رياض الصلح كل فرصة ممكنة - في الفترة الممتدة بين تصويت الأمم المتحدة على التقسيم في تشرين الثاني/نوفمبر 1947 ونهاية الانتداب في منتصف ليل 14 أيار/مايو 1948 - لعرض اقتراحه "للتسوية الشاملة" على كل مسؤول بريطاني كبير اجتمع به، بالإضافة إلى الزعماء العرب. ورأى أن هذا التفاهم الشامل يصبّ في مصلحة البريطانيين والعرب على حدٍّ سواء. ارتاح رياض عندما وجد أن ثمة ميلاً لدى الزعماء العرب للموافقة على آرائه. وتشجع كثيراً بعد عودته من القاهرة إلى لبنان حين أخبره السفير البريطاني في بيروت، وليام هوستن بوزوال، أن وزارة الخارجية البريطانية أوعزت إليه ليقول إن "أفكاره تتطابق على العموم مع أفكار حكومة جلالة الملك"[1].

دُفع رياض إلى الاعتقاد أنه يحرز تقدماً جدياً، لكن لندن لم تقم بأي خطوة. في كانون الثاني/يناير وشباط/فبراير 1948، أشار رياض تكراراً إلى خطته في محادثات جديدة مع هوستن بوزوال في بيروت وجلبرت كلايتن في القاهرة. أبلغ هوستن بوزوال أنّه يريد "مباحثات صريحة ومتكتّمة" بين بريطانيا والدول العربية، يقدّم فيها كل جانب مطالبه. وأكّد أن هذه المباحثات ستسهّل التوصل إلى تفاهم بين بريطانيا ومصر[2]. وأضاف أنه عقد العزم على العمل مع زملائه العرب لإقناعهم بفوائد خطته. وعندما عمّت العراق مظاهرات عنيفة احتجاجاً على معاهدة بورتسماوث البريطانية العراقية في 15 كانون الثاني/يناير 1948 - وقّعها صالح جبر، الذي تسلّم

(1) *Beirut Political Summary*, December 1947 (FO 371/68489).
(2) *Beirut to Foreign Office*, 6 February 1948 (FO 371/68384).

رئاسة الوزراء بدلاً من نوري السعيد في آذار/مارس 1947 - سارع رياض إلى إبلاغ هوستن بوزوال أنه كان من الممكن تفادي هذه المصاعب لو أن المعاهدة قد وقّعت تحت غطاء تفاهم عام بين البريطانيين والعرب[1]. بدلاً من ذلك، اضطرّ الوصي على العرش العراقي إلى التخلي عن المعاهدة، وسقطت حكومة جبر في 27 كانون الثاني/يناير.

بعد بضعة أيام، على هامش اجتماع مجلس جامعة الدول العربية الذي عُقد في القاهرة بين 7 و24 شباط/فبراير، وكُرّس بأكمله تقريباً لموضوع فلسطين، أعاد رياض مناقشة الموضوع مع كلايتن. ونقلاً عن كلايتن:

بدأ رياض بالحديث عن أهمية توصّل حكومة جلالة الملك إلى تسوية عامة مع العرب. لكنه ذكر أن من غير المجدي محاولة التوصل إلى أي شيء قبل تسوية المسألة المصرية. وواصل تكرار ذلك مشدّداً على أهميته في نظر البلدان العربية. ورأى وجوب تسوية ذلك قبل انسحابنا من فلسطين إذا أمكن. ويمكن تسوية الأمر إذا تغلّبنا على مصاعب الجلاء. ونسب رياض الأحداث في العراق إلى المشاعر الشخصية المناوئة لصالح جبر، والأهم من ذلك إلى المسألتين الفلسطينية والمصرية[2].

في آذار/مارس، واصل هوستن بوزوال تذكير لندن، مبدياً يأسه إلى حدٍّ ما الآن، أنه "يقوم منذ بضعة أشهر بإرسال تقارير عن جهود رئيس الوزراء اللبناني للتوصّل إلى تفاهم معقول بين حكومة جلالة الملك والدول العربية". لكن لندن لم ترسل أي رد مرة أخرى. وفي أوائل نيسان/أبريل، أرسل هوستن بوزوال تقريراً أن رياض الصلح ذهب إلى حدّ منح بريطانيا تسهيلات عسكرية محدّدة في إطار اتفاقية دفاعية عامة. وقال رياض إن مثل هذه التسهيلات "تنبثق بصورة طبيعية من التفاهم العامّ". وأوضح أن العرب يشاركون بريطانيا في أهداف مقاومة العدوان السوفياتي. وإذا قام السوفيات بمهاجمة إيران أو العراق، فإنه على استعداد للسماح للقوات البريطانية بالنزول في لبنان. لكنه أضاف أن للعرب هدفاً إضافياً هو تصفية الخلافات العالقة بينهم وبين الغرب، لا سيما بشأن فلسطين ومصر. وأكّد "أن من المهم أن تقدّر حكومة جلالة الملك أن العزة الوطنية أصبحت واقعاً لدى العرب".

---

(1) *Beirut Political Summary*, February 1948 (FO 371/68489).

(2) Beirut to Foreign Office, 27 March 1948 (FO 371/68385).

لم يكن رياض الصلح يدرك أن الأمر قد قُضي من وجهة نظر لندن، وأن الأوان قد فات لإبداء الاهتمام بخطته الطموحة. فبريطانيا المنهكة ستغادر فلسطين؛ وسيحصل الصهاينة على دولتهم؛ وعلى العرب الاكتفاء بما يستطيعون الحصول عليه. والنتيجة الأفضل وفقاً لقرار المسؤولين البريطانيين - وخاصة أولئك الذين لم يعملوا في العالم العربي وليسوا على اطلاع على ما يحدث على أرض الواقع - هي تقسيم فلسطين بين عبد الله والصهاينة.

في غضون ذلك، واصل القادة العرب العيش في عالم الخيال. فبعد اجتماع اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية في بيروت بين 16 و21 آذار/مارس، صدرت تعليمات إلى الوفود العربية في الأمم المتحدة - كانت تعقد جلستها في ليك سكسس Lake Success قرب نيويورك في ذلك الوقت - تفيد أن العرب على استعداد للمحافظة على الأمن في فلسطين إذا أبعد الإرهابيون الصهاينة، وحُلّت الهاغاناه، وحُظرت الهجرة اليهودية!

اشتباكات ما قبل الحرب

في نهاية آذار/مارس 1948، كانت الهاغاناه تضمّ 22,000 رجل وامرأة تحت السلاح، من أصل السكان اليهود الذين يقدّرون بنحو 645,000 نسمة، بينهم 284,000 (أو 44 بالمئة) في سن تسمح لهم بحمل السلاح. وبلغ عدد القوات العربية 12,000 مقاتل، بمن فيهم المتطوعون من البلدان الأخرى، من أصل السكان الفلسطينيين الذين يبلغ عددهم 1,357,000 نسمة[1]. لكن السكان الفلسطينيين يضمون نساء لا يقمن بأي دور عسكري، والعديد من الأطفال. كما أن معظمهم ريفيون وغير متعلّمين. وكان من يمتلك المال أو لديه علاقات من سكان المدن الفلسطينيين من الطبقة الوسطى، قد بدؤوا منذ بضعة أشهر بالانتقال إلى الخارج، إلى لبنان بصورة خاصة، أو إرسال عائلاتهم حرصاً على سلامتهم، بعد سلسلة من الاعتداءات الإجرامية على المدنيين التي نفّذتها عصابتا شتيرن والإرغون.

كان هدف الصهاينة مهاجمة قواعد العدو وخطوط إمداداته، وتدمير القرى العربية وطرد سكانها، والسيطرة على أكبر مساحة ممكنة من الأراضي. وقضت الخطة

(1) Cairo to Foreign Office, 16 February 1948 (FO 371/68384).

بشنّ حرب شاملة لكسر إرادة العرب الفلسطينيين والدول العربية المجاورة. فقد رأى إسرائيل غاليلي، قائد الهاغاناه، أن الحدود الموضوعة بموجب خطة التقسيم لا معنى لها، وأن القوة وحدها هي التي سترسم حدود الدولة اليهودية القادمة.

في 5 نيسان/أبريل 1948، زار قائد جيش الجهاد المقدس، عبد القادر الحسيني، دمشق لطلب المساعدة، ورجا القوّتلي واللجنة العسكرية تزويده بالسلاح والمدفعية. وحذّر من أن المقاومة الفلسطينية ستنهار إذا اخترق الصهاينة القدس. لكن القوّتلي كان عاجزاً عن تقديم المساعدة في هذه اللحظة الأخيرة. فقد رفض الحاج أمين منذ البداية التعاون مع القاوقجي وجيش الإنقاذ، وفات الأوان الآن. خرج عبد القادر الحسيني من الاجتماع غاضباً. وبعد أربعة أيام، استُشهد وهو يدافع عن قرية صغيرة على قمة تلة عند مداخل القدس[1].

كان نيسان/أبريل شهراً رهيباً على العرب. ففي 9 نيسان/أبريل، هاجم إرهابيو الإرغون وشتيرن دير ياسين، وهي قرية صغيرة غرب القدس. أطلقوا النار بصورة عشوائية، فقتلوا نحو 245 رجلاً وامرأة وطفلاً. ووفقاً لرواية المؤرّخ آفي شلايم من جامعة أكسفورد:

أُخذ بعض القرويين في شاحنة عبر شوارع القدس في "موكب للنصر" قبل إعادتهم إلى القرية حيث قتلوا رمياً بالرصاص. انتشرت أخبار المذبحة كالنار في الهشيم موقعة الذعر في قلوب العرب. وأدّت، أكثر من أي حادثة أخرى، إلى تحطيم معنويات السكان المدنيين وإطلاق النزوح الجماعي للعرب من فلسطين[2].

في 13 نيسان/أبريل، استولت البالماخ، وهي القوة الضاربة في الهاغاناه، على صفد في الجليل. وقُتل عشرات المساجين الفلسطينيين الشبان بدم بارد، انتقاماً لليهود الذين قُتلوا في صفد قبل نحو عقدين، في سنة 1929. كما تم الاستيلاء على العديد من القرى العربية الأخرى ونهبها وتدميرها، واضطر سكانها إلى الهرب. وبينما كانت اللجنة السياسة لجامعة الدول العربية مجتمعة في القاهرة في نيسان/أبريل، وصلت أخبار عن

---

(1) Landis, 'Syria in the 1948 Palestine War', quoting Walid Khalidi (ed.) 'Selected Documents on the 1948 Palestine War', in *Journal of Palestine Studies*, 27(3) (1998), p. 75.

(2) Avi Shlaim, *The Politics of Partition*, p. 136.

سقوط حيفا في أيدي القوات الصهيونية. انتهى الاجتماع بعد أن ساد الارتباك. كان هـــناك تواطؤ بريطاني في سقوط حيفا، إذ لم يبلّغ العرب بالقرار البريطاني بالانسحاب مـــن المدينة إلا قبل بضع ساعات. وسقطت يافا بعد ذلك بوقت قصير. هرب مئات الآلاف مـــن اللاجـــئين المـــضطربين والمعدمين والخائفين وبدؤوا بالتدفق عبر الحدود الفلـــسطينية إلى الـــبلدان المجاورة. في لبنان، بلغ عدد اللاجئين 20,000 لاجئ في نهاية نيـــسان/أبريل، وبعد أسابيع، ارتفع العدد إلى 60,000، ثم إلى 85,000، ثم إلى 140,000. ووصلت أعداد أكبر بكثير إلى سوريا والأردن وغزة.

أنكـــرت الهاغانـــاه مـــسؤوليتها عن مذبحة دير ياسين. لكن كما بيّن الباحث الإسرائيلي إيلان بابيه في كتابه *The Ethnic Cleansing of Palestine* (التطهير العرقي في فلـــسطين)، كان بن غوريون ومجموعة صغيرة من رفاقه قد وضعوا مخططاً، عُرف باسم خطة دالت، لطرد الفلسطينيين بصورة منهجية من مساحات كبيرة من البلاد - وهـــو مشروع للتطهير العرقي أوسع بكثير وأقل وحشية إلى حدٍّ ما مما جرى في دير ياســين. اقتضى ذلك تخطيطاً طويلاً ودقيقاً لتجنيد شبكة من المتعاونين العرب الذين ســـاعدوا في جمـــع "ملفـــات القرى" - أي سجلّ مفصّل عن جميع القرى العربية في فلـــسطين: موقعها الطوبوغرافي، والطرق المؤدية إليها، ونوعية الأرض، وينابيع المياه، والمصادر الرئيسية للدخل، والانتماءات الدينية، وأسماء زعماء القرى وأصحاب المحالّ، ومتوسّـــط مساحة الأرض التي تملكها كل عائلة، وأعمار سكانها الذكور، وكثير من التفاصيل المماثلة، بالإضافة إلى عدد الحراس في حال وجودهم، (معظم القرى لم يكن فيها حرّاس) وكمية الأسلحة التي تملكها كل قرية ونوعيتها. وتمّ التركيز بشكل خاص على الأشخاص المتهمين بقتل اليهود في الثورة التي امتدت بين سنتي 1936 و1939، أو مـــن لهـــم صـــلة بـــالمفتي. وقـــد ساعد المخبرون في تشكيل لائحة بهؤلاء الرجال "المطلوبين"[1].

في آذار/مارس 1948، تلقّى كل من قادة ألوية الهاغاناه الاثني عشر لائحة بالقرى الموجودة في منطقته والتي يجب احتلالها، وإحراقها وتدميرها، وطرد سكانها، والتواريخ

(1) Ilan Pappé, *The Ethnic Cleansing of Palestine*, Oxford 2006; and an article by him on the same subject, 'The 1948 Ethnic Cleansing of Palestine', in *Journal of Palestine Studies*, 36(1) (Autumn 2006), pp. 6-20.

المحـــددة لتنفيذ ذلك. كانت تلك أوامر عمليات محددة وواضحة. زُرعت الألغام بين الأنقـــاض لمنع السكان من العودة. وعند استيلاء القوات اليهودية على قرية ما، يُصفّ الـــرجال للتعرّف إلى الأشخاص "المطلوبين" الذين غالباً ما كانوا يقتلون على الفور. تلـــك هـــي الخطة التي خيضت حرب 1948 بموجبها، كما كتب بابيه. نُهبت المنازل وأعدم العديد من الأسرى الشبّان القادرين على القتال. وألقي باللاجئين على الطرقات آخذين معهم ما استطاعوا حمله فحسب.

ســـعت إســـرائيل في العقـــود الستة اللاحقة للقضاء على جميع أشكال المقاومة الفلـــسطينية، وإجهاض أي تحرك نحو إقامة دولة فلسطينية، ربما لأنّها تدرك أن الجرائم الهائلة التي ارتكبتها عند قيامها لا يمكن نسيانها أو غفرانها بسهولة.

الجيوش العربية تنضمّ إلى القتال

فـــتحت المذابح وعمليات الطرد الجماعي أَعيُن العرب على تفوّق قوة الصهاينة، وعدم قيام زعمائهم بالاستعداد الكافي، فاتهمتهم الصحافة – التي كانت أكثر تحرراً مما هي عليه اليوم – بالغباء وبأنهم أدوات في أيدي الآخرين، أو بالتضحية بفلسطين على مذبح طموحاتهم. واتضح بصورة تبعث على الألم أن القوات العربية غير النظامية غير كافـــية للـــتعامل مع قوات الهاغاناه العالية التدريب. ومع بلوغ حمّى الحرب ذروتها، تعالـــت الدعـــوة العامة إلى تدخّل الجيوش العربية النظامية. غير أن قرار مجلس الأمن الدولي رقم 46، الصادر في 17 نيسان/أبريل، وجّه ضربة قاسية للعرب، إذ فرض حظراً تامـــاً علـــى تـــسليم الأسلحة إلى الشرق الأوسط. بالمقابل، استمر الصهاينة في تلقّي الأسلحة والمعدات سرّاً من الكتلة السوفياتية وفرنسا.

في دمـــشق في 9 أيـــار/مايو، اجتمعت اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية، في حالة من الهلع، لمحاولة وضع خطة للعمليات العسكرية. اقتُرح أن يقوم الجيشان اللبناني والـــسوري في الـــشمال، يدعمهما جيش الإنقاذ، بالزحف على حيفا؛ وأن يزحف الجـــيش المصري من الجنوب على يافا؛ وأن يتقدم الجيشان الأردني والعراقي إلى نقطة على البحر المتوسط شمال تل أبيب، وبالتالي شطر المناطق التي يسيطر عليها اليهود إلى نصفين. لكن سرعان ما ألقى عدم توفّر الوسائل، والمشاجرات التافهة ظلالاً من الشك

في القـــدرة علـــى تنفيذ هذا العمل المنسّق. واجه الزعماء العرب معضلة كبرى: فقد حـــثّهم الـــبريطانيون على عدم التدخل قبل 15 أيار/مايو - وقرّروا بالفعل عدم القيام بـــذلك - لكـــنهم يدركـــون أن اليهود سيسيطرون، في غضون ذلك، على النقاط الاستراتيجية الحيوية في المناطق العربية.

فيما كان العرب يتخبّطون، قام رياض الصلح بجولة سريعة في المنطقة، في مبادرة لصياغة نوع من الهدف العربـــي الموحّد. في أوائل أيار/مايو، أقنع الوصي على العرش العراقـــي عـــبد الإله بمرافقته إلى القاهرة في محاولة لتأمين تدخّل الجيش المصري. كان هـــناك وهم عربـــي كبير أن باستطاعة مصر الدفاع عن فلسطين. لكن كانت تساور الملـــك فاروق شكوك عميقة بشأن مخطّطات عبد الله، وأراد النأي بنفسه عن المقاتلين العـــرب غير النظاميين، سواء أكانوا بقيادة المفتي أم القاوقجي. وبعد مباحثات طويلة وتـــردّد كبير، وافق على المشاركة في الحرب - قبل أربعة أيام فقط من نهاية الانتداب البريطاني والبداية الرسمية للقتال في 15 أيار/مايو.

وفي 6 أيـــار/مايو، رافق رياض الصلح أيضاً جميل مردم إلى الرياض لتأمين موافقة ابـــن سعود على مقرّرات اللجنة السياسية. وبحضٍّ من رياض، اجتمع الرئيسان اللبناني والسوري، بشارة الخوري وشكري القوّتلي، مع الملك عبد الله عاهل الأردن في درعا، على الحدود السورية الأردنية، في 20 أيار/مايو، لوضع اللمسات الأخيرة على التعاون المؤقت (والمحدود جداً) في ما بينهم. أدى نجاح رياض الظاهري في التنسيق بين مختلف الخطـــط العربية للتدخل العسكري إلى تعزيز مكانته كثيراً في أوساط المسلمين في لبنان والعالم العربـــي. وأصبح يُنظر إلى الحرب في فلسطين بمثابة جهاد للدفاع عن الوجود.

في أعقـــاب تراجع العرب على الأرض في أواخر نيسان/أبريل وأوائل أيار/مايو، وتفكّـــك جـــيش الإنقـــاذ، التفت الرأي العام إلى الملك عبد الله على أمل أن يتمكن والفيلق العربـــي من تقديم بعض الأمل بالإنقاذ. أبدى رياض الصلح، البراغماتي على عادتـــه، استعداداً لمنح عبد الله فرصة الاستفادة من قرينة الشك. كانت هناك شكوك واســـعة بـــشأن اتصالات عبد الله بالصهاينة، لكن لم يكن أحد يعرف مقدار تواطُئه الفعلـــي. ولم يكن أحد يعرف شيئاً بالتأكيد عن اتفاقه السري مع اليهود على اقتسام فلـــسطين. واجـــه عبد الله في ذلك الوقت بعض الصعوبات: كان بحاجة إلى مواصلة

الدعـــوة إلى القتال ليُثبت للعرب أنه ليس خائناً؛ وفي الوقت نفسه الاستمرار في إبلاغ الـــيهود، عـــن طـــريق رسائل سرية، أنه لا يعتزم مهاجمتهم. بل إنه وافق على ذلك صـــراحة. وقد وفّر هذا الخطاب المزدوج الذريعة للصهاينة - عندما يلائمهم ذلك - علـــى الاســـتيلاء على أراضٍ في المناطق التي يأمل في ضمّها إليه، بالإضافة إلى إشراك الفـــيلق العربـــي في القتال في مناسبات عديدة، وبخاصة حول اللطرون، للسيطرة على الطريق المؤدية إلى القدس، التي كانت ذات أهمية حيوية للقيادة الصهيونية.

إعلان دولة إسرائيل

عند الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الجمعة في 14 أيار/مايو، قبيل بدء عطلة السبت، أعلـــن ديفـــيد بن غوريون قيام دولة إسرائيل من تل أبيب. اعترفت الولايات المتحدة بحكومـــته المؤقتة كسلطة فعلية للدولة، لكن الاتحاد السوفياتي تفوّق على هذا الإعلان بمنح إسرائيل اعترافاً شرعياً، وإقامة علاقات دبلوماسية معها على الفور.

عـــبر الجـــيش المصري الحدود إلى فلسطين في 15 أيار/مايو ووصل بصعوبة إلى أشـــدود التي تبعد 32 كيلومتراً عن تل أبيب. وقام رتل آخر يتكوّن أساساً من عناصر من الإخوان المسلمين وبعض الجنود المصريين النظاميين بعبور النقب ودخول الخليل في 20 أيـــار/مايو، لكن لم يستطع التقدّم إلى أبعد من ذلك لعدم توفر الإمدادات. حاول العـــراقيون عبور نهر الأردن عند نقطة التقائه مع اليرموك، لكنهم توقّفوا أمام مستوطنة غيـــشر اليهودية. وبعد اجتماع مجلس الحرب بين الملك عبد الله والوصي على العرش العراقـــي، دخـــل العراقيون إلى الضفة الغربية عبر جسر أللنبـــي وبلغوا نابلس في 21 أيار/مايو وطولكرم في 23 منه. وفي نهاية أيار/مايو لم يكن يفصلهم عن البحر المتوسط ســـوى 11 كيلومتراً. عندئذ هاجمتهم القوات الإسرائيلية من الشمال في قطاع جنين، حيث وقعت معارك ضارية في أوائل حزيران/يونيو.

دخـــل الفـــيلق العربـــي التابع للملك عبد الله فلسطين رسمياً في 15 أيار/مايو، وكانت أوامره تمنعه من تخطي حدود التقسيم، ما أغضب ضباطه العرب. لكن لم تكن ذخيرته تكفي أكثر من ثلاثة أسابيع، وثار غضبه عندما صادر المصريون سفينة أسلحة في المـــياه المـــصرية كانـــت في طريقها إلى الأردن. كان هدف الفيلق احتلال وسط

فلسطين من أريحا إلى رام الله تاركاً للعراقيين السيطرة على الشمال. وسيطر الفيلق أيضاً على المرتفعات القريبة من القدس، بما في ذلك طريق يافا – القدس قرب اللطرون.

تجمّع نحو 2000 مقاتل عربي للدفاع عن القدس. وهم أعضاء في ميليشيات القرى، ورجال شرطة، ومجموعة من الإخوان المسلمين السوريين بقيادة مصطفى السباعي، بالإضافة إلى عناصر من جيش الإنقاذ والجهاد المقدس، وجميعهم غير مسلحين جيداً ومن دون قيادة عامة. لكنهم تمكّنوا من التصدي للهجمات الإسرائيلية المتكرّرة على المدينة القديمة في منتصف أيار/مايو، ولم يفقدوا سوى حيّ الشيخ جراح. وعندما تعرّضت المدينة القديمة لخطر التطويق، قدّم الملك عبد الله وغلوب المساعدة إلى المدافعين، بتردّد كبير، لإدراكهما أن ذلك يمكن أن يؤدي إلى حرب مفتوحة مع إسرائيل. في 19 أيار/مايو، اخترق رتل مكوّن من 300 جندي من الفيلق العربي الطوق واستعاد حي الشيخ جرّاح، ما أكسب عبد الله الثناء بوصفه منقذاً للقدس. وبعد قتال عنيف، سُمح لنحو 800 من سكان الحي اليهودي بالمغادرة، وأسر 350 آخرين من الذين بلغوا سن القتال ونُقلوا إلى السجون في الأردن.

غضب الإسرائيليون لاشتباههم أن تدخّل الفيلق العربي أملته بريطانيا لإحباط الطموحات التوسّعية للدولة اليهودية. صدّت الهجمات الإسرائيلية المتكرّرة للسيطرة على طريق القدس، وألحقت بها خسائر كبيرة. قتل ميكي ماركوس، القائد الإسرائيلي العام في هذه الجبهة، خطأً، من قبل حارس لا يعرف اللغة الإنكليزية. وكان ماركوس ضابطاً يهودياً أميركياً سارع إلى إسرائيل للمشاركة في القتال، وقد حاز على رتبة جنرال – وهو أوّل من حصل على هذه الرتبة في الجيش الإسرائيلي الجديد.

فشل وساطة الكونت برنادوت

مع انزلاق فلسطين إلى العنف وخروجه عن السيطرة، قرر تريغفي لي Trygve Lie، الأمين العام النروجي للأمم المتحدة، تعيين وسيط في محاولة لوقف القتال. وقع اختياره على الكونت فولك برنادوت Folke Bernadotte، أحد أحفاد ملك السويد ومسؤول كبير في الصليب الأحمر السويدي. في 29 أيار/مايو، صوّت مجلس الأمن على وقف

إطـــلاق الـــنار لمدّة أربعة أسابيع، وطلب من الوسيط تنفيذ القرار بمساعدة فريق من المراقبين العسكريين. تم الاتفاق على هدنة في 11 حزيران/يونيو ونفذت تدريجياً، على الرغم من العديد من الانتهاكات الإجرامية.

ســـعى الجانـــبان إلى تعزيز مواقعهما، لكن في حين أن العرب - الذين يعانون كالمعـــتاد من الفرقة، ونقص الأموال، والمورّدين المستعدّين لخرق حظر الأسلحة - لم يفعلـــوا سوى القليل لإعادة تجهيز قواهم، فإن إسرائيل انتهزت الفرصة لتسليح قواها وإعـــادة تنظيمها في وحدات أكبر. كانت الهاغاناه تتوقّع الحرب مع العرب منذ وقت طويل، وشرعت منذ سنة 1945 في شراء الأسلحة على نطاق واسع واستقدام الرجال الذين يجيدون استعمالها. فوفّرت الهدنة زخماً جديداً لهذه الجهود. ومن خلال شركات وهمية - بالتعاون مع بعض دول أميركا اللاتينية حيث أقام الصهاينة علاقات قوية - تم شـــراء الأسلحة والمعدات من إدارة المخزونات الحربية الأميركية التي كانت تعمل على الـــتخلّص مـــن فائض المعدّات العسكرية لديها بعد الحرب العالمية الثانية. نقلت تلك الأسلحة سرّاً إلى فلسطين، ومن بينها ثلاث طائرات حربية من نوع بـــي 17 (القلاع الطائـــرة)[1]. وفي حزيـــران/يونيو، قصفت الطائرات الإسرائيلية خط الجبهة السورية، بالإضافة إلى دمشق، حيث شاءت الأقدار أن تصيب منـــزل الملحق الجوي الأميركي وتدمّـــره. وكانت تشيكوسلوفاكيا - بموافقة روسيا - من المصادر الرئيسية للأسلحة، مـــثل فرنـــسا. وخلافـــاً للعرب الذين تنقصهم الأموال، كان في وسع إسرائيل طلب مساهمات كبيرة بالدولارات النادرة، من داعميها الأميركيين الموالين.

كان المراقبون المرافقون لبرنادوت قليلي العدد ومتناثرين، فلم يتمكنوا من مراقبة تدفـــق الأســـلحة، أو التحقق من الانتهاكات العديدة للهدنة. تابعت إسرائيل تفريغ القـــرى العـــربية وقتل سكانها أو طردهم. ورفضت بعناد السماح لأي من اللاجئين بالعـــودة. وكان كل من يحاول ذلك يُقتل فور مشاهدته. وشُكّلت لجنة إسرائيلية في نهاية أيار/مايو بقيادة يوسف وايتز Yosef Weitz لإدارة طرد السكان العرب، واعتبرت الهدنة فرصة لحلّ "المسألة العربية" بصورة نهائية.

(1) انظـــر Ricky-Dale Calhoun, “Arming David: The Haganah’s Illegal Arms Procurement Network in the United States, 1945-49”, *Journal of Palestine Studies*, 36(4) (Summer 2007), pp. 22-32.

كانـــت إســـرائيل مصمّمة على إفشال مساعي برنادوت، فشنّت هجمات على جـــبهات مـــتعددة. شنّت عملية ديكل لتدمير قوات القاوقجي في الجليل الغربـــي. سقطت الناصرة في 16 تموز/يوليو، وأُجبر جيش الإنقاذ على التراجع شمالاً بشكل غير مـــنظّم. ونُفذت عملية داني، بقيادة إيغال ألون وإسحق رابين، بغية إخلاء مدينتي اللد والـــرملة العربيتين من سكانهما ومهاجمة اللطرون. أجبرت أعداد كبيرة من اللاجئين علـــى الخـــروج إلى الطـــرقات في الحر الشديد، ما أدى إلى وفاة الكثير من الأطفال والمـــسنّين. لم يتدخّل الفيلق العربـــي ما دفع بعض ضبّاطه العرب للتململ، ووُجّهت إلى عبد الله أول تهمة بالخيانة.

استدعى برنادوت مراقبيه بعد فشله في جعل القدس منطقة منـــزوعة السلاح، أو حتى وضع الخطوط العريضة لتسوية سياسية يقبلها الجانبان. وفي 12 تموز/يوليو، توجّه إلى الأمـــم المتحدة في ليك سكسس سعيا لتحقيق هدنة غير محدودة تدخل حيّز التنفيذ في 18 تمـــوز/يولـــيو. سارعت إسرائيل، بدعم من الاتحاد السوفياتي، إلى قبولها، لكن العرب طالبوا بانسحابها إلى خطوط 29 أيار/مايو. عقد مجلس الجامعة العربية اجتماعاً في بلـــدة عاليه اللبنانية في 17 تموز/يوليو، ووقف حائراً بين الوضع العسكري الخطير، والـــرأي العـــام الـــذي يطالب بالتدخّل العسكري الفوري، دون أن يدرك الكارثة الوشيكة. في ذلك الوقت، كان القادة العرب لا يزالون يخافون من ردود فعل شعوبهم، ولم يكن في وسعهم سحقهم من دون محاسبة.

الجبهة اللبنانية

كـــان ريـــاض الصلح رئيس وزراء بلد تردّد بعض سكانه في خوض حرب ضدّ الـــصهاينة. بل إن بعض المسيحيين اعتبروهم حلفاء محتملين ضدّ الأكثرية الإسلامية في العالم العربي[1]. ولم يتورّع المونسنيور أغناطيوس مبارك، مطران الموارنة في جبل لبنان، عـــن الكـــتابة إلى لجـــنة الأمـــم المتحدة الخاصة لفلسطين مقترحاً إقامة "وطن قومي مـــسيحي" في لبنان في وقت متزامن مع إنشاء "وطن قومي يهودي" في فلسطين! وفي

(1) اعتمدت في روايتي عن الحرب على الجبهة اللبنانية Matthew Hughes, 'Lebanon and the 1948 War', in *Journal of Palestine Studies*, 34 (2) (Winter 2005), pp. 1-18.

أواخر سنة 1947، وصل إلى حدّ تحدي الحكومة اللبنانية بإصدار كتيّب يدعو القوات المسلحة إلى التمرّد والسكان إلى العصيان المدني. وقد أمره الفاتيكان (بضغط من الحكومة اللبنانية من دون شك) بمغادرة لبنان في نيسان/أبريل 1948. وبعد شهرين، أعفي البطريرك الماروني أنطون عريضة، الذي يؤيد آراء مبارك، من مهامّه أيضاً.

ومن المعروف أن إميل إده، المرشح الرئاسي الموالي للفرنسيين - الذي يضمر حقداً كبيراً على بشارة الخوري ورياض الصلح - كان يسعى أيضاً إلى إنشاء "وطن قومي مسيحي" إلى جانب الوطن اليهودي. وبلغ به التهوّر حدّ إثارة احتمال قيام ثورة مسيحية في بيروت إذا دخلت إسرائيل جنوب لبنان. وفي كانون الأول/ديسمبر 1947، قام ثلاثة أعضاء من فريقه بزيارة عمّان، ما أثار شكوكاً كبيرة في الصحافة الوطنية. وخلافاً لهؤلاء المسيحيين، لم يكن هناك غبار على موقف بشارة الخوري. فقد عمل خلال الحرب بتنسيق وثيق مع رياض الصلح. لكن ما من شك في أن خيارات لبنان كانت محدودة في سنة 1948، بسبب معارضة قسم من المسيحيين المشاركة في أي حرب في فلسطين[1]. وقد شكّل ذلك عبئاً إضافياً تحمّله رياض الصلح.

حذّر السفير البريطاني في بيروت، وليام هوستن - بوزوال، لندن من خطر وقوع حرب أهلية إذا استُدرج لبنان إلى الحرب. وكتب أن حكومة رياض الصلح لا تستطيع الاعتماد على التعاون الصادق من رجال الدين الموارنة. "إن الخطر المصاحب للالتزام بالقضية الفلسطينية هو توقّع حدوث اضطرابات طائفية خطيرة لا تستطيع الحكومة السيطرة عليها إذا شاركت القوات اللبنانية الضعيفة وتعرّضت للهزيمة (وهي نتيجة حتمية إذا شاركت في القتال بصورة جدية)[2].

لم يكن الجيش اللبناني، بقيادة الأمير فؤاد شهاب، جاهزاً عند اندلاع الحرب في 15 أيار/مايو، إذ لا يزال منشغلاً بالمهمة الصعبة التي تقتضي تحويل بقايا القوات الخاصة إلى قوة قتالية. وثمة كثير من الترتيبات التي يتعيّن القيام بها، لأن القوات الخاصة جنّدت في لبنان وسوريا من الأقليات بصورة رئيسية، وغادر معظم ضباطها السوريين للانضمام إلى الجيش السوري فور جلاء الفرنسيين. على أي حال، كانت أربع كتائب

(1) المصدر نفسه، ص 2-3.
(2) Beirut to Foreign Office 26 June 1948 (FO 371/68495).

مـــشاة لبنانية، تضم كل واحدة منها 500 عنصر، منشغلة بعمليات مكافحة اللصوص وقطّاع الطرق، ولعلها قوة شرطة أكثر مما هي قوة عسكرية. وقد أدى نقص الأموال، بالإضافة إلى الحظر المفروض على وصول الأسلحة الغربية، إلى تعذّر حصول لبنان على أســلحة ومعـــدات جديدة لتحلّ محلّ الأسلحة القديمة التي خلّفها الفرنسيون. ورفض البريطانيون طلباً تقدّم به رياض الصلح وفؤاد شهاب للحصول على مدفعية وطائرات حـــربية. لم يكـــن هناك من تخشاه القيادة الصهيونية العليا في الجليل، لأنها تدرك أن الجيش اللبناني لا يستطيع مهاجمة المستوطنات اليهودية الحدودية.

كتب ماثيو هيوز Matthew Hughes في روايته عن الحرب على الجبهة اللبنانية: "لا شك في أن طبيعة الجيش الطائفية، إلى جانب ضعف التنظيم القتالي، يعوقان القيام بعملـــيات عسكرية فعالة". وهكذا كان دور لبنان في الحرب متواضعاً جداً، واقتصر على احتواء القوات اليهودية على طول الحدود. أرضى ذلك إلى حدٍّ ما رغبة المسلمين في بالـــتدخل، ولم يثر في الوقت نفسه استياء في صفوف المسيحيين الذين عارضوا قيام الجيش بأي عملية خارج الحدود اللبنانية. في 15 أيار/مايو 1948، تمترس الجيش اللبناني ضـــمن جانـــبه من الحدود، بدلاً من التقدّم على طول الساحل من رأس الناقورة إلى عكا، كما عُهد إليه، والانضمام إلى الجيوش السورية والأردنية والعراقية لفصل الجليل وتطويق إسرائيل استراتيجياً. كان رياض الصلح يريد قيام الجيش بشنّ هجوم[1]، لكن شهاب رأى أن من الأفضل أن يقتصر دور لبنان على الدفاع عن حدوده.

غـــير أن الصهاينة لم يقفوا مكتوفي الأيدي في ما يتعلق بلبنان. قبل بضعة أيام من 15 أيـــار/مايـــو، ألحقـــت كـــوماندو يهودية أضراراً بجسر على نهر الليطاني وفي 23 أيـــار/مايو، نسفت منـــزل أحمد الأسعد في بلدة الطيبة، ما أثار غضبه وغضب مؤيديه الـــشيعة في جـــنوب لبنان، فضغطوا على الحكومة للردّ. وفي 28 أيار/مايو، أضرمت دوريات يهودية النار في مركبتين مدرعتين لبنانيتين قديمتين قرب الحدود، فيما قصفت طائرة حربـــية قريتَي بنت جبيل وتبنين الحدوديتين. أجبرت هذه الغارات عبر الحدود شـــهاب على الرد، ولو للمحافظة على مكانة لبنان في جامعة الدول العربية. نتج عن ذلـــك اشتباك مع الصهاينة عند قرية المالكية في 5-6 حزيران/يونيو، حين ساند الجيش

(1) عارف العارف، **النكبة**، بيروت، 1956؛ صادق الشرع، **حروبنا مع إسرائيل**، عمان، 1997.

اللبناني 250 عنصراً من جيش الإنقاذ، من بينهم كتيبة بقيادة المقدّم أديب الشيشكلي الذي سيصبح رجل سوريا ورئيسها، وهو منصب حصل عليه في انقلاب عسكري. في ذلك الوقت، أعاد جيش الإنقاذ نشر قواته في الجليل بعد انتقاله من منطقة القدس - يافا - نابلس عبر سوريا[1].

المالكية قرية تبعد نحو 700 متر عن الحدود اللبنانية داخل الأراضي الفلسطينية. وفي تلك الفترة تبدّلت القوى التي تسيطر عليها عدّة مرات. سيطر عليها الإسرائيليون في 13-14 أيار/مايو، لكن كتيبة الشيشكلي طردتهم منها بعد بضعة أيام. وأعاد الإسرائيليون السيطرة عليها في 28-29 أيار/مايو بعد أن هاجموها قاموا من الخلف عبر الأراضي اللبنانية. وتمكّنت كتيبة من الجيش اللبناني في 5 حزيران/يونيو من إخراج الإسرائيليين من المالكية ودخول قرية قَدَس المجاورة. قُتل ثمانية جنود إسرائيليين وجنديان لبنانيان. غير أن الجيش اللبناني لم يهاجم مستوطنة راموت نافتالي اليهودية المجاورة و لم يحاول الانضمام إلى القوات السورية.

أقام اللبنانيون عرضاً عسكرياً في بنت جبيل في 9 حزيران/يونيو احتفالاً بالانتصار الذي حققوه في المالكية، وقد حضره الرئيس بشارة الخوري ورئيس الوزراء رياض الصلح ووزير الدفاع مجيد أرسلان وقائد الجيش فؤاد شهاب. استُعرض الجنود اللبنانيون، ووزعت الأوسمة والتُقطت الصور التذكارية. ومُنح فوزي القاوقجي وسام الأرز تقديراً لدور جيش الإنقاذ في المعركة. بعد ذلك سلّم الجيش اللبناني المالكية وقَدَس لجيش الإنقاذ، وعاد إلى الجانب اللبناني من الحدود. ختم هيوز روايته قائلاً، "في 9 حزيران/يونيو، انتهت الحرب التي بدأت في 5 حزيران/يونيو بالنسبة للجيش اللبناني"[2].

انتقلت مسؤولية قتال إسرائيل في الجليل إلى جيش الإنقاذ، وكان يعاني من ضعف في التدريب ونقص في العتاد، وسرعان ما دحرته الهاغاناه في سلسلة من الهجمات بين نيسان/أبريل وتشرين الثاني/نوفمبر 1948. في حزيران/يونيو 1948، قلّصت جامعة الدول العربية حجم جيش الإنقاذ لضمان حصول كل عنصر على

(1) Hughes, 'Lebanon and the 1948 War', pp. 5-6.

(2) المصدر نفسه، ص 10.

بندقــية. وفي تموز/يوليو، قلّصت عدده إلى النصف إذ لم تعد قادرة على دفع الرواتب لكل رجاله[1]. "واجه جيش الإنقاذ نقصاً في الأغذية والمعدات والمسكن وأمراضاً مثل الخُــناق، فأخذ رجاله يهجرونه جماعياً، ويطلقون النار لإفراغ أسلحتهم، ويضايقون المسؤولين الزائرين"[2].

كان القاوقجي يدرك تماماً الشكوك والعداء المتبادَلين اللذين حالا دون القيام بأي عمــل عــسكري عربــي منسّق، وحرما جيش الإنقاذ من الدعم السياسي والمادي. فكتب في مذكراته: "كانت كل دولة عربية تخشى مما يدعى شقيقتها، وتشتهي أراضي شقيقتها، وتتآمر مع الآخرين ضدّ شقيقتها"[3].

لمحة سريعة عن رياض الصلح خلال الحرب

سنحت الفرصة للمؤرخ الفلسطيني وليد الخالدي لزيارة رياض الصلح في منــزله في حزيران/يونيو 1948، خلال الهدنة في حرب فلسطين. أراد أن ينقل لرئيس الوزراء عرضــاً ســرياً، قدّمه طيار في سلاح الجو الملكي البريطاني، لمساعدة لبنان في الحرب. (أدى غــضب العديــد مــن الجنود البريطانيين من الهجمات اليهودية الإرهابية على أهــداف بريطانية إلى تطوّعهم للقتال مع العرب). نصحه صائب سلام، وهو نسيب الخالــدي عــن طريق المصاهرة، أن يقدّم العرض إلى رياض الصلح شخصياً. واتصل ســلام برياض لترتيب المقابلة التي حدّد موعدها عند الساعة الثامنة صباحاً. في ما يلي رواية الأستاذ الخالدي عن الاجتماع:

كــان رياض بك وعائلته يقيمون في شقة مستأجرة فوق بعض المتاجر في وسط شــارع البسطة الرئيسي، مقابل أحد المساجد. ثمة درج قصير متسخ يقود من الشارع إلى المــدخل ينفتح على قاعة بسيطة عديمة النوافذ على الطراز التقليدي، وفيها أبواب مغلقــة تؤدي إلى الغرف على الجانبين وفي الجانب البعيد. كان أثاث متفرّق، معظمه

(1) المصدر نفسه، ص 11.

(2) المصدر نفسه، ص 12.

(3) خيريّة قاسمية، (محررة)، **فلسطين في مذكرات فوزي القاوقجي**، الجزء 2، ص 135-6. أنظر أيضاً Laila Parsons, "Soldiering for Arab Nationalism: Fawzi al-Qawuqi in Palestine" .*Journal of Palestine Studies*, 36(4) (Summer 2007), pp. 33-48

كراسٍ ذات مقاعد من القش مصفوفة على طول الحائط. وهناك عدد من الرجال الذين يشبهون القبضايات، بعضهم يرتدون القمباز الدمشقي ويضحكون ويتبادلون الحديث مع رياض بك شخصياً، الذي لا يزال بملابس النوم، فيما يحلق له الحلاّق ذقنه. عرفني وأشار إلي بالجلوس. وما لبث أن وقف واصطحبني إلى إحدى الغرف الجانبية، وكانت غرفة نوم. بعد إغلاق الباب، قال إن صائب بك أوضح له المسألة. المشكلة الوحيدة أن لبنان ليس لديه سلاح جوي! فكّر قليلاً ثم قال: "سوريا تمتلك سلاحاً جوياً. سأعطيك بطاقة تنقلها إلى جميل بك [جميل مردم، رئيس وزراء سوريا]. وبإمكانك أن تشرح له الأمور وتقدّم إليه الرجل الإنكليزي". ثم أخرج بطاقة زيارة وكتب عليها: "الرجاء السماح لحاملها ومرافقه بالمرور. إنهما في مهمة رسمية"، ووقّع عليها. ناولني البطاقة وقال: "أبرزها على الحدود وسيسمحون لك بالمرور". وبعد ذلك صافحني وربّت على كتفي، وتمنّى لي التوفيق وهو يودّعني[1].

الدور السوري في الحرب

أدّى الجيش السوري دوراً محدوداً في الحرب. وقدّر أنه تمكن من حشد نحو 2500 رجل - نشر 1000 منهم داخل فلسطين و1500 على الجانب السوري من الحدود. بعد ستة أيام من بدء العمليات العسكرية في 15 أيار/مايو، دخل السوريون فلسطين، لكنهم صدّوا عند قرية سمخ، ومستعمرتي ديغانيا أ وب جنوبي بحيرة طبريا، وسقط 300 جندي سوري بين قتيل وجريح نتيجة القصف المدفعي الإسرائيلي. بعد هذه الخسارة الكبيرة في الأرواح، استقال وزير الدفاع أحمد الشراباتي، وتسلم رئيس الوزراء جميل مردم حقيبة الدفاع.

أقال الرئيس القوتلي قائد الأركان، العميد عبد الله عطفة، وعيّن مكانه العقيد حسني الزعيم، قائد الدرك، وهو قرار سيندم عليه بعد ذلك. تمكّنت القوات السورية بقيادة الزعيم من احتلال شريط ضيّق من الأراضي الفلسطينية على طول الحدود، بالإضافة إلى ثلاثة جيوب صغيرة في المناطق الشمالية والوسطى والجنوبية من حدود سنة 1923. وفي أعقاب هدنة 1949 بين سوريا وإسرائيل، أصبحت هذه الجيوب

(1) رسالة إلى المؤلف من الأستاذ وليد الخالدي.

مـــناطق منـــزوعة السلاح. وأدى الخلاف بشأن إدارة هذه المناطق إلى نشوب حرب 1967، وما زالت مناطق متنازع عليها حتى اليوم.

رأى ريـــاض الـــصلح أن الجيـــشين السوري واللبناني لعبا دوراً فاعلاً في تقييد 15,000 جندي إسرائيلي في شمال فلسطين، وبالتالي تسهيل مهمّة المصريين في الجنوب والفـــيلق العربـــــي في الوســـط. لكن سلبـــية الجيش اللبناني وعجز جيش الإنقاذ ومحدوديـــة عمليات القوات السورية، منحت الإسرائيليين ميزة استراتيجية كبيرة. وبما أن العـــرب كانوا يفتقرون إلى القدرة الأساسية على التنسيق العسكري، فقد تمكنت إسرائيل من التعامل مع كل جبهة عربية على حدة، ونقل القوات في الأوقات الحرجة لتحقيق التفوّق الموضعي.

المرحلة النهائية

اهـــتمّ الكـــونت برنادوت، بعد عودته إلى المنطقة في أوائل أيلول/سبتمبر، بمصير اللاجـــئين وتدويل القدس. ولكي يؤسّس مبدأ، أراد أن تسمح إسرائيل بعودة 250,000-300,000 فلـــسطيني إلى حـــيفا ويافا بشكل رئيسي، بالإضافة إلى التخلّي عن النقب مقابل الجليل. لكن إسرائيل أرادت النقب والجليل معاً، ورفضت رفضاً قاطعًا السماح بعـــودة أي لاجـــئ. أصبح برنادوت هدفاً لحملة صحفية إسرائيلية حاقدة، اتُّهم فيها بمحابـــاة العرب ومعاداة السامية والعمالة للاستعمار البريطاني. وفي 17 أيلول/سبتمبر، اغـــتاله في القـــدس فريق من قتلة عصابة شتيرن، بينهم ناثان يالين - مور، وإسحاق شامير (رئيس وزراء إسرائيل لاحقاً) وإسرائيل إلداد.

وصـــل عـــدد الجنود الإسرائيليين في تشرين الأول/أكتوبر إلى 90,000 جندي، مـــسلّحين جيّداً ويخضعون لقيادة واحدة، وأصبح بإمكانهم الآن نشر وحدات كبيرة. بالمقابل، لم تتجاوز القوات العربية مجتمعة 20,000- 25,000 رجل متناثرين بحالة يرثى لهـــا ويأتمـــرون بقيادة غير مبالية. خشيت إسرائيل من احتمال سعي الأمم المتحدة إلى فـــرض تـــسوية جغـــرافية وعـــودة اللاجـــئين، فعمدت إلى الهجوم. في 14 تشرين الأول/أكتوبـــر، أي الـــيوم الذي كان مجلس الأمن سيناقش فيه مقترحات برنادوت المغـــدور، شنّت إسرائيل عملية يوآف على القوات المصرية، وبعد قتال عنيف تمكّنت

من دخول النقب. وبحلول 21 تشرين الأول/أكتوبر، سيطرت على بئر السبع، عاصمة النقب، وأجبرت 200,000 لاجئ على الهرب إلى قطاع غزة. لم يفعل الأردن شيئاً لتخفيف الضغط عن المصريين، ما أدى إلى تردي العلاقات بينهما.

ظهر عجز العرب الواضح في 29 تشرين الأول/أكتوبر، عندما شنّت إسرائيل عملية هيران لتدمير ما تبقّى من القوات العربية والوصول إلى الحدود اللبنانية. فسيطرت إسرائيل على منطقة الجليل التي منحتها الأمم المتحدة للعرب بموجب قرار التقسيم في سنة 1947، وأجبر عشرات الآلاف من الفلسطينيين على مغادرة بيوتهم. تمّت السيطرة على المنطقة دون قتال تقريباً. وذكرت صحيفة "فلسطين بوست" *Palestine Post* أن إسرائيل خسرت عشرة رجال فقط خلال سيطرتها على 500 ميل مربع من الأراضي. وللمحافظة على زخم الهجوم، عبرت القوات الإسرائيلية إلى لبنان واحتلت أربع عشرة قرية لبنانية وأفرغتها من سكانها. أوقف بن غوريون تقدم القوات الإسرائيلية عند نهر الليطاني، على الرغم من أن قائد العمليات في الجبهة الشمالية ألحّ في طلب منحه اثنتي عشرة ساعة إضافية للوصول إلى بيروت. استمرّ الاحتلال الإسرائيلي لبعض مناطق جنوب لبنان حتى سنة 1949، واستعمل للمساومة في مفاوضات الهدنة التي اختُتمت في 23 آذار/مارس 1949، ووضعت حداً للأعمال العدائية بين لبنان وإسرائيل[1].

أدت عمليتا يوآف وهيران إلى نزوح ما بين 200,000 و230,000 عربي[2]. وفي 22 كانون الأول/ديسمبر، شنّت إسرائيل عملية هوريف ضد مواقع القوات المصرية المتبقية في غزة ورفح والعوجة، ثم عبرت إلى سيناء عند أبو عجيلة والعريش والفالوجة. وعندما وضعت بريطانيا قواتها في حالة تأهّب، تنفيذاً لالتزامها بالدفاع عن الأراضي المصرية بموجب المعاهدة البريطانية المصرية لسنة 1936، وأرسلت ست طائرات استطلاع من طراز سبيت فاير لمراقبة ميدان القتال، قامت إسرائيل بإسقاطها. استمرت الهجمات الإسرائيلية والهجمات المضادة حتى آذار/مارس 1949، عندما أوصلت عملية أخيرة في الجنوب قواتها إلى قرية أم الرشراش على البحر الأحمر، التي أصبحت تعرف باسم إيلات. وهكذا وصلت الحرب إلى نهايتها.

(1) Hughes, 'Lebanon and the 1948 War', p. 13.
(2) Laurens, *La Question de Palestine*, vol. III, p. 175.

خسرت إسرائيل أكثر من 6000 قتيل. وخسرت القوات العربية، النظامية وغير النظامية، 3700 رجل، من بينهم ما يزيد على 1000 مصري. وبلغت الخسائر الفلسطينية 13,000 قتيل، معظمهم من غير المقاتلين[1].

لم تتفوّق إسرائيل في ساحة القتال فحسب. فقد تمكّنت استخباراتها من اختراق عدد من البلدان العربية وجمع معلومات وافية عن أوضاعها الداخلية. وصف آفي شلايم كيف أنشأ القسم العربي في الدائرة السياسية للوكالة اليهودية شبكة تجسس واسعة في العالم العربي يديرها أشخاص يتقنون اللغة العربية مثل إلياس ساسون وياكوف شيموني. ولد ساسون في دمشق في سنة 1902 ونشأ بين العرب، تولّى رئاسة القسم العربي من سنة 1937 حتى سنة 1948، وتمكن في هذه الفترة من الاتصال بمئات الشخصيات العامة الفلسطينية والأردنية والسورية واللبنانية والعراقية والمصرية، وكان قد التقى ببعضهم لأول مرة عندما كان طالباً في بيروت أو عضواً في النادي العربي في دمشق. من عملائه المأجورين محمد الأنسي، الذي أصبح وزيراً للداخلية ونائباً لرئيس الوزراء في الأردن. ووفقاً لشلايم، زوّد الأنسي "الوكالة اليهودية بمعلومات قيّمة عن الأردنيين والفلسطينيين والشؤون العربية الداخلية لمدة تزيد على خمسة عشر عاماً"[2]. وثمة عميل إسرائيلي مأجور آخر، عمر الدجاني، كانت لديه صلات على مستوى عالٍ، لا في العالم العربي فحسب، وإنما في جنيف ونيويورك أيضاً. وهو فلسطيني عربي من عائلة معروفة، وكان يديره ساسون وياكوف شيموني[3].

هناك خبير صهيوني آخر في شؤون العالم العربي يدعى يهوشوع بالمون. بعد أن عمل في أثناء الحرب العالمية الثانية عميلاً سرياً في سوريا، أصبح من أقدر ضباط الاستخبارات في الهاغاناه ومستشار بن غوريون للشؤون العربية[4]. وقد استفاد هؤلاء الجواسيس الكبار وعملاؤهم بمهارة من الخصومات العربية والاختلافات الطائفية. بالمقابل، لم يكن لدى القادة العرب سوى فكرة مبهمة عن قدرات الصهاينة أو خططهم الحربية أو نياتهم النهائية.

---

(1) المصدر نفسه، ص 194.

(2) Shlaim, *The Politics of Partition*, pp. 67-8.

(3) المصدر نفسه، ص 85-6.

(4) المصدر نفسه، ص 131.

جهود رياض الصلح الأخيرة في الحرب

بعد نشوب الحرب، ظل رياض الصلح متمسّكاً ببصيص أمل في إمكانية إقناع بريطانيا بإنقاذ فلسطين، أو على الأقل قسم كبير منها، لصالح العرب. في أوائل حزيران/يونيو، اتصل بهوستن - بوزوال مجدداً، واقترح السفر إلى لندن لعقد اجتماع طارئ مع وزير الخارجية إيرنست بيفن. نقل هوستن - بوزوال الرسالة مع توصية شخصية إيجابية. وأشار إلى أن رياض الصلح يتسم بالذكاء وطيب الطباع ويمكن أن يفيد البريطانيين. لكن بيفن لم يستطع المخاطرة، في ظل الضغط الأميركي والصهيوني الكبير. ردّ بيفن قائلاً: "أقدّر جداً موقف رياض الصلح الودي والمتعاون، ولو كانت الظروف مختلفة لرحّبت باقتراحه ودعوته إلى زيارة لندن على الفور. لكن الوضع الفلسطيني الحرج يجعل من المستحيل أن أدعوه لزيارتي في الوقت الحالي إذ سيساء تفسير زيارته هنا وفي الولايات المتحدة"(1).

أصيب رياض الصلح بخيبة أمل كبيرة، وكان عليه الاعتراف أخيراً بفشل خطته الطموحة لتحقيق تسوية شاملة بين العرب والبريطانيين. تبعت ذلك صدمات أخرى، استاء كثيراً عندما قتل الكونت برنادوت في القدس في 17 أيلول/سبتمبر، ورأى في تلك الجريمة دليلاً إضافياً على سياسة إسرائيل الإرهابية. وكان قد اجتمع ببرنادوت في بيروت قبل مقتله بيوم.

في غضون ذلك، تدفق إلى لبنان، مثله مثل الدول العربية الأخرى، أعداد كبيرة من اللاجئين الفلسطينيين المعدمين. وقد بلغ مجموع الفلسطينيين الفارّين أو المطرودين من بلدهم نحو 750,000 فلسطيني. في أيلول/سبتمبر، أرسل البريطانيون إلى لبنان، في بادرة رمزية، 2500 خيمة من مخازنهم في منطقة قناة السويس. نصبت 500 خيمة في صور لإيواء أكثر من 5000 لاجئ من بنت جبيل والجليل.

أمضى رياض الصلح معظم تشرين/أكتوبر وتشرين الثاني/نوفمبر 1948 في باريس لحضور اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة حيث أمل أن يؤمّن الدعم للقضية العربية. لكنه تلقى درساً قاسياً في سياسة القوة. فقد قدّمت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي الدعم لإسرائيل، بينما وجد العرب أنفسهم وحيدين تماماً. اجتمع رياض في

(1) Beirut to Foreign Office, 4 June 1948 (FO 371/68386).

5 تشرين الأول/أكتوبر مع وزير الخارجية الأميركي جورج مارشال George Marshall، ولم يسفر الاجتماع عن أي نتيجة. مع ذلك، كان رياض مصمماً على مقاومة خسارة فلسطين. وأبلغ أحد الدبلوماسيين البريطانيين أنه كلما تعاظم النجاح اليهودي، ازداد إصرار العرب على المقاومة، حتى لو احتل اليهود فلسطين بأكملها.

أبرمت اتفاقيات هدنة بين إسرائيل والدول العربية المجاورة لها في بداية سنة 1949، وتم التوافق على الحدود. أمّنت إسرائيل السيطرة على أكثر من ثلاثة أرباع فلسطين التاريخية. ووضعت مصر تحت إدارتها قطاعاً من الأرض، مليئاً باللاجئين، يمتد على طول الساحل الجنوبي من غزة إلى الحدود المصرية. وضمّ الملك عبد الله ما تبقى من فلسطين إلى مملكته. قسمت القدس بين الأردن وإسرائيل، على الرغم من أن هذا التقسيم لم يعترف به بوضوح أو على نطاق واسع.

أُجبر رياض على الاعتراف بالهزيمة العربية المفجعة. ولم يعد هناك الآن سوى محاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه مما كان فلسطين العربية. وفيما كان رياض يتأمّل في حطام بلد عرفه جيداً، فترسّخ في ذهنه أن إقامة "حكومة في غرفة واحدة" – في المنفى عند الضرورة، على غرار الحكومات الحليفة في لندن في أثناء الحرب العالمية الثانية – قد تكون الآن الملاذ الأخير، وتوفّر نقطة بؤرية للمقاومة العربية. وقد ذكر رياض هذا التشبيه في الغالب في محادثاته مع الدبلوماسيين الأجانب[1]. ومن باريس، بعث برسالة إلى لبنان نُشرت في صحافة بيروت في 11 تشرين الثاني/نوفمبر، وأعلن فيها استعداده للاستقالة وقيادة "حملة جديدة" ضدّ الصهاينة.

(1) Beirut to Foreign Office, 21 September 1948 (FO 371/68376).

الفصل الخامس والعشرون

التحدي الذي فرضه الثوّار

مـــن الـــصعب المبالغة في تقدير الأثر المفجع الذي أحدثه قيام دولة إسرائيل في العـــرب في ســـنة 1948. فقـــد هُزمت الجيوش العربية، ودُحر المتطوّعون، وأصيبت الحكـــومات العربية بالوهن. وانكشف ستر الدول العربية، واتُهم زعماؤها بالعجز أو الخـــيانة. وفقدت القومية العربية صدقيّتها، وتبيّن أن جامعة الدول العربية الحديثة، التي أنـــشئت حديـــثاً تعبيراً عن الرغبة في التعاون الوثيق والوحدة، مجرّد مكان للكلام غير المجـــدي، وغير قادرة على رأب الصدع الناتج عن الخلافات العربية، وعاجزة تماماً عن إدارة عمليات عسكرية مشتركة.

دُمّـــر المجـــتمع العربـــــي في فلسطين، وسويّت نحو 450 قرية عربية بالأرض. وأفـــرغت العديد من المدن من سكانها بوحشية. وأخرج ثلاثة أرباع المليون نسمة من ديارهم بقوّة السلاح، مخلّفين وراءهم كل ما يملكون. أجبروا على الفرار طلباً للنجاة، إلى حـــياة مليـــئة بالمعاناة والهوان والفقر عبر الحدود. لم تكن البلدان التي استضافتهم مهيّـــئة لاستقبالهم، لأنها فقيرة وغير مستقرّة، نالت استقلالها حديثاً أو لا تزال تناضل لنـــيل حرّيتها، لذا فإنها انـــزعجت من تدفّقهم عليها. نظر لبنان إلى الوصول المفاجئ للاجـــئين الفلـــسطينيين، وغالبيتهم من المسلمين، بقلق عظيم. فهو بلد صغير مكتظّ، وحـــريص جـــداً على المحافظة على التوازن الطائفي بين المسلمين والمسيحيين. وكان يتطلّع إلى عودتهم إلى ديارهم، على الرغم من أنه لم يَعُد لديهم وطن يعودون إليه، أو مكان آخر على الأقل ينتقلون إليه.

وكان للهزيمة تأثير مخيف على صعيد الجغرافيا السياسية. فقد أزيلت فلسطين عن الخريطة، وهي الجسر البري الذي يربط بين آسيا العربية وأفريقيا العربية. وتمكّنت قوة أجنبية معادية وتوسعية زُرعت في قلب المنطقة، من التغلّب على العرب. فشكّل ذلك صـــدمة هائلـــة للـــنظام السياسي والعسكري العربـــي. وضربت المنطقة هزة كبيرة،

أصبحت بعد ذلك زلزالاً اجتماعياً وإيديولوجياً، أسفر عن اضطرابات عنيفة في الأشهر والسنوات والعقود التالية. فقد كان لقيام إسرائيل تداعيات عديدة مثل الانقلابات والاغتيالات والحروب، والمذابح وترحيل السكان؛ وتوسّع الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية؛ وقيام حركات مقاومة عنيفة؛ والتأثير على دول غير مجاورة لإسرائيل مباشرة، مثل العراق وإيران؛ وظهور الإسلاميين المتشدّدين الذين حمّلوا الغرب (خاصة أميركا وبريطانيا) المسؤولية عن مصير فلسطين المروّع؛ واللجوء إلى الإرهاب، سلاح اليائسين والمضطهدين والغاضبين، الذي كان الصهاينة أوّل من استخدمه. كل هذا نشأ بسبب قيام دولة إسرائيل، ورافقه الكثير من البؤس الإنساني الهائل، ولا يزال الصراع العربي الإسرائيلي، مع ما يصاحبه من بؤس إنساني هائل، يتخّذ من المنطقة - والعالم - رهينة حتى يومنا هذا.

في سنتي 1948 و1949، عانى الرأي العام العربي انهياراً في المعنويات، وإذلالاً عميقاً، بالإضافة إلى شعور حادّ بالضعف الشديد. وتخوّف العرب من وقوع المزيد من الاعتداءات الإسرائيلية. وساد الاقتناع أن العرب تعرّضوا للخيانة من قبل قادتهم، بالإضافة إلى القوى الخارجية. لقد خرج الاستعمار من الباب، لكنه عاد من النافذة. وأدّت هذه المشاعر مجتمعة إلى خلق إحساس بالظلم والغضب العارمين. هذه هي الخلفية التي خرج الثوريون من رحمها.

ومن هؤلاء الثوريين أنطون سعادة.

الحزب السوري القومي في غياب سعادة

في 2 آذار/مارس 1947، عاد مؤسس الحزب السوري القومي إلى الشرق الأوسط بعد مرور يوم واحد على عيد مولده الخامس والأربعين، وسط ابتهاج أتباعه وتهليلهم. جاء من أميركا اللاتينية إلى بيروت عبر القاهرة، لم ينسَه مؤيدوه ولا أعداؤه، على الرغم من غيابه عن الشرق الأوسط مدة تسع سنوات حافلة بالأحداث. استُقبل بنوع من التبجيل الذي يُفرد للمرشدين الروحيين عادة، وليس للقادة السياسيين. ولا غرو في ذلك، لأن سعادة لم يكن يمتلك أياً من الصفات التي يتمتّع بها السياسيون الناجحون: لم يكن يتسم بالمكر، والبراغماتية والقدرة على تقييم الأوضاع بواقعية،

وروح التسوية. بل كان منظراً إيديولوجياً متّقد المشاعر وعقدياً، تستحوذ عليه فكرة من ابتكاره إلى حدٍّ كبير. واجتمعت هذه العقيدة النظرية مع مزاج تسلّطي، وثقة غير محدودة بمهمته كقائد. كان لديه استخفاف بأعدائه، وموهبة مميزة في الخطابات الساخرة والساحرة. وما من شك في أن هذه الصفات تفسّر جاذبيته المميّزة، لكنها أضافت أيضاً إلى مواطن ضعفه الشديدة.

أسس سعادة حزبه في لبنان في سنة 1934، وأنشأ جناحاً شبه عسكري وفقاً للاتجاهات الفاشيّة المنسجمة تماماً مع أجواء تلك الفترة[1]. وسرعان ما رأت السلطات أن حركته، التي اجتذبت مؤيدين في البلدان المجاورة أيضاً، تشكّل خطراً على النظام العام. فأدى ذلك إلى الزجّ به مع كبار مساعديه فترات قصيرة في السجن في لبنان في سنوات 1935، و1936، و1937. وعندما واجه سعادة خطر الاعتقال مرة أخرى في سنة 1938 بسبب تودّده إلى ألمانيا النازية، قرّر مغادرة بيروت فجأة، وتوجّه إلى أميركا اللاتينية، حيث يوجد لديه أصدقاء وعائلة ومعجبون في الأرجنتين والبرازيل.

كان يسترشد بمبدأ فرادة الشعب السوري التي تشكلت عبر آلاف السنين من خلال البيئة الجغرافية السورية الفريدة. وحدّد هذه البيئة الجغرافية بأنها الأراضي الواسعة التي تمتدّ من جبال طوروس في الشمال إلى شبه جزيرة سيناء في الجنوب، ومن البحر المتوسط في الغرب إلى الصحراء في الشرق. وقد جعله هذا المبدأ على خلاف مع جميع الآخرين في المنطقة تقريباً - مع دعاة القومية مثل رياض الصلح، بالإضافة إلى من يدعون إلى الوحدة العربية؛ ومع اللبنانيين ذوي التوجّهات الوطنية الضيقة، مثل رجال الدين الموارنة والكتائب اللبنانية بقيادة بيار الجميّل؛ ومع الشيوعيين المؤمنين الداعين إلى الأمميّة؛ ومع بنية الدولة بأكملها التي تشكلت بعد الحرب العالمية الأولى. أراد سعادة إعادة رسم خارطة المشرق، بدمج سوريا ولبنان، والأردن وفلسطين، بالإضافة إلى جزيرة قبرص، في كيان سوري واحد؛ وذلك مشروع طموح لا يمكن إلا أن يثير عداوة مختلف سلطات الدول المعنية.

---

(1) انظر الفصل الرابع عشر عن تاريخ الحزب القومي الاجتماعي منذ نشوئه عام 1934 إلى فترة اندلاع الحرب العالمية الثانية.

تجدر الإشارة إلى أن سعادة كان علمانياً، على الرغم من خلفيته الأُرثوذكسية، يريد كنس الهواجس الطائفية اللبنانية ورميها في مزبلة التاريخ - وذلك هو الأمر الأكثر جاذبية في برنامجه. كما أن "الدولة السورية الجامعة" التي يدعو إليها لا صلة لها بمشروع "سوريا الكبرى" الذي نادى به الملك عبد الله، على الرغم من التداخل الجغرافي للمشروعين. ففي حين كان عبد الله يحلم باستعادة ملكه وحظوظ الهاشميين من خلال اعتلائه عرش دمشق، فإن سعادة كان صاحب مشروع حالم يقضي بإقامة وحدة جغرافية سياسية مثالية. ولعل القاسم المشترك بينه وبين عبد الله هو الإصرار على تحقيق أهدافهما بعيدة الاحتمال.

هكذا كان أنطون سعادة الذي جاء إلى بيروت، في 2 آذار/مارس 1947 لاسترداد حزبه. ففي حين أمضى فترة الحرب في أميركا اللاتينية، في شيء من الأمن والراحة، واجه أتباعه في لبنان أوقاتاً عصيبة - بقيادة نعمة ثابت، أول مريديه وأكثرهم ولاء. فقد اعتقلوا بتهمة تأييد ألمانيا في سنة 1940، لكن نظام فيشي أطلق سراحهم. وعندما دخل البريطانيون والفرنسيون الأحرار سوريا ولبنان في سنة 1941 وهزموا قوات فيشي، لوحق نشطاء الحزب السوري القومي واعتُقلوا. سُجن نحو سبعين من أعضاء الحزب المهمّين، من بينهم نعمة ثابت، في ظروف قاسية في السجن اللبناني في بلدة الميّة وميّة وفي قلعة راشيا.

تمكّن أسد الأشقر، الرجل الثالث في الحزب بعد نعمة ثابت، من تجنّب الاعتقال وأمضى سنة فارّاً، لكنه سلّم نفسه في سنة 1942 للقائد أوبوا Auboire، وهو ضابط في الجهاز الاستخبارات الفرنسية الخاصة. أبلغ الأشقر الضابط أنه تعلّم في مدارس فرنسية، وأن عائلته قد عبّرت عن تعلّقها بفرنسا مرات عدة، وأنه مؤيّد للفرنسيين بوضوح. وطلب الأشقر من البطريرك أنطوان عريضة التدخل لمصلحته. في 22 كانون الأول/ديسمبر، استدعاه غوتييه، مدير الأمن العام، من سجن الميّة وميّة لإجراء حديث خاص معه. وعُقد اجتماع سري ثانٍ معه في 9 كانون الثاني/يناير 1943. لكن لم يؤدِّ هذان الاجتماعان إلى أي نتيجة، على الرغم من أن الأشقر أتبعهما بعدة رسائل إلى غوتييه، يطلب فيها الاعتراف بالحزب حليفاً لفرنسا.

رأى الأشقر في إحدى الرسائل أن "مبدأ وحدة الأمة السورية هو عقيدة ومثال، وليس هدفاً مباشراً [لحزبنا]. وأن استقلال لبنان مبدأ سياسي يجب تنفيذه على الفور،

وتوســيعه في المــستقبل حــتى تحقــيق الاندماج [مع سوريا والأردن إلخ]". وفي 8 حزيــران/يونــيو 1943، بعــث نعمة ثابت بدوره برسالة إلى المندوب العام هِللو، في أعقاب إعادة العمل بالدستور في دولتيّ المشرق. كتب ثابت:

> في الــسنوات الثماني الماضية، انتقلنا من فترات تعاون مع فرنسا إلى فترات رفــض... وقدّمنا خدمات لفرنسا ولبلدنا كلما كنا أحراراً... نعلم أنك مــشغول الآن بمسألة مهمة جداً، ألا وهي المسألة اللبنانية. وبما أننا الحزب القومــي الــسوري، فربما تتساءل إذا كان في وسعنا حصر أنفسنا ضمن الــساحة اللبنانية. أريد أن أؤكد أنني أنا وزملائي مخلصون لاستقلال لبنان أكثــر مــن أي وقــت مضى. ويبقى مثالنا الأعلى السوري مثالاً. لكن ليتحقّق، لا بد أن تحلّ حضارة مكان الأخرى... إن لبنان وسوريا ليسا في الــوقت الحالي على المستوى الذي يتيح لهما تشكيل دولة واحدة، أو كيان اجتماعــي واحــد... لذلك نرجو منكم أن تحلّوا مشكلتنا، وتقتنعوا أننا حــزب مــن الشبان ذوي القيم، وأن هؤلاء الشبان يريدون الوقوف إلى جانب فرنسا لتأدية رسالتها في المشرق[1].

لكــن الفرنــسيين واصــلوا تردّدهم. كانوا ملتزمين جداً بالحفاظ على سلامة الأراضــي اللبنانــية، ويدركون جيداً أن الحزب السوري القومي يريد ضم لبنان إلى ســوريا، بغــض النظر عما تقوله قيادته. وتأكّدت الشكوك الفرنسية في الانتخابات النيابــية في سنة 1943 عندما أيّد تسعة من عشرة أعضاء في المجلس الأعلى للحزب من الــسجن لائحة بشارة الخوري الدستورية، بدلاً من لائحة إميل إدّه الموالية للفرنسيين. بدا أن الحزب يحاول التحرّك باتجاه جميع الأطراف. على سبيل المثال، لم يقطع الحزب علاقاته بالبريطانيين في أثناء محادثاته مع الفرنسيين. كان الحزب السوري القومي يسعى جاهــداً لتحرير قادته من السجن، واستعادة أنشطته. لذلك كان على استعداد للقيام بــأي شــيء لتحقيق تلك الغاية. فقد كان للانتصارات التي حققها الحلفاء، وفقدان الأمل تماماً في انتصار المحور، دور في إجبار الحزب على تغيير اتجاهه – فضلاً عما عاناه

(1) MAE Fonds Beyrouth, série B, carton 5, dossier 61, Sûreté aux Armées, Beyrouth, le 19 juin 1944.

أعضاؤه من مصاعب، والنقاشات التي أجراها زعماؤه في السجن، والاتصالات التي أجروها مع الفرنسيين والبريطانيين.

تفوّق البريطانيون على الفرنسيين دهاء وحيلة، فانتهزوا الفرصة لإطلاق سراح أعضاء الحزب السوري القومي واجتذابهم إلى جانبهم. أطلق سراحهم في سنة 1944 كميل شمعون، وزير الداخلية ذو الميول البريطانية، بعد حملة مكثفة لمصلحتهم. كان الفرنسيون على قناعة أن شمعون عميل بريطاني، وأنه أفرج عن أعضاء الحزب بطلب من بعثة سبيرز "التي تتغلّب رغبتها في محاربة الشيوعية على أي اعتبار آخر"[1]. وفي وقت لاحق، اتهم رياض الصلح شمعون بإطلاق سراح ناشطي الحزب السوري من دون استشارته، وذلك في أثناء وجوده في الحجاز في زيارة للملك عبد العزيز ابن سعود.

وداد ناصيف وكلودا ثابت

استفاد أنطون سعادة من النفوذ الذي يتمتّع به العديد من أصدقائه. وكانت له علاقات، في مراحل مختلفة من حياته، مع سيدتين مثقفتين ومقدامتين: وداد ناصيف المولودة من أم أيرلندية وأب لبناني، وابنة خالتها الشابة كلودا ثابت. وقد أثارت هاتان السيدتان الجميلتان والجريئتان ضجة كبيرة في المجتمع اللبناني في ذلك الوقت. أحبّ سعادة وداد ناصيف في سنة 1934، عندما أطلق حركته. وكانت قد درست الرسم في إيطاليا، حيث أمضت بضع سنوات مع أمها وأختها، قبل زواجها القصير من دون حب من أحد أقاربها في سنة 1926. لكنّها سرعان ما قرّرت استعادة حياة الحرية التي تمتعت بها سابقاً، واستقرّت في قرية المختارة الدرزية، في منزل تمتلكه السيدة نظيرة جنبلاط. لكن اختلفت هاتان السيدتان القويّتان في نهاية المطاف، وغادرت وداد المختارة لتعيش في فندق نيو رويال في بيروت (لم يعد موجوداً اليوم). ولعلها تعرّفت في تلك الفترة إلى أنطون سعادة عن طريق ابن خالتها نعمة ثابت، شقيق كلودا.

يُعتقد أن العلاقة بين وداد ناصيف وأنطون سعادة دامت نحو سنتين، حتى عام 1936 عندما ضيّقت السلطات الخناق على حركته السرية. حثّته وداد على الفرار معها

(1) MAE Fonds Beyrouth, série B, carton 5, dossier 61, Général Paul Beynet, Délégué Général et Plénipotentiaire de France au Levant à M René Massigli, Commissaire aux Affaires Etrangères, Alger. Beyrouth, le 28 juin 1944.

إلى فلسطين، لكن أوقفتهما دورية للشرطة. اعتُقل سعادة فيما أطلق سراحها، فاتهمها منتقدوها - لا سيما العضوات في الحزب - بخيانة سعادة. على أي حال، أدت الحادثة إلى افتراق الحبيبين.

نعمة وكلودا ثابت هما ابنا قسطنطين ثابت، مراسل جريدة "التايمز" في بيروت، الذي اعتقد الفرنسيون أنّه عميل للاستخبارات البريطانية. وأمهما إيفا شكّور خالة وداد ناصيف. كانت إيفا ووداد شديدتي التعلّق إحداهما بالأخرى، وقد تشاركتا العيش في منزل في عين زحلتا، حيث آل شكور من أصحاب الأملاك المسيحيين البارزين فيها.

تمكّنت كلودا من تأمين الإفراج عن الناشطين في الحزب السوري القومي وإعادة تأهيل الحزب في سنة 1944، عن طريق صلات والدها قسطنطين بالبريطانيين في أوائل الأربعينيات، بالإضافة إلى تدخّل قريبها كميل شمعون. في أوائل 1941، بدأ الرائد موسغريف Musgrave، ضابط الاتصال البريطاني مع الأمن العام الفرنسي، محادثات مع نعمة ثابت بوساطة شقيقته كلودا وكميل شمعون. وتمكّنت كلودا أيضاً من حماية سعادة لدى عودته إلى لبنان في سنة 1947.

قدّمت هذه الشبكة من العلاقات - وداد ناصيف في الثلاثينيات، ثم نعمة وكلودا ثابت، وكميل شمعون بعد عقد من الزمن - مساعدة كبيرة لأنطون سعادة، وأدّت دوراً فاعلاً في منح الحزب السوري القومي عمراً جديداً في الأربعينيات[1]. وضعت الاستخبارات الفرنسية هذه العلاقات تحت المراقبة، نظراً إلى شكوكها الدائمة بالمكائد البريطانية. في آذار/مارس 1944، أفادت هذه الاستخبارات أن الجنرال سبيرز وزوجته تناولا الغداء قرب صيدا مع السيد والسيدة شمعون، والسيدة كلودا ثابت، والقاضي الدرزي ملحم حمدان، الذي كان ابنه عادل حمدان رفيق الجنرال سبيرز في رحلات الصيد. وصف التقرير كلودا ثابت بأنها "سيدة جميلة تتردد على الأوساط التي تحب المرح. ويقال إنها تحاول إقناع البريطانيين بدعم الحزب السوري القومي كقوة موازنة لحزب الكتائب الموالي للفرنسيين"[2].

(1) MAE Fonds Beyrouth, série B, carton 5, dossier 61, Sûreté Générale, Beyrouth, le 10 novembre 1940.

(2) MAE Fonds Beyrouth, Série B, Carton 5, Dossier 61, Sûreté aux Armées, le 31 mars 1944.

شرع نعمة ثابت، رئيس المجلس الأعلى للحزب، بعد إطلاق سراحه من السجن، بتكييف الحزب مع الظروف الجديدة للاستقلال اللبناني. فأصدر بياناً في شباط/فبراير 1944، يعلن فيه حذف كلمة سوري من اسم الحزب ليصبح الحزب القومي. وأعلن أن الحزب قرّر العمل في إطار لبناني صرف، تاركاً مهمّة العودة إلى سوريا والأردن وفلسطين إلى وقت لاحق. وقد عُرف ذلك في الحزب باسم "سياسة المراحل"[1].

استأنف الحزب أنشطته في وقت واحد في بيروت ودمشق في 1 آذار/مارس 1944، في يوم ذكرى ميلاد زعيمه. في دمشق، اجتمع نحو خمسين حزبياً، معظمهم من الأساتذة والطلاب، المسيحيين والمسلمين، في بيت أحدهم لسماع رسالة من نعمة ثابت قال فيها:

> ربما تسألون عن موقفنا من الحكومة الحالية في لبنان. أجيبكم أن العناصر التي تتشكل منها تلك الحكومة هي الوحيدة القادرة اليوم على شلّ الحركة الرجعية في البلد، ووضع حدّ للمناورات الإجرامية التي كادت تُفشل استعداداتكم للمعركة الحاسمة.
>
> وربما تسألون عن موقف الحلفاء منكم، وجوابي هو التالي: لقد توطدت الصداقة مع قوى الحلفاء التي عملنا من أجلها مدة طويلة - وسعى أعداؤنا إلى منعها عبر الدعاية التي تخدم أغراضهم - والفضل في ذلك يرجع إلى اتصالاتنا بسلطات الحلفاء. إنهم يدركون الآن حسن نياتنا تجاههم، بالإضافة إلى تعلّقنا بمصالح بلدنا وحقوقه. ويمكن القول إننا بدأنا الآن مرحلة من التعاون مع الحلفاء، ستستمرّ وتتعزّز دائماً[2].

في 2 أيار/مايو 1944، عقدت قيادة الحزب اجتماعاً قرّرت فيه دعم حكومة رياض الصلح، شرط أن يحميها من الاعتقال من قبل السلطات البريطانية والفرنسية. وفي اليوم التالي، زار أسد الأشقر ومأمون أياس رئيس الوزراء لإبلاغه بالقرار. قالا له إن الحزب يضمّ 3000 عضو لكنه يفتقر إلى السلاح. سُر رياض الصلح (بحسب

(1) MAE Fonds Beyrouth, série B, carton 5, dossier 61, Sûreté aux Armées, le 29 février 1944.

(2) MAE Fonds Beyrouth, série B, carton 5, dossier 61, Délégation de Syrie, Damas, le 2 mars 1944.

الاستخبارات الفرنسية) بموقف الحزب منه ووعد بتأمين كل ما يلزمه[1]. أشار الحزب في إعلامه إلى أن لبنان أجبر على التخلّي عن سياسة العزلة التي يدعو إليها الوطنيون اللبنانيون، وأخذ يقترب من العرب. فالطبيعة هي التي تملي على لبنان الاتحاد مع جيرانه لإنشاء دولة "سورية" قوية وفاعلة[2].

غضب الحزب الشيوعي من قرار شمعون السماح بعودة الحزب القومي إلى الظهور، ودعا إلى حظره. وفي 26 حزيران/يونيو، عقد اجتماع ضمّ نحو 300 ناشط في الحزب الشيوعي حضره قادة الحزب - فرج الله الحلو ونقولا الشاوي وطانيوس دياب ومصطفى العريس وحسن قريطم - في مكاتب صحيفة **صوت الشعب** الناطقة باسم الحزب للتخطيط لحملتهم المناوئة للحزب السوري القومي. وأرسل أنطوان ثابت، رئيس العصبة المناهضة للفاشية والنازية، برقية شديدة اللهجة إلى رئيس الوزراء:

> في هذه اللحظة الحاسمة، فيما يشهد العالم نضال الشعوب الحرة ضدّ الفاشية، وفيما تضحّي قوات الحلفاء بدمائها للقضاء على خطر الفاشية والنازية، سمح وزير الداخلية في الحكومة اللبنانية بإعادة إحياء الحزب السوري القومي، وهو حزب أنشأته الفاشية، وكان قادته وما زالوا عملاء لهتلر في بلدنا، وأعداء لقضيتنا الوطنية، وأعداء للنظام الديمقراطي والدستوري، وأعداء لسلامة الأراضي اللبنانية، وأعداء لفكرة القومية العربية.
>
> إن العصبة المناهضة للفاشية والنازية تحتجّ بقوة على هذا التدبير وتطلب إلغاءه وإلغاء الحماية التي يمنحها وزير الداخلية لعبيد الفاشية في هذا البلد[3].

تقلبت علاقة رياض الصلح بالحزب السوري القومي ما بين مدّ وجزر. لم يستطع أعضاء الحزب معاداته بشدة لأن وزير الداخلية في حكومته هو الذي سمح بإطلاق سراحهم، على الرغم من أن بعض الأصوات والمظاهرات على مستوى قاعدة الحزب جعلت رياض الصلح يدعو نعمة ثابت ومأمون أياس وأسد الأشقر ويطلب منهم تعليق

(1) MAE Fonds Beyrouth, série B, carton 5, dossier 61, Sûreté des Armées, le 6 mai 1944.

(2) MAE Fonds Beyrouth, série B, carton 5, dossier 61, Sûreté aux Armées, le 16 mai 1944.

(3) MAE Fonds Beyrouth, série B, carton 5, dossier 61,le 27 juin 1944.

اجتماعات حزبهم. لكنه سمح في الشهر التالي، فيما يشبه التعويض عن ذلك، بتنظيم احتفال للحزب القومي السوري لصالحه في ضهور الشوير، وذلك ليظهر أن حكومته تحظى بموافقة غالبية السكان المسيحيين. قدّمت وزارة الداخلية إلى مختار القرية، عادل مجاعص حبيقة، مبلغ 5000 ليرة لبنانية لتعليق الأعلام والتزيين للمناسبة. وقد حضر رياض الاحتفال يرافقه الأمير مجيد أرسلان[1].

في الشهر نفسه، زار وفد من كبار أعضاء الحزب رياض الصلح للتعهّد بالولاء لحكومته، والمطالبة بعودة أنطون سعادة إلى لبنان. وقد نجحت مساعيهم في نهاية المطاف.

عودة الزعيم

عندما عاد أنطون سعادة إلى بيروت في 2 آذار/مارس 1947، استقبلته أعداد كبيرة من مؤيديه الفرحين، بينها وفود قدمت من سوريا والأردن وفلسطين. اصطُحب على الفور إلى منزل أحد أتباعه في ضاحية الغبيري، حيث وقف على الشرفة وخاطب الحشد الذي اجتمع لسماعه:

> أيها القوميون الاجتماعيون!
>
> إن هذا اليوم هو أسعد يوم رأيته في حياتي حتى اليوم. إذ أعود بعد تسع سنوات اغتراب عنكم، لأنضمّ إلى هذه الجموع النامية التي تمثّل أمّة أبت أن يكون قبر التاريخ محلاً لها. بعد خمس عشرة سنة من جهاد نظامي عزّ نظيره في العالم كله، نقف اليوم أمة حيّة منتصرة على الإرادات الأجنبية التي أرادت أن تبقيها ممزقة بين الطوائف والمذاهب الدينية التي مرجعها سماء واحدة، أتت تعاليمنا القومية ديناً واحداً موحّداً ليرفع هذه الأمة إليها، إلى الخلود فيها.
>
> اليوم تخفق أعلام لنا وليس إلى جانبها أعلام أجنبية محتلة تخفق. وإذا كانت أعلامنا هي وحدها تخفق اليوم فيعود الفضل في ذلك إلى تعاليمكم، إلى إيمانكم، إلى عملكم، وإلى نضالكم الموحّد.

(1) MAE Fonds Beyrouth, série B, carton 5, dossier 61, Sûreté aux Armées, le 30 août 1944.

نحـــن اليوم في حالة استقلال لا نظن أنه الحدّ الأخير لتقدّمنا في الحياة. هو خطوة من هذه الخطوات التي تبتدئها هذه الأمة العظيمة.

حـــيّا ســـعادة الروح القتالية لأتباعه، وذكّر المستمعين أن الشهيد الوحيد الذي سقط وهو يحارب الفرنسيين في بشامون في تشرين الثاني/نوفمبر 1943 كان عضواً في حـــزبه. وصرّح سعادة أن الاستقلال اللبناني قد أخرج الأمة من السجن داخل البناية الـــذي أعده لها الاستعمار، ولكنها لا تزال ضمن السور الكبير، الذي يرمي إلى منعها من دمج مصيرها بمصير بقية الأمة السورية.

في 5 آذار/مـــارس 1947، ردّ بيار الجميّل، زعيم الكتائب اللبنانية، على خطاب سعادة بلهجة هجومية في صحيفة **العمل**:

بين لبنان و"سوريا الجغرافية" يجب الاختيار. وقد اختار اللبنانيون.

بـــين الوطنـــية اللبنانـــية "والقومية السورية الجغرافية الاجتماعية" لا مجال للالتباس أو التسوية.

اتخـــذ الـــسيد سعادة بحرية موقفاً ضد الأمة اللبنانية. وعلى الأمة أن تردّ. وستردّ. وعلى الدولة والحكومة والمدافعين عن الوطن القيام بواجباتهم أيضاً.

لا بـــدّ أنّ السيد سعادة وزملاءه قد قدّروا نتيجة أفعالهم: وعليهم الآن أن يتحمّلوا المسؤولية عن النتائج.

لا يمكن أن تغيّر الدقّة اللغوية أو الحوار البيزنطي الأمور بعد الآن.

إن الذين يعرفهم اللبنانيون باسم "القوميين" لا يؤمنون بالوطن اللبناني. إنّهم يناضـــلون ضدّ الوطن اللبناني. لم يعد الأمر مسألة حرية الرأي أو المعتقد: إنّها مسألة جريمة ضدّ الدولة والوطن. ولا يمكن أن تكون هناك حرية للجريمة.

في 6 آذار/مارس، قال وزير الخارجية حميد فرنجية في مجلس النواب: "لم يتعلّم هذا الـــرجل [أنطـــون سعادة] شيئاً. لقد نسي أن النظام الحالي نشأ من الميثاق الوطني لعام 1943 وأن لبـــنان كيان لا يمكن العبث به. ولن يُسمح لأحد بالعبث به!" وفي الجلسة نفسها، تكلّم رياض الصلح قائلاً:

لقد طلب من السيد سعادة الحضور إلى الأمن العام لتقديم تفسير لما أدلى به. فلـــم يفعـــل، لكنه توارى. وذلك بحدّ ذاته يشكل تهمة ضدّه. إن عليه أن

يوضـــح ذلك عاجلاً أم آجلاً. كونوا مطمئنين أننا لن نتردد في سحق كل من يتجرأ على القيام بخطوة ضدّ ميثاق 1943 واستقلال لبنان.

نُـــشر خطـــاب سعادة في 5 آذار/مارس في جريدة **صدى النهضة** الناطقة باسم الحـــزب القومـــي السوري، في اليوم نفسه الذي ردّ فيه الجميّل في صحيفة **العمل**. لم تنـــشر الصحف الصادرة باللغة الفرنسية الخطاب، لكنها شنّت حملة على سعادة في 7 آذار/مارس. أجبرت الحملة الصحافية المتصاعدة الحكومة على التدخّل ضد "فئة كانت تعمل على تقسيم البلد وإلغاء هويته". في 12 آذار/مارس، عُلّق صدور صحيفة الحزب القومـــي، **صـــدى النهضة**. كما أوقف إصدار جريدة **صوت الشعب** الشيوعية لمدة تسعة أيام، بعد أن شنّت هجوماً شديداً على سعادة[1].

في 13 آذار/مارس، أصدر المدّعي العام مذكرة توقيف بحق أنطون سعادة، بعدما رفـــض الاستجابة لاستدعاء مدير الأمن العام. بدا كأن الحكومة تريد الردّ بقوة على الـــتهديد الذي يشكّله على سيادة لبنان وسلامة أراضيه - وهما أمران حساسان جداً ومـــثيران للجـــدل - فـــيما يبدي الملك عبد الله عاهل الأردن، والوصي على العرش العراقي رغبتهما في إعادة رسم خريطة المشرق.

لكـــن لم يُلقَ القبض على أنطون سعادة، ما أثار دهشة الجميع. كان يُعرف أنـــه يقيم بسلام في فيلا السيدة كلودا ثابت بالقرب من بيروت[2]. وتمكن مراسل وكالـــة الصحافة الفرنسية من إجراء مقابلة معه، وتبعه مراسل صحيفة **القبس** في دمـــشق. طـــرح عليه مراسل القبس السؤال التالي: "ماذا تقول في تدابير الحكومة ضـــدّكم"؟ أجـــاب سعادة قائلاً: "أقول إنها غير مبررة وإنها ذات صفة استبدادية. وأكرر القول إنه لا يوجد في خطابـــي مهاجمة للكيان اللبناني، ولا يوجد عمل من قبلي يوجب اتخاذ تدابير كالتي لجأت إليها الحكومة. إن حرية الرأي وحرية القول همـــا حـــريتان أساســـيتان وكل حكومة تلجأ إلى خنقهما تنافي في عملها مبادئ الديمقراطية".

---

(1) MAE Fonds Beyrouth, série B, carton 5, dossier 61, Note de l'attaché militaire à la Légation de France à Beyrouth, le 18 avril 1947.

(2) MAE Fonds Beyrouth (Amb.), carton 48, Légation de France, Note pour Monsieur le Ministre, Beyrouth, le 25 mars 1947.

بدا للكثيرين أن الحكومة لا تجرؤ على توقيفه. وسألت صحيفة **صوت الشعب**، لسان حال الحزب الشيوعية، "إلى متى سيبقى الجاسوس أنطون سعادة طليقاً"؟ اعتقد بعض الأشخاص أنّ البريطانيين - أو أعضاء الحكومة المحبّين لهم، مثل كميل شمعون - يقدّمون له الحماية لأنّهم يعتقدون أن في وسع الحزب القومي كبح التهديد الشيوعي للبلد. ورأى آخرون أنه منح الحصانة لأن مختلف السياسيين يأملون في اجتذاب أعضاء الحزب البالغ عددهم 8000 عضو إلى جانبهم في الانتخابات القادمة. واعتقد آخرون أيضاً أن سوريا مارست ضغوطاً على لبنان لمصلحة سعادة، لأن برنامجه يتماشى مع الطموحات السورية. وكان الفرنسيون على يقين من أن البريطانيين يحيكون مؤامرة لمنع توقيف سعادة. وبعد بعضة أسابيع، غادر سعادة فيلا كلودا ثابت وانتقل إلى بشامون، حيث قيل إنه "بحماية" الأمير مجيد أرسلان. وكثير من أعضاء الحزب ينتمون إلى الطائفة الدرزية.

سعادة يصرّح بعقيدته مجدداً

عندما عاد سعادة إلى لبنان، بادر إلى حلّ المجلس الأعلى للحزب وتعليق عضوية نعمة ثابت وأسد الأشقر ومأمون أياس وجورج عبد المسيح وغيرهم من أركان الحزب الذين قدموا تضحيات كبيرة للحفاظ على استمرارية الحركة في أثناء غيابه. لا شك في أن سعادة أراد، بصرفهم بهذه الطريقة الفظة، إعادة توكيد سيطرته الكاملة على الحزب، وإظهار سلطته من دون منازع. غير أنه أراد أيضاً التعبير عن رفضه التنازلات والتسويات التي اضطر هؤلاء إلى تقديمها في أثناء غيابه. لذا فإن عودته دمّرت كل ما قاموا به من جهود تصالحية.

لم يضع سعادة الوقت للإعلان عن نيّته تنفيذ برنامج حزبه بأكمله في أقرب وقت ممكن، "بإقامة سوريا الطبيعية من طوروس إلى العريش". وقال إنه ليس للبنان ميل خاص للاستقلال، لأن وجوده ليس سوى أثر اصطناعي لمذابح العام 1860 وفترة الانتداب بين الحربين. وهدف الحزب هو أن يفرض، بكل الوسائل الممكنة، دولة سوريا الكبرى العلمانية التي لا تنشغل بالأكثرية السنية أو الأقلية المسيحية. ونشر في بيروت في العام نفسه مبادئ الحزب في كتاب بعنوان **كتاب التعاليم السورية القومية**

الاجتماعية. وقد أشار فيه إلى أن الأمة السورية هي وحدة الشعب السوري، وقد نتجت عن تاريخ طويل يعود إلى أزمنة ما قبل التاريخ[1].

وفيما غرقت المنطقة في اضطرابات الصراع الفلسطيني، تابع سعادة تحدي الشرطة اللبنانية التي كان لديها تعليمات بتوقيفه. هدّد أتباعُه باختطاف قائد الشرطة إذا استمر في السعي لتنفيذ أوامر الحكومة. لذلك بقي سعادة طليقاً، من دون أن يخضع للمراقبة تقريباً. وقد أبلغ السفير الفرنسي باريس أن سعادة طلب مقابلة السفير في مقره الصيفي في عاليه "وهو ما لم أوافق عليه بطبيعة الحال"[2]. وفيما كان العرب سائرون نحو الهزيمة، شكك سعادة في عدد من المقالات الناريّة بالعروبة ووصفها أنها مبدأ فاشل وأنها مسؤولة عن هزيمة الجيوش العربية في فلسطين[3].

لم يشغل سعادة نفسه بالبقاء في بيروت سراً، بل سافر في أرجاء سوريا بحرية. في تشرين الثاني/نوفمبر 1948، نقل القنصل الفرنسي العام في حلب أن سعادة أمضى بضعة أيام في فندق بارون، وهو أحد المعالم التاريخية في المدينة، حيث استقبل عدداً من الزوار، وأجرى مقابلات، وحضر حفلات استقبال أقيمت على شرفه، قبل أن يقرّر الذهاب إلى اللاذقية في جولة لتفقد فروع الحزب. وأبلغ سعادة الصحافة أن على العرب القبول بتقاسم فلسطين مع إسرائيل كأمر واقع. في ذلك الوقت، كانت هذه العبارة مثيرة للغضب. ورأى بعض الأشخاص أنها تؤكّد صلة سعادة بالبريطانيين. وكان الفرنسيون، على سبيل المثال، على قناعة أن سعادة مدين للبريطانيين بحرية التحرك والتعبير التي تمتع بها. ألم يكن كمال خولي، رئيس فرع الحزب في حلب، مسؤولاً عن الصحافة في القنصلية البريطانية[4]؟ لكن من المرجّح على ما يبدو أن سعادة كان يستفيد من ضعف الحكومة بعد الهزيمة في فلسطين.

---

(1) أنطون سعادة، **كتاب التعاليم السورية القوميّة الاجتماعية**، بيروت 1947، ص 17.

(2) MAE, Fonds Beyrouth, (Amb.), série B, carton 48, Situation politique, Beyrouth, le 13 août 1948.

(3) Labib Zuwiyya Yamak, *The Syrian Social Nationalist Party: An Ideological Analysis*, Cambridge 1966, p. 65.

(4) MAE, Fonds Beyrouth, (Amb.), série B, carton 48, M. Charles Clair, Consul-Général de France à Alep, à M Jean Serres, Ministre de France en Syrie, Alep, le 26 novembre 1948.

يجب ألا يغيب عن البال أن سعادة كان يعمل في فترة تميزت بالاضطراب الشديد - في عقـــول الناس على الأقل. فقد أدى قيام دولة إسرائيل عن طريق العنف إلى إعادة رسم خـــريطة المنطقة. وأحييت طموحات عبد الله السياسية والجغرافية، وقيامه بضمّ ما تبقى من فلسطين العربية، الجدل الصاخب بشأن سوريا الكبرى. واستبدّ الضعف بالأنظمة العربية، وفقـــدت صـــدقيّتها. وأحـــدثت الـــضربة التي وُجّهت إلى القومية العربية، بالإضافة إلى المشاحنات الصغيرة بين القادة العرب أنفسهم، شعور بأن كل شيء متاح الآن لمن يأخذه. ويبدو أن سعادة أحسّ أن اللحظة التاريخية حانت لتنفيذ مشروعه بإقامة سوريا الكبرى.

في بـــيروت، راقب رياض الصلح هذه التطوّرات التصعيدية بشيء من الكآبة. فهناك كـــثير مـــن الـــصفات التي لا تعجبه في سعادة. فهو ديمقراطي بالفطرة، ويؤمن بالتعدّدية الـــسياسية، في حين أن سعادة مجبول على السلطوية. في المفاوضات، كان سعادة صلباً لا يقبل التسوية، فيما يحاول رياض دائماً تفهّم وجهة نظر الطرف الآخر للتوصّل إلى تسوية. وقـــد أدّى استخفاف سعادة المعلن بالاستقلال اللبناني، واعتباره ظاهرة مؤقتة واصطناعية، إلى إغـــضاب ريـــاض لأنـــه يقلّـــل من قيمة الإنجاز الذي حققه بانتزاع حرية لبنان من الفرنـــسيين. بـــل إن دعوة سعادة الروحانية والغامضة إلى القومية السورية بزّت الوحدة الـــسورية التي آمن بها رياض طوال حياته واختطفتها. وفي حين أن رياض نظر إلى الوحدة الـــسورية دائماً بمثابة خطوة أولى نحو تحقيق الوحدة العربية الأكبر، فإن سعادة جعلها هدفه الأسمى وغير العربـــي. لذا لم يكن من الممكن جَسر الهوة الإيديولوجية التي تفصل بينهما. وثمّـــة مجالات أخرى اقترب سعادة فيها كثيراً من سلب مُثُل رياض التي يتمسّك بها. فقد دعـــا ســـعادة إلى إلغـــاء النظام الطائفي وقيام الأمة السورية الكبرى على أساس المواطنية المـــشتركة لا على أساس الانتماء الديني أو العرقي. وذلك هدف وضعه رياض نصب عينه في لبـــنان، لكنه لم يستطع تحقيقه في ذلك الوقت. في غضون ذلك، بدأت بيانات سعادة الاستفزازية، وقيام أتباعه باستعراض قوّتهم تشكّل تهديداً لأمن الدولة اللبنانية ووجودها.

الدخول العنيف لثوري آخر

هكـــذا كان الوضع عندما ظهر ثوري آخر على الساحة. استولى رئيس أركان الجـــيش السوري، العقيد حسني الزعيم على السلطة في دمشق في 30 آذار/مارس 1949،

موجهاً ضربةً قاضية للنظام البرلماني من خلال الإقحام الغاشم للجيش في السياسة – في سوريا أولاً. ألقى القبض على شكري القوتلي، القائد الوطني المخضرم وأبو الاستقلال، في المستشفى حيث كان يتلقى علاجاً لتقرّح في المعدة بالإضافة إلى عارض في القلب. وفي بيروت، تابع رياض الصلح وبشارة الخوري هذه التطورّات بقلق وانزعاج شديدين. وتبيّن الآن أن حسني الزعيم يشكّل تهديداً أكبر لاستقلال لبنان الهشّ من تهديد سعادة وحزبه القومي.

تلقّى حسني الزعيم مساعدة في التخطيط لانقلابه وتنفيذه من شخصين سطع نجمهما في الساحة السياسية السورية، وهما المقدّم أديب الشيشكلي وأكرم الحوراني، وكلاهما معروفان بصلاتهما بالحزب السوري القومي. وقد رأت بيروت نذير شؤم في ذلك. الشيشكلي هو الضابط السوري الذي سيطر في أوائل حرب 1948 على قرية المالكية، الواقعة على الجانب الآخر من الحدود اللبنانية، لكن الإسرائيليين أعادوا احتلالها لاحقاً. أما الحوراني، فهو زعيم شعبي من حماة، عبّأ الفلاحين لمحاربة كبار ملاّك الأراضي في السهل السوري الأوسط. وقد أدّى قربهما من الزعيم إلى ارتفاع التهديد الذي يشكّله. وعندما زار أنطون سعادة دمشق ورحّب به الديكتاتور العسكري الجديد، أصبح الخطر كبيراً على لبنان.

لم يكن يُعرف الكثير عن حسني الزعيم سوى أنه ذو شخصية تتميّز بالقسوة والنشاط وسرعة الكلام. رقّاه الرئيس القوّتلي ليصبح رئيساً للأركان بعد هزائم الجيش السوري في حرب فلسطين. وقد كان أداؤه معقولاً، بالنظر إلى عدم كفاية الموارد المتاحة له، عدّة وعديداً. وهو من الأقلية الكردية، تجنّد بداية في القوات الخاصة الفرنسية مثل كثير من الرجال من مختلف الأقليات في سوريا. وربما رأى الفرنسيون في انقلابه فرصة لاستعادة شيء من نفوذهم الذي فقدوه في سوريا وإلحاق الهزيمة بالرئيس القوتلي، الذي حاربهم وحارب نفوذهم مدة طويلة. وكان من اللافت أن يقوم السفير الفرنسي بزيارة هذا الرجل القويّ يومياً.

لكن سرعان ما تبين أن للزعيم ماضياً متقلباً. فعلى غرار كثير من العسكريين في القوات الخاصة خلال الحرب العالمية الثانية، اضطر إلى التأقلم بسرعة مع التغيرات السريعة والمفاجئة في السلطة السياسية الفرنسية – من انتداب ما قبل الحرب، إلى

فيـــشي، إلى الجنرال ديغول - وتبديل الولاءات بسلاسة. في سنة 1941، أصدرت له ســـلطات فيـــشي تعليمات بتشكيل مجموعة من المقاتلين غير النظاميين لمضايقة جيش الحلفـــاء الذي كان دخوله إلى سوريا متوقعاً في أي لحظة. أعطي مبلغاً كبيراً من المال وفُـــتحت له السجون ليختار المجرمين المعروفين لضمهم إلى مجموعته. ولكن بدلاً من مقاتلـــة الحلفـــاء، احتفظ الزعيم بالمال ومارس "البلطجة". استخدم مجموعة المجرمين لابتزاز الأموال من أصحاب الأراضي والتجار في دمشق والمناطق المجاورة. بل إنه أعدّ عملـــية إعدام وهمية لأحد ملاّك الأراضي، عمر القوادري، لإجباره على الدفع. لكن عـــندما هـــزم الـــبريطانيون والفرنسيون الأحرار قوات فيشي وتسلموا السلطة، ألقي القبض على الزعيم وحوكم وصدر بحقّه حكم بالسجن عشر سنوات.

ألحّ علـــى الفرنسيين الأحرار في التماس العفو، فأطلق سراحه من السجن ووُضع تحت الإقامة الجبرية في لبنان. وقد سُمح له بالعودة إلى سوريا في نهاية المطاف. فتظاهر أنه ضحية لتغيّر رياح الحرب، وتمكن من إقناع السلطة بمراجعة الحكم الصادر بحقه.

لم يكـــن جمـــيع الفرنسيين سعداء بهذه التغيرات. ففي سنة 1944، كتب العقيد أولـــيفا - روجيه Oliva-Roget، ممثل الجنرال بينيه في دمشق، إلى السلطات القضائية في الجيش الفرنسي في المشرق لحثّها على عدم العفو عن الزعيم أو السماح بعودته إلى القـــوات الخاصة. وحذّر أوليفا - روجيه من أن أي خطوة كهذه ستظهر الفرنسيين بمظهـــر الضعف والعجز، وستعرّض الضباط الذين شهدوا ضدّ الزعيم لخطر انتقامه[1]. لكـــن لم يكترث أحد بهذه التحذيرات، واستعاد الزعيم رتبته، وسرعان ما تمكن من استعراض قوته بتدبير انقلابه العسكري في آذار/مارس 1949.

سقوط النظام القديم

كـــان الـــزعيم وزملاؤه الضباط يعتقدون أن لديهم شكاوى محقة على الحكومة الـــسورية، حـــيث أهملـــت تجهيز الجيش، وأثبتت عدم استعدادها لمواجهة التحدي

(1) MEA-Nantes, Fonds Beyrouth, série B, carton 5, le Colonel Oliva-Roget, représentant en Syrie le Général d'Armée, Délégué Général et Plénipotentiaire de la France au Levant, à Monsieur le Commissaire du Gouvernement auprès du 2e Tribunal Militaire du Q. G. des Troupes du Levant, Damas, le 31 août 1944.

الصهيوني. لا شك في أن الكتلة الوطنية السورية التي تتميّز بالجرأة وحسن النية، والتي خاضت معركة دامية في فترة ما بين الحربين للاستقلال عن الفرنسيين، فيما كان أمثال الزعيم يعملون على خدمة الفرنسيين ويقبضون الرواتب منهم، لم تكن في أفضل أحوالها لتحمّل عبء الحكومة. فقد واجهت ظروفاً صعبة بين آب/أغسطس 1943 وسنة 1947، ورفض الفرنسيون التخلّي عن السلطة قبل توقيع معاهدة مع الحكومة السورية لتأمين مصالحهم الاقتصادية والاستراتيجية والثقافية. ولم ينتهِ هذا التجاذب إلا بعد استعراض دموي للقوة.

وعانت الكتلة الوطنية من ضربة أخرى في 20 حزيران/يونيو 1947 بوفاة سعد الله الجابري، عم زوجة رياض الصلح، فائزة. كان الجابري زعيماً شجاعاً في الكتلة، وأحد الرجال القليلين الذين لم تتأثر سلطتهم أو سمعتهم بمتغيرات السنوات السابقة. أضعفت وفاة الجابري الكتلة، لكنها قوّت موقف الرئيس القوتلي، لأن الجابري كان يعارض بشدّة رغبة القوتلي في تعديل الدستور للسماح بإعادة انتخابه لولاية رئاسية ثانية تمتدّ خمس سنوات - وهو طموح يشبه إلى حدٍّ كبير طموح بشارة الخوري في لبنان. أجريت الانتخابات في سوريا في تموز/يوليو 1947، تقدّمت على إثرها الحكومة بمشروع قانون لتعديل الدستور، ما أدى إلى إعادة انتخاب القوتلي في نيسان/أبريل 1948. رأى كثيرون أن التمديد منع قيام حركة إصلاحية سياسية واجتماعية في البلاد عندما كان الأمر ممكناً بالطرق السلمية. وربما ساهم التمديد في إسقاط النظام البرلماني في سوريا بعد ذلك بسنة.

في غضون ذلك، انقسمت الكتلة الوطنية إلى قسمين: الحزب الوطني ومركزه دمشق، حيث يوجد مؤيّدو القوتلي وجميل مردم وفارس الخوري ولطفي الحفّار وصبري العسلي؛ وحزب الشعب ومركزه حلب، بقيادة رجال مثل رشدي الكيخيا وناظم القدسي ومصطفى برمدا. وكان حزب الشعب يمثل المصالح التجارية في شمال سوريا، ذات الروابط التقليدية مع العراق. غير أنه حصل أيضاً على تأييد عائلة الأتاسي النافذة التي تمتلك أراضي واسعة في حمص، وتعارض احتكار السلطة من قبل السياسيين في دمشق.

حكم شكري القوتلي، الذي بالغ في الثقة بمساعديه - ومن المدهش أن حسني الزعيم حذا حذوه - بلداً تتآكل أسسه بتضخم الأسعار، وفشل المحاصيل بسبب

الجفاف، وتتعالى فيه أصوات الاحتجاج من نقابات العمال الناشئة. وسرعان ما أثّرت صدمة فلسطين على السياسيين المخضرمين المنهكين، الذين استُنفدت طاقاتهم في صراع دام عقوداً مع الفرنسيين؛ ومؤسسات الدولة التي تفتقر إلى الخبرة؛ والجيش الفتي الذي يفتقر إلى التدريب والتجهيز. وعلى هذه الخلفية، جاء انقلاب حسني الزعيم في آذار/مارس 1949[1].

لم يكن تمرد الزعيم ظاهرة معزولة، بل عارضاً من أعراض الاضطراب العام الذي أصاب المنطقة في أعقاب الهزيمة العربية. وقد توالت الاهتزازات الارتدادية بسرعة وكثافة في السنوات اللاحقة. في مصر، قتل عضو من الإخوان المسلمين رئيس الوزراء النقراشي باشا في كانون الأول/ديسمبر 1948. وشنّت حرب فدائية على الحاميات البريطانية في منطقة قناة السويس. وكُشفت خيانة الملك عبد الله للقضية العربية، وخسر كل أمل في تحقيق مشروع سوريا الكبرى. واغتيل في سنة 1951. وفي القاهرة، انفجر الغضب الوطني العارم في كانون الثاني/يناير 1952، وتحوّل إلى أعمال قتل وتدمير عُرفت باسم "السبت الأسود" - بعد أن حاصر البريطانيون مركزاً للشرطة المصرية في الإسماعيلية وقصفوه، ما أسفر عن مقتل 41 شرطياً وجرح نحو 72 آخرين. كانت الأهداف التي هاجمتها الحشود - من بينها فندق شيبرد، وبنك باركليز، ونادي سباق الخيل البريطاني - ترمز إلى التحالف الكريه بين الأجانب والباشوات المصريين.

وفي صيف 1952، استولى "الضباط الأحرار" بقيادة جمال عبد الناصر على السلطة وخلعوا الملك فاروق عن العرش، بسبب غضبهم من تقصير حكومتهم في الاستعداد للحرب في فلسطين. وفي سنة 1954، توصّلوا إلى اتفاق مع بريطانيا على سحب قواتها العسكرية من مصر. لكن في سنة 1956، غزت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل مصر، في محاولة لكسر حكومة عبد الناصر المستقلة والردّ على تأميم شركة قناة السويس، لكن الولايات المتحدة أجبرتهم على الانسحاب بشكل مخز. أُجبر أنتوني إيدن، رئيس وزراء بريطانيا في ذلك الوقت، على الاستقالة، وتلقّى النفوذ البريطاني في المنطقة ضربة لم يتعافَ منها قطّ. تمكّن النظام الهاشمي من البقاء في العراق حتى سنة

(1) لرواية مفصلة عن الأحداث، انظر كتاب باتريك سيل، "الصراع على سوريا"، الطبعة الثانية 1986، ص 24-100.

1958، عندما أطيح بالحكم الملكي، وقتلت العائلة المالكة، وأعدمت الجماهير نوري السعيد صديق البريطانيين الوفي.

حسني الزعيم وأنطون سعادة

يبدو أن انقلاب حسني الزعيم في دمشق في آذار/مارس 1949 قد حفز أنطون سعادة على التفكير في الاستيلاء على السلطة في لبنان، ربما كخطوة أولى نحو الاتحاد مع سوريا. وكان العديد من السياسيين المعارضين في لبنان يسعون تقليدياً إلى الحصول على دعم دمشق ضد حكومتهم، فسلك سعادة الآن الطريق الخاطئ نفسه. استقبله الديكتاتور السوري، وبحث معه خطط الانقلاب في لبنان. وقد أمل كل منهما في الاستفادة من الآخر: رأى الزعيم في سعادة وسيلة لإسقاط رياض الصلح، حليف القوتلي، والرجل الذي يشكّ الزعيم، المصاب برهاب الارتياب، في أنه يكنّ له الاحتقار ويتمنّى سقوطه. وكعربون على الصداقة، قدّم الزعيم مسدساً فضياً إلى سعادة. وربما رأى سعادة، بدوره، أن الزعيم وسيلة مؤقّتة يحقق عن طريقها طموحه، ويتخلى عنه لاحقاً عندما يحين الوقت للسيطرة على سوريا بأكملها.

تردّدت الحكومة اللبنانية مدة ثلاثة أسابيع – من 30 آذار/مارس إلى 23 نيسان/أبريل – قبل الاعتراف بحكومة الزعيم. فقد غضب بشارة الخوري ورياض الصلح من تجرّؤ هذا الديكتاتور العسكري على سجن القوتلي. وها هو الآن يستقبل أعضاء في المعارضة اللبنانية، ويبدي عداء واضحاً للدولة اللبنانية. في المقابل، انزعج الزعيم من معاملته بجفاء والنظر إليه باحتقار. في 4 نيسان/أبريل، اتهم رياض الصلح بتشجيع الصحافة اللبنانية على شنّ هجمات عليه، وفي 14 نيسان/أبريل، وجّه رسالة إلى الرئيس بشارة الخوري يتهم فيها رياض بالتآمر لقتله بالتعاون مع أحمد شرباتي، وزير الدفاع السوري السابق الذي لجأ إلى بيروت. ردّ الزعيم على هذه الاتهامات التي لا أساس لها، بمنع تصدير اللحوم السورية إلى لبنان، ما أدى إلى ارتفاع أسعارها في الأسواق اللبنانية، إلى جانب أسعار السمن والحليب والزيت والفاكهة والخضر. بدا كأن سوريا ولبنان يتجهان ثانية إلى مواجهة جدية.

كـــان لانقلاب الزعيم تأثيرات تتجاوز لبنان. فقد أعاد سوريا إلى دائرة الصراع الإقليمي بين الهاشميين في الأردن والعراق، وخصومهم في مصر والسعودية. أراد الجميع أن يعرف الجانب الذي سيميل هذا العقيد الحديث العهد بالنعمة. بدأ الزعيم يتطلّع إلى العـــراق للحـــصول على الدعم، بل إنه اقترح توقيع اتفاق عسكري فوريّ مع بغداد، اعـــتقاداً مـــنه أن ذلك ربما يقوّي موقفه في مفاوضات الهدنة مع إسرائيل. لكن نوري الـــسعيد - على غرار رياض الصلح - رأى أن الزعيم مغامر خطير، فتح الباب على الانقلابـــات العـــسكرية العنيفة في الشرق الأوسط. لذا لم يبدِ نوري السعيد ميلاً إلى المسارعة في عقد شراكة معه.

لا شـــك في أن الزعيم، الذي يتسم بحدّة الطباع وعدم التوازن، استاء من ذلك كثيراً. فابتعد فجأة عن العراق وتوجه نحو مصر. واستسلم لمجاملات الملك فاروق، بعد قـــيامه بـــزيارة سرية له في 21 نيسان/أبريل في عزبته في أنشاص. كان فاروق مسرفاً وكـــريماً، بقدر ما كان نوري السعيد حذراً وحريصاً. فأعلن الزعيم باندفاع أنه يهوى كـــل مـــا هو مصري. وطمأن الملك فاروق بشأن نيّاته السلمية تجاه لبنان، ومعارضته المطلقة لجميع المشاريع الهاشمية. ثم جال الملك فاروق مع الزعيم على المزارع الملكية في أنشاص قبل أن ترافق طائرة حربية مصرية الزعيم في رحلة العودة إلى دمشق.

بـــدا الـــزعيم رجـــلاً مختلفاً بعد هذا اللقاء الملكي، واطلاعه على فخامة الدولة المـــصرية وعظمتها. فتراجع عن الاتهامات التي وجهها إلى رياض الصلح، وسرعان ما اســـتقبل عدداً من المبعوثين الرسميين اللبنانيين - وزير الخارجية حميد فرنجية، ورئيس القـــسم العربـــي في وزارة الخارجية محمد علي حمادة، ومدير الأمن العام الأمير فريد شـــهاب. وبعد مضي بضعة أيام على زيارته، اعترفت مصر والمملكة العربية السعودية ولبنان بنظامه. وفي 24 نيسان/أبريل، توجّه رياض الصلح إلى دمشق، مجبراً على إخفاء انـــزعاجه، للاجتماع بالزعيم. لم يكن اللقاء ودياً، ولكن صحيحاً. نبّه رياض مضيفه مـــن التورّط في مكائد المعارضة اللبنانية، وشدّد على ضرورة أن تحترم سوريا استقلال لبنان الإقليمي والسياسي. وحصل رياض على وعد بإطلاق سراح شكري القوتلي من ســـجنه في دمـــشق والـــسماح له بالمغادرة إلى المنفى في القاهرة مع أسرته. وفي أثناء الـــزيارة، هـــاجم الزعيم الملك عبد الله ونوري السعيد، وأدان مشروعيهما التوأمين:

"سوريا الكبرى" و"الهلال الخصيب". وسرعان ما قام الزعيم بإقفال الحدود السورية مع الأردن وحشد القوات عسكرية في مواجهة العراق.

عادت الآن حركة الاتصالات بين سوريا ولبنان. في 26 نيسان/أبريل، قدم إلى بيروت حسن جبارة، رئيس الوفد السوري إلى المجلس الأعلى للمصالح المشتركة، من أجل التفاوض. وأدّى ذلك إلى عودة الحركة التجارية إلى طبيعتها. وافقت دمشق على تصدير 20,000 رأس من الماشية إلى لبنان، بالإضافة إلى العديد من امنتجات الزراعية.

لكن هذه العلاقات الدافئة تعرّضت لضربة قاسية في منتصف أيار/مايو، عندما قامت مجموعة سورية بعبور الحدود اللبنانية واغتيال مواطن لبناني من أصل سوري، كامل حسين اليوسف، في منزله قرب حاصبيا، بناء على ادعاءات أنه يرسل معلومات استخبارية إلى الإسرائيليين. كانت المجموعة تتكوّن من جنود في الجيش السوري بقيادة النقيب أكرم طبارة. تمكّن الدرك اللبناني من إلقاء القبض على المجموعة. فطالب السوريون على الفور بإعادة طبارة ورجاله. وعندما رفض لبنان تسليمهم، أقفلت سوريا الحدود. وتحوّل النزاع إلى اختبار شخصي للقوة بين حسني الزعيم ورئيس وزرائه محسن البرازي من جهة، وبشارة الخوري ورياض الصلح من جهة أخرى.

حاولت مصر والمملكة العربية السعودية التوسّط. فاعترفتا بحقّ لبنان في محاكمة طبارة ورجاله، لكنهما طلبتا تسليمهم إلى سوريا للمحافظة على حسن العلاقات بين البلدين. يقول الأمير عادل أرسلان في مذكّراته، وكان آنذاك عضواً في الحكومة السورية، أنّ كامل حسين اليوسف - الذي وصفه "بالجاسوس المقتول" - قدّم للزعيم رشوة قدرها 50,000 ليرة سورية من أموال الصهاينة، عندما كان قائداً للجبهة السورية في سنة 1948. لذا اضطر الزعيم إلى قتل اليوسف لدفن هذا السرّ[1]. في أوائل

(1) الأمير عادل أرسلان، **مذكرات**، الجزء الثاني، بيروت 1983، ص 843-831، 877. يقتبس أرسلان بيان زعيم عشيرة في الجولان، الأمير فاعور فاعور. وللاطلاع على رواية بشارة الخوري عن الأزمة انظر مذكراته، **حقائق لبنانية**، الجزء الثالث، ص. 222-225. هذا المقطع مأخوذ من دراسة Beydoun, "Riad el-Solh et les Elections Legislative de 1943", p. 452, n. 176. وعن تأثير هذا الموضوع على العلاقات الاقتصادية بين سوريا ولبنان، انظر Youssef Chaytani, *Post-Colonial Syria and Lebanon*, pp. 134, 137-38.

حزيـــران/يونيو، أعيد طبارة ورجاله إلى سوريا ليحاكموا هناك، لكن سرعان ما أطلق سراحهم. وبعد تسليمهم عادت التجارة بين سوريا ولبنان إلى طبيعتها.

لو كان الزعيم قد أخذ رشوة من الصهاينة خلال الحرب، وهو أمر محتمل جداً، فيجب ألا ينظر إلى الأمر بمثابة مثال على جشع الزعيم فحسب، بل دليلاً إضافياً على عمـــق تغلغل إسرائيل داخل جيرانها العرب. بعد مرور فترة قصيرة على تسلّم الزعيم الحكـــم، عـــرض سراً على إسرائيل سلاماً تاماً، مع تبادل فوري للسفراء، وعلاقات اقتـــصادية طبيعـــية، وتوطين 300,000 لاجئ فلسطيني في سوريا. في المقابل، طلب الـــزعيم أن توافـــق إسرائيل على نقل الحدود السورية إلى منتصف بحيرة طبريا. ولكن بـــن غوريـــون رأى أن الأمـــر لا يستحق العناء. ولا شك في أنه وجد أن اتفاقيات الهدنـــة - الـــتي لا تنطوي على تقديم أي تنازلات للعرب أو التخلي عن أي شبر من الأرض - تلبـــــي احتياجات إسرائيل الضرورية كالاعتراف بكيانها وأمنها أكثر من العرض غير العادي الذي قدّمه الزعيم[1].

الاشتباكات المشؤومة الأولى

في هـــذه الفترة بالذات، اتخذت خلافات سعادة مع لبنان منحى سيئاً. بدأ الأمر مـــصادفة، باشتباك بين الحزب القومي والكتائب اللبنانية في الجمّيزة في بيروت، حيث تـــوجد مطبعة الحزب القومي. وكان العداء بين الطرفين قد تصاعد في الشهور الثلاثة الـــسابقة، واحـــتدمت المـــشاعر لدى الطرفين. كانت الجمّيزة معقلاً للكتائب، لكن القومـــيين اختاروا أن يعقدوا فيها اجتماعاً في أوائل حزيران/يونيو، ألقى خلاله سعادة خطاباً هجومياً وجّه فيه نقداً لاذعاً للكتائب.

بعد يوم أو اثنين، في ليلة 9-10 حزيران/يونيو، عقد الكتائبيون بدورهم اجتماعاً في الجمّيـــزة، قـــرب المقهى الذي عقد فيه القوميون اجتماعهم، على مرمى حجر من المطـــبعة التي يطبع فيها الحزب مجلة **الجيل الجديد**. كان الكتائبيون قد أنهوا اجتماعهم للـــتوّ، عندما خرج سعادة من المطبعة وانطلق بسيارته، فتعالت هتافات مؤيّديه "يعيش

(1) للاطـــلاع علـــى رواية كاملة عن تعاملات الزعيم مع إسرائيل، انظر Itamar Rabinovich, *The Road not Taken: Early Arab-Israeli Negotiations*, Oxford 1991.

الـــزعيم". ردّ الكتائبـــيون بهتافات "يعيش لبنان" و"يعيش بيار الجميّل". وكما نقلت صـــحافة بيروت في وقت لاحق، أطلق بعض القوميين النار على الكتائبيين الذين ردّوا بالمـــثل. أصيب سبعة من القوميين في الاشتباك المسلح الذي تلا، واحتمى الآخرون في المطبعة. هُوجمت المطبعة بعد ذلك وأضرمت فيها النار. وعندما وصلت الشرطة، كان بالإمكـــان رؤيـــة ألسنة النار تتصاعد من المبنى. في غضون ذلك، تمكّن الكتائبيون من أسر ثمانية عشر عنصراً من القوميين، فقاموا بتسليمهم للشرطة[1].

بـــدأ التحقيق في الحادث عند الساعة الحادية عشرة من الليلة نفسها، واستمر في اليوم التالي. ترأس التحقيق مدّعي عام الاستئناف شخصياً، يساعده المدير العام لوزارة الداخلـــية، ومديـــر الأمن العام وقائد الدرك. وخلال أربع وعشرين ساعة، تم توقيف 150 عنـــصراً من القوميين في بيروت والمناطق المجاورة، وأوقف 100 آخرون في اليوم الـــتالي. كذلك، وأوقف 50 عنصراً من الكتائبيين[2]. عثرت الشرطة في المطبعة على متفجـــرات وأســـلحة مـــن بينها رشاشان، وعُثر على أسلحة وقنابل يدوية في منازل القوميين في بيروت وضواحيها. وقالت الشرطة إنها عثرت على مستندات تدلّ على أن الحزب لا يتآمر على الكتائب فحسب، بل على الدولة أيضاً. اعتُبر الحزب خارجاً على القانـــون، لكـــن سعادة تمكن من الهرب. اشتُبه في أنه مختبئ في منـــزل أحد أعضاء الحزب في منطقة بيروت[3].

الهجوم على الدولة

تصاعدت الأزمة بعد ذلك، وأصبحت أخطر بكثير من مجرد تبادل لإطلاق النار بـــين حركتين شبه عسكريتين متنافستين. شنّ القوميون سلسلة من الهجمات المسلحة في وقـــت واحـــد، فاعتُـــبر ذلك محاولة لإسقاط الحكومة. اهتمّ سعادة كثيراً بما سمّاه "الشؤون العسكرية"، منذ بداية حركته. وشكّلت فرقه التي ترتدي زياً رسمياً – وتحب المـــسيرات، وإلقاء التحية، والاستعراض مرتدية زيها – العمود الفقري لحزبه. كانت

(1) *Le Jour*, Beirut, 11 June 1949.

(2) Beirut to Foreign Office, 11 June 1949 (FO 371/75320).

(3) Beirut to Foreign Office, 11 and 22 June 1949 (FO 371/75320). Légation de France, Beyrouth, le 13 juin 1947.

الأداة الـــتي يجتذب بها الشباب الغاضب، ويُرهب بها خصومه. عرض حسني الزعيم في دمـــشق علـــى سعادة السلاح والرجال على الفور إذا تعهّد بإسقاط حكومة رياض الصلح، فظهر على حقيقته كمغامر عسكري ومعاد للديمقراطية. قبل سعادة السلاح - الذي أخذه الزعيم بلا استحياء من مخازن الدرك السورية - لكنه رفض الرجال، رغبة مـــنه في عـــدم منح الزعيم فرصة ليفرض عليه شروطه في لبنان. لكن تبيّن أن الهجوم الـــذي سارع إلى شنّه على الدولة اللبنانية يتسم بالحماقة الشديدة، ويظهر عدم كفاءة سعادة في إدارة العمليات العسكرية.

بـــدأت العملـــية بسلسلة من الهجمات غير المنسقة على مراكز الدرك اللبناني قرب الحدود السورية وفي الجبال قرب بيروت. في ليلة 2-3 تموز/يوليو، تجمع فصيل من أعضاء الحـــزب القومي في المتين. كانوا يعتزمون مهاجمة مركز الدرك المحلي. وفي وقت لاحق من تلـــك اللـــيلة، أرسلت مجموعة أخرى لمهاجمة مركز الدرك في حارة حريك. لم تكن هذه الهجمات فتاكة، لكنها نبّهت قائد الدرك إلى أن ما يجري أكبر من مجرّد أعمال اللصوصية الـــشائعة في تلـــك المناطق. فوضعت جميع مراكز الدرك والشرطة في حالة تأهّب. لذا لم تفاجأ عندما هاجم سعادة ثانية بأعداد أكبر في ليلة 4-5 تموز/يوليو.

تجمّـــع تلـــك الليلة أكثر من مئة حزبـــي في دمشق ونقلوا بالحافلات إلى منطقة تـــبعد نحـــو عـــشرة كيلومتـــرات عن الحدود اللبنانية، حيث كان سعادة ومساعده العـــسكري، عساف كرم، بانتظارهم. ألقى فيهم سعادة خطاباً حماسياً، ووزّع عليهم الأسلحة والذخيرة. توجّهت مجموعة إلى راشيا، وأخرى إلى مشغرة.

قبـــيل منتـــصف الليل، أوقفت دورية للدرك المجموعة الأولى التي تلوّح بالبنادق والرشاشـــات. اندلع اشتباك دام نحو ساعة، قبل أن يتمكّن القوميون من التراجع إلى ســـوريا، مخلّفين آثاراً من الدماء. اعتقل مساعد سائق إحدى الحافلات، وهو سوري يدعـــى عـــبد السلام معكوك. يبدو أن هذه المجموعة كانت تعتزم السيطرة على قلعة راشـــيا، بقيادة الأمير زيد حسن الأطرش، وهو أحد أعضاء الحزب الدروز. وكانت تتكوّن أساساً من دروز سوريين وفلسطينيين.

تمكنت المجموعة الثانية، التي ضمت نحو ستين رجلاً، من الوصول إلى مشغرة من دون أن يلحظهـــا أحـــد. توزّع عساف كرم ورجاله في المغاور القريبة وفي طاحونة

مهجورة، حيث استراحوا قليلاً قبل محاصرة مركز الدرك ومهاجمته عند منتصف الليل. جرح عنصران من الدرك بالرصاص، أسرعت وحدة من الجيش اللبناني إلى مساعدة المركز، فهزمت المهاجمين وطاردتهم حتى بلدة مجاورة، حيث قُتل عساف كرم في اشتباك مسلح عنيف، واستسلم جميع مرافقيه.

فجر 5 تموز/يوليو، علم الدرك أنّ سيارة مشبوهة شوهدت على جسر فوق نهر الليطاني. أُقفلت الطريق المؤدية إلى الجسر على الفور وأُوقفت المركبة وفُتّشت. وجد في داخلها ثلاثة سوريين ولبنانيين، بحوزتهم 5000 منشور لأنطون سعادة يعلن فيها الحرب على الحكومة اللبنانية من "مقرّ قيادة أول ثورة قومية اجتماعية"[1]. في وقت لاحق من ذلك اليوم، استسلم اثنان من الذين هاجموا مركز المتين وقدّما الاعترافات التي تدين عناصر أخرى في الحزب.

علم النقيب توفيق شمعون، قائد الدرك في منطقة عاليه، بعد أن تنبّه تماماً إلى الخطر الذي شكّله الحزب القومي، أن أعداداً كبيرة من المسلّحين تعسكر في غابة سرحمول. عندما اقترب من المكان، وجد أن عددهم أكبر مما توقّع. عاد إلى مقرّ قيادته وطلب إرسال تعزيزات. وصلت وحدة عسكرية إلى المكان واستعدّت للاشتباك. تقدم النقيب شمعون معها، لكن عندما توقف لاستطلاع المسلّحين بمنظاره، أصيب برصاصة في رأسه ومات على الفور.

حوصرت مجموعة القوميين في نهاية الأمر، واستسلمت للجيش. أثارت وفاة النقيب الشجاع الشاب مشاعر كبيرة في البلد، وبخاصة لدى الطائفة المارونية التي ينتمي إليها، وإن لم يقتصر ذلك عليها. بحلول 7 تموز/يوليو كان قد قبض على نحو 900 عضو حزب أنطون سعادة ومتعاطف معه. لم تتسع السجون لكل هؤلاء، فحوّلت ثكنة للجيش في ضواحي بيروت إلى مركز احتجاز. أعلن غبريال المر، نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية، في تصريح للصحافة أنّ الحزب حاول الاستيلاء على السلطة عن طريق انقلاب عسكري، لتنفيذ مشروعه "سوريا الكبرى" الذي يدعو إليه[2].

(1) *Le Jour*, Beirut, 6 July 1949.

(2) *Le Jour*, 7 July 1949.

في غـــضون ذلك، انشغلت الخطوط الهاتفية بين بيروت ودمشق - بين قيادتي الدرك والجيش على جانبـــي الحدود، والأهم من ذلك، بين رئيس الوزراء اللبناني والرئاســـة السورية. لم يعرف أحد ما قاله رياض الصلح لحسني الزعيم، لكن ربما هـــدّده. وفقاً لحنا غصن صاحب **الديار** – وهي جريدة تعكس آراء الحكومة في الغالـــب - قال رياض الصلح للزعيم إن لبنان سيهاجم سوريا بمساعدة عسكرية عـــراقية وتـــركية، ما لم يسحب الزعيم دعمه للحزب السوري القومي[1]. وقال آخرون إن رياض "اشترى" سعادة من الزعيم مقابل مبلغ كبير من المال. ويعتقد أنّ رئيس وزراء الزعيم، محسن البرازي - وكان معروفاً بأنه يكره سعادة - قد ساهم في إقـــناع العقيد بتسليم سعادة إلى السلطات اللبنانية. وتلقّى الزعيم اتصالات من القاهـــرة والرياض تحثّه على التعاون مع السلطات اللبنانية. وفي وقت لاحق، أبلغ رياض الصلح السفير البريطاني في بيروت، هوستن-بوزوال، أنّ الزعيم موّل الحزب القومي وزوده بالسلاح. لكن عندما أدرك أن تصرفه قد يدفع الحكومة اللبنانية إلى أحضان الهاشميين، تخلى عن الحزب بسرعة، وسلّم زعيمه على الرغم من إدراكه أن سعادة سيعدم[2].

بعـــد ســـاعات مـــن الاتصالات المكثفة بين بيروت ودمشق، بدأت السلطات السورية بإلقاء القبض على أعضاء الحزب القومي في سوريا. وتمكّنت من القبض على الأمير حسن الأطرش، الذي قاد الهجوم الفاشل على راشيا، ووعدت اللبنانيين بتسليمه للمحاكمـــة. قُـــبض على زوجة سعادة، جولييت المير وبناتها الثلاث - لا يزيد عمر أصغرهن عن بضعة شهور - في منـــزل عضوٍ في الحزب قرب اللاذقية. توجّه عدد من ضـــباط الـــشرطة اللبنانيين إلى دمشق، حيث ساعدوا في القبض على نحو 30 سورياً ولبنانياً من أعضاء الحزب في اللاذقية وطرطوس وصافيتا وبانياس وجبلة. واقتيد هؤلاء إلى بيروت، وأودعوا في السجون.

(1) بـــيان أدلى بـــه حـــنا غصن في حفل خاص في بيت مري في 9 تموز/يوليو 1949. أقام الحفل نقيب الـــصحافة اللبنانـــية ألكسندر رياشي بمناسبة ميلاد ابنته. كان بين الضيوف حسني البرازي وكميل شمعون وألفرد ثابت وسعدي المنلا وعدد من الصحفيين.

(2) British Commonwealth Relations Office. Outward Telegram, 25 July 1949 (FO 371/75320).

في غضون ذلك في دمشق، دعا حسني الزعيم سعادة إلى القصر الرئاسي، وبعدما استُقبل بلباقة، اعتُقل ثم نُقل تحت الحراسة إلى الحدود اللبنانية في ليل 6-7 تموز/يوليو. وهناك سلّم إلى الأمير فريد شهاب، المدير العام للأمن العام - "شرط" أن يقتل في أثناء رحلته إلى بيروت. كانت شروط الزعيم تقضي أن يُقتل سعادة عند "محاولته الهرب"[1]، لحماية العقيد، من دون شكّ، من تهمة الخيانة، ولإخفاء تفاصيل أسرار تعاملاته معه.

يروي الرئيس بشارة الخوري في مذكراته أنه استيقظ في تلك الليلة للردّ على مكالمة هاتفية عند الساعة الثانية والنصف صباحاً. كان المتصل رياض الصلح الذي أبلغه أن السلطات اللبنانية تسلّمت أنطون سعادة من سوريا وأوقفته. فوجئ الرئيس لأنه اعتقد أن الزعيم سيستخدم سعادة لشن هجوم على لبنان ولن يتخلى عنه بهذه السهولة. ارتدى بشارة الخوري ملابسه بسرعة وذهب لاصطحاب رياض الصلح في طريقه إلى مكتبه. عندئذ أطلعه رياض الصلح على أن الأمير فريد شهاب اتصل لنقل شروط الزعيم، أي قتل سعادة على الطريق. وأبلغ رياض الرئيس أنه أمر شهاب بتجاهل تلك الشروط، وجلب قائد الحزب القومي إلى بيروت، واحتجازه في ثكنة عسكرية.

بحث الرئيسان بعد ذلك ما يجب عمله. استُدعي قائد الجيش الأمير فؤاد شهاب للاستماع إلى رأيه. كان بشارة الخوري يخشى من قيام الزعيم برد فعل عنيف عندما يعرف أن سعادة لم يُقتل كما اشترط. لذا اتصل الشيخ بشارة عند الخامسة صباحاً بالقصر الرئاسي في دمشق لإيضاح الأمر، لكن لم يجب أحد. أخيراً، أجاب حسني الزعيم بنفسه عند السادسة صباحاً. شكره بشارة الخوري على الدعم الذي قدّمه للبنان ثم أخبره أن سعادة سيحاكم بعد وقت قصير أمام محكمة عسكرية بتهمة الخيانة وفقاً لقانون البلاد. أجاب الزعيم فجأة، "هذا جيّد". وأنهى الحديث، ما أثار دهشة المسؤولين اللبنانيين وأراحهم[2].

بعد مرور فترة قصيرة في ذلك الصباح، اجتمعت الحكومة اللبنانية في جلسة استثنائية وقررت، مخطئة من دون شك، محاكمة سعادة بموجب حالة الطوارئ التي

(1) Beirut to Foreign Office, 7 July 1949 (FO 371/75320).

(2) بشارة الخوري، **حقائق لبنانية**، الجزء الثاني، ص 240-41.

أعلنت في 14 أيار/مايو 1948، عند بداية حرب فلسطين. صدرت أوامر بالتعتيم التامّ على الموضوع. وجّهت الاتهامات إلى سعادة على عجل، وعقدت المحكمة العسكرية جلستها عند الساعة الواحدة بعد الظهر. ترأس المحكمة الرائد أنور كرم، يعاونه النقيب سمراني، والملازم الأحدب، والقاضي غابريال باسيلا، بالإضافة إلى المدعي العام يوسف شربل ونائبه ميشال تلحمة. طلب إميل لحود، محامي الدفاع عن سعادة، تأجيل الجلسة 48 ساعة لدراسة القضية، لكن رفض طلبه. لذا تنحّى عن الدفاع، وحلّ محله الملازم إلياس رزق الله.

عقدت المحاكمة وراء أبواب مقفلة و لم يحضرها سوى وزير الدفاع وعدد من كبار الضباط. وأقفل الشارع خارج قاعة المحكمة - شارع فؤاد الأول. لم يُسمح بدخول الصحافة سوى لفترة قصيرة خلال توقف المرافعات عند الساعة الخامسة بعد الظهر. جلس سعادة في قفص الاتهام بهدوء، لكن بدا عليه الإرهاق والاكتئاب.

قرئت لائحة الاتهام بعد ذلك، اتُهم أنطون خليل سعادة بمحاولة الاستيلاء على السلطة، وقلب النظام بالقوة المسلحة، ومهاجمة مراكز الدرك، بالإضافة إلى مراكز الجيش والضباط وعسكريين من رتب أخرى، وقتل النقيب توفيق شمعون، ومحاولة قتل عناصر أخرى من قوى الأمن. ثم تكلّم سعادة مدة ساعتين دفاعاً عن نفسه شارحاً فلسفة حركته السياسية بإسهاب إلى حدٍّ ما. وذكر المضايقات التي تعرّض لها أعضاء حزبه منذ حادثة الجميزة، فلم يكن أمامهم من خيار سوى الردّ. أنكر أي صلة له بالمنشورات التي تدعو إلى الثورة. بعد ذلك، استُدعي سبعة شهود سوريين وفلسطينيين ولبنانيين. فأكّدوا جميعاً أن سعادة وزّع السلاح على أعضاء الحزب ودعاهم إلى الثورة على الحكومة. وطالب المدعي العام بإنزال عقوبة الإعدام.

عند الساعة الثامنة مساءً في 7 تموز/يوليو، أصدرت المحكمة العسكرية حكم الإعدام على سعادة بموجب المادة 79 من قانون القضاء العسكري. أرسل الملف إلى لجنة العفو التي أكّدت الحكم. بعد سماع دفاع المُدان، وقبل اتخاذ قرار بشأن مصير سعادة، دعا الرئيس بشارة الخوري إلى اجتماع حضره رياض الصلح والأمير فريد شهاب، بالإضافة إلى حبيب أبي شهلا وغبريال المر، وهما مسؤولان بارزان من الطائفة الأرثوذكسية نفسها التي ينتمي إليها سعادة. وفقاً لملاحظة دوّنها الأمير فريد شهاب،

قال رياض الصلح إنه لا يحب الإعدام. ولاذ الرئيس الخوري بالصمت، لكن أبي شهلا والمر أيّدا إعدامه. لا شك في أنهما اعتبرا أن سعادة يشكّل خطراً على موقعهما المسيطر في طائفتهما. ظلّ هذا الجانب من ظروف إعدام سعادة مجهولاً لمدة تزيد على نصف قرن، ولم يكشف عنه إلا بعد نشر أوراق الأمير فريد شهاب في سنة 2006[1].

وقّع بشارة الخوري على مرسوم تنفيذ الحكم. عند الساعة الثالثة من صباح 8 تموز/يوليو، انفرد رجل دين أرثوذكسي بضع دقائق مع سعادة، الذي طلب فنجان قهوة وسيجارة بينما كان يكتب وصيّته وشهادته. وعند الثالثة والنصف صباحاً، اقتاده الجنود إلى مكان تنفيذ الإعدام داخل الثكنة. كانت عيناه معصوبتين ويداه مربوطتين خلف ظهره. ووفقاً لتعليمات الجيش، جعلوه يركع على الأرض ورُبط إلى وتد. وعند الساعة الثالثة وأربعين دقيقة صباحاً، أصدر ضابطٌ الأمرَ بإطلاق النار. وهكذا لم تمضِ أربع وعشرون ساعة بين اعتقال سعادة وإعدامه[2].

اتصل جاك بار Jacques Barre، مراسل وكالة الصحافة الفرنسية في بيروت، بباريس ناقلاً خبر إعدام سعادة في 8 تموز/يوليو. كتب بار: "عرف سعادة بين أتباعه بالزعيم، وهو شخص غير عادي أراد أن يصنع لنفسه مكاناً بين الدكتاتوريين العظماء". في 9 تموز/يوليو، أعلنت الإذاعة اللبنانية عن مكافأة بقيمة 10,000 ليرة لبنانية (وهي ثروة في ذلك الوقت) لمن يقدّم معلومات تؤدي إلى القبض على جورج عبد المسيح، أحد أوائل أتباع سعادة وأكثرهم إخلاصاً، وخليفته في قيادة الحزب. وهو قائد المجموعة التي قتلت النقيب توفيق شمعون في غابة سرحمول. وكانت الشرطة تبحث عن أسد الأشقر وعدد من عناصر الحزب.

في 9 تموز/يوليو، نشر غسان تويني، رئيس تحرير جريدة **النهار**، مقالاً مفاجئاً بعنوان "سعادة، المجرم الشهيد"، تسبب بدخوله السجن ثلاثة أشهر. وكان تويني عضواً سابقاً في الحزب القومي، ولا يزال يحتفظ ببعض التعاطف نحوه. أدان تويني في مقاله إعدام سعادة الفائق السرعة:

(1) أحمد أصفهاني، (محرر)، **أنطون سعادة والحزب السوري الاجتماعي في أوراق الأمير فريد شهاب**، بيروت، 2006.

(2) Beirut to Foreign Office, 8 July 1949 (FO 371/75320).

وُفّـق المـسؤولون في اعتقال أنطون سعادة، والتحقيق مع أنطون سعادة، ومحاكمة أنطون سعادة، والحكم على أنطون سعادة بالموت، والتصديق على الحكم، ثم إعدام أنطون سعادة، بسرعة ذهل لها الناس، وصرعوا. فعجزت العقـول عن استيعاب الحدث، وعجزت عن أدراك مغزاه، وكأنها رزحت تحت عبء النبأ، بل تحت عبء الفاجعة، لا تعرف كيف تبدي رأياً. حتى الإنـسان الذي يكره سعادة ومبادئه ما كان يقول قولاً غير ذلك القول: يا للهول... وهو يكاد لا يعرف ماذا يقول!

وكـأن الـناس لا يعرفون ما إذا كان أنطون سعادة قد أعدم أم قتل، وإذا كان الذي جرى محاكمة أم مؤامرة! لقد حوكم أنطون سعادة بتهمة إثارة الفتـنة والـشغب والاعتداء على القوات العامة، والقيام بأعمال التخريب والقتل، وهي تهمة يصح أن توجه إلى رئيس عصابة... ولكن أنطون سعادة لم يثر فتنة لمجرد الفتنة، ولم يقم بأعمال شغب لمجرد المشاغبة، بل إنه لم يثر ويعـتدِ ويقتل لمجرد الثورة والاعتداء والقتل. إن أنطون سعادة رجل عقيدة وصـاحب رسـالة، إنه زعيم حزب سياسي منظم. ولكن المحكمة أغفلت ذلك كله.

ولئن تكن الحكومة قد شاءت التخلّص من الرجل بأسرع وقت، خوفاً من أن يقلب عليها الأرض، ويطبق عليها السماء، قبل أن تتمكن من قتله، فإننا نقول لها إنها قد بنت بأيديها مارداً جباراً يفوق أنطون سعادة قوة وجبروتاً. إنهـا جعلت أنطون سعادة شهيداً لا في نظر أعضاء حزبه فحسب، بل في نظر الكثيرين ممن كانوا لا يتمنون له غير تلك النهاية[1].

حـوكم 68 عنـصراً مـن الحزب القومي في 16 تموز/يوليو 1949 في المحكمة العـسكرية اللبنانية. اتُهموا بالمشاركة في الهجمات على مراكز الدرك في حارة حريك والمـتين وسـرحمول ومشغرة. حكم على 12 منهم بالإعدام، وعلى 53 بالسجن مع الأشـغال الشاقة ما بين ثلاث سنوات والسجن المؤبد. نفّذ حكم الإعدام في ستة من

(1) MAE Fonds Beyrouth (Amb.), serie B, carton 48، تـرجم مـن العـربية مـن قبل قسم المعلومات في المفوضية الفرنسية في بيروت في الحادي عشر من تموز/يوليو 1949.

الاثني عشر المحكوم عليهم بالإعدام في 21 تموز[1]، أما الستة الآخرون فخُفف حكمهم إلى السجن المؤبد. كان 800 من أعضاء الحزب في الحجز بانتظار المحاكمة. أما جورج عبد المسيح الذي اعتُبر أحد أخطر معاوني سعادة فبقي طليقاً[2].

في 17 تموز/يوليو، أي بعد يوم من المحاكمة، حظي رياض الصلح باستقبال حافل في دمشق من قبل حسني الزعيم، الذي رقّى نفسه إلى رتبة مشير. قبل أسبوع من زيارة رياض الصلح، أي في 8 تموز/يوليو، وقّع لبنان وسوريا اتفاقية مالية وتجارية، وسوّي الخلاف الطويل بين البلدين. عندما عاد رياض الصلح إلى بيروت، أطلع بشارة الخوري على أنّه اضطر لكبح دموعه وهو يدخل القصر الرئاسي الذي تردّى وأصبح غريباً، بعدما طُرد منه صديقه الوطني شكري القوتلي قبل فترة قصيرة[3].

في الوقت نفسه، ألقت الحكومة القبض على أعضاء في الكتائب اللبنانية. اعتُقل ثلاثة عشر عضواً من بين أكثر من 20,000. وحُلّت الحركة، وأُغلقت مكاتبها، وصودرت أسلحتها. وحُلّت حركة النجادة شبه العسكرية الإسلامية أيضاً. في أعقاب هذه التدابير، قرّرت الكتائب والنجادة التحوّل إلى حزبين سياسيين.

نتائج قضية سعادة

لماذا قرر رياض الصلح وبشارة الخوري التخلّص من أنطون سعادة بهذه السرعة؟ الجواب الواضح هو اعتقادهما أنه يشكّل خطراً حقيقياً على لبنان، لا سيما في ضوء تحالفه مع حسني الزعيم الذي لا يوثق به. بعد الهزيمة في فلسطين، لاحت أجواء الثورة العنيفة، وفتح لها الزعيم الطريق. لقد رفع سعادة السلاح في وجه الدولة، وقاد تمرّداً مسلحاً. هاجم مراكز الدرك، وسقط عدد من القتلى والجرحى. كان الرئيس اللبناني ورئيس الوزراء على قناعة أن حسني الزعيم اتفق مع سعادة على التخلّص منهما، وهو أمر حدث فعلاً. زوّد الزعيم سعادة بأسلحة رشاشة جديدة وصلت من فرنسا مؤخّراً.

(1) عباس عبد الرؤوف حماد، سني فلسطيني؛ محمد إبراهيم شلبي، سني فلسطيني؛ محمد أحمد الزعبي، سني سوري؛ عبد الحفيظ علمي، لبناني شيعي؛ معروف محمد موفق، لبناني درزي؛ أديب سمعان جدع، روم كاثوليك فلسطيني.

(2) *The Times*, London, 18 July 1949.

(3) بشارة الخوري، مرجع سابق، ص 218.

اعتُقد أن سعادة خطط لاحتلال سهل البقاع وحاصبيا وراشيا وجنوب لبنان، وأخيراً محاصرة العاصمة، وبالتالي ضمّ لبنان إلى سوريا تحقيقاً لمبدئه الجيوسياسي.

لم يكن سعادة يقبل النقاش. فهو منظر إيديولوجي لا يؤمن بأي تسوية. لقد ارتكب خطأ مزدوجاً بمهاجمة الوطنية اللبنانية والقومية العربية في آن معاً، فوحّد كثيراً من الآراء المتحمّسة ضدّه. وساد اعتقاد في بيروت أنه ديماغوجي وثوري خطير يجب التخلّص منه. وخشي بشارة الخوري ورياض الصلح من احتمال انتشار الأفكار الثورية إلى القوى الأمنية في لبنان. لذا أرادا أن يُخمدا - وبسرعة - أي إغراء قد يكون لدى ضباط في الجيش اللبناني للسير على خطى نظرائهم السوريين.

حرص كميل شمعون - وهو الآن خصم مرير لبشارة الخوري، يطمح إلى الفوز بالرئاسة - على إظهار أن سعادة أعدم لأسباب أكثر وضاعة من المذكورة أعلاه. فأبلغ عدداً من السياسيين والصحافيين في اجتماع خاص في 9 تموز/يوليو[1] - أي في اليوم التالي على إعدام سعادة - أنّ زعيم الحزب القومي حوكم سراً وأعدم على الفور لإخفاء صلاته مع سليم وخليل الخوري، وهما أخو الرئيس بشارة الخوري وابنه الفاسدان. وادعى شمعون أن سعادة شوهد على مائدة سليم وفي بيت خليل. وفي انتخابات 1947، اعتمد سليم على دعم الحزب القومي للفوز بمقعد لم يكن ليأمل به بخلاف ذلك. كما أن سليم الخوري اشترى المطبعة الشهيرة في الجمّيزة للحزب، وهي الآن تطبع صحيفته الخاصة، **نداء الوطن**. وعن الاتفاق الاقتصادي مع سوريا، قال شمعون إنّه وُقّع فور إعدام سعادة لحماية مصالح فؤاد الخوري الاقتصادية، وهو شقيق آخر كان يعرف باسم "ملك الإسمنت" في لبنان. لكن لم يتضح إذا كان أي من اتهامات شمعون الجريئة يقوم على غير الخصومة السياسية.

من المؤكّد أن التهديد الذي شكّله سعادة لم يكن معروفاً تماماً. هل كان على اتفاق مع الملك عبد الله، كما اعتقد العديد من العرب؟ ما مقدار خطورة مؤامرته مع حسني الزعيم؟ هل كان هناك ثوريون آخرون متورطين في هذا المخطط؟ عندما عاد

(1) في الحفلة الخاصة نفسها في بيت مري المذكورة في الملاحظة 27، والتي أقامها إسكندر رياشي. Fonds Beyrouth (Amb.), série 199A4, carton 20, 11 July 1949.

سعادة إلى لبنان في 2 آذار/مارس 1947، قدم بالطائرة من القاهرة مع فوزي القاوقجي، قائد المتطوّعين المخضرم. وفي وقت لاحق من تلك السنة، عيّن القاوقجي قائداً ميدانياً لجيش الإنقاذ العربي، الذي كان ينقصه السلاح والمؤن، فتحوّل القاوقجي إلى أحد أكثر الثوّار إحساساً بالمرارة.

ادّعى طه الهاشمي - رئيس وزراء العراق السابق الذي عيّنه جميل مردم لإدارة جيش الإنقاذ - في مذكراته أن القاوقجي خطط مع أعضاء الحزب القومي، ومع الملك عبد الله أيضاً، للإطاحة بنظامَي بشارة الخوري في بيروت وشكري القوتلي في دمشق. ويبدو أن قادة جيش الإنقاذ أبلغوا الهاشمي أن القاوقجي يخطط للزحف برجاله على لبنان لقلب الحكومة، بمساعدة الحزب القومي. ثم خطط للسيطرة على سوريا وتوحيد سوريا ولبنان مع العراق والأردن[1] لمصلحة الملك عبد الله. لذا لم يكن من المفاجئ، بوجود كل هذه التهديدات الثورية، التخلّص من سعادة بسرعة، حيث سقط ضحية أوهامه والاضطراب الخطير في ذلك الوقت.

في 14 آب/أغسطس 1949، وقع انقلاب على حسني الزعيم، بعد أربعة أشهر ونصف الشهر من استيلائه على السلطة، وقاد الانقلاب العقيد في الجيش السوري سامي الحناوي. قام أحد الانقلابيين، فضل الله أبو منصور، بدخول القصر الرئاسي بقوة السلاح، فوجد الزعيم في لباس النوم في الصالة، وصفعه على وجهه. ومن الملفت أنه اتّهمه بخيانة أنطون سعادة. اقتيد الزعيم مع رئيس وزرائه محسن البرازي في مركبة مدرّعة، ثم أخرجا منها وقُتلا. تلقّى الملك فاروق في مصر خبر الانقلاب على الزعيم بفزع، بل إن البلاط أعلن الحداد لمدة ثلاثة أيام! لكن الملك عبد الله ونوري السعيد أرسلا التهاني والموفدين إلى العقيد الجديد في سوريا. في دمشق، طلب من حزب الشعب، الذي يميل إلى العراق صراحة، تشكيل الحكومة. ما إن ظهرت بوادر قيام علاقات قوية بين سوريا والعراق، حتى قام عقيد سوري ثالث، أديب الشيشكلي، بالإطاحة بالحناوي في 19 كانون الأول/ديسمبر، وأعاد سوريا إلى المعسكر المؤيّد لمصر. وتمكن الشيشكلي من البقاء في السلطة حتى عام 1954.

---

(1) طه الهاشمي، **مذكرات طه الهاشمي**، جزءان، تحرير خلدون ساطع الحصري، بيروت 1978، الجزء الثاني، ص 234.

حافظ الحزب القومي على وجوده السري، على الرغم من محاكمة عدد كبير من أعضائه وسجنهم، وذلك بفضل انضباطه وتنظيمه الصارم. حشد جورج عبد المسيح، من مخبئه، الأعضاء الأوفياء وتعهّد بالانتقام للزعيم المقتول. كان من المعروف أن رياض الصلح مستهدف على وجه الخصوص. فقد اعتبر مسؤولاً عن إقناع الزعيم بتسليم سعادة. ولكن ثمة سبب آخر أيضاً: كان رياض الزعيم اللبناني الذي يمثّل الوطنية اللبنانية أفضل تمثيل في الميثاق الوطني، وأحد أبرز القادة الوطنيين العرب من أبناء جيله. لهذين السببين كان عدواً لدوداً للقوميين السوريين.

مع ذلك، دعا حبيب أبي شهلا، أحد زملاء رياض الصلح السابقين في الحكومة، عصام المحايري، أحد قادة الحزب القومي، إلى الغداء في شتورة في سهل البقاع في محاولة لعقد مصالحة بين رياض الصلح والحزب. لكن عندما اكتشف المحايري عند وصوله أن رياض الصلح سيكون حاضراً، رفض البقاء للغداء وعاد مباشرةً إلى دمشق. وقال إنه ليس في موقع يتيح له أخذ مثل هذه المبادرة نيابة عن حزبه(1).

في 9 آذار/مارس 1950، كان رياض الصلح هدفاً لمحاولة اغتيال في بيروت. فعندما خرج من سيارته في شارع فردان في وقت متأخر من بعد الظهر لحضور حفل استقبال أقامته عائلة الغلاييني على شرفه، أطلق رجل مختبئ خلف شجرة نخيل عليه ثلاث طلقات من مسافة قريبة. تقدّم رياض بشجاعة نحو المعتدي محاولاً القبض عليه، لكنه هرب مطلقاً بضع طلقات إضافية. أصيب ثلاثة أطفال في الحادث بالإضافة إلى رجل كان يقف على مسافة قريبة. توفي اثنان من الأطفال في الطريق إلى المستشفى. اخترقت رصاصة كمّ سترة رياض من دون أن تجرحه، على الرغم من شعوره بألم حاد في مرفقه لاحقاً. أطلق الحارس الشخصي لرئيس الوزراء، عبد العزيز عرب، النار على ساقي المعتدي وأوقعه أرضاً. اتضح أن المهاجم يدعى توفيق حمدان، وهو درزي في الثالثة والعشرين من العمر، وعضو في الحزب القومي المنحلّ. كان حمدان قريب أحد أعضاء الحزب الذين أعدموا في تموز/يوليو، في أعقاب انقلابهم الفاشل. وربما قام

---

(1) انظر البند 2/62 وما يليه في الأوراق الخاصة للأمير فريد شهاب، المدير العام للأمن العام، في أرشيف الشرق الأوسط في كلية سانت أنتوني، أكسفورد.

بمحاولته بدافع الثأر العائلي. تظاهر رياض الصلح بالهدوء، وحضر الحفل بالإضافة إلى ارتباطاته الأخرى في تلك الليلة.

أثارت محاولة الاغتيال غضباً كبيراً في البلاد. سارعت المعارضة بأكملها، باستثناء الزعيم الدرزي كمال جنبلاط، إلى تهنئة رياض الصلح بالسلامة. كما جاءت حشود من مؤيّديه ووفود من جميع أنحاء البلد إلى منزله لتهنئته على النجاة. وفي 13 آذار/مارس، استُقبل بتصفيق حار في البرلمان، وألقى العديد من نواب الموالاة والمعارضة خطابات التهنئة. لكن كمال جنبلاط شذّ عن الإجماع. وأعلن قائلاً: "خلافاً لجميع أصدقاء الحكومة وأعدائها، لم أزر رياض الصلح و لم أهنّئه ولن أهنئه قبل أن أتأكد أنه لن يستغل الحادثة الفاشلة لتحقيق مآرب شخصية. أنا أشعر بالأسى على بناته فقط"[1]. أغضبت الملاحظة الأخيرة رياض الصلح وأفقدته رباطة جأشه، فردّ قائلاً: "تربّت بناتي على العزة والكرامة، وليس في أحضان المستعمرين!" وكانت تلك إشارة جارحة مقصودة إلى العلاقة التي أشيع أن والدة جنبلاط، الست نظيرة، أقامتها مع مفوّضٍ سامٍ فرنسي. خرج جنبلاط من مجلس النواب غاضباً وقال إنه لن يعود إليه إلا على رؤوس الحراب. وعندما عاد جنبلاط ليشغل مكانه اليوم التالي، تساءل رياض ساخراً "أين هي الحراب"[2]؟ على أي حال، حرص رياض على العفو عن الرجل الذي حاول قتله.

وبعد بضع سنوات، سُمح بإقامة نصب تذكاري لأنطون سعادة في العرزال في ضهور الشوير.

(1) William Houstoun-Boswall, Beirut, to Foreign Office, 20 March 1950 (FO 371/82268).

(2) مقابلة مع علياء الصلح، مونت كارلو، 4-5 تشرين الأول/أكتوبر 2004.

الفصل السادس والعشرون

جريمة في عمان

كان رياض الصلح القائد الأكثر نشاطاً، بين جميع القادة العرب، في محاولة كسب الدعم للعمل العسكري العربي المشترك خلال حرب فلسطين. لكن جهوده لم تكلّل بالنجاح. في البداية، اعتقد أنه لا يزال في الإمكان حماية المصالح العربية. لكنه لم يستطع التغلب على العداوة والشكوك العميقة التي تفرّق بين الدول العربية. نتيجة لذلك، تمكّنت إسرائيل من هزيمة العرب بسهولة، ما أحدث تململاً شعبياً في جميع أنحاء المنطقة. سقطت صدقيّة الملوك والرؤساء والباشاوات والبكوات والممثلين الآخرين للنظام الحاكم القديم، بينما ظهرت قوى ثورية من الطبقات الاجتماعية الدنيا. فتحت سوريا الطريق بسلسلة من الانقلابات العسكرية العنيفة التي أسقطت الوطنيين القدامى وتقاذفت البلاد مرات بين الهاشميين وأعدائهم. لم تكن الثورة تعتمل بين الجنود المعدمين من الريف فحسب، وإنما أيضاً بين معلّمي المدارس الدمشقيين مثل ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار مؤسسَي "حزب البعث". وفي مصر، ألهمت الهزيمة الساحقة جمال عبد الناصر والضباط الأحرار بإسقاط حكم الملك فاروق المتهاوي.

ساد الجزع في كل أنحاء المنطقة من عجز القادة العرب أو ضعفهم، والشعور بالمرارة العظيمة من الطريقة التي تسابقت بها الدول الكبرى للمساعدة في إنشاء الدولة اليهودية ثم الاعتراف بها. عندما اندلعت الحرب الكورية في سنة 1950، رفض الرأي العام العربي أن يفهم لماذا اعتبر مجلس الأمن الدولي العدوان الشيوعي تهديداً للسلم العالمي، ولم يعتبر العدوان الصهيوني على فلسطين كذلك. وثار غضب بالغ في لبنان عندما أسقطت مقاتلة إسرائيلية طائرة مدنية لبنانية في رحلة لها من القدس إلى بيروت، من دون أن تَصدر كلمة احتجاج واحدة من أي عاصمة غربية.

في هذا الوضع المضطرب، حاول رياض، رغم يأسه المتزايد، إنقاذ ما يمكن إنقاذه من حطام القوة والكرامة العربيتين. لم يكن لديه جيش خاص يزجّ به في المعركة، لكنه

حـــاول جاهداً، مستخدماً دبلوماسيته الشخصية، جمع العرب للقيام بهجوم أخير على الجبهة الفلسطينية، بغية استعادة قسم من الأرض التي انتُزعت بسرعة مذهلة.

الخيار العراقي

في آب/أغـــسطس 1948، زار ريـــاض الصلح عمّان لإجراء محادثات مع الملك عـــبد الله. كان يريد أن يعرف بالضبط لماذا جاء أداء "الفيلق العربـــي" ضعيفاً جداً - وهـــو الذي هُلّل له باعتباره أفضل الجيوش العربية وأقواها، وعُلّقت عليه آمال كبيرة. كـــان يعرف أن الأردن رفض تنفيذ خطة الهجوم التي وضعتها جامعة الدول العربية. هـــل أوقفهـــا الـــبريطانيون؟ هـــل تقع المسؤولية على غلوب باشا؟ لم يعمد "الفيلق العربــــي" إلى الاشـــتباك مـــع الهاغانـــاه إلا عندما تعرض للهجوم من قبل القوات الصهيونية في مدينة القدس وحولها. لم يكترث الأردن، في الواقع، بشأن ما يحصل على الجبهات الأخرى، وكان أداؤه ضعيفاً بشكل لا يمكن تبريره بالنسبة إلى رياض. ويبدو أن اهـــتمام عبد الله الوحيد كان محصوراً في الاستيلاء على ما يستطيع الاستيلاء عليه من فلسطين العربية لضمه إلى مملكته.

كـــان ريـــاض يشتبه بوجود اتصالات بين الحين والآخر بين عبد الله والصهاينة في الماضـــي، مثله مثل العديد من العرب الآخرين، بمن فيهم هو نفسه. لكن لم تكن لديه أي فكـــرة عن مقدار ابتعاد حاكم الأردن عن أي نوع من الإجماع العربـــي، وتخلّيه عن أي إحـــساس بالولاء لإخوانه العرب في سبيل طموحاته الشخصية. لم يكن رياض يعرف أن عبد الله والصهاينة كانوا على اتصال وثيق منذ سنة 1921، وأنهم توصلوا إلى اتفاق سرّي لتقـــسيم فلـــسطين بينهما، وأن عبد الله قد استفاد على مرّ السنين من معونات صهيونية كبيرة. ويلاحظ أي قارئ لكتاب آفي شلايم الموثّق عن علاقات عبد الله وغيره من العرب البارزين مع الصهاينة، مقدار تكرّر عبارة "تبادل الأموال"[1].

كانـــت خطـــة رياض الصلح، في الذهاب إلى عمّان، تقضي بإقناع الملك بدمج "الفـــيلق العربـــي" مع الجيش العراقي الذي لم يهُزم بعد، بحيث يتمكّنان من استئناف

---

(1) Shlaim, *The Politics of Partition*, pp. 424-5، لمزيد من المعلومات، انظر النسخة الطويلة لهذا العمل Shlaim, *Collusion Across the Jordan*.

القـــتال معــاً. كان يعتقد أن الأردن والعراق مجتمعين، ربما لا يزالان يستطيعان إنقاذ الموقـــف. وإذا لم يـــستطيعا هـــزيمة إسرائيل، فربما يتمكّنان من احتوائها على الأقل، واستعادة الأراضي التي فُقدت بعد هدنة حزيران/يونيو. ذلك هو المشروع الذي شغل تفكـــيره والاقتـــراح الذي قدّمه للملك. غير أن مهمته كانت محكومة بالفشل قبل أن تـــبدأ. لم يـــبدِ عـــبد الله أي ترحيب بمحاولته تعبئة العراق للتحرّك ضد إسرائيل - بالإضـــافة إلى جهوده الحثيثة لتعبئة أعضاء الجامعة العربية على القتال - كما لم تُرضِ أصـــدقاءه الإسرائيليين. فهي تشكّل خطراً مباشراً على هدفها المشترك تقسيم فلسطين بينهما.

بعد إجراء محادثات محبِطة مع الملك عبد الله في عمّان، أرسل رياض مذكرة حملها مـــندوب خـــاص إلى رئيس الوزراء العراقي مزاحم الباجه جي بعنوان "حاضر الدول العـــربية وشعوبها". كانت المذكرة تعبّر عن تقديره المتشائم للوضع[1]. ومن المفيد هنا نقل أجزاء مفصّلة منها لأنها تلقي الضوء على تفكير رياض خلال حرب فلسطين وما بعـــدها علـــى الفور. و لم يتأخّر الملك عبد الله والإسرائيليون في الحصول على نسخة منها.

مذكرة رياض الصلح

طلـــب إليّ جلالة الملك عبد الله أن أقابله في عمّان، وكرّر الطلب وأراد أن يكـــون هـــذا الاجتماع قبل العيد. فرأيت من واجبـــي أن ألبـــي رغبته، وذهـــبت إلى عمّان يوم الأربعاء في 4 آب/أغسطس [1948] واجتمعت إليه اجـــتماعاً طـــويلاً لم يحضره غير دولة توفيق أبو الهدى رئيس وزارة شرق الأردن. وكـــان خـــلال الاجتماع حكيماً كعادته موفور الكياسة واللياقة كعهـــده دائمـــاً. فدار الحديث أولاً حول تقصير الجامعة العربية نحو مملكة شرق الأردن وعدم برّها بوعدها بدفع ما كانت قررت دفعه لتجنيد جنود

(1) أعيد نشر هذه المذكرة في كتاب عبد الرحمن محمود الحص، **رياض الصلح**، بيروت 1951، ص 18-29. لم تنـــشر هذه المذكرة في ذلك الوقت، لكنها نشرت في سنة 1951 بعد اغتيال رياض. مزاحم الباجه جي هو رئيس وزراء العراق من حزيران/يونيو 1948 إلى كانون الثاني/يناير 1949.

يقاتلون إلى جانب الجيش الأردني ولابتياع أسلحة. وطلب إليّ بهذه المناسبة أن أسهل له إيصال أسلحة تعاقد مع بعضهم على ابتياعها.
وشكا جلالته شكاية مرة من استيلاء مصر على الذخيرة التي كانت واردة إليه على إحدى البواخر أثناء مرورها بالمياه المصرية. وقد أجبت جلالته قائلاً: إنني أحد الموقّعين على القرار المعهود بدفع المبلغ الذي عيّن له وأن تنفيذ ذلك القرار علّق على شرطين رئيسيين هما: أولاً، عدم دفع البريطانيين للإعانة المعلومة؛ ثانياً، متابعة القتال. وقلت: إن هذين الشرطين لم يتحققا، ومع ذلك فأنا على استعداد لمعاونة جلالته لدى الجامعة إذا ما تحققتُ أنه ينوي استئناف القتال.
وأضفت إلى ذلك قائلاً: إن الصراحة قد أصبحت ضرورية جداً، فإن سمعة الملك عبد الله قد تأثرت كثيراً عند وقف القتال. وذكرت له أن ممثلي شرق الأردن أبلغونا، قبل قرار مجلس الأمن وعند الاجتماع في عاليه، أن شرق الأردن لا يمكنه أن يرفض قرار هذا المجلس حتى ولو رفضته جميع دول الجامعة العربية.
ثم قلت له إن من الأفضل لجلالته، إن كان لا يمكنه استئناف القتال وإخراج الضباط الإنكليز من جيشه، أن يصارح البلاد العربية بذلك تمام المصارحة. ومصارحتها بذلك أكرم له، وأفضل بكثير وأحفظ للمصلحة من أن تبقى الحالة الحاضرة كما هي من الإبهام والغموض. وإن الدول العربية عند ذلك تقيم حسابها على أساس آخر فتخرج منه شرق الأردن. وإن شاءت أن تستأنف القتال استأنفته على هذا الأساس. أما إذا بقيت هذه الحالة وبقي هذا الإبهام وعُدنا إلى عدم المصارحة، فإن مسؤولية جلالته تكون أخطر كثيراً. وقد عدت فألححت كثيراً على جلالته أن يكون جوابه لي قاطعاً فاصلاً وأن لا يترك في ما يقوله لي احتمالاً لأي شك أو تأويل.
وقد أجابني بأن شرق الأردن لا يمكنه استئناف القتال إلا إذا أخرجت الأمة العربية جميع قواها وألقت ثقلها كله في الميدان، وأنه لا يمكنه إخراج القُواد الإنكليز من جيشه. وحجته في عدم استئناف القتال أن ذلك يحتاج إلى

أسلحة وذخيرة واستعداد كاف. وأما في عدم إخراج أولئك الضباط، فقد أورد لي عــدة حجــج: أولها أنه لم يلحظ عليهم أية خيانة، والثانية أنه لا يمكــنه تغــيير سرج فرسه أثناء المعركة، والثالثة أنه ليس بين ضباط جيشه العرب من لديه الكفاءة ليحل محل أولئك الضباط الإنكليز.

وهــناك حجة رابعة، لها مغزاها، أوردها جلالته وهي أنه حريص على أن يظل الروح العسكري سائداً في جيشه. فإن تبديل الضباط الإنكليز بضغط التذمر الذي أبدي ضدهم والنقد الذي وُجه إليهم يُفسد ذلك الروح. وهو لا يــريد أن يجعــل جيش شرق الأردن كجيش العراق يتدخل في الشؤون الــسياسية. وإذا انــتفض اليوم على ضباطه الإنكليز فإنه غداً ينتفض على الملك عبد الله نفسه...

وبعــد هذا سألت جلالته ألا يمكن تسليم جيشه برمته إلى الجيش العراقي، فيــتولى كل شؤونه كأنه جزء من جيش العراق؟ فأجاب جلالته بأن سمو الوصــي كان قد عرض عليه هذا العرض ولكنه لم يرَ تحقيق ذلك الاقتراح ممكــناً لأسباب عديدة. ولقد بلغني بعد أن غادرت شرق الأردن أنه يفكر في هذا الموضوع ولكنني أرى أن التطبيق العملي لهذا المشروع صعب المنال.

وبعــد، فلقد خرجت من تلك المقابلة، وبعدما سمعت من أحاديث جلالته، وأنــا مقتنع تمام الاقتناع أن شرق الأردن لا يمكن أن يستأنف القتال، وأن يــشترك مــع بقية الدول العربية إذا هي أقدمت على عمل مثل هذا. وإني إنــصافاً للحقيقة أقول إنني لم أشعر أن جلالة الملك عبد الله يقدم على هذه الخطــة وهو راغب فيها، ولكنه يتصرف تصرف الرجل المضطر الذي ليس في يده حيلة أكثر مما فيها. فإني لا أعتقد أنه من الطبيعي والمعقول أن الرجل الذي بلغ في خلال أسابيع من السمعة الطيبة في جميع البلاد العربية ما بلغه جلالته يهون عليه أن يخسر ذلك ويضيّعه عن رضى.

أمــا وهذا هو حال شرق الأردن، فعلى الحكومات العربية أن تضع سياسة جديدة على ضوء هذه الحقيقة وأن تعيد النظر في حساب قواها وفي تنظيم خططها... ثم إن أخشى ما أخشاه أن يستولي على الأمة العربية، إذا خذلها

حكامها بعدم استئناف القتال، ما استولى على أهل فلسطين أنفسهم من روح التخاذل والانهزام وعدم الثقة بالنفس، وهو شر ما يصيب الشعوب من ضروب الضعف والوهن...

وأما الحجة لاستئناف القتال فلن نعدمها، وهؤلاء هم اليهود يقدمون لنا كل يوم بخرقهم الهدنة حجة جديدة وسبباً مبرراً لاستئنافه، وإني لا أستبعد أن نفاجأ في يوم قريب بحدث يعرّض القدس للخطر والضياع. ألفت إليه نظركم منذ الآن.

إنه من البديهي أن أول ما علينا القيام به استعداداً لاستئناف القتال السريع هو سد الثغرة التي تحدث بانسحاب شرق الأردن من الميدان تحت الضغط السياسي الواقع عليه.

إن وقف القتال هذه المرة لم يكن كما تعلمون في الحقيقة خوفاً من مجلس الأمن وعقوباته، ولم يكن كذلك خوفاً من تسلّح اليهود، فهم يتسلحون سراً وعلناً قبل الهدنة وبعدها، وفي حالة الحظر أو رفعه، ولكن وقف القتال كان لأن حكومة شرق الأردن أعلنت قبيل قرار مجلس الأمن أنه لا يمكنها متابعة القتال لعدم وجود عتاد لديها (ولا أعتقد أن إعادة جميع العتاد الذي استولت عليه مصر إلى شرق الأردن يمكن أن تعيد شرق الأردن إلى القتال.)

وقد أعلنت القيادة العراقية عندئذ أن الجيش العراقي في حالة انسحاب الجيش الأردني ينسحب هو أيضاً من الميدان، دون ريب. ولما بلغ هذا الحكومة المصرية أثار قلقها الشديد فبادرت إلى إيفاد معالي عزام باشا لعمّان لعله يتدارك الأمر...

ولقد بلغني أن حكومة مصر كانت متأثرة بهذا الوضع عندما أعلنت قبولها لقرار مجلس الأمن، وإن جلالة ملك مصر تلقّى بتأثر شديد نبأ موقف شرق الأردن والمحضر الذي وُضع في عمان حول هذا الموضوع، ولم يكن يكفي يومئذ أن نقول عن ممثلي العراق وسوريا ولبنان إننا نرفض وقف القتال لنستمرّ فيه جميعاً بينما كان يكفي أن يعلن مندوب شرق الأردن أنه لن

يــرفض قرار مجلس الأمن لكي نضطر للتوقف جميعاً، ذلك أن وقف القتال يكون معلقاً على قرار دولة من الدول.

وكـــنت أتمـــنى لو لم يعلن هذا عندكم أن العراق رفض قرار مجلس الأمن وإن يكـــن مـــيالاً في أثناء المناقشات ميلاً صريحاً إلى عدم القبول، كما كان ميلي ومـــيل جميل بك مردم وعزام باشا. ولم يخف عليكم ما كان لهذا الإعلان من أثر غير مستحب في مصر إذ أظهرها بمظهر المنفردة في إرادة الكف عن القتال، وصوّرها بصورة المتوانية المتخاذلة دون سواها من شقيقاتها أعضاء الجامعة.

والحقيقة أنها لم تكن هي السبب في قبول قرار وقف القتال. وهذا فضلاً عن أن العبرة في القرارات نفسها لا في المناقشات التي تسبقها. وأما الأثر الذي تـــركته هذه الأمور في مصر فشديد عميق على ما عرف، وأنتم أدرى بما بذلـــته مصر سلماً وحرباً في سبيل فلسطين، وأنتم أعلم بإخلاصها وتجرّدها لمـــا بـــذلت، كمـــا أنكم تعلمون أهمية نصيبها في هذا الجهاد في الماضي والمستقبل وخطورة منـــزلتها في كل ما تباشره الجامعة من الشؤون العربية القومـــية المشتركة الشاملة، وما لجلالة مليكها من مكانة عظيمة وضعها في خدمة هذه الشؤون.

ولقـــد كـــان بإمكاني أن أتبع أثر العراق لأني لم أقبل وقف القتال إلا بعد غـــيري، ولكني أردت أن لا تبقى مصر منفردة في هذا المظهر الذي يخالف حقيقة الواقع المسطورة.

والآن بعـــد ما ذكر عن موقف شرق الأردن والوضع العسكري بفلسطين وحالـــة الأمـــة العربية، أعود فأقول مرة ثانية إنه لا مناص من القتال إن لم يكن إلا لاسترداد ما استولى عليه اليهود في مرحلة القتال الثانية، وإلا لمجابهة الموقف المقبل ونحن أكثر تضامناً وأكثر قوة في الواقع. وبعد أن أبدى العراق عرشـــاً وحكـــومة وشعباً من الحماسة البالغة، ومن التصميم على استمرار الجهاد في سبيل إنقاذ فلسطين ما يثلج صدر كل عربـــي.

لا بـــد من أن يكون للعراق خطة محكمة وتدابير تهيأ بدقة. ولأجل تحقيق هـــذا يهمنا أن نقف عليها ليدرك كل منا قسطه ونصيبه من المرحلة المقبلة

القريبة، كما وإنه لا بد من توحيد القيادة وقد زال السبب الذي كان يحول دون تحقيقها توحيداً صحيحاً كاملاً، بحيث توضع جميع الجيوش والأسلحة والأعتدة، فضلاً عن الخطط، تحت إمرة قائد واحد يتصرف فيها حسب ما ترتئي القيادة وحسب ما تقتضي غاية تأمين الظفر للعرب.

واسمحـــوا لي أن أقول لكم إن مفتاح القضية أصبح الآن في يد العراق، بعد أن كان في بدء القتال في يد شرق الأردن، وبعد أن انتقل منها إلى يد مصر عـــند قبولنا الهدنة الأولى في اجتماع اللجنة السياسية بعمّان. وإني أرى أن الخطوة الأولى هي مما ذكرته من تبادل الرأي والمعلومات بيننا وبين العراق وبعدئـــذ نخابـــر مصر، ثم نجتمع وتبحث، وأما قبل ذلك فلا أرى من داعٍ يستحق دعوة اللجنة السياسية للاجتماع.

وأمـــا الثغرة التي يتركها شرق الأردن بانسحابه، فأولى من يسدها العراق لأسباب عديدة. فأولاً بالنظر إلى الصلات الخاصة التي بين المملكتين يكون أيـــسر عليهما كلتيهما أن تأخذ الواحدة منهما عن الأخرى ما كان على عاتقهـــا وأن تحل محلها، وثانياً أن الوضع العسكري قد جعل طريق العراق إلى فلسطين شرق الأردن، وهو مركز تموينه ومواصلاته مع ميادين القتال.

على أنه من الضروري على كل حال، أن تبقى جيوش شرق الأردن مرابطة في مراكـــزها للدفاع مع خروجها من الميدان كقوة مهاجمة، وتلك هي نية الملـــك عـــبد الله. فإنه عندما كان يطلب أن يحصل على السلاح والعتاد، واعتُـــرض بأنه لا حاجة به إلى ذلك لأنه لن يستأنف القتال، أجاب بأنه لا بـــد لـــه مـــن الدفاع، فإن اليهود لا يبعد أن يتقدموا من إحدى الثغرات يفـــتحونها لاقتحام شرق الأردن. وكان دائماً هدفاً لهم يريدون الاستيلاء علـــيه. وثالثاً لن يكون العراق مطمئناً ليستأنف القتال إلا بتوليه سد الثغرة بنفـــسه، وبقـــوات تـــتألف تحـــت إشرافه وإشراف الجامعة من مناضلين فلـــسطينيين وأردنيـــين، خصوصاً كما سبق له أن فعل في جنين ويكون العـــراق قـــد حصل أيضاً على الاطمئنان التام، فضلاً عن أن جيشه أقدر الجـــيوش علـــى هـــذا العمـــل. على أنه يخيل إلي أن هذا الأمر يحتاج إلى

الاحتياطات الدقيقة حتى يتم بإحكام، كما إنه يجب أن يتم بروح من الألفة والمودة المطلقة، لأن وجود غير مقاتلين إلى جانب جنود مقاتلين أمر يحتاج إلى كثير من الدقة، وحكمتكم كفيلة بمثل هذا الأمر.

هذا ما رأيت أن أكتبه إليكم بعد مقابلتي لجلالة الملك عبد الله في الموضوع الذي يتوقف عليه لا مصير فلسطين فحسب، بل مصير العرب جميعاً، والذي هو بلا ريب شغلكم الشاغل، رأيت أن أضمنه رأيي الشخصي فيه وأخاطبكم فيه بتمام الكتمان. وقد كتبت إليكم ما كتبت وأنا سعيد بأن يكون على رأس الحكم في العراق رجل يقدّر هذه الشؤون حقّ قدرها ويوفيها حقّها من الاهتمام. كما إني سعيد بأنكم تسترشدون بالروح الوطنية العالية والحكمة الكاملة وصفات الإقدام والعزم التي تحلّى بها سمو الوصي المعظم والتي تجلت بأجلي مناظرها. وإني أنتظر ردكم السريع لتبادر كل حكومة إلى اتخاذ التدابير والخطوات المناسبة. وفقكم الله وألهمنا جميعاً بما فيه خير الأمة العربية وفلاحها. والسلام عليكم.

المشاكل على الجبهة الداخلية

ضاعفت المشاكل الخطيرة التي واجهها رياض في لبنان المخاوف التي تساوره بشأن فلسطين. فقد بدأت شراكته مع الرئيس بشارة الخوري، وهي شراكة استمرت أكثر من خمس سنوات، بالتداعي فور انتهاء حرب فلسطين. فتعكّر صفوها، بل أصبحت عدائية، ما أدى إلى فقدان رياض سيطرته على الآلية الحكومية، قبل أن يخسر منصبه في شباط/فبراير 1951.

بدأت شراكته مع الشيخ بشارة في سنة 1943، عندما وضعا معاً "الميثاق الوطني". وهو مجموعة مبادئ غير مكتوبة لتقاسم السلطة بين المسلمين والمسيحيين، ترمي إلى التأثير في سياسات لبنان الداخلية والعربية. انتُخب الشيخ بشارة رئيساً – متغلباً بسهولة على منافسه إميل إده المؤيّد للفرنسيين – فدعا على الفور رياض الصلح إلى تشكيل الحكومة. وقد خاضا معاً معركة الاستقلال ضدّ فرنسا التي بلغت ذروتها في أزمة تشرين الثاني/نوفمبر 1943. نجحت شراكتهما لأن رياض الصلح كان شريكاً

مـــسيطراً، تمكّن من رسم السياسة الداخلية والاستفادة من شهرته الكبيرة في الساحة العربــية. لكن الرئيس لم يستسغ أن يطغي عليه رئيس وزرائه، فتزايد استياؤه حتماً.

كان بشارة الخوري يدرك دائماً أن إبقاء رياض الصلح على رأس الحكومة طوال ولايــته التي تمتد ست سنوات أمر مثير للمشاكل. فلا بدّ في النهاية من تداول السلطة بــين الحين والآخر، لأن هنالك مرشحين سنّيين آخرين يطمحون إلى رئاسة الوزراء. وقــد قبل رياض ذلك، وإن على مضض. فهو يدرك تماماً أن رئيس الجمهورية يمتلك سلطة دستورية تتيح له تغيير رئيس وزرائه في أي وقت. غير أن ما أفسد علاقتهما هو شـــعور ريـــاض أن بشارة الخوري لم يُنصفه. فقد عمل رياض جاهداً لضمان تجديد ولاية الرئيس. بل إنه فقد الكثير من شعبيته في هذه العملية، وجلب على نفسه عداوة الزعماء الموارنة الآخرين الذين يطمحون إلى الرئاسة. لكن ما إن أيقن بشارة الخوري من تجديد ولايته ست سنوات أخرى، حتى سعى على الفور إلى إرضاء الطامحين السنّة الآخرين على حساب رياض.

أضف إلى ذلك، أن التوتّرات الحادة الناتجة عن حرب فلسطين بدأت في إضعاف مبادئ الميثاق الوطني وإعادة إحياء الولاءات الطائفية. كان المسلمون - وعلى رأسهم ريـــاض الصلح - يريدون أن يؤدي لبنان دوراً أقوى في مساندة فلسطين العربية. غير أن المـــسيحيين عارضوا نشر قوات بلدهم المتواضعة خارج حدودهم. وكان تحفّظهم مـــبرّراً، بطـــريقة مـــا، لأن الجيش اللبناني صغير الحجم يُستخدم للحفاظ على الأمن الداخلـــي بـــصورة رئيـــسية، ويفشل في ذلك في معظم الأحيان. لذلك شعر رياض الـــصلح، في جامعـــة الدول العربية والأوساط السياسية العربية العليا الأخرى، بمذلّة تـــرؤّس الوزراء في بلد منقسم على نفسه، وبخاصة بلد لم يؤدّ إلا دوراً صغيراً جداً في الحرب.

بـــدأت التغـــييرات تفعـــل فعلها على الساحة اللبنانية، وبخاصة داخل الكتلتين البرلمانيتين الكبيرتين - الكتلة الدستورية التي يرأسها بشارة الخوري والكتلة الوطنية التي يرأســـها إميل إده - وكلتاهما تسيطران على الحياة السياسية اللبنانية منذ مدة طويلة. وكانـــت هاتان الكتلتان تجمعان تقليدياً رجالاً من خلفيات دينية مختلفة، في تحالفات تكتيكـــية حول قائد معين. لكن ضغط الأحداث أدى إلى انقسام هاتين الكتلتين إلى

مجـــرد حزبين طائفيين. وعندما واجه رياض الصلح انبعاث الطائفية، بدا حلمه بإنشاء دولة موحدة يدين لها كل المواطنين بالولاء - بدلاً من تجمّع من الطوائف المتصارعة - بعيداً أكثر من أي وقت مضى.

في غـــضون ذلك، ازدادت حدّة الهجمات المريرة على أداء الحكومة، وقد شنّها العديـــد مـــن الـــسياسيين البارزين، لا سيما كميل شمعون الماروني وكمال جنبلاط الدرزي، اللذين انتقدا سوء إدارة الشؤون العامة والتأخّر في تطبيق الإصلاحات. وقد هاجمـــا بـــشدة الانتخابات غير القانونية و"المزوّرة" التي جرت في سنة 1947، وتمديد ولايـــة بـــشارة الخوري في رئاسة الجمهورية بصورة منافية للدستور. كما تصاعدت الانتقادات القاسية بشأن التسرّع في إعدام زعيم الحزب القومي، أنطون سعادة - وهو إعدام وصفه بعض معارضي الحكومة أنه اغتيال سياسي. ساهمت كل هذه الضغوط في حـــدوث جفاء بين رياض الصلح وبشارة الخوري، وتخاصم الرجلان بعد أن كانا من أوثق الأصدقاء.

الخلاف مع سليم الخوري

مـــن الأسباب الإضافية للخلاف بين الرجلين - ولعله من الأسباب الرئيسية - عـــدم رغـــبة بشارة الخوري في السيطرة على أخيه الأصغر سليم الخوري الذي كان يلقّـــب علـــى نطاق واسع "بالسلطان"، أو عجزه عن ذلك. وقد رأى رياض الصلح وكثير غيره أن تسامح الرئيس مع إساءات أخيه الكثيرة يوحي بأن الشيخ بشارة واقع تحـــت تأثيره. وأدّت خلافات رياض الصلح المتزايدة الحدّة مع سليم الخوري إلى التأثير في علاقته بالرئيس.

تعـــاظم نفوذ سليم الخوري السياسي والتجاري كثيراً، وأصبح تدخّله في شؤون الدولـــة واضـــحاً جداً، حتى إنه بدا في بعض الأحيان أقوى من الحكومة نفسها. فقد كـــان يديـــر مـــا يمكـــن تسميته عملياً، شبكة حماية مسؤولة عن معظم التجاوزات المستـــشرية. وكان كل يوم تقريباً يكشف عن أدلة فساد مثيرة في المناصب العليا. في ســـنة 1950، على سبيل المثال، اجتذبت حالتان اهتماماً خاصاً - حالتا باسيل طراد، المديـــر العـــام لوزارة الاقتصاد الوطني، ومحمد زوين، المدير العام لوزارة الزراعة. على

الـــرغم من أنهما موظفان مشهود لهما بالتميّز، فإنهما رفضا الحضور إلى مكتبيهما، بل قدّما استقالتيهما احتجاجاً على ضغوط سليم الخوري لتعيين موظفين في وزارتيهما من دون أن تكون لتلك التعيينات أي مبرّرات. شكا طراد من أنه فوجئ عند تعيينه مديراً عامـــاً بوجـــود سبعين موظفاً على الأقل في وزارته من دون عمل على الإطلاق، ولا يأتـــون إلى الوزارة إلا لقبض رواتبهم. لكنه لم يستطع طردهم، لأنهم يتمتعون بحماية عليا. وآثر زوين الابتعاد عن وزارته للأسباب نفسها.

أظهـــرت هذه الحالات أعراض الاضطراب والقلق المتفشية بين كبار الموظفين في الخدمـــة المدنية. فقد انتشر الموظفون الذين يحميهم سليم الخوري في كل مكان - في إدارات الحكـــومة، ومجلس النواب، والحكومة نفسها. ومما زاد الطين بلّة وجود عدد كبير من "المحميين" الذين يشغلون مناصب تكتيكية في قوى الأمن. ومنهم قائد الشرطة نفسه ناصر بك رعد.

وقعت حادثة في حزيران/يونيو 1950 تورّط فيها ناصر رعد، وكادت تتحول إلى معـــركة مكـــشوفة - بل اشتباك مسلّح - بين مؤيّدي رياض الصلح ومؤيّدي سليم الخـــوري. بـــدأت المشكلة عندما استدعى رياض الصلح، بصفته وزيراً للداخلية (إلى جانـــب رئاسة الوزراء) قائد الشرطة ناصر رعد للاستفسار عن سبب استجوابه سعيد فـــريحة، رئيس تحرير مجلة **الصياد** الشهير (وصديق مقرّب إلى رياض) بشأن مقال نُشر في 1 حزيـــران/يونـــيو 1950. لم يرضَ رياض الصلح عن إجابة ناصر رعد، وأبلغه أن علـــيه قبل الإقدام على استجواب صحافي - وهي مهمة يقوم بها عادة قاضٍ في محكمة المطـــبوعات - أن يستشير وزير الداخلية. إذا وضعنا الصداقة جانباً، فإن رياض كان يسعى إلى حماية الصحف من فرط الرقابة، حتى الصحف المناوئة له.

وتعـــبيراً عن الاستياء، طلب رياض من قائد الشرطة أن يأخذ إجازة لمدة شهر. وأصدر مرسوماً بتعيين عزت بك خورشيد، مدير المراسم في وزارة الخارجية في ذلك الـــوقت (كان مسؤولاً سابقاً في الشرطة)، قائداً للشرطة بالوكالة في أثناء غياب رعد. استـــشاط ســـليم الخوري غضباً من "معاقبة" محميّه، وهدّد بإنـــزال مناصريه الموارنة للتظاهـــر ضـــدّ رئيس الوزراء. ردّ رياض الصلح بالتهديد بإنـــزال أنصاره السنّة إلى الـــشارع. وخـــوفاً من حدوث مجابهة بين الطرفين، تدخّل رئيس الجمهورية ونجح في

إقـــناع أخيه بالتراجع عن المواجهة. وقد قدمت أعداد كبيرة من مؤيدي سليم الخوري مـــن الجـــبال وتجمعوا خارج منـــزله في فرن الشباك، إحدى ضواحي بيروت. لكن مؤيدي رياض لم يظهروا لتحديهم، فتفرقوا من دون وقوع أي حادث.

غـــير أن الأزمـــة لم تنته عند هذا الحدّ. فقد طالب سليم الخوري بإعادة محميّه، ناصـــر رعد، إلى منصبه على الفور. بل إنه ألح على أخيه بإقالة رياض الصلح وتعيين رئيس وزراء آخر. وحاول مراراً إحداث أزمة وزارية بالضغط على الوزراء للاستقالة، وغـــضب عـــندما رفض وزيران رئيسيان - فيليب تقلا والأمير مجيد أرسلان - القيام بـــذلك. وضـــعت الكـــراهية المريرة المتبادلة بين رياض الصلح وسليم الخوري رئيس الجمهـــورية في موقف صعب. لم يكن راغباً في حدوث قطيعة كاملة مع رياض، ولا يـــريد الإســـاءة إلى أخيه صاحب النفوذ القوي. فهو بحاجة إلى دعمه في الانتخابات المقبلة، وبخاصة في جبل لبنان، حيث يحظى سليم بنفوذ كبير[1].

حـــدث تطوّر آخر في هذه القضية. فقد حرص رياض الصلح، قبل أن يسمح لناصر رعـــد باستئناف مهامه، على إصدار مرسوم يحتوي على مادة تنصّ على وضع الشرطة في المـــستقبل تحت المسؤولية المباشرة لرئيس الوزراء، لا وزير الداخلية. أحدث ذلك المزيد من الـــصخب لأن أنيس صالح، المدير العام لوزارة الداخلية، أحد "رجال" سليم الخوري، في حين أن ناظم عكاري، المدير العام لمكتب رئيس الوزراء، يتبع رياض الصلح.

عـــندما لم يحضر ناصر رعد إلى مكتبه، اتصل به رئيس الجمهورية وأمره بالعودة إلى مـــزاولة عمله على الفور، خوفاً من أن يقيله رياض الصلح إذا لم يفعل. فردّ ناصر رعـــد بفظاظـــة أن ســـليم الخوري غير مستعد لقبول المرسوم الجديد. فأصدر بشارة مرسوماً آخر يلغي المرسوم السابق، ولكنه يمدّد إجازة رعد شهراً آخر.

في مواجهة هذا المأزق، قرّر الخصمان تجاوز المشكلة وتجميد صراعهما الذي طال أمده. استأنف ناصر رعد مهامه في 2 أيلول/سبتمبر، لكنه حرص على إنـــزال عقوبة شـــديدة بسعيد فريحة. حُكم عليه بالسجن ثلاثة أشهر وغرّم 200 ليرة لبنانية. ومنعت مجلته من الصدور ستة أشهر. وحُكم على كاتب المقال بالسجن لمدة شهر واحد وغُرّم 100 ليرة لبنانية.

(1) Beirut Political Summaries, June and July 1950 (FO 371/82266).

لم يكـن الحكـم بحد ذاته مهمّاً، بقدر تأثير هذه الحادثة البائسة على تضامن الفريق الحـاكم، وعلى العلاقات بين الأشخاص المعنيين. ما من شكّ في أن هذه الحادثة لم تعزّز سمعـة الـنظام أمام الشعب، الذي تابع الموضوع باشمئزاز. تراجعت مكانة رياض الصلح بسبب هذه الفضيحة الصغيرة، بل طالبت بعض الصحف باستقالته من منصبه(1).

القطيعة مع سوريا

لم تكن المجابهة مع سليم الخوري أكبر مشاكل رياض الصلح. فقد انـزعج جداً مـن الانقلابات العسكرية التي أطاحت بأصدقائه الوطنيين القدامى في دمشق. واعتقد أن الانقلابـات هـي ثمرة مؤامرات تحاك لإجبار العرب على الخضوع لإسرائيل. و لم يشعر بالاطمئنان عندما أصبح خالد العظم رئيساً للوزراء في 27 كانون الأول/ديسمبر 1949، بعـدما انقلب العقيد أديب الشيشكلي على سامي الحناوي. كان رياض يكره خالـد العظم وعائلته (التي كاد أن يصاهرها ذات يوم) التي تبادله الكراهية. لم ينضمّ العظم إلى الكتلة الوطنية أو يشارك في النضال ضد الفرنسيين. بل كانت علاقته جيدة معهـم، حتى إنه شغل منصب رئيس الوزراء في سنة 1941 تحت حكم فيشي. وكان غنياً جداً ومتعلماً، لكنه شخصية رديئة، إذا قيس بمقياس الوطنية.

كـان ريـاض الصلح يحب أن يقول إن الله هو الذي صنع العلاقات بين سوريا ولبـنان، وإنهـا باقية في قلوب أبناء البلدين. لكن يبدو أن ذلك لم يحُلْ دون حدوث تدهـور حادّ في العلاقات الاقتصادية بينهما. أراد التجار السوريون أن تفرض حكومة العظـم سياسـة حمائية على لبنان، أو تقطع العلاقات الاقتصادية معه تماماً، إذا فشل ذلـك. وكان للبنانيين شكاويهم أيضاً. وللضغط على لبنان، كانت سوريا تهدد دائماً بوقف تصدير الحبوب إليه، بينما تبيعها إلى تركيا والمملكة العربية السعودية. وللتحرّر مـن الاعتماد على بيروت، دعت سوريا عدّة شركات أجنبية للتقدم بعطاءات لتطوير ميناء اللاذقية الواقع على البحر المتوسط. ووضع خالد العظم بنفسه حجر الأساس لبناء الميـناء في 14 شباط/فبراير 1950. كما عمدت سوريا إلى تطوير شبكة السكة الحديد ونظام الري، ووضعت على العموم حواجز أمام استيراد البضائع من لبنان.

(1) Beirut political Summary, September 1950 (FO 371/82266).

في أواخـــر شـــباط/فبرايـــر، ترأس العظم اجتماعاً لرجال الأعمال والصناعيين الـــسوريين وبعـــد يومين من المداولات، أوصوا أن تقيم سوريا وحدة نقدية وجمركية واقتـــصادية كاملـــة مع لبنان، أو أن تفرض الانفصال التامّ والفوري عنه. وصل إنذار ســـوري إلى جانب هذه التوصية إلى بيروت بعد أيام قليلة. ومُنح لبنان مهلة حتى 20 آذار/مـــارس للرد. تألّم رياض الصلح من سياسة "ليّ الذراع" - وهو ما لم يعهده البتة مـــن شكري القوتلي الذي تميّز بالتهذيب والدبلوماسية - وهاجمتها الصحف اللبنانية. مـــع ذلـــك، ردت الحكومة اللبنانية بتعقّل على الإنذار السوري في 10 آذار/مارس، وأوضحت أن مبدأ الوحدة الاقتصادية الكاملة ليس مقبولاً، بالنظر إلى تعارض مصالح البلدين. لكنها أملت في حلّ الخلافات العالقة بطريقة ودية.

في 13 آذار/مـــارس، ألغـــى العظم المتعجرف الوحدة الجمركية بين البلدين من طـــرف واحد، متجاهلاً تماماً الموقف اللبناني المرن. جاءت هذه الخطوة القاسية بمثابة مفاجئة كريهة للشعب اللبناني والمسؤولين في الإدارة اللبنانية على حدٍّ سواء. وقد بذل الأخـــيرون مـــا يـــستطيعون للحفاظ على رزانتهم، وتجنّب أي تدابير يمكن أن تفاقم الخـــلاف. لكـــن نتج عن الخطوة السورية المتصلّبة مضاعفات أخرى. أقيمت مراكز للشرطة والجمارك السورية على الحدود ومُنع السوريون من زيارة لبنان من دون إذن خـــاص. ونُشرت كتيبة مشاة سورية على طريق دمشق بيروت، وأخرى على الحدود شمـــال طـــرابلس. توقّفت حركة البضائع بين البلدين، واضطر لبنان إلى إنشاء إدارة خاصة به للجمارك على عجل[1].

وســـط هـــذه الأزمـــة، كان على رياض الصلح التوجّه إلى مصر للاشتراك في اجـــتماع للجـــنة الـــسياسية لجامعة الدول العربية. وفي حفل شاي دعت إليه الجالية اللبنانـــية في القاهـــرة على شرفه، سئل عن الخلاف مع سوريا، فأجاب: "أرفض أن أصـــف خلافاً أنه انهيار، وأتمنى أن يزول قريباً. فمصالح البلدين تقتضي ذلك... علينا إصـــلاح الأمـــور. السوريون يمرون بأوقات عصيبة. وعلينا أن نهب لمساعدتهم لأنهم

(1) للاطلاع على رواية مفصلة عن الخلاف، انظر Chaitani, *Post-Colonial Syria and Lebanon*, pp. 145-158؛ أيـــضاً British Legation, Beirut, to Foreign Office, Lebanon Political Summary, March 1950 (FO 371/82266).

إخوانـــنا في الأوقات الحلوة والمرة"[1]. لكنه لم ينكر كرهه الشديد للأنظمة العسكرية الـــتي تـــسيطر الآن على دمشق، ولخالد العظم المتواطئ معها. في 13 أيار/مايو، أبلغ رياض دبلوماسياً فرنسياً في القاهرة أن سوريا ستسير نحو الفوضى، إذا لم يعد الرئيس القوّتلي إلى الحكم قريباً، ما سيلحق ضرراً بالغاً بالعالم العربـــي[2].

في تـــشرين الأول/أكتوبـــر، قام رياض الصلح بزيارة شكري القوتلي، صديقه ورفـــيقه الـــوطني، في المنفى في القاهرة. وكان رياض قد توجّه إلى هناك برفقة زوجته لإدخـــال اثنتين من كريماته، علياء ومنى، في مدرسة البنات الإنكليزية في الإسكندرية. وعـــند عودته إلى بيروت، وجد أن الصحافة السورية تتهمه أنه يتآمر في القاهرة لقلب الـــنظام السوري. كرّر أكرم الحوراني هذه المزاعم في البرلمان السوري، وشنّ هجوماً شخـــصياً مريراً على رياض الصلح[3]. تلك كانت بعض مشاكل رياض الصلح عندما اضـــطربت المنطقة بأكملها بظهور إثباتات على علاقات الملك عبد الله الودية الصريحة مع إسرائيل.

"دبلوماسية" الملك عبد الله

بلغ غضب رياض الصلح من سلوك الملك عبد الله ذروته عندما نشرت وثائق في الصحافة المصرية، في آذار/مارس 1950، تكشف تعاون عبد الله سراً مع إسرائيل، حتى خـــلال أكثر الفترات حرجاً في الحرب. كان مصدر الوثائق المقدّم عبد الله التلّ، وهو ضابط في الفيلق العربـــي بقيادة غلوب باشا، فرّ من الأردن في شهر كانون الثاني/يناير الـــسابق ولجـــأ إلى مـــصر. كان التلّ قومياً عربياً ذا آراء قوية، شعر بالامتعاض من دبلوماســـية عبد الله السرية والتنازلات المفرطة التي قدّمها إلى إسرائيل، وقرار غلوب باشا منع الفيلق العربـــي من الاشتباك مع القوات الصهيونية.

(1) MAE-Nantes Fonds Beyrouth (Amb.), série 1994A, carton 20, M. Charles Lucet, Chargé d'affaires, à M Robert Schuman, Ministre des Affaires Etrangères, le Caire, 4 Avril 1950).

(2) MAE-Nantes Fonds Beyrouth (Amb.), série 1994A, carton 20, M. Maurice Couve de Murville, Ambassadeur de France en Egypte, à Son Excellence M. Robert Schuman, Ministre des Affaires Etrangères, le Caire, 16 Mai 1950.

(3) Lebanon Political Summary, October 1950 (FO 371/82266).

تميّز عبد الله التلّ في حرب فلسطين في ثلاث مناسبات على الأقل. في 4 أيار/مايو 1948، شنّ هجوماً على مستعمرة كفار عصيون الصهيونية، لكن غلوب أمره بالعودة إلى قاعدته. لجأ التلّ إلى الحيلة لإجبار غلوب على تغيير أوامره. فقد أمر أحد مساعديه سراً أن يفتعل اشتباكاً مع كفار عصيون ثم يطلب المساعدة من غلوب بذريعة غير صحيحة عن وقوع وحدة تابعة للفيلق العربي في كمين صهيوني. وكما توقّع التلّ، أمر غلوب بإرسال تعزيزات سريعة لإنقاذ الوحدة تلك. وفي 12 أيار/مايو، قاد التلّ شخصياً القوة التي سحقت المستعمرة، وأوقعت بها إصابات كثيرة، وساق 350 أسيراً إلى عمّان[1].

المناسبة الثانية حدثت في 12 آب/أغسطس، عندما نسف التلّ، بالاشتراك مع ضباط وطنيين آخرين، محطة ضخ قرب اللطرون تزوّد اليهود في القدس بالماء. وكان الهدف تخريب التعاون المتزايد الذي اشتبهوا بوجوده بين تل أبيب وعمّان. وكانت المناسبة الثالثة في تشرين الأول/أكتوبر، عندما شن التلّ هجوماً على القوات الإسرائيلية في منطقة القدس لمساعدة القوات المصرية. كان هدفه إجبار الإسرائيليين على نقل جزء من قواقم من النقب - حيث اخترقوا الجبهة المصرية - إلى القدس. لكن الملك عبد الله لم يكن راغباً في مساعدة المصريين ولا في استفزاز الإسرائيليين. وكان يعارض تماماً مبادرات التلّ الشخصية والوطنية، على الرغم من أنه لم يجرؤ على الاعتراف بذلك.

في أعقاب ذلك، اتخذ الملك عبد الله قراراً مفاجئاً يعهد فيه إلى التلّ بمهمة التفاوض مع إسرائيل للتوصل إلى وقف إطلاق النار في القدس، ربما في محاولة لإسكاته. كان الهدف الحقيقي للملك التوصل إلى تسوية بعيدة الأثر على الأراضي مع إسرائيل، مع أنه لم يستطع أيضاً الاعتراف بذلك أمام ممثّله[2]. في 30 تشرين الثاني/نوفمبر، وقّع التلّ ونظيره الإسرائيلي، المقدّم موشي دايان، اتفاقاً رسمياً "لوقف كامل وصادق لإطلاق النار" يشمل منطقة القدس بأكملها[3].

(1) Shlaim, *The Politics of Partition*, p. 168.

(2) المصدر نفسه، ص 253-62.

(3) المصدر نفسه، ص 254.

في 13 كانـــون الثاني/يناير 1949، افتتحت محادثات الهدنة بين إسرائيل ومصر في جزيـــرة رودس، فمنحت الملك عبد الله الزخم لتحقيق مقاصده الحقيقية في إقامة سلام مـــع إسرائيل. دعا موشي دايان وإلياس ساسون إلى قصره الشتوي في الشونة، حيث نقل إليهما رغبته الصادقة في إجراء محادثات سلام. وأعلن أن لا شأن له بجامعة الدول العـــربية، وأنـــه مصمّم على العمل بمفرده، وأن مصير فلسطين يجب أن يكون مسألة للمباحـــثات الثنائية بين إسرائيل وشرق الأردن[1]. وفي اجتماع آخر في الشونة، بعد أسابيع قليلة، أشار والتر إيتان، وهو دبلوماسي إسرائيلي مشارك أيضاً، إلى أن عبد الله التلّ "احتفظ بموقفه المرتاب طوال المداولات، على الرغم من أنه ساعد بفاعلية في إبرام الاتفـــاق. بدا خائب الأمل تماماً - من العرب، والبريطانيين وكل شيء - وكان يتحدث عـــن الملك، حتى بحضوره، بطريقة لا يمكن وصفها إلا أنها تنمّ عن الاحتقار"[2]. في ذلك الاجـــتماع، في 23 آذار/مارس، وافق الملك عبد الله، تحت الضغط الإسرائيلي، على تسليم شريط من الأرض في وسط فلسطين بعمق 5 كيلومترات وطول 60 كيلومتراً، ما فصل سكان طولكرم وقلقيلية عن أراضيهم وطرد 15,000 فلسطيني من ديارهم.

يـــبدو أن هـــذه الجريمة كانت نقطة التحوّل النفسية الحاسمة التي دفعت التلّ إلى الفـــرار[3]. وقد جاء قراره في ظلّ تنامي الغضب الشعبـــي من سياسة الملك المسايرة لإسرائيل. وفي وقت لاحق، وصف عبد الله التلّ الغضب المعتمل في نفوس الفلسطينيين وهم يشاهدون زوال وطنهم أمام أعينهم، فيما يقدّمه الحكام العرب، قطعة بعد قطعة، للذئاب.

قبيل فرار التلّ، وربما أملاً في تأمين ولائه، عيّنه الملك في اللجنة الخاصة المنبثقة عن اتفاقـــية الهدنـــة مـــع إسرائيل. قدّم دايان تقريراً إلى بن غوريون ذكر فيه إن الضابط الأردني يشعر بمرارة شديدة الآن. فقد أبلغه أن اليهود وحدهم هم الذين استفادوا من الاتفاقـــيات الـــتي أبرمت حتى الآن[4]. وعندما فرّ عبد الله التلّ إلى مصر، قُضي على احتمالات التوصّل إلى أي اتفاق في اللجنة الخاصة.

(1) المصدر نفسه، ص 271، 279.
(2) المصدر نفسه، ص 300.
(3) المصدر نفسه، ص 310-11.
(4) المصدر نفسه، ص 336.

علــى الرغم من التماسات الملك وتنازلاته المفجعة، لم يبدِ بن غوريون استعداداً للاعتـــراف بضم عبد الله الجزء العربـــي من فلسطين، أو تقديم أدنى تنازل له في سبيل الــسلام. بـــل إنــــه لم يكن مقتنعاً قط أن السلام في مصلحة إسرائيل. وفي ضوء قوة إســـرائيل وضـــعف العرب، ساورت بن غوريون فكرة الاستيلاء على صحراء سيناء بأكملـــها حـــتى قناة السويس، والضفة الغربية حتى نهر الأردن. ورأى أن السلام مع الأردن قد يعوق هذا التوسّع المغري.

بعد الفشل في استدراج الإسرائيليين إلى اتفاق سلام كامل، اقترح الملك عبد الله، في شباط/فبراير 1950، فكرة اتفاق عدم اعتداء لمدة خمس سنوات مع الدولة اليهودية الجديدة. لكن الإسرائيليين سرّبوا الخطة، ما زاد من ارتباكه. في 1 آذار/مارس، نشرت صحيفة "نيويورك تايمز" تقريراً على الصفحة الأولى يفيد أن الحكومة الإسرائيلية تنظر في اقتـــراح أردني لعقد مثل هذا الاتفاق. لكن المفاوضات انتهت من دون التوصّل إلى نتـــيجة، ولم تسفر جهود الملك عبد الله عن شيء يذكر. واضطر الملك، الذي أصيب بخيـــبة أمـــل كـــبيرة، إلى الاكـــتفاء بالوضـــع القائم بموجب اتفاقية الهدنة. وقدّم له الإسرائيليون مبلغ 10,000 جنيه إسترليني كجائزة ترضية[1].

هـــذا هو الوضع الذي كان قائماً عندما نشرت جريدة **أخبار اليوم** المصرية وثائق عبد الله التلّ التي تقدّم تفاصيل عن تعامل الملك مع إسرائيل. ومن بين هذه الوثائـــق مـــا قيل إنه النص الكامل لمعاهدة سلام مع إسرائيل سعى عبد الله إلى التوصل إليها. وظهرت ترجمة فرنسية لهذه الوثيقة في جريدة "لو سوار" *Le Soir* في بيروت. وفي مقـــابلات مـــع الصحافة المصرية، شنّ عبد الله التلّ هجوماً عنيفاً على الملك عـــبد الله وغلـــوب باشا. سخر من الملك باعتباره مجرد تابع لبريطانيا والصهاينة، وخائن للقضية العربية، ووصف غلوب أنه أداة للسيطرة الاستعمارية البريطانية على شرق الأردن. وقال إن غلوب تواطأ مع الصهاينة لمنع إقامة دولة فلسطينية، ودعا الـــتلّ جامعة الدول العربية إلى إرسال لجنة إلى عمّان للتحقيق في خيانة السلطات الأردنية والفيلق العربي[2].

(1) المصدر نفسه، ص 392.

(2) المصدر نفسه، ص 150، 386.

شــاركت كــل الصحف اللبنانية الصادرة بالعربية تقريباً في حملة مريرة على الملك. وقدّمت تغطية واسعة لبيان العقيد عبد الله التلّ الذي يدعو إلى تنحّي الملك عبد الله لصالح ابــنه، وإلغــاء المعاهدة البريطانية الأردنية وإنهاء المساعدة المالية البريطانية، وتعديل الدستور الأردني، ووضــع إدارة الــبلاد في يد العناصر "الليبرالية"[1]. ونقلت العديد من الصحف اللبنانية قول جريدة المصري القاهرية: "اقطعوا هذا العضو الفاسد من جسم الأمة العربية".

تــوجّه ريــاض الصلح إلى القاهرة في آذار/مارس 1950 لحضور اجتماع لمجلس الجامعــة العــربية. لم يكن غياب الأردن مفاجئاً في ضوء الضجة المثارة ضدّه. اقترح ريــاض الــصلح، بوصفه رئيساً للوفد اللبناني، إحالة تغيّب الأردن عن الاجتماع إلى اللجــنة السياسية للجامعة العربية. وبناء على ذلك، اجتمعت اللجنة - المؤلفة في تلك المناسبة من رؤساء الوفود - في 27 آذار/مارس واتخذت قراراً بالإجماع ينص على "أن مــسألة فلسطين تهمّ جميع الدول الممثلة في جامعة الدول العربية، وأن أي مفاوضات ســلام تجــريها أي دولــة عضو في الجامعة، بمعزل عن الدول الأخرى، انتهاك ميثاق الجامعة يترتّب عليه طرد الدولة المنتهكة من الجامعة"[2].

عبّــر ريــاض الصلح عن مشاعره تجاه الأردن في حفل أقامته على شرفه الجالية اللبنانية في القاهرة في 31 آذار/مارس:

> تجبرني الحقيقة على القول إن جامعة الدول العربية أصيبت بانتكاسة كبيرة: لم تــتمكّن من التغلّب على كل المصاعب التي تواجهها، وتحديداً ما يتعلق بفلــسطين. لكن يجب أن تستمرّ الجامعة، كمنظمة، لأنها ضرورية لجميع الدول العربية.
>
> على أن إحدى هذه الدول تجري مفاوضات مع عدوّنا المشترك. وقد قرأتم، كمــا قرأت، نص الاتفاقية التي ينتظر أن تبرم بين البلدين. إنكم تدركون الخطــر الــذي تــشكّله على الجامعة وعلى جميع الدول العربية: ولعلكم لاحظــتم أن إقامة تبادل تجاري بين البلدين وجعل حيفا ميناء حراً يأتي في مقدّمة الاتفاق.

---

(1) Beirut to Foreign Office, 23 March 1950 (FO 371/82708).
(2) British Middle East Office, Cairo, to Foreign Office, 28 March 1950 (FO 1018/71).

كلّنا على قناعة أن من مصلحتنا الاستمرار في حصار إسرائيل اقتصادياً.
لكن البضائع الصهيونية ستغرق أسواقنا للأسف، بسبب غلطة بلد عربي واحد[1].

أشار رياض الصلح أيضاً إلى محاولة اغتياله، بالإضافة إلى مسألة استقلال لبنان ووحدته، ووصفه أنه "بلد يعيش فيه المسيحيون والمسلمون في وفاق تام". بيد أن ذلك كان مجرّد تعلّل بالآمال، وليس وصفاً واقعياً لعلاقاته المضطربة مع الرئيس بشارة الخوري والطائفة المارونية على العموم.

زار رياض القاهرة ثانية في أيار/مايو، لحضور اجتماع للجنة السياسية للجامعة العربية. وقد فاجأ فيه الوفود الأخرى في الجلسة الافتتاحية بهجومه الشديد على الملك عبد الله. وأعلن أنه يجب طرد الأردن من الجامعة على الفور من دون أي مناقشة إضافية[2]. وهكذا، أصبحت عمان تعتبر رياض الصلح الآن عدواً للمملكة.

استقالة رياض الصلح من رئاسة الوزراء

كان من المتوقّع على نطاق واسع أن يستقيل رياض عند عودته من اجتماع جامعة الدول العربية في القاهرة. فالانتخابات اللبنانية ستُجرى في نيسان/أبريل، وقد أعلن الرئيس بشارة الخوري أنه يرغب في تعيين حكومة تكنوقراطية للإشراف عليها. ولا شك في أنه كان يفكر منذ شهور في التخلص من رياض الصلح، بعد أن تدهورت العلاقات بينهما. أما رياض، فإنه فقد كل احترام يكنّه للرئيس بسبب سلوك شقيقه "السلطان سليم"، وعدم قدرته على وقفه عند حدّه، أو عدم رغبته في ذلك. وكان رياض مستاء بصورة خاصة من تمكّن سليم الخوري من إحكام سيطرته على الأمن والإدارات الحكومية على حدّ سواء، ما أعطاه سلطة واسعة غير مفوّضة عن طريق الانتخاب.

---

(1) MAE-Nantes, Fonds Beyrouth (Amb.), série 1994A, carton 20, M. Charles Lucet, Chargé d'affaires, à M Robert Schuman, Ministre des Affaires Etrangères, le Caire, .4 Avril 1950

(2) MAE-Nantes Fonds Beyrouth (Amb.), série 1994A, carton 20, M. Maurice Couve de Murville, Ambassadeur de France en Egypte, à Son Excellence M. Robert .Schuman, Ministre des Affaires Etrangères, le Caire, 16 Mai 1950

ثمة عامل مهمّ آخر هو العلاقات بين لبنان وسوريا. ففي دمشق، كان الديكتاتور العسكري، العقيد أديب الشيشكلي، ينظر إلى رياض الصلح بارتياب، ويتهمه بالتآمر لإعادة شكري القوتلي إلى السلطة. ولإرضاء الشيشكلي، المعروف بعلاقاته الوثيقة مع الحزب السوري القومي، قرّر بشارة الخوري إزاحة رياض من منصبه بأسرع ما يمكن. كان الرئيس يتوجّس خيفة من الحزب القومي - الذي سُمح له بأن ينشط علناً في سوريا - ويخشى من أن يوجه سهامه نحوه. وفسّرت الدوائر السياسية اللبنانية هجمات رياض العلنية على بشارة الخوري في العديد من الصحف - ورفضه تلبية دعوة الرئيس لحضور مأدبة عيد الفطر التقليدية - بمثابة إعلان حرب.

كان عامل الصراع الطائفي كامناً تحت هذه الخلافات السياسية، وبدا أنه يمكن أن يتأجّج في أي لحظة، وبخاصة أن لبنان يواجه مشكلة كيفية التعامل مع تدفّق نحو 150,000 فلسطيني على أراضيه. وتفاقمت مشاكل الحكومة بحدوث ارتفاع حاد في أسعار الخبز والمواد الغذائية الأخرى، ما أثار غضب الشعب. في هذه الظروف التي يكتنفها القلق ويجيش فيها الاضطراب، أعلن بشارة الخوري عن اعتزامه تعيين حسين العويني على رأس حكومة "حيادية" من ثلاثة وزراء لإدارة الانتخابات القادمة. لم يكن لدى رياض من خيار سوى التنحّي، فاستقال في 13 شباط/فبراير 1951[1].

كان عبد الله اليافي، وسامي الصلح، وصائب سلام، وسعدي المنلا من المرشحين الذين يأملون في الحلول مكان رياض الصلح في رئاسة الوزراء بعد إجراء الانتخابات. توقّع العديدون أن يترك رياض الساحة للآخرين ليتسابقوا، ثم يندفع بأقصى سرعة للوصول قبلهم عند خط النهاية. لكن بالنظر إلى تردّي علاقته مع الرئيس، فقد آثر التريّث الآن، على أمل العودة إلى السلطة في وقت لاحق.

رحلة رياض الأخيرة

في أيار/مايو 1951، بعد مرور ثلاثة أشهر على استقالة رياض الصلح، زار الملك عبد الله بيروت، وأبدى رغبته في الاجتماع به. لكن رياض قرّر عدم الاجتماع به، لظهور دليل على تواطؤ الملك مع إسرائيل، وسلبية الفيلق العربي في حرب 1948.

(1) *Lebanon Political Summaries*, January and February 1951 (FO 1018/80).

ولتجنّب عبد الله، غادر رياض بيروت وتوجّه إلى قرية تمرة في جنوب لبنان. وبعد أسبوع أو اثنين، أرسل الملك إلى رياض رسالة تدعوه إلى عمّان. اعتذر رياض ثانية بحجّة وجود أمور ملحّة توجب بقاءه في بيروت.

توقّفت الأمور عند هذا الحدّ في نهاية حزيران/يونيو، لكن الملك نجح أخيراً في الاتصال هاتفياً برياض الصلح - متحدثاً بالتركية كي يتجنّب التنصّت من دون شك. جدّد دعوته بإلحاح كبير، وقال إنه بحاجة إلى التشاور مع رياض بشأن "مسألة في غاية الأهمية". كان هذا الرجاء هو الذي أقنع رياض المتردّد بالتوجّه جوّاً إلى عمّان يوم الجمعة 13 تموز/يوليو 1951. لا بد أنه كان يتمسّك ببصيص أمل في أن يكون عبد الله قد ندم وغيّر رأيه، ويرغب الآن في العودة إلى الصفّ العربي بطريقة أو بأخرى.

رافق رياض الصلح في هذه الرحلة طبيبه الخاص، الدكتور نسيب البربير؛ وحارسه الشخصي عبد العزيز العرب، وهو ضابط شرطة سابق؛ وصحافيان - محمد شقير، رئيس تحرير جريدة **النداء**، وبشارة مارون مالك ورئيس تحرير جريدة **الرواد**. لم يكن رياض يحب السفر جواً. وقد لاحظ محمد شقير أن رياض كان يتوتّر كلما تعرّضت الطائرة لاضطراب جوي، ويمنع الفريق المرافق له من مغادرة المقاعد. حل رياض ربطة عنقه، وخلع حذاءه، وبدا أنه يتنفس بصعوبة. وكان يتساءل باستمرار، "ما الذي يريده الملك عبد الله مني؟"[1].

حطّت طائرة رياض في قاعدة المفرق العسكرية الجوية قرب عمان، وكان في استقباله سمير الرفاعي، رئيس الوزراء الأردني، وسليمان النابلسي، وزير المالية، وفرحان شبيلات، سفير الأردن في لندن. ومن هناك توجّه بالسيارة إلى قصر بسمان، حيث كان الملك في انتظاره للترحيب به. ثم غادر إلى فندق فيلادلفيا، أفضل فنادق عمان في ذلك الوقت، ليعود لاحقاً إلى القصر للعشاء. انتهت المأدبة بصورة ودية، تبارى خلالها الملك ورياض بالشعر، على الطريقة العربية القديمة. وفي أعقاب العشاء اجتمعا على انفراد لمدة ساعة. بدا رياض مرتاحاً بعد الاجتماع، لكنه لم يذكر شيئاً عما دار فيه. وعُقدت ثلاثة اجتماعات إضافية بين صباح السبت ومساء الأحد.

---

(1) سليم اللوزي، "لماذا قتلوا الزعيم؟" **الحوادث**، العدد 837 (24 تشرين الثاني 1972).

في يوم السبت، تناول رياض طعام الغداء في السفارة اللبنانية، وحلّ في يوم الأحد ضـــيفاً على حفل استقبال دعت إليه السفارة السعودية. اتصل بزوجته هاتفياً في تلك اللـــيلة وقال لها: "سنجتمع غداً وستسمعين أموراً تسرّك. سأحمل أخباراً تملأ قلب كل عربـــي بالسرور والفخر". فهمت زوجته، التي لم تكن تريده أن يتوجّه إلى عمان، أن ذلك يعني أن الملك عبد الله وافق على قتال إسرائيل ثانية[1].

ذهب محمد شقير إلى غرفة رياض الصلح في فندق فيلادلفيا مساء الأحد، ووجده بلباس النوم. كان متشوقاً جداً إلى معرفة ما قاله الملك. قبل أن يجيبه رياض، استحلفه على المصحف ألا ينشر شيئاً مما يطلع عليه. قال له الملك:

ألححـــت عليك بالمجيء إلى عمان، على الرغم من أنني أعرف تماماً أنك لا تحبني، وأنـــك هاجمـــتني مـــرات عدة. سامحك الله! لكنني بحاجة إلى رجل مثلك للقيام بأمر يـــراودني. أنت الوحيد، من بين جميع الشخصيات العربية، من تمتلك خصائص القائد، لا في بلدك فحسب، وإنما في الخارج أيضاً. وأنت تحظى بثقة الجميع.

إنني أفكر في ما سيؤول إليه أمر الأردن بعد رحيلي. وأنت تعلم وضع ابني طلال [كان يتلقى العلاج بسبب مرض عقلي]، وتعلم أيضاً أن أخاه، نايفاً، لا يصلح لشيء. وحفـــيدي، الحسين، الذي أحبه، لا يزال صغيراً. إنني قلق من أن تسقط مملكتي ضحية لأطماع جيرانها.

لـــذا فكّـــرت في إقامـــة نوع من الاتحاد بين الأردن والعراق، يرأسه ابن أخي، عبد الإله، بعد وفاتي. وبهذه الطريقة أحمي عرش الأردن وأخطو خطوة نحو تحقيق حلم والدي. لقد اخترتك لإقناع العرب بهذا المشروع[2].

يوم الاثنين، 16 تموز/يوليو، تناول رياض الصلح ومرافقوه الغداء في نادي عمان بدعـــوة من صاحبه اللبناني الأصل، قبل أن يبدأ رحلة العودة إلى بيروت. كان السفير الفرنسي في الأردن، دومرغاي Dumargay، جالساً إلى جوار رياض. وقد أرسل إلى بـــاريس تقريـــراً ذكر فيه "أنه بدا منشغل البال طوال الغداء. وأبلغني أنه نادم لأنه لم

(1) مقابلة مع علياء الصلح، باريس، شباط/فبراير 2006.

(2) Eyewitness account of Muhammad Shuqayr (Choucair), Amman to Foreign Office,17 July 1951 (FO 371L91434).

يغــــادر عمان في الصباح بدلاً من قبول دعوة الغداء"[1]. بعد انتهاء المأدبة، قام رياض بزيارة أخيرة إلى القصر لوداع الملك، ثم عاد إلى فندق فيلادلفيا لاصطحاب رفاقه قبل التوجّه إلى المطار. كان يريد العودة إلى بيروت عن طريق البر، لكن الملك أصرّ على أن يذهب جواً، واستأجر طائرة خاصة لنقله.

غـــادر ريـــاض غرفته بعد ظهر ذلك اليوم ونــــزل إلى بهو الفندق، حيث كان الأردنـــيون ينتظـــرون لوداعه. فجأة، تقدّم رجل إلى الأمام ليصافحه. نـــزع رياض نظارتـــه الشمسية، وتراجع ماداً إليه يده. وبعدما ذهب الرجل سأل "هل تعرفونه"؟ لم يـــتمكّن أحـــد من تحديد هويته. انطلق الوفد بعد ذلك نحو المطار في سيارتين. جلس ريـــاض في المقعد الخلفي للسيارة الأولى وإلى جانبه الدكتور البربير. وجلس باقر بك، الـــضابط المـــساعد من القصر الملكي، على المقعد الأمامي إلى جانب السائق. لم يكن هناك أي مرافقة أخرى. واستقلّ الصحفيان، شقير ومارون، السيارة الثانية مع حارس رياض الشخصي عبد العزيز العرب.

عند الساعة 3:45 بعد الظهر تقريباً، مع بلوغ السيارتين تقاطع طرق قرب محطة الـــسكة الحديديـــة في عمـــان، انطلقت سيارة هدسون تسير بسرعة فائقة من طريق جانبـــي، فتجاوزت السيارة الثانية، واقتربت من السيارة الأولى. أثار ذلك على الفور شـــكوك عبد العزيز العرب. فأمر السائق باللحاق بها. لكن قبل أن يستطيع التدخّل، تمكّـــنت ســـيارة الهدسون من مجاراة السيارة الأولى على الطريق المفتوح. شاهد شقير ورفاقـــه يداً تحمل مسدساً وهي تمتدّ خارج نافذة الهدسون وتصوِّب نحو سيارة رياض الـــصلح. وسُـــمع دوي ســـت طلقات. توقّفت سيارة رياض، بينما ابتعدت سيارة الهدسون بسرعة كبيرة. قفز شقير ومارون من سيارتهما لرؤية رياض والدكتور البربير، بينما انطلق عبد العزيز العرب وباقر بك وراء سيارة الهدسون. لم تكن جراح الدكتور الـــبربير خطـــيرة، لكـــن رياض أصيب في قلبه. لا بد أنه استدار لمواجهة قاتله. نقل الـــرجلان علـــى عجل إلى المستشفى الإيطالي في عمان، لكن رياض فارق الحياة قبل وصولهما إلى هناك، ولم يكن يتجاوز السابعة والخمسين.

(1) MAE, Nantes, Fonds Beyrouth (Amb.), série 199A4, carton 20, M. J. Dumargay, Ministre de France en Jordanie, à Son Excellence Monsieur le Ministre des Affaires Etrangères, Amman, 17 July 1951.

في هــذه الأثناء، انضمّت سيارة شرطة قرب المطار إلى عبد العزيز العرب وباقر بــك في مطــاردة سيارة الهدسون. وعندما أوشكوا على اللحاق بها، قفز ثلاثة رجال مــنها وركضوا في اتجاهات مختلفة. وقع تبادل لإطلاق النار، فقُتل أحد المهاجمين على الفــور، وأطلق مهاجم آخر النار على نفسه. وتمكّن المهاجم الثالث، سائق الهدسون، مــن الفــرار - علــى الرغم من ورود تقاريرٍ غير مؤكدة لاحقاً تفيد أنه قُبض عليه. أصيب عبد العزيز العرب بجرح طفيف في ساقه برصاصة طائشة.

عمّمــت الشرطة في ما بعد أسماء المهاجمين الثلاثة وهم: ميشال غبريال الديك، مــسيحي لبــناني من طرابلس، وقد قُتل في أثناء تبادل إطلاق الرصاص، وهو الرجل الــذي صــافح ريــاض الــصلح في الفــندق ليُعرّف المتآمرين الآخرين إليه؛ ومحمد عبد اللطيف الصلاحي، مسلم من حيفا، وقد ألقي القبض عليه، ونقل إلى المستشفى، واســتُجوب، لكــنه تــوفي بعد ذلك بقليل؛ وسائق السيارة، سبيرو وديع نقولا (أو إســبيريدون) وهــو مــسيحي أردني مــن أصول لبنانية، وقد ظل طليقاً وفقاً لجميع الروايات. كان الثلاثة، أعضاء في الحزب السوري القومي الاجتماعي.

وفقاً لعضو سابق في الحزب القومي[1]، فإن الأمر باغتيال رياض الصلح جاء مباشرة من جورج عبد المسيح، وهو من أتباع أنطون سعادة المتعصبين، وقد تعهّد بالانتقام له عند تولّيه رئاسة الحزب على إثر إعدامه. ويُعتقد على نطاق واسع أن القــتلة ما كانوا ليُقدموا على فعلتهم من دون أوامر شخصية منه. وقد سعى كبار أعــضاء الحزب في ما بعد لكبح عبد المسيح، وأبلغوه أن الحزب لا يستطيع تحمل مزيد من الجرائم. لكن ذلك - إذا استطردنا في الرواية - لم يردع عبد المسيح من إصــدار الأوامــر باغتيال العقيد عدنان المالكي في سنة 1955. كان المالكي من الضباط البعثيين البارزين في الجيش السوري، وقد قتله رقيب في الشرطة العسكرية السورية ينتمي إلى الحزب القومي[2]. في ذلك الوقت، كان حزب البعث، المدعوم مــن الــشيوعيين، يخوض صراعاً مريراً على السلطة مع الحزب السوري القومي.

(1) مقابلــة هاتفــية أجراها المؤلف مع محمد بعلبكي، نقيب الصحافة اللبنانية، وعضو سابق في الحزب السوري القومي، بيروت 13 كانون الثاني/يناير 2009.

(2) للاطلاع على تفاصيل عن قضية المالكي، انظر Seale, *The Struggle for Syria*, pp. 283-246.

ويقال إن الحزب القومي كان يحظى بدعم سرّي من القوى الغربية، ومن الولايات المتحدة على وجه التحديد. في أعقاب اغتيال المالكي، حُظر الحزب السوري القومي، وألقي القبض على عدد كبير من أعضائه، وطُرد المتعاطفون معه من الجيش السوري والوظائف الحكومية المدنية. اتُّهم الحزب القومي بالتآمر مع قوة خارجية للإطاحة بالحكومة. ولإنقاذ ما يمكن إنقاذه، قام الحزب بطرد جورج عبد المسيح للاشتباه بأنه عميل بريطاني.

هاجس علياء الصلح

أمضت ابنتان من بنات رياض الصلح الخمس، علياء ومنى، سنة 1950 – 1951 في مدرسة البنات الإنكليزية في الإسكندرية، حيث اشتركتا في السكن مع سلمى مردم، ابنة السياسي السوري البارز جميل مردم. كانت علياء تحب والدها كثيراً وتقدّر بطولته، لذا شُغفت بدراسة اللغة الإنكليزية كي تصبح سكرتيرته. وفي نهاية السنة الدراسية، سافرت منى إلى لبنان، فيما بقيت علياء في الإسكندرية لأداء امتحان الشهادة الثانوية (المتركيوليشن).

بعد محاولة اغتيال رياض الصلح في آذار/مارس 1950 – وذيوع خبر تعهّد الحزب السوري القومي باغتياله – لم يكن من المفاجئ أن تنتابها كوابيس، تتخيّل فيها أنه تعرّض لإطلاق النار. ليل 15 تموز/يوليو 1951، حلمت أنها رأت العنوان الرئيسي لجريدة **الأهرام** في صدر الصفحة الأولى: "مقتل رياض الصلح". فاستيقظت مذعورة، وفي الصباح اتصلت هاتفياً بروبير خلاط، القنصل اللبناني في الإسكندرية، ورجته أن يخرجها من المدرسة. فوبّخها قائلاً: "إنك تحاولين التهرب من الجلوس للامتحان بعد ظهر اليوم". لكنه قدم إلى المدرسة لطمأنتها. أخبرها أن أباها في زيارة رسمية إلى عمان.

بعد الغداء في اليوم التالي، ذهبت علياء إلى غرفتها واستغرقت في نوم عميق، لتستيقظ وهي تصرخ عند الساعة 3:45 بعد الظهر. كان هاجس وفاة والدها شديداً. مرة أخرى، استُدعي القنصل ثانية. فأخذها في نزهة بالسيارة ليخفّف عنها ويشجّعها، ثم أعادها إلى المدرسة، حيث عادت إلى فراشها ونامت.

في اليوم التالي، 17 تموز/يوليو، استيقظت عند الساعة السادسة صباحاً لأداء صلاة الفجر. وما كادت تفرش سجادة الصلاة حتى دخلت الآنسة بلوكسهام الغرفة بقامتها الطويلة.

صرخت علياء: "مات، أليس كذلك"؟

"ارتدي ثيابك فوراً، وانزلي إلى القاعة".

كان القنصل هناك وعيناه منتفختان. ألقت بنفسها بين ذراعيه. بكى الجميع. اغتيل رياض الصلح في الساعة 3.45 بعد ظهر 16 تموز/يوليو.

أُرسلت طائرة من بيروت لإعادة علياء إلى الوطن. كان مصطفى وعلي أمين، قطبا الصحافة المصرية، قد علما بالاغتيال في الليلة السابقة. فأرسلا صحافياً شاباً، محمد حسنين هيكل، لمرافقتها في الطائرة. حاول التقاط صورة لها، لكن الكاميرا انزلقت ووقعت على الأرض. جلست علياء إلى جانب القنصل، بينما جلس هيكل على المقعد على الطرف الآخر من ممرّ الطائرة. فتح هيكل جريدة **الأهرام**، فلمحت العنوان الرئيسي: "مقتل رياض الصلح في عمّان". كان العنوان نفسه بالضبط الذي رأته في كابوسها، ولكن بإضافة "في عمّان". وصلت إلى لبنان في الوقت نفسه الذي وصل إليه جثمان والدها.

من قتل رياض الصلح؟

سُجّي جثمان رياض طوال الليل في الديوان الملكي. وألقى الملك خطاباً طويلاً في تأبين الزعيم المتوفى. أرسلت الجثة بطائرة خاصة يرافقها الأمير نايف، ابن الملك عبد الله، إلى بيروت صباح يوم 17 تموز/يوليو، وعاد الأمير فوراً إلى عمان على متن الطائرة نفسها. وُشكلت لجنة أردنية خاصة للتحقيق في الجريمة، تتكوّن من المدعي العام والنائب العام وقائد الشرطة[1].

هكذا قضى أحد أبرز شخصيات العالم العربي. لم يكن رياض الصلح قائداً من قادة الحركة الوطنية العربية منذ أيامها الأولى، ومهندس استقلال لبنان فحسب، وإنما رجل دولة أيضاً يثير إعجاب الصديق والعدو على حدٍّ سواء واحترامه.

(1) Amman to Foreign Office, 18 July 1951 (FO 371/91434).

للـــوهلة الأولى، يـــبدو اغتـــياله كأنه قضية ثأر واضحة. تمكن الحزب السوري القومي من الثأر لزعيمه كما وعد. لكن ثمة جوانب عديدة غير عادية تثير الشكوك في وجـــود ما هو أكبر من ذلك. أبدى دومرغاي، السفير الفرنسي في عمان، دهشته من عـــدم قـــيام الشرطة بتقديم الحماية لرياض الصلح في طريقه إلى المطار. الملك عبد الله نفسه لا ينتقل إلى أي مكان من دون مرافقة سيارتين مصفحتين. كما أن سمير الرفاعي ســـافر جـــواً من عمان تحت حماية شديدة بعد ظهر اليوم نفسه، أو قبل ساعة واحدة تقـــريباً من موعد إقلاع طائرة رياض. لكن قوى الأمن المكلّفة بحمايته سُحبت عندما ســـلك رياض الصلح الطريق نفسه بعد فترة قصيرة. كما أن مقولة عدم وجود ما يبرّر تـــواجد الـــشرطة غير العادي لأن زيارة رياض شخصية، مقولة واهية لا تصمد أمام الحجـــة. فقد كان الملك يدرك تماماً أن حياة رياض في خطر، كما أنه في زيارة رسمية، على أي حال، لأنه جاء إلى عمان بدعوة من الملك.

ومـــن المعـــروف علـــى نطاق واسع في الأوساط الدبلوماسية - ولدى الشرطة الأردنـــية أيضاً - أن للحزب السوري القومي وجوداً راسخاً في الأردن في العديد من نواحـــي الحياة. وقد ذكر دومرغاي في تقرير أرسله إلى باريس أن الملك عبد الله كان يمـــنح اللجوء في الأردن بانتظام إلى معارضي الأنظمة العربية المجاورة - وبخاصة أعضاء الحـــزب الـــسوري القومي الذين يأمل في اجتذابهم إلى فلك الهاشميين. كما أن حلم أنطـــون سعادة بإقامة الأمة السورية الكبرى يشبه إلى حدٍّ كبير طموحات الملك نفسه في "سوريا الكبرى".

ويُعـــتقد، وفقاً لدومرغاي، أن أحد القتلة، عبد اللطيف الصلاحي، عضو في الشرطة السرية الأردنية وفي الحزب القومي أيضاً. وقد أكد ووكر M.T. Walker، السكرتير الأول والقنصل في السفارة البريطانية في عمّان، لوزارة الخارجية أن الصلاحي "رقيب في قـــسم المخابـــرات السياسية في قيادة الفيلق العربـــي". غير أنه أضاف أن "الفيلق العربـــي يحاول تفادي الإعلام في هذه النقطة"[1].

خلـــص السفير الفرنسي إلى أن السلطات الأردنية مذنبة بالإهمال الملحوظ، إن لم يكـــن بالسلوك الإجرامي الفعلي. ورأى أن هذه التهمة يجب أن توجّه إلى غلوب باشا

(1) Amman to Foreign Office, 17 July 1951 (FO 371/91434).

أيضاً لأن الشرطة الأردنية جزء من الفيلق العربي الذي يخضع لقيادته. وحتى لو لم يكن الملك عبد الله متآمراً في قتل رياض الصلح، فإن حكومته تعتبر مسؤولة بشكل مباشر.

لا شك في أن نظريات المؤامرة كثيرة. كانت علياء، ابنة رياض، تعتقد أن سمير الرفاعي، رئيس الوزراء الأردني، دبّر الاغتيال، وغادر عمّان جواً في اليوم نفسه كي يكون في الخارج وقت حدوث الجريمة. فهو بصفته مستشار الملك وكاتم أسراره، ضالع في تعاملات الملك عبد الله مع إسرائيل، ومعروف أنه يعارض بشدّة أفكار رياض الصلح القومية. وكانت علياء على قناعة أيضاً أن سائق سيارة والدها ضابط في الفيلق العربي، وقد طُلب منه إبطاء السيارة حتى تستطيع سيارة الهدسون الاقتراب منها وتصبح بمحاذاتها[1]. وهناك إشاعات واسعة الانتشار، وإن كانت غير مؤكدة، أن سبيرو وديع نقولا فرّ إلى معسكر للفيلق العربي، وقام البريطانيون بتهريبه منه إلى أميركا اللاتينية عبر إسرائيل. هذا ما يعتقده أحد أحفاد رياض الصلح، رياض الأسعد، وقد عبّر عن رأيه في برنامج بثّته قناة "الجزيرة" في 1 تموز/يوليو 2005. وذكر أن الحزب القومي هو الأداة التي اغتالت رياض الصلح، لكن للجريمة بعداً يتجاوز لبنان. وقال صراحة: "إنني أعتقد أن الدوائر المخابراتية البريطانية ساهمت في عملية الاغتيال".

على أي حال، ثمة ما يثير الريبة بوضوح بشأن إلحاح عبد الله المتكرر على رياض للقدوم إلى عمان، فضلاً عن محاولته طلب مساعدته في إقامة وحدة أردنية عراقية. كان الملك يعرف أن رياض الصلح يتوق إلى توحيد الجيشين العراقي والأردني لتمكين العرب من استئناف القتال ضد إسرائيل في 1948-1949. لذا ربما فكّر، أن رياض ستستهويه فكرة المبادرة إلى العمل على الوحدة العراقية الأردنية. لكن اقتراح عبد الله كان زائفاً تماماً. فالوحدة بين الأردن والعراق كانت آخر ما يبغيه عبد الله في ذلك الوقت أو يسمح به أصدقاؤه الإسرائيليون.

كانت الوحدة مع العراق أحد مشاريع عبد الله فعلاً في أوائل الأربعينيات، لكن الأحداث تجاوزتها في سنة 1951. وبدلاً من الرغبة في جلب القوات العراقية إلى فلسطين، كان عبد الله والإسرائيليون يرغبون في إبعادها ما أمكن عن ميدان

(1) مقابلة مع علياء الصلح، باريس، شباط/فبراير 2005.

المعـــركة[1]. بل إن عبد الله، بتشجيع من إسرائيل، أقنع العراقيين بإخلاء الجيب الذي كانـــوا يـــسيطرون عليه في فلسطين والعودة إلى بلادهم[2]. وكانت إسرائيل تعارض بـــشدّة أي تدخل عراقي إضافي في الحرب[3]، وطالما اعتبر عبد الله الجيش العراقي قوة راديكالـــية خطيرة[4]. وقد وصف بن غوريون العراق أنه "أشد أعداء إسرائيل حقارة بين الشعوب العربية"[5]. وآخر ما يريده القائد الإسرائيلي إقامة صلة بين الأردن الوديع وعراق قوي يجهر بالتحدّي.

لم يكن عبد الله يسعى إلى الوحدة مع العراق في ذلك الوقت، فهو يعتبره عدوه، وعلى قدم المساواة مع مصر[6]. خلاصة القول، في حين كان رياض الصلح يريد إعادة العـــراق إلى المعركة، فإن إسرائيل والأردن كانا يريدان إبعاد كل القوات العربية؛ وفي حين كان رياض يريد استمرار المواجهة مع إسرائيل، فإن عبد الله كان يسعى بحماسة لوضـــع نهايـــة تامـــة لها. وكان يسعى قبل كل شيء لإبرام معاهدة سلام شاملة مع إســـرائيل، مـــن دون تدخّل أي دولة عربية أخرى، حتى يتمكّن من ضم ما تبقى من فلـــسطين العربية واستئناف "علاقته الخاصة" المربحة مع الصهاينة[7]. بل كان مستعداً لتحدّي العالم العربـــي بأكمله في هذا الصدد[8]. أما القوى الغربية، فإن جل همّها هو تثبـــيت اســـتقرار الوضع في الشرق الأوسط بعد الحرب. ومع استعار الحرب في شبه الجزيـــرة الكورية، كان شغلها حماية مصالحها في العالم العربـــي والعمل على احتواء الشيوعية.

تلـــك هي خلفية زيارة رياض الصلح إلى عمّان. من الواضح أن عبد الله لم يكن يـــرغب في مصادقته واكتساب ثقته، بل كان يكرهه ويخشاه. ولم يكن عبد الله يسعى إلى الحـــصول على مساعدته في إقامة اتحاد أردني عراقي، بل يرغب في التخلّص منه.

(1) Shlaim, *The Politics of Partition*, p. 280.
(2) المصدر نفسه، 314.
(3) المصدر نفسه، 352.
(4) المصدر نفسه، 289.
(5) المصدر نفسه، 376.
(6) المصدر نفسه، 364.
(7) المصدر نفسه، 331.
(8) المصدر نفسه، 416.

كـــان حاقـــداً علـــى رياض لأنه أدانه بالخيانة علناً وطالب بطرد الأردن من الجامعة العـــربية، ويخاف منه لأن دعوته إلى استمرار مقاطعة إسرائيل، والاستعداد لاستئناف الحرب، يمكن أن تخرّب مفاوضات عبد الله السرية مع إسرائيل.

لـــذا، توحـــي الأدلـــة بأن الدعوة التي وجّهها عبد الله إلى رياض الصلح لزيارة الأردن لم تكـــن ســـوى شَرَك. وإذا لم يتآمر عبد الله فعلياً لاغتيال رياض، فلا بدّ من اعتباره شريكاً فيها لأنه سمح بارتكابها في بلده. ربما نفّذ أعضاء الحزب القومي الجريمة، لكـــن عـــبد الله - وغلوب باشا من دون ريب - هما اللذان وفرا الوسائل والفرصة لارتكابها.

في يـــوم الجمعـــة 20 تموز/يوليو 1951، بعد مرور أربعة أيام على اغتيال رياض الـــصلح، اغتـــيل الملـــك عبد الله نفسه عند مدخل المسجد الأقصى في مدينة القدس القديمـــة. كـــان قاتلـــه مصطفى شكري عشّو، وهو خيّاط شارك في الهجمات ضد البريطانيين والصهاينة في فلسطين خلال الثورة العربية في الثلاثينيات. وتبيّن في ما بعد أن عـــبد الله جاء للصلاة في القدس يوم الجمعة لأنه على موعد مع اجتماع سري آخر مـــع الإســـرائيليين في اليوم التالي. لقد ظلّ همه، حتى اللحظة الأخيرة - الحفاظ على علاقاته الحميمة مع إسرائيل[1].

قبل ذلك بشهرين، في 17 أيار/مايو، أبلغ السير أليك كيركبرايد - ممثّل بريطانيا في الأردن مـــنذ فترة طويلة، والرجل الذي يعرف البلد ومكائده أكثر من أي بريطاني آخـــر - وزارة الخارجية أن الحكومة العراقية تلقت معلومات "من مصدر موثوق" أن عـــبد الله التلّ في دمشق، وأنه يتآمر لاغتيال الملك عبد الله وغلوب باشا، فيما تغضّ المخابـــرات الـــسورية الطرف عنه. وأضاف كيركبرايد أن التل نفسه كان يخشى أن تغتاله السلطات الأردنية[2].

اتُّهم عشرة أشخاص بالتآمر لاغتيال الملك عبد الله. وفي رسالة طويلة إلى وزارة الخارجـــية يوم 24 أيلول/سبتمبر 1951 - كُتبت بعد محاكمتهم والنطق بالأحكام - خلص السفير كيركبرايد إلى أن "الرأي القائم على المعلومات يلقي المسؤولية عن فكرة

(1) المصدر نفسه، 417.

(2) Sir A. Kirkbride, Amman, to Foreign Office, 17 May 1950 (FO 371/82775).

الاغتيال والتخطيط لها على عبد الله التلّ. كما أن موسى الحسيني، ابن عم المفتي، ضالع في المؤامرة أيضاً، لكن المفتي، وفقاً لرأي كيركبرايد، "لا يمكن أن يوافق على مثل هذه المؤامرة الخرقاء، ولا استخدام ابن عمه الغبي إلى حدٍّ ما، وهو يكرهه ولا يثق فيه، عميلاً رئيسياً في تنفيذها"(1).

أحدث اغتيال الملك عبد الله اضطراباً في الأردن. فألهى ذلك السلطات عن الاهتمام في التحقيق في ظروف مقتل رياض الصلح. ويبدو أن التحريات الجدية التي أجريت قليلة جداً. ولم ينجلِ الغموض المريب الذي اكتنف مصير "الرجل الثالث" – سبيرو وديع نقولا، سائق سيارة الهدسون – أمام الرأي العام على الأقل. ولا يكشف تفحّص الأرشيف البريطاني سوى القليل عنه. تفيد رسالة عاجلة بتاريخ 18 كانون الأول/ديسمبر 1951 إلى البعثة البريطانية في بيروت من البعثة البريطانية في عمّان بما يلي:

> لإكمال الملف، ربما يهمّكم أن تعلموا أن سبيرو وديع نقولا، أحد الرجال الثلاثة الذين اغتالوا رياض بك الصلح في تموز/يوليو الماضي (كان سائق السيارة الذي هرب) حوكم في عمان غيابياً يوم 17 تشرين الثاني/نوفمبر. أنشئت محكمة خاصة بموجب القانون رقم 88 لسنة 1951 (وهي أيضاً أساس سلطة المحكمة التي أصدرت الأحكام على قتلة الملك عبد الله).
> وُجد سبيرو وديع نقولا مذنباً وصدر الحكم بإعدامه بموجب المادة 1/322 من القانون الجنائي الأردني رقم 8 الصادر سنة 1951 (اختلف الحكم هذا عن الأحكام التي صدرت على قتلة الملك عبد الله حيث إن الجريمة وقعت في فلسطين وتخضع للقانون الجنائي الفلسطيني الصادر في سنة 1936 بموجب المادتين 23/214 و24)(2).

في 31 كانون الأول/ديسمبر، أُتبعت هذه الرسالة العاجلة بمذكرة داخلية صادرة عن وزارة الخارجية كتبت بخط اليد ولم تتجاوز عدة أسطر، وقد كتبها إيان هنتر Ian Hunter، وجاء فيها:

(1) Sir A. Kirkbride to Mr. Younger, 24 September 1951 (FO 371/91839).
(2) Amman to Foreign Office, 18 December 1951 (FO 371/91434).

الـــرجاء مراجعة الملف رقم EL 1016/53 بشأن المحاكمة التي جرت في 17 تـــشرين الثاني/نوفمبر التي حكم بموجبها على آخر قتلة رياض الصلح. لو كـــان لممثلينا أي نفوذ لكان يجب أن تُحل المحكمة الآن. إذا وجهنا سؤالاً إلى الحكـــومة الأردنـــية بشأنها ثانية، فقد تشعر بالإساءة، لكن إذا أهملناها فـــربما نـــبدو غـــير جادين منذ البداية. من الأفضل استشارة السير وُوكر [السكرتير الأول للسفارة في عمان] أولاً[1].

يبدو أن الملف EL 1016/53 قد أزيل من الأرشيف كما أزيلت حقاً عدة وثائق تـــتعلق بالقـــضية. على أي حال، لم يستطع المؤلف ومساعده إيجادها. لكن يمكننا أن نستنتج من هذه الرسائل، أن سبيرو وديع نقولا، "آخر قَتَلة رياض الصلح"، تمكّن من الهـــرب - ولا يعـــرف إذا حدث ذلك بتواطؤ بريطاني أم لا. ولا يمكن تفسير سبب اهتمام البريطانيين بحلّ المحكمة التي حاكمته غيابياً بسرعة[2].

لقـــد قرّرت السلطات البريطانية، في ذلك الوقت، والآن، حجب كل المعلومات التي لديها عن القضية. ولا يزال ضلوعها المحتمل، أو المعلومات التي لديها بشأن هرب ســـبيرو وديـــع نقـــولا، أو الظروف الأخرى المحيطة باغتيال رياض الصلح، سراً من الأسرار المحفوظة بعناية.

صلة إسرائيلية محتملة

هـــل كان لإسرائيل يد في اغتيال رياض الصلح؟ لا يمكن استبعاد هذا الاحتمال، لا سيما أن إسرائيل خططت لقتله قبل ثمانية عشر شهراً في شتاء 1949. كانت وزارة

(1) Internal Foreign Office memo by Ian (?) Hunter, 31 December 1951 (FO 371/91839).

(2) قـــوبلت الطلـــبات المتكررة التي قدمها المؤلف إلى وزارة الخارجية والكومنولث، بموجب قانون حرية المعلـــومات، لتحرير الوثائق المتعلقة باغتيال رياض الصلح، برفض قاطع. وكتب السيد ميشال كير، من مجموعة إدارة المعلومات، إلى المؤلف في 11 نيسان/أبريل 2008 يخبره أن الوثائق التي طلبها تخضع للمادة 23 مـــن قانـــون حرية المعلومات. وأوضح أن "هذا الاستثناء يشمل المعلومات التي وفرتها هيئات تُعنى بالمـــسائل الأمنية أو تتعلّق بها، وتنطبق على جميع السجلات بغض النظر عن تاريخها. إن المادة 23 توفر اســـتثناءً مطلقـــاً وبالتالي فإنها لا تخضع للمصلحة العامة". وأضاف السيد كير، "إنني أقرّ بأهمية كتابك القادم، وقد أخذت بالحسبان مرور الوقت منذ أحداث 1951. لكن بعد مراجعة هذه القضية بالتحديد واستشارة المعنيين، فإننا نتمسّك بقرارنا بالاحتفاظ بالمعلومات ذات الصلة بموجب المادة 23 من القانون".

الخارجــية الإسرائيلية، برئاسة موشي شاريت في ذلك الوقت، تريد التخلّص منه. فقد اعتــبرته أكثر الزعماء العرب "تطرفاً وخطورة"، لأنه لعب دوراً بارزاً في دفع جامعة الدول العربية للتدخّل في فلسطين، ودافع عن القضية العربــية في الأمم المتحدة. وبناء على ذلك، أرسلت الأوامر إلى العميل الإسرائيلي السرّي في بيروت، ياكوف كوهين، بتنفيذ الاغتيال عن طريق تفجير سيارة رياض الصلح عند توجّهه من البيت إلى مجلس الــنواب. وقد كُشف عن هذه المؤامرة في كتاب يوسف أرغامن Yosef Argaman، *Milchemet Ha' Tzlalim: 25 parshiot modi'in uvitachon be-israel* (حــرب الظــل: 25 قضية استخباراتية وأمنية في إسرائيل) الصادر عن وزارة الدفاع الإسرائيلية بالعبرية في سنة 2007.

كان ياكوف كوهين، الرجل الذي اختير للقيام بالمهمة، عضواً في خلية إسرائيلية مــن الــناطقين بالعــربية في بيروت. وُلد في القدس من أبوين إيرانيين، وكان عميلاً إســرائيلياً سرياً مخضرماً، عمل سراً لصالح إسرائيل في العديد من البلاد العربية، بما في ذلــك ســوريا ولبنان ومصر. وكان معروفاً على نطاق واسع في دوائر الاستخبارات الإســرائيلية بلقــب ياكــوبا. وقد تمكّن أرغامن من معرفة تفاصيل العملية في مقابلة أجراها معه قبل وفاته في سنة 2003.

أبلغ كوهين أرغامن، أنه بعد أن درس تحركات رياض، لاحظ أن حمايته ضعيفة جــداً. كــان يــرافق سيارته درّاجان في بعض الأحيان، بينما يجلس حارسان معه في الــسيارة في أحــيان أخرى. ويستغرق انتقال رياض من البيت إلى مجلس النواب سبع دقائــق. ولا تتــيح هذه الفترة القصيرة المجال الكافي لزرع المتفجرات اللازمة لنسف ســيارة رياض وتفجيرها. اقترح رؤساء كوهين في تل أبيب أن تقوم الخلية بحشو جثة كلب ميت بالمتفجرات وإلقائها في طريق سيارة رياض. مع ذلك، كيف يجهّزون جثة الكلب ويضعونها في المكان الملائم لتفجيرها في هذا الوقت القليل المتاح؟ كانت الآلية الــتي لديهم مصنوعة في بريطانيا في الحرب، وهي تتطلب فترة زمنية أطول تتراوح بين عشر دقائق وخمس عشرة دقيقة.

نفــد صــبر المسؤولين عن كوهين في تل أبيب. فغيّروا الخطة، وطلبوا منه تحديد مكــان مناســب تــستطيع أن تُسقط فيه طائرة خفيفة، تحلّق على ارتفاع منخفض،

الأجهــزة الــتي تحتاج إليها الخلية. كان مطار بيروت قيد الإنشاء في ذلك الوقت في مــنطقة خلدة، عند مشارف المدينة. وفي أثناء النهار يجري تمهيد المدارج، لكن المكان يصبح مقفراً في الليل. أعدّت الخلية الترتيبات اللازمة لإرشاد الطائرة بواسطة الأنوار، وانتظرت وصول إشارة من إسرائيل.

غــير أن تــل أبــيب تأخّرت في إرسال التعليمات لسبب ما. لذا قرّر كوهين التــصرّف مــن تلقاء نفسه، لأن الأمر الأساسي الذي تلقاه بقتل رياض مؤكّد، ولا يحــتاج إلى "توكيد إضافي". كانت خطته تقضي بتعبئة حقيبة بالمتفجرات، وانتظار أن تبطــئ سيارة رياض من سرعتها عند أحد تقاطعات الطرق، ثم القفز نحوها وإلصاق الحقيــبة بها، وتفجير العبوة، والتواري خلال الثواني القليلة التي تسبق الانفجار. لكن عــندما أبلــغ أعــضاء الخلية إسرائيل بالخطة، صدرت أوامر صارمة بإلغاء العملية، واعتُبرت شديدة التهوّر.

إزاء هــذه الخلفــية، من المعقول الاعتقاد أن إسرائيل - التي خشيت من جهود ريــاض الصلح لحشد العرب بعد هزيمتهم - ربما قرّرت في سنة 1951 القيام بمحاولة أخــرى للتخلص منه. لكن بدلاً من المخاطرة باستخدام عميل إسرائيلي مستتر، كان أعــضاء الحــزب القومــي، بقيادة جورج عبد المسيح، جاهزين للقيام بالمهمة- ربما بالــتواطؤ مــع الملــك عــبد الله وغلــوب باشا أيضاً. ربما تفسر مثل هذه المؤامرة المشبوهة رفض مجموعة إدارة المعلومات البريطانية التابعة لوزارة الخارجية والكومنولث، على أسس "أمنية"، الإفراج عن الوثائق المتعلقة بالقضية. وربما تكشفت عند فتحها في النهاية حقيقة من كان متورطاً في عملية القتل[1].

ما بعد اغتيال رياض الصلح

انتــشر خــبر مقــتل رياض الصلح في بيروت قبيل الساعة الثامنة من مساء 16 تمــوز/يوليو، عندما بثّته إذاعة بيروت. خرجت الحشود في حي البسطة الذي يقيم فيه

(1) Yosef Argaman, *Milchemet Ha' Tzlalim: 25 parshiot modi'in uvitachon be-israel*, Tel Aviv 2007, pp. 209- 214. أنظــر أيــضا البرقية التي أُرسلت من حيفا عن الموضوع نفسه بقلم فراس خطيب في جريدة **الأخبار** في بيروت في 12 شباط/فبراير 2008.

علـــى الفـــور تعبيراً عن الحزن والغضب. وجابت مجموعات من المتظاهرين الشوارع، وأخذت تقلب السيارات، وتحطّم نوافذها. اكتفت الشرطة بالمراقبة، إلى أن استدعيت السيارات المصفّحة للقيام بدوريات في الشوارع[1].

دُفن رياض الصلح في اليوم التالي. وبينما كانت الجنازة تشقّ طريقها إلى المسجد، اصـــطفت حشود هائلة، يقارب عددها نصف مليون نسمة - لم تشهد البلد مثيلاً لها من قبل، وفقاً لما ذكرته الصحافة - على الطرقات والنوافذ والشرفات وأسطح الأبنية تحـــية للـــرجل الـــذي ارتبط اسمه، أكثر من أي رجل آخر، باستقلال لبنان. أعلنت الـــسلطات الحداد الرسمي الوطني لمدة ثلاثة أيام. ونشرت جميع الصحف كلمات رثاء تشيد برياض الصلح، بل إن أكثر أعدائه خصومة أشادوا بشخصيته القوية، وخصائصه العظـــيمة كرجل دولة، وبالدور الرائع الذي لعبه لا في لبنان فحسب، وإنما في المشرق بأكمله.

كـــان رد الفعل في أوساط الرئيس بشارة الخوري مكبوتاً. وقد لاحظ أرماند دو شيلا، الوزير الفرنسي المفوّض:

يمكـــن الافتراض أن الشيخ بشارة الخوري يشعر بشيء من الارتياح للتخلّص من رجـــل تخاصـــم معه عندما كان رئيساً للوزراء، ويمكن أن يشكّل خطراً أكبر كزعيم للمعارضة. ولا شك في أن رد الفعل الثاني هو الخوف. فاغتيال رياض الصلح يثبت أن الحـــزب القومـــي لم يـــتخلّ عن سلاحه، وأنه مصمم على الانتقام لزعيمه، أنطون سعادة - الذي يعتبر حسني الزعيم ورياض الصلح و... بشارة الخوري مسؤولين عن مقتله[2].

في دمـــشق، وقـــف أعـــضاء مجلس النواب السوري، في جلسته المنعقدة في 17 تمـــوز/يولـــيو، دقـــيقة صمت حداداً على رياض الصلح. لكن نائب الحزب السوري القومـــي، عصام المحايري، وأكرم الحوراني، زعيم الحزب الاشتراكي العربـــي - كان

(1) Amman to Foreign Office, 18 December 1951; Chapman Andrews, Beirut, to Foreign Office, 16 July 1951 (FO 371/91434).

(2) MAE-Nantes MAE-Nantes Fonds Beyrouth (Amb.), série 199A4, carton 20, M. Armand de Chayla, Ministre de France au Liban, à Son Excellence M. Robert Schuman, 18 Juillet 1951.

عضواً في الحزب القومي سابقاً ولا يزال متعاطفاً معه - خرجا من القاعة[1]. بعد بضعة أيام على الجنازة، زار الوزير البريطاني المفوّض في بيروت، تشابمان أندروز Chapman Andrews، بشارة الخوري في منزله. أبلغه الرئيس أن اغتيال رياض الصلح والملك عبد الله يدلان على حالة التوتّر الخطيرة وعدم الاستقرار في الشرق الأوسط. وأضاف أن أسس الاستقرار نفسها قد اهتزت[2].

جرى إحياء الذكرى الأولى لاغتيال رياض الصلح في بيروت في 16 تموز/يوليو 1952 عند ضريحه في ضاحية الأوزاعي، عند مدخل بيروت الجنوبي. ووضعت الزهور على قبره. احتشد أكثر من 10,000 شخص بعد الظهر في الملعب البلدي للاستماع إلى أكثر من عشرة خطباء أشادوا بعبقرية رياض السياسية وعروبته المتّقدة، بما تتميّز به العربية من فصاحة وفخامة. أقفلت المتاجر وأوقف السائقون سياراتهم لمدة عشر دقائق في جميع أنحاء البلد. ربما كان بشارة الخوري يفضّل التقليل من أهمية المناسبة، لكنه لم يجرؤ على الإفصاح عن آرائهم من دون أن الإساءة إلى المسلمين في لبنان.

أرسلت عدة بلدان عربية ممثّلين عنها، لكن لم يأتِ أحد من الأردن، ما يشير إلى دلالات بلا ريب. جاء أكثر من عشرين شخصية من الكتلة الوطنية في سوريا - لكن لم يمثّل أحد نظام أديب الشيشكلي. ومن العراق، ترأس صديق رياض الصلح القديم، نوري السعيد، وفداً يضمّ أكثر من عشر شخصيات بمن فيهم جميل المدفعي، رئيس مجلس الشيوخ. وكان أبرز المصريين الحاضرين محمد صلاح الدين باشا، وزير الخارجية في الحكومة الوفدية. وقد شنّ في خطابه هجوماً شديداً على الوجود الأجنبي في البلاد العربية، ما أثار حماسة الحاضرين وهتافاتهم. ساد شعور، في أثناء إلقاء كلمته، أن مصر، التي كانت تناضل في ذلك الوقت لإجلاء القوات البريطانية عن أراضيها، أخذت تقترب من المحور القومي العربي. وقد نبّه السفير البريطاني في بيروت منظمي المهرجان اللبنانيين إلى عدم السماح بالتهجّم على بريطانيا، لكن لم يكن هناك من يستطيع إسكات صلاح الدين باشا، أو يرغب في ذلك. من المغرب، الذي كان لا

(1) British Legation, Damascus, to Foreign Office, 23 July 1951 (FO 371/91434).
(2) Chapman Andrews, Beirut, to Foreign Office, 23 July 1951 (FO 371/91434).

يـــزال تحـــت الـــسيطرة الفرنسية، جاء صديق رياض، علال الفاسي، رئيس حزب الاستقلال، فألقى قصيدة امتدح صفات رياض العديدة، وتلا إعلاناً عاطفياً عن الإيمان بالـــوحدة العـــربية. وقد آثر السفير الفرنسي الابتعاد عن الحفل للتعبير عن استيائه من حـــضور الفاسي. ربما أصبح الاستعمار الأوروبـــي في وضع دفاعي في ذلك الوقت، لكنه لا يزال بعيداً عن الهزيمة التامة[1].

الإطاحة ببشارة الخوري

لم يـــتمكّن بـــشارة الخوري من إكمال ولايته الرئاسية الثانية. في حزيران/يونيو 1952، أنـــشأ تسعة نوّاب بزعامة كمال جنبلاط، رئيس الحزب التقدمي الاشتراكي، حركة معارضة أطلقت على نفسها اسم الجبهة الوطنية الاشتراكية. وقد ضمت حزب الوطنـــيين الأحـــرار بزعامة كميل شمعون، وإميل إده رئيس الكتلة الوطنية، وحزب الهنشاق الأرمني، والحزب السوري القومي. وحظيت الجبهة أيضاً بدعم إميل البستاني، وهـــو ملـــيونير عصامي، ورجال أعمال بارزين آخرين. أعلنت الجبهة الجديدة حرباً مفتوحة على النظام وهاجمت إساءاته – وبخاصة تلك المتعلقة بأبناء الرئيس وشقيقيه – ودعت إلى القضاء على المحسوبية والفساد، وإنهاء الطائفية، وإدخال إصلاحات جذرية علـــى طـــريقة حكـــم لبنان. حاول بشارة الخوري سحق الثورة بإسكات الصحافة المعارضـــة. أوقـــف صدور 12 صحيفة وحوكم رؤساء تحريرها لأنهم هاجموا رئيس الدولة، لكن من دون جدوى.

في 17 أيار/مايو 1952، دعت الجبهة الوطنية الاشتراكية إلى مهرجان شعبـــي في ديـــر القمر، بلدة كميل شمعون، حضره 50,000 مواطن. وهدد الخطباء، الواحد تلو الآخـــر، بالتمـــرّد علـــى الحكومة إذا لم يستقل الرئيس. وفي 23 تموز/يوليو، قدّمت الكـــتائب اللبنانـــية بقـــيادة بـــيار الجميل الدعم للجبهة بإعلانها الوقوف إلى جانب المعارضـــة. وعندما دعت الجبهة إلى إضراب عام في 11 أيلول/سبتمبر لإجبار الرئيس علـــى التخلّي عن منصبه، توقفت الحركة في المدن الرئيسية. أمر بشارة الخوري الأمير

(1) MAE-Nantes Fonds Beyrouth (Amb.), série 199A4, carton 20, M. Georges Balay, Ministre de France au Liban, à Son Excellence Monsieur Robert Schuman, Ministre des Affaires Etrangères, Beyrouth, le 25 juillet 1952.

فـؤاد شـهاب، قائد الجيش، بكسر الإضراب، لكن شهاب رفض التدخّل بحكمة. فاضـطر بـشارة الخوري إلى الاستقالة في 18 أيلول/سبتمبر، وانتُخب مرشح الجبهة، كميل شمعون، رئيساً بالإجماع تقريباً.

في 21 نيسان/أبريل 1953، قرّر مجلس بلدية بيروت إقامة تمثال لرياض الصلح في وسـط المدينة، وخصص مبلغ 65,000 ليرة للمشروع. وضع الفنان ليون مورادوف نمـوذجاً أقـرّته لجـنة مكوّنة من أربعة أشخاص هم: عادل الصلح، ووليم حاوي، والدكـتور فوزي الداعوق، والدكتور بشارة الدهان. أُعيدت تسمية ساحة في وسط المديـنة كانـت تعـرف باسم ساحة عالسور، وأصبحت تعرف باسم ساحة رياض الصلح[1].

(1) MEA-Nantes, Fonds Beyrouth(Amb.), série 199A4, carton 20, numéro 421, cabinet politique.

خاتمة

سيبقى رياض الصلح دائماً شخصية تتسم بشيء من المفارقة في الساحة السياسية اللبنانية، لأنه طالما اعتبر نفسه عربياً. كانت رؤيته تشمل المنطقة بأكملها، ولم يقيّد نفسه في السياسة الضيّقة لبلد صغير على الساحل الشرقي للبحر المتوسّط، حيث اتفق أنه وُلد. لم يكن مجرّد سياسي محلي، وإنما قامت مكانته على نزعته الدولية المتعمّدة. فأصبح شخصية مألوفة جداً في العديد من عواصم العالم بحيث سارعت القنصليات الغربية إلى متابعة كل تحرّكاته.

كان طوال عمره داعية إلى استقلال العرب، فجاب كل أنحاء العالم العربي وما وراءه. وعلى الرغم من أنه اضطُرّ في أوقات مختلفة، ولأسباب مختلفة، إلى التركيز على الشؤون اللبنانية، فإن ميوله الفطرية وولاءاته بقيت عربية. هكذا كانت سمعته، تلك هي اهتماماته، وصداقاته، وأفعاله السياسية.

على الرغم من أنه هيمن على الساحة السياسية طوال عقود، فإنه لم يكن مرتاحاً للسياسة اللبنانية. كان يكره كل الأسس التي أقام عليها الفرنسيون نظام بلده - أي النظام الطائفي - ويؤمن أن الطائفية نقيض الحرية. رأى رياض الصلح أن لجوء المرء إلى هويته الطائفية يماثل بناء حاجز حول نفسه وضدّ جاره. وكان يقول، مُظهراً الضيق، إنه يرغب بشدّة في ألا يسمع ثانية بكلمتي "مسيحي" و"مسلم" المثقلتين بالمعاني، ويفضّل كلمة "مواطن"، بل "مواطن عربي". فالطائفية تؤدي إلى استشراء الفساد. وسرعان ما يُجبر كل من يحصل على نفوذ، أياً كان صغيراً، على مساعدة أبناء طائفته. ويتمّ ذلك بغض النظر عن نزاهتهم أو أهليتهم أو قدرتهم: إخراجهم من السجن، مثلاً، أو منحهم وظيفة حكومية، أو السعي إلى التحايل على القانون بطريقة أو بأخرى لصالحهم. الطائفية، في نظر رياض الصلح، دسّت السمّ في الحياة العامة اللبنانية.

أعلن رياض "أن عصر الطائفية ولّى في أوروبا. الأمم الحديثة تُبنى على أساس القومية، والاستقلال، والأهلية. ما أهمية أن يشغل هذه الوظيفة أو تلك هذه الفئة أو تلك من الأشخاص؟ لو كان جميع المسؤولين في الدولة ينتمون إلى طائفة واحدة، فإنني سأكون أول من يقبلها"[1].

دعا المسلمين والمسيحيين إلى التسوية والتسامح والتضحية المتبادلة من أجل الصالح العام. وحثّهم على نبذ خلافاتهم والانضمام بعضهم إلى بعض للدفاع عن وطنهم. وتوقّع أن يؤدي الخلاف الطائفي، إذا لم يُكبح، إلى حرب أهلية، كما حدث خلال سنوات 1975-1990 الرهيبة. ولا يزال يخيّم على لبنان، حتى اليوم، احتمال حدوث جولة أخرى من سفك الدماء لأسباب طائفية.

كان رياض الصلح مسلماً سنياً، لكن ليس بالمعنى الطائفي. لم يكن يؤمن في استبعاد الطوائف أو الأديان الأخرى أو رفضها. وسعى دائماً إلى أن يضع نفسه في حياته السياسية فوق النزاع الطائفي. ونظراً لأن جذور عائلته من جنوب لبنان، فقد اكتسب معرفة واسعة عن الطائفة الشيعية، التي كانت مهملة ومحرومة في حياته وقبلها، وتعاطف معها. لكن هذه الطائفة شغلت بعد وفاته مكاناً بارزاً في الحياة السياسية في لبنان. ويرجع ذلك إلى عوامل عديدة، منها المقاومة الشيعية لاعتداءات إسرائيل المتكرّرة، وغاراتها، واحتلالها الطويل للجنوب، ومؤخّراً الدعم السياسي والعسكري والمالي الكبير الذي تلقّته من النظامين السوري والإيراني.

كان رياض متفاهماً مع المسيحيين من جميع الطوائف - بالإضافة إلى فهمه الجيد للمسيحية - ربما لأنه نشأ في مدينتي استانبول وبيروت العالميتين، والتحق بمدارس إرسالية يسوعية. لم تكن لدى أي سياسي مسلم بارز آخر من أبناء جيله حساسية أكبر مما لديه لمخاوف المسيحيين الشرقيين في تعايشهم القلق مع الأغلبية الدينية في العالم العربي. و لم يدرك أحد أفضل منه أن المسيحيين في لبنان بحاجة إلى الاطمئنان دائماً، إذا أريد منهم أن يؤيّدوا قضية القومية العربية.

(1) كلمة ارتجالية تكريماً لحنا غصن، رئيس تحرير صحيفة الديار ألقيت في حفل أقامه سعيد فريحة، صاحب دار الصياد، MAE, Nantes, Fonds Beyrouth (Amb.), série 199A4, carton 20, al-Diyar, 15 April 1946.

على الرغم من أن رياض نشأ على كره الصهيونية والخوف منها، واعتبرها امتداداً للاستعمار الأوروبي الذي قاتله بشدّة، فإنه لم يكن يضمر عداوة شخصية لليهود، ولم يكن معادياً للسامية بالتأكيد. ربما راودته أفكار في الحرب العالمية الثانية أن ألمانيا قد تساعد العرب في طرد الحكم الاستعماري البريطاني والفرنسي، لكنه خشي النظريات العرقية النازية ورفضها رفضاً مطلقاً. تعاطف مع الفظائع التي عانى منها اليهود في أوروبا التي سيطر عليها النازيون. لذا تمكّن من فهم عقلية الآباء المؤسسين للصهيونية في إصرارهم العنيد على إنشاء دولة يهودية بأي ثمن.

قام بمحاولات متكرّرة على مرّ السنين للتوصّل إلى اتفاق مع الصهاينة، بل عرض حشد الدعم العربي لإقامة كانتون يهودي في كيان عربي واسع. لكنه أدرك في أواخر الثلاثينيات أن الهجرة اليهودية الواسعة، والاستمرار في شراء الأراضي الفلسطينية، وإحياء اللغة العبرية، والدعم القوي الذي يقدّمه الأوروبيون والأميركيون الأثرياء، جعل الوجود اليهودي في فلسطين أمراً واقعاً لا يمكن التخلّص منه بالأماني. وتبيّن أن الطموحات الصهيونية أكبر مما يتصوّره رياض الصلح - أو أي سياسي عربي آخر - أو يرغب في الإقرار فيه.

تمكّن هذا المجتمع الصغير الذي يقل تعداده عن مليون نسمة، ومعظمهم من بقايا يهود أوروبا المضطهدين، من تحويل نفسه إلى قوة عسكرية متفوّقة في الشرق الأوسط، هزمت جميع الدول العربية التي أضعفتها خلافاتها الداخلية المزمنة. وتمكّنت، بالتواطؤ مع بريطانيا والملك عبد الله، من الاستيلاء على قسم كبير من فلسطين، وقتل وتشريد ثلاثة أرباع مليون فلسطيني. كان وقع هذه النكبة رهيباً على رياض الصلح. ولربما أودت به تأثيراتها الارتدادية.

كان الاستعمار الغربي - وبخاصة الاستعمار الفرنسي - عدوّ رياض الصلح طوال حياته، ولم يقاتله في سوريا ولبنان فحسب، وإنما في شمال أفريقيا أيضاً. تضامن مع العديد من مقاتلي الحرية المناهضين للاستعمار - مع علال الفارسي، زعيم حزب الاستقلال المغربي (ومؤلّف كتاب **الحركات الاستقلالية في المغرب العربي**)[1]؛

(1) نقله إلى الإنكليزية حازم زكي نسيبة، Hazem Zaki Nuseibeh, *The Independence Movements in Arab North Africa*, Washington, DC 1954.

ومع موصلي الحاج في الجزائر؛ ومع الحبيب بورقيبة في تونس؛ ومع بشير السعداوي في ليبيا؛ ومع طريف بن الأفريقي في أرتريا. ونشط في مراسلة بعضهم سنوات عديدة. لكن على الرغم من أن رياض قاتل الاستعمار الأوروبي طوال حياته، فإنه لم يكن كارهاً للأجانب. فقد أحبّ باريس، واللغة الفرنسية، والثقافة الفرنسية، وميراث فرنسا الثوري العظيم. وكانت مأساته أنه ما كاد ورفاقه العرب يتمكّنون من التخلّص من الحكم الفرنسي في المشرق، حتى واجهوا التهديد الذي أحدثه بروز إسرائيل في قلب منطقتهم.

كان رياض الصلح يتحلّى بخصائص عظيمة - الشجاعة، والجاذبية والدهاء، وسرعة البديهة، والبراغماتية، والحلْم - لكنه في جوهره مثالي وحالم ومناضل من أجل الحرية، وليس سياسياً تقليدياً. كما تحلّى بشيء من سمات المعلّم الملهم. كان يريد تحرير العرب من السيطرة الأجنبية، ثم إرشادهم إلى أفضل السبل ليحيوا حريتهم السياسية. وطالما أحب أن يصف لبنان بأنه "مختبر" يمكن تعلّم هذا الدرس فيه.

رأى رياض أن الانفتاح على العالم عبر البحر المتوسّط، والحماية الفعلية التي توفّرها الجبال، وتراث الهجرة الطويل للبنانيين الذين اغتربوا بالملايين وظلّوا يحتفظون بصلاتهم بوطنهم، تساعد في جعل لبنان أكثر ملاءمة للديمقراطية من البلدان العربية الأخرى. وذلك من المُثُل العظيمة التي رغب في التمسّك بها. لكنه من الناحية الأخرى لم يكن لديه الوقت الكافي أو الميل لأعمال الإدارة البيروقراطية الحكومية. لم يكن يطيق فتح الملفات الوزارية، ويملّ الموازنات - موازنته الشخصية وموازنة الدولة على حدٍّ سواء. وعلى الرغم من أنه ورث ثروة كبيرة، فإنه أنفقها على القضايا السياسية. لم يكن يهتمّ بالممتلكات أو المظاهر الدنيوية الأخرى - خلافاً لبعض الحكام العرب الجشعين اليوم - وكان قانعاً في العيش في شقة مستأجرة متواضعة. ولم يتمكّن من شراء منزل قط. وقد ظل مديناً معظم فترات حياته، ومات مفلساً. وتلك من الخصائص الجذّابة التي ميّزته عن معظم السياسيين العرب الآخرين في عصره - باستثناء صديقه العزيز شكري القوّتلي، الشخصية الوطنية البارزة وأول رئيس لسوريا، الذي أنفق ثروته على القضية السياسية لبلده.

كان إسهام رياض الصلح في الحياة السياسية العربية شديد الأهمية، وقد برز ذلك في خمسة مجالات متميّزة. أولاً، ناضل من دون هوادة من أجل استقلال العرب - عن الأتراك، وعن الفرنسيين، وعن الصهاينة. وحقّق أعظم إنجازاته في مواجهة الفرنسيين، فحجز مكانه في التاريخ بوصفه المهندس الرئيسي لاستقلال لبنان. ثانياً، كان شديد الحماسة للوحدة العربية - أو التضامن العربي على الأقل - باعتبارها الطريقة الوحيدة التي تمكّن العرب من تحقيق احترام الذات وتحمل الآخرين على احترامهم. لكنه هُزم في هذا الصدد أمام الخصومات التافهة والعميقة الجذور بين مختلف القادة العرب، والخصومات داخل لبنان ومجتمعة المنقسم.

ثالثاً، كان ديمقراطياً، يسعى بالفطرة إلى الإجماع والسماح للآخرين بالتعبير عن آرائهم. تألّق في البرلمان، حيث أحب الهجمات المتبادلة في المناقشات، وبرع فيها. كما أحبّ الصحافة الحرة وآمن بها. في سنة 1943، عندما أصبح رئيساً للوزراء لأول مرة، أعلن أنه "بما أننا تسلّمنا السلطة في ظل حكم ديمقراطي، فمن واجبنا ضمان حرية الصحافة... إننا ندرك جيداً أن الصحافة الحرة تعني أن علينا أن نبرّر تصرّفاتنا. إننا بحاجة إلى من ينبّهنا إلى أخطائنا، أكثر من حاجتنا إلى المديح والثناء".

إن تعلّق رياض بالديمقراطية يعكس تأثّره العميق بما شهده في استانبول في شبابه، والجلسات العاصفة للبرلمان العثماني في سنوات الإمبراطورية الأخيرة. كما تأثّر بإقامته في أوروبا، لا سيما في سويسرا، حيث تعيش مجموعات عرقية مختلفة، تتحدّث لغات مختلفة، معاً بحرية وانسجام. ألا يمكن نقل هذا النموذج السويسري، الذي طالما حظي بالإعجاب، في لبنان المكوّن من العديد من الطوائف والهويات الوطنية؟

رابعاً، كان يؤمن إيماناً عميقاً بالتفاهم المسيحي الإسلامي، كأساس لا بد منه للمواطنة والدولة اللبنانية. وقد وضع الأساس لهذا التفاهم أكثر من أي شخص آخر في الميثاق الوطني لسنة 1943، ولا يزال هذا الميثاق حتى اليوم حجر الزاوية للمجتمع السياسي اللبناني. تحوّل في منتصف مسيرته السياسية إلى قضية استقلال لبنان ضمن حدوده الموسّعة، كخطوة أولى ضرورية لتكامله مع العالم العربي. ففي الثلاثينيات، أدرك رياض أنه لا بد من التوصّل إلى تفاهم بين الطموحات والإيديولوجيات والهويات المتخاصمة للمسيحيين والمسلمين، كي يتحقّق استقلال لبنان عن فرنسا

ويؤدي دوره كاملاً في العالم العربـــي الذي ينتمي إليه. ودعا المسيحيين والمسلمين إلى تقديم التنازلات والتوصّل إلى تسوية. لكن رسالته لم تلقَ آذاناً صاغية دائماً مثلما يريد. وقـــال بحـــزن قبل مقتله، "لقد جئت إلى السلطة لأبني دولة، لكنهم منعوني من تحقيق ذلك".

خامـــساً، كان رياض داعية متحمّساً لعلاقة قائمة على الثقة بين لبنان وسوريا، الدولـــتين الـــشقيقتين اللتين قدّر لهما، بغض النظر عن خلافاتهما العديدة، أن يعيشا ويعمـــلا معـــاً بحكم الطبيعة والتاريخ وروابط القربى الكثيرة والاعتماد المتبادل. كما حرص على ألا يسمح لبنان لأي قوة أجنبية معادية لسوريا بإنشاء موقع مسيطر لها في بيروت، وألا يوفّر لبنان قاعدة لشن عمليات تخريبية على جارته سوريا.

لو كان حياً اليوم، لأقرّ من دون شك أن هناك الكثير مما لا يزال ينبغي عمله في هذه المجالات الخمسة. ولا بد أن تكون مهمة الجيل العربـــي الحالي التقدّم بجرأة على الطريق التي ارتادها.

أحـــبّ ريـــاض الصلح البحر. وطالما افتقد المنظر الرائع الذي كان يتمتّع به من منـــزل والدته عند واجهة بيروت البحرية في عين المريسة. ففكّرت زوجته فائزة أن تبني لـــه منـــــزلاً قرب الشاطئ على قطعة أرض قريبة من بيروت. وقد اجتذبتها بسبب مطلّهـــا علـــى البحـــر، ولوجود مسجد قديم هناك أحبّت خطوطه الخارجية. اليوم أصـــبحت المـــنطقة مبنية ومكتظة بالسكان، لكنها كانت كثباناً رملية في تلك الأيام. اشـــترت قطعـــة الأرض وبدأت ببناء المنـــزل ببطء، وتمويل أعمال البناء ببيع بعض الأراضـــي الـــتي ورثتها قرب حلب. توفّي رياض قبل اكتمال البناء، و لم يقدّر له أن يعيش فيه.

في الذكـــرى السنوية الأولى لوفاة رياض الصلح، في تموز/يوليو 1952، قرّر الملك عـــبد العزيز استكمال البناء، وأعطى أوامره ببناء المنـــزل على نطاق أوسع بكثير مما خططت له فائزة. وعندما أنجز، أصبح بمثابة مجمّع عائلي، لا مسكناً واحداً فقط. وقد عاشـــت فـــيه بنات رياض الخمس مع أطفالهن في بعض الأحيان. كان رياض الصلح وابن سعود يقدّر أحدهما الآخر ويحترمه، وليس من قبيل المصادفة أن يتزوّج أحد أبناء الملك، طلال، إحدى بنات رياض، منى.

بعد وفاة رياض الصلح، ارتدت أرملته ثياب الحداد و لم تخلعها قط. لكنها أبقت المنـــزل مفتوحاً أمام أصدقائه ومؤيّديه حتى وافتها المنيّة في 13 نيسان/أبريل 1970، و لم تكـــن تـــتجاوز السادسة والخمسين. بقيت متحفّظة ومحتفظة بخصوصياهّا طوال حـــياهّا. وبعـــدما توفّـــيت، اكتشفت بناهّا في خزانتها طقم مائدة جميلاً من قماش الأورغانـــدي، صنعته بنفسها، لكنها لم تتمكّن من استخدامه قط. فتلك الفتاة اليتيمة التي كانت تريد زوجاً يتناول العشاء معها بمفردها، ويكون حاضراً ليمسك بيدها، أو يأخذها إلى السينما، لم تكد تنال ما تمنّته. فقد كان رياض الصلح أكثر تعلّقاً بالقضية العربية من تعلّقه بأي شخص آخر[1].

(1) مقابلة مع علياء الصلح، مونت كارلو، 4-5 تشرين الأول/أكتوبر 2004.

الجدول الزمني للأحداث

1810: ولادة أحمد باشا، جد رياض الصلح، في صيدا.

1839: السلطان عبد المجيد الأول يدخل التنظيمات (إعادة تنظيم المؤسسات العثمانية).

1848: انتخاب لويس – نابوليون بونابرت رئيساً للجمهورية الفرنسية.

1852: لويس – نابوليون بونابرت يتخذ لقب نابليون الثالث.

1855: استقرار الأمير عبد القادر الجزائري، الأمير الجزائري الثائر، في مدينة دمشق مع عائلته بعد محاربته الفرنسيين ودخوله السجن ونفيه.

1856: صدور المرسوم السلطاني، المعروف باسم الخط الهمايوني، في 18 شباط/فبراير، وقد نصّ على المساواة الكاملة بين جميع الرعايا العثمانيين بغضّ النظر عن دينهم.
السلطان عبد المجيد الأول يوسّع التنظيمات.

1860: الحرب الشرسة بين الموارنة والدروز في جبال لبنان تؤدي إلى خسائر بشرية كبيرة ونزوح آلاف اللاجئين، معظمهم من المسيحيين. وانتقال المجزرة إلى الأحياء المسيحية في دمشق.

1861: على أثر المذبحة التي تعرّض لها المسيحيون في جبال لبنان، القوى الأوروبية تستحصل من الباب العالي على وضع مميّز لجبل لبنان. أصبح متصرّفية ذات استقلال ذاتي بإدارة متصرف عثماني كاثوليكي (غير لبناني) يعاونه مجلس إداري يمثل ست طوائف دينية رئيسية في الجبل.
(أو ربما 1863): ولادة رضا الصلح، والد رياض.

1863: انتهاء العمل بأول طريق برّي للعربات بين بيروت ودمشق.

1866: إنشاء الكلية الإنجيلية السورية (أصبحت لاحقاً الجامعة الأميركية في بيروت).

1869: الافتتاح الرسمي لقناة السويس – حلم فرديناند دي ليسيس بممر مائي يصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط – بحضور الإمبراطورة الفرنسية أوجيني والعديد من الأمراء ورجال الدولة والقادة العسكريين والسفراء الأوروبيين وشخصيات رسمية أخرى.

1876: اعتلاء السلطان عبد الحميد الثاني، السلطان العثماني الرابع والثلاثون، العرش في عمر الثالثة والثلاثين.

1877–1878: روسيا تلحق هزيمة ساحقة بالجيوش العثمانية.

1878: في أعقاب الهزيمة العثمانية أمام روسيا، السلطان ينهي التجربة الدستورية الوجيزة، ويحلّ البرلمان، ويعزّز حكمه الشخصي.

1878–82: الإمبراطورية العثمانية تفقد في أربع سنوات صربيا والجبل الأسود ورومانيا والبوسنة والهرسك وقبرص وتونس ومصر.

1880: تعيين رضا الصلح، وهو في التاسعة عشرة، "كاتباً أول" في مكتب حكومي في اللاذقية. وقد شكّل ذلك بداية مساره المهني كإداري في الخدمة العثمانية.

1883: وفاة الأمير عبد القادر الجزائري في دمشق.

1884: اغتيال مدحت باشا، الصدر الأعظم العثماني السابق والوالي العثماني المتنور، في السجن في مدينة الطائف، بأوامر من السلطان على الأرجح.

1887–88: الباب العالي يجعل بيروت عاصمة لولاية جديدة مسلوخة عن سوريا الجغرافية.

1894: ولادة رياض الصلح في بيروت في 17 آب/أغسطس.

1895: بيروت ودمشق تتصلان بخط للسكك الحديدية.

1898: القيصر فلهلم الثاني، إمبراطور ألمانيا، يقوم بزيارة تمتد شهراً كاملاً إلى الإمبراطورية العثمانية (ويتناول العشاء إلى مائدة أحمد باشا في صيدا).

1900: السلطان يصدر في 2 أيار/مايو أمراً سلطانياً ببناء سكة حديد الحجاز

1902: وفاة أحمد باشا في بيروت.

تعيين رضا الصلح متصرّف سنجق. كان آخر منصب له هو متصرف بريفيزا، وهي مرفأ ألباني في القسم الأوروبي من الإمبراطورية.

انعقاد مؤتمر تركيا الفتاة الأول

1905: التحاق رياض كطالب في الكلية العثمانية الإسلامية (أنشأها الشيخ أحمد عباس الأزهري في بيروت عام 1895). التحق بعد ذلك بمدرسة العازاريين في عينطورة ثم بالكلية اليسوعية.

1907: انعقاد مؤتمر تركيا الفتاة الثاني في باريس.

1908: في 23 تموز/يوليو، أعضاء تركيا الفتاة في جمعية الاتحاد والترقي يثورون على السلطان باسم البرلمان والدستور.

انتخاب رضا الصلح عضواً في مجلس المبعوثان، البرلمان العثماني في إستانبول.

عائلة الصلح تزور استانبول قبل بضعة أسابيع من الثورة. ورضا الصلح يشغل مقعده في البرلمان الذي عقد أولى جلساته في 17 كانون الأول/ديسمبر.

1909: في 12 – 13 نيسان/أبريل، وقوع انقلاب سلطاني معاكس على جمعية الاتحاد والترقي، وفشله في 25 نيسان/أبريل. السلطان يستسلم ويخلع عن العرش. وفي 27 نيسان/أبريل ينقل هو وعائلته بقطار خاص إلى سالونيك، حيث يوضع في الإقامة الجبرية.

في 14 تشرين الثاني/نوفمبر، أنشأ خمسة طلاب عرب في باريس جمعية العربية الفتاة في باريس، بغية استقلال العرب الذاتي داخل الإمبراطورية العثمانية.

عزيز المصري، وهو ضابط مصري من أصول شركسية، ينشئ جمعية سرية أخرى، القحطانية، في استانبول.

1910: رياض الصلح يلتحق بكلية الحقوق (مكتبي حقوق) في استانبول في سن السادسة عشرة.

1911: إيطاليا تشن الحرب على طرابلس، آخر ولاية أفريقية للإمبراطورية العثمانية.

1912: في تشرين الثاني/نوفمبر، بدء حرب البلقان، عندما أعلن الجبل الأسود، ثم بلغاريا واليونان، الحرب على الإمبراطورية العثمانية.

في 8 تشرين الثاني/نوفمبر، اليونانيون يستولون على سالونيك موجهين ضربة نفسية عميقة لجمعية الاتحاد والترقي، حيث إن سالونيك كانت مقرّهم الأم.

في نهاية االسنة، إنشاء حزب اللامركزية الإدارية العثماني في القاهرة، باعتراف تام من الحكومة العثمانية

1913: في 23 كانون الثاني/يناير، ضباط جمعية الاتحاد والترقي يهاجمون الباب العالي، ويقتلون وزير الحربية ويجبرون السلطان على تعيين وزارة جديدة برئاسة محمود شوكت باشا كصدر أعظم. يؤدي هذا إلى ظهور أنور وجمال وطلعت كثلاثي الاتحاد والترقي القويّ الذي حكم الإمبراطورية حتى انهيارها في الحرب العالمية الأولى.

في تشرين الأول/أكتوبر، عزيز المصري، مؤسّس الجمعية القحطانية، ينشئ جمعية سرية أخرى، العهد، وهي الجناح العسكري للفتاة، في استانبول.

رضا الصلح يغادر استانبول إلى بيروت.

1914: في 14 شباط/فبراير، يتقاعد من خدمة الإمبراطورية العثمانية، ويحال إلى المعاش.

اندلاع الحرب العالمية الأولى بين الدول الأوروبية في شهر آب/أغسطس.

1914: الإمبراطورية العثمانية تعلن في 29 تشرين الأول/أكتوبر دخول الحرب إلى جانب التحالف الثلاثي المكوّن من ألمانيا وإيطاليا والإمبراطورية النمساوية المجرية.

في 1 تشرين الأول/أكتوبر، الباب العالي يعلن إلغاء الامتيازات، وهي الامتيازات التجارية وغيرها التي مُنحت للدول الأوروبية وعملائها المحليين، وكان العثمانيون يمقتونها لأنها تعبّر عن السيطرة الغربية.

إيفاد جمال باشا، وزير البحرية، في كانون الأول/ديسمبر، إلى دمشق والياً على رأس الجيش الرابع الذي يضمّ 100 ألف جندي.

1915: جمال باشا يشنّ في شباط/فبراير 1915 هجوماً فاشلاً على قناة السويس.

1915: البحريتان البريطانية والفرنسية تشنان هجوماً على الدردنيل ويتم إنزال قوات في غاليبولي في نيسان/أبريل.

1915-16: جمـال باشـا يعـتقل المئات من الشخصيات العربية البارزة، ويشنق العديد منهم في بيروت ودمشق، وينفي العديدين إلى أماكن بعيدة في الأناضول.
الحسين، شريف مكة، والسير هنري مكماهون، المندوب السامي البريطاني في القاهرة، يتبادلان عدداً من الرسائل التي تمهد للثورة العربية. ووالشريف حسين وأبناؤه يعلنون الحرب على تركيا.

1916: فـي كانون الثاني/يناير، البريطانيون والفرنسيون يتخلّون عن عمليتهم في الدردنيل بعد مواجهة مقاومة تركية شرسة.
في 5 حزيران/يونيو، الشريف حسين وأبناؤه يهاجمون الحاميات التركية في جدة ومكة والطائف.

1916-18: رضـا وريـاض الصلح ينجوان من المشنقة، لكنهما يُنفيان إلى إزمير حيث يمضيان العامين الأخيرين من الحرب.

1917: في 9 تشرين الثاني/نوفمبر، الصحف البريطانية والمصرية تنشر نص وعد بلفور الذي تتعهد فيه بريطانيا ببذل "غاية جهدها" لتسهيل "إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين".
فـي 11 كانـون الأول/ديسمبر الجنرال السير إدموند أللنبي يدخل القدس راجلاً، بعد يومين من احتلال المدينة وانتزاعها من الأتراك.

1918: في 23 أيلول/سبتمبر، سقوط حيفا.
فـي 1 تشرين الأول/أكتوبر، القوات العربية والحليفة تدخل دمشق فيما تتراجع القوات العثمانية إلى الشمال.
في 3 تشرين الأول/أكتوبر، الأمير فيصل يدخل دمشق ويلقى ترحيباً عارماً.
في 8 تشرين الأول/أكتوبر، سقوط بيروت.
في 23 تشرين الأول/أكتوبر، سقوط حلب.
في 30 تشرين الأول/أكتوبر، توقيع هدنة بين الإمبراطورية العثمانية والحلفاء على متن سفينة حربية بريطانية.
في 31 تشرين الأول/أكتوبر، توقّف الأعمال العدائية.

1918-19: فـي نهايـة سنة 1918، أرسل رياض الصلح، وهو في الرابعة والعشرين من العمر، لحكم صيدا، بلدة عائلته في جنوب لبنان. غير أنه أجبر على التخلي عن منصبه عندما وصل الجنرال هنري غورو إلى لبنان على رأس جيش فرنسي في سنة 1919.
فيـصل يجـتمع في لندن مع اللورد بلفور والزعيم الصهيوني الدكتور حاييم وايزمن. ويقدم مذكرة بشأن آمال العرب إلى مؤتمر السلام في فرساي. لكنه يصل تدريجياً إلى اقتـناع أن لبـريطانيا وفرنسا والصهاينة مطامع في سوريا الطبيعية، ما قيّد المطالب العربية إلى درجة كبيرة.

1919: المجلس الأعلى للدول المنتصرة يتخذ قراراً في 25 آذار/مارس بناءً على اقتراح الرئيس الأميركي ويلسون بإرسال لجنة تحقيق إلى سوريا للوقوف على آراء سكانها. بريطانيا وفرنسا تمتنعان عن الاشتراك في اللجنة، فتتشكل من شخصيتين أميركيتين، هما الدكتور هنري كنغ وتشارلز كرين، وتُمضي أكثر من شهرين خلال ذلك الصيف في سوريا وفلسطين.

مؤتمر السلام يقرر في 28 نيسان/أبريل وضع الولايات العربية السابقة في الإمبراطورية العثمانية تحت انتداب الدول الأوروبية.

انعقاد المؤتمر السوري العام في دمشق في تموز/يوليو للضغط على لجنة كنغ - كرين والمطالبة "بالاستقلال السياسي التام لسوريا".

لجنة كنغ - كرين توصي في 28 آب/أغسطس "بالإبقاء على وحدة سوريا بما يتفق مع العرائض النزيهة للأغلبية العظمى من سكان سوريا". وأن مصلحة لبنان، "تتحقّق في أن يكون عضواً تأسيسياً في الدولة (السورية) لا في استقلاله عنها"؛ وأن المطالبة الصهيونية بأرض فلسطين "بناء على احتلالها قبل ألفي سنة لا يمكن أخذها بجدية". لكن هذا التقرير المهم وضع جانباً بعد إصابة الرئيس ويلسون بسكتة دماغية في تشرين الأول/أكتوبر 1919.

1920: عودة المؤتمر السوري العام للانعقاد في دمشق في 8 آذار/مارس. والمؤتمر يعلن استقلال سوريا "ضمن حدودها الطبيعية" ويرفض مشروع الوطن القومي لليهود في فلسطين وينادي بالأمير فيصل ملكاً على سوريا.

المجلس الأعلى للحلفاء يقرّر في اجتماعه في سان ريمو في 24-25 نيسان/أبريل تكليف فرنسا بالانتداب على سوريا ولبنان وتكليف بريطانيا بالانتداب على العراق وفلسطين.

رياض الصلح، في سن الخامسة والعشرين، يقنع سبعة أعضاء من مجلس إدارة لبنان بتبديل موقفهم من مساندة فرنسا إلى مساندة فيصل. الفرنسيون يلقون القبض عليهم ويرسلونهم إلى المنفى. رياض يفرّ إلى دمشق.

هزيمة قوة عسكرية سورية صغيرة في 24 تموز/يوليو أمام الجيش الفرنسي الكبير في ميسلون، التي تبعد 30 كيلومتراً عن دمشق. مقتل يوسف العظمة، وزير الدفاع المقدام. القوات الفرنسية تدخل دمشق يوم 25 تموز/يوليو. فيصل يغادر المدينة على متن قطار خاص متوجهاً إلى فلسطين. ورياض الصلح و70 من الرجال الوطنيين يلحقون به في قطار ثان.

محكمة فرنسية في دمشق تحكم في 9 آب/أغسطس على رياض الصلح وعشرات آخرين بالإعدام غيابياً بسبب تأييدهم نظام فيصل.

الجنرال غورو يعلن في 1 أيلول/سبتمبر إنشاء دولة لبنان الكبير ضمن حدود موسّعة. وتقسيم سوريا في السنين التالية إلى عدد من الدويلات والمقاطعات ذات الاستقلال الذاتي.

محكمة فرنسية أخرى تحكم في بيروت في 29 تشرين الأول/أكتوبر على رياض الصلح بالسجن لمدة خمس سنوات وغرامة تبلغ 1,4 مليون فرنك فرنسي بسبب محاولته تعبئة أعضاء من مجلس إدارة لبنان ضد الفرنسيين.

1920–25: الجيش الفرنسي يخسر 6722 رجلاً في سوريا، بين قتيل ومفقود، ويتكبّد نفقات عسكرية تبلغ 2500 مليون فرنك.

1921: في مؤتمر عقد في القاهرة في شهر آذار/مارس، ونستون تشرشل، وزير المستعمرات في ذلك الوقت، يرسم سياسة إنشاء دول عربية تابعة يديرها قادة محليون وتحفظ أمنها جيوش محلية يمكن الاعتماد عليها لحماية المصالح البريطانية. تنصيب الأمير فيصل على عرش العراق في حزيران/يونيو.

السير هربرت صموئيل، المفوّض السامي البريطاني في فلسطين، يعيّن الحاج أمين الحسيني، في سن الرابعة والعشرين، مفتياً أكبر للقدس.

في 25 تموز/يوليو، رياض الصلح يحضر الاجتماع التأسيسي للمؤتمر السوري الفلسطيني في جنيف. كان المؤتمر من بنات أفكار الأمير ميشال لطف الله، وهو أول تعبير منظم عن الاحتجاج العربي على الانتدابات.

في تشرين الثاني/نوفمبر، رياض الصلح يسافر إلى لندن لعرض خدماته على موسى كاظم الحسيني، رئيس بلدية القدس السابق، في محادثاته التي أجريت بإشراف بريطاني مع الزعيم الصهيوني الدكتور حاييم وايزمن. وفي 7 تشرين الثاني/نوفمبر، رياض يجتمع بالدكتور وايزمن لمعرفة إذا كان يمكن تعبئة النفوذ الصهيوني لمنع تصديق عصبة الأمم على الانتداب على سوريا ولبنان.

1922: في آذار/مارس، رياض وشخصيات عربية أخرى بارزة تعقد محادثات مع الصهاينة في القاهرة من دون أن تسفر عن شيء.

1924: في وقت مبكّر من هذه السنة، رياض الصلح ينتظر في فلسطين كي يسمح له الفرنسيون بالعودة إلى لبنان، فيعقد اجتماعاً آخر مع الدكتور وايزمن في القدس. وقد سعى رياض في العشرينيات وقسم كبير من الثلاثينيات إلى إيجاد صيغة للتعايش بين العرب والصهاينة، لكن الطموحات الصهيونية كانت كبيرة جداً تحول دون أن يقبلها هو أو أي عربي.

1925–26: حدوث ثورة على الفرنسيين- تعرف بالثورة السورية الكبرى- في جبل الدروز وانتشارها إلى دمشق وسواها.

1925: اللورد بلفور يزور دمشق في 8 نيسان/أبريل 1925 ويلقى استقبالاً عدائياً.
حـــزب الشعب، بزعامة الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، يعقد اجتماعاً تأسيسياً يحضره أكثر من ألف شخص في دمشق.
في تموز/يوليو، قوة عشائرية درزية بقيادة سلطان الأطرش تنصب كميناً لقوة فرنسية قوامها ثلاثة آلاف جندي بقيادة الجنرال روجيه ميشو وتهزمها وتغنم 2000 بندقية.
في 23 آب/أغسطس، سلطان باشا الأطرش يوجه دعوة للثورة في دمشق "إلى السلاح! إلى السلاح يا أحفاد العرب الأمجاد..."
الـــشهبندر ينـــضم إلى الثورة وفي 24 آب/أغسطس قوة مشتركة من الدروز والعشائر الأخرى تزحف على دمشق. غير أن الخيالة الفرنسيين يجبرونها على الفرار.
في 9 أيلول/سبتمبر، الشهبندر يعلن في جبل الدروز ثورة سورية عامة وإقامة حكومة وطنـــية. والمتمردون يدخلون دمشق في 18 تشرين الأول/أكتوبر ويضرمون النار في قصر العظم.
فـــي 18- 20 تـــشرين الأول، المفوّض السامي الجنرال ساراي يأمر بقصف دمشق. تدمير أحياء بأكملها ومقتل نحو 1500 شخص.

1925-26: بعـــد فترة من الهدوء في المناطق التي شهدت الثورة، رياض الصلح يتوجّه إلى جنيف للانضمام إلى الأمير شكيب أرسلان وإحسان الجابري في الوفد الدائم للمؤتمر السوري الفلـــسطيني الذي أعيد تفعيله. ومعاً يقومون بممارسة ضغوط في عصبة الأمم لصالح القضية السورية.
مفوّض سامٍ جديد يتولّى منصبه في بيروت في كانون الأول/ديسمبر 1925 ويتعهّد بعدم إعدام الثوار إذا استسلموا بحلول 6 كانون الثاني/يناير 1926. لكن القتال العنيف استمرّ طـــوال تلـــك السنة، حيث عمد الفرنسيون إلى تنفيذ إعدامات جماعية ونسف المنازل وغيـــر ذلـــك مـــن العقوبات الجماعية. ودُفع آخر الثوّار إلى عبور الحدود إلى شرق الأردن بحلول سنة 1927. وانهيار الثورة.

1926: اعتماد دستور جديد للبنان في 23 أيار/مايو، خلال فترة الثمانية أشهر التي أمضاها دي جوفنـــيل مفوّضاً سامياً. وهو ينصّ على انتخاب رئيس ومجلس تمثيلي، لكنه بعيد جداً عـــن الاســـتقلال الحقيقي الذي يطالب به الوطنيون. كما أنه يرسّخ الطائفية في الحياة العامّـــة اللبنانـــية باشتراط توزيع الحقائب الوزارية ووظائف القطاع العام على أساس طائفي "منصف".
الفرنسيون يلقون القبض على رياض الصلح في أثناء زيارة إلى بيروت، بموجب حكم صـــادر بـــتاريخ 27 حزيران/يونيو ويسجنونه في قلعة في جزيرة أرواد قبالة الشاطئ السوري. لكنه يتمكن من الهرب والانضمام ثانية للوفد في جنيف.

1927: ريــاض الصلح ينهمك في نشاط محموم في سبيل القضية السورية في باريس وجنيف وبروكــسل وبيــروت. بدلاً من محاولة هزيمة الفرنسيين بقوة السلاح، فإنه يدعو إلى استراتيجية وطنية أكثر براغماتية تميل إلى إقناع الرأي العام الفرنسي بحماقة السياسة الفرنسية.

فــي 27 تــشرين الأول/أكتوبر، اجتماع الوطنيين من عدة مدن سورية في بيروت في أول مؤتمــر للكــتلة الوطنية السورية. وبحلول سنة 1928، أصبحت هذه الكتلة القوة السياسية الرئيسية في سوريا. ورياض الصلح ينضم إليها لاحقاً كعضو مشارك.

1928: رياض الصلح يعود إلى لبنان في 20 أيار/مايو، إلى بيت والده في صيداء بعد أن وافق المفــوّض الــسامي الفرنــسي الجديد هنري بونسو (الذي حل محل دو جوفنيل صيف 1926) على السماح له بالعودة إلى البلاد.

الوطنــيون اللبنانيون ينشئون في بيروت مؤتمر الساحل بغية إعادة الأراضي "المتنازع عليها"، التي ضمّها الفرنسيون إلى جبل لبنان لإقامة لبنان الكبير، إلى سوريا.

في 20 أيار/مايو، رياض الصلح يعود إلى لبنان – إلى منزل والده في صيدا – بعد أن وافــق المفوّض السامي الفرنسي الجديد هنري بونسو (الذي حل محل دو جوفنيل في صيف 1926) على عودته إلى لبنان.

فــي 20 حزيران/يونيو رياض الصلح يدخل دمشق مظفّراً في قافلة من عدة مئات من السيارات. ويكرّم في الأسابيع التالية بحفلات استقبال كبيرة.

في 23 أيلول/سبتمبر، الصهاينة يطالبون بحائط البراق في القدس، بوضع حجاب لفصل الــرجال عــن النساء. وذلك يخالف حكماً للأوقاف الإسلامية بعدم القيام بأي شيء قد ينظر إليه أنه إنشاء لكنيس يهودي. والحاج أمين يعرض حكماً عثمانياً صادراً في سنة 1012، يمنع اليهود من إحضار أي شيء إلى الحائط.

1929: في آب/أغسطس، وقوع صدامات عنيفة بين اليهود والعرب تؤدي إلى سقوط قتلى من الجانبــين فــي القدس والخليل وصفد وحيفا. وتبدّد كل الأوهام المتبقية بإمكانية الحلّ السلمي بين اليهود الأوروبيين والعرب في فلسطين

فــي سن الخامسة والثلاثين، رياض الصلح يكتسب سمعة دولية كمناضل ضدّ الوجود الفرنسي والبريطاني في المشرق، وداعية مفوّه إلى التحرّر العربي.

فــي تــشرين الثانــي/نوفمبــر، رياض يقوم بزيارة أخرى ناجحة أخرى إلى سوريا، إلــى حلــب هــذه المــرة. لقــد أصبح الآن من أبرز الشخصيات الإسلامية في لبنان وسوريا.

1930: ريــاض الصلح يدرك أن محاولة التأثير في عصبة الأمم لن يجدي نفعاً. فيقرر مغادرة جنيف والعودة إلى بيروت.

ريــاض يتــزوّج فائزة الجابري، ابنة الراحل نايف باشا الجابري من حلب. كانت في السابعة عشرة من العمر، وقد أنجبت له خمس بنات.

في 30 حزيران/يونيو، توقيع المعاهدة الإنكليزية العراقية التي تنص على تحالف مدته خمس عشرة سنة بين البلدين، وتخصّص قاعدتين جويتين لسلاح الجوّ الملكي، وتضمن تواجد القوات البريطانية وتسهيل تحركها في زمن الحرب.

في تموز/يوليو، أنطون سعادة يعود إلى الشرق الأدنى بعد أن أمضى بعض السنين في البرازيل وألمانيا، وقد كان في السادسة والعشرين في ذلك الوقت.

1930-39: بروز الفاشية في أوروبا يحدث تأثيراً مقلقاً في الرأي العام في سوريا ولبنان، لا سيما بعــد فــشل الثورة الفلسطينية 1936-39، بالإضافة إلى عدم التصديق على معاهدتي 1936، وإعــادة تشدّد الانتداب الفرنسي. وظهور حركات شبابية تقلّد الحركات الفاشية الأوروبية.

1931: الحــاج أمــين وريــاض الــصلح يتوصّلان إلى فكرة عقد مؤتمر إسلامي للفت انتباه المسلمين إلى فلسطين، حيث الهجرة اليهودية تحدث وضعاً متفجّراً.

في 7 كانون الأول/ديسمبر، افتتاح المؤتمر الإسلامي العام في القدس واستمرار انعقاده لمدة عشرة أيام.

1933: رياض يفتح مكتباً للمحاماة في بيروت لكن السياسة وتأييده الفاعل لحركة نقابات العمال لم يتركا له سوى القليل من الوقت لممارسة المحاماة.

في كانون الثاني/يناير، كثير من العرب يرحّبون بتسلّم هتلر السلطة، ويأملون أن تشكّل ألمانيا ثقلاً موازناً لبريطانيا وفرنسا.

فــي 6 آذار/مــارس، جمعية تعاضد السوّاقين تدعو إلى إضراب عام يلتزم به 8000 سائق في لبنان وسورية. والحركات المطلبية تمتدّ إلى مختلف الطبقات العاملة. الطهاة والــندلاء وعمــال حــياكة الحرير والنجارون وصيادو الأسماك وموظفو المصارف والمحامون والأطباء والصيادلة يبدؤون في تنظيم أنفسهم في أوائل الثلاثينيات.

فــي أيلول/سبتمبر، وفاة الملك فيصل، عاهل العراق، في سويسرا، ما وجّه ضربة إلى آمال الوطنيين بعقد مؤتمر عربي في بغداد.

رشيد عالي الكيلاني يصبح رئيساً لوزراء العراق. ويتولّى مهمة الإشراف على انتقال العرش إلى الملك غازي.

1934: في شباط/فبراير، المفكّر اللبناني شارل قرم ينشئ داراً للنشر للترويج لأن جذور الهوية اللبنانــية تعــود إلى الفينيقيين قبل ثلاثة آلاف سنة من ميلاد المسيح. واللبنانيون الذين يعــتقدون أن الهوية اللبنانية تكمن في الجبل، لا البحر المتوسّط، وأنه لا يمكن تجاهل ثلاثة عشر قرناً من التاريخ الإسلامي يعارضون الفكرة الفينيقية.

في 21 تشرين الثاني/نوفمبر، إنشاء حزب سعادة، الحزب السوري القومي سراً، لكن السلطات تلاحظ أنشطته بعد ذلك بعام، في تشرين الثاني/نوفمبر 1935.

1934-36: ديفيد بن غوريون يقرّر عقد مباحثات مع عدد من القادة العرب لدعم الدولة اليهودية في فلسطين وشرق الأردن. وعدد اليهود يرتفع إلى 400,000 نسمة بحلول سنة 1934.
بن غوريون يعقد سلسلة من الاجتماعات مع موسى العلمي، ورياض الصلح، وعوني عبد الهادي، والأمير شكيب أرسلان، وإحسان الجابري، وجورج أنطونيوس.

1935: في 15 نيسان/أبريل، المفوّض السامي الفرنسي، الكونت داميان دو مارتيل، يأمر بإغلاق مكتب نقابة السائقين وإبعاد رياض الصلح إلى القامشلي، شمال شرق سوريا حيث يوضع قيد الإقامة الجبرية.
في 30 حزيران/يونيو، في أعقاب عاصفة من الاحتجاج، دو مارتيل يتراجع ويأمر بإعادة رياض إلى بيروت.
عز الدين القسام، وهو عالم دين سوري حارب الفرنسيين، يهرب إلى حيفا حيث يجتذب مجموعة من الشبان لمقاتلة الصهيونية والبريطانيين والمتعاونين العرب. في 21 تشرين الثاني/نوفمبر، يستشهد في معركة مع الشرطة. وتحوّل جنازته إلى مظاهرة سياسية ضخمة.
في 21 تشرين الثاني/نوفمبر، وفاة إبراهيم هنانو، زعيم الكتلة الوطنية السورية من دون منازع. وقد كان من قادة الثورة السورية الكبرى. ورياض الصلح يشارك في جنازته على رأس مجموعة كبيرة من اللبنانيين.
في 5 تشرين الثاني/نوفمبر، اعتقال سعادة مع عشرة من رفاقه، وصدور حكم عليه بالسجن ستة أشهر ودفع غرامة صغيرة في كانون الثاني/يناير 1936. وقد ألقي القبض عليه في وقت لاحق من تلك السنة.

1936: في 10 كانون الثاني/يناير - بعد وفاة هنانو بأربعين يوماً - وقعت مظاهرات ضخمة في سوريا، أعقبها إضراب عام.
في 20 كانون الثاني/يناير، إميل إدّه الموالي للفرنسيين ينتخب رئيساً للجمهورية اللبنانية، ويهزم بشارة الخوري.
في 28 كانون شباط/فبراير - اليوم الأربعين من الإضراب العام في سوريا - الوطنيون ينظمون مظاهرات عارمة. والفرنسيون يطلقون النار ويقتلون عدداً من المتظاهرين.
في 1 آذار/مارس، المفوّض السامي الفرنسي الكونت داميان دو مارتيل يتعهّد بإعادة العمل بالدستور، بعد أن واجه الأزمة. فيجيز لوفد سوري السفر إلى باريس للتفاوض على معاهدة معها.

في 10 آذار/مارس، شخصيات مسلمة بارزة من المدن الساحلية اللبنانية تعقد "مؤتمر الساحل" في بيروت للمطالبة بأن تعاد مدن بيروت وطرابلس وصيدا إلى سوريا، بالإضافة إلى الأقضية الأربع التي ألحقت بلبنان في سنة 1920، ما يسمّى "الأراضي المتنازع عليها". لم يحضر رياض الصلح المؤتمر. ولم يعد في ذلك الوقت يعتقد أن تفكيك لبنان هدفاً معقولاً.

كاظم الصلح، ابن عم رياض، يُحدث صدمة في المؤتمر عندما أعلن أن الدعوة إلى تفكيك لبنان لا تخدم قضية الوطنيين العرب. ورأى أن الحكمة تقتضي إقناع الموارنة بالانضمام إلى المسلمين في النضال من أجل استقلال لبنان. وقد نُشرت آراء كاظم الصلح في جريدة **النهار** في آذار/مارس، ثم في كراسٍ في نيسان/أبريل 1937.

في 12 آذار/مارس، رياض الصلح يصل إلى باريس قبل وصول الوفد السوري، الذي سيقدّم له المشورة خلال المفاوضات مع الفرنسيين. ويعقد اجتماعاً مع ناحوم غولدمان، مؤسس المؤتمر اليهودي العالمي ورئيسه.

الجبهة الشعبية - ائتلاف الجناح اليساري الذي يضم الاشتراكيين الراديكاليين، والاشتراكيين، والشيوعيين - يفوز في الانتخابات العامة الفرنسية. وفي 4 حزيران/يونيو، الزعيم الاشتراكي ليون بلوم يشكّل الحكومة، وفي 7-8 حزيران/يونيو يتوصّل إلى اتفاق تاريخي مع أصحاب العمل ونقابات العمال - اتفاقات ماتينيون - التي غيّرت خياة الطبقات العاملة.

في 26 آب/أغسطس، المعادة البريطانية المصرية تنشئ "تحالفاً دائماً" بين البلدين، وتنص على بقاء القوات البريطانية مؤقتاً في مصر للدفاع عن قناة السويس.

في 9 أيلول/سبتمبر، التوقيع بالأحرف الأولى في وزارة الخارجية الفرنسية على معاهدة "صداقة وتحالف" فرنسية سورية لمدة خمس وعشرين سنة. والاحتفاء بالمعاهدة كانتصار كبير للكتلة الوطنية، ولرياض الصلح نفسه.

في 29 أيلول/سبتمبر، الوفد السوري يعود إلى بلاده حيث يلقى استقبالاً حافلاً.

في 29 تشرين الأول/أكتوبر، تعطّل الحياة الدستورية في العراق بانقلاب عسكري يقوده الفريق بكر صدقي.

في 21 كانون الأول/ديسمبر، زعيم الكتلة الوطنية السورية هاشم الأتاسي ينتخب رئيساً للجمهورية السورية.

وصول لجنة بيل إلى فلسطين "للتحقيق في أسباب الاضطرابات".

1936-37: الكتائب اللبنانية، وهي حركة شبابية مسيحية، والنجّادة، وهي نظيرتها المسلمة، تتحدّيان حركة سعادة.

1937: في كانون الثاني/يناير، الرئيس اللبناني إميل إدّه يعيّن خير الدين الأحدب رئيساً للوزراء، وهو أول مسلم يتولى هذا المنصب الرفيع.

في 7 آذار/مارس، سعادة يعتقل للمرة الثالثة، لكن يطلق سراحه بعد شهرين.

في 21 حزيران/يونيو، ليون بلوم يستقيل بعد أن فقد الأغلبية يف مجلس الشيوخ. ويعود إلى السلطة بعد ثمانية أشهر، في 13 آذار/مارس 1938، ليترك المنصب نهائياً خلال أقل من شهر. وانهيار الجبهة الشعبية يقضي على المعاهدة الفرنسية السورية ويقوّي كل يرغب في إدامة الانتداب.

في 7 تموز/يوليو، نشر تقرير لجنة بيل، الذي خلص إلى أن الانتداب على فلسطين غير ناجح وأوصى بتقسيم البلد إلى دولة عربية ودولة يهودية، ومنطقة صغيرة خاضعة للانتداب البريطاني.

العنف يندلع ثانية في فلسطين، واستمرار التقارير عن تهريب الأسلحة وتشكيل مجموعات مسلّحة في الريف.

في 8 أيلول/سبتمبر، 400 مندوب تقريباً من جميع أنحاء العالم العربي يحضرون الجلسة الافتتاحية لمؤتمر مخصّص للقضية الفلسطينية عقد في قرية بودان السورية. ورياض الصلح يقود مجموعة كبيرة من السياسيين اللبنانيين السنّة المشاركين فيه.

في انتخابات تشرين الأول/أكتوبر، رياض الصلح يترشّح لعضوية مجلس النواب، لكنه ينسحب عشية الاقتراع، بعدما أوضح الفرنسيون أنهم سيتلاعبون في الانتخابات لإسقاطه.

ليلة 13-14 تشرين الأول/أكتوبر، الحاج أمين الحسيني يهرب من الحرم القدسي حيث كان مختبئاً، متنكّراً بلباس بدوي، وينتقل في قارب صيد إلى الساحل اللبناني. والفرنسيون يسمحون له بالإقامة لإزعاج البريطانيين، لكنه ينتقل إلى بغداد في تشرين الأول/أكتوبر 1939.

في 29 تشرين الأول/أكتوبر، انعقاد الجلسة الأولى لمجلس النواب اللبناني الجديد. ورئيس الحكومة خير الدين الأحدي يقدّم استقالته، لكن الرئيس إميل إده يطلب منه تشكيل حكومة ثانية.

سعادة يقدّم التماساً إلى المفوّض السامي الفرنسي من أجل الوحدة السورية اللبنانية. في 10 أيلول/سبتمبر

في تشرين الثاني/نوفمبر (وفي آب/أغسطس 1938)، رئيس الوزراء السوري جميل مردم يتوجّه إلى باريس مرتين في محاولة يائسة لإنقاذ المعاهدة الفرنسية السورية. ويقدّم مزيداً من التنازلات إلى فرنسا.

في 18 تشرين الثاني/نوفمبر، الرئيس إده يصدر مرسوماً ينص على أن جميع الحركات الشبابية شبه العسكرية غير قانونية.

1937-39: انـدلاع العـنف في فلسطين بضراوة تفوق ما حدث في تشرين الأول/أكتوبر 1937، حـيث تهـاجم مجموعات مسلحة القوات البريطانية والمستوطنات الإسرائيلية. والقتال يـتدهور ليصبح صراعاً فلسطينياً داخلياً دامياً. البريطانيون يردّون بحملة وحشية من الإرهـاب المضاد. والثورة وقمعها يدمّران الاقتصاد الفلسطيني. مقتل أكثر من 5000 عربـي وجرح 14,000 آخرين. في أثناء قمع الثورة العربية بوحشية، الهاغاناه تنمو، بمساعدة البريطانيين، لتصبح جيشاً سرياً كبيراً قوامه 15,000 رجل وامرأة.

1937-41: عـدة مـسؤولين وعمـلاء دعايـة ألمان يزورون المشرق ويحاولون تأجيج المشاعر المناهضة للبريطانيين والفرنسيين.

1938: سعادة يغادر لبنان بعد التهديد باعتقاله، ويتوجّه إلى قبرص وبرلين وروما والبرازيل، حيث يوجّه منها نداء إلى أعضاء الحزب للتمرّد في لبنان.

في 3 تموز/يوليو، فرنسا وتركيا تتوصلان إلى اتفاق بشأن مستقبل لواء الإسكندرونة.

في 5 تموز/يوليو، القوات التركية تدخل لواء الإسكندرونة، بمباركة فرنسية، للإشراف علـى الاستفتاء العام. وتزييف الجداول الانتخابية لجعل الغالبية تركية. وإدماج اللواء بتركيا وإعادة تسميته هاتاي. و20,000 لاجئ تقريباً يهربون إلى سوريا ولبنان.

فـي 14 كانـون الأول/ديـسمبر، وزير الخارجية الفرنسي جورج بونيه يبلغ الجمعية الوطنـية أن الحكـومة الفرنـسية لم تعد تعتزم أن تطلب من البرلمان التصديق على المعاهدة الفرنسية السورية.

1939: فـي 18 شـباط/فبرايـر، اسـتقالة رئيس الوزراء السوري جميل مردم بعد تعرّضه لانتقادات حادة من الرأي العام.

فـي آذار/مارس، سقوط حكومة الكتلة الوطنية، ما قضى تماماً على المعاهدة الفرنسية السورية التي اتفق عليها في سنة 1936.

فـي 3 نيـسان/أبـريل، وفاة الملك العراقي غازي في حادث سيارة. وعمّه عبد الإله يصبح وصياً على العرش.

فـي 17 أيـار/مايـو، الحكومة البريطانية تنشر كتاباً أبيض يبدو كأنه يوجّه ضربة خطيرة للطمـوحات الصهيونية بإعلان أن "تحويل فلسطين إلى دولة يهودية ليس جزءاً من السياسة [البريطانية]". لكن اقتراحات الكتاب الأبيض لم يكن لها صلة بما يجري على الأرض.

في 7 تموز/يوليو، الرئيس السوري هاشم الأتاسي ينسحب من الحياة العامة.

فـي 25 آب/أغـسطس، اسـتدعاء الجنرال مكسيم ويغان، وهو مفوّض سامٍ سابق في بيـروت، مـن التقاعد لتولي قيادة القوات الفرنسية في شرق المتوسّط. وكانت مهمته تقـضي بإعادة بناء الجيش في المشرق. وقد وصل إلى بيرونت في 30 آب/أغسطس.

وفي 1 أيلول/سبتمبر، ألمانيا تهاجم بولندا وإعلان الحرب.

في 3 تشرين الأول/أكتوبر، محكمة عسكرية فرنسية تصدر أحكاماً على اثنين وأربعين عضواً في الحزب السوري القومي. والأحكام تتراوح بين السجن سنة وعشرين سنة. والحكم على نعمة ثابت، أقرب المساعدين إلى سعادة، لمدة عشر سنوات.

1940: موجة من الاحتجاجات الوطنية تطيح برئيس الوزراء العراقي نوري السعيد المؤيّد للبريطانيين وتحمل رشيد عالي الكيلاني إلى رئاسة الوزراء. والكيلاني يدعو إلى تعديل المعاهدة البريطانية العراقية.

في 10 أيار/مايو، هتلر يشن حرباً خاطفة على بلجيكا وفرنسا، والبلدان يخسران الحرب خلال أيام.

في 16 حزيران/يونيو، المارشال فيليب بيتان يصبح رئيساً لوزراء فرنسا ويبرم هدنة مع فرنسا.

في 18 حزيران/يونيو، الجنرال شارل ديغول يوجّه نداء عبر هيئة الإذاعة البريطانية من لندن يدعو فيه الفرنسيين إلى مواصلة القتال ضدّ ألمانيا النازية بقيادته.

في حزيران/يونيو، إيطاليا تدخل الحرب إلى جانب ألمانيا، وتهدّد موقف بريطانيا في البحر المتوسط، والشرق الأوسط، وشرق أفريقيا.

في 3 تموز/يوليو، البحرية الملكية تهاجم الأسطول الفرنسي في المرسى الكبير، وتقتل 1500 بحار وتغرق وتعطب السفن الفرنسية. وفرنسا تقطع علاقاتها مع بريطانيا.

في 6 تموز/يوليو، اغتيال الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، وهو من الشخصيات البارزة في الثورة السورية الكبرى 1925-1926، في دمشق، ما أحدث فوضى في صفوف الوطنيين.

الجنرال ديغول يرسل الجنرال كاترو إلى الشرق الأوسط للدفاع عن المصالح الفرنسية. كاترو يصل متنكّراً إلى القاهرة في 27 أيلول/سبتمبر حاملاً خطة طموحة للإطاحة بإدارة فيشي في سوريا ولبنان، وإدخال تلك الأراضي تحت سيطرة ديغول عن طريق انقلاب عسكري.

في كانون الأول/ديسمبر، حكومة فيشي تعيّن الجنرال هنري فرناند دنتز، القائد العام للقوات الفرنسية في المشرق، مفوّضاً سامياً.

1941: في 31 كانون الثاني/يناير، رشيد عالي يُجبر على الاستقالة بضغط من الوصي على العرش والبريطانيين.

في شباط/فبراير، الوطنيون يدعون إلى إضراب عام في دمشق. والإضراب ينتشر إلى المدن السورية الأخرى، ثم إلى لبنان.

في 25 آذار/مارس، الجنرال ديلوم، القائد العسكري الفرنسي، يعلن "حالة الحصار". واعتقال العديد من الوطنيين وتهديدهم بالنفي.

في 1 نيسان/أبريل، قبل يومين من انقلاب رشيد عالي في بغداد، الجنرال ديغول والجنرال إدوارد سبيرز، رئيس البعثة البريطانية إلى فرنسا الحرة، يحطّان في القاهرة.
في 1 نيسان/أبريل، الجيش العراقي يحاصر القصر الملكي في بغداد. وفرار الوصي على العرش.
في 2 نيسان/أبريل، الجنرال دنتز يعيّن خالد العظم – وهو سياسي ورجل أعمال بارز معارض للكتلة الوطنية – رئيساً للحكومة السورية ووزيراً للداخلية.
في 3 نيسان/أبريل، رشيد عالي يستولي على السلطة في العراق، مدعوماً من أربعة ضباط يعرفون باسم "المربع الذهبي"، ويحرّك القوات العراقية لمواجهة قاعدة سلاح الجو الملكي البريطانية في الحبّانية.
بناء على تعليمات من ونستون تشرشل، البريطانيون يوجّهون إنذاراً إلى رشيد عالي: على القوات العراقية الانسحاب من الحبانية في 2 أيار/مايو وإلا هوجمت. وعند انتهاء الإنذار، الطائرات البريطانية تقصف القوات العراقية. وهجوم بري يرفع الحصار عن القاعدة.
في 18 نيسان/أبريل، فرنسا تنسحب من عصبة الأمم، وهي الهيئة التي عهدت إليها في سنة 1919 بالانتداب على سوريا ولبنان.
في 9 أيار/مايو، هبوط أول طائرة ألمانية في دمشق في طريقها إلى العراق. ومجموع الطائرات الألمانية التي عبرت سوريا في أيار/مايو وحزيران/يونيو يبلغ نحو مئة طائرة.
في 18 أيار/مايو، رتل بريطاني يجتاز 500 ميل عبر الصحراء من فلسطين ويصل إلى الحبانية. ورتل آخر ينتقل من شرق الأردن.
في 30 أيار/مايو، سقوط بغداد والوصي على العرش يستعيد السلطة. تشكيل حكومة مؤيّدة للبريطانيين برئاسة نوري السعيد. ورشيد عالي يهرب إلى إيران ثم إلى ألمانيا.
في 27 أيار/مايو، بناء على أوامر تشرشل، ويفل يقدّم إلى لندن مخطط "عملية إكسبورتر" – الهجوم على سوريا ولبنان وإلحاق الهزيمة بقوات فيشي. والجنرال هنري "جمبو" ويلسون يضع خطة المعركة.
في حزيران/يونيو، تعيين أوليفر ليتلتون، رئيس مجلس التجارة، وزير دولة بريطاني لشؤون الشرق الأوسط.
في 8 حزيران/يونيو، قوات الحلفاء تجتاز الحدود وتدخل سوريا ولبنان وتواجه مقاومة شرسة من قوات الجنرال دنتز. وفي اليوم نفسه، الجنرال كاترو يصدر إعلاناً يتعهّد فيه بمنح دولتي المشرق الاستقلال والسيادة. استمرار الحملة خمسة أسابيع.
في 14 تموز/يوليو، انتهاء المعركة بتوقيع هدنة في عكا.

فـــي 14 تمـــوز/يوليو، كاظم الصلح، ابن عم رياض، يقدّم مذكّرة إلى رئيس الوزراء العراقـــي جميل المدفعي - ومنه إلى البريطانيين - يعلن فيها مطالب الوطنيين في المشرق بالاستقلال وإجراء انتخابات حرة.

فـــي 20 تمـــوز/يوليو، ديغول الغاضب يصل إلى القاهرة بغية الاحتجاج على شروط الهدنة.

في 25 تموز/يوليو، ديغول وليتلتون، وزير الدولة البريطاني للشرق الأوسط، يتوصلان إلى اتفاق بشأن اقتسام السلطة بين البريطانيين وفرنسا الحرة.

فـــي 9 أيلـــول/سبتمبر، ونستون تشرشل يعلن في مجلس العموم، "ليس لنا مطامع في ســـوريا... لا نريد الحلول محل فرنسا في سوريا... إننا في سوريا من أجل الانتصار في الحرب".

في 27 أيلول/سبتمبر، الجنرال كاترو يصدر بياناً باستقلال سوريا يترك جميع السلطات الفعلية بأدي الفرنسيين. ويسمّي الشيخ تاج الدين الحسيني رئيساً للوزراء.

فـــي 20 كانـــون الأول/ديسمبر، رياض الصلح يعمّم مذكّرة على البعثات الدبلوماسية الرئيـــسية فـــي المشرق يعلن فيها أن بيان كاترو يناقض التعهّد بالاستقلال الذي أعلنه كاترو نفسه، وكرّره تشرشل وديغول.

أحمـــد الداعـــوق يستقيل من رئاسة الوزراء في لبنان، وسامي الصلح، ابن عم رياض ورئيس المحكمة الجنائية، يحل محله

فـــي أواخـــر الـــسنة، الجنرال سبيرز يخيب أمله بالجنرال ديغول، ويتحوّل من مؤيّد للفرنسيين إلى مناهض لهم.

1941-43: وزيـــر الخارجـــية البريطانـــي أنتوني إيدن يعبّر عن دعم متحفّظ للوحدة العربية في بيانـــين - واحد في دار البلدية في لندن في29 أيار/مايو، والآخر في مجلس العموم في 24 شباط/فبراير 1943. لكن إيدن يحرص على عدم الإساءة إلى الفرنسيين أو تعريض التعاون مع ديغول للخطر.

1942: فـــي آذار/مارس، سبيرز يعود إلى بيروت من لندن بصلاحيات أوسع ولقب جديد، بعد منحه لقب سير. ويوضح أنه لم يعد يعترف بالانتداب الفرنسي.

في أوائل الصيف، العلاقات بين رياض الصلح وسبيرز تبدأ في التحسّن.

الجنـــرال سبيرز يضع خطة للتعامل مع أزمة القمح تقضي بجمع القمح من المزارعين على الفور مقابل الدفع نقداً. ومكتب القمح الذي أنشئ في أيار/مايو يدير الخطة.

فـــي 11 آب/أغسطس، الجنرال ديغول يصل إلى لبنان "ويقوم بجولة ملكية في دولتي المشرق، لكن تصريحاته تنفّر الرأي العام الوطني - وتفقد تشرشل صبره. وعندما تقدّم وزارة الخارجـــية الـــدعم لديغول في التأكيد على استمرار صلاحية الانتداب، سبيرز

يقرّر - بالتعاون مع رياض الصلح - إجبار الفرنسيين على الخروج من سوريا ولبنان من غير رجعة.

1942-43: الوضع الاقتصادي الكئيب يفاقم الغموض السياسي في لبنان. وسبيرز يلقي اللوم على الفرنسيين وعملائهم المحليين.

1943: إيدن لم يعد مهتماً بكسب الرأي العام العربي بعد انحسار التهديد الألماني عن الشرق الأوسط. ويرى أن من الأفضل بقاء نظام الانتداب.

في 17 كانون الثاني/يناير، وفاة رئيس الوزراء السوري تاج الدين الحسيني، الأداة في يد الفرنسيين، والوطنيون لا يأسفون لوفاته.

في 24 كانون الثاني/يناير، اللجنة الوطنية الفرنسية في الجزائر تعطي الجنرال كاترو الضوء الأخضر لإعادة العمل بالدستور في دولتي المشرق.

في 18 آذار/مارس، كاترو يصدر مراسيم إعادة العمل في الدستور، وإجراء الانتخابات العامة، وانتخاب رئيس للجمهورية من قبل مجلس النواب الجديد. والانتخابات ستجريها سلطة مؤقتة غير سياسية برئاسة أيوب ثابت.

في 17 حزيران/يونيو، ثابت يصدر مرسومين: الأول يحسب المغتربين اللبنانيين (معظمهم من المسيحيين) في تعداد السكان اللبنانيين، والآخر يزيد عدد النواب من اثنين وأربعين إلى أربعة وخمسين، بزيادة اثني عشر نائباص عشرة منهم مسيحيون واثنان مسلمون.

في 19 حزيران/يونيو، القادة المسلمون يجتمعون لمطالبة الفرنسيين بإلغاء مرسومي ثابت، ويهددون بمقاطعة الانتخابات إذا لم ينفّذ مطلبهم

سبيرز يقترح نسبة 6:5 لتحديد عدد النواب المسيحيين والمسلمين، وهي صيغة تحظى بقبول واسع وتمنح ثلاثين مقعداً للمسيحيين وخمسة وعشرين للمسلمين في مجلس النواب الجديد.

في 21 تموز/يوليو، جان هللو - المندوب العام للفرنسيين الأحرار الذي حل محل كاترو - يصدر مرسوماً يزيح فيه أيوب ثابت ويعيّن بترو طراد رئيساً للدولة. والإعلان عن إجراء الانتخابات في 29 آب/أغسطس و5 أيلول/سبتمبر، تليها الانتخابات الرئاسية في 19 أيلول/سبتمبر.

في أوائل آب/أغسطس، رياض الصلح يقرّر خوض الانتخابات على المقعد السني الوحيد في جنوب لبنان. وتشكيل لائحة موحّدة، تضم رياض الصلح وأحمد الأسعد وعادل عسيران، وفوزها بثلاثة أرباع الأصوات في جنوب لبنان. والقادة المسلمون الآخرون ينجحون أيضاً، ما يغيّر التوازن الطائفي في السياسة اللبنانية.

في آب/أغسطس، رياض الصلح يُنتخب نائباً في مجلس النواب اللبناني.

في 19 أيلول/سبتمبر، اجتماع تاريخي ثنائي بين رياض الصلح وبشارة الخوري في بلدة عاليه، ويتفقان على تقاسم السلطة بغية السعي للاستقلال عن فرنسا.
في 21 أيلول/سبتمبر، مجلس النواب اللبناني ينتخب بشارة الخوري رئيساً للجمهورية. وفي اليوم التالي يعيّن رياض الصلح رئيساً للوزراء. ويصبح الميثاق، الذي عبر عنه بيان رياض الصلح الوزاري، معروفاً باسم الميثاق الوطني. وفيه يتخلى السنّة عن فكرة تفكيك لبنان الكبير، في حين يعترف المسيحيون أن لبنان ذو وجه عربي.
في 25 أيلول/سبمبر، رياض الصلح يشكّل أول حكوماته، ويتولّى وزارة المالية إلى جانب رئاسة الوزراء.
في 7 تشرين الأول/أكتوبر، رياض الصلح يدلي بالبيان الحكومي في مجلس النواب.
في 22 تشرين الأول/أكتوبر، جان هللو يكتب إلى بشارة الخوري رافضاً التعديلات الدستورية التي يريد رياض الصلح إدخالها. ويزعم أن الانتداب لا يزال قائماً. ورياض يطالب بسحب رسالة هللو.
في 5 تشرين الثاني/نوفمبر، السفارة الفرنسية تسلّم الصحافة في بيروت بياناً شديد اللهجة صادراً عن اللجنة الوطنية الفرنسية في الجزائر: لا تعديلات على الدستور من دون موافقة صريحة من فرنسا.
في 8 تشرين الثاني/نوفمبر، مجلس النواب اللبناني يقرّ التعديلات الدستورية بالإجماع.
قبل فجر 11 تشرين الثاني/نوفمبر، اعتقال الرئيس بشارة الخوري ورئيس الوزراء رياض الصلح وبعض الوزراء في منازلهم، بالإضافة إلى الزعيم الطرابلسي عبد الحميد كرامي أيضاً، وسجنهم في قلعة راشيا.
في الساعة 8 من صباح 11 تشرين الثاني/نوفمبر، جان هللو يذيع بياناً يعلن فيه أن الوقت قد حان لوضع حد لنظام رياض الصلح الديكتاتوري. ويلغي التعديلات الدستورية ويسلّم السلطة التنفيذية إلى إميل أده الموالي للفرنسيين، ويسميه رئيساً للدولة والحكومة.
في 12 تشرين الثاني/نوفمبر، نائب رئيس الوزراء حبيب أبي شهلا ووزير الدفاع الأمير مجيد أرسلان ينشآن "حكومة مؤقتة" في بشامون بعد إفلاتهما من الاعتقال. وثلاثون نائباً يجتمعون في منزل الزعيم السني البارز صائب سلام، حيث يمنحون الحكومة المؤقتة الثقة. وتشكيل لجنة وطنية لتنظيم المقاومة السلبية. وسقوط قتلى في صفوف المتظاهرين برصاص القوات الفرنسية
في 12 تشرين الثاني/نوفمبر، الجنرال سبيرز يبعث برسالة رسمية إلى هللو يعبّر فيها عن غضبه من إجراءات المندوب العام.

في 12 تشرين الثاني/نوفمبر، الجنرال ديغول يبلغ روجر ماكينز، العضو في مكتب الاتصال البريطاني بالفرنسيين في الجزائر، أن الانتداب لا يمكن إنهاؤه في أثناء الحرب.

في 13 تشرين الثاني/نوفمبر، الكتائب اللبنانية والنجّادة ينزلان أعضاءهما إلى الشارع تحدياً للفرنسيين. واعتقال زعيم الكتائب بيار الجميل، ووقوع صدامات عديدة في أنحاء مختلفة من لبنان.

في 16 تشرين الثاني/نوفمبر، الجنرال كاترو يصل إلى لبنان قادما من الجزائر، حاملاً تعليمات بدعم إميل إده وإبعاد رياض الصلح عن منصبه. والقوات الفرنسية تهاجم قرية بشامون لكنها تردّ على أعقابها.

في 18 تشرين الثاني/نوفمبر، كاترو يعقد اجتماعات منفصلة سرية مع الرئيس بشارة الخوري ورياض الصلح بعد إحضارهما من راشيا إلى بيروت للاجتماع بهما. ونتيجة لهذه الاجتماعات، كاترو يقتنع بعدم إمكانية حل الأزمة من دون إعادة هذين الرجلين إلى السلطة.

في19 تشرين الثاني/نوفمبر، ريتشارد كيسي، وزير الدولة البريطاني للشرق الأوسط، يسلّم كاترو إنذاراً في منزل سبيرز. إذا لم يستبدل هللو ويطلق سراح السجناء في العاشرة من صباح 22 تشرين الثاني/نوفمبر، فستعلن بريطانيا الأحكام العرفية وتحرّر الرئيس والوزراء.

ليلة الأحد في 21 تشرين الثاني/نوفمبر، هيئة الإذاعة البريطانية تعلن عن قرب الإفراج عن الوزراء المعتقلين، ونوبة من الفرح تجتاح لبنان.

في صباح 22 تشرين الثاني/نوفمبر، الإفراج عن المعتقلين وقدومهم إلى بيروت، حيث يلقون استقبالاً شعبياً حافلاً. وفي وقت مبكّر من ذلك اليوم، إميل إدة يهرب في سيارة فرنسية إلى مكان مجهول.

في 24 تشرين الثاني/نوفمبر، كاترو يزور السرايا ويعلن إلغاء مراسيم هللو. وعودة الوضع إلى ما كان عليه في 10 تشرين تشرين الثاني:نوفمبر.

في 7 كانون الأول/ديسمبر، وزير الخارجية أنتوني إيدن يرأس اجتماعاً لكبار المسؤولين البريطانيين في القاهرة، ويبدي استياءه من تصرفات سبيرز، ويطلب منه حفظ ماء وجه الفرنسيين.

في 16 كانون الأول/ديسمبر، الجنرال كاترو يعود إلى بيروت قادماً من الجزائر، حاملاً تعليمات من ديغول تقضي بإجبار الحكومتين السورية واللبنانية على توقيع معاهدة تعيد إلى فرنسا موقعها البارز في المشرق. ويدخل في مفاوضات مع الحكومتين بمساعدة إيف شاتنيو، المندوب العام الجديد.

في 22 كانون الأول/ديسمبر، التوصل إلى اتفاق على نقل المصالح المشتركة إلى سوريا ولبنان.

1944: في 3 كانون الثاني/يناير، اتفاق كانون الأول/ديسمبر يستتبع بنقل إدارة الجمارك وإدارة حصر التبغ والتنباك، لكن الانتقال يظل وهمياً لأن الفرنسيين يحتفظون بمناصبهم.

في كانون الثاني/يناير، رياض الصلح يقوم بجولة في البلدان العربية يرافقه، وزير الخارجية، وموسى مبارك، مدير مكتب الرئيس بشارة الخوري.

في آذار/مارس، حكومة رياض الصلح تقدّم ميزانيتها الأولى إلى مجلس النواب. الميزانية لا تلحظ تخصيص اعتمادات للجيش الوطني.

في 1 آذار/مارس، السماح للحزب السوري القومي باستئناف أنشطته في دمشق وبيروت.

في 10 آذار/مارس،الجنرال بول بينيه يصل إلى بيروت للحلول محل شاتنيو. وظهور شائعات عن مخططات فرنسية لإزاحة رياض الصلح عن منصبه.

في 2 أيار/مايو، الحزب السوري القومي يقرّر دعم حكومة رياض الصلح.

في 23 آب/أغسطس، هيئة الإذاعة البريطانية تعلن عن تحرير باريس، والفرنسيون في المشرق يحتفلون بذلك.

في 24 آب/أغسطس، رينيه ماسيغلي، مفوّض الشؤون الخارجية لدى ديغول، يرسل مذكرة قاسية إلى أنتوني إيدن يشكو فيها من التعديات البريطانية على موقع فرنسا البارز في المشرق. وإيدن يرفض التهم، لكنه يدعم إبرام معاهدتين بين فرنسا وكل من سوريا ولبنان – خلافاً لتوصية سبيرز.

في أواخر آب/أغسطس، أنتوني إيدن يقرّر وضع نهاية لعمل سبيرز في المشرق، وفي 1 أيلول/سبتمبر، يبعث برسالة إلى سبيرز تعادل صرفه من الخدمة.

من 25 أيلول/سبتمبر إلى 7 تشرين الأول/أكتوبر، الوفود العربية تجتمع في الإسكندرية للإعداد للمؤتمر التأسيسي لجامعة الدول العربية. ورياض الصلح يرأس الوفد اللبناني. الجنرال بينيه يتسبّب في حدوث أزمة مع الحكومة اللبنانية بإرسال مذكّرة إلى الرئيس بشارة الخوري. وفيها يزعم أن بروتوكول الإسكندرية أبطل إعلان استقلال لبنان وسوريا الذي أصدره الجنرال كاترو في سنة 1941 لأنه يستبعد احتمال إبرام معاهدة مع فرنسا. البريطانيون يحتجّون. واللبنانيون يطلبون من بينيه سحب مذكّرته. ورياض الصلح يقول في مجلس النواب: "سنتمسّك باستقلالنا وندافع عنه مهما كان الثمن".

في 7 تشرين الأول/أكتوبر، سبع دول عربية توقّع على برتوكول الإسكندرية.

في 8 كانون الأول/ديسمبر، سبيرز يردّ على إيدن ويدافع عن سياساته وأفعاله. ويحصل على لقب مواطن شرف من سوريا ولبنان.

في أواسط كانون الأول/ديسمبر، الرئيس بشارة الخوري يسقط في الشارع ويكسر ذراعه. ثم يعاني من انهيار عصبي ويذهب إلى فلسطين للعلاج.

1945: في 9 كانون الثاني/يناير، رياض الصلح يستقيل من رئاسة الوزراء. والفرنسيون يحتفلون لسقوط رياض الصلح ورحيل سبيرز.

في أوائل كانون الثاني/يناير، الدبابات السورية تتحرك إلى دمشق. والعقيد أوليفا – روجيه، المندوب الفرنسي، يرسل تهديداً إلى الحكومة السورية، ويقطع المفاوضات بشأن نقل القوات الخاصة. ونزول القوات الاستعمارية الفرنسية في بيروت.

في 22 آذار/مارس، إنشاء جامعة الدول العربية في القاهرة، وتضم ستة أعضاء في البداية: سوريا وشرق الأردن (سمي الأردن في سنة 1946) والعراق ولبنان ومصر والمملكة العربية السعودية.

في 30 نيسان/أبريل، دوف كوبر، السفير البريطاني في باريس، يحذر ديغول من المخاطر على الأمن العام إذا وصلت التعزيزات الفرنسية إلى بيروت في أثناء المفوضات الفرنسية السورية.

في 5 أيار/مايو، اليمن ينضم إلى الجامعة العربية.

في 8 أيار/مايو، الجنرال بينيه يكشف عن شروط قاسية في المعاهدتين المقترحتين مع سوريا ولبنان. والحكومتان السورية واللبنانية ترفضان التفاوض على هذا الأساس وتدينان نزول القوات الفرنسية في بيروت. ووقوع مظاهرات عنيفة في دمشق.

في 29 – 31 أيار/مايو، المدفعية الفرنسية تقصف أهدافاً في دمشق، منها القلعة ومبنى البرلمان، وتحدث دماراً كبيراً وخسائر في الأرواح.

في 31 أيار/مايو، أنتوني إيدن يعلن في مجلس العموم أن رئيس الوزراء ونستون تشرشل أرسل رسالة إلى ديغول يبلغه فيها أن القوات البريطانية ستتدخّل لمنع إراقة الدماء، ويطلب منه أن يأمر القوات الفرنسية بوقف إطلاق النار والانسحاب إلى ثكناتها.

في 1 حزيران/يونيو، رتل بريطاني مدرّع يدخل دمشق. وبريطانيا تتولى السيطرة العسكرية إلى أن تستأنف الحكومة السورية مهامها العادية.

في أعقاب قصف مدينة دمشق، الفرنسيون يوافقون بضغط دولي على البدء بنقل القوات الخاصة.

1946: في كانون الثاني/يناير، انعقاد الاجتماع الأول للأمم المتحدة التي أنشئت حديثاً في لندن. ورياض الصلح يسافر إلى بريطانيا مستشاراً للوفد اللبناني برئاسة وزير الخارجية حميد فرنجية.

في 4 شباط/فبراير، الوفدان اللبناني والسوري يبعثان برسالة إلى الأمين العام للأمم المتحدة يشكون فيها من وجود القوات الفرنسية والبريطانية في أراضيهما، ويطلبان انسحابهما التام والمتزامن.

في 14 شباط/فبراير، الوفد اللبناني يغادر إلى باريس لاستئناف المفاوضات مع الفرنسيين، ويعلم أن السلطات العسكرية الفرنسية لا تعتزم سحب قواتها بأكملها من لبنان قبل 1 نيسان/أبريل 1947.

في 28 شباط/فبراير، مجلس الأمن الدولي يدرس الشكوى السورية واللبنانية. وفي 15 شباط/فبراير، رئيسا الوفدين السوري واللبناني يعهدان بقضيتيهما إلى المجلس.

الرئيسان السوري واللبناني يجتمعان ويقرّران إصدار تعليمات إلى وفديهما بالسفر إلى نيويورك لعرض قضيتيهما على مجلس الأمن الدولي في جلسته القادمة في 21 آذار/مارس، إذا لم تليّن فرنسا موقفها.

في 17 آذار/مارس، استئناف المفاوضات السورية اللبنانية في باريس، بعد أن تمكّن رياض الصلح من التغلّب على ستانيسلاس أستروروغ المتصلّب، الأمين العام للمندوبية العامة الفرنسية في بيروت.

في 23 آذار/مارس، الفرنسيون يوافقون على سحب قواتهم بحلول 31 كانون الأول/ديسمبر 1946.

في 28 آذار/مارس، الأمير عبد الله يحصل على استقلال اسمي عن بريطانيا ويعلن نفسه ملكاً على مملكة شرق الأردن الهاشمية (الأردنية لاحقاً)، ويشرع في الترويج لإنشاء سوريا الكبرى تحت حكمه.

في 14 كانون الأول/ديسمبر، رياض الصلح يكلّف ثانية برئاسة الوزراء.

في 21 كانون الأول/ديسمبر، رياض الصلح يلقي البيان الحكومي أمام مجلس النواب اللبناني.

في 31 كانون الأول/ديسمبر، جلاء آخر جندي فرنسي عن لبنان.

1946-1951: رياض الصلح يتولّى رئاسة الحكومة من 14 كانون الأول/ديسمبر 1946 إلى 14 شباط/فبراير 1951، أي لمدة أربع سنوات وشهرين.

1947: في 2 آذار/مارس، أنطون سعادة، مؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي، يعود إلى الشرق الأوسط قادماً من أميركا الجنوبية، ويلقى ترحيباً كبيراً من مؤيديه.

في 5 آذار/مارس، بيار الجميل، زعيم الكتائب اللبنانية يهاجم سعادة بعنف في صحيفة العمل.

في 13 آذار/مارس، المدعي العام اللبناني يصدر مذكّرة اعتقال بحقّ أنطون سعادة. لكن سعادة يبقى طليقاً ويتحدّى الشرطة اللبنانية أن توقفه.

إجـــراء الانتخابات النيابية اللبنانية على دورتين، في 25 أيار/مايو و1 حزيران/يونيو. وفوز الأحزاب الموالية للحكومة بسبعة وأربعين مقعداً من أصل خمسة وخمسين مقعداً. المعارضـــة تـــتهم الحكومة بتزوير النتائج. رياض الصلح يستقيل نتيجة اتهامه بتزوير الانتخابات، لكن الرئيس بشارة الخوري يكلّفه بتشكيل حكومة جديدة.

فـــي 20 حزيران/يونيو، الكتلة الوطنية في سوريا تتلقى ضربة موجعة بوفاة سعد الله الجابـــري، أحـــد أبرز أعضائها. وفي غضون ذلك، الكتلة تنقسم إلى الحزب الوطني وحزب الشعب.

فـــي 4 آب/أغسطس، الملك عبد الله يدعو إلى مؤتمر سوري في عمّان - على غرار المؤتمر السوري العام الذي عقد في سنة 1920 - لبحث خططه الوحدوية. وطموحاته تثير رفض القادة العرب الآخرين، لا سيما الرئيس السوري شكري القوتلي.

فـــي أيلول/سبتمبر، بريطانيا تعلن أنها ستنهي انتدابها على فلسطين وستنسحب من البلد في 14 أيار/مايو 1948.

في 29 تشرين الثاني/نوفمبر، الجمعية العامة للأمم المتحدة تصوّت بأغلبية الثلثين، في اجتماعها المنعقد في باريس، على تقسيم فلسطين بين العرب واليهود. ومنح اليهود 50 بالمئة من البلد مع أنهم يشكّلون ثلث السكان فقط، ولا يملكون قانونياً سوى 7 بالمئة من الأرض. واليهود يحتفلون فيما يغضب العرب.

فـــي كانـــون الأول/ديـــسمبر، الإرهابـــيون الصهاينة من عصابتي شتيرت والإرغون يهاجمون الأحياء العربية في القدس، ويطلقون دورة العنف.

1947-48: فـــي أواخر سنة 1947 وأوائل سنة 1948، في أواخر سنة 1947 وأوائل سنة 1948، تـــشكيل قوتين عربيتين من المتطوّعين: جيش الإنقاذ العربي، بقيادة فوزي القاوقجي، وجيش الجهاد المقدّس، بمبادرة شخصية من الحاج أمين الحسيني، بقيادة ابن عمه، عبد القادر الحسيني.

فـــي الأشـــهر الفاصلة بين التصويت في الأمم المتحدة على تقسيم فلسطين في تشرين الثانـــي/نوفمبـــر 1947 ونهاية الانتداب على فلسطين في 14 أيار/مايو 1948، رياض الصلح يقدّم اقتراحات متكرّرة إلى البريطانيين من أجل "تسوية شاملة". لكن بريطانيا لا تـــردّ بالإيجاب. فلندن ترى أن بريطانيا الواهنة ستغادر فلسطين، وسيحصل الصهاينة على دولتهم، وعلى العرب الاكتفاء بما يمكنهم الاحتفاظ به.

1948: فـــي 6 شباط/فبراير، وزير الخارجية اللبناني حميد فرنجية يوقّع اتفاقاً مالياً في باريس يـــنص على ضمان فرنسا خفض قيمة تغطية العملة اللبنانية بالفرنك الفرنسي. سوريا تـــرفض التوقـــيع على اتفاق مماثل، ما يؤدي إلى انفصال العملتين السورية واللبنانية، وإلى توتّر خطير في العلاقات بين البلدين.

فـــي آذار/مـــارس، قادة ألوية الهاغاه الاثني عشر يتلقون قوائم بالقرى الفلسطينية التي يؤمر كل منها بحرقها وتدميرها وطرد سكانها.

في 9 نيسان/أبريل، ستة وأربعون نائباً يوقّعون على عريضة لتعديل الدستور بما يسمح لبـــشارة الخـــوري بالترشّـــح للرئاسة مرة ثانية. وإقرار التعديل في 21 نيسان/أبريل، وإعادة انتخاب بشارة الخوري في 27 أيار/مايو.

فـــي 9 نيـــسان/أبريل، إرهابيون من عصابتي شتيرن والإرغون يرتكبون مجزرة في قرية دير ياسين يذهب ضحيتها 254 رجلاً وامرأة وطفلاً.

فـــي 17 نيسان/أبريل، مجلس الأمن الدولي يصدر القرار رقم 46 الذي يفرض حظراً شاملاً على إرسال الأسلحة إلى الشرق الأوسط. العرب يتأثّرون جداً بهذا القرار، فيما يواصل الصهاينة تسلّم الأسلحة سراً من الكتلة السوفياتية وفرنسا.

فـــي 9 أيـــار/مايـــو، اللجنة السياسية للجامعة العربية في دمشق لوضع خطة للعمليات العسكرية. ورياض الصلح يحاول حشد القادة العرب للمشاركة في الحرب.

في 14 أيار/مايو، ديفيد بن غوريون يعلن من تل أبيب إنشاء دولة إسرائيل.

فـــي 15 أيار/مايو، الجيش المصري يعبر الحدود إلى فلسطين ويصل إلى أشدود، على بعد 32 كيلومتراً من تل أبيب.

فـــي 15 أيـــار/مايـــو، الفيلق العربي الأردني يدخل فلسطين، لكنه لا يتجاوز خطوط التقسيم.

في 21 أيار/مايو، القوات العراقية تدخل الضفة الغربية عابرة جسر أللنبي وتصل إلى نابلس، وطولكرم في 23 أيار/مايو.

فـــي 29 أيـــار/مايو، مجلس الأمن الدولي يصوّت على وقف لإطلاق النار مدته أربعة أســـابيع ويكلّـــف الكونت برنادوت بالإشراف على تنفيذه. لكن إسرائيل تواصل ترحيل الفلسطينيين من قراهم وقتل كل من يحاول العودة إليها.

فـــي أيار/مايو – حزيران/يونيو، الجيش اللبناني والصهاينة يشتبكون في قرية المالكية، وتبادل الاستيلاء على القرية عدة مرات.

فـــي آب/أغـــسطس، ريـــاض الصلح يزور عمّان ليستعلم من الملك عبد الله عن سبب الأداء الضعيف للفيلق العربي في حرب فلسطين. هل أعاقه البريطانيون؟ وهل غلوب باشـــا المسؤول؟ لم يكن رياض يعرف مقدار ابتعاد الملك الأردني عن الإجماع العربي فـــي تعاملاتـــه السرية مع الصهاينة. وفي أعقاب المحادثات مع الملك، رياض يرسل مذكّـــرة كتيـــبة بعـــنوان "حاضر الدول العربية وشعوبها" إلى رئيس الوزراء العراقي مزاحم الباجه جي.

في 17 أيلول/سبتمبر، عصابة شتيرن تغتال الكونت برنادوت في القدس.

1948-49: القــوات الإســرائيلية تــنفّذ سلــسلة من العمليات بين تشرين الأول/أكتوبر 1948 و19 آذار/مــارس 1949 تسفر عن هزيمة العرب التامة واستيلاء إسرائيل على الكثير من الأراضي. 750,000 لاجئ فلسطيني يتدفّقون على الدول العربية. والرأي العام العربي يعاني من انهيار المعنويات والإحساس بالمهانة من جراء الهزيمة في فلسطين.

1949: في 13 كانون الثاني/يناير، محادثات الهدنة تفتتح في رودس بين إسرائيل ومصر. في اتفاقــيات الهدنــة التي أبرمت في وقت باكر من السنة، إسرائيل تؤمن الاستيلاء على أكثــر من ثلاثة أرباع فلسطين التاريخية. ورياض الصلح يجبر على الاعتراف بنكبة الهزيمة العربية.

فــي 30 آذار/مــارس، العقــيد حسني الزعيم يستولي على السلطة في دمشق، ويطيح بالــنظام البرلمانــي والوطنيــين المخضرمين. اعتقال الرئيس القوتلي في المستشفى. وانقلاب الزعيم يحفز سعادة على التفكير في الاستيلاء على السلطة في لبنان. وسعادة يبحث خططاً للانقلاب في لبنان في أثناء زيارة إلى دمشق.

فــي 21 نيسان/أبريل، الزعيم يقوم بزيارة سرية إلى الملك المصري فاروق ويستسلم لإطراءات الملك.

في 23 نيسان/أبريل، الحكومة اللبنانية تعترف بحكومة حسني الزعيم، بعد ثلاثة أسابيع من التردّد.

في 24 نيسان/أبريل، رياض الصلح يسافر إلى سوريا للاجتماع بحسني الزعيم ويخفي استياءه من تدخّل الجيش السوري في السياسة.

في أواسط أيار/مايو، وحدة من الجيش السوري تجتاز الحدود اللبنانية سراً وتقتل كامل حــسين يوســف، وهــو مواطن لبناني من أصل سوري. واليوسف مشتبه بأنه عميل إسرائيلي زُعم أنه قدّم رشوة من أموال صهيونية إلى حسني الزعيم، عندما كان الأخير قائداً للجبهة السورية في سنة 1948.

لــيل 9-10 حزيران/يونيو، الكتائب ومؤيدو أنطون سعادة يصطدمون في الجميزة في بيــروت. وإضــرام النار في مطبعة الحزب السوري القومي. واعتقال عدد كبير من أعضاء حزب سعادة في اليوم التالي.

لــيل 2-3 تمــوز/يولــيو، مــسلّحون مــن الحزب السوري القومي يهاجمون مراكز الــدرك اللبناني. واعتقال 900 عضو من الحزب بحلول 7 تموز/يوليو، بتهمة محاولة الاســتيلاء على السلطة في انقلاب عسكري لتنفيذ مشروع سوريا الكبرى الذي يدعو إليه سعادة.

الزعيم يستدرج سعادة إلى قصر الرئاسة في دمشق، حيث يعتقله ويسلّمه إلى السلطات اللبنانية، شرط قتله في الرحلة إلى بيروت.

سعادة يحاكم خلف أبواب مغلقة أمام محكمة عسكرية ويصدر عليه حكم بالإعدام في 7 تموز/يوليو. وتنفيذ حكم الإعدام فجر اليوم التالي.

في 16 تموز/يوليو، محاكمة ثمانية وستين عضواً في الحزب السوري القومي أمام محكمة عسكرية. أعدم منهم ستة. واحتجاز 800 آخرين بانتظار المحاكمة.

في 17 تموز/يوليو، استقبال رياض الصلح رسمياً في سوريا.

في 14 آب/أغسطس، بعد أربعة أشهر ونصف على استيلاء حسني الزعيم على السلطة، العقيد سامي الحناوي ينقلب عليه، وإعدام الزعيم ورئيس وزرائه.

في 27 كانون الأول/ديسمبر، العقيد أديب الشيشكلي ينفذ انقلاباً على العقيد سامي الحناوي في سوريا ويعيّن خالد العظم رئيساً للوزراء.

1950: في 14 شباط/فبراير، خالد العظمو يضع حجر الأساس لبناء ميناء اللاذقية السوري على البحر المتوسط.

في 9 آذار/مارس، شاب في الحزب السوري القومي يحاول اغتيال رياض الصلح.

في 13 آذار/مارس، خالد العظم يحلّ الاتحاد الجمركي السوري اللبناني.

في آذار/مارس، الصحافة المصرية تنشر وثائق زوّدها بها المقدّم عبد الله التل تكشف عن تعاون الملك عبد أن الله سراً مع إسرائيل. وتزعم أم إحدى الوثائق تحتوي على النص الكامل لمعاهدة السلام المقترحة. والصحف العربية في لبنان تشارك في شنّ حملة مريرة على الملك.

في زيارة إلى القاهرة في آذار/مارس لحضور اجتماع اللجنة السياسية للجامعة العربية، رياض يقترح قراراً بإحالة الأردن إلى اللجنة لامتناعه عن حضور الاجتماع. واللجنة تقترح طرد الأردن من الجامعة بسبب مفاوضات السلام التي يجريها مع إسرائيل.

في زيارة إلى القاهرة في أيار/مايو لحضور اجتماع آخر للجنة السياسية للجامعة العربية، رياض يشنّ هجوماً عنيفاً على الملك عبد الله. وفي الزيارة نفسها، يبلغ دبلوماسياً فرنسياً أن سوريا ستغرق في الفوضى إذا لم يعد الرئيس شكري القوتلي إلى السلطة عما قريب.

تراجع مكانة رياض الصلح نتيجة خلافه مع "السلطان" سليم، شقيق بشارة الخوري الأصغر.

1951: وفاة نظيرة مفتي زادة، والدة رياض، في بيروت.

في 13 شباط/فبراير، رياض الصلح يستقيل من رئاسة الوزراء.

في أيار/مايو، الملك عبد الله يبدي رغبة في الاجتماع برياض الصلح، في أثناء زيارته إلى بيروت، لكن الأخير يرفض. وفي مكالمة هاتفية لاحقة، عبد الله يلحّ على رياض بالمجيء إلى عمّان للتباحث في "مسألة مهمة جداً".

في 13 تموز/يوليو، رياض الصلح يتوجّه بالطائرة إلى عمّان، بصحبة طبيبه، وحارس شخصي واحد، وصحافيين.

عصر 16 تموز/يوليو، بعد عقد عدة اجتماعات مع الملك عبد الله، رياض الصلح يتوجّه بالسيارة إلى المطار للعودة إلى بيروت، حيث يعترضها ثلاثة أعضاء في الحزب السوري القومي، حزب سعادة، ويطلقون النار عليه فيقتلونه.

في 17 تموز/يوليو، نقل جثمان رياض الصلح لدفنه في بيروت. وما يقرب من نصف مليون نسمة يصطفون في الشوارع تكريماً له.

في 20 تموز/يوليو، بعد مرور أربعة أيام على مقتل رياض الصلح، اغتيال الملك عبد الله في القدس، عند باب المسجد الأقصى.

1952: في 16 تموز/يوليو، إحياء الذكرى الأولى لوفاة رياض الصلح في بيروت في احتفال أقيم عند ضريحه.

في 18 أيلول/سبتمبر، إضراب عام يجبر الرئيس بشارة الخوري على الاستقالة من منصبه. وانتخاب كميل شمعون رئيساً مكانه.

1953: في 21 نيسان/أبريل، بلدية بيروت تقيم تمثالاً لرياض الصلح في وسط المدينة.

2007: صدور كتاب يوسف أرغامن "الحرب الخفية" عن وزارة الدفاع الإسرائيلية. وفيه يروي المؤلف شهادة العميل الإسرائيلي السري ياكوف كوهين في بيروت التي يذكر فيها أنه كلّف بقتل رياض الصلح في سنة 1947 لأن إسرائيل اعتبرته أخطر القادة العرب. وتثير هذه الشهادة احتمال أن تكون إسرائيل ضالعة في مقتل رياض الصلح في سنة 1951.

مصادر مختارة
(باللغة العربية)

إبراهيم أبو شقرا، **الحاج أمين الحسيني منذ ولادته حتى ثورة 1936**، اللاذقية 1998.

عادل أرسلان، **مذكرات الأمير عادل أرسلان**، 3 أجزاء، بيروت 1983.

عبد الرحمن الشهبندر، **الثورة الوطنية**، دمشق 1933.

علي زين، **من أوراقي**، بيروت، لا. ت.

محمد عزة دروزة، **مذكرات**، الجزأين الأول والثاني، بيروت 1993.

محمد علي فرحات، (محرر)، **أهل الصلح**، بيروت 1891.

محمد جميل بيهم، **لبنان بين المشرق والمغرب 1920–1969**، بيروت 1969.

حسن علي حلاق، **مذكرات سليم علي سلام 1868– 1938**، بيروت 1982.

خالد العظم، **مذكرات**، 3 أجزاء، بيروت 1993.

أمين الحسيني، **مذكرات الحاج أمين الحسيني**، دمشق 1999.

أكرم الحوراني، **مذكرات أكرم الحوراني**، القاهرة 2000.

باسم الجسر، **ميثاق 1943: لماذا كان ولماذا سقط؟** بيروت 1978، الطبعة الثانية، 1997.

بشارة الخوري، **حقائق لبنانية**، 3 أجزاء، بيروت 1960.

فارس الخوري، **أوراق فارس الخوري**، (حررتها كوليت الخوري)، جزأين، دمشق 1989 و1997.

خيرية قاسمية، (محرر)، **الحكومة العربية في دمشق بين 1918– 1920**، بيروت 1971.

خيرية قاسمية، (محرر)، **الرعيل الأول: حياة وأوراق نبيه وعادل العظمة**، لندن 1991.

سـعيد مـراد، **الحركة الوحدوية في لبنان بين الحربين العالميتين 1914–1946**، بيروت 1986.

زهـير عسيران، **زهير عسيران يتذكر المؤامرات والانقلابات في دنيا العرب**، بيروت 1998.

أنطون سعادة، **نشوء الأمم**، الجزء الأول، 1938.

سعادة، **التعاليم السورية القومية الاجتماعية**، الطبعة الرابعة، 1947.

محمد جابر آل صفا، **تاريخ جبل عامل**، بيروت، لا. ت.

عبد الرحمن محمود الحص، **رياض الصلح**، بيروت 1951.

يوسف السودا، **في سبيل الاستقلال**، بيروت 1967.

يوسف يزبك، **أوراق لبنانية**، 3 مجلدات، بيروت.

يوسف سالم، **خمسون سنة مع الناس**، الطبعة الثانية، بيروت 1998.

فاطمـة قـدورة الشامي، **عارف بك النعماني: وثائق حول العلاقات اللبنانية السورية الفرنسية**، بيروت 1999.

ساطع الحصري، **يوم ميسلون**، بيروت 1964.

سامي الصلح، **لبنان: العبث السياسي والمصير المجهول**، بيروت 2000.

عـادل الـصلح، **سطور من الرسالة: تاريخ حركة استقلالية قامت في المشرق العربـي سنة 1877**، بيروت 1966.

هلال الصلح، **تاريخ رجل وقضية: رياض الصلح 1894–1951**، بيروت 1994.

مصادر مختارة

(باللغات الأوروبية)

Feroz Ahmad, ***The Young Turks***, Oxford 1969.

Fouad Ajami, ***The Vanished Imam: Musa al-Sadr & the Shia of Lebanon***, London 1986.

Maurice Albord, ***L'Armée Française & les Etats du Levant 1936-1946***, Paris 2000.

Denise Ammoun, ***Histoire du Liban Contemporain 1860- 1943***, Paris 1997.

Meropi Anastassiadou, ***Salonique, 1830- 1912: Une ville ottomane à l'âge des réformes***, Leiden 1997.

George Antonius, **The Arab Awakening**, London, 1951.

Gérald Arboit, ***Aux sources de la politique arabe de la France: le Second Empire au Machrek***, Paris 2000.

Yosef Argaman, ***The Shadow War: Twenty-five Intelligence and Security***

Cases in Israel (in Hebrew), Ministry of Defense Publications Department, Israel 2007.

André Raymond, 'La Syrie du Royaume Arabe à l'Independence,' in André Raymond (ed.) **La Syrie d'Aujourd'hui**, Paris 1980.

Jean-Luc Arnaud, ***Damas: Urbanisme et Archicture*, 1860- 1925**, Paris 2006.

Uri Bar Joseph, **The Best of Enemies: Israel and Jordan in the War of 1948**, London 1987.

Dimitri Baramki, **Phoenicia and the Phoenicians**, Beirut 1961.

David Ben-Gurion, **My Talks with Arab Leaders**, New York, 1973.

Serge Bernstein, ***Léon Blum***, Paris 2006.

Ahmad Beydoun, ***Identité confessionelle et temps social chez les historiens libanais contemporains***, Beirut 1984.

Ahmad Beydoun, ***Le Liban, itinéraires dans une guerre incivile***, Paris 1993.

Ahmad Beydoun, 'Extrème Méditerranée: Le libanisme contemporain à l'épreuve de la mer' in Elias Khoury & Ahmad Beydoun, ***La Méditerranée libanaise***, Paris 2000.

Ahmad Beydoun, 'Riad el-Solh et les élections législatives de 1943,' in Gérard D. Khoury (ed.). ***Sélim Takla*, 1895-1945**, Paris and Beirut 2004.

Edwin Black, ***The Transfer Agreement, the Dramatic Story of the Pact between the Third Reich & Jewish Palestine***, Washington 1984. New ed. 1999.

Hamit Bozarslan, ***Histoire de la Turquie Contemporaine***, Paris 2004, 2007.

Fouad L. Boustany, ***Introduction à l'histoire politique du Liban moderne***, Paris 1991.

Marwan R. Buheiry (ed.), ***Intellectual Life in the Arab East***, **1890-1939**, Beirut 1981.

Marwan R. Buheiry. ***Beirut's Role in the Political Economy of the French Mandate 1919-1939***, Centre for Lebanese Studies, Oxford (n.d.).

Sir Reader Bullard, ***Britain and the Middle East: From earliest times to 1951***, London 1952..

S. Tufan Buzpinar, 'The Question of Citizenship of the Algerian Immigrants in Syria, 1847-1900,' in Moshe Ma'oz et al (eds.) ***Modern Syria: From Ottoman Rule to Pivotal Role in the Middle East***, Brighton 1999.

Neil Caplan, ***Futile Diplomacy***, 2 vols., London 1983.

G. Carbillet, ***Au Djebel Druze***, Paris 1929.

Richard Casey, **Personal Experience, 1939-1946,** London 1962.

General Georges Catroux, ***Deux Missions en Moyen- Orient, 1919-1922***, Paris 1958.

General Georges Catroux, ***Dans la Bataille de Méditerranée***, Paris 1949.

Neil Caplan, ***Futile Diplomacy***, vol 1, *Early Arab-Zionist Negotiation Attempts 1913-1931*, London 1983.

Youseef Chaitani, ***Post-Colonial Syria and Lebanon***, London 2007.

Tamara Chalabi, ***The Shi'is of Jabal 'Amil and the New Lebanon: Community and Nation State, 1918-1943***, London 2006.

Dominique Chevalier, ***La Société du Mont Liban à L'Epoque de la Révolution Industrielle en Europe***, Paris 1971.

Michel Chiha, ***Le Liban d'Aujourd'hui***, Beirut 1942.

Youssef M. Choueiri (ed.) ***State and Society in Syria and Lebanon***, Exeter 1993.

William L Cleveland, ***Islam against the West, Shakib Arslan and the Campaign for Islamic Nationalism***, University of Texas Press, Austin 1985.

Vincent Cloarec, ***La France et la question de Syrie, 1914-1918***, Paris 1988.

W.B. Cohen,' The Colonial Policy of the Popular Front,' in ***French Historical Studies***, 7, Spring 1972.

Jacques Couland, ***Le Movement syndical au Liban 1919-1946***, Paris 1970.

George Corm, ***Le Liban Contemporain***, Paris 2005.

Raphael Danziger, ***'Abd al-Qadir and the Algerians***, New York, 1977.

C. Ernest Dawn, ***From Ottomanism to Arabism: Essays on the Origins of Arab Nationalism***, University of Illinois, Chicago 1973.

Inès- Leila Dakhli, ***Les intellectuels syro-libanais dans la première moitié du XXe siècle (1908-1940)***, doctoral thesis presented at Université Aix-Marseille I.

Djemel Pasha (Jamal Pasha), ***Memories of a Turkish Statesman, 1913-1919,*** New York 1922.

Carla Eddé, 'La mobilization 'populaire' à Beyrouth à l'époque du Mandat, le cas des boycotts des trams et de l'électricité' in Nadine Méouchy (ed.) ***France, Syrie et Liban 1918-1946: les ambiguïtés et les dynamiques de la relation mandataire,*** Damas 2002.

Henri Eddé, ***Le Liban d'où je viens***, Paris 1997.

William A Eddy, ***FDR meets Ibn Saud***, New York, 1954.

Laura Zittrain Eisenberg, ***My Enemy's Enemy: Lebanon in Early Zionist Imagination 1900-1948***, Detroit 1994.

Marcel Emerit, 'La crise syrienne et l'expansion économique française en 1860,' in ***Revue historique***, Paris, Janvier-Mars 1952.

John P. Entelis, ***Pluralism and Party Transformation in Lebanon: Al-Kata'ib 1936-1970***, Leiden 1974.

Bruno Etienne, ***Abdelkader***, Paris 1994.

Leila Tarazi Fawaz, ***An Occasion for War: Civil Conflict in Lebanon and Damascus in 1860***, London 1994.

Kais Firro, ***Inventing Lebanon, Nationalism and the State under the Mandate***, London 2003.

Antoine Fleury, 'Le movement national arabe à Genève Durant l'entre-deux-guerres,' in ***Relations Internationals,*** no 19, automne 1979.

Pierre Fournié, 'Le Mandat à l'épreuve des passions françaises: l'affaire Sarrail (1925),' in Nadine Méouchy, ***France, Syrie et Liban, 1918-1946, les ambiguïtés et les dynamiques de la relation mandataire***, Damas, 2002.

Geoffrey Furlonge, ***Palestine is my Country: The Story of Musa Alami***, London, 1969.

A.B. Gaunson, ***The Anglo-French Clash in Lebanon and Syria 1940-45***, New York 1987.

Amine Gemayel, ***Peace and Unity***, Gerrards Cross 1984.

Irene L. Gendzier, ***Notes from the Minefield: United States Intervention in Lebanon and the Middle East, 1945-1958***, Oxford 1999.

François Georgeon, ***Abdülhamid* II**, Paris 2003.

Basil C. Gounaris, 'Thessaloniki, 1830-1912: History, Economy and Society,' in I.K. Hassiotis (Ed.), ***Thessaloniki***, Athens 1997.

I.K. Hassiotis (Ed.), ***Thessaloniki: History and Culture,*** Athens 1997.

Werner Otto von Hentig, Mein Leben, *Ein Dienstreise*, Geottingen 1962.

Joseph Heller, ***The Stern Gang: Ideology, Politics and Terror, 1940-1949***, London 1995.

David Hirst, ***The Gun and the Olive Branch, The Roots of Violence in the Middle East***, London 1977; revised and expanded edition, New York 2003.

Philip K. Hitti, ***The Origins of the Druze people and Religion, with extracts from their sacred writings***, New York 1928.

Philip K. Hitti, ***Lebcnon in History***, London 1957.

Frederic C. Hof, ***Galilee Divided: The Israeli- Lebanon Frontier, 1916- 1984***, Boulder and London, 1985.

Frederic C. Hof, ***Beyond the Boundary: Lebanon, Israel and the Challenge of Change***, Washington (n.d.)

Albert Hourani, ***Syria and Lebanon: A Political Essay***, Oxford 1946.

Albert Hourani, ***Minorities in the Arab World***, London 1947.

Albert Hourani, ***A Vision of History***, Beirut 1961.

Albert Hourani, ***Arabic Thought in the Liberal Age, 1798- 1939***, Oxford 1962.

Albert Hourani, 'Lebanon from Feudalism to Modem State,' in ***Middle Eastern Studies***, April 1966.

Albert Hourani, 'Ideologies of the Mountain and the City,' in Roger Owen (ed.), ***Essays on the Crisis in Lebanon***, London 1976.

Albert Hourani, ***The Emergence of the Modern Middle East***, London 1981.

Albert Hourani, 'From Jabal 'Amil to Persia,' in ***Bulletin of the School of Oriental and African Studies***, 49, 1986.

Albert Hourani, ***A History of the Arab Peoples***, London 1991.

Albert Hourani, ***Political Society in Lebanon: a Historical Introduction***, Centre for Lebanese Studies, Oxford (n.d.)

Albert Hourani, *Philip S. Khoury & Mary C. Wilson (eds.)*, ***The Modern Middle East***, London 1993.

Michael C. Hudson, ***The Precarious Republic: Political Modernization in Lebanon***, New York 1968.

J.C. Hurewitz, ***The Struggle for Palestine***, W.W. Norton &Co. New York 1950.

J.C.Hurewitz, ***Diplomacy in the Near and Middle East***, Vol. 2, Princeton 1956.

P. Huvelin, ***Que vaut la Syrie***? Paris 1921.

Zahida Darwiche Jabbour, (ed.) ***Les Villes Cosmopolites Arabes 1870-1930: Beyrouth, Alexandrie, Alep***, Beyrouth 2004.

M. Jaber, ***Pouvoir et société au Jabal Amel de 1749 à 1920 dans la conscience des chroniques chiites et dans un essai d'interprétation***, Paris 1978.

Richard L. Jasse, 'Great Britain and Abdullah's Plan to Partition Palestine: A "Natural Sorting Out,"' in ***Middle Eastern Studies***, vol. 22, 1986.

Michael Johnson, ***Class & Client in Beirut: The Sunni Muslim Community and the Lebanese State 1840- 1985***, London 1986.

M. Jouplain, ***La Question du Liban***, Paris 1908.

Aykut Kansu, ***Politics in Post-Revolutionary Turkey 1908- 1913***, Leiden 2000.

Samir Kassir, ***Histoire de Beyrouth***, Paris 2003.

Asher Kaufman, ***Reviving Phoenicia: The Search for Identity in Lebanon***, London 2004.

Hasan Kayali, ***Arabs and Young Turks: Ottomanism, Arabism and Islamism in the Ottoman Empire, 1908- 1913***, Berkeley 1997.

Samir Khalaf, ***Heart of Beirut: Reclaiming the Bourj***, London 2006.

Rashid Khalidi, *'Abd al-Ghani al-'Uraisi and al-Mufid,'* in Marwan R. Buheiry (ed.) ***Intellectual Life in the Arab East, 1890-1939***, Beirut 1981.

Rashid Khalidi, Lisa Anderson, Muhammad Muslih, Reeva S. Simon (eds.), ***The Origins of Arab Nationalism***, New York, 1991.

Walid Khalidi, ***From Haven to Conquest***, Beirut 1971.

Walid Khalidi, ***Conflict and Violence in Lebanon: Confrontation in the Middle East***, Cambridge, Mass, 1979.

Walid Khaildi, 'Illegal Jewish Immigration to Palestine under the British Mandate,' in ***Journal of Palestine Studies***, no. 140, Vol. XXXV, No. 4, Summer 2006.

Gérard D. Khoury, ***La France et l'Orient Arabe: Naissance du Liban Moderne 1914-1920***, Paris 1993.

Gérard D. Khoury (ed), ***Sélim Takla, 1895-1945***, Paris 2004.

Gérard D. Khoury, ***Une tutelle Coloniale, Le Mandat Français en Syrie et au Liban: Ecrits politiques de Robert de Caix***, Paris 2006.

Philip S. Khoury, 'Factionalism Among Syrian Nationalists During the French Mandate,' in ***International Journal of Middle Eastern Studies***, 13, 1981.

Philip S. Khoury, ***Syria and the French Mandate: The Politics of Arab Nationalism 1920-1945***, Princeton 1987.

Philip S. Khoury, 'Syrian Urban Politics in Transition,' in Hourani, Wilson, Khoury (eds.) ***The Modern Middle East***, London 1993.

John King,'Abd al-Qadir and Arab Nationalism,' in John Spagnolo (ed.) ***Problems of the Modern Middle East in Historical Perspective: Essays in Honour of Albert Hourani***, Reading 1992.

Sir Alec Kirkbride, ***A Crackle of Thorns***, London 1956.

Sir Alec Kirkbride, ***From the Wings: Amman Memoirs, 1947-1951***, London 1976.

Jean Lacouture, Ghassan Tuéini, Gérard D. Khoury, ***Un siècle pour rien: Le Moyen-Orient arabe de 'Empire Ottoman à l'Empire américain***, Paris 2002.

Henry Laurens, ***La Question de Palestine, Tome premier, 1799- 1922, L'Invention de la Terre Sainte***, Fayard, Paris 1999 ; **Tome deuxième, 1922-1947, *Une mission sacré de civilisation***, Fayard, Paris 2002 ; **Tome troisième, 1947-1967, *L'accomplissement des prophéties.***

Henry Laurens, ***L'Orient Arabe: Arabisme et Islamism de 1798 à 1945***, Paris 1993.

Hugh Leach, 'Lawrence's Strategy and Tactics in the Arab Revolt,' in ***Journal of the Royal Society for Asian Affairs***, London, November 2006.

Wm. Roger Lewis, ***The British Empire in the Middle East***, **1945-1951**, Oxford 1984.

Wm. Roger Lewis, ***Ends of British Imperialism***, Collected Essays, London 2007.

Stephan Hemsley Longrigg, ***Syria and Lebanon under the French Mandate***, Oxford 1958.

Pierre- Jean Luizard, ***La vie de l'Ayatollah Mahdi al-Khalisi***, Paris 2005.

Callum A MacDonald, 'Radio Bari, Italian Wireless Propaganda in the Middle east and British Countermeasures, 1934-38,' in ***Middle Eastern Studies***, XII, 1977.

A. Mahafzah, ' La France et le movement nationaliste arabe de 1914 à 1950,' in ***Relations Internationales***, no.19, Automne 1979.

Ussama Makdisi, ***The Culture of sectarianism: Community, History, and Violence in Nineteenth- Century Ottoman Lebanon***, Berkeley 2000.

Chibli Mallat, ***Shi'i Thought from the South of Lebanon***, Centre of Lebanese Studies, Oxford 1988.

Neville Mandel, ***The Arabs and Zionism before World War I***, Berkeley 1976.

Moshe Ma'oz, Joseph Ginat, Onn Winckler, (eds.) ***Modern Syria: from Ottoman Rule to Pivotal Role in the Middle East***, Brighton 1999.

Farouk Mardam-Bey et Elias Sanbar, ***Etre Arabe***, Paris 2001.

Salma Mardam Bey, ***Syria's Quest for Independence 1939-1945***, Reading, 1994.

Philip Mattar, ***The Mufti of Jerusalem, Al-Hajj Amin al-Husayni and the Palestine National Movement***, New York 1988.

Mark Mazower, ***Salonica, City of Ghosts, Christians, Muslims and Jews***, London 2004.

Antoine Nasri Messarra, ***Le Modèle Politique Libanais et sa Survie***, Beirut 1983.

Nadine Méouchy (ed.), ***France, Syrie et Liban 1918-1946: les ambiguïtés et les dynamiques de la relation mandataire***, Damas 2002.

Nadine Méouchy and Peter Sluglett, ***The British and French Mandates in Comparative Perspectives***, Leiden 2004.

Franck Mermier, ***Le Livre et la Ville: Beyrouth et l'édition arabe***, Paris 2005.

Sabrina Mervin, ***Un Réformisme Chiite: Ulémas et lettrés du Jabal 'Amil de la fin de l'Empire ottoman à l'indépendance du Liban***, Paris 2000.

Jean-David Mizrahi, 'La France et sa politique du Mandat en Syrie et au Liban, 1920-1939,' in Nadine Méouchy (ed.), ***France, Syrie et Liban: les ambiguïtés et les dynamiques de la relation mandataire***, Damas 2002.

André Miquel, ***L'Islam et sa Civilisation***, Paris 1991.

Elisabeth Monroe, ***Britain's Moment in the Middle East***, London 1981.

Marie-Renée Mouton, 'Le Congrès syrio-palestinian de Genève (1921),' in ***Relations Internationals***, no. 19, automne 1979.

Muçafir, ***Notes sur la Jeune Turquie***, Paris 1911.

Muhammad Muslih, 'The Rise of Local Nationalism in the Arab East,' in Rashid Khalidi et al (eds.), ***The Origins of Arab Nationalism***, New York 1991.

Sir Louis Namier, ***Vanished Supremacies***, London 1962.

Jacques Nantet, ***Pierre Gemayel***, Paris 1986.

Albertos Nar, 'Social Organization and Activity of the Jewish Community in Thessaloniki,' in I.K. Hassiotis, ***Thessaloniki***, Athens 1997.

Nasser-Eddin Nashashibi, ***Jerusalem's Other Voices, Ragheb Nashashibi and Moderation in Palestinian Politics, 1920-1948***, Exeter 1990.

James Nicholson, 'The Hejaz Railway,' in ***Journal of the Society for Asian Affairs***, London, November 2006.

Francis R. Nicosia, ***The Third Reich and the Palestine Question***, Austin, Texas, 1985.

Roger Owen (ed.), ***Essays on the Crisis in Lebanon***, London 1976.

Ilan Pappé, ***The Making of the Arab-Israeli Conflict 1947-1951***, London 1994.

Ilan Pappé, ***A History of Modern Palestine: One Land, Two Peoples***, Cambridge 2004.

Ilan Pappé, ***The Ethnic Cleansing of Palestine***, Oxford 2006.

Ilan Pappé, 'The 1948 Ethnic Cleansing of Palestine,' in ***Journal of Palestine Studies***, 141, Vol. XXXVI, No. 1, Autumn 2006.

Laila Parsons, 'Soldiering for Arab Nationalism: Fawzi al-Qawuqji in Palestine,' in ***Journal of Palestine Studies***, 144, Vol. XXXVI, No. 4, Summer 2007.

Elizabeth Picard, ***Liban, état de discord: des foundations aux guerres fratricides***, Paris 1988.

Elizabeth Picard, ***Lebanon: A shattered Country***, London 2002.

Nadine Picaudou, ***La Déchirure Libanaise***, Paris 1989.

Nadine Picaudou, ***La décennie qui ébranla le Moyen-Orient 1914-1923***, Paris 1992.

Y. Porath, ***The Emergence of the Palestinian- Arab National Movement, 1918- 1929***, Frank Cass, London 1974.

Michael Provence, 'An Investigation into the Local Origins of the Great Revolt,' in Nandine Méouchy, ***France, Syrie et Liban, 1918- 1946, les ambiguïtés et les dynamiques de la relation mandataire***, Damas 2002.

Michael Provence, ***The Great Syrian Revolt and the Rise of Arab Nationalism,*** Austin 2005.

Edmond Rabbath, ***L'Evolution politique de la Syrie sous mandate***, Paris 1928.

Edmond Rabbath, ***La Formation Historique du Liban Politique et Constitutionnel***, Beirut 1973, (new edition 1986).

Itamar Rabinovich, ***The Road not Taken: Early Arab-Israeli Negotiations***, Oxford 1991.

Andrew Rathmell, ***Secret War in the Middle East: The Covert Struggle for Syria 1949- 1961***, London 1995.

André Raymond (ed.), ***La Syrie d'Aujourd'hui***, Paris 1980.

Eugene Rogan and Avi Shalim (eds.) ***Rewriting the Palestine War: 1948 and the History of the Arab-Israeli Conflict***, Cambridge 2001.

P.Rondot, ***Les Institutions Politiques du Liban***, Paris 1947.

P.Rondot, 'L'Expérience du Mandat français en Syrie et au Liban,' in ***Revue Générale de Droit International Public***, Paris 1948.

Aviel Roshwald, ***Estranged Bedfellows: Britain and France in the Middles East during the Second World War,*** Oxford 1990.

Nawaf Salam, La *Condition Libanaise: Communautés, citoyen, Etat*, Beirut 1998.

Nawaf Salam (ed.), ***Options for Lebanon***, London 2004.

Kamal S. Salibi, *Beirut under the Young Turks as Depicted in the Political Memoirs of Salim Ali. Salam*, Beirut 1974.

Kamal S. Salibi, 'The Lebanese Identity,' in ***The Journal of Contemporary History***, vol. 6, no.1, 1971.

Kamal S. Salibi, ***Lebanon and the Middle Eastern Question***, Centre for Lebanese Studies, Oxford 1988.

Kamal S. Salibi, ***A House of Many Mansions: The History of Lebanon Reconsidered,*** London 1988.

Elias Sanbar, ***Figures du Palestinien***, Paris 2004.

General M. Sarrail, ***Mon Commandement en Orient, 1916- 1918***, Paris 1920.

Yazid Sayigh, ***Armed Struggle and the Search of State: The Palestine National Movement, 1949- 1993***, Oxford 1997.

Linda Schatkowski-Schilcher, ***Families in Politics: Damascus Factions and Estates of the 18th and 19th Centuriues***, Stuttgart 1985.

Marius Schattner, ***Histoire de la droit en Israélienne de Jabotinsky à Shamir***, Brussels 1991.

Kirsten E. Schulze, ***Israel's Covert Diplomacy in Lebanon***, London 1998.

Patrick Seale, ***The Struggle for Syria: A Study of Post-War Arab Politics 1945- 1958***, Oxford 1965 (New edition London 1986).

Patrick Seale, ***Asad of Syria: The Struggle for the Middle East***, Berkeley, 1988.

Jacques Séguin, ***Le Liban Sud: espace périphérique, espace convoité***, Paris 1989.

Philippe Séguin, ***Louis Napoléon le Grand***, Paris 1990.

Samir Seikaly, 'Shukri al-'Asali: A Case Study of a political Activist,' in Rashid Khalidi et al (eds.) ***The Origins of Arab Nationalism***, New York 1991.

Samir Seikaly, 'Damascene Intellectual Life in the Opening Years of the 20th Century: Muhammad Kurd' Ali and the Muqtabas,' in Marwan R. Buheiry (Ed.), ***Intellectual Life in the Arab East, 1890-1939***, Beirut 1981.

Avrahem Sela, 'Transjordan, Israel and the 1948 War: Myth, Historiography and Relaity,' in ***Middle Eastern Studies***, vol. 28, no. 4 1992.

Nourrreddine Séoudi, *La Formation de l'Orient Arabe Contemporain 1916-1939: Au miroir de la* ***Revue des Deux Mondes***, Paris 2004.

Robert Wilson Seton-Watson, ***The Rise of Nationality in the Balkans***, London 1917.

Avi Shlaim, 'Husni Za'im and the Plan to Resettle Refugees,' in ***Journal of Palestine Studies***, vol. XV, no.4, 1986.

Avi Shlaim, ***The Politics of Partition: King Abdullah, the Zionists and Palestine 1921-1951***, Oxford 1990.

Avi Shlaim, ***The Iron Wall: Israel and the Arab World***, London 2000.

Elizabeth Sirriyeh, ***Sufi Visionary of Ottoman Damascus: 'Abd al-Ghani al-Nabulsi, 1641-1731***, London 2005.

Peter Sluglett, 'Will the Real Nationalists Stand up? The Political Activities of the Notables of Aleppo, 1918-1946,' in Nadine Méouchy (ed.), **France, Syrie et Liban, 1918- 1946:** ***les ambiguïtés et les dynamiques de la relation mandataire***, Damascus 2002.

Hilal- el-Solh, ***Lebanon and Arabism: National Identity and State Formation***, London 2004.

Raghid el-Solh, 'Sélim Takla et la Création de la Ligue Arabe,' in Gérard D. Khoury (ed.), ***Sélim Takla 1895-1945***, Paris 2004.

Edward Spears, ***Assignment to Catastrophe***, London 1956 (*Combining Prelude to Dunkerk and The Fall of France*, 1954.)

Major-General Sir Edward Spears, ***Fulfilment of a Mission: Syria and Lebanon 1941-1944***, London 1977.

Michael W. Suleiman, ***Political Parties in Lebanon: The Challenge of a Fragmented Political Culture***, New York 1967.

Christopher Sykes, ***Cross Roads to Israel***, London 1965.

Ahmad Tarabein, 'Abd al-Hamid al-Zahrawi: The Career and Thought of an Arab Nationalist,' in Rashid Khalidi et al (eds.), ***The Origins of Arab Nationalism***, New York 1991.

Eliezer Tauber, ***The Formation of Modern Syria and Lebanon***, London 1995.

Shabti Teveth, ***Ben Gurion and the Palestinian Arabs***, Oxford 1985.

Igor Timofeev, ***Kamal Joumblatt et le destin tragique du Liban***, Beirut 2000.

Fawwaz Trabulsi, ***A History of Modern Lebanon***, London 2007.

Charles Tripp, ***A History of Iraq***, Cambridge 2000.

Ghassan Tueini, ***Une Guerre pour les autres***, Paris 1985 (3rd ed. 2006).

Ghassan Tueini (Ed.), ***Le livre de l'Indépendence***, Beyrouth 2002.

Henri de Wailly, Syrie 1941: ***La Guerre Ocultée, Vichystes contre Gaullistes***, Paris 2006.

Keith David Waterpaugh, ***Being Modern in the Middle East: Revolution, Nationalism, Colonialism and the Arab Middle Class***, Princeton 2006.

N. Weinstock, Le ***Sionisme Contre Israel***, Paris 1969.

Maxime Weygand, ***Mémoires***, Tome III, *Rappelé au Service*, Paris 1950.

Ann Williams, ***Britain and France in the Middle East and North Africa 1914- 1967***, London 1968.

Meir Zamir, 'Emile Eddé and the Territorial Integrity of Lebanon,' in ***Middle Eastern Studies***, May 1978.

Meir Zamir, ***The Formation of Modern Lebanon***, New York, 1985.

Meir Zamir, ***Lebanon's Quest: The Road to Statehood 1926-1939***, London 1997.

Zeine N. Zeine, ***Arab-Turkish Relations and the Emergence of Arab Nationalism***, Beirut 1958.

Zeine N. Aeine, ***The Emergence of Arab Nationalism***, Beirut 1966.

Hanna Ziadeh, ***Sectarianism and Intercommunal Nation-Building in Lebanon***, London 2006.

Nicolas Ziadé, 'Beyrouth, des années soixante du XIXe siècle à 1908,' in Eyal Zisser, ***Lebanon: The Challenge of Independence***, London 2000.

Labib Zuwiyya Yamak, ***The Syrian Social Nationalist Party: An Ideological Analysis***, Harvard Univ., Center for Middle East Studies, 1966.

الفهرس

أبي شهلا، حبيب، 361، 500، 514، 528، 543، 693، 699

ت

خ

ض

ط

ع

لم نستطع الاتصال ببعض المصورين أو ورثتهم بالرغم من محاولاتنا القيام بذلك.
إلا أن المؤلف سيحترم حقوق أي شخص يستطيع تقديم دليل على أنه، أو أنها، يحمل حقوق نشر أية صورة فوتوغرافية ظهرت في هذا الكتاب.